دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة المجلد ٨

ترجمة الدكتور سامي الدروبي



دار ابن رشد



الاعمال الادبية الكاملة

المجلد الثامن

دوستويفسكي: الاعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلداً

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الاولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٣٣

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتوورك - ايطاليا ١٩٨٥

Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

الجَريمَة والعِقابُ

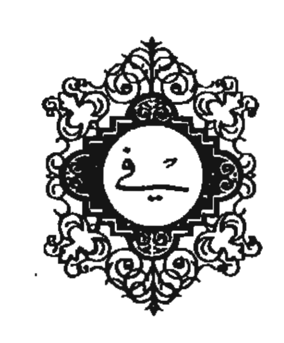
١

« الجريمة والعقاب » (Prestouplénié i nakazanié

ظهرت فى مجلة « الرسول الروسى » فى اعداد سنة ١٨٦٦ ، من كانون الثانى (يناير) الى كانون الأول (ديسمبر) ، المجلدات من ٦١ الى ٦٦ ٠

الجزء الأول

الفصل الأول



الأيام الأولى من شهر تموز (يوليو) ، أثناء حر شديد ، خرج شابٌ في نحو نهاية الأصيل ، خرج من الغرفة الصغيرة التي كان يسكنها في زقاق س ...* واتجه نحو جسر ك.. بطيء الخطى قلق الهيئة .

لقد أسعفه الحظ فأفلح أثناء هبوطه السلم أن يتحاشى لقاء صاحبة البيت التي يسكن عندها . ان الغرفة التي يسكنها الشاب تقع تحت السقف من منزل عال يتألف من أربعة طوابق * ، وهي أقرب الى جحر منها الى مسكن . وكانت صاحبة البيت التي تؤجره هذه الغرفة مع الطعام والخدمة تسكن هي نفسها في الطابق الأدنى ، فكان لا بد للشاب ، كلما خرج ، أن يمر حتماً أمام المطبخ الذي يظل بابه مفتوحاً على السلم دائماً . وكان الشاب يشعر في كل مرة أثناء مروره بضيق وحرج وانزعاج فيحس بالخجل والعار ، ويغدو قاتم النفس مظلم المزاج .

وليس مرد ذلك الى أنه جبان رعديد ، أو الى أنه مروّع مذعور ، بالعكس ... ولكنه يعاني منذ بعض الوقت حالةً من التوتر والعصبية توشك أن تكون مرض الكآبة . لقد بلغت حياته من الاعتزال ومن فرط الانطواء على النفس أنه يخشى لقاء أي انسان ، لا لقاءَ صاحبة البيت

فحسب • كان يعيش في فقر مدقع ، وبؤس شديد ، ولكن العوز نفسه أصبح في هذه الآونة الأخيرة لا يثقل عليه • أصبح الشاب لا يهتم بشئونه ولا يريد أن يهتم بها • والواقع أن صاحبة البيت كانت لا تخيفه ، مهما تكن المكائد التي تدبرها له • ولكن الوقوف على فسحة السلم ، والاصغاء الى ثرثرات سخيفة شتى عن ترهات لا تعنيه في قليل ولا كثير ، واحتمال التذكير الدائم المستمر ، الذي تصحبه تهديدات وشكاوى ، بضرورة مبادرته الى دفع الأجرة ، واضطراره الى اختلاق الحيل وانتحال الاعذار وتلفيق الأكاذيب ••• ولكن ذلك كله أصبح من الأمور التي لا يمكن أن يطيقها ، فهو يؤثر عليها أن يتسلل على السلم تسلل هرة ، وأن يفرّ دون أن يراه أحد •

على أن الخوف الذي شعر به هذه المرة من تصور أن دائنته قد تراه ، أدهشه هو نفسه منذ أصبح في الشارع •

حدّث نفسه يقول وهو يبتسم ابتسامة غريبة : « أأفكر في الاقدام على عمل مثل «ذلك» العمل، ثم أشعر بخوف لأمر تافه هذه التفاهة ؟ نعم، ان كل شيء موجود بين يدي الانسان، ومع ذلك يدع الانسان لكل شيء أن يمر تحت أنفه ••• وما ذلك الا أن الانسان جبان •• نعم ، هذه بديهية•• انه لمن الشائق أن تعرف ما الذي يخافه البشر أكثر مايخافون ••• ألا ان ما يخافه البشر أكثر ما يخافون هو أن يتقدموا خطوة الى أمام ، هو أن يقولوا كلمة شخصية • على أنني أسرف في الثرثرة كثيراً • واذا كنت لا أعمل شيئاً ، فلأنني أثرثر ••• أو قل على نحو أصح وأدق : اذا كنت أثرثر فلأنني لا أفعل شيئاً • ومع ذلك فأنا في هذه الأشهر الأخيرة انما تعلمت الثرثرة قابعاً في ركني أفكر ••• أفكر في كل شيء ولا أفكر في شيء • مثلاً : فيم أذهب الآن الى هناك ؟ أأنا قادر على أن أفعل « ذلك الأمر » ؟ هل « ذلك الأمر » جد حقاً ؟ لا ••• ما هو بالجد

البتة ! وانما هو نزوة خيال لا أكثر ! انني « أدغدغ » نفسي ملتمساً تسلية . نعم ، أعتقد اعتقاداً جازماً بأنني ألتمس لنفسي تسلية ... » .

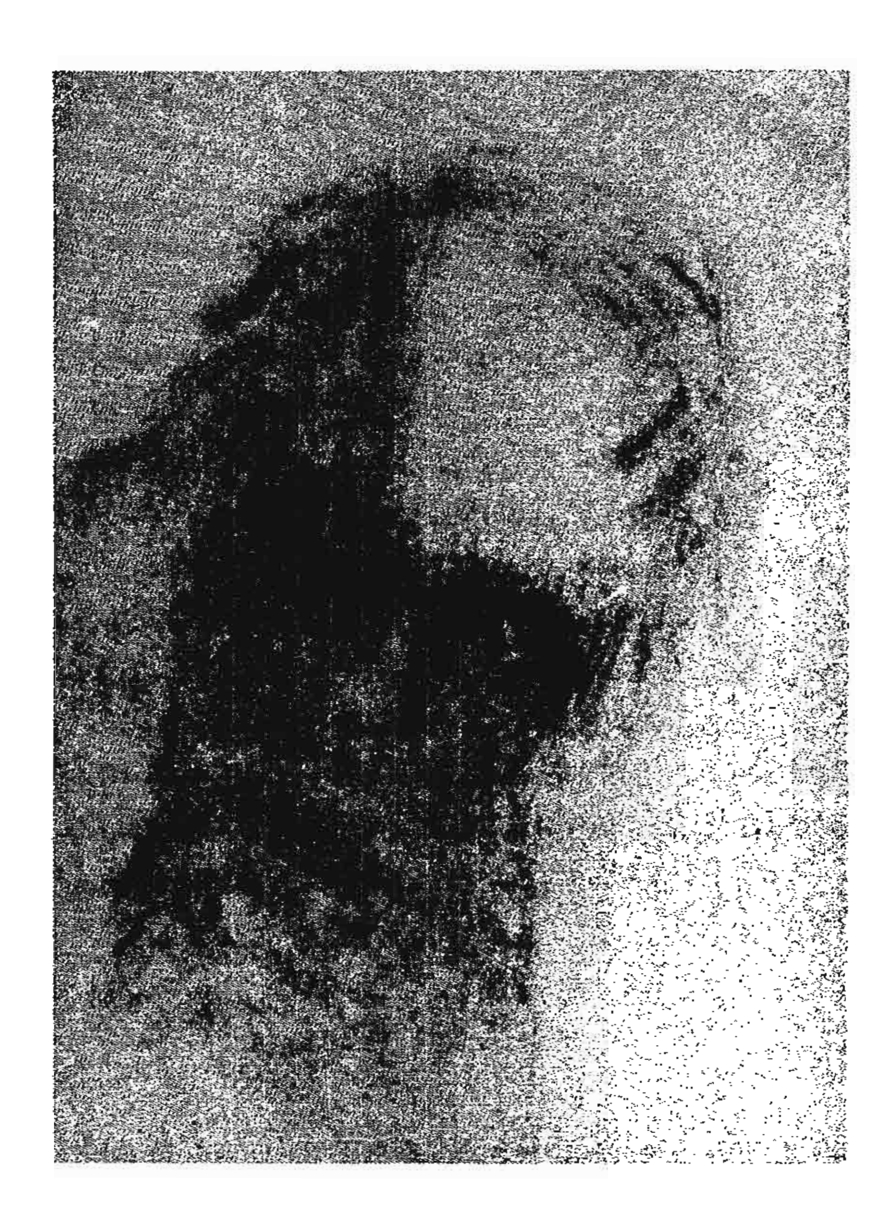
الحر في الشارع ما يزال مرهقاً . يضاف الى ذلك نقصُ الهواء ، والصخب ، والكلس المنتشر في كل مكان ، والسقالات ، والآجر ، والغبار ، ثم ذلك النتن الصيفي الخاص الذي يعرفه كل ساكن من سكان بطرسبرج لا تتيح له موارده أن يستأجر « فيللا » . ان اجتماع ذلك كله قد أثار أعصاب الشاب الذي كانت أعصابه مهتزة من قبل فاورثه مزيداً من الضيق . وهذه روائح كريهة تنشرها بقايا اسماك ، وهؤلاء سكارى يلقاهم المرء عند كل خطوة رغم أن اليوم ليس يوم الأحد بل هو يوم من أيام الأسبوع ، فتصطبغ اللوحة بلون حزين منفّر . ان شعوراً عميقاً بالاشمئزاز يرتسم على القسمات الدقيقة من وجه الشاب . والشاب حسن الصورة وسيم الطلعة ، له عينان دكناوان رائعتان ، وشعر أشقر ضارب الى لون كلون الرماد ، وقامة فوق الوسط طولاً ، نحيلة ممشوقة . ولكنه لا يلبث أن يبدو عليه الاسترسال العميق في الأحلام ، أو قل الانحدار الى نوع من الخدر . وظل يسير لا يرى من حوله شيئاً ، ولا يرغب في أن يرى أي شيء . كل ما هنالك أنه كان ، بين الفينة والفينة ، يستأنف محاورة نفسه ، جرياً على عادة وعاها الآن . وأدرك في تلك اللحظة نفسها أن خواطره وأفكاره تختلط وتضطرب من حين الى حين ، وأنه ضعيف جداً : انه لم يكد يطعم شيئاً منذ يومين .

وكان يرتدي ثياباً تبلغ من الرثاثة أن شخصاً آخر غيره كان لا بد أن يشعر بضيق وحرج ، مهما تكن عاداته المكتسبة ، اذا هو خرج في وضح النهار بمثل تلك الأسمال . الحق أن هذا الحيّ ليس من الأحياء التي يمكن أن يستغرب فيها الناس منظر رداء . ان هذا المكان القريب من « سوق العلف » * ، الذي تكثر فيه محالُّ من نوع خاص ، والذي يتألف سكانه

من صُنَّاع وعُمَّال متكدسين فى هذه الشوارع والأزقة من مركز بطرسبرج ، يشتمل على تنوع كبير فى الأفراد يُستغرب معه أن يُدهش أحد من شخص متفرد بعض التفرد • على أن نفس الشاب قد بلغت من فرط الامتلاء بالاحتقار الكاره أنه رغم ما يتصف به طبعه من شدة التاذى الذى يذكّر أحياناً بالأطفال الصغار ، كان لا يشعر بخجل كثير من عرض أسماله البالية فى الشارع • ولا كذلك اذا هو التقى بأشخاص يعرفهم أو برفاق قدامى لا يحب على وجه العموم أن يختلف اليهم •••

ومع ذلك حين أعول سكّير كان مقوداً (لا ندرى الى أين ولا لماذا) فى عربة كبيرة يجرها حصان قوى ، حين أعول هذا السكير على حين فجأة قائلاً بصوت مجلجل وهو يومىء اليه بيده : « هيه ، أنت يا صاحب القبعة الألمانى ! » ، فان الشاب توقف بغتةً ، وقبض على قبعته بحركة عصبية • هى قبعة عالية مشتراه من عند تسيمرمان * لكنها قد اهترأت اهتراءً تاماً ، واحمرّ لونها ، وغشيتها البقع وثقبتها الثقوب وزالت حافتها وانطوى أحد طرفيها حتى صار زاوية بشعة كريهة • على أن الشاب لم يشعر بخجل ، وانما استولت عليه عاطفة أخرى تشبه الهلع •

ودمدم يخاطب نفسه مضطرباً : « كنت أعرف هذا حق المعرفة •• قدّرته من قبل !••• ذلك أسوأ ما فى الأمر ! تكفى ترهة سخيفة من هذا النوع ، يكفى أمر تافه كهذا ، حتى يتعرض كل شىء للخطر ! نعم ، ان هذه القبعة صارخة ••• هى مضحكة ، وهى لذلك صارخة ••• ما دمت أرتدى هذه الأسمال البالية فلا بد لى من قلنسوة ، او من أية طاقية عتيقة • أما هذه القبعة الفظيعة فلا !••• ما من أحد يلبس قبعة كهذه القبعة • أنها تُرى من مسافة فرسخ كامل ••• ومن



راسکولنیکوف

رآها مرةً يتذكرها ولا ينساها ••• يتذكرها في المستقبل ••• فتكون هي الدليل القاطع ••• انني أحتاج الآن الى أن لا يتنبه اليَّ أحد ! ان الأشياء الصغيرة ، ان الأشياء الصغيرة هي التي لها أكبر شأن وأعظم خطر !••• هذه هي الحقيقة ، ان أشياء صغيرة كهذه القبعة هي التي تفسد كل شيء في آخر الأمر دائماً ••• » •

لم يكن طريقه طويلاً ، حتى لقد كان يعرف عدد الخطوات التي يجب أن يقطعها منذ يجتاز باب منزله : انها سبعمائة وثلاثون خطوة تماماً • لقد عدَّ هذه الخطوات ذات يوم من الأيام بعد أن أفرط في الاستسلام لأحلامه •

في ذلك الأوان لم يكن يصدِّق بعدُ أن هذه الأحلام واقعة ، وانما كان يروِّح عن نفسه بما تشتمل عليه تلك الأحلام من جرأة دنيئة فتانة في آن واحد • أما الآن ، بعد انقضاء شهر على ذلك الأوان ، فقد أخذ يرى الأمور رؤية مختلفة ؛ ورغم جميع المحاورات المحنقة التي كانت تجري بينه وبين نفسه ، والتي كان في أثنائها يعيب على نفسه ضعفه وتردده ، فانه قد اعتاد ، رغم ارادته تقريباً ، أن ينظر الى هذا « الحلم الدنيء » نظرته الى مشروع عليه أن ينفذه ، دون أن يزداد من ذلك ثقة بنفسه على كل حال • وهو الآن ذاهب لاجراء « تمرين » على ذلك الفعل الدنيء ، فاضطرابه يزداد قوة عند كل خطوة •

وفيما هو منهار القلب تسري في جسمه رعدة عصبية ، اقترب من مبنى ضخم يطل من احدى جهتيه على القناة ويطل من الجهة الأخرى على شارع س ••• ؛ ان هذا المنزل ، المقسَّم الى مساكن صغيرة ، يسكنه أناس من جميع الأنواع : خياطون ، وقفَّالون ، وطباخون ، وألمان مختلفون ، وشابات يعشن من جمالهن ، وموظفون صغار ، وهلمَّ جرا ••• ان الذهاب والأياب تحت قوسي مدخليه الكبيرين ، وفي فنائيه الواسعين ،

لا ينقطعان . وثمة بوابون ثلاثة أو أربعة يتولون أمره . فما كان أشدَّ سرور الفتى حين لم يلتق بأحد منهم. فلما اجتاز المدخل تسلل الى السلَّم الأيمن دون أن يراه أحد . ان هذا السلَّم ضيق ، مظلم ، « أسود » ، ولكن الشاب يعرفه فقد سبق أن درسه ؛ ثم ان هذا الجو يعجب الفتى ويرضيه ، فهو فى ظلام كهذا الظلام لايخشى أن تقع عليه نظرة مستطلعة. ومع ذلك قال الفتى لنفسه رغم ارادته حين وصل الى الطابق الثالث : « اذا كنت أشعر الآن بهذا الخوف كله ، فبماذا يمكن أن أشعر اذا اتفق أن مضيت الى « آخر الشوط » ؟ ... وهناك كانت تسدُّ طريقه صناديق وجنود سابقون كانوا يخلون أحد المساكن من أثاثه . كان الفتى يعرف من قبل أن موظفاً ألمانياً هو رب أسرة كان يقيم فى هذا المسكن حتى ذلك الحين . فقال لنفسه أيضاً قبل أن يقرع باب المرأة العجوز : « ان هذا الألمانى ذاهب اذن الآن ، فلا يبقى على الفسحة الثالثة من السلَّم ، خلال فترة من الوقت ، الا مسكن واحد مشغول هو مسكن المرأة العجوز . ذلك أمر تسرُّ معرفته ... حين تأزف الساعة » . ورنَّ الجرس رنيناً ضعيفاً كأنه من حديد أبيض لا من نحاس . ان الأجراس تكون دائماً من هذا النوع فى المساكن الصغيرة التى تتألف منها عمارة من هذا الطراز. وكان الشاب قد نسى صوت ذلك الجرس ، فاذا هو يحس هذا الصوت الآن تذكيراً مباغتاً بشىء تخيله واضحاً ... فارتعد . كان أعصابه فى هذه المرة منهكة . وبعد دقيقة شُقَّ الباب شقاً ضيقاً ، وأخذت ساكنة البيت تتفحص القادم الجديد ، من خلال هذا الشق ، بشك واضح وارتياب ظاهر . ان المرء لا يرى ، فى هذا الظلام ، الا عينيها الملتمعتين . ولكنها حين أبصرت على فسحة السلم ناساً كثيرين اطمأنت ففتحت الباب فتحاً كاملاً . اجتاز الفتى العتبة ، وولج حجرة المدخل التى يقطعها حاجز جُعل ما وراءه مطبخاً صغيراً . وقفت العجوز قبالته صامتة تحدجه بنظرة

سائلة . هي امرأة عجوز قصيرة جداً نحيلة جداً ، في نحو الستين من العمر ، لها عينان حادتان شريرتان ، وأنف صغير مدبّب . وكانت حاسرة الرأس ، فشعرها المكبب الأشيب يلتمع ببريق الزيت . وحول عنقها الطويل النحيل الذى يشبه ساق دجاجة ، كانت تلتف خرق مبهمة من قماش « الفلانيل » ، وعلى كتفيها يتدلى ، رغم الحر الشديد ، فراءٌ قد اصفرّ لونه وتنسّل وبره . وكانت العجوز تسعل وتخرج البلغم من حلقها في كل لحظة . وأغلب الظن أن الفتى ألقى عليها نظرةً خاصةً ، لأن الشك والارتياب عادا يظهران في عينيها .

تذكر الفتى فجأة أن عليه أن يكون لطيفاً ودوداً ، فأسرع يدمدم قائلاً للتعريف بنفسه وهو ينحني نصفين :

ـ راسكولنيكوف * ، طالب . جئت اليك في الشهر الماضي ...

فقاطعته العجوز تقول بصوت واضح متميز دون أن تحول نظرتها السائلة عن وجهه :

ـ أتذكر يا بني ، أتذكر جيداً أنك جئت ...

فتابع راسكولنيكوف كلامه وقد ساوره شيء من الدهشة والاضطراب حين لاحظ شك العجوز وارتيابها :

ـ فهأنا ذا أجيء اليك مرةً أخرى ... لأمر صغير من ذلك النوع نفسه ...

وحدث نفسه قائلاً وهو يشعر بضيق : « الحقيقة أنها ربما كانت هكذا دائماً ، ولكنني لم ألاحظ ذلك في المرة الماضية ! » .

وصمتت العجوز كأنما لتفكر ، ثم تنحت قليلاً ، وقالت للزائر وهي تدله على باب الغرفة وتتضاءل أمامه :

ـ تفضل ادخل يا بنى !

دخل الشاب غرفة صغيرة مفروشة الجدران بورق أصفر ، فيها أزهار جيرانيوم ، ولنوافذها ستائر من قماش الموصلين . وكانت الغرفة فى تلك اللحظة تضيئها أشعة الشمس الغاربة بنور ساطع . قال الفتى يحدث نفسه : « ماذا ؟ هل ستسطع الشمس اذن هذا السطوع « حينذاك » ؟ لقد اخترقت هذه الفكرة ذهن راسكولينكوف على غير علم منه ، فاذا هو يلف الغرفة كلها بنظرة سريعة ليدرس ترتيبها وليحفظه فى ذاكرته ان أمكن ذلك . ولكن هذه الغرفة لا تتميز كثيراً بصفات خاصة . ان أثاثها المصنوع من خشب أبيض على طراز عتيق ، يتألف من أريكة ذات مسند ضخم له أقواس ، ومنضدة بيضاوية الشكل موضوعة أمام الأريكة ، وكراسىّ مصفوفة على طول الجدران ، ولوحتين أو ثلاث لوحات لا قيمة لها ، موضوعة فى أطر مصفرّة ، تمثل آنسات ألمانيات فى أيديهن طيور . ذلك هو الأثاث كله . وفى ركن من الأركان ، أمام أيقونة صغيرة ، كان يسطع سراج صغير . والمكان كله تسوده نظافة قصوى . فالأثاث وأرض الغرفة قد دُلكت بالشمع فهى تلمع . قال الفتى يحدث نفسه : « هذا من عمل اليزابت ! » . ما كان لأحد أن يستطيع العثور على ذرة غبار واحدة فى المسكن كله . عاد راسكولنيكوف يحدث نفسه فقال : « لا يجد المرء نظافة كهذه النظافة الا عند الأرامل العجائز الشريرات » . قال ذلك والتفت ببصره خلسةً يستطلع ستارة من قماش تحجب باباً يصل هذه الغرفة بغرفة أخرى فيها سرير العجوز وخزانتها وهى غرفة لم يسبق له أن دخلها قط . ان المسكن كله لا يضم الا هاتين الغرفتين .

سألته العجوز القصيرة وهى تدخل الغرفة بعده وتقف مرة أخرى أمامه لتتفحصه وجهاً لوجه :

ـ ما هى الخدمة التى أستطيع أن أقدمها اليك ؟

قال الفتى :

ـ جئتك بشيء أريد أن أرهنه . هوذا ...

قال ذلك وأخرج من جيبه ساعة عتيقة مصنوعة من فضة ، رُسمت على غطائها الكرة الأرضية ، ولها سلسلة من فولاذ .

قالت المرأة العجوز :

ـ ولكن مدة رهنك الأول قد انتهت . انقضى على الرهن الأول شهر منذ ثلاثة أيام .

ـ سأدفع لك الفائدة عن شهر آخر . اصبرى علىّ .

قالت :

ـ أنا التى أقرر أأصبر أم أبيع الرهن الآن . هذا شأنى أنا يابنى.

ـ هـل تقرضيننى مبلغـاً كبيراً على رهن هذه السـاعة يا أليـونا ايفانوفنا ؟ * .

ـ انك تجيئنى دائماً باشياء صغيرة تافهة ليس لها قيمـة البتة ... لقد أقرضتك فى المرة الماضية روبلين على رهن خاتمك ، مع أن فى امكان اى انسان أن يشـترى من عند الصـائغ خاتماً جـديداً من نوعه بروبل ونصف روبل .

ـ أقرضينى أربعة روبلات على رهن الساعة . سأفكها قريباً ... ورثتها عن أبى . وسيصلنى مبلغ من المال بعد مدة قصيرة .

ـ أقرضك على رهنها روبلاً ونصفاً ، والفائدة تُدفع سلفاً .

صاح الفتى متعجباً :

ـ روبلاً ونصفاً ؟

ـ لا مساومة . اما أن تقبل واما أن ترفض .

قالت العجوز ذلك ومدَّت اليه الساعة ، فتناولها الفتى غاضباً حتى لقد همَّ أن ينصرف . ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك اذ تذكر أنه جاء لغرض آخر أيضاً .

قال بلهجة خشنة :

ـ هاتى !

فدست العجوز يدها فى جيبها لتخرج مفاتيحها ، ومضت الى الغرفه الأخرى وراء الستارة . فلما أصبح الفتى وحيداً وسط الغرفة ، أصاخ بسمعه مستطلعاً ، وأطلق العنان لخياله . سمعها تفتح الخزانة . قال يحدث نفسه : « أغلب الظن أنه الدُرْج الأعلى ... هى تحمل مفاتيحها اذن فى الجيب الأيمن ... والمفاتيح كلها كتلة واحدة تضمها حلقة من فولاذ ... وبين المفاتيح مفتاح مسنَّن الرأس أكبر من سائرها ثلاث مرات ، ولكن من الواضح أنه ليس مفتاح الخزانة ... اذن هناك أيضاً سحارة أو صندوق ... هذا أمر هام . ان لجميع الصناديق مفاتيح من هذا النوع ... على كل حال ، هذا كله كريه بشع ... » .

وعادت العجوز .

ـ خذ يا بنى . اذا كانت الفائدة عشرة كوبيكات عن كل روبل فى الشهر تُقتطع سلفاً ، فان الفائدة عن روبل ونصف روبل تكون خمسة عشر كوبكاً . يضاف الى ذلك عشرون كوبكاً عن الروبلين اللذين اقترضتهما فى المرة الماضية على أساس تلك الفائدة نفسها ، فيكون مجموع ما يجب اقتطاعه خمسة وثلاثين كوبكاً ، فيبقى لك عن رهن الساعة روبل وخمسة وعشر كوبكاً . اليك المبلغ .

ـ كيف ؟ ألا يبقى لى الا روبل وخمسة عشر كوبكاً ؟

ـ تماماً .

لم يناقشها الفتى ، وتناول المال. وكان ينظر الى العجوز ولايستعجل الخروج ، كانما كان يريد أن يقول شيئاً ، أو أن يفعل شيئاً ، دون أن يدرى ما هو هذا الشىء على وجه الدقة .

وقال لها أخيراً :

ـ ربما جئتك بشىء آخر فى الأيام القليلة القادمة يا أليونا ايفانوفنا ... هو شىء من فضة ... شىء ذو قيمة ... علبة سجائر ... نعم ، سأجيئك بعلبة سجائر متى ردّها الىّ صديق لى ...

واضطرب الفتى وصمت .

فقالت العجوز :

ـ طيب يا بنى ... سنتكلم فى الأمر فى حينه .

قال لها الفتى بلهجة منطلقة على قدر المستطاع ، وهو يتجه نحو حجرة المدخل :

ـ أستودعك الله ... أأنت اذن وحيدة فى البيت دائماً دون أن تكون أختك معك ؟

ـ فيم يعنيك هذا يا بنى ؟

ـ لا يعنينى فى شىء ... ألقيت السؤال هكذا ... دون هدف... فاذا أنت ، على الفور ... استودعك الله يا أليونا ايفانوفنا .

خرج راسكولنيكوف وهو فريسة اضطراب عميق ما ينفك يزداد ، حتى توقف عدة مرات مذهولاً أثناء هبوطه السلّم . فلما صار فى الشارع آخر الأمر هتف يقول :



العجوز المرابية

« آه ... رباه ! ما أبشع هذا كله ! هل يمكنني ، هل يمكنني حقاً أن ... » .

ثم أضاف يقول باقتناع :

« لا ... هذه حماقة ... هذه سخافه ... هل يمكن حقاً أن تكون فكرة شيطانيه كهذه الفكرة قد ساورت ذهني ؟ ما أقذر ما في قلبي اذن من وحل ! ثم ان هذا كله وسخ جداً ، مقزز جداً ، قذر جداً ! كيف أمكنني ، خلال شهر بكامله ، أن ... » .

ولكن الفتى لم يجد الكلمات ولا هتافات التعجب التي كان يمكن أن تعبر عن حالته العصبية الرهيبة . ان الاحساس بالاشمئزاز الذي لا نهاية له والذي كان قد بدأ يجثم على صدره ويقبض قلبه ويخنقه خنقاً أثناء ذهابه الى مسكن العجوز قد بلغ الآن أبعاداً عظيمة وأخذ يتجلى بعنف شديد حتى صار الفتى لا يعرف كيف يتخلص من هذه النازلة التي ألمت به وهذا الحزن الذي عصف بقلبه . كان يمشي على الرصيف كالسكران لا يلاحظ حتى المارة الذين كان يصطدم بهم . ولم يثب الى رشده الا في الشارع التالي . فلما نظر حواليه لاحظ أنه أمام خمارة ينزل اليها النازل على سلّم يؤدي من الرصيف الى القبو .

وفي تلك اللحظة نفسها كان يخرج من الخمارة سكرانان يسند كل منهما الآخر ، ويتبادلان الشتائم أثناء صعودهما السلّم . فلم يلبث راسكولنيكوف أن هبط الى الخمارة دون تردد . لم يسبق له أن دخل خمارة في يوم من الأيام ، ولكنه يشعر الآن بدوار في رأسه ؛ كما أن ظمأً لا يطاق كان يعذّبه . اشتهى أن يشرب بيرة باردة ، لا سيما وأنه كان يعزو ضعفه الى الجوع أيضاً . جلس في ركن مظلم قذر امام مائدة صغيرة متسخة بالدهن ، وطلب بيرة فشرب كأساً أولى بشراهة ، فلم يلبث أن

شعر بشيء من التخفف والراحة ، وأصبحت أفكاره أوضح . قال لنفسه وقد ارتد اليه الأمل : « ذلك كله سخافات ! لا داعي الى القلق ! هو انزعاج جسمي لا أكثر ! فما ان يشرب المرء كأساً من بيرة وما ان يأكل قطعة من بسكويت حتى يشتد فكره ويقوى ذهنه وتتضح أفكاره وتترسخ عزيمته . أوه ! ذلك كله باطل !... » . ولكن رغم بادرة الاستخفاف هذه ، كان راسكولنيكوف كمن تحرر الآن فجأة من حمل ثقيل : ها هو ذا شيء من فرح يتجلى منذ الآن في نظرته التي أخذت تطوف على الحضور بمودة وصداقة . ومع ذلك أحس ، حتى في تلك الدقيقة ، احساساً غامضاً بأن حالة التفاؤل التي صارت اليها نفسه حالة مرضية هي أيضاً .

لم يبق في الخمارة في تلك الساعة الا عدد قليل من الناس . فبعد السكرانين اللذين التقى بهما على السلّم خرجت من الخمارة ، دفعةً واحدةً ، عصبةٌ تتألف من خمسة شبان يجرون فتاة ومعهم أكورديون. فما ان انصرفوا حتى عاد الهدوء الى الخمارة ، فأصبح المرء يحس بحرية أكبر . لم يبق في القاعة الا شخص ثمل بعض الثمل ، جالسٌ أمام مائدته ، أغلب الظن أنه بائع ، ومعه رفيقه وهو رجل طويل سمين له لحية شائبة كان قد بلغ السكر منه كل مبلغ ، فهو غافٍ فوق دكة ، وهو يأخذ يصفق بأصابعه من حين الى حين كأنه يخرج من نومه على حين بغتة ، ويأخذ يباعد ذراعيه ، ويرجّح القسم الأسفل من جسمه، دون ان ينهض عن الدكة ، مدمدماً بكلام سخيف ، محاولاً أن يتذكر ابياتاً من الشعر من هذا النوع :

لاعبت زوجتي طوال السنة

لا .. عبت زوجتي طوا .. ل السنة

أو قائلاً بعد أن يستيقظ من جديد :

حين مررت بشارع بودياتشكايا *
التقيت بصديقتي القديمة الطيبة

ولكن لم يكن يشاركه أحد سعادته . حتى لقد كان رفيقه الصموت يرد على هذه الانفجارات باتخاذ وضع عدائي ريّاب . وكان هنالك رجل ثالث يدل مظهره على أنه موظف صغير محال على التقاعد . كان هذا الرجل منزوياً أمام كأسه يشرب من حين الى حين ، ويطوف ببصره على ما حوله ، وكان يبدو عليه أنه يعاني هو أيضاً حالة عصبية .

الفصل الثاني



يكن راسكولينكوف معتاداً صحبة الناس ، وكان كما سبق أن قلنا يتحاشى كل مجتمع ، ولاسيما منذ فترة من الوقت . غير أن شيئاً كان يجذبه الآن الى البشر على حين فجأة ، فكأن انقلاباً قد حدث فى نفسه ؛ وكان يشعر فى الوقت ذاته بشىء من الظمأ الى عقد الصلات بينه وبين أقرانه . ان ذلك الشهر الذى قضاه فى قلق محموم وغم ثقيل واهتياج كالح قد بلغ من استنفاد قواه أنه يتوق الآن الى استرداد أنفاسه ولو لحظةً من الزمن.، فى عالم آخر ، فى أى عالم آخر . لذلك شعر من بقائه الآن فى الخمارة بلذة كبيرة رغم رداءة المكان .

وكان صاحب الخمارة يجلس فى غرفة مجاورة ، ولكنه يظهر فى القاعة الرئيسية مرةً بعد مرة . وكان يصل الى هذه القاعة هابطاً بضع درجات ، فكان الجالس فى هذه القاعة يرى ، أول ما يرى ، جزمتيه الملمَّعتين اللتين لهما حافتان مقلوبتان حمراوان . وكان لا يضع رباط عنق ، ولكن ردنجوته يسفر عن صديرة سوداء من قماش الساتان قد بلغت من الاتساخ حداً رهيباً . أما وجهه فكان يلتمع من الدهن التماع قفل مزيَّت . ووراء البسطة كان يجلس صبى فى نحو الرابعة عشرة من العمر . وكان هنالك صبى آخر أصغر سناً ، يخدم الزبائن . وعلى

البسطة كانت تُعرض دوائر خيار ، وبسكويت أسود ، وشرائح سمك، وكان ذلك كله ينشر رائحة كريهة • الجو خانق لا يكاد يُطاق ، والهواء يبلغ من التشبع برائحة الخمرة أنه يكفى أن يمكث المرء فيه خمس دقائق حتى يسكر •

يتفق للمرء أحياناً أن يلقى أناساً لا يعرفهم البتة فاذا هو يأخذ يهتم بهم منذ أول نظرة قبل أن يبادلهم كلمةً واحدة • ذلك كان هو الاحساس الذى أحدثه فى راسكولنيكوف الزبون المنزوى الذى يدل مظهره على أنه موظف متقاعد • تذكر الفتى مراراً كثيرة ، فيما بعد ، ذلك الاحساس الأول ، حتى لقد عزاه الى نوعٍ من النبوءة • كان راسكولنيكوف لا يحوّل بصره عن الموظف ، ولعل مردّ ذلك أيضاً الى أن هذا الموظف كان يلح فى النظر الى راسكولنيكوف ، وكأنه راغب رغبة قوية فى عقد حديث معه • أما الأشخاص الحاضرون الآخر ، ومنهم صاحب الخمارة ، فقد كان الموظف ينظر اليهم نظرة جليس من جلساء الخمارة المزمنين، مع ضجر منهم ومع شىء من الاحتقار لهم والتعالى عليهم فى الوقت نفسه ، كأنه يعدهم أدنى كثيراً منه ، سواء من ناحية منزلتهم الاجتماعية أو من ناحية ثقافتهم وأدبهم ، فليس عليه أن يكلمهم. هو رجل تجاوز الخمسين من عمره ، متوسط القامة قوى البنية ، على راسه الأصلع قليل من شعر أبيض ، له وجه أصفر أو قل ضارب الى خضرة ، قد ورّمه الشراب ، تسطع فيه تحت جفنين منتفخين عينان صغيرتان محمرّتان حادتان • ومع ذلك كان فى هذا الوجه شىء غريب جداً • ان نظرته تلتمع بنوع من الحماسة لا تخلو خلواً مطلقاً من ذكاء وفكر ؛ ولكن تلم بها ومضات جنون فى بعض الأحيان • وكان يرتدى «فراكاً» عتيقاً رثاً قد سقطت ازراره ، الا زراً واحداً ما يزال فى مكانه مهلهلاً يوشك أن يسقط ، ولكن الرجل قد أدخله فى العروة حتى لا يجافى آداب

اللياقة، ومن صديرته المصنوعة من جوخ أصفر كانت تخرج حافة قميص مجعَّدة متسخة ملطخة . وكان حليق الذقن ، كما يليق بموظف ، ولكن كان واضحاً أنه لم يكرر حلاقة ذقنه منذ مدة طويلة ، فشعرها القاسي قد أخذ يزرّق خديه . هذا عدا أن وضعه يكشف عن شيء من وقار هو ما يتميز به موظف من الموظفين . ولكنه كان يظهر قلقاً شديداً ، وينفش شعره ، ويضغط رأسه بيديه حزيناً يائساً ، واضعاً كوعي كميه المثقوبين على المائدة الرطبة اللزجة . وفي النهاية نظر الى راسكولنيكوف محدقاً في عينيه ، وقال يخاطبه بصوت عال ثابت :

ـ هل أجرؤ ، أيها السيد العزيز ، أن أوجه اليك بضع كلمات باحترام ؟ فان تجربتي تكشف فيك ، رغم مظهرك البسيط المتواضع ، عن انسان حسنت ثقافته ، ولم يألف أن يشرب . لقد كنت طوال حياتي احترم الثقافة حين تقترن بعواطف القلب . وأنا عدا ذلك أحمل لقب مستشار . اسمي مارميلادوف ، ولقبي مستشار * . أأجرؤ أن أسألك هل أنت موظف ؟

أجابه الفتى وقد أدهشته هذه اللهجة المنتفخة في كلام الرجل ، وأدهشه أن يخاطَب عن عمد على هذا النحو :

ـ بل أنا أتابع دراستي .

وشعر راسكولنيكوف ، رغم ما أحسَّه منذ قليل من رغبة في صحبة أي انسان ، شعر فجأة منذ الكلمات الأولى التي خاطبه بها الرجل ، بذلك النفور الأليم الذي كان يشعر به كلما قاربه انسان مجهول أو حاول أن يقاربه .

ـ أنت اذن طالب ، أو طالب سابق ... ذلك ما قدَّرته ! هي التجربة يا سيدي العزيز ، تجربة طويلة متصلة !

ومن أجل أن يعبّر عن احترامه لنفاذ بصيرته وسداد حكمه ، وضع اصبعاً على جبهته .

وأردف يقول :

ـ لقد كنتَ طالباً ، الا أن تكون قد حضرت عدداً محدوداً من الدروس فحسب ... ولكن اسمح لى ...

ونهض مترنحاً ، فتناول زجاجته وقدحه وجاء يجلس قرب راسكولنيكوف مواربا قليلاً . لقد كان سكران . ولكنه يتكلم بوضوح وثقة . كل ما هنالك أنه يرتبك من حين الى حين ، فيبطؤ تدفق كلامه . لقد هجم على راسكولنيكوف هجوماً يبلغ من الشراهه أن من يراه يعتقد أنه لم يكلم أحداً منذ شهر كامل هو أيضاً .

بدأ يقول بلهجة توشك أن تكون ذات أبهة :

ـ أيها السيد العزيز ، ليس الفقر رذيلة ؛ ولا الادمان على السكر فضيلة ، أنا أعرف ذلك أيضاً . ولكن البؤس رذيلة أيها السيد العزيز ، البؤس رذيلة . يستطيع المرء فى الفقر أن يظل محافظاً على نبل عواطفه الفطرية ، أما فى البؤس فلا يستطيع ذلك يوماً ، وما من أحد يستطيعه قط . اذا كنت فى البؤس فانك لا تُطرد من مجتمع البشر ضرباً بالعصا ، بل تُطرد منه ضرباً بالمكنسة ، بغية اذلالك مزيداً من الاذلال . والناس على حق فى ذلك ، لأنك فى البؤس أول من يريد هذا الذل لنفسه بنفسه . وهذا سبب ادمانك على الشراب ! أيها السيد العزيز ، منذ شهر ، ضرب السيد ليبزياتنيكوف زوجتى ، وزوجتى تختلف عنى اختلافاً كبيراً ! هل تفهم ؟ اسمح لى أيضاً أن ألقى عليك سؤالاً ، هكذا ، ولو من باب الفضول : هل حدث لك أن قضيت الليل فى مركب علف على نهر نيفا ؟



مارميلادوف

أجاب راسكولنيكوف

ـ لا ... لم يحدث لي هذا ... ماذا تريد أن تقول ؟

ـ أما أنا فانني آتٍ من هناك ، من مركب العلف ... وهذه هي الليلة الخامسة .

قال الرجل ذلك وصبَّ قدحاً ثم أفرغه في جوفه وأخذ يفكر .

وكان يُرى فعلاً ، هنا وهناك ، على ملابسه ، وحتى على شعره ، تبنٌ ما يزال عالقاً . أغلب الظن لم يخلع ملابسه ولا غسل وجهه منذ خمسة أيام . وكانت يداه خاصةً قذرتين وسختين حمراوين طويلة أظافرهما .

ويبدو أن كلامه قد ايقظ في نفوس الحضور اهتماماً عاماً ، وان يكن هذا الاهتمام ممتزجاً بالاهمال . أخذ الصبيَّان ، من وراء البسطة ، يضحكان . ونزل صاحب الخمارة من الطابق الأعلى خصيصاً ، من أجل أن يستمع للرجل « المازح » ، فجلس منزوياً بعض الانزواء ، وأخذ يتثاءب في كسل ، ولكن بكثير من الوقار والكبرياء . لا شك أن مارميلادوف معروف هنا منذ زمن طويل . وأغلب الظن من جهة أخرى أنه قد اعتاد حب الكلام المزوَّق في أعقاب أحاديث ألف أن يجريها في الخمارة مع أناس لا يعرفهم . ان هذه العادة تغدو حاجة قوية لدى بعض السكِّيرين ، ولا سيما لدى أولئك الذين يعامَلون في بيوتهم معاملة خشنة . لذلك تراهم يحاولون متى سكروا في صحبة الناس أن يدافعوا عن أنفسهم بخطب ، وأن يكسبوا اعتبار الآخرين اذا استطاعوا الى ذلك سبيلاً .

قال صاحب الخمارة بصوت عالٍ :

ـ ما أنت الا مازح ! لماذا لا تعمل ؟ ولماذا لا تواظب على عملك ما دمت موظفاً ؟

أجاب مارميلادوف يقول مخاطباً راسكولنيكوف وحده ، كأن راسكولنيكوف هو الذى ألقى السؤال :

ـ لماذا لا أواظب على عملى أيها السيد العزيز ؟ لماذا لا أواظب على عملى ؟ ولكن هل تظن أن قلبى لا يتألم لمنظر خستى ، هل تظن أن قلبى لا يتألم حين أرى أننى امرؤ لا نفع فيه ولا جدوى منه ؟ حين حدث منذ شهر أن ضرب السيد ليزياتنيكوف زوجتى ، وكنت أنا راقداً كالميت من فرط السكر ، هل تظن أننى لم أتألم ؟ اسمح لى أيها الفتى ، هل اتفق لك ... هِمْ ... نعم ... هل اتفق لك مثلاً أن طلبت من أحد أن يقرضك مالاً دون أن يكون لديك أمل ؟

ـ وقع لى هذا ... ولكن ماذا تعنى بقولك : « دون أن يكون لديك أمل » ؟ ...

ـ أعنى دون أن يكون لديك أى أمل ، فأنت تعلم سلفاً أن طلبك لن يثمر شيئاً !... مثلاً : أنت تعلم سلفاً على وجه اليقين أن هذا المواطن مهما يكن صالحاً ومهما تكن نياته حسنة لن يعطيك المال بحال من الأحوال ... ولماذا عساه يعطيك مالاً ما دام يعرف أنك لن ترده اليه ؟ أمن باب الشفقة ؟ ان السيد ليزياتنيكوف ، وهو مطلع على الأفكار الجديدة والآراء الحديثة ، قد شرح فى الآونة الأخيرة أن الشفقة فى أيامنا هذه يحظرها العلم ، وأن الأمور تجرى على هذا النحو منذ الآن فى بلاد الانجليز التى يسودها الاقتصاد السياسى . فلماذا عساه يعطيك مالاً ؟ ومع ذلك ، رغم علمك سلفاً بأنه لن يعطيك مالاً ، فانك تمضى اليه ، و..

قال راسكولنيكوف :

ـ ولماذا تمضي اليه ؟

ـ كيف لا أمضي اليه اذا لم يكن هناك أحـد غيره ، واذا لم يكن هناك مكان آخـر أذهب اليه ! لا بد لكل انسـان من أن يجد ولو مكاناً يذهب اليه ، لأن الانسان تمر به لحظات لا مناص له فيها من الذهاب الى مكان ما ، الى أي مكان ! حين ذهبت ابنتي الوحيدة ، أولَ مرة ، للحصول على بطاقتها الصفراء * ذهبت أنا أيضاً ...

وأضاف مارميلادوف يقـول مستطرداً وهو ينظر الى الشـاب بشيء من القلق :

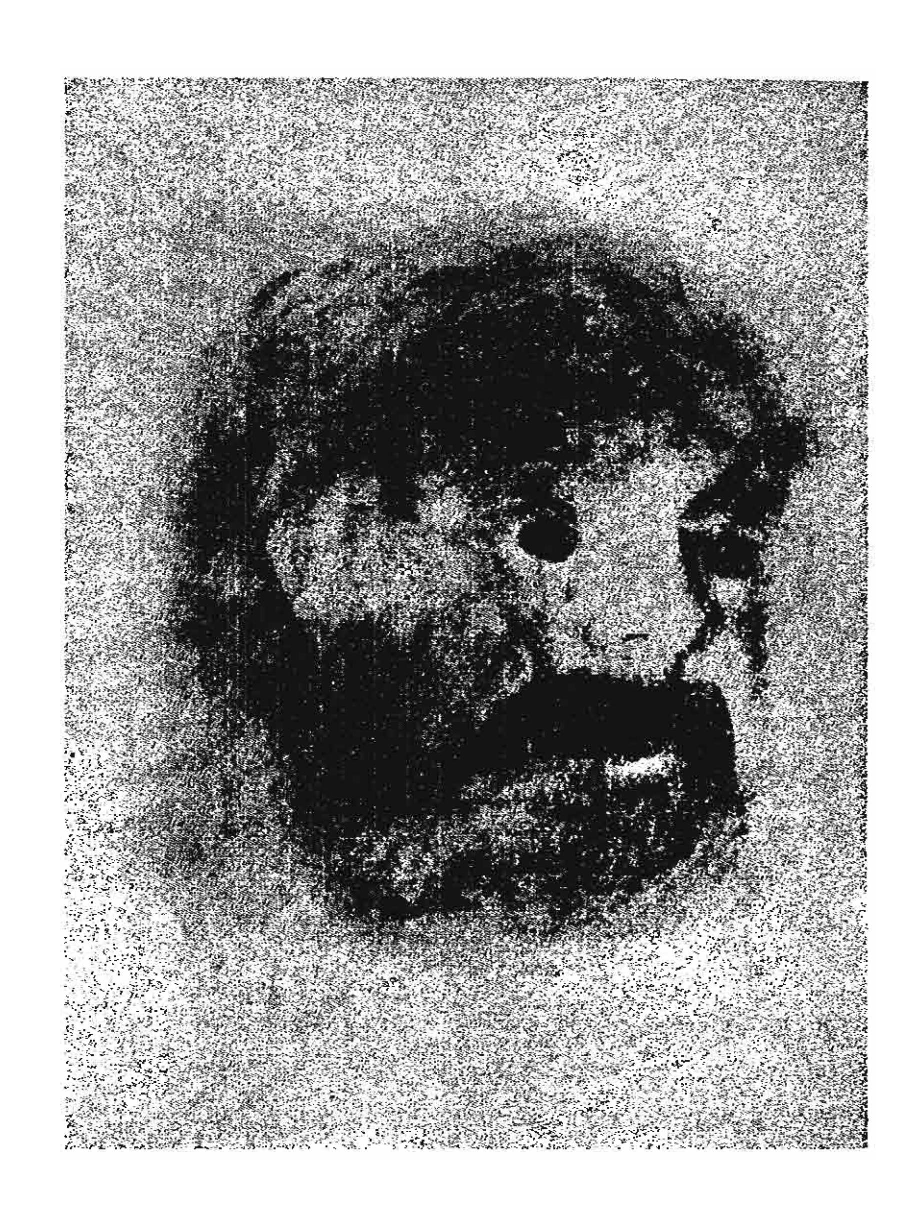
ـ ذلك أن ابنتي لها بطاقة .

وضج الصبيان بالضحك من وراء البسطة ، وابتسم صاحب الخمارة، فأسرع مارميلادوف يقول فوراً وهو يصطنع الهدوء :

ـ لا بأس يا سيدي ، لا بأس ... لا بأس ... ان هزَّهم رءوسهم لا يبث الاضـطراب في نفسي ، لأن الأمر أصـبح معـروفاً لدى جميع الناس . نعم : كل خبيء مآله الى ظهور *. وأنا لا أتعامل مع هذه الأشياء باحتقار بل بجذلة . طيب ... طيب ... « هذا هو الانسـان ! » ... اسمح لي أيها الفتى : هل تستطيع ... لا ... ... يجب أن ألقي عليك هذا السؤال بقوة أكبر ، بطريقة أبلغ دلالة وأصـدق تعبيراً ، يجب أن لا أقول « هل تستطيع » ، بل يجب أن أقول « هل تجرؤ أن تؤكد حين تتأملني في هذه اللحظة ، أنني لست خنزيراً » ؟

لم يجب الشاب بكلمة .

وتابع الخطيب كلامه دون اضطراب بل وبمزيد من الرصانة ، بعد أن انتظر انتهاء القهقهات التي أثارتها أقواله الأخيرة ، تابع كلامه فقال :



صاحب الخمارة

ـ طيب ... فلنسلم بأننى أنا خنزير ، ولكنها هى سيدة ! حقاً اننى أشبه «الوحش» * كل الشبه ، ولكن زوجتى كاترين ايفانوفنا انسانة تملك حظاً عظيماً من الثقافة ، هذا عدا أنها ابنة ضابط كبير . لنسلم ، لنسلّم باننى وغد دنىء ، ولكنها هى ذات نفس كبيرة وروح جميلة ، ولها بحكم تربيتها ونشأتها عواطف نبيلة ومشاعر كريمة . ومع ذلك ... آه ... ليتها تشفق علىّ ! سيدى العزيز ، سيدى العزيز ، لا بد لكل انسان من أن يجد أيضاً ، فى مكان ما على الأقل ، شخصاً يشفق عليه ! ولكن كاترين ايفانوفنا ظالمة ، رغم أنها سيدة تفيض نفسها عظمة . ورغم أننى أفهم أنا نفسى ، حين تضربنى ، أنها انما تضربنى شفقة علىّ ورأفة بى . لست أخجل من أن أكرر أيها الفتى أنها تضربنى (كذلك أكد مارميلادوف بمزيد من الرصانة حين سمع انفجار القهقهات من جديد) ، فاننى أتمنى ، يارب ، أن يتفق لها مرةً واحدة أن ... ولكن لا ، لا ، هذا كله لا فائدة منه ، ولا طائل تحته ، ولا يستحق أن أتكلم عنه ! لا يستحق ! ... ذلك أنهم لم يشفقوا علىّ مرةً واحدة ، مرة واحدة . ولكن هذه طبيعتى أيضاً . نعم ، اننى انسان فُطر على الغلظة والفظاظة .

ـ جداً !

كذلك قال صاحب الحمارة متثائباً .

فضرب مارميلادوف المائدة بقبضة يده ضربة قوية ، وقال :

ـ هذه هى طبيعتى ! هل تعلم ، هل تعلم أيها السيد أننى شربت خمراً حتى بثمن جوربيها ؟ لا بثمن حذاءيها ، فلو قد شربت خمراً بثمن حذاءيها لكان الأمر طبيعياً بعض الشىء ، ولكننى شربت خمراً بثمن جوربيها ، نعم بثمن جوربيها ! حتى وشاحها الصغير المصنوع من شعر

الماعز ، بعته أيضاً وشربت بثمنه خمراً ، وكان قد أهدى اليها «من قبل» ، فهو ملكها ، ملكها هى ، لا ملكى أنا • ونحن نعيش فى غـرفة باردة ، وقد مرضت فى هذا الشتاء ، وأخذت تسـعل ، حتى أنها تبصق دماً منذ الآن ••• ولنا ثلاثة أولاد ؛ ان كاترين ايفانوفنا تعمل من الصباح الى المساء : تمسح وتغسل ، وتنظف الأولاد ! ذلك أنها معتادة على النظافة منذ صغرها • ان رئتيها ضعيفتان ، وانها مهيأة للاصابة بمرض السل ، أنا أحس هذا • أأنا لا أحس هذا ؟ بالعكس ، كلما شربت مزيداً من الخمرة ، أحسست به مزيداً من الاحسـاس • نعم ، اذا كنت أشرب ، فانما أنا أشرب سعياً وراء الشـفقة ، وراء العاطفة • أنا أشرب لأتألم ألماً مضاعفاً •••

قال مارميلادوف ذلك ، وأسند رأسه على المائدة وقد عبَّر وجهه عن غاية الحزن والكرب • ثم عاد ينتصب ليكمل كلامه قائلاً :

ـ أيها الفتى ، أحسب أننى أقرأ فى وجهك حزناً • ولقد قرأت هذا الحزن فى وجهك منذ دخولك ، لذلك سارعت أخاطبك • فاذا كنت أنقل اليك قصـة حيـاتى ، فاننى لا أفعل ذلك لأحقِّر نفسى أمام هؤلاء الكسالى الذين يعـرفون منها الكثير على كل حـال ، بل لأننى أبحث عن انسان حساس كريم النفس حسن التربية • اعلم أن زوجتى قد تربت فى مدرسة داخلية ارسـتقراطية بالأقاليم ، وأنها حين تخرجها من تلك المدرسة قد رقصت رقصة الشال * أمام الحاكم وشخصيات أخرى ، وأنها قد نالت على ذلك وساماً ذهبياً * وشهادة فخرية ••• فأما الوسام فقد بعناه أيضاً ••• منذ زمن طويل ••• هِمْ ••• وأما الشهادة الفخرية فهى ترقد حتى الآن فى صندوق ، وقد حرصت كاترين ايفانوفنا على أن تريها صاحبةَ البيت ••• نعم ••• فرغم أن بينها وبين صاحبة البيت مشاجرات مسـتمرة ، فقد راودتها الرغبـة فى أن تعتز أمام شخص ما ، أن تذكِّر

شخصاً ما بالأيام الجميلة من ماضيها . لست ألومهـا على ذلك ، لست ألومها ، لأن هـذه الذكرى هي كل ما تملكه الآن ، أما الباقي فقد طار كله ! نعم ... ان زوجتي سريعة الغضب ، شـديدة الكبرياء ، صـعبة المراس . انها تغسل أرض الغرفة بيديها ، وتكتفي بخبز أسود ، ولكنها لاتسمح أن ينتقص أحد من احترامها . ذلك هو السبب في أنها لم تشأ أن تسـكت للسـيد ليبزياتنيكوف عن فظاظته ، فلمـا ضربهـا لذلك ، فانها لم تمـرض بسبب الضربات التي كالهـا لهـا بل بسبب الاسـاءة التي لحقت كرامتها . لقد تزوجتها أرمل ذات أولاد هم جميعاً صغار .

كانت قد تزوجت مرةً أولى عن حب ، تزوجت ضابط مدفعية هربت معه من منزل أبيها . كانت تحب زوجها حباً عنيفاً ، ولكن زوجها اندفع في المقامرة ، وأحيل الى المحاكمة فمات . وكان في المدة الأخيرة بضربها ، ورغم أنها كانت لا تسـكت له عن شيء ـ وهذا ما أعـرفه من وثائق مفصَّلة يُركن اليها ـ فانها ما تزال تبكي حين تتذكره ، وتعيِّرني بالمقارنة بيني وبينه . وأنا أبتهج بهذا ، ابتهج به ، فبهذه الطريقة تعتقد على الأقل أنهـا كانت سـعيدة في يوم من الأيام ... وبعد موت زوجها بقيت وحيدة مع أولادها الثلاثة في مقاطعة نائية متوحشة كنت أعيش أنا فيها أثناء ذلك الوقت . كانت في بؤس يبلغ من الهول أنني لن أستطيع أن أصفه لك اذا أنا حاولت ذلك ، رغم أنني قد عانيت أنا نفسي أنواعاً كثيرة من البؤس . جميع أفراد أسرتها أداروا لها ظهورهم . وكانت هي شديدة الكبرياء ... وفي ذلك الوقت ، يا سيدي العزيز ، انما طلبت أنا يدها ، وكنت أرمل أيضاً ، لي من امرأتي الأولى بنت في الرابعة عشرة من عمرها ... طلبت يدها لأنني لم أكن أستطيع أن احتمل عذاباً كذلك العذاب . في وسعك أن تتخيل درجة الحزن الذي لا بد أنها كانت تعانيه حين ارتضت ، هي المرأة المثقفة التي تربت أحسن تربية والتي تنتمي الى

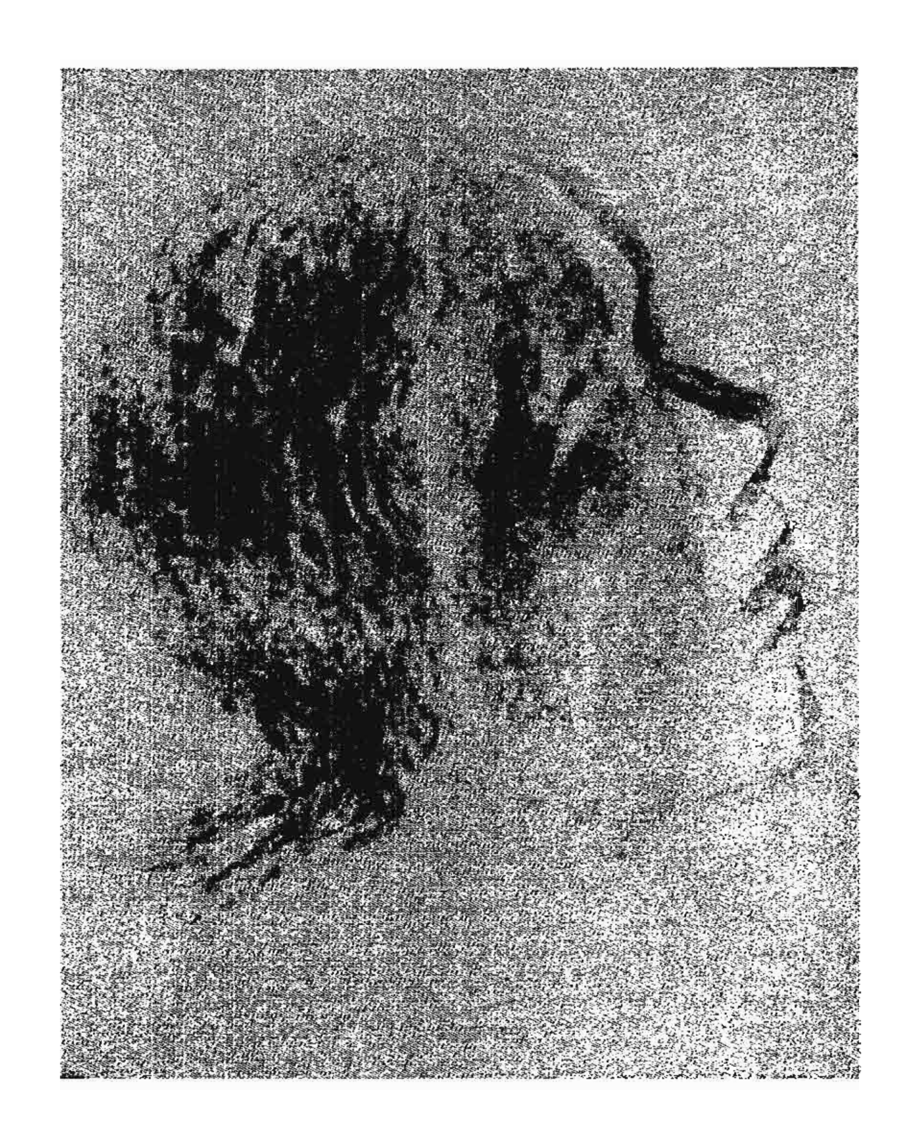


كاترين ايفانوفنا التى تزوجت
الموظف مارميلادوف

أسرة مرموقة ، حين ارتضت أن تتزوجني ! صحيح أنها وافقت على ذلك باكيةً منتحبة عاقفة يديها من الحسرة والحزن ، ولكنها تزوجتني ، لأنها كانت لا تعرف الى أين تذهب ! هل تدرك يا سيدي العزيز ، هل تدرك ما معنى أن لا يعرف الانسان الى أين يذهب ؟ لا ، انك لا تستطيع أن تدرك هذا بعد ... وخلال سنة كاملة ظللت أقوم بواجبي بشرف وأمانه واخلاص ، دون أن أقارب هذه (هنا أشار مارميلادوف باصبعه الى الزجاجة) ، لانني انسان ذو عاطفة . ولكنني بهذا أيضاً لم أستطع أن أفوز برضاها . واذ فقدت أثناء ذلك وظيفتي أيضاً ، دون أن يكون لي في هذا ذنب على كل حال ، وانما كان فقدي وظيفتي نتيجةً لتغييرات في هيئة الموظفين ، فقد أخذت ألامس هذه !... ومنذ سنة ونصف تقريباً انما هبطنا ، بعد ترحال كثير ومصائب لا حصر لها ، انما هبطنا هذه العاصمة الرائعة ذات المباني التاريخية التي لا يُحصى عددها . وهنا عثرت على وظيفة. عثرت عليها ثم فقدتها من جديد. هل تفهم ؟ لقد كان الذنب في فقدها هذه المرة ذنبي أنا ، لأن طبيعتي الحقيقية قد انتصرت... ونحن نقيم الآن في ركن من بيت امرأة اسمها آماليا فيودوروفنا ليبكسل ، أما ممَّ نعيش وكيف ندفع أجرة المسكن ، فذلك ما لا أعرف عنه شيئاً ! وفي المسكن يقيم أناس كثيرون غيرنا .. نحن في سودوم فظيعة ... هم ... نعم !... وفي أثناء ذلك كانت بنتي من زواجي الأول تكبر . لن أحدثك عن المعاملة التي تحملتها ابنتي من زوجة أبيها . ان كاترين ايفانوفنا شديدة الغضب ، عنيفة ، سريعة الاندفاع ، رغم أن نفسها تفيض بالمشاعر النبيلة ! ... نعم ! دعنا من هذا على كل حال . ما فائدة تذكُّر هذه الأمور الآن ! تستطيع أن تتخيل طبعاً أن ابنتي صونيا لم تصب حظاً من تعليم . صحيح أنني حاولت ، منذ أربع سنين ، أن

أعلّمها الجغرافيا والتاريخ العام ، ولكنني لم أكن قوياً في هذا الميدان ، وكانت تعوزني الكتب المناسبة من جهة أخرى ، فان الكتب القليلة التي كنت أملكها ... هم ... أصبحت لا أملكها ... لذلك توقفت دراسة ابنتي ... وصلنا الى الحديث عن سيروس ، ملك الفرس ... وبعد ذلك ، حين بلغت ابنتي سن الرشد ، قرأت بعض الكتب الروائية ، ثم قرأت في الآونة الأخيرة ، بواسطة السيد ليبزياتنيكوف ، كتاب ليويس * « الفزيولوجيا » ، هل تعرف هذا الكتاب ؟ قرأته ابنتي بكثير من الاهتمام، حتى لقد قرأت لنا فقرات منه بصوت عال . ذلك هو كل ما حصلته ابنتي صونيا * من تعليم. والآن أتوجه اليك ياسيدي العزيز ، فألقي عليك هذا السؤال بصفة شخصية تماماً : هل تستطع فتاة فقيرة لكنها شريفة ، هل تستطيع في رأيك أن تكسب مالاً كثيراً ؟ انها لن تكسب خمسة عشر كوبكاً في اليوم ، اذا هي كانت شريفة واذا هي لم تملك أية هبة خاصة ، وهذا على شرط أن لا تترك العمل دقيقة واحدة أيضاً . ثم ان مستشار الدولة* كلوبستوك ، ايفان ايفانوفتش كلوبستوك ـ هل‌سمعت عنه؟ ـ لم يكتف بأن لا يدفع لها أجرها عن خمسة عشر قميصاً خاطتها له من حرير هولاندي ، بل زاد على ذلك فطردها شرّ طردة وهو يقرع الأرض بقدمه ويصفها بأبشع النعوت ، بحجة أن احدى الياقات لم تكن على قياس عنقه ، وأنها قصّتها مقلوبة . والصغار في أثناء ذلك جائعون .. وكاترين ايفانوفنا في أثناء ذلك تمشي في الغرفة ذاهبة آيبة ، عاقفة يديها ، وقد أخذت البقع الحمراء تظهر على خديها ، كما يحدث ذلك دائماً للمصابين بهذا المرض . قالت كاترين ايفانوفنا لابنتي صوفيا : « كسلانة ، انك لا تزيدين هنا على أن تملئي بطنك طعاماً وشراباً ! » . كأن المسكينة قد أتيح لها أن تأكل وأن تشرب ، مع أنها لم تكن قد وضعت في فمها كسرة خبز منذ ثلاثة أيام ! وكنت أنا راقداً ... نعم ... فعلاً ...

كنت راقداً كالميت من فرط السكر ••• وهأنا ذا أسمع ابنتى صونيا تتكلم (انها عزلاء لا تملك عن نفسها دفاعا ••• ما اعذب صوتها ••• هى شقراء كل الشقرة ••• ووجهها شديد الشحوب والنحول دائما) قالت : « أحقاً يا كاترين ايفانوفنا ، أحقاً تريدين ان ا عد نفسى لمثل هذا الأمر ؟ » • والموضوع أن داريا فرانتسوفنا ، وهى امرأة سيئة النيات تعرفها الشرطة جيداً ، كانت قد استعلمت عن صونيا ثلاث مرات بواسطة صاحبة البيت • أجابت كاترين ايفانوفنا وهى تضحك ساخرة : « هه : ألا ان كنزاً كهذا الكنز ليستحق أن تحافظى عليه ! » • ولكن لا تتهمها ، لا تتهمها يا سيدى العزيز ، لا تتهمها ! لم تكن تتكلم هادئة النفس مالكةً وعيها ••• لقد كانت محطمة الأعصاب مريضة من رؤية صغارها يبكون جوعاً • ثم اننا لا يجوز لنا أن نفهم أقوالها بمعناها الحقيقى ، وانما يجب أن نفهم هذه الأقوال على أنها اهانة فحسب ••• ذلك هو طبع كاترين ايفانوفنا : حين يبكى أولادها ، ولو من الجوع ، فانها تأخذ تضربهم فوراً. وهأنا ذا ، قبل الساعة السادسة بقليل ، أرى صوفيتشكا تنهض فتناول وشاحها وبرنسها وتخرج، ثم تعود قبل الساعة التاسعة. فلما دخلت مضت الى كاترين ايفانوفنا قُدُماً فوضعت أمامها على المنضدة ثلاثين قطعة نقدية من فئة الروبل؛ ثم لم تزد ، حتى دون أن تنظر اليها، ودون أن تقول كلمة واحدة ، لم تزد على أن تناولت الشال الكبير الأخضر المصنوع من جوخ السيدات (نعم ، عندنا شال من هذا النوع ، مصنوع من جوخ السيدات* نستعمله جميعاً) ، فغطت به رأسها ووجهها تماماً ، ورقدت على السرير متجهةً برأسها نحو الحائط ، فكنا لا نرى الا ارتجاف كتفيها وارتعاش جسمها ••• وكنت ما أزال على حالتى تلك نفسها ••• فرأيت عندئذ ، أيها الفتى ، رأيت كاترين ايفانوفنا تنهض ، دون أن تقول كلمة واحدة



صونيا مارميلادوفا

هي أيضاً ، فتقترب من سرير ابنتي صوفيتشكا ، وتظل هنالك طوال السهرة راكعةً عند قدميها تقبلها ولا تريد أن تنهض . وبعد ذلك ، بعد ذلك ، رأيتهما تنامان معاً متعانقتين ... معاً ... كلتيهما ... وكنت أنا راقداً ... في ركني ... على حالة السكر تلك ذاتها ...

صمت مارميلادوف كأن صوته قد انقطع ، ثم ملأ كأسه فجأة فأفرغه في جوفه دفعة واحدة ، ودلك حلقه ، وتابع يقول بعد لحظة صمت :

ـ ومنذ ذلك الحين ياسيدي ، على أثر ظرف تعيس وتيجةً لوشاية أشخاص أشرار ، ولا سيما داريا فرانتسوفنا ، بحجة أننا لم نراعها ، اضطرت ابنتي صونيا سيميونوفنا أن تكون ذات بطاقة وأن تتركنا تبعاً لذلك ، لأن صاحبة البيت ، آماليا فيودوروفنا ، لم تشأ أن تحتمل هذا الوضع (مع أن آماليا كانت قد ساعدتها في الماضي) ، وكذلك السيد ليبزياتنيكوف ... وحول موضوع صوفيا هذا انما جرت تلك الحكاية بينه وبين كاترين ايفانوفنا . ففي بداية الأمر كان هو نفسه قد حاول التقرب من صوفيتشكا والتمس الحظوة بها ، ثم ها هو ذا يثور قائلاً : « كيف يمكنني ، أنا الرجل المستنير ، أن أعيش في نفس المسكن الذي تعيش فيه هذه الـ ... » . ولكن كاترين ايفانوفنا لم تستسلم ، بل تدخلت ... فحدث ما حدث . والآن تزورنا صوفيتشكا من حين الى حين (بعد هبوط الليل) ، فتساعد كاترين ايفانوفنا وتمدها باللازم ... انها تقيم في مسكن الخياط كابرناؤموف* الذي استأجرت غرفةً عنده . وكابرناؤموف ، عدا أنه يعرج ويتأتئ ، له أولاد كثيرون يتأتئون جميعاً كذلك . وامرأته تتأتئ أيضاً ... انهم يسكنون جميعاً في حجرة واحدة. ولكن صوفيتشكا لها حجرة خاصة بها وراء حاجز ... هم ... نعم ... أناس لا يتصور المرء أن يكون في العالم من هم أفقر منهم ... وهم الى ذلك تأتاءون ... نعم ... ونهضت في ذات صباح ، فارتديت



صبى الخمارة
أثناء اعترافات مارميلادوف

أسمالى الباليه ، ورفعت ذراعى نحو السماء مبتهلاً ، ثم ذهبت الى عند صاحب السعادة ايفان آتانازيفتش . هل تعرف صاحب السعادة ايفان آتانازيفتش ؟ لا تعرفه ؟ اذن فأنت لا تعرف انساناً قلبه لله ، هذا رجل نقى نقاء الشمع ، نقاء شمع بكر امام وجه الرب ... والشمع يذوب ... وقد ذاب هو دموعاً بعد ان تفضل فاصغى الى كلامى حتى النهاية . فلما فرغت من حديثى قال لى : « اسمع يا مارميلادوف ، لقد خيبت ظنى مرةً ... ولكننى سأوظفك هذه المرة أيضاً ، على مسئوليتى الخاصة ــ تلك كانت أقواله ــ فتذكر هذا . والآن فى وسعك أن تنصرف ». قبّلت موطىء قدميه ــ بالخيال طبعاً ، لأن هذا الموظف الكبير الذى آمن بالأفكار الجديدة التى تم تبنيّها رسمياً ما كان له أن يسمح لى بأن أقبّل موطىء قدميه بالفعل . وعدت الى مسكنى ، فلما زففت اليهم بشرى أننى سأعود الى وظيفتى وأننى سأتقاضى راتباً ... آه ... رباه ... لا أستطيع أن أصف لك ما حدث ...

صمت مارميلادوف من جديد ، مضطرباً أشد الاضطراب. وفى تلك اللحظة دخلت عصبة كبيرة من السكارى آتية من الشارع ؛ وعلى عتبة الخمارة دوّت أصوات أرغن باربارى استؤجر لهذه المناسبة ، كما دوّى صوت نحيل هو صوت طفل فى السابعة من العمر كان يغنى أغنية « القرية الصغيرة » . ضجت القاعة بالصخب . وأسرع صاحب الخمارة والخدم يحدقون بالقادمين الجدد، ولكن مارميلادوف تابع سرد قصته دون أن ينتبه الى أحد . كان يبدو منذ ذلك الحين وكأن الخمرة قد حطمته وسحقته ، ولكن كلما ازداد سكره ازداد تدفقه فى الكلام . ان ذكرى النجاح الأخير الذى أصابه مسعاه قد أنعشه بعض الانعاش ، حتى لقد أضفى على وجهه نوعاً من الاشراق والاشعاع . وكان راسكولنيكوف يصغى اليه بانتباه ...

ـ حدث ذلك منذ خمسة أسابيع يا سيدى ••• نعم ••• فما ان علمت كاترين ايفانوفنا وصونيتشكا بالنبأ حتى حدث ـ يا رباه ! ـ مايشبه أن أكون قد انتقلت الى السماء • قبل ذلك كنت ألبث راقداً على الأرض كبهيمة ، يا سيدى الطيب ، وأتلقى الشتائم وأبلعها ! أما الآن فانهما تسيران على رءوس الأصابع ، وتسكتان الأولاد قائلتين : « لقد تعب سيميون زاخارتش اليوم فى مكتبه ، فهو الآن يستريح ••• هست ! » وصرت قبل أن أذهب الى عملى ، أؤتى بالقهوة وتسخّن لى القشدة • صارتا تستطيعان الحصول على قشدة ••• حقيقية ••• هل تسمع ؟ وأين أمكنهما الحصول على أحد عشر روبلاً وخمسين كوبكاً لتجهزانى تجهيزاً لائقاً ؟ ذلك أمر لم أفهمه فى يوم من الأيام • حذاءان ، بزة رسمية ، قمصان ، ياقات ••• ما كان أروع القمصان !••• لقد اشترتا هذه الأشياء كلها بأحد عشر روبلاً وخمسين كوبكاً ، وجعلتاها حسنة المظهر لائقة• ماذا رأيت عند أول صباح ذهبت فيه الى المكتب ؟ أعدّت كاترين ايفانوفنا طبقين ، حساءً ولحمَ بقرٍ مملّحاً مطبوخاً مع خضـار ، وذلك أمر لم يحدث قبل ذلك فى يوم من الأيام • ثم انها لم تكن تملك ما تدثّر بها ظهرها ••• لم تكن تملك أى شىء يمكن أن يسمى دثاراً للظهر ••• فها هى ذى فى ذلك الصباح مرتدية أجمل حلة ، كأنها كانت ذاهبة الى زيارة • نعم ••• لقد رأيتها لابسة أجمل هندام ••• لا كما اتفق ••• انها تستطيع أن تخلق من العدم شيئاً • كانت وقد صففت شعرها تصفيفاً جميلاً ووضعت على رأسها قبعة أنيقة وأحاطت جيدها بياقة صغيرة بيضاء ، وزينت ذراعيها بكمين لطيفين ، قد أصبحت انسانة أخرى تبدو أصغر سناً وأحسن رونقاً وألطف جمالاً ! أما صونيتشكا ، يمامتى الصغيرة ، فقد اكتفت بتقديم المال ، وقالت : « ولكننى أنا لن أستطيع أن أجىء اليكم كثيراً فى هذه الأيام ، فذلك ليس بلائق ، وانما أجىء اليكم عند هبوط

الليل ، حتى لا يراني أحد .. هل تسمع؟ هل تسمع ؟ وبعد العشاء مضيت أرقد على السرير . فهل تصدق ؟ ان كاترين ايفانوفنا لم تطق صبراً . لم يكن قد انقضى على تشاجرها مع آماليا فيدوروفنا الا ثمانية أيام في أكثر تقدير ، ومع ذلك دعتها الى تناول فنجان من القهوة . وقضتا ساعتين كاملتين تتهامسان دون توقف . قالت لها : « ان سيميون زاخارتش * له الآن وظيفة ، وهو يقبض الآن راتباً . لقد ذهب بنفسه الى صاحب السعادة ، وهبّ صاحب السعادة نفسه الى لقائه : جعل جميع الناس ينتظرون ، وأمام جميع الناس تناول يد سيميون زاخارتش وقاده الى مكتبه (هل تسمع ؟ هل تسمع ؟) وقال له صاحب السعادة طبعاً : انني أتذكر خدماتك الطيبة يا سيميون زاخارتش ، ورغم انقيادك لميلك الطائش ، فانني آمل ، ما دمت تعد بأن لا تنقاد بعد اليوم لذلك الميل الطائش ، وما دام كل شيء ، من جهة أخرى ، قد جرى هنا أثناء غيابك مقلوباً (هل تسمعين ؟ هل تسمعين ؟) ، فانني آمل أن تفي الآن بوعدك وأن لا تخون العهد الذي تقطعه على نفسك . الحق أن هذا كله انما اخترعتْه اختراعاً وارتجلته ارتجالاً ـ أنا أقول لك الآن ذلك ـ ولكنها لم تعمد الى هذا الاختراع والتلفيق انسياقاً مع ميول صبيانية ، ولا حباً في اظهار قيمتها واعلاء شأنها . بالعكس : لقد صدّقت هي نفسها كل ما تخيلته ، وما كان أعظم تلذذها به ... هيه ، هيه ... يا رب ! وأنا لا ألومها ... لا ... أنا لا ألومها على هذا ... وحين أتيتها براتبي الأول كاملاً منذ ستة أيام ، نادتني بقولها : يا حبيبي ... خاطبتني قائلةً « ما أجملك يا حبيبي ! » قالت لي هذا وكنا في خلوة ، هل تفهم ؟ يخيّل اليّ مع ذلك أنني ... من ناحية حسن الصورة وجمال الهيئة ... هه ... وهل أنا زوج على كل حال ؟ الخلاصة ... لا ضير ... المهم أنها قرصت خدي وقالت لي : « ما أجملك يا حبيبي ! » .

انقطع مارميلادوف عن الكلام ، وأراد أن يبتسم ، ولكن ذقنه ارتجفت فجأة • ومع ذلك كبح جماح نفسه • وها هي ذي الحمارة ، وسقوط هذا الرجل ، وحبه المريض لامرأته وأسرته كلها ، والليالى الخمس التى قضاها على العوامات ناقلات العلف ، ومنظر الزجاجة ، ها هي ذي تلك الأمور كلها تغرق راسكولنيكوف في ذهول • كان يريد أن يصغي بأكبر انتباه ممكن ، ولكنه أحس بضيق وانزعاج • ولام نفسه على أنه جاء الى هذا المكان •

صاح مارميلادوف يقول وهو ينتصب قائماً :

ـ أيها السيد العزيز ، أيها السيد العزيز ، ربما كانت هذه القصة تبعث على الضحك كسائر ماعداها ، ولعلني لا أزيد على أن أضايقك بهذا العرض الغبى الأبله الأحمق لتفاصيل تافهة من تفاصيل حياتى المنزلية • ولكن هذا كله لا يضحكني أنا ، لا يضحكني أنا ، لا يضحكني أنا ••• لأن هذا كله انما أحسه أنا بكل جوارحي • لقد قضيت ذلك النهار كله وتلك السهرة كلها وأنا في مثل الجنة أطير على أجنحة أحلامى • كنت أفكر فى الطريقة التى سأدبر بها الأمور : كيف سأكسو هؤلاء الأولاد ، كيف سأهيىء لها هي الهدوء والسكينة والطمأنينة ، كيف سأنتزع ابنتى الوحيدة من وهدة العار وأردها الى أحضان الأسرة ••• وكنت أحلم بأشياء أخرى أيضاً ، بأشياء كثيرة جداً • ذلك حق لى ياسيدى• فما الذى حدث أيها السيد العزيز ؟ (هنا ارتعش مارميلادوف فجأة ، ونصب رأسه وحدق الى محدثه) ما الذى حدث ؟ حدث فى الغداة ، بعد جميع تلك الأحلام الجميلة ، أى منذ خمسة أيام على وجه الدقة ، أننى عمدت الى أنواع الحيل والأكاذيب ، فسرقت من كاترين ايفانوفنا مفتاح صندوقها ، كلص الليل*، فأخذت ما كان قد بقى من أجرى الذى أعطيتها أياه ••• لا أدرى كم كان المبلغ تماماً ••• نعم ، ذلك ما حدث ••• وأنظر أين أنا

الآن ... أنظروا الىّ أنتم جميعاً !... لقد تركت البيت منذ خمسة أيام. وهم هناك يبحثون عني . ولقد فقدت وظيفتي ، وبقيت بزتي الرسمية مرهونة في خمارة ، على مقربة من « جسر مصر » * ... وانظروا الى هذه الثياب الرثة التي أعطونيها بدلاً من بزتي الرسمية !... ان لكل شيء نهاية .

لطم مارميلادوف جبهته بقبضة يده ، وكزّ أسنانه ، ثم أغمض عينيه واستند بكوعه الى المائدة استناداً قوياً . ولكن وجهه تغير بعد دقيقة تغيراً مفاجئاً مباغتاً ، فاذا هو ينوع من المكر والوقاحة انما ينظر الآن الى راسكولنيكوف . ثم أخذ يضحك وقال :

ــ واليوم ذهبت الى صونيا أطلب منها مالاً ... لأنقطع عن السكر ... هأ هأ هأ ! ...

صاح يسأله أحد القادمين الجدد وهو يضحك ملء حلقه :

ــ وهل أعطتك مالاً ؟

قال مارميلادوف متجهاً بكلامه الى راسكولنيكوف وحده :

ــ بما أعطتنيه من مال انما اشتريت نصف الزجاجة هذه ، لقد جاءتني صونيا بثلاثين كوبكاً قدمتها الىّ بيدها نفسها . وكان هذا المبلغ كلّ ما بقي لها ... رأيت ذلك بنفسي . لم تقل شيئاً ، اكتفت بأن نظرت الىّ صامتة ... نظرت الىّ لا كما يكون النظر في هذه الحياة الدنيا ، بل في الحياة الآخرة ، في السماء ، حيث لا يوقظ الأشقياء في القلوب الا عاطفة الشفقة ، حيث يبكي الناس على هؤلاء الأشقياء دون أن يوجهوا اليهم كلمة تقريع ! وحين لا يقرّعك أحد ، فانك تشعر بألم أشد وعذاب أقوى ! نعم ! تشعر بألم أشد وعذاب أقوى ! ثلاثون كوبكاً ... نعم ... ولكنها كانت في حاجة الى هذه الثلاثين كوبكاً . أليس عليها الآن ، يا سيدي ، أن تعتني بنفسها ، وأن تهتم بنظافتها . والنظافة ، تلك النظافة،

تكلف نفقات كثيرة ، هل تفهم ؟ هل تفهم ؟ هناك دهون يجب أن تشتريها لتتطيب بها ... يستحيل عليها أن لا تفعل ذلك ! وهناك التنورات المتصلبة ، والأحذية الأنيقة التي تسمح باظهار القدم الصغيرة عند تجاوز بركة ماء بخطوة كبيرة ! هل تفهم يا سيدي ماذا تعني نظافة كتلك النظافة ؟ وهأنا ذا ، أنا أبوها ، اختلس الثلاثين كوبكاً التي تملكها لأشرب بها خمراً . ولقد انفقت ذلك المبلغ فعلاً في الشراب !... فمن ذا الذي يستطيع أن يرثي لحال رجل مثلي ؟ هل ترثي لحالي أنت الآن ياسيدي؟ هل ترثي لحالي ؟ تكلم يا سيدي ، تكلم : أترثي لحالي أم لا ؟ هيء هيء هيء هيء !...

قال مارميلادوف ذلك وأراد أن يصب في كأسه خمراً ، ولكن الخمر كان قد نفد ... كانت الزجاجة فارغة !

وكان صاحب الخمارة قد اقترب مرة أخرى ، فهتف يسأله :

ــ فيم عسى يرثي الناس لحالك ؟

وسُمعت ضحكات وشتائم . كان يطلق الضحكات والشتائم اولئك الذين سمعوا القصة كلها وأولئك الذين لم يسمعوا شيئاً البتة ولكنهم ينظرون الى رأس الرجل الذي كان موظفاً .

زأر مارميلادوف فجأةً ، وهو ينهض عن مقعده ، ماداً ذراعيه الى أمام ، وقد وافاه الهام حقيقي ، كأنه لم يسمع الا تلك الكلمات ، زأر يقول :

ــ لماذا عسى يُرثى لحالي ؟ أهذا ما تقوله ؟ نعم ، ليس هناك ما يدعو الى الرثاء لحالي ! وانما ينبغي أن أُصلب ، أن أصلب على صليب ، لا أن يرثى لحالي ! ولكن اصلبْه ، أيها القاضي ، ثم ارث لحاله بعد أن تصلبه . وعندئذ سأمضي اليك بنفسي ، أواجه العذاب مواجهة ، لأن

ظمئى ليس الى فرح ، بل الى حزن ودموع ! أتراك تظن أيها البائع أن نصف الزجاجة الذى اشتريته منك قد جاءنى بالفرح وحمل الى المسرة ؟ ألا ان الألم ، ألا ان الألم هو ما كنت أنشده في قرارة تلك الزجاجة ... نعم ... الألم والدموع ! ... ولقد ذقت فيها الألم ، لقد وجدت فيها ما كنت أنشده ! ولكن الله الذى يشفق على جميع الناس ويرأف بجميع الناس ، سيشفق علينا ، وسيرأف بنا ... لأنه يدرك كل شيء . انه هو الواحد الأحد . انه هو القاضى الأعلى . سيظهر في يوم الحساب فيسأل : « أين هى تلك الفتاة المسكينة التى ضحت بنفسها فى سبيل امرأة أبيها الشريرة المصدورة ، في سبيل أولاد امرأة أخرى ؟ أين هى تلك الفتاة المسكينة التى أشفقت على أبيها الأرضى ، السكّير الذى لا برء له ، دون أن تدع لنفسها أن تشمئز من حيوانيته ؟ » وسوف يقول لها : « تعالى ! لقد سبق أن غفرت لك مرة ... سبق أن غفرت لك مرة ... والآن أعفو عن جميع خطاياك ، لأنك أحببت كثيراً » ... وسيغفر لها ، سيغفر لابنتى العزيزة صونيا ... أنا أعلم أنه قد غفر لها ... شعر قلبى بهذا حين كنت عندها منذ قليل ... وسوف يحكم عليهم جميعاً . سيغفر للأخيار والأشرار ، سيغفر للحكماء والبسطاء على السواء. حتى اذا فرغ من الجميع ، خاطبنا نحن أيضاً فقال : « تعالوا ، تعالوا أنتم أيضاً أيها السكّيرون ، تعالوا أيها الضعفاء ، تعالوا أيها الفاسقون ! ». وسنقترب منه جميعاً ، دون شعور بالخزى والعار ، وسنقف أمامه ، وسيقول لنا : « أنتم خنازير ! قد خُلقتم على صورة الوحش ، ودُمغتم بخاتمه ! ومع ذلك اقتربوا ! » . وسيقول الحكماء عندئذ ، سيقول العقلاء : « كيف يارب ؟ كيف تستقبلهم هم أيضاً ؟ » فيجيبهم : أنا أستقبلهم أيها الحكماء ، أنا استقبلهم أيها العقلاء ، لأن أحداً منهم لم يحسب أنه جدير بأن يُستقبل ! » . وسوف يفتح لنا ذراعيه ، وسوف

نرتمي بين ذراعيه ••• وسوف نبكي ••• وسوف ندرك كل شيء ••• سوف ندرك عندئذ كل شيء !••• وسوف يدرك جميع الناس عندئذ كل شيء ••• وسوف تفهم كاترين ايفانوفنا هي نفسها ••• فليأت ملكوتك أيها الرب ! » •

انهارت قوى مارميلادوف ، فتهاوى على الدكة ، دون أن ينظر الى أحد ، كأنه قد غرق في أحلام عميقة فنسي كل ما كان يحيط به • وأحدثت كلماته أثراً • فساد الصمت خلال دقيقة • ولكن القهقهات والشتائم لم تلبث أن عادت تدوّي •

ـ هكذا يكون الكلام !

ـ هو يثرثر !

ـ بوروقراطي !

الخ ، الخ •••

وقال مارميلادوف فجأة وهو يرفع رأسه مخاطباً راسكولنيكوف :

ـ هيّا بنا يا سيدي • رافقني الى عمارة كوزيل ••• لقد آن الأوان ••• خذني الى كاترين ايفانوفنا !

كان راسكولنيكوف يتمنى منذ مدة طويلة أن ينصرف • وخطر بباله من تلقاء نفسه أن يساعد مارميلادوف • وقد ظهر مارميلادوف أشد وهناً وأضعف قياماً على ساقيه مما كان يمكن أن يتصور المرء بعد سماع خطابه • اتكأ مارميلادوف اتكاء ثقيلاً على الشاب • وكان ينبغي قطع مسافة مائتي خطوة أو ثلاثمائة خطوة• ان القلق والخوف يجتاحان السكير بمزيد من القوة والعنف على قدر اقترابه من منزله •

ودمدم يقول منفعلاً :

– ليس خوفي من كاترين ايفانوفنا . لست خائفا لانها ستشدني من شعري . ما فيه شعري ؟... ستشدني من شعري . انا أقول لك ذلك ... والأفضل ان تشدني من شعري ... لا ... ليس هذا ما يخيفني.. انما أنا أخاف عينيها ... نعم ... انا أخاف عينيها ... وأخاف أيضاً تنفسها !... والبقع الحمراء في خديها ... أخاف منها أيضاً ... هل لاحظت كيف يتنفس المصابون بذلك المرض حين تثور ثائرتهم ؟ وأنا أخاف كذلك من الأولاد ، حين يبكون . ذلك أن من الجائز أن لا تكون صونيا قد أعطتهم ما يأكلون ... لست أدري ... لست أدري الآن... أما الضربات فلا أخافها ... اعلم أيها السيد أن هذه الضربات لا تقتصر على أنها لا تخيفني ، وانما هي تهييء لي لذة في بعض الأحيان ... لأنني لا أستطيع الاستغناء عنها، ذلك أفضل ! ألا فلتضربني !... ألا فلتخفف عن نفسي !... هذه هي العمارة ، عمارة كوزيل ... هو قفّال ، قفّال ألماني غني جداً . أدخل معي !

اجتازا الفناء ، وصعدا الى الطابق الثالث . وكان ظلام السلم يزداد حلكة كلما تقدما في الصعود .

الساعة أوشكت على الحادية عشرة ، ورغم أن مدينة بطرسبرج ليس لها ليل حقيقي في مثل هذه الفترة من العام ، فقد كانت الظلمة حالكة في آخر السلّم .

في أعلى السلم كان باب صغير مدخّن مفتوحاً . وكان هنالك بقية شمعة تضيء أفقر غرفة في المسكن ، طولها عشر أقدام . ان المرء يرى الغرفة كلها من فسحة السلّم . ان فوضى قصوى تسودها ، وان أشياء لا حصر لأنواعها ملقاة على أرضها ، ولا سيما أسمال أطفال . وفي ركن من الغرفة هو آخرها تقريباً ، قد شُدَّت ستارة لعل وراءها سريراً . ولم يكن في الغرفة نفسها الا كرسيان ، وأريكة خاسفة منجدة بقماش

مشمَّع بال رث ، أمامها مائدة مطبخ عتيقة من خشب الصنوبر ليست مدهونة ، لا وليس عليها غطاء • وفي آخر المائدة كانت بقية شمعة توشك أن تذوب كلها ، قد غرست في شمعدان من حديد • ان جميع المظاهر تشير الى أن مارميلادوف لا يحتل في هذا المسكن ركناً من أركانه ، بل غرفة مستقلة هي في الواقع ممر أو دهليز • وكان الباب الذي يفضي الى الغرف الاخرى ، أو قل الى العلب الأخرى التي يتألف منها بيت آماليا ليبفكسل ، كان الباب مشقوقاً ، وكانت تصل منه جلبة وصيحات • كان الموجودون هناك يضحكون مقهقهين • يبدو أنهم يلعبون بالورق وهم يحتسون الشاي • وكان يستطيع المرء أحياناً أن يلتقط وسط الصخب ألفاظاً ليس فيها كثير تأدب •

لم يلبث راسكولنيكوف أن تعرَّف كاترين ايفانوفنا • هي امرأة نحيلة نحولاً رهيباً ، دقيقة القسمات ، طويلة القامة ، حسنة الهيئة • وما يزال لها شعر كستناوي اللون رائع ؛ وكان على خديها بقعتان حمراوان فعلاً • انها تسير في الغرفة طولاً وعرضاً ، وقد شدَّت يديها الى صدرها تضغطه بهما ؛ وكانت أنفاسها قصيرة مقطَّعة ، وكانت عيناها تسطعان ببريق محموم ، ولكن نظرتها حادة ثابتة • ان هذه الوجه الذي التهمه مرض السل يحدث مرآه على ضوء الشمعة الصغيرة الذائبة أثراً في النفس أليماً •

قدَّر راسكولنيكوف أنها في الثلاثين من العمر • ما هي في الحق بالمرأة التي تصلح زوجة للسكير مارميلادوف •

لم تنتبه الى وصولهما ، ولا سمعت وقع خطواتهما • كانت غارقة في نوع من الخيال ، فهي لا ترى شيئاً ولا تسمع شيئاً • ان حراً خانقاً يسود جو الغرفة • ومع ذلك لم تكن المرأة قد فتحت النافذة • ومن أدنى السلم كانت تتصاعد رائحة موبوءة ، ومع ذلك لم تغلق الباب المطل على

السلم • ومن خلال الباب الآخر كانت تصل سحب من دخان التبغ ، ومع ذلك لم تغلق هذا الباب الثانى أيضاً •

وكانت صغرى البنات ، وهى طفلة فى السادسة من عمرها ، كانت نائمة على الأرض قعوداً ، وقد تكبيت على نفسها وأسندت رأسها الى الأريكة • وكان الصبى الصغير ، وهو أكبر منها بسنة واحدة ، يرتعش ويبكى فى ركن من الأركان : لا شك أنه قد ضرب منذ قليل• أما البنت الكبرى ، وهى طفلة فى نحو التاسعة من العمر ، طويلةً نحيلة كعود ثقاب ، فكان كل ما يكسوها قميصاً رديئاً قد تمزق وتخرق فى كل ناحية ، هو رداء عتيق من جوخ السيدات قد أُلقى على كتفيها العاريتين ، ولعله كان يناسب حجم جسمها منذ سنتين ، أما الآن فهو لا يكاد يصل من قامتها الى الركبتين • وكانت البنت واقفة فى الركن تضم اليها أخاها الصغير ، وتحيط عنقه بذراعها الطويلة النحيلة • يبدو أنها كانت تحاول أن تسرِّى عنه ، فهى تكلمه بصوت خافت جداً ، رجاةَ أن لا يستأنف بكاءه ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه تتابع أمها وقد امتلأت رعباً ، تتابعها بعينيها الواسعتين القاتمتين اللتين تبدوان واسعتين مزيداً من السعة فى هذا الوجه الهزيل المرتاع •

لم يدخل مارميلادوف الغرفة ، بل ركع على العتبة ، ودفع راسكولنيكوف الى أمام • فلما رأت المرأة هذا الشاب المجهول ، وقفت أمامه ذاهلة ، ثم خرجت من تأملاتها لحظة ، ربما لتحاول أن تفسر لنفسها سبب مجيئه • ولكن لا بد أنها لم تلبث أن اعتقدت أنه ذاهب الى سكان آخرين من سكان البيت ، لأن الغرفة ممر الى الغرف الأخرى • فلما وصلت الى هذه النتيجة ، اتجهت نحو باب الدهليز تريد أن تغلقه ، فاذا هى تصرخ على حين فجأة ، لأنها اكتشفت زوجها الراكع على الأرض •

صاحت تقول وقد بلغت ذروة الغضب :

ـ آ ••• هأنت ذا عدت ! يا لص ، يا شيطان ، يا مسخ ! أين المال ؟ ماذا فى جيبك ؟ أرنى !••• وهذا اللباس الذى ترتديه ليس لباسك ، فأين رداؤك اذن ؟ أين المال ؟ تكلم !

قالت ذلك وهجمت عليه لتنبش جيوبه• فسرعان ماباعد مارميلادوف ذراعيه خاضعاً طيعاً بغية أن يسهّل عليها تفتيش جيوبه •

ولم يكن فى جيوب مارميلادوف كوبك واحد •

هتفت تقول :

ـ أين المال ؟ أين المال ؟ آه ••• يا رب !••• هل يمكن أن يكون قد شرب خمراً بالمال كله ؟ كان ما يزال فى الصندوق اثنا عشر روبلاً مع ذلك •••

وألمت بها سورة مسعورة من الغضب على حين فجأة ، فأمسكت بشعره ، وجرّته الى الغرفة• وسهّل هو عليها هذه المهمة ، فكان يزحف على ركبتيه وراءها طائعاً ذليلاً •

صاح يقول لى بينما كان يُجَرُّ من شعره حتى لتصطدم جبهته بأرض الغرفة :

ـ هذه فرحة بالنسبة الىّ يا سيدى ، ليس هذا ألماً يا سيدى العزيز !•••

واستيقظت البنية التى كانت نائمة على الأرض ، وأجهشت تبكى • ولم يتمالك الصبى الصغير نفسه فأخذ يرتعش ويصرخ وهرع نحو أخته مروّعاً تكاد تجتاحه نوبة عصبية • وكانت البنت ترتجف كورقة فى مهب الريح •

صاحت المرأة المسكينة تقول :

ـ شرب بالمال كله ، شرب بالمال كله . حتى رداؤه ليس رداءه ! انهم يتضورون جوعاً ، يتضورون جوعاً .

قالت ذلك وهي تلوي يديها وتشير الى الأولاد ، ثم أردفت :

ـ لعن الله هذه الحياة ، لعن الله هذه الحياة !

وزأرت تخاطب راسكولنيكوف وهي ترتمي عليه فجأة :

ـ وأنت أيضاً خارج من الخمارة ! شربتَ معه ، أليس كذلك ؟ أنت أيضاً ... شربت معه ... اخرج من هنا !...

فأسرع الشاب يخرج دون أن يقول كلمة واحدة . وفي أثناء ذلك كان الباب قد فُتح على كل سعته ، وظهر في فرجته عدد من المستطلعين. كانوا يمدون رءوسهم الوقحة الضاحكة ، وقد وضعوا عليها طاقياتهم ، وراحوا يدخِّنون سجائر أو غلايين . وكانت تُرى قامات ترتدي معاطف المنازل أو ملابس صيفية ليس فيها شيء من احتشام . وكان بين المستطلعين أناس يحملون بأيديهم ورقاً من ورق اللعب ، وقد ضحكوا خاصةً حين جُرَّ مارميلادوف من شعره ، فصرخ يقول ان هذه فرحة له . حتى لقد دخلوا الغرفة وسُمعت أخيراً وعوعة غاضبة حانقة : انها آماليا ليبفكسل بنفسها قد شقت ممراً بين الجمهور لتعيد الهدوء ، بطريقتها الخاصة ، ولترهب المرأة المسكينة بابلاغها رسمياً ، للمرة المائة ، أمراً بأن عليها اخلاء المسكن منذ الغد . اتسع وقت راسكولنيكوف ، قبل أن ينصرف ، لأن يدس يده في جيبه فيخرج منها جميع النقود النحاسية التي بقيت له من الروبل الذي صرفه في الخمارة ، وأن يضع هذه النقود خفيةً على حافة النافذة . فلما صار في السلم ، عدل عن رأيه ، وأراد أن يرجع أدراجه . قال يحدث نفسه : « حماقة ما فعلت !... هم لهم صونيا ، وأنا في حاجة الى مال » . ولكنه رأى أن من المستحيل عليه أن يسترد الصدقة التي أعطاها ، وأنه لن يستردها ولو لم يكن استردادها مستحيلاً ،

فرفع كتفيه واتجه نحو مسكنه . وتابع حديثه مع نفســه أثناء سـيره فى الشارع وهو يبتسم ابتسامة غريبة : « حقاً ان على صونيا أن تشترى آطياباً تدهن بهـا ... انها تكلف ثمنـاً باهظاً ، تلك النظافة ... هم ... ولكن من الجائز جدا أن يصيبها اليوم افلاس ... ان هذه المهنة معرّضة لمخاطر كثيرة ، كصيد الوحوش الكاسرة والبحث عن مناجم الذهب سواء بسواء ... فبدون هذا المال الذى تفحتهم اياه يمكن أن يتضوروا فى الغد جوعاً وأن يشدوا الأحـزمة على بطونهم . آه ... نعم يا صـونيا !... يا لك من منجم اكتشفوه ! ويا لها من فوائد يجنونها منه !... ذلك أنهم يجنون من هذا المنجم فوائد ! لقد اعتادوا أن يستفيدوا منه وأن ينتفعوا به ! بكوا فى أول الأمر ، ثم ألفوا وتعودوا . ان الانسان يعتاد كل شىء. يا له من حقير ! » .

ثم فكّر . فاذا هو يصيح قائلاً رغم ارادته على حين فجأة : « ماذا لو كنت على ضلال ! ماذا لو لم يكن الانسان فى حقيقة الأمر حقيراً ... أعنى الانسان عامة ، أعنى النوع الانســانى ... سيكون معنى ذلك أن الباقى « كله » ليس الا أوهاماً ، ليس الا مخاوف خيالية باطلة ، وأنه ليس هنالك أى حد ينبغى الوقوف عنده . نعم ، ذلك ما يجب » .

الفصل الثالث

استيقظ في الغداة متأخراً ، بعد نوم مضطرب لم يجلب له أية راحة • وشعر حين استيقظ بأنه معتكر المزاج سريع الاهتياج خبيث النفس ، ونظر الى غرفته نظرة كره ومقت • ان هذه الغرفة أشبه بقفص صغير طوله ست خطوات ، يدل مظهرها على أشد الفقر والفاقة ، قد غُطيت جدرانها بورق مصفر تراكم عليه الغبار وانتُزع في جميع الجهات • وهي تبلغ من انخفاض سقفها أن رجلاً له قامة تكاد تفوق متوسط القامات ، لا بد أن يشعر فيها بأنه مكبوس ، ولا بد أن يخشى اصطدام رأسه بالسقف • وأثاث الغرفة يناسبها حقارة ورثاثة : كان فيها ثلاثة كراسي عتيقة تعرج قليلاً ؛ وكان في ركن من أركانها مائدة مدهونة عليها دفاتر وبضعة كتب (يكفي المرءَ أن يرى طبقة الغبار التي تغطي هذه الكتب حتى يدرك أنها منذ مدة طويلة لم تمتد اليها يد) ؛ وكان فيها أخيراً ديوان كبير بشع يشغل كل طول الحجرة ويشغل نصف عرضها تقريباً ، ديوان كان في الماضي منجداً بقماش هندي ولكن القماش قد أصبح الآن خرقاً رثة ومزقاً بالية • ان هذا الديوان هو سرير راسكولنيكوف • وكثيراً ما كان يتفق لراسكولنيكوف أن يرقد عليه مرتدياً جميع ثيابه بلا غطاء ، غيرَ ملتحف الا معطفه العتيق ، معطف الطالب ، واضعاً رأسه على مخدة صغيرة كان يُعليها بأن يدس تحتها جميع

ما عنده من ملابس نظيفة ومتسخة • وأمام الديوان توجد منضدة صغيرة•

انه لمن الصعب أن يهمل المرء نفسه اهمالاً أشد من هذا الاهمال • ولكن منظر مسكنه هذا ، وهو فيما هو فيه من حالة نفسية خاصة ، كان يمضي الى حدّ أن يولّد له شيئاً من لذة • كان قد انفصل عن العالم انفصالاً حاسماً ، وكان يعيش كالسلحفاة المحبوسة في قوقعتها • وحتى منظر الخادمة ، التي كانت تظهر في الصباح أحياناً لترى ماذا يجري ، كان يبعث في نفسه كرهاً محموماً • هكذا شأن بعض الموسوسين الذين تحاصرهم فكرة واحدة ، ويسرف ذهنهم في التركز على نقطة بعينها • لقد كفّت صاحبة البيت منذ مدة طويلة عن أن تبعث اليه بوجبات طعامه ، ورغم أنه أصبح مضطراً للصيام عن الطعام ، فانه لمّا يخطر بباله بعد أن يذهب اليها ليناقشها في الأمر • وكانت ناستاسيا ، الطباخة ، وهي الخادمة الوحيدة لدى صاحبة البيت ، كانت ، بمعنى من المعاني ، غير مستاءة من الحالة النفسية التي كان عليها المستأجر ، وكانت قد انقطعت عن خدمة غرفته انقطاعاً كاملاً ، اللهم الا من حين الى حين ، مرةً في الأسبوع ، وكانت في هذه المرة تكتفي بأن تكنس الغرفة كنساً سريعاً كيفما اتفق •

وهي التي أيقظته الآن • صرخت تقول له وهي تميل عليه :

ـ انهض • ما بك حتى تنام هذا النوم ؟ لقد دقت الساعة التاسعة • هأنا ذا آتيك بشيء من الشاي ، هل تريد ؟ لسوف تموت جوعاً •

فتح الشاب عينيه ، وارتجف ، وتعرف ناستاسيا •

سألها ببطء :

ـ هل صاحبة البيت هي التي أرسلت اليّ هذا الشاي ؟

ثم نهض عن ديوانه وقد بدا عليه الألم •

قالت له الخادمة :

ـ صاحبة البيت ؟ هه !٠٠٠

ووضعت أمامه ابريقها الخاص بها ، ابريقها المتصدع الذى يضم بقية قديمة من شاى ، ووضعت قطعتين صغيرتين من سكر مصفر كل الاصفرار

قال لها بعد أن نبش جيبه (كان قد نام لابساً ثيابه) ، فأخرج منها قطعة نقدية :

ـ خذى يا ناستاسيا ، خذى هذا ، أرجوك ٠٠٠ واذهبى فاشترى لى رغيفاً صغيراً من الخبز ، واشترى لى كذلك من عند البقال سجقاً ، سجقاً بخس الثمن ٠٠٠

ـ سآتيك بالرغيف حالاً ٠ ولكن ألا تريد ، بدلاً من السجق ، أن تصيب شيئاً من حساء بالكرنب ؟ هو حساء بالكرنب صنعناه أمس ، وادخرته لك مساء ، لكنك رجعت الى البيت متأخراً ٠ هو حساء بالكرنب طيب ٠

وحين جاءته ناستاسيا بحساء الكرنب ، فأخذ يأكل ، جلست الى جانبه على الديوان ، وأخذت ترثر ٠ انها فتاة قروية مكثارة مهذارة ٠ قالت له :

ـ ان براسكوفيا بافلوفنا تريد أن تشكوك الى الشرطة ٠

فأربد وجهه وسألها :

ـ تشكونى الى الشرطة ؟ ماذا تريد منى ؟

ـ أنت لا تدفع أجر الغرفة ، لا ولا تجلو عنها ! ذلك ماتريده منك!

جمجم يقول وهو يجلس :



ناستاسیا

ـ لم يكن ينقصني الا هذا ! حقاً ان ذلك يقع في اسوأ حين ••• في اسوأ أوان !••• أفي هذه اللحظة ؟•••

ثم أضاف يقول بصوتٍ عالٍ :

ـ يا للحمقاء ! سأمرُ بها اليوم فأكلّمها •

قالت :

ـ أما أنها حمقاء فهي حمقاء حقاً ، مثلك أنت تماماً ••• ولكن••• ما بالك أنت ، وأنت ذكي هـذا الذكاء كله ، تبقى راقداً طـول الوقت كصُرَّة ؟ لا يستطيع أحـدٌ أن يحملك على شيء أو أن يسـتمد منك شيئاً ! تقـول انك كنت في الماضي تعطي الأولاد دروساً خاصة ، فلماذا أصبحت لا تقوم الآن بأي عمل ؟•••

ـ بل أقوم •••

كذلك نطق راسكولنيكوف رغم ارادته ، بلهجةٍ جافة •

سألته :

ـ ما الذي تقوم به ؟

ـ أقوم بعمل •••

ـ أي عمل ؟

أجابها جاداً بعد صمت :

ـ أفكر •••

انتابت ناستاسيا نوبةُ ضحك• انها متأهبةٌ دائماً لأن تنفجر ضاحكة. ويكفي أن تُمازَح أقلَّ ممازحة حتى تأخذ في الضحك ، ولكن ضحكها صامت ، فهي لا تزيد على أن تحرك وترجج جسمها كله ، الى أن يصيبها من ذلك غثيان !•••

وأفلحت في أن تنطق أخيراً فقالت له :

ـ وهل جنيت من التفكير مالاً كثيراً ؟

قال :

ـ كيف يستطيع المرء أن يمضي لاعطاء دروس حين لا يملك حذاءين ؟ على أنني لا أكترث بهذا كله !...

ـ لا تكترث ؟ انك اذن لمخطيء .

ـ ماذا يجني المرء من تعليم الأطفال ، ماذا يستطيع ان يفعل ببضعة كوبكات ؟

كذلك تابع يقول بلهجة حزينة كالحة ، كأنه يجيب عمّا يدور في رأسه هو من خواطر وافكار .

سألته قائلة :

ـ ماذا ؟ أتراك تريد الحصول على ثروة طائلة دفعةً واحدة ؟

نظر اليها نظرة غريبة ثم أجابها بصوت جازمٍ بعد صمتٍ قصير :

ـ نعم ، ثروة طائلة ...

ـ هيه ... رفقاً رفقاً ! انك تخيفني : أأمضي لشراء الرغيف الصغير ؟

ـ افعلي ما تشائين .

قالت فجأة :

ـ ها ... نسيت ... معي رسالة لك وصلت أثناء غيابك .

ـ رسالة ؟ لي ؟ ممن ؟

ـ لا ادري ممن . وقد نقدت ساعي البريد ثلاثة كوبكات من جيبي . ستردها الي ، أليس كذلك ؟

صرخ راسكولنيكوف يقول وقد بلغ ذروة الاضطراب :

ـ هاتي الرسالة ! هاتيها ناشدتك الله ... آه ... يا رب !...

بعد دقيقة جاءت الرسالة . صدق ما كان يقدّره : ان الرسالة آتية من امه التي تقيم في اقليم ر ...

اصفر وجهه وهو يتناول الرسالة . لقد أصبح لا يتلقى أية رسالة منذ مدة طويلة . ولكن شيئاً آخر يقبض الآن قلبه ويجثم على صدره .

قال :

ـ ناستاسيا ، اذهبي ... ناشدتك الله ... انصرفي ... اليك كوبكاتك الثلاثة ... اخرجي بسرعة ... ناشدتك الله !.

كانت الرسالة ترتعش بين يديه . لم يشأ أن يفضها امام الخادمة . كان يحرص على ان يبقى « وحيداً » مع هذه الرسالة . فما ان خرجت ناستاسيا حتى رفع الرسالة الى شفتيه بحركة سريعة ، وقبّلها . ثم لبث مدة يُنعم النظر في العنوان ، ويتأمل الخط العزيز الغالي الذي يعرفه حقّ المعرفة ، الخط الصغير المائل بعض الميل، خطّ امه التي علمته القراءة والكتابة في الماضي منذ زمن بعيد . أحجم عن فض الرسالة بعض الوقت، حتى لكأنه يخشى شيئاً ما . ثم فضّها اخيراً . الرسالة طويلة كثيفة ثقيلة الوزن : صحيفتان من ورق تغطيهما كتابة مرصوصة وجهاً وقفا . وهذا نص الرسالة :

« عزيزي روديا * ! انقضى اكثر من شهرين دون أن أتحدث اليك كتابة ، وذلك امر عذبني كثيراً ، حتى لقد حرمني من النوم ذات ليلة من فرط تفكيري فيه . ولكنني على يقين من أنك لن تؤاخذني على هذا

الصمت الطويل الذى لست مسؤولة عنه . انت تعلم كم احبك ! ليس لنا فى هذه الحياة ، أنا ودونيا * ، سواك . أنت عندنا كل شىء . أنت كل أملنا . أنت كل ايماننا بالمستقبل ! ليتك تعلم الحالة التى صرت اليها حين علمت منذ بضعة اشهر أنك تركت الجامعة لعجزك عن الوفاء بسد حاجاتك ، وأنك فقدت الدروس التى كنت تعطيها ، وفقدت سائر الموارد الأخرى ! كيف كان يمكننى أن اساعدك وانا لا أقبض الا خمسة وعشرين روبلاً فى السنة هى معاش التقاعد ! أنت تعلم ان الخمسة عشر روبلاً التى أرسلتها اليك منذ أربعة أشهر ، انما كنت قد اقترضتها سلفةً على معاشى من تاجرٍ فى بلدتنا هو فاسيلى ايفانوفتش فاخروشين . انه رجل طيب شهم كان صديق أبيك. ولكننى وقد خوّلته حق قبض المعاش نيابةً عنى ، قد اضطررت أن انتظر الى ان ينتهى سداد الدين كاملاً ، وذلك ما لم يتم الا منذ برهة قصيرة . هذا هو السبب فى اننى لم أستطع أن أرسل اليك شيئاً طوال ذلك الوقت . أما الآن فأعتقد أننى سأستطيع ، ولله الحمد ، أن أستأنف ارسال شىء من المال اليك . ثم اننا فى وسعنا ، على وجه أعم ، ان نغبط انفسنا على ان الحظ قد وافانا قليلاً ، وذلك ما أسارع الى ذكره لك. هل يمكنك ، أولا ، ياعزيزى روديا ، أن تحزر أن أختك تقيم معى منذ شهرٍ ونصف شهر ، وأننا لن ننفصل بعد اليوم أبداً ؟ لقد انتهت الآن جميع آلامها بفضل الله ، ولكن ينبغى أن أقص عليك كل شىء مرتباً متسلسلاً ، حتى تعرف كيف جرت الأمور ، ومإذا كتمنا عنك الى الآن ! لقد كتبتَ الىّ منذ شهرين قائلاً انك علمت من احد الناس أن اختك دونيا تتألم كثيراً من قسوة المعاملة فى منزل الأسرة التى تعمل عندها ، وهى أسرة سفدريجايلوف ، وسألتنى أن أبعث اليك بشروح دقيقة وتفاصيل وافية عن هذا الأمر . فهل كان فى وسعى أن اجيبك فى ذلك الأوان ؟ لا ... فلو قد كتبت اليك الحقيقة كاملة لكان

من الجائز ان تترك كل شيء وان تجيء الينا سيراً على الأقدام اذا لزم الأمر ، لأنني أعرف طبعك وأعرف عواطفك ، فما كان لك ان تدع لأحد ان يسيء الى أختك وأن يهين كرامتها • ولقد بلغت' إذا نفسي عندئذ غاية الكرب واليأس • ولكن ما الذي كان يجب ان أفعله ؟ ثم انني لم اكن اعرف الحقيقة كلها حينذاك • ولقد جاء البلاء أساساً من ان اختك دونيتشكا ، حين أخذت تعمل مربية" عند آل سفيدريجايلوف * ، في السنة الماضية ، قد قبضت منهم سلفة مقدارها مائة روبل يقتطعونها من أجورها شهراً شهراً • لذلك كان من المستحيل عليها ان تترك وظيفتها قبل ان تكون قد سددت ما لهم عليها من دين • وذلك المبلغ الذي قبضته (أستطيع الآن ان اعترف لك بذلك يا بني العزيز) انما أخذته خاصة" لترسل اليك الستين روبلاً التي كنت حينئذ في حاجة ماسة اليها والتي تلقيتها منا في السنة الماضية • لقد خدعناك كلتانا حين كتبنا اليك عندئذ ان ذلك المال هو حصيلة مدخرات قديمة جمعتها دونيتشكا ؟ ولم يكن الأمر كذلك • وانما أنا أقول لك الحقيقة كلها الآن لأن الله قد أراد ان يبدل كل شيء وان نصير الى حال أفضل ، ولأن من الواجب أن تعلم مدى ماتحمله لك دونيا من حب ، وأن تعرف ما يتصف به قلبها من نبل لا يضارع ! خلاصة المسألة ان السيد سفيدريجايلوف كان في أول الأمر يعاملها معاملة شديدة الغلظة والفظاظة وكان يوجه اليها اثناء الجلوس الى المائدة أنواعاً شتى من الكلمات القارصة والأقوال الساخرة ••• على أنني لا أريد أن أفيض في الكلام على هذه التفاصيل الأليمة ، حتى لا أعذبك في غير طائل ، بعد أن انتهى هذا كله الآن ! المهم ان وضع دونيتشكا كان شاقاً جداً رغم ان مارتا بتروفنا ، زوجة السيد سفيدريجايلوف وسائر أهل المنزل قد عاملوها معاملة فيها كثير من الرعاية والمداراة واللطف • وكان وضعها يزداد مشقة حين يصبح السيد سفيدريجايلوف تحت سيطرة



سفلر یجا یلوف

باخوس *على ما ألف من عادة ترسخت فيه منذ كان في الجيش • ولكن ما الذي حدث بعد ذلك ؟ تصور ان هذا الرجل المأفون كان منذ مدة طويلة يهيم بأختك دونيا هياماً يخفيه تحت ستار موقف من الفظاظة والاحتقار يصطنعه اصطناعاً • ولعله كان يشعر بالخزي والعار في نفسه ، أو لعله كان يحس بارتياع حين يرى أنه في هذه السن ، هو رب الأسرة ، تراوده آمال تبلغ هذا المبلغ من الحماقة والطيش ، فاذا هو يحقد على دونيا رغم ارادته ، ويحمل لها الضغينة والسخيمة في قرارة قلبه ، أو لعله بفظاظة موقفه وغلظة سخرياته انما كان يريد ان يخفي الحقيقة عن الآخرين لا أكثر ؛ المهم أنه أصبح في نهاية الأمر لا يطيق صبراً ، فاذا هو يتجرأ ويتجاسر فيعرض على دونيا عروضاً صريحة حقيرة ، باذلاً لها وعوداً بفوائد شتى ومنافع كثيرة ، مقترحاً عليها فوق ذلك كله ان يترك كل شيء ليسافر معها الى قرية أخرى من القرى التي يملكها أو الى الخارج اذا هي أرادت ! في وسعك ان تتخيل الآلام التي قاستها أختك: كان عليها ان لا تفكر في ترك وظيفتها فوراً ، لا بسبب ما عليها من دين فحسب ، بل ايضاً من باب المراعاة والمداراة لمارتا بتروفنا التي كان يمكن ان تساورها شكوك كثيرة على حين فجأة فيحدث في الأسرة شقاق يمزقها شر ممزق • ذلك عدا أن تركها لوظيفتها فوراً يمكن أن يكون لها فضيحة كبرى لا يمكن تحاشيها • وهناك أسباب أخرى كثيرة كانت تجعل دونيا عاجزة عجزاً مطلقاً عن ترك تلك الأسرة قبل انقضاء ستة أسابيع • لا شك في انك تعرف دونيا وتعرف ما تتصف به من تعقل ومن ارادة قوية • ان دونيتشكا تستطيع أن تتحمل أشياء كثيرة ، وأن تجد في نفسها ، مهما تكن الظروف حرجة ، قدراً كافياً من رفعة الروح ونبل القلب حتى لا تفقد رباطة جأشها وثبات جنانها ، لذلك لم تكتب الي أنا نفسي شيئاً عن هذا

كله ، حتى لا تؤلمني وتعذبني ، مع أننا كنا نتراسل كثيراً . وقد حدثت خاتمة القصة على نحو لم يكن في الحسبان :

ان مارتا بتروفنا سمعت زوجها في الحديقة ، مصادفةً ، يتوسل الى دونيتشكا ضارعاً مبتهلاً ، فظنت ان دونيتشكا سبب كل شيء ، فاذا بمشهد رهيب يحدث عندئذ في الحديقة نفسها : لم تشا مارتا بتروفنا ان تسمع أي قول ، حتى لقد ضربت دونيا ، وظلّت تصرخ ساعة بكاملها ، ثم اصدرت امرها بنقلها اليّ في المدينة على عربة حقيرة من عربات الفلاحين، رُميت فيها جميع اشياء دونيا من ملابس وأثواب ، رُميت فوضى بغير نظام ، حتى دون أن تُربط او تُحزم . وقد اخذ المطر يهطل عندئذ هطولاً غزيراً ، فاضطرت اختك دونيا ان تقطع مع الفلاح في عربته المكشوفة مسافة عشرة فراسخ على تلك الحال من المذلة والهوان . انك لترى الآن أنني لم أكن استطيع ان اجيبك بشيء على الرسالة التي بعثت بها الي منذ شهرين : عمَّ كان يمكنني ان احدثك وفيم كنت استطيع ان اكلمك ؟ لقد كنت انا نفسي في غاية الكرب وذروة الكمد . لم أكن اجرؤ أن اكتب لك الحقيقة . فلو فعلت ذلك لشقيتَ انت شقاءً كبيراً ولشعرت بغضب شديد واضطراب كبير .

وما الذي كان في وسعك ان تفعل ؟ لا شيء الا ان تفاقم آلامك وتزيد عذابك ! ثم ان دونيا قد حظرت على أن أفعل . وأما ان املأ رسالتي اليك بترهات وسفاسف ، بينا انا مثقلة القلب بالحزن والكمد ، فذلك ما شعرت انني لا أقوى عليه . وفي اثناء شهر كامل جرت في المدينة عن تلك القصة شائعات وأقاويل ونمائم ، حتى لقد بلغت الأمور حداً أصبحت لا أستطيع معه ان اصحب دونيا الى الكنيسة بسبب نظرات الاحتقار والازدراء التي يلقيها علينا الناس وبسبب الهمسات الكثيرة التي يتبادلونها عند مرورنا ، حتى انهم كانوا لا يتحرجون من ابداء ملاحظات

خبيثة بصوت عال فى حضورنا • وأصبح جميع من يعرفوننا يديرون لنا ظهورهم ويشيحون عنا بوجوههم ، بل لقد كفوا عن تحيتنا • وعرفت من مصدر مطلع أن عـدداً من مستخدمى الدكاكين وصـغار موظفى المكاتب أرادوا ان يرتكبوا فى حقنا وقاحة سافلة ، هى ان يلطخوا باب منزلنـا بالقطران ، فأخذ اصحاب البيت الذى نسكنه يطالبوننا باخلائه • وكانت مارتا بتروفنا سبب ذلك كله ، فقد اتسع وقتها لأن تذهب الى جميع البيوت تتهم دونيا وتوسخ سمعتها • انها تعرف جميع الناس فى بلدتنا • واذ أنها أميل الى الثرثرة ، واذ أنها تحب ان تقص شئونها المنزلية على كل قادم ، وأن تشكو زوجها خاصةً ، وذلك أمر ليس بالجميل كثيراً ، فقد نشرت القصة خلال برهة وجيزة من الزمن، لا فى المدينة وحدها ، بل فى المقاطعة كلهـا • وقد مرضت أنا من ذلك • ولكن دونيتشـكا كانت أقوى منى عوداً ، وأصلب شكيمة ، وأشد بأساً • ليتك رأيت كيف استطاعت ان تحتمل هذا كله بجأش رابط وجنان ثابت حتى لقد كانت هى التى تعزينى وتواسينى ، وتقوى عزيمتى ، وتشد أزرى ! انها ملاك ! ولكن رحمة الله اختصرت عذابنا • فان السيد سـفيدريجايلوف قد عدل عن رأيه ، وندم على ما بدر منه ، ولعله شعر بشفقه نحو دونيا ، فقدَّم لامرأته مارتا بتروفنا الدليل القاطع والحجة الدامغة على براءة دونيا : كان هذا الدليل القاطع رسـالةً كانت دونيـا ، قبل ان تفاجئهما مارتا بتروفنا فى الحديقة بزمن طويل ، قد اضطرت أن تكتبها وان تعطيها السيد سفيدريجايلوف لترفض جميع شروحه وعروضه ، ولترفض جميع المواعيد السرية التى كان يضرع اليها ان تضربها له • وقد بقيت هذه الرسالة بين يدى السيد سفيدريجايلوف بعد رحيل دونيا • وفى هذه الرسالة كانت دونيا تعيب عليه بلهجة عنيفة ثائرة عارمة ما يتصف به سلوكه نحو مارتا بتروفنا من جور وظلم وعسف ، وتذكره بأنه زوج ، وبأنه أب لأسرة ، وتصور

له مدى ما يشتمل عليه سلوكه من خسة اذ هو يعذِّب ويُشقى فتاة فقيرة عزلاء لا تحتاج الى مزيد من العذاب والشقاء • الخلاصة يا بنى العزيز روديا ، ان تلك الرسالة تبلغ من رفعة النبل وشدة التأثير أننى أجهشت باكية منتحبة حين قرأتها ؛ وما أزال حتى الآن لا أعيد قراءتها الا وتترقرق فى عينيَّ الدموع • وجاءت شهادات الخدم تبرىء دونيا مزيداً من التبرئة! والخدم كما يحدث دائماً فى مثل هذه الحالات قد عرفوا من الأمر ورأوا من المشاهد اكثر كثيراً مما ظن السيد سفيدريجايلوف •

« ذُهلت مارتا بتروفنا أشدَّ الذهول ، بل صعقت تماماً كما اعترفت لنا هى نفسها بذلك • ولكن لم يبق فى نفسها أى شك فى أن دونيتشكا بريئة كل البراءة • لهذا بادرت منذ الغد ، وكان يومَ أحد ، فذهبت رأساً الى الكنيسة حيث جثت على ركبتيها باكية وضرعت الى السيدة العذراء ان تهب لها من القوة ما يكفيها لاحتمال هذا الامتحان الجديد وما يمكِّنها من القيام بواجبها على خير وجه • ثم جاءت من الكنيسة قُدُماً الى منزلنا ، دون ان تعرِّج على احد ، فقصت علينا كل شىء ، وسكبت دموعاً حارة ، وعانقت دونيا زاخرةَ النفس بالندم ، مبتهلةً اليها أن تغفر لها وأن تعفو عنها • ومن منزلنا ذهبت رأساً دون ان تضيع لحظة واحدة ، ذهبت الى جميع بيوت المدينة ، فكانت تسكب سيولاً من الدموع ، وتكيل الثناء لابنتى ، دونيا ، وتشهد ببراءتها ، وتطرى نبل عواطفها ، وتشيد بحسن سلوكها • وأرادت ان تفعل ما هو خير من ذلك أيضاً ، فاظهرت جميع الناس على الرسالة التى كتبتها دونيا الى السيد سفيدريجايلوف بخط يدها ، حتى لقد قرأت عليهم تلك الرسالة بصوت عال ، بل وأذنت لهم بأن ينسخوها (وذلك أمر يبدو لى ان فيه شيئاً من الغلو) • وقد اضطرت ان تقضى عدة ايام متتالية تزور جميع من تعرفهم من الناس فى المدينة ، لأن بعضهم شكوا من اهمالها زيارتهم ، وساءهم ان تؤثر عليهم غيرهم •

على هـذا النحو تتالت زياراتها متعاقبـة متلاحقـة ، حتى اصبح النـاس ينتظرونها في كل منزل ، وحتى أصبح يـعرف أن مارتا بتروفنا سـتقرأ الرسالة يوم كذا في مكان كذا ، فكان يحضر قراءة الرسالة في كل مرة حتى أولئك الذين سبق لهم ان سمعوها مرارا سواء في بيوتهم هم أو في بيوت اناس آخرين يعرفونهم • في رأيي ان ذلك كان فيه مغالاة ، كان فيه كثير من المغالاة ، ولكن هذا طبع مارتا بتروفنا ! مهما يكن من امر ، فان مارتا بتروفنا قد ردّت الى دونيتشكا اعتبارها كاملاً ، فاذا بعار هذه القضية يرتد الى زوجها بخـزى لا يمحى ولا يندثر ، ويجعله المجـرم الأول حتى اخذتني به شفقة • لقد أسرفوا في القسوة على ذلك المأفون المسكين. بعد ذلك اسرعت أسرٌ كثيرة تعرض على دونيا ان تعطي أولادها دروساً ، ولكن دونيا رفضت جميع هذه العروض • ونستطيع ان نقول بوجه عام ان جميع النـاس قد صـاروا يولونها احتراماً خاصاً على حين فجأة • وذلك كله قد سهل تسهيلاً كبيراً حدوث الحادث الذي لم يكن في الحسبان ، والذي استطيع ان اقول ان مصـيرنا قد تبدل بفضله تبدلاً تاماً وتغير تغيراً كاملاً • اعلم يا بني العـزيز روديا ان خطيبا قد تقـدم لاختك دونيا ، وأنها قد اعلنت له موافقتها ، وذلك ما أسارع فأنقله اليك الآن • أغلب الظن أنك لن تؤاخذنا ، لا أنا ولا أختـك ، على ان الأمر قد تم دون الحصول على موافقتك ، فلسوف ترى بنفسك انه كان يستحيل علينا أن ننتظر ، وان نرجىء اتخاذ القرار الى حين وصول ردّك الينا • هذا عدا أنه ما كان لك أن تستطيع ، من بُعد ، ان تحكم في الامر حكم العارف المطلع• واليك تفصيل ما حدث : الرجل مستشار قضائي*، اسمه بطرس بتروفيتش لوجين • وهو يمت بقربى بعيدة الى مارتا بتروفنا التي شاركت في الامر مشاركة كبيرة • لقد بدأ الرجل بأن أظهر لمارتا بتروفنا رغبته في التعرف الينا ، فاستقبلناه كما ينبغي ان يُستقبل ، فشرب عندنا

القهوة ، فما ان جاء الغد حتى بعث الينا برسالة يعرض فيها طلبه بكثير من الكياسة ، ويلتمس رداً سريعاً قاطعاً . انه رجل من رجل الاعمال ، مشغول جداً ؛ ولما كان عليه ان يسافر الى بطرسبورج قريبا ، فان لكل دقيقة قيمتها عنده . طبيعي أننا ذُهلنا في أول الامر : لقد حدث ذلك كله على نحو مباغت مفاجيء ، بطريقة لم تكن في الحسبان ! بعد ذلك لبثنا معاً طوال النهار نفكر في الامر ونزن الاشياء . هو رجل يحتل مركزا مرموقاً : يشغل وظيفتين في آن واحد ويملك منذ الآن رأس مال له . الحق أنه يبلغ الخامسة والاربعين من العمر ، لكن مظهره لطيف ، ومايزال يستطيع ان يرضي النساء . وهو عدا ذلك رجل رصين لائق جداً . كل ما هنالك انه متجهم المزاج قليلاً ، متعالٍ بعض التعالي ، ولكن قد لا يكون ذلك الا شعوراً أول ساورنا حين رأيناه ؟ ولهذا أحذرك يا بني العزيز روديا من ان تحكم عليه بسرعة مسرفة واندفاع عنيف حين ستلقاه في بطرسبرج قريباً (على عادتك في سرعة الحكم وعنف الاندفاع) اذا انت رأيت فيه عند الوهلة الاولى شيئاً يصدم شعورك . أقول لك هذا من باب الاحتياط لكل مصادفة ، رغم يقيني من انه سيُحدث في نفسك اجمل الأثر . أضف الى ذلك ان على المرء ، اذا هو اراد ان يصل الى معرفة انسان من الناس ، أيا كان هذا الانسان ، أن يتصرف ازاءه تصرفاً فيه كثير من التروي والتعقل والحكمة والحذر ، والا فقد يقع في الخطأ ، وقد ينجرف الى التحيز ، فيصعب عليه كثيراً بعد ذلك ان يصحح ذلك الخطأ وان يزيل ذلك التحيز . ومهما يكن من امر فان قرائن كثيرة تحمل على الاعتقاد بأن بطرس بتروفيتش رجل جدير بالاحترام . لقد اعلن لنا منذ اول زيارة أنه رجل وضعي عملي ، ولكنه في كثير من الامور يشارك « أجيالنا الجديدة آراءها » على حد تعبيره ، وأنه عدوٌ لجميع الاوهام الاجتماعية، ولقد قال أموراً اخرى كثيرة ، فهو اذا صدقت المظاهر رجلٌ

لا يخلو من شيء من الغـرور ، وهو يحب كثيراً أن يصغى النـاس الى كلامه وان يسمعوا لحديثه • ولكن هل تلك آفة كبيرة حقاً ؟ هل ذلك عيب خطير فعلاً ؟ أنا لم أفهم من حديثه أشياء كثيرة بطبيعة الحال ، ولكن دونيا شرحت لى أنه على نقص ثقافته انسان ذكى ، وانه طيب فيما يبدو • انك تعرف طبع اختك ، يا بنى العزيز روديا • هى فتاة ثابتة صلبة عاقلة مثابرة كريمة ، رغم أن لها قلباً حاراً وشعوراً متقداً ، وذلك أمر استطعت ان أدركه فيها • طبعاً ، لا مجال للحديث عن حب حقيقى ، لا من جانبها هى ولا من جانبه هو • ولكن دونيا ، عدا أنها فتاة ذكية ، هى فى الوقت نفسه نبيلة كملاك. ولا بد ان تلزم نفسها باسعاد زوجها الذى لن يسعه الا ان يسعدها هو أيضاً • فحول هذه النقطة الاخيرة ليس لدينا حتى الآن أى سبب جدى يدعو الى الشك ، رغم ان الامر قد تم بشيء من السرعة ، كما ينبغى ان نعترف بذلك • يضاف الى هذا ان الرجل انسان حصيف الفكر سديد الرأى ، فلا شك فى أنه سيرى بنفسه ان سعادته الزوجية نفسها ستكون مضمونة مزيداً من الضمان اذا سعدت دونيا بفضله مزيداً من السعادة • أما عما هنالك من بعض الاختلافات فى المزاج والعادات القديمة وحتى من بعض الاختلافات فى الآراء (وذلك ما لا يمكن تحاشيه حتى فى اكثر حالات الزواج توفيقاً) فان دونيا كما قالت لى ذلك سوف تأخذ على عاتقها هذا الامر • انها تؤكد أنه لا داعى الى القلق ، وانها تستطيع احتمال اشياء كثيرة شريطة ان تبقى علاقاتهما على الدوام شريفة صادقة عادلة قائمة على المساواة والانصاف • يجب ان اقول لك ان الرجل بدا لى انا أيضـاً مسرفاً فى الصرامة بعض الاسراف • ولكن ذلك قد يكون ناشـئاً عن أنه امرؤ صريح ، بل ان الأمر لكذلك حتماً • مثـال : انه أثناء زيارته الثانية ، بعد حصوله على الموافقة ، قد اعلن أثناء الحديث انه حتى قبل ان يعرف دونيا كان قد قرر ان لا يتزوج الا فتاة شريفة لا تملك

مهرا ، فتاة سبق أن عرفت تجربة الفقر وعانت مرارة البؤس ، لان الزوج يجب ان لا يشعر بأن لزوجته عليه فضلاً ، وانما يجب ان تشعر المراة ان زوجها هو المحسن اليها وصاحب الفضل عليها • يجب أن أذكر أنه قد عبَّر عن رأيه هـذا تعبيراً اكثر دقـة ولطافة ، وأقرب الى المودة والمحبـة من الكلمـات التى كتبتها أنا الآن ، لأننى نسيت الالفاظ التى استخدمها ، وأصبحت لا أتذكر الا الفكرة التى افصح عنها • ثم انه لم يكن قد هيأ اقواله وحضر عباراته ، فلا شك أن ذلك الكلام قد أفلت منه افلاتاً • لذلك حـاول بعدئذ ان يتـدارك الامر ، وأن يلطف الأثر الذى احدثته كلماته • ومع ذلك استثقلت كلامه قليلاً ثم فاتحت دونيا فى هذا ، فأجابتنى دونيا ، وفى نفسها شىء من الغضب والحزن ، بان الأقوال لا تطابق الافعال دائماً ، وواضح ان كلام دونيا صادق • يجدر ان اذكر ان دونيا ، قبل اتخـاذ قرارها ، لم يغمض لها جفن طوال الليـل ، وأنها حين ظنت اننى غفوت قد نهضت عن فراشـها وأخـذت تمشى فى الغـرفة طولاً وعرضاً الى ان طلع الصبح ، ثم ركعت على ركبتيها ، ولبثت جاثيةً امام الأيقونة تصلى مدة طويلة بكثير من الحرارة والخشـوع ، حتى اذا طلع النهار اعلنت أنها قد اتخذت قرارها •

« سبق ان قلت ان بطرس بتروفيتش سيسافر الآن الى بطرسبورج. ان له هنالك اعمالاً مستعجلة ملحة : انه يريد ان يفتتح مكتباً للمحاماة• هو يعنى بهذا النوع من الاعمال منذ زمن طويل • وقد انتصر فى دعوى هامة فى الآونة الاخيرة • وينبغى له ان يسافر الى بطرسبورج حتماً لسبب آخر هو أنه سيترافع هنالك امام مجلس الشيوخ* فى قضية خطيرة• وهكذا ترى يا بنى العزيز روديا ، أنه سيكون فى وسعه ان يفيدك كثيراً • لقد رأينا انا ودونيـا انك ستسـتطيع منذ اليوم ان تبـدأ مهنتك ، وأن تعـد مستقبلك مضموناً ضماناً نهائياً • آه ألا ليت ذلك يتحقق ! ما أجمل ان

يتحقق ذلك ! سيكون علينا عندئذ ان نعد هذا اثرا من اثار نعمة الله علينا.
ان دونيا اصبحت لا تفكر الا فى هذا . ولقد جازفنا انا ودونيا ،
فاسمعنا بطرس بتروفتش كلمة حول هذا الموضوع ، فتكلم عندئذ
بشيء من التروى والتعقل فاعلن انه ، بطبيعة الحال ، ما دام لا يستطيع ان
يستغنى عن سكرتير ، سيفضل ان يدفع أجورا لعضو من أعضاء الاسرة
على ان يدفع هذه الاجور لشخص غريب ، شريطه أن يبرهن القريب
على انه قادر على القيام بهذه الوظيفة وعلى أداء هذه المهمة (كأنك انت
عاجز عن ذلك !) . ولكنه لم يلبث ان ساوره شك أفصح عنه فقال انه
يخشى أن لا تدع لك دراستك فى الجامعة متسعاً من الوقت للعمل معه .
وقد وقف حديثنا عند هذا الحد ولكن دونيا لا يشغل بالها الآن أمر غير
هذا الأمر ، وهى منذ بضعة ايام فريسة حمى حقيقية ، حتى لقد بنت
لمستقبلك فى خيالها مشروعاً ضخماً : انها تقدّر انك ستستطيع فى المستقبل
ان تصبح مساعداً بل وشريكاً لبطرس بتروفيتش فى أعمال المرافعات التى
يقوم بها ، لا سيما وانك تدرس القانون . أما أنا ، يا روديا، فانني متفقة
معها كل الاتفاق ، أشاركها آراءها واشاطرها آمالها ، وأرى ان ذلك ليس
بالمستحيل قط . ورغم ما يظهر الآن على بطرس بتروفتش من تحفظ ،
وهو تحفظ يمكن فهمه جداً (لأنه لا يعرفك حتى الآن) ، فان دونيا
مقتنعة اقتناعاً جازماً بانها ستصل الى تحقيق اهدافها بفضل التأثير الطيب
الذى تعرف كيف تستطيع ان تحدثه فى نفس زوجها . نعم ! انها من
ذلك على اقتناع كامل . لقد تحاشينا طبعاً ان نكشف امام بطرس
بتروفتش ، ولو بكلمة واحدة ، عن احلامنا البعيدة ، ولا سيما عن حلم
ان نراك شريكا له فى المستقبل . انه رجل وضعى عملى ، فقد يسيء
النظرة الى هذا الأمر ، لأنه لن يرى فيه الا أحلاماً . كذلك لم نشر ،
لا أنا ولا دونيا ، لم نشر اية اشارة الى أن نراه يساعدنا فى أن نرسل

اليك ما أنت فى حاجة اليه من مال اثناء دراستك بالجامعة ٠ اننا لم نتكلم فى هذا الامر ، أولاً لأنه سيتحقق من تلقاء نفسه فى المستقبل ، ولأن بطرس بتروفيتش سيعرض عليك هذه المساعدة حتماً بدون اقوال زائدة (لن ينقصنا الا أن يأبى هذا على دونيا !) لا سيما وأنك تستطيع أن تصبح ساعده الأيمن فى المكتب ، وأن الأمر لن يكون اذن أمر نجدة أو هبة بل أمر أجر تحصل عليه بجهدك٠ على هذا النحو انما تريد دونيتشكا أن ترتب الأمور ٠ وأنا متفقة معها فى هذا كل الاتفاق ٠ وثانياً : نحن لم نتكلم فى ذلك لأننى حرصت خاصةً على أن أضعك فى موقف المساواة معه منذ لقائكما القادم ٠ فحين كلمته دونيا عنك بحماسة أجاب بأن على المرء اذا هو أراد أن يحكم على رجل من الرجال أن يراه من قرب ، وقال انه يحتفظ لنفسه بحق تكوين رأى عنك بعد أن يتعرف اليك ٠

« هل تعرف يا روديا ، يا كنزى ، ما هو شعورى الآن ؟ يخيل الىَّ ، استناداً الى بعض الخواطر التى تساورنى (وهى لا تتعلق ببطرس بتروفتش ، ولا تزيد على أن تكون أهواء امرأة عجوز) ، يخيل الىَّ أننى سوف احسن صنعاً اذا أنا لم أعش معهما بعد زواجهما٠ اننى واثقة ثقة مطلقة بأنه يملك من الكرم واللطف مايكفى لأن يدعونى من تلقاء نفسه ، ولأن يقترح علىَّ أن لا أنفصل عن ابنتى. واذا كان قد سكت عنهذا الأمر حتى الآن ، فلأنه أمر بديهى لا حاجة الى الكلام فيه٠ ولكننى سأرفض٠ لقد أمكننى أن ألاحظ اكثر من مرة خلال حياتى أن الأصهار لا يحبون حمواتهم كثيراً٠ وأنا لا أكره أن أحدث أى ازعاج لأى انسان فحسب ، وانما أريد كذلك أن أحتفظ بحريتى كاملة ما ملكت ولو لقمة من خبز ، وما بقى لى أولاد مثلك ومثل دونيتشكا ٠ سأسكن غير بعيد عنكما اذا أمكن ذلك ٠ هأنا ذا احتفظت لنهاية رسالتى بأجمل شىء يمكن أن ازفه اليك يا روديا ٠ اعلم يا بنى الحبيب أننا ربما اجتمع شملنا كلنا ثانيةً فىالقريب،

وأننا قد نتعانق نحن الثلاثة بعد هذا الفراق الذى دام قرابة ثلاثة أعوام . نعم لقد اصبح « يقيناً » منذ الآن أننا سنسافر أنا ودونيا الى بطرسبورج. أما متى نسافر فلست أدرى ، ولكننا سنسافر قريبا جدا ، ربما بعد أسبوع . ان كل شىء رهن بالاستعدادات التى سيتخذها بطرس بتروفيتش ، وسوف يبلغنا هذه الاستعدادات فور استقراره ببطرسبورج. انه يحرص لأسباب معينة أن يتم الزفاف بأقصى سرعة ويتمنى لو يتم الاحتفال به فى غضون شهر اذا أمكن ، أو فى أقرب موعد على أكثر تقدير ، أى بعد عيد الصوم الكبير فوراً . آه ! ما أعظم الفرح الذى سأشعر به حين سأشدك الى قلبى ! ان دونيا تضطرب أشد الاضطراب حين تتصور أنها ستسعد بلقائك . حتى لقد قالت مرة من باب المزاح انها مستعدة لأن تتزوج بطرس بتروفيتش لا لشىء الا هذا ! انها ملاك ، ملاك حقاً ! لن تضيف دونيا الى رسالتى هذه شيئاً ، ولكنها ترجونى أن اقول لك ان هناك أموراً كثيرة تريد أن تحدثك فيها ، أشياء تبلغ من الكثرة أنها لا تستطيع أن تعزم أمرها على تناول القلم ، لأن المرء لا يمكنه أن يقول ببضعة أسطر شيئاً ، فلو حاول أن يكتب لما زاد على أن يثير أعصابه. وهى تكلفنى كذلك بأن أضمك الى صدرى ضماً قوياً ، أن أعانقك عناقاً شديداً ، وأن أبعث اليك بقبلات لا حصر لها ولا عد .

« ولكن رغم أننا سنلتقى قريباً فان ذلك لن يمنعنى من أن أرسل اليك بعض المال فى الأيام القريبة . سوف أرسل اليك ما أستطيع ارساله. فالآن وقد علم جميع الناس أن دونيتشكا ستتزوج بطرس بتروفيتش قريباً أصبح فى وسعى فجأة أن استدين مبالغ أكبر من المبالغ التى كنت أستطيع أن أستدينها من قبل ، ولقد علمت من مصدر مطلع أن آتانازى ايفانوفيتش سوف يثق بى فيقرضنى سلفة على معاشى تبلغ ستين روبلاً ، فقد أستطيع أن أرسل اليك اذن خمسة وعشرين روبلاً بل ثلاثين . كان يمكن أن

أبعث اليك بمبلغ أكبر لولا أننى أخشى نفقات الطريق بعض الخشية فرغم أن بطرس بتروفيتش رجل طيب وأنه سيتحمل جزءاً من النفقات التى سيقتضيها سفرنا الى العاصمة ، أى رغم أنه عرض علينا أن يتولى الانفاق على شحن أمتعتنا وصندوقنا الكبير (بفضل ما له من علاقات) فان علينا أن نحسب حساب وصولنا الى بطرسبورج ، فليس يستطيع المرء أن يجيء الى هذه المدينة بلا قرش فى جيبه ، ولا سيما فى الأيام الأولى. على كل حال ، لقد أجرينا أنا ودونيا حساباتنا بأكبر دقة ممكنة ، فظهر لنا أن رحلتنا لن تكلف نفقات باهظة . ان المسافة بين بلدتنا وبين محطة السكة الحديدية لا تزيد على تسعين فرسخاً * ، وقد اتفقنا منذ الآن مع فلاح نعرفه على أن نقطع هذه المسافة بعربته كراء . ومن هناك ، سنسافر سفراً مريحاً جداً فى الدرجة الثالثة من القطار . هكذا ترى أننى قد استطيع أن أرسل اليك لا خمسة وعشرين روبلاً بل ثلاثين ... ثلاثين حتماً .

« ولكن حسبى هذا الآن ! لقد سودت ورقتين كبيرتين وجهاً وقفاً ، ولم يبق فيهما متسع لمزيد من الكلام . ثم انك قد عرفت الآن قصتنا كلها ... الله يعلم كم جرى لنا من أحداث ! والآن يا روديا ، يا كنزى الحبيب ... أقبلك بانتظار لقائنا القريب ، وأبعث اليك برضاى عنك وبركتى لك ! أحب أختك دونيا ، يا روديا ... أحبها كما تحبك ... واعلم علم اليقين أنها تحبك حباً لا نهاية له ، أنها تحبك اكثر كثيراً مما تحب نفسها ! هى ملاك يا روديا !... وأنت كل شيء عندنا يا روديا ... أنت أملنا كله ، وأنت مستقبلنا كله ! حسبنا أن تسعد أنت حتى نسعد نحن أيضاً ! هل تصلى لله دائما كما كنت تصلى له يا روديا ؟ أما زلت تؤمن برحمة خالقنا وفادينا ؟ اننى أخشى فى قرارة قلبى أن تكون الزندقة الرائجة فى هذا الزمان قد سرت عدواها اليك ! فاذا كان الامر كذلك ، فاننى اصلى من أجلك ، واستغفر الله لك . تذكر يا بنى الحبيب

كيف كنت في طفولتك اثناء حياة ابيك، تذكَّر كيف كنت تتمتم صلواتك جالسا على ركبتيك ، وتذكّر كم كنا سعداء في تلك الايام !...
استودعك الله يا روديا ، بل « الى اللقاء » ! انني أشدك اليَّ شدا قويا ، أحضنك بذراعي ، أعانقك ، وأطبع على وجهك قبلات لا حصر لها ...

لك حتى الممات

« بولشيريا راسكولنيكوفا »

منذ بدأ راسكولنيكوف قراءة الرسالة الى آن أتمها ، لم تنقطع الدموع عن الجريان على خديه . ولكنه حين فرغ من قراءتها ارتعش وجهه الذي اصفر على حين فجأة ، وطافت به ابتسامة أليمة حانقة خبيثة شنّجت شفتيه . وتهاوى برأسه على وسادته الهزيلة القذرة ، وراح يفكر ... راح يفكر ملياً ... كان قلبه يخفق خفقاناً قوياً ، وكانت افكاره مضطربة أشد الاضطراب . وأحس أخيراً باختناق في هذه الحجرة الصفراء التي تشبه أن تكون خزانة أو صندوقاً . ان نظراته وأفكاره تحتاج الى فضاء واسع . فتناول قبعته وخرج ... خرج دون أن يخشى في هذه المرة ان يلتقي بأحد على السلم ... أصبح لا يفكر في هذا الأمر. ومضى في اتجاه جزيرة فاسيلفسكي سالكاً شارع ف ... ، كأن أمراً ملحاً مستعجلاً كان يناديه الى هناك . ولكنه كان ، على عادته ، يسير دون أن يلاحظ أي شيء أثناء الطريق ، وكان يدمدم بكلام بينه وبين نفسه ، بل كان يتكلم أيضاً بصوت عال ، فيثير بذلك دهشة المارة ، حتى لقد حسبه كثير من الناس سكران .

الفصل الرابع



رسالة أمه ارهاقاً شديداً . ولكنه فيما يتعلق بالنقطة الجوهرية الأساسية لم يساوره الشك لحظةً واحدة حتى عند القراءة الأولى . كان قد اتخذ فى جوهر القضية قراراً لا رجعه عنه « لن يتم هذا الزواج ماحييت. فليذهب السيد لوجين الى الشيطان! ».

كان يجمجم قائلاً وهو يبتسم ويتلذذ منذ الآن تلذذاً خبيثاً بانتصار قراره : « الأمر واضح لا لبس فيه . لا يا أماه ، لا يا دونيا ، لن تستطيعا أن تخدعانى ... وهى تعتذر أيضا عن أنها لم تستشرنى وعن أنها رتبت الأمر دون علمى ودون ارادتى ! وماذا أيضاً ؟ هما تتخيلان اذن أنه لم يبق سبيل الى فسخ الخطوبة . طيب ! سوف نرى أهناك سبيل الى ذلك أم لا ! ويا لها من حجة غريبة : انه رجل مشغول جداً ، بطرس بتروفيتش هذا ... يبلغ وقته من الازدحام بالاعمال أنه لا يستطيع أن يتزوج الا على جناح السرعة ، حتى لكأنه يتمنى أن يتم الزواج فى عربة ان لم يكن فى القطار ! لا ، لا يا دونيتشكا ... وانى لأعلم ما هى الأشياء « الكثيرة » التى تريدين أن تحدثينى عنها ... وانى لأعلم أيضاً ما الذى فكرت فيه طوال الليل وأنت تذرعين الغرفة جيئة وذهاباً ، وما الذى طلبته فى صلواتك امام « عذراء قازان » التى توجد أيقونتها فى غرفة نوم أمنا . ما أشد وعورة طريق الجلجلة !... هم ... هكذا

اذن ••• كل شيء قد تقرر نهائياً ••• تحسبين أن من الخير يا أدفوتيا رومانوفا أن تتزوجي رجلاً من رجال الاعمال ، رجلاً وضعياً عملياً ، يملك رأس مال له (أو فلنقل يملك « منذ الآن » رأس مال له ، فذلك أقرب الى الجد والى فرض المهابة والاحترام) رجلاً هو « فيما يبدو » طيب (كما تلاحظ دونيا نفسها) • ما أبلغ هذا التعبير : « فيما يبدو » ! ان دونيتشكا هذه نفسها هي التي ستتزوج ذلك الرجل ، الطيب « فيما يبدو » ! رائع ! رائع !•••

« ••• على أنني يهمني أن أعرف لماذا حدثتني أمي في رسالتها عن « الأجيال الجديدة » ؟ ترى أهي فعلت ذلك من اجل ان تصف لي طبع الرجل فحسب أم فعلته لغاية أبعد من ذلك هي أن تهيئني لان أحكم على السيد لوجين حكماً حسناً وأن أرى فيه رأياً جيداً ؟ آه ••• يا للماكرتين! وانه ليهمني أيضاً ان اعرف الحقيقة فيما يتعلق بالنقطة التالية : الى أي حد كانت كل منهما صريحةً مع الأخرى في ذلك اليوم وفي تلك الليلة وفي سائر الوقت ؟ هل نُطقت جميع « الكلمات » حقاً ، أم ان كلاً منهما قد فهمت ما يدور في قلب الأخرى وما يجري في فكرها ، فكان كل كلام زيادة لا طائل تحتهـا ولا داعي اليها ؟ لعل الأمر كان كذلك ، في جلّه على الأقل ••• هذا ما يدركه المرء حق الادراك من الرسـالة نفسـها : فالرجل قد بدا لأمي « مسرفاً في الصرامة بعض الاسراف » ، ولا بد أن تكون أمي بسـذاجتها المعهودة فيها قد أسمعت دونيـا ملاحظتها الماعاً وتلميحاً ، ولا بد أن تكون الأخرى قد اغتاظت طبعاً فكان في جوابها شيء من « الغضب والحزن » • ذلك طبيعي ! من ذا الذي يمكن أن لا يغضب حين يكون الأمر واضحاً يفقأ العينين ، وحين لا يكون ثمة حاجة الى أية ملاحظة تقال ، وحين يكون كل شيء قد تقرر فلا داعي الى كلام ؟ ولماذا تكتب لي أمي قائلة : « أحبب دونيا ••• فهي تحبك اكثر من نفسها ؟ »•

أليس مرد هذا الى عذاب الضمير الذى يبرّحها خفيةً ، لأنها ضحّت فى سبيل ابنها بابنتها ؟ « انت املنا كله . انت عندنا كل شىء » آه يا أماه !

ان غضباً ما ينفك يشتد ويقوى كان يتجمع فى نفسه ويتراكم ، فلو لقى السيد لوجين فى تلك اللحظة ، اذن لقتله فى اغلب الظن .

واصل يقول متابعاً اعصار أفكاره الذى كان يعصف فى رأسه : « هم ... هذا حق ... هذا حق ... من أراد أن يعرف أحداً فعليه « أن يتصرف ازاءه تصرفاً فيه كثير من التروى والتعقل والحكمة والحذر » . ولكن السيد لوجين واضح شفاف . هو قبل كل شىء « رجل من رجال الأعمال » وهو « طيب فيما يبدو » . ألا نرى أنه يتولى شحن أمتعتهما وصندوقهما الكبير على نفقته ؟ فكيف لا يكون اذن طيباً ؟ والخطيبة والأم كلتاهما تستأجران فلاحاً يملك عربة ذات مظلة (أنا أعرف ما هذا ، فقد بلوته ، وقطعت هذه المسافة بتلك الطريقة) . أى ضير ؟ ان المسافة لا تزيد على ٩٠ فرسخاً ، « ومن هناك نسافر سفراً مريحاً جداً فى الدرجة الثالثة من القطار » . الف فرسخ فى الدرجة الثالثة ! معقول جداً : ان كل انسان ينفق ما تسمح له موارده بانفاقه ! ولكن ما رأيك انت يا سيد لوجين ؟ ما رأيك أنت ؟ الفتاة خطيبتك ... ولا بد أنك تعلم أن الأم ستقترض سلفة على معاشها لتستطيع سداد نفقات الرحلة ! عقلك عقل تجارى محض طبعاً ... انت تنظر الى الأمر نظرتك الى مشروع تجارى يشترك فيه طرفان يقتسمان ارباحه نصيبين متساويين ، فلا بد أن يسهم كُلا منهما فى نفقاته بنصيبه كاملاً . لسان حالك يقول ما يقوله المثل السائر « الخبز والملح لى ولك ، أما التبغ فلكل تبغه الخاص به » . ولكن رجل الاعمال قد غشهما وغبنهما فى هذه النقطة أيضاً : نفقات شحن الأمتعة اقل من نفقات السفر ، وقد يستطيع رجل الاعمال هذا ان يشحن الأمتعة بالمجان . أهما لا تريان هذا أم هما لا تريدان أن ترياه ؟ والعجيب أنهما

راضيتان ، راضيتان ! وما هذه الا الازهار أما الثمار فستأتي بعد ذلك ! وأخطر ما في الامر ليس هو البخل ، ليس هو الشح ، وانما هو هذا « الطابع » العام الذي يطبع الامر كله مؤذنا بما ستصير اليه الاحوال بعد الزواج ... وأمي : ما بالها تريد ارتكاب حماقات ؟ بماذا ستصل الى بطرسبرج ؟ بثلاثة روبلات في جيبها ، أو « بورقتين صغيرتين » * كما تتصور العجوز المسكينة ؟.. هم... وعلى أي شيء تعوّل من أجل أن تعيش بعد ذلك في بطرسبرج ؟ ولقد استطاعت مع ذلك ، كما تدل بعض القرائن ، أن تدرك أنه سيستحيل عليها أن تعيش مع دونيا حتى اثناء الآونة الأولى من الزواج . لا شك أن الرجل العزيز قد كشف القناع عن نفسه بطريقة أو أخرى ، لا شك أنه قد أفهمهما الأمر ، رغم أن أمي تستبعد هذا الافتراض بكلتا يديها قائلةً : « أنا سأرفض » . فعلى أي شيء تعوّل اذن ؟ أهي تعوّل على معاشها الذي يبلغ مائة وعشرين روبلاً سيقتطع منها الدين المقترض من آثانازي ايفانوفتش ؟ انها تقضي الشتاء كله في حياكة مناديل وتطريز أكمام ، فترهق بذلك عينيها المتعبتين . ولكن حياكة المناديل وتطريز الأكمام لا يضيفان الى المائة وعشرين روبلاً في السنة الا عشرين أخرى . أنا اعلم ذلك ! هي اذن تعتمد رغم كل شيء على كرم القلب ونبل النفس لدى السيد لوجين: « سيعرض عليّ من تلقاء نفسه أن يساعدني ، وسيلحّ ... » . لقد اخطأ ظنها فلن تنال ما تتمناه ! هكذا حال النفوس الرومانسية دائماً : تظل حتى آخر لحظة تزيّن الناس بريش الطاووس ، تظل حتى آخر لحظة تفترض الخير لا الشر ؟ ورغم تصورها وجود الشر فانها لا يمكن أن تعترف بذلك لنفسها بحال من الأحوال : ان تصور هذا وحده يصدمها ويهزها هزاً قوياً . فهي بيديها تحجب وجهها حتى لا ترى الحقيقة ، الى أن يأتي الانسان الذي زينته بريش ملون من خيالها فيصفع وجهها ويدمي أنفها بيده نفسها . ليتني

أعرف هل يحمل السيد لوجين أوسمة ، انني أراهن على أنه يملك وسام « القديسة حنة » * وأنه يزين به عروته حين يذهب الى حفلة عشاء يقيمها أحد من المقاولين أو كبار التجار ، ولن ينسى أن يفعل ذلك أيضاً يوم زفافه ! على كل حال ... شيطان يأخذه !...

« ووالله ... انى لأسامح أمى ، فهى كما هى، كان الله فى عونها !.. ولكن ماذا أقول عن دونيا ؟ انني اعرفك يا عزيزتي دونيتشكا ! كنت قد بلغتِ العشرين من عمرك حين التقينا آخر مرة ، وقد ادركتُ طبعك وفهمتُ خصالك منذ تلك اللحظة ، أمي تقول « ان دونيتشكا تستطيع احتمال اشياء كثيرة » ... نعم ... هذا أمر اعرفه ، اعرفه منذ سنتين ونصف سنة ... وانا منذ سنتين ونصف سنة ، لا أفكر الا فى « هذا » ، لا أفكر الا فى « هذا » نفسه ... وهو أن دونيتشكا « تستطيع احتمال أشياء كثيرة » ، لئن استطاعت أن تحتمل السيد سفيدريجايلوف ، وأن تحتمل كل العواقب التى ترتبت على سلوكه ، فهذا دليل على أنها تستطيع فعلاً أن تحتمل أشياء كثيرة !... وها هما الآن ، هى وأمى ، قد تخيلتا أن فى الأمكان احتمال رجل مثل لوجين ، لا يتحرج من شرح مزايا زواج الرجل بامرأة فقيرة لتشعر بفضلها عليه ، ولا يتحرج من شرح هذه النظرية منذ أول لقاء ! طيب ... لنسلِّم بأن ذلك قد « أفلت » من لسانه على غير ارادة منه ، رغم أنه رجل وضعى عملى (فمن الجائز أن شيئاً لم يفلت من لسانه افلاتا وانما هو أراد عامداً أن يوضح الأمور دون أن يضيع وقتاً) ، ولكن ماذا أقول فى دونيا ؟ ماذا أقول فى دونيا ؟ لا شك أنها قد كشفت الرجل وأزاحت القناع عن وجهه وعرفته على حقيقته ، ثم هى تقبل أن تعيش معه ! انني اعرفها : انها تؤثر أن لا تأكل الا خبزاً وأن لا تشرب الا ماءً ، على أن تبيع روحها !... انها لا يمكن فى سبيل الحصول على الرخاء والدعة أن تبيع روحها وأن تفقد حريتها !

انها تأبى أن تتنازل عن هذه الحرية فى سبيل دوقية شفلسفيج هولشتاين*
كلها ، فكيف تتنازل عنها فى سبيل السيد لوجين ؟... لا ! ان دونيا التى
أعرفها لم تكن هكذا ... ولا يمكن أن تكون قد تبدلت هذا التبدل كله
... ذلك مستحيل !... فماذا أقول ؟ صحيحٌ أنه أمر شاق عليها أن
تحتمل أمثال آل سفيدريجايلوف ، وأن تظل طوال حياتها تمضى من اقليم
الى اقليم لتعمل مربية فى سبيل أن تجنى مائتى روبل . ولكنى أعلم أن
اختى تؤثر أن تساء معاملتها كما يسىء مزارع معاملة زنجى أو كما يسىء
المانى من مقاطعات البلطيق معاملة رجل ليتونى * ، على أن تدنس روحها
وأن تفسد حسها الأخلاقى بالارتباط الى الأبد برجل لا تحبه ولا يجمعها
به شىء ! ولا بد أنَ ترفض أن تصبح خليلة شرعيــة للسيد لوجين ولو
كان السيد لوجين ذهبا كله أو ماساً كله ! فلماذا تقبل هذا الزواج الآن؟
ما هو مفتاح السر ؟ الأمر واضح ! لو كانت تنشد مصلحتها هى ورخاءها
هى ، لرفضت أن تبيع نفسها ولو لتجنب الموت . اما فى سبيل شخص
آخر فانها مستعدة لأن تبيع نفسها ! نعم انها فى سبيل شخص محبوب ،
فى سبيل شخص معبود ، مستعدة لأن تبيع نفسها ! ذلك هو مفتاح اللغز :
انها فى سبيل اخيها وفى سبيل أمها قادرة على أن تبيع نفســها ، على أن
تبيع كل شىء ! آه .. نعم اننا نستطيع عند اللزوم انَ نخنق حتى احساسنا
الاخلاقى ! اننا نستطيع عند اللزوم أن نحمل الى السوق كل شىء فنبيعه
فيها : الحرية ، الطمأنينة ، وحتى راحة الضمير ! ألا فلتتحطم حياتنا اذا
كان فى ذلك سعادة لأولئك الذين نحبهم ! واكثر من ذلك أننــا نلفق
لأنفسنا عندئذ سفسطة خاصة نتعلمها من اليسوعيين فنريح ضمائرنا الى
حين ، مسوّغين أعمالنا قائلين لأنفسنا : ان ما فعلناه هو ما كان ينبغى لنا
ان نفعله ما دمنا نعمل فى سبيل هــدف نبيل وغاية شريفة ! نحن جميعاً
هكذا . كل شىء واضح الآن وضــــوح النهــار . لا شــك أن روديون

رومانوفيتش راسكولنيكوف ، ولا أحد سواه ، قد احتل المقام الأول من الاعتبار في هذه القصة • كيف لا ؟ ان من الواجب ان نعمل لتوفير السعادة له ، وأن نعيله ما ظل في الجامعة ، وأن نجعله في المستقبل شريكاً لرجل من رجال الاعمال ، أي أن نضمن له مستقبله ، فيصبح غنياً محترماً مرموقاً ، حتى لقد يصل في أواخر أيامه الى المجد • والأم ؟ ما قولنا في الأم ؟ كيف تضحي بابنتها هذه التضحية ؟ ولكن الأمر هنا امر ولدها الأول ، أمر ابنها روديا ، أمر ابنها الغالي روديا ! فكيف لا تضحي في سبيل مثل هذا الولد الأول بمثل هذه البنت ؟ يا لظلمك أيتها القلوب العزيزة ! أتجهلين اذن أن المرء قد تدفعه نية كهذه النية أن يشاطر صونيا مصيرها ؟ نعم صونيا ، صونيتشكا مارملادوفا ، صونيتشكا الخالدة ، الخالدة خلود العالم ! ولكن هل تصورتما كلتاكما مدى هذه التضحية ؟ هل هذه التضحية هي حقاً ما تفكران فيه ؟ هل تملكان القدرة على القيام بهذه التضحية ؟ وهل هذه التضحية مفيدة حقاً ؟ هل تعلمين يا دونيتشكا ان مصير صونيا ليس أفظع من مصير امرأة قُضي عليها أن تعيش مع السيد لوجين ؟ ان امي تقول : « لا مجال للكلام عن حب حقيقي » ولكن ماعسى يحدث ، بصرف النظر عن قضية الحب هذه كلها ، اذا لم يكن هنالك أيضاً شيء من الاعتبار والاحترام ، بل كان هنالك منذ الآن نفور واحتقار واشمئزاز ؟ ما عسى يحدث حينذاك ؟ سيكون من الواجب عندئذ مرة أخرى « مراعاة النظافة » • أليس الأمر كذلك ؟ هل تفهمان ، هل تفهمان حق الفهم ماذا تعنيه هذه « النظافة » ؟ هل تدركان ان هذه النظافة لا تختلف في نظر رجل مثل لوجين عن نظافة صونيتشكا ، بل من الممكن أن تكون أحقر منها وأدنى وأسفل ، لأنك يا دونيتشكا تستهدفين مزيداً من الرخاء ، أما هنالك فالأمر لا يزيد على الرغبة في تحاشي الموت جوعاً. « انها تكلف ثمناً باهظاً ، باهظاً جداً يا دونيتشكا ، تلك النظافة » ! وماذا

ماذا أصبح الحمل فى المستقبل أثقل من أن تطيقيه ، فستبدت بك الندامة ؟ ما أشد ما ستشعرين به عندئذ من حزن ومن كرب ، وما اكثر ما سيلاحق ضميرك عندئذ من لعن ، وما أغزر ما ستذرفين عندئذ من دموع تخفينها عن أعين الناس ، لأنك لست امرأة مثل مارتا بتروفنا على كل حال ؟ وما عسى تصير اليه امنا حينذاك ؟ انها منذ الآن قلقة معذبة ، فكيف تكون حالها في المستقل حين ترى كل شيء رؤية واضحة ؟ وأنا ؟... ما الذى تظنينه فيّ اذن ؟ انني لا أريد هذه التضحية يا دونيتشكا ! انني لا أريدها يا أمـــاه ! لا ، لن يتم هـذا الأمـر ما حييت ، لن يتم ، لن يتم ! انني أرفضه !... » .

هنا ثاب راسكولنيكوف الى رشـده فجأة ، فتوقف عن السـير ، ثم واصل يخاطب نفسه : « لن يتم هذا الزواج ؟ ولكن ما عساك تفعل حتى تحول دونه ؟ أتمنعهما ؟ ولكن بأى حق تمنعهما ؟ ما الذى تستطيع أن تبدهما به في مقابل ممارسة مثل هذا الحق ؟ ان تقف عليهما حياتك كلها ومستقبلك كله متى أنهيت دراستك ووجدت عملاً ؟ أغنية معروفة !... ذلك كله هو المستقبل ، فماذا فى الحاضر ؟ يجب عليك اذن أن تعمل شيئاً منذ الآن ، هل تفهم ؟ فمـاذا تفعل انت الآن ؟ انك تعيش عالة عليهما . والمال الذى تنفقانه عليك انما تقترضـانه سـلفةً على معاش التقاعد وعلى أجور من أمثال سـفيدريجايلوف ! وكيف عسـاك تحميهما من امثـال سفيدريجايلوف وأمثال أثاناژى ايفانوفيتش فاخروشين ؟ انت يا مليونير المستقبل ، انت يا اله الأولمب الذى تتحكم بمصـيرها ، أبعد عشر سنين تفعل لهما شيئاً ؟ ولكن امك سـتكون بعد عشر سـنين قد فقدت بصرها من فرط اكبابها على حيـاكة المنـاديل ، وربما من فرط ذرفها للدموع ، وسيكون تكرر الصيام عن الطعام والحرمان من الغـذاء قد انتصر عليها فهدم جسمها !... أما اختك ... فهيًّا تخيل قليلاً ما ستصير اليه بعد

عشر سنين ، هيّا تخيل قليلاً ما ستئول اليه حالها بعد عشر سنين !٠٠ »

هكذا ، بهذه الأسئلة ، انما كان راسكولنيكوف يعذب نفسه ، فكان الاهتياج الذى يحسُّه من ذلك يستحيل الى نوع من تلذذ ٠ على ان هذه الأسئلة ليس فيها شيء غير متوقع ٠ انها غير جديدة عليه ، بل هى قديمة جداً ، وهى تعذبه منذ زمن طويل ٠ نعم ، لقد كانت هذه الأسئلة تعذبه وترهقه وتمزق قلبه منذ زمن طويل ٠ لقد كان هذا القلق يشب فى نفسه وينمو ويتراكم منذ زمن طويل ٠ ونضج هذا القلق فى الآونة الأخيرة ، وتركز وتكثف ، فاذا هو يتخذ صورة سؤال رهيب ، سؤال وحشى عجيب مسعور ، يضنى قلبه وفكره ، ويطلب جواباً لا سبيل الى تحاشيه ٠ وها هى ذى رسالة أمه تنقض عليه فجأة كما تنقضُّ الصاعقة٠ أصبح واضحاً أن الواجب الذى يقع على عاتقه الآن ليس هو أن يتشكى وأن يتألم قاعداً لا يعمل ، وانما ينبغى له الآن أن يفعل شيئاً بأقصى سرعة ممكنة ، بل وينبغى له أن يفعل شيئاً على الفور ٠ ان من واجبه أن يتخذ قراراً مهما كلف الأمر ، أيا كان هذا القرار ، أو أن ٠٠٠

ثم صاح يقول فجأة بصوت عال وقد خرج عن طوره : « ٠٠٠ أو أن أستغنى عن الحياة ، فأقبل مصيرى صاغراً الى الأبد ، وأخنق فى نفسى كل شيء ، وأتنازل عن حقى فى أن أعمل ، وأن أحيا ، وأن أحب ! »٠

وتذكر السؤال الذى ألقاه عليه بالأمس مارميلادوف ، فدمدم يردده : « هل تدرك يا سيدى العزيز ما معنى أن لا يعرف الانسان الى أين يذهب ؟ ذلك أنه لا بد لكل انسان أن يستطيع الذهاب الى مكان ما »٠

وارتعش راسكولنيكوف على حين فجأة ٠ ان فكرة آتية من الليلة البارحة هى أيضاً قد ومضت فى ذهنه مرة أخرى ٠ ولكن لئن ارتعش ، فانه لم يرتعش لأن هذه الفكرة قد ومضت فى ذهنه ٠ لقد كان يعلم ،

كان يوجس أن هذه الفكرة لا بد أن تعاوده ، فكان يتوقعها وينتظرها • غير أن هذه الفكرة ليست الآن ما كانت فى الليلة البارحة ، والفرق بينها وبين فكرة الليلة البارحة أنها لم تكن منذ شهر ، ولا فى الليلة البارحة ، الا حلماً ، أما الآن ••• أما الآن فهى لا تعرض لفكره فى صورة حلم ، بل هى تعرض له فى صورة جديدة ، فى صورة رهيبة مخيفة ، لا عهد له بها من قبل ••• لقد أدرك ذلك على حين بغتة ••• فأخذ الدم يدق فى صدغيه ، واسودّ كل شىء أمام عينيه •

ألقى على ما حوله نظرة سريعة • كان يبحث عن شىء ما • كان يريد أن يجلس ، فهو يبحث عن دكة يقعد عليها • انه الآن فى شارع ك ••• وعلى مسافة مائة خطوة توجد دكة •

اتجه راسكولنيكوف نحو الدكة بأقصى سرعة يستطيعها ، غير أن حادثاً صغيراً وقع له أثناء الطريق ، فشدّ انتباهه كله خلال بضع دقائق•

لقد لمح ، وهو يبحث بنظره عن الدكة ، لمح امرأة كانت تسير أمامه، على بعد عشرين خطوة تقريباً • غير أنه فى أول الأمر لم يولها أى انتباه ، كما لم ينتبه الى كل ما كان قد صادفه حتى الآن • لقد اتفق له ، مراراً كثيرة ، أن رجع الى منزله دون أن يتذكر الطريق الذى سلكه • تلك عادة أصبحت راسخةً فيه • ولكن المرأة التى تسير أمامه الآن فيها شىء يبلغ من الغرابة والشذوذ ومن القدرة على لفت النظر وخطف البصر ، أن انتباهه قد تركز عليها شيئاً بعد شىء ، رغم ارادته وعلى ما يشبه المضض فى أول الأمر ، ثم بقوة ما تنفك تزداد بعد ذلك • واستبدت به رغبة مفاجئة فى أن يعرف ما هو الشىء الذى يبلغ فى هذه المرأة ذلك المبلغ كله من الغرابة • وسرعان ما أدرك أنها لا بد أن تكون فتاة فى ريعان الشباب• كانت الفتاة ، رغم الحر الشديد ، تسير حاسرة الرأس بلا مظلة

ولا قفازين ، مرجّحة يديها بحركات غريبة مضحكة . وكانت ترتدى ثوباً صغيراً من حرير خفيف ، لكن فيه شيئاً من الغرابة والشذوذ هو أيضاً ، فلا يكاد يضم طرفيه ابزيم ، وقد انشق من الخلف عند الخصر ، وتمزق جزء كبير من أسفله فتهدل . وكانت تضع حول عنقها العارى منديلاً قد لُفَّ مقلوباً . وكانت الفتاة ، فوق ذلك ، تمشى مشية مضطربة ، فهى تتعثر وتترنح ذات اليمين وذات الشمال . ان هذا اللقاء أثار كل اهتمام راسكولنيكوف آخر الأمر . وقد أدركها لحظة كانت تقترب من الدكة ، ولكن الفتاة ما ان وصلت الى الدكة حتى تهالكت تجلس على أحد طرفيها ، وتقلب رأسها الى وراء فتسنده الى ظهرها ، وتغمض عينيها وقد ظهر عليها أنها محطمة من فرط التعب . فلما تأمّلها لم يلبث أن لاحظ أنها ثملة قد أخذ السكر منها كل مأخذ . وكان ظهورها على هذا النحو يبلغ من الغرابة والشذوذ أن راسكولنيكوف تساءل هل تصدقه عيناه . كان أمامه وجه بائس فى ميعة الصبا ، وجه لا يزيد عمره على ستة عشر عاماً ، وقد لا يزيد على خمسة عشر عاماً ، دقيق نحيل يحف به شعر أشقر ، جميل ولكنه محتقن حتى لكأنه متنفخ متورّم . وكان يبدو أن الفتاة لا تعى شيئاً . لقد وضعت ساقاً فوق ساق ، فانكشف من ساقيها ما لا يليق أن ينكشف ، وأغلب الظن أنها كانت لا تكاد تدرك أنها فى الشارع .

لم يجلس راسكولنيكوف ، ولكنه لم يشأ أيضاً أن ينصرف ، فبقى واقفاً أمامها وقد استولت عليه الحيرة واستبد به الاضطراب . كان الشارع شبه خالٍ : ففى الساعة الواحدة بعد الظهر من ذلك اليوم ، أثناء ذلك الحر الشديد ، لم يكد يمر فى الشارع أحد . ومع ذلك فعلى بُعد خمس عشرة خطوة ، كان قد وقف سيد عند حافة الشارع يبدو واضحاً أنه يريد هو أيضاً أن يقترب من الفتاة لغاية واضحة . لا شك أنه كان هو

أيضاً قد لمحها من بعيد فتبعها . ولكن راسكولنيكوف يضايقه الآن ويزعجه . ألقى السيد على راسكولنيكوف نظرات فيها كره وبغض ، محاولاً مع ذلك أن لا يظهر من هذا شيئاً ، وأخذ ينتظر ، بفارغ صبر ، انصراف هذا المتشرد الذى جاء فى غير أوانه ليحتل مكانه . كان الأمر اذن واضحاً . والسيد رجل فى نحو الثلاثين من عمره ، بدين الجسم ، سمين ، نضر الوجه ، يعلو شفتيه شاربان صغيران ، ويرتدى ثياباً أنيقة كل الأناقة . غضب راسكولنيكوف غضباً رهيباً ، واستبدت به على حين فجأة رغبة جامحة فى أن يهين هذا السيد المتجمل المتأنق بطريقة أو بأخرى ، فترك الفتاة لحظة ، واقترب من السيد ، وصاح يقول وهو يشد قبضتى يديه ضاحكاً مُزْبداً :

ـ هيه ! أنت ! سفيدريجايلوف !

فسأله الرجل بلهجة قاسية متعالية متكبرة وقد قطب حاجبيه وظهرت الدهشة فى وجهه :

ـ ما معنى هذا الذى تقول ؟

ـ معناه اغرب عن وجهى ! هذا معناه !...

ـ كيف تجرؤ أن تقول هذا الكلام أيها الوغد الحقير ؟

قال الرجل ذلك وشهر سوطه يلوّح به . فما كان من راسكولنيكوف الا أن هجم عليه قابضاً كفيه ، حتى دون أن يقول لنفسه ان هذا السيد السمين يستطيع بسهولة أن يجهز على شخصين من قدّه .

ولكن أحداً قد أمسكه من خلف فى تلك اللحظة نفسها امساكاً قوياً : انه رجل من رجال الشرطة يتدخل فى المشاجرة .

ـ هيه ! ما بالكما أيها السيدان ؟ هلاّ امتنعتما عن الاقتتال فى الطريق العام ؟

ثم قال يسأل راسكولنيكوف بلهجة قاسية بعد أن تفحص أسماله البالية :

ـ ماذا تريد ؟ من أنت ؟

تفرس فيه راسكولنيكوف باتنباه • ان للرجل وجه جندى شجاع طيب ، مع شاربين ولحيتين على العارضين قد وخط شعرهما الشيب ، وان له نظرة تفيض تعبيراً عن الحس السليم والعقل الراجح •

صرخ راسكولنيكوف يقول وهو يمسك ذراع الشرطى :

ـ أنت أنت من احتاج اليه !

والتفت يخاطب السيد بقوله :

ـ اسمى راسكولنيكوف ••• اذا كنت تريد أن تعرف اسمى !•••

وعاد يخاطب الشرطى فقال :

ـ تعال معى ! سأريك شيئاً !

وقاد الشرطى من يده الى الدكة ، وأخذ يتدفق فى الكلام قائلاً له:

ـ انظر ! انها سكرى تماماً ••• كانت مارّة فى الشارع منذ قليل ••• لا يدرى أحد من أين خرجت ••• ولكن لا يبدو عليها أنها محترفة ••• أغلب الظن أنهم اسكروها فى مكان ما ، ثم عبثوا بها ، لأول مرة فى حياتها ••• هل تفهم ؟ ثم رموها فى الشارع ••• انظر الى ثوبها كيف تمزق ••• انظر اليه كيف لُبس ••• انها لم تلبس ثيابها بنفسها ، بل ألبسها اياها ثيابها ••• ألبستها ثيابها أيدٍ غير خبيرة ، ألبستها ثيابها أيدى رجال ••• ذلك واضح ! ثم انظر الآن هناك : انظر الى ذلك الرجل المتأنق الذى يحسب نفسه جميلاً ، والذى أردت أنا أن أضربه منذ لحظة ••• أننى لا أعرفه ••• ما رأيته فى حياتى قبل اليوم ! لكنه لاحظها هو

أيضاً في الطريق ، فأدرك أنها سكرى ، وأنها فاقدة شعورها كله • وهو الآن تحرقه رهبة في أن يقترب منها وأن يقودها الى مكان ما وهي على هذه الحالة ••• ذلك هو ما يريده حتماً ••• صدّق أنني غير مخطيء••• لقد رأيت بنفسي كيف رصدها وتبعها ••• ولكن وصولي أفسد عليه خطته ، فكان ينتظر أن أنصرف ، وما يزال ينتظر أن أنصرف ••• انظر اليه ••• لقد ابتعد قليلاً ••• وها هو ذا يقف متظاهراً بأنه يلف سيجارة ••• كيف نفعل حتى لا ندع له أن يستولي عليها ؟ ليتنا نستطيع أن نقودها الى منزلها ••• ما رأيك ؟

سرعان ما أدرك الشرطي الموقف • ان حالة السيد السمين واضحة لا سبيل الى الشك فيها • بقي أن تُعرف حالة الفتاة• مال الشرطي الطيب عليها ليراها من قرب ، فارتسمت على قسمات وجهه عاطفة شفقة صادقة• ودمدم يقول وهو يهز رأسه :

ـ يا للمسكينة ! ما تزال طفلة حقاً ! لا شك انهم عبثوا بها !

ثم أضاف يناديها :

ـ اسمعي يا آنسة ! اين تسكنين ؟

فتحت الفتاة عينيها المكدودتين المضطربتين الزائغتين ، وألقت نظرة مشدوهة على الرجلين المزعجين ، وأجرت يدها بحركة كأنها تريد أن تطردهما •

قال راسكولنيكوف وهو ينبش جيبه فيخرج منه عشرين كوبكاً كانت ما تزال فيه :

ـ اسمع ! خذ هذه النقود ، وناد حوذياً ، ومُره أن يقودها الى بيتها • ليتنا نستطيع ان نعرف عنوانها !•••

عاد الشرطي يقول وهو يتناول النقود :

ـ يا آنسة ! هيه ! يا آنسة ! سأنادي عربة على الفور فأعود بك الى منزلك بنفسي ! الى اين يجب أن أقودك ؟ قولي ! اين تسكنين ؟

فجمجمت الفتاة تقول وهي تُجري يدها بتلك الحركة نفسها :

ـ دعوني وشأني ! لا تتشبثوا بي !

ـ آه ! ليس هذا بالمستحسن يا آنسة ! هذا عيب . هذا عيب حقاً.

وهز رأسه من جديد ، معبِّراً عن الحرج والشفقة والاستنكار في آن واحد ، ثم تابع كلامه يخاطب راسكولنيكوف وهو يروزه مرة أخرى من أخمص القدمين الى قمة الرأس (كان يستغرب أن يهب المرء نقوداً ثم هو يرتدي مثل هذه الأسمال الرثة البالية) :

ـ نعم ... العنوان .. تلك هي المسألة !...

وأضاف يسأله :

ـ هل التقيت بها في مكان بعيد عن هنا ؟

ـ سبق أن قلت لك: كانت تسير أمامي مترنحة ، هناك ، في الشارع، فما ان وصلتْ الى الدكة حتى تهاوت عليها !

ـ آه ! ما أكثر العار الذي سقط على العالم يا رب ! أطفلةٌ وسكرى ؟ لا شك أنهم قد عبثوا بها ! ذلك واضح ... انظر الى ثوبها كيف تمزق كل التمزق ... هه ... ان الدعارة تحقق تقدماً كبيراً في هذا الزمان !... ومن يدري ؟ لعلها من أسرة طيبة جار عليها الدهر فأصابها بالدمار ... أمثال هذه الحالات كثيرة في هذه الأيام ... ان المرء حين يراها لطيفةً هذا اللطف كله مرهفةً هذه الرهافة كلها ، يمكن أن يحسبها آنسة .

قال الشرطي ذلك ومال عليها من جديد . لعل له هو أيضاً بنات

« تبلغ من اللطف والرهافة أن المرء يمكن أن يحسبهن آنسات » يصطنعن آداب الفتيات الراقيات •

قال راسكولنيكوف :

ـ الأمر الأساسي هو ألا نتركها لهذا الوغد الدنيء ! ان من الممكن أن يلحق بها ايذاءات جديدة • نياته واضحة وضوح النهار ! يا للوغد القذر ! انه لا ينصرف •

كان راسكولنيكوف يتكلم بقوة وهو يومىء الى السيد باصرار عنيد • سمعه الرجل فأوشك أن يغضب من جديد ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك واكتفى بأن ألقى عليه نظرة احتقار ، ثم ابتعد ببطء مسافة عشر خطوات ، وتوقف مرة أخرى •

أجاب الشرطي العجوز واجماً مفكراً يقول :

ـ أن لا ندعها له فذلك يكون أمراً سهلاً اذا نحن عرفنا المكان الذي ينبغي أن نقودها اليه ، ولكن •••

قال الشرطي ذلك ومال على الفتاة مرة اخرى وأخذ يناديها :

ـ يا آنسة ! هيه ! يا آنسة ! يا آنسة !

فتحت الفتاة عندئذ عينيها محملقة ، ونظرت بانتباه كأنما هي فهمت شيئاً ما ، ثم نهضت عن الدكة واستأنفت سيرها فى الاتجاه الذى كانت آتية منه • وجمجمت تقول وهي تُجرى يدها بتلك الحركة نفسها كأنما لتتخلص من الرجلين : « آه ! انهم لا يتحرجون ولا ينفكون يتشبثون »•

كانت تمشي بسرعة ، ولكنها تترنح فى مشيتها كترنحها منذ قليل• تبعها السيد الأنيق دون أن يحوّل بصره عنها ، سائراً فى ذلك الطريق نفسه •

وأسرع الشرطى ذو الشاربين الكبيرين يمشى وراءهما قائلاً لراسكولنيكوف بلهجة جازمة :

ـ لا تخف ، لن أتركها !

وكرر يقول متنهداً :

ـ رباه ! ما هذا الفسق الذى نراه فى هذا الزمان !

فى تلك اللحظة نفسها أحس راسكولنيكوف فى داخله بما يشبه أن يكون وخزة ، فاذا بكل شيء فى نفسه ينقلب رأساً على عقب ، واذا هو ينادى الشرطى صائحاً :

ـ هيه ! اسمع !

التفت الشرطى فقال له راسكولنيكوف :

ـ دعهما ! أى أذى يمكن ان يلحقك أنت من هذا ؟ دع الأمور تجرى على أعنتها ! دع الرجل يتسلى ! (قال ذلك وهو يشير بيده الى السيد الأنيق) . ما شأنك انت وهذا كله ؟

لم يفهم الشرطى شيئاً وحملق متعجباً . وأخذ راسكولنيكوف يضحك . قال ممثل الأمن العام وهو يحرك يده :

ـ ايه ! ايه !

وعاد يلاحق السيد الأنيق والفتاة الصغيرة . اغلب الظن أنه كان يعد راسكولنيكوف مجنونا أو شراً من ذلك .

فلما أصبح راسكولنيكوف وحيداً ، دمدم يقول فى خبث : « أخذ منى أنا عشرين كوبكاً ، وسوف ينفحه السيد الأنيق مبلغاً صغيراً آخر فيترك له البنية . نعم ... هكذا ستنتهى الأمور ... لماذا أقحمت نفسى

فيما لا يعنيني ؟ لماذا تدخلت في سبيل أن أحميها ؟ هل عليّ أنا أن أفرض نفسي حاميا ؟ هل من حقي أن أحمي أحداً أياً كان ؟ ألا فليلتهم بعضهم بعضاً أحياءً ... ما شأني أنا وهذا ؟ وكيف تجرأت أن أهب تلك الكوبكات العشرين ؟ أهي ملكي ؟ » .

ورغم هذه الأقوال الغريبة ، كان راسكولنيكوف يحس بقلبه ثقيلاً ثقيلاً . جلس على الدكة المهجورة وشردت افكاره ... كان يصعب عليه في تلك اللحظة أن يفكر في أي شيء . ودّ لو يغيب عنه وعيه ... ودّ لو ينسى كل شيء فما يشعر بشيء ... ثم يستيقظ بعد ذلك فيستأنف حياة جديدة .

قال لنفسه وهو ينظر الى طرف الدكة الذي اصبح الآن خالياً :
« يا للصغيرة المسكينة ! سوف تصحو فتبكي ، وسوف تعلم أمها بكل شيء ... فتضربها أولاً ، ثم تجلدها الى أن تتفجر من جسمها الدماء ... ستجلدها جلداً فيه أبلغ الاذلال وأعمق الاهانة ... وقد تطردها من البيت ... وهبها لم تطردها ، فلا بد أن تعلم بالأمر امرأة من أمثال داريا فرانتسوفنا ... وستأخذ الفتاةُ تجري هنا وهناك ، ستأخذ تتدحرج من هنا الى هناك ... ثم سرعان ما تُنقل الى المستشفى (تلك دائما حال البنات اللواتي يعشن مع امهات شريفات جداً ويتعاطين الفحش خفيةً » ... ثم تُنقل الى المستشفى من جديد ... شراب وحانات ثم المستشفى دائماً ... وما ان تنقض سنتان أو ثلاث حتى تصبح حطاماً ... ما ان تبلغ الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة حتى تنتهي !... ألم أرَ فتيات كثيرات في مثل حالتها ؟ كيف كنّ يصلن الى ذلك المصير ؟ بهذه الطريقة نفسها ! آه ... لا ضير ! يقال ان الأمور يجب أن تجري هذا المجرى ... يقال ان هناك نسبة مئوية لا بد أن يُضحّى بها كلّ عام ... للشيطان في أغلب الظن ... وذلك في سبيل ضمانة راحة الأخريات...

نسـبة مئوية ! ان لهم تعبيرات فيها كثير من الجمال حقاً ••• وهي فوق ذلك تعبيرات مطمئنة جداً ، علمية جداً ! ما داموا يتحـدثون عن نسـبة مئوية ، فلا داعي الى أن يصدع المرء رأسه ••• آ ••• لو قد استعملوا كلمة أخرى ، فمن الجائز ••• عندئذ ••• أن يكون الأمر أدعى الى القلق ••• هكذا ! ••• وماذا لو كان على دونيـا أن تدخل في النسـبة المئوية ، بطريقة أو بأخرى ••• فان لم تدخل في هذه النسـبة دخلت في تلك على الأقل ؟ » •

وتساءل راسكولنيكوف فجأة : « ولكن الى أين أنا ذاهب ؟ ألا انه لأمر غريب ! لقد كان لي هدف حين خرجت الى الشارع • فما ان فرغت من قـراءة الرسـالة حتى نزلت أريد الذهاب الى عنـد رازوميخين ، في جزيرة فاسيلفسكي ••• نعم ، ذلك هو المكان الذي كنت ذاهباً اليه ••• الآن تذكرت • ولكن لماذا أذهب الى رازوميخين ؟ لماذا خطر ببالي أن أذهب الى رازوميخين لا الى غيره ، في تلك اللحظة لا في غيرها ؟ شيء عجيب ! » •

دُهش هو نفسـه من قراراته • ان رازوميخين هو أحـد رفاقه القدامى في الجامعة • الغـريب أن راسـكولنيكوف ، في أيام الدراسـة بالجامعة ، لم يكن له أصدقاء تقريباً ، وكان لا يعاشر أحداً من زملائه ، لا يزور أحداً منهم ولا يسـتقبل أحـداً • ثم ان جميع رفاقه كانوا قد تحولوا عنه بسرعة • كان لا يشارك لا في الاجتماعات ، ولا في المناقشات ، ولا في المتع والمباهج ، ولا في أي شيء آخر • وكان يعمل بجد واجتهاد ، دون أن يراعي نفسه ، وبذلك اسـتطاع أن يحصـل على احترام جميع رفاقه • ومع ذلك لم يكن يحبـه أحـد منهم • وكان راسـكولنيكوف فقيراً كل الفقر ، ولكنـه كان متعداً قليـل الـكلام ، حتى لـكأنه كان يريد أن يخفي شيئاً في نفسه • وقد رأى بعض رفاقه أنه ينظر اليهم من

عل ، كما ينظر المرء الى الأطفـال تقريبـاً ، وكما لو كان يفوقهم ذكاء ونضجاً وفكراً وثقافة ورأياً . كانت اقتناعاتهم واهتماماتهم تبدو له دون مستواه كثيراً .

ومع ذلك ربطته صداقة برفيقه رازوميخين ، مهما يكن سبب هذه الصداقة . على الأقل ، كان مع رازوميخين أقل امتناعاً عن الكلام ، وأكثر صراحـة مـمـا كان كذلك مع أى رفيق آخـر . وكان من المستحيل على كل حـال أن يتصرف المرء مع رازوميخين غير هذا التصرف . كان رازوميخين فتى شديد المرح حلو المعاشرة ، وكان عدا ذلك طيب القلب الى حد السذاجة ، ولكنها سـذاجة تخفى وراءها عمقـاً صادقاً وكرامة لا سـبيل الى جحودها ، وكان خير رفاقه يعترفون له بذلك ويحبونه . ولم يكن رازوميخين بالغبى ، رغم أنه كان يبدو فى بعض الأحيان بسيطاً بعض البساطة . وكان مظهره يخطف الانتباه : كان طويلاً ، نحيلاً ، أسود الشعر ، قليل العناية بحلاقته دائمـاً . وكان يتفق له أن يحـدث شغباً ، وكان يُعدُّ أشـبه بهرقل ، بعضَ الشىء . ففى ذات ليلة ، أثناء جولة مع رفاقه ، قلب رجلاً من رجال الأمن طوله ستة أقدام . وكان يستطيع أن يشرب دون قصد ولا اعتدال ، ولكنه كان يستطيع كذلك أن لا يشرب البتة . وكان فى بعض الأحيان يدبر لغيره المكائد ، ولكنه كان يعرف كيف يحمى نفسه منها . وكان رازوميخين يتصف أيضـاً بهذه الصفة البارزة : ما من خيبة يمكن أن تثبط عزيمته وتفل شجاعته قط ، وما من ظرف سىء من الظروف يمكن أن يحمله على الانهيـار . وكان يستطيع أن يسكن فى أى مكان ، ولو تحت السقوف ، وأن يتحمل آلام الجوع وأهوال البرد . كان فقيراً جداً ، فكان ينفق على نفسه بنفســه ، حاصلاً على المال من تعاطى شتى أنواع الأعمال الصغيرة . كان يعلم أن فى وسع المرء دائماً أن يتدبر أمره فيفى بحاجاته ، على شرط أن يعمل

طبعاً ••• وقد اتفق له أن قضى شتاء بكامله دون أن يدفىء غرفته ، حتى لقد أكدَّ أن لعدم التدفئة فوائد ومزايا ، لأن المرء ينام فى الجو البارد نوماً أفضل •

وقد اضطر رازوميخين ، فى ذلك الأوان ، أن يترك الجامعة هو أيضاً ••• ولكن الى حين ، فيما كان يعتقد • فكان يحاول ، بكل ما يملك من قوة ، أن يصلح الحال بغية أن يستطيع مواصلة دراسته •

ان راسكولنيكوف لم يذهب اليه منذ أربعة أشهر • وكان رازوميخين يجهل حتى عنوان راسكولنيكوف • مرةً واحدة ، منذ شهرين ، التقيا فى الشارع مصادفةً ، ولكن راسكولنيكوف أشاح بوجهه ، حتى لقد انتقل الى الرصيف من أجل أن لا يُرى • أما رازوميخين فانه مضى فى طريقه رغم أنه لمح راسكولنيكوف ، وذلك لأنه لا يريد أن يزعج « صديقه » •

الفصل الخامس



راسكولنيكوف يحدث نفسه : « فعلاً ، لقد كنت منذ مدة وجيزة أريد أن أطلب من رازوميخين أن يجد لي عملاً ، أن يهيىء لي دروساً ، أو أي شيء آخر ... ولكن فيم يمكن أن يفيدني الآن ؟ هبه وجد لي دروساً ، بل هبه قاسمني آخر كوبك معه ، اذا كان ما يزال يملك كوبكاً ، بحيث أستطيع أن أشترى حذاءين وأن أصلح ملابسي ، فأتمكن من اعطاء دروس ... هم ... عظيم ... ولكن ماذا بعد ذلك ؟ ما عساني صانعاً بقروش قليلة ؟ أهذا ما أنا في حاجة اليه الآن؟ حقاً انها لفكرة سخيفة مضحكة أن أذهب الى رازوميخين ... » .

لماذا يذهب الآن الى رازوميخين ؟ ذلك سؤال أصبح يقلقه أكثر مما كان يتراءى له أنه يقلقه . كان يتساءل بكثير من الهم والغم ومن الخوف والقلق ما هو المعنى الغيبي الشرير الذي يكمن وراء هذه الخطوة التي أراد القيام بها ، والتي تبدو مع ذلك بسيطة عادية تافهة !...

« هل يمكن حقاً أن لا أكون قد أردت الا أن أدبّر جميع الأمور وأرتب جميع الأشياء بفضل رازوميخين وحده ، وأن لا أكون قد اهتديت الى حل الا الاستعانه برازوميخين ؟ » كذلك كان يتساءل مدهوشاً .

وكان يفكر ويفكر ، ويحك جبينه ، فاذا بفكرة غريبة تومض

فى ذهنه فجأة ، بما يشبه المصادفة . أمر عجيب ! قال بغتة بلهجة هادئة كل الهدوء ، كانما هو قد اتخذ فى تلك اللحظة قراراً حاسماً : « الى رازوميخين ! نعم ، سأذهب الى رازوميخين حتماً ... ولكننى لن أذهب اليه الآن ... وانما اذهب اليه فى يوم آخر ، بعد أن أكون قد أتممت القيام بذلك « الأمر » ، بعد أن يكون ذلك « الأمر » قد انتهى ، بعد أن يبدأ كل شيء على أسس جديدة » .

ثم ثاب الى رشده على حين فجأة ، فقال صائحاً وهو ينتزع نفسه من الدكة انتزاعاً : « بعد أن يكون « الأمر » قد انتهى ؟ ولكن هل سيتحقق ذلك « الأمر » ؟ هل من الممكن أن يتحقق ذلك « الأمر » ؟

وابتعد عن الدكة ، وانصرف مسرعاً كأنه يركض ركضاً . ودّ لو يعود أدراجه ، ويرجع الى مسكنه ، ولكنه حين تصور نفسه راجعاً الى البيت ، شعر بنفور شديد : فهناك ، فى ذلك المكان نفسه ، فى ركنه ذاك ، فى تلك الحجرة الكريهة الرهيبة ، انما نضجت فكرة ذلك « الأمر » ، منذ أكثر من شهر .

ومضى راسكولنيكوف يمشى قُدُماً لا يلوى على شيء . لقد تحول اضطرابه العصبى الى ارتعاشات حُمّى ، حتى لقد أحسّ أنه يرتجف من البرد . انه يشعر ببردٍ أثناء ذلك القيظ الشديد .

وأخذ راسكولنيكوف يتفحص جميع الأشياء التى يلقاها فى طريقه ، باذلاً فى ذلك جهداً كبيراً ، ولكن على غير شعور منه تقريباً ، مدفوعاً الى هذا بضرورة داخلية . لكأنه يحاول بأية وسيلة من الوسائل أن يسلو ، ولكن سعيه هذا الى السلوى لم ينجح كثيراً ، فهو ما يلبث فى كل لحظة أن يعود الى الاسترسال فى أحلامه ؛ فاذا هزته رعشة جديدة فرفع رأسه ونظر فيما حوله ، نسى على الفور ما كان يفكر فيه ، بل ونسى الطريق

الذي كان قد سلكه . على هذا النحو انما قطع جزيرة فاسيلفسكي كلّها ، ووصل الى نهر «نيفا الصغير» *، فعبر الجسر واستدار الى جهة الجُزُر. ان الخضرة وطراوة الهواء قد أراحتا في أول الأمر عينيه المكدودتين اللتين ألفتا غبار المدينة ، والكلس ، والمباني الضخمة المرهقة . هنا لا اختناق ، ولا عفونة ، ولا خمارات . ولكن هذه الاحساسات الجديدة الممتعة سرعان ماصارت هي أيضاً مرضية تثير الأعصاب. كان فيبعض الأحيان يقف أمام «فيللا» مدفونة في الخضرة فينظر من خلال السياج ، فيرى من بعيد ، على الشرفات ، نساءً ترتدي أجمل الحلل ، ويرى أولاداً تركض . وكانت الأزهار تجتذبه خاصة ، فكان يتلبث أمامها ويأخذ يتأملها . وكان يلتقي بين الفينة والفينة بعربات أنيقة ويبصر رجالاً يمتطون صهوات الخيول ونساءً على ظهور الأفراس ترتدي سراويل الأمازون ، فكان يتبعهم نظراته ، ولكنه ما يلبث أن ينساهم حتى قبل أن يغيبوا . وفي ذات مرة توقف ليعد نقوده ، فعرف أنه لم يكن قد بقي معه الا نحو ثلاثين كوبكاً . قال لنفسه : « أعطيت الشرطي عشرين كوبكاً ، وأعطيت ناستاسيا ثلاثة كوبكات مكافأةً لها على أنها جاءتني برسالة أمي ؛ معنى ذلك اذن أنني أعطيت أسرة مارميلادوف سبعة وأربعين أو خمسين » . لا شك أن هناك سبباً يدفعه الى أن يحصي ما معه من نقود على هذا النحو ، ولكنه سرعان ما نسي هذا الأمر ، حتى لقد نسي أنه أخرج النقود وعدَّها . ثم تذكر النقود حين مرَّ أمام مطعم حقير . لقد أحسَّ عندئذ أنه جائع ، فدخل المطعم ، فشرب قدحاً من الفودكا ، وأخذ فطيرة محشوة ، فبدأ آكلها في المطعم ثم أنهاه في الشارع . انه لم يشرب فودكا منذ زمن بعيد جداً، لذلك أثرت فيه الفودكا فوراً رغم أنه لم يشرب الا كأساً صغيرة . وتراخت ساقاه وثقلتا على حين فجأة ، وأحس برغبة قوية في النوم . فعاد يتجه نحو بيته ، ولكنه ما ان وصل الى جزيرة بتروفسكي حتى توقف

خائر القـوى تمـاماً ، فترك الطريق ، ودخل فى الأدغال وتهـاوى على العشب ، فسرعان ما نام .

فى حالات المرض ، تتميز الأحـلام ببروز قوى وشـدة خارقة ، وتتميز كذلك بتشابه كبير مع الواقع . قد يكون مجموع اللوحة عجيباً شاذاً ، ولكن الاطار ومجمل تسلسل التصور يكونان فى الوقت نفسه على درجـة عـالية من المعقولية ، ويشتملان على تفاصيل مرهفة جـداً ، تفاصيل غير متوقعة ، تبلغ من حسن المساهمة فى كمال المجموع أن الحالم لا يستطيع أن يبتكرها فى حالة اليقظة ولو كان فناناً كبيراً مثل بوشكين أو تورجنيف . وهذه الأحلام ، أعنى الأحلام المرضية ، تخلف دائماً ذكرى باقية ، وتحدث أثراً قوياً فى الجسم المضعضع المهتز المختل .

كان حلماً مرعباً ، ذلك الحلم الذى رآه راسكولنيكوف . لقد حلم بطفولته ، هناك ، فى مدينتهم الصغيرة. ان عمره سبع سنين . وها هو ذا ، فى يوم عيد ، يتنزه مع أبيه فى ظاهر المدينة . الجو داكن ، والهواء خانق ، والمكان هو المكان الذى انطبعت ذكراه فى خياله تمـاماً ، ولكنـه يبدو فى الحلم أشد وضوحاً وأكثر تميزاً مما هو فى الذاكرة . المدينة الصغيرة تمتد مكشوفة كأنها مبسوطة على راحة الكف؛ فليست ترى حواليها حتى صفصافة بيضـاء واحدة ؛ وفى مكانٍ ما ، مكان بعيد جـداً ، عند آخـر الأفق ، تلوح بقعة سوداء هى غابة صغيرة . وعلى مسافة بضع خطوات من آخر بستان من بسـاتين الخضـار التى تحيط بالمدينة ، توجد حانة كبيرة كانت دائماً تحدث فى نفسه أثراً أليماً ، حتى لتخيفه حين يمر بها متنزهاً مع أبيه . كان فى هذه الحانة دائمـاً جمهور كبير ، وضحك مجلجل ؛ والناس يتشاتمون هنالك ، ويغنون بأصوات جشـّاء أغانى قبيحة بذيئة ، وهم خاصة يتشاجرون ويقتتلون فى كثير من الأحيـان ؛ وحول الحانة يتجول دائماً أفراد مخمورون لهم وجوه مرعبة ، ما ان يصادفهم الطفل

فى طريقه حتى يلتصق بأبيه ويشدّ جسمه اليه وقد أخذت أعضاؤه كلها ترتعش ... وفى مكان غير بعيد من الحانة توجد طريق أو قل يوجد زقاق عرضانى أسودُ كثير الغبار ، يستمر متعرجاً متلوياً ، وينعطف يمنةً بعد ثلاثمائة متر فيحيط بمقبرة المدينة . وفى وسط المقبرة تنتصب كنيسة مبنية بالحجر ، لها قبة خضراء ، كان الطفل يذهب اليها للصلاة مع أبيه وأمه مرة أو مرتين فى السنة ، وذلك حين اقامة قداس على روح جدته التى ماتت منذ مدة بعيدة ولم يعرفها فى يوم من الأيام . وكانوا فى تلك المناسبة يحملون الحلوى التقليدية على طبق أبيض موضوع فوق منشفة : انها حلوى من الرز والسكر والزبيب المجفف المغروس فى الرز على شكل صليب . كان الصبى يحب تلك الكنيسة ، ويحب أيقوناتها التى يخلو أكثرها من الزينة ، ويحب أيضاً ذلك الكاهن الشيخ الذى كان يرتعش رأسه . والى جانب قبر جدته الذى تغطيه بلاطة كبيرة ، كان يوجد قبر أخيه الأصغر الذى مات فى الشهر السادس من عمره والذى لم يعرفه أيضاً فلا يستطيع اذن أن يتذكره ؟ غير أن أهله قد ذكروا له أنه كان له أخ صغير ، فكان كلما زار المقبرة يرسم على نفسه اشارة الصليب فى كثير من التقى والخشوع ، وينحنى أمام القبر ويقبّله . واليكم الآن الحلم الذى رآه : رأى نفسه يسير مع أبيه فى الطريق المؤدية الى المقبرة ، فيمران أمام الحانة . انه ممسك أباه من يده ، ينظر الى الحانة مذعوراً . ان هنالك أمراً خاصاً يجذب انتباهه ! لكأن ثمة عيداً شعبياً كبيراً يحتفل به الناس : انهم عدد كبير من صغار البرجوازيين بملابس العيد ، وفلاحات مع أزواجهن ، وخليط كبير من البشر . هم جميعا سكارى وهم جميعا يغنون ؟ وامام باب الحانة تُرابط عربة ، ولكنها عربة عجيبة غريبة هى عربة من تلك العربات التى تجرها فى العادة خيول قوية ، والتى تنقل أنواعاً كثيرة من البضائع وبراميل الخمرة . كان الصبى دائماً ينظر بكثير

من اللذة والمسرة الى تلك الخيول الضخمة ذات الأعرف الطويلة والسيقان القوية ، التى تسير بخطى هادئة موزونة جارّةً وراءها حملاً كأنه الجبل ضخامة ، دون أن يبدو عليها أنها تشعر بوجود هذا الحمل ، حتى لكأن الحمل يجعل سيرها أسهل وأيسر • أما الآن فان الشيء الغريب هو أن هذه العربة الكبيرة قد قُرنت بها فرس ضعيفة واهنة هزيلة شبيهة بتلك الأفراس التى كثيراً ما رآها تضنى بجر حمل من الخشب أو العلف على طرق متحفرة تغوص فيها عجلاتها الى المحاور ، ويضربها الفلاحون بسياطهم على خطمها بل وعلى أعينها ضرباً قوياً مبرحاً • لقد كان قلبه ينقبض انقباضاً شديداً حين يرى تلك الأفراس على تلك الحال من الشقاء ، حتى ليكاد يبكى حزناً وألماً • وكانت أمه تضطر عندئذ الى اقصائه عن النافذة • وها هى ذى جلبة كبيرة تعلو : ان عدداً من الفلاحين الأقوياء السكارى يخرجون من الحانة صارخين ، مغنّين ، عازفين على البالالايكا ، مرتدين قمصاناً حمراء وزرقاء ، رامين أرديتهم على أكتافهم • وهذا واحد منهم ، وهو رجل ما يزال فى شرخ الشباب سميك الرقبة ، سمين الوجه ، أحمر اللون كجزرة ، يصرخ قائلاً لهم : « اركبوا ، اركبوا جميعاً ! سأنقل الجميع ، هيا اصعدوا ! » فسرعان ما تجيبه قهقهات وصيحات تقول :

ـ أبفرس ضعيف كهذه الفرس تقودنا جميعاً ؟

ـ هه ! ماذا دهاك يا ميكولكا ؟ * أتقرن دابة صغيرة هذا الصغر بعربة ضخمة هذه الضخامة ؟

ـ يميناً ان الدابة تبلغ من العمر عشرين عاماً يا أخىّ !

ـ اجلسوا ! سأنقل جميع الناس !

كذلك صرخ يقول ميكولكا من جديد ، وهو يثب الى العربة أول

الواثبين ، فيمسك بزمام الفرس ، وينتصب فى الأمام بقامته كلها ، ثم يردف قائلاً وهو فى العربة :

ـ لقد سافر الكميت منذ هنيهة مع ماتفاى • وهذه الفرس يا اخوتى تغيظنى كثيراً ، وتحطم قلبى تحطيماً • اننى مستعد لأن أقتلها • انها لا تصلح لغير انتزاع لقمة الخبز من فمى• اقول لكم : اركبوا ! اجلسوا ! سأجعلها تعدو ولسوف تعدو !

وأمسك بسوطه وهو يتلذذ سلفاً بالمتعة التى سيذوقها حين يأخذ يضربها •

قال بعضهم ضاحكاً :

ـ طيب ! اصعدوا ألم تسمعوا ؟ سوف تعدو الفرس •

ـ انها لم تعرف العدو منذ عشر سنين !

ـ لسوف تعدو !

ـ لا تأخذنكم شفقة أيها الاخوة ! فليتناول كل منكم سوطاً وليتهيأ !

ـ هيا بنا ! هلموا ! اضربوا !

ركب الجميع عربة ميكولكا مقهقهين مازحين • ركب ستة رجال وما يزال فى المكان متسع • أركبوا معهم امرأة سمينة حمراء الوجه • انها ترتدى صدرة من قماش هندى أحمر ، وتنتعل حذاءين ساقاهما طويلتان ، وتضع على رأسها قلنسوة مزدانة بلآلىء ، وتقضم حبات بندق وتنفجر ضاحكة من حين الى حين ، والجمهور من حولها يضحك كذلك• وكيف لا يضحكون ؟ كيف تستطيع فرس ضعيفة ضامرة هزيلة أن تجر مثل هذا الحمل عدْواً ؟ وسرعان ما تناول صبيان فى العربة سوطاً لمساعدة ميكولكا • ودوّت فى الجو صيحات تهيب بالفرس أن تسير • أخذت

الفرس تبذل كل ما تستطيع من جهد لتسير • ولكن أنىً لها أن تعدو • انها لا تكاد تقوى على التحرك من مكانها • فهى تراوح وتئن وتنوء تحت ضربات سياط ثلاثة تهوى عليها • تضاعفت الضحكات فى العربة وفى الجمهور • ولكن ميكولكا غضب • وها هو ذا من شدة حنقه وغيظه يجلد الفرس بمزيد من القوة كأنما هو يعتقد حقاً بأن فى وسع دابته أن تجرى عَدْواً •

صاح شاب صغير من بين الجمهور وقد فتنه هذا المشهد :

ـ هل تسمحون لى بأن أجىء معكم ؟

فصرخ ميكولكا يجيبه بقوله :

ـ اركب ! اركبوا جميعاً ! سوف أعرف كيف أجعل الفرس تعدو !

وأخذ يضرب ويضرب وقد استبد به حنق بلغ من الشدة أنه لم يلبث أن اصبح لا يعرف بماذا يضرب •

صاح الطفل يسأل أباه :

ـ أبتِ ! أبتِ ! ماذا يفعلون ؟ أبتِ ! لماذا يضربون الفرس المسكينة ؟

قال الأب :

ـ تعال ، تعال ، انهم سكارى يرتكبون حماقات • تعال ! لا تنظر اليهم ؟

وأراد الأب أن يقتاد الابن ، ولكن الطفل أفلت من يديه ، ثم لم يطق صبراً فركض نحو الفرس الشقية • كانت الفرس المسكينة قد ساءت

حالها وخارت قواها . انها تلهث وتتوقف لحظة ثم تستأنف بذل ماتستطيع بذله من جهد لتجر العربة ، فترنح وتكاد تسقط .

صرخ ميكولكا يقول :

ـ اجلدوها الى أن تفطس ! انتظر قليلاً ! سوف ترى !

هتف شيخ من بين الجمهور يسأله :

ـ ما هذا ؟ أأنت مسيحى ؟ يا لك من متوحش !

وأضاف آخر يقول :

ـ هل رأى احد فى حياته دابة هزيلة كهذه الدابة تجر حملاً ثقيلاً كهذا الحمل ؟

وصاح ثالث يقول :

ـ سوف تقتلون الدابة أخيراً !

قال ميكولكا :

ـ ما تدخلك أنت ؟ الدابة دابتى ! ما أريده أفعله ! اركبوا جميعاً ! أريد حتماً أن تجرى الفرس عَدْواً .

وفجأة ، انفجر ضحك عريض غطى كل شىء . لم تستطع الفرس أن تحتمل الضربات المتكررة ، فاذا هى تأخذ ترفس وتلبط . حتى الشيخ نفسه لم يستطع أن يمتنع عن التبسم . حقاً ان هنالك ما يبعث على الضحك : كيف ترفس وتلبط فرس ضعيفة مسكينة لا تكاد تقوى على الوقوف .

خرج من الجمهور شابان فتناولا سوطين ، وركضا نحو الفرس ليجلداها من الجهتين .

قال ميكولكا :

ـ على الخطم ، على العينين ، على العينين !

وهتف أحد ركاب العربة :

ـ أغنيةً أيها الاخوة !

فأخذ الجميع فى العربة يغنون بصوت واحد • هى أغنية مسعورة تصدح بها الحناجر ، وتصاحبها قرعات طبل ، ويتخللها صفير عند تكرر اللازمة • والمرأة السمينة تقضم البندق وتنفجر ضاحكة •

ركض الطفل نحو الحصان ، وأسرع الى أمام • رأى كيف كانت الدابة تُجلد على عينيها ، على عينيها تماماً !••• فأخذ يبكى • انقبض قلبه وسالت دموعه • لامس واحد من الضاربين وجهه بسوط • ولكنه لم يشعر بشىء • لوى يديه ألماً • صرخ • اندفع نحو الشيخ ذى اللحية الشيباء الذى كان يهز رأسه مستنكراً هذا كله • امسكت يدَه فلاحةٌ ، وأرادت أن تبعده • لكنه تملص منها ، وركض نحو الفرس من جديد• لقد انهارت قوى الفرس ، ومع ذلك حاولت أن ترفس وأن تلبط مرة اخرى ••

صاح ميكولكا يقول وقد استولى عليه حنق شديد :

ـ شيطان يأخذك !

ورمى سوطه ، وانحنى الى تحت ، فتناول من قاع العربة خشبة طويلة ثقيلة ، فقبض على طرفها بيديه ، وأشهرها فوق رأس الفرس بجهد

صاح ميكولكا يقول :

ـ سوف يقتل الفرس !

ـ سوف يهشمها !

صرخ ميكولكا :

ـ هى ملكى ، ولا شأن لأحد بها !

وهوى بالخشبة على الفرس بكل ما أوتى من قوة ، فدوّى فى الجو صوت أصم .

صرخ بعضهم :

ـ اجلدوا الفرس ! اجلدوها ! مالكم توقفتم عن جلدها ؟

فاشتعلت حماسة ميكولكا مزيداً من الاشتعال ، وهوى على ظهر الفرس الضعيفة بضربة قوية جديدة . تهاوت الفرس عند مؤخرتها ، ولكنها ما لبثت أن انتصبت ، وحاولت أن تجر بكل ما تملك من قوة . أخذت تجر فى كل اتجاه من الاتجاهات عسى أن تتحرك العربة . غير أن ستة سياط هاجمتها من جميع الجهات ، وارتفعت الخشبة من جديد فهوت عليها بضربة ثالثة ثم بضربة رابعة ، وتتالت الضربات قوية مطّردة . لقد اشتد حنق ميكولكا لأنه لم يقتل الفرس بضربة واحدة .

صرخ بعضهم :

ـ عمرها طويل !

فصاح واحد فى الجمهور :

ـ لم يعد عمرها طويلاً أيها الاخوة ! لم يبق لها من حياتها الا دقائق معدودة !

وصرخ ثالث :

ـ فلتُضرب بساطور ! فلننته منها دفعة واحدة !

قال ميكولكا مرغياً مزبداً والغيظ يخنقه خنقاً :

ـ نعم فلتذهب الى الشيطان ! أبعدوا !

ورمى الخشبة ، ثم انحنى مرة أخـرى الى تحت ، فتنـاول من قاع العربة قضيباً من حديد ، وصرخ يقول مخاطباً الفرس :

ـ تستحقين ! ثم هوّى بقضيب الحديد على الفرس المسكينة ، بكل ما أوتى من قوة ، فترنحت الدابة من شدة الضربة ، وتهالكت ، وحاولت ان تجرّ العربة مرة اخرى ، ولكن قضيب الحديد هوى على ظهرها من جديد ، فسقطت على الأرض كأن قوائمها الأربع قد قُطعت قطعاً !

صاح ميكولكا يقول :

ـ أجهزتُ عليها !

ونفد صبره ، فوثب من العـربة الى الأرض • وها هم أولاء فتيان حمر سكارى يمسكون بكل ما يقع تحت أيديهم من سياط أو عصى أو أخشاب ، ويهرعون نحو الفـرس المحتضرة • وقف ميكولكا الى جانب الدابة ، وأخـذ يضربها بقضيب الحـديد على ظهرها • فمـدّت الفرس خطمها ، وزفرت زفرة عميقة ، وماتت •

صاح الجمهور يقول :

ـ فطست !

ـ لماذا لم تشأ أن تعدو ؟

قال ميكولكا صارخاً محتقن العينين بالدم ، ممسكاً قضيب الحديد بيديه :

ـ هى ملكى !

وكان واقفاً منتصب القـامة كأنه يأسف على أنه اصبح لا يعـرف من ذا يضرب !

هتفت عدة أصوات فى الجمهور تقول :

ــ طيب ! اصبحنا الآن على يقين من انك لست مسيحياً !

ولكن الطفل أصبح لا يسيطر على نفسه ، وها هو ذا يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور وهو يصرخ صراخاً شديداً ، حتى اذا وصل الى الدابة أحاط بذراعيه خطمَها الميت الدامى ، وأخذ يقبِّلها على عينيها وعلى شفتيها ••• ثم اجتاحه حنق قوى ، فهجم على ميكولكا قابضاً أصابعه الصغيرة • ولكن أباه الذى كان يلاحقه منذ مدة ، أدركه فى تلك اللحظة ، فأمسك به ، وجرَّه الى خارج الجمهور قائلاً له :

ــ تعال ! تعال ! فلنعدْ الى البيت •

دمدم الطفل يقول بين شهقتين سائلاً أباه :

ــ أبتِ ••• لماذا ••• الحصان المسكين ••• فعلوا به ؟•••

ولكن أنفاسه تقطعت ، وكانت الكلمات تتدفق من صدره المختنق مع صرخات !

قال الأب :

ــ هم سكارى يرتكبون حماقات • ليس هذا شأننا • تعال !

أحاط الطفل أباه بذراعيه ، ولكن كان صدره ما يزال مختنقاً ••• ما يزال مختنقاً اختناقاً شديداً ••• وحاول الطفل أن يسترد انفاسه ، وأطلق صرخة قوية ••• واستيقظ راسكولنيكوف من النوم •••

استيقظ من النوم مبتلاً بالعرق مخضلّ الشعر لاهثاً • ونهض مذعوراً •

قال وهو يجلس تحت الشجرة ويتنفس ملء رئتيه : « الحمد لله على أن هذا لم يكن الا حلماً ! ولكن ماذا حدث ؟ أيكون هذا بداية حمى ؟ يا للحلم العجيب • » •

كان جسمه كله كالمحطم ، وكانت نفسه لا تضم الا ظلمات واضطراباً وابهاماً . وضع كوعيه على ركبتيه وتناول رأسه بيديه ، وهتف يقول مخاطباً نفسه : « رباه ! هل من الممكن ، هل من الممكن حقاً أن أتناول ساطوراً فأضرب به رأسها وأحطم جمجمتها ؟... أغرق في الدم اللذج البارد ... اكسر القفل ... أسرق ... أرتعش ... اختبىء ملطخاً بالدم ؟ ... ضربات ساطور ! ... رباه ، أهذا ممكن ؟ ».

وكان راسكولنيكوف يرتعش كورقة في مهب الريح حين كان يخاطب نفسه بهذا الكلام .

وتابع يقول محدثاً نفسه كأنما قد استبد به خور عميق : « ولكن ماذا دهاني ؟ لقد كنت أعلم حق العلم أنني لن أطيق ذلك ، فلماذا عذبت نفسي هذا التعذيب كله حتى الآن ؟ بالأمس ، بالأمس ... حين مضيت اليها ، « لأتمرن » على فعلتي ، أدركت حق الادراك أنني لن أطيق ذلك ... فلماذا أعود الى الامر الآن ؟ بالأمس ، حين كنت أهبط السلم ، قلت لنفسي انها فعلة حقيرة ، دنيئة ، خسيسة ، خسيسة جداً ... ولم أكن نائماً ... كان يكفي ان تساورني تلك الفكرة حتى ينقبض صدري وحتى أشعر بذعر شديد ... لا ، لن أطيق هذا الفعل ، لن أطيقه ، ولو لم يكن هناك أي شك ، ولو كانت حساباتي كلها صحيحة ، ولو كان ما عزمت عليه في هذا الشهر واضحاً وضوح النهار دقيقاً دقة الرياضيات ... فانني لن أقدم عليه مع ذلك ، لن أطيقه ، لن أطيقه ... فما بالي حتى الآن ... » .

ونهض راسكولنيكوف ذاهلاً ، ونظر حواليه . كان يبدو عليه أنه مندهش من وجوده في هذا المكان . واتجه نحو جسر « ت ... » . كان شاحب الوجه ، وكانت عيناه تحترقان ، وكان يشعر بالتعب في جميع اعضائه ، ولكنه لم يلبث أن أخذ يتنفس تنفساً حراً طليقاً على حين فجأة .

شعر انه ازاح الحمل الرهيب الذى كان يسحقه منذ مدة طويلة ، فتخففت نفسه واطمأنت روحه ، وعادت اليه السكينة بغتة . قال يدعو الله مبتهلاً : « أرنى طريقى يا رب فأعدل عن تلك ... الفكرة اللعينة .. عن تلك الفكرة اللعينة ... » .

وفيما كان يعبر الجسر ، نظر صامتاً هادئاً الى نهر نيفا ، والى حمرة الشمس الغاربة . فاذا هو ، رغم ضعفه ، قد اصبح لا يحس بالتعب . فكأن الدمل الذى نضج فى قلبه خلال شهر بأكمله قد انفقأ الآن على حين فجأة . الحرية ! الحرية ! لقد تخلص الآن من السحر ، تحرر من الرقية ، انعتق من الفتنة .

فى المستقبل ، حين سيتذكر راسكولنيكوف هذه الفترة ، وحين سيستعرض كل ما وقع له فى تلك الأيام دقيقة دقيقة ونقطة نقطة ، فان ظرفاً معيناً سيظل يجتذب انتباهه ، ويأسر اهتمامه ، ويكتسب فى نظره معنى خرافياً . ان ذلك الظرف رغم أنه لا يشتمل فى ذاته على أى شىء خارق ، سيصبح فى نظر راسكولنيكوف فى المستقبل نوعاً من نبوءة تصوّر مصيره وتحدّد قدره .

اليكم الأمر : لم يستطع راسكولنيكوف أن يعلل لنفسه قطُّ لماذا عاد أدراجه فى ذلك اليوم الى « سوق العلف » دون أى سبب يحضه على الذهاب الى هناك ، ورغم أنه ، هو المتعب المكدود المرهق المشعث ، كان فى حاجة الى أن يسلك للعودة الى بيته أقصر طريق بلا تعرج ولا التواء . صحيح أن الدورة التى دارها لم تكن طويلة ، ولكن من الواضح انه لا داعى اليها ولا فائدة منها البتة . وصحيح أنه اتفق له عشرات المرات ان رجع الى مسكنه دون ان يتذكر الشوارع التى سلكها . ولكن راسكولنيكوف ظل يتساءل دائما : لماذا وقع له ذلك اللقاء فى ميدان « سوق العلف » (الذى لم يكن هناك أى داع يحضه على الذهاب

اليه) لماذا وقع له ذلك اللقـــاء الذى يبلغ ذلك المبلغ كله من خطورة الشـــأن والذى كان له ذلك التـــأثير الحاسم كله فى حيـاته ، وكان فى الوقت نفســه عرضاً طارئاً ، لماذا وقع له ذلك اللقـاء فى تلك اللحظة نفسها ، فى تلك الدقيقة ذاتها من حياته ، فى تلك الدقيقة ذاتها التى كان لا يمكن ، بسبب حالته النفسية وبسبب الظروف ، الا أن تؤثر فى مصيره ذلك التأثير الحاسم الذى لا مناص منه ولا راد له ؟ . سوف يبدو له أن ذلك اللقاء الذى وقع له انما كان كميناً يتربص به شراً .

كانت الساعة قريبة من التاسعة حين اجتاز راسكولنيكوف « سوق العلف » . كان جميع التجار والباعة المتجولين وأصحاب الدكاكين يغلقون محالّهم ، ويرتبون بضائعهم ، ليعـودوا الى منازلهم ، وكذلك كان يفعل زبائنهم . وحول المطاعم الحقيرة ، وفى الأقبية ، وفى الأفنية القذرة المنتنة من منازل « ســوق العلف » كانت تتكاثر أنواع شتى من فقراء النـاس وصغار المتكسِّبين . كان راسكولنيكوف يحب ارتياد هذه الأماكن كثيراً كما يحب ارتياد جميع الأزقة المجـاورة حين كان يخـرج من بيته لغير هدف محدد . فهنالك كانت أسـماله البـالية لا تلفت الانتبـاه ولا تثير الاستهجان . ان المرء يستطيع أن يسير فى هذه الأماكن مرتدياً ملابس مضحكة على ما يشاء له هواه ، دون أن يتعرض لاستهزاء أحد به .

فلما وصل راسكولنيكوف الى ناصية شـارع ك ... ، رأى بائعـاً وامرأته يبيعان ، كلٌ على بسطة خاصة به ، خيوطاً وأشرطة ومناديل من قطن وما الى ذلك . كان الزوجان يستعدان هما ايضاً للعودة الى منزلهما ، ولكنهما ما يزالان يثرثران مع امرأة يعرفانها كانت قد اقتربت منهما . ان هذه المرأة هى اليزابت ايفانوفنا أو قل باختصار هى « اليزابت » كما كان يسميها جميع الناس . انها الأخت الصغرى لتلك العجوز نفسها آليونا ايفانوفنا ، أرملة الموظف المرابية ، التى ذهب اليها راسكولنيكوف أمس

ليرهن عندها ساعته و « يتمرن » على فعلته ... كان راسكولنيكوف يعرف منذ مدة طويلة أموراً كثيرة عن اليزابت هذه التى كانت تعرفه هى أيضا بعض المعرفة . انها بنت فى نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ، طويلة القامة خرقاء السلوك ، خجول الطبع ، متواضعة رقيقة ، يعدها الناس شبه بلهاء ، قد استعبدتها اختها استعباداً كاملاً ، فهى تعمل لها ليلاً نهاراً ، وترتجف أمامها خوفاً ، حتى لتحتمل منها أن تضربها أحياناً . كانت اليزابت فى تلك اللحظة قد وقفت مترددة قلقةً أمام البائع وامرأته ، وفى يدها صرّة ، وكانت تصغى اليهما باتنباه شديد . ان الرجل وامرأته يقصان عليها أمراً من الأمور بكثير من الحرارة والحماسة . فلما لمحها راسكولنيكوف على حين فجأة اجتاحه احساس غريب هو نوع من الانشداه رغم أن اللقاء لا يشتمل فى ذاته على أى شيء يدعو الى الذهول.

قال لها البائع بصوت عال :

ــ ستعزمين أمرك بنفسك يا اليزابت ايفانوفنا . تعالى غداً ، فى نحو الساعة السابعة . سيحضرون هم أيضاً .

ــ غداً ؟.

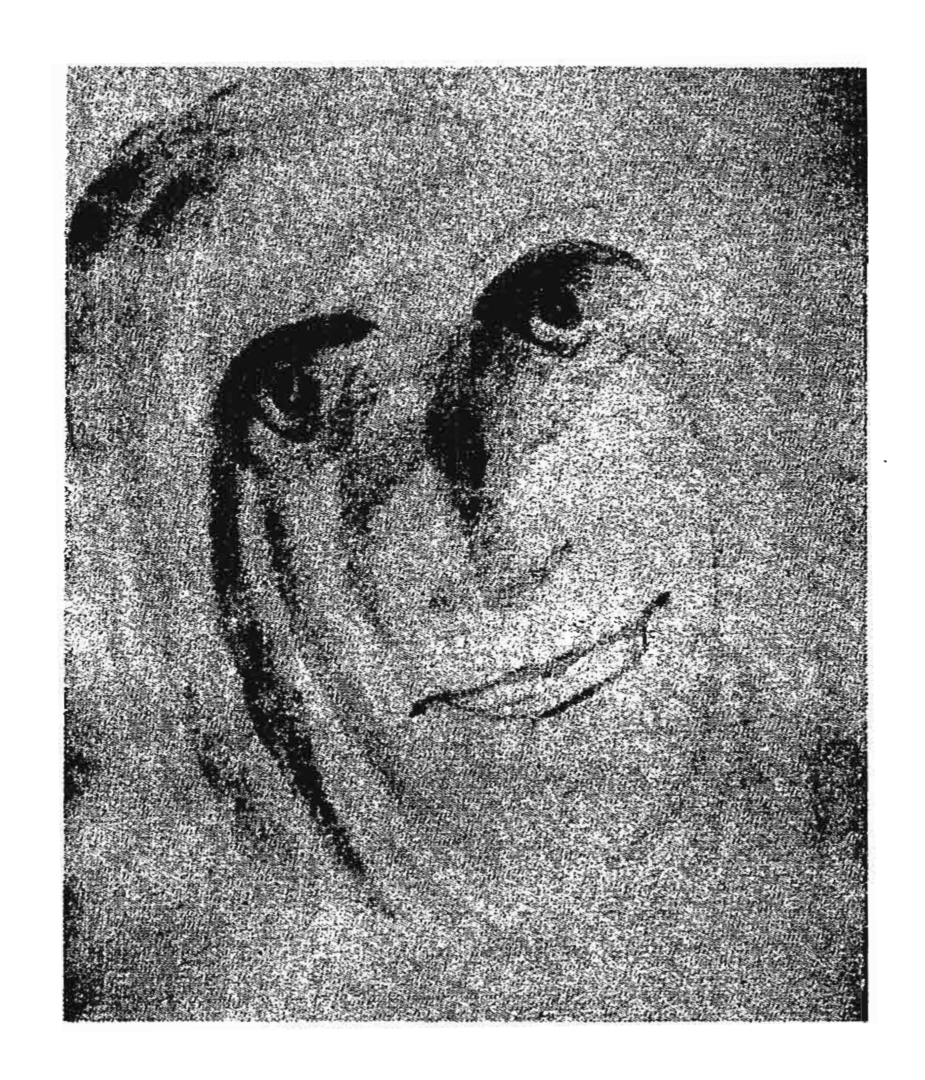
كذلك قالت اليزابت بصوت بطيء ، وكانت واجمةً مفكرة ، كأنها لا تستطيع أن تعزم أمرها .

قالت لها زوجة البائع بلهجة طلقة صريحة :

ــ انها لتخيفك كثيراً ، آليونا ايفانوفنا هذه ! حين يراك المرء ويسمعك ، يحسبك طفلة صغيرة . هذا مع أن آليونا ليست أختاً وانما هى نصف أخت ، ولكنها مسيطرة عليك مستبدة بك ...

قاطع الرجل زوجته قائلاً لاليزابت :

ــ ليس عليك الا أن لا تذكرى لآليونا ايفانوفنا هذه المرة شيئاً .



الیزابت

ذلك ما أنصحك به ! تعالى الينا دون أن تستأذنيها ! الصفقة رابحة . وستدرك أختك ذلك فيما بعد .

ـ حقاً ... يجب عليَّ أن ...

ـ نعم ... غداً ... فى نحو الساعة السابعة . وسيحضر أحد من عندهم أيضاً . ستعزمين أمرك بنفسك .

وأضافت زوجة الرجل تقول :

ـ وسنضع السماور .

قالت اليزابت وهى ما تزال مترددة :

ـ طيب ، سآتى ...

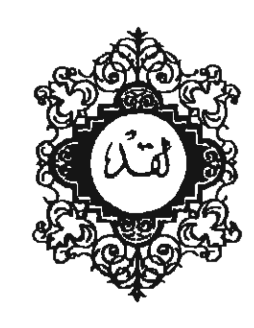
وانصرفت بخطىً بطيئة .

ان راسكولنيكوف الذى مرَّ فى تلك اللحظة لم يسمع اكثر من ذلك . لقد مرَّ صامتاً ساكناً دون أن يلفت اليه الانتباه ، ولكنه حاول ألا تفوته من الحديث كلمة واحدة . وشيئاً فشيئاً ، حل الذعر فى نفسه محلَّ الانشداه ، وأحس بقشعريرة باردة تسرى فى ظهره . لقد علم فجأة ، على نحو لم يكن فى الحسبان ، أن اليزابت ، أختَ العجوز ورفيقتها الوحيدة فى دارها ، ستغيب عن البيت غداً فى الساعة السابعة تماماً ، وأن العجوز ستكون اذن فى الساعة السابعة تماماً « وحيدة فى مسكنها ».

لم يكن قد بقى عليه الا أن يسير بضع خطوات حتى يبلغ منزله. عاد كانسان حُكم عليه بالموت. لقد اصبح لايفكر، بل اصبح عاجزاً عن التفكير ، ولكنه كان يحس ، بكل كيانه ، أنه اصبح محروماً من حرية الرأى مجرداً من الارادة ، وأن كل شىء قد تقرر فجأة على نحو حاسم لا رجعة عنه .

يقيناً ، لو كان عليه فى سبيل انفاذ مشروعه أن ينتظر سنين طويلة ، لما كان فى وسعه أن يعوّل على ظرف يناسب نجاح مشروعه اكثر من هذا الظرف الذى يعرض له الآن ، وما كان ليسهل عليه فى كل حال أن يعلم علم اليقين ، بمثل تلك الدقة ، وبدون مخاطر يشتمل عليها اضطرارُه الى السؤال والتقصى ، أن العجوز التى كان قد قرَّر أن يقتلها ستكون ، فى الغداة ، وحيدةً بمسكنها ، وحيدةً تماماً ...

الفصل السادس



أتيح لراسكولنيكوف فيما بعد أن يعرف السبب الذى حمل البائع وزوجته على أن يدعوا اليزابت ايفانوفنا الى منزلهما ، ان الأمر عادى بسيط تافه لا يشتمل على أى شىء خاص : هناك أسرة وفدت من الأقاليم منذ مدة قصيرة ، فأصبحت فى حالة عوز شديد ، فأخذت تبيع بعض ما تملك من ملابس النساء • ولما كان عرض هذه الملابس للبيع فى السوق يؤدى الى خسارة كبيرة ، فقد سأل هؤلاء الناس عن امرأة تكون وسيطة بينهم وبين الراغبين فى الشراء • وكانت اليزابت تقوم بمثل هذه الأعمال ، وكان لها زبائن كثيرون لأنها امرأة مستقيمة ، فهى تحدد السعر العادل دائماً ، ولا تدع مجالاً للمساومة فيه مهما يكن ، فما على المشترى الا أن يأخذ أو أن يدع • وكانت قليلة الكلام عامة ، وكانت تبدو ، كما سبقت الاشارة الى ذلك ، متواضعة فى جميع الأحيان •

ولكن راسكولنيكوف كان قد أصبح فى الآونة الأخيرة يؤمن بالخرافات ويتأثر بالأوهام ، وقد خلّف هذا الوهم فى نفسه آثاراً لم تمح خلال مدة طويلة • ثم انه ظل يميل دائماً الى أن يرى فى هذا الأمر كله شيئاً غريباً سرياً ، وسلسلة من المؤثرات والمصادفات العجيبة الخاصة •

كان طالبٌ من معارفه اسمه بوكوريف ، قد اعطاه فى الشتاء الماضى أثناء حديث عارض جرى بينهما قبيل سفره الى خاركوف ، عنوانَ العجوز آليونا ايفانوفنا ، ليلجأ اليها اذا هو احتاج الى اقتراض مبلغ من المال على رهن •

وخلال مدة طويلة لم يذهب راسكولنيكوف الى العجوز ، لأنه كان فى ذلك الوقت يعطى دروساً ، وكان يدبر أموره بطريقة أو بأخرى • ثم تذكر العنوان بعد شهر ونصف شهر • كان يملك شيئين يمكن رهنهما لاقتراض مبلغ من المال : الساعة الفضية القديمة التى ورثها عن ابيه ، وخاتماً ذهبياً صغيراً يزدان بثلاثة أحجار حمراء كانت أخته قد أعطته اياه تذكاراً حين افترقا • قرر راسكولنيكوف أن يرهن الخاتم ، فما ان رأى العجوز حتى شعر نحوها من أول نظرة ، ودون أن يعرف أى شىء خاص عنها ، بكره لا سبيل الى التغلب عليه • وتلقى منها « ورقتين نقديتين صغيرتين » • وبينما كان راجعاً الى بيته دخل فى الطريق حانةً صغيرة حقيرة ، فطلب شاياً ، وجلس ، واسترسل فى احلام عميقة• ان فكرة غريبة كانت تحاول أن تنقف فى رأسه كما ينقف الفرخ فى البيضة ، وكانت تشغل باله كثيراً جداً •••

على مقربة منه ، الى جانبه تقريباً ، كان يجلس حول مائدة أخرى، ضابط شاب وطالب لم يكن يعرفه ولا يتذكر أنه رآه فى حياته • كان الشابان قد لعبا البلياردو قليلاً ، فهما الآن يحتسيان الشاى • وها هو ذا راسكولنيكوف يسمع الطالب محدثاً الضابط عن مرابية اسمها آليونا ايفانوفنا هى أرملة أحد الموظفين ، ثم يذكر له عنوانها آخر الأمر • ان هذه الحادثة وحدها قد بدت لراسكولنيكوف غريبة بعض الغرابة : لقد كان عند العجوز منذ هنيهة ، وها هو ذا يسمع شخصين يتحدثان عنها هى نفسها • لا شك أن الأمر مصادفة ، ولكن فيما كان راسكولنيكوف

يحاول قبل سماع الحديث أن يتخلص من شعور يمكن ان نعدّه على وجه الاجمال عادياً تافهاً ، اذا بشخص يأخذ يعزز فى نفسه هذا الشعور كأنما على عمد : لقد أخذ الطالب يذكر لرفيقه ، فجأة ، بعض التفاصيل عن آليونا ايفانوفنا • قال :

ـ هى عظيمة ••• يستطيع المرء فى كل لحظة أن يحصل منها على مال ••• غنيةٌ كيهودى ! قادرةٌ على أن تقرضك خمسة آلاف روبل دفعة واحدة ، ولكنها لا تحتقر رهناً قيمته روبل واحد • كثيرون منا مروا بها • ولكنها جيفة حقاً •

وطفق الطالب يتكلم عن العجوز • وصفها بأنها شريرة خبيثة ، وقال انها صاحبة نزوات : يكفى أن يتأخر المدين عن سداد الدين فى الموعد المضروب يوماً واحداً حتى يفقد الرهن • لا تقرض من المال الا مبلغاً يساوى ربع قيمة الرهن • تتقاضى فائدة شهرية مقدارها خمسة فى المائة بل وسبعة ، الخ الخ •••

كان الطالب يتدفق فى الكلام على هذا الموضوع ويفيض فيه افاضة لا ينضب معينها • وقد أضاف أن للعجوز أختاً اسمها اليزابت ، تضربها العجوز فى كل مناسبة ، رغم أن العجوز ضئيلة هزيلة هى نفسها ؛ والعجوز تستعبد اليزابت استعباداً تاماً ، كطفلة صغيرة ، رغم أن اليزابت لا يقل طولها عن ستة أقدام بل يزيد •

وصاح الطالب يقول مقهقهاً :

ـ وهذه أيضاً امرأة عجيبة !

جرى الحديث عندئذ على اليزابت • كان الطالب يشعر من الكلام عنها بلذة خاصة فهو لا يكف عن الضحك • أما الضابط فكان يصغى الى رفيقه بكثير من الاهتمام ، حتى لقد طلب منه أن يرسل اليه اليزابت ،

لترقّع له غسيله • لم يفوّت راسكولنيكوف كلمة واحدة من هـذه المحادثة • عرف كل شيء دفعة واحدة : عرف أن اليزابت هى الأخت الصغرى لآليونا ايفانوفنا ، ولكنها ليست شقيقتها وانما هى اختها من أم أخرى ، وعرف أنها قد بلغت الخامسة والثلاثين من عمرها • عرف أنها تعمل فى سبيل اختها نهـاراً وليـلاً ، تنهض فى منزلها بأعبـاء الطباخة والغسالة ، وتقوم فى الوقت نفسه بأعمال الخياطة ، حتى لقد تتولى مسح الأرض فى المنازل مأجورة • وعرف أن كل ما تجنيه من مال انما يذهب الى اختها ، وأنها لا تجرؤ على قبول أى تكليف أو القيـام بأى عمل ، دون استئذان العجوز • وكانت العجوز قد كتبت وصيتها ، وكانت اليزابت تعرف أن هذه الوصية تنص نصاً صريحاً على أنها لن ترث شيئاً ، اللهم الا عدداً من قطع الأثاث والكراسى وما الى ذلك • أما المال كله فموقوف على دير بمقاطعـة ن ••• ، سيصلّى فيـه الرهبـــان على روح آليـونا ايفانوفنا • ان اليزابت تنتمى الى البرجوازية الصغيرة لا الى طبقة الموظفين وهى بشعة القوام جداً ، يزيد طولها على متوسـط الطول كثيراً ، لهـا قدمان كبيرتان تبدوان معقوفتين وتنتعلان دائماً حذاءين منثنيين • ولكنها تعنى بنظافتها اكبر العناية •

والأمر الذى كان يدهش الطالب ويفجّر ضحكه خاصةً هو أن اليزابت حبلى دائماً •

قال الضابط :

ـ ولكن ألم تقل انها مشوهة ؟

أجابه الطالب :

ـ نعم ••• ان لها بشرة مسودّة دائماً ، حتى لكأنها جندى متنكّر ، ولكنها ليست مشوهة البتة !••• ان وجهها مليح جداً ، وان عينيها خاصة

طيبتان حلوتان ! الدليل على ذلك أنها تعجب كثيراً من الناس ، وهي هادئة مسالمة وديعة مستعدة لأن تَقنع بأي شيء . وان لها ابتسامة يمكن أن توصف حتى بأنها ... فاتنة !»

سأل الضابط ضاحكاً :

ـ أهي اذن تعجبك ايضاً ؟

قال الطالب :

ـ نعم ، لأن فيها غرابة ! واسمع الآن ما سأقوله لك : يميناً انني مستعد لأن أقتل أختها ، تلك العجوز اللعينة ، وأن أسرق مالها طائعاً مختاراً ، مرتاح البال هادىء الضمير !...

ذلك ما أضافه الطالب متكلماً بحماسة وعنف .

انفجر الضابط يضحك ضحكاً ارتعش له راسكولنيكوف . ما أغرب هذا ؟

قال الطالب وقد ازدادت حرارته :

ـ اذا أذنت فسألقي عليك سؤالاً جاداً : أنا انما قلت ذلك كله من باب المزاح طبعاً ولكن فكر قليلاً : هناك من جهة أولى امرأة عجوز غبية سخيفة شريرة خبيثة مريضة لا قيمة لها ولا فائدة منها لأحد بل هي ضارة لجميع الناس ، لا تعرف حتى لماذا تعيش ، وستموت في القريب ميتتها الطبيعية . هل تفهم ؟ هل تفهم ؟

أجاب الضابط وهو يحدّق باتنباه شديد الى رفيقه الذي كانت حماسته ما تنفك تتأجج :

ـ طبعاً أفهم !

واصل الطالب كلامه فقال :

ـ فاسمع التتمة اذن : هناك تلك المرأة من جهة أولى ، وهناك من

جهة ثانية قوى فتية شابة نضرة ، تضيع لأنها محرومة من المساعدة ، وتُعدُ بالالوف ، فى كل مكان . ان ثمة مائة أو الف عمل خير أو مبادرة رائعة يمكن التحريض عليها أو اصلاح حالها بمال العجوز ، بهذا المال الموقوف على دير ! ! ان ثمة مئات وربما ألوفاً من الافراد الذين يمكن وضعهم بهذا المال على الطريق القويم . ان ثمة عشرات من الأسر يمكن انقاذها بهذا المال من الفقر المدقع ، والتحلل الأخلاقى ، والدمار والفساد ، ومستشفيات الأمراض التناسلية ! فماذا لو قُتِلَت هذه العجوز ، وأُخذ مالها ثم وُقف على خدمة الانسانية بأسرها ، على خدمة قضية جميع البشر ؟ ماذا ؟ ألا تعتقد أن جريمةً طفيفة كهذه الجريمة ستمحوها ألوف الأعمال الخيّرة ؟! اننا بقتل فرد واحد نستطيع أن ننقذ حياة ألوف غيره من العفن والفساد والتحلل ! يموت واحد ليعيش مئات . مسألة حسابية ! وأى وزن فى ميزان الحياة العام يمكن أن يكون لتلك العجوز الشقية المصدورة الغبية الشريرة ؟ ألا انها ليس لها من الوزن اكثر مما لقملة أو خنفساء . لا بل ان وزنها دون ذلك ، لأن هذه العجوز ضارة . انها تمتص حياة الآخرين . انها شريرة . منذ مدة قصيرة عضّت اختها اليزابت فى اصبعها ، فلو قد شدت أسنانها قليلاً ، لاضطروا الى قطع الاصبع .

قال الضابط :

ـ ما هى جديرة بالحياة طبعاً ، ولكن هذا نظام الطبيعة ...

قال الطالب :

ـ نظام الطبيعة ، يا أخى ، يمكن تقويمه وتوجيهه ، والا غرقنا فى الأوهام والأباطيل . ثم انه بدون ذلك لا يكون ثمة انسان عظيم واحد. يقولون : « الواجب ، الضمير » ـ وأنا لا اعترض بشىء على الواجب

والضمير ، ولكن يجب أولاً أن نتفق على معانى الألفاظ . اسمع : سألقى سؤالاً آخر ، هل تصغى الىّ ؟

قال الضابط :

ـ بل أنا الذى سألقى عليك سؤالاً ، أصغ الىّ !

ـ هيه !...

ـ أنت الآن تتكلم وتتحدث ، ولكن قل لى : أأنت مستعدٌ لأن تقتل العجوز « بنفسك » .

ـ لا ، طبعاً !... فانما أنا أتكلم من وجهة نظر العدالة ، ولست اتحدث عن نفسى .

ـ فى رأيى أنه ليس هناك ظل من عدالة ، ما دمت غير مستعد لأن تقرر تنفيذ هذا الفعل « بنفسك » . والآن هلمّ بنا نلعب البلياردو !...

كان راسكولنيكوف مضطرباً أشد الاضطراب . ان الأحاديث التى سمعها لم تكن الا أحاديث عادية كثيراً ما سمع شباباً يتبادلونها فى صور مختلفة بعض الاختلاف بصدد موضوعات شتى . ولكن لماذا وقع له أن يسمع هذه المناقشة وأن يسمع هذه الآراء فى عين اللحظة التى كانت هذه الآراء نفسها تنبت فى ذهنه هو ؟ لماذا وقع له أن سمع ، فى نفس اللحظة التى تلبّث فيها فكره على العجوز ، حديثاً عن تلك العجوز نفسها ؟ لقد ظلت هذه المصادفة تبدو له غريبة . وكان لهذه الثرثرة العابرة التافهة التى يجرى أمثالها بين الناس فى الحانات ، تأثيرٌ عميق على تتمة الأحداث ، فكأن ذلك كان نذيراً بقدر محتوم ...

عاد راسكولنيكوف من « سوق العلف » الى بيته ، فارتمى على أريكته ، ولبث ساعة بأكملها لا يتحرك . هبط الظلام أثناء ذلك . ولم

يكن عنده شمعة ولا خطر بباله أن يشعل شمعة على كل حال • لم يستطع راسكولنيكوف في يوم من الأيام أن يعرف هل فكّر في شيء من الأشياء أثناء ذلك الوقت • وأخيراً أحس بقشعريرة الحمى تلك نفسها التي أحسها في النهار ، وسرّه أن يعرف أن في امكانه أن يرقد على الأريكة • وسرعان ما استبد به نعاس ثقيل كالرصاص ، فنام •

نام راسكولنيكوف أكثر مما اعتاد أن ينام ، نام بغير أحلام • وحين دخلت عليه ناستاسيا في الساعة العاشرة من صباح الغد ، بذلت كثيراً من الجهد ولقيت كثيراً من العناء في سبيل ايقاظه • كانت تحمل اليه شاياً وخبزاً • وكان الشاي في هذه المرة أيضاً بقية شاي ، وفي هذه المرة أيضاً كان الابريق ابريقها هي •

هتفت ناستاسيا تقول مغتاظة :

ـ ما أكثر ما يستطيع أن ينام ! نعم انه لا ينقطع عن النوم !••

نهض راسكولنيكوف بجهد كبير • كان يشعر بصداع في رأسه • وقف منتصباً وسار بضع خطوات ، ثم لم يلبث أن تهالك على الأريكة من جديد •

هتفت ناستاسيا :

ـ ماذا ؟ أتريد أن تنام أيضاً ؟ أتراك مريضاً ؟

لم يجب راسكولنيكوف •

ـ هل تريد شاياً ؟

قال بجهد وهو يغمض عينيه من جديد ويستدير نحو الحائط :

ـ فيما بعد •

لبثت ناستاسيا ماثلة عليه لحظة ثم قالت :

ـ ربما كان مريضاً !

واستدارت وخرجت .

وعادت اليه في الساعة الثانية تحمل حساءً . كان ما يزال راقداً ، حتى انه لم يكن قد مسَّ الشاي .

اغتاظت ناستاسيا ، فهزّته غاضبةً ونهرته قائلة له وهي تنظر اليه باشمئزاز :

ـ ما بالك تبقى غافياً على هذه الحال ؟

فنهض وجلس ، ولكنه لم يجب بشيء ، وكان يحدّق الى الأرض.

سألته ناستاسيا :

ـ أأنت مريض ؟

ولكنها في هذه المرة أيضاً لم تحصل على جواب . استأنفت تقول بعد صمت :

ـ حقاً ان عليك أن تخرج قليلاً الى الشارع ! سينفعك الهواء الطلق ! أصب شيئاً من الطعام على الأقل !...

قال لها بصوت ضعيف واهن :

ـ فيما بعد ... اذهبي الآن ...

قال لها ذلك وصرفها بحركة من يده .

بقيت لحظة قصيرة أخرى تتأمله في شفقة ثم خرجت .

وبعد بضع دقائق ، رفع عينيه ، ونظر الى الشاي والحساء ملياً ، ثم تناول الخبز والملعقة وأخذ يأكل .

بلع ثلاث ملاعق أو أربعاً دون شهوة ، بطريقة آلية تقريباً . قلّ صداع رأسه . حتى اذا فرغ من الطعام استلقى على الأريكة من جديد ،

لكنه لم يستطع أن ينام مرةأخرى • لبث جامدا ، مضطجعا على بطنه ، دافناً وجهه فى الوسادة • وبدأت تغزوه الأحلام • كانت جميع أحلامه غريبة جداً ، ها هو ذا يرى نفسه فى مكان ما بأفريقيا ، فى مكان ما بمصر، فى واحة من الواحات • القافلة تستريح • الجمال راقدة بهدوء وسكون• ومن حوله حلقة من أشجار النخيل • جميع الناس يأكلون • اما هو فلا يزيد على أن يشرب ماءً من جدول يجرى هناك على مقربة منه مصطجعاً • ما أعظم الانتعاش الذى يشعر به المرء حين يشرب هذا الماء الأزرق البارد العجيب الذى يسيل بين الحصى المتعدد الألوان فوق الرمل الملتمع المذهب !••• ولكن ها هو ذا يسمع على حين فجأة دقات ساعة حائط ، واضحةً متميزة • ارتعش راسكولنيكوف وثاب الى نفسه ، فلما رفع رأسه ، ونظر من النافذة ، عرف الساعة التى لعله فيها ، فاذا هو يثب عن أريكته ، صاحى الذهن كل الصحو ، ثم يتجه نحو الباب ، سائراً على رءوس أصابعه ، فيفتح الباب برفق ، ويصيخ بسمعه الى الضجات الآتية من السلم • كان قلبه يخفق خفقاناً شديداً • ولكن كل شىء كان فى السلم هادئاً ، حتى لكأن جميع الناس قد ناموا ••• بدا له أمراً عجيباً وأمراً شاذاً فى الوقت نفسه أن يكون قد استطاع أن ينام على هذا النحو منذ البارحة ، وأن يكون قد لبث على هذه الحال من الخدر ، بينما هناك أشياء كثيرة يجب عليه أن يعملها ، أن يهيئها • لعل الساعة التى سمع رنينها منذ هنيهة قد دقت السادسة ••• وهذا تعجل خارق محموم مضطرب يستولى عليه بعد النوم والخدر والتوانى • على أن الاستعدادات ليست كثيرة • جهد راسكولنيكوف أن يتنبأ بكل شىء وأن لا ينسى شيئاً • الا أن قلبه قد بلغ من شدة الخفقان أنه كان يتنفس فى كثير من العناء • كان عليه قبل كل شىء أن يصنع ابزيماً وأن يخيط الابزيم الى المعطف : ذلك عمل يستغرق بضع دقائق • نبش صرة الملابس التى

توجد تحت وسادته ، فسلَّ منها قميصاً عتيقاً ، قذراً ، مهترئاً كل الاهتراء ، غير صالح للاستعمال ، فانتزع من خرقه عصابة عرضُها بوصة وطولها ثماني بوصات • حتى اذا ثنى العصابة ثنيتين ، خلع معطفه الواسع المصنوع من نسيج قطني سميك متين (وهو الرداء الوحيد الذى كان يرتديه فوق ثيابه) وأخذ يخيط اليه طرفى العصابة من الداخل تحت الابط الأيسر • كانت يداه ترتجفان وهو يخيط العصابة الى المعطف • ولكنه قد أحسن القيام بهذه المهمة على خير وجه ، فلما عاد يرتدى معطفه كان الابزيم لا يظهر من الخارج • ان راسكولنيكوف قد أعدَّ الابرة والخيط منذ مدة طويلة : لفَّهما بورق وأودعهما درج منضدته الصغيرة• أما الابزيم فكان اختراعاً بارعاً جداً ابتكره خياله هو : كان على الابزيم أن يحمل الساطور • ان من المستحيل على راسكولنيكوف أن يتجول فى الشارع وهو يحمل بيده ساطوراً • ولو قد أخفى الساطور تحت المعطف لكان مضطراً مع ذلك الى ان يسنده ، وهذا أمر لا بد أن يلفت اليه انتباه الناس • أما الآن فليس عليه الا أن يدخل نصل الساطور فى الابزيم ، فيبقى الساطور طوال الطريق معلقاً بالابزيم فى داخل المعطف بهدوء ؛ عدا أن فى وسع راسكولنيكوف ، حين يغمد يده فى جيب المعطف من خارج ، أن يسند طرف المقبض ليمنع الساطور من التارجح • ولما كان المعطف واسعاً جداً حتى لكأنه كيس ، فلن يستطيع الناظر أن يلاحظ من الخارج أن راسكولنيكوف يسند شيئاً من خلال جيبه • ان فكرة صنع هذا الابزيم قد وافت ذهن راسكولنيكوف منذ خمسة عشر يوماً •

فلما انتهى راسكولنيكوف من عمله هذا دسَّ أصابعه فى الفراغ الضيق الذى يفصل الأريكة « التركية » عن أرض الحجرة ، وأخذ يتلمس الزاوية اليسرى من هذا المكان ، فأخرج « الرهن » الذى كان قد هيأه

وخبأه هناك منذ مدة طويلة • الحق أن هذا الرهن لم يكن رهناً ، وانما هو شريحة ملساء من خشب ، بحجم علبة فضية للسجائر • كان راسكولنيكوف قد عثر على هذه الشريحة الخشبية عَرَضاً أثناء احدى جولاته ، وذلك في فناء منزل كانت تشغل أحدَ أجنحته ورشةُ نجارة• وقد ضمَّ الى الشريحة فيما بعد صفيحةً من حديد ، رقيقةً ملساء ، التقطها من الشارع أيضاً • حتى اذا شدَّ هذين الشيئين المتفاوتين سمكاً ، أحدَهُما الى الآخر ، عُني بربطهما بخيط متصالب ، ثم لفَّهما لفاً أنيقاً بورقة بيضاء نظيفة جداً ، ثم عقد الخيط على اللفة عقداً محكماً يجعل فكَّها أمراً صعباً ، وذلك بغية أن يحوِّل انتباه العجوز برهةً من الزمن ـ لأن العجوز ستتهمك في حل العقد ـ فيختار هو اللحظة المواتية• ولقد كان هدفه من اضافة الصفيحة الحديدية هو أن يزيد وزن اللفة فيمنع العجوز من أن تكتشف ، في الوهلة الأولى على الأقل ، أن « الشيء » ليس الا قطعةً من خشب • وكانت اللفة مخبأةً تحت الأريكة منذ مدة •

فما ان وضع راسكولنيكوف يده على « الرهن » حتى سمع صياحاً في الفناء يقول :

ـ دقت الساعة السادسة منذ مدة طويلة !

فقال راسكولنيكوف يخاطب نفسه :

ـ منذ مدة طويلة ! رباه !•••

واندفع نحو الباب ، وأصاخ بسمعه ، ثم تناول قبعته ، وأخذ يهبط درجات السلم الثلاث عشرة ، محاذراً صامتاً كقطة • ما يزال عليه أن يفعل أهم شيء : أن يسرق الساطور من المطبخ • فأما أن عليه أن يستعمل ساطوراً فذلك أمر كان قد قرره منذ مدة طويلة • وكان راسكولنيكوف يملك كذلك نوعاً من مقصٍ يُستعمل مِقْرضاً في الحدائق

ولكنه كان غير واثق بالمقص ، وكان غير واثق بقواه خاصةً . لذلك وقع اختياره على الساطور . ولنذكر فى هذه المناسبة صفةً تميزت بها جميع القرارات التى اتخذها راسكولنيكوف لانفاذ خطته : لقد كانت هذه القرارات تبدو له عجيبة شاذة مستحيلة بمقدار ما كانت تصبح حاسمة قاطعة . ان راسكولنيكوف ، رغم الصراع المقلق الذى كان يشب فى نفسه دقيقة بعد دقيقة ، لم يستطع قطُّ أن يصدِّق أن مشاريعه يمكن أن توضع موضع التنفيذ فى يوم من الأيام . ولو قد اتفق له أن توصل يوماً الى أن يحسم جميع تلك المسائل ، فيبدِّد جميع الشكوك ويمهد جميع العقبات لكان من المحتمل أن يعدل فوراً عن مشروعه ذاك ، عدولَه عن شيء مستحيل عجيب سخيف ! ولكن الواقع أنه كان ما يزال هنالك عدد كبير من المسائل التى يجب حلها ومن الشكوك التى يجب تبديدها .

أما طريقة الحصول على ساطور ، فذلك أمر تفصيلى تافه لا يشغل باله كثيراً ، اذ لا أشيء أسهل منه . ذلك أن ناستاسيا كانت تتغيب كثيراً عن البيت ، ولا سيما فى المساء : فهى تذهب الى الجيران تارة وتمضى الى الدكاكين تارة أخرى ، وتترك الباب مفتوحاً اثناء ذلك ؛ وهذا بعينه هو السبب فيما كان يقع بينها وبين مولاتها من تشاجر . كان يكفى اذن أن يدخل راسكولنيكوف المطبخ بهدوء ورفق ، وأن يأخذ الساطور متى أزف الوقت ، ثم أن يرجع بعد ساعة (متى أنهى كل شيء) ، فيعيد الساطور الى مكانه . غير أن شكوكاً كثيرةً كانت تنبجس فى ذهن راسكولنيكوف: ماذا لو رجع بعد ساعة ليردَّ الساطور الى مكانه فكانت ناستاسيا قد عادت الى البيت مصادفةً أثناء غيابه ! سيكون عليه طبعاً أن يستمر فى طريقه ، وأن ينتظر خروجها من جديد . فماذا لو احتاجت أثناء ذلك الى الساطور فأخذت تبحث عنه ، وأخذت تصيح وتصرخ ؟ ان ذلك سيولد شبهةً أو هو سيولد فرصةً لشبهة فى أقل تقدير .

على أن هـذه الأمور كلها تفاصيل لم يكن راسكولنيكوف قد فكر فيها فعلاً بعد • لقد كان راسكولنيكوف يفكر فى الشيء الأساسى ، ويرجىء التفكير فى التفاصيل الى اللحظة « التى يكتمل فيها اقتناعه » • ولكن كان يلوح له أن هذه اللحظة لن تجىء قط ، أو ذلك ما كان يعتقد به راسكولنيكوف فى قرارة نفسه • كان لا يتخيل مثلاً أنه فى لحظة معينة سوف يكف عن التفكير ، وسوف ينهض ، وسوف يذهب الى هناك ، بكل بساطة !••• فحتى زيارته الأخيرة للعجوز (وهى الزيارة التى استهدف منها دراسة المكان وقام بها على سبيل « التمرين ») ، حتى هذه الزيارة لم تكن فى الواقع الا محاولة ، ولم يكن فيها جد • كل ما هنالك أنه قال لنفسه : « والله ••• سأذهب ، وسأحاول ، ما دام الأمر لا يعدو أن يكون حلماً » ، ثم لم يسعه بعد ذلك فوراً الا أن يبصق ويولى هارباً وقد امتلأ اشمئزازاً أمام نفسه • ولكن كان يبدو أنه قد أوغل فى التحليل الى النهاية ، وأنه حلّ المشكلة الأخلاقية التى تطرحها هذه القضية • لقد كان منطقه حاداً قاطعاً كسكين مسنونة ، ولم يبق لفكره أى اعتراض واعٍ يمكن أن يقدمه • غير أنه لم يكن واثقاً بنفسه فكان يلتمس اعتراضات من الخارج ، على نحو غامض عنيد ، كأن شخصاً يدفعه الى ذلك ويجبره عليه • وهذا يومُ الأمس الذى جرت أحداثه جرياناً ليس فى الحسبان وكان يوماً حاسماً ، قد أثر فيه تأثيراً يشبه أن يكون آلياً : لكأن شخصاً قد أمسكه من يده وأخذ يجره ، معصوب العينين ، بقوة خارقة ، جراً لا فكاك له منه ، ولا سبيل له الى الاعتراض عليه ! أو كأن آلةً قد التقطت طرف ثوبه فدارت به عجلاتها ، وأخذت تجذبه اليها جذباً لا حيلة له فى دفعه !

فى أول الأمر (منذ مدة طويلة) كان هنالك سؤال يشغل باله كثيراً ، وهو : لماذا تنكشف جميع الجرائم ويُفتضح أمر جميع المجرمين

بسهولة ويسر ؟ لماذا يُعثر على آثار جميع المجرمين تقريباً في غير عناء ؟ وقد توصل راسكولنيكوف شيئاً فشيئاً الى نتائج متنوعة شائقة • قال لنفسه ان السبب الأساسي في ذلك لا يرجع الى استحالة اخفاء الجريمة استحالةً مادية بقدر ما يرجع الى المجرم نفسه • فجميع المجرمين انما يشعرون ، لحظةَ تنفيذهم جريمتهم ، بنوع من انهيار الارادة وسوء الرأي ، فاذا بالارادة والرأي يحل محلَّهما طيشٌ صبياني تماماً ، في الوقت الذي يكون فيه المرء أحوج ما يكون الى العقل والحكمة والحذر • كان راسكولنيكوف مقتنعاً بأن غياب الرأي السديد وانهيار الارادة الصلبة يستوليان على الانسان كما يستولي عليه مرضٌ من الأمراض وينموان مزيداً من النمو شيئاً بعد شيء ثم يبلغان ذروتهما قبيل تنفيذ الجريمة • وكان مقتنعاً بأنهما يلبثان على هذه المرحلة عند ارتكاب الجريمة ، ويلبثان عليها بعد ارتكاب الجريمة بزمن يختلف طوله باختلاف الأفراد ، ثم يزولان كما تزول جميع الأمراض • أما هذا التساؤل : « هل المرض هو الذي يولد الجريمة ، أم أن الجريمة يصاحبها دائماً ، بحكم طبيعتها ان صح التعبير ، شيءٌ من مرض ؟ » فتلك مسألة لم يشعر راسكولنيكوف أنه قادر على حلّها •

فلما انتهى الى هذه النتائج ارتأى أن امثال هذه الاضطرابات المرضية لا يمكن أن تعتريه هو ، واعتقد بأنه سيظل محافظاً على سلامة الرأي وقوة الارادة طوال فترة تنفيذ خطته ، وذلك لسبب بسيط هو أن ما ينوي القيام به « ليس جريمة » •••

لندع جانباً طريقة وصوله الى هذه النتيجة ، فلقد استبقنا منذ الآن أشياء كثيرة •

وحسبنا أن نضيف الى ما ذكرناه أن المصاعب الواقعية والعقبات المادية لم يكن لها في ذهنه الا دور ثانوي • كان يقول لنفسه : سوف

يكفيني أن أظل مسيطراً على ارادتي وعلى فكري حتى تذلل جميع هذه الصعاب متى أزف الوقت فأصبح عليّ ان ادقق في أيسر تفاصيل القضية » • ولكن القضية لم تبدأ ، فكان اقتناع راسكولنيكوف بأن قراراته حاسمة يضعف شيئاً بعد شيء • حتى اذا أزفت الساعة ، جرت جميع الأمور على غير ما تنبأ به ، حتى لكأنه لم يتنبأ بشيء في يوم من الأيام •••

هناك ظرف من أبسط الظروف أذهله حتى قبل أن يهبط السلم : انه حين وصل الى فسحة المطبخ الذي كان بابه مفتوحاً كما يكون كذلك دائماً ، قد ألقى على الباب نظرة محاذرة مواربة ليتأكد من أن صاحبة البيت ليست في المطبخ أثناء غياب ناستاسيا ، أو ليتأكد من أن باب غرفتها مغلق تماماً بحيث لا تستطيع أن تلمحه حين يدخل الى المطبخ لأخذ الساطور • فما كان أشد ذهوله حين رأى أن ناستاسيا لم تكن حاضرةً فحسب بل كانت مشغولة كذلك ، فهي تُخرج الغسيل من سلة وتنشره على حبال • فلما رأته قطعت عملها والتفتت نحوه ثم لم تحوّل بصرها عنه الى أن غاب • وقد أشاح راسكولنيكوف عينيه وابتعد كأنه لم يلاحظ شيئاً ، ولكن مهمته كانت قد أخفقت : ما من ساطور ! وأسودّت الدنيا في عينيه •

قال يحدث نفسه وهو يجتاز باب المنزل : « من أين جئتُ بهذه الفكرة وهي أن ناستاسيا لا بد أن تكون في هذه اللحظة غائبة حتماً ؟ لماذا اتخذت هذا القرار موقناً هذا اليقين كله ؟ » وشعر بأنه مسحوق مُذل • كان من شدة غضبه يشتهي أن يسخر من نفسه • ان حنقاً غبياً حيوانياً أخذ يغلي في أعماقه •

توقف تحت باب المنزل حائراً متردداً • انه يكره أن يمضي الى الشارع هكذا ، تقيداً بالشكل ، ولكنه يكره اكثر من ذلك أيضاً أن

يعود الى غرفته . جمجم يقول على نحو آلي : « يا لها من فرصة أضعتها ، أضعتها الى الأبد ! » قال ذلك وهو تحت قبة المدخل ، ولكن ها هو ذا الآن أمام حجرة البواب الصغيرة التي كان بابها مفتوحاً أيضاً . ارتعش راسكولنيكوف فجأة . لقد لمح في هذه الحجرة ، على بعد خطوتين منه ، تحت دكة ، في اليمين ، شيئاً يسطع ! نظر حواليه : لم ير أحداً . اقترب من الحجرة سائراً على رءوس أصابع قدميه ، وهبط درجتين ، ونادى البواب بصوت ضعيف . لم يجبه أحد . قال يحدث نفسه : « نعم ! البواب غائب . لا بد أن يكون غائباً ! على كل حال ، أغلب الظن أنه في مكان ما بالفناء ما دام الباب مفتوحاً . واندفع نحو الساطور بوثبة واحدة (ان الشيء الذي يسطع كان ساطوراً) . سحب الساطور من تحت الدكة حيث كان موضوعاً بين حطبتين ؛ وقبل أن يغادر الحجرة أسرع يضع الساطور في الابزيم داخل المعطف ، ودس يده في جيبه وخرج . لم يره أحد . قال يحدث نفسه وهو يبتسم ابتسامة غريبة : « لأنك محروم من العقل عاونك الشيطان ! » وشجعته هذه المصادفة كثيراً .

سار في الشارع بهدوء ووقار ورصانة دون أن يتعجل ، وذلك حتى لا يوقظ حوله شبهات . كان لا يكاد ينظر الى المارة ، حتى لقد كان يجهد أن لا يرفع عينيه ، بغية أن لا يراه أحد اطلاقاً . وتذكر عندئذ قبعته فقال يحدث نفسه : « ما أغباني ! كان معي مال أول أمس ، ثم لم أشتر قبعة ! » وأفلتت منه شتيمة ...

وألقى نظرة على داخل احد الدكاكين عرضاً فلمح ساعة معلقة في الجدار تشير الى السابعة . كان عليه أن يغذ الخطى ، ولكن كان عليه كذلك أن لا يمضي الى منزل العجوز رأساً ، وانما ينبغي له أن يدور دورة . ان من الأفضل أن يدخل المنزل من الباب الآخر في الجهة الثانية.

في الماضي ، حين كان يتفق له أن يتصور هذا كلّه ، كان يقدّر أحياناً أنه سيشعر بخوف شديد . ولكنه الان لا يشعر بهذا الخوف الشديد بل لا يشعر بخوف البته . الآن تشغله أفكار ليس لها أيّ شأن بالموضوع ، وما اكثر تبدلها وتغيرها ! فحين اجتاز حديقة يوسوبوف مثلاً انبثقت في ذهنه فكرة توقف عليها ملياً ، هي أن من الواجب وضع نوافير مياه من شأنها أن ترطب الهواء ترطيباً لذيذاً في الميادين العامة . وشيئاً فشيئاً انتهى الى الاعتقاد بأنه اذا وُسِّعت « حديقة الصيف » بحيث تشمل كل « ساحة مارس » ، واذا ضُمَّت هذه الحديقة الى حديقة « قصر ميشيل » ، فسيكون ذلك تجديداً في المدينة ممتعاً ومفيداً في آن. وهذا سؤال آخر يشده اليه بقوة-: تساءل راسكولنيكوف : لماذا يحب الانسان في المدن الكبرى ، لا بحكم الضرورة بل بدافع الميل ، أن يمكث خاصةً في الأحياء التي ليس فيها حدائق ولا نوافير مياه ، ولا يسودها الا الحمأ والعفن ؟ وتذكر عندئذ جولاته خلال « سوق العلف » ، فارتدّ لحظة الى الشعور بالوضع الذي هو فيه ، فقال يحدث نفسه : « يا للسخف ! ان من الأفضل أن لا افكر البتة ! » .

وومضت في ذهنه هذه الفكرة : « لا شك أن الذين يقادون الى المقصلة يتشبث فكرهم هذا التشبث بجميع الأشياء التي يصادفونها في طريقهم » . ولكن هذه الفكرة التي ومضت في ذهنه بسرعة كسرعة البرق ، لم تلبث أن اختفت بسرعة كسرعة البرق أيضا . لقد استطاع هو نفسه أن يحملها على الاختفاء ... ولكن ها هو ذا قد اقترب ... هذا هو المنزل ... هذا هو مدخل العمارة ! وفي مكان ما ، رنَّت ساعة حائط على حين فجأة . قال راسكولنيكوف متسائلاً : « ماذا ؟ أتكون هي السابعة والنصف ؟ أهذا ممكن ؟ مستحيل ... لا شك أن هذه الساعة متقدمة !.. » . وابتسم له الحظ مرة أخرى حين اجتاز المدخل.

ان عربةً ضخمة محملة بالعلف كانت تدخل ، فى تلك اللحظة نفسها ، أمامه تماماً ، فتخفيه اخفاءً كاملاً طوال مدة مروره . فما ان نفذت العربة الى الفناء حتى كان هو قد استطاع أن يتسلل يمنه . وسمع عدة أصوات آتية من الجهة الآخرى وراء العربة. كان هنالك أناس يصرخون ويتشاجرون . ولكن أحداً لم يلاحظه ، ولم يلتق بأحد البتة . وكانت نوافذ كثيرة مطلةً على الفناء المربع الواسع مفتوحةً فى تلك اللحظة . ولكن راسكولنيكوف لم يرفع رأسه . لقد كان لا يملك من القوة ما يمكنه من رفع رأسه . والسلم الذى يفضى الى بيت العجوز يقع على اليمين قرب المدخل ، فسرعان ما كان راسكولنيكوف على ذلك السلم ...

حبس راسكولنيكوف أنفاسه ، وضغط باحدى يديه خفقات قلبه ، بينما كانت الأخرى تتلمس الساطور وتعدل وضعه . وأخذ يصعد محاذراً صامتاً مصيخاً بسمعه فى كل لحظة . ولكن السلم كان خالياً كل الخلو هو أيضاً . ان جميع الأبواب مغلقة . لم يلتق راسكولنيكوف بأحد . صحيح أن باب شقة غير مسكونة ، فى الطابق الأول ، كان مفتوحاً . ان عدداً من الدهانين يعملون فى تلك الشقة ، ولكنهم لم يلاحظوه . توقف راسكولنيكوف لحظةً ، وفكَّر ، ثم تابع الطريق وهو يحدث نفسه قائلاً : طبعاً ... من الأفضل أن لا يوجدوا هنا ... ولكن ... ما يزال ثمة طابقان !... » .

هذا هو الطابق الثالث أخيراً ... هذا هو الباب ... هذا هو المسكن المقابل ... انه ما يزال خالياً ... وأغلب الظن ان المسكن الذى يقع تحت مسكن العجوز فى الطابق الثانى خال أيضاً . ان البطاقة المسمَّرة على الباب قد زالت ... معنى ذلك أن سكانه قد رحلوا ... كان راسكولنيكوف يشعر باختناق . وومضت فى ذهنه فكرة سريعة سرعة البرق : « ماذا لو انصرفت ؟ » . ولكنه لم يجب عن هذا

السؤال ، وأنصت يصغي الى ما يجرى فى بيت العجوز : لا شىء الا الصمت ••• صمت كصمت الموت • واستدار مرة أخرى نحو السلم ، وتسمَّع مدة طويلة بانتباه شديد !••• وبعد ذلك ، ألقى على ما حوله نظرة أخيرة ، وجمع شتات أفكاره ، وتهيأ ، وعدل مقبض الساطور فى الابزيم مرة أخرى • تساءل بينه وبين نفسه : « ألست مسرفاً فى الشحوب ، مسرفاً فى توتر الأعصاب ؟ انها شكَّاكة ريابة ••• أفلا ينبغى لى والحالة هذه أن أنتظر ••• الى أن يهدأ قلبى ويسكن روعى ؟ » •

ولكن قلبه لم يهدأ • بالعكس : كان قلبه ، كأنما على عمد ، يدقّ دقاً قوياً ، قوياً ، قوياً ••• لم يطق صبراً ، فمد يده ببطء الى حبل الجرس ، وشدَّه ، وبعد نصف دقيقة قرع الجرس مرة أخرى بقوة أكبر •

ما من جواب • فيمَ قرع الجرس بغير طائل ؟ ثم ان هذا ليس بالمستحسن • لا شك أن العجوز فى منزلها ، ولكنها لكونها الآن وحيدة لا بد أن تكون اكثر شكاً وحذراً • لقد كان راسكولنيكوف يعرف بعض عاداتها ••• وها هو ذا يضع أذنه على الباب مرة أخرى • أكانت حواسه مشحوذة شحذاً قوياً الى هذا الحد ـ وذلك ما يصعب أن يسلِّم به الناس عامةً ـ أم أن الضجة كانت مسموعة حقاً ؟ المهم أنه قد ميَّز ، على حين فجأة ، خشخشةَ يدٍ محاذرةٍ على الباب وحفيفَ ثوبٍ يلامسه • لا شك أن أحداً يختبىء وراء هذا الباب ، ويصيخ بسمعه من الداخل ، مثلما يصيخ هو بسمعه من الخارج ، حابساً أنفاسه مثله ، واضعاً أذنه على الباب مثله أيضاً •••

تعمَّد راسكولنيكوف أن يتحرك ، ودمدم بصوت عالٍ بغية أن

لا تحس العجوز أنه يختبىء ، ثم قرع الجرس مرة ثالثة ، ولكنه قرعه في هذه المرة برفق وهدوء ورصانة ورزانة ، بغير تعجل يدل على نفاد الصبر •

ان ذكرى هذه اللحظة ستعاوده في المستقبل واضحة مضيئة ، لأنها قد انطبعت في ذهنه الى الأبد • ان راسكولنيكوف لم يستطع أن يفهم في يوم من الأيام بعد ذلك ، من أين جاءه ذلك المكر كله ، لاسيما أن فكره كان قد أظلم ، وأنه أصبح لا يكاد يشعر بجسمه •••

وبعد لحظة سمع صوت المزلاج يُسحبُ لفتح الباب •

الفصل السابع



شق الباب قليلاً كما حدث في المرة الماضية ، وحدقت الى راسكولنيكوف من قرارة الظلام عينان حادتان ريّابتان • هنا فقد راسكولنيكوف هدوء أعصابه فارتكب خطيئة أوشكت أن تفسد عليه كل شيء •

لقد خشي راسكولنيكوف أن تخاف العجوز من وجودها وحيدةً معه ، وكان لا يأمل أن يرد اليها مظهرُه طمأنينتها ، فأمسك الباب وشدّه اليه ، حتى لا يخطر ببالها أن تغلقه من جديد ؛ فلما رأت العجوز ذلك لم تشدّ الباب الى جهتها ، ولكنها لم تترك قبضته أيضاً ، فأوشكت أن تُجرَّ الى فسحة السلم • وحين رآها راسكولنيكوف ما تزال واقفة في العتبة لتسد الطريق ، مشى اليها قُدماً ، فاذا بذعر شديد يستولى عليها ، واذا هي تتقهقر الى الوراء بوثبة واحدة ، وتحاول أن تقول شيئاً فلا تستطيع ، وتشخص اليه بكل عينيها •

قال لها وهو يصطنع هيئة طلقة بقدر ما يستطيع ذلك :

ـ نهارك سعيد يا آليونا ايفانوفنا •

ولكن صوته لم يطعه ، فقد كان متقطعاً مرتجفاً • وتابع كلامه يقول لها :

ـ جئتك بالرهن ••• ولكن فلنمض الى هناك حيث الضوء اكثر••

ولم ينتظر ان تدعوه الى الدخول بل نفذ الى الغرفة بخطى حازمة .

جرت العجوز وراءه . وانحلت عقدة لسانها فقالت :

ـ رباه ! ما هذا ؟ من أنت ؟ ماذا تريد ؟

ـ عجيب يا آليونا ايفانوفنا .. أنا راسكولنيكوف ... انك تعرفينني منذ مدة طويلة ... خذى ... لقد جئتك بالرهن الذى وعدتك به آخر مرة ...

قال لها ذلك ومد اليها الرهن .

أخذت العجوز تتفحص الرهن ، ولكن سرعان ما عادت عيناها تحدقان الى عينى الرجل الغريب . كانت تتفرس فيه بانتباه وخبث وخشية . انقضت دقيقة ، حتى لقد خُيل الى راسكولنيكوف أنه يرى فى عينيها نوعاً من السخرية ، كأنما هى قد أدركت كل شيء . شعر راسكولنيكوف بأنه يفقد سيطرته على نفسه ، وأن خوفاً شديداً يغزوه ، خوفاً يبلغ من الشدة أنه سوف يولى هارباً اذا هى ظلت تحدق اليه هذا التحديق نصف دقيقة أخرى دون أن تقول كلمة واحدة .

قال فجأة ، بخبث أيضاً :

ـ ما بالك تنظرين الىّ هكذا كأنك لم تعرفينى ؟ خذى الرهن اذا شئت ... والا لجأت الى غيرك ! ليس فى وقتى متسع ...

ان راسكولنيكوف لم يشأ أن ينطق بهذه الأقوال ، ولكنها أفلتت منه من تلقاء نفسها فجأة .

استردت العجوز هدوءها . ان اللهجة الجازمة فى كلام الرجل الغريب قد اعادت اليها الثقة .

سألته وهى تنظر الى الرهن :

ــ ولكن ، يا صديقى ، لماذا تفاجئنى هكذا ؟... وما هو هذا الشىء الذى تريد أن ترهنه ؟

قال راسكولنيكوف :

ــ هو علبة سجائر مصنوعة من الفضة . تعرفين ذلك حق المعرفة. حدثتك عنها فى المرة الماضية .

مدت العجوز يدها وقالت :

ــ ولكن ما أشد شحوبك ! ويداك ما بالهما ترتجفان ! مريض ، هه ؟

أجابها بصوت متقطع :

ــ نعم ... بى حمى !...

ثم أضاف يقول بمشقة كبيرة :

ــ وحين لا يملك المرء ما يأكله فلا بد أن يشحب لونه !...

لقد بارحته قواه من جديد . ولكن جوابه كان معقولاً . تناولت العجوز الرهن .

سألت العجوز راسكولنيكوف ، وهى تتفرس فيه مرة أخرى ، وتروز الرهن بيدها :

ــ ما هذا ؟

ــ علبة سجائر ... من فضة ... أنظرى .

ــ لا يبدو أنها من فضة !... لكنك لففتها لفاً أنيقاً جميلاً .

قالت ذلك وأخذت تحاول حل عقدة الخيط مقتربةً من النافذة (كانت جميع النوافذ في بيتها مغلقة رغم الحرارة الخانقة) • تركت راسكولنيكوف اذن بضع لحظات ، وأدارت له ظهرها• فكّ راسكولنيكوف أزرار معطفه وسلّ الساطور من الابزيم ، ولكنه لم يخرجه اخراجاً تاماً ، فهو ما يزال يمسكه بيده اليمنى تحت المعطف • لقد اعترى ذراعيه ضعفٌ شديد ، وهو يحس أنهما تزدادان تخدراً وثقلاً لحظةً بعد لحظة، وتصبحان أشبه بقطعتين من خشب• خشى أن يرخى الساطور وأن يتركه يسقط ••• وأخذ رأسه يدور فجأة ••• هتفت العجوز تقول بحدة وهى تتقدم خطوةً نحوه :

ـ من ذا يخطر بباله حقاً أن يربط صرةً هذا الربط ؟

لم يبق فى وقت راسكولنيكوف متسع للحظة يضيعها • وها هو ذا يخرج الساطور ، ويشهره بكلتا يديه ، ويُسقطه على رأس العجوز وهو لا يكاد يعى ماذا يعمل ، ولا يكاد يبذل جهداً ، حتى لتوشك أن تكون الحركة التى قام بها حركةً آلية • لقد تمت هذه الحركة من تلقاء نفسها دون أن تتدخل فيها قواه ، ولكنه ما ان أسقط الساطور حتى عادت اليه قواه • كانت العجوز عارية الرأس على عادتها • وكان شعرها الشائب ، المتناثر ، المُدْهِن ، المُزَيَّت كثيراً ، المضفور على صورة ذيل فأرة ، المشدود ببقية مشط ، كان يبرز ناتئاً على قفا رقبتها • ولأن قامتها قصيرة فان ضربة الساطور قد سقطت على قمة جمجمتها • أطلقت العجوز صرخة ، ولكنها صرخة ضعيفة جداً • وكانت العجوز ما تزال تمسك الرهن باحدى يديها • هوى راسكولنيكوف على رأسها بضربة جديدة ، ثم بضربة أخرى ، باذلاً كل ما يملك من قوة ، وذلك بظهر الساطور أيضاً ، وعلى قمة الجمجمة كذلك• انبجس الدم من الرأس كأنه ينسكب من كأس ، وتهاوى الجسم الى وراء • تقهقر راسكولنيكوف ليخلى لها

مكانا ، ثم أسرع يميل على وجهها : كانت العجوز قد ماتت • لكأن عينيها المحملقتين تريدان أن تخرجا من حجاجيهما • والوجه كله ، ولا سيما الجبين ، تبدو عليه علامات الانقباض والتشنج التى تصاحب الاحتضار •

وضع راسكولنيكوف الساطور على أرض الحجرة قربَ الميتة ، وأسرع يدس يده فى جيبها متحاشياً أن تتسخ يداه بملامسة الدم • دس يده فى ذلك الجيب نفسه الذى أخرجت منه العجوز مفاتيحها فى المرة الماضية • كان راسكولنيكوف محتفظاً بصحو ذهنه ، كان لا يشعربخَورٍ فى عزيمته أو بدوار فى رأسه • ان يديه وحدهما ما تزالان ترتجفان • سوف يتذكر راسكولنيكوف فى المستقبل أنه كان فى تلك اللحظة شديد الانتباه كثير الحذر ، وأنه قد عرف كيف يتحاشى أن يلطخ يديه بالدم• سرعان ما أخرج راسكولنيكوف المفاتيح • كانت المفاتيح ، كما فى المرة الماضية ، مجتمعةً فى حزمة واحدة تضمها بعضها الى بعض حلقة من فولاذ • حمل راسكولنيكوف المفاتيح بيديه وهرول مسرعاً الى غرفة النوم لا يضيع لحظة واحدة • انها غرفة صغيرة جداً تنتصب فيها أيقونات فى داخل خزانة كبيرة ذات زجاج • وعند الحائط المقابل يوجد سرير كبير ، نظيف جداً ، له غطاءٌ من حرير ، مبطنٌ بالقطن ومصنوعٌ من عدة أقمشة مجتمعة • وعند الجدار الثالث توجد الخزانة ذات الأدراج• شيء غريب : ما ان أخذ راسكولنيكوف يدخل أحد المفاتيح فى قفل الخزانة ، وما ان سمع صريف المفاتيح ، حتى سرى فى كيانه كله نوع من قشعريرة أو رعدة • وتمنى فجأة أن يدع كل شيء وأن ينصرف• ولكن ذلك لم يدم الا لحظة • لقد فات أوان الانصراف • وسخر راسكولنيكوف من نفسه حين وافته فكرة أخرى تنبهه الى الخطر • لقد خيل اليه بغتة أن العجوز ربما كانت ما تزال حية وربما تصحو من

غيوبتها . فاذا هو يترك المفاتيح والخزانة ، ويعود الى الجثمان راكضاً ، ويتناول الساطور ويشهره فوق العجوز مرة أخرى ، ولكنه لا يسقطه عليها . لقد كانت العجوز ميتة . لم يبق مجال للشك فى هذا . وحين مال راسكولنيكوف عليها ليدقق النظر فيها من قرب ، رأى رؤيةً واضحة أن الجمجمة كانت قد انكسرت وأن قمتها كانت قد انحرفت قليلاً . اشتهى أن يضع هنالك اصبعه ، ولكنه منع نفسه عن ذلك : يكفيه ان يرى . وكان الدم قد شكّل على أرض الغرفة أثناء ذلك بركةً كبيرة. ولمح راسكولنيكوف ، على حين فجأة ، حبلاً صغيراً فى عنق العجوز ، فشدّه ، ولكن الحبل كان متينا فلم ينقطع ، وكان الى ذلك مشرباً بالدم. حاول راسكولنيكوف أن ينزع الحبل . ولكن شيئاً ما كان يثبته . ثارت ثائرة راسكولنيكوف ، فشهر الساطور من جديد ، عازماً على أن يقطع الحبل فوق جسم العجوز ، لكنه لم يجرؤ أن يفعل ؟ واستطاع ، بعد دقيقتين من الجهد ، أن يقطع الحبل دون أن يحزّ الجثمان ، ملطّخاً بالدم يديه والساطور معاً. ثم سحب الحبل. لم يخطىء ظنه : هى صُرّة مال . لقد عُلّق بالحبل صليبان ، أحدهما من خشب السرو ، والثانى من نحاس ، وعُلّق به وسامٌ مطلى بالمينا ، وحافظةُ نقود من جلد الوعل ، متسخةٌ كل الاتساخ ، ولها قفل من فولاذ . كانت حافظة النقود تبدو محشوة . وضعها راسكولنيكوف فى جيبه دون أن يدقق فيها . ثم ألقى الصليبين على صدر العجوز . وركض الى غرفة النوم من جديد ، حاملاً الساطور فى هذه المرة .

وبسرعة محمومة ، أمسك المفاتيح ، وعاد ينهمك فى معالجتها ، ولكن دون أن يفلح أيضاً ، فما من مفتاح من هذه المفاتيح كان يبدو أنه ملائم للقفل . ليس يرجع ذلك الى أن يديه كانتا ترتجفان ، وانما يرجع الى أنه كان يخطىء فى كل مرة . كان يدرك مثلاً أن هذا المفتاح من

المفاتيح ليس هو المفتاح المطلوب ، وأنه لا يدخل فى القفل ، ومع ذلك كان يستمر على محاولة ادخاله . وفجأة تذكر وفهم أن المفتاح المسنَّن الذى يتأرجح الآن بين سائر المفاتيح ، لا يناسب الخزانة ذات الأدراج حتماً (وذلك ما سبق أن قاله لنفسه فى المرة الماضية) ، بل يناسب صندوقاً ما ، وأن كل شىء ربما كان مودعاً مخبأً فى ذلك الصندوق . ترك راسكولنيكوف الخزانة ذات الأدراج ، وأسرع يندس تحت السرير ، لعلمه بأن من عادة النساء العجائز أن يخفين صندوقهن فى هذا المكان . وكان يوجد تحت السرير فعلاً صندوق كبير ، يبلغ طوله أرشيناً ، وله غطاء محدودب منجَّد بجلد أحمر تزينه مسامير صغيرة من فولاذ . انطبق المفتاح المسنَّن على القفل انطباقاً تاماً ، وفُتح الصندوق . هذا معطف من جلد الأرنب مبطن بقماش أحمر ، يعلو سائر الأشياء التى يضمها الصندوق ، ويحميه غطاء أبيض ثم شال . وفى قرارة الصندوق لا يبدو أنه يوجد الا خرق . أخذ راسكولنيكوف يمسح بالبطانة الحمراء يديه الملطخين بالدم ، قائلاً لنفسه : « هى حمراء ، والدم لا يُرى على قماش أحمر كما يُرى على غيره » ، ولكنه سرعان ما عدل عن ذلك ، وتساءل مذعوراً : « رباه ! أأنا بسبيل أن أصبح مجنوناً ؟ » .

غير أنه ما كاد يحرك الخرق الموجودة فى قرارة الصندوق حتى انزلقت من تحت المعطف ، على حين فجأة ، ساعةٌ معصم . فقلب راسكولنيكوف عندئذ كل ما يضمه الصندوق . كان بين الخرق ، فعلاً ، أنواع شتى من أشياء ذهبية (لعلها أشياء رهنها أصحابها عند آليونا ايفانوفنا ثم لم يستردوها) : فهناك أساور وأقراط ودبابيس لرباط العنق وغير ذلك . ان بعض هذه الأشياء موضوع فى علب ، وبعضها ملفوف بورق جرائد لا أكثر ، ولكن ورقة الجريدة مزدوجة ومربوطة بخيط

أسرع راسكولنيكوف يحشو بهذه الأشياء جيوب سرواله ومعطفه، مهملاً حتى أن يفض الصُرر ويفتح العلب • ولكن وقته لم يتسع لأخذ مقدار كبير من هذه الأشياء •

ذلك أنه سمع على حين فجأة أصوات وقع أقدام فى الغرفة التى يرقد فيها جثمان العجوز • تجمَّد وانشل من الذعر حتى لكأنه ميت• ولكن السكون لم يلبث أن عاد يخيِّم • فظن أنه كان ألعوبةَ وهمٍ من أوهام الخيال • وما هى الا برهة وجيزة حتى سمع صرخةً ضعيفة تنطلق على حين بغتة ، ثم عاد الصمت يخيِّم من جديد • ان صمتاً كصمت الموت قد ساد الجوَّ خلال دقيقة أو دقيقتين • كان راسكولنيكوف جاثياً قرب الصندوق ينتظر ، وهو لا يتنفس الا بكثير من العناء • ثم نهض بوثبة واحدة ، فأمسك الساطور ، واندفع يخرج من غرفة النوم •

فى وسط الغرفة كانت اليزابت واقفةً وفى يدها سلة كبيرة • انها تنظر الى أختها الميتة مذعورةً مصعوقة • كان وجهها شاحباً شحوباً شديداً ، وكانت كأنها لا تملك من القوة ما يمكِّنها من أن تصرخ • فلما رأت راسكولنيكوف أخذت ترتعش كورقة فى مهب الريح. وسرت فى جسمها كله رعدة قصيرة متقطعة • وتقبَّض وجهها بتشنجات • رفعت ذراعيها ، وفتحت فمها ، دون أن تصرخ مع ذلك ، وأخذت تتقهقر الى الوراء بخطى بطيئة أمام راسكولنيكوف ، محاولةً أن تلطو فى ركن من الأركان • وكانت أثناء ذلك تحدق اليه وتتفرس فيه ، ولكنها ما تزال خرساء لا تنطق ، كأنما انقطعت أنفاسها • هجم راسكولنيكوف عليها مسلَّحاً بساطوره • تقلصت شفتا اليزابت من الألم ، وكأنها طفل من أولئك الأطفال الصغار جداً الذين اذا رأوا الشىء الذى يخيفهم ، همُّوا أن يصرخوا • مسكينة اليزابت ! كانت تبلغ من ضعف العقل ومن فرط

ما عانته من اضطهاد فى حياتها أنها لم ترفع حتى ذراعها لتحمى وجهها ، مع أن هذه الحركة هى الحركة الطبيعية فى مثل تلك اللحظة ، لأن الساطور انما كان مصوّباً الى رأسها • اكتفت اليزابت بأن رفعت قليلاً يدها اليسرى التى لا تحمل شيئاً ، فمدتها ببطء نحو راسكولنيكوف كأنما لتدفعه عنها • هوى راسكولنيكوف عليها بحدّ الساطور ، فأصابت الضربة جمجمتها ، وشقت أعلى جبينها حتى النافوخ تقريباً • سقطت اليزابت على الأرض كتلةً واحدة ، فتناول راسكولنيكوف سلّتها ، وقد طار صوابه كله ، فرماه وأسرع راكضاً الى حجرة المدخل •

كان الذعر يستولى عليه بمزيد من القوة شيئاً بعد شيء ، ولا سيما بعد جريمة القتل الثانية هذه التى لم تكن فى الحسبان قط • انه الآن يتعجل مغادرة المكان بأقصى سرعة • ولو كان عندئذ فى حالة تمكنه من أن يرى رؤية أوضح وأن يفكر تفكيراً أسلم ؛ لو استطاع أن يدرك صعوبة وضعه الذى يتصف بأنه يائس عجيب مستحيل ؛ لو استطاع أن يتصور ، عدا ذلك ، العقبات الكثيرة التى ما يزال عليه أن يجتازها ، وربما الجرائم الكثيرة التى سيرتكبها لانتزاع نفسه من هذا البيت والعودة الى مسكنه ، اذن لكان من الجائز جداً أن يترك كل شيء ، وأن يبادر فوراً الى تسليم نفسه ، لا عن خوف ، بل عن شعور بالهول والاشمئزاز مما فعل • لقد كان الاشمئزاز ، خاصةً ، يزداد دقيقةً بعد دقيقة • ما كان له الآن ، بحال من الأحوال ، أن يقترب من الصندوق ، أو حتى من الغرفة •

ولكن نوعاً من الذهول ، بل ومن الحلم ، قد استولى عليه شيئاً بعد شيء ؛ حتى لكأنه فى بعض اللحظات قد نسى نفسه ، أو قل نسى الأمر الأساسى وتشبث بالتفاصيل وحدها • ثم انه حين ألقى نظرة على المطبخ لمح قادوساً موضوعاً على دكة ، وممتلئاً نصفه بالماء • فارتأى أن يغسل

فيه يديه والساطور . كانت يداه الملطختين بالدم لزجتين . أغطس حدَّ الساطور في الماء ، وتناول من على حافة النافذة قطعة صغيرة من صابون كانت موضوعة في صحن متثلم ، وأخذ يغسل يديه داخل القادوس . فلما انتهى من غسلهما ، سحب الساطور ، فنظّف نصله ، ثم لبث ثلاث دقائق كاملة يدلك مقبضه في المواضع الملطخة بالدم ، حتى لقد استعمل في تنظيفه الصابون . وبعد ذلك مسح الساطور كله بخرقة كانت تجف على مقربة منه فوق حبل مشدود في المطبخ. ثم اقترب من النافذة ، وراح يفحص الساطور باتنباه شديد . لم يبق على الساطور أي أثر ، ولكن مقبضه ما يزال رطباً . دسَّ راسكولنيكوف الساطور في الابزيم الذي خاطه في داخل معطفه ، ثم أخذ يفحص المعطف والسروال والحذاءين، بالقدر الذي أتاحه له النور الضعيف . لا شيء ، من النظرة الأولى ، يبدو على مظهره من خارج . على الحذاءين وحدهما كان يمكن أن يرى الناظر بضع بقع . بلَّل راسكولنيكوف خرقة ومسح الحذاءين . على أنه كان يعرف أنه لا يرى رؤية واضحة ، وأنه ربما كان هنالك شيء يخطف الأبصار ولكنه لا يلاحظه . وقف في وسط الغرفة حائراً مضطرباً . وهذه فكرة مظلمة قاتمة تنزوه ، وهي أنه يتصرف تصرف مجنون ، وأنه لا يملك في هذه اللحظة لا القدرة على التفكير ولا القدرة على الدفاع عن نفسه ، وأن ما يجب عليه أن يفعله قد يكون غير هذا تماماً . دمدم يقول : « رباه ! ان عليَّ أن أهرب ، أن أهرب ، أن أهرب ! » . واندفع نحو حجرة المدخل . ولكنْ هناك انما كان ينتظره رعب لم يشعر بمثله في حياته !...

لبث راسكولنيكوف جامداً لا يتحرك ، وأخذ ينظر فلا يصدّق عينيه : ان الباب الذي يفضي الى فسحة السلم ، هذا الباب الذي قرع جرسه ودخل منه منذ قليل ، هو الآن مفتوح ، مفتوح تماماً . لا مفتاح

ولا مزلاج اذن ، طوال الوقت الذى انقضى ! ان العجوز لم تغلق الباب اذن بعد دخوله ، ربما من باب الاحتياط والحذر ! ولكن ما هذه الخواطر ؟ ألم يرَ البزابت بعد ذلك ؟ فكيف لا يخطر بباله أنها لا بد أن تكون قد دخلت من مكانٍ ما ؟ انها لم تخترق الجدران على كل حال !..

وأسرع راسكولنيكوف الى الباب فأوصد المزلاج .

ثم سرعان ما قال يحدث نفسه : « لا ، لا ، ليس هذا ما يجب عليَّ أن أفعله . ينبغى أن أنصرف ، أن أنصرف ! » .

وسحب المزلاج ، وفتح الباب ، وأخذ ينصت الى ضجات السلَّم متجسساً .

لبث يتجسس هذا التجسس مدةً طويلة . هناك ، فى بعيد ، ربما عند باب العمارة ، أصوات رجلين صارخين معولين ، يتشاجران ويتشاتمان . تساءل راسكولنيكوف : « ما بالهما ؟ » . وانتظر صابراً . وصمت كل شىء فى آخر الأمر دفعةً واحدة : افترق الرجلان . استعد راسكولنيكوف للخروج ، فاذا بباب فى الطابق الأسفل يُفتح على حين فجأة صاخباً ، فيخرج منه أحدٌ ويأخذ يهبط درجات السلم وهو يدندن لحناً من الألحان . قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « ولكن ما بالهم يحدثون مثل هذه الضجة جميعاً ؟ » وعاد يغلق الباب عليه من جديد ، وانتظر . وأخيراً انقطعت كل ضجة ، فما من حركة ومن من نأمة . خرج راسكولنيكوف . ولكنه ما ان وضع قدمه على أول درجة من درجات السلم حتى سمع مرةً أخرى أصوات وقع أقدام . ان أصوات وقع الأقدام هذه آتية من بعيد ، من أسفل السلَّم ، ولكن راسكولنيكوف تذكر فيما بعد ، تذكَّر تذكراً واضحاً جداً ، أنه منذ سمع صدى أول خطوة ، أوجس فوراً أن « ذلك آت الى هنا » ، حتماً ، الى الطابق الثالث ،

الى مسكن العجوز . ماذا كان فى تلك الضجة من شىء خاص ذى دلالة الى هذا الحد ؟ كانت الخطوات ثقيلة، موزونة ، أميل الى البطء. ها هو ذا « القادم » يجتاز الطابق الأرضى ، ها « هو » ذا يستمر فى الصعود ، ان صوت وقع خطاه يزداد قوة ، وما ينفك يزداد قوة ! ان راسكولنيكوف يسمع الآن لهاثه . ها هو ذا يبلغ الطابق الثانى . أحس راسكولنيكوف بتجمد فى جسمه . ان الأمور تجرى كما تجرى فى الأحلام تماماً ، حين يرى النائم نفسه ملاحَقاً مطارَداً ، فيحدق به خصمه ، ويصبح هو مهدداً بالموت ، فيظل مسمَّراً فى مكانه ان صح التعبير ، عاجزاً عن تحريك ذراعيه .

ولم يثب راسكولنيكوف الى رشده الا حين أخذ القادم يعبر الى الطابق الثالث . فاستطاع عندئذٍ أن يرجع الى البيت مسرعاً محاذراً ، وأغلق على نفسه الباب ، ثم أمسك المزلاج فدفعه دفعاً رفيقاً بلا ضجة ، تقوده فى ذلك غريزته ، ثم التصق بالباب حابساً أنفاسه . وكان القادم المجهول قريباً من الباب هو أيضاً . ان كلا من الرجلين يقف الآن امام الآخر على نحو ما كان يقف راسكولنيكوف والعجوز منذ قليل ، حين لم يكن يفصل بينهما الا سُمْك الباب ، وحين كان راسكولنيكوف مصخاً سمعه يتصنت .

تنفس الزائر عدة مرات بمشقة كبيرة . قال راسكولنيكوف يحدّث نفسه وقد تقلصت يده على الساطور : « لا بد أنه طويل وضخم » . حقاً ان ذلك كله يشبه الأحلام شبهاً كبيراً . أمسك الزائر حبل الجرس ، وشدّه شداً قوياً .

فما ان دوّى رنين الجرس حتى أحسّ الزائر المجهول بأنه يسمع ضجة خفيفة فى الغرفة كأن أحداً قد تحرك ؟ حتى لقد أنصت جاداً

خلال بضع ثوان ؟ وقرع الزائر المجهول الجرس مرة اخرى وانتظر ثم اذا هو يثور على حين فجأة ويأخذ يهز قبضة الباب بكل ما أوتى من قوة • فكان راسكولنيكوف ينظر مذعوراً الى المزلاج الذى أخذ يتهزز فى الرزة• ان راسكولنيكوف يتوقع ، وقد شلَّه الرعب، أن يرى المزلاج ينخلع من لحظة الى أخرى • والحق أن انخلاع المزلاج لم يكن مستحيلاً • فلقد كان الرجل يهز الباب هزاً قوياً يمكن أن يخلع المزلاج • خطر ببال راسكولنيكوف فى لحظة من اللحظات أن يسند المزلاج بيده • ولكنه أمسك عن ذلك ، لأن الرجل كان سيلاحظ هذه الحركة• أخذ راسكولنيكوف يشعر بدوار ، وقال يحدث نفسه : « ها أنا ذا أوشك أن أقع » • ولكن الزائر المجهول أخذ يتكلم ، فسرعان ما ثاب راسكولنيكوف الى رشده •

صاح الرجل المجهول يقول بصوت أجش :

ــ هيه ! ماذا ؟ هل الجيفتان نائمتان هناك أم أن أحداً ذبحهما ؟ هيه ! أنتِ يا آليونا ايفانوفنا ! يا عجوز النحس ! وأنتِ يا اليزابت ايفانوفنا ، يا جمالاً لا يضارع ! افتحا الباب ! آه ••• يا للجيفتين ! أهما نائمتان حقاً ؟

وجُنَّ من الغضب مرة أخرى فشدَّ حبل الجرس بكل قواه عشر مرات متتالية• لا شك أنه رجل خطير الشأن ، وأنه فوق ذلك من روّاد هذا المنزل الذين ألفوا التردد اليه •

وفى تلك اللحظة نفسها سُمع صوتُ وقع خطواتٍ صغيرة متعجلة قرب السلم •

كان شخص آخر يقترب • ولم يسمع راسكولنيكوف ضجة مجيئه فى أول الأمر •

صاح القادم الجديد يقول بصوت رنان مرح مخاطباً الزائر الأول الذى كان لا يزال يشد الحبل :

ـ هل يمكن أن لا يكون فى البيت أحد ؟ نهارك سعيد يا كوخ !

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « صوته يدلُ على أنه شاب فى ريعان الشباب • »

أجاب كوخ :

ـ لا يعلم الا الشيطان ماذا جرى !

لقد أوشكتُ أن اكسر القفل • ولكن كيف تعرفنى أنت ؟

ـ ما هذا الكلام ؟ ألم أغلبـك أمس الأول ثلاث مرات متتالية فى البلياردو بمقهى جامبرينوس ؟

ـ آ •••

ـ أليســتا اذن فى البيت ؟ هذا شىء غريب ! وهو فوق ذلك شىء مزعج ! أين عساها ذهبت ، هذه العجوز ؟ لقد كنت آتياً اليها لأعمال•••

ـ أنا أيضاً آتٍ اليها لأعمال ، يا صديقى !•••

صاح الشاب يقول :

ـ ماذا نفعل اذن ؟ يا لسـوء الحظ ! كنت احسب أننى سأحصل على بعض المال •

ـ طبعاً لم يبق لنا الا أن تنصرف ، ولكن لماذا حددتْ لى موعداً ؟ ياللعجوز الشمطاء ! هى التى حددت لى هذا الموعد ! ثم اننى قد اضطررت من أجل الوصـول أن أدور دورة طويلة • أين عسـاها ذهبت ؟ اننى لا أفهم ! انها تقبع فى بيتها طول العـام ، هذه العجوز الشـمطاء •••

وتعفن فى مكانها لا تبارحه ••• لأنها تشكو من أوجاع فى ساقيها فما بالها تمضى تتجول الآن على حين فجأة ؟•••

ـ ما رأيك الآن فى أن نسأل البواب ؟

ـ نسأله عماذا ؟

ـ نسأله عن المكان الذى ذهبت اليه، وعن الوقت الذى ستعود فيه!

ـ هِمْ ••• نسأل ؟ ولكن كيف نسأل عن المكان الذى ذهبت اليه وهى لا تذهب الى أى مكان فى يوم من الأيام ؟

قال الرجل ذلك وشدّ قبضة الباب مرة أخرى ، ثم أضاف :

ـ لا فائدة ! لم يبق الا أن نتصرف !

صرخ الشاب على حين فجأة قائلاً :

ـ انتظر ! أنظر ••• ان الباب يتحرك حين يُهزُ •

ـ على أى شىء يدل هذا ؟

ـ يدل على أن الباب ليس مقفلاً بالمفتاح ، وانما هو موصد بالمزلاج وحده • ألا تسمع صرير المزلاج ؟

ـ وعلى أى شىء يدل هذا ؟

ـ كيف لا تفهم ؟ هذا يدل على أن احداهما ، فى أقل تقدير ، موجودةُ فى البيت ؟ فلو انهما خرجتا كلتاهما لأغلقتا الباب بالمفتاح من خارج ، لا بالمزلاج من داخل • انك تسمع صرير المزلاج ••• ألا تسمعه ؟ ومن أجل اغلاق الباب بالمزلاج من الداخل لا بد أن يكون فى البيت أحد • هل فهمت ؟ هما اذن فى بيتهما ، ولكنهما لا تريدان أن تفتحا •

صاح كوخ يقول مدهوشاً :

ـ حقاً ••• حقاً ! ترى ماذا تصنعان ؟

وراح يهز الباب غاضباً من جديد •

هتف الشاب يقول مرة أخرى :

ـ انتظر ! كفاك هزاً للباب ! ان فى الأمر سراً ! لقد قرعت الجرس وهززت الباب فلم تفتحا !••• معنى هذا : اما أنهما مغشى عليهما ، واما أنهما •••

ـ واما أنهما ماذا ؟

ـ هلم نستدعى البواب • الأفضل أن يتولى هو ايقاظهما !

ـ موافق •

وأخذ الرجلان يهبطان على السلم • ولكن الشاب ما لبث أن قال :

ـ انتظر ! ابق انت هنا ، وأنا استدعى البواب •

ـ أبقى هنا ؟ لماذا ؟

ـ لا يدرى أحد ماذا يمكن أن يحدث •

ـ لك ما تشاء •

قال الشاب بلهجة صارمة :

ـ أرأيت ؟ اننى أهيء نفسى لوظيفة قاضى تحقيق ! الأمر واضح ، وا ••• ضح ! لا شك أن هناك سراً •

واندفع الشاب راكضاً على السلم •

فلما أصبح كوخ وحيداً شدّ حبل الجرس برفق ، فرن الجرس رنة واحدة ، ثم هزّ قبضة الباب مرة أخرى ببطء ، كمن يفكر أو يحاذر ، فهو يشدها اليه ويرخيها ليتأكد من أن الباب ليس موصداً الا بالمزلاج • ثم زفر زفرة قوية ، ومال الى تحت ، ونظر من ثقب القفل ،

ولكن المفتاح كان مدسوساً فى القفل من الداخل ، فلا يمكن أن يُرى شىء .

لبث راسكولنيكوف ساكناً جامداً ، قابضاً على ساطوره . كان فى حالة قريبة من الهذيان . حتى لقد كان يتهيأ لأن يقاتلهما متى دخلا . ولقد خطر بباله مراراً حين كانا يقرعان ويتشاوران أن يحسم الأمر دفعةً واحدة فيناديهما من خلال الباب . واستبدت به فى بعض اللحظات رغبة مجنونة رعناء فى أن يسخر منهما ، وان يستهزىء بهما ، وأن يمطرهما بوابل من الشتائم قبل أن يفتحا الباب . لقد ومضت فى ذهنه بمثل سرعة البرق هذه الفكرة : « يجب أن أحسم الأمر بأقصى سرعة ».

وكان الوقت ينقضى . مضت دقيقةٌ ، ومضت دقيقة أخرى ... دون أن يرجع أحد . أخذ كوخ يضطرب .

وها هو ذا يهتف فجأة :

ــ ما شأنى أنا !

ونفد صبره ، فترك مكانه ، وهبط بسرعة هو أيضاً . ان أصوات وقع حذاءيه تدوّى على السلّم . ثم انقطعت هذه الأصوات .

ــ ما العمل يا رب ؟

قال راسكولنيكوف ذلك ثم سحب المزلاج وشقّ الباب . لم يسمع أية نأمة . وبدون أن يفكر مزيداً من التفكير ، خرج وأغلق الباب وراءه برفق ، واندفع يهبط السلم .

حتى اذا اجتاز طابقين تقريباً سمع صخباً يدوّى تحت . أين يختبىء ؟ لم يعرف أين يستطيع أن يختبىء . حتى لقد تهيأ لأن يقفل راجعاً وأن يعود الى بيت العجوز ركضاً .

ــ هيه ، لعنة الله عليه ! يا للشيطان ! أوقفوه !

ان الشخص الذى أطلق هذه الصرخات قد وثب من شقة فى أسفل ، وأخذ يصعد السلم تدحرجاً ان صح التعبير ، صائحاً بأعلى صوته :

ـ ميتكا ! ميتكا ! ميتكا ! ميتكا !* شيطان يقشر جلدك! ياللمجنون!

وانتهى الصراخ بعويل حاد ، فكانت اصداؤه تترجع فى فناء المنزل ثم صمت كل شيء . ولكن فى تلك اللحظة نفسها أخذ عدة رجال يصعدون السلم محدثين ضجة كبيرة وهم يتكلمون كثيراً بصوت عالٍ . لعل عددهم ثلاثة أو أربعة . وميز راسكولنيكوف ذلك الصوت الرنان ، صوت الشاب الذى كان يرابط على الباب مع كوخ منذ قليل. قال لنفسه : « انهم هم » .

شعر راسكولنيكوف بيأس مطلق فمضى الى لقائهم قُدُماً قائلاً لنفسه : « ليكن ما يكون ! » . لقد ضاع كل شيء : اذا استوقفوه فقد ضاع كل شيء ، واذا تركوه يمر فقد ضاع كل شيء أيضاً لأنهم سيتذكرونه ...

أوشكوا أن يلتقوا . ليس يفصلهم الآن الا طابق واحد ! ولكن ها هو ذا راسكولنيكوف ينجو فجأة ! فبعد بضع درجات ، على اليمين ، كان هناك بيت خال مفتوحٌ بابه ، هو ذلك البيت نفسه الذى يقع فى الطابق الاول والذى كان يعمل فيه الدهانون . لقد غادره الدهانون منذ قليل ، بمصادفة تشبه أن تكون عمداً. لا شك أنهم هم الذين خرجوا منذ قليل محدثين صخباً شديداً. ان خشب الأرض فى هذا البيت ما يزال طلاؤه غضاً . وفى وسط الغرفة الأولى طشت ووعاء مملوء دهاناً وفرشاةٌ كبيرة . تسلل راسكولنيكوف الى البيت من الباب المفتوح فى مثل لمح البصر سرعةً ، ولطا على الحائط . وفى ذلك الوقت نفسه

كان الرجال قد وصلوا الى فسحة السلم ، فداروا وصعدوا الى الطابق الثالث ، وهم ما يزالون يتكلمون بصوت عال • انتظر راسكولنيكوف بضع لحظات ثم خرج سائراً على رءوس الأصابع وأخذ يهبط السلم راكضاً •

ما من أحد كان على السلم ! وما من أحد كان تحت قبة مدخل العمارة ! اجتاز العتبة مسرعاً ، حتى اذا سار فى الشارع ، التفت يسرة•

كان يعلم حق العلم ، كان يعلم علمَ اليقين أنهم فى هذه اللحظة نفسها موجودون فى بيت العجوز ، وأنهم قد دهشوا أشد الدهشة حين رأوا الباب مفتوحاً بعد أن كان مغلقاً منذ قليل ، وأنهم ينظرون الى الجثتين ، وأنهم لن يحتاجوا الى اكثر من دقيقة واحدة من أجل أن يدركوا حق الادراك أن القاتل قد بارح المكان منذ برهة وجيزة ، وأنه أفلح فى الاختباء بمكان ما ، وأنه قد تسلل من بين أصابعهم ان صح التعبير • ولعلهم قدروا أيضاً أن هذا القاتل قد اعتصم بالبيت الخالى بينما كانوا يصعدون السلم •

ومع ذلك لم يجرؤ راسكولنيكوف ان يعجِّل سيره ، رغم أنه ما يزال هناك مائة خطوة عليه أن يقطعها حتى يصل الى المنعطف التالى• تساءل : « ماذا لو تسللت فاختبأت تحت أحد الأبواب ؟ ماذا لو انتظرتُ الأحداث فى سلمٍ منزل مجهول ؟ » ثم أجاب عن سؤاله بقوله : « لا ، هذا رأى فاسد ! » وتساءل ايضاً : « ماذا لو رميت الساطور فى مكان ما ؟ ماذا لو ركبت عربة ؟ » ثم أجاب عن سؤاله بقوله : « لا ، هذا رأى فاسد ، رأى فاسد ! » •

كانت أفكاره مضطربة مختلطة • وها هو ذا يصل أخيراً الى شارع صغير ، فيدخل فيه وهو أقرب الى الموت منه الى الحياة • انه فى هذا

الشارع لا يثير حوله الشبهات كما يمكن أن يثيرها هناك . ثم ان الناس يذهبون ويجيئون هنا كثيراً .

ضاع راسكولنيكوف في الجمهور كحبة رمل ، ولكن تلك المحن كلها كانت قد هدّت قواه ، فهو لا يكاد يستطيع أن يسير . كان العرق يسيل منه ، وكانت عنقه مبتلة مخضلة ، حتى ان أحد المارة صرخ يقول حين وصل راسكولنيكوف الى القناة : « يا للسكران ! » .

أصبح راسكولنيكوف لا يعي نفسه كثيراً ، وكانت حاله تزداد سوءاً عند كل خطوة جديدة . ان اللحظة الوحيدة التي بقيت في ذاكرته هي اللحظة التي وصل فيها الى رصيف القناة ، فأرعبه أن يرى أن الناس هناك قليل ، فمن الممكن أن يلاحَظ . فأوشك عندئذ أن يعود أدراجه الى الشارع الصغير . ومع ذلك ، ورغم أنه قد بلغ من الضعف أنه لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه ، فقد دار دورة طويلة ، ورجع الى بيته من جهة أخرى تماماً .

وحين اجتاز مدخل العمارة التي فيها بيته ، لم يكن قد استرد صحو ذهنه بعد . ومهما يكن من أمر فانه لم يتذكر الساطور الا حين صار في السلّم ، مع أن هذه المسألة هي من أخطر المسائل التي كان عليه أن يحلها . لقد كان عليه أن يعيد الساطور الى مكانه مهما كلّف الأمر ، وذلك على أخفى نحو ممكن . يجب أن نذكر أنه كان بطبيعة الحال عاجزاً حتى أن يتصور أن من الأفضل له ، بدلاً من اعادة الساطور الى مكانه ، أن يرميه ، ولو بعد مدة ، في أي مكان ، في فناء عمارة من العمارات .

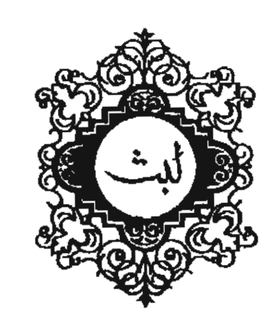
جرى كل شيء على خير وجه . كان باب غرفة البواب مغلقاً ، ولكنه ليس مقفلاً بالمفتاح . معنى ذلك أن البواب لا بد أن يكون

في غرفتــه • ولكن راسكولنيكوف كان قد بلغ من العجـز عن التفكير في أي شيء أنه أقبل على غرفة البواب بخطى حازمة ، وفتح الباب • ولو قد سـأله البـواب عندئذ : « ماذا تريد ؟ » اذن لكان من الممكن أن لا يزيد على أن يمد اليه الساطور • ولكن البواب كان غائباً في هذه المرة أيضاً ، واتسع وقت راسكولنيكوف لأن يعيد السـاطور الى مكانه تحت الدكة ، حتى انه لم يفته أن يضع فوقه الحطبة التي كانت موضوعة عليه حين أخـذه • واسـتطاع بعد ذلك أن يبلغ غرفتـه دون أن يصـادف في طريقه أي مخلوق • وكان باب صاحبة البيت مغلقاً •

حين دخل راسـكولنيكوف حجـرته ارتمى على الأريكة دون أن يخلع ملابسه • ولم ينم ، لكنه ظل مكباً على وجهه وهو في حالة تشبه التخدر ، فلو قد دخل عليــه أحـد في ذلك الوقت ، لأسرع يثب عن سريره واقفاً ، ولأخذ يصرخ • ان شذرات من أفكار تتصادم في رأسه ، ولكنه ، رغم الجهود التي بذلها ، لم يستطع أن يقبض على أية فكرة من تلك الأفكار ، ولم يستطع أن يتلبث على واحدة منها •

الجزء الثاني

الفصل الثامن



راسكولنيكوف راقداً هذا الرقاد زمناً طويلاً . وكان يتفق له أن يستيقظ نصف استيقاظ ، فكان يلاحظ أثناء تلك الدقائق القليلة أن الليل يتقدم، ولكن لم يخطر باله قط أن ينهض. ورأى أخيراً أن النور قد انتشر فكأنه النهار .

كان مستلقياً على ظهره ، وهو ما يزال على تلك الحال من التخدر. ومن الشارع ، كانت تصل اليه أصوات عويلٍ رهيبة ، وهي أصوات كان يسمعها كل ليلة تحت نافذته في الساعة الثانية من الصباح ، وكانت هي التي توقظه من نومه . قال راسكولنيكوف لنفسه : « آ ... ها هم السكارى يخرجون من خمّاراتهم . لا شك أنها الساعة الثانية ! » . وبوثبة واحدة ، نهض عن الأريكة وقال يخاطب نفسه : « ماذا ؟ أتكون هي الساعة الثانية ؟ » . ثم عاد يجلس على الأريكة ، وسرعان ما عاد الى ذهنه كل شيء ، فاذا هو يتذكر كل ما حدث ، دفعةً واحدة في لحظة قصيرة .

اعتقد في أول الأمر أنه فقد عقله . وها هي ذي رعدة باردة تسري في جسمه . ولكن هذه الرعدة ناشئة أيضاً عن الحمى التي انتابته منذ مدة بينما كان نائماً ؛ وهي تهزه الآن هزاً يبلغ من القوة أن أسنانه تصطك . فتح الباب وأصاخ بسمعه : كان كل شيء في المنزل ينام نوماً

عميقاً . دُهش ، وألقى نظرة على نفسه وعلى ما حوله . لم يستطع أن يفهم كيف أمكنه ، فى الليلة البارحة ، حين دخل غرفته ، أن لا يوصدها بالكلاَّبة ، وأن يرتمى على أريكته دون أن يخلع ملابسه ، بل ودون أن يخلع قبعته . كانت القبعة قد تدحرجت على الأرض فهى ترقد الآن قرب الوسادة. تساءل راسكولنيكوف : « لو دخل علىَّ أحد ، فماذا كان يمكن أن يظن ؟ أكان يمكن أن يظن أننى سكران ، ولكن ... » . وهرع نحو النافذة . كان الضوء منتشراً . وأسرع يتفحص نفسه من القدمين الى الرأس ليرى ألا يزال على ثيابه آثار . ولكنه لم يلبث أن قال لنفسه ان هذه الطريقة ليست هى الطريقة التى يجب عليه أن يتبعها ، ثم نضا عنه ثيابه وأخذ يفتشها وهو يرتجف من الحمى ارتجافاً شديداً . قلب ثيابه ثم قلبها ، منقباً فى كل درزة . ثم لم يثق بحسن ملاحظته ، فأعاد فحصها ثلاث مرات . ولكن لم يكن ثمة شىء . كان يبدو فعلاً أنه لم يبق أى أثر ، الا بضع قطرات من دم متخثر فى أسفل سرواله المهترىء المتسلّ .

تناول مقرضاً كبيراً فقصَّ به حاشيتى السروال . كان يبدو حقاً أنه ليس ثمة آثار غير هذه الآثار. وتذكر فجأة أن حافظة النقود والأشياء التى أخرجها من صندوق العجوز ما تزال حتى الآن فى جيبه . لم يكن قد خطر بباله أن يخرجها من الجيب وأن يخبئها ، لا ولا فكرَّ فيها منذ قليل ، حين كان يفتش ثيابه . ما معنى هذا ؟ وها هو ذا قد أخذ يسلتها من الجيوب بمثل لمح البصر سرعةً ، ثم يرميها على المنضدة . حتى اذا فرغ من اخراج كل شىء ، ثم قلب الجيوب ليتأكد مزيداً من التأكد أنه لم يبق فى الجيوب شىء ، مضى يضعها جميعاً فى أحد الأركان . ففى ذلك الركن يوجد ثقب تحت الورق الذى يغطى الجدار والذى كان منزوعاً ممزقاً . فما هى الا لحظات حتى دسَّ جميع الأشياء فى الثقب

تحت الورق ، وقال يحدث نفسه : « حسن ! دخل كل شيء ! لا أحد رأى ولا أحد عرف ! حتى حافظة النقود اختفت ! » . قال ذلك فرحاً وهو ينهض عن الأرض وينظر مدهوشاً الى الركن الذى أصبح ورق الحائط فيه منتفخاً مزيداً من الانتفاخ . ولكنه لم يلبث أن ارتعش من الرعب على حين فجأة ، ودمدم يقول يائساً : « رباه ! ماذا فعلت ؟ أهكذا يخبّأ شيء من الأشياء ؟ » .

الحق أن راسكولنيكوف لم يكن يقدّر أنه سيأخذ من عند العجوز أشياء ، وانما كان يتصور أن لا يجد الا مالاً ، لذلك لم يهيىء مخبأً يخفي فيه ما قد يأخذ من أشياء . قال يسأل نفسه : « ولكن هل هناك الآن ما يدعو الى الابتهاج ؟ أهكذا يخبأ شيء من الأشياء ؟ حقاً لقد ذهب عقلى ! » . وتهالك على الأريكة مهدود القوى خائر العزم ، وسرعان ما عادت اليه تلك الرعدة التى لا تطاق . وها هو ذا يشد اليه ، على نحو آلى ، معطفه القديم الذى كان يرتديه طالباً ، والذى يوجد الآن على كرسى ، وهو معطف شتوى دافىء ، لكنه قد أصبح منذ الآن أشبه بخرقة بالية . شدّ راسكولنيكوف المعطف ، وغطى به جسمه . فاستولى عليه النوم والهذيان من جديد ، وغاب عنه شعوره .

فما ان انقضت خمس دقائق حتى وثب عن أريكته مرة أخرى ، وعاد يسرع الى ثيابه سائلاً نفسه : « كيف أمكننى أن أنام بينما أنا لم أفعل شيئاً بعد ؟ نعم ، اننى لم أفعل شيئاً بعد ! حتى الابزيم لم أنزعه من تحت الابط حتى الآن ! كيف أمكننى أن أنسى أمراً هاماً كهذا الأمر ، كيف أمكننى أن أنسى قرينة خطيرة كهذه القرينة ؟ » . وانتزع الابزيم، ثم أسرع يقطعه قطعاً صغيرة يرميها واحدة بعد واحدة تحت الوسادة بين الغسيل : « ان قطعاً ممزقة من قماش لا يمكن أن تثير الشبهات بحال من الأحوال ، أو هذا ما يخيّل الىّ ... » . ذلك ما كان يردده

راسكولنيكوف واقفاً فى وسط الغرفة . ثم أخذ يجيل بصره حواليه ، على أرض الغرفة ، فى جميع الجهات ، ليرى هل أغفل شيئاً من الأشياء. فعل ذلك وهو يشعر بتوتر نفسى أليم . لقد كان على يقين من أن كل شيء يبارحه ، حتى ذاكرته ، وحتى أية قدرة على التفكير ، فكان ذلك يعذبه عذاباً لا طاقة له به . قال يسأل نفسه : « ماذا ؟ أيكون «الأمر» قد بدأ منذ الآن ؟ أيكون هذا هو العقاب ؟ » ... نعم ، نعم ، هذا هو العقاب !

وعثر فعلاً على بقايا من قصاصات السروال كانت ملقاة على الأرض يستطيع أن يراها أول قادم . فصرخ يقول وقد تاه عقله من جديد : « ماذا فعلت ؟ » .

هنا راودته فكرة غريبة : ربما كانت ثيابه نفسها مغطاة بالدم ، ربما كان ثمة بقع كثيرة ولكنه لا يراها ولا يلاحظها لأن رأيه قد فسد ولأن فكره قد أظلم !... وتذكر فجأة أن حافظة النقود أيضاً قد تلطخت بالدم فقال لنفسه : « معنى هذا أنه لا بد أن يكون فى الجيب دم ، لأننى دسست حافظة النقود فى الجيب رطبة مخضلة » . وقلب جيبه فى مثل لمح البصر مسرعاً ، فتحقق من صدق ظنه : كان فى بطانة الجيب بقع دم فعلاً . قال لنفسه : « اذن لم يذهب عقلى ذهاباً تاماً ، اذن ما زلت احتفظ بفكرى وذاكرتى ... ولولا ذلك لما استأنفت التنقيب ، ولما كنت قادراً على استنتاج تلك النتيجة ! » قال ذلك وهو يشعر بالانتصار ، حتى لقد أفلتت من صدره تنهيدة فرح . وأردف يخاطب نفسه : « لم يكن ذلك اذن الا ضعفاً عابراً ، لم يكن الا وهناً ناشئاً عن الحمى ! » . وانتزع من سرواله كل بطانة الجيب الأيسر . وفى تلك اللحظة نفسها سقط شعاع شمس على حذائه الأيسر فأناره ، فرأى راسكولنيكوف على الجورب الذى كان خارجاً من الحذاء ، رأى آثار دم . نعم ، هى آثار دم . ان

كل طرف الجورب مرتوٍ بالدم ! أغلب الظن أنه لم يحـاذر فمشى على بركة الدم ، وكان حذاءاه مثقوبين ... تساءل راسكولنيكوف : « ولكن ما العمل بهذا ، الآن ؟ أين أضع هذا الجورب ، وقصاصات حافة السروال وبطانة الجيب ؟ » .

لمَّ كل شيء ، وأمسكه بيده ، ولبث واقفاً جامداً في وسط الغرفة. قال يحدث نفسه : أأرميه في المدفأة ؟ لا ... فانهم سيفتشـون المدفأة قبل أن يفتشوا أي مكان آخر ! أأحرقه ؟ ولكن بماذا أحرقه ؟ ليس عندي عيدان كبريت. خير من ذلك أن أخرج فأمضي أرمي هذا كله في مكان ما ! نعم ، الأفضل أن أرمي هذا كله ! » ذلك ما ردَّده راسكولنيكوف وهو يجلس على الأريكة من جديد. وأضاف : « ويجب أن أرميه فوراً، يجب أن لا أضيع وقتاً ، يجب أن أرميه في هذه الدقيقة نفسها ... » . ولكن رأسه هوى على الوسادة من جديد ؛ ومن جديد عاودته الرعدة الباردة التي لا تطاق ؛ ومن جديد شدَّ اليه معطفه يغطي به جسمه . وقد ظلت هذه الفكرة الواخزة توافيه مدةً طويلة ، خلال سـاعات عدة ، وهي « أن عليه فوراً ، بلا ابطاء ، أن يخـرج فيرمي هذا كله في مكان ما ، حتى لا يراه أحد ، وأن عليه أن يفعل ذلك بسرعة ، بسرعة كبيرة ، بأقصى سرعة ممكنة ! » . وحاول عدة مرات أن ينهض عن الديوان . ولكنه أصبح الآن لا يقوى على النهوض . وهذه ضربة شديدة على الباب تردُّ اليه شعوره .

ـ هلاَّ فتحت الباب أخيراً ! أأنت حيٌّ أم لا ؟ انه لا يفعل شيئاً غير أن ينام . نعم ،انه ينام أياماً بكاملها ، مثل كلب . يا له من كلب ! افتح ! هلاَّ فتحت ! لقد دقت الساعة العاشرة !

كذلك كانت تصيح ناستاسيا وهي تقرع الباب بقبضة يدها .

قال صوت رجل :

ـ قد لا يكون في غرفته !

قال راسكولنيكوف لنفسه : «هذا صوت البواب» ماذا يريد مني؟» وانتفض واثباً ، وجلس على الأريكة • كان قلبه يدق دقاً قوياً الى حد الألم •

قالت ناستاسيا ترد على الرجل :

ـ لولا أنه في غرفته فمن عسى يوصد الباب بالكُلاَّبة ؟ عجيب ! هو الآن يحبس نفسه ! أهو يخاف أن يُخطف ؟ افتح يا نوّام ! استيقظ يا كسلان !

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « ماذا يريدان مني ؟ لماذا يجيء البواب ؟ لقد اكتُشف اذن كل شيء ! أأقاوم أم أفتح ؟ ••• » •

وأنهض جسمه ، ومال الى أمام ، وسحب الكُلاَّبة دون أن يغادر سريره •

صدق ظنه : كان البواب وناستاسيا واقفين على عتبة الباب •

ألقت عليه ناستاسيا نظرة غريبة ، وشخص هو ببصره الى الخفير وقد بدا عليه التحدي واليأس • مدَّ اليه الخفير ورقة سمراء مطوية مختومة بالشمع ، وقال له وهو يناوله الورقة :

ـ استدعاء من المكتب !

ـ أي مكتب ؟

ـ الشرطة تستدعيك الى المكتب ••• ما من أحد يجهل ما هو المكتب !•••

ـ الشرطة ؟••• لماذا ؟•••

ـ أأنا أعلم ؟ هم يستدعونك ، فاذهب اليهم !

قال الخفير ذلك ، وتفرس فى وجه راسكولنيكوف ، وألقى نظرة حواليه ، ثم استدار لينصرف .

كانت ناستاسيا تنظر الى راسكولنيكوف ، ولا تحوّل بصرها عنه. وها هى ذى تسأله الآن :

ـ أحسب أنك مريض جداً ، أليس كذلك ؟

التفت الخفير . وأضافت ناستاسيا قولها :

ـ ان بك حمى منذ أمس !...

لم يجبها راسكولنيكوف . وما يزال يمسك الورقة التى لم يفضّها بعد .

واصلت ناستاسيا كلامها مشفقةً عليه حين رأته يهم أن ينزل عن السرير :

ـ لا ... لاتنهض ! أنت مريض ! لا تذهب الى الشرطة اليوم!... ما من أمر خطير يدعو الى الاسراع . ما هذا فى يدك ؟

نظر راسكولنيكوف الى يده . كان لا يزال ممسكاً قصاصات حافة السروال ، والجورب ، وبطانةَ الجيب المنزوعة . لقد نام وهو ممسك بهذا كله . سوف يتذكر فى المستقبل ، حين سيفكر فى هذا الأمر ، أنه استيقظ نصف استيقاظ أثناء نوبة الحمى ، فضغط على هذه الأشياء بيده ضغطاً قوياً ، وعاد ينام وهو على هذه الحال .

ـ عجيب أمره ! لمَّ هذه الخرق من الأرض ، ثم هو ينام معها كأنها كنز ثمين ...

قالت ناستاسيا ذلك وانفجرت تضحك ضحكتها العصبية الكبيرة .

أسرع راسكولنيكوف يدسُّ الأشياء كلها تحت معطفه ، وحدّق

الى الخادمة بنظرة نافذة ، فشعر ، رغم أنه لم يكن فى تلك اللحظة قادراً على أن يحكم على الأمور حكماً صحيحاً دقيقاً ، شعر أن من سيُقبض عليه ويُعتقل لا يُعامل هذه المعاملة • ومع ذلك تساءل : ولكن لماذا تستدعينى الشرطة ؟ » •

قالت له ناستاسيا :

ـ عليك أن تشرب شيئاً من الشاى على الأقل • هل تريد ؟ فى وسعى أن أجيئك بشاى • ما يزال عندنا بقية !

دمدم راسكولنيكوف مجيباً وهو يقف :

ـ لا بل سأذهب الى الشرطة ••• سأذهب الى الشرطة فوراً •

قالت ناستاسيا :

ـ لن تقوى حتى على هبوط السلم !

ـ سأذهب !

ـ افعل ما تشاء !

قالت ناستاسيا ذلك وانصرفت فى اثر الخفير • فلم يلبث راسكولنيكوف أن أسرع يفحص الجورب وحافة السروال فى الضوء ، ثم قال لنفسه : « هناك بقع ، لكنها لا تكاد ترى ، فكل شىء متسخ متآكل ممحو • فمن لا يعرف شيئاً لن يرى شيئاً • الحمد لله على أن ناستاسيا لم تستطع أن تلاحظ شيئاً البتة » قال راسكولنيكوف لنفسه ذلك ثم فضّ الورقة وهو يرتعش ارتعاشاً شديداً وأخذ يقرأ • لبث يقرأ مدة طويلة ، مدة طويلة ، ثم فهم أخيراً أنه استدعاء عادى من قسم الشرطة بالحى ، يُطلب منه فيه أن يحضر الى مكتب مفوض الشرطة فى الساعة التاسعة من هذا اليوم نفسه •

تساءل راسكولنيكوف وهو يعانى حيرة أليمة : « هل رأى أحد

شيئاً ؟ أنا لا شأن لى بالشرطة شخصياً ! ولماذا فى هذا اليوم ذاته ؟ رباه !
ألا فلينته هذا كله بأقصى سرعة ! » •

قال ذلك وهم ان يركع ليصلى ، ولكنه لم يلبث ان عدل عن رأيه وقهقه ساخرا ، لا ساخرا من الصلاة بل من نفسه • واخذ يرتدى ثيابه مسرعا ، قائلا لنفسه : « ان كنت قد هلكت فلأهلك ! يستوى عندى كل شيء ! ولكن يجب أن ألبس الجورب (هذا ما خطر بباله فجأة) • سوف يتسخ بالتراب مزيدا من الاتساخ ، فيختفى ما بقى عليه من آثار الدم •• » ولكنه ما ان لبس الجورب حتى انتزعه على الفور مشمئزا مذعوراً • ثم تذكر أنه لا يملك جوارب أخرى ، فالتقطه من الأرض ، وعاد يلبسه • ومرةً أخرى ــ مرةً أخرى ــ انفجر يضحك مقهقهاً • « ما هذا كله الا مواضعات اجتماعية ، مواضعات شكلية ! كل شيء نسبى ! » ، قال لنفسه ذلك وهو يفكر بجزء من عقله ، ولكنه يرتعش بكل جسمه ، وأردف يقول لنفسه : « لقد لبست الجورب مع ذلك ! لبسته أخيراً مع ذلك ! » وحين قال هذا الكلام ، كان ضحكه يتحول الى يأس • وأضاف يقول : « لا ، ان هذا فوق طاقة قواى • كانت ساقاه تصطكان • فدمدم قائلاً : « هو الخوف ! » وألمَّ به دوار وأخذ يشعر بصداع من شدة الحر • تابع كلامه يقول وهو يتجه نحو السلم : « هذه حيلة ! انهم يريدون استدراجى الى هناك بالحيلة ، ليواجهونى بعد ذلك بالوقائع كلها • والمصيبة أننى فى حالة تشبه الهذيان فقد تفلت منى حماقة ما ••• » •

وفيما كان يهبط السلم تذكر أنه ترك جميع الأشياء فى الثقب وراء ورق الجدار فتساءل : « ماذا لو فتشوا الغرفة أثناء غيابى ؟ » • وتوقف عن السير • ولكن اليأس والاستهتار ــ ان صح التعبير ــ اللذين كانا يستوليان عليه حين يتصور أنه هالك قد بلغا من القوة أنه لم يزد عندئذ

على أن حرّك يده باشارة تدل على قلة الاكترات وتابع سيره قائلاً لنفسه : « انما المهم أن أنتهى من هذا الأمر بأقصى سرعة ممكنة ! » .

كان الحر فى الخارج شديداً لا يطاق . ما من قطرة مطر هطلت منذ أيام . هو جوّ الغبار والآجر والكلس مرةً أخرى ؛ هو جو المطاعم العفنة والخمارات الكريهة من جديد. وها هم أولاء السكارى والحوذيون المكدودون يطالعونه عند كل خطوة يخطوها . وانبهرت عيناه من أشعة الشمس حتى أوجعتاه . وأخذ يحس بدوار فى رأسه ، كما يحدث هذا كثيراً للمرء حين يخرج أثناء الحمى فجأة فى يوم شديد القيظ .

فلما بلغ منعطف شارع « الليلة البارحة » ، نظر الى « تلك » العمارة ، ثم لم يلبث أن حوّل عنها عينيه فوراً . وحين اقترب من قسم الشرطة قال لنفسه : «اذا استُجوبتُ فقد اعترف ! » .

ان قسم الشرطة يقع على بعد مائتين وخمسين متراً من بيته تقريباً. لقد نُقل قسم الشرطة هذا منذ مدة وجيزة الى مقر جديد يقع فى الطابق الثالث من عمارة بُنيت حديثاً . كان راسكولنيكوف قد ذهب مرةً الى المقر القديم ، ولكن هذا حدث منذ مدة طويلة جداً . حين اجتاز مدخل العمارة لمح على اليمين سلماً كان يهبطه رجل يحمل بيده سجلاً فقال لنفسه : « لا بد أنه بواب ، ولا بد اذن أن يكون قسم الشرطة فى هذه الجهة » . وصعد السلم على غير هدى . كان لا يريد أن يسأل أحداً عن شىء .

وقال لنفسه وهو يصعد الى الطابق الثالث : « سأدخل فأجثو على ركبتىَّ وأروى كل شىء » . السلم ضيق ، وعر ، ملىء بالقاذورات . مطابخ جميع المساكن تطل على هذا السلم ، وأبوابها تظل مفتوحة طول النهار تقريباً . لذلك يكون الجو فى السلم خانقاً . بوابون يحملون

سجلات تحت الابط ، ورجال شرطة ، واشخاص كثيرون من الجنسين يصعدون وينزلون بغير انقطاع • باب المكتب مفتوح على مصراعيه هو أيضاً •

دخل راسكولنيكوف ، ووقف في حجرة المدخل• الحجرة مزدحمة بأناس من سواد الشعب ينتظرون « دورهم » • الحر خانق هنا أيضاً • تضاف الى ذلك رائحة الدهان (لقد أعيد دهن الغرف وما يزال الدهان طرياً) التي تبعث في النفس شعوراً بالغثيان •

انتظر راسكولنيكوف لحظة ثم قرر أن يمضي الى المكتب التالي • ان جميع الغرف صغيرة ، واطيء سقفها جداً •

كان راسكولنيكوف نافد الصبر الى درجة رهيبة وكان نفاد صبره هذا يدفعه الى أن يوغل مزيداً من الايغال !••• لم يلاحظه أحد • في المكتب التالي كان يكتب كتابٌ لا يكادون يرتدون ثياباً خيراً من ثيابه ، ولا يوصف مظهرهم الا بأنه مظهر غريب عجيب في أقل تقدير• اتجه راسكولنيكوف الى أحدهم • سأله هذا :

ـ ماذا تريد ؟

فأراه راسكولنيكوف الاستدعاء الذي تلقاه من مكتب الشرطة •

قال الموظف بعد أن ألقى نظرة على الورقة :

ـ آ ••• هل أنت طالب ؟

فأجابه راسكولنيكوف :

ـ نعم ، طالب سابقاً •

تفرس فيه الموظف ، ولكن بدون أي فضول • هو رجل « مشعث الشعر » توحي نظرته بأن هناك فكرة ثابتة تحاصر ذهنه •

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « من هذا الرجل لن أعرف شيئاً ان جميع الأمور عنده سواء • • »

قال الموظف وهو يشير باصبعه الى الباب الثانى :

ـ اسأل السكرتير !

دخل راسكولنيكوف الغرفة التى دله عليها الرجل (وهى الثالثة فى صف الغرف) • انها صغيرة جدا كذلك ، تزدحم بأناس ثيابهم خير قليلاً من ثياب الجالسين فى المكتب السابق • وبينهم سيدتان • فأما الأولى وهى ترتدى ملابس حداد فقيرة ، فقد كانت جالسة امام منضدة قبالة سكرتير يُملى عليها فتكتب • وأما الثانية فهى امرأة ضخمة الجسم حمراء الوجه ، صارخة الزينة ، مترفة التبرج ، تضع على صدرها حلية كبيرة كأنها صحن • وكانت هذه المرأة الثانية واقفة ، متنحية بعض التنحى ، يبدو عليها أنها تنتظر شيئاً • مدَّ راسكولنيكوف ورقته الى السكرتير ، فألقى عليها السكرتير نظرةً سريعة وقال له : « انتظر » وواصل اهتمامه بالسيدة التى ترتدى ثياب الحداد •

تنهد راسكولنيكوف متخففا من قلقه وقال يحدث نفسه : « لم يستدعونى اذن من أجل « ذلك » الأمر » • وأخذ يسترد شجاعته ، ويحاول أن يستعيد هدوءه وطمأنينته • قال لنفسه : « أن أيسر حماقة ارتكبها وأبسط زلة أقع فيها يمكن أن تفضحنى فضحاً تاماً » • ثم أضاف : « هم ! ••• خسارة أنه لا هواء هنا ••• ان رأسى يدور ••• وفكرى أيضاً ••• » شعر راسكولنيكوف باضطراب غريب يغزو كيانه كله • خشى أن لا يستطيع السيطرة على نفسه • حاول أن يتشبث بأى شىء لا علاقة له بهمومه ، ولكنه لم يفلح • كان السكرتير يشغل باله كثيراً : ان راسكولنيكوف ما بنفك يحاول أن يقرأ فى وجهه شيئاً ، أن يوحس فى وجهه شيئاً •

هو شاب فى نحو الثانية والعشرين من عمره ، له وجه مسمر ، كثير الحركة ، يوهم مظهره بأنه اكبر من سنه ، شديد العناية بهندامه ، يحترم «الموضة» احتراماً واضحاً ، مدهَّن الشعر ، له فرق يهبط حتى النقرة ، فى أصابعه البيضاء المؤنقة تسطع عدة خواتم ، وصدرته تزدان بسلاسل من ذهب ... حتى لقد خاطب أجنبياً كان هناك ، ببضع عبارات بالفرنسية ، فكان كلامه بالفرنسية حسناً .

قال الشاب للمرأة السمينة ذات الوجه الأحمر والهندام الصارخ التى كانت ما تزال واقفة كأنها لا تجرؤ أن تجلس من تلقاء ذاتها رغم أن كرسيا كان يوجد الى جانبها ، قال لها :

ـ اجلسى يا لويزا ايفانوفنا !

فأجابته السيدة قائلة باللغة الألمانية :

ـ شكراً .

وجلست ، فخشخش حرير . ان ثوبها الأزرق كزرقة السماء ، المزدان بتخاريم بيضاء ، المنتفخ كمنطاد ، قد انتشر حول الكرسى ، فشغل نصف الغرفة تقريباً ، وانتشرت منه روائح عطر ، ولكن السيدة أظهرت انزعاجها من احتلال كل هذا المكان ، ومن نشر كل هذا العطر ، فكان فى نظرتها التى ظاهرها الوقاحة كثير من القلق .

انتهت المرأة التى ترتدى ثياب الحداد ، فنهضت أخيراً . فاذا بضابط يدخل على حين فجأة ، ضابط متعاظم يصطنع القوة والبسالة ويرنح كتفيه كلما خطا خطوة .

ألقى الضابط على المنضدة قلنسوته المزدانة بشريط معقود ، وجلس على مقعد . ووثبت السيدة ذات الثوب المخشخش عن كرسيها منذ لمحته،

وانحنت تحيه تحيةً عميقة بنوع من الافتتان ، ولكن الضابط لم يولها أيَّ انتباه . ومع ذلك لم تجرؤ أن تعود الى الجلوس بحضوره .

ولم يكن هذا الضابط الا مساعد مفوَّض الشرطة . ان له شاربين أحمرين مدببين يستويان أفقياً على جانبي وجهه ، وهو وجه لا تعبر قسماته الدقيقة عن شيء ، الا أن تعبرا عن الغطرسة . ألقى الضابط على راسكولنيكوف نظرة شزراء فيها استياء : ذلك أن ملابس راسكولنيكوف كانت زرية حقاً ، وكان وجهه ، رغم حالة الانهيار التي هو فيها ، لا يتفق وهذه الملابس ، حتى لقد تجرأ فرشق الضابط بنظرة طويلة بعض الطول ، مدقِّقة بعض التدقيق ، فشعر الضابط بانزعاج شديد ، وصاح يسأل راسكولنيكوف :

ـ وأنت ، ماذا تريد ؟

لا شك أنه قد أدهشه أن لا يخطر ببال شخص يرتدي مثل هذه الأسمال الرثة أن يغض طرفه ويطرق أمام نظرته الكاسرة .

أجابه راسكولنيكوف مضطرباً :

ـ استُدعيت الى هنا ؛ هو استدعاء ...

فأسرع السكرتير يتدخل تاركاً أوراقه :

ـ بشأن المطالبة بدفع مال . هذا هو « الطالب » !

قال السكرتير ذلك ودفع الى راسكولنيكوف دفتراً وهو يشير له الى موضع منه ، وأضاف يقول :

ـ اقرأ !

تساءل راسكولنيكوف : « بشأن المطالبة بدفع مال ؟ أي مال ؟ اذن ليس الأمر « ذلك » الأمر ... » . وارتعش من الفرح . شعر فجأة بتخفف كبير لا يوصف . ان حملاً ثقيلاً قد سقط عن كتفيه .

صرخ الليوتنان يسأله :

ـ قيل لك أن تحضر فى أية ساعة أيها السيد ؟ لقد ورد فى ورقة استدعائك أن تحضر فى الساعة التاسعة ، والساعة الآن هى الحادية عشرة ، أليس كذلك ؟

لا يدرى الا الله لماذا كان هذا الضابط يشعر بمزيد من الاستياء شيئاً بعد شىء •

أجابه راسكولنيكوف بصوت عالٍ ، ومن فوق كتفه :

ـ لم أستلم ورقة الاستدعاء الا منذ ربع ساعة • أحسب أننى يكفينى أن أجىء رغم الحمّى •••

ان راسكولنيكوف أيضاً قد اعتراه غضب مفاجىء لم يكن فى الحسبان ، ولكنه يجد فى هذا الغضب لذةً ومتعة •

ـ لا تصرخ ، أرجوك !

ـ لست أصرخ • بالعكس : أنا أتكلم بكثير من الرصانة والرزانة، وأنت تصرخ • ولما كنتُ طالباً ، فأننى لا أسمح بأن •••

بلغ غضب مساعد مفوض الشرطة من الشدة أنه لبث دقيقة بكاملها لا يستطيع أن ينطق كلمة واحدة ، فلم يزد على أن يرغى ويزبد • ثم اذا به ينهض بوثبة واحدة كمن وُخز ، ويصيح قائلاً لراسكولنيكوف :

ـ اسكت • أنت هنا فى جلسة محاكمة • لا تكن فظاً أيها السيد !

فصرخ راسكولنيكوف :

ـ وأنت أيضاً فى جلسة محاكمة ، ومع ذلك تصرخ ، بل وتدخّن سيجارة ، وهذا دليل على أنك لا تولينا جميعاً أىَّ اعتبار !

وشعر راسكولنيكوف ، حين قال هذه الكلمات ، بلذة لا تقاوم ولا تُغلب •

وكان السكرتير ينظر اليهما مبتسماً • واضح أن الليوتنان الذى كان يغلى ويفور قد أُفحم •

وأخيراً صرخ الضابط يقول بصوت بلغ من العلو أنه كان لا يبدو طبيعياً :

ـ ليس هذا شأنك • تفضل بالادلاء بالافادة المطلوبة منك • آره الشكوى يا الكسندر جريجوريفتش • أنت مطالب بمال تتهرب من دفعه • يا للمحتال !•••

ولكن راسكولنيكوف كان قد انقطع عن الاصغاء اليه : أمسك الورقة بشراهة ، محاولاً أن يكتشف اللغز بأقصى سرعة • قرأ الورقة مرةً أولى ، ثم قرأها مرة ثانية ، ولكنه ظل لا يفهم شيئاً • فقال للسكرتير يسأله :

ـ ما هو الموضوع ؟

ـ أنت مدين بمال عليك أن تدفعه • هناك سند تتعهد فيه بسداد الدين عند المطالبة به • وعليك الآن اما أن تدفع كل شيء ، بما فى ذلك النفقات والغرامات ، الخ ؟ واما أن تحدد ، كتابةً ، الموعد الذى ستكون فيه قادراً على دفع المال ، وأن تتعهد بأن لا تغادر العاصمة ، وبأن لا تبيع أمتعتك وأن لا تخفيها قبل سداد الدين • أما الدائن ففى وسعه أن يبيع أمتعتك ، وأن يلاحقك وفقاً للقانون •

ـ ولكن ••• ولكننى لست مديناً لأحدٍ بشيء !

ـ ذلك أمر ليس من شأننا • لقد تلقينا سنداً مستحق الدفع وفقاً للقانون ، كنتَ أنت قد وقعته باسم السيدة زارنتسين ، أرملة أحد

الموظفين ، ثم انتهى هذا السند الى يدى المستشار تشيباروف ، ومن أجل هذا انما استدعيناك ، وعليك الآن أن تدلى بافادتك .

ـ ولكن هذه السيدة هي صاحبة البيت الذى أقيم فيه ...

ـ هل يغيّر هذا من الأمر شيئاً ؟

كان السكرتير ينظر اليه وهو يبتسم ابتسامة تسامح توشك أن تشتمل على عطف وشفقة ، ولكنها تشتمل كذلك على شعور بالانتصار مردُّه الى أن أمامه شاباً غراً يتولى هو تعليمه . وسأله : « هيه ! كيف صحتك الآن ؟ » . سأله هذا السؤال ، كما لو كان راسكولنيكوف قادراً على أن يهتم أى اهتمام بالسند أو تحصيله ! حقاً ان هذا لا يستحق ، « الآن » ، أقلّ قلق ، ولا يستحق أيسر انتباه ! لبث راسكولنيكوف واقفاً يقرأ أو يصغى أو يجيب أو حتى يسأل ، ولكنه يفعل ذلك كله على نحو آلى . ان فرحه الناشيء عن شعوره أخيراً بأنه فى أمان ، وبأنه قد نجا من الخطر الرهيب الذى كان يتربص به ، هو ما كان يملأ كل كيانه فى هذه اللحظة . فأى مكان يمكن أن يبقى فى نفسه للتبصر ، والتحليل ، والاحتياطات الواجب اتخاذها فى المستقبل ، والافتراضات ، والشكوك ، والاستجوابات ؟ هذه دقيقة فرح ملىء ، فرح مباشر ، فرح غريزى صرف . ولكن فى تلك الدقيقة نفسها دوّى فى المكتب ما يشبه أن يكون رعداً وصاعقة . ان الليوتنان الذى كان ما يزال يغلى ويفور من الاهانة التى أُلحقت به منذ قليل ، قد انفجر انفجار الرعد والصاعقة على السيدة ذات الثوب المخشخش التى كانت تتأمله منذ دخل ، وعلى شفتيها ابتسامة بلهاء .

صرخ يقول لها فجأة بصوت عال ، وكانت السيدة التى تلبس ثياب الحداد قد خرجت :

ـ آ ... هأنت ذى أخيراً يا ... ماذا جرى عندك فى الليلة الماضية ، هه ؟ لقد عدت تلحقين العار بالحى ، وتعرضين دعاراتك فى عرض الشارع ! عدت تخلقين المشاجرات وتشجعين السكر ! أتراك تحلمين بأن تقضى أيامك فى سجن من السجون ؟ لقد سبق أن قلت لك ، سبق أن نبهتك عشر مرات الى أننى سأكون فى المرة الحادية عشرة بغير رحمة ولا رأفة ولا شفقة ، وهأنت ذى تستأنفين .. تستأنفين .. يا ... يا...

كادت الورقة التى يحملها راسكولنيكوف أن تسقط من يديه . نظر مبهوراً الى السيدة المخشخشة التى تعامل بمثل هذه الفظاظة . ولكنه سرعان ما فهم الموضوع ، وسرعان ما أخذت القصة تسلّيه ، فكان يصغى متلذذاً ، حتى لقد أحس برغبة فى أن يضحك ، فى أن يضحك مقهقهاً ، فالى هذا الحد كانت أعصابه مهتزة !

بدأ السكرتير يتكلم فقال بلهجة تفيض توسلاً :

ـ ايليا بتروفتش ...

ولكنه انقطع عن الكلام ، لأنه رأى أن من الأفضل أن ينتظر لحظةً مناسبةً أكثر من هذه اللحظة ، لأنه كان يعرف بالتجربة أن من المستحيل كبح جماح الليوتنان العنيف ، اللهم الا باللجوء الى القوة .

أما السيدة المخشخشة فانها أخذت ترتجف منذ انطلق الرعد ودوّت الصاعقة . ولكن الشىء الغريب هو أن تعبير وجهها كان يزداد ترفقاً وتلطفاً ، وأن ابتسامتها لليوتنان الرهيب كانت تزداد حسناً وظرفاً على قدر ما كانت الشتائم الموجهة اليها تزداد كثرة وشدةً . كانت تهتز فى مكانها ، ولا تنى تنحنى احتراماً لليوتنان ، منتظرةً مع ذلك ، بصبر نافد ، أن يتيح لها أن تقول كلمة . وكوفىء صبرها فعلاً ، فما ان سكت

الليوتنان حتى أسرعت تقــول بنبرة ألمانيــة ظاهرة ، رغم أنهــا تكلمت الروسنية بطلاقة :

ــ لم يحدث فى بيتى عربدة ولا مشــاجرة ، يا ســيدى الكابتن ، ولا حدثت فضيحه او جرسة ، لم تحدث أية فضيحة أو جرسة ! كل ما فى الأمر أنهم جاءوا سكارى ••• ســاقص عليك كل هذا يا ســيدى الكابتن ••• حقــاً أنا لست مذنبــة ••• ان بيتى بيت لائق يا ســيدى الكابتن ، والسلوك فيه سلوك لائق يا سيدى الكابتن ••• وأنا نفسى ، أنا نفسى ، لم أسمح بأية فضيحة ، فى أى يوم من الأيام ، فى أى يوم من الأيام • ولكنهم وصلوا سكارى ، ثم طلبوا ثلاث زجاجات ، ثم رفع أحدهم قدمه فى الهواء وأخــذ يعــزف بها على البيــانو ••• ذلك أمرٌ لا يستحسن أبداً فى بيت لائق • ثم خرَّب لى البيانو • قلت له : ماهذه آداب مستحبة ، ما هذه آداب مستحبة ••• فتناول عندئذ زجاجة وأخذ يضرب بها جميع الناس على قفاهم ••• عندئذ ناديت البواب ••• فجاء كارل ••• وحين جاء كارل ، ورَّم الرجل عين كارل ، وورَّم أيضاً عين هنريت ، وصفعنى أنا نفسى ، أنا نفسى ، خمس صفعات !••• ليس من الظرف فى شىء أن يفعل أحد ذلك فى بيت لائق يا ســيدى الكابتن • عندئذ صرخت ••• ولكنــه مضى عنــدئذ الى النــافذة المطلة على القنــاة ففتحها ، وأخذ ينخر نخير خنزير صغير ، وذلك عيب حقاً ••• كيف يرضى أن يقف الى النافذة فيأخذ ينخر نخير خنزير صغير ؟ هذا عيب ، عيب ، عيب !••• شدَّه كارل من رداء « الفراك » الذى كان يرتديه ، شدَّه ليبعده عن النافذة ••• وعندئذ يا ســيدى الكابتن ــ أعترف لك بذلك ، نعم أعترف لك بذلك ــ مزَّق له كارل رداءه ••• ولكنه أخذ عندئذ يصيح قائلاً انه يطالب بخمسة عشر روبلاً ، تعويضات وفوائد ، لأن رداءه تمــزق • فدفعت له ، يا ســيدى الكابتن ، دفعت له بنفسى ،

دفعت له خمسة روبلات تعويضاً له عن ردائه . ما هو بالزائر اللائق يا سيدى الكابتن . ان الزائر اللائق لا يقوم بفضيحة كهذه الفضيحة . وقد قال لى : « سوف ترين ... لأنشرنَّ هجاءً مقذعاً لكم . ان لى صلات بجميع الجرائد . وأستطيع أن أقول فيها عنكم ما أشاء ! » . أهذا كلام يقال لى ؟

ـ آ ... هو اذن كاتب ؟ .

ـ نعم يا سيدى الكابتن ، وهو أيضاً زائر غير لائق ، لأنه لم يتورع ، فى منزل لائق ، أن ...

ـ كفى ، كفى ، سبق أن قلت لك وكررت ان ...

عاد السكرتير يتكلم فقال :

ـ ايليا بتروفتش !

ولكن الليوتنان رشقه بنظرة سريعة ، فكفَّ عن الكلام ، وهز رأسه بحركة خفيفة .

وتابع الليوتنان كلامه فقال :

ـ اسمعى أيتها المحترمة لويزا ايفانوفنا ! اليك كلمتى الأخيرة ! أقول لك آخر مرة : اذا حدثت فى بيتك اللائق ، بعد الآن ، فضيحةٌ واحدة ، فسأتولى بنفسى وضعك فى قفة سلطة ، كما يقال بالأسلوب الرفيع . مفهوم ؟ ها ... اذن هكذا ... أديب ... كاتب ... أخذ فى منزلك اللائق خمسة روبلات تعويضاً عن تمزيق ردائه . آ ... هؤلاء هم المؤلفون ! (قال الليوتنان ذلك وهو يرمى راسكولنيكوف بنظرة احتقار) . وأمس الأول ، فى حانة من الحانات ، حدثت قصة أخرى : تغدَّى واحد من هؤلاء المؤلفين ، ورفض أن يدفع ثمن الوجبة التى أصابها ، وقال لصاحب الحانة : « اذا كنت غير راض ، فسأكتب مقالةً

أهجوك فيها هجاء لاذعاً » • وفي الأسبوع الماضي ، على ظهر سفينة من السفن ، قام كاتب آخر بقذف أسرة مستشار من مستشاري الدولة بأشنع الشتائم ، وتناول بالشتم امرأته وابنته خاصةً • ومؤلف ثالث ، لم يمكن طردُه من أحد محال بيع الحلوى الا ركلاً بالارجل !••• هؤلاء هم الأدباء ، هؤلاء هم الكتاب ، والطلاب ! أف !••• أما أنت فانصرفي الآن ، ولكن اعلمي أنني أراقبك ، فاياك ثم اياك ••• مفهوم ؟

أخذت لويزا ايفانوفنا ، وقد ازدادت تلطفاً وتودداً عن ذي قبل ، أخذت تنحني انحناء الاحترام في جميع الاتجاهات ، وما زالت تتقهقر الى وراء أثناء هذا الانحناء حتى بلغت الباب • ولكنها حين بلغت الباب صدمت بمؤخرتها ضابطاً مهيباً يزدان وجهه النضر المتفتح بلحيتين شقراوين على الوجنتين • انه نيكوديم فومتش ، مفوَّض الشرطة بذاته• أسرعت لويزا ايفانوفنا تنحني احتراماً له ، حتى كادت تلامس الأرض من شدة الانحناء ، ثم ولَّت هاربةً من المكتب بخطوات صغيرة متواثبة •

قال نيكوديم فومتش يخاطب ايليا بتروفتش ، بلهجة محبَّبة ودود :

ـ ماذا ؟ أعاد هزيم الرعد ، أعاد قصف الصاعقة ، والعاصفة ، والاعصار ؟ هل أغضبوك مرة أخرى فاستسلمت للغضب ؟ لقد سمعت كل شيء وأنا أصعد السلَّم !

قال ايليا بتروفتش باهمال نبيل وهو ينتقل من منضدة الى أخرى ، متقلَ الذراعين بأوراق ، مرنِّحاً عطفيه ترنيحاً جميلاً ، عند كل خطوة، على عادته :

ـ ما حيلتي ؟ انظر الى هذا السيد مثلاً : هو كاتب ، هو طالب أو

طالب سابق ، يرفض أن يدفع ما عليه من ديون ، يوقع سندات ، يرفض اخلاء المكان ؟ ثم هو ، رغم الشكاوى الكثيرة التى أودعت ضده، ينزعج لأننى أدخن سيجارة بحضوره . ألا فانظروا قليلاً الى حملة الأقلام هؤلاء . هذا نموذج لهم ، هذه عينة تمثلهم بحسنها وروعتها أجمل تمثيل !

قال نيكوديم فومتش :

ـ ليس الفقر عاراً يا صديقى . ونحن نعلم أنك لا تطيق احتمال أى انزعاج ...

ثم اتجه الى راسكولنيكوف فقال له بكثير من اللطف والمودة :

ـ أغلب الظن أنك توهمت أنه أراد الاساءة الى شعورك ، فلم تستطع أن تسيطر على نفسك . ولكنك أخطأت : ثق أن هذا الرجل من أنبل الرجال . ولكننى أعترف لك بأنه عنيف ، عنيف كالبارود ، كالبارود ... يشتعل ، يفرقع ، ينفجر ، ولكن كل شىء ينتهى بعد ذلك! ولا يبقى الا قلبه الذى هو من ذهب !... حتى لقد أُطلق عليه لقب « الليوتنان بارود » منذ كان ضابطاً فى الكتيبة .

صاح ايليا بتروفتش يقول وقد أرضت هذه الكلمات غروره ، ولكنه ما يزال عابساً بعض العبوس :

ـ ويا لها من كتيبة !

شعر راسكولنيكوف برغبة مفاجئة فى أن يخاطبهم جميعاً بكلام لطيف ودود الى أبعد حدود اللطف والود . فبدأ يقول بلهجة طلقة ، متجهاً بكلامه الى نيكوديم فومتش :

ـ انظر يا كابتن ، ضع نفسك فى مكانى ... أنا مستعد لأن أعتذر الى السيد الليوتنان ، اذا كنت قد أخطأت فى حقه أى خطأ . أنا

طالب فقير ، مريض ، مرهق (هذا ما قاله :. مرهق) بالبؤس • أو قل انني كنت طالباً في الماضي ، ثم أصبحت عاجزاً عن سدّ حاجاتي فتركت الدراسة • ولكنني سأتلقى مالاً بعد قليل • ان أمي وأختي تعيشان في اقليم س ••• ، وسوف ترسلان اليّ مالاً فأدفع ما عليّ • ان لصاحبة البيت الذي أقيم فيه قلباً طيباً كريماً ، ولكنها غضبت كثيراً ، لأنني فقدت موردي من اعطاء دروس خاصة ، فأصبحت لا أدفع لها أجر مسكني منذ أربعة أشهر تقريباً ، حتى لقد بلغ الغضب بها أنها أصبحت لا تبعث اليّ بوجبات الطعام • لذلك تراني لا أفهم من أمر هذا السند شيئاً • أهي تطالبني بمال مستعينةً بهذا السند الذي وقعته لها ؟ ولكن من أين أجيء بمالٍ أدفعه ؟ احكموا في الأمر بأنفسكم !

عاد السكرتير يقول من جديد :

ـ هذا أمر ليس من شأننا !

فاستأنف راسكولنيكوف كلامه مخاطباً نيكوديم فومتش ، لا السكرتير ، ومحاولاً أن يخاطب في الوقت نفسه ايليا بتروفتش ، رغم أن هذا كان منهمكاً بأوراقه، وكان يقابله بقلة الاكتراث وبالاحتقار، قال :

ـ اسمح لي ، اسمح لي ، أنا أوافقك كل الموافقة ، ولكن اسمح لي أيضاً أن أشرح ظروفي ؛ اسمح لي أن أذكر لك من جهتي أنني أسكن عندها منذ ما يقرب من ثلاث سنين ، منذ وصلت من الأقاليم ، وأنني قبل كل شيء ، قبل كل شيء ••• الأمر ••• نعم ، لماذا لا أعترف أنا أيضاً بأنني منذ البداية قد وعدتها بأن أتزوج ابنتها ؟•• نعم لقد وعدتها بذلك كلاماً ••• وكانت ابنتها فتاة ••• أعجبتني على كل حال ، وان لم أكن قد تولهت بحبها ! هو الشباب ، باختصار ! فكانت صاحبة

البيت تمهلنى فى الدفع كثيراً ••• وكنت أعيش حياة تتصف بكثير من ••• نعم ، كنت متقلب الهوى •••

قاطعه ايليا بتروفتش بفظاظة ، شاعراً بالانتصار :

ـ ما من أحد يسألك أن تذكر تفاصيل من هذا النوع عن حياتك الخاصة أيها السيد ، ثم ان وقتنا ليس فيه متسع للاصغاء اليك •••

ولكن راسكولنيكوف سارع يقاطعه بعنف ، رغم أنه أصبح يشق عليه الى أبعد حدود المشقة أن يقول أى شىء • قال يرد :

ـ لا ، اسمح لى ، اسمح لى أن أروى لك من جهتى كيف جرت الأمور ••• وأن أرويها لك مرتبةً ، رغم أننى أوافقك على أنه ليس من المفيد أن أقص عليكم هذا كله ••• اليكم ما حدث : منذ سنة ، ماتت تلك الفتاة بمرض التيفوس ، وبقيت أنا مستأجراً للمسكن الذى أقيم فيه ، فلما جاءت صاحبة البيت تقيم حيث تقيم الآن قالت لى (قالت لى ذلك بصداقة ومودة) : انها تثق بى ثقة مطلقة، ولكنها سألتنى ألا أستطيع أن أوقع لها سنداً بمبلغ مائة وخمسين روبلاً ، هو المبلغ الذى تعتقد أننى مدين لها به ؟ اسمح لى ••• لقد قالت لى بالحرف الواحد انها ستظل تمهلنى بعد تسليمها هذا السند ، ستظل تمهلنى فى الدفع ما شئت ، وانها لن تستخدم بحال من الأحوال ، بحال من الأحوال ـ هذه أقوالها هى ـ لن تستخدم هذا السند اذا لم أدفع من تلقاء نفسى • وها هى ذى الآن ، بعد أن فقدت موردى من الدروس ، وبعد أن أصبحت لا أملك ما أقتات به ، تقدم السند للسلطات من أجل تحصيله • فما رأيكم فى هذا ؟

قال له ايليا بتروفتش بوقاحة :

ـ ان هذه التفاصيل المؤثرة لا تعنينا فى شىء أيها السيد ! عليك أن

توقع الافادة والتعهد ... أما أنك كنت مولهاً بحب الفتـاة أو أنك لم تكن مولهاً بحبها ، وأما الظروف المحزنة التي أعقبت ذلك ... فهذا كله لا شأن لنا به البتة !

دمدم نيكوديم فوميتش يقول لصـاحبه الليوتنـان وهو يجلس الى مكتبه ويمضي يوقع بعض الأوراق :

ـ أحسب أنك تقسو كثيراً !

لقد شعر نيكوديم فوميتش بشيء من الحرج .

قال السكرتير لراسكولنيكوف :

ـ اكتب !

فسأله راسكولنيكوف بلهجة فظة :

ـ ماذا اكتب ؟

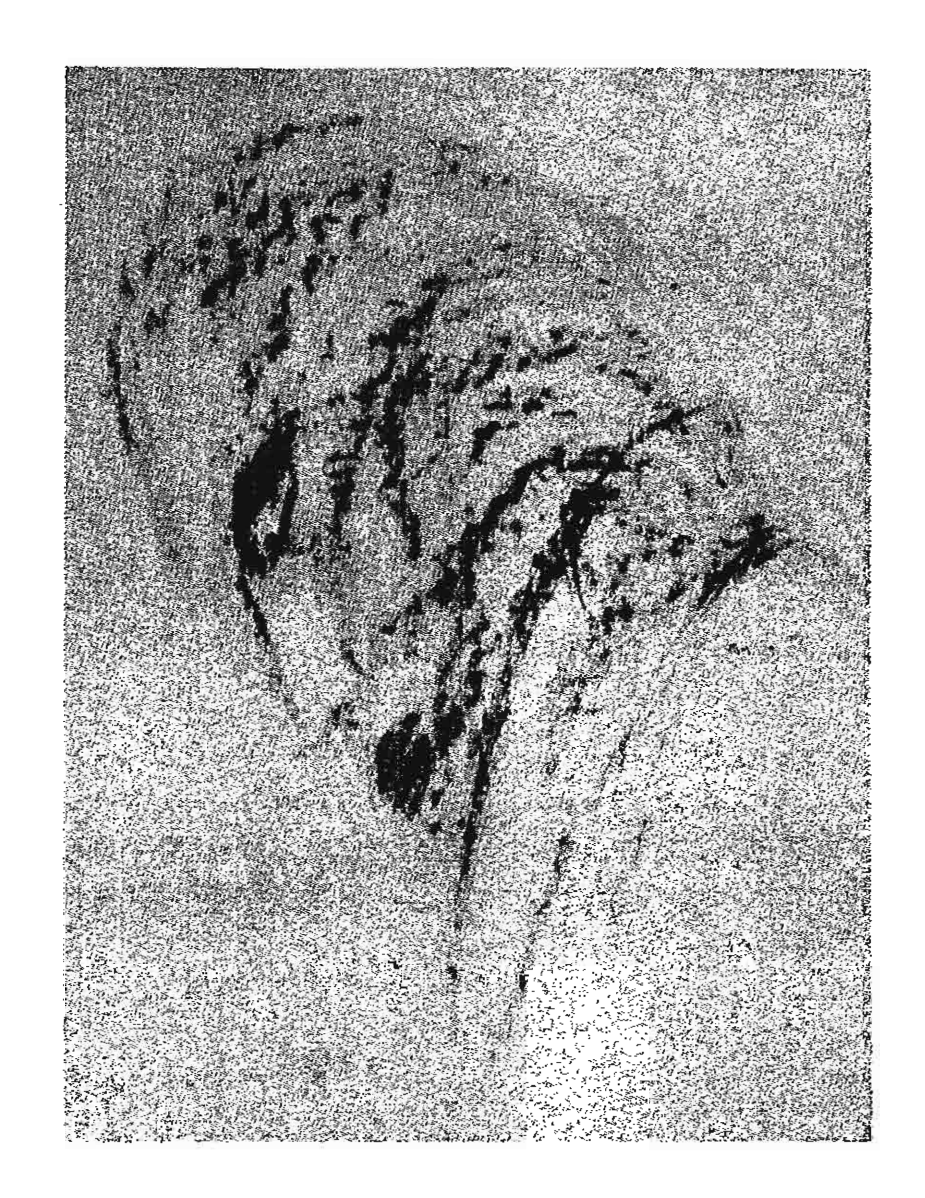
ـ سأملي عليك ...

خيل الى راسكولنيكوف أن السـكرتير اصبح يعـامله بمزيد من الازدراء والاحتقـار بعد تلك الاعترافات التي أوردهـا . ولـكن الشيء الغريب هو أن راسكولنيكوف قد أصبح على حين فجـأة لا يبالي بالرأي الذي قد يراه غيره فيه . وقد حـدث له هذا الانقلاب بمثل لمح البصر سرعةً ، حدث له في ثانية واحدة ، فلو شـاء أن يفكر لحظة واحـدة لأدهشــه في أغلب الظن أن يكون قد حدَّث هـؤلاء الموظفين على هذا النحو ، وأن يكون قد أجبرهم على سماع مُسـارَّاته . من أين جاءته هذه الحالة النفسية الجديدة ؟ لو امتلأت الغرفة الآن لا برجال شرطة بل بأصدقاء حميمين لكان عاجزاً عن أن يوجه اليهم كلمة فيها شيء من مودة وصدق ، وذلك من فرط الفراغ الذي أصيب به قلبـه . ان احساسـاً غامضاً بالوحدة ، احساساً مبهماً بعـزلة أليمـة لا نهاية لها ، قد اجتاح

شعوره على حين فجأة . لا ، ليس صغار اعترافاته العاطفية امام ايليا بتروفيتش لا ولا صغار انتصار الليوتنان عليه هو الذى هزّ قلبه هزاً يبلغ هذا المبلغ من العمق . آه ... انه ليس يعنيه الآن أن يكون فيه صغار ، وأن يكون فى الآخرين صغار ، وليست تعنيه المطامع ، ولا الرجال الذين هم برتبة ليوتنان ، ولا النساء الألمانيات ، ولا تحصيل السندات ، ولا المكاتب ، ولا غير ذلك ! ... انه لو حكم عليه بالحرق حياً فى هذه اللحظة ، لما قام بحركة واحدة ، ولما زاد على أن يصغى الى الحكم الذى صدر عليه ، اذا هو أصغى . ان شيئاً جديداً كل الجدة قد تحقق الآن فى كيانه ، شيئاً لم يعرفه حتى ذلك الحين ، شيئاً هو حادث لا يُتنبأ به ولا سابقة له . ان راسكولنيكوف لم يدرك ذلك الشىء ، ولكنه كان يحس احساساً واضحاً بأنه أصبح لا يستطيع أن يخاطب هؤلاء الناس ، هؤلاء الموظفين فى قسم الشرطة بالحى ، لا يستطيع أن يخاطبهم بأى كلام فضلاً عن الافضاء اليهم بعواطفه الشخصية ومشاعره الحميمة كما فعل منذ قليل . بل لقد أحسّ راسكولنيكوف أنه أصبح لا يستطيع أن يخاطب أقرب اقربائه بحال من الأحوال ، ولو كانوا اخوة وأخوات. ان راسكولنيكوف لم يكن قد شعر حتى تلك الدقيقة ، فى يوم من الأيام ، باحساس يبلغ هذا المبلغ من الهول . والأمر الذى كان يؤلمه مزيداً من الألم هو أن ما يشعر به كان احساساً ولم يكن فكرة . نعم كان احساساً مباشراً ، كان احساساً أشد ايلاماً من جميع الاحساسات التى شعر بها طوال حياته .

أملى عليه السكرتير صيغة الاقرار المستعملة فى هذه الحالة : « لا أستطيع أن أدفع . أتعهد بالدفع بتاريخ كذا . لن أغادر المدينة . لن أبيع أشيائى ، ولن أتنازل عنها لأحد ، الخ » .

قال له السكرتير وهو ينظر اليه متعجباً :



راسکولنیکوف

ـ أرى أنك لا تستطيع الكتابة ، وأن القلم يسقط من يدك • أنت مريض ؟

ـ نعم ••• اشعر بدوار فى رأسى ••• ولكن أكمل مع ذلك

ـ انتهى ! لم يبق عليك الا أن توقع •

وقع راسكولنيكوف الاقرار ، فتناول السكرتير الورقة وانصر عنه الى الاهتمام باشخاص آخرين •

رد راسكولنيكوف الريشة الى مكانها ، ولكنه بدلاً من أن ينهض ويذهب ، وضع كوعيه على المنضدة ، وضغط رأسه بين يديه • كان يش كأن مسماراً قد دُق فى قمة جمجمته • ووافتـه فكرة غريبة على فجـأة : أن ينهض فوراً فيقترب من نيكوديم فوميتش ويقص عليـه ما حدث فى الليلة البارحة ، كلّ ما حدث ، حتى أيسر التفاصيل ، و يقوده بعد ذلك الى غرفته ، فيريه الاشياء هناك ، عند الركن ، فى الثقب وبلغت رغبته فى ذلك من القوة أنه نهض ليضع مشروعه موضع التنفي لكنه لم يلبث أن قال لنفسه : « ربما كان عليّ أولاً أن افكر لحظة » ، ثم سرعان ما أضاف يقول : « لا بل الأفضل أن لا افكر البتة وأن أتخلـ من كل شيء دفعة واحدة » • وها هو ذا يتوقف فجأة كمن تسمـّر مكانه : كان نيكوديم فوميتش يتحدث بحـرارة الى ايليـا بتروفيتش فاستطاع راسكولنيكوف أن يلتقط من حديثهما هذه الجمل :

ـ لا ، مستحيل، سوف يخلى سبيلهما كليهما ! أولاً، هناك تناقض احكم فى الأمر بنفسك : لو كانا هما القاتلين فلماذا يسـتدعيان البواب أليفضحا أمرهما وليشيا بنفسيهما ؟ أم تراهما استدعياه من باب المكر ألا ان هذا ليكون اسرافاً فى المكر ! ثم ان الطالب بسـترياكوف قد ر البوابان ورأته امرأة قرب باب العمارة لحظة دخـوله • وكان فى صحـ

ثلاثة أصدقاء ودّعهم عند المدخل• وبحضور اصدقائه هؤلاء انما سأل اين يوجد مسكن العجوز • فكّر قليلاً : أكان يلقى هذا السؤال لو أنه جاء لهدف كهذا الهدف ؟ أما كوخ فقد قضى نصف ساعة تحت ، عند بائع الجواهر ، قبل أن يصعد الى بيت العجوز ، وهكذا يكون قد ترك بائع الجواهر وصعد الى بيت العجوز فى الساعة الثامنة الا ربعاً على وجه التحديد ••• ففكر الآن •••

ـ اسمح لى ! فكيف نفسّر هذا التناقض الشديد فى أقوالهما ؟ هما يؤكدان أنهما قرعا الباب ، وأن الباب كان مغلقاً ، ثم يؤكدان أن الباب كان مفتوحاً بعد ثلاث دقائق حين عادا يصعدان فى صحبة البواب• فما تفسير هذا التناقض ؟

ـ هنا انما يكمن سر القضية : لقد كان القاتل فى داخل البيت حتماً ، وكان قد أوصد الباب بالمزلاج ، ولا بد أننا كنا سنكتشفه لولا أن كوخ قد ارتكب تلك الحماقة فمضى يبحث عن البواب هو أيضاً • ففى تلك الفترة بعينها ، أعنى الفترة التى انقضت بين نزول كوخ وصعود الثلاثة انما تمكّن القاتل من هبوط السلم ، واستطاع أن يتسلل من بين أيديهم بطريقة أو بأخرى • ان كوخ الآن يرسم على نفسه اشارة الصليب بكلتا يديه قائلاً : « لو قد لبثت فوق ، اذن لوثب علىّ وقتلنى بساطوره ! » ان كوخ ينوى أن تقام له فى الكنيسة صلاة شكر لله على ما خصه به من نعمة النجاة ! هىء هىء !•••

ـ والقاتل ، ألم يره أحد ؟

ـ كيف يمكن أن يراه أحد ؟ ان المنزل أشبه بسفينة نوح •

بهذا عقّب السكرتير الذى كان يصغى الى الحديث من مكانه •

وكرر نيكوديم فوميتش يقول بحرارة شديدة :

ـ أقول لكم ان القضية واضحة ، واضحة جداً !

فقال ايليا بتروفتش مرعداً :

ـ لا ، ليست واضحة البتة !

رفع راسكولنيكوف قبعته ، واتجه نحو الباب ولكنه لم يبلغه ...

فلما أفاق من غيبوبته رأى نفسه جالساً على كرسى ، ورأى رجلاً يسنده من يمين ، وآخر يسنده من شمال ، ورأى كأساً مملوءة بماء أصفر ، ورأى نيكوديم فوميتش واقفاً أمامه يحدّق اليه ويتفرس فيه .

نهض راسكولنيكوف عن كرسيه .

فسأله نيكوديم فوميتش بلهجة مباغتة :

ـ ماذا بك ؟ أأنت مريض ؟

فقال السكرتير وهو يرجع الى منضدته ويرتد الى أوراقه :

ـ انه ، منذ كان يكتب الاقرار ، كان لا يكاد يستطيع تحريك قلمه !

وصاح ايليا بتروفيتش من مكانه وقد عاد يرتب أوراقه هو أيضاً ، صاح يسأله :

ـ أأنت مريض منذ مدة طويلة ؟

كان ايليا بتروفيتش قد لاحظ المريض طبعاً اثناء اغمائه ، ولكنه ابتعد فوراً منذ رآه يفيق .

لم يزد راسكولنيكوف فى الاجابة عن سؤال ايليا بتروفتش على أن دمدم يقول :

ـ منذ أمس ...

ـ وهل خرجت أمس ؟

ـ نعم خرجت .

ـ مريضاً .

ـ مريضاً .

ـ في أية ساعة ؟

ـ في الساعة السابعة من المساء .

ـ الى أين ذهبت ؟ اسمح لى أن ألقى عليك هذا السؤال .

ـ الى الشارع !

ـ جواب مختصر مفيد !

كان راسكولنيكوف شاحباً شحوباً شديداً . وقد أجاب عن تلك الأسئلة بصوت خشن متقطع دون أن يغض عينيه السوداوين المشتعلتين أمام نظرات ايليا بتروفيتش .

ـ هو لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه ، وأنت ...

فأجابه ايليا بتروفيتش بنبرة غريبة بعض الغرابة :

ـ لا ... بأ ... س !...

أراد نيكوديم فوميتش أن يضيف شيئاً آخر ، ولكنه أمسك عن الكلام حين ألقى نظرة على السكرتير الذى كان يحدق اليه من مكانه . وصمت الجميع فجأة . شيء غريب .

ثم قال ايليا بتروفيتش يختم الحديث :

ـ طيب ! في وسعك أن تنصرف .

خرج راسكولنيكوف • ولكنه استطاع أثناء خروجه أن يسمع استئناف الحديث حاراً محتدماً • وبين جميع الأصوات كان صوت نيكوديم فوميتش ، المتسائل المستفسر ، أكثرها وضوحاً وتميزاً • حتى اذا صار راسكولنيكوف فى الشارع ثاب اليه كل وعيه وعاد اليه كل شعوره •

ـ تفتيش ! تفتيش ! سيقومون بتفتيش فوراً ! يا للصوص ! انهم يشتبهون فىّ !•••

كذلك كان يردد راسكولنيكوف بينه وبين نفسه مغذاً خطاه للرجوع الى بيته •

لقد عاد الخوف يستبد به من أخمص قدميه الى قمة رأسه •

الفصل الثاني

قال راسكولنيكوف متسائلاً : « وماذا لو كان التفتيش قد تم ؟ ماذا لو وجدتهم فى بيتى ؟ » .

ولكن راسكولنيكوف عاد الى بيته فلم يجد فيه أحداً ، ولا كان أحد قد جاء يفتشه . حتى ناستاسيا لم تلمس شيئاً . ولكن رباه ! كيف أمكنه أن يدع هذه الأشياء فى الثقب منذ قليل ؟

أسرع راسكولنيكوف نحو الركن ، ودسّ يده وراء الورق ، وأخذ يخرج منه الأشياء فيدسّها فى جيوبه واحداً تلو آخر . عرف أن مجموع الأشياء ثمانية : علبتان صغيرتان تضمان أقراطاً للآذان أو ما يشبه ذلك (لم يدقّق كثيراً) ، ثم أربع علب صغيرة من الجلد ، فيها جواهر ؛ ثم سلسلة كانت ملفوفة بورقة من ورق الجرائد ؛ ثم شيء آخر ملفوف بورقة من ورق الجرائد أيضاً ، وأغلب الظن أنه وسام ...

وزّع هذه الأشياء على مختلف جيوب معطفه ، ووضع بعضها فى الجيب الأيمن من سرواله ، وهو الجيب الوحيد الذى بقى للسروال ؛ وجهد أن يدسّها فى هذه الجيوب بحيث لا تمكن رؤية شيء من خارج. وتناول حافظة النقود أيضاً . ثم خرج من الغرفة مسرعاً حتى لقد ترك بابها فى هذه المرة مفتوحاً تماماً .

كان يمشى بخطى سريعة ثابتة . ورغم أنه كان محطماً فقد كان

يعى الحالة التى هو فيها • كان يخشى أن يلاحق ويطارد ، كان يخشى أن يبدأ التحقيق معه بعد نصف ساعة ، وربما بعد ربع ساعة • فلا بد له اذن ، مهما كلف الأمر ، أن يغيِّب هذه الأشياء التى تثبت ارتكابه جريمة القتل ؟ لا بد له أن يتخلص منها ما ملك بعض قوة ، وبعض تفكير ••• ولكن الى أين يذهب ؟

كان قد عزم على هذا الأمر وبتَّ فيه : « أن يرمى جميع الأشياء فى القناة ، فتسقط الابساتات فى الماء ، وتسقط معها القضية ! » • ذلك ما كان قد عزم عليه فى الليلة السابقة ، أثناء هذيانه ، فى تلك اللحظات التى كانت تعاوده فيها ذاكرته من حين الى حين ، فيحاول أن ينهض وأن يخرج قائلاً لنفسه : « أسرع، أسرع ،، تخلص من هذا كله ! » •

ولكن التخلص من هذه الأشياء لم يكن سهلاً •

ظل راسكولنيكوف يتجول مدة ربع ساعة على طول قناة كاترين ، ونظر مراراً الى السلالم التى تهبط الى الماء ، فكان لا يجوز أن يخطر بباله أن يضع مشروعه موضع التنفيذ ، فاما أن قارباً يوجد عند أسفل الدرجات وعليه نساء يغسلن غسيلهن ، واما أن مراكب قد ربطت هنالك بالأقلاس••• أى أن جميع الأمكنة تعج بالناس• هذا عدا أن فى الامكان أن يُرى وأن يراقب من على أرصفة الشاطىء • أليس أمراً يبعث على الشبهة والريبة أن ينزل رجل الى تحت ، عمداً ، ثم يتوقف ليرمى شيئاً من الأشياء فى الماء ؟ وماذا لو طافت العلب على سطح الماء بدلاً من أن تغوص الى القاع ؟ لا شك أنها ستطفو ، ولا شك أن جميع الناس سيرونها ! بل ان جميع من لقيهم فى طريقه حتى الآن كانوا يتفرسون فيه كأنهم لا همَّ لهم سواه ! قال لنفسه : « لماذا يتفرسون فىَّ هذا التفرس ؟ اللهم الا أن يكون هذا وهماً منى لا أكثر ! »

وخطر بباله أخيراً أنه ربما كان الأفضل أن يذهب الى مكان ما على شاطىء نهر نيفا • ان شاطىء نهر نيفا لا يعج بالناس كما يعج بهم شاطىء القناة • فهنالك لن يلاحَظ كما يلاحظ هنا ، وهنالك يكون رمى الآشياء فى الماء أسهل منه هنـا على كل حال ؟ وهو هنالك أبعد عن « المكان » الذى وقعت فيه الحادثة منه هنا ؟ نعم ، هذا خاصةً ! وسرعان ما د هش على حين فجأة : كيف أمكنه أن يظل يطوف مدة نصف سـاعة ، قلقـاً خائفاً ، فى أمكنة خطرة هذا الخطر كله ، دون أن يدرك هذا الأمر قبل هذه اللحظة ؟ كيف يظل يطوف طول هذه المدة لا لشىء الا أن ينفـذ مشروعاً تصوره فى نومه أثناء هذيان ؟ اذن لقد أصبح ذاهلاً الى أبعد حدود الذهول ، ولقد أصبح شديد النسـيان ! انه يعـرف هذه الحقيقة الآن ! لا شك أن عليه أن يسرع • نعم ، ان عليه أن يسرع حتماً !

اتجه نحو نهر نيفـا عن طريق شـارع « ف ••• » غير أن فكرة أخرى وافته أثناء سيره : « لماذا نهر نيفا ؟ لماذا الماء ؟ أليس الأفضل ان أذهب الى مكان بعيد جداً ، ولو الى الجـزر مرةً أخرى ، فأختار مكاناً فى الغابة خالياً من الناس ، فأدفن كل شىء تحت احدى الأشجار ، بعد أن أضع على المكان علامةً تهدينى اليه فى المستقبل ؟ ورغم شعوره بأنه عاجز عن التمعن فى هذا كله تمعنـاً واضحاً ، فان الفكرة قد بدت له سليمةً لا اعتراض عليها •

ولكن لم يُكتب له أن يبلغ الجزر أيضاً ، وانما جرت الأمور مجرى آخر • فما ان خرج من شارع « ف ••• » الى احد الميادين ، حتى رأى على يسـاره ، فجأةً ، مدخلَ فنـاءِ محـاط بجـدران كبيرة من جميع الجهات ، ورأى على اليمين ، بعد المدخل مباشرةً ، سوراً «طويلاً» بغير ملاط ، هو سور عمارة مجاورة ذات ثلاثة طوابق ؟ ورأى على اليسار ؟ حاجزاً من خشب يوازى ذلك السور ، ويقع بعد المدخل مباشرة ، ويبلغ

طوله نحو عشرين قدماً ثم ينعطف • هذه أرض خلاء تتكدس فيها أنواع شتى من مواد متروكة مهجورة • فاذا نظر الناظر الى آخر الفناء بعد الحاجز ، رأى ركناً سقيفة من حجر ، واطئة ، مسودة من الدخان ، لعلها كانت جزءاً من ورشة • فلا بد أن مصنعاً للعجلات أو للأقفال أو شيئاً من هذا القبيل كان يقوم هنا ، لأن الأرض سوداء من غبار الفحم في كل مكان تقريباً منذ باب المدخل • قال راسكولنيكوف لنفسه فجأة : « وجدت ضالتي ! أرمي كل شيء هنا ثم أنصرف ! » • واذ لم ير أحداً في الفناء ، أسرع يجتاز الباب ، فاذا هو يلمح ، في تلك اللحظة نفسها ، مزراباً مثبتاً بالحاجز الخشبي ، بمثابة مبولة (كما يوضع مثله كثيراً في المحلات التي من هذا النوع ، حيث يكثر العمال وأصحاب الحرف والحوذيون وأشباههم) : وفوق المزراب كُتبت على السياج ، بالطباشير ، الجملة التي تكتب عادةً من باب المزاح ، بخط رديء وأخطاء املائية : « ممنوعن الوقوف هنا » • قال راسكولنيكوف يغبط نفسه : لهذا المكان هذه الميزة على الأقل ، وهي أن أحداً لن يشتبه في أنني دخلته ووقفت فيه • وأضاف : « أرمي هنا كل شيء ، كل شيء ، دفعةً واحدة ، كدسةً واحدة ، ثم أمضي ! » •

وألقى على ما حوله نظرة أخرى ، وفيما كان يدخل يده في جيبه اذا هو يرى ، حذاء الجدار ، في المسافة التي تفصل الباب عن المبولة ولا يزيد طولها عن خطوتين ، صخرةً غير منحوتة يمكن أن يكون وزنها نحو عشرة كيلوجرامات • ان الرصيف يقع خلف الجدار في الشارع • وان وقع أقدام المارة ، وهم كُثُر دائماً في هذا المكان ، يُسمع في الداخل • ولكن أحداً لا يستطيع أن يراه في هذه الجهة من الباب الا اذا دخل ، وذلك أمر يمكن أن يحدث ، فلا بد لراسكولنيكوف اذن أن يسرع •

مال راسكولنيكوف على الصخرة فأمسك أعلاها بيديه كلتيهما امساكاً قوياً ، واستجمع قواه كلها ، فزحزح الصخرة من مكانها . ان حفرة صغيرة كانت قد تشكلت تحت الصخرة . فسرعان ما أخذ راسكولنيكوف يرمي في هذه الحفرة كل ما كان في جيوبه ، وكانت حافظة النقود آخر شيء رماه ، فكان مكانها فوق سائر الأشياء الآخرى وبقي في الحفرة متسع . ثم أمسك بالصخرة من جديد ، وردها الى وضعها الأصلي مرةً واحدة ، فلا يكاد يبدو أنها ارتفعت عن وضعها الأصلي الا قليلاً . ولكن راسكولنيكوف نبش الأرض ، وكوم قليلاً من التراب حول الصخرة حتى أصبح من المستحيل أن يُلاحَظ أي تغير . وبعد ذلك خرج واتجه نحو الميدان ، فاذا هو مرةً أخرى ، كما حدث له في مكتب الشرطة منذ قليل ، يشعر بفرح قوي جارف يستبد به لحظةً . قال يحدث نفسه : « ها هي ذي الاثباتات قد دفنت في باطن الأرض ! منذ ذا الذي يخطر على باله أن يبحث عنها تحت هذه الصخرة ؟ لعل هذه الصخرة موجودة في هذا المكان منذ وجد المنزل ، وستظل باقية ما بقي ! وهَبْهم اكتشفوا الأشياء ، فمن ذا الذي يمكن أن يشتبه فيَّ ؟ انتهى الأمر ! لا براهين بعد الآن ! » وأخذ يضحك . سوف يتذكر في المستقبل أنه ضحك ضحكاً عصبياً صغيراً أخرس متصلاً ، وانه كان ما يزال يضحك حين اجتاز الميدان . ولكنه ما ان دخل شارع ك ... الذي التقى فيه ليلة أمس الأول بالفتاة ، حتى انقطع ضحكه فجأة . ان خواطر أخرى توافي ذهنه الآن . بدا له على حين فجأة أنه سيشعر باشمئزاز لا سبيل الى التغلب عليه حين يمر قرب الدكة التي جلس عليها بعد انصراف الفتاة ، وأنه سيؤلمه أشد الايلام أن يصادف ، من جديد ، الشرطيَّ ذا الشاربين الذي أعطاه حينذاك عشرين كوبكاً . ودمدم يقول : « شيطان يأخذه ! » .

كان يسير وهو يرمق ما حوله بنظرة ذاهلة خبيثة . ان جميع أفكاره تدور الآن حول نقطة واحدة يحس هو نفسه أنها « النقطة الرئيسية » ، وأنه الآن ، الآن على وجه التحديد ، يقف وجهاً لوجه أمام هذه « النقطة الرئيسية » ، وذلك لأول مرة منذ شهرين . ثم اذا هو يقول لنفسه فجأة وقد اعتراه حنق رهيب : « لا شيطان يأخذ هذه القصة. دعنا ! ما دامت القصة قد بدأت ، ما دامت قد بدأت ، فلتذهب الى الشيطان ... هي و « الحياة الجديدة » ! ما أغباني ! ما اكثر ما صنعت اليوم من أكاذيب ! ما اكثر ما ارتكبت اليوم من حقارات ! ما أبشع ما أظهرته من تزلف وصغار ، منذ قليل ، أمام ذلك التافه ايليا بتروفيتش !... على كل حال ... لا ضير ... انني لا أكترث بهم ، لا أكترث بهم ولا بأنني أظهرت لهم تزلفاً وصغاراً ! ليس هذا هو الأمر ... ليس هذا هو الأمر البتة ! » .

وتوقف فجأةً . ان سؤالاً جديداً لم يكن في حسبانه قط ، سؤالاً بسيطاً غاية البساطة ، يحيّره الآن ويصعقه صعقاً . قال يسأل نفسه : « لو كنت قد نفّذتَ هذا الأمر عن وعي حقاً ، لا على نحو يبلغ هذا المبلغ من البلاهة ، لو كانت لك غاية محددة تماماً مرسومة تماماً ، فكيف تفسّر أنك الى هذه اللحظة لم تلق نظرة واحدة على ما تحويه حافظة النقود ، وأنك لا تعرف ما الذي أردت أن تجنيه ولا تدرك الهدف الذي ارتضيت في سبيله أن تحتمل كل هذا العذاب وارتضيت في سبيله عامداً أن ترتكب عملاً يبلغ هذا المبلغ من الحقارة والخسة والدناءة ؟ ألم تكن تريد منذ لحظة أن ترمي في الماء حافظة النقود هذه وجميع تلك الجواهر التي لم تكلف نفسك حتى عناء النظر اليها ؟ كيف تفسر هذا كله ؟ .... » .

نعم هذه هي الحقيقة ! هذه هي الحقيقة تماماً ! وكان هو يعلم هذه

الحقيقة منذ مدة . ان هذا السؤال ليس جديداً عليه . انه حين قرر في الليل أن يرمى كل شيء في الماء ، انما قرر هذا القرار بدون أى تردد ، وبدون أية مماحكة ، كما لو كان ينبغي له أن يفعل هذا نفسه لا أى شيء سواه ... نعم انه يعلم كل هذا ، وانه يتذكر كل هذا ، حتى ليكاد يكون قد اتخذ قراره ذاك منذ البارحة ، لحظةَ كان ينبش صندوق العجوز ويُخرج منه العلب ... اذن ماذا ؟!...

« اذن أنا مريض جداً (الى هذه النتيجة وصل راسكولنيكوف جازماً) . لقد عذبت نفسي ومزقت نفسي وصرت أنا نفسي لا أعرف ماذا أفعل ... وامس ، وأمس الأول ، وفي جميع تلك الأيام الأخيرة ، كنت امزق نفسي بغير انقطاع . حين سأشفى من مرضي ، فلن ... لن أمزّق نفسي بعد ذلك ... ولكن ماذا ... ماذا اذا لم يكتب لي الشفاء يا رب ؟ آه ! ان هذا فوق طاقتي ! ... » .

كان راسكولنيكوف يسير بلا تردد . كان يرغب رغبة رهيبة في أن يسلو على أى نحو من الانحاء ، ولكنه لا يعرف ماذا يعمل من أجل أن يسلو . وهذا احساس جديد لا يستطيع تحديده يجتاح نفسه شيئاً بعد شيء ويشتد في كل دقيقة . هو نوع من اشمئزاز لا حد له ، اشمئزاز يشبه أن يكون جسمياً ، اشمئزاز من كل ما يحيط به ومن كل ما يراه في طريقه ، اشمئزاز عنيد ، كاسر ، حاقد ، مبغض . ان جميع المارة الذين يلقاهم كريهون ، كريهةٌ وجوههم ، كريهة حركاتهم ، وحتى مشيتهم كريهة . لو توجّه أحد اليه بكلام في هذه اللحظة ، لما زاد على أن يبصق في وجهه ، ولربما عضّه .

وتوقف عن السير فجأةً ، لحظةَ صار على رصيف « نيفا الصغير » في جزيرة فاسيلفسكي قربَ الجسر . قال لنفسه : « انه يسكن هنا في هذا البيت ! ما معنى هذا ؟ لقد جئت اذن الى رازوميخين رغم ارادتي !

ها قد تكرر اليوم عين ما حدث فى ذلك اليوم ••• ولكن هذا أمر عجيب جداً :أأنا جئت الى هنا واعياً عامداً أم أننى مشيت على غير هدى فاذا بى أصل الى هذا المكان مصادفة ؟••• لا بأس ! كنت أقول••• أمس الأول ••• اننى سأذهب اليه غداة قيامى بذلك « العمل » ••• طيب ••• أى ضير فى هذا ؟ سأذهب اليه ! ماذا جرى ؟ لكأننى الآن لا أجرؤ أن أذهب اليه ••• » •

وصعد الى الطابق الرابع حيث يسكن رازوميخين •

كان رازوميخين فى بيته ، فى غرفته الصغيرة ، يعمل ، يكتب • فتح الباب بنفسه • انهما لم يلتقيا منذ أربعة أشهر • كان رازوميخين يرتدى ثوباً مهترئاً يكاد يكون خرقة بالية ، وكان عارى القدمين الا من بابوج ؟ ولم يكن قد حلق ذقنه ولا غسل وجهه ، ولا مشط شعره •

عبرَّت هيئته عن الدهشة والاستغراب حين رأى رفيقه داخلاً عليه ، فهتف يقول وهو يتفرس فيه من قمة الرأس الى أخمص القدمين :

ـ ماذا ؟ أأنت ؟

ثم صمت وصفَر ، ثم أردف يقول وهو ينظر الى اسمال راسكولنيكوف الرثة :

ـ هل من الممكن أن تكون احوالك سيئة الى هذا الحد ؟ اجلس ، اجلس ! لا بد أنك متعب !

وحين تهالك راسكولنيكوف على الأريكة التركية المنجدة بقماش مشمع ، وهى أسوأ حالاً من أريكته ، أدرك رازوميخين فجأة أن رفيقه مريض فقال له :

ـ هيئتك تدل على انك مريض فعلاً !

وجسّ نبضه ، فسحب راسكولنيكوف يده بفظاظة ، وقال له :

ـ لا داعى الى ذلك . لقد جئت ... اليك السببَ الذى دفعنى الى المجىء : فقدت جميع الدروس التى كنت أعطيها ... أود أن احصل.. ولو على ... لكن لا داعى الى ذلك ... أصبحت فى غير حاجة الى دروس ...

سأله رازوميخين وهو يتفرس فيه بانتباه :

ـ ولكن قل لى ، أأنت تهذى ؟

ـ لا ... لست أهذى !

قال راسكولنيكوف ذلك ونهض عن الأريكة . انه حين صعد الى رازوميخين لم يخطر بباله أنه سيكون عليه أن يراه وجهاً لوجه . وها هو ذا يلاحظ الآن على حين فجأة أنه لا شىء يضايقه اكثر ممايضايقه أن يرى أى انسان من الناس وجهاً لوجه . ان كل ما فى نفسه من بغض قد ثار الآن . ولقد أوشك أن يختنق غضباً من نفسه منذ أن اجتاز عتبة بيت رازوميخين .

قال فجأة :

ـ وداعاً !

ـ واتجه نحو الباب .

ـ ولكن انتظر ! انتظر يا مختل !

فعاد راسكولنيكوف يقول وهو يسحب يده من جديد :

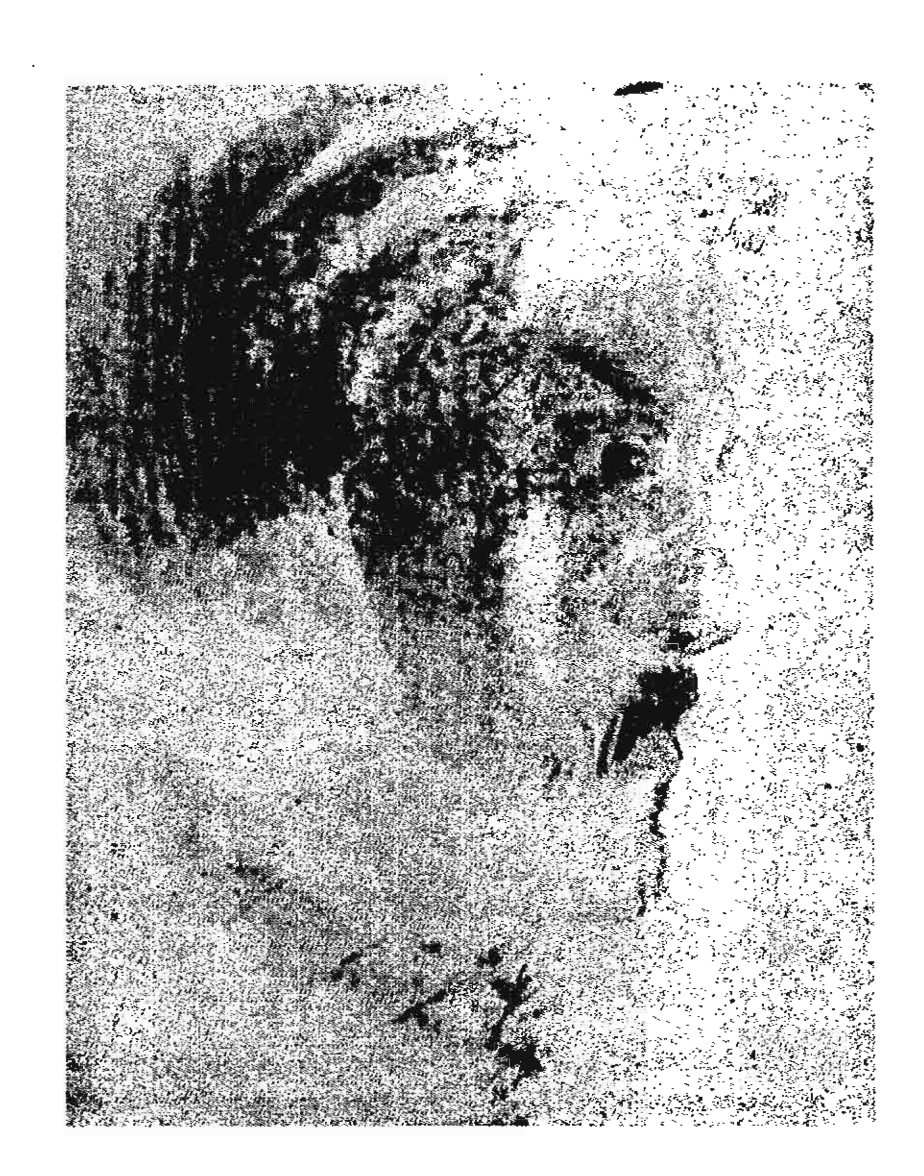
ـ لا داعى !

سأله رازوميخين :

ـ فلماذا جئت اذن ؟ أتراك جننت ؟ ان في سلوكك هذا ما يشبه أن يكون اهانة لي • لن أدعك تتصرف وأنت على هذه الحال •

ـ اذن فاسمع ! لقد جئت اليك لأنني لا أعرف أحداً غيرك يمكن أن يساعدني ••• نعم جئت اليك لأنك أفضل منهم جميعاً ، لانك أذكى منهم جميعاً ، ولأنك حصيف الرأي سديد الحكم • ولكنني أرى الآن أنني لست في حاجة الى شيء • هل تسمع ؟ لست في حاجة الى شيء اطلاقاً ••• لا الى خدمات أحد ولا الى عطف أحد ••• سأدبر أموري ••• بنفسي ، وحدي • نعم ••• يكفي هذا • دعوني وشأني أنتم جميعاً !•••

ـ ولكن انتظر لحظة يا سخيف ! أنت مجنون ، مجنون تماماً ! لن تزحزحني عن اعتقادي هذا ! ولكن اسمع قليلاً : أما الدروس فأنا نفسي لا أعطي الآن دروساً ، لا ولا اكترث بالدروس ! غير أن عندي في السوق صاحب مكتبة اسمه خيروفيموف ، هو في رأيي خير درس ، ولو ساومني تجار على أن أبيعه بخمسة دروس لما فعلت ! انه ينشر كتباً عن العلوم الطبيعية ! لا تستطيع أن تتخيل مدى رواج هذا النوع من الكتب • ان الناس يتخاطفونها تخاطفاً ! العناوين وحدها تساوي وزنها ذهباً ! أنت تدعي دائماً أنني غبي ، فاعلم ياعزيزي أن هنالك أناساً أغبى مني ، أقسم لك على ذلك ! لقد أخذ هو أيضاً يجاري التيار ، ويتبع الاتجاهات الجديدة • انه شخصياً لا يفهم شيئاً البتة ، ولكنني أشجعه طبعاً على السير في هذه الطريق• أنظر مثلاً الى هاتين الملزمتين الكبيرتين (أقول ملزمتين ولكن هنالك عدداً كبيراً من الملازم) المطبوعتين باللغة الألمانية • في رأيي أن الكلام الذي تضمانه ليس الا دجلاً وشعبذة• ان الكاتب يطرح هذا السؤال : هل المرأة انسان أم هي ليست انساناً • وقد انتهى الى أن يبرهن بفخامة وجلال على أن المرأة انسان ••• ان



رازو میخین

خيروفيموف يهيىء هذه الأشياء لعلاقتها بقضية المرأة التى تناقش كثيراً فى هذه الأيام ؛ وأنا أتولى الترجمة ••• وسوف نطيل النص الألمانى الذى يتألف من ملزمتين ونصف ملزمة فنجعله ست ملازم ، ونجعل له عنواناً فخماً يملأ نصف صفحة ، ثم نحدّد ثمن سعر النسخة الواحدة من الكتاب بخمسين كوبكاً • وأنا أتقاضى عن ترجمة الملزمة الواحدة ستة روبلات ، أى خمسة عشر روبلاً عن هذا الكتاب • ومتى انتهينا من هذا الكتاب ، فسنترجم كتاباً عن الحيتان • وقد اخترنا من كتاب « الاعترافات » عدداً من النمائم التى سنترجمها أيضاً • لقد قال أحدهم لخيروفيموف ان روسو يشبه رادتشيف * وأنا أتحاشى طبعاً أن أعارضه •• شيطان يأخذه !••• ها نحن اذن نصل الى الأمر الأساسى : هل تريد أن تترجم الملزمة الثانية من كتاب « هل المرأة انسان ؟ » اذا كنت تريد أن تفعل ذلك ، فخذ النص على الفور ، وخذ مع النص أقلاماً وورقاً ـ كل ذلك على نفقة الناشر ـ واقبلْ هذه الروبلات الثلاثة ، فاننى قد تقاضيت سلفةً عن ترجمة الملزمة الأولى والملزمة الثانية ، فتكون هذه الروبلات الثلاثة من حقك • حتى اذا فرغتَ من ترجمة ملزمتك ، قبضتَ ثلاثة روبلات أخرى • واننى لأرجوك خاصةً أن لا تتصور أن ما أفعله الآن هو خدمةٌ أقدمها أليك • بالعكس : فاننى ما ان رأيتك داخلاً علىّ حتى قلت لنفسى : سوف يفيدنى كثيراً • فأنا أولاً ضعيف فى الاملاء ، وأنا ثانياً أقرب الى الضعف فى اللغة الألمانية ؛ لذلك ترانى فى أكثر الأحيان ألفّق وأخترع ، وأعزّى نفسى قائلاً ان النتيجة تكون بذلك أفضل • ولكن من يدرى ؟ قد لا تجىء النتيجة أفضل بل أسوأ ! ••• هيه ، أتقبل أم لا ؟

تناول راسكولنيكوف النص الألمانى صامتاً ، وأخذ الروبلات الثلاثة أيضاً ، ثم خرج وهو ما يزال ساكتاً لا ينطق بكلمة واحدة •

وتابعه رازوميخين بنظراته مشدوهاً . ولكن ما ان وصل راسكولنيكوف الى ناصية الشارع الأول حتى قفل راجعاً على حين فجأة ، وصعد ثانيةً الى بيت رازوميخين ، فبعد أن وضع الملزمة والروبلات الثلاثة على المنضدة ، خرج مرةً أخرى دون أن ينطق بكلمة واحدة أيضاً .

قال رازوميخين وقد ثارت ثائرته أخيراً :

ـ لا شك فى أنك مصاب بحمى حارة ! ما هذه المهزلة التى تمثّلها؟ انك تفقدنى صوابى . لماذا رجعت ؟

قال راسكولنيكوف وقد أخذ يهبط السلم :

ـ لست فى حاجة الى ... ترجمة !...

فصرخ رازوميخين يسأله من أعلى :

ـ أنت فى حاجة الى ماذا اذن ؟

لم يجب راسكولنيكوف .

ـ اسمع ! أين تسكن الآن ؟

ـ شيطان يأخذك !

ولكن راسكولنيكوف كان قد صار فى الشارع . وعلى جسر نيقولا * ، اضطر أن يثوب الى رشده مرةً أخرى ، بسبب حادث مزعج وقع له : لقد هوى حوذى على ظهره بضربة سوط أليمة ، لأن راسكولنيكوف لم ينتبه الى تحذيراته التى كررها ثلاث مرات أو أربعاً فكادت تدوسه خيول العربة . وقد أخرجته هذه الضربة عن طوره ، فغضب غضباً بلغ من الشدة أنه صرف بأسنانه ، ووثب الى الافريز (لقد كان يمشى فى وسط الجسر لا حيث يمشى المشاة ، لا يدرى المرء لماذا !). فانطلقت من حوله الضحكات والتعليقات :

ــ عظيم !

ــ لا بد أن يكون مجنوناً !

ــ حيلة معروفة : يتظاهرون بالسكر ويرتمون عامدين تحت العجلات ليبتزوا تعويضاً !

ــ من هذا يعيشون يا أصدقائى ، هذا مصدر رزقهم !

ولكن فى تلك اللحظة التى رأى فيها راسكولنيكوف نفسه قرب الافريز آخذاً يحك ظهره ، متابعاً بنظرته المشدوهة الحانقة ، ابتعاد العربة ، أحس فجأة بأن أحداً يدس مالاً فى يده . فنظر فرأى أمامه سيدة متقدمة فى السن قليلاً ــ أغلب الظن أنها زوجة تاجر ــ على رأسها قلنسوة من نسيج ، وقدماها فى حذاءين كبيرين ، ومعها فتاة تلبس قبعة وتحمل بيدها شمسية خضراء ، ولعلها بنتها . قالت له السيدة وهى تدس المال فى يده : « خذ هذا يا صاحبى من مال الله . . » . أخذ راسكولنيكوف الصدقة ، وتابعت المرأتان طريقهما . وكانت الصدقة قطعة نقد فضية قيمتها عشرون كوبكاً . لا شك أنهما ظنتا من زيه الغريب ومظهره الزرى أنه شحاذ محترف . أما العشرون كوبكاً ــ وهى مبلغ ضخم بالقياس الى صدقة ــ فأغلب الظن أنهما أنعمتا بها عليه بسبب ضربة السوط التى أثارت شفقتهما .

قبض راسكولنيكوف على قطعة النقد بيده ، وسار عشر خطوات ، ثم التفت يواجه نهر نيفا فى اتجاه « القصر » . كانت السماء صافية لا يعكرها سحاب ، وكان الماء أزرق اللون تقريباً ، وذلك ما لا يتفق الا فى القليل النادر . وكانت قبة الكاتدرائية * ، التى لا تبرز هذا البروز الا حين ينظر اليها من هذا المكان من الجسر ، كانت متألقة ساطعة ، وكان

الناظر اليها يستطيع ، بفضل شفافية الهواء ، أن يميّز أدق زخارفها .
هدأ ألم راسكولنيكوف ، ونسي ضربة السوط التي هوى بها الحوذي على ظهره . ان فكرةً بقلقة مضطربة تشغل الآن ذهنه كله . حدّق ملياً الى هذه الأماكن التي كانت مألوفة له . لقد حدث له في الماضي ، حين كان ما يزال يتردد الى الجامعة * ، حدث له مراراً كثيرة قد تُعدُّ بالمئات، ولا سيما أثناء عودته الى بيته ، أن وقف في هذا المكان نفسه ، فأخذ يتأمل المشهد الرائع ، فكان يُدهش دائماً من الأثر المبهم الذي يحدثه هذا المشهد في نفسه . لقد كان دائماً ، بعد أن يتأمل هذا المشهد ، يشعر بعاطفة برود غريبة . كان هذا المشهد الفخم يبدو له خالياً من الروح ، يبدو له أخرس عقيماً ... وكان راسكولنيكوف يُدهش في كل مرة من الاحساس القاتم الملغز الذي يشعر به ، وكان لشكّه في نفسه يرجيء دائماً شرح أسباب ذلك لنفسه . وقد تذكر الآن فجأةً ، بدقة حادة ، جميع المسائل التي هاجمته وحاصرته ، فبدا له أنه لا يتذكر هذا كله مصادفةً . ان مجرد توقفه في هذا المكان نفسه الذي كان يتوقف فيه سابقاً قد بدا له غريباً مضحكاً . أكان يظن حقاً أنه ما يزال يستطيع أن يفكر في نفس الأمور وأن يهتم بنفس المشاهد وأن يعنى بنفس الموضوعات التي كانت تستهويه في الماضي وفي الآونة الأخيرة أيضاً ؟ أوشك راسكولنيكوف أن ينفجر ضاحكاً . ولكن قلبه قد انقبض في الوقت نفسه انقباضاً يبلغ درجة العذاب . بدا له أن ماضيه كله ، وأفكاره كلها ، وجميع المسائل والعواطف التي كان يعالجها في الماضي ، ترقد الآن في أسفل ، تحت قدميه ، في قرارة هوةٍ سحيقة لا نهاية لها ... وأن هذا المشهد نفسه ، وأنه هو ذاته ، وأن كل شيء ... كل شيء يطير الى مكان ما في الأعالي . كان يبدو له أن كل شيء يختفي ويزول ويغيب ... نعم ، كل شيء !...

وعلى اثر حركة غير ارادية أحسّ بقطعة النقد الفضية مشدودة بقبضته ، فبسط يده وتأمل قطعة النقد ملياً ، ثم رماها في الماء بحركة يسيرة ، ثم استدار على عقبيه وعاد يسير في طريق بيته . كان يحس في تلك اللحظة أنه قطع بالمقص كل صلة بينه وبين العالم .

ولم يرجع الى بيته الا عند هبوط الليل ؟ أي انه ظل يسير ست ساعات كاملة . ولو سألته عن الطرق التي سلكها لما استطاع أن يجيبك بشيء .

خلع ثيابه وهو يرتجف ارتجاف حصان عاجز ، ثم استلقى على الأريكة ، وغطى نفسه بمعطفه ، فلم يلبث أن غاب عن شعوره .

وأفاق في وسط ظلام كامل ، حين أيقظته صرخة كريهة ! ماهذه الصرخة يا رب ! لم يسبق له في يوم من الأيام أن سمع جلبة رهيبة بشعة الى هذا الحد : عويل ، ونشيج ، وصريف أسنان ، وصرخات ، وشتائم لا يتصورها العقل ! ما كان له أن يتخيل همجية كهذه الهمجية ، ووحشية كهذه الوحشية ! انتصب على أريكته مروّعاً مهدود القلب . ولكن التشاجر والصخب والشتائم ما تنفك تقوى وتشتد . وها هو ذا يتعرف صوت صاحبة البيت فجأةً ، فيصاب بدهشة كبيرة وذهول شديد . كانت تعول وتئن وتصيت وتتضرع ، وتشوه الألفاظ حتى ليستحيل على المرء أن يدرك جملة واحدة من كلامها . لعلها كانت تبتهل الى من يضربها أن يكف عن ضربها ؟ ذلك أن أحداً كان يضربها على السلم ، نعم ... ان أحداً يضربها هنالك ضرباً مبرّحاً بلا شفقة ولا رحمة . وهذا صوت الرجل الذي يضربها قد بلغ من شدة الغضب والحنق والهول أنه أصبح نوعاً من صراخ أبح . كان هذا الرجل يقول كلاماً ، ولكن كلامه هو أيضاً كان لا يُفهم من فرط سرعته واختناقه ! ... وأخذ راسكولنيكوف يرتجف على حين بغتة : تعرّف صوت

الرجل • انه صوت ايليا بتروفتش • ماذا ؟ ايليا بتروفتش هنا ، يضرب صاحبة البيت ؟ نعم ، انه يضربها بقدمه ، ويطرق برأسها درجة السلم : هذا واضح ، تدل عليـه الضجات والصرخات والضربات ، ولا تخطىء في الدلالة عليه • ماذا جرى اذن ؟ هل انقلب العالم عاليه سافله ؟ وهذا راسكولنيكوف يسـمع في جميع الطوابق ، من أعلى السلّم الى أدناه ، أصوات جمهور من الناس يحتشد صارخاً صائحاً • أناس يصعدون ، وأناس ينزلون ، والجلبة تزداد ، والأبواب تقرقع ••• وأناسٌ آخرون يهرعون مسرعين • « لماذا ؟ لماذا ؟ أهذا ممكن ؟ » • كذلك كان يتساءل راسكولنيكوف وهو يعتقد صادقاً بأنه قد أصبح مجنوناً ، ولكن لا ، انه ما يزال يسمع ذلك كله واضحاً كل الوضوح ••• لا بد اذن أنهم آتون اليه أيضاً ، « لأن ••• نعم ••• لأن كل شيء يرجع ••• الى أنني••• بالأمس ••• قد ••• رباه ! » • أراد أن يغلق الباب بالكلابة ، ولكن يده رفضت أن تطيعه ، ولو قد أغلق الباب بالكلابة لما أجداه ذلك شيئاً من جهة أخرى • لقد كان الخوف يطوّق نفسه كدرع من جليد ، ويعذبه ويشلُّه ••• ولكن ها هي ذي الجلبـة كلها تهدأ رويداً رويداً بعد أن دامت ست دقائق طويلة ••• ان صاحبة البيت تئن الآن وتتنهد • أما ايليا بتروفتش فاستمر يهـدّد ويتوعد ويشتم ••• وبدا أخيراً أنه هدأ هو أيضاً ، ثم أصبح صوته لا يُسمع البتة • « أتراه انصرف ؟ يا رب ! » • نعم ، لقد انصرف • وهذه صاحبة البيت تنصرف أيضاً وهي ما تزال تئن وتبكي • هذا بابها يُغلق مقرقعاً ••• هؤلاء هم النـاس يتفرقون جميعاً فيعود كل منهم الى مسكنه ••• انهم يصيحون ويتناقشون ويستوضحون تارةً بأصوات قوية جداً (توشـك أن تكون صراخاً) وتارة بأصـوات خافتة جداً (توشك أن تكون همساً) ••• لا شك أن عددهم كبير جداً

يكاد يضم جميع سكان المنزل • تساءل راسكولنيكوف : « رباه ! أهذا كله ممكن ؟ ولماذا ، لماذا جاء الى هنا ؟ » •

تهالك راسكولنيكوف على أريكته من جديد ، ولكن جفنه لم يعرف الى الغمض سبيلاً بعد ذلك • ولبث راقداً هذا الرقاد مدة نصف ساعة وهو يعاني عذاباً ورعباً أكبر من كل ما عرف في حياته من عذاب ورعب • وهذا ضياء شديد ينير غرفته فجأة • لقد دخلت عليه ناستاسيا مع شمعة وطبق حساء • فلما نظرت اليه ملياً فعرفت أنه ليس نائماً ، وضعت الشمعة على المنضدة ، وأخذت ترتّب على المائدة ما كانت تحمله اليه : خبزاً ، وملحاً ، وصحناً ، وملعقة •

قالت :

ـ لم يأكل شيئاً منذ أمس ! ظل يتسكع هنا وهناك طوال الليل ، وهذه حمى شديدة تنتابه الآن !

قال راسكولنيكوف لناستاسيا :

ـ ناستاسيا ، لماذا ضربوا صاحبة البيت ؟

فأجابته وهي تنظر اليه مبهوتة :

ـ من ضرب صاحبة البيت ؟

ـ منذ قليل ، منذ نصف ساعة ••• ضربها ايليا بتروفتش مساعد مفوض الشرطة ، هنا ، في السلم ••• لماذا ضربها هذا الضرب ؟••• ولماذا جاء ؟•••

تفرست فيه ناستاسيا صامتة مقطبة مدة طويلة • لقد آلمها هذا ، ثم شعرت بخوف •

سألها راسكولنيكوف وجلاً ، بصوت واهن :

ـ ناستاسيا ، لماذا تصمتين ؟

فقالت تجيبه بعد لحظة بصوت خافت كأنها تكلم نفسها :

ـ هو الدم ؟

ـ الدم ؟ أي دم ؟

كذلك تمتم وقد اصفر وجهه وأخذ يتقهقر فليتصق بالحائط . فأخذت ناستاسيا تنظر اليه صامتةً من جديد . ثم قالت بعد لحظة بلهجة قاسية واثقة :

ـ لم يضرب أحد صاحبة البيت .

فنظر اليها وهو لا يكاد يتنفس ، وقال لها بمزيد من الوجل :

ـ سمعت الجلبة بنفسى ... لم أكن نائماً ... جاء مساعد مفوض الشرطة ... وخرج الجميع من بيوتهم ، وهرعوا الى السلم .

ـ لم يجيء أحد . الدم هو الذى يصرخ فيك . حين لا يجد الدم مخرجاً فيأخذ يسدُّ الكبد ، تتراءى للمرء عندئذ رؤى ... أتريد أن تأكل أم لا ؟

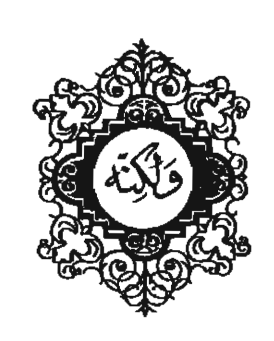
لم يجب راسكولنيكوف . وظلت ناستاسيا واقفةً الى جانبه ، لا تتكلم ، وما تزال تتفرس فيه .

ـ اسقينى يا ناستاسينكا ...

نزلت ناستاسيا ، ثم عادت بعد دقيقتين تحمل جرةً صغيرة من الفخار الأبيض فيها ماء .

لا يتذكر راسكولنيكوف ما جرى بعد ذلك . كل ما يتذكره هو أنه شرب جرعة من ماء بارد ، وأنه قلب ماء الجرة على صدره . ثم أغمى عليه .

الفصل الثالث



لم يفقد وعيه كله طوال مدة مرضه • كان يعاني حالة حمى مصحوبة بهديان ، ولكن هذه الحالة قد تركت له نصف وعي • وقد تذكر بعد ذلك أشياء كثيرة •

كان يتراءى له تارةً أن أناساً كثيرين قد احتشدوا حوله ، وأنهم يريدون أن يأخذوه ، أن ينقلوه الى مكانٍ ما ، وأنهم يتناقشون ويشتجرون في أمره • وكان تارة أخرى يجد نفسه وحيداً في غرفته على حين فجأة : فقد ذهبَ الناس جميعاً لأنهم خافوا منه ، فهم يشقون الباب من حين الى حين لينظروا اليه ، وليهدّدوه ؛ وهم يتآمرون عليه ، ويضحكون منه ، ويزدرونه ، ويستفزونه •

وقد تذكر راسكولنيكوف أنه رأى ناستاسيا ساهرةً عليه قرب سريره مراراً • واستطاع كذلك أن يميِّز رجلاً لا بد أنه كان يعرفه جيداً ، ولكنه لا يملك أن يقول من هو هذا الرجل على وجه التحديد • وكان ذلك يحزنه ويؤلمه ، حتى لقد كان يبكي • وكان يتراءى له في بعض الأحيان أنه راقد في سريره منذ شهر ، وكان يتراءى له في أحيان أخرى أن هذه المدة كلها يوم واحد يتصل ويستمر • ولكن ما باله نسي « ذلك الأمر » ، ما باله نسي « ذلك الأمر » نسياناً تاماً ! على أنه كان يتذكر في كل لحظة أنه قد نسي شيئاً لا يجوز له أن ينساه • وكان

عندئذ يبذل جهداً كبيراً من أجل أن يتذكر ، ويتعذب ويئن ، ثم اذا هو يستولى عليه حنق مسعور أو يستبد به ذعر شديد ، فينهض عن أريكته ، ويحاول أن يهرب ، غير أن أحد الناس يمنعه من ذلك بالقوة ، فيهوى الى ضعفه من جديد ، ويغيب عنه شعوره مرةً أخرى • ثم عاد اليه وعيه تماماً •

حدث ذلك في الساعة العاشرة من أحد الاصباح • كانت الشمس فى مثل تلك الساعة من أيام الصحو يسقط منها شعاع طويل على الجدار الأيمن من غرفته ، ويضيء الركن القريب من الباب • هذه ناستاسيا واقفة قرب سريره ، وهذا شخص آخر يتفرس فيه بكثير من الاستطلاع ، رجل لا يتذكر راسكولنيكوف أنه رآه قبل اليوم قط • هو فتى يرتدى قفطاناً ، وله لحية صغيرة ، وتدل هيئته على أنه مستخدم فى محل تجارى • ومن خلال الباب المشقوق ، تنظر صاحبة البيت •

نهض راسكولنيكوف ، وسأل وهو يومىء الى الشاب :

ـ من هذا يا ناستاسيا ؟

قالت ناستاسيا :

ـ صحا من غيبوبته !

فأمَّن المستخدم على كلامها قائلاً :

ـ نعم ، صحا !

وكانت صاحبة البيت تنظر من خلال شق الباب ، ففهمت أن راسكولنيكوف صحا من غيبوبته ، فأغلقت الباب مسرعةً وغابت • ان هذه المرأة كانت دائماً خجولة ، لا تطيق النقاش والعتاب • هى فى نحو الأربعين من عمرها ، لها حاجبان سوداوان ، وعينان سوداوان ، وهى بدينة سمينة ، ولعلها طيبة بسبب هذه السمنة ، وبسبب كسلها أيضاً ؛

وانها لتمتاز بكثير من البشاشة على كل حال ، ولكنها مفرطة فى العفة ...

عاد راسكولنيكوف يسأل من جديد ، وهو يتجه بسؤاله الى المستخدم رأساً :

ـ من ... أنت ؟

ولكن الباب فُتح فى تلك اللحظة واسعاً ، ودخل رازوميخين منحنياً بسبب طول قامته . وهتف يقول وهو يدخل :

ـ مسكنك هذا يشبه أن يكون حجرةً فى سفينة . أهذا مسكن ؟ لا يدخله المرء مرةً الا ويصطدم جبينه ! اذن لقد أفقت من غيبوبتك يا صاحبى ، هه ؟ أحسنت صنعاً .. لقد أعلمتنى باشنكا * منذ هنيهة أنك أفقت ...

قالت ناستاسيا :

ـ نعم ، أفاق الآن .

وردَّد المستخدم قائلاً وهو يبتسم ابتسامةً خفيفة :

ـ نعم ، أفاق الآن ...

سأل رازوميخين وهو يتجه الى المستخدم فجأة :

ـ ولكن ... من أنت ؟ أنا ، مثلاً ، اسمى فرازوميخين ، لا رازوميخين كما اعتاد الناس أن يسمونى ، بل فرازوميخين ... وأنا ابن رجل من السادة . ولكن ، أنت ، من أنت ؟

ـ أنا مستخدم فى محل التاجر شيلوبايف ، وقد جئت هنا لأعمال.

ـ هلاَّ تفضلت فجلست على هذا الكرسى !

قال رازوميخين ذلك وجلس على كرسى آخر فى الجهة الأخرى من المائدة . وتابع كلامه يخاطب راسكولنيكوف :

ـ أحسنت صنعاً يا عزيزى بالصحو من غيبوبتك . فانك منذ اربعة أيام لم تطعم شيئاً ، غير قليل من الشـاى جُرِّعته بالملعقة . وقد جئتك بزوسيموف مرتين . هل تتذكر زوسيموف ؟ فحصك بكثير من الاهتمام والانتبـاه ، ثم قال انك سـليم معافى ، الا من ضربة أصابت رأسـك . وأضاف ان الأمر لا يعدو أن يكون انزعاجا عصبياً بسيطاً مردُّه الى سوء التغذية. فقد كنت فى حاجة الى بيرة وفجل ، فلما حُرمت منهما مرضت. ولكنه يؤكد أن ذلك كله سينقضى بسرعة ، وأنك سـتبرأ فى القـريب أحسن مايكون البرء . يا له من رجل لامع ، زوسيموف هذا . لقد نجح نجاحاً فائقاً منذ الآن .

ثم أضاف رازوميخين يخاطب المستخدم من جديد :

ـ لا نريد أن نؤخرك . هلاَّ تفضلت فذكرت لنا غرضك من هذه الزيارة !

وتابع يكلم راسكولنيكوف :

ـ لاحظ يا روديا أن هذه هى المرة الثانية التى يوفد فيها مكتبهم مندوباً . ولكن مندوبهم فى المرة الماضية لم يكن هذا الشاب ، بل كان رجلاً آخر ، ومع ذلك الرجل الآخر انما تباحثنا .

وعاد يسأل المستخدم قائلاً :

ـ من ذلك الذى جاء فى المرة الماضية ؟

فأجابه المستخدم :

ـ لا شـك أنك تقصـد الذى جـاء منـذ ثلاثة أيام . انه ألكسى سيميونوفتش . هو يعمل فى المحل أيضاً .

ـ أرى أنه أبرع منك . ما رأيك ؟

ـ نعم ، انه أكثر وقاراً ؟

ـ أهنئك ! طيب ، أكمل !

بدأ المستخدم كلامه مخاطباً راسكولنيكوف مباشرة :

ـ اليك الموضوع : بواسطة أتانازى ايفانوفتش فاخروشين الذى أرجو أن تكون قد سمعت عنه ، وبطلبٍ من السيدة والدتك ، وصلت الى مكتبنا حوالة مالية لك ؛ فاذا كنت في حالة تمكنك من الفهم ، فسوف أدفع لك مبلغ خمسة وثلاثين روبلاً تلقاها سيميون سيميونوفتش من آتانازى ايفانوفتش بناءً على طلب من السيدة والدتك . هل أُبلغت هذا الأمر ...

قال راسكولنيكوف حالماً مفكراً :

ـ نعم ، أذكر ... فاخروشين ...

هتف رازوميخين يقول :

ـ هل سمعت ؟ انه يعرف التاجر فاخروشين ، فكيف لا يكون فى حالة تمكنه من الفهم ؟ ثم اننى ألاحظ أنك رجل عاقل ، فهيًا أكمل حديثك . انه ليحلو للمرء دائماً أن يسمع أقوال رجل عاقل .

فتابع المستخدم كلامه فقال :

ـ نعم ، ان فاخروشين هذا نفسه ، أتانازى ايفانوفتش فاخروشين، لم يتردد ، حين طلبت منك أمك ذلك ـ وهى التى أوصلت اليك بواسطته، فى مرة سابقة ، مبلغاً من المال ـ لم يتردد فى هذه المرة أيضاً أن يكتب الى سيميون سيميونوفتش طالباً منه أن يدفع لك مبلغ خمسة وثلاثين روبلاً ، بانتظار أن يدفع لك أكثر من ذلك فى المستقبل .

ـ عيناً ان قولك « بانتظار ان يدفع لك أكثر من ذلك فى المستقبل»

هى خير ما خـرج من فمـك • ولا بأس كذلك فى قولك « السـيدة والدتك » • ما رأيك الآن ؟ أهو يملك شعوره كاملاً أم لا ؟

ـ أتمنى ذلك ••• كل ما أريده هو أن يعطينى ايصـالاً صغيراً يشهد باستلامه المبلغ •

ـ سيكتب لك الايصال فوراً • ما هذا الذى معك ؟ أهو سجل ؟

ـ نعم ، سجل •

ـ هاته • هيَّا يا روديا ! انهض قليلاً • سأسندك • وقِّع له اسمك دفعةً واحـدة • خـذ القلم يا صاحبى ، لأن حاجتنا الى المال ماسـة ، ماسة •••

قال راسكولنيكوف وهو يدفع القلم :

ـ لستُ فى حاجة •••

ـ لستَ فى حاجة الى ماذا ؟

ـ لن أوقِّع •

ـ ولكن كيف يمكن أن ••• بغير توقيع •••

ـ لستُ فى حاجة الى مال •

ـ لستَ فى حاجة الى مال ؟ ألا انك لتكذب يا عزيزى • أنا شاهد على أنك تكذب •

قال رازوميخين ذلك ، والتفت يخاطب الشاب :

ـ لا تقلق ، أرجوك ••• هو يقول هذا ، ولكنه يهذى ••• من جديد ••• ثم انه يتفق له أن يهذى فى الحالة الطبيعية ••• أنا أعرفه• وأنت رجل شريف • ليس علينا اذن الا أن نرشده ، أو قل أن نرشد يده ، فيوقِّع • هيَّا ، ساعدنى !

ـ يمكنني أن أرجع مرةً أخرى .

ـ لا ، لا ، لماذا تزعج نفسك مرةً أخرى ؟ أنت رجل عاقل ... هلمَّ يا روديا ، لا تؤخر ضيفنا ... أنت ترى أنه ينتظر منذ مدة .

قال رازوميخين ذلك وتهيأ ، جاداً كل الجد ، لأن يقود يد راسكولنيكوف . فقال له راسكولنيكوف :

ـ دع عنك . سأوقّع بنفسي .

وتناول القلم ، ووقّع .

فدفع له المستخدم المال ، وخرج .

ـ مرحى ! والآن يا عزيزي ، ستأكل ! هه ؟

ـ نعم سآكل !...

قال رازوميخين يسأل ناستاسيا التي لبثت هناك طوال تلك المدة :

ـ هل عندكم حساء ؟

ـ نعم ، عندنا حساء من أمس .

ـ أهو حساء بالرز والبطاطس ؟

ـ بالرز والبطاطس .

ـ قدّرت ذلك . هاتي الحساء ، وأتينا بشاي !

ـ حالاً !

نظر راسكولنيكوف حواليه مخبولاً . لقد قرر أن يصمت وأن ينتظر تتمة الأحداث . قال يحدث نفسه : « يخيَّل اليَّ أنني لا أهذي الآن . يخيل اليَّ أنني لا أهذي الآن . يخيل اليَّ أن هذا كله واقع وليس أضغاث أحلام ! » .

وبعد دقيقتين عادت ناستاسيا بالحساء ، وأعلنت أن الشاي سيكون

مهيأً بعد قليل • وبعد الحساء ظهرت ملعقتان وجميع أدوات المائدة : وعاء الملح ، ووعاء الفلفل ، ووعاء الخردل لتطييب المرق ، الخ • ان مثل هذا الترتيب الدقيق لم يُراعَ منذ مدة طويلة • وكان غطاء المائدة نظيفاً•

قال رازوميخين :

ــ لا بأس ، يا ناستاسيوشكا ، فى أن ترسل الينا براسكوفيا بافلوفنا زجاجتين صغيرتين من البيرة • سوف يسرنا أن نشربهما •

فقالت ناستاسيا وهى تمضى لتنفيذ الأوامر :

ــ انك لتحب المسرات !

وكان راسكولنيكوف ما يزال ينظر حواليه زائغ الهيئة مشدود الانتباه • وفى أثناء ذلك الوقت كان رازوميخين الذى جلس الى جانبه على الأريكة ، ينُهض رأسه بيده اليسرى ، بخراقة كخراقة الدب ، ويحمل الى فمه باليد اليمنى معلقة من الحساء بعد أن ينفخ عليها عدة مرات حتى لا يحترق بها فم صاحبه • وكان الحساء فى الواقع فاتراً غير ساخن •

التهم راسكولنيكوف ملعقة أولى ، فملعقة ثانية ، فملعقة ثالثة ، بشراهة ونهم • فلم يلبث رازوميين أن توقف عن اطعامه قائلاً ان من الواجب أن يُستشار فى ذلك زوسيموف أولاً •

ودخلت ناستاسيا تحمل زجاجتى بيرة •

ــ هل تريد شيئاً من الشاى ؟

ــ نعم •

ــ هاتى لنا شاياً يا ناستاسيا ، فاننا فيما يتعلق بهذا الشراب ، أعنى الشاى ، نستطيع أن نستغنى عن صفات كلية الطب ! آ ••• هذه هى البيرة !

قال رازوميخين ذلك ، وعاد الى كرسيه ، وجذب اليه الحساء ، وأخذ يلتهم اللحم المسلوق ، كأنه لم يأكل منذ ثلاثة أيام . دمدم يقول بمقدار ما يتيح له فمه المملوء لحماً أن يتكلم :

ـ نعم يا روديا ، نعم يا صديقي القديم ، على هذا النحو انما أصبحت آكل الآن كل يوم فى منزلكم . ان صاحبة البيت باشنكا هى التى تكرمنا هذا التكريم . انها تحيطنى بكل أنواع العناية والرعاية . طبعاً أنا لا أطلب شيئاً ، ولكننى لا أرفض شيئاً كذلك ... هذه ناستاسيا وشايُها ! هي الرشاقة نفسها في صورة امرأة ! هل تريدين شيئاً من البيرة ياناستاسيا ؟

ـ مهرّج !

ـ وهل تريدين شيئاً من الشاى ؟

ـ الشاى ... لا أرفض الشاى !...

ـ اذن صبى لنفسك شيئاً . لا بل انتظرى ! سأخدمك أنا ، بنفسى . اجلسى الى المائدة .

قال رازوميخين ذلك وأسرع ينهمك فى صب الشاى ، فملأ فنجاناً ثانياً ، ثم ترك غداءه ، وعاد يجلس على الديوان . وكما فعل منذ قليل ، دسّ يده اليسرى تحت رأس المريض ، فأنهضه قليلاً ، وأشربه شايه بالملعقة ، نافخاً على كل ملعقة بكثير من العناية والاهتمام ، كأن سلامة المريض مرهونة بهذا النفخ . وكان راسكولنيكوف صامتاً لا يقاومه أية مقاومة ، رغم شعوره بأنه يملك من القوة ما يكفيه لأن يُنهض جسمه ، ولأن يبقى جالساً بغير مساعدة من أحد ، بل ولأن يستعمل يديه أيضاً ؟ حتى لقد مضى الى حد الاعتقاد أن فى وسعه أن يمشى اذا شاء . ولكنه بنوع من مكرٍ غريب ، مكرٍ يكاد يكون غريزياً ،

خطر بباله فجأة أن يخفي فواه ، بل وأن يتظاهر بغيبوبة تامة اذا لزم الأمر ، من أجل أن يتجسس خلال ذلك على ما يجرى حوله . غير أنه لم يستطع أن يتغلب على اشمئزازه : فبعد أن ابتلع نحو عشر ملاعق من الشاى ، سلّ رأسه ، ودفع الملعقة بنزوة طارئة ، وتهالك على الوسادة. ان رأسه يستريح الآن على وسادات حقيقية من ريش ، تجلّلها أغطية نظيفة . وقد لاحظ راسكولنيكوف ذلك واستغربه .

أعلن رازوميخين وهو يعود الى مكانه ويهجم على حسائه وبيرته من جديد :

ــ يجب على باشنكا أن ترسل الينا فى هذا اليوم نفسه شيئاً من مربّب التوت تصنع منه لمريضنا شراباً .

قالت ناستاسيا التى كانت تبسط صحن فنجانها على أصابعها الخمس المتباعدة ، وترشف شايها فيرشح « من خلال السكر » فى فمها :

ــ ولكن من أين عساها تأتى الآن بالتوت ؟

ــ التوت يا عزيزتى ستجده عند البقال . هل تعلم يا روديا ؟ لقد جرت هنا قصة لا تعرف عنها شيئاً ! حين هربت من عندى هروب وغد من الأوغاد ، دون أن تذكر لى عنوانك ، غضبتُ غضباً بلغ من الشدة أننى قررت فوراً أن أعثر عليك ... وأن أعاقبك ! وأخذت فى ذلك اليوم نفسه ألاحقك وأطاردك . آه ... يمكن أن يقال اننى ركضت وأزعجت الناس جميعاً لأهتدى اليك ... كنت قد نسيت عنوانك الحالى ، أو قل اننى ما نسيته لاننى ما كنت أعرفه أصلاً . أما «مسكنك» القديم ، فان كل ماكنت أذكره عنه هو أنه يقع فى مكان ما من « الأركان الخمسة » بعمارة تسمى «عمارة خارلاموف» ... والحق أن ذلك السيد ، صاحبَ العمارة ، لم يكن اسمه خارلاموف ، بل بوخ . فانظر كم لقيت من

عناء ! آه من أسماء الأعلام ! الخلاصة أنني غضبت غضباً شديداً ، غضباً بلغ من الشدة أنني ذهبت من الغد رأساً الى مكتب تسجيل العناوين : فاذا أنا أعرف منهم عنوانك فى غضون دقيقتين . نعم ، نعم ، انك مسجل عندهم !

ـ مسجَّل !

ـ نعم ، نعم ، مسجَّل . ومع ذلك لم يستطيعوا أن يعثروا على عنوان الجنرال كوبليف . لست أخترع شيئاً : لقد جرى هذا أمامى . هوه ! ما لنا نتوه فى التفاصيل !... على كل حال ، ما ان جئت الى هنا ، حتى كنت أعرف جميع شئونك ، نعم ، جميع شئونك ! يا صديقى أنا أعرف كل شىء . لقد أرَوْنى ايليا بتروفتش . وتعارفت مع نيكوديم فومتش ، والبواب ، والسيد زاميوتوف ، الكسندر جريجوريفتش زاميوتوف ، سكرتير قسم شرطة الحى ، وعرفت أخيراً باشنكا ... باشنكا ... انها زهرة من عرفتهم . ناستاسيا تعرف ذلك .

تمتمت ناستاسيا تقول وهى تضحك ضحكة ساخرة :

ـ عرف كيف يتملقها .

ـ عليك أن تضعى السكر فى فنجانك يا ناستاسيا نيكيفوروفنا !

صاحت ناستاسيا تقول وهى تنفجر ضاحكة :

ـ يا للحيوان !

ثم أضافت بعد أن انتهت نوبة الضحك :

ـ ليس اسمى نيكيفوروفنا بل بتروفنا .

قال لها رازوميخين :

ـ أحطنا علماً بذلك .

ثم استأنف كلامه مخاطباً راسكولنيكوف :

ـ هكذا يا صاحبي . لقد أردت أن أستعمل سائلاً كهربائياً من أجل أن استأصل ، دفعةً واحدة ، جميع الأوهام المعششة في هذه النواحي . ولكن باشنكا غلبتني . يا صديقي ، ما كنت لأتصور في يوم من الأيام أنها بشوش ... الى هذا الحد ... هه ؟ ما رأيك ؟

لم يجب راسكولنيكوف ، رغم أنه لم يحول بصره القلق عن رازوميخين في لحظة من اللحظات ، ورغم أنه ما يزال يحدّق اليه .

تابع رازوميخين كلامه فقال دون أن يظهر عليه أي استياء من صمت راسكولنيكوف :

ـ حتى ليمكن أن يقال انها انسانة ممتازة من جميع الجهات .

هتفت ناستاسيا تقول من جديد ، وقد بدا عليها أن هذه الحادثة تسرها سروراً عظيماً :

ـ يا له من حيوان !

ـ المصيبة يا صديقي أنك لم تعرف كيف تدبر أمرك منذ البداية. ان على المرء أن يتبع في معاملتها طريقة غير طريقتك . ان لها طبعاً... غريباً ! سنتكلم عن طبعها فيما بعد . ولكن كيف استطعت أن تُفسد أمورك معها الى الحد الذي انقطعت معه عن ارسال طعامك اليك ؟ وما قصة السند تلك ؟ يميناً انك لمجنون . كيف ترضى أن توقّع سندات ؟ ومشروع الزواج ذاك ، حين كانت ابنتها ناتاليا ياجوروفنا ما تزال على قيد الحياة ؟ انني أعلم كل شيء ! أنا أدرك أنني هنا أمسّ الوتر الحساس، وأنني حمار . معذرة ، معذرة . ولكن قل لي بمناسبة الحماقات ما رأيك:

ليست براسكوفيا بافلوفنا حمقاء الى الحد الذى قد يفترضه المرء من أول نظرة ، أليس كذلك ؟

قال راسكولنيكوف بأطراف شفتيه ، مشيحاً بوجهه ، مدركاً مع ذلك أن استمرار الحديث أفضل :

ـ نعم .

فهتف رازوميخين وقد أسعده اسعاداً واضحاً أنه حصل على جواب:

ـ أليس كذلك ؟ ولكنها ليست ذكية أيضاً ، هه ؟ ان لها طبعاً لا يتوقع أبداً . أنا ، على كل حال ، يحيّرنى هذا الطبع يا صاحبى . لا بد أنها فى الأربعين من عمرها ... هى تقول انها لم تتجاوز السادسة والثلاثين . هذا حق من حقوقها . على أننى (أحلف لك !) لا أحكم عليها الا من وجهة النظر الفكرية ، من وجهة النظر ... الميتافيزيقية وحدها . ان ما يقع بيننا يدخل فى نطاق الرمز . هو نوع من علم الجبر يا صاحبى ... لست أفهم من ذلك شيئاً . سخافات كل هذا ! ولكنها اذ رأت أنك لم تعد طالباً ، وأنك فقدت ما كنت تعطيه من دروس ، وأنك أصبحت لا تملك ما تدثر به ظهرك ، وأنها غدت منذ موت آنستها لا تستطيع أن تعدك عضواً فى الأسرة ، قد انتابها ذعر . واذ انك من جهتك انطويت على نفسك بدلاً من أن تعيش كما كنت تعيش فى الماضى ، فقد قام فى ذهنها أن تطردك . وكانت تفكر فى هذا المشروع منذ مدة ، ولكن السند كان يقلقها كثيراً ؛ ولما كنت قد أكدت لها أن أمك ستدفع ...

ـ قلت لها ذلك حقارةً منى ... ان أمى توشك أن تستجدى أكف الناس ... لقد كذبت عليها لأجبرها على أن تحتفظ بى وأن تطعمنى ...

قال راسكولنيكوف ذلك بصوت عالٍ واضح .

أجابه رازوميخين :

ـ نعم ، ولقد تصرفت عندئذ تصرفاً فيه تعقل وحكمة . ولكن المشكلة هي أنه في تلك اللحظة ظهر السيد تشيباروف ، وهو مستشار قضائي ورجل من رجال الأعمال ؛ فلولا هذا الرجل لما خطر ببال باشنكا ، وهي المرأة الخجول ، أن تتخذ أي اجراء . ولكن رجل الأعمال لا يملك هذا الخجل ، فكان أول سؤال ألقاه طبعاً هو هذا السؤال : هل هناك أمل في قبض قيمة السند . وكان الجواب بنعم ، لأن هناك أماً لها معاش مقداره مائة وعشرون روبلاً ، فلن تضن على ابنها رودنكا باخراجه من المأزق ولو اضطرها ذلك الى حرمان نفسها من الطعام ، ولأن هناك أختاً حنوناً سوف ترضى بأن تبيع نفسها عبدةً في سبيل انقاذ أخيها الحبيب . على هذا اعتمد الرجل . ما بالك تضطرب هذا الاضطراب ؟ هأنت ذا ترى يا صاحبي أنني أعرف الآن قصتك ، أعرفها من ألفها الى يائها . لم يذهب سدى ما أفضيت به الى باشنكا من مسرّات حين كنت ما تزال تعد نفسك ... ولئن كنت أقول لك هذا الكلام ، فلأنني صديقك . اسمع اذن ما حدث : حين يسترسل الانسان الشريف الحسّاس في مسرّات حميمة ، فان رجل الأعمال يجلس الى منضدته وينهمك في الحساب ليخرج بمنفعة . وهكذا تنازلت باشنكا عن السند لتشيباروف ، فلم يتورع تشيباروف هذا عن المطالبة بقيمة السند . وحين علمت أنا بهذا كله ، أردت أن أتدخل في الأمر فأرسل سائلي الكهربائي اليه هو أيضاً . ولكن الانسجام قام بيني وبين باشنكا أثناء ذلك ، فأوقفت القضية كلها ، وقضيت عليها في مهدها ، اذ كفلت أن تدفع المبلغ . لقد أصبحت كفيلك يا صاحبي ، هل تسمع ؟ واستدعينا تشيباروف ، فدسسنا في فمه عشرة روبلات ، فرد السند الذي يشرفني ، يا سيدي ، أن أقدمه

اليك . لن تطالب بعد الآن بسند ، بل ستُصدّق على عهد الشرف وحده. خذ السند . هلاّ أخذت السند ؟ لقد مزقته قليلاً ، كما يجب أن أفعل ...

وضع رازوميخين السند على المائدة . فألقى راسكولنيكوف عليه نظرة سريعة ، ثم التفت الى جهة الحائط دون أن يقول شيئاً ؛ فاستاء رازوميخين من ذلك ، وقال بعد دقيقة :

ـ أرى يا صاحبي أنني كنت غبياً مرة أخرى . لقد ظننت أنني بثرثراتي سأسرّي عنك وأسلّيك ، وهأناذا ألاحظ الآن أنني لم أزد على أن حركت غضبك !

ـ أأنت الشخص الذي كنت أثناء هذياني لا أتعرفه ؟

كذلك سأله راسكولنيكوف بعد أن صمت خلال دقيقة هو أيضاً ، ودون أن يلتفت اليه . فأجاب رازوميخين :

ـ نعم أنا ، حتى ان حضوري قد سبب لك بعض النوبات ، ولاسيما حين جئت اليك بزاميوتوف .

فالتفت راسكولنيكوف فجأة بعنف ، وحدّق الى رازوميخين سائلا :

ـ زاميوتوف ؟ سكرتير مفوض الشرطة ؟

ـ ولكن ماذا دهاك ؟ لماذا تضطرب هذا الاضطراب ؟ لقد أراد أن يتعرف اليك ... وانما أراد ذلك لأننا تحدثنا عنك كثيراً . وكيف كان يمكنني ، لولاه ، أن أعرف هذه الأشياء كلها عنك ؟ انه رجل شهم ، رائع ... في نوعه طبعاً . ونحن الآن صديقان ، نلتقي كل يوم تقريباً . ذلك أنني سكنت في مكان قريب . ألم تعرف ذلك بعد ؟ نعم ،

انتقلت منذ برهة وجيزة . وقد ذهبنا معاً الى لويزا مرتين أو ثلاث مرات . أتتذكر لويزا ايفانوفنا ؟

ـ هل كنت أهذى ؟

ـ أظن ذلك ! كنتَ غيرَ نفسك !

ـ وماذا كنتُ أقول ؟

ـ ماذا كنتَ تقول ؟ هه ... معروف ماذا يمكن أن يقول رجلٌ يهذى . والآن ، يا صاحبى ، لم يبق لنا وقت تضيعه . الى العمل !

ـ ماذا كنتُ أقول !

ـ ما باله يصر ؟ أتراه يخشى أن يكون قد فضح سراً من الأسرار ؟ لا تقلق اذن . لم يُفلِت منك كلام فى حق السيدة الكونتيسة . ولكنك تكلمت كثيراً عن كلب حراسة من نوع « البولدوج » ، وتكلمت عن أقراط أذن ، وعن سلاسل ذهبية ، وعن جزيرة كريستوفسكى ، وعن بوابٍ ما ، وتكلمت أيضاً عن نيكوديم فومتش وايليا بتروفتش مساعد مفوَّض الشرطة . ثم انك يا سيدى قد اهتممت اهتماماً عظيماً بجوربك، فكنت تنتحب قائلاً : « أعطونى جوربى. اسرعوا. اعطونى جوربى ! ». فبادر زاميوتوف بنفسه يبحث لك عنه فى كل ركن من الأركان ، حتى اذا وجده ، حتى اذا وجد تلك القاذورة حملها اليك بيديه ، بيديه البيضاوين المعطَّرتين المجللتين بالخواتم . عندئذ هدأ روعك ، ثم ظللت قابضاً بيديك على تلك القاذورة أربعاً وعشرين ساعة ، لا يستطيع أحد أن ينتزعها منك . لا بد أنها ما تزال فى مكان ما تحت غطائك ! وكنت تطالب أيضاً بقصاصات سروالك ، حتى لقد كنت تبكى وأنت تطالب بتلك القصاصات . تساءلنا أية قصاصات تعنى ، ولكن كان الأفضل أن لانحاول أن نفهم . والآن كفى كلاماً ، ولنبادر الى العمل . هذه خمسة وثلاثين

روبلاً . انني آخذ منها عشرة ، وسأعود اليك بالحساب بعد ساعتين . وفي أثناء هذا الوقت أكون قد أبلغت زوسيموف ، الذي كان ينبغي أن يكون هنا منذ مدة طويلة ، لأن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة . وأنت يا ناستاسيا ، هل لك أن تعني به اثناء غيابي ! أعطيه ما يشربه ، أو أعطيه شيئاً آخر اذا هو رغب في ذلك . أما باشنكا فسوف أقول لها فوراً مايجب عمله . الى اللقاء !

قالت ناستاسيا منذ خرج :

ـ انه يدعوها باشنكا ! آه ! يا للماكر !

ثم فتحت الباب وأصاخت بسمعها ، ثم لم تطق صبراً فهرولت تهبط . انها تحترق سوقاً الى معرفة ما قد يقوله رازوميخين لمولاتها . وفي وسعنا أن نقول بوجه عام انها كانت مفتتنة برازوميخين افتتاناً واضحاً.

فما ان أغلقت وراءها الباب حتى رمى المريض غطاءه ، ووثب عن السرير كالمجنون . كانت قد انتظر خروجهما نافدَ الصبر الى حد الاحتراق والتشنج ، ليباشر العمل بأقصى سرعة . ولكن ما هو هذا العمل الذي يريد أن يقوم به ؟ ها هو ذا قد أصبح ، كأنما على عمد ، لا يعرف ماذا كان يريد أن يعمل !

« رباه ! قل لي شيئاً واحداً يا رب : أهم يعرفون أم هم لا يعرفون بعد ؟ أهم يعرفون منذ الآن كل شيء ولكنهم يتظاهرون بأنهم لا يعرفون شيئاً ؟ أكانوا يعبثون بي بينما أنا راقدٌ هنا ؟ أتراهم سيدخلون عليَّ فجأة ليقولوا انهم يعرفون كل شيء منذ مدة طويلة ، ولكنهم تظاهروا بالجهل عامدين ؟... ما العمل الآن ؟ هأنذا نسيت ما يجب أن أعمله ، كأنما على عمد ! هأنذا نسيته مع أنني كنت أتذكره منذ قليل ... » .

ظل راسكولنيكوف واقفاً في وسط الغرفة ينظر فيما حوله حائراً

حيرةً أليمة . ثم اقترب من الباب ، ففتحه وأخذ يتنصت ؛ ولكن ليس هذا ما كان يريد ان يعمله . وكأنه تذكر على حين فجأة ، فاذا هو يهرع نحو الركن ، حيث يوجد ثقب تحت ورق الجدار . أخذ يفتش هنالك باتنباه ، وادخل يده فى الثقب يتلمسه ، ولكن هذا ليس ما كان يريد أن يعمله أيضاً .. فاتجه عندئذ نحو المدفأة ، ففتحها ، ونبش رمادها ، فعثر على قصاصات السروال ومزق الجيب المنتزع كما كانت حين رماها فى هذا المكان . اذن لم ينظر أحد فى المدفأة . وعندئذ تذكر الجورب الذى جاء رازوميخين على ذكره منذ قليل . ان ما قاله رازوميخين صحيح . ان الجورب موجود تحت الغطاء فعلاً ، ولكنه بلغ من الاتساخ ومن الاهتراء بالحك أن زاميوتوف لا يمكن أن يكون قد لاحظ فيه شيئاً البتة .

« نعم ، زاميوتوف !... قسم الشرطة ! ولكن لماذا استدعى الى قسم الشرطة ؟ أين كتاب الاستدعاء ؟ هوه ! اننى أخلط ! لقد استدعيت الى قسم الشرطة فى يوم ماضٍ ! وكنت حينذاك أدقق النظر فى الجورب. والآن ... والآن ... لقد كنت مريضاً ... لماذا جاء زاميوتوف الى هنا ؟ لماذا أتى به رازوميخين الى بيتى ؟ » .

بهذا تمتم راسكولنيكوف مهدودَ القوى ، وهو يعود الى الجلوس على سريره . وتابع حديثه لنفسه :

« ماذا يجرى ؟ أأنا ما أزال أهذى أم أن هذا كله الآن واقع لا شأن له بأخيلة الهذيان ؟ يبدو لى أن هذا كله الآن واقع ... آ ... تذكرت : أهرب ، يجب أن أهرب بأقصى سرعة ، يجب أن أهرب حتماً . نعم ، ولكن الى أين ؟ وأين ثيابى ؟ لم يبق ثمة شك . لقد أخذوا ثيابى ... لقد أخذوها عنى ! فهمت ! آ ... هذا معطفى ... لقد نسوه ! وهذا هو المال على المائدة ! الحمد لله ! وهذا هو السند ... سآخذ المال وأهرب . سأستأجر بيتاً آخر ، ولن يعثروا علىَّ ! نعم ،

ولكن مكتب العناوين ••• آه ••• سيكتشفونني ! سيكتشفني رازوميخين ! الأفضل مع ذلك أن أهرب ••• ان أهرب الى مكان بعيد، الى أمريكا ، ثم أبصق عليهم ••• ويجب أن آخذ السند أيضاً ••• فقد ينفعني هناك ••• ماذا آخذ أيضاً ؟ هم يعتقدون أنني مريض ! لا يخطر ببالهم أن في امكاني أن أمشي ••• هأ هأ هأ ! قرأت في أعينهم أنهم يعرفون كل شيء ! المهم أن أستطيع الهبوط على السلم ! ولكن ماذا لو كانوا قد وضعوا حراساً يحرسون العمارة ! ماذا لو كان يوجد شرطة تحت ؟ ما هذا ؟ شاي ؟ آ ••• ما تزال توجد بقية من بيرة ، نصف زجاجة ، باردة تماماً • • •

أمسك الزجاجة التي كان قد بقي فيها ما يملأ كأساً كبيرة ، فأفرغها في جوفه دفعةً واحدة ، متلذذاً ، كأنما ليطفيء النار التي تحرق صدره. ولكن قبل أن تنقضي دقيقة واحدة ، كانت البيرة قد صعدت الى رأسه ، فاذا برعدة خفيفة تسري في ظهره ، رعدة توشك أن تكون لذيذة ، فاستلقى على سريره وسحب الغطاء يدثر به جسمه • أخذت أفكاره المحمومة المضطربة تغلي مزيداً من الغليان ، وسرعان ما استولى عليه نعاس لطيف• فاهتدى الى مكان رأسه على الوسادة متلذذاً ، وتدثر مزيداً من التدثر بالغطاء الرخص المحشو بالقطن الذي يقوم الآن مقام معطفه الممزق ، وزفر زفرة خفيفة ، ثم نام نوماً عميقاً مريحاً •

واستيقظ حين سمع أحداً يدخل عليه ، ففتح حاجبيه ، فرأى رازوميخين • كان رازوميخين قد فتح الباب واسعاً ، ووقف على العتبة متسائلاً أيدخل أم لا يدخل • أسرع راسكولنيكوف ينهض عن سريره جالساً ، ونظر الى صاحبه نظرة من يحاول أن يتذكر شيئاً ما •

قال رازوميخين :

ـ هه ••• أنت غير نائم ؟

ثم صرخ ينادى ناستاسيا فى السلّم قائلاً :

ـ ناستاسيا ، هاتى الصرة !

وعاد يقول لراسكولنيكوف :

ـ سأقدم اليك الحساب فوراً .

سأل راسكولنيكوف وهو يلقى على ما حوله نظرة قلقة :

ـ كم الساعة الآن ؟

ـ يمكننا أن نقول ، أيها الأخ العزيز ، انك غير محروم من النوم. لقد حان المساء . لا بد أن الساعة غير بعيدة عن السادسة . معنى ذلك أنك نمت ست ساعات .

ـ ويلاه ! كيف أمكن أن ...

ـ ماذا ؟ انك قد أحسنت صنعاً . ما أحسب أنك مستعجل ! ما أحسب أنك مرتبط بموعد ! أليس كذلك ؟ نحن نملك اذن كل وقتنا. اننى منذ ثلاث ساعات أنتظر أن تفيق من نومك . جئت اليك مرتين ، ولكنك كنت ما تزال نائماً. وقد ذهبت مرتين أيضاً الى زوسيموف. ولكننى لم أجده . لا ضير ! سوف يجيء ... ثم اننى قد تغيبت لأمور شخصية صغيرة . أنت تعلم أننى قد انتقلت اليوم من مسكنى ، انتقلت منه مع عمى ... ان لى عماً الآن . ولكن دعنا من هذا كله ... سحقاً لهذا كله ! هاتى الصرة يا ناستاسيا . سوف ... فوراً ... وكيف صحتك الآن يا صاحبى ؟

قال راسكولنيكوف :

ـ صحتى حسنة . أبللت من المرض . أأنت هنا منذ مدة طويلة ؟

ـ قلت لك اننى أنتظرك منذ ثلاث ساعات .

ـ نعم ، ولكن ... قبل ذلك ؟

ـ قبل ماذا ؟

ـ منذ متى تأتي الى هنا ؟

ـ ألم أقصص عليك ذلك ؟ ألا تذكر ؟

شرد فكر راسكولنيكوف • ان ما جرى في هذه الفترة يبدو له حلماً • كان عاجزاً عن أن يتذكر أي شيء بنفسه ، وألقى على رازوميخين نظرة مستفسرة •

قال رازوميخين :

ـ آ ••• اذن نسيت ! لقد أدركت فعلاً أنك لم تكن بخير حال• أما الآن فقد أحسن اليك النوم وشفاك • حقاً ان هيئتك الآن أفضل كثيراً مما كانت • مرحى ! الى العمل اذن ! وسوف تتذكر فوراً ! أنظر الى هنا ، أيها السيد العزيز !

وأخذ رازوميخين يفض صرته التي كان يبدو أنه يوليها أكبر اهتمام •

ـ نعم يا عزيزي ، هذا أمر يهمني كثيراً ، ذلك أن عليّ أن أجعلك رجلاً • هيا بنا ! لنبدأ من فوق •

ثم قال وهو يسحب من الصرة قبعة جميلة وان تكن من طراز عادي بخس الثمن :

ـ هل ترى هذه القبعة ؟ سأجربها عليك ، أتسمح بذلك ؟

قال راسكولنيكوف وهو يدفعه عنه بخشونة :

ـ لا الآن ••• بل وفي وقت آخر •••

ـ لا سبيل الى التملص يا صاحبي • لا تصر ! في وقت آخر يكون الوقت قد فات • لن أنام الليل اذا لم أجرّبها عليك ، ذلك أنني اشتريتها كيفما اتفق ، دون أن أعرف قياس رأسك •

وألبسه القبعة ثم قال بلهجة المنتصر :

ـ انها تناسبك ... تناسبك كثيراً . لكأنها فصِّلت لك . لباس الرأس ياعزيزى أهم جزء من أجزاء اللباس ، فهو الذى يحدِّد مكانتك فى المجتمع . ان تولتسياكوف ، وهو صديق قديم لى ، يضطر الى خلع قبعته الرديئة كلما ظهر فى مكان عام يحتفظ فيه الآخرون بقبعاتهم على رءوسهم ، والناس يردون ذلك الى مشاعر الاحترام مع أن الأمر لا يعدو أنه أحسَّ بالخجل من قبعته الرديئة التى تشبه أن تكون عش عصفور . نعم ، تلك هى أسباب حياء هذا الرجل ! انظرى يا ناستاسيا ، انظرى الى هاتين القبعتين : انظرى الى قبعة بالمرستون هذه (قال ذلك ومضى يأتى من أحد الأركان بقبعة راسكولنيكوف المدوَّرة المشوَّهة ، التى لا يدرى أحد لماذا سمَّاها قبعة بالمرستون *) ، ثم انظرى الى هذه الآية من آيات فن صنع القبعات . واحزر كم دفعت ثمنها ؟ ما رأيك ؟ وما رأيك أنت يا ناستاسيا ؟ (لقد التفت رازوميخين الى الخادمة يسألها ، حين رأى راسكولنيكوف صامتاً لا يجيب) .

قالت ناستاسيا تجيب عن سؤاله :

ـ عشرين كوبكاً على الأقل !

فهتف يقول مستاءً :

ـ عشرين كوبكاً يا غبية ، يا حمقاء ؟ بعشرين كوبكاً لا يمكن شراؤك أنت فى هذه الأيام ! لقد دفعت ثمانين كوبكاً ، ولم يكن ثمنها قليلاً هذه القلة الا لأنها مستعملة . ثم اننى اشتريتها على شرط : ان فى وسعك أن تذهبى الى البائع فى السنة القادمة ، متى اهترأت هذه القبعة ، فاذا هو يُبدلها لك بقبعة جديدة مجاناً ، أحلف لك !... والآن هلموا الى الولايات المتحدة الأمريكية * ، كما كنا نسميها فى المدرسة . ولكننى

أنبِّهك قبل كل شيء الى أنني معتز جداً بهذا السروال (قال ذلك وبسط أمام راسكولنيكوف سروالاً رمادياً من نسيج صيفي خفيف) : لا ثقب فيه ، ولا بقعة ؛ هو اذن ، رغم أنه لُبس من قبل ، سروال جيد ؛ ناهيك عن الصديرة التي تناسبه على نحو ما توجب الموضة . أما أنه لُبس من قبل ، فتلك مزية ، فلقد أصبح بذلك أكثر ليونة وأشد مرونة . اسمع يا روديا : لكي ينجح المرء في الحياة ، يكفيه في رأيي أن يراعي الفصول: اذا لم تطالب بهليون في شهر كانون الثاني (يناير) ، فسيبقى لك دائماً بضعة روبلات في حافظة نقودك . نعم ، نحن الآن في منتصف فصل الصيف ، لذلك اشتريت سروالاً صيفياً . صحيح أنك ستحتاج في فصل الخريف الى قماش يضمن لك مزيداً من الدفء ، وسيكون عليك أن ترمي هذه الملابس ، لا سيما وأنها ستكون قد بليت ، بسبب اهمالك طبعاً ... ولكن فلنعد الى سؤالنا : احزر كم دفعت ثمن هذا السروال! روبلين وخمسة وعشرين كوبكاً ! لاحظ أنني اشتريته على ذلك الشرط نفسه الذي اشترطته في شراء القبعة : ان من حقك أن تستبدل به سروالاً بالمجان متى اهترأ . فعلى هذا النحو انما تتم الصفقات في دكان فديايف : يدفع المشتري مرة واحدة الى الأبد ، لأنه لن يضع قدميه مرة أخرى في هذا الدكان قط . ولننتقل الآن الى الحذاءين . كيف تجدهما ؟ واضح أنهما مستعملان ، ولكنهما ما يزالان يصلحان خلال شهرين ، فهذه بضاعة أجنبية : ان سكرتير سفارة انجلترا قد باعهما في الأسبوع الماضي. لم يكن قد انتعلهما الا ستة أيام ، ولكنه كان في حاجة ماسة الى المال . الثمن : روبل وخمسون كوبكاً . صفقة رابحة ، أليس كذلك ؟

قالت ناستاسيا :

ــ ولكنهما قد لا يكونان على قياس قدميه !

ــ قد لا يكونان على قياس قدميه ؟ فما هذا الذي أخذته معي اذن ؟

قال رازوميخين ذلك واستل من جيبه حذاءً قديماً مهترئاً مثقباً هو أحد أحذية راسكولنيكوف . ثم أردف :

ـ لقد اتخذت الاحتياطات اللازمة ! ماذا تظنين ؟ عرفنا قياس قدميه من قياس هذا الحذاء العجيب ! نعم لقد جرت الأمور كلها بدقة تامة وعناية محكمـة . أما الملابس الداخلية فقد تفاهمت بشأنها مع صاحبة البيت . اليك مؤقتاً ثلاثة قمصـان من نسيج سـميك ، ولكن صدرها على آخر موضـة . لنحسب الآن التكاليف كلها . قبعة : ثمانون كوبكـاً ؛ ملابس أخرى : روبلان وخمسة وعشرون كوبكاً ؛ المجمـوع : ثلاثة روبلات وخمسة كوبكات ، الحذاءان : روبل وخمسـون كوبكاً ، لأنهما فى حالة جيدة جداً . المجموع : أربع روبلات وخمسة وخمسون كوبكاً ، الملابس الداخلية ، جملةً واحدة ، خمسة روبلات . الباقى : خمسة وخمسـون كوبكاً ، نقوداً نحاسية من فئـة الكوبك . اليك هى . خـذها . هكذا يا روديـا تكون قد « تهنـدمت » الآن ، لأن معطفـك ما يزال قـابلاً للاستعمال ، حتى انه لا يخلو من ... وجاهة . أرأيت قيمة اختيار المرء ملابسه من محلات شارمر ! * أما الجوارب وما الى ذلك ، فانني أترك لك أمر الاهتمام بها . وأما المال فما زلنا نملك منه خمسة وعشرين روبلاً . وليس عليك بعد الآن أن يقلقك أجر المسكن . ان باشنكا ستمهلك امهالاً غير محدود ، كما قلت لك . والآن يا عزيزى ، سوف تبدّل قميصك ، لأننى لا استغرب أن يكون مرضك كله قد تسلل اليك من هنا ..

قال راسكولنيكوف بعد أن استمع مشمئزاً الى الكلام المرح الذى تدفق من فم رازوميخين :

ـ دعنى ! لا أريد !

قال رازوميخين مصراً :

ـ لا مناص يا عزيزى ! لن يقول أحد اننى أبليت حذاءىّ فى غير طائل !

ثم التفت يقول لناستاسيا :

ـ هلمى يا ناستاسينكا ! لا تستحى ! ساعدينى ! نعم ... هكذا ..

استطاع رازوميخين وناستاسيا أن يبدّلا قميص راسكولنيكوف ، رغم المقاومة التى أبداها . وعاد راسكولنيكوف يتهالك على وسادته ، ولزم الصمت خلال دقيقتين قائلاً لنفسه : « سيلبثان مدة طويلة لايتركانى وشأنى » ثم سأل وهو ينظر الى الجدار :

ـ بأى مال اشتريتَ هذه الأشياء كلها ؟

فأجابه رازوميخين متعجباً :

ـ بأى مال ؟ عجيب ! بمالك أنت . لقد جاء الى هنا مستخدمٌ من عند فاخروشين يحمل اليك مالاً أرسلته أمك . ألا تتذكر ؟

قال راسكولنيكوف بعد تفكير طويل شاق :

ـ نعم ، الآن تذكرت !

فتأمله رازوميخين مقطباً قلقاً .

وفُتح الباب ، ودخل رجل طويل القامة قوى البنية . أحسّ راسكولنيكوف أنه سبق أن رأى هذا الرجل .

هتف رازوميخين يقول فرحاً كل الفرح :

ـ زوسيموف ! أخيراً وصل !

الفصل السابع



رجل طويل القامة ، سمين الجسم ، ممتلىء الوجه ، شاحب اللون ، حليق اللحية ، يوشك شعره أن يكون من فرط شقرته أبيض ، وهو ينتصب على رأسه قائماً . على عينيه نظارتان ، وفى احدى أصابعه المنتفخة خاتم من ذهب . انه فى السابعة والعشرين من عمره . فاذا نظرت الى معطفه الأنيق الواسع المصنوع من نسيج صوفى خفيف ، والى سرواله الصيفى الفاتح اللون، أدركت أنه واحد من أولئك الرجال الذين يُعنون بحسن أناقتهم وجمال هندامهم أشدّ العناية . ان قميصه الناصع البياض يتألق تألقاً باهراً ، وان صُديرته تزدان بسلسلة كبيرة من ذهب خالص . أما حركاته فهى تظل بطيئةً بعض البطء ، ثقيلةً بعض الثقل ، رغم ما يصطنعه فى مشيته من انطلاق . هذا الى أن الادعاء يظهر فيه واضحاً كل الوضوح ، رغم جميع الجهود التى يبذلها لاخفائه . ان كل الذين عرفوه قد لاحظوا أنه رجل صعب المراس شديد الطبع ، ولكنهم يجمعون على أنه يعرف مهنته معرفةً طيبة .

هتف رازوميخين يقول له :

ـ لقد ذهبت اليك مرتين يا صاحبى ! ها هو ذا قد أفاق من غيبوبته كما ترى .

قال زوسيموف :

ـ نعم ! نعم !ه

ثم أردف يسأل راسكولنيكوف وهو يتفرس فيه ويجلس عند قدميه على طرف السرير بغير مبالاة أو تحرج :

ـ هيه ! كيف حالنا الآن ؟

قال رازوميخين :

ـ ما يزال مكتئب المزاج ، ولقد كاد يبكي منذ قليل حين بدّلنا له قميصه !

ـ هذا طبيعي !... كان يمكنكم أن ترجئوا ذلك الى حين آخر ما دام يضايقه ... النبض جيد . أما زلتَ تشعر بشيء من صداع في رأسك ؟

قال راسكولنيكوف حانقاً مصراً :

ـ لا ! صحتي حسنة !

وكان راسكولنيكوف قد نهض على سريره ملتمع العينين متقد النظرات . ولكنه لم يلبث أن تهاوى على الوسادة والتفت نحو الحائط . وكان زوسيموف يراقب بانتباه فقال بلهجة متثاقلة :

ـ كل شيء على ما يرام . هل أكل شيئاً ؟

ذُكر له ماذا أكل المريض ثم سُئل عما يمكن أن يأكله . قال الطبيب :

ـ يمكن اطعامه كل شيء ! حساء ، شاي ... ولكن لا فطر ، ولا قثاء طبعاً . وقد لا يناسبه لحم البقر ايضاً . ولكن علام هذا الكلام كله ؟ (وتبادل نظرةً مع رازوميخين) . ولا حاجة الى الدواء بعد

الآن ، لا حاجة الى شيء بعد الآن • غداً أرى ••• على أننا نستطيع منذ اليوم فى الواقع أن •••

قال رازوميخين :

ـ سأصطحبه مساء غدٍ فى نزهة • نذهب أولاً الى حديقة يوسوبوف ، ثم نذهب بعد ذلك الى « قصر الكريستال » * •

ـ لو كنت فى مكانك لتركته غداً حيث هو • قد أخرج معه لحظة قصيرة ••• على كل حال سوف نرى •

ـ خسارة ••• ذلك أننى أحتفل اليوم بانتقالى الى المسكن الجديد الذى يقع على بعد خطوتين من هنا • ليته يستطيع أن يشاركنا ، ولو راقداً على أريكته ! أما أنت فسوف تجىء ، أليس كذلك ؟ (قال رازوميخين هذا متجهاً بالكلام فجأة الى زوسيموف) • لن تنسى ، هه ؟ هل تعلم ما الذى وعدتنى به ؟

أجاب زوسيموف !

ـ قد أجىء ، ولكننى اذا جئت فسأجىء متأخراً • ماذا أعددت للحفلة ؟

ـ لم أهيىء أشياء كثيرة ! شاى ، فودكا ، سمك مجفف ، فطائر أيضا • ليس بيننا تكليف • نحن أسرة واحدة •

ـ نحن ؟ من تقصد ؟

ـ رفاق ، شباب ، اكثرهم لا أعرفه من قبل • وسيحضر الاحتفال عمٌ لى جاء الى بطرسبرج لأعمال ، ولا أراه الا مرةً واحدة كل خمس سنين •

ـ ما هو عمك هذا ؟

ـ سلخ حياته كلها فى مقاطعة نائية مديراً لمركز بريد ••• وقد

أحيل على التقاعد فهو يتقاضى معاشاً صغيراً . عمره خمسة وستون سنة.. ما حاجتنا الى الكلام عنه ؟ على أننى أحبـه فى الواقع . سيجىء بورفير سيميوفتش أيضاً ، قاضى التحقيق فى الحى . انه متخرج من « مدرسة القانون الامبراطورية » * . ولكنك تعرفه ...

ـ هل يمت اليك بقرابة أيضاً ؟

ـ قرابة بعيدة جداً ! ولكن لماذا أراك تستاء ؟ آمل أن لا تحملك المشـاجرة التى وقعت بينك وبينـه ذات يوم على أن تظن أنك معفى من حضور الحفلة ...

ـ هوه ! أنا لا اكترث به .

ـ أحسن ، أحسن . وهـكذا ستضم الحفلة طلاباً ، واسـتاذاً ، وموظفاً ، وموسيقياً ، وضابطاً هو زاميوتوف ...

ـ قل لى : ما الذى يمكن أن يجمع بينك أو قل بينـه (هنـا أومأ زوسـيموف باشـارة من رأسـه الى راسـكولنيكوف) وبين رجل مثل زاميوتوف ؟

ـ يا لهؤلاء المتعبين ! المبادىء طبعاً ! يميناً انك جالس على المبادىء كجلوسك على خازوق فلست تجرؤ أن تقوم بحركة واحدة على ما يشاء لك هواك . أما أنا ففى رأيى أن الانسان الطيب الخَيِّر هو فى ذاته مبدأ من المبادىء . وزاميوتوف رجل رائع فى نظرى .

ـ هو على كل حال رجل يعرف معـرفةً رائعـة كيف يلعب على حبلين وكيف يجنى ربحاً من طرفين .

صاح رازوميخين وقد ازدادت حماسته ازدياداً شديداً :

ـ ما شأنى أنا وهذا ؟ هل قلت لك اننى أؤيده فى اللعب على حبلين وفى جنى الربح من طرفين ؟ ان كل ما قلته لك هو أنه فى نوعه انسان

جيد • ولو نظرنا الى جميع أنواع البشر لحق لنا أن نتساءل من هم أولئك الذين يصمدون فى الواقع للامتحان ويبرهنون على أنهم أخيار طيبون ! انى لعلى يقين من أننى أنا نفسى لا أستحق أن أُشترى ببصلة ، ولو أضفت أنتَ الىّ •

ـ أنت تبالغ ! انا مستعد لأن اشتريك ببصلتين اثنتين !

ـ أما أنا فلا اشتريك الا ببصلة واحدة • ها ••• انك تستطيع أن تكون فكهاً ! ثم ان زاميوتوف ما يزال صبياً صغيراً • ولسوف تأتى مناسبات أشدُّ فيها أذنيه ، ولكن يجب علىّ بانتظار ذلك أن أداريه لا أن أصده • لا سبيل الى اصلاح انسان بسوء المعاملة ، ولا سيما اذا كان صبياً ، فانما يجب على المرء أن يمكر مزيداً من المكر حين يُعامل صبياً صغيراً • ولكنكم ، معشر التقدميين المتصلبين ، لا تفهمون من هذا الأمر شيئاً ، ولا تحترمون الطبيعة الانسانية • وانتم حين لا تحترمون الطبيعة الانسانية انما تسيئون الى أنفسكم • واذا كنت تحرص على أن تعرف كل شىء ، فاعلم أن لنا ، أنا وهو ، قضيةً مشتركة •

ـ هل يمكننا أن نسألك عن هذه القضية المشتركة ، ما هى ؟••

ـ هى قضية ذلك الدهّان نفسه • نعم ، سوف ننقذه من تلك الورطة ! على أنه أصبح الآن غير معرَّضٍ لأى خطر • لقد أصبحت القضية الآن واضحة ، واضحة جداً • وكل ما يقع على عاتقنا هو أن ندفعها الى نهايتها بسرعة •

ـ من ذلك الدهان ؟

ـ كيف ؟ ألم أقصص عليك القصة ؟ ها ••• فعلاً ••• أنا لم أقصص عليك الا البداية ••• ان قاتل العجوز المرابية ، أرملة الموظف ••• أقصد ••• ان الدهان اصبح الآن مقحماً فى هذه القضية •

ـ سمعت عن جريمة القتل هذه من قبل ... حتى لقد اهتممت بها بعض الاهتمام ... نعم ، وقرأت أيضاً ما تقوله عنها الصحف و ...

ـ وقد قُتلت اليزابث أيضاً !

بذلك نطقت ناستاسيا على حين فجأة ، متجهةً بالكلام الى راسكولنيكوف . كانت قد بقيت في الغرفة طوال ذلك الوقت ، مستندةً الى الباب ، تتابع الحديث .

تمتم راسكولنيكوف يقول بصوت لا يكاد يسمع !

ـ اليزابث ؟

قالت ناستاسيا :

ـ نعم اليزابث ، السمسارة . كانت تجيء الى هنا ، تحت ، حتى لقد رقَّعت لك قميصاً .

التفت راسكولنيكوف نحو الحائط ، حيث تتناثر على الورق الأصفر الوسخ رسوم أزهار صغيرة بيضاء ، فاختار من هذه الأزهار زهرةً مخططةً بلون رمادى ومرسومةً رسماً رديئاً ، فأخذ يتأملها محاولاً أن يحصى عدد تويجاتها وعدد الأسنان فى حافات أوراقها . وشعر بأعضائه تتخدَّر، حتى بدا له أنها ليست أعضاءه ، ولكنه لم يحاول أن يتحرك ، وظل ينظر الى الزهرة الصغيرة مصراً معانداً .

قال زوسيموف يسأل رازوميخين مقاطعاً ثرثرة ناستاسيا باستياء واضح :

ـ طيب ، فماذا وقع لذلك الدهّان ؟

فتابع رازوميخين حديثه قائلاً بحرارة :

ـ لقد أقحم هو أيضاً في جريمة القتل .

ـ هل هناك قرائن ؟ وما هى تلك القرائن ؟

ـ قرائن ؟ هناك قرائن ! والأمر فى الواقع أمر قرائن ! غير أن القرينة التى يستشهدون بها ليست قرينة ، وذلك ما يجب البرهان عليه !.. المسألة بسيطة : لقد أخذوا يكررون تلك الحماقات نفسها التى ارتكبوها حين اشتبهوا فى الرجلين الآخرين فاعتقلوهما ... أقصد : كوخ وبسترياكوف ! نعم لقد كرروا تلك الحماقات نفسها نقطة نقطة . ما أغبى تصرفهم يا رب ! ان المرء ليشعر بالخزى والعار من هذا التصرف، ولو لم يكن له به شأن ! قد يجيء الى بسترياكوف اليوم !... بالمناسبة يا روديا : عليك أن تعرف هذه القصة لأنها وقعت قبيل مرضك، تماماً عشية اليوم الذى أغمى عليك فيه بقسم الشرطة ... بينما كانوا يتحدثون فى هذا الأمر هناك .

نظر زوسيموف الى راسكولنيكوف مستطلعاً ، فلم يحرك راسكولنيكوف ساكناً .

قال زوسيموف غامزاً :

ـ أرى يا رازوميخين أنك تسرف فى الحركة حول هذه القضية حقاً !

فأجاب رازوميخين صارخاً وهو يضرب المائدة بقبضة يده :

ـ لا ضير ! سننقذه من تلك الورطة على أية حال ! ان الأمر الذى يغيظنى فى هذا كله أكثر مما يغيظنى أى شيء آخر ليس وقوعهم فى الخطأ، فالوقوع فى الخطأ يمكن التسامح فيه دائماً ، حتى ان الخطأ شيء رائع فعلاً لأنه يؤدى الى الحقيقة . ليس الخطأ اذن هو الذى يغيظنى منهم ، وانما يغيظنى منهم انهم يظلون ممتلئين احتراماً للأخطاء التى يقعون فيها، انتى أعتبر بورفير ، ولكن ... اسمع ، هل تعرف مثلاً ما هو الذى حيّرهم وأضلّهم فى أول الأمر ؟ أن الباب كان مغلقاً ، فلما عاد

الرجلان مع البواب كان الباب مفتوحاً ، فاستنتجوا من ذلك أن كوخ وبستر ياكوف هما القاتلان ! أرأيت الى هذا المنطق ما أعجبه !

ـ لا تتحمس هذا التحمس كله : لقد أوقفوهما فحسب •• لم يكن في وسعهم على كل حال أن ••• بالمناسبة : لقد أتيح لى أن أقابل كوخ• يظهر أنه كان يشترى من العجوز الأشياء المرهونة التى تخلف أصحابها عن تجديد رهنها فى الموعد المحدّد • أليس هذا صحيحاً ؟

ـ بلى ، بلى ، انه وغد حقير ! وهو يشترى سندات أيضاً • هو وغد حقير ، هو محتال خطير ••• شيطان يأخذه ! ولكن ليس هذا ما يثير غضبى وحنقى ، وانما يثير حنقى وغضبى أنهم يتبعون روتيناً عتيقاً بالياً تراكم عليه الغبار من تقادم العهد • ان هذا الروتين هو الذى يثير سخطى ! وما أسهل أن يكتشف المرء ، فى معالجة هذه القضية ، طرقاً جديدة كل الجدة ! ان فى وسعنا ، اذا نحن اعتمدنا على علم النفس وحده ، أن نجد السبيل الى معرفة الحقيقة• هم يقولون : «لدينا وقائع»• ولكن الوقائع ليست كل شيء ، ونصف القضية انما يكمن فى طريقة تأويل هذه الوقائع •••

ـ وهل تستطيع تأويلها ، أنت ؟

ـ عجيب أمركِ ! ان المرء لا يمكنه أن يسكت حين يحس ، حين يحس بغريزته أن فى وسعه تقديم خدمة اذا هو ••• هل تعرف القضية تفصيلاً ؟

ـ أعرفها جيداً • ولكننى ما زلت أنتظر أن تقصّ علىّ حكاية الدهان •

ـ سأقص عليك حكايته • اسمع : غداة وقوع الجريمة تماماً ، فى الصباح ، حين كانوا يدققون فى استجواب كوخ وبستر ياكوف ـ مع

أن هذين الرجلين كانا قد ذكرا جميع حركاتهما وسكناتهما، ورغم آن كل شيء قد اتضح اتضاحاً صارخاً ـ حدث على حين فجأة حادثٌ لم يكن متوقعاً على الاطلاق : ان فلاحاً اسمه دوشكين ، وهو صاحب خمارة تقع أمام العمارة التي وقعت فيها الجريمة ، جاء الى قسم الشرطة حاملاً علبة مجوهرات فيها قرطان ، وأخذ يروي قصةً عجيبة ، قال :

« أمس الأول ، في المساء ، بعد الساعة الثامنة بقليل ، (لاحظ الوقت : اليوم والساعة) رأيت الدهان نيقولا يهرع الى خمارتي ، وكان قد ارتادها مراراً قبل ذلك ، حاملاً اليَّ علبة صغيرة فيها قرطان ذهبيان يزدانان بأحجار صغيرة ، راجياً أن أرهنهما لديَّ لقاء قرض قيمته روبلان . فلما استجوبته لأعرف من أين أتى بالقرطين ، قال انه عثر بهما على رصيف ، فلم أسأله غير ذلك (ان دوشكين هو الذي يتكلم) ، ونقدته ورقة صغيرة أي روبلاً واحداً ، لأنني قلت لنفسي : اذا لم يرهن هذين القرطين عندي ليشرب بالقرض خمرة ، فسيرهنهما عند غيري ، فالأولى أن يبقيا بين يديَّ أنا : فبذلك أضمن على الأقل أن لا يطوفا العالم كله ، فاذا راجت اشاعة تقول انهما مسروقان ، مضيت الى قسم الشرطة لأبلغ عنهما » .

تابع رازوميخين كلامه فقال معقباً :

ـ واضح أن هذه القصة التي رواها دوشكين سخيفة . وأنا أعرف دوشكين هذا : انه كذاب كبير . انه ، هو نفسه ، يقرض برهن . فلئن أخذ من نيقولا شيئاً تساوي قيمته ثلاثين روبلاً فانه لم يفعل ذلك من أجل أن يبلغ عنه . كل ما هنالك أنه خاف . ودعنا من دوشكين هذا على كل حال . واسمع التتمة . قال دوشكين :

« أما ذلك الفلاح ، نيقولا ديمانتيف ، فانني أعرفه منذ زمن بعيد ،

فنحن كلانا من اقليم واحد هو اقليم ريازان (مقاطعة زارايسك) ؛ وهو يحب أن يشرب قليلاً ، وان لم يكن سكيراً مدمناً . وكنا نعلم أيضاً أنه كان يعمل ، أنه كان يدهن الجدران ، فى ذلك المنزل ، مع دمترى ، ابن بلده . فلما نقدته ورقة الروبل ، بدَّلها فوراً ، وشرب كأسين ، واحداً بعد آخر ، ثم تناول النقود الفائضة وانصرف . ولم أر دمترى معه فى تلك اللحظة . وفى الغد ، سمعنا أن آليونا ايفانوفنا وأختها اليزابث ايفانوفنا قد وُجدتا مقتولتين بضربات ساطور ؛ ولما كنا نعرفهما كلتيهما ، فقد راودنى شك فى أمر القرطين الذهبيين ، لأننا ، كما سبق أن قلت ، كنا نعرفهما ونعرف انهما تقرضان على رهون . عندئذ ذهبت الى العمارة ، وأخذت أتقصى الأمر قليلاً . سألت أولاً عن نيكولا أهو موجود ، فقال لى دمترى انه غائب يقصف ويلهو ، وانه قد عاد ثملاً فى أول الصباح فلم يمكث الا عشر دقائق ، ثم خرج من جديد ؛ وعرفت أن ميتكا لم يره بعد ذلك ، وأنه طفق يتم عمله وحيداً . والبيت الذى كانا يدهنانه انما يقع فى الطابق الأول ، ويطل على نفس السلّم الذى يطل عليه بيت المرأتين الشقيقتين . عرفنا هذا كله ، ولكننا لم نقل عندئذ شيئاً لأحد .

(ان دوشكين هو الذى ما يزال يتكلم) . غير أننا أسرعنا نجمع كافة المعلومات التى يمكن جمعها عن جريمة القتل ، ورجعنا الى بيتنا وقد امتلأت نفوسنا ريبة واشتباهاً . وفى هذا الصباح ، فى الساعة الثامنة من هذا الصباح (أى غداة غد وقوع الجريمة) ، رأيت نيقولا داخلاً على الخمارة . لا أستطيع أن أقول انه لم يكن قد شرب خمراً بعد ، ولكننى لا أستطيع أن أقول أيضاً انه كان ثملاً جداً ، وانما كان قادراً على متابعة حديث . وجلس على دكة دون أن ينطق بكلمة . ولم يكن يوجد فى الخمارة عندئذ الا هو وشخص آخر عابر ، وشخص ثالث من رواد

الحمارة كان نائماً على دكة ؟ هذا عدا الصبيين اللذين يعملان فى الحمارة طبعاً . سألت نيقولا :

« ـ هل رأيت ميتكا ؟

« فأجابنى :

« ـ لا ، لم أره منذ أمس الأول .

« ـ وأين نمت فى هذه الليلة ؟

« ـ فى حىّ « الرمال » * ، عند أهل كولومنا * .

« ـ ومن أين جئت بالقرطين فى ذلك اليوم ؟

« ـ عثرت بهما على الرصيف .

« وكان يقول ذلك كله مشيحاً بوجهه عنى . سألته :

« ـ هل سمعت عن حدوث كذا وكذا ، فى ذلك المساء نفسه ، فى تلك الساعة نفسها ؟

« فأجابنى :

« ـ لا ، لم أسمع عن شىء من هذا !

« ولكنه حملق ، وابيضّ لونه حتى صار كالطباشير . وفيما أنا أروى له ما حدث ، رأيته يتناول طاقيته فجأة ، وينهض . حاولت أن أحبسه عن الخروج ، فقلت له :

« ـ انتظر يا نيقولا ! ألا تريد أن تشرب كأساً ؟

« وأومأت الى أحد الصبيين أن يسدّ عليه الطريق ، وتركت البسطة . لكن صاحبنا نيقولا ولىّ هارباً ، فهو الآن ينعطف عند ناصية الشارع ، حتى اننى لم أكد أراه . لم يبق اذن شك : انه هو الذى ارتكب تلك الجريمة ! » .

قال زوسيموف :

ـ واضح !

قال رازوميخين :

ـ انتظر ! اسمع التتمة ! مضت الشرطة كلها تبحث عن نيقولا طبعاً : فتشوا خمارة دوشكين ، ثم أوقفوا دوشكين ، وأوقفوا دمترى أيضاً ، وقلبوا كل شيء عاليه سافله عند أهل كولومنا ، ثم لم يستطيعوا أن يضعوا أيديهم على نيقولا الا بعد ثلاثة أيام ، أى أمس الأول . قبضوا عليه فى فندق قرب حاجز « س ... » . يظهر أنه حين وصل الى هناك استل صليبه الفضى ، وطلب مقايضة هذا الصليب بزجاجة فودكا صغيرة ، فأجيب طلبه . وبعد بضع دقائق دخلت امرأة طيبة الى الاسطبل ، فاليك ما رأته من شق الباب : رأت نيقولا فى جانب من محطة العربات ، قد ربط حزامه بوتد وجعل فيه عقدة منزلقة ، وصعد على قطعة غليظة من خشب يريد أن ينتحر شنقاً . خطرت ببال المرأة هذه الفكرة الموفقة ، وهى أن تصرخ ، فصرخت ، فهرع الناس الى المكان ، وقالوا له :

« ـ آ ... أهكذا أنت اذن ؟

« فقال لهم :

« ـ نعم ... خذونى الى قسم الشرطة فى حىّ كذا ، وسأعترف هنالك بكل شيء !

فاقتادوه محاطاً بكل ما يجب لشخصه الكريم من احترام ، اقتادوه الى قسم الشرطة الذى حدَّده ، أى الى قسم الشرطة فى حيِّنا ، فسرعان ما بدأت الأسئلة تنهمر عليه انهمار المطر : كيف ، وماذا ، ولماذا ، وأين ، وما سنُّك ، وهلمَّ جرا !... سؤال :

« ـ بينما كنت تعمل مع دمترى ، ألم تر َ أحداً على السلّم فى ساعة كذا ؟

« ـ مرّ أناس كثيرون طبعاً ، ولكن ليست مهمتى أن ألاحظهم ..

« ـ أفلم تسمع شيئاً ما ، أفلم تسمع ضجةً ما ؟

« ـ لا ، لم أسمع شيئاً يلفت الانتباه !

« ـ وأنت يا نيقولا ، هل كنت تعلم فى ذلك اليوم أن العجوز فلانة قد قُتلت وسُرقت هى وأختها ، يوم كذا ، ساعة كذا ؟

« ـ لا علمت شيئاً ، ولا رأيت شيئاً . علمت بالأمر أول مرة من آتانازى منذ يومين ، فى الكاباريه .

« ومن أين جئت بالقرطين ؟

« ـ عثرت بهما على الرصيف .

« ـ لماذا لم تجىء الى العمل مع دمترى غداة ذلك اليوم ؟

« ـ لأننى قصفت ولهوت فى ذلك اليوم .

« ـ أين قصفت ولهوت ؟

« ـ فى مكان كذا .

« ـ لماذا هربت من عند دوشكين ؟

« ـ لأننى خفت .

« ـ من أى شىء خفت ؟

« ـ خفت أن أحال الى المحاكمة .

« ـ ولكن كيف يمكن أن تخاف من أمر كهذا ، ما دمت تعرف أنك لم تقارف جرماً ؟

وعقّب رازوميخين على ذلك بقوله :

ـ نعم يا زوسيموف ، بهذه الكلمات انما أُلقى عليه هذا السؤال ، بهذه الكلمات نفسها ، صدّقت أم لم تصدّق ! نعم ، بهذه الكلمات نفسها ... أنا أعلم ذلك علم اليقين ؛ لقد نُقل الىّ السؤال بنصه ، كلمةً كلمة . ما رأيك ؟ ما رأيك ؟

ـ نعم ، نعم ، ولكن هناك قرائن على كل حال ...

ـ لا أتكلم الآن عن القرائن ، وانما أتكلم عن السؤال الذى ألقوه عليه ، أتكلم عن طريقة هؤلاء الناس فى فهم مهنتهم . ولكن دعنا من هذا الآن ، ولنكمل وصف ما جرى بينهم وبين نيقولا . ضيقوا عليه الخناق ، ثم ضيقوا عليه الخناق مزيداً من التضييق ، فاعترف . قال :

« ـ لم أعثر بالقرطين على الرصيف ، وانما عثرت بهما فى البيت الذى كنا ندهنه أنا ودمترى .

« ـ كيف عثرت بهما ؟

« ـ كيف ؟ هكذا : كنا قد عملنا أنا ودمترى طول النهار حتى الساعة الثامنة ، وكنا نستعد للانصراف ؛ ولكن ها هو ذا دمترى يتناول فرشاة ويأخذ يلطخ لى وجهى . فلما لطخ لى وجهى ، ولىّ هارباً ، فركضت وراءه أطارده . كنت أركض وأطلق صرخات وحشية ولكن حين خرجت من السلّم ووصلت الى فناء المنزل ، رأيتنى أسقط على البواب الذى كان معه عندئذ بعض السادة . أما عدد أولئك السادة فاننى لا أذكره الآن . أخذ البواب يشتمنى ، ثم جاء البواب الثانى فأخذ يشتمنى أيضاً ؛ وخرجت امرأة البواب الأول من مسكنها فأخذت تشتمنا كلينا ؛ وفى تلك اللحظة كان يمر تحت باب الدخول سيد تصحبه سيدة ، فأخذ يشتمنا هو أيضاً ، لأننا كنا ، أنا ودمترى ، قد انبطحنا فسددنا عليه الطريق . كنت قد أمسكت دمترى من شعره ، ورميته على الأرض

ورحت أهوى عليه بوابل من اللكمات ؟ وكان دمترى تحتى ، قد أمسك شعرى وأخذت لكماته تنهمر علىّ أيضاً ـ ولكن ذلك كله لم يكن دافعه الخبث والشر ، وانما كان دافعه المودة والمحبة ، فهو نوع من التسلية . ثم تخلص دمترى ، وولىّ هارباً الى الشارع ، فركضت وراءه ولكنى لم أستطع أن أدركه . عندئذ عدت الى البيت وحدى لأرتّب أشيائى . وفيما أنا أرتّبها ، منتظراً دمترى ، اذا بى أدوس على علبة صغيرة ، قرب الباب ، فى الدهليز ، فنظرت ، فرأيتها ملفوفة بورق ، فنزعت الورق وفتحت العلبة ، فرأيت كلاّبتين ، كلابتين صغيرتين ، صغيرتين جداً ، فشددتهما فخرج القرطان ... » .

هتف راسكولنيكوف يسأل فجأة ، وهو يحدّق الى رازوميخين بنظرة مضطربة مروّعة ، بينما هو يُنهض جسمه ببطء ، ويسند يده الى السرير :

ـ وراء الباب ؟ كانت العلبة وراء الباب ؟

ـ نعم ، ولكن ماذا بك ؟ ماذا دهاك ؟

وكان رازوميخين قد نهض هو أيضاً عن مقعده .

أجاب راسكولنيكوف بصوت لا يكاد يُسمع ، وهو يتهالك على وسادته من جديد ، ويعود يلتفت نحو الحائط :

ـ لا شيء .

ولبث الجميع صامتين برهة طويلة .

قال رازوميخين أخيراً وهو يلقى على زوسيموف نظرة سائلة مستفهمة :

ـ لا شك أنه كان قد غفا ، وأنه ما يزال يحلم ، أليس كذلك ؟

فحرك زوسيموف رأسه بايماءة خفيفة تعنى النفى . وقال :

ـ أكمل يا رازوميخين . ماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ بعد ذلك ، بعد ذلك ! نعم ... ما ان رأى القرطين ، حتى نسى عمله ونسى دمترى ، وتناول قبعته وركض يسعى الى خمارة دوشكين ، فأخذ منه روبلا ً، كما أسلفنا ، وكذب عليه حين زعم له أنه عثر بالعلبة على الرصيف ؛ ثم طفق يقصف من صندوق المرأة العجوز الى يدى على الرصيف ؛ ثم طفق يقصف ويلهو ، كما أسلفنا أيضاً . أما عن جريمة القتل ، فانه ما يزال يصر على أقواله :

« ـ لا علمت شيئاً ولا رأيت شيئاً .

« ـ فلماذا اختفيت اذن حتى الآن ؟

« ـ خفت .

« ولماذا أردت أن تنتحر شنقاً ؟

« ـ لأننى قدّرت أن أمراً سيحدث لى .

« ـ ما هو الأمر الذى قدّرت أنه سيحدث لك ؟

« ـ قدّرت أننى سأحال الى المحاكمة .

وعقب رازوميخين على ذلك سائلا ً زوسيموف :

ـ هذه هى القصة كاملة . فما الذى تظن أنهم استنتجوه من ذلك كله ؟

ـ ما عسى أظن ؟ هناك قرائن . ومهما تكن هذا القرائن ، فانها تبقى قرائن . الواقعة قائمة . ليس فى وسعهم أن يخلوا سبيل صاحبك الدهان ، رغم كل شيء .

ـ ولكنهم حشروه فى سلك القتلة وانتهى الأمر . لم يبق عندهم ظل من شك ...

ـ أنت تخطىء ... أنت تتحمس وتندفع ... يجب أن تنظر فى

واقعة وجود القرطين مع نيقولا، لا بد لك من التسليم بأن هذين القرطين اذا كانا انتقلا رأساً في ذلك اليوم نفسه ، في تلك الساعة نفسها ، من صندوق المرأة العجوز الى يدى نيقولا ، فقد انتقلا بطريقة من الطرق. هذا أمر له خطورته فى التحقيق ...

ـ أتقصد طريقة انتقالهما الى يدى نيقولا ؟ ألا ان أمرك لعجيب ! هل يمكنك حقاً ، وأنت طبيب يُفرض فيه أن يعرف الانسان ، وأُتيح له عدا ذلك أن يسبر الطبيعة الانسانية ، هل يمكنك أن لا ترى من خلال جميع هذه المعلومات ، طبيعةَ نيقولا هذا ؟ هل يمكن أن لا ترى منذ البداية أن كل ما صرّح به نيقولا أثناء تلك الاستجوابات جميعاً انما كان الحقيقة خالصةً صافيةً ؟ لقد وصل القرطان الى يديه على النحو الذى ذكره تماماً . داس على العلبة فتناولها .

ـ الحقيقة خالصةً !!... ولكنه اعترف هو نفسه بأنه كذب فى المرة الأولى .

ـ أصغ الىّ بانتباه ! ان البواب ، وكوخ ، وبسترياكوف ، والبواب الثانى ، وامرأة البواب الأول ، والبائعة التى كانت فى مسكنها حينذاك ، والمستشار القضائى كريوكوف الذى نزل من مركبة فى تلك اللحظة نفسها وكان يجتاز عتبة المدخل متأبطاً ذراع سيدة ، ان هؤلاء جميعاً ، أى ثمانية شهود أو تسعة ، قد أجمعوا فى أقوالهم على أن نيقولا كان قد بطح دمترى أرضاً ، وجثم عليه ، وراح يمطره بوابل من اللكمات ، وأن دمترى كان من جهة ممسكاً بشعره يكيل له اللكمات هو أيضاً ؛ وأنهما تدحرجا كليهما بالعرض فسدّا الطريق ، وأن الشتائم كانت تنهال عليهما من كل صوب ، وأنهما كانا « أشبه بالصبية الصغار » ، على حد تعبير الشهود نصاً ، يولولان ويتضاربان وينفجران ضاحكين ويتسابقان

فى القهقهة ويطارد كل منهما الآخر فى الشارع كالصبيان وقد ظهر فى وجهيهما من هزل الأطفال أشده ! هل سمعت هذا كله ؟ فاسمع الآن البقية : كانت الجثتان ، فوق ، فى ذلك الوقت نفسه ، ما تزالان ساخنتين ... ساخنتين ... نعم ، نعم ، لقد كانتا ساخنتين حين اكتشفتا . فلو كان نيقولا ودمترى هما القاتلين ، أو كان نيقولا وحده هو القاتل ، وكانا فى الوقت نفسه قد سرقا العجوز أو لم يزيدا على أن شاركا فى السرقة مشاركة فحسب ، لكان من حقى أن ألقى عليك هذا السؤال : هل تلك الحالة النفسية (أعنى الولولة ، والضحك ، والتشاجر الصبيانى تحت باب الدخول) تتفق والسواطير ، والدم والمكر الوحشى والسلب والنهب ؟ أيكونان قد قتلا منذ برهة قصيرة ، منذ خمس دقائق أو عشر فى أكثر تقدير – وهذه نتيجة مستخلصة من سخونة الجثتين – ثم هما يمضيان فجأة ، تاركين الجثتين والباب مفتوح ، مع علمهما بأن أناساً سيصلون من لحظة الى أخرى ؟ أيقتلان منذ برهة وجيزة ، ثم يتركان غنيمتهما ، ويمضيان يتدحرجان فى الشارع « كالصبية الصغار » ، ويضحكان ضحكاً صاخباً ، ويلفتان اليهما انتباه الناس جميعاً ، وهذا ما يؤكده عشرة شهود بصوت واحد ؟

– هذا غريب فعلاً . ذلك مستحيل طبعاً ، ولكن ...

– يا أخى ، لا داعى الى « لكن » هذه . اذا كان وجود القرطين بين يدى نيقولا ، فى ذلك اليوم نفسه ، فى تلك الساعة نفسها ، واقعة مادية هامة تشهد عليه – وهى مع ذلك واقعة تفسرها أقوال المتهم نفسه تفسيراً تاماً ، فيمكن اذن دحضها – أقول اذا كان ذلك كذلك فيجب أن ندخل فى الحساب وقائع أخرى تشهد للمتهم لا عليه ، وتؤكد براءته ، لا سيما وأنها وقائع ثابتة لا سبيل الى دحضها . ولكن ماذا تظن ؟ هل تعتقد أن قضاءنا ، وهو على ما هو عليه ، يمكن أن يسلّم بأن واقعة قائمة

على الاستحالة السيكولوجية وحدها ، واقعة مبنيةً على الحالة النفسية فحسب ، يمكن أن تُعدَّ واقعةً ثابتة لا سبيل الى دحضها ، واقعةً قادرة بمفردها على أن تهدِّم جميع وقائع الاتهام المادية أية كانت ؟ لا ، ان قضاءنا لن يسلم بهذا ، لن يسلِّم به في حال من الأحوال ، وذلك بحجة أن العلبة قد وُجدت ، وأن الرجل أراد أن يشنق نفسه ، وأنه « ما كان ليفعل ذلك لولا شعوره بجرمه ! » . تلك هي المسألة الرئيسية ، ذلك هو السبب الذي يحضني على الاندفاع والحماسة ، هل فهمت ؟

ـ أرى أنك تندفع وتتحمس فعلاً . انتظر ! نسيت أن ألقي عليك سؤالاً : ما هو الدليل الذي نملكه على أن العلبة التي تحوي القرطين مصدرها صندوق العجوز حقاً ؟

أجاب رازوميخين على مضض ، وقد عبس وجهه :

ـ ذلك ثابت . لقد عرف كوخ العلبة ، وحدَّد الشخص الذي رهنها عند العجوز ، وبرهن ذلك الشخص برهاناً قاطعاً على أنها علبته .

ـ هذا مؤسف . والآن ألقي عليك سؤالاً آخر : ألم يلمح أحد أحد نيقولا لحظةَ كان كوخ وبسترياكوف يصعدان السلَّم ؟ أفلا يمكن اثبات ذلك بطريقة من الطرق ؟

أجاب رازوميخين متحسراً :

ـ لا ، لم يلمحه أحد ، وذلك هو الأمر المحزن . ان كوخ وبسترياكوف نفسيهما لم يلاحظا العمال أثناء صعودهما . صحيح أن شهادتهما الآن ... هما يقولان : « رأينا باب الشقة مفتوحاً ، وقدَّرنا أنه ربما كانت تجري فيها اصلاحات، ولكننا لم ننتبه أثناء مرورنا ، ولا نتذكر أكان فيها عمال أم لا » .

ـ فالتفسير الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه اذن ، للتدليل على

براءتهما ، هو أنهما كانا يتضاربان ويضحكان مقهقهين • طيب ! هذا دليل قوى ولكن ••• اسمع لى : كيف تفسر انت الواقعة ؟ كيف تفسر العثور على القرطين اذا كانا قد وجداهما على نحو ما صرّحا ؟

ـ كيف أفسرها ؟ ليس هناك شيء يحتاج الى تفسير : الأمر واضح وضوح النهار ، أو قل فى اقل تقدير ان الطريق الذى يجب أن يسير فيه التحقيق واضح مرسوم • والعلبة هى التى ترسم هذا الطريق • ان القرطين قد سقطا من القاتل الحقيقى• كان هو فى أعلى، موصداً عليه الباب بالمزلاج ، حين رابط كوخ وبسترياكوف على الباب • وقد ارتكب كوخ حماقة كبيرة ، حين نزل فى اثر صاحبه ، فانتهز القاتل الفرصة ، فهرب من البيت ، ونزل هو أيضا ، اذ لم يكن له مخرج آخر • وفيما كان على السلم ، اختبأ عن أعين كوخ وبسترياكوف والبواب بدخوله الى المسكن الخالى الذى تركه دمترى ونيقولا منذ لحظة قصيرة ، فظل لاطياً وراء الباب بينما كان البواب والرجلان الآخران يصعدان • حتى اذا انقطعت ضجة وقع أقدامهم نزل بهدوء ، وذلك فى اللحظة التى كان فيها دمترى ونيقولا يطارد كل منهما صاحبه فى الشارع أى فى اللحظة التى كان قد تفرق فيها الجميع فلم يبق أحد فى مدخل العمارة • بل ان من الجائز أن يكون أحدهم قد رآه ، لكنه لم يلاحظه : ان ناساً كثيرين يمرُّون • أما العلبة فلا بد أنها قد سقطت من جيبه لحظة كان واقفاً وراء الباب ، فلم ينتبه الى ذلك ، لأن ذهنه كان مشغولا عندئذ بهموم أخرى كثيرة • نعم، ان العلبة تبرهن برهاناً قاطعاً على أن القاتل قد رابط هناك • تلك هى القصة كلها •

قال زوسيموف :

ـ هذا تفسير بارع ! نعم ••• حقاً هذا تفسير بارع جداً يا صاحبى ••• بارع جداً جداً •••

ـ ولكن لماذا ؟ لماذا تقول ...؟

ـ لأن كل شيء فيه مرتب بحذق ومركّب باحكام ... لكأننا في مسرح !...

همّ رازوميخين أن يتكلم فقال :

ـ هيه ...

ولكن الباب فُتح في تلك اللحظة نفسها ، فانفرج عن قادم جديد لم يكن يعرفه أحد من الحضور .

الفصل الخامس

هو

سيدٌ ليس الآن في ريّق الشباب ، سيد متكلف متصنع ، ذو أبهة وجلال ، تعبر هيئته عن التحفظ والعجرفة ، وقف على العتبة يلقى على ما حوله نظرات استطلاع فيها دهشة لا تخفى حتى لتجرح وكأن عينيه تلقيان هذا السؤال : « أتراني ضللت الطريق ؟ » ، انه يتفحص « حجرة » راسكولنيكوف الواطئة الضيقة وهو يشعر بشيء من الشك ويبدى نوعاً من الخوف بل ويظهر شيئاً من الأسف والمضض . وبمثل هذه الدهشة نفسها وجّه بصره الى راسكولنيكوف ، ثم ثبّته عليه ، فرأى راسكولنيكوف الذى لم يخلع ثيابه ولا حلق ذقنه ، والذى كان مشعث الشعر راقداً على سريره الحقير ، رآه يتفحصه من جهته دون أن يتحرك . وبهذا البطء نفسه أخذ يلاحظ رازوميخين الذى لم يكن ممشّط الشعر ولا محلوق الذقن وكان هو أيضاً يتفرس فيه باستطلاع مستهتر وقح دون أن يتحرك . خيّم صمت متوتر خلال ما يقرب من دقيقة ثم لم يلبث المشهد أن تغير تغيراً طفيفاً كما ينبغي أن نتوقع . ذلك أن القادم الجديد قد أدرك من بعض العلامات ، وهى علامات واضحة جداً على كل حال ، أن اصطناع وضع فيه أبهة مفرطة لن ينفعه كثيراً في هذه الحجرة ، فلطّف هيئته بعض التلطيف ، واتجه الى زوسيموف يسأله بأدب وكياسة ، مع احتفاظه

بشيء من الجمود والصلابة ، قائلاً بلهجة تبرز مقاطع الكلام ابرازاً واضحاً :

ـ روديون رومانوفتش راسكولنيكوف ، طالب أو طالب سابق ؟

تحرك زوسيموف ببطء ، ولعله كان سيجيب لولا أن رازوميخين الذى لم يسأله أحد شيئاً أسرع يسبقه الى الجواب فقال :

ـ هو ذا ... راقد على السرير ... ماذا تريد أنت ؟

ان هذا السؤال الذى ليس فيه شيء من تحرج : « ماذا تريد أنت ؟ » قد بلبل السيد المتصنع فأوشك أن يلتفت نحو رازوميخين ، ولكنه استطاع أن يسيطر على نفسه ، فاتجه مرة أخرى بسرعة شديدة الى زوسيموف .

ـ نعم ، هذا راسكولنيكوف !

كذلك قال زوسيموف باهمال وتثاقل ، وهو يشير الى المريض بايماءة من رأسه ، ثم تثاءب ففتح فماً واسعاً سعةً غير مألوفة أيضاً . ثم أغطس يده فى جيب صُديرته ببطء فاستلّ منه ساعة ذهبية كبيرة محدبة الشكل ، ففتحها ونظر فيها ، ثم أعادها الى جيبه بذلك البطء نفسه وبذلك التوانى نفسه .

وفى أثناء هذا الوقت ، ظل راسكولنيكوف راقداً مقلوب الجسم ، وظل صامتاً لا يقول كلمة ؛ وكان يلقى على الزائر نظرةً ثابتةً عنيدة ، وان تكن هذه النظرة لا تعبر عن أية فكرة .

انه وقد تحوّل وجهه عن تلك الزهرة الصغيرة العجيبة المرسومة على ورق الجدار ، يبدو الآن شاحباً شحوباً شديداً ، وتدل ملامحه على أنه يعانى ألماً هائلاً ، حتى لكأنه خارج من عملية موجعة أو كأنه يُستجوب أمام قاضى تحقيق . ولكن القادم الجديد أخذ يثير فيه بعض

الانتباه شيئاً بعد شيء ثم أخذ يثير فيه شكاً وارتياباً ، حتى لقد أثار فيه آخر الأمر نوعاً من خوف وخشية . فلما قال زوسيموف وهو يومىء اليه : «نعم هذا راسكولنيكوف» انتفض فجأة كأنما وخزته ابرة ، وجلس على السرير ، وقال بلهجة تكاد تكون تحدياً وان يكن صوته واهناً ضعيفاً متقطعاً :

ــ نعم ، أنا راسكولنيكوف ! ماذا تريد ؟

نظر اليه الزائر بانتباه وقال يعرّف بنفسه بلهجة رصينة وقور :

ــ بطرس بتروفيتش لوجين . أحب أن أظن أن اسمى ليس مجهولاً عندك تماماً .

ولكن راسكولنيكوف الذى توقع شيئاً غير هذا ، نظر اليه دون أن يجيب ، وكان زائغ البصر شارد الفكر كأنه يسمع اسم بتروفيتش أول مرة حقاً .

سأله بتروفيتش مرتبكا بعض الارتباك :

ــ كيف ؟ هل يمكن أن لا تكون قد تلقيت أىّ نبأ حتى الآن ؟

فلم يزد جواب راسكولنيكوف على أن راح ينزلق على الوسادة ببطء ، ثم صالب يديه وراء رأسه ، وأخذ ينظر الى السقف .

طاف بوجه لوجين تعبير عن حزن ، وأخذ زوسيموف ورازوميخين ينظران اليه بمزيد من الاستطلاع والفضول ، حتى بدا عليه الاضطراب فى آخر الأمر . ودمدم يقول :

ــ كنت افترض وأقدّر أن الرسالة ، وقد أودعت فى البريد منذ عشرة أيام ان لم يكن منذ خمسة عشر يوماً ، لا بد أن ...

فقاطعه رازوميخين فجأة بقوله :

ـ اسمع ! لماذا تبقى واقفاً هذه الوقفة على الباب ؟ هلمّ فاجلس اذا كان لديك شيء تريد أن تشرحه ... ان العتبة لا تتسع لكما كليكما أنت وناستاسيا ! يا ناستاسيوشكا ، تنحى قليلاً ، ودعيه يمر ! تقدم ! هذا كرسى ! ادخل !

قال رازوميخين ذلك ، وأبعد كرسيه عن المائدة ، جاعلاً بينها وبين ركبتيه فراغاً صغيراً ، ولبث على هذا الوضع ، المزعج بعض الازعاج ، برهةً من الوقت ، ينتظر أن « يتسلل » الزائر من هذه الفرجة . لقد اختار رازوميخين اللحظة المناسبة اختياراً لا يدع للزائر سبيلاً الى الرفض ، لذلك أسرع الزائر ينسل فى الفراغ الضيق متعثراً ، حتى اذا وصل الى الكرسى جلس وألقى على رازوميخين نظرة ريب وشك .

قال رازوميخين بغير اكتراث :

ـ لا تتحرج ! لا تتحرج ! ان روديا مريض منذ خمسة أيام ، وقد ظل يهذى ثلاثة أيام ، لكنه ثاب الآن الى رشده تماماً ، حتى انه أصبح يُقبل على الطعام نهماً . والجالس هناك هو طبيبه . وقد فحصه منذ برهة قصيرة . أما أنا فاننى أحد رفاق روديا ، كنت طالباً مثله وأصبحت الآن ممرضاً له . فلا تنتبه الينا ، ولا تحفل بنا ، ولا تتحرج منا . أكمل كلامك وقل ما تريد أن تقوله !

قال بطرس بتروفيتش :

ـ شكراً .

ثم التفت يسأل زوسيموف :

ـ ولكن ألا يزعج المريضَ حضورى وحديثى ؟

فأجابه زوسيموف مجمجماً :

ـ ل ... لا ! حتى لقد يسليّه هذا قليلاً !

قال ذلك وتثاءب من جديد .

قال رازوميخين :

ـ نعم ، نعم ! لقد أفاق من غيبوبته منذ مدة طويلة ، منذ هذا الصباح !

قال رازوميخين ذلك بلهجة فيها من الألفة ورفع الكلفة ما جعل بطرس بتروفيتش يعدل عن رأيه ويغير موقفه فأخذ يشعر بشيء من الارتياح والانطلاق ، ولعل ذلك يرجع بعض الرجوع أيضاً الى أن هذا الفقير الحافي الوقح قد أفلح رغم كل شيء في أن يُعرّف بنفسه على أنه طالب .

بدأ لوجين يتكلم فقال :

ـ ان والدتك ...

فاذا برازوميخين يهتف بصوت عال :

ـ هِمْ !

فرشقه لوجين بنظرة مستوضحة مستفهمة . فقال له رازوميخين :

ـ ليس هذا شيئاً ! لا تلق الى هذا بالاً . هلمَّ أكمل كلامك .

رفع لوجين كتفيه متعجباً ، وواصل حديثه فقال :

ـ ان والدتك قد شرعت في كتابة رسالة اليك حين كنتُ عندها . فلما وصلتُ الى هنا تعمدت أن لا أجيء لزيارتك قبل انقضاء بضعة أيام وذلك بغية أن اكون على يقين كامل من انك اطلعت على كل شيء. ولكنني أرى ، مدهوشاً كل الدهشة ...



السيد لوجين

فقاطعه راسكولنيكوف فجأة ، وقد بدا عليه الألم ، وظهرت فى هيئته علامات نفاد الصبر ، قاطعه قائلاً :

ـ أعرف ! أعرف ! أنت الخطيب ، أليس كذلك ؟ أعرف أعرف. ويكفينى هذا .

أحسّ بطرس بتروفيتش بأنه أهين فعلاً ، ولكنه صمت . كان يحاول جاهداً أن يفهم ما قد يعنيه كلام راسكولنيكوف . ودام الصمت برهة طويلة .

وفى اثناء ذلك كان راسكولنيكوف الذى التفت نحوه قليلاً ليجيبه، قد أخذ يتفرس فيه فجأة بعناد شديد واستطلاع قوى كأن وقته لم يتسع منذ قليل لأن يفحصه فحصاً كاملاً ، أو كأن شيئاً جديداً قد خطف بصره فيه ؛ حتى لقد أنهض رأسه عن الوسادة لهذا الغرض عمداً . وكان ذلك « الشىء » فى مظهر بطرس بتروفتش لا يخفى عن عين الناظر اليه فعلاً ، انه شىء خاص ، شىء لا أدرى ما هو ، شىء يسوّغ الصفة التى أطلقها عليه راسكولنيكوف بغير تحرج حين سماه «الخطيب». ان المرء يلاحظ قبل كل شىء ـ يلاحظ بوضوح شديد ـ أن بطرس بتروفتش قد أسرع يستفيد من الأيام القليلة التى يعتزم قضاءها فى العاصمة ليجعل نفسه جميلاً وأنيقاً بانتظار وصول خطيبته ؛ وذلك ، على كل حال ، أمر مشروع تماماً ، برىء كل البراءة . حتى ليمكن أن يغفر المرء لهذا الرجل ، بسبب لقب « الخطيب » الذى أصبح يحمله ، ماكان يراه فى نفسه من رأى لعله مسرف فى التعظيم ، بعد التبدل الموفق السعيد الذى طرأ عليه . كان يمكن أن تُعد ثيابه كاملة كل الكمال رائعة كل الروعة ، لولا عيب واحد هو أنها خارجة من عند الخياط رأساً لهدف محدد وغاية معينة . حتى قبعته المستديرة الأنيقة الجديدة كانت تدل على ذلك الهدف وتنبىء بتلك الغاية : ان بطرس بتروفيتش

يداريها مداراة فيها شيء من الغلو ويمسكها بيديه امساكاً مفرطاً في الاحتياط والحذر • وحتى القفازان الأخاذان الزاهيان بلون البنفسج اللذان اشتراهما من محل جوفان كانا يشهدان بذلك الهدف ويشيران الى تلك الغاية، على الأقل لأن لوجين كان يحاذر أن يلبسهما، فهو يحملهما بيده بغية أن يكون لهما أثر في أعين الناظرين • ان ثياب بطرس بتروفتش تغلب عليها ، في العادة ، الألوان الزاهية التي يحبها المراهقون• ولقد كان يرتدي في ذلك اليوم سترةً صيفية جميلة بلون الكستناء ، وسروالاً صيفياً زاهياً ، وصديرة مناسبة من قماش رقيق جداً ، قد اشتراها منذ قليل أيضاً ، ورباطاً للعنق رقيق النسيج تخدّده خطوط بلون الورد ؛ وأجمل ما في ذلك كله أن هذه الملابس جميعها كانت تتسق وشخص بطرس بتروفيتش كل الاتساق • انك لو نظرت الى وجهه النضر الذي لا يخلو من جمال لا يمكن أن تقدّر أنه في الخامسة والأربعين من عمره • وهاتان اللحيتان للعارضين بلون الكستناء ، تحيطان بوجهه اطاراً لطيفاً • انهما مقدودتان على شكل ضلعين ، فهما تتكاثفان حول الذقن تكاثفاً حلواً ، وقد حُلقت الذقن حلقاً ناعماً فهي ملتمعة براقة • وشعره نفسه ، الذي لم يكد يشيب ، والذي تولى الحلاق تصفيفه وتجعيده ، ليس له ذلك المظهر المضحك الغبي الذي نراه عادةً في الشعر المجعّد • ان شعره لا يضفي على وجهه ذلك التعبير الأبله الذي يلاحظ في وجه ألماني يرتدي ثياب الزفاف • ولئن كان في هذا الوجه الرصين الوقور شيء مزعج بل ومنفّر مع ذلك ، فان مردّ هذا الى أسباب أخرى •

نظر راسكولنيكوف الى السيد لوجين يتفحصه بغير كلفة ، ثم ابتسم ابتسامة مسمومة ، ثم استرخى على الوسادة مرة أخرى ، وعاد ينظر الى السقف من جديد •

ولكن السيد لوجين صمد ، وبدا عليه أنه قرر مذعناً أن لا يلاحظ الآن هذه الحركات الغريبة .

وقال يقطع الصمت بجهد ومشقة :

ـ يؤسفني أشد الأسف أن أجدك على هذه الحال من المرض ولو قد علمت أنك مريض لجئت أزورك قبل الآن . ولكن الأعباء الكثيرة المتعبة قد حالت بيني وبين ذلك . هذا عدا أن هنالك دعوى هامة جداً توجب عليّ وظائفي ، كمحامٍ ، أن أرفعها الى مجلس الشيوخ . ناهيك عن المشاغل التي لا بد أنك تدركها ... انني انتظر وصول والدتك وأختك ، أنتظر وصولهما بين لحظة وأخرى .

تحرك راسكولنيكوف ، وبدا عليه أنه يريد أن يقول شيئاً ، وعبَّر وجهه عن شيء من الانفعال ؟ فأمسك بطرس بتروفتش عن الكلام ، وانتظر برهة ، ولكنه لم يلبث أن استأنف حديثه حين رأى أن راسكولنيكوف لا يتكلم ، فقال :

ـ ... بين لحظة وأخرى . وقد بحثت لهما عن مسكن ينزلانه في الآونة الأولى .

سأله راسكولنيكوف بضعف :

ـ أين يقع هذا المسكن ؟

ـ غير بعيد عن هنا . في عمارة باكالايف .

قال رازوميخين مقاطعاً :

ـ في شارع « الصعود » . تضم العمارة مسكنين مفروشين يؤجرهما التاجر يوشين . لقد ذهبت الى هناك .

ـ نعم ، هو مسكن مفروش .

قال رازوميخين :

ـ منزل حقير ، فظيع ، قذر ، عفن؛ وهو فوق ذلك مشبوه ، جرت فيه قصص بشعة ... لا يعلم الا الشيطان من هم أولئك الذين يقيمون فيه ... لقـد زرته بنفسي على أثر فضيحة شـائنة . ولكنه يمتـاز بأن الأجور فيه زهيدة .

ردّ السيد لوجين يقول بلهجة جافة :

ـ لم أستطع طبعاً أن أجمع هذه المعلومات ، لأنني لم أصل الا منذ مدة قصـيرة . على أن الغرفتين نظيفتـان كل النظافة ، ولما كانت الاقامة فيهما قصيرة جداً ...

ثم تابع كلامه ملتفتاً الى راسكولنيكوف :

ـ وقد وجدت مسكناً لنا نحن منذ الآن ، أعني البيت الذي سنسكنه في المستقبل ، وقد بوشر في اعداده ؛ وبانتظار الانتهاء من ذلك أقيم أنا نفسي على مسافة خطوتين من هنا ، في غرفة مفروشة كيفما اتفق ، عند سيدة اسـمها ليبفكسـيل ، في شـقة صديق لي هو آندره سيميونوفتش ليبزياتنيكوف ، وهو الذي دلّني على عمارة باكالايف .

ـ ليبزياتنيكوف ؟

كذلك سـأل راسـكولنيكوف ببطء ، كأن هـذا الاسم يذكّره بشيء ما .

ـ نعم ، آندره سـيمونوفتش ليبزياتنيـكوف ، موظف باحـدى الوزارات . أتراك تعرفه ؟

أجاب راسكولنيكوف قائلاً :

ـ نعم ... لا ...

ـ معذرة . لقد خيّل اليّ من سؤالك أنك ... لقد كنتُ في

الماضى ولىَّ أمره ••• هو فتى لطيف جداً ، مطلع على كل ما هو جديد• اننى أحب معاشرة الشباب • من يعرفهم يتعلم كثيراً من الأشياء الجديدة•

قال بطرس بتروفتش ذلك وهو يلف السـامعين بنظرة شـاملة ، آملاً أن يحظى كلامه بتأييدهم •

سأله رازوميخين :

ـ بأى معنى ؟

فقال بطرس بتروفيتش وقد أسعده أن يُسأل :

ـ بالمعنى الجدى ، بالمعنى الهام الأساسى • صحيح أن جميع هذه الأشياء الجديدة ، جميع هذه الاصلاحات وهذه الأفكار * ، قد وصلت الى الأقاليم • ولـكن اذا أراد المـرء أن يرى الأمور رؤية أوضح ، رؤية أشمل ، فلا بد له أن يكون ببطرسبرج • وعندى أن خير وسيلة للتعلم انما هى ملاحظة أجيالنا الجديدة الفتية • وانى لأعترف بأننى قد ابتهجت كثيراً •••

ـ ما الذى ابتهجت له على وجه التحديد ؟

ـ سؤالك واسع قليلاً ••• قد أكون مخطئاً ، ولكن يخيَّل الىَّ اننى أجد الآن نظرة أوضح ، وأجد قدراً من حس النقد أكبر ، وأجد فكراً وضعياً أنمى وأوسع •

قال زوسيموف بغير اهتمام :

ـ هذا صحيح •

فردَّ رازوميخين قائلاً :

ـ أكاذيب ! ليس هناك أى فكر وضعى ! ان الفكر الوضعى يتم اكتسابه بكثير من المشقة والعناء ، وليس يهبط من السماء • ونحن أناس فقدنا عادة العمل والفعل منذ مائتى سنة أو نحو ذلك •

ثم أضاف يقول متجهاً بكلامه الى بطرس بتروفتش :

ـ صحيح أن الأفكار تختمر ، وأن الرغبة فى حسن العمل موجودة أيضاً مهما تكن صبيانية ؟ حتى لقد نجد شيئاً من الاستقامة والشرف والأمانة ، رغم أن القاعدة العامة ما تزال هى القاعدة القائلة « ما رأيت ولا أخذت » . ولكن يؤسفنى أن أقرر أن الفكر الوضعى لا وجود له .

قال بطرس بتروفتش يردُّ على رازوميخين وهو يشعر برضى واضح وارتياح لا يخفى :

ـ لا أشاطرك رأيك . صحيح أن هناك اندفاعات متطرفة ، وأن هناك اختلافات شديدة ، ولكن يجب أن نكون عادلين : ان هذه الاندفاعات المتطرفة تدل على أن أصحابها أناس مؤمنون صادقون ، وتدل أيضاً على أن الظروف ليست هى الظروف التى يجب توافرها . ولئن لم يتحقق حتى الآن الا القليل ، فلأنه لم يتهيأ حتى الآن الا وقت قصير ، ناهيك عن قلة الوسائل . وفى رأيى شخصياً أنه قد تحقق منذ الآن شىء ما : انتشرت الأفكار الجديدة ، الأفكار المفيدة ؟ انتشرت مؤلفات جديدة مفيدة بدلاً من الرومانسيات الحالمة التى ذاعت فىالقديم. نضج الأدب ، واستؤصلت أوهام كثيرة ضارة . بايجاز : قطعنا الصلة بالماضى قطعاً حاسماً ، وهذا وحده هو فى رأيى شىء هام .

دمدم راسكولنيكوف قائلاً :

ـ يردِّد أقوالاً محفوظة حباً بالظهور !

لم يسمع بطرس بتروفتش ما قاله راسكولنيكوف ، فسأله مستوضحاً :

ـ نعم ؟

ولكنه لم يحصل على جواب .

وأسرع زوسيموف يقول :

ـ هذا كله صحيح جداً .

قال بطرس بتروفتش وهو ينظر الى زوسيموف نظرة فيها لطف ووداعة :

ـ أليس كذلك ؟

ثم اتجه الى رازوميخين يقول له بلهجة تنم فى هذه المرة عن الانتصار وتعبّر عن الشعور بالتفوق ، حتى ليكاد يخاطبه بقوله : « أيها الفتى » :

ـ عليك أن تسلّم بأن هناك سيراً الى أمام ، أو أن هناك تقدماً على حدّ التعبير الرائج الآن ، على الأقل باسم العلم والحقيقة الاقتصادية .

ـ كلام معاد مكرور !

ـ لا ، ليس كلاماً معاداً مكروراً .

كذلك قال بطرس بتروفتش ، ثم تابع يقول بتعجل لعل فيه اسرافاً :

ـ مثلاً ، قالوا لنا حتى الآن : « أحبّ قريبك » . فلنفرض أننى أحببته ، فما الذى يترتب على ذلك ؟ يترتب عليه أن أشطر معطفى شطرين فأعطيه أحدهما فنصبح كلانا عاريين نصف عرى ، وفقاً لما يقوله المثل الروسى : « من طارد أرنبين فى آن واحد لم يدرك أياً منهما » . أما العلم فانه يقول : أحبّ نفسك قبل سائر الناس ، لأن كل شىء فى العالم قائم على المنفعة الشخصية * . فاذا لم تحب الا نفسك صرّفت شئونك على نحو ما يجب أن تصرّفها ودبرت أمورك كما ينبغى أن تدبّرها ، فبقى معطفك كاملاً سليماً لم يُمزّق . وتضيف الحقيقة الاقتصادية الى ذلك أنه كلما ازداد وجود الثروات الفردية فى المجتمع ، أى كلما كبر عدد المعاطف الكاملة ، ازدادت الأسس التى يقوم عليها المجتمع متانةً وصلابة ،

وازداد نظامه احكاماً وقوة . معنى هذا أننى حين أجنى خيراً لنفسى وحدى ، فانما أحصِّل فى الوقت نفسه خيراً لجميع الناس ، فينشأ عن ذلك أن قريبى ينال عندئذ أكثر من نصف معطف ، ولا يتم ذلك عندئذ بفضل كرم فردى ، بل يتم نتيجةً لرخاء عام ورفاهية شاملة . الفكرة بسيطة ، ولكنها لم تفرض نفسها ــ وا أسفاه ! ــ الا بعد وقت طويل ، لأنها كانت محجوبةً عن الأنظار بأحلام وهمية باطلة . ولم يكن المرء مع ذلك فى حاجة الى كثير من نفاذ البصيرة وقوة الذكاء من أجل أن يدرك أن ...

قاطعه رازوميخين يقول بخشونة :

ــ معذرةً ، أنا أيضاً لا أملك كثيراً من نفاذ البصيرة وقوة الذكاء ، فلنتقف اذن عند هذا الحد ، وحسبنا ما قلناه ! أنا انما تكلمت لأننى كنت أرمى الى هدف معيَّن ، أما هذه الثرثرة كلها التى لا تفصح الا عن اعجاب المرء بنفسه اعجاباً لذيذاً ، وأما هذا الكلام المعاد المكرور التى لا ينضب له معين ، فذلك كله ما يزال يبعث فى نفسى التقزز منذ ثلاث سنين حتى صرت احمرُّ لا حين أقوله أنا فحسب ، بل حين أسمع غيرى يقوله أيضاً. لقد تسرعتَ كثيراً فى اظهار ثقافتك وابراز معارفك. وذلك أمر يمكن أن يُغفر لك ، ولست ألومك عليه . ولكننى أردت أن أعرف من أنت ، ذلك أن الذين تعلقوا بالقضايا العامة من الأوغاد الحقيرين قد بلغوا من فرط الكثرة والتنوع ، وبلغوا من شدة افساد كل ما لمسوه ، فى سبيل مصلحتهم ، أنهم وسخوا كل شىء توسيخاً لا خلاص منه ولا يمكن محوه . وكفى هذا !...

قال السيد لوجين بوقار شديد :

ــ أتراك تريد ، أيها السيد ، أن تشير غمزاً الى أننى ...

ــ رحماك ، رحماك ! كيف يمكننى أن ... والآن ، كفى !...

كذلك قطع رازوميخين كلامه ، والتفت الى زوسيموف التفاتاً جازماً ، ليستأنف ما كان بينهما من حديث .

وملك بطرس بتروفتش من الذكاء ما جعله يقبل هذا الجواب فوراً . وكان قد قرر ، على كل حال ، أن ينصرف بعد دقيقتين .

قال يخاطب راسكولنيكوف :

ـ أرجو للعلاقات التى بدأت بيننا الآن أن تتوطد مزيداً من التوطد حين تبل من مرضك ، بفضل الظروف التى تعرفها ... اننى اتمنى لك تحسن الصحة قبل كل شيء .

لم يلتفت راسكولنيكوف اليه . وهمَّ بطرس بتروفتش أن ينهض.

قال زوسيموف يخاطب رازوميخين بلهجة قاطعة :

ـ لا شك أن أحد زبائنها هو الذى قتلها .

فأجابه رازوميخين موافقاً :

ـ لاشك ! لاشك أن أحد زبائنها هو الذى قتلها. ان بورفير لايطلع أحداً على خواطره ، ولكنه يستجوب جميع الذين أودعوا عندها رهوناً.

سأل راسكولنيكوف بصوت عالٍ جداً :

ـ يستجوبهم ؟

ـ نعم ، لماذا تسأل هذا السؤال ؟

ـ لا لشيء !

وسأل زوسيموف :

ـ أين يمكنه أن يجدهم ؟

ـ سمّى له كوخ بعضهم . وهناك أسماء أخرى مسجلة على الأوراق التى لُفت به الأشياء . وهناك آخرون جاءوا من تلقاء أنفسهم منذ علموا بالنبأ ...

ـ يميناً ان الذى ضرب هذه الضربة لا بد أن يكون وغداً كبيراً ، وغداً محنكاً ، ذا خبرة ! يا لها من جرأة ! يا لها من عزيمة !•

قال رازوميخين مقاطعاً :

ـ لا ، بالعكس ! وذلك بعينه هو ما يتوهمكم جميعاً • أنا أزعم أن القاتل أخرق ليس بذى تجربة ولا خبرة ، وأن هذه الجريمة هى خطوته الأولى على هذا الطريق • لو افترضناه بارعاً حاذقاً لغدت جميع الأمور سلسلة من وقائع لا يمكن تفسيرها • أما اذا افترضناه غير ذى تجربة ولا خبرة ، فان المصادفة وحدها تكون هى التى أخرجته من الورطة وما أكثر ما تفعله المصادفات ! لعله لم يتنبأ بالعقبات التى ستعترض سبيله ، ولم يتصور الحواجز التى سيصطدم بها ! انظر كيف تصرف : لقد أخذ أشياء لا تزيد قيمة كل منها على عشرة روبلات أو على عشرين روبلاً ، فملأ بها جيوبه ، لقد نبش بين الخرق فى صندوق العجوز ، على حين أن الدرج الأعلى من الخزانة ذات الأدراج قد عُثر فيها على علبة تحوى ألفاً وخمسمائة روبل فضة ، عدا النقود الأخرى • حتى السرقة لم يحسنها • انه لم يحسن الا القتل !••• هذه خطوته الأولى على طريق الاجرام ، اقول لكم هذه خطوته الأولى ! نعم ، لقد طاش عقله وذهب صوابه ••• أؤكد لكم أن ما أنقذه ليس هو الحساب بل هو المصادفة •

تدخل بطرس بتروفتش فى الحديث ، فقال يسأل زوسيموف :

ـ أظن أنكم تتحدثون عن جريمة القتل التى وقعت مؤخراً وكانت ضحيتها تلك المرأة العجوز ، أرملة الموظف ، أليس كذلك ؟

وكان بطرس بتروفتش واقفاً يحمل بيده قبعته وقفازيه • غير أنه ما يزال يحب أن يرسل بعض الأقوال اللائمة قبل أن ينصرف • كان

واضحاً أنه يهمّه أن يخلف فى نفوس سامعيه أثراً حسناً ، فتغلب حب الظهور عنده على رجاحة العقل •

ـ هل سمعتَ عن هذه الحادثة ؟

ـ طبعاً ! ان جميع الجيران •••

ـ هل تعرف التفاصيل ؟

ـ لا أستطيع أن أزعم أننى أعرف التفاصيل ، غير أن ما يعنينى فى هذه القضية انما هو بعض ظروفها ، أو بعض المشكلات التى تطرحها• لست أتكلم عن أن عدد الجرائم التى تُرتكب فى الطبقات الدنيا قد ازداد ازدياداً كبيراً فى السنوات الخمس الأخيرة ؛ لا ولا أتكلم عن حوادث السطو وحوادث الحريق التى تتعاقب فى كل مكان بغير انقطاع• لا ، لا أتكلم عن هذا ؛ وانما الشىء الذى يبدو لى غريباً هو أن عدد الجرائم يتزايد فى الطبقات العليا أيضاً ، على موازاة تزايده فى تلك الطبقات الدنيا ان صح التعبير • هنا ، طالبٌ سابق يهاجم عربة بريد* فى الطريق الكبير ؛ وهناك ، أناس ممن يحتلون مركزاً اجتماعياً حسناً ، يصنعون أوراقاً مالية مزيفة ؛ وهنالك أيضاً ، فى موسكو ، تُعتقل جماعة بكاملها من الأفراد تزيّف أوراق اليانصيب ، ومن بين الجناة الرئيسيين فيها أستاذ من أساتذة التاريخ العام * • وهنالك أخيراً ، يُقتل موظف من موظفى سفاراتنا فى سبيل الحصول منه على مال أو لأغراض أخفى من ذلك !••• فاذا كان قاتل تلك العجوز واحداً من أبناء الطبقات العليا ـ ولا بد أن يكون كذلك ، لأن أبناء الشعب الفقير لا يرهنون ، فيما أعلم ، أشياء ذهبية ـ فكيف نفسّر اذن هذا التحلل الذى يعيث فساداً فى الجزء التمدن المتحضر من مجتمعنا ؟

قال زوسيموف :

ـ ان للتبدلات الاقتصادية المفاجئة دخلاً كبيراً فى حدوث هذه الظاهرة .

وقال رازوميخين مجيباً عن سؤال بطرس بتروفتش :

ـ كيف نفسّر هذا التحلل ؟ الأمر بسيط : نفسّره بفقدان الفكر الوضعى والروح العملية ...

ـ أى ؟

ـ قل لى : بماذا أجاب ، فى موسكو ، أستاذ التاريخ العام ذاك حين سُئل لماذا يزيّف أوراق اليانصيب ؟ ، لقد أجاب بقوله : « ان جميع الناس يغتنون ويثرون بأية وسيلة من الوسائل ، لذلك أردت أنا أيضاً أن أغتنى وأن أثرى بأقصى سرعة . » . لا أتذكر الآن أقواله بنصها ، ولكن معناها هو أنه أراد أن يجمع ثروة بأقصى سرعة وبأقل تكلفة ، دون ن يتحمل مشقة أو أن يبذل جهداً . نعم ، لقد اعتاد الناس أن يعيشوا عالةً على الآخرين ، دون أن يحفلوا بشىء أو أن يكترثوا لشىء ، واعتادوا أن يقتصروا على القيام بأعمال سهلة ، فمتى آن الأوان ظهر كل واحد على حقيقته ...

ـ ولكن هناك أخلاق ... هناك مبادىء رغم كل شىء ...

ـ ما الذى يقلقك ؟ ان هذا هو النتيجة التى تترتب على نظريتك نفسها !

ـ نظريتى أنا ؟

ـ استخرج النتائج التى تترتب على المبدأ الذى وضعته منذ قليل ، تجد أنه يجيز للانسان أن يقتل الآخرين .

صاح لوجين يقول :

ـ أرجوك !...

قال زوسيموف :

ـ لا ، ليس هذا صحيحاً •

كان راسكولنيكوف ما يزال راقداً ، وكان شاحباً شحوباً شديداً ، وكانت شفته العليا ترتجف ، وكان يتنفس بمشقة وعسر •

وتابع لوجين كلامه فقال متعالياً :

ـ هنالك حدود معتدلة معقولة • ليست الفكرة الاقتصادية حضاً على القتل ؟ واذا فرضنا أن •••

فقاطعه راسكولنيكوف على حين فجأة يسأله بصوت مرتجف من شدة الغضب ، بصوت يشوبه نوع من فرح خبيث ، يشوبه نوع من التلذذ بالاهانة :

ـ هل صحيح أنك قلت لخطيبتك ، ساعةَ وافقت على زواجها منك، ان ما يسعدك مزيداً من السعادة أنها فقيرة معدمة ••• لأن من المفيد جداً أن ينتشل الرجل امرأة من وهدة الشقاء ، ليسيطر عليها بعد ذلك ••• وليزهو عليها بالخيرات التى غمرها بها ؟

صاح لوجين يقول بصوت شرير حانق ، وقد خرج عن طوره :

ـ أيها السيد ، انك تشوه فكرتى • معذرةً • غير أن من واجبى أن أعلن لك أن الشائعات التى بلغتك ، أو قل الشائعات التى نُقلت اليك عمداً ، لا تقوم على أى أساس من الصحة ••• وأننى ••• أشتبه ••• الخلاصة ••• أشتبه فى أن هذا السهم ••• الخلاصة ••• انما أرسلته أمك !••• على كل حال ، لا أكتمك ••• أننى بغض النظر عن هذا ••• قد لاحظت ••• رغم ما لأمك من مزايا عظيمة ••• أنها مشبوبة العواطف رومانسية النفس قليلاً ••• لكننى ما كان لى أن أتخيل

أنها يمكن أن تنظر الى الأمور هذه النظرة ، وأن تراها هذه الرؤية ..
وعلى كل حال ، على كل حال ...

صرخ راسكولنيكوف يقول له وهو ينهض عن وسادته ويحدّق اليه بعينين تقدحان شرراً :

ـ هل تريد أن أقول لك ؟

ـ ماذا تقول لى ؟

قال لوجين ذلك ، وانتظر جواب راسكولنيكوف متحدياً ، وخيّم الصمت بضع ثوان .

قال راسكولنيكوف :

ـ اعلم أنك ... اذا تجرأت مرة أخرى ، فقلت فى حق أمى كلمةً واحدة ، فلأنزلنّك تدحرجاً على الرأس ...

صاح رازوميخين يقول لراسكولنيكوف :

ـ ماذا دهاك ؟

فقال راسكولنيكوف :

ـ نعم ، هكذا ...

اصفر لوجين ، وعضّ على شفته ، ثم قال متمهّلا محاولاً أن يكظم غيظه بكل ما أوتى من قوة ، لأن الغضب كان يخنقه خنقاً ، قال :

ـ اسمع يا سيد . لم يفتنى أن ألاحظ منذ قليل ، حين دخلتُ ، الاستقبال الغريب الذى خصصتنى به ، ولكننى تعمدت أن أبقى لأرى الى أى حد سوف تمضى ... ولقد كان يمكن أن أغفر أشياء كثيرة لانسان مريض تربطنى به قرابة ... أما لك أنت ، فلن أغفر ... لن أغفر فى يوم من الأيام ...

صاح راسكولنيكوف يقول :

ـ لست مريضاً !

ـ ذنبك اذن أعظم !

ـ اذهب الى جهنم !

ولكن لوجين كان قد خـرج دون أن يكمل كلامه • تسلل بين المائدة والكرسى من جـديد ، ونهض له رازوميخين فى هذه المرة عن كرسيه ، ليفسح له مجال المرور • خـرج لوجين حتى دون أن يحيى برأسه زوسيموف الذى كان منذ برهة طويلة يومىء اليه برأسه مهيباً به أن يدع المريض وشأنه ؛ وقد خـرج وهو يرفع قبعته الى مسـتوى كتفه على سبيل الاحتياط ، لحظةَ انحنى ليجتاز عتبة الباب • كان واضحاً من طريقة حنيه ظهره أنه انصرف وهو يحمل شـعوراً بأنه أهين اهانة فظيعة •

قال رازوميخين لراسولنيكوف وهو يهز رأسه متحيراً مرتبكاً :

ـ هل يمكن أن يتصرف أحد هذا التصرف ؟

فصاح راسكولنيكوف يقول خارجاً عن طوره ،

ـ دعونى ، دعونى جميعاً ! ألا تريدون أن تتركونى وشأنى أيها الجلاّدون ؟ أنا لست خائفاً منكم ••• لست الآن خائفـاً من أحـد • اخرجوا من هنا ! أريد أن أكون وحيداً ، وحيداً ، وحيداً •••

قال زوسيموف وهو يومىء لرازوميخين :

ـ فلننصرف !

ـ كيف؟ هل يمكن أن نتركه وهو على هذه الحال ؟

فكرر زوسيموف قوله :

ـ فلننصرف •

وخرج •

فكرّ رازوميخين لحظة ، ثم مضى يلحق بصاحبه زوسيموف •

قال زوسيموف وقد صارا على السلّم :

ـ لو لم نطعه لساءت حاله مزيداً من السوء • ما ينبغي أن نخنقه•

ـ ماذا أصابه ؟

ـ ليت هزّةً سارة تصيبه • نعم ، ذلك ما هو في حاجة اليه • لقد استرد قواه منذ قليل ••• أظن أن هناك أمراً يشغل باله ، أظن أن هناك فكرة تثقل على صدره ، وتحاصر فكره ••• وذلك ما أخشاه ! لا شك أن الأمر كذلك •••

ـ لعل للسيد بطرس بتروفتش دخلاً فيما هو فيه • ان الحديث الذي جرى بينهما يدل على أن السيد بطرس بتروفتش سيتزوج أخت راسكولنيكوف ، وأن روديا قد أُبلغ هذا النبأ برسالة وصلت اليه قبيل مرضه ببرهة وجيزة •

ـ نعم ، ان الشيطان هو الذي قاد هذا الرجل اليه ، في هذا اليوم عينه ! لعل هذا الرجل قد أفسد الآن كل شيء • ولكن قل لي : هل لاحظت أن روديا كان لا يكترث بشيء ، ولا يخرج عن صمته الا لأمر واحد كان يخرجه عن طوره هو جريمة القتل تلك ؟

أجاب رازوميخين موافقاً :

ـ نعم ، نعم ، لاحظت ذلك واضحاً كل الوضوح • ان هذه الجريمة تهمه ، بل وترعبه ••• ولكن مردّ ذلك الى أنه في ذلك اليوم نفسه الذي مرض فيه قد ارتاع في مكتب رئيس الشرطة ، حتى لقد أغمي عليه •

ـ ستقص عليَّ ذلك تفصيلاً في هذا المساء ، وسأقول أنا لك شيئاً حينذاك . ان حالته تعنيني كثيراً . سأجيء أستطلع أخباره بعد نصف ساعة . مهما يكن من أمر ، فلا خوف عليه من أن يُصاب باحتقان ...

ـ شكراً لك . وفي أثناء هذا الوقت ، سأنتظر أنا عند باشنكا ، وسأكلف ناستاسيا بمراقبته .

نظر راسكولنيكوف الى ناستاسيا ضجراً نافد الصبر . ان ناستاسيا لم تشأ أن تنصرف .

قالت له :

ـ هل لك بقليل من الشاي الآن ؟

ـ بل فيما بعد . الآن أريد أن أنام . اتركيني !

قال راسكولنيكوف ذلك ، واستدار نحو الحائط بحركة تشنجية. وخرجت ناستاسيا .

الفصل السادس

ولكن ما ان خرجت حتى نهض فأوصد الباب بالكلابة وفض صرة الملابس التى أتى بها رازوميخين وأعاد ربطها ، ثم أخذ يلبس . شيء غريب : لكأن راسكولنيكوف قد أصبح على حين فجأة هادئاً كل الهدوء . لم يبق فيه أثر من ذلك الهذيان التى يشبه أن يكون جنوناً والذى كان يسكن فيه منذ قليل ، ولا بقى فيه شيء من ذلك الرعب الشديد الذى استولى عليه فى الآونة الأخيرة . ان حركاته الدقيقة الواضحة تدل على عزم قوى . وكان يدمدم قائلاً بينه وبين نفسه : « فى هذا اليوم ، فى هذا اليوم نفسه » . كان يدرك مع ذلك أنه ما يزال ضعيفاً ، غير أن توتراً نفسياً يقارب الجأش الرابط والفكرة الثابتة كان يهب له قوة وثقة . وكان من جهة أخرى يأمل أن لا يتهاوى فى الشارع.

فلما انتهى من ارتداء ثيابه الجديدة ، نظر الى المال الموضوع على المائدة ، ففكر ثم وضعه فى جيبه . كان هناك خمسة وعشرون روبلاً . وتناول كذلك النقود النحاسية الصغيرة الباقية من الروبلات العشرة التى وقفها رازوميخين على شراء الملابس . ثم سحب الكلابة برفق ، وخرج من الغرفة ، وهبط السلّم وهو يلقى نظرة على المطبخ الذى كان بابه مفتوحاً تماماً : كانت ناستاسيا مائلةً مدبرةً تنفخ على سماور مولاتها ، فلم تسمع شيئاً . ومن ذا الذى كان يمكن أن يفترض ، على كل حال ،

أن راسكولنيكوف قد يخرج ؟ وما انقضت دقيقة واحدة حتى كان راسكولنيكوف فى الشارع •

الساعة تقارب الثامنة ، والشمس تغرب ، والجو خانق كما كان بالأمس ، ولكن راسكولنيكوف كان يستنشق ، بنهم شديد ، هذا الهواء المغبَّر الموبوء الذى تنشره المدينة الكبيرة • أخذ يشعر بدوار خفيف • وهذا نوع من طاقة وحشية يسطع فجأة فى عينيه الملتهبتين ، وينعكس على وجهه المهزول المزرق • كان لا يعرف الى أين يجب أن يذهب ، لا ولا يخطر بباله أن يلقى على نفسه هذا السؤال • كان لا يعرف الا شيئاً واحداً هو أن « كل شيء » يجب أن ينتهى فى هذا اليوم نفسه ، دفعة واحدة ، وفوراً ؟ وأنه بدون ذلك لن يعود الى بيته ، « لأنه لا يريد أن يعيش هكذا » • أما كيف ينتهى من ذلك كله ، وأما بأية وسيلة ينتهى من ذلك كله ، فانه لم يكن يريد أن يفكر فى هذا ! لقد كان يدفع عن نفسه هذه المسألة ، غير أنه يحس ويعلم أن كل شيء يجب أن يتغير بطريقة أو بأخرى « مهما يكن من أمر ، ومهما يحدث من حادث » • هذا ما كان يكرره لنفسه بيأس وثقة وعناد •

وقادت خطاه عادةٌ قديمة من عاداته ، فسار فى الطريق التى يسلكها فى نزهاته المألوفة ، واتجه رأساً نحو « سوق العلف » • حتى اذا أوشك أن يصل اليه رأى على أرض الشارع شاباً أسمر يعزف على أرغن بارباريا لحناً عاطفياً جداً وهو واقف أمام أحد الدكاكين • وكان الشاب يصاحب بالعزف غناءَ صبية فى نحو الخامسة عشرة من عمرها ، قد وقفت أمامه على الرصيف مرتديةً ثياب فتاة : تنورةً وخماراً وقفازين وقبعةً من قش تزينها ريشة حمراء بلون النار ؟ ومجموع ثيابها يبدو عتيقاً بالياً • كانت الصبية تغنى بصوت مغنيةٍ من مغنيات

الشوارع ، وهو صوت مصدَّع لكنه ممتع قوى ، وما تزال تمعن فى الغناء آملةً أن ينفحها صاحب الدكان كوبكين •

وقف راسكولنيكوف الى جانب شخصين أو ثلاثة أشخاص كانوا يصغون الى الغناء ، فأصغى هو أيضاً ، ثم أخرج قطعةً نقديةً قيمتها خمسة كوبكات فدسَّها فى يد الصبية • فما كان من الصبية الا أن توقفت عن الغناء عند النغمة التى كانت قد بلغتها ، وهى النغمة الأقوى علواً والأبلغ تأثيراً ، ثم صرخت تقول للعازف بصوت جاف : « كفى! »؛ واستأنف الاثنان سيرهما الى الدكان التالى •

اتجه راسكولنيكوف بالكلام فجأةً الى رجل كهلٍ كان قد سمع لعزف الأرغن الى جانبه ، وكان يبدو أنه متنزه هائم على وجهه ، فقال له :

ـ هل تحب أغانى الشوارع ؟

فنظر اليه الرجل مبهوتاً •

وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال وكأن الأمر لا شأن له بغناء الشوارع البتة :

ـ أنا أحب أن أسمع الغناء على صوت أرغن باربارينا ، فى ليلة حالكة من ليالى الخريف ، ليلة رطبة باردة ، رطبةٍ على وجه الخصوص ، بينما المارَّة ، قد أزرقَّت وجوههم جميعاً حتى لكأنها خضراء ، ولا سيما حين ينهمر ثلج ذائب يتساقط قائماً لا تهب عليه نسمة من ريح، فتسطع رءوس مصابيح الغاز من خلال الثلج المنهمر •

قال السيد مدمدماً وقد روَّعه السؤال مثلما روَّعه هذا المظهر الغريب فى راسكولنيكوف :

ـ لا أدرى !••• معذرةً •••

ومضى ينتقل الى الجهة الأخرى من الشارع .

سار راسكولنيكوف قدماً ، فوصل الى ناصية « سوق العلف » ، الى ذلك المكان نفســه الذى كان قد سـمع فيه البائع وزوجتَه يحدثان اليزابث . ولكن البائع وزوجته لم يكونا هناك فى ذلك الوقت .

تعرف راسكولنيكوف المكان ، فوقف ، ونظر حوله ، ثم اتجـه الى شاب يلبس قميصاً أحمر كان يتثاءب عند مدخل دكانٍ لبيع الدقيق فقال له :

ـ هنا ، عند هذه الناصية ، يعمل بائعٌ وامرأته ، هه ؟

فأجابه الفتى وهو يروزه بنظره :

ـ يجيء الى هنا باعةٌ كثيرون لا يُحصى لهم عدد !

ـ ماذا يسمونه ؟

ـ يسمونه باسمه .

ـ وأنت ، ألست من زارايسك ؟ من أى اقليم أنت ؟

ـ منطقتنا يا صاحب السعادة ليست اقليماً بل مقاطعة ، واذ أن أخى هو الذى يسافر ، وأبقى أنا فى الدار ، فاننى لا أعرف شيئاً . أرجو أن تعذرنى يا صاحب السعادة !

ـ هل المحل الذى أراه فى الطابق الأعلى مطعم ؟

ـ بل هو كاباريه ... وفيه بلياردو ... وتجد فيه حتى أميرات ... هو محل عظيم !.

مضى راسكولنيكوف ينتقل الى الجهة الأخرى من الميدان . وهناك، عند الزاوية ، كان يرابط جمهور كثيف ليس فيه الا فلاحون . تسلّل راسكولنيكوف الى حيث يتكاثف الجمهور أكبر تكاثف ، وأخذ يتفحص

الوجوه . كان يتمنى أن يكلم كل واحد من هؤلاء الناس ، لا يدرى لماذا ! ولكن الفلاحين لم يلتفتوا اليه . كانوا يحتشدون جماعات صغيرة تتحادث متمازحة . وقف راسكولنيكوف لحظةً يفكر ، ثم مضى يمنةً فى اتجاه شارع « ف ... » . حتى اذا غادر « سوق العلف » دخل فى زقاق ضيق .

سبق له كثيراً أن سلك هذا الزقاق المنحني الذى يصل بين الميدان وبين شارع سادوفايا . لقد كان يحب فى الآونة الأخيرة ، حين كان كل شيء يثير فيه الاشمئزاز والتقزز ، أن يتجول فى هذه النواحي ، « نشداناً لمزيد من الاشمئزاز والتقزز » . ولكنه يسلك الآن هذا الزقاق دون أن يفكر فى أى شيء . ان فى هذا المكان عمارةً كبيرة ليس فيها الا خمارات ومطاعم ومقاهٍ ، تخرج منها فى كل لحظة نساء حاسرات الرءوس يرتدين ثياباً خفيفة ، ويحتشدون جماعاتٍ فى مكانين أو ثلاثة على الرصيف ولا سيما قرب الأقبية حيث يكفى المرءَ أن يهبط درجتين أو ثلاثاً حتى يصل الى بيوتٍ من بيوت اللذة . ان فى أحد هذه البيوت الآن جلبةً كبيرة تجتاح الشارع كله : فهناك عزف على القيثارة ، وغناء ، ومرح بلغ ذروته ؛ وعند المدخل تزدحم نساء كثيرات ، فبعضهن جالسات على الدرجات ، وبعضهن جالسات حتى على الرصيف ، وبعضهن واقفات يثرثرن . وغيرَ بعيد من ذلك المكان ، يسير على أرض الشارع جندى سكران مترنح ، قد وضع فى فمه سيجارة ، وراح يحلف الأيمان بصوت عالٍ . كان كأنه يريد أن يدخل مكاناً ما ، ولكنه أصبح لا يعرف أين . وهذا رجل يرتدى أسمالاً رثة قد طفق يتبادل الشتائم مع رجل آخر يرتدى أسمالاً رثة أيضاً . وهذا شخص قد بلغ السكر منه كل مبلغ فاستلقى يرقد على أرض الشارع عرضاً .

وقف راسكولنيكوف قرب الجماعة الرئيسية من النساء . كنّ

يثرثرن بصـوت أبحّ • انهن جميعاً حاسرات الرؤوس ، يرتدين فساتين من قماش خفيف مشجَّر ، وينتعلن أحذية من جلد الماعز • منهن من تجاوزن الأربعين من العمـر غير أن منهن صبايا في السـابعة عشرة • وجميعهن تقريباً متورمات الأعين •

اجتذبته الأغاني والجلبة الصادرة عن القبو ، دون أن يعرف لماذا• في وسط الضحكات والصرخات ، كان يُسمع صوت رجل يغني بصوت نحيل حاد ويصاحب غناءَه عزف على قيثارة ، بينما أعقاب الأرجل تقرع الأرض قرعاً قوياً لاظهار الايقاع • مال راسـكولنيكوف نحو البـاب ، وألقى من على الرصيف نظرات مستطلعة ، وراح يصغي مظلم النفس شارد الفكر • كانت الأغنية التي يصدح بها الصوت النحيل الحاد تقول:

يا حارسي الجميل

لا تضربني ظلما بغير سبب

شعر راسكولنيكوف برغبة رهيبة في سـماع هذه الأغنية ، كأن المسألة كلها في نظره هي هذه !

قال يسأل نفسه : « ماذا لو دخلت ؟ انهم يضحكون مقهقهين • انهم سكارى • ماذا لو سكرت أنا أيضاً ؟ » •

سألته احدى النساء بصوت واضح لكنه أبح :

ـ ألا تدخل يا سيدي العزيز ؟

كانت المرأة شابة ، بل كانت بين هذه الجمـاعة من النسـاء المرأة الوحيدة التي لا يبعث منظرها على النفور البتة •

قال وهو ينتصب وينظر اليها :

ـ ما أجملها !

ابتسمت المرأة • لقد سرَّها هذا المديح سروراً عظيماً وقالت له :

ـ أنتِ أيضاً شاب جميل .

فقالت امرأة أخرى تعارض بصوت أجش :

ـ لكنه نحيل جداً . خارج من المستشفى ، هه ؟

وكان يمر فلاح له وجه سكير مرح ماكر ، يرتدي سترةً حُلَّت أزرارها ، فقال فجأةً :

ـ يظهر أنهن بنـــات من أعلى طبقــة . ولكن هذا لا ينفي أن أنوفهن فطساء !

وأضاف :

ـ أرأيت الى هذا المرح ما أعظمه !

قالت له احداهن :

ـ هيَّا أدخل ما دمت قد جئت ؟

ـ فوراً يا حلوة ، فوراً .

أجابها الفلاح بذلك ، وهرول يهبط الدرجات .

وأراد راسكولنيكوف أن يستأنف سيره . فلما همَّ أن يستدير لينصرف ، صرخت البنت تقول له :

ـ اسمع يا سيد !

ـ ماذا ؟

فاضطربت ، وقالت له :

ـ سيسعدني دائماً ، أيها السيد ، أن أقضي معك بضع ساعات ؛ ولكنني ... أشعر الآن بخجل شديد منك . هلاَّ أهديت اليَّ ســتة كوبكات أشرب بها كأساً ، أيها الفارس الجميل !

فأخرج راسكولنيكوف من جيبــه ما وقع تحت يده : ثلاث قطع نقدية من فئة الخمسة كوبكات .

ـ آ ... يا للسيد السخى !

ـ ما اسمك ؟

ـ لن يكون عليك الا أن تسأل عن دوكليدا .

قالت امرأة من جماعة النساء ، وهى تومىء الى دوكليدا باشارة من رأسها :

ـ ما أعجب هذه الأساليب ! كيف ترضى هذه البنت أن تستعطى هذا الاستعطاء ؟ لو كنت فى مكانها لآثرت أن أدفن نفسى فى التراب من شعورى بالخزى والعار !

التفت راسكولنيكوف الى المرأة التى قالت هذا الكلام ، ونظر اليها مستطلعاً مستغرباً . هى مومس فى نحو الثلاثين من عمرها ، مجدورة الوجه منتفخة الشفة العليا ، تغطى بشرتها بقعٌ زرقاء . ولقد قالت كلامها بلهجة هادئة جادة .

تساءل راسكولنيكوف وهو يستأنف سيره : « تُرى أين قرأت أن رجلاً محكوماً عليه بالاعدام قد قام أو تخيَّل قبل اعدامه بساعة أنه لو اضطر أن يعيش فى مكان ما ، على قمة ، فوق صخرة ، بموضع لا تزيد مساحته على موطىء قدم ، وكان كل ما حوله هوةً سحيقة ، خضماً كبيراً ، ظلمات أبدية ، عزلةً خالدة ، زوابع لا تنقطع ، وكان عليه أن يبقى واقفاً على موطىء القدم هذا مدى الحياة ، بل ألف سنة ، بل أبد الدهر ، لظل مع ذلك يؤثر أن يعيش هذه العيشة على أن يموت فوراً ، أن يعيش فحسب ، أن يعيش ! أن يعيش أية عيشة ، ولكن أن يعيش .. نعم ،أين قرأت هذا ؟ ما أصدق هذا الكلام ! رباه ، ما أصدق هذا الكلام !... » *

قال راسكولنيكوف ذلك ، ثم أردف بعد لحظة :

ـ الانسان جبان ، ولكن جبانٌ أيضاً ذلك الذى يصفه بالجبن لهذا السبب !

ودخل فى شارع آخر، فما لبث أن قال لنفسه : « هه ! هذا « قصر الكريستال » ! لقد تكلم عنه رازوميخين منذ قليل ... ولكن ماذا كنت أريد أن أعمل ؟ نعم نعم ، كنت أريد أن أقرأ ... لقد ذكر زوسيموف أنه قرأ فى الجرائد ... » .

ـ هل عندكم جرائد ؟

كذلك سأل راسكولنيكوف وهو يدخل حانة واسعة ، جميلة المظهر ، ذات عدة قاعات ، ولكنها مع ذلك خالية الا من عدد قليل من الناس . كان هنالك شخصان أو ثلاثة يحتسون الشاى ؛ وفى قاعة أخرى ، فى آخر الحانة ، جلست جماعة من أربعة أشخاص يشربون الشمبانيا ، اعتقد راسكولنيكوف حين رآهم أن زاميوتوف أحدهم . ولكن المرء لا يمكن أن يكون واثقاً كل الثقة من صدق رؤيته ، على مسافة بعيدة هذا البعد .

قال لنفسه : « وأى ضير فى هذا على كل حال ؟ » .

سأله الخادم :

ـ هل تريد فودكا ؟

فقال له راسكولنيكوف :

ـ بل هات لى شاياً ، وجئنى بجرائد ، جرائد قديمة ، جرائد الأيام الخمسة الأخيرة . سوف أنفحك بقشيشاً سخياً .

ـ حاضر . اليك الآن جرائد اليوم . وهل تريد فودكا أيضاً ؟

ووصلت الجرائد والشاى . جلس راسكولنيكوف وانكب على

الجرائد باحثاً منقباً : « ايتسلر – ايتسلر – الأزتيكيان – ايتلسر • – بارتولا • – ماسيمو • – الأزتيكيان • – ايتسلر * – » الى الشيطان هذا كله ••• آ ••• أخيراً ••• هذه هى الأنباء المتفرقة ••• « سقوط فى سلم » ، « تاجر سكران يحترق حياً » ، « حريق فى حيّ الرمال » ، « حريق فى بطرسبرج » ، حريق آخر فى بطرسبرج » ، « ايتسلر •• ايتسلر •• ايتسلر •• ماسيمو •• » • آ ••• وصلنا •••

وجد راسكولنيكوف أخيراً ما كان يبحث عنه ، وأخذ يقرأ • ان الأسطر تتراقص أمام عينيه ، ولكنه قرأ « النبأ » حتى نهايته ، وطفق يبحث ، فى شراهة ونهم ، عن تفاصيل جديدة فى الأعداد التالية ، فكانت يداه ترتجفان من نفاد الصبر وهو يتصفح الجرائد • وفجأة جاء أحد فجلس الى مائدته ، بقربه • رفع راسكولنيكوف عينيه • انه زاميوتوف ، زاميوتوف نفسه ، بلا تبدل ولا تغير ، زاميوتوف ، بخواتمه ، وسلاسله ، والفرق الذى يشطر شعره الأسود العكف المطيَّب ، والصديرة الأنيقة ، والردنجوت الخلق قليلاً ، والقميص الذى ذهب بعض رونقه • كان زاميوتوف مرحاً ، أو قل على الأقل انه كان يبتسم بكثير من المرح والطيبة • وكان وجهه الأسمر يبدو ساخناً بعض السخونة من الشمبانيا التى شربها •

بدأ يتكلم مدهوشاً فقال لراسكولنيكوف بلهجة من يعرفه منذ مدة طويلة :

– كيف ؟ أأنت هنا ؟ أمس قال لى رازوميخين انك لم تفق من غيبوبتك • شىء عجيب • هل تعرف أننى زرتك أثناء مرضك ؟

كان راسكولنيكوف يعرف أن زاميوتوف سيتعرض له • فوضع

الجرائد جانباً ، والتفت اليه . ان ابتسامة ساخرة تطوف بشفتيه ، ويرى المرء في هذه الابتسامة ، منذ الآن ، صبراً نافداً وغيظاً شديداً .

أجابه يقول :

ـ أعرف أنك زرتني . حكى لى هذا . حتى لقد بحثت عن جوربى . ولكن هل تعلم أن رازوميخين مجنون بك ، منذ ذهبتما معاً الى عند لويزا ايفانوفنا ... نعم ، تلك التي حاولت أن تدافع عنها في ذلك اليوم ، غامزاً « الليوتنان بارود » التي لم يفهم من غمزك شيئاً . ألا تذكر ؟ كيف أمكن أن لا يفهم أن الاشارة كانت واضحة ، هه ؟

ـ يا له من رجل صخّاب ؟

ـ من ؟ الليوتنان بارود ؟

ـ بل صديقك رازوميخين .

ـ انك تعيش حياة فرحة يا سيد زاميوتوف . تستطيع أن تذهب الى الأماكن المتعة اللذيذة دون أن تنفق قرشاً واحداً . قل لى : من ذلك الذى كان يصب لك الشمبانيا منذ قليل ؟

ـ نعم ، شربنا شمبانيا ... أما الذى صبّها ...

قال راسكولنيكوف وهو يضحك ساخراً :

ـ أعرف ... هذه أجورك . انك تجنى نفعاً من كل شيء .

ثم أضاف وهو يربت على كتف زاميوتوف :

ـ لا ضير في هذا ، يا صاحبى ، لا ضير ... أنا لم أقل ما قلته عن نية سيئة خبيثة ، وانما قلته عن « محبة ومودة ، من باب التسلية » ، كما قال الدهّان حين كان يضرب ميتكا . أنت تعرف هذا في قضية مقتل العجوز ...

ـ ولكن كيف تعرفه أنت ؟

ـ أنا ؟ ربما كنت أعرف أكثر مما تعرفُ .

ـ أمرك عجيب ... أغلب الظن أنك ما تزال مريضاً . ما كان ينبغي لك أن تخرج !

ـ أيبدو لك أمري عجيباً ؟

ـ نعم . عمَّ كنت تبحث في الجرائد ؟

ـ في الجرائد ؟

ـ تتحدث الجرائد عن حرائق .

ـ نعم ، ولكن ليست الحرائق هي التي تهمني أنا !

قال ذلك ونظر الى زاميوتوف نظرة ملغزة ، وعادت بسمة ساخرة تعقف شفتيه ، ثم أضاف وهو يغمز بعينه :

ـ لا ، ليست الحرائق هي التي تهمني . اعترف أيها الشاب الشجاع أنك تحترق شوقاً الى أن تعرف ماذا كنت أقرأ !

ـ غير صحيح ! لقد ألقيت عليك ذلك السؤال كما يمكن أن ألقي عليك أي سؤال آخر . أليس من حق أحد أن يلقي سؤالاً ؟ ما بالك تبلغ دائماً هذا المبلغ من ...

ـ اسمع ، أنت رجل متعلم ، مثقف ، هه ؟

أجاب زاميوتوف بوقار :

ـ قطعت في المدرسة الثانوية ست سنين .

ـ ست سنين ؟ يا للفتى الظريف ! وله الى ذلك في شعره فرق ، وله في أصابعه خواتم ... هو رجل غني . يا للشاب اللطيف !

قال راسكولنيكوف ذلك وانفجر يضحك أمام أنف زاميوتوف

ضحكةً عصبية . فتراجع زاميوتوف الى وراء ، لا لأنه انزعج بل لأنه دهش .

كرر يقول بلهجة الجد :

ـ حقاً ان أمرك عجيب ! كأنك ما تزال تهذى !

ـ أنا ؟ أهذى ؟ أخطأ ظنك أيها الفتى الظريف ! . آ ... أمرى عجيب ، هه ؟ ولكن لماذا لا تقول الكلمة التى تريد أن تقولها ، لماذا لا تقول اننى أحيِّرك ؟ أحيِّرك ، هه ؟

ـ فعلاً ... تحيِّرنى !

ـ الخلاصة ... أنت تريد أن تعرف عمَّ كنت أبحث ، تريد أن تعرف ماذا كنت أقرأ ، أليس كذلك ؟ أنظر كم عدداً من الجرائد طلبت ! هذا يبعث على اشتباه قوى ، هه ؟

ـ هلاَّ قلت اذن !...

ـ سأقول لك فيما بعد . أما الآن ، يا صديقى العزيز ، فاننى أعلن لك ... عفواً ... بل « اعترف » لك ... لا ... ليس هذا هو التعبير الصحيح ... فانما التعبير الصحيح هو : « أدلى بافادتى ، وتسجل أنت » . نعم هذا هو التعبير الصحيح . وهأناذا أدلى لك بافادتى فأقول اننى أردت أن أقرأ ، أن أبحث ، أن أنقب ، وان أمعن فى التنقيب ...

هنا غمز راسكولنيكوف بعينيه وتوقف عن الكلام برهةً ثم استأنف يقول مدمدماً وهو يسرف فى تقريب وجهه من زاميوتوف :

ـ أن أمعن فى التنقيب ـ وأنا ما جئت الى هنا الا لهذا الغرض ـ عن جميع الأخبار التى تتصل بمقتل العجوز أرملة الموظف .

كان زاميوتوف يحدِّق الى عينى راسكولنيكوف ، دون أن يقوم

بأية حركة ، دون أن يبعد وجهــه عن وجهــه • ان الشيء الذى أثار دهشة زاميوتوف بعد ذلك أكثر من كل ما عداه ، هو أن الصمت بينهما دام عندئذ دقيقة كاملة ، دون أن يكف أحدهما عن التحديق الى صاحبه والتفرس فيه •

صاح زاميوتوف فجأة وقد نفد صبره وأصبح لا يعرف ماذا يجب أن يظن :

ــ طيب ! وهل يعنيني أنا أن تقــرأ أنت هــذا النبــأ أو ذاك من من الأنباء ؟

فدمدم راسكولنيكوف يقول دون أن يحرك ساكناً بسبب صيحة زاميوتوف :

ــ ان الأمر يتصل بتلك العجوز نفســها التى أغمى علىّ فى قسم الشرطة منذ جرى الحديث عليها ، نعم ، لحظةَ جرى الحديث عليها • أفهمت الآن ؟

قال زاميوتوف وقد كاد يُجن جنونه :

ــ ماذا يجب أن أفهم ؟ ما الذى يجب أن أفهمه ؟

فما ان سمع راسكولنيكوف هذا حتى تبدل وجهه الهادىء الساكن فى ثانية واحــدة ، ثم اذا هو ينفجر ضاحكاً كما انفجر ضاحكاً منــذ قليل ، حتى لكأنه لا يستطيع أن يمسك عن الضحك • وفى مثل وميض البرق سرعةً ، طافت فى خياله بوضوح هائل ذكرى الاحســاس الذى شعر به من قبل ، حين كان واقفاً وراء الباب ، ممسكاً ساطوره ، يرى المزلاج يتهزز ، بينما كان الرجلان ، فى الجهــة الأخــرى من الباب ، يشتمان ويحاولان فتح الباب ، فأحب هو على حين فجأة أن يهينهما ،

وأن يقيء لهم سيلاً من الشتائم ، وأن يمدّ لهما لسانه ، وأن يصعّر لهما وجهه ، وأن يضحك ، أن يضحك ، ان يضحك !

قال زاميوتوف :

ـ اما أنك مجنون ، واما أنك ...

ولكنه أمسك عن اتمام كلامه ، كأن فكرةً قد ومضت في فكره على حين بغتة .

ـ واما ماذا ... اما ماذا ؟ ماذا ؟ هيّا ، قل !

قال زاميوتوف غاضباً :

ـ لا شيء . كل هذا سخف !

وصمت الاثنان .

ان راسكولنيكوف ، بعد انفجاره المفاجيء ، وضحكته العصبية ، قد أصبح حزيناً حالماً على حين فجأة . وها هو ذا يضع كوعيه على المائدة، ويسند رأسه بيده . لقد بدا عليه أنه نسي زاميوتوف نسياناً تاماً . ودام الصمت برهة طويلة .

قال زاميوتوف :

ـ لماذا لا تشرب الشاي ؟ سوف يبرد ...

ـ ماذا ؟ الشاي ؟ نعم ...

وحمل راسكولنيكوف الشاي الى شفتيه ، وازدرد لقمة من خبز ، حتى اذا ألقى بصره على زاميوتوف بدا عليه أنه تذكر كل شيء فجأة ، وأنه يطرد عنه خموده وخوره . وفي الوقت نفسه ، استرد وجهه ماكان يعبّر عنه منذ قليل من سخرية . واستمر يشرب الشاي .

قال زاميوتوف :

ـ أمثال هذه السرقات تتكاثر فى هذه الأيام • اليك هذا المثال : لقد قرأت فى الآونة الأخيرة فى « جريدة موسكو » أنه قُبض هناك على عصابة كاملة من مزيفى النقد• انهم شركة حقيقية تقوم بتزييف الأوراق المالية •

فأجابه راسكولنيكوف هادئاً :

ـ قرأت هذا منذ مدة طويلة • هذه قصة قديمة •

ثم أضاف مبتسماً :

ـ فى رأيك اذن أنهم لصوص محتالون !

ـ لصوص محتالون طبعاً !

ـ لصوص محتالون ؟ أما أنا فأرى أنهم أطفال ، أرى أنهم أغرار سذّج ، لا لصوص محتالون • أهو أمر طبيعى أن يجتمع نحو خمسين شخصاً لغاية كهذه الغاية ؟ لو كانوا ثلاثة لكان عددهم هذا وحده كبيراً • وحتى فى هذه الحالة لا بد أن يكون كل واحد واثقاً بالاثنين الآخرين أكثر من ثقته بنفسه • اذ يكفى أن يزلّ لسان أحد منهم أثناء سكر ، فيثرثر قليلاً ، حتى يفسد الأمر كله • نعم ، سذّج أغرار ! ولولا أنهم سذّج أغرار لما عهدوا الى أناس لا يستحقون الثقة بأن يذهبوا الى البنوك يبدلون أوراقهم المالية • هل يُعهد بمهمة كهذه المهمة الى أى انسان ؟ ولنفرض الآن أن هؤلاء الأغرار قد نجحوا فأصبح كل واحد منهم يملك مليوناً ، فماذا بعد ذلك ؟ هل يمكن أن يستمر هذا الى الأبد ؟ ان كل واحد سيظل رهناً بالآخرين مدى الحياة ! ألا ان الانتحار شنقاً خير من هذا ! ثم ان هؤلاء لم يحسنوا حتى تبديل أوراقهم المالية : ان الشخص الذى تقدم الى شباك الصرف فى البنك قد ارتعشت يداه ارتعاشاً قوياً حين قبض الخمسة آلاف روبل ؟ ثم لم يعدد الا أربعة

آلاف منها ، أما الألف الخامسة فقد أخذها على الثقة دون أن يعدّها ، ولم يخطر بباله الا أن يدسّها في جيبه وأن يولّي هارباً بأقصى سرعة. لذلك أيقظ الريب والشبهة . ففسد الأمر كله بسبب ذلك الأبله . أهذا ممكن حقاً ؟

ـ أن تكون يداه قد ارتعشتا ؟ طبعاً ... هذا أمر يُتصوَّر . أنا أرى أن ذلك طبيعي جداً . هناك حالات يفقد فيها المرء سيطرته على نفسه ، اذ يكون الأمر فوق طاقته !

ـ مثلاً ؟

ـ أكان يمكنك أنت أن تحافظ على سيطرتك على نفسك في حالة كتلك الحالة ؟ أنا على كل حال ما كان يمكنني أن أسيطر على نفسي ! كيف يرضى انسان أن يتعرض لمثل هذه المخاطرة في سبيل مائة روبل ؟ كيف يمضي يبدّل أوراقاً مالية مزيفة ؟ وأين ؟ في بنك ، حيث الموظفون خبراء يعرفون كيف يكتشفون أي تزوير ! لا ، لا ، لو وقفت أنا ذلك الموقف لفقدت صوابي ! وأنت ؟ ألا تفقد صوابك في حالة كتلك الحالة ؟

شعر راسكولنيكوف فجأةً ، مرة أخرى ، برغبة رهيبة في أن « يمدّ لسانه » استهزاءً ! وكانت تسري في ظهره رعدات أحياناً .

بدأ يتكلم فقال :

ـ أنا لو كنت في مكان ذلك الرجل لتصرّفت غير ذلك التصرف. اليك كيف كان يمكن أن أفعل : لو كان عليّ أن أبدل تلك الأوراق المالية ، لرحت أعدّ الألف الأولى مرة تلو مرة ، ثلاث مرات أو أربعاً ، وأنا أقلّب كل ورقة على جميع الوجوه وأنظر اليها من جميع الجهات ؛ فاذا تناولت الألف الثانية أخذت أعدها حتى أصل الى النصف ، ثم سحبت من الحزمة ورقة بخمسين روبلاً فأخذت أفحصها في الضوء

الساطع ثم أقلبها ثم أفحصها من جديد كأنني أخشى أن تكون مزيفه ، قائلاً للرجل : « انني شكاك قليلاً . ان لى قريبة قبضت ورقة مزيفة فأضاعت بذلك خمسة وعشرين روبلاً » ، ثم أروح أقص حكاية طويلة ؟ فاذا وصلت الى الألف الثالثة قلت له : « انتظر ! أظن أنني أخطأت في عد المائة السابعة ، هناك ، فى الألف الثانية » ، ثم تركت الألف الثالثة ورجعت الى الثانية ، وهكذا دواليك ... فاذا فرغت من العد ، عدت أسحب ورقة كيفما اتفق ، من الألف الثانية مثلاً ، أو من الألف الخامسة ، وزحت أفحصها من جديد ، بالنظر اليها استشفافاً ، فاذا بشكوك تراودنى ، فأقول : « هل تستطيع ، من فضلك ، أن تعطينى ورقة غيرها بدلاً منها ؟ » ، وهكذا دواليك الى أن ينضح الرجل دماً وماء ، والى أن يضيق بى ذرعاً فلا يدرى كيف يتخلص منى ، ثم انصرف ... لا ... عفواً ... لا أنصرف هكذا ببساطة ، بل أعود اليه فأستوضحه أمراً من الأمور ، وأسأله عن شيء من الأشياء . نعم ، كذلك كان يمكن أن أتصرف .

قال زاميوتوف وهو يضحك :

ـ حقاً انك لفظيع ! على أن هذا كله كلام . أما فى الواقع ، فلاشك أنك كنت ستفضح نفسك . هل تريد أن أقول لك رأيى ؟ اسمع اذن : فى رأيى أن أحداً لا يستطيع أن يسيطر على نفسه . وليس يصدق هذا عليك وعلىّ فحسب ، بل يصدق أيضاً على أكبر لص وأعظم وغد . اليك هذا المثال القريب : لقد قُتلت فى حيّنا امرأة عجوز . يخيّل الىّ أن الذى قتلها سفّاح رهيب لم يحجم عن ارتكاب جريمته فى وضح النهار ، ثم تمكن أن ينجو بأعجوبة . ومع ذلك ارتجفت يدا ذلك القاتل : انه لم يحسن السرقة ، انه لم يصمد . الوقائع تبرهن على ذلك .

بدا الاستياء فى وجه راسكولنيكوف •

ـ الوقائع تبرهن على ذلك ؟ حاولوا اذن أن تقبضوا عليه ! لاحقوه وطاردوه !

بهـذا هتف راسـكولنيكوف وهو ينظر الى زاميوتوف نظرة فيها احتقار واضح وفرح خبيث •

قال زاميوتوف :

ـ سنقبض عليه حتماً !

ـ من ؟ أنت ؟ تستطيع اذن أن تركض •••! أليس الأمر الرئيسى فى نظرك هو أن تعرف هل الشخص الذى تشـتبه فيه ينفق مالاً أم هو لا ينفق مالاً ؟ أنت تقول لنفسك: ان فلاناً لم يكن يملك فى السابق مالاً ، وها هو ذا ينفق الآن كثيراً على حين فجأة ، فكيف لا يكون هو الجانى؟ ألا ان طفلاً صغيراً ليستطع اذن أن يضللك متى أراد !

أجاب زاميوتوف :

ـ هذا لا ينفى أنهم جميعاً يسـلكون هذا السـلوك • ان الجانى يرتكب جريمته بكثير من البراعة والحذق ، ويعرّض حيـاته للخطر ، ثم يُتيح للذين يتعقبوه أن يقبضوا عليه فى حانة • انه أثناء انفاقه المال انما يُقبض عليه ••• ليس جميع الجناة ماكرين مثلك • أنت ، مثلاً ، لا يمكن أن تذهب الى حانة ، اذا كنت قد •••

قطّب راسكولنيكوف حاجبيه وحدّق الى زاميوتوف بنظرة ثابتة• ثم قال متجهماً :

ـ يبدو أن لعابك يسيل شوقاً الى معرفة ما كان يمكن أن أفعله فى مثل هذه الحالة •

فأجابه زاميوتوف برصانة ورزانة :

ـ نعم ، أتمنى أن أعرف ذلك •

وكان في صوت زاميوتوف وفي نظرته جدٌ مفرط .

سأله راسكولنيكوف :

ـ هل تتمنى ذلك كثيراً ؟

ـ كثيراً .

فبدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال لصاحبه وهو يقرب وجهه من وجهه مرة أخرى ، ويحدّق اليه بنظرة ثابتة من جديد ، قال بصوت هو نوع من التمتمة ، حتى ان صاحبه أحس هذه المرة برعدةٍ تسرى في جسمه :

ـ فاسمع اذن ! اليك ما كان يمكن أفعله ! لو كنت أنا القاتل لأخذت المال والأشياء ، فخرجت من البيت فوراً دون أن أضيّع دقيقة واحدة ، ودون أن أدور في الشوارع دورة واحدة ، ومضيت الى مكان منعزل منزوٍ هو حديقة محاطة بسياج مثلاً ، أو هو شيء من هذا القبيل . وأكون قد حددت سلفاً ، في تلك الحديقة أو في ذلك الفناء ، أكون قد حددت صخرة كبيرة وزنها ثلاثون رطلاً ، صخرةً لعلها موجودة في ذلك المكان منذ بناء المنزل ، فهأناذا الآن أزحزح تلك الصخرة التي لا بد أن تكون الأرض تحتها مقعرةً طبعاً ، وهأناذا أدفن المال والأشياء في هذا القعر ؛ حتى اذا انتهيت من دفنها ، ورددت الصخرة الى مكانها ، انصرفت لا ألوى على شيء ، ثم لبثت بعد ذلك سنةً أو سنتين أمتنع عن زيارة المكان وأخذ الغنيمة . هلمّ فابحث اذن ! ما رأيت ولا عرفت !

قال زاميوتوف الذي أخذ يدمدم دمدمة هو أيضاً ، دون أن يعرف لماذا ، قال وهو يتنحى بغتةً عن راسكولنيكوف :

ـ أنت مجنون !

سطعت عينا راسكولنيكوف ، واصفر وجهه اصفراراً رهيباً ، وارتجفت شفته العليا ، ومال حتى اقترب من زاميوتوف أكبر اقتراب ممكن ، وحرّك شفتيه دون أن ينطق كلمة واحدة ، وانقضى على هذه الحال نصف دقيقة .

كان راسكولنيكوف يعرف ماذا يفعل ، ولكنه لا يستطيع أن يسيطر على نفسه وأن يتحكم بسلوكه . ان كلمة رهيبة كانت تهمُّ أن تنبجس من فمه ، كما كان المزلاج ، « في ذلك اليوم » ، يهمُّ أن يخرج من الرزة . كانت الكلمة توشك أن تفلت بين لحظة وأخرى ؛ كان راسكولنيكوف يوشك أن يطلقها ، أن ينطقها .

قال فجأة :

ـ ماذا لو كنت أنا قاتل العجوز واليزابت ؟

لكنه ثاب الى رشده ، وكبح جماح نفسه .

نظر اليه زاميوتوف مرتاعاً ، وانكفأ لونه حتى صار كغطاء المائدة بياضاً ، وتجمدت شفتاه بابتسامة ، وسأله بصوت لا يكاد يُسمع :

ـ ولكن أهذا ممكن ؟

فألقى عليه راسكولنيكوف نظرة خبيثة ، وقال له :

ـ اعترف بأنك صدّقت ، اعترف ، اعترف !...

أسرع زاميوتوف يقول :

ـ لا لم أصدق قط ... وأنا استبعد الآن ذلك أكثر مما استبعدته في أي وقت مضى !

ـ وقع في الفخ !. اذن لقد صدّقتَ في يوم من الأيام ، ما دمت تقول انك تستبعده الآن أكثر مما استبعدته في أي وقت مضى !

صاح زاميوتوف يقول مرتبكاً ارتباكاً واضحاً :

ـ لا ... أبداً ! ... آه ... أمن أجل أن تصل الى هذه النتيجة أخفتني ؟

ـ أأنت لا تصدِّق اذن ؟ فعمً تكلمتم ، فى ذلك اليوم ، حين خرجت أنا من القسم ؟ ولماذا أخذ الليوتنان « بارود » يستجوبنى بعد صحوى من الاغماء ؟

قال راسكولنيكوف ذلك ثم صرخ ينادى خادم الحانة وهو ينهض ويتناول قبعته :

ـ هيه ! أنت ! الحساب !

هرع الخادم اليه قائلاً :

ـ ثلاثون كوبكاً .

ـ خذ ، وهذه عشرون أخرى بقشيشاً !

ثم قال لزاميوتوف وهو يمد اليه يداً مرتعشة ملأى بأوراق مالية :

ـ أرأيت ؟ أوراق حمراء ، وأوراق زرقاء ! * المجموع : خمسة وعشرون روبلاً ! فمن أين جاءتنى هذه الأوراق ؟ ومن أين جاءتنى ثيابى الجديدة ؟ أنت تعلم أننى لم أكن أملك كوبكاً واحداً . أراهن على أنك استجوبت صاحبة البيت الذى أقيم فيه ! ولكن كفى الآن ! « كفى حديثاً » * !... الى اللقاء . لك خالص تمنياتى !

وخرج راسكولنيكوف مختلجاً بنوع من احساس غريب ، احساس هسترى ، تخالطه مع ذلك لذة عظيمة . ولكنه ظل فى الواقع متجهم النفس خائر القوة . كان وجهه متقلصاً ، كأنه خارج من نوبة . وازداد اعياؤه بسرعة . انه الآن ، عند كل احساس جديد ، وعند كل صدمة جديدة ، تستيقظ فيه قواه وتعود اليه ، ولكن قواه هذه ما تلبث أن تخور بسرعة أيضاً ، مع زوال الصدمة وامحاء الاحساس .

وحين أصبح زاميوتوف وحيداً ، لبث جالساً الى تلك المائدة نفسها مدة طويلة ، غارقاً في تامله . ان راسكولنيكوف قد قلب له جميع أفكاره فيما يتعلق بنقطة معينة رأساً على عقب ، دون أن يعرف ذلك ، وجعل رأيه يستقر استقراراً لا عودة عنه ، ويثبت ثباتاً لا يتزحزح . قال لنفسه جازماً : « ان ايليا بتروفتش غبي ! » .

ما كاد راسكولنيكوف يفتح باب الحانة المفضي الى الشارع ، حتى كان رازوميخين على درجات المدخل يهمُّ أن يدخل . ولكن الصديقين لم يرَ أحد منهما صاحبه ، رغم أن المسافة بينهما خطوة واحدة ، حتى لقد أوشك رأساهما أن يتصادما . ولبثا لحظة يشمل كل منهما صاحبه بنظره . لقد ذُهل رازوميخين ذهولاً ليس بعده ذهول . غير أن غضباً مفاجئاً شديداً لم يلبث أن سطع في عينيه ببريق رهيب .

زأر يقول بصوت عال :

ـ آه ... أهنا أنت ؟ قام عن سريره ، هرب من بيته ! أتعرف أنني بحثت عنك حتى تحت السرير ؟ بل لقد صعدنا الى السقيفة نبحث عنك ! وأوشكت بسببك أن أضرب ناستاسيا ! انظروا أين هو ! روديا ، ما معنى هذا ؟ قل لي الحقيقة كلها ! اعترف ! هل تسمع ؟

أجابه راسكولنيكوف بهدوء :

ـ معناه أنني سئمتكم جميعاً الى حد الموت ، وأنني أريد أن أكون وحيداً .

ـ وحيداً ؟ بينما أنت عاجز حتى عن المشي ، بينما وجهك أصفر كوجه الأموات ، بينما أنت تختنق طول الوقت ؟ ألا انك لأبله ! ماذا جئت تعمل في « قصر الكريستال » ؟ اعترف ، اعترف فوراً !

ـ اتركني .

كذلك قال راسكولنيكوف ؛ وأراد أن يمشي متخطياً رازوميخين

فغضب رازوميخين غضباً شديداً ، وخرج عن طوره ، فأمسك صاحبه من كتفه امساكاً قوياً ، وصاح يقول له :

ـ أتركك ؟ أتجرؤ أن تقول : « أتركنى » ! اسمع اذن : هل تعرف ما أنا فاعل بك ؟ سوف اقبض عليك بذراعى ، فأربطك بحبل كما تُربط صرّة ، ثم أنقلك الى البيت فأحبسك فيه مقفلاً عليك الباب بالمفتاح !

بدأ راسكولنيكوف يتكلم فى رفق ، فقال بلهجة تبدو هادئة كل الهدوء :

ـ اسمع يا رازوميخين ! ألست ترى اذن أننى لا أريد نعمك وأياديك علىّ ؟ ما حاجتكم دائماً الى أن تتمسروا بالنعم أولئك الذين لا يعبأون بها ، أولئك الذين لا يستطيعون حقاً أن يحتملوها ؟ لماذا سعيت الىّ فى بداية مرضى ؟ لعله كان يسعدنى جداً أن أموت • أفلم أُفهمك اليوم افهاماً كافياً أنك تعذبنى ، وأنك••• تزعجنى وتضايقنى؟ ما حاجتكم هذه دائماً الى تعذيب الناس ؟ أؤكد لك أن هذا كله يؤخر شفائى ، لأنه يجعلنى فى حالة اهتياج متصل • انظر الى زوسيموف : لقد انصرف حتى لا يهيجنى • فاتركنى بسلام أنت أيضاً ، ناشدتك الله ! ثم أى حق لك فى أن تحتجزنى بالقوة ؟ ألا ترى أننى أملك عقلى كاملاً وأنا أكلمك فى هذه اللحظة ؟ قل لى : بأية وسيلة أستطيع أن أمنعك من التشبث بى بعد الآن ، وأن أحملك على ألا تغدق علىّ نعمك وآلاءك هذه ؟ افرضْ اننى عقوق ، افرض اننى أسوأ الناس طراً ؟ ولكن دعونى ، دعونى جميعاً ، ناشدتكم الله ، دعونى ، دعونى !

كان راسكولنيكوف قد بدأ كلامه بلهجة هادئة ، متلذذاً منذ ذلك الحين بالسمّ الذى سينفثه ، ولكنه أنهى حديثه مهتاجاً خارجاً عن طوره

محتبس الأنفاس مختنق الصدر ، كما حدث له ذلك منذ قليل مع لوجين .

فكّر رازوميخين لحظةً ثم ترك ذراع صاحبه ، وقال له بهدوء ، شاردَ الفكر تقريباً :

ـ اذهب الى الشيطان !...

فلما همّ راسكولنيكوف أن ينصرف ، زأر يقول له فجأة :

ـ انتظر ! أصغ اليّ ! انني أعلن لك أنكم جميعاً ، من أولكم الى آخركم ، لستم الا ثرثارين صغاراً ، ومتبجحين تافهين! انكم ما ان يصبكم شر يسير حتى تحضنوه كما تحضن الدجاجة بيضها . وحتى فى هذا انما أنتم تسرقون من الكتاب الأجانب! ليس فيكم ذرة من حياة ، ليس فيكم ذرة من حياة شخصية أصيلة ! ليس ما يجرى فى عروقكم دماً بل مصالة . ما من أحد منكم يوحى اليّ بالثقة . همُّكم الأول فى جميع الظروف هو أن لا تسلكوا سلوك رجال ...

وهنا رأى أن راسكولنيكوف يهمُّ أن ينصرف مرة أخرى، فصرخ يقول وقد تضاعف غضبه وحنقه :

ـ ق ... ف ! أصغ اليّ حتى النهاية ! أنت تعلم أننى احتفل الليلة بانتقالى الى المسكن الجديد . وربما كان ضيوفى قد وصلوا ... على أننى تركت هنالك عمى لاستقبالهم (كذلك أسرع يضيف) ... فاذا لم تكن أبله ، اذا لم تكن أبله كل البلاهة ، اذا لم تكن أبله متكبراً، هذه ترجمة عن لغة أجنبية لا أدرى أية لغة هى ... اسمع يا روديا ، أنا أعلم أنك فتى ذكى ، ولكن هذا لا ينفى أنك أبله ... فاذا لم تكن أبله ، فان مجيئك اليّ لقضاء السهرة عندى خير لك من أن تُبلى نعلى

حـذاءيك متسـكعاً فى غير طائل ، ما دمت قد خرجت !... وسـآتيك بمقعد مريح رخص ... ان عند أصحاب البيت الذى أقيم فيه مقعداً من هذا النوع ... وتشرب فنجاناً من الشاى ، وتجالس الناس ... بل هناك ما هو خير من هذا : سأرقدك على مضجع ، ولكنك تكون بيننا على الأقل ... وسيجىء زوسيموف أيضاً ... سوف تأتى ، هه ؟

ـ لا .

هتف رازوميخين يقول نافد الصبر :

ـ لا تقل هذا . أنت لا تعرف نفسك . ثم انك لا تفهم من شئون الحياة شيئاً . لقد حدث لى ألف مرة أن بصقت على الناس ، ثم هرولت أسعى وراءهم . سوف تخجل من هذه العواطف ، وسوف ترجع الى البشر . تذكر عنوانى اذن : عمارة بوتشنكوف ، الطابق الثانى .

ـ يخيَّل الىَّ حقاً يا سيد رازوميخين أنك مستعد لأن تُضرب فى سبيل أن يكون لك على أحد فضل ومنة .

ـ أنا ؟ لا بل اننى مستعد لأن أجدع أنف من توسوس له نفسه بذلك !

ـ لن أجىء يا رازوميخين .

قال راسكولنيكوف ذلك ثم استدار وانصرف .

صرخ رازوميخين يقول وراءه :

ـ أراهن على أنك ستجىء ... والا لم أكن أنا أنا ... اسمع : هل زاميوتوف فى الحانة ؟

ـ نعم .

ـ رأيته ؟

ـ رأيتُه .

ـ وكلمته ؟

ـ كلمتُه .

ـ عمَّ كلمته ؟ هيّا ، لا تقل اذا كنت لا تريد ان تقول . شيطان يأخذك ! العنوان : عمارة بوتشنكوف ، رقم ٤٧ ، بيت بابوشكين . تذكر العنوان !

مضى راسكولنيكوف حتى شارع سادوفايا ثم انعطف وغاب . وقد تابعه رازوميخين بنظره شارد الفكر حالماً ، ثم رفع كتفيه تعبيراً عن عدم الاكتراث ، ودخل ، لكنه لم يلبث أن توقف على السلَّم ، وقال يحدث نفسه بصوت عالٍ : « شيطان يأخذه ! انه يتكلم كما يتكلم انسان سليم العقل ، ومع ذلك يشبه أن يكون ... ولكن ما أغباني ! ألا يتكلم المجانين كلاماً معقولاً جداً ؟ ثم ان ذلك بعينه هو ما يخشاه زوسيموف فيما يخيَّل الىَّ ... » . وهنا لطم رازوميخين جبينه بيده متسائلاً : « ما عسى يحدث لو ... كيف أتركه وحيداً فى هذه اللحظة ؟ ان من الجائز جداً أن يلقى بنفسه فى الماء . آه ... لقد ارتكبت حماقة كبيرة ! ما كان ينبغى أن أتركه ينصرف ! » .

وأسرع رازوميخين يلاحق راسكولنيكوف ، ولكن لم يكن قد بقى لراسكولنيكوف أثر .

بصق رازوميخين على الأرض ، وقفل راجعاً الى « قصر الكريستال » بخطى واسعة ليسأل زاميوتوف بأقصى سرعة .

مضى راسكولنيكوف قُدماً الى جسر « س ... » * ، فتوقف فى وسط الجسر ، ووضع كوعيه على افريزه ، وأخذ ينظر الى بعيد . انه بعد أن ودَّع رازوميخين قد بلغ من الضعف والاعياء والوهن أنه لم يجرّ ساقيه الى هذا الموضع الا فى كثير من المشقة والعناء . تمنى لو يجلس فى أى مكان ، تمنى لو يرقد فى عرض الشارع !

مال راسكولنيكوف على الماء ، وأخذ ينظر ، على غير شعور ولا ارادة ، الى أواخر الانعكاسات الوردية لأشعة الشمس الغاربة ، والى صف المنازل التي يغشاها الغسق رويداً رويداً . هذه غرفة بعيدة من الغرف التي تقع تحت السقوف تلتمع نافذتها وتتوهج ، تحت شعاع الشمس الساقط عليها . وهذا ماء القناة يظلم مزيداً من الاظلام شيئاً بعد شيء . كان راسكولنيكوف يبدو كأنه ينظر بانتباه . ثم اذا بدوائر حمراء تأخذ تدور أمام عينيه ، واذا بكل شيء بعد ذلك ، اذا بالمنازل والمارة والأرصفة والعربات تأخذ تدور من حوله وتتراقص . وها هو ذا يرى على حين فجأة مشهداً رهيباً فظيعاً فاذا هو يرتجف فينجو من الاغماء . كان قد أحسّ أن أحداً وقف بقربه ، فنظر فرأى امرأة فارعة الطول ، على رأسها خمار ، صفراء الوجه ، هزيلة ، عيناها حمراوان غائرتان فى حجاجيهما من السكر . كانت المرأة تنظر اليه فى عناد ، ولكن كان واضحاً أنها لا تبصر شيئاً ولا تميز أحداً . وها هي ذي تضع ساعدها قائماً على الافريز ، ثم ترفع قدمها اليمنى فتخطو خطوة فوقه وتتبعها بالقدم اليسرى فتلقى بنفسها فى الماء . دوّى الماء الموحل من صدمة سقوطها ثم ابتلع فريسته على الفور ، ولكن المرأة الغريق لم تلبث أن طفت على السطح بعد دقيقة واحدة ، ثم جرت مع التيار غاطسة الرأس والقدمين ، طافية الظهر ، قد انتفخ ثوبها فكأنه لحاف .

صرخت عشرات من الأصوات :

ـ انها تغرق ، انها تغرق !

فهرع الناس ، فسرعان ما امتلأ بهم الرصيفان ، واحتشد الجمهور على الجسر حول راسكولنيكوف يصدمه ويعصره عصراً .

وهتفت امرأة تقول ، من مكان غير بعيد ، بصوت نادب شاك :

ـ رباه ! هذه أفروزينيوشكا • أنقذوها أيها الأخيار الطيبون ! انقذوها !

وأخذ بعض المحتشدين يصرخون :

ـ علينا بقارب ، علينا بقارب !

ولكن لم يبق ثمة داع الى قارب : فان شرطياً من شرطة المدينة أسرع يهبط سلماً يفضي الى القناة ، ثم خلع معطفه وحذاءيه ، وألقى بنفسه فى الماء ، ولم يلق عناءً كبيراً فى اللحاق بالمرأة الغريق ، فان تيار الماء قد حملها حتى صارت على بعد خطوتين من الضفة ، فما هى الا أن قبض على ثوبها بيده اليمنى ، وأمسك باليد اليسرى عصا مدّها اليه زميل له ، حتى أُخرجت المرأة من الماء ، وأُضجعت على الدرجات الصخرية • ولم تلبث أن ثاب اليها وعيها ، فنهضت ، وجلست ، وأخذت تعطس وتشخر وتعصر ثيابها المبتلة مروّعةً مبهوتة • ولم تنطق بكلمة واحدة•

أعولت تلك المرأة نفسها قائلةً ، قرب أفروزينوشكا فى هذه المرة:

ـ لقد ركبها ألف عفريت أيها الاخوة • حاولت منذ مدة أن تشنق نفسها ، فأخرجنا عنقها من الحبل • ومضيتُ اليوم الى البقال بعد أن أوصيت الصغيرة بمراقبتها ، فاذا بالمصيبة تقع •• هى جارتنا يا أخى، جارتنا • نحن نسكن فى مكان قريب ، فى العمارة الثانية ، هناك ، آخر الشارع •••

تفرق الحشد ، وظل الشرطيان منهمكين حول المرأة الغريق • وهذا صوت يصرخ متكلماً عن شىء يتصل بقسم شرطة ••• ان راسكولنيكوف ينظر الى هذا كله وهو يحس احساساً غريباً بعدم الاهتمام وقلة الاكتراث • وها هو ذا يشعر بنفور وتقزز ، ثم يقول مجمجماً : « لا ، لا ، هذا شىء يدعو الى الاشمئزاز ••• الماء ••• لا فائدة منه ••

لن يحدث شيء ... ما فائدة الانتظار اذن ؟ أما قسم الشرطة ... ولكن لماذا غاب زاميوتوف عن القسم ؟ ان مكاتب قسم الشرطة تظل مفتوحة حتى الساعة التاسعة » . وأدار راسكولنيكوف ظهره للافريز ، ونظر حواليه . ثم قال بلهجة جازمة : « لِمَ لا ؟ ليكن ! » . وغادر افريز الجسر وسار متجهاً الى قسم الشرطة . كان قلبه خالياً مغلقاً . كان لا يريد أن يفكر . حتى القلق تبدد . لم يبق فى نفسه أثرٌ من انتفاضة القوة تلك التى أخرجته من غرفته « لينتهى من الأمر » . وحلَّ محلَّ تلك القوة خمولٌ وخمود وتبلد .

قال لنفسه وهو يسير على رصيف الجسر بملل وكسل وتوان : « نعم ، هذا أيضاً حل . سأنتهى من الأمر مع ذلك ، لأننى أريد أن انتهى منه . ولكن هل هذا هو الحل حقاً ؟ آه ... لا ضير ... سيبقى لى موطىء قدم من الأرض أقف عليه . ولكن يا لها من نهاية ! هل يمكن أن يكون هذا نهاية ؟ أأقول لهم الأمر أم لا أقوله ؟ ولكن دعنا من هذا ! اننى متعب مكدود مرهق . يجب أن أضطجع حالاً ، يجب أن أقعد فى مكان ما . أعجب ما فى الأمر أن هذا كله غباء ! هيَّا ، ابصقْ على هذا أيضاً ! آه ... ما أكثر الحماقات التى يمكن أن تساور فكرنا أحياناً ! » .

كان على راسكولنيكوف ، من أجل الوصول الى قسم الشرطة ، أن يمضى فى أول الأمر قُدُماً ، ثم أن يلتفت يسرةً عند الشارع الثانى . ولكنه توقف قبل أن يصل الى العطفة الأولى ، وفكَّر ، ودخل فى زقاق ضيق ، ثم تجول فى شوارع أخرى ، ربما بدون نية محددة تماماً ، ولكن ربما ليهب لنفسه مهلة جديدة أيضاً ، ليكسب فسحةً من وقت . كان يسير مطرقاً الى الأرض. وفجأة أحسَّ كان أحداً يهمس فى أذنه،

فرفع رأسه ، فوجد نفسه أمام « تلك » العمارة ، أمام مدخلها تماماً • انه منذ « ذلك » المساء لم يكن قد عاد الى المكان •

وهذه رغبةٌ لا سبيل الى مقاومتها ولا يمكن تفسيرها ، تسيطر عليه وتستبد به • دخل العمارة ، ونفذ الى الباب الأول ، الباب الأيمن ، وأخذ يصعد السلَّم الذى يعرفه جيداً ، حتى وصل الى الطابق الثالث • كان ظلام حالك يلف السلَّم الوعر الضيق • وقد توقف راسكولنيكوف على فسحة السلَّم عند كل طابق ، فكان ينظر حواليه مستطلعاً مشوقاً • هذا زجاج النافذة فى الطابق الأرضى قد أُبدل • قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « انه لم يكن هكذا فى ذلك اليوم » • ثم وصل الى المسكن الذى يقع فى الطابق الأول حيث كان يعمل نيقولا ودمترى • « البيت مغلق ، وقد أُعيد دهن الباب • معنى ذلك أن البيت معد للايجار » • وهذا هو الطابق الثانى ، ثم هذا هو الطابق الثالث • « هنا » • توقف راسكولنيكوف متسمِّرا : كان باب البيت مفتوحاً تماماً ، وكان فى البيت ناس ، ان كلامهم مسموع • لم يكن راسكولنيكوف يتوقع هذا • وبعد تردد قصير ، صعد الدرجات الأخيرة ، ودخل البيت •

انه يُجدَّد أيضاً • ان فيه عمالاً • بدا راسكولنيكوف كالمذهول• لقد كان يتصور ، دون أن يدرى لماذا ، أنه سيجد البيت كما تركه تماماً ؛ حتى الجثتين كان يتصور أنه سيجدهما راقدتين على أرض الغرفة فى ذلك الموضع نفسه • فماذا يرى الآن : جدراناً عارية ، وما من أثاث! ما أغرب هذا ! تقدم نحو النافذة وجلس على حافتها •

لم يكن هنالك الا عاملان اثنان • انهما شابان ولكن أحدهما أكبر سناً من الثانى بكثير • كانا يفرشان الجدران بورق أبيض ذى أزهار صغيرة بنفسجية ، بدلاً من الورق القديم الأصفر الحائل الممزَّق • شعر

راسكولنيكوف من ذلك بأسف • وأخذ ينظر الى الورق الجديد مغتاظاً، كأنه يتحسر على أن تغيراً قد حدث •

يبـدو أن العاملين قد أطالا يوم عملهم • وهما الآن يرتبان لفافات الورق ، ويستعدان للعـودة الى المنزل • لم يلفت ظهور راسـكولنيكوف انتباههما • صالب راسكولنيكوف ذراعيه على صـدره وراح يصغى الى حديثهما •

قال الأكبر للأصغر :

ـ جاءتنى منذ الفجر ، لا بسةً أجمل الثياب • قلت لها : « مالك تتغنجين هذا الغنج » ، فقالت لى : « أريد بعد الآن يا تيتى فاسيلتش أن أكون لك جسماً وروحاً ! » • أسمعت ؟ وليتك رأيت الثياب التى كانت تلبسها • لكأنها صورة من صور الموضـة ، صـورة حقيقية من صـور الموضة •

سأله الأصغر :

ـ وما صورة الموضة هذه يا عزيزى ؟

كان واضحاً أن الأصغر يتتلمذ على الأكبر •

ـ صورة الموضـة واحدة من تلك الصـور الملونة التى تصل الى الخياطين بالبريد من الخارج كلَّ سبت • والغاية منها أن تُرى النـاس كيف يجب أن يلبسوا ، رجالاً ونسـاءً • هى رسـم • فأما الرجـال فثيابهم هى الردنجوت ، ولكن يجب أن ترى قسم ثياب النساء •• هناك حدِّث ولا حرج ••• مهما تقل عنها فلن توفيها حقها !•••

هتف الأصغر يقول مفتوناً بهذا الحديث :

ـ ما أكثر ما يراه المرء فى « بيتر » * هذه ! ان المرء يرى فيها كل شىء حقاً ، عدا امه وابيه !

قال الأكبر فى رصانة :

ـ نعم ، يرى كل شىء عدا أمه وأبيه !

نهض راسكولنيكوف ومضى الى الغرفة الثانية التى كانت فى الماضى تضم الصندوق والسرير والخزانة ذات الأدراج • فلما رآها خاليةً من الأثاث بدت له صغيرة صغراً رهيباً • لم يُبدل ورق جدرانها • وفى الركن ، يُرى المكان القديم الذى كانت فيه الأيقونات • نظر راسكولنيكوف حواليه ، ثم عاد الى النافذة يجلس على حافتها • نظر اليه العامل الكبير نظرة شزراء وسأله بخشونة :

ـ ماذا تفعل هنا ؟

ولكن راسكولنيكوف لم يجبه ، بل نهض وخرج الى فسحة السلّم ، فأمسك بحبل الجرس وشدّه • هو ذلك الجرس نفسه ، وهو ذلك الرنين نفسه • شدّ الجرس مرة ثانية فمرةً ثالثة • فكان يصغى ويتذكر • عاوده الاحساس الذى شعر به فى ذلك اليوم ، ذلك الاحساس الغريب الكاوى ، عاوده بحدة ما تنفك تقوى شيئاً بعد شىء • فكان يرتعش كلما رنّ الجرس مرةً جديدة ، وكانت لذته تزداد •

صرخ العامل يقول وهو يمضى اليه ممتعضاً :

ـ ماذا تريد ؟

فعاد راسكولنيكوف الى الغرفة • وقال :

ـ أنا أبحث عن مسكن أستأجره ، وقد جئت أرى هذا البيت !

قال العامل :

ـ ما من أحد يزور مسكناً فى الليل • ثم ان عليك أن تصطحب البواب •••

تابع راسكولنيكوف كلامه فقال :

ـ أرى أن الأرض قد غُسلت . هل سيُعاد دهنها ؟ لم يبق دم .

ـ دم ؟

ـ لقد قُتلت العجوز واختها . كان ههنا بركة دم ...

صاح العامل يقول قلقاً :

ـ ولكن من أنت ؟

ـ أنا ؟

ـ نعم أنت .

ـ تريد أن تعرف ؟ تعال معي اذن الى قسم الشرطة . هناك ساقول لك من أنا .

نظر العاملان كلٌ منهما الى الآخر مبهوتين . وقال الأكبر للأصغر :

ـ هلمَّ ... لقد آن لنا أن ننصرف ، حتى لقد تاخرنا . هيَّا يا أليوشا ! يجب أن نغلق ...

قال راسكولنيكوف بلهجة طلقة :

ـ هلموا ننصرف !

وخرج أول الخارجين ، وهبط السلَّم ، حتى اذا وصل الى الباب المطل على الفناء ، صرخ ينادي البواب :

ـ هيه ! يا بواب !

وكان يقف عند باب العمارة عدة أشخاص ينظرون الى المارّة هم البوابان وامرأة وتاجر صغير يرتدي ثوباً من ثياب المنزل ، وأناس آخرون . مضى راسكولنيكوف اليهم قُدماً .

سأله أحد البوابين :

ـ ماذا تريد ؟

ـ هل ذهبت الى قسم الشرطة ؟

ـ عدت منه منذ برهة • ماذا تريد ؟

ـ أما يزالون هناك ؟

ـ ما يزالون هناك •

ـ وهل كان مساعد مفوّض الشرطة هناك أيضاً ؟

ـ وكان مساعد مفوض الشرطة هناك أيضاً • ماذا تريد ؟

لم يجب راسكولنيكوف وتسمّر بين الواقفين حالما •

اقترب العامل الكبير وقال :

ـ جاء يرى البيت •

ـ أى بيت ؟

ـ البيت الذى نعمل فيه • سألنا : « لماذا غُسل الدم ؟ » • ثم قال : « ارتكبت هنا جريمة قتل ، وأنا أريد أن أستأجر البيت » • وقد أخذ يشد حبل الجرس ، حتى كاد ينتزعه • ثم قال : « هلموا بنا الى قسم الشرطة ، فسأقول لكم هناك كل شىء » ، وألحّ فى هذا •

نظر البواب الى راسكولنيكوف متحيراً مرتاباً •

ثم صرخ يسأله مهدداً :

ـ ولكن من أنت ؟

ـ روديون رومانوفتش راسكولنيكوف ، طالب سابق • وأسكن قريباً من هنا ، فى زقاق مجاور ، عمارة شيل ، شقة ١٤ ؟ اسأل عنى بواب العمارة • انه يعرفنى •

قال راسكولنيكوف ذلك كله بلهجة وانية ، شاردَ الفكر ، حتى دون أن يلتفت ، فقد كان يحدِّق الى الشارع الذى اجتاحه الظلام منذ الآن •

ـ ولماذا جئت الى هذا البيت ؟

ـ لأراه •

ـ ما رأيك فى أن نقتادك الى قسم الشرطة ، هه ؟

كذلك قال التاجر الصغير فجأة ، ثم أسرع يصمت •

نظر اليه راسكولنيكوف من فوق كتفه ، وتفرس فيه بانتباه ، ثم قال له بلهجة ما تزال وانية هادئة :

ـ موافق ، هلمُّوا بنا الى قسم الشرطة !

استأنف التاجر الصغير كلامه فقال بثقة أكبر :

ـ نعم ، يجب اقتياده الى قسم الشرطة • لئن جاء « لهذا » الغرض، فان ذلك يدل على أن هناك شيئاً يشغل باله ، أليس كذلك ؟

جمجم العامل يقول :

ـ أهو سكران أم لا ؟ الله وحده يعلم !

وعاد البواب يصرخ وقد أخذ يغضب حقاً :

ـ ولكن ماذا دهاكم جميعاً ؟ وأنت ، ما مجيئك الينا لتزعجنا هذا الازعاج ؟

قال راسكولنيكوف ساخراً :

ـ ها ••• انك تخاف الذهاب الى قسم الشرطة !

ـ ممَّ عسانى أخاف ؟ ولكن لماذا تأتى الينا فتزعجنا هذا الازعاج ؟

قالت المرأة :

ـ هذا لص !

فقال البواب الآخـر ، وهو فلاح ضخم يرتدى معطفاً فضـفاضاً ، ويحمل مجموعة من المفاتيح معلقة بحزامه :

ـ نعم ، علام تناقشـه ؟ اخـرج من هنـا أيها المتشرد ••• هيّا انصرف • اقول لك انصرف !

ثم أمسك راسكولنيكوف من كتفـه ، ورماه الى الخارج ، فترنح راسكولنيكوف وكاد يهوى على الأرض ولكنـه لم يسـقط ، ثم انتصب ونظر الى جميع الشاهدين صامتاً ثم مضى •

قال العامل :

ـ انسان عجيب !

فعقبت المرأة قائلة :

ـ جميع الناس عجيبون فى هذه الأيام !

وأضاف التاجر الصغير يقول :

ـ كان ينبغى أن نقتاده الى الشرطة مع ذلك •

فقال البواب الكبير يحسم المناقشة :

ـ علام نقتـاده الى الشرطة ؟ هو محتـال ما في ذلك ريب ، ولو اقتدناه الى الشرطة لما عرفنا كيف نتخلص منه ، أنا أعرف أمثال هؤلاء الناس !•••

تساءل راسـكولنيكوف وهو يقف فى عرض الطريق عند احـد المفـارق وينظر الى ما حوله كأنه ينتظر أن يهديه أحد الى الحل الحاسم والقول الفصل : « أأذهب الى الشرطة أم لا أذهب ؟ » • ولكن ما من جواب جاءه من أى مكان • كان كل شىء أصمَّ ميتاً كالحجارة التى كان

يسير عليها .. ميتاً بالنسبة اليه وحده . وها هو ذا يلمح فجاةً ، فى بعيد، على مسافة مائتى خطوة ، فى آخر الشارع ، فى الظلام المتزايد، ها هو ذا يلمح احتشاداً ، ويسمع جلبةً وصراخاً . وكانت تقف عربة فى وسط الجمهور المحتشد . دار راسكولنيكوف يمنةً واتجه نحو الحشد . كان يبـدو حقـاً أنه يريد أن يتشبث بأى شىء ، فلما أدرك هو ذلك ضحك فى فتور ، لأنه كان يعرف أن قراره فيما يتعلق بالشرطة قد اتُخذ وانتهى الأمر ، وكان يعلم علم اليقين أن كل شىء سيكون قد انتهى بعد قليل .

الفصل السابع

كانت تقف في وسط الشارع عربة انيقة من عربات السادة ، قد قُرن بها حصانان اشهبان قويان ثائران . وكانت خاليةً قد نزل حوذيها عن مقعده ووقف الى جانبها يشد الحصانين باللجام ؛ وقد تجمهر حولها عدد كبير من الناس ، وراء حاجز من رجال الشرطة. وكان أحد رجال الشرطة يحمل بيده مصباحاً مشتعلا قد مال به الى تحت يضيء بنوره شيئاً كان يوجد على أرض الشارع ملتصقاً بالعجلات. وكان جميع الناس يتكلمون ويصرخون ويصيحون ، وكان الحوذى مضطرباً يردد بين الفينة والفينة قوله :

ــ يا للمصيبة ! رباه ! يا للمصيبة !

استطاع راسكولنيكوف أن يشق لنفسه ممراً ، فأفلح أخيراً فى أن يرى ذلك الشيء الذى يثير هذا الاضطراب القوى وهذا الفضول الشديد . انه رجل يرقد على الأرض دامياً مغشياً عليه يرتدى ثياباً فقيرة رثة لكنها من ثياب « السادة » ، قد داسه الحصانان ، فالدم يسيل من جمجمته ومن وجهه المثخن المهشم المحطم . كان واضحاً أن الحادث خطير .

صاح الحوذى نادباً شاكياً :

ـ يا رب السماء ! كيف كان يمكن أن أتفاداه ! لا العربة كانت مسرعة ، ولا أنا سكت فلم أصرخ منبّهاً ! كانت العربة تسير فى رفق ، كان تسير على مهل • جميع الناس رأوا ذلك • ان كنت أكذب فقد كذب اذن جميع الناس • ولكن السكران لا يرى حتى فى وضح النهار ••• هذا معروف • أبصرته يجتاز الشارع مترنحاً حتى ليكاد يتهاوى على الأرض من شدة السكر • صرخت أنبّهه ، مرةً ، مرتين ، ثلاث مرات ••• ولجمت الحصانين ، ولكن ها هو ذا يمشى اليهما قُدُماً فيسقط بين حوافرهما ••• فاما أنه فعل ذلك عامداً ، واما أنه قد بلغ منه السكر كل مبلغ ••• وحصاناى مهران صغيران عصبيان ، فها هما يجمحان ، وهما هوذا يصرخ فيزداد جموحهما فتقع المصيبة •••

قال أحد شهود الحادث :

ـ نعم ، ذلك ما حدث •

وقال صوت آخر :

ـ نعم ، لقد صرخ الحوذى ، صرخ ثلاث مرات •

وقال ثالث مؤيداً :

ـ نعم ، ثلاث مرات ، جميع الناس سمعوا •••

على أن الحوذى لم يكن منهار العزيمة ولا شديد الخوف • وكان واضحاً أن المركبة يملكها شخص ثرى لا بد أنه كان ينتظر وصولها فى مكان ما • وهذه حقيقة لم تغرب عن بال رجال الشرطة طبعاً ، ولا أسقطوها من الحساب • لم يبق اذن الا أن يُنقل المصاب الى قسم الشرطة والى المستشفى • ولم يكن أحد يعرف اسمه •

فى أثناء ذلك ، كان راسكولنيكوف قد تسلل الى وسط الجمهور ،

ومال على الأرض ، فاذا بالمصباح الصغير يضيء وجه الشقي على حين فجأة ، واذا براسكولنيكوف يتعرفه فوراً .

صرخ يقول وهو يندفع الى الصف الأول :

ـ أنا أعرفه ! أنا أعرفه ! هو موظف محال على التقاعد ، هو الموظف مارميلادوف . انه يسكن قريباً من هنا ، في عمارة كوسل ... اسرعوا ، نادوا طبيباً ! سأدفع ! خذ ...

قال ذلك وأخرج من جيبه مالاً فعرضه على احد رجال الشرطة . كان راسكولنيكوف في حالة اضطراب تبعث على الدهشة .

سُرَّ رجال الشرطة بمعرفة شخص المصاب . وأسرع راسكولنيكوف يعرّف بنفسه أيضاً ، فذكر اسمه ، وذكر عنوانه ، وألحّ ألحاحاً شديداً ، كما لو كان المصاب أباه ، على أن يُنقل مارميلادوف الى مسكنه . وكان مارميلادوف ما يزال فاقداً وعيه مغشياً عليه . قال راسكولنيكوف متعجلاً :

ـ بيته هناك : بعد ثلاث عمارات . انه يسكن في عمارة كوسل ، الألماني الغني ... لا شك أنه كان سكران عائداً الى بيته . أنا اعرفه . انه سكير ... له أسرة ، وزوجة ، وأولاد ، وبنت . لماذا المستشفى ؟ ان نقله الى المستشفى يستغرق وقتاً طويلاً . ولا بد أن يوجد في عمارته طبيب . سوف أدفع ، سوف أدفع . فبذلك يعتني به ذووه ، ويفعلون ما يجب فعله فوراً . والا كان يتعرض للموت حتى قبل أن يصل الى المستشفى .

وأفلح راسكولنيكوف في أن يدسّ قطعة نقدية في يد احد رجال الشرطة . وكانت القضية من جهة أخرى واضحة شرعية . وبدا

على كل حال أن نقل الجريح الى بيته أبسط وأيسر • فرفع المصاب وحُمل ، ووُجد من يساعد في ذلك • كانت عمارة كوسل تقع على مسافة ثلاثين خطوة • فكان راسكولنيكوف يمشي وراء الجريح ساندا رأسه بكثير من الحذر والاحتياط ، وكان يدل الآخرين على الطريق •

— من هنا ! من هنا ! وحين نصعد السلم يجب أن نجعل راسه عالياً ••• دوروا ••• نعم هنا ••• سوف أدفع ••• أشكر لكم صنيعكم •••

كذلك كان يدمدم راسكولنيكوف •

كانت كاترين ايفانوفنا ، على عادتها كلما أتيحت لها دقيقة من فراغ ، تسير في غرفتها الصغيرة طولاً وعرضاً ، فتمضي من النافذة الى المدفأة ومن المدفأة الى النافذة ، مصالبةً ذراعيها على صدرها ، مكلمةً نفسها ، ساعلةً من حين الى حين • ولقد تعودت منذ مدة من الزمن أن تتحدث مزيداً من التحدث الى ابنتها الكبرى بولينكا التي يبلغ عمرها عشر سنين والتي كانت ، رغم أنها لا تستطيع أن تفهم أشياء كثيرة بعد ، تدرك حقّ الادراك أن أمها في حاجة اليها ، فكانت لذلك تتابعها بنظراتها الذكية محملقةً ، وتبذل كل ما تملك من قوة في سبيل أن تتمثل ما كانت تقوله لها • وفي تلك اللحظة ، كانت بولينكا تنضو عن أخيها الصغير ثيابه لتضعه في السرير بعد أن لبث مريضاً طوال النهار ، فكان الصبي الصغير ، بانتظار ابدال قميصه الذي يجب أن يُغسل في تلك الليلة نفسها ، جالساً على كرسي ، رزيناً صامتاً • كان منتصب الجسم ، ساكناً ، ملصقاً ساقيه احداهما بالأخرى ، موجهاً ابهاميه الى الخارج ، نافخاً خدّيه ، محملقاً بعينيه ، يصغي الى ما كانت تقوله أمه لأخته دون أن يتحرك ، كما ينبغي للصغار العقلاء حين تُخلع عنهم ثيابهم للنوم • وكانت البنت الثانية ، وهي أصغر سناً منه ، وثيابها أطمار بالية تماماً ، تنتظر

دورها واقفةً قرب الحاجز . وكان الباب المطل على فسحة السلّم مفتوحا على سعته كلها ، من أجل أن يهرب منه ولو جزءُ من دخان التبغ الذى يأتى من الغرف الأخرى ، ويسبّب للمصدورة المسكينة نوبات سعالٍ طويلة أليمة قاسية . لقد نحلت كاترين ايفانوفنا مزيداً من النحول منذ أسبوع، وأصبحت البقع الحمراء على خدّيها مضطرمةً مزيداً من الاضطرام .

كانت تقول لابنتها وهى تذرع الغرفة جيئةً وذهاباً :

ـ لا تستطيعين أن تعرفى ، لا تستطيعين أن تتخيلى ، يا بولينكا ، نوع الحياة الفرحة المرحة الباذخة التى كنا نحياها فى دار بابا ، ولا نوع الشقاء الذى نزل علىّ بسبب هذا السكّير ، والذى سينزل عليكم انتم جميعاً كذلك . كان بابا فى رتبة تعدل رتبة كولونيل . كان يوشك أن يصبح حاكماً ، لم يكن عليه الا أن يخطو خطوة واحدة حتى يصبح حاكماً ؛ لذلك كان جميع الناس يجيئون اليه ويقولون له : « نحن نعدّك حاكماً لنا منذ الآن يا ايفان ميخائيلتش . وحين ... كح كح كح ... لعن الله هذه الحياة ... (صاحت تلعن الحياة هكذا وهى تبصق وتضغط صدرها) ـ نعم ، حين ... آه ... حين رأتنى الأميرة بيزيملنى ، فى آخر حفلة رقص ، عند ماريشال النبالة ـ وهذه الأميرة هى التى باركتنى حين تزوجت أباك يا بوليا ـ نعم ... حين رأتنى أسرعت تسأل على الفور : « أليست هذه الفتاة الفتانة هى التى رقصت رقصة الشال حين تخرجت من المدرسة الداخلية ؟ » . ـ يجب ترقيع هذا الثقب ، عليك أن تأخذى ابرة وخيطاً فترقعيه ، كما علمتك ، والا فانه ... كح ... غداً ... كح كح كح ... سيتسع مزيداً من الاتساع (صرخت تقول ذلك صراخاً وقد هدّها السعال) . وفى ذلك الأوان انما وفد الينا من بطرسبرج شاب من الحاشية هو الأمير ستشيجولسكى ... ورقص معى

وقصة مازوركا ، فاذا هو يجيء فى الغداة يريد أن يخطبني... فشكرته بألطف العبارات ، ولكنني صرفته قائلة له ان قلبي يملكه رجل آخر منذ مدة طويلة ، وهذا الآخر هو أبوك يابولياء وغضب أبوك غضباً شديداً. هل أُعدّ الماء ؟ هيّا ائتني بالقميص . والجوارب ، أين هي ؟ يا ليديا (كذلك قالت لصغرى بنتيها) ستنامين هذه الليلة بدون قميص ... دبّري أمرك ... ودعي الجوربين جانباً كذلك ... سأغسلهما فىالوقت نفسه ... ألن يعود هذا الرث السكران ؟ لقد لبس قميصه حتى أصبح وسخاً كممسحة . ومزقه أيضاً . أتمنى لو أغسل كل شيء دفعةً واحدة . فبذلك لا أتعذب ليلتين متواليتين .. يارب ! كح كح كح ... ما هذا أيضاً ؟ (هتفت تسأل هذا السؤال وهي ترى جمهوراً على فسحة السلّم ، وترى مع الجمهور أشخاصاً يحملون حِملاً ويحاولون أن يشقوا طريقهم نحو الغرفة) ماذا جرى ؟ ماذا يحملون ؟ رباه !

سأل الشرطي وهو ينظر حواليه بينما كان يُحمل مارميلادوف الى الغرفة دامياً مغشياً عليه :

ـ أين نضعه ؟

قال راسكولنيكوف :

ـ على الديوان ! أضجعوه على الديوان ، واجعلوا رأسه في هذه الجهة .

صاح يقول واحد وهو على فسحة السلم :

ـ داسته عربة في الشارع .

وقفت كاترين ايفانوفنا جامدة ، شاحبة الوجه ، تتنفس بصعوبة ومشقة . وأطلقت ليدوتشكا صرخة وهرعت الى بولينكا ، فعانقتها وهي ترتجف بجميع أعضاء جسمها .

حتى اذا أُضجع مارميلادوف على الديوان ، هرع راسكولنيكوف الى كاترين ايفانوفنا ، وقال لها مسرعاً :

ـ اهدئى ناشدتك الله ، لا تضطربى !... كان يجتاز الشارع ، فمرت عربة فوقه . لا تقلقى . سيصحو من اغمائه . أنا أمرت بحمله الى هنا . لقد جئت اليكم مرةً قبل الآن ، هل تذكرين ؟ سيفيق من غيبوبته. سوف أدفع !

صاحت كاترين ايفانوفنا تقول يائسةً وهى تندفع نحو زوجها :

ـ نال ما كان يسعى اليه !

لم يلبث راسكولنيكوف أن لاحظ أن هذه المرأة ليست من تلك النساء اللواتى يغمى عليهن لأيسر الأسباب . وبمثل لمح البصر سرعةً وضعت وسادةً تحت رأس المسكين : ما من أحد قد خطرت بباله هذه الفكرة من قبل . ثم أخذت كاترين ايفانوفنا تخلع ثيابه ، وتفحصه بدون تعجل ، ناسية نفسها ، عاضةً على شفتيها ، تكظم الصرخات التى تهم أن تنطلق من صدرها .

وفى أثناء ذلك استطاع راسكولنيكوف أن يقنع أحد الحضور بأن يمضى يستدعى طبيباً . وكان يوجد طبيب فى عمارة مجاورة .

وكرر يقول لكاترين ايفانوفنا :

ـ أرسلت فى طلب طبيب . لا تقلقى . سوف أدفع. أليس عندكم ماء ؟ وأعطنى أيضاً فوطة ، منشفة ، أى شىء ، بسرعة ! لا نعلم بعد هل جرحه بليغ ... على كل حال ، هو جريح وليس قتيلا ... ثقى بذلك ... لننتظر ما سيقوله الطبيب .

هرعت كاترين ايفانوفنا الى النافذة . كان يوجد هناك ، فى ركن ،

على كرسي خاسف ، طستٌ كبير من فخار ، مملوءٌ ماءً ، قد هيأته من أجل أن تغسل في الليل ملابس أولادها وزوجها • ان كاترين ايفانوفنا هي التي تتولى غسل الملابس بيديها ليلاً ، وهي تفعل ذلك مرتين في الأسبوع على الأقل ، وقد تفعله أكثر من مرتين أحياناً ، ذلك انهم قد وصلوا الى حيث أصبحوا لا يملكون من كل ملبس من الملابس الا قطعةً واحدة لكل فرد تقريباً • وكاترين ايفانوفنا لا تحتمل الوساخة ، أو قل لا تطيق أن ترى الأدران تسود بيتها ، وتؤثر على هذا ان تقوم في الليل ، بينما الجميع نائمون ، بعمل تفرضه على نفسها ويفوق طاقتها : تغسل الملابس ثم تنشرها على حبل لتجف ، بغية أن تجد الاسرة أشياءها نظيفة في الصباح •

حملت الطست كما أمرها بذلك راسكولنيكوف ، وكادت تسقط معه على الأرض • وكان راسكولنيكوف قد استطاع في أثناء ذلك ان يعثر على منشفة • فبلّها بالماء وأخذ يغسل وجه مارميلادوف الدامي • وكانت كاترين ايفانوفنا تقف الى جانبه ، متنفسةً بمشقة وصعوبة ، ضاغطةً صدرها بيديها • لقد كانت هي نفسها في حاجة الى اسعاف • وبدأ راسكولنيكوف يقول لنفسه انه لعله قد اخطأه سداد الرأي حين الحّ على ضرورة نقل المريض الى هنا • وكان الشرطي مرتبكاً حائراً •

وصاحت كاترين ايفانوفنا تقول لابنتها :

ـ بوليا * ، اذهبي الى أختك صونيا ، وأحضريها بسرعة • فاذا لم تجديها في مسكنها ، فلا بأس ••• قولي ان أباها قد داسته خيول ، وان عليها أن تجيء حالاً متى عادت • أسرعي يا بوليا ! خذي ، ضعي هذا المنديل على رأسك •

وصرخ الصبي الصغير من على كرسيه يهيب بها أن تسرع قائلاً :

ـ أتلعي (أسرعي) ...

قال ذلك وعاد يغرق في صمته ، واسترد وضعه : محملق العينين، متصلب الجذع ، متجمد الجسم ، مشدود الساقين .

وامتلأت الغرفة بالناس في أثناء ذلك ، فلو أُلقيت تفاحة لما سقطت على الأرض من شدة ازدحامهم . وانصرف رجال الشرطة ، الا واحداً بقي الى حين ، بغية أن يصد الجمهور الذي كان يصل من السلّم ويتدفق نحوه من جديد . ان جميع المستأجرين الذين يسكنون عند مدام ليبفكسيل قد هرعوا من غرفتهم التي تقع في آخر البيت : تجمعوا في أول الأمر على الباب ، ثم اجتاحوا الغرفة نفسها .

غضبت كاترين ايفانوفنا ، فصرخت تخاطب الناس :

ـ دعوه يموت بسلام على الأقل . آه... ما هذا الذي تفعله انت ؟ أسيجارةٌ في فمك كأنك في مسرح ؟ كح كح كح ! لم يبق الا أن تحتفظوا بقبعاتكم على رءوسكم أثناء رؤية المشهد . هه ... هذا واحد قد احتفظ بقبعته على رأسه فعلاً ! هيَّا اخرجوا من هنا ... احترموا الأموات على الأقل !

قالت ذلك ثم خنقتها نوبة سعال شديدة . ولكن تقريعها كان له أثره . واضح أنهم يخشون كاترين ايفانوفنا بعض الخشية . فهاهم اولاء سكان البيت يتجهون نحو الباب واحداً بعد آخر ، وهم يشعرون بذلك الاحساس الغريب ، احساس اللذة الذي يُلاحَظ دائماً حتى لدى أقرب الأقرباء أو الأصدقاء حين يرون شقاءً يحل بأحد ؛ وهو احساس لا يخلو منه انسان ، مهما يكن أسفه ومهما تكن شفقته من جهة اخرى.

وكانت تُسمع وراء الباب شذرات أحاديث يدور فيها الكلام على المستشفى ، وعلى أنه ليس من اللائق تعكير صفو عمارة في غير طائل .

صرخت كاترين ايفانوفنا تقول :

ـ ماذا ؟ ليس من اللائق أن يموت الانسان ؟

وهمّت أن تفتح الباب وأن تصبّ على هؤلاء الناس سيلا من الشتائم ، ولكنها حين وصلت الى العتبة رأت نفسها تصطدم بمدام ليبفكسل نفسها التى علمت بالمصيبة فأسرعت تعيد النظام الى نصابه .

ان مدام ليبفكسل هذه ألمانية مشاكسة مزعجة .

قالت وهى تصفق يديها احداهما بالأخرى :

ـ آه ... يا رب ! زوجك داسه حصان وهو سكران . الى المستشفى ، الى المستشفى انما كان يجب ... أنا صاحبة البيت ...

فقالت كاترين ايفانوفنا فى تعالٍ وكبرياء :

ـ أرجوك يا آماليا لودفيجوفنا أن تفكرى فيما تقولين ... يا اماليا لودفيجوفنا ...

كانت كاترين ايفانوفنا تخاطب صاحبة البيت دائماً فى تعال وكبرياء ، كيما « تلزم هذه حدودها » ؛ ولم تستطع حتى فى هذا الظرف أن تحرم نفسها من هذه اللذة .

قالت مدام ليبفكسل :

ـ قلت لك مرةً واحدة الى الأبد أن لا تسمينى اماليا لودفيجوفنا قط . أنا آماليا ايفانوفنا .

ـ أنت لستِ آماليا ايفانوفنا ، بل آماليا لودفيجوفنا ؛ وانا لست واحدةً من أولئك الذين يتملقونك تملقاً ذليلاً ، ومنهم السيد ليبزياتنيكوف الذى تدوّى قهقهاته فى هذه اللحظة نفسها وراء الباب (وكان يدوى

وراء الباب ضحكٌ فعلاً ، وكانت تُسمع هذه الجملة : « ها هما تتماسكان بالأيدي ! » ، فانني سأسميك دائماً آماليا لودفيجوفنا • ولست افهم على كل حال لماذا يسوءك هذا الاسم الى هذه الدرجة • لقد رأيت ما حدث لسيميون زاخاروفتش : انه يموت • فأرجوك أن تغلقي هذا الباب فوراً ، وأن لا تدعي لأحد أن يدخل الى هنا • فليمت بسلام على الاقل ! والا فانني أؤكد لك أن سلوكك هذا سيعرفه الحاكم العام نفسه من الغد • ان الأمير قد عرفني قبل أن أتزوج ، وهو يتذكر سيميون زاخاروفتش ، وقد احسن وفادته مراراً • وجميع الناس يعلمون ان سيميون زاخاروفتش كان له أصدقاء وحُماةٌ كُثُر أهملهم هو نفسه بسبب عزته وكبريائه وشممه ، وبسبب ما كان يحسه من ضعفه المحزن الذي يمزق القلب تمزيقاً • ولكن شاباً عظيماً (وأومأت الى راسكولنيكوف) ذا ثراء وعلاقات ، شاباً يعرفه سيميون زاخاروفتش منذ طفولته ، يتولى مساعدتنا الآن ، ففي وسعك أن تكوني على يقين يا آماليا لودفيجوفنا من ان •••

قيل ذلك كله بسرعة قصوى كانت تتزايد من دقيقة الى دقيقة • ولكن السعال قطع بلاغة كاترين ايفانوفنا فجأة ؛ واستعاد المحتضر وعيه في تلك اللحظة فهرعت اليه• وفتح عينيه ، وأخذ ينظر الىراسكولنيكوف الواقف بقربه ، أخذ ينظر اليه دون أن يتعرف أحداً ودون ان يفهم شيئاً • وكان يتنفس تنفساً شاقاً عميقاً متقطعاً • وظهر دم على طرفي شفتيه • وكان العرق يتكاثف على جبينه كحبات اللؤلؤ • واذ لم يستطع أن يحدّد شخصية راسكولنيكوف ، أجال بصره على ما حوله قلقا • وكانت كاترين ايفانوفنا تلقي عليه نظرة حزينة لكنها قاسية ، وكانت تسيل من عينيها دموع •

قالت يائسة :

ـ رباه ! ان صدره معجون عجناً ! ما أكثر الدم ! ما أكثر الدم ! يجب أن تُنزع عنه ملابســه • اسـتدر قليلاً يا سيميون زاخاروفتش ، اذا كنت تقوى على ذلك •

تعرفها مارميلادوف • فنطق بصوت أبح :

ـ كاهن !

فتراجعت كاترين ايفانوفنـا نحو النـافذة ، وأسـندت جبينها الى الزجاج ، وهتفت تقول وقد بلغت ذروة الكمد والكرب :

ـ قاتل الله هذه الحياة !

وعاد المحتضر يقول من جديد ، بعد لحظة صمت :

ـ كاهن !

فقالت كاترين ايفانوفنا :

ـ أر ••• سلنا ••• نستد ••• عيه !

ففهم وصمت • وكان يبحث عنها بنظراته وجلاً قلقا • فعادت اليه ووقفت بقربه • فهدأ قليلاً ولكن هدوءه لم يطل • فان عينيه لم تلبثا ان توقفتا على الصغيرة ليدوتشكا * (أثيرته) التى كانت فى ركن من الأركان ترتجف ارتجاف من أصابته نوبة عصبية، وتحدّق اليه بعينها المدهوشتين، عينى الطفلة ، تحديقاً ثابتاً •

غمغم محاولاً أن يقول شيئاً وهو يومىء اليها قلقاً :

ـ أ ••• أ •••

فصرخت كاترين ايفانوفنا :

ـ ماذا أيضاً ؟

فقال وقد تلبثت نظراته على قدمى البنت الصغيرة الحافيتين :

ـ حافية ! حافية !

فزرأت كاترين ايفانوفنا تقول وقد بلغ غضبها أشده :

ـ اسكت ! أنت تعلم حق العلم لماذا هي حافية !

صاح راسكولنيكوف يقول متخففاً من قلقه :

ـ الحمد لله ! وصل الطبيب !

دخل الطبيب • انه شيخ شديد الحذر كثير التدقيق (وهو المانى) أخذ يلقى على ماحوله نظرات زاخرة بالريبة والشك• اقترب من المريض، وجسّ نبضه ، وتفحص رأسه بانتباه ، ثم تعاون مع كاترين ايفانوفنا على حلّ أزرار القميص المبتل بالدم ، وعرّى الصدر • كان الصدر خاسفا خسوفاً مروّعاً ، وكان مهروساً ممزّقاً • ان عدة اضلاعٍ فى الجهة اليمنى كانت محطمة مهشمة • وفى الجهة اليسرى ، عند القلب ، كانت ترى بقعةٌ سوداء ضاربة الى صفرة ، بقعةٌ كبيرةٌ رهيبة : انها آثار حافر حصان • قطّب الطبيب حاجبيه • وروى له الشرطى أن الجريح قد تشبثت به احدى عجلات العربة ، فجرّته أثناء دورانها مسافة ثلاثين خطوة على أرض الشارع •

قال الطبيب لراسكولنيكوف هامساً :

ـ أغرب ما فى الأمر أنه عاد اليه شعوره !

فسأله راسكولنيكوف :

ـ ما رأيك ؟

ـ سيموت حالاً

ـ أليس هناك أى أمل ؟

ـ لا أمل البتة • انه يوشك أن يلفظ آخر أنفاسه • انه فى النزع الأخير • ثم ان رأسه مصاب بجرح خطير جداً • همْ ••• يمكننا طبعا

أن نجرى له فصداً ... ولكن ما فائدة ذلك ؟ انه ميت لا محالة . نعم، سيموت حتماً بعد خمس دقائق أو ست .

ــ لنجرّب الفصد مع ذلك !

ــ طيب . ولكننى أنبّهك مرةً أخرى الى أننا لن نجنى من ذلك أية فائدة .

وفى هذه اللحظة نفسها سُمع وقع أقدام مرةً أخرى . فتنحى الجمهور على فسحة السلّم وظهر كاهن شيخ أبيض الشعر يحمل « الأعراض السرية » ، ووراءه شرطى جاء به الى البيت . فسرعان ما أخلى له الطبيب المكان ، بعد أن تبادل معه غمزةً ذات دلالة ، وبادر راسكولنيكوف يرجو الطبيب أن يبقى ولو لحظةً قصيرة . فرفع الطبيب كتفيه ، ولكنه بقى .

تنحى الجميع . ولم يدم الاعتراف الا وقتاً قصيراً جداً : فأغلب الظن أن المحتضر كان فاقداً ادراكه وكان عاجزاً عن الكلام ، وكان لا يستطيع ، فى أكثر تقدير ، أن ينطق الا باصوات متقطعة غير متميزة .

أمسكت كاترين ايفانوفنا يد ليدوتشكا ، فأنهضت الطفلة الصغيرة عن كرسيها ثم مضت الى الركن قرب المدفأة ، فجثت على ركبتيها وأركعت الأولاد أمامها .

استمرت البنت الصغيرة ترتجف . أما الصبى الصغير الذى كانت ركبتاه العاريتين على بلاط الأرض ، فكان يرفع يده اليمنى فى فواصل مطرّدة ، فيرسم اشارات الصليب واسعةً كبيرة ، ثم يسجد فيلصق جبينه بالأرض ، وكان واضحاً أن هذا يحدث له لذة قصوى . وكانت كاترين ايفانوفنا تعض على شفتيها وتحبس دموعها . كانت تصلى هى أيضا ، وتعدل قميص الصغير من حين الى حين فى الوقت نفسه . حتى لقد

استطاعت ، دون أن تنهض ودون أن تقطع صلاتها ، استطاعت أن تسلّ من الخزانة ذات الأدراج منديلاً ألقته على كتفى الصبية العاريتين •

ولكن الباب المطل على البيوت الأخرى قد فتحه المستطلعون اثناء ذلك مرةً أخرى • كان جمهور الشاهدين على فسحة السلّم ـ وهم السكان الذين هرعوا من جميع طوابق العمارة ـ تزداد كثافته شيئاً بعد شيء ، الا أن أحداً منهم لم يتخط عتبة الغرفة • وكان لا يضيء هذا المشهد كله الا بقية شمعة •

وفي تلك اللحظة وصلت بوليا التى ذهبت تُحضر اختها ، فاندفعت تشق لها ممراً بين ذلك الجمور • دخلت منقطعة الأنفاس تقريباً ، لأنها قد ركضت بسرعة مفرطة ، فنزعت المنديل الذى كان يغطى رأسها ، وبحثت عن أمها بعينيها ، ثم اقتربت منها وقالت لها : « ستجيء ، فقد لقيتها فى الشارع ! » •

أركعت الأم ابنتها الى جانبها • ثم وصلت فتاة ، فتقدمت وسط الجمهور خَجلةً بلا ضجة ، فكان ظهورها فى هذه الغرفة التى يسودها الفقر والبؤس والأسمال الرثة والموت واليأس أمراً غريباً يبعث على أشد الدهشة • كان هندامها لا يساوى أربعة قروش ، ولكنه صارخ صخاب يناسب أذواق وقواعد العالم الخاص الذى تعيش فيه هذه الفتاة ، ويلائم الغايات الدنيئة التى تسيطر على ذلك العالم • وقفت صونيا على العتبة لا تجرؤ أن تجتازها • وكانت تنظر حواليها زائغة الهيئة تائهة الفكر • كان يبدو عليها أنها لا تدرك شيئاً ولا تعى شيئاً ، وكان يبدو عليها أيضاً أنها ذُهلت عن ثوبها الحريرى الذى اشترته مستعملاً ـ والذى كانت ألوانه الزاهية وذيوله الطويلة لا تناسب هذا المكان ـ و ذهلت عن تنورتها الفضفاضة التى تملأ عرض الباب كله ، وعن حذاءيها اللامعين وشمسيتها

التى لا فائدة منها البتة لأن الوقت ليل ، وعن قبعتها الصغيرة المصنوعة من قش ، المزدانة بريشة حمراء •

وكان يلوح تحت هذه القبعة ، الموضوعة مائلة ، وجه صغير نحيل أصفر مرتاع ، فاغر الفم شارد العينين من الرعب •

ان صونيا تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً ، وهى قصيرة القامة هزيلة الجسم ، لكنها جميلة ، شقراء ، لها عينان زرقاوان رائعتان • وقد راحت تحدّق الى الديوان والى الكاهن بنظرات ثابتة • وكانت مقطعة الأنفاس هى أيضاً ، لأنها ركضت ركضاً سريعاً • ولا شك أن كلمات تبادلها بعضهم فى الجمهور همساً قد تناهت الى مسامعها فها هى ذى تخفض رأسها وتتقدم خطوة الى أمام • ولكنها لم تعزم أمرها بعد على الابتعاد عن الباب •

انتهى الاعتراف والتناول • وعادت كاترين ايفانوفنا الى قرب الديوان • وتنحى الكاهن • ولكنه اعتقد أن من واجبه أن يوجّه الى كاترين ايفانوفنا بضع كلمات تواسيها وتقوى عزيمتها • فقاطعته كاترين ايفانوفنا تقول بلهجة خشنة غاضبة وهى تشير الى الأولاد :

ـ وهؤلاء ، أين أضعهم الآن ؟

فقال الكاهن :

ـ الله رحيم • أمّلى فى عون الرب !

ـ هو رحيم ولا شك ، لكنه ليس رحيماً بنا نحن •

قال الكاهن وهو يهز رأسه :

ـ هذا اثم يا سيدتى ، هذا اثم !

فصرخت كاترين ايفانوفنا مشيرة الى المحتضر :

ـ وهذا ، أليس اثماً ؟

ـ لعل الذين كانوا سبب وقوع هذه المصيبة بغير ارادة منهم ، لعلهم يوافقون على أن يدفعوا لك تعويضاً بسبب فقدانك مواردك على الأقل •

صرخت كاترين ايفانوفنا تقول بشراسة :

ـ أأنت لا تفهم اذن ؟ لماذا عساهم يدفعون لى تعويضاً ؟ ان هذا السكّير هو الذى ألقى بنفسه بين حوافر الخيل ! ثم ما كلامك هذا عن مواردى ! انه لم يمدنى بأية موارد فى يوم من الأيام ! انه لم يهيىء لى الا أنواع العذاب ! هذا كل ما أمدنى به ! لقد كان سكيراً ، سكيراً ، ما وصل الى يده شىء الا سارع يشرب به خمراً ؛ كان ينهبنا نهباً ، كان يذهب الى الحانات يتلف فيها حياتهم وحياتى ! سيموت الآن ، وسيكون موته توفيراً واقتصاداً !

ـ على المرء أن يعفو ويصفح ويغفر ، فى ساعة الموت ! ان الشعور بمثل هذه العواطف اثم يا سيدتى ، اثم كبير !

كانت كاترين ايفانوفنا ما تزال منهمكةً حول المحتضر ، تسقيه وتسمح عن رأسه العرق والدم ؛ فهى تتحدث مع الكاهن دون أن تنقطع عن عملها • ولكنها وثبت نحوه على حين فجأة حانقة غاضبة ، فقالت له :

ـ آه يا أبى ! ما هذا كله الا كلام ، كلام لا أكثر ! العفو والصفح والمغفرة ! هه ! لو لم يقع له هذا الحادث ، لرجع الى البيت فى هذا المساء سكران ؛ ولأنه لا يملك قميصاً غير هذا القميص الوسخ الممزق الذى يلبسه ، لكان علىّ أنا أثناء غطيطه فى النوم أن أتبلل بالماء لأغسل له القميص ولأغسل ملابس الأولاد ؛ ولكان علىّ بعد ذلك أن أجفف الغسيل كله على النافذة ، حتى اذا طلع الفجر أخذت أعمل فى الترقيع!

على هذا النحو كنت سأقضى الليل ! فعلام الكلام عن العفو والصفح والمغفرة اذن ؟ لقد عفوت وصفحت وغفرت منذ زمان !

واعترتها نوبة سعال شديدة فاضطرت أن تنقطع عن الكلام . وبصقت فى منديلها ووضعته تحت عينى الكاهن ضاغطةً صدرها بيدها الأخرى . كان المنديل مبللاً بالدم .

خفض الكاهن رأسه ولم يقل شيئاً .

وكان مارميلادوف المحتضر لا يحوّل عينيه عن وجه كاترين ايفانوفنا التى مالت عليه من جديد . كان يريد أن يقول لها شيئاً ما . حاول ذلك محركاً لسانه بمشقة ، متمتماً ببضع كلمات مبهمة غير متميزة، ولكن كاترين ايفانوفنا ، وقد أدركت أنه يريد أن يسألها أن تغفر له أسرعت تصرخ قائلة له بلهجة لا جواب عليها :

ـ اسكت ! اسكت ! لا داعى ! أعرف ما تريد أن تقول !

فصمت الجريح . ولكن بصره التائه سقط فى تلك اللحظة على الباب ، فلمح صونيا . لم يكن قد لاحظها قبل ذلك : كانت صونيا قد لبثت فى الجزء المظلم من الغرفة .

ـ من هذه ؟ من هذه ؟

كذلك تأتأ يسأل فجأةً بصوت أبحّ لاهث ، وهو يحاول أن ينهض ، ويومىء بعينيه مرتاعاً الى الباب الذى كانت ابنته ما تزال واقفةً عنده .

فصرخت كاترين ايفانوفنا تقول له :

ـ ابق راقداً ! ابق راقداً !

ولكنه استطاع بجهد خارق أن يُنهض جسمه مستنداً بيده الى

الديوان • فحدَّق الى ابنته برهــةً من الوقت بنظرة غريبــة ، كأنه لم يتعرفها • ذلك أنه لم يسبق له أن رآها بمثل هذا الزى الغريب • ولكنه لم يلبث أن تعرفها فجأة • كانت مُذلةً منهارةً تحس بالخزى والعار من ملابسها المبهرجة ، وهى تنتظر فى رفق ووداعة ، وفى اذعــان وتسليم ، أن يجىء دورها لتوديع أبيها المحتضر •

ارتسم على وجه الأب تعبير عن ألم لا نهاية له ، وعذاب ليس له حدود • وصرخ يقول :

ـ صونيا ، ابنتى ، اغفرى لى !

وأراد أن يمد اليها يده ، لكنه فقد توازنه لأنه لم يتكىء على شىء ، فتدحرج عن الديوان منكبًّا الوجه على الأرض • أسرعوا ينهضونه ، وعادوا يُرقدونه على السرير • ولكنه كان قد أخــذ يلفظ أنفاســه • أطلقت صــوفيا صرخة ضعيفة ، وهرعت اليه ، وعانقته طويلاً ، فمات بين ذراعيها •

صاحت كاترين ايفانوفنا تقول وهى ترى جثة زوجها :

ـ نال ما كان يســعى اليه • ولكن ما العمــل الآن ؟ أين لى بالمال أنفقه على دفنه ؟ وهؤلاء ، هؤلاء ، من أين أطعمهم غداً ؟

اقترب راسكولنيكوف من كاترين ايفانوفنا • وبدأ يتكلم فقال :

ـ كاترين ايفانوفنا ! فى الأســبوع الماضى روى لى زوجك المتوفى قصة حياته تفصيلاً ••• ثقى أنه تــكلم عنك بحماسة شــديدة واحترام عظيم • وقد أصبحنا صديقين منذ ذلك المســاء الذى عرفت فيه مدى اخلاصه لكم جميعاً ، ومدى ما يحمله لك خاصةً يا كاترين ايفانوفنا من حب وتقدير ، رغم آفته الشقية ، آفة الادمان على الشراب ••• فاسمحى

الآن اذن ... اسمحي لى أن أساهم ... أن أقوم بآخر واجباتى نحو صديقى المتوفى . خذى هذا المبلغ ... أظن أنه خمسة وعشرون روبلاً ... فاذا كان هذا يساعدكم ولو قليلاً ، فانى ... لكننى سأعود اليكم ، سأعود اليكم حتماً ، وقد أعود من الغد ... استودعكم الله !...

قال ذلك وغادر الغرفة متعجلاً ، وشق لنفسه ممراً بين الجمهور بسرعة . ولكنه لم يلبث أن اصطدم بنيكوديم فومتش الذى علم بنبأ الحادث ، فأراد أن يتولى بنفسه اتخاذ الاجراءات الضرورية . لم يكونا قد التقيا منذ وقع ذلك المشهد فى قسم الشرطة ، ولكن نيكوديم فومتش عرفه من أول نظرة . قال :

ـ هه ! هذا أنت ؟

قال راسكولنيكوف :

ـ مات ! ولقد جاء الطبيب ، وجاء الكاهن ، وتمّ كل شىء كما يجب أن يتم . لا تزعج كثيراً تلك المرأة الشقية . حسبها ما هى فيه من شقاء منذ الآن . واسها واشدد آزرها ان أمكن ...

ثم أضاف يقول ساخراً ، وهو يرمقه بنظرة ثابتة :

ـ أنا أعرف أنك رجل طيب القلب .

لاحظ نيكوديم فومتش ، فى ضوء الشمعة ، لاحظ بقعاً من الدم ما تزال طرية على صديرة راسكولنيكوف ، فقال ينبهه :

ـ ولكنك ... ملطخ بالدم !

فأجابه راسكولنيكوف بلهجة غريبة بعض الغرابة :

ـ نعم ، تلطخت ...

ثم ابتسم ، وحيَّاه بحركة من رأسه ، وأخذ يهبط السلَّم •

كان ينزل ببطء ، ولكنه كان يرتعش كمن أصابته حمى • ان موجةً كبيرة من الفرح والانفعال تغمر نفسه الآن ، على غير شعور منه • يمكن أن يشبَّه هذا الاحساس بالاحساس الذى يشعر به رجل محكوم عليه بالاعدام حين يعلم فجأة بصدور قرار بالعفو عنه •

فلما وصل الى منتصف السلَّم أدركه الكاهن الذى غادر البيت • تنحى راسكولنيكوف ليدع له مجال المرور ، وبادله تحيةً صامتة • ولكنه حين كان يهبط الدرجات الأخيرة سمع وراءه على حين فجأة وقع خطوات سريعة • كان واضحاً أن هناك من يحاول أن يلحق به • انها بولينكا • كانت تركض وهى تناديه صائحة : « اسمع ! اسمع ! » •

التفت راسكولنيكوف • كانت الفتاة قد هبطت الطوابق الأخيرة بسرعة شديدة ، وها هى ذى الآن تقف أمامه على الدرجة التى تعلو درجته • ان نوراً ضئيلاً مضطرباً كان يتسلل من الفناء الى ذلك المكان • ميَّز راسكولنيكوف الوجه الذى كان ينظر اليه ويبتسم له فرحاً كما يفعل الأطفال • انه وجه صغير هزيل ، ولكنه جميل• لقد هرعت الصبية وراءه مكلفةً بمهمة كان واضحاً أنها تسرها كثيراً •

سألته متعجلةً بصوت لاهث :

ـ اسمع ! ما اسمك ؟ وأين تسكن ؟

وضع راسكولنيكوف يديه على كتفى الطفلة ، ونظر اليها بنوع من الفرح • لقد وجد فى النظر اليها متعةً كبيرة دون أن يعرف لماذا •

سألها :

ـ من أرسلك ؟

فأجابته وهى تبتسم بمزيد من الفرح :

ـ اختى صونيا هى التى أرسلتنى .

ـ قدّرت ذلك .

ـ وأمى أيضاً . فحين سألتنى صونيا أن أجرى وراءك ، اقتربت أمى فقالت لى هى أيضاً : « نعم ، اركضى وراءه بسرعة يا بولينكا » .

ـ هل تحبين أختك صونيا ؟

ـ أكثر مما أحب أى شىء فى العالم !

قالت بولينكا ذلك بلهجة قاطعة ، وأصبح فى ابتسامتها مزيد من الجد على حين فجأة .

سألها :

ـ وأنا ، هل ستحبينني ؟

فلم تزد الصبية ، فى الجواب عن هذا السؤال ، على أن قرّبت وجهها من وجهه ، ومدّت اليه شفتيها البريئتين ، بسذاجة ، ليقبلهما ، ثم عانقته بذراعيها الصغيرتين، النحيلتين كعودى ثقاب، عناقاً قوياً ، ومالت برأسها على كتفه ، وأخذت تبكى بكاءً رفيقاً ، وألطت وجهها على وجهه مزيداً من الالطاء شيئاً بعد شىء . وقالت بعد دقيقة وهى ترفع وجهها الذى غيرته الدموع والذى أخذت تمسحه بظهر يدها :

ـ مسكين بابا !

ثم أضافت تقول فجأة ، وهى تصطنع هيئة الجد التى يصطنعها الأطفال حين يريدون بغتةً أن يتكلموا « كما يتكلم الكبار » :

ـ ما أكثر المصائب فى هذا اليوم !

ـ وأبوك ، هل كان يحبك ؟

فتابعت كلامها تقول جادةً دون ابتسام ، كشخص كبير تماماً في هذه المرة :

ـ من بيننا جميعاً كان يحب ليدوتشكا حباً خاصاً . كان يحبها لأنها صغيرة جداً ، ولأنها مريضة أيضاً . وكان يجيئها دائماً بهدايا صغيرة . ونحن ، كان يعلمنا القراءة .

وأضافت تقول بوقار :

ـ أنا ، كان يعلمني قواعد اللغة ، والتاريخ المقدس . وكانت أمي لا تقول شيئاً ، ولكننا كنا نعرف أنها تسرُّ بذلك ، وكان بابا يعرف هذا أيضاً . وماما تريد الآن أن تعلمني اللغة الفرنسية ، لأنه آن الأوان لأن أتعلم ...

ـ وهل تجيدين الصلاة ؟

ـ طبعاً نجيد الصلاة . أنا أجيد الصلاة منذ مدة طويلة ! أنا ، أصلِّي بصوت خافت ، لأنني كبيرة . أما كوليا وليدوتشكا فهما يصليان بصوت عال ، مع ماما . يرتلان أولاً : « سلام عليك يا مريم ... » ، ثم يتلوان دعاءً آخر : « اغفر لاختنا صونيا يا رب ، وباركها ! » . ويتلوان بعد ذلك دعاءً آخر : « اغفر لأبينا الآخر يا رب ، وباركه ! » . ذلك أن أبانا الأول مات . أما هذا فهو أبونا الثاني . لذلك ندعو للأول أيضاً .

ـ بولينكا ! اسمي أنا روديون . فادعوا لي أنا أيضاً في بعض الأحيان . أضيفوا في صلاتكم : « ولروديون المسكين » ، لا أكثر من ذلك .

قالت الصبية بحماسة وحرارة :

ـ طول حياتي ، سأدعو لك !

ثم أخذت تضحك فجأة ، واندفعت اليه فعانقته بذراعيها عناقاً قوياً. ذكر لها راسكولنيكوف اسمه ، وذكر لها عنوانه ، ووعد بأن يجيء اليهم من الغد . فانصرفت الفتاة وقد طفح قلبها حماسة .

كانت الساعة هي العاشرة حين أصبح الطالب راسكولنيكوف في الشارع . وبعد خمس دقائق وصل الى الجسر ، الى ذلك الموضع نفسه الذي وقفت فيه المرأة المسكينة حين ألقت بنفسها في الماء .

قال لنفسه بلهجة جازمة مظفَّرة : « كفى ! تراجعي يا أنواع السراب ! الى الوراء يا أيتها المخاوف الوهمية ! تقهقري أيتها الأطياف ! الحياة موجودة ! ألست حياً في الساعة التي أنا فيها ! ان حياتي لم تمت بموت المرأة العجوز ! لا ! ان ملكوتها الآن هو ملكوت السموات ! كفاك ايتها المرأة العجوز ! آن لك أن تدعي العالم هادئاً ! أما ملكوتي أنا فهو ملكوت العقل والضياء ... و ... القوة ... والارادة ... وسنرى من المنتصر منا نحن الاثنين الآن ! » . كذلك أضاف متغطرساً ، كأنما هو يخاطب ويتحدى قوة غامضةً ما . وتابع يكلم نفسه فقال : « كيف رضيت أن أحيا على حيِّز ضيق من المكان لا يزيد على أن يكون موطىء قدم ؟ أنا الآن ضعيف جداً ، ولكن ... أعتقد أن مرضي قد انتهى ... وحين خرجت منذ برهة ، كنت أعلم حق العلم أنه سينتهي . بالمناسبة : ان عمارة بوتشنكوف على مسافة خطوتين من هنا . سأذهب حتماً الى بيت رازوميخين ... نعم ، سأذهب اليه حتى ولو كان لا يقيم في منزل قريب هذا القرب كله . ألا فليكسب الرهان ! ألا فليسخر مني ! أي ضير في هذا ؟ ان ما أنا في حاجة اليه هو القوة ، القوة . بغير

القـوة لا يصـل المرء الى شيء • والقـوة لا تُنال الا بالقـوة • هـذا ما لا يعرفونه ! » كذلك أضاف يقول بزهو وكبرياء وثقـة • واجتـاز الجسر بخطى واسعة • فكانت الكبرياء والثقة تزدادان فيه كلما انقضت دقيقة جديدة ؛ وكلما انقضت دقيقة جديدة كان يصبح رجلاً آخر • فما الذي حدث اذن حتى تحقق في نفسه هذا التحول ؟ كان هو نفسـه يجهل ذلك • انه ، كالغريق الذي يتعلق بقشة ، يتصور أنه « يستطيع أن يحيا ، وأن الحياة ما تزال موجـودة ، وأن حيـاته « هو » لم تمت بموت المرأة العجوز ، العجوز » • ولعله أسرف في التعجل حين انتهى الى هذه النتيجة ، ولكن ذلك لم يخطر له ببال •

قال لنفسه فجـأة : « ومع ذلك طلبت صلوات ودعوات للمسـكين روديون ! » ولكنه لم يلبث أن أضاف : « كان هذا من باب الاحتياط على كل حال ! » وأسرع يضحك من سذاجته الصـبيانية • لقد كان مزاجه مشرقاً اشراقاً رائعاً !

اهتدى الى مسـكن رازوميخين بسـهولة : كان المسـتأجر الجديد معروفاً في عمارة بوتشنكوف ، ودلّه البواب على الطريق فوراً • فما ان وصل الى منتصف السلّم حتى كان يسمع ضجة حديث حار يقوم بين حشد كبير • كان الباب المطل على السلّم مفتوحاً على كل سعته • فكان يُسمع صراخ ونقاش • ان غرفة رازوميخين واسعة سعةً كافية ، فكانت تضم نحو خمسة عشر شخصاً• ووراء الباب ، كانت خادمتان ، مستعارتان من الجيران سـكان البيت ، منهمكتين حول سـماورين كبيرين ، وكانتا تهتمـان كذلك بزجاجات وصحـون وأطباق مثقلة بفطائر ومشهيّات • والصحون والأطباق مستعارة من الجيران أيضـاً • سـأل راسكولنيكوف عن رازوميخين ، فهرع اليـه رازوميخين مسروراً مفتـوناً • ان المـرء ليلاحظ من أول نظرة أنه قد أسرف في الشراب ؟ ورغم أنه في العـادة

لا يمعن فى الشراب الى حدّ السكر ، فان مظهره الآن لا يخطئه الظن.

قال راسكولنيكوف بسرعة :

ـ اسمع ! أنا لم أجيء الا لأقول لك انك كسبت الرهان ، وانه ما من انسان يستطيع فى الواقع أن يحزر ما قد يقع له ... ولكننى لا أستطيع أن أدخل ... لذلك أقول لك : السلام عليكم والى اللقاء . تعال الىّ غداً .

ـ اسمع ، سأصحبك ، ما دمت تقول أنت نفسك انك تبلغ من الضعف أنك ...

ـ وضيوفك ؟ قل لى : مَنْ ذلك الرجل المجعَّد شعره الذى ألقى الآن نظره علينا ؟

ـ ذاك ؟ الشيطان وحده يعلم من هو ! لا شك أنه رجل له بعمى علاقة ، أو أنه دعا نفسه بنفسه !... سأترك الضيوف مع عمى ! خسارة كبرى أنك لا تستطيع الآن أن تتعرف الى عمى ! شيطان يأخذهم جميعاً ! ثم انهم فى هذه اللحظة لا يملكون من العقل ما يمكنهم من أن يفطنوا الىّ ! وما أحوجنى الى استنشاق الهواء ! يا عزيزى ، لقد جئت فى الأوان المناسب . فلو تأخرتَ دقيقتين لأخذت أتضارب معهم ! ليتك سمعت ما كانوا يقولونه ! ليس فى وسعك أن تتصور عدد الأكاذيب التى يستطيع فرد أن يقولها ! ولكن قد تستطيع أن تتصور ذلك . لم لا ؟ وليكذبوا ما شاءوا أن يكذبوا على كل حال !... ولكن لا بد ان يأتى يوم تنفضح فيه الأكاذيب !... اجلس لحظةً ، سأنادى زوسيموف .

هجم زوسيموف على راسكولنيكوف بشراهة، وظهر عليه استطلاع قوى وفضول غريب ، ثم لم يلبث أن أشرق وجهه وأضاء .

قال جازماً بعد أن فحص المريض كيفما اتفق :

ـ عليك أن ترقد فى الفراش حالاً • وعليك قبل ذلك أن تتناول شيئاً حتى تنام • ابلع هذه الحبة ، هه ؟ لقد حضّرتها منذ قليل •

أجابه راسكولنيكوف :

ـ لأبلعنّ حبتين اذا لزم الأمر !

وبلع الدواء حالاً •

وقال زوسيموف لرازوميخين :

ـ انك لعلى صواب حقاً اذ تريد أن تصحبه • ما سيحدث غداً ، سنراه فى حينه ؟ أما اليوم فحالته ليست سيئة جداً • لقد تبدل تبدلا واضحاً عما كان عليه قبل قليل • ان الانسان يتعلم فى كل يوم اموراً جديدة •

جمجم رازوميخين يقول لراسكولنيكوف منذ صارا فى الشارع :

ـ هل تعلم بماذا همس زوسيموف فى أذنى لحظة خرجنا ؟ يا صاحبى ، سأكلمك بصراحة ، لأن هؤلاء جميعاً حمقى أغبياء • لقد طلب منى زوسيموف أن أثرثر معك أثناء الطريق ، حتى تثرثر انت أيضاً ، ثم أمضى أقصُّ عليه فوراً كل ما تكون قد قلته ••• ذلك انه قد قام فى ذهنه أنك ••• أنك مجنون ••• أو أنك توشك أن تصبح مجنوناً • هل تتخيل هذا ؟ أنا أرى أولاً أنك أذكى منه ثلاثة أضعاف ؛ وأرى ثانياً أنك اذا لم تكن مجنوناً فلن تكترث بما قد يقوم فى ذهنه ؛ وأرى ثالثاً أن هذه الشريحة من اللحم التى هى طبيب جراح ، قد أصبحت لا تُعنى الا بالأمراض العقلية ، فاقتنعت بعد حديثك مع زاميوتوف بان •••

ـ هل روى لك زاميوتوف كل شىء ؟

ـ كلّ شيء ٠ ولقد أحسن صنعاً ٠ ان هذا أفهمني القضية كلها ، وقد فهمها زاميوتوف هو أيضاً ٠ الخلاصة يا روديا ٠٠٠ الواقع أن ٠٠٠ حقاً أن الآن سكران قليلاً ، ولكن لا ضير ٠٠٠ الواقع أن هذه الفكرة ٠٠٠ هل تفهم ؟٠٠٠ قد ترسخت في أذهانهم ، هل تفهم ! لم يجرؤوا طبعاً أن يفصحوا عنها صراحةً ، لأن الأمر سخيف حقاً ، ولا سيما بعد أن اعتقلوا الدهّان ٠ نعم لقد تبدد كل شيء الى الأبد كفقاعة صابون ٠ ولكن لماذا هم أغبياء الى هذه الدرجة من الغباء ؟ لقد أسأتُ معاملة زاميوتوف قليلاً ٠ ولكن هذا سر بيننا ٠ أنت لا تعرف هذا ، أليس كذلك ؟ ذلك أنني لاحظت أنه أميل الى المماحكة والنزق ٠٠٠ حدث هذا كله عند لويزا ٠ أما الآن فقد اتضح كل شيء ٠ والحق أن المذنب الرئيسي انما كان ايليا بتروفتش ٠ لقد استغل حادثة اغمائك في قسم الشرطة ، ثم خجل هو نفسه مما ذهب اليه ظنه ٠ أنا أعلم كل شيء ٠

كان راسكولنيكوف يصغي بشراهة ٠ وقد أفاض رازوميخين في الكلام بتأثير السكر ٠

قال راسكولنيكوف :

ـ انما أغمي عليّ لأنني كنت أختنق ، ولأن رائحة الدهان كانت تملأ الجو ٠

ـ عجيب أمرك ! ما بالك تشعر أنك في حاجة الى أن تبرير ! لم تكن رائحة الدهان وحدها هي السبب ، فانما أنت تحضن المرض منذ شهر ونيف ٠ ان زوسيموف يشهد بهذا ٠ لا تستطيع أن تتخيل مدى ما يشعر به هذا الغر ، زاميوتوف ، من خجل واضطراب ٠ لقد قال : « انني لا أساوي اصبع هذا الرجل » ، يعني اصبعك أنت ٠ هل تعلم يا أخي أنه يبرهن أحياناً على أن له عواطف طيبة كريمة ؟ ولكن الدرس

الذى تلقاه اليوم فى « قصر الكريستال » قد بلغ منتهى الكمال . ذلك أنك أخذت فى أول الأمر تخيفه حتى أخذ يرتعد ! آه ... حين أتصور كيف كدت تجبره اجباراً على أن يصدّق ذلك الأمر السخيف المستحيل ... ثم اذا بك تمدُّ له لسانك مستهزئاً على حين فجأة !... يا سلام ! نعم ، بلغ ذلك منتهى الكمال ! ظل الرجل محطماً مسحوقاً . يميناً انك لأستاذ ، لقد عاملتهم بما يستحقون أن يعاملوا به . آه .. خسارة أننى لم أكن هناك ! هل تعلم ؟ لقد كانوا كانوا ينتظرونك عندى محترقين من نفاد الصبر . وكان بورفير أيضاً يود لو يتعرف اليك ...

ـ آ ... أذلك الرجل أيضاً ؟... ولماذا يعدوننى مجنوناً ؟

ـ أقصد ... لا مجنوناً تماماً ! أظن يا صاحبى أننى أسرفت فى الثرثرة بعض الاسراف ... ان ما فجأ بصره وخطف انتباهه هو أنك لا تهتم الا بهذا الأمر . هم الآن يرون طبعاً لماذا تهتم به . هم الآن يعرفون الظروف ، يعرفون أن ذلك كله قد اختلط بمرضك فأثارك . أنا سكران قليلاً كما ترى يا صاحبى . ولكن الشيطان وحده يعلم ماذا يدور فى فكره . أعود فأقول لك : ان الأمراض العقلية قد ذهبت بعقله. أما أنت فما عليك الا أن تبصق على هذا كله ...

وصمت الاثنان نصف دقيقة .

ثم بدأ راسكولنيكوف الكلام فقال :

ـ اسمع يا رازوميخين ، أريد أن أكلمك بصراحة . أنا آتٍ الآن من بيت رجل مات . ان موظفاً قد مات ... وقد تركت هناك كل ما بقى لى من مال ... هذا الى أننى قد قبلتنى منذ قليل مخلوقة لو كنت قد قتلت أحداً لكان فى وسعها مع ذلك أن ... ورأيت هنالك مخلوقة

أخرى ... على قبعتها ريشة حمراء ... ولكننى أرى أننى أهذر وأهذى ... اننى ضعيف جداً ... اسندنى ... هناك السلّم ، أليس كذلك ؟

سأله رازوميخين قلقاً :

ـ ماذا بك ؟ ماذا بك ؟

ـ رأسى يدور قليلاً ، ولكن ليس هذا هو الأمر ... وانما الأمر أننى حزين جداً ، حزين جداً ! كامرأة ... حقاً ... انظر ! ما هذا ؟ انظر ! انظر !...

ـ ماذا ؟

ـ ألا ترى ؟ ان فى غرفتى ضوءاً . نعم ، اننى أرى الضوء من خلال الشق ...

كانا قد وصلا من السلّم الى الفسحة السابقة على الفسحة الأخيرة، أمام باب صاحبة البيت ؛ ومن هناك كان يُرى ضوء فى غرفة راسكولنيكوف فعلاً .

قال رازوميخين :

ـ غريب ! لعلها ناستاسيا .

ـ ناستاسيا لا تجىء الىّ أبداً فى مثل هذه الساعة ؛ ثم انها نائمة منذ مدة طويلة ... على أن هذا كله يستوى عندى ... استودعك الله !

ـ ما هذا الذى تقوله ؟ لا بد لى أن أصحبك طبعاً ! سندخل معاً !

ـ أعرف أننا سندخل معاً ، ولكننى أريد أن أصافحك وأن أودعك هنا . هلمّ هات يدك وودّعنى !

ـ ماذا دهاك يا روديا ؟

ـ لا شيء . هيَّا ، ستكون شاهداً .

واستمرا يصعدان السلَّم ، وخطر ببال رازوميخين عندئذ أن زوسيموف ربما كان على حق ، فدمدم يقول بينه وبين نفسه : « كيف سمحت لنفسي أن أثير في نفسه الاضطراب بثرثرتي ؟ » .

وفيما هما يقتربان من الباب سمعا فجأة أصوات كلام في الغرفة .

هتف رازوميخين يسأل :

ـ ولكن ماذا يجري هنا ؟

بادر راسكولنيكوف فأمسك قبضة الباب وفتحه على سعته كلها . فتحه ووقف مسمَّراً على العتبة . كانت أمه وأخته تنتظرانه منذ ساعة ونصف ساعة ، جالستين على الديوان . تُرى لماذا كان يتوقع هذا اقل مما كان يتوقع أي شيء آخر ؟ لماذا خطرتا بباله أقلَّ مما خطر بباله أي انسان آخر ، مع أنه في ذلك اليوم نفسه تلقى رسالةً تؤكد أن وصولهما قريب ، وشيك ؟ لقد لبثا طوال مدة الانتظار لا يكفان عن مساءلة ناستاسيا التي كانت ما تزال في الغرفة أمامهما ، فاتسع وقتها لأن تروي لهما كل شيء عن راسكولنيكوف . ولقد استبد بهما ذعر شديد حين علمتا « أنه هرب اليوم من البيت » مريضاً ، وأنه كان يهذي ، على ما يخرج من القصة التي روتها ناستاسيا . « ماذا جرى له يا رب ؟ » . ولقد بكت المرأتان كلتاهما وعانتا عذاباً شديداً خلال مدة الانتظار هذه التي دامت ساعةً ونصف ساعة .

فلما ظهر راسكولنيكوف استقبلتاه بصيحات فرح وحماسة ، واندفعتا كلتاهما نحوه ، ولكن راسكولنيكوف لبث جامداً كجثة . ان

فكرة مفاجئة لا تطاق قد نزلت عليه عندئذ نزول الصاعقة ؟ حتى ان ذراعيه لم ترتفعا لمعانقتهما ، فانه لم يكن يملك من القوة ما يمكنه من ذلك . شدّته الأم والأخت الى صدريهما ، وأغرقتاه بالقبل ، وكانتا تضحكان وتبكيان فى آن واحد . فتقدم خطوة ، وترنح ، ثم هوى على الارض مغشياً عليه .

انطلقت صيحات الرعب ، وأنات الخوف ، وصرخات الاستغاثة . وكان رازوميخين قد لبث على عتبة الباب ، فهرع الى الغرفة ، وامسك المريض بذراعيه القويتين ، فأرقده على الديوان بمثل لمح البصر سرعة .

وصاح رازوميخين يقول للأم والأخت مطمئناً مهدئاً :

ــ ما هذا بشيء ، ما هذا بشيء ! ليس هذا الا اغماءً تافهاً لاقيمة له . لقد قال الطبيب منذ هنيهة ان صحته قد تحسنت كثيراً ، وانه شفى شفاءً تاماً ... الىّ بقليل من الماء ! ها ... ها هو ذا يسترد وعيه ، ها هو ذا يستعيد شعوره !

ثم أمسك يد دونيا امساكاً قوياً كاد يهشمها ، ليجبرها على أن تميل على أخيها فترى أنه « استعاد شعوره » .

كانت الأم والأخت تنظران الى رازوميخين نظرتهما الى اله ، وتشعران نحوه بامتنان عظيم وشكر عميق وعاطفة قوية وحنان شديد . كانتا قد عرفتا من ناستاسيا مافعله هذا « الشاب اللبيب » فى سبيل عزيزهما روديا طوال مدة مرضه ، كما نعتته بهذه الصفة بولشيريا الكسندروفنا راسكولنيكوفا ، فى ذلك المساء نفسه ، أثناء حديث حميم جرى بينها وبين دونيا .

الجزء الثالث

الفصل الأول

انتصب راسكولنيكوف وجلس على الديوان .
وأومأ ايماءةً خفيفة يهيب برازوميخين أن يوقف سيل المواساة العارم المتقطع الذى كان يغمر به أمه وأخته ، ثم أمسك بيديهما كلتيهما ، وراح يتأملهما صامتاً ، واحدة بعد أخرى ، خلال دقيقة أو دقيقتين . خافت الأم من نظرته ، فقد كانت هذه النظرة تشف عن عاطفة عنيفة الى حد الألم ، وكانت فى الوقت نفسه ثابتة تكاد تدل على جنون ... واخذت بولشيريا الكسندروفنا تبكى . وكانت آدفوتيا رومانوفنا شاحبة الوجه ، وكانت يدها ترتجف فى يد أخيها .

قال راسكولنيكوف بصوت متقطع وهو يومىء الى رازوميخين :

ـ عودا الى بيتكما ... معه ! الى الغد . كل شىء غداً سوف ... هل وصلتما منذ مدة طويلة ؟

أجابت بولشيريا ألكسندروفنا :

ـ هذا المساء يا روديا . لقد تأخر القطار تأخراً رهيباً ! ولكننى لن أتركك الآن بحال من الأحوال يا روديا . سأقضى الليل قرب ...

قال وهو يحرّك يده باشارة اهتياج وغيظ :

ـ لا تعذبونى هذا التعذيب !

صاح رازوميخين يقول :

ـ سأبقى بقربه ! لن أتركه دقيقةً واحدة ٠ ليذهب ضيوفى الى الشيطان ! ألا فليغضبوا اذا حلا لهم أن يغضبوا ! ثم ان عمى هناك يترأس الحفل ٠٠٠

قالت بولشيريا الكسندروفنا وهى تصافح رازوميخين من جديد :

ـ أنىّ لى أن أوفيك حقك من الشكر !

ولكن راسكولنيكوف قاطعها مرةً أخرى ، وقال مردداً فى غضب:

ـ لا أستطيع ! لا أستطيع ! لا تعذبونى ! كفى هذا ! اذهبوا ٠٠٠ لا أستطيع !٠٠٠

دمدمت دونيا تقول مرتاعةً :

ـ لنذهب يا ماما ، لنخرج من هذه الغرفة ولو لحظةً قصيرة ٠ ان لم نخرج كنا نقتله ٠٠٠ هذا أكيد ٠٠٠

فهتفت بولشيريا تقول باكية :

ـ ألا يجوز لى اذن أن أنظر اليه قليلاً بعد فراقٍ دام ثلاث سنين ؟

وعاد راسكولنيكوف يتكلم فقال :

ـ انتظروا ٠٠٠ أنتم تقاطموننى دائماً ٠٠٠ وقد اضطربت افكارى واختلطت ٠٠٠ هل رأيتما لوجين ؟

قالت الأم :

ـ لا ، يا روديا ، ولكنه يعرف أننا وصلنا .

ثم أضافت تقول بخجل :

ـ وقد عرفنا يا روديا أن بطرس بتروفتش قد تفضل فزارك فى هذا اليوم .

ـ نعم ... تفضَّل !.. يا دونيا لقد أبلغت لوجين أننى سأدحرجه الى أسفل السلَّم اذا هو جاء الىَّ مرة أخرى . وأرسلته الى الشيطان .

ـ روديا ، ما هذا الكلام الذى تقوله ؟ لا شك انك لا تريد ... مع ذلك ... أن

كذلك بدأت تقول بولشيريا ألكسندروفنا ، ولكنها نظرت الى دونيا فلم تلبث أن قطعت كلامها وصمتت .

كانت آدوفوتيا رومانوفنا تحدِّق الى أخيها بنظرات ثابتة وتنتظر التتمة . وكانت المرأتان قد عرفتا أمر المشاجرة من ناستاسيا ، بمقدار ما كانت ناستاسيا قادرة على أن تدركها وعلى أن تصوِّرها ، فكانتا لذلك فى حيرة شديدة واضطراب قوى .

تابع راسكولنيكوف كلامه فقال بجهد ومشقة :

ـ دونيا ، أنا لا أريد هذا الزواج . لذلك يجب عليك أن تعلنى له رفضك من الغد . لا أحب أن يسمِّم حياتنا بعد الآن !

صاحت بولشيريا الكسندروفنا :

ـ رباه !

وبدأت آدفوتيا رومانوفنا تتكلم فقالت باندفاع :

ـ هلاَّ فكرت قليلاً فيما تطلبه منى يا أخى !...

ولكنهـا لم تلبث أن سيطرت على نفسـها ، فاضـافت تقـول برفق وهدوء ولين :

ـ قد لا تكون صحتك الآن حسنة ••• أنت متعب !

ـ أأنا أهذى اذن ؟ أهذا ما تتصورينه ؟ لا ، انا لا اهذى ! انك تريدين أن تتزوجى لوجين « فى سـبيلى أنا » ! ولكننى أنا أرفض هـذه التضحيات • لذلك ستكتبين له من الغد رسالة قطيعة • وسأقرأ الرسالة ، وينتهى كل شىء •

هتفت الفتاة تقول مستنكرة :

ـ لا أستطيع أن أفعل هذا • وبأى حق •••

فقاطعتها الأم مرتاعة وهى ترتمى عليها :

ـ أنت أيضاً تندفعين يا دونيتشـكا ••• كفى الآن ••• غدا ••• ألست ترين اذن أنه ••• آه ••• والأفضل أن تنصرف أيضاً !

وصاح رازوميخين يقول :

ـ انه يهذى ! والا فهل كان يجرؤ أن ••• لسـوف تخرج من رأسه هذه الحماقات كلها غداً • لقد طرده اليوم فعلاً • هذا صحيح • وغضب الآخـر طبعـاً • كان يفيض فى الكلام هنـا ، ويعـرض علمـه ومعرفته • لكنه خرج مع ذلك واضعاً ذيله بين ساقيه •••

هتفت بوليشيريا الكسندروفنا تقول :

ـ أصحيح اذن ؟

وقالت دونيا وقد امتلأ قلبها شفقة ورحمة :

ـ الى الغد يا أخى • هلمى يا أمى ! أستودعك الله يا روديا !

كرر راسكولنيكوف يقول مستجمعاً آخر قواه :

ـ اسمعي يا أختي ! أنا لا أهذي • ليس هذا صحيحاً • ان هذا الزواج دناءة ! لنفرض أنني أحط انسان • ولكن يجب عليك أنت ان لا ••• انه يكفي أن يكون واحد منا ••• ثم انني على كوني أحطّ انسان ، لن أعـدّك أختي اذا أنت ••• فاما لوجّين واما أنا ! وانصرفوا الآن !

زأر رازوميخين يقول :

ـ ولكنك جُننت ! يا لك من طاغية مستبد !

لم يجب راسكولنيكوف ، ربما لأنه كان لا يملك من القوة مايمكنه من الكلام • وعاد يرقد على الديوان ، واستدار الى جهة الحائط ، مهدود القوى تماماً •

نظرت آدفوتيا رومانوفنا مستطلعة مستوضحة • كانت عيناها تسطعان • حتى لقد ارتعش رازوميخين بتأثير هذه النظرة • ولبثت بولشيريا ألكسندروفنا جامدةً مذهولة • وهمست تقول لرازوميخين يائسة :

ـ لكنني لن أستطيع أن انصرف بحال من الأحوال • سأبقى هنا ، في مكان ما • اصحبْ انت دونيا •

فأجابها رازوميخين همساً كذلك ، ولكنه كان غاضباً خارجاً عن طوره :

ـ بهذا تفسدين كل شيء • لنخرج الى فسحة السلّم على الأقل • يا ناستاسيا ، هاتي لنا ضوءاً •

حتى اذا صاروا في السلّم ، تابع كلامه يقول بصوت خافت :

ـ أحلف لك أنه كاد يضربنا أنا والطبيب منذ قليل • هل تفهمين؟ نعم ، كاد يضرب الطبيب نفسه• واضطر الطبيب أن يطيعه حتى لا يهيجه مزيداً من الهياج ، فانصرف ؛ ورغم أنني بقيت أنا تحت ، من أجل أن أحرسه ، فقد استطاع أن ينهض ••• وأن يهرب ! فاذا أهجناه الآن وأغضبناه ، فسيهرب ، أو هو سيحاول ، في وسط الليل ، أن يرتكب عملاً ضدّ نفسه •••

ـ ما هذا الذى تقوله ؟

ـ ثم ان آدفوتيا رومانوفنا لا تستطيع أن تقضى الليل وحيدةً في تلك الغرفة المفروشة • هلاّ فكرت قليلاً في المنزل الذى تنزلونه ! ألم يكن في وسع ذلك الوغد بطرس بتروفتش أن يجد لكما مسكناً أليق ؟ على أنني سكران قليلاً ، لذلك شتمت ••• لا تولى هذا انتباهاً !

قالت بولشيريا الكسندروفنا مصرّةً :

ـ اذن سأمضى أتوسل الى صاحبة البيت أن تهب لنا ، أنا ودونيا ، ركناً صغيراً نبيت فيه هذه الليلة • لا أستطيع أن أتركه وهو على هذه الحال ، لا أستطيع •

وكانا قد هبطا طابقاً وهما يتكلمان ، فأصبحا الآن أمام باب صاحبة البيت • وكانت ناستاسيا تتقدمهما درجة فتنير لهما الطريق •

كان رازوميخين يعانى اضطراباً خارقاً • انه قبل نصف ساعة ، على افراطه في الثرثرة أثناء مرافقته راسكولنيكوف الى بيته ـ كما اعترف هو نفسه بذلك ـ كان يشعر بأنه مرتاح تقريباً ، وبأنه ممتلىء نشاطاً رغم المقادير الضخمة من الخمرة التى شربها في السهرة • اما الآن فهو في حالة نشوة شديدة ، والخمرة تصعد الى رأسه بقوة متزايدة • هو الآن واقف بين السيدتين ، ممسك يديهما ، يحاول بصراحة قوية

أن يقنعهما بالحجج التى يعرضها • وأغلب الظن أنه من أجل أن يقنعهما بمزيد من القوة انما كان يشد يد كل منهما بما يشبه الكلابة ، عند كل كلمة يقولها ، فاذا هو يوجعهما ، بينما عيناه تلتهمان آدفوتيا رومانوفنا التهاماً ، دون أن تخرج • فكانتا من شدة الألم تخلّصان أصابعهما أحياناً من قبضة يده القوية المعروقة ، ولكنه لا يتنبه هو الى هذا ، حتى ليشدهما اليه شداً أقوى • ولو قد طلبتا منه فى تلك اللحظة أن يرمى نفسه الى أسفل السلّم منكّس الرأس لفعل ذلك فوراً بلا مناقشة ولا تردد •

كانت بولشيريا السكندروفنا تستغرب بعض الاستغراب أن يضغط الشاب يدها هذا الضغط القوى ، وأن يكون تصرفه شاذاً هذا الشذوذ ، ولكنها من شدة تأثرها حين تتذكر ابنها لوديا ، ومن اصرارها على ان ترى فى رازوميخين عوناً أرسلته العناية الالهية ، كانت لا تريد ان تعترف لنفسها بهذه التفاصيل • أما آدفوتيا رومانوفنا ، فقد كانت ، رغم أنها ليست بالفتاة الخجول ، لا تخلو من شعور بالدهشة والذهول بل ومن احساس بالخوف والرعب ، حين يلتقى بصرها بتلك النظرة الملتمعة التى يلقيها عليها صديق أخيها ، غير أن الثقة العظيمة التى اوحى اليها بها حديث ناستاسيا عن هذا الرجل الرهيب هى التى كانت تنتزعها من الرغبة فى الهروب منه جارّةً معها أمها • ثم انها كانت تدرك حق الادراك انهما أصبحتا لا تستطيعان الخلاص منه الآن • يضاف الى هذا أنها قد هدأت بعد عشر دقائق : فان رازوميخين يملك موهبة الظهور على حقيقته كاملةً من أول نظرة ، أيةً كانت الحالة التى هو فيها ، فاذا بمن يراه يعرف من ذا يعامل •

هتف رازوميخين يقول ليقنع بولشيريا الكسندروفنا :

ــ لا مجال للتفكير فى الالتجاء الى صاحبة البيت ! تلك أكبر حماقة يمكن ارتكابها• لو بقيت لأثرت غضبها وحنقها رغم أنك أمه ، ولا يدرى

الا الشيطان ماذا يمكن أن يحدث ! اسمعيني ، اليك ما سافعله : تبقى ناستاسيا الآن الى جانبه ، وأصحبكما أنا كلتيكما الى بيتكما ، لانكما لاتستطيعان أن تسيرا وحيدتين هكذا فى الشوارع، عندنا ، فى بطرسبرج، من هذه الناحية .. الخلاصة !.. فمتى أوصلتكما رجعت الى هنا راكضاً ، فما ان ينقض على ذلك ربع ساعة حتى أعود اليكما من جديد لأخبركما بكل شيء : أقول لكما كيف حالته ، وهل نام أم هو لم ينم ، الخ الخ . لكما عليّ عهد الشرف لأعودنّ اليكما بعد ربع ساعة . ثم أثب الى بيتى حيث يوجد ضيوف هم جميعاً سكارى، فاخذ زوسيموف ــ ان زوسيموف هو طبيبه ، وهو الآن في بيتي ولكنه ليس بسكران ، هو لا يسكر ابداً ــ آخذه وأمضى به الى روديا ، ومن هناك نجيء اليكما فوراً نحن الاثنين ؛ فبذلك تتلقيان أخباراً عن روديا مرتين في غضون ساعة ؛ وفى احدى هاتين المرتين تتلقيان الأخبار من فم طبيب ، نعم من فم طبيب ، فيكون فيها من الجد ما لا يكون فى الأخبار التى قد أنقلها أنا وحدى بطبيعة الحال ... فاذا لم يكن روديا بخير اصطحبتكما اليه حتماً ، يميناً لاصطحبنّكما اليه ان لم يكن بخير ... أما اذا كانت حالته حسنة ، فلن يكون عليكما عندئذ الا أن ترقدا وتناما . وأنا سأقضى الليلة هنا ، على فسحة السلّم ؛ ولن يلاحظ هو ذلك . وسأطلب من زوسيموف أن يبيت عند صاحبة البيت ، فيكون بذلك تحت تصرفى ورهن اشارتى . من ينفعه فى هذا الوقت أكثر ، أأنتما أم الطبيب ؟ الطبيب طبعاً ! فعودا اذن الى بيتكما ! ولا مجال للتفكير فى الالتجاء الى صاحبة البيت . أنا يمكن أن أبيت عندها ، أما أنت فلا . لن تحب أن تبيتى عندها ... لأنها امرأة حمقاء . سوف تغار ... سوف تغار بسبب آدفوتيا رومانوفنا . اعلمى هذا اذا كنت تحرصين على أن تعرفى كل شيء ... هذه امرأة غريبة الأطوار جداً . على أننى أنا أيضاً غبى ! وهلمّ جرا ... أتثقان بى ؟ أتثقان بى ؟ أتثقان بى أم لا ؟

قالت آدفوتيا رومانوفنا :

ـ فلننصرف يا ماما . لا شك في أنه فاعل ما يقول . لقد ردّ اخي الى الحياة . واذا صحّ أن الطبيب يقبل أن يقضي الليلة هنا ، فهل تتمنى خيراً من هذا ؟

هتف رازوميخين يقول مفتتناً غاية الافتتان :

ـ حقاً ... انك لتفهمينني لأنك ملاك ! هيَّا بنا . يا ناستاسيا ، اصعدى أنت الى فوق ، فوراً ، مع النور ، وسأعود أنا بعد ربع ساعة .

لم تعارضه بولشيريا الكسندروفنا أية معارضة ، رغم أنها لم تقتنع اقتناعاً تاماً . وأمسك رازوميخين ذراع السيدتين وجرّهما على السلم . ولكن الأم ظلت قلقة ، فكانت تقول لنفسها : « قد يكون لبيباً ومخلصا ، ولكن أهو قادر على أن يفي بوعده ، وهو على هذه الحال ؟ » .

قال رازوميخين وكأنه حزر مجرى خواطر بولشيريا الكسندروفنا ، بينما هو يسير على الرصيف بخطى واسعة فلا تكاد تستطيع السيدتان ان تجارياه الا بمشقة كبيرة ، وذلك أمر لم يلاحظه على كل حال ؟ قال :

ـ آ ... أنا أفهم ! انك تقدّرين أنني في الحالة التي أنا فيها ، لا ... نعم ... أنا سكران ، سكران تماماً ، ولكن ليست هذه هي المسألة . ليست الخمرة هي التي أسكرتني ... فالضربة التي سقطت على رأسي انما سقطت على رأسي حين رأيتكما ! على كل حال ، لا تكترثا لهذا ! أنا أهذي ، أنا لست جديراً بكما ، لست جديراً بكما البتة ... وما ان أوصلكما ، حتى أذهب الى القناة ، فأصب على رأسي قادوسين من الماء . ليتكما تعرفان كم أحبكما كلتيكما ! لا تضحكا ! لا تزعلا ! ازعلا من جميع الناس ، ولكن لا تزعلا مني أنا ! أنا صديقه ، فأنا اذن صديقكما . ذلك ما أريد أن يكون ! ولقد أوجست هذا منذ السنة

الماضية ... نعم ، فى لحظة ما ، هكذا . على اننى لم أوجس شيئاً البتة، لسبب بسيط هو أنكما هبطتما عليّ من السماء . الخلاصة ، من الجائز جداً أن لا أنام طوال الليل . كان زوسيموف يخشى منذ قليل أن يجن روديا . لذلك يجب تحاشى اهاجته .

هتفت الأم تسأله :

ـ ما هذا الذى تقوله ؟

وسألته آدفوتيا رومانوفنا مروّعة :

ـ حقاً ؟ الطبيب نفسه قال لك ؟

ـ قال لى ! ولكن كلامه ليس صحيحاً ، ليس صحيحاً على الاطلاق. آه ... كان من الأفضل أن لا تصلا الا غداً ! على كل حال ، لقد احسنا صنعاً اذ انصرفنا . وبعد ساعة سيأتيكم زوسيموف بتقرير كامل . ليس زوسيموف سكران مثلى ، ليس هو سكران . وأنا لن أكون سكران أيضاً ! آه ... لماذا شربت حتى ثملت ؟ لماذا ؟ لأنهم جرّونى الى حديثهم ، أولئك الملاعين ! وكنت مع ذلك قد آليت على نفسى ان لا أناقش . وما أسخف ماكانوا يقولونه ! كدت أن أقتتل معهم ! وتركت عمى يترأس بدلاً منى . هل تصدّقان ؟ انهم ينادون باللاشخصية ... يقولون ان على المرء أن لا يكون عين نفسه . ويسمّون هذا ذروة التقدم . ويا ليت السخافات التى قالوها كان فيها شيء من أصالة وطرافة. أبداً ...

قالت بولشيريا ألكسندروفنا خجلةً وجلة :

ـ اسمع ...

ولكن مقاطعتها هذه لم تزده الا اندفاعاً وحماسة . فصاح يقول بصوت أعلى :

ـ آ ... أنت تقدرين اننى بسبب هذرهم وهذيانهم انما ...
أبداً ! أنا أحب الهذر والهذيان والخطأ والضلال . ان الخطأ هو الميزة الوحيدة التى يمتاز بها الكائن الانسانى على سائر الكائنات الحية . من يخطىء يصل الى الحقيقة . أنا انسان لأننى أخطىء . ما وصل امرؤ الى حقيقة واحدة الا بعد أن أخطأ أربع عشرة مرة ! وهذا فى ذاته ليس فيه ما يعيب . ولكن الناس لا يعرفون حتى أن يخطئوا بأنفسهم . لك أن تقول آراء جنونية ، ولكن لتكن هذه الآراء آراءك أنت ، فأغمرك بالقبل. لأن يخطىء المرء بطريقته الشخصية ، فذلك يكاد يكون خيراً من ترديد حقيقة لقَّنه اياها غيره . أنت فى الحالة الأولى انسان ، أما فى الحالة الثانية فأنت ببغاء لا أكثر . الحقيقة لا تطير ، أما الحياة فيمكن خنقها . لقد رئى هذا . الى أين وصلنا من هذا الآن ؟ نحن جميعاً ، بغير استثناء ، سواء فى ميدان العلم ، أو الثقافة ، أو الفكر ، أو العبقرية الخالقة ، أو المثل الأعلى ، أو الرغبات ، أو الليبرالية ، أو العقل ، أو التجربة ، نحن فى كل شىء ، فى كل شىء ، فى كل شىء ، نعم ، فى كل شىء ، ما زلنا فى الصفوف الاعدادية لدخول المدرسة الثانوية ! الأفكار الممضوغة ، ذلك هو ما نحبه ! أليس هذا صحيحاً ؟ أليس الأمر كما أقول ؟ أليست هذه هى الحقيقة ؟

كذلك قال رازوميخين وهو يهزّ يدى السيدتين ويضغطهما .

فدمدمت المسكينة بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

ـ والله ... لا أعلم !

وأضافت آدفوتيا رومانوفنا قائلة :

ـ نعم ، هو هذا ، هو هذا ، رغم أننى لا أوافقك على جميع النقاط .

ثم سرعان ما أطلقت صرخة ألم ، لأن رازوميخين قد ضغط يدها في هذه المرة ضغطاً قوياً فلم تملك الا أن تطلق تلك الصرخة .

وهتف رازوميخين يقول مفتتناً :

ـ نعم ؟ تقولين نعم ؟ ألا انك اذن ... ألا انك اذن لينبوع خير ، وطهارة ، وعقل ، وكمال . ناوليني يدك ، ناوليني يدك ، وأنت أيضاً ، ناوليني يدك . أريد أن أقبل يديكما في هذا المكان نفسه ، في هذه اللحظة نفسها ، جاثياً على ركبتي ، راكعاً !

وركع في منتصف الطريق ، الذي كان خالياً في تلك اللحظة من حسن الحظ .

صرخت بولشيريا ألكسندروفنا تقول مروَّعة :

ـ كفى ، من فضلك ! ما هذا الذي تفعله ؟

وقالت دونيا ضاحكةً ، رغم ارتياعها هي أيضاً :

ـ انهض ، انهض !...

ـ لن أنهض بحال من الأحوال ، لن أنهض الا بعد أن تناولاني يديكما ! نعم ، هكذا . وكفى الآن ! أنهض ونمضي . أنا امرؤ غليظ الطبع ثقيل الظل . أنا لست جديراً بكما . أنا سكران . وانني لأشعر من هذا بخزي وعار ... أنا لا أستحق أن أحبكما . أما السجود أمامكما فهو واجب يقع على كل انسان ليس أحمق كل الحمق . لذلك سجدت ... ولكن هذا هو مسكنكما . يكفي هذا وحده سبباً أجاز لروديون أن يطرد صاحبكما بطرس بتروفتش شر طردة ! كيف أباح لنفسه أن يُسكنكما في غرفة مفروشة كهذه الغرفة ؟ هذه فضيحة ! هل تعلمان نوع الناس الذين يؤوونهم هنا ؟ ثم يقول انك خطيبته !... أنت خطيبته أليس كذلك ؟ فاسمحي لي أن أقول لك اذن ان خطيبك رجل قذر !

بدأت بولشيريا ألكسندروفنا تتكلم فقالت :

ـ اسمع يا سيد رازوميخين ؟ انك تنسى أن ...

فأسرع رازوميخين يقول مستدركاً :

ـ نعم ، نعم ، أنت على حق ! أنا أقول سخافات ! انني لأشعر بخجل وعار . ولكن .. ولكن لا يمكنك أن تنضبى لأننى كلمتك بهذه الطريقة . ذلك أننى تكلمت مخلصاً صادقاً ، ولم أقل ذلك الكلام لأننى ... هم ... لا ... لن أقول ... لو قلت لكان فى كلامى ما يدعو الى النفور ... الخلاصة ... أنا لم أقل ذلك لأننى ... بك ... هم ... لا ، ما ينبغى أن أقول لماذا ... لا أجرؤ ... ولكن ، حين دخل علينا فى هذا اليوم ، أدركنا جميعاً على الفور أن هذا الرجل ليس منا . لا لأننا رأيناه يصل مجعَّد الشعر قد خرج من عند الحلاَّق رأساً ، لا ولا لأنه أسرع يعرض ثقافته ومعلوماته ، بل لأنه جاسوس ومستغل لأنه بخيل كيهودى ، لأنه دجال ، ولأن هذا كله واضح لا يخفى ! أتظنانه ذكياً ؟ لا بل هو غبى ، غبى ! أهذا زوج لك ؟ لا ، لا !

ثم أضاف يقول وهو يتوقف فجأة لحظة همُّوا أن يصعدوا السلم :

ـ اسمعا يا سيدتىَّ : ان الضيوف الذين هم فى بيتى الآن أناس شرفاء مهما يكونوا سكارى ، ورغم أننا جميعاً نهذر ونهذى ـ وأنا أيضاً أهذر وأهذى ـ فان هذرنا وهذياننا سيفضيان بنا يوماً الى الحقيقة ، لأننا نحن نسير فى طريق الاخلاص والتجرد عن المنفعة ، وليس هذا طريق بطرس بتروفتش ، فان بطرس بتروفتش لا يسلك طريق التجرد عن المنفعة ... نعم ، فرغم أننى وصفتهم فى هذا المساء بجميع النعوت وانهلت عليهم بجميع الشتائم ، فاننى اقدرهم جميعاً حق قدرهم . وأنا

أحب زاميوتوف رغم أنني لا احترمه . أنا أحبه فعلاً ، لأنه حيوان شائق على كل حال . أحب حتى ذلك الشرس زوسيموف ، لأنه شريف ولأنه يعرف مهنته . ولكن كفى الآن هذا . لقد قلت كل شيء... وسامحاني ، هه ! هيا بنا ! انني أعرف هذا الدهليز . لقد سبق أن جئت الى هذا المكان ، وهنا ، في رقم ٣ ، وقعت فضيحة . أين تسكنان ؟ في أي رقم؟ ثمانية ؟ طيب ... أغلقا عليكما الباب طول الليل ، ولا تدعا لأحد أن يدخل . سأعود اليكما بأنباء بعد ربع ساعة ، وبعد نصف ساعة من عودتي الأولى ، سأعود ثانية مع زوسيموف . ستريان . استودعكما الله . أنا ذاهب !

قالت بولشيريا الكسندروفنا لابنتها خائفة وجلة :

ـ رباه ! ماذا سيحدث يا دونيتشكا !

فأجابت دونيا أمها وهي تخلع قبعتها وتنضو خمارها :

ـ هدئي روعك يا ماما . ان الله نفسه هو الذي أرسل الينا هذا السيد ، رغم أنه مسرف في السكر . في وسعنا أن نعتمد عليه ، أؤكد لك . انظري الى كل ما فعله في سبيل أخينا من قبل أن نصل ...

ـ آه يا دونيتشكا . الله يعلم هل يعود ! وكيف أمكنني أن أوافق على ترك روديا ؟... ثم انني لم أكن أتوقع أن أراه على هذه الحالة . ما على هذه الحالة كنت أتوقع أن أراه ! ما أقساه ! لكأنه لم يُسرّ برؤيتنا !

وتلألأت في عيني الأم دموع .

ـ لا يا أماه . ليس هذا هو الأمر . أنت ما رأيته رؤية جيدة ، لأنك كنت تبكين طول الوقت . انه مريض مرضاً شديداً . فهذا المرض هو سبب كل شيء .

ـ آ ٠٠٠ المـرض !٠٠٠ رباه ! ماذا سيحدث ؟ وهـل رأيت بأية لهجة خاطبك ؟

أضـافت الأم هذا السـؤال الأخير ، وهي تختلس نظرة الى عيني ابنتها لتقرأ ما يدور في ذهنها ، متعـزيةً بعض التعزي منذ الآن ، لأن دونيا دافعت عن أخيها ، فهذا دليل على أنها غفرت له ٠

ثم أردفت تقول وهي تنتظر ما عسى أن تقوله الفتاة :

ـ أنا واثقة بأنه سيرجع غداً الى عواطف أخرى ٠

فردّت آدفوتيا رومانوفنا تقول بلهجة قاطعة :

ـ أما أنا فواثقة بأنه سيكرر غداً ما قاله اليوم في هذا الموضوع ٠

وبهذا الردّ وضعت الفتـاة حـداً للحـديث بينها وبين أمها ، لأن بولشيريا الكسندروفنا كانت ، في هذهاللحظة على الأقل ، تخشى المجازفة في الكلام على هذا الأمر ٠

واقتربت دونيا من أمها فقبّلتها ٠ فعانقتها أمها عناقاً قوياً دون أن تقول كلمة واحدة ٠ ثم جلست تنتظر عودة رازوميخين قلقةً ، وتنظر وجلةً الى ابنتها التي غرقت في خواطرها وأفكارها مضطربةً هي أيضاً ، وأخذت تذرع الغرفة طولاً وعرضاً ، مصالبةً ذراعيها على صدرها ٠ ان هذا المشى في الغرفة طولاً وعرضاً هو عادة من عـاداتها ؛ وأمها تخشى دائماً في مثل هذه الظروف أن تعكر تأملاتها ٠

لا شك أن رازوميخين كان مضحكاً جداً حين استولى عليه هذا الهيام المباغت بآفدوتيا رومانوفنا ٠ ولـكن ما أكثر الذين لو رأوا آدفوتيا رومانوفنا ، ولا سـيما في ذلك الوقت الذي كانت تطوف فيـه بالغرفة حزينةً مفكّرةً مصالبة ذراعيها على صدرها ، ما أكثر الذين لو رأوها

لعذروا الفتى ولو كان فى حالة طبيعية من غير سكر • ان آفدوتيا رومانوفنا فتاة جميلة جداً ، فارعة القوام ، معتدلة القد ، قوية ، واثقة بنفسها ــ كما تشهد بذلك كل اشارة من اشاراتها ــ دون أن يجرّدها ذلك من شيء من مرونتها وليونتها ، وخفتها ورشاقتها • هى تشبه أخاها وجهاً ، ولكنها يمكن أن توصف بأنها « آية فى الجمال » • شعرها كستناوى اللون ، أزهى قليلاً من شعر أخيها • وعيناها اللتان تشبهان أن تكونا سوداوين، تلتمعان وتسطعان ، وتعبران عن عزة وشمم ، وتعبران أحياناً عن رقة وعذوبة لا حدود لهما • وهى شاحبة ، لكن شحوبها ليس شحوب المرض ، فان وجهها يشع نضارة وعافية• وفمها أميل الى الصغر ، وشفتها السفلى حمراء قانية ، بارزة قليلاً كبروز ذقنها كذلك • وهذا هو العيب الوحيد فى ذلك الوجه الرائع ؛ على أنه عيب يضفى عليها طابعاً أصيلاً من صلابة وثبات ، بل من تعالٍ وكبرياء • واذا كان وجهها يعبر عن الجد والتفكير أكثر مما يعبر عن المرح ، فان ابتسامتها ، وضحكتها الفرحة التى هى ضحكة الشباب والتى فيها شيء من اهمال ، تناسبان فمها كثيراً • فلا غرابة اذن أن نرى رازوميخين الذى يتصف بالحرارة والبساطة والاستقامة ، أن نرى رازوميخين القوى كعملاق ، الثمل فوق ذلك ، الذى لم يسبق أن رأى جمالاً كهذا الجمال ، لا غرابة أن نراه يفقد عقله منذ أول نظرة • يضاف الى ذلك أن المصادفة قد شاءت ، بما يشبه العمد ، أن يرى دونيا فى اللحظة التى كانت فيها زاخرةً بالفرح لرؤية أخيها ، وأن يراها بعد ذلك وقد أخذت شفتها السفلى ترتجف استياءً من مطالب هذا الأخ الوقحة ، فكيف كان يمكنه أن يقاوم وأن يصمد ؟

ولقد صدق حين قال ، فى سكره ، ان صاحبة البيت الذى يسكن فيه راسكولنيكوف ، أى براسكوفيا بافلوفنا ، سوف تغار لا من آفدوتيا

رومانوفنا فحسب ، بل ربما غارت كذلك من بولشيريا ألكسندروفنا ، فان هذه رغم أنها بلغت الثالثة والأربعين من العمر ، تبدو أصغر سناً من ذلك بكثير ، وهذا هو فى كثير من الأحيان شأن النساء اللواتى استطعن الاحتفاظ حتى اقتراب الشيخوخة بصحو الذهن ، ونضارة الاحساسات وحرارة القلب (ولنضف الى هذا مستطردين أن الاحتفاظ بهذا كله هو للمرأة الوسيلة الوحيدة التى تستطيع بها أن لا تفقد جمالها حين تشيخ). صحيح أن شعر بولشيريا ألكسندروفنا قد أخذ يبيض ويتناثر ؛ وصحيح أن غضوناً صغيرة رقيقة قد ظهرت حول عينيها منذ مدة طويلة ؛ وصحيح أن خديها قد خسفا وجفّا بسبب الهموم والأحزان ؛ ولكن هذا الوجه قد ظل جميلاً ؛ حتى ليمكن أن يقال انها صورة دونيا بزيادة عشرين عاماً ، مع فارق وحيد هو أن الشفة السفلى عند الأم ليست بارزة . وكانت بولشيريا ألكسندروفنا امرأة حسّاسة ، ولكن هذه الحساسية لا تمضى الى حد العاطفية المتصنعة . وهى خجولة ، ميّالة الى المجاراة ، مستعدة للتنازلات ، حتى حين يخالف ذلك اقتناعاتها . ولكن لهذا حدوداً . فمتى كان الأمر أمر شرفها وواجبها واقتناعاتها العميقة ، فما من ظرف من الظروف يمكن أن يحملها على تخطى تلك الحدود .

ما ان انقضت عشرون دقيقة على انصراف رازوميخين ، حتى نُقر الباب نقرتين خفيفتين : لقد عاد رازوميخين .

أسرع يقول منذ فُتح له :

ــ لن أدخل . لا يتسع الوقت . انه ينام نوعاً هادئاً مريحاً . أسأل الله أن يظل نائماً هذا النوم ست ساعات متتالية ! ناستاسيا قائمة عليه. أوصيتها أن لا تتركه الى أن أرجع . والآن سأمضى أُحضر زوسيموف. سيحدثكما هو عن حاله . ثم تعقلان فتنامان ، ذلك أننى أرى أنكما تكادان تسقطان من فرط التعب ...

قال ذلك ثم اندفع ينصرف .

هتفت بولشيريا ألكسندروفنا تقول فرحةً كل الفرح :

ــ ما أعظم ما يمتاز به هذا الفتى من فطنة واخلاص !

فأجابت آفدوتيا رومانوفنا تقول بشيء من الحرارة وهي تستأنف سيرها في الغرفة طولاً وعرضاً :

ــ ان له طبيعة رائعة فيما يبدو .

وما ان انقضت على ذلك ساعة واحدة ، حتى سُمعت أصوات وقع أقدام في الدهليز ، ونُقر الباب من جديد .

كانت المرأتان قد انتظرتا في هذه المرة وهما ممتلئتان ثقة بصدق وعد رازوميخين . وقد جاء رازوميخين مصطحباً زوسيموف فعلاً . لقد رضي زوسيموف فوراً أن يترك الاحتفال ليعود راسكولنيكوف ، ولكنه لم يقبل أن يجيء الى السيدتين الا بشدّ الأذن ، لأنه كان يرتاب في حالة رازوميخين . فما أسرع ما رضي غروره وابتهج ابتهاجاً كبيراً حين أدرك أنهما كانتا تنتظرانه حقاً كما يُنتظر عرّاف . وقد لبث معهما عشر دقائق تماماً ، وأفلح كل الفلاح في أن يقنع بولشيريا الكسندروفنا وأن يهدىء روعها . وكانت أقواله كلها تشهد باهتمامه الشديد بالمريض ؛ ولكنه حافظ مع ذلك على هيئة الجد والرصانة التي تناسب طبيباً في السابعة والعشرين من عمره يُستشار في ظرف خطير ، فلم ينطق بكلمة واحدة تبتعد به عن موضوعه ، لا ولا أظهر أية رغبة في أن تقوم بينه وبين السيدتين صلات شخصية مستديمة . واذ لاحظ منذ دخوله جمال آفدوتيا رومانوفنا الباهر ، حاول فوراً أن لا ينتبه اليها أي انتباه ، وظل طوال مدة الزيارة لا يكلم الا بولشيريا ألكسندروفنا وحدها . وشعر من سلوكه هذا برضى كثير عن نفسه . أما فيما يتصل بالمريض فقد أعلن

أنه وجده هذه المرة فى حالة مُرضية على وجه الاجمال ؟ وشخّص المرض فقال ان له ، عدا الظروف الماديه المؤسفة التى عاش فيها المريض خلال الاشهر الاخيرة ، ان له عدا تلك الظروف اسباباً سيكولوجية ، « فهو ثمرة عوامل كثيرة معقدة ، منها عوامل نفسيه ، كالهموم والمخاوف وبعض الافكار ، الخ » . واذ لاحظ ان افدوتيا رومانوفنا تصغى اليه بانتباه شديد جدا ، افاض فى شرح رأيه مجاملاً . حتى اذا سألته بولشيريا ألكسندروفنا بصوت فلق خجول عما اذا كان هنالك شىء من « أعراض جنون ... » ، أجابها وهو يبتسم ابتسامة هادئة صريحة بأن أقواله قد بولغ فى تفسيرها ؛ فلئن كان صحيحاً أنه لاحظ لدى المريض ميلاً الى مرض الفكرة الثابتة ، لئن لاحظ لديه علامات مرض الفكرة الوحيدة ـ لا سيما وأنه ، هو زوسيموف ، عاكف الآن على دراسة هذا الفرع الهام من فروع الطب ـ فان علينا أن نتذكر أيضاً أن المريض كان يهذى حتى هذا اليوم ، أو حتى هذا اليوم تقريباً فينبغى اذن ... » ؛ وأضاف زوسيموف يقول : « ولا شك أن وصول اسرته سيحسن اليه كثيراً ، وسيسرّى عنه ، أى سيساعد على شفائه » ، هذا اذا أمكن (أضاف ذلك بلهجة رزينة) أن « يجنَّب صدمات جديدة » . قال زوسيموف ذلك ثم نهض ، فحيَّا تحيةً هى مزيج من جد ومودة ، وخرج تغمره عبارات الامتنان والدعاء من بولشيريا الكسندروفنا . حتى ان يد آفدوتيا رومانوفنا ، الصغيرة ، قد امتدت اليه من تلقاء نفسها ، فصافحها ، وخرج مفتوناً بهذه الزيارة ، ومفتوناً بنفسه أكثر من ذلك أيضاً .

قال رازوميخين يختم الزيارة وهو يخرج مع زوسيموف :

ـ سنتحدث غداً . أما الآن فيجب أن تناما ، يجب أن تناما حالاً . سأجيئكما غداً فى أول ساعة ، لأنبئكما بكل شىء .

قال زوسيموف بحرارة حين صارا فى الشارع :

ـ فتاة فتانة ، آفدوتيا رومانوفنا هذه !

زأر رازوميخين يقول :

ـ فتانة ؟ تقول فتانة ؟

وهجم عليه فجأة ، فأمسك بخناقه ، وتابع كلامه وهو يهزه من ياقته ويضغطه على حائط :

ـ اذا تجرأت فى ذات يوم ... هل تسمع ؟ هل تسمع ؟ هل تسمع ؟

فقال زوسيموف متخبطاً :

ـ دعنى يا سكّير !

فلما تركه حدّق الى رازوميخين بنظرة ثابتة ثم انفجر يضحك فى قهقهة شديدة . كان رازوميخين واقفاً أمامه ، مترجّح الذراعين ، غارقاً فى تأملات سوداء خطيرة .

قال رازوميخين مظلم الوجه مربدّ الأسارير :

ـ أنا حمار طبعاً ، ولكن أنت أيضاً ، أنت أيضاً ...

ـ لا ياصاحبى . شأنى أنا شأن آخر . أنا لا أفكر فى سخافات .

وأخذا يسيران دون أن يتبادلا كلمة واحدة ؛ وكان يبدو على رازوميخين أنه مهموم جداً . فلما وصلا الى قرب عمارة راسكولنيكوف قطع رازوميخين الصمت فقال :

ـ اسمع يا زوسيموف . أنت فتى رائع ، ولكنك بالاضافة الى جميع عيوبك السيئة ، تمتاز بأنك زير نساء ، وبأنك من أكثر أمثالك خلاعة ،

بل أنت نجس الى أبعد حدود النجاسة . أنت ترفّه نفسك ، وتسمّن جسمك ، ولا تتورع عن شيء ، لذلك أقول انك نجس ، فبهذا انما يصبح المرء نجساً . وقد بلغت من الرخاوة حداً لا أستطيع معه أن أفهم كيف أمكنك أن تكون رغم هذا طبيباً بارعاً ، بل طبيباً مخلصاً متفانياً . أنت تنام على فراش من ريش (طبيب ينام على فراش من ريش !) ثم تنهض في الليل مسرعاً لتعود مريضاً من المرضى ! أحسب أنك بعد ثلاث سنين لن ترضى أن تنهض في سبيل مريض . على أن المسألة ليست هذه ! اليك المسألة : ستبيت هذه الليلة في شقة صاحبة البيت (لقد استطعت أن أقنعها بذلك بعد لأي) ، وسأبيت أنا في المطبخ . هذه فرصة لك من أجل أن تتعرف اليها ... ولكنها يا صاحبي ليست ماتظن. ليس ههنا ظل من ...

ـ ولكنني لا أظن شيئاً البتة !

ـ ههنا يا صاحبي خفر وحياء وخجل وعفة لا تغالب . وههنا بالاضافة الى ذلك تنهدات وذوبان كذوبان الشموع ، نعم ذوبان كذوبان الشموع ! خلّصني منها ناشدتك بجميع شياطين الأرض ! وهي باشة الى أبعد حدود البشاشة ... سأعرف كيف أشكر لك هذا الصنيع ، أحلف لأعرفنّ كيف أشكر لك هذا الصنيع !

أخذ زوسيموف يضحك مزيداً من الضحك ، ثم قال :

ـ ولكن ما عساني صانعاً بها ؟

ـ أؤكد لك أن هذا لن يتعبك كثيراً . ستجلس على سريرها ، فتقول لها أي شيء يخطر ببالك . نعم ، لن يكون عليك الا أن تجلس وأن تتحدث . صف لها دواءً من الأدوية ما دمت طبيباً . ولن تندم على أنك فعلت ذلك . أحلف لك ! ثم ان عندها بيانو من طراز قديم .

أنت تعلم أنني أعزف على البيانو قليلاً ... وهناك أغنية روسية عاطفية تقول : « بدموعي السخينة ، سأسقي ... » ، هي تعبد الأغاني العاطفية عبادة ، وبهذا انما بدأنا . واذ أنك عازف ماهر ، اذ أنك استاذ في العزف ، اذ أنك موسيقى مثل روبنشتاين * ... أحلفُ لك لن تندم !

ـ أتراك بذلت لها وعوداً ؟ تعهداً خطياً مثلاً ؟ ألعلك وعدتها بأن تتزوجها ؟

ـ لا ، لا ، لا شيء من هذا البتة ! انها ليست ما تظن . لقد حاول تشيباروف ...

ـ ما عليك اذن الا أن تتركها !

ـ ولكن هذا مستحيل .

ـ لماذا ؟

ـ لا لشيء الا لأنه مستحيل . هذا هو الأمر . أنا أشعر بارتباط ... فهمت ؟

ـ ولكن لماذا حاولت اغراءها ؟

ـ أنا لم أحاول اغراءها البتة . لعلني أنا الذي أُغريت ، بسبب غباوتي . ويستوي عندها أن أكون أنا أو أن تكون أنت . كل ما يهمها أن يجلس الى جانبها رجل يتنهد لها . هي يا صاحبي ... لا ادري كيف أعبِّر لك . أنت تجيد علم الرياضيات ، أليس كذلك ؟ حدثها اذن عن حساب التكامل . يميناً انني لا أمزح . أحلف لك انها لا تكترث بالأمر . سوف يكفيها أن تنظر اليك طوال السنة وأن تتنهد . انا مثلاً لبثت يومين على الأقل أحدثها ، عن مجلس النواب البروسي ، حديثاً طويلاً جداً ، اذ كان لا بد أن أحدثها عن شيء ما ! فكانت لا تزيد

على أن تتنهد وأن تذوب • ولكن حذار أن تكلمها فى الحب ، فلو كلمتها فى الحب لأمكن من شدة حيائها أن تصاب بنوبة تشنج • المهم أن تجعلها تعتقد بأنك لا تقوى على تركها • سيكفيك هذا • وستكون عندئذ كأنك فى بيتك : اقرأ ، اضطجع ، اكتب • بل في وسعك أن تجازف فتقبلها•• ولكن امض الى هذا بحكمة وحذر !•••

ـ ولكن ما حاجتى الى هذا كله ؟

ـ لا أدرى كيف أشرح لك • اسمع : ان كلاً منكما قد خلق للآخر • حتى لقد فكّرت فيك من قبل • وما دمت ستنتهى الى هذه النهاية أخيراً ، فسيّان أن يتم هذا متقدماً بعض التقدم أو متأخراً بعض التأخر • ههنا يا عزيزى يتحقق مبدأ فراش الريش ، بل تتحقق اشياء أخرى كثيرة أيضاً • هنا خاتمة المطاف ، هنا المرساة ، هنا المرفأ الهادىء الآمن ، هنا سرّة الأرض ، هنا أسس الكون نفسها : الفطائر الطيبة ، القبرّة المقليّة ، سماور المساء ، التنهدات الهادئة ، الماء الغالى ! نعم ، ستكون كالميت ، وفى الوقت نفسه ستكون حياً : ترمى طائرين بحجر واحد ! آه ! أصبحت أقول سخفاً • آن أوان النوم • اسمع : يتفق لى أحياناً أن أستيقظ في الليل ؟ فاذا استيقظت هذه الليلة فسأذهب ارى كيف حال روديون • فلا تقلق كثيراً اذا أنت سمعت وقع أقدامى صاعداً اليه • ولكن اذا حدثك قلبك بشيء فاذهب اليه مرة• فاذا لاحظت شيئاً غير مألوف ، كهذيان أو حمى ، فأيقظنى • على أن هذا ضعيف الاحتمال ••• »

الفصل الثاني



رازوميخين في الغد بعد الساعة السابعة بقليل ، مشغول البال مهموماً . ان أموراً كثيرة داعيةً الى القلق قد هاجته في ذلك الصباح ولم يكن قد تنبأ بها . ولم يكن قد تخيل في حياته أنه يمكن أن يستيقظ يوماً على هذه الحال . تذكر حوادث الأمس بجميع تفاصيلها ، وأدرك أنه قد وقع له شيء خارق تماماً ، وأنه أحس بعاطفة كان يجهلها كل الجهل حتى ذلك الحين ، عاطفة لا تشبه العواطف التي سبق أن أحس بها قبل ذلك في شيء . لكنه أدرك في الوقت نفسه ادراكاً واضحاً أن الحلم الذي نشأ في دماغه حلم مستحيل التحقق ، حلم يبلغ من استحالة التحقق أنه شعر منه بالخزي والعار ، فأسرع ينتقل الى هموم أخرى محسوسة مباشرة من الهموم التي أورثه اياها « ذلك اليوم المشئوم » .

والشيء الذي آلمه تذكُّره أكثر من أي شيء آخر هو أنه تصرّف تصرُّف انسان « دنيء خسيس » ، لا لأنه قد سكر فحسب ، بل ايضاً لأنه كان غبياً أحمق فشعر بغيرة بلهاء فأخذ يذمُّ للفتاة خطيبها ، دون أن يعرف ما بينهما من علاقات على وجه الدقة ، بل ودون أن يعرف ماهو هذا الرجل على وجه التحديد . ثم أي حقٍ له في أن يحكم عليه بمثل هذه السرعة وبمثل هذه الخفة وهذا الطيش ؟ من ذا الذي نصبه قاضيا؟ وهل يمكن أن تقبل انسانة مثل آفدوتيا رومانوفنا أن تبيع نفسها بالمال

لرجل تافه حقير ؟ فلا بد اذن أنه يملك بعض المزايا ••• اما هذه الغرفة المفروشة التي استأجرها لهما فكيف كان يمكنه أن يعرف ما هي ؟ أفليس يهيىء لهما شقة مناسبة ؟ آه ••• ما أدنأ هذا كله في نظر رازوميخين الآن ! هل يبرر سكره ذلك السلوك ؟ يا له من عذر ! ألا ان سكره ذاك ليلطخه بمزيد من العار ! « الخمرة تكشف عن حقيقة الرجل » ، ولقد انكشفت الحقيقة كاملةً • « ان قذارة قلبه الحسود الطماع » قد ظهرت واضحة للعيان • ثم هل يجوز له أن يراوده ، هو رازوميخين ، حلمٌ كهذا الحلم ، على أي نحو من الأنحاء ؟ ما قيمته بالقياس الى هذه الفتاة ، هو السكّير العربيد ، المتشدق المهذار ؟ بل « كيف يمكن ان تُعقد بينه وبينها مقارنة تبلغ هذا المبلغ من السخف والاستهتار ؟ » • كذلك تساءل رازوميخين فاذا هو يحمر خجلاً ، ويشعر بكرب شديد، ثم اذا هو يتذكر تذكراً واضحاً جداً ، على حين فجأة ، بما يشبه العمد ، أنه قال بالأمس ، على السلّم ، ان صاحبة البيت ستغار عليه من آفدوتيا رومانوفنا ، فوقعت هذه الفكرة من نفسه موقعاً لا يطاق ولا يحتمل ، فاذا هو يضرب المدفأة بقبضة يده ضربةً استجمع لها كل ما يملك من قوة ، فجُرحت يده وكُسرت آجرة •

دمدم يقول بينه وبين نفسه ، بعد دقيقة ، وهو يحس بشعور عميق من المذلة : « لا شك أنه لا يمكن محو أو اصلاح جميع هذه الحقارات التي ارتكبتها ، لا الآن ولا في أي يوم من الأيام • فلا فائدة من التفكير فيها اذن ، وانما الأفضل أن أذهب اليهما دون أن أقول شيئاً ، وأن أقوم بواجباتي دون أن أقول شيئاً كذلك ••• دون أن استغفر •• دون أن أقول شيئاً البتة ••• فقد ضاع كل شيء منذ الآن طبعاً !••• »•

ومع ذلك عُني رازوميخين بهندامه أثناء ارتداء ملابسه أكثر مما ألف أن يعنى به قبل ذلك اليوم• لم يكن يملك الا بدلةً واحدة• ولكن

هبه كان يملك بدلة أخرى فلعله ما كان ليرتديها . قال يحدث نفسه : « لو كنت أملك بدلة أخرى لتعمدت أن لا أرتديها » . على أنه لا يستطيع أن يستخف ويستهتر ، فيذهب اليهما ومخ الثياب مشعث المظهر . فليس من حقه أن يهين مشاعر الآخرين ، لا سيما وأن هؤلاء الآخرين محتاجون اليه ، وأنهم هم الذين يطلبونه . لذلك حرص رازوميخين على أن ينظف ملابسه بالفرشاة تنظيفاً عُنى به عناية خاصة. أما قميصه فقد كان نظيفاً . والحق أن رازوميخين كان من هذه الناحية شديد العناية دائماً .

وقد اهتم فى ذلك الصباح بزينته اهتماماً دقيقاً . وجد قطعة من الصابون عند ناستاسيا ، فغسل شعره ورقبته ، وغسل يديه خاصة . أما سؤاله أيحلق ذقنه أم لا (ولقد كان لدى براسكوفيا بافلوفنا أمواس ممتازة بقيت لها من زوجها المتوفى السيد زارنتسين) ، فقد أجاب عنه بالنفى ، حتى لقد ثارت ثائرته حينذاك ، فقال : « لتبق لحيتى كما هى ! والا ظنتا أننى حلقت فى سبيل أن ... نعم ذلك ما ستظنانه ! اذن لن أحلق بحال من الأحوال ! » .

وتابع يقول لنفسه: « ثم اننى قذر أشد القذارة ، فظ أبلغ الفظاظة، قليل الأدب الى أبعد حد ... وهبنى رجلاً شريفاً (ذلك أننى اعرف نفسى وأعرف أننى رجل شريف) ، فهل لى أن اعتز وأن افتخر بأننى رجل شريف . المفروض فى كل انسان أن يكون شريفاً ، بل وأن يكون أكثر من ذلك . ثم ان لى (أنا أتذكر هذا جيداً) سقطات صغيرة ان لم تكن غير شريفة ، فلا يمكن أن توصف على وجه الدقة بأنها... هذا عدا الأفكار التى تساورنى فى بعض الأحيان ... فكيف أطمع فى أن اوازن بينى وبين آفدوتيا رومانوفنا ؟ على كل حال ، فليذهب هذا كله الى

الشيطان ! نعم ، سأبقى كما أنا عن عمد ! سأظل وغداً ، خنزيراً ، عابثاً ... ولا أكترث . سأبقى على هذه الحال ، وسأزيد ... » .

وبينما كان رازوميخين يحاور نفسه هذا الحوار ، جاءه زوسيموف الذى بات ليلته فى صالون براسكوفيا بافلوفنا .

كان زوسيموف يتهيأ للعودة الى بيته ، فأراد قبل انصرافه أن يلقى نظرة على المريض . فأبلغه رازوميخين أن المريض نائم نوماً عميقاً . فأمر بأن لا يوقظ ، ووعد بأن يعود فى نحو الساعة الحادية عشرة . ولكنه أضاف يقول :

ــ هذا اذا وجدته فى غرفته ! ما أصعب أن يعالج الطبيب مريضاً وهو لا سلطة له عليه . قل لى : هل « هو » الذى سيذهب اليهما ؟ أم « هما » اللتان ستجيئان اليه ؟

أجاب رازوميخين وقد فهم معنى السؤال :

ــ أظن أنهما هما اللتان ستجيئان . وأغلب الظن أنهما ستحدثانه فى شئونهم العائلية . لذلك سوف أتركهم وأخرج . أما أنت فانك بصفتك طبيباً تملك حقوقاً أكثر .

ــ ما أنا بكاهن يسمع اعترافات . سوف أجىء ثم ما ألبث أن أخرج . ان أعمالاً كثيرة تناديني ...

قاطعه رازوميخين يقول وقد اربد وجهه :

ــ هناك شىء يقلقنى : أمس مساءً ، أثناء سكرى ، افلتت من لسانى ، وأنا أعود به الى البيت ، حماقات سخيفة . من ذلك خاصةً أننى قلت له ... انك تخشى أن يكون به جنوح الى الجنون .

ــ وقد عدت تقول هذا للسيدتين .

ـ أعرف • هذه بلاهة • اضربني اذا شئت • ولكن أأنت تعتقد حقاً أنه قد يجن ؟

ـ لا ، لن يجن • ولا تنس أنك أنت الذى وصفته لى بأن فكرة ثابتة تسيطر عليه ، وذلك حين جئت بى اليه• وبالأمس زدنا النار أواراً ، ولا سيما أنت ••• حين رحت تتكلم عن الدهان • يا له من موضوع حديث ، حين يكون هذا كله هو السبب فى فقدانه صوابه !••• اه ••• لو كنت أعلم على وجه الدقة ما قد جرى فى قسم الشرطة فى ذلك اليوم ، لو كنت أعلم أن وغداً هناك قد أهانه مفصحاً عن اشتباهه فيه ، لما سمحت لك بأن تجرى لسانك فى حديث كذلك الحديث • ان المصابين بمرض الفكرة الثابتة يجعلون من الفأرة جبلاً ، ويرون أشياء كثيرة حيث لا يوجد شىء البتة ! اذا صدقت ذاكرتى، فان ما رواه زاميوتوف بالأمس قد أوضح نصف المسألة • نعم ، اننى أعرف حالة رجل فى الأربعين من عمره كان مصاباً بمرض الوسواس ، فلما كان جالساً الى المائدة ، فأخذ طفل فى الثامنة من عمره يستهزىء به ، لم يستطع احتمال سخرياته ، فقتله • ونحن هنا ازاء شاب شقى يرتدى أسمالاً بالية ، ويعانى بداية مرض ، فاذا بشرطى فظ غليظ يهينه موجهاً اليه شبهات كهذه الشبهات، فماذا تنتظر أن يحدث ؟ شخص مصاب بالوسواس ، هو الى ذلك على جانب عظيم من كبرياء مسعورة ، أفلا يكون ذلك هو السبب الحقيقى للداء الذى يعانى منه الآن • على كل حال ، لا ضير !••• بالمناسبة : ان زاميوتوف فتى لطيف حقاً ، ولكن ••• هم ••• لقد أخطأ أمس حين روى ذلك كله ! يا له من ثرثار فظيع !

ـ ولكن لمن روى ذلك ؟ لك ولى •

ـ رواه أيضاً لبورفير •

ـ ما قيمة أن يرويه أيضاً لبورفير ؟

ـ بالمناسبة : هل لك تأثير فيهما ، أقصد فى الأم والأخت ! يجب أن تكونا حذرتين معه اليوم •

أجاب رازوميخين قائلاً على مضض :

ـ سيجرى كل شىء على ما يرام •

ـ لماذا هو غاضب على لوجين ؟ ما مأخذه عليه ؟ ان هذا الرجل يملك مالاً ، ويبدو أن الفتاة لا تنفر منه • وهما لا تملكان فجلة ، هه ؟

صرخ رازوميخين يقول مهتاجاً :

ـ ما شأنك أنت وهذا ؟ أنىَّ لى أنا أعرف هل هما تملكان فجلة ، أم هما لا تملكان فجلة ! اسألهما ان شئت فتعرف ذلك •

ـ ما أغباك أحياناً ! واضح أنك ما صحوت من سكرك ! الى اللقاء • واشكر عنى لبراسكوفيا بافلوفنا ضيافتها • لقد حبست نفسها فى غرفتها ، وقلت لها « صباح الخير » من وراء الباب فلم تجبنى • وكانت قد استيقظت فى الساعة السابعة ، وجىء اليها بالسماور فى غرفتها عن طريق الدهليز • ولكننى لم أشرف برؤيتها •

فى الساعة التاسعة تماماً وصل رازوميخين الى منزل باكالايف ؛ فكانت السيدتان تنتظرانه منذ مدة طويلة محمومتين من نفاد الصبر • لقد نهضتا فى الساعة السابعة أو قبل ذلك • فلما دخل عليهما مظلم الوجه كظلام الليل ، حيَّاهما بخراقة ، وسرعان ما غضب من خجله هذا غضباً شديداً • ذلك أنه لم يضع فى حسابه ما ستستقبله به بولشيريا الكسندروفنا : لقد هرعت بولشيريا الكسندروفنا اليه ، فأمسكت يديه ، وكادت تقبلهما • وألقى نظرةً خجلى على آفدوتيا رومانوفنا ، فكان وجهها الذى ينم فى العادة على الكبرياء ، يعبِّر فى هذه اللحظة عن شكر عميق وصداقة واضحة واحترام كامل ؛ وكان هو لا يتوقع شيئاً من هذا كله ،

بل كان لا ينتظر الا نظرات ساخرة ، واحتقاراً ظاهراً ، فلو استقبلته فعلاً بنظرات ساخرة واحتقار ظاهر وشتائم متلاحقة لكان وقع ذلك فى نفسه أسهل وأيسر ، ولكانت قدرته على احتماله أعظم وأكبر . لقد شعر الآن باضطراب كبير وبلبلة عظيمة حقاً . ولكن كان هناك موضوع للحديث من حسن الحظ ، فسرعان ما تشبث به .

حين علمت بولشيريا ألكسندروفنا أن روديا لم يستيقظ بعد ، وان « كل شىء على ما يرام » ، اظهرت ارتياحاً كبيراً ورضى عظيما ، لانها حقاً « فى حاجة الى أن تتحدث مع رازوميخين حديثاً طويلاً قبل ان ترى ابنها » . وأثير عندئذ موضوع الشاى ، فدُعى رازوميخين الى تناول الشاى مع السيدتين ، وكانتا قد انتظرتاه لهذا . دقّت أفدوتيا رومانوفنا الجرس ، فجاء خادم قذر المظهر رث الثياب ، فأُمر باحضار الشاى ، فأتى بالشاى أخيراً ، ولكن بطريقة تبلغ من القذارة وقلة اللياقة ان السيدتين صُعقتا خجلاً . وودّ رازوميخين لو يندّد بهذه « الغرفة المفروشة » ، ولكنه تذكر لوجين فأمسك عن الكلام ، وشعر بحرج ، وابتهج ابتهاجاً عظيماً حين أخذت بولشيريا ألكسندروفنا تمطره بوابل من الأسئلة .

ظل يتكلم خلال ثلاثة أرباع الساعة ، فكان يقاطع دائماً وتطرح الأسئلة عليه من جديد، واستطاع مع ذلك أن يروى - بمقدار ما يعرف - الوقائع الأساسية من حياة روديون رومانوفتش منذ سنة حتى اصابته بالمرض الذى يعانى منه الآن . لكنه سكت عن أمور كثيرة كان ينبغى ان يسكت عنها ، ولا سيما المشهد الذى وقع فى قسم الشرطة وجميع النتائج التى نجمت عنه . وكانت السيدتان تلتهمان أقواله التهاماً . لكنه حين ظن أنه انتهى من الكلام وأرضى سامعتيه ، بدا أنه فى نظرهما لم يكد يبدأ الكلام .

قالت بولشيريا الكسندروفنا تسأله متعجلة :

ـ قل لى ، قل لى ... معـــذرة ... اننى لا أعـرف اســمك حتى الآن ...

ـ دمترى بروكوفتش .

ـ نعم ، قل لى يا دمترى بروكوفتش : أريد أن أعـرف اشــياء كثيرة ، أشياء كثيرة ... كيف هو ... يرى الأمور الآن... بوجه عام ... أقصـد ... هل تفهمنى ؟ ربـاه ! كيف أعبّر ... كيف افصح بوضـوح ؟ ... أعنى : ماذا يحب ، وماذا لا يحب ؟ اما يزال شـديد الغضب سريع الاهتياج ؟ ما هى رغباته ... و ... و... كيف أعبّر ... ما هى أحـلامه ، اذا جـاز لى أن ... من ذا يؤثر فيه الآن أكبر تأثير ؟ الخلاصة ، أودُّ لو ...

قالت آفدوتيا رومانوفنا :

ـ ماما ! كيف يمكن الجواب على جميع هذه الأسئلة فى آن واحد؟

ـ يا رب ! ذلك أننى ، يا دمتــرى بروكـوفتش ، لم أكن اتوقع أبداً ، أبداً ، أن أجده على هذه الحال !

أجاب دمترى بروكوفتش يقول :

ـ هذا طبيعى جداً . أنا ليس لى أم ، ولكن لى عماً يجيء الى هنا كل سنة ، فكلما جاء صعب عليه أن يتعرفنى حتى من الناحية الجسمية ، مع أنه رجل ذكى ، عمى هذا. وقد افترقتم أنتم منذ ثلاث سنين، فجرى ماء كثير تحت الجسور خلال هذ السنين الثلاث . ماذا أقول لك ايضاً ؟ اننى أعرف روديون منذ سنة ونصف سنة . فكان منذ عرفته قاتم النفس متجهم الوجه شديد الكبرياء متعالياً ؛ وهو فى هذه الآونة الأخيرة (ولعل

ذلك يرجع الى عهد أبعد) كثير الشكوك والوساوس أيضاً . هو كريم طيب . وهو لا يحب أن يظهر عواطفه ، ويؤثر أن يرتكب اساءةً على ان يفتح قلبه . على أنه فى بعض الأحيان يبرأ من الوساوس ، فلا يظهر عليه عندئذ الا برودة فى العاطفة وفتور في الاحساس حتى ليصل من ذلك الى درجة يفقد معها روح التواصل الانسانى ، فكان له طبعين متعارضين يتناوبان الغلبة واحداً بعد آخر . يتفق له أحياناً ان يكون صموتاً الى حد رهيب : فاما أن يزعم أنه ليس فى وقته متسع ، واما أن يزعم أن الناس جميعاً يزعجونه ؛ ومع ذلك يظل مستلقيا على سريره لا يعمل شيئاً . وما هو بالساخر ، لا لأنه يفتقد روح الفكاهة ، بل لأنه كمن لا يريد أن يتلبث على سفاسف سخيفة وترهات باطلة . انه لا يصغى أبداً الى ما يقال له حتى النهاية . انه لا يهتم أبداً بالأشياء التى يهتم بها الآخرون فى لحظة من اللحظات . وهو معتد بنفسه اعتداداً عظيماً ، ويظهر أن من حقه ان يعتد بنفسه هذا الاعتداد . ماذا أقول أيضاً ؟... أظن أن وصولكما سيحسن اليه وسيحدث فيه أثراً نافعاً .

هتفت بولشيريا الكسندروفنا تقول وقد أرهقتها أقوال رازوميخين :

ـ سمع الله منك .

وعزم رازوميخين أمره أخيراً على أن ينظر الى آفدوتيا رومانوفنا بمزيد من الثقة والطمأنينة . كان قد نظر اليها مراراً أثناء الحديث ، ولكنه كان ينظر اليها خلسةً ، بسرعة كوميض البرق ، ثم يحول بصره عنها على الفور . وكانت آفدوتيا رومانوفنا تجلس أمام المائدة تارةً فتصغى بانتباه ، وتنهض تارةً أخرى فتأخذ تمشى على عادتها من ركن الى ركن مصالبةً ذراعيها ، كازةً شفتيها ، ملقية سؤالاً من حين الى حين ، ولكن دون أن تقطع سيرها ، دون أن تقطع تأملها الذى كان يبدو أنها تتابعه

مستمراً متصلاً . وكان من عادتها أيضاً أن لا تصغى حتى النهاية الى ما يُقال لها . كانت ترتدى فستاناً صغيراً داكن اللون من نسيج خفيف ، وقد عقدت حول عنقها منديلاً أبيض شفافاً . وقد لاحظ رازوميخين رأساً ، من علامات كثيرة ، أن السيدتين فى حالة شديدة من الفقر . ولو كانت آفدوتيا رومانوفنا مرتدية ملابس أميرة ، فلعلها كانت لا تثير فى نفسه كل هذا الخجل وهذا الوجل ، أما الآن فربما كان السبب فى الخوف الذى استقر فى قلبه انما يرجع الى أن ملابسها كانت فقيرة الى هذا الحد ، وأنه أدرك كل ما هى فيه من بؤس وحزن ؛ ولذلك أصبح يخشى كل قول من أقوالها ، وكل حركة من حركاتها ، وهذا أمر هو بالنسبة الى رجل ضعيف الثقة بنفسه أصلاً لا بد أن يكون مصدراً جديداً من مصادر الحرج والارتباك .

قالت آفدوتيا رومانوفنا مبتسمة :

ـ لقد علَّمتنا أشياء كثيرة هامة عن طبع أخى ، ولقد تكلمت دون تحيز ما فى ذلك شك . وكنت أظن أنك تقف منه موقف المعجب المتحيز .

ثم أضافت تقول حالمةً مفكِّرة :

ـ يخيَّل الىَّ أنه لا بد أن يكون فى حياته امرأة فعلاً !

ـ أنا لم أقل هذا . ولكن من الجائز أن تكونى على حق . غير أن ...

ـ ماذا ؟

ـ انه لا يحب أحداً ، ولعله لن يحب أحداً فى يوم من الأيام .

كذلك قال رازوميخين قاطعاً جازماً .

ـ أيكون عاجزاً عن أن يحب ؟

أفلت لسان رازوميخين يقول فجأة دون أن يتوقع هو نفسه ذلك :

ـ هل تعلمين يا آفدوتيا رومانوفنا أنك تشبهين أخاك شبها رهيبا في كل شيء ؟

ثم تذكر ما قاله عن أخيها ، فاحمر وجهه احمراراً شديدا واضطرب اضطراباً فظيعاً . فلم تستطع آفدوتيا رومانوفنا أن تحبس ابتسامةً ساخرة وهي تنظر اليه .

واستأنفت بولشيريا ألكسندروفنا كلامها وقد استاءت بعض الاستياء فقالت :

ـ من الجائز أن يكون رأيكما كليكما في روديا خطأ . لا أتكلم الآن عن الحاضر يا دونيتشكا . ان ماكتبه بطرس بتروفتش في تلك الرسالة ، وما قد تصورناه أنا وأنت ، قد لا يكون صحيحاً . ولكنك لا تستطيع أن تتخيل يا دمترى بروكوفتش مدى ما يتصف به روديا من شدة الجموح وقوة النزوات . أنا لم أستطع في يوم من الأيام أن أركن الى طبعه ، حتى حين كان في الخامسة عشرة من عمره . واني لعلى يقين من أنه ما يزال حتى هذه الساعة قادراً على ارتكاب أشياء لا تخطر ببال أي انسان آخر غيره . لا تذهبا بعيداً : هل تعلمان أنه منذ سنة ونصف سنة قد عذبني عذاباً شديداً ، وكاد يميتني غيظاً وقهراً ، حين وضع في رأسه أن يتزوج تلك الـ ... ماذا أقول ؟ تلك الـ ... أقصد بنت زارتسينا هذه ، صاحبة البيت الذي يسكن فيه ؟

اتجهت آفدوتيا رومانوفنا الى رازوميخين فسألته :

ـ هل تعرف تفاصيل عن هذا الأمر ؟

وتابعت بولشيريا الكسندروفنا كلامها فقالت بحرارة :

ـ هل تحسب أن دموعي وضراعاتي وشقاءنا ومرضي وموتي ، هل تحسب أن هذا كله كان يمكن أن يصده عن تحقيق ما قام في رأسه ؟ لا ... كان سيجتاز جميع العقبات هادئاً كل الهدوء . ماذا ؟ هل من الممكن حقاً أنه لا يحبنا ؟

أجاب رازوميخين بتعقل وحذر :

ـ انه لم يقل لي كلمةً واحدة عن هذا الأمر . ولكنني عرفت شذرات من السيدة زارنتسينا نفسها ، مع أنها ليست كثيرة الكلام هي أيضاً . والحق أن ما عرفته غريب بعض الغرابة .

قالت المرأتان كلتاهما تسألانه :

ـ ما الذي عرفته ؟

ـ لم أعرف أشياء كثيرة . كل ما علمته أن هذا الزواج الذي كان مقرراً ومبتوتاً فيه ، والذي لم يحل دونه الا موت الخطيبة ، كانت السيدة زارنتسينا مستاءةً منه . ويقال عدا ذلك أن الخطيبة لم تكن جميلة ، حتى لقد كانت توصف بأنها دميمة ... وأنها بالاضافة الى ذلك ممراض ... وأنها فوق هذا غريبة الأطوار . ولكنهم يضيفون الى هذا أنها كانت لا تخلو من بعض المزايا . فلولا هذه المزايا لكان الأمر عجيباً لا سبيل الى فهمه البتة . ثم انها لم تكن تملك مهراً . على أن روديا آخر من يمكن أن يعنيه أمر المهر . الخلاصة أن الحكم على الموضوع في ظرف كذلك الظرف صعب .

قالت آفدوتيا رومانوفنا موجزةً :

ـ أنا مقتنعة بأنها كانت تملك مزايا كثيرة .

فعقبت بولشيريا ألكسندروفنا تختم الحديث قائلة :

ـ أسأل الله أن يعفو عني ويغفر لي . لا أكتمكما انني ابتهجت لموتها ، رغم أنني لم أعرف في يوم من الأيام أيهما كان سيشقى الآخر !

ثم آثرت الحذر والكتمان ، فعادت تسأل رازوميخين ـ وهي تلقى على دنيا نظرات مختلسة كان واضحاً أن دونيا تستاء منها ـ عادت تسأل رازوميين عن المشهد الذي حدث أمس بين روديا ولوجين . لم يكن خافياً أن هذا الحادث كان يشغل بالها ويقلق نفسها أكثر من أي شيء آخر ، حتى ليرعبها ويسبب لها رعدات تسري في جسمها . أعاد رازوميخين رواية القصة تفصيلاً ، ولكنه أضاف اليها في هذه المرة النتيجة التي يستخلصها هو ، فاتهم راسكولنيكوف ، دون لف ولا دوران ، بأنه أهان بطرس بتروفتش عن سابق عمد وتصميم ؛ ولم يلحّ في هذه المرة على مرضه الذي ذكر قبل ذلك أنه عذر يشفع له . وختم يقول :

ـ لقد أعدّ ذلك حتى قبل أن يمرض .

قالت بولشيريا الكسندروفنا مكروبة مقهورة :

ـ أظن ذلك أنا أيضاً .

ولكنها شُدهت حين رأت رازوميخين يتكلم في هذه المرة عن بطرس بتروفتش بكثير من الاعتدال ، بل وبشيء من الاحترام .

ولم تطق صبراً فقالت تسأله :

ـ أهذا هو رأيك اذن في بطرس بتروفتش ؟

فأجاب رازوميخين يقول بحرارة وجزم :

ـ لا يمكنني أن أرى غير هذا الرأي في خطيب ابنتك ، ولست أقول هذا من باب التأدب والمجاملة ، وانما أقوله لأن ... لأن ... أقوله ولو لهذا السبب البسيط : وهو أن آفدوتيا رومانوفنا نفسها هي التي

أرادت راضية أن تولى هذا الرجل شرف اختياره زوجاً لها . ولئن ذممته ذلك الذم كله بالأمس ، فلأننى كنت بالأمس سكران ... سكران سكراً مقززاً ، ولأننى عدا ذلك ... كنت قد فقدت عقلى ... لأننى جننت ... جننت تماماً . أما اليوم فأنا أشعر من ذلك بخزى وعار.

قال رازوميخين ذلك ، واحمر وصمت. واحمرت آفدوتيا رومانوفنا، ولكنها لم تقطع الصمت . انها لم تنبس بكلمة واحدة منذ دار الحديث على لوجين .

ومع ذلك ظلت بولشيريا ألكسندروفنا مرتبكة ارتباكاً واضحاً لأن ابنتها لا تساعدها . ثم اعترفت مترددة وهى تلتفت فى كل لحظة صوب ابنتها ، بأن هناك ظرفاً يقلقها الآن اقلاقاً شديداً .

بدأت تتكلم فقالت :

ـ الحق يا دمترى بروكوفتش ...

ثم اتجهت الى ابنتها فقالت تسألها :

ـ سأكون صريحة كل الصراحة مع دمترى براكوفتش يادونيتشكا، أليس كذلك ؟

فأجابتها آفدوتيا رومانوفنا تقول باقتناع :

ـ طبعاً يا ماما .

فلما أذن لها بأن تبوح بحزنها أحست بأن جبلاً قد أزيح عن صدرها فأسرعت تقول :

ـ اليك الأمر : اليوم ، فى ساعة مبكرة من هذا الصباح ، وصلتنا بطاقة من بطرس بتروفتش رداً على الرسالة التى أنبأناه فيها بوصولنا . كان ينبغى له طبعاً أن يجىء الى المحطة لاستقبالنا كما كان وعدنا بذلك . ولكننا ، فى المحطة ، لم نجده هو بل وجدناه خادماً قادنا الى هذه الغرفة

المفروشة التى كان معه عنوانها • وأبلغنا الخادم أن بطرس بتروفتش سيجيء الينا اليوم فى الصباح • ولكن بطرس بتروفتش لم يجيء وانما بعث الينا بهذه البطاقة • الأفضل أن تقرأها بنفسك ، لأن هناك نقطة تقلقنى كثيراً • سرعان ما سترى ما هى هذه النقطة ، فتقول لى رأيك صريحاً يا دمترى بروكوفتش • انك تعرف طبع روديا أكثر مما يعرفه اى انسان آخر ، فسوف تستطيع اذن أكثر مما يستطيع أى انسان آخر أن تسدى الينا بنصيحتك • وانى لألفت نظرك الى أن دونيا قد اتخذت قرارها منذ اللحظة الأولى ، أما أنا فما زلت حائرة لا أدرى ما الذى يجب فعله ••• وكنت أنتظرك •

فض رازوميخين البطاقة التى تحمل تاريخ اليوم الماضى ، وقرأ ما يلى :

« السيدة العزيزة بولشيريا ألكسندروفنا ، يشرفنى أن أُعلمك أننى بسبب موانع لم أكن أتوقعها لم أستطع أن أنتظركم على رصيف المحطة ، فأرسلت اليكم رجلاً بارعاً قد تحتاجون الى مساعدته • وكذلك سأحرم نفسى، فى صباح الغد ، من التشرف بزيارتكم، بسبب بعض الأعمال التى تستدعى ذهابى الى مجلس الشيوخ ، ولأننى أريد أيضاً أن لا أزعج اجتماعكم العائلى ، اعنى لقاءك الأول بابنك ولقاء آفدوتيا الكسندروفنا بأخيها • فلن يتاح لى اذن شرف لقائكم وتقديم احترامى لكم فى مسكنكم الا مساء غدٍ فى الساعة الثامنة تماماً • واننى أسمح لنفسى بأن أضيف الى هذا رجاءً ملحاً ، فأطلب اليكم أن تتدبروا الأمر بحيث تعفوننى من حضور روديون رومانوفتش اجتماعنا ، لأنه أهاننى أمس بفظاظة لا مثيل لها حين زرته أثناء مرضه ، ولأننى أريد أن أكلمكم على انفراد فى أمر أحب أن أعرف تفسيركم له ورأيكم فيه• ويشرفنى أن ألفت نظركم الى أننى سأضطر الى الانسحاب فوراً اذا أنا لقيت عندكم روديون رومانوفتش

رغم طلبي هذا ، ولن يكون لكم عندئذ أن تلوموا أحداً الا أنفسكم. وانما أكتب هذا لأنني أتنبـأ بأن روديون رومانوفتش الذي كان يبدو مريضاً حينما زرته ثم استرد صحته فجـأةً بعد ذلك بسـاعتين قد يجيء اليكم ما دام يخـرج الآن . ان ما أقوله قد رأيتـه بعيني رأسي في بيت رجل سكّير داسته خيول فهشمته فمات . وقد أعطى روديون رومانوفتش ابنة ذلك السكير ، وهي بنت معروفة بسوء السمعة لدى جميع الناس ، أعطاها خمسة وعشرين روبلاً بحجة دفع نفقات الجنازة ، فأدهشني ذلك أشد الدهشة ، أنا الذي أعرف الجهـود التي بذلتموها في سـبيل جمع ذلك المبلغ . اختم رسالتي هذه راجياً أن تنقلي الى آفدوتيا رومانوفنا المحترمة أبلغ اعتباري ، وأن تتفضلي بقبول أسمى مشاعر الاحترام والاخلاص من خادمك المطيع :

« ب . لوجين »

قالت بولشيريا الكسندروفنا وهي توشك أن تبكي :

ـ فما الذي يجب أن أعمـله الآن يا دمتري بروكوفتش ؟ كيف يمكنني أن أطلب من روديا أن لا يجيء ؟ لقد كان يطالب أمس مطالبـة صارمة بطرد بطرس بتروفتش ، فاذا بالآية تنقلب الآن ، فيكون هو الذي لا يجوز اسـتقباله ! ولكنه سيجيء عامداً متى عرف ، فما عسى يحدث حينذاك ؟

قال رازوميخين فوراً بهدوء :

ـ افعلي ما قررته آفدوتيا رومانوفنا .

ـ آه ... رباه ! هي تقـول ... هي تقـول ... الله يعلم ماذا تقول .. وهي لا تشرح الأسـباب التي تدفعهـا الى قول ما تقول ! هي تقول ان من الأفضـل ، بل ان من المحتم قطعـاً ، أن يجيء روديا هذا

المساء ، فى الساعة الثامنة ، وأن يلتقيا . أما أنا فكنت أريد حتى أن لا أطلعه على هذه الرسالة ، وكنت أوثر أن أعمد الى الحيلة بواسطتك ، لأمنعه من المجيء ، لأنه ... سريع الاهتياج جداً ! ثم ان هناك أمراً لا أفهمه : من هو ذلك السكير الذى داسته الخيل فمات ، ومن هى تلك البنت ، وكيف أمكنه أن يعطى تلك البنت آخر ما بقى له من المال الذى ...

ـ الذى لقيتِ ذلك العناء كله فى الحصول عليه .

كذلك أضافت آفدوتيا رومانوفنا .

قال رازوميخين شارد الفكر :

ـ لم يكن أمس فى حالة طبيعية . لو عرفت كيف تصرف أمس فى حانة من الحانات ! ... هِمْ ... على كل حال ، لقد حدثنى بالأمس فعلاً ، حين كنت أقوده الى بيته ، عن موظف مات ، وحدثنى كذلك عن فتاة ما ، لكنى لم أفهم من كلامه شيئاً . ثم اننى أنا نفسى ، بالأمس ، قد ...

ـ الأفضل يا ماما أن نذهب نحن اليه . أؤكد لك أننا بذلك سنرى ماذا بقى علينا أن نفعل . وقد آن لنا أن نذهب على كل حال . رباه ! هى الساعة العاشرة ونيف .

كذلك صاحت آفدوتيا رومانوفنا وهى تلقى نظرةً على الساعة الذهبية الرائعة ، المرصعة بالمينا ، التى كانت تحملها معلقةً فى عنقها بسلسلة من صنع البندقية ، والتى تتنافر تنافراً عجيباً مع جملة زينتها . قال رازوميخين لنفسه : « هذه هدية الخطوبة ! » .

قالت بولشيريا ألكسندروفنا وقد طاش صوابها :

ـ آ ••• آن الأوان ! اذا لم نذهب اليه ، فقد يظن أننا ما زلنا غاضبتين بسبب ما حدث أمس • آه ••• يا رب !

قالت ذلك واسرعت ترمي على كتفيها خماراً أسود ، وتضع قبعتها على رأسها • وارتدت دونيتشكا ثيابها أيضاً • ان قفازيها ليسا مهترئين جداً فحسب ، بل هما مثقبان أيضاً • ولم يفت رازوميخين ذلك • على أن هذا الفقر الظاهر في ملابس السيدتين كان يضفي عليهما وقاراً خاصاً ، وهذا ما يحدث عادةً لأولئك الذين يعرفون كيف يرتدون ملابس فقيرة •

كان رازوميخين ينظر الى الفتاة باحترام وتقديس ، ويشعر باعتزاز وافتخار حين يتصور أنه سيصحبها • كان يقول لنفسه : « ان تلك الملكة * التي كانت ترقّع جواربها في سجنها لا بد أنها كانت أثناء ذلك أعظم جلالاً وأكبر مهابةً منها في أعظم الأعياد وأروع الاحتفالات ! »•

وهتفت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

ـ رباه ! هل كان في وسعي أن أصدّق يوماً أنني سوف أهاب ، كما أهاب الآن ، لقاءً مع ابني ، مع عزيزي ، مع روديا ؟

ثم أضافت تقول وهي تلقي على رازوميين نظرة خجلى :

ـ أنا خائفة يا دمتري بروكوفتش •

قالت دونيا وهي تقبّلها :

ـ لا تخافي شيئاً يا ماما ، بل ثقي به • أما أنا فواثقة •

صاحت المرأة المسكينة تقول :

ـ آه ••• يا رب !••• أنا أيضاً واثقة ! ومع ذلك لم أنم طوال الليل !

وخرجوا الى الشارع .

ـ هل تعلمين يا دونيتشكا ؟ انني ما ان غفوت قليلاً عند طلوع الصبح حتى حلمت فجأة بتلك المسكينة مارتا بتروفنا ... كانت تلبس ثياباً بيضاء ... واقتربت مني ... وأمسكت يدي ... وكانت تهزُّ رأسها وهي تنظر اليه نظرة قاسية ، قاسية جداً ، كأنها تلومني على شيء ما ... أهذه علامة حسنة ؟ آه ... يا رب ! انك يا دمتري كروكوفتش لا تعلم ، بعد ، أن مارتا بتروفنا قد ماتت .

ـ لا ، لا أعلم . ولكن من هي مارتا بتروفنا هذه ؟

ـ ماتت فجأة ... تصور أنها ...

تدخلت دونيا تقول لأمها :

ـ ستقولين له هذا فيما بعد يا ماما . هو لا يعرف من هي مارتا بتروفنا هذه .

ـ صحيح ؟ لا تعلم ؟ كنت أظن أنك على اطلاع ... اغفر لي يا دمتري بروكوفتش ... أصبحت لا أعرف أين رأسي في هذه الأيام الأخيرة . حقاً انني أعدك معيناً أرسلته العناية الالهية ، لذلك كنت أحسبك مطلعاً على كل شيء . انني اعدك واحداً من أسرتنا . لا تؤاخذني اذا أنا كلمتك بهذه الطريقة !.. آه .. رباه ! ماذا أصاب يدك اليمنى ؟ أهي مجروحة ؟

دمدم رازوميخين يقول سعيداً كل السعادة :

ـ نعم ، مجروحة .

ـ انني أسرف في الصراحة أحياناً ، فتقرعني دونيا ... ولكن.. رباه ! ما هذا البيت الحقير الذي يقيم فيه ؟ تُرى هل استيقظ من نومه ؟ وتلك المرأة ، صاحبة البيت ، كيف تسمي هذا الجحر غرفةً ؟ اسمع ،

أنت تقول انه لا يجب أن يتكلم عما يعتلج فى قلبـه ، فلا شك اذن اننى سـأزعجه وأضجره ••• بعواطفى وضعفى ! ألا تسـتطيع أن تهدينى يا دمترى بروكوفتش الى الطريقة التى يمكننى أن أعمد اليها فى معاملته ! لقد طاش صوابى تماماً •••

ـ لا تلقى عليـه أسـئلة كثيرة ، اذا رأيتـه يعبس أو يتجهم • ولا تسأليه عن صحته خاصةً ، فانه لا يحب هذا •

ـ آه يا دمترى بروكوفتش ، ما أصعب الأمومة ! وانظر الى هذا السلّم ! يا له من سلّم فظيع !

قالت دونيا ملاطفة :

ـ ماما ، انك شاحبة الوجه جداً ، هدئى روعك يا يمامتى ! لا شك أنه سعيد بلقائنا ، فلماذا تعذبين نفسك هذا التعذيب ؟

هذا ما أضافته وقد سطعت عيناها •

ـ انتظرا ، سأرى أولاً هل استيقظ من نومه •

باطأت السـيدتان خطاهما ، وتقدّمهما رازوميخين على السلّم • فلما وصلتا الى الطابق الثالث لاحظتا أن باب صاحبة البيت مشقوق قليلاً ، ورأتا فى الظلام عينين سوداوين حادتين جداً كانتا ترقبانهما • فلما التقت النظرات أُغلق الباب بشدة ، فقرقع قرقعة بلغت من القـوة أن بولشيريا ألكسندروفنا أوشكت أن تصرخ رعباً •

الفصل الثالث



زوسيموف قائلاً فى فرح : « هو بخير ، هو بخير » • ان زوسيموف يعود راسكولنيكوف منذ نحو عشر دقائق ، وقد جلس فى ذلك المكان نفسه الذى جلس فيه بالأمس ، على ركن من الديوان • وكان راسكولنيكوف يجلس فى الركن المقابل ، مرتدياً ثيابه كاملةً ، وقد اعتنى بغسل وجهه وتصفيف شعره ، وذلك أمر لم يقع له منذ مدة طويلة •

امتلأت الغرفة دفعةً واحدة ، ولكن ناستاسيا استطاعت مع ذلك أن تتسلل وراء الزائرين ، وبقيت تنصت الى الحديث •

كانت صحة راسكولنيكوف قد تحسنت بعض التحسن فعلاً ، ولاسيما اذا قورنت بما كانت عليه أمس • كل ما هنالك أنه الآن شديد الشحوب شارد الفكر متجهم النفس • فاذا نظرت اليه كنت كمن ينظر الى رجل أصابه جرح بالغ ، أو عانى ألماً جسمياً حاداً • كان مقطّب الحاجبين ، مكزوز الشفتين، محموم النظرة. وكان لا يتكلم الا قليلاً ، فاذا تكلّم تكلّم على مضض ، كأنه يقوم بواجب ، وكان فى حركاته أحياناً نوع من قلق•

ليس ينقصه الا ضماد فى الذراع أو عصبة من قماش فى الاصبع

حتى يكتمل الشبه بينه وبين رجل أُصيب بداحوس أليم ، أو جرح موجع أو أى شىء آخر من هذا القبيل •

على أن هذا الوجه الشاحب المتجهم بدا أنه يتألق لحظةً حين دخلت الأم والأخت • غير أن ذلك لم يزد على أن يضيف الى الذهول المتجهم تعبيراً عن ألم مكثف • وسرعان ما انطفأ الألق ، وبقى الألم • ولم يفت زوسيموف الذى كان يراقب مريضه ويدرسه بكل ما يستطيعه من اهتمام وشغف طبيبٌ فى بدايات ممارسته مهنته، لم يفته أن يلاحظ لدى مريضه، بغير قليل من الدهشة ، حين وصلت أسرته ، نوعاً من تصميم أليم خفى ، يشبه التصميم الذى يقوم فى نفس انسان يرى عذاباً عليه أن يحتمله ، بدلا من الفرح الذى ينبغى أن تهيئه له هذه الزيارة فى الأحوال الطبيعية • وقد استطاع الطبيب أن يلاحظ بعد ذلك أن كل كلمة تقريباً من الحديث الذى جرى حينذاك كانت كأنها تثير وتنكأ جرحاً لدى المريض • ولكن الطبيب قد أدهشه فى الوقت نفسه أن يرى أن المريض كان يسيطر على نفسه بعض السيطرة ، فاستطاع أن يخفىهذه العواطف، مع أنه كان بالأمس يثور حنقه عند كل كلمة تُقال ، كمن استبدت به فكرة وحيدة ثابتة •

قال راسكولنيكوف وهو يقبّل أمه وأخته بعاطفة رقيقة وحنان واضح (وهذا ما ملأ بولشيريا الكسندروفنا فرحاً) :

ــ نعم ، ألاحظ أنا نفسى أننى شُفيت •

ثم أضاف يقول مخاطباً رازوميخين وهو يصافحه بمودة :

ــ لا أقول هذا مثلما قلته « أمس » !

سُرَّ زوسيموف كثيراً من وصول الزوار ، لأنه كان قد استنفد خلال الدقائق العشر التى قضاها مع المريض جميع موضوعات الحديث ، فبدأ كلامه يقول :

ـ حتى لقد دُهشت من رؤيته على هذه الحال اليوم • فاذا استمر هذا التحسن ، فلن تنقضى ثلاثة أيام أو أربعة حتى يعود كما كان تماماً ، أعنى كما كان منذ شهر أو شهرين أو ربما ثلاثة •

ثم أضاف الى ذلك مخاطباً راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة محاذرة ، كأنه يخشى أن يثير غضبه :

ـ ذلك أن هذا المرض قد بدأ كامناً منذ مدة طويلة ، هه ؟ اعترف أن بعض الذنب فى ذلك يرجع اليك ••

أجاب راسكولنيكوف يقول ببرود :

ـ جائز جداً •

تابع زوسيموف كلامه فقال متحمساً :

ـ أقول هذا لأن شفاءك الكامل متوقف بعد الآن عليك أنت خاصةً • أودُ أن تقتنع الآن ، بعد أن أصبح الحديث معك ممكناً ، بأن علينا أن نفحص الأسباب الأولى ، الأسباب الأساسية ان صح التعبير ، التى ولدّت مرضك ، بغية أن نستطيع ازالة تلك الاسباب • فاذا فعلنا ذلك شفيت ، والا تفاقم مرضك • أنا لا أعرف ما هى تلك الأسباب ، ولكن لا بد أنك تعرفها أنت • فأنت شاب ذكى ، ولا شك أنك لاحظت نفسك • ويخيَّل الىَّ أن بداية اضطراباتك قد جاءت حين تركت الجامعة تقريباً • فما ينبغى اذن أن تبقى عاطلاً عن أى عمل يشغلك • أعتقد أن عملاً موجهاً الى غاية محدَّدة سيحسن اليك كثيراً •

ـ نعم نعم • أنت على حق تماماً • سأعيد تسجيلى فى الجامعة • وعندئذ سيجرى كل شىء ••• على ما يرام •

كان بين أهداف زوسيموف من اسداء نصائحه الحكيمة تلك أن ينال اعجاب السيدتين ، لذلك كان طبيعياً أن يرتبك بعض الارتباك وأن

يضطرب بعض الاضطراب حين فرغ من القاء خطابه فرفع عينيه نحو راسكولنيكوف فرأى فى وجهه سخرية ظاهرة لاتخفى. على أن ذلك لم يدم الا لحظة . فان بولشيريا ألكسندروفنا سرعان ما طفقت تفيض فى شكر زوسيموف ، وتعبّر له خاصة عن امتنانها من زيارته لهما فى الليلة الماضية .

قال راسكولنيكوف يسألها قلقاً :

ـ كيف ؟ هل ذهب اليكما ليلاً ؟ اذن لم تناما بعد رحلة متعبة كتلك الرحلة ؟

ـ فى الساعة الثانية كان كل شيء قد انتهى يا روديا . وقد ألفنا ، أنا ودونيا ، فى بيتنا ، أن لا تنام قطُّ قبل الساعة الثانية من الصباح .

واصل راسكولنيكوف كلامه فقال وقد أظلم وجهه فجأة ، وأطرق الى الأرض :

ـ أنا أيضاً لا أعرف كيف أشكره ...

ثم اتجه يخاطب زوسيموف فقال :

ـ بصرف النظر عن الناحية المالية ـ معذرةً اذا أنا أشرت الى هذه الناحية ! ـ فانني لا أعرف فعلاً كيف استحققت كل هذه العناية منك. حقاً اننى لا أفهم ... لذلك كانت هذه العناية تشق على نفسى ... أقول لك هذا بصراحة تامة .

أجابه زوسيموف وهو يحمل نفسه على الضحك حملاً :

ـ لا تثورنْ أعصابك يا صاحبى . افرض أنك أول زبائنى . ان الطبيب يدلّل دائماً زبائنه الأُول ، حتى لقد يُشغف ببعضهم . وأنت تعلم أن زبائنى ليسوا كُثُراً حتى الآن .

أضاف راسكولنيكوف يقول وهو يومىء الى رازوميخين :

ـ ناهيكم عن هذا ••• الذى لم ينل منى الا أنواع التصديع وضروب الاهانة •

هتف رازوميخين قائلاً :

ـ أسخافات جديدة ؟ هأنت ذا قد أصبحت « عاطفياً » !

ألا انه لو كان يملك مزيداً من نفاذ البصيرة للاحظ أن الأمر ليس أمر « عاطفية » ، بل شىء آخر هو نقيض العاطفية تماماً • وقد لاحظت آفدوتيا رومانوفنا ذلك • وكانت تراقب أخاها فى قلق •

وتابع راسكولنيكوف كلامه كمن يتلو درساً حفظه فى هذا الصباح نفسه فقال :

ـ أما عنك أنت يا أماه فلا أكاد أجرؤ أن أتكلم • اننى لم أدرك الا اليوم مدى العذاب الذى لا بد أنك عانيته أمس حين كنت تنتظريننى هنا •

قال ذلك ومدّ يده الى أخته على حين فجأة مبتسماً دون أن يقول كلمة • ولكن انفعالاً صادقاً يظهر فى ابتسامته هذه المرة • فأسرعت دونيا تتناول اليد الممدودة اليها ، فتصافحها بحرارة ، سعيدةً شاكرة • هذه أول مرة يتجه فيها الى أخته بعد الشقاق الذى وقع بينهما أمس • وأشرق وجه الأم سعادةً حين رأت هذه المصالحة الصامتة الحاسمة بين الأخ وأخته •

همس رازوميخين يقول متحمساً وهو يستدير على كرسيه :

ـ هذا ما يعجبنى فيه ! ان له دائماً اندفاعات كهذه !

وقالت الأم لنفسها : « وما أجمل الطريقة التى اتبعها ! ما أنبلها من بادرة ! ما أحلاها من حركة بسيطة رقيقة مرهفة أنهى بها سوء التفاهم الذى قام بينه وبين أخته ! لقد كفاه أن يمد اليها يده ، فى هذه اللحظة ،

وهو يرمقها بنظرة فيها رقة ولطف وحنان ... وما أجمل عينيه ! ما أجمل وجهه كله !... ألا انه لأجمل حتى من دونيتشكا ... ولكن رباه ما هذه الثياب التى يرتديها ! ما أردأ ملابسه ! ان الخادم فى دكان آتانازى ايفانوفتش ، الخادم فاسيا نفسه ، يرتدى ثياباً أحسن من ثيابه ! أواه .. لشد ما أحب أن أرتمى على عنقه فأقبّله و ... آخذ أبكى ... لكننى أخاف ، أخاف جداً !... انه غريب الأطوار يا رب ! هو يتكلم برقة وحنان ، ومع ذلك أنا خائفة ! عجيب ، مم أنا خائفة ؟ » .

استأنفت كلامها فجأة ، اذ عادت تفكر فى ملاحظة ابنها ، فقالت له:

ـ آه يا روديا ! لا تستطيع أن تتصور مدى ما شعرنا به من شقاء ، أنا ودونيتشكا ، أمس . أما وقد انتهى هذا الآن ، أما وأنه انقضى فأصبحنا سعيدتين من جديد ، فاننا نستطيع أن نرويه لك . تصور أننا هرعنا الى هنا لنقبّلك ، منذ نزلنا من القطار ، فقالت لنا تلك المرأة ... هه ... ها هى ذى .. نعمت صباحاً يا ناستاسيا ... نعم ، قالت لنا هذه المرأة ... هكذا فجأة ... انك كنت فى السرير تعانى من حمى حارة ، ثم هربت وأنت تهذى هذياناً شديداً ، دون أن يعرف الطبيب عن ذلك شيئاً ، وأنهم ركضوا يبحثون عنك فى الشارع . لا تستطيع أن تتصور ما أحدثه هذا فينا من أثر !... لقد تذكرت أنا على الفور النهاية الفاجعة التى انتهى اليها الليوتنان بوتانتشيكوف ، أحد أصحابنا القدماء ، صديق أبيك ـ هل تتذكر يا روديا ؟ ـ الذى كان مصاباً هو أيضاً بحمى حارة فهرب من البيت مثلك فسقط فى بئر الحوش، ولم يمكن اخراجه منه الا فى الغد . وقد غلونا طبعاً فى تصور خطورة حالتك . وتمنينا أن نركض نبحث عن بطرس بتروفتش ليساعدنا قليلاً على الأقل ... لأننا كنا وحيدتين ، وحيدتين .

قالت جملتها الأخيرة هذه بصوت فيه شكوى وتوجع . لكنها

أمسكت عن الكلام فجأة ، لأنها تذكرت أن الكلام عن بطرس بتروفتش ما يزال خطراً بعض الشيء ، « رغم أن الجميع قد أصبحوا سعداء من جديد » •

جمجم راسكولنيكوف يقول مجيباً :

ـ نعم نعم ، هذا كله مؤسف طبعاً •••

ولكن هيئة كانت تنم على ذهول وغياب يبلغان من الشدة أن دونيتشكا نظرت اليه مشدوهة •

وتابع يقول وهو يبذل جهداً واضحاً ليستجمع ذكرياته :

ـ ماذا كنت أريد أن أقول لكما أيضاً ؟ ها ••• نعم ••• أرجوك يا أمي ، وأرجوك أنت يا دونيتشكا ، أن لا يذهب بكما الظن الى أنني كنت لا أنوي أن أسبقكما الى الذهاب اليكما ، وأنني انتظرت أن تجيئا أنتما اليّ •

هتفت بولشيريا ألكسندروفنا تقول مدهوشة هي أيضاً :

ـ ما هذا الذي تقوله يا روديا ؟

وقالت دونيا لنفسها : « ما باله ؟ أتراه لا يجيئنا الآن من باب القيام بالواجب ؟ انه يصالحنا ويستغفرنا ، ولكن كأنه يقوم بسخرة ثقيلة أو يتلو درساً محفوظاً » •

ـ لقد أردت منذ صحوت أن أذهب اليكما ، لكن مسألة الثياب أخّرتني ••• لقد نسيت أمس أن أقول لها ، أعني أن أقول لناستاسيا أن ••• تغسل هذا الدم • ولم أستطع أن أرتدي ثيابي الا الآن •

هتفت بولشيريا ألكسندروفنا تسأله وقد ذهب صوابها :

ـ الدم ؟ أي دم ؟

فأجابها :

ـ لا تقلقى ، ليس الأمر بذى بال . هذا الدم سببه أننى ترنحت قليلاً أمس ، بسبب الهذيان ، فاصطدمت برجلٍ كانت قد داسته عربة ... هو موظف ...

قاطعه رازوميخين قائلاً :

ـ هذيان ؟ ولكن هأنت ذا تتذكر كل شيء !

فأجاب راسكولنيكوف بلهجة تنم على الهم :

ـ صحيح ... أتذكر كل شيء ، حتى أدق التفاصيل . ولكن لماذا فعلت كيت وكيت ، لماذا ذهبت الى مكان كذا ، لماذا قلت ذلك الشيء فى ذلك المكان ، هذا ما لا أستطيع أن أفسّره لنفسى .

تدخل زوسيموف فقال :

ـ هذه ظاهرة معروفة جداً . رب فعل يقوم به صاحبه على نحو رائع ، ببراعة فائقة وحذق مدهش ، ثم يبقى الباعث عليه والدافع اليه مموّهاً ، لارتباطه بمشاعر مَرَضية شتى . فكأن الأمر كله حلم من الأحلام .

قال راسكولنيكوف لنفسه : « انه لحظ موفق أن يعدنى أشبه بمجنون ! » .

قالت دونيا وهى تلقى على زوسيموف نظرة قلقة :

ـ ولكن ألا يصدق هذا على أناس أصحاء أيضاً ؟

فأجابها زوسيموف قائلاً :

ـ هذه ملاحظة سديدة جداً ، بمعنى أننا جميعاً على وجه التقريب نشبه المجانين حقاً فى كثير من الأحيان ، مع فرق واحد مع ذلك هو أن « المرضى » مجانين أكثر منا قليلاً ، فمن الضرورى أن نميّز ههنا

درجات . أما الانسان « السوى » ، فمن الواجب أن نقول انه لا يكاد له وجود . قد نجد فرداً سوياً ، أو فرداً قريباً من السوى ، بين عشرات الألوف وربما مئات الألوف من الأفراد .

اربدَّت وجوه الحاضرين جميعاً حين سمعوا كلمة « المجانين » هذه التى أفلتت من لسان زوسيموف بغير حذر ولا تروٍ أثناء ثرثرته حول موضوعه المفضَّل . وكانت تطوف على شفتى راسكولنيكوف الذى ما يزال جالساً ، كانت تطوف على شفتيه اللتين زال عنهما لونهما ، ابتسامة تنم على أنه كان مسترسلاً فى أحلام عميقة .

صاح رازوميخين يسأله بسرعة شديدة :

ــ هيه ، لقد قاطعتك ... ما حكاية الرجل الذى داسته العربة ؟

قال راسكولنيكوف وكأنه يستيقظ فجأة :

ــ ماذا ؟ آ ... نعم ... لقد تلوثت بالدم حين ساعدت فى نقله الى بيته ... بالمناسبة يا أمى : لقد فعلت أمس أمراً لا يغتفر . حقاً لم أكن أملك كل عقلى . لقد أعطيت امرأة ذلك الرجل ، أمس ، كل المال الذى أرسلته الىَّ ... من أجل دفنه ... هى الآن أرملة ، مصدورة ، انها امرأة شقية فقيرة ... عندها ثلاثة يتامى صغار جائعين ... ما من قرش واحد فى بيتهم ... وهناك أيضاً بنت ... لعلكما كنتما ستفعلان مافعلته أنا لو كنتما فى مكانى. طبعاً لم يكن من حقى أن أفعل ذلك ، أنا أعترف بهذا ... لأننى أعرف حق المعرفة كيف حصلتما على ذلك المال . فمن أجل أن يساعد المرء غيره يجب عليه أولاً أن يكون له حق فى ذلك والا : « موتوا أيها الكلاب اذا لم تكونوا راضين » . أليس الأمر كذلك يا دونيا ؟

قال راسكولنيكوف هذا وابتسم ابتسامة خفيفة .

أجابته دونيا بلهجة جازمة تقول :

ـ لا ، ليس الأمر كذلك !

فدمدم يقول وهو يلقى عليها نظرة توشك أن تكون كارهة ، وتطوف بشفتيه ابتسامة ساخرة :

ـ ها ... أنت أيضاً تزخرين بنيات طيبة . كان ينبغى لى أن أفهم هذا ! .. ذلك جميل جداً على كل حال .. ربما كان ذلك أفضل !... اذا وصلت الى نقطة لا تجسرين أن تتخطيها فسوف تشقين ، واذا تخطيتها فربما شقيت أكثر . ثم ان هذا كله سخافات (أضاف ذلك مهتاجاً ، نادماً على أنه استسلم لاندفاعه) . وانما أردت يا أمى أن أعتذر اليك ، وأن استغفرك .

كذلك ختم راسكولنيكوف كلامه بصوت جازم متقطع .

قالت الأم راضية كل الرضى :

ـ كل ما تفعله يا روديا فهو خير . أنا واثقة بهذا .

فأجابها بابتسامة مصطنعة :

ـ لا تثقى كل هذه الثقة !

أعقب ذلك صمت . لقد كان الحديث كله متوتراً جداً ، سواء فى الصمت ، وفى المصالحة ، وفى الغفران . وكان الجميع يحسون ذلك .

قال راسكولنيكوف لنفسه وهو ينظر الى أمه وأخته بطرف عينه : « لكأنهما خائفتان منى حقاً » .

والحق أن بولشيريا ألكسندروفنا كان يزداد خوفها على قدر امتداد صمتها .

وومضت هذه الفكرة فى ذهن راسكولنيكوف : « أنا انما كنت أحبهما اذن من بعد » .

هتفت بولشيريا ألكسندروفنا تقول فجأة وهى تنتفض :

ــ هل تعلم يا روديا ؟ لقد ماتت مارتا بتروفنا !

ــ من هى مارتا بتروفنا ؟

ــ عجيب ! مارتا بتروفنا سفيدريجايلوفا . حدثتك عنها طويلاً فى رسالتى !

ــ آ ... آ ... نعم ... تذكرت ! اذن ماتت ؟ آ ... حقاً .. (قال ذلك مرتعشاً كمن يصحو من نوم) . ماتت ... أصحيح أنها ماتت ؟ ممَّ ماتت ؟

أسرعت بولشيريا ألكسندروفنا تجيبه وقد شجعها هذا الاستطلاع :

ــ ماتت فجأة . حدث ذلك يومَ أرسلت اليك رسالتى . تصور ! وتصور أن أغلب الظن أن ذلك الرجل الرهيب هو سبب موتها . يقال انه كان قد ضربها ضرباً فظيعاً .

سأل راسكولنيكوف أخته :

ــ هل كان ذلك من عاداتهما ؟

ــ لا ، بالعكس . كان يبدو على الدوام صبوراً جداً معها ، بل ولطيفاً جداً فى معاملتها . وكان فى كثير من المناسبات كثير اللين والتسامح فى تصرفه ازاء طبع زوجته . ولكن ذلك دام سبع سنين ، فلعله فقد صبره على حين فجأة .

ــ اذن لم يكن فظيعاً الى ذلك الحد ما دام قد استطاع أن يسيطر على نفسه خلال سبع سنين . لكأنك تعذرينه يا دونيتشكا .

ــ لا ، لا ، انه رجل فظيع ! لا أستطيع أن أتخيل رجلاً أفظع منه.

كذلك أجابت دونيتشكا وهي تكاد ترتجف . وقطبت حاجبيها وغرقت في أفكارها .

وأسرعت بولشيريا ألكسندروفنا تتابع كلامها فقالت :

ـ حدث ذلك في ذات صباح . فأمرت باعداد العربة لتذهب الى المدينة بعد الغداء رأساً ، لأنها تذهب الى المدينة دائماً في مثل تلك الحالات. يقال انها التهمت غداءها بشهوة قوية .

ـ بعد أن ضُربت ؟

ـ نعم ، هذه عادة من عاداتها . وما ان انتهت من تناول طعامها حتى أسرعت تستحم حتى لا تتأخر . انها تعالج نفسها بالحمامات . ان لديهم ينبوع ماء بارد ، فهي تستحم به بانتظام واطراد كل يوم . ولكنها ما ان غطست في الماء حتى أصيبت بالسكتة .

قال زوسيموف معقباً :

ـ لا غرابة !

ـ وهل ضربها ضرباً شديداً جداً ؟

قالت دونيا :

ـ أي قيمة لهذا ؟

وقال راسكولنيكوف فجأة ، بلهجة ليس هناك شيء يمكّن من التنبؤ بها :

ـ هِمْ ... ثم ما قيمة قصّ سخافات من هذا النوع يا أمي ؟

فقالت بولشيريا ألكسندروفنا :

ـ آه يا بني !... انما أنا رويت هذه الأمور لأنني أصبحت لا أعرف عمّ ينبغي أن أتكلم !

فقال راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة مصطنعة من جديد :

ــ أتراكم تخافون جميعاً منى ؟

قالت دونيا وهى تحدق الى عينى أخيها بنظرة قاسية :

ــ هذا صحيح . حتى ان ماما قد رسمت اشارة الصليب قبل صعودها السلم ، من شدة خوفها .

تقلص وجه راسكولنيكوف حتى لكأنه يوشك أن يقع متشنجاً .

فتمتمت بولشيريا ألكسندروفنا تقول مضطربةً كل الاضطراب :

ــ آه .. ما هذا الذى تقولينه يا دونيا ؟ لا تزعل يا روديا ، أرجوك ... لماذا تقولين هذا الكلام يا دونيا ؟ صحيح أننى طوال مدة الرحلة ، فى القطار ، كنت أتخيَّل كيف سنلتقى ، وما الذى سيقوله بعضنا لبعض ... وقد بلغت من شدة السعادة أننى لم أشعر بالرحلة . ولكن ما هذا الذى أقوله ؟ اننى ما زلت سعيدة ... الآن أيضاً أنا سعيدة ... ما كان ينبغى لك يا دونيا أن ... اننى سعيدة يا روديا ، ان رؤيتك تجعلنى سعيدة يا روديا ...

فدمدم راسكولنيكوف يقول لأمه خجلاً ، وهو يشد على يدها دون أن ينظر اليها :

ــ كفى يا ماما . سيتسع وقتنا للتحدث طويلاً !

ولكنه ما ان قال هذا الكلام حتى اضطرب فجأة ، واصفرَّ وجهه ، وعاوده ذلك الاحساس الرهيب الذى يعرفه حق المعرفة ، أعنى الاحساس ببرودة رهيبة تجتاح نفسه ، وشعر شعوراً لا يخالجه ريب بأنه قد كذب كذبة فظيعة ، وبأنه لن يستطيع أن يتكلم بعد الآن بقلب مفتوح فى يوم من الأيام ، بل وأنه لن يستطيع بعد الآن أن « يتكلم » فى أمر من الأمور أياً كان . وبلغ الاحساس الذى ولّدته هذه الفكرة فى نفسه

من شدة الايلام أنه كاد يفقد الشعور بالواقع فقداناً كاملاً خلال لحظة ، فنهض واتجه نحو الباب قُدُماً لا يلوى على شيء ولا ينظر الى أحد .

هتف رازوميخين يسأله وهو يمسكه من ذراعه :

ـ ماذا تفعل ؟

فعاد راسكولنيكوف يجلس ، وأجال بصره حواليه صامتاً . فكان الجميع يتأملونه مشدوهين .

وهتف يقول فجأة :

ـ حقاً انكم جميعاً لتبعثون الضجر والسأم في النفس ! هلاَّ قلتم شيئاً ! ما بالنا نبقى جالسين هكذا ! تكلموا ! تكلموا ! سوف نتكلم ... معاً ! أنجتمع ثم لا نقول شيئاً ؟ هيَّا قولوا شيئاً ! هلموا !

قالت بولشيريا ألكسندروفنا :

ـ الحمد لله . لشد ما خفت أن يتكرر ما حدث أمس .

وقالت آفدوتيا رومانوفنا تسأل أخاها مرتابةً :

ـ ما بك يا روديا ؟

فأجابها راسكولنيكوف وقد أخذ يضحك فجأة :

ـ لا شيء ... لا شيء ... تذكرت سخافة من السخافات !

دمدم زوسيموف يقول :

ـ اذا كان الأمر أمر سخافة من السخافات ، فهذا يبعث على الاطمئنان . والا كان يمكن أن افترض ...

ثم أضاف :

ـ على كل حال ، يجب أن أنصرف . قد أجيء لأراك ، اذا أنا وجدتك !

وحيًا وخرج .

قالت بولشيريا الكسندروفنا :

ـ يا له من رجل رائع !

فقال راسكولنيكوف فجأة بصوت متقطع ، وبحرارة أشدّ مما أظهر من حرارة حتى الآن :

ـ نعم ، هو رجل رائع ، مدهش ، مثقف ، ذكي ... لا أتذكر الآن أين التقيت به قبل مرضي . ولكن يبدو لي أنني سبق أن التقيت به.

ثم أضاف وهو يومىء الى رازوميخين باشارة من رأسه :

ـ وهذا أيضاً رجل ممتاز !

ثم التفت الى أخته يسألها فجأةً وقد أخذ يضحك لا يدري أحد لماذا :

ـ هل يعجبك يا دونيا ؟

فأجابته دونيا قائلة :

ـ كثيراً .

قال رازوميخين وهو ينهض محمرّ الوجه من الخجل والاضطراب :

ـ يا للأحمق !

وابتسمت بولشيريا الكسندروفنا ابتسامة خفيفة ، بينما كان راسكولنيكوف يضحك ضحكاً صاخباً .

ـ ولكن الى أين أنت ذاهب ؟

ـ أنا أيضاً مشغول .

ـ لا لستَ مشغولاً بشيء البتة ، ابق ! لا يكفي أن ينصرف زوسيموف حتى يكون عليك أن تنصرف أنت أيضاً . لا ، لا تذهب ! ثم

كم الساعة الآن ؟ الثانية عشرة ؟ ما أجمل هذه الساعة التى تحملينها يا دونيا ! ولكن ما بالكم تصمتون جميعاً من جديد ؟ لا يتكلم أحد غيرى هنا !

أجابت دونيا :

ــ هى هدية من مارتا بتروفنا •

وعقبت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

ــ وقد كلف ثمناً غالياً جداً •

ــ هى ضخمة جداً بالقياس الى ساعة نسائية •

ــ أحب للساعات أن تكون ضخمة هكذا •

وقال رازوميخين لنفسه : « ليست هدية من الخطيب اذن » ، وابتهج لهذا دون أن يدرى كثيراً لماذا !

وقال راسكولنيكوف غامزاً :

ــ تصورت أنا أنها هدية من لوجين !

ــ لا ، انه لم يقدم الى دونيا حتى الآن أية هدية !

قال راسكولنيكوف فجأة وهو ينظر الى أمه التى ذُهلت من انتقاله الى هذا الكلام بغير تدرج ، ومن اصطناعه هذه اللهجة التى اصطنعها :

ــ آ ••• آ ••• هل تذكرين يا أمى أننى عشقت وأننى أردت أن اتزوج ؟

ــ نعم أتذكر يا بنى •

وتبادلت بولشيريا الكسندروفنا نظرة مع دونيتشكا ورازوميخين •

ــ نعم • وماذا أقول لك عن ذلك الأمر أيضاً ؟ لقد نسيت فأصبحت لا أتذكر •••

وتابع كلامه وهو يطرق الى الأرض ويصبح شارد الذهن حالماً من جديد :

ـ كانت فتاة ممراضاً ... ممراضاً جداً . وكانت تحب أن تتصدق على المتسوِّلين . وقد أجهشت باكية في ذات يوم حين حدثتني عن ذلك. نعم ... نعم ... أتذكر تذكراً كاملاً . لا يمكن أن يقال انها كانت جميلة ! حقاً ... لا أدري لماذا تعلقت بها . ربما لأنها كانت دائماً مريضة . وأحسب أنها لو كانت عرجاء أو حدباء لأحببتها أكثر . (قال ذلك وابتسم ابتسامة ذاهلة) . كان ذلك نوعاً من جنون الربيع !

قالت دونيا مندفعة :

ـ لا ، لم يكن نوعاً من جنون الربيع .

ألقى راسكولنيكوف على أخته نظرة منتبهة . ولكن كان يبدو عليه أنه لم يفهم كلامها ولا سمعه . ثم نهض وهو ما يزال شارد الفكر ، فمضى الى أمه ، فقبَّلها ، وعاد يجلس في مكانه .

سألته بولشيريا الكسندروفنا مضطربةً أشد الاضطراب :

ـ أما زلت تحبها ؟

ـ هي ؟ ما زلت أحبها ؟ آ ... نعم ... أنت تتكلمين عنها ... لا ... ذلك كله قد أصبح الآن عالماً آخر ... انقضى زمان طويل ... انقضى زمان طويل ... لا هذا فحسب ... بل ان كل ما يجري حولي الآن فكأنه يجري في عالم آخر ...

قال راسكولنيكوف ذلك ، ونظر اليهم بانتباه ثم أردف يقول :

ـ اليكم هذا المثال : أنا أنظر اليكم الآن ، فكأنكم على مسافة ألف فرسخ مني ... ولكن لماذا نتكلم عن هذه الأشياء ؟ ثم لماذا تسألونني ؟

(أضاف ذلك غاضباً ، وصمت ، وأخذ يقضم أظافره ، وغاب فى أحلامه من جديد) •

وقطعت بولشيريا ألكسندروفنا هذا الصمت الأليم ، اذ قالت فجأة :

ـ ما أردأ مسكنك يا روديا ! أنا على يقين من أن مسكنك هذا هو نصف أسباب كآبتك !

فقال راسكولنيكوف ذاهل الهيئة :

ـ المسكن ••• نعم ••• لا بد أن لمسكنى هذا دخلاً فى الأمر •• أنا أيضاً خطر ببالى هذا •

ثم أضاف يقول فجأةً وهو يضحك ضحكة غريبة :

ـ ولكن ليتك تعلمين عن أية فكرة غريبة عبَّرتِ أنت الآن يا أمى !

كان راسكولنيكوف يحس أن هذا الاجتماع ، وهذه الأم وهذه الأخت اللتين يراهما بعد فراق دام ثلاث سنين ، وهذه اللهجة الحميمة فى الحديث ، بينما هو عاجز عن أن يقول كل شىء ، كان راسكولنيكوف يحس أن هذا كله يوشك أن يصبح أمراً لا يطاق اطلاقاً • غير أن هناك مسألةً لا تحتمل مناقشتها ارجاءً ، مسألةً كان قد قرر منذ صحا من نومه أن يحلَّها فى هذا اليوم نفسه بطريقة أو بأخرى • وها هو ذا يحس الآن أن فى وسعه أن يتخذها وسيلةً للخروج مما هو فيه من ضيق وكرب ، فيرتاح لذلك بعض الارتياح •

بدأ كلامه فقال بلهجة خشنة قاسية :

ـ اسمعى يا دونيا • أنا طبعاً استغفرك عمَّا جرى أمس ، ولكننى أرى أن من واجبى أن أذكِّرك باننى ما زلت مصراً على الشىء الأساسى من أقوالى • اما أنا واما لوجين • قد أكون أنا أسوأ الناس طراً ، ولكن

ماينبغى أن تكونى أنت كذلك. يكفى أن يكون أحدنا سيئاً. اذا تزوجت لوجين ، فلن أعدَّك اختى .

صاحت بولشيريا ألكسندروفنا تقول بحرارة :

ـ روديا ، روديا ! ها نحن اذن نعود الى ما كنا فيه بالأمس ! لماذا تعد نفسك « أسوأ الناس طراً » ؟ أنا لا أستطيع أن أحتمل هذا . أمس أيضاً كان هذا نفسه ...

وأجابت دونيا تقول بلهجة جازمة ، خشنة كلهجته :

ـ هذا ناشىء عن خطأ ترتكبه يا أخى . لقد فكَّرت هذه الليلة ، فاكتشفت قوام خطئك . ان كل شىء ناشىء ، فيما يبدو لى ، عن تصورك أننى أضحِّى فى سبيل أحد . وهذا ليس صحيحاً البتة . فأنا انما اتزوج تحقيقاً لمصلحتى الخاصة ، لأن حياتى صعبة . طبعاً ... اذا استطعت فى المستقبل أن أنفع أهلى ... فسوف يسعدنى ذلك ، ولكن السبب الرئيسى للقرار الذى اتخذته ليس هو هذا ...

قال راسكولنيكوف لنفسه وهو يقضم أظافره حانقاً : « انها تكذب ! يا للمتعجرفة ! انها لا تريد أن تعترف بأنها تحلم أن تكون محسنة . آه من هذه الطبائع ! حتى حين يحبون ، فكأنهم يكرهون . آه .. لشد ما أكرههم جميعاً ! » .

وتابعت دونيا تقول :

ـ باختصار : أنا أتزوج بطرس بتروفتش لأننى أختار أهون الشرين . واذ اننى قررت أن أنفِّذ كل ما ينتظره منى ، بأمانة واستقامة وشرف ، فاننى أعتقد أننى لا أخدعه ... لماذا تبتسم ؟

سألها راسكولنيكوف بلهجة مسمومة :

ـ ستنفذين كل شيء ؟

ـ الى حد ما • وان الطريقة التي اتبعها بطرس بتروفتش في خطبتي قد أفهمتني على الفور ما ينتظره مني • صحيح أن رأيه في نفسه عال كثيراً ، ولكنني آمل أن يقدرني أيضاً ••• لماذا تضحك من جديد ؟

ـ وأنت لماذا تحمرين من جديد ؟ انك تكذبين يا أختي ، تكذبين عامدة ، بعناد امرأة ، حتى لا تتراجعي أمامي • أنت لا يمكن أن تحترمي لوجين : لقد رأيته وتحدثت معه • اذن أنت تبيعين نفسك بالمال • اذن أنت تتصرفين تصرفاً دنيئاً على كل حال • وانه ليسعدني ، انه ليسعدني كثيراً ، أن تكوني على الأقل قادرة على أن تحمري خجلاً •

صاحت دونيا تقول وقد فقدت كل هدوئها :

ـ هذا غير صحيح • أنا لا أكذب ! لن أتزوجه دون أن أقتنع بأنه يقدرني حق قدري ، وأنه يحرص علي • لن أتزوجه دون أن أقتنع اقتناعاً جازماً بأنني أستطيع أن أقدره • ومن حسن الحظ أن في وسعي أن أقتنع بهذا على وجه اليقين في هذا اليوم نفسه • ليس هذا الزواج دناءة على نحو ما تصف • وهبك على صواب ، وهبني قررت أن أرتكب عملاً دنيئاً ، أفلا تكون أنت قاسياً حين تقول لي هذا الكلام الذي تقول ؟ لماذا تتطلب مني بطولة تعجز عنها أنت نفسك ؟ هذا ظلم واستبداد ، هذا عنف وطغيان ! اذا كنت أشقي أحداً ، فانما أشقي نفسي ! أنا لم أذبح أحداً بعد ••• لماذا تنظر الي هكذا ؟ لماذا اصفر وجهك هذا الاصفرار فجأة ؟ روديا ، ماذا بك ؟ روديا ، عزيزي •••

صاحت بولشيريا الكسندروفنا :

ـ رباه ! لقد بلغت من تعذيبه أنه سيغمى عليه !

ـ لا ، لا ، لم يحدث شيء ، انتهى كل شيء • كل ما حدث هو أنني أحسست بشيء من دوار ••• ولكن لم يغم علي • انكم تظنون كل

شيء اغماءً • ماذا كنت أريد أن أقول ؟ نعم : بأية وسيلة ستقتنعين ، في هذا اليوم نفسه ، بأنك تستطيعين احترامه ، وبأنه يقدرك ؟ ذلك هو ما قلته ، أليس كذلك ؟ يخيل اليّ أنك قلت : « في هذا اليوم نفسه » ، أم تراني سمعت خطأً ؟

قالت دونيا :

ــ ماما ، أطلعي أخي على رسالة بطرس بتروفتش •

فمدَّت بولشيريا الكسندروفنا الرسالة اليه ، مرتعشةً اليدين • فتناولها باهتمام شديد واستطلاع قوي ، ولكنه قبل أن يفضَّها نظر الى دونيا مدهوشاً • وقال ببطء ، كأنما وافته فكرة جديدة :

ــ غريب جداً أنني ثرت هذه الثورة كلها من أجل ••• لماذا هذا الاضطراب كله ؟ تزوجي من تشائين •••

قال هذا كمن يحدث نفسه ، ولكنه كان يتكلم بصوت عالٍ ، وظل برهةً من الوقت ينظر الى أخته مرتبكاً •

وفضَّ الرسالة أخيراً وهو ما يزال على ما هو عليه من دهشة لا تعليل لها • ثم أخذ يقرأ الرسالة ببطء وانتباه •

أعاد قراءة الرسالة مرتين • وكانت بولشيريا الكسندروفنا قلقة الى أبعد حدود القلق • وكان الجميع ، من جهة أخرى ، يتوقعون انفجاراً •

بدأ راسكولنيكوف كلامه بعد لحظة من تأمل ، فقال وهو يرد الرسالة الى أمه ، ولكن دون أن يخاطب أحداً بعينه :

ــ غريب • هو محامٍ • وله زبائن ، وحتى حديثه لا يخلو من••• حذلقة • ومع ذلك يحس المرء حين يقرؤه أنه ليس على شيء من تعليم أو ثقافة •

حدثت حركة شاملة : لقد كانوا يتوقعون شيئاً آخر غير هذا تماماً •

قال رازوميخين بلهجة قاطعة :

ـ ولكنهم جميعاً يكتبون هكذا ؟

ـ هل قرأت هذه الرسالة ؟

ـ نعم •

قالت بولشيريا الكسندروفنا مضطربة :

ـ أطلعناه عليها يا روديا ، و ••• سألناه ••• النصح ••• منذ برهه •••

فقاطعها رازوميخين يقول :

ـ هذا أسلوب القضاء لا أكثر ••• ان جميع الأوراق القضائية تُحرَّر الآن بهذا الأسلوب !

ـ القضاء ؟ نعم ••• صحيح !••• ذلك أن أسلوب هذه الرسالة ليس أسلوب رجل محروم من أى حظ من ثقافة ، ولكنه فى الوقت نفسه ليس أسلوباً أدبياً • ان اسلوبه هو كما قلت يا رازوميخين أسلوب رجل من رجال الأعمال •

قالت آفدوتيا رومانوفنا وقد أزعجتها لهجة أخيها من جديد :

ـ ان بطرس بتروفتش لا يخفى أن تعليمه كان متواضعاً ؟ بل انه ليعتز بأنه عصامى شق طريقه بنفسه •

ـ اذا كان يعتز فلا شك أن هناك ما يدعوه الى الاعتزاز ! أعتقد أنك انزعجت يا أختى لأننى لم أخرج من هذه الرسالة كلها الا بهذه الملاحظة التافهة ؟ وأنت تظنين أننى تعمدت أن اتشبث بهذه السفاسف لأسخر منك • والحق عن ذلك بعيد : ففى صدد موضوع الأسلوب هذا، انما خطرت ببالى ملاحظة تبدو لى فى هذه الحالة ذات شأن • لقد ورد

فى الرسـالة تعبير يقول : « لن يكون لكم عنـدئذ أن تلوموا أحـداً الا أنفسكم » ، وهو تعبير ذو دلالة بليغـة فى ذاته ، عدا أنه يشـتمل على تهديد : لقد قرر لوجين أن ينصرف فوراً اذا أنا حضرت . فهذا التهديد بالانصراف معنـاه أنه سيترككما اذا أنتما لم تطاوعاه ، مع أنه هو الذى حملكما على المجىء الى بطرسبرج . فما رأيك ؟ هل يمكن أن تسـوغك هذه الكلمـات حين يكتبها لوجين مثلما يمكن أن تسوغك لو كتبها هذا (قال ذلك وهو يومىء الى رازوميخين) أو كتبها زوسـيموف أو كتبها أى واحد منا ؟

قالت دونيتشكا متحمسة :

ـ لا ... لا ! ... لقد أدركت حق الادراك أن فى أسلوبه سذاجة شديدة ، وأنه قد لا يكون حاذقاً كل الحـذق فى اسـتعمال قلمـه . ان ملاحظتك سديدة جداً يا أخى ، حتى اننى لم أكن أتوقع أن ...

ـ نعم ، هذا هو طابع الأسلوب القضـائى ، وبالأسلوب القضـائى لا يمكن أن يكتب المرء غير هذا . ولعل لوجين كان فيما كتبه فظاً أكثر مما أراد . ومع ذلك أريد أن أخيِّب ظنك قليلاً : ان فى هذه الرسـالة نفسـها تعبيراً آخر هو نميمة فى حقى ، نميمـة خسيسـة . لئن وهبت بالأمس مالاً لأرملة مصدورة يائسة ، فاننى لم أفعل ذلك « بحجة » دفع نفقات الجنازة ، بل لدفع نفقات الجنازة فعلاً . ثم اننى وضعت هذا المال لا فى يد الفتاة أو فى يد « البنت المعروفة بسوء السمعة » على حد تعبيره ، وانما وضعت المال فى يد الأرملة نفسها . اننى أرى فى كلامه هذا رغبة شديدة جامحة فى تلطيخ صفحتى ، وفى احداث شقاق بينى وبينكم . هنا يكشف الأسلوب القضائى عن نيات صاحبه بوضوح ، ويدل على تسرع فيه شىء من سـذاجة . ان الرجل ذكى ، ولكن لا يكفى أن يكون المرء ذكياً حتى يتصرف بذكاء . هذا كله يطلعك على حقيقته . ثم اننى ...

لا أعتقـد أنه يحترمك كثيراً . لا أقول لك هذا الا لتحيطى علمـاً ... ذلك أننى أتمنى لك الخير صادقاً كل الصدق .

لم تجب دونيـا . كانت قد اتخـذت قرارها منذ مدة ، فهى تنتظر حلول المساء .

سألت بولشيريا الكسـندروفنا ابنها ، وقد اشـتد قلقها بسبب طابع «الأعمال» هذا الذي ساد الحديث :

ـ فماذا قررت يا روديا ؟

ـ ماذا تعنين بقولك « ماذا قررت » ؟

ـ ان ... بطرس بتروفتش يطلب في رسالته أن لا تجيء الينـا هذا المساء ، وانه سينصرف اذا أنت جئت . فهل ... تجيء ؟

ـ لست أنا من يجب أن يقرر . وانمـا ينبغى أولاً أن تعرفا هل يسوؤكما طلب بطرس بتروفتش أم لا ؛ وينبغى ثانياً أن تعرف دونيا هل فى هذا الطلب اهانة لها أم لا .

وأضاف راسكولنيكوف يقول بخشونة :

ـ أما أنا فسأفعل ما يناسبكما كلتيكما .

أسرعت بولشيريا الكسندروفنا تجيب :

ـ لقد اتخذت دونيتشـكا قرارها وانتهى الأمر ؛ وأنا أوافقهـا كل الموافقة .

قالت دونيا :

ـ نعم ، لقـد قررت يا روديا ... قررت أن أطلب منك ، ملحةً مصرةً ، أن تحضر الاجتماع عندنا هذا المساء . هل تجيء ؟

ـ سأجيء .

والتفتت دونيا الى رازوميخين فقالت له :

ـ وأنت أيضاً ... أرجوك أن تكون عندنا في الساعة الثامنة . يا أمي ، انني أدعوه أيضاً .

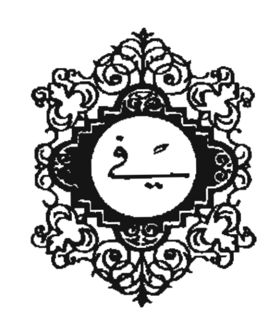
قالت بولشيريا الكسندروفنا :

ـ هذا حسن جداً يا دونيا .

ثم أضافت :

ـ ليكن ما تقررين . ثم انني أنا نفسي أوثر هذا . انني لا أحب أن أتظاهر وأن أكذب . نعم ، الأفضل أن نقول الحقيقة جميعاً ... اغضب أو لا تغضب يا بطرس بتروفتش !

الفصل الرابع



في تلك اللحظة فُتح الباب برفق ، ودخلت الغرفة فتاةٌ تلقى على ما حولها نظرات وجلى . فالتفت الجميع نحوها مدهوشين مستطلعين . ولم يتعرفها راسكولنيكوف فى الوهلة الأولى . انها صوفيا سيميونوفنا مارميلادوفا . كان قد رآها أمس أول مرة ، ولكنه رآها فى لحظة خاصة وظروف خاصة ، ورآها مرتديةً ثياباً خاصة ، فكانت صورتها المنقوشة في ذاكرته صورة انسانة أخرى غير هذه التى يراها الآن . هى فتاة بسيطة الملبس بل فقيرة الملبس ، تبدو فى ميعة الصبا حتى لكأنها بنية صغيرة ، متحفظة الحركات محتشمة ، نقية الوجه على شىء من خوف ووجل ، ترتدى ثوباً بسيطاً مما يُلبس كل يوم ، وتضع على رأسها قبعة بالية الزى ، ولكنها تحمل بيدها شمسية كالأمس .

فلما رأت ، على دهشة شديدة منها ، أن الغرفة تغصُّ بالناس ، لم تضطرب فحسب ، بل فقدت كذلك كل سيطرة لها على نفسها ، وتحركت تهمُّ أن تنسحب .

قال راسكولنيكوف وقد بلغ ذروة الدهشة :

ــ آ ... أهذا أنت ؟

وفقد هو أيضاً كل سيطرة له على نفسه .

وسرعان ما تذكرَّ أن رسالة لوجين قد أخبرت أمه وأخته بوجود

هذه الآنسة « المعروفة بسوء السمعة لدى جميع الناس » . وقد احتج هو منذ قليل على نمائم لوجين معلناً أنه رأى هذه الفتاة أول مرة مساء أمس ، وها هي ذي تدخل عليه الآن بشخصها فجأة . وتذكَّر أيضاً أنه لم يحتج أي احتجاج على ما ورد في رسالة لوجين من أن « البنت معروفة بسوء السمعة » .

ومض ذلك كله في ذهنه مضطرباً مبهماً بسرعة كسرعة البرق . ولكنه حين تأمل القادمة بانتباه أكبر ، رأى أنها مخلوقة مسكينة مُذلَّة ، مُذلَّة الى حدٍ كبير فلم يلبث أن أخذته بها شفقة . فلما تحركت تهمُّ من رعبها أن تهرب ، كان هو قد شعر باضطراب ، فأسرع يقول لها وهو يستوقفها بنظره :

ـ لم أكن أتوقع مجيئك البتة . هلاَّ سررتني فجلست . لا شك أنك آتية من قِبَل كاترين ايفانوفنا . من فضلك . لا ، ليس هنا . بل هنا . اجلسي هنا .

حين دخلت صونيا ، كان رازوميخين جالساً على أحد الكراسي الثلاثة التي تضمها غرفة راسكولنيكوف ، فنهض ليفسح لها مجال المرور. وقد دلَّها راسكولنيكوف في أول الأمر على مكان في طرف الديوان هو المكان الذي كان يشغله زوسيموف منذ برهة . لكنه وقد تذكر أن الجلوس على الديوان ينم على رفع الكلفة ، وأنه يتخذ الديوان سريراً له ، أسرع يدلُّها على كرسي رازوميخين. وقال لرازوميخين وهو يجلسه على طرف الديوان الذي كان يجلس عليه زوسيموف :

ـ وأنت ، اجلس هنا .

جلست صونيا وهي تكاد ترتعش ، ونظرت الى السيدتين خجلةً وجلة . كان واضحاً أنها لا تفهم هي نفسها كيف تجرأت أن تجلس الى

جانبهما . وقد بلغت من الارتياع حين تصورت ذلك أنها نهضت على حين فجأة مضطربة أشد الاضطراب ، وتأتأت تقول متجهة بكلامها الى راسكولنيكوف :

ـ أنا ... أنا ما جئت الا لدقيقة واحدة ... اغفر لى ازعاجك . ان كاترين ايفانوفنا هى التى أوفدتنى اليك ... لأنها لم تجد أحداً غيرى يمكنها أن توفده . طلبت منى كاترين ايفانوفنا أن أرجوك ملحة ... أن تحضر غداً قداس الجنازة ... صباحاً ... بعد الصلاة ... فى مقبرة سان ميتروفان * ... وأن تجىء بعد ذلك الينا ... اليها ... لتصيب شيئاً من طعام ... هى ترجوك أن تهب لها هذا الشرف . نعم ، كلفتنى بأن أسألك هذا ...

قالت صونيا ذلك ، واشتد ارتباكها فصمتت .

نهض راسكولنيكوف هو أيضاً ، واضطرب هو أيضاً، وقال يجيبها:

ـ سأحاول أن أجىء حتماً ... حتماً ...

ثم أردف يقول لها فجأة :

ـ هلاّ سررتنى فجلست . ان لى حديثاً معك . أرجوك . أأنت مستعجلة ؟ ولكن أرجوك ، هبى لى دقيقتين !

قال ذلك وقرّب لها الكرسى . جلست صونيا . وعادت تلقى على السيدتين نظرة خجلة وجلة ، ثم خفضت عينيها فجأة .

احمر وجه راسكولنيكوف الشاحب ، وتقبضت قسماته ، وقدحت عيناه شرراً ، وقال بلهجة قاطعة ملحة :

ـ يا أمى ، هذه صوفيا سيميونوفنا مارميلادوفا ، ابنة ذلك المسكين مارميلادوف الذى داسته الخيل مساء أمس على مرأى منى ، والذى سبق أن حدثتكم عنه .

ألقت بولشيريا الكسندروفنا نظرةً على صونيا وهي تطرف بعينيها قليلاً . انها لم تستطع ، رغم الخشية التي توقظها فيها نظرة ابنها الثابتة المتحدية ، أن تمنع عن نفسها هذه المتعة . أما دونيا فقد حدّقت الى وجه الفتاة في جد واصرار ، وأخذت تدرسها بعناية واهتمام . وقد أرادت صونيا ، حين سمعت التعريف بها ، أن ترفع عينيها ، ولكنها اضطربت مزيداً من الاضطراب .

وأسرع راسكولنيكوف يقول لها :

ـ وددت أن أعرف كيف جرت الأمور عندكم اليوم . ألم تلقوا مضايقات ؟ من جهة الشرطة مثلاً ؟

فأجابت الفتاة :

ـ لا ... جرى كل شيء مجرى عادياً . كان لا يمكن أن يشك أحد في سبب الوفاة . لم يزعجونا . ولكن السكان غاضبون علينا .

ـ لماذا ؟

ـ لأن الجثمان بقي مدة طويلة ... والجو الآن حار ، والرائحة.. لذلك سينقل الجثمان اليوم الى المقبرة ، عند صلاة الغروب ، فيوضع في الكنيسة الى الغد . كانت كاترين ايفانوفنا لا تريد ذلك في أول الأمر ، لكنها تدرك الآن أن ليس هناك وسيلة أخرى ...

ـ اذن اليوم ؟

ـ لا بل هي ترجوك أن تشرفنا بحضور صلاة الجنازة غداً ... في الكنيسة ... وبأن تأتي غداً الينا للمشاركة في الوليمة .

ـ أهي تقيم وليمة ؟

ـ نعم ، وليمة جنازة . وقد كلفتني بأن أشكر لك المساعدة التي تفضلت علينا بها أمس . فلولاك لما ملكنا ما ننفقه على الدفن .

وأخذت شفتا الفتاة وذقنها تختلج فجأة ، ولكنها كابرت وتجلدت فاستطاعت أن تسيطر على نفسها ، ثم أغضت طرفها من جديد .

تفحصها راسكولنيكوف أثناء الحديث تفحصاً دقيقاً . ان لها وجهاً صغيراً بائساً ، شديد الهزال والنحول ، شاحب اللون ، ليس فى قسماته اتساق كثير ، متكسّر الخطوط ، صغير الأنف مقرّنه . حتى ليصعب أن يقال انها جميلة . ولكن لها فى مقابل ذلك عينين زرقاوين تبلغان من الصفاء وتبلغان من قوة التعبير حين تتقدان أن وجهها يكتسى عندئذ طيبة وبراءة لا يملك المرء ازاءهما الا أن ينجذب اليها . هذا الى أن لوجه صونيا ، ولسائر شخصها ، صفة خاصة تميزها هى أنها ، على كونها فى الثامنة عشرة من عمرها ، تبدو أصغر سناً من ذلك بكثير ، حتى ليكاد يحسبها المرء طفلة . وكان هذا يتجلى أحياناً فى بعض حركاتها ، فيكاد يبعث على الضحك .

سألها راسكولنيكوف وكان يواصل الحديث بالحاح :

ـ ولكن كيف استطاعت كاترين ايفانوفنا أن تدبر أمورها بمثل ذلك المبلغ الضئيل من المال ، حتى لتولم وليمة ؟

ـ سيكون التابوت بسيطاً جداً ... وسيكون كل شىء بسيطاً ... فلا تكون النفقات باهظة ... لقد أجرينا الحساب منذ قليل مع كاترين ايفانوفنا ، فلاحظنا أن سيبقى لنا من المال ما نولم به وليمة ... لأن كاترين ايفانوفنا تحرص على هذا أشد الحرص . ليس فى الامكان أن لا ... ان فى هذا عزاء لها . هذه طبيعتها ، هى هكذا ...

ـ مفهوم ، مفهوم ... لماذا تتفحصين غرفتى ؟ أمى أيضاً تقول ان غرفتى أشبه بقبر .

قالت صونيا تجيبه بنوع من همس قوى سريع ، وهى تخفض عينيها من جديد :

ـ أنت أعطيتنا كل ما كنت تملك •••

وعادت شفتاها وذقنها تختلج •

كانت قد لاحظت منذ برهة طويلة ما يسود غرفة راسكولنيكوف من فقر شديد ، فأفلتت هذه الكلمات منها الآن على غير ارادة أو شعور تقريباً • وخيَّم بعد ذلك صمت • وأضاءت عينا دونيا • وحتى بولشيريا ألكسندروفنا نظرت الى الفتاة فى رضى وبشاشة • ثم قالت وهى تنهض :

ـ نحن ذاهبتان الآن ، أنا ودونيا ، الى الغداء ، يا روديا • هلمِّى يا دونيا • أما أنت يا روديا فعليك أن تقوم بنزهة قصيرة، ثم تستريح : تستلقى قليلاً ، وتجىء الينا بعد ذلك• أخشى أن نكون قد أتعبناك كثيراً•

أجاب راسكولنيكوف وهو ينهض متعجلاً :

ـ نعم نعم ، سأجىء • ثم ان هناك أعمالاً يجب أن أقوم بها •

صاح رازوميخين يقول مدهوشاً وهو ينظر الى راسكولنيكوف :

ـ أصحيح أنكم لن تتغدوا معاً ؟ ما هذا الذى تقوله ؟

ـ نعم نعم ، سأجىء • أما أنت يا رازوميخين ، فابق دقيقةً أخرى• لستما فى حاجة اليه على الفور يا أمى ، أليس كذلك ؟ ألست أحرمكما من •••

ـ لا ، لا ! ••• وأنت يا دمترى بروكوفتش ، هل تصحبنا الى الغداء ؟ هل تتفضل فتقبل أن تصحبنا الى الغداء ؟

وثنَّت دونيا على طلب أمها فقالت هى أيضاً :

ـ أرجوك ، تعال •••

انحنى رازوميخين وقد أشرق وجهه فرحاً • ثم لم تنقض لحظة قصيرة حتى شعر الجميع بنوع من الضيق والحرج •

ـ وداعاً يا روديا ، بل الى اللقاء ... أنا لا أحب أن أقول وداعاً ! وداعاً يا ناستاسيا ... هوه ! هأناذا أعود فأقول وداعاً !...

ودَّت بولشيريا ألكسندروفنا لو تحيي صونيا أيضاً ، ولكنها لم تفلح في ذلك ، فأسرعت تخرج من الغرفة .

ولكن آفدوتيا رومانوفنا ، حين مرَّت أمام صونيا ، حيتها تحيةً فيها كياسة ، بل فيها مودة أيضاً . فاضطربت صونيا ، وأحنت رأسها متعجلةً وجلةً ، بينما طاف بقسمات وجهها تعبير أليم ، كأن ما أظهرته لها آفدوتيا رومانوفنا من أدب ولطف قد شق على لنفسها حتى ليكاد لا يطاق .

هتف راسكولنيكوف يقول لأخته وقد خرج في اثرها الى فسحة السلم :

ـ استودعك الله يا دونيا ! هلاَّ صافحتني !

فأجابته دونيا وهي تلتفت اليه بحركة خرقاء فيها عطف وحب :

ـ ولكنني صافحتك ، هل نسيت ؟

ـ أي ضير في أن تصافحيني مرة أخرى ؟

وتناول يدها ، وشدَّ على أصابعها شداً قوياً ، فابتسمت له دونيا ، واحمرَّت ، وسحبت يدها بسرعة ، وهرعت تلحق بأمِّها سعيدة كل السعادة لا تدري لماذا !

قال راسكولنيكوف وهو يعود الى الغرفة ويلقي على صونيا نظرة صافية مضيئة :

ـ عظيم ! اللهم اجعل الموتى في سلام ، وأبق الأحياء على قيد الحياة . أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ هو كذلك ، هه ؟

كانت صونيا تنظر مدهوشة الى وجهه الذي استردَّ هدوءه على حين

فجأة • وكان هو يتفرس فيها بانتباه صامتاً • ثم لم تلبث قصة أبيها أن عادت الى ذاكرته بغتةً •

***

بدأت بولشيريا الكسندروفنا تتكلم ، منذ صارتا في الشارع ، فقالت تخاطب ابنتها :

ـ رباه ! دونيتشكا ! انني أشعر بارتياح عظيم لأننا خرجنا من عنده ! نعم ، انني أحس كأن حملاً قد أزيح عن صدري • لو قال لي قائل بالأمس ، في القطار ، أن ترك ابني سيسرني ، فهل كنت أصدق ؟

ـ أكرر لك يا أمي أنه ما يزال مريضاً جداً • هل يمكن أن لا تكوني قد لاحظت ذلك ؟ لعل حزنه الناشيء عن أنه يعيش بعيداً عنا هو الذي جعله في هذه الحالة • يجب على الانسان أن يكون متسامحاً ، فيمكنه عندئذ أن يغفر أموراً كثيرة ، كثيرة جداً •

فأجابتها بولشيريا ألكسندروفنا بلهجة حادة ساخطة :

ـ وهل كنت أنت متسامحة ؟ اسمعي يا دونيا : لقد أنعمت النظر اليكما ، فهل تعرفين ماذا لاحظت ؟ لاحظت أنك صورته تماماً ، تشبهينه جسماً وروحاً ، بل وتشبهينه روحاً أكثر مما تشبهينه جسماً • كلاكما مكتئب المزاج ؛ كلاكما متجهم النفس ، مندفع الطبع ؛ كلاكما متكبر متعال وسخي كريم • أليس كذلك يا دونيتشكا ؟ يستحيل أن يكون أنانياً يا دونيتشكا ، أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ آه ••• حين أفكر فيما سيحدث عندنا هذا المساء ، يتجمد قلبي !

ـ لا تقلقي ياماما ! لن يحدث الا ما يجب أن يحدث •

ـ ولكن هلاً فكرت يا دونيتشكا في الظرف الذي نحن فيه ؟ ماذا لو رجع بطرس بتروفتش عن وعده ؟

هذا ما أفلت من لسان بولشيريا ألكسندروفنا المسكينة بغير حذر أو تبصر . فأجابتها دونيا بلهجة جافة تنم على الاحتقار :

ـ ليكن ! ان ذلك لن يشرّفه كثيراً !

فأسرعت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

ـ لقد أحسنا صنعاً اذ تركنا روديا . كان يستعجل الخروج لأمر ملح . بهذا يُتاح له أن يتحرك قليلاً ، وأن يستنشق هواء نقياً . الجو خانق في غرفته ! ولكن أين يمكن أن يتنفس الانسان في هذه المدينة ؟ حتى في عرض الشارع يحس المرء أنه في غرفة بلا نوافذ ! رباه ! يا لها من مدينة !... انتبهي ... ابتعدي ... كادوا يدوسونك ! هذا بيانو محمول ! آه ... ما أكثر ما يُصدم المرء هنا !... أنا خائفة أيضاً من تلك البنت !...

ـ أية بنت ؟

ـ صوفيا سيميونوفنا تلك التي كانت ...

ـ لماذا أنت خائفة منها ؟

ـ عندي مايشبه الاحساس يا دونيا بأن... صدقيني أو لا تصدقيني ... ولكنني منذ أن دخلت ، قلت لنفسي ، في تلك الدقيقة نفسها ، ان كل شيء ربما كان مردّه الى هذا ...

هتفت دونيا تقول غاضبةً :

ـ لا شيء مردّه الى هذا ... عجيبة أنت واحساساتك ياماما !... انه لا يعرفها الا منذ أمس ... حتى انه لم يتعرفها حين دخلت !

ـ سوف ترين ! ... لئن كانت تقلقني ... سوف ترين ... سوف ترين ! ... آه ... ما أشد ما أشعر به من خوف ! كانت تنظر اليّ ، كانت تنظر اليّ بعينين ... بعينين لا أدرى ماذا أقول فيهما ...

حتى لقد كنت من نظراتها لا أكاد أستطيع المكوث فى مكانى ... هل تتذكرين طريقته فى تقديمها الينا وتعريفنا بها ؟ ان الأمر الذى يبدو لى غريباً عجيباً هو أن يقول عنها بطرس بتروفتش ذلك الكلام ، ثم اذا بروديا يقدمها الينا ، ويقدمها اليك أنت خاصةً ! ذلك دليل أنها عزيزة لديه .

ـ ما أكثر ما يكتبه الناس ! ألم يكتبوا عنا نحن أيضاً أشياء كثيرة؟ ألم يقولوا عنا نحن أيضاً أشياء كثيرة ؟ أتراك نسيت ذلك ؟ أما أنا ... فاننى واثقة بأنها انسانة ... محترمة ... وأن كل ما قيل عنها ليس الا افتراء ...

ـ اسأل الله أن يكون هذا صحيحاً !

ـ أما بطرس بتروفتش فليس الا نماماً دنيئاً .

كذلك قالت دونيتشكا بلهجة قاطعة على حين فجأة !

فخفضت بولشيريا ألكسندروفنا عينيها ، وانقطع الحديث .

❋ ❋ ❋

قال راسكولنيكوف وهو يقود رازوميخين نحو النافذة :

ـ اليك الأمر الذى أريد أن أحدثك فيه ...

فقالت صونيا متعجلةً وهى تحيى لتنصرف :

ـ أستطيع اذن أن أقول لكاترين ايفانوفنا انك ستجىء ؟

ـ لحظةً يا صوفيا سيميونوفنا . ليس هناك أسرار . انك لا تضايقيننا البتة ... وأنا أريد أن أقول لك كلمتين أيضاً ...

قال ذلك ثم التفت الى رازوميخين قبل أن يتم جملته ، فواصل كلامه له قائلاً :

ـ اليك الأمر ••• أنت تعرف ذلك الرجـل الذى يسـمى ••• ما اسمه ؟ نعم ••• بورفير بتروفتش ••• أنت تعرفه ، أليس كذلك ؟

ـ أعرفه • نحن قريبان !

ثم أردف يسأل باستطلاع قوى :

ـ ولكن لماذا هذا السؤال ؟

ـ أليس هو للذى يحقق فى القضية ، قضية مقتل العجوز ؟ ألم تقل أمس انه هو الذى يحقق فيها ؟

حمق رازوميخين فجأة وسأل :

ـ طيب وماذا ؟

ـ لقد استجوب أولئك الذين لهم أشياء مرهونة ، وأنا لى أشـياء مرهونة هناك ••• أشياء صغيرة على كل حال : خاتم أعطتنيه أختى تذكاراً عند سفرى الى بطرسبرج ، وسـاعة أبى الذهبيـة • والرهنـان كلاهما لا يساويان أكثر من خمسة روبلات أو سـتة ، لكنهما تذكاران ، وأنا أحـرص عليهما • فما الذى يجب علىَّ أن أفعله الآن ؟ لا أريد لهذين الشيئين أن يضيعا ، ولا سيما الساعة • فمنذ قليل ، حين تكلمنا عن ساعة أختى ، ارتجفت أنا خوفاً من أن تسألنى أمى أن ترى ساعتى • ان هذه الساعة هى الشىء الوحيد الذى بقى لها من أبى ! فاذا ضاعت هذه الساعة كان يمكن أن تمـرض من ذلك أمى • هـكذا هنَّ النســاء ! فأنا أنتظر منك نصيحة • أنا أعلم أنه سـيكون من الواجب أن أدلى بافادة فى قسم الشرطة ، ولكن أليس الأفضل أن تتجه الى بورفير نفسه ؟ ما رأيك ؟ اننى أود أن أسـوِّى هذا الأمر بأقصى سرعـة • لسـوف ترى أن أمى ستسأل عن هذه الساعة حتى قبل الغداء !

هتف رازوميخين يقول مضطرباً أشد الاضطراب :

ـ أنت على صواب : لا فائدة من الذهاب الى الشرطة • الأفضل أن نتجه الى بورفير • آه ••• أنا مسرور ! نستطيع أن نمضى اليه فوراً • هو على مسافة خطوتين • وسنجده حتماً •

ـ اذن هلمَّ بنا اليه !

ـ وسيسرُّه أن يتعرف اليك ! لقد حدثته كثيراً عنك ، عدة مرات • أمس أيضاً حدثته عنك • هلمَّ نذهب اليه • اذن كنت تعرف العجوز ؟ هذا هو الأمر ! هذا هو الأمر ! ان كل شيء يترابط ترابطاً را ••• نعاً ! آ ••• نعم ••• يا صوفيا ايفانوفنا ••

ـ يا صوفيا سيميونوفنا (هكذا صحَّح راسكولنيكوف) ••• هذا الرجل هو صديقى رازوميخين ، وهو رجل طيب ••

قالت صونيا دون أن تنظر الى رازوميخين ، قالت مضطربة خجلة :

ـ اذا كان عليكما أن تخرجا الآن •••

فقال راسكولنيكوف يحسم الأمر :

ـ نعم ، فلنخرج• سأجيء اليك فى هذا النهار يا صوفيا سيميونوفنا ولكن قولى لى أين تقيمين ؟

قال لها راسكولنيكوف ذلك دون ارتباك حقيقى ، ولكنه كان يتكلم بسرعة محمومة ، متحاشياً أن ينظر الى الفتاة •

ذكرت له الفتاة عنوانها واحمر وجهها • وخرجوا جميعاً •

سأله رازوميخين وهو يهبط السلَّم وراءهما :

ـ أأنت لا تغلق بابك اذن بالمفتاح ؟

فأجابه راسكولنيكوف بقوله :

ـ أبداً •

ثم أضاف يقول باهمال :

ـ على أننى أنوى منذ سنتين أن اشترى قفلاً •

ثم قال يخاطب صونيا بلهجة مرحة :

ـ ما أسعد الذين لا يملكون شيئاً يستحق أن يوصدوا عليه الأبواب بالأقفال ، أليس كذلك ؟

حتى اذا صاروا فى الخارج وبلغوا الباب الكبير ، توقفوا •

ـ أنت ذاهبةٌ يمنةً يا صوفيا سيميونوفتش ••• بالمناسبة : كيف فعلت حتى استطعت أن تعثرى على بيتى ؟

ألقى عليها هذا السؤال وكأنه كان يريد أن يقول شيئاً آخر • لقد ظل طوال الوقت يشتهى أن يتلبث ببصره على عينى الفتاة الصافيتين الهادئتين دون أن يفلح فى ذلك •

أجابته صونيا :

ـ أنت نفسك ذكرت لبوليتشكا عنوانك •

ـ ذكرته لبوليا ؟ آ ••• نعم ••• بوليتشكا ! هى الصغرى ••• هى أختك ! اذن أنا أعطيتها عنوانى ؟

ـ هل نسيت هذا ؟

ـ لا ••• الآن تذكرت •

ـ ثم اننى سمعت أبى الراحل يتحدث عنك • لكننى لم أكن أعرف اسمك••• وهو أيضاً لم يكن يعرف اسمك ••• فجئت الآن••• ولما كنت قد عرفت اسمك أمس ، سألت اليوم : « هل هنا يسكن السيد راسكولنيكوف ؟ » ••• ولم أكن أعرف أنك تقيم فى غرفة مفروشة••• أستودعك الله ••• سأقول لكاترين ايفانوفنا •••

كانت تشعر بسرور رهيب من أنها استطاعت أخيراً أن تودّع لتنصرف • وسارت خافضة العينين ، مسرعةً ، تستعجل الهروب من

نظراتهمـا وأن تقطع العشرين خطوة التى تفصلها عن ناصـية الشـارع التالية على اليمين ، وأن تبقى أخيراً وحدها فتستطيع أثناء سيرها البطيء ، دون أن تنظر الى أحد ودون أن ترى شيئاً ، أن تفكر وتتذكر وتزن فى ذهنها كل كلمة قيلت وكل أمر حدث . انها لم تشـعر طوال حياتها ، بشيء يشـبه ما تشـعر به الآن . ان عالماً جديداً كاملاً يدخل الى نفسها غامضاً مضطرباً . وتذكرت فجأة أن راسكولنيكوف يريد أن يجيء اليها فى هذا النهار ، وربما فى الصباح ، وربما على الفور .

دمدمت تقول منقبضة الصدر متضرعة كطفل خائف :

ـ لا ، لا اليوم ، أرجوك ! رباه ! أيجيء الىّ ، فى هذه الغرفة؟.. اذن سوف يرى ... رباه !

ولم يكن فى وسعها طبعاً أن تلاحظ أن سـيداً مجهولاً كان يتبعها فى تلك اللحظة . كان هذا السيد قد تبعها منذ باب العمارة الكبير ، حين توقفت هى وراسـكولنيكوف ورازوميخين على الرصيف يتبـادلون بضع كلمـات . وكان هذا السـيد المجهـول قد بدا كأنه يرتعش حين التقط عرضاً ، أثناء مروره بهم ، تلك الكلمات التى قالتها صـونيا : « سألت : هل هنا يسكن السيد راسـكولنيكوف ؟ » . فألقى على المتحادثين الثلاثة ، ولا سيما على راسكولنيكوف الذى كانت الفتـاة تتجه اليه بالكلام ، نظرة سريعة لكنها منتبهة ، ثم تفحص المنزل وحفظ رقمه . تمّ ذلك كله بمثل لمح البصر سرعةً ، ودون أن يلفت نظر أحد ، ثم ابتعد الرجل متباطيء الخطى منتظراً . ورأى صـونيا تودّع الشـابين ، فأدرك أنها ذاهبة الى مسكنها .

قال يسائل نفسه وهو يتذكر ملامح صونيا : « الى مسكنها ! ولكن أين مسـكنها ؟ لقـد رأيت هـذا الوجـه فى مكان ما ... يجب أن أستعلم ! » .

فلما وصل الى ناصية الشارع انتقل الى الرصيف المقابل ، والتفت فرأى صونيا تسير الآن فى نفس الاتجاه ، ولكن دون أن تلاحظ شيئاً • فلما وصلت هى أيضاً الى الناصية مضت فى نفس الشارع الذى مضى هو فيه • فأخذ يتبعها دون أن يحوّل عنها بصره • حتى اذا قطع نحو خمسين خطوة رجع الى الرصيف الذى كانت تسير عليه صونيا ، ولحق بها ، وأخذ يسير وراءها على مسافة خمس خطوات منها •

هو رجل فى نحو الخمسين من عمره ، أطول من وسطى الرجال ، بدين ، عريض المنكبين عالى الكتفين ، حسن الملبس أنيق الهندام ، له مظهر سيد من السادة ، يحمل عصا جميلة يقرع بها أرض الرصيف عند كل خطوة من خطواته ، ويداه موشحتان بقفازين جديدين • ان وجهه العريض لا يخلو من وسامة ، وان لبشرته نضارة لا يُرى مثلها فى سكان بطرسبرج • وان شعره أشقر زاه ، ما يزال كثيفاً ، لم يكد يشيب ؛ وان لحيته المزدهرة الكثيفة أزهى من شعر رأسه أيضاً • عيناه زرقاوان لهما بريق كبريق المعدن ، ولهما نظرة ثابتة ملحاح • وشفتاه حمراوان حمرة قوية • انه ، على وجه الاجمال ، رجل ما يزال محافظاً على نضارته ، يبدو أصغر كثيراً من سنه •

فلما وصلت صونيا الى القناة ، التقيا على الرصيف ؛ فاستطاع الرجل أن يلاحظها فرأى ما كان يعبّر عنه وجهها من ذهول وتفكير • وحين وصلت أمام العمارة التى تسكن فيها ، استدارت فدخلت الباب الكبير ، فتبعها مدهوشاً بعض الدهشة • حتى اذا بلغت فناء المنزل اتجهت يمنةً نحو الركن الذى يوجد فيه السلّم المفضى الى مسكنها • فجمجم السيد المجهول يقول لنفسه : « عجيب ! » ، وأخذ يصعد درجات السلّم وراءها • وفى تلك اللحظة انما انتبهت اليه صونيا •

صعدت صونيا حتى وصلت الى الطابق الثانى ، فسارت فى الرواق،

ثم قرعت جرس باب الشقة ٩ ، حيث يقرأ المرء على بابها هاتين الكلمتين مكتوبتين بالطباشير : « كابرناوموف ، خيّاط » . فجمجم السيد المجهول يقول من جديد : « عجيب ! » . لقد أدهشته هذه المصادفة الغريبة . وقرع هو باب الشقة المجاورة ، الشقة ٨ ، ان المسافة بين البابين لا تزيد على ست خطوات .

قال وهو ينظر الى صونيا ضاحكاً :

ـ آ ... أنت تسكنين عند كابرناوموف ! لقد أصلح لي صديرتي أمس . أنا أسكن هنا ، قريباً منك ، عند السيدة ريسليش ، السيدة جورتود كارلوفنا ريسليش .

نظرت اليه صونيا بانتباه .

وتابع هو كلامه يقول لها بلهجة فيها مرح خاص :

ـ نحن اذن جاران . أنا لا أقيم ببطرسبرج الا منذ ثلاثة أيام . لسوف يسرني أن ألقاك مرةً أخرى .

لم تجب صونيا . وفُتح الباب ، فانسلت الى بيتها . كانت وجلى ، فكأنها تشعر بخجل وعارٍ من شيء ما ...

***

كان رازوميخين مضطرباً اضطراباً شديداً في الطريق الى بورفير. وقد كرر يقول لراسكولنيكوف عدة مرات :

ـ هذه فكرة حسنة ! أنا مسرور ، مسرور جداً !

قال راسكولنيكوف لنفسه : « ولكنممَّ هو مسرور ؟ » .

وتابع رازوميخين :

ـ كنت أجهل أنك أنت أيضاً قد رهنت عند العجوز بعض الأشياء.

هل حدث ذلك منذ مدة طويلة ؟ أقصد : هل منذ مدة طويلة ذهبت اليها ؟

فقال راسكولنيكوف لنفسه : « يا للساذج ! يا للأحمق ! هل منذ مدة طويلة كنت عندها ؟ » . وتوقف لحظةً يفكر . ثم قال يجيب صاحبه :

ـ قبل موتها بثلاثة أيام ، فيما يبدو لى .

ثم أسرع يضيف بلهجة يُظهر بها اهتمامه الشديد بأشيائه المرهونة :

ـ على أننى لا أنوى استرداد أشيائى حالاً . فاننى لم يبق معى الا روبل واحد ... ومردُّ هذا الى ذلك « الهذيان » اللعين الذى اعترانى أمس !

وقد نطق كلمة « الهذيان » هذه نطقاً فيه تأكيد واصرار .

فسرعان ما قال رازوميخين مزاوداً دون أن يدرى لماذا :

ـ نعم ، نعم ... ذلك هو السبب اذن فى أنك ... فى ذلك اليوم ... آه ... لشد ما فجأنى ذلك ... انك ، أثناء هذيانك ، كنت لا تنقطع عن الكلام عن خواتم ، وعن سلاسل ، وعماً لا أدرى أيضاً ... آ ... نعم .. اتضح الآن كل شيء .. اتضحت الأمور .. أصبح كل شيء واضحاً !..

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « هكذا قامت الفكرة فى أذهانهم اذن ونمت ... ان هذا الرجل مستعد لأن يُصلب فى سبيلى ، ومع ذلك يشعر بسعادة عظيمة لأن السبب الذى جعلنى أتكلم أثناء الهذيان عن خواتم ، قد « اتضح » له الآن ! لقد ترسخت الفكرة فى أذهانهم جميعاً ! » .

ثم سأل صاحبه بصوت عالٍ :

ـ هل تعتقد أننا سنجده فى بيته ؟

فأسرع رازوميخين يجيبه قائلاً :

ـ سنجده ، سنجده ! انه شاب شهم يا صاحبى ... سوف ترى . صحيح أنه أخرق قليلاً ... وان يكن ممن يرتادون المجتمع الراقى .. على أننى أجده أخرق من ناحية أخرى ، بمعنى آخر ... انه شاب ذكى ، ذكى ، ليس بالغبى البتة ... ولكن لتفكيره مجرى غريباً بعض الغرابة . فهو كثير الشك والريب ، قوى الاشتباه والحذر ، شديد الاستخفاف والاستهتار ... يحلو له أن يضلّك ... لا أقصد أن يضلّك ، بل أن يخلق لك الأوهام ... الخلاصة : هو الأسلوب العتيق ... أسلوب الوقائع المادية ! ولكنه يجيد مهنته ... يتقنها !... فى السنة الماضية حقق فى قضية قتل كانت قد اختفت جميع آثارها . وهو يرغب كثيراً فى التعرف اليك ، يرغب فى ذلك كثيراً جداً .

ـ لماذا يرغب فى ذلك كثيراً ؟

ـ لا بسبب أن ... وانما لأننى ، فى الآونة الأخيرة ، أثناء مرضك ، اتفق لى أن حدثته عنك مراراً . فكان هو يصغى ... فلما علم أنك تدرس القانون ، وأنك لم تستطع أن تنهى دراستك بسبب الظروف ، قال : « خسارة ! ... فاستنتجت من ذلك ... أقصد ... من كافة هذه الأشياء مجتمعة ... لا من ذلك وحده ... وبالأمس ، قال زاميوتوف ... اسمع يا روديا ، أمس مساءً ، حين كنا عائدين الى بيتك معاً ، كنت أنا سكران جداً ، فلعلنى أسرفت فى الثرثرة ، فأرجو يا روديا أن لا تغلو فى حمل كلامى على محمل الجد .

ـ ماذا ؟ هم يعتقدون أننى مجنون ، أليس كذلك ؟ ولكن قد يكونون على حق .

قال راسكولنيكوف ذلك وضحك .

ـ نعم نعمْ ... لا بل !... دعكَ من هذا الكلام ! ان كل ما قلتُه (وسائر ما عداه أيضاً) ليس الا سخفاً ... ليس الا ثمرة السكر !

صرخ راسكولنيكوف بغضب نصفه تصنع وتظاهر :

ـ ولكن علام تعتـذر ؟ أوه !... ما أكثر ما تضجرني وتزعجني هذه الأمور كلها .

قال رازوميخين :

ـ أعرف ، أعرف ، أنا أفهم . ثق انني أفهم . بل ان الكلام عن هذا كله عار !

ـ اذا كان الكلام عن هذا كله عاراً ، فلنكف اذن عنه !

صمت الاثنان. كان رازوميخين مفتوناً. وقد لاحظ راسكولنيكوف ذلك مشمئزاً . وكان من جهة أخـرى قلقـاً مما قاله له رازوميخين عن بورفير منذ هنيهة .

قال يحدث نفسه وقد شحب لونه وخفق قلبه : « لهذا الرجل أيضاً سيكون عليّ أن أشـكو الفقر ، وأن أظهر بمظهر من يستحق الشـفقة والرثاء ... وأن أفعل ذلك بطريقة تبـدو طبيعيـة . ولكن الطريقـة الطبيعية هي أن لا أقول شيئاً البتة ، أن لا أقول شيئاً البتة ! ولكن لا ... ان هذا أيضاً لن يبدو طبيعيـاً !... على كل حال سـوف نرى كيف ستجري الأمور ، وسوف نرى هل كان من الخير أن أذهب الى هناك أم لم يكن ذلك من الخير !... الفراشـة تطير الى لهب الشـمعة من تلقاء نفسها . قلبي يخفق . هذا نذير سوء ! » .

قال رازوميخين :

ـ هنا ، في هذه العمارة الرمادية .

وقال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « النقطة الأساسية هي هذه :

هل بورفير على علم بالزيارة التي قمت بها أمس لمسكن العجوز ، وهل هو على علم بسؤالي عن الدم ؟ يجب علي أن أعرف هذا منذ أدخل ، من النظرة الأولى ، يجب أن أقرأه في وجهه لحظة دخولي ، والا فان... لأعرفن هذا ولو هلكت ! » .

وقال يخاطب رازوميخين فجأة ، وهو يبتسم ابتسامة ماكرة :

ـ هل تعرف ماذا لاحظت عليك ؟ لقد لاحظت عليك منذ هذا الصباح ، يا صاحبي ، أنك مضطرب اضطراباً غير مألوف كثيراً . أأنا مخطيء ؟

أجاب رازوميخين مستاءً :

ـ أنا مضطرب ؟ لا لست مضطرباً البتة .

ـ دعك من هذا الكلام يا صاحبي ! الأمر واضح ! منذ قليل ، كنت جالساً على الكرسي كما لا تجلس عادةً . كنت جالساً على حافة الكرسي تماماً ، وكنت كمن أصيب بمغص . وكنت تثب من طرف أقصى الى طرف أقصى ، فتارةً تغضب، وتارة تجعل لسانك كالعسل حلاوة ! بل لقد كان وجهك يحمر احمراراً شديداً . وقد احمر وجهك خاصةً حين دُعيت الى الغداء . نعم ، اصطبغتَ بالحمرة حتى جذور شعرك .

ـ غير صحيح . أنت تكذب . الى ماذا تريد أن تغمز ؟

ـ أريد أن أغمز الى أنك خجول كتلميذ . ها ... هاأنت ذا تحمر من جديد !

ـ يا للخنزير !

ـ ولكن علام هذا الاضطراب كله ؟ مسكين روميو ! اسمع : لن يفوتني أن أتكلم عنك اليوم في مكان ما . هأ هأ هأ ! سوف أُضحك أمي كثيراً ... وسوف أضحك شخصاً آخر أيضاً .

قال رازوميخين وقد طاش عقله وتجمد رعباً :

ـ اسمع ، اسمع ، هذا أمر خطير ، هذا ... يا للعواقب !... ما عساك قائلاً لهما ؟ أنا ... يا صاحبى ... آه ... يا لك من خنزير !...

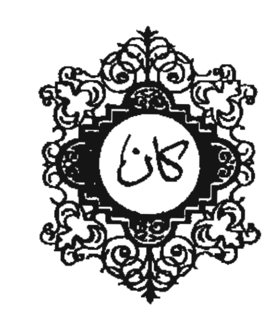
ـ وردة ، وردة من ورود الربيع حقاً ! ليتك تعلم كم يناسبك هذا ! روميو طوله ست أقدام ! ثم انك قد غسلت وجهك اليوم ، ونظفت أظافرك ، هه ؟ ذلك ما لم يحدث يوماً . ها ... وها أنت ذا قد تدهنت وتطيبت ! هيًا اخفض رأسك لأرى ! يا لك من خنزير !

كان راسكولنيكوف يقول هذا الكلام وهو يضحك ضحكاً يبلغ من الشدة أنه أصبح لا يستطيع السيطرة على نفسه . وعلى هذه الحال من الضحك الشديد انما دخل الشابان بيت بورفير بتروفتش . وذلك بعينه هو ما أراده راسكولنيكوف. من آخر البيت كان يمكن أن يُسمع دخولهما ضاحكين . وقد استمرا يضحكان وهما فى الدهليز .

همس رازوميخين يقول لراسكولنيكوف غاضباً وهو يقبض على كتفه :

ـ اياك أن تقول كلمة واحدة فى هذا الموضوع هنا ، والا هشّمت بوزك !

الفصل الخامس



راسكولنيكوف قد دخل الشقة . دخل دخول من يبذل كل ما يملك من قوة حتى لا ينفجر ضاحكاً . ودخل وراءه رازوميخين محمر الوجه ، أخرق الحركات ، متقبض القسمات من الغضب . كان وجهه فى تلك اللحظة ، بل كان شخصه كله مضحكاً حقاً ، يبرر ما كان فيه راسكولنيكوف من قهقهة صاخبة . وقد انحنى راسكولنيكوف يحيى رب البيت حتى قبل أن يقدم اليه . وكان رب البيت واقفاً فى وسط الغرفة يلقى على القادمين نظرة سائلة . ثم مد راسكولنيكوف اليه يده فصافحه ، وهو يبذل جهداً ظاهراً فى سبيل أن يكبح جماح مرحه ، وأن ينطق بالكلمات القليلة التى يوجبها التعارف . ولكنه ما ان أفلح فى اتخاذ هيئة الجد ، وفى أن يدمدم ببضع كلمات حتى عاد ينظر الى رازوميخين رغم ارادته ، فلم يستطع فى هذه المرة أن يصمد ، فاذا بضحكه يتدفق قوياً لا سبيل الى مغالبته ، لا سيما بعد أن كظمه مدة طويلة . فاذا بالغيظ الخارق الذى يستقبل به رازوميخين هذا الضحك « الصريح » يضفى على المشهد كله مظهر مرح طبيعى ، بل ومرح صادق . وقد فاقم رازوميخين مظهر المرح مزيداً من المفاقمة كأنما على عمد : ذلك أنه زأر يقول لراسكولنيكوف وهو يُجرى يده بحركة تنم على الغضب قائلاً :

ـ آ ••• يا للشيطان الرجيم !

فاذا بالحركة التى أجراها تصدم منضدة عليها فنجان شاى فارغ ، فيطير كل شىء فى الهواء ، ويسقط على الأرض مقرقعاً •

هتف بورفير بتروفتش يقول مرحاً :

ـ لماذا تحطمون الأثاث يا سادة ؟ لماذا تلحقون أذى بالدولة ؟

اليكم وصف المشهد الذى كان يُرى فى تلك اللحظة: راسكولنيكوف يضحك ملء حنجرته تاركاً يده فى يد رب البيت ، ولكن دون أن يفقد حس القصد والاعتدال ، منتظراً اللحظة المناسبة التى سوف يستطيع فيها أن يسحب يده بسرعة وعلى نحو طبيعى • ورازوميخين قد هوى به سقوط المنضدة وتهشم الفنجان الى درك الخجل والاضطراب ، فألقى على الحطام نظرة سوداء ، وبصق على الأرض ، وابتعد نحو النافذة ، فلبث أمامها مديراً ظهره ، عابس الوجه مقطب الأسارير ينظر الى الخارج دون أن يرى شيئاً • وبورفير بتروفتش يضحك ويرغب فى الضحك ، لكنه ينتظر شروحاً بطبيعة الحال • وفى ركن من الأركان ، يجلس زاميوتوف على كرسى •

كان زاميوتوف ، حين دخل الزائران ، قد نهض ينتظر وانفرج فمه عن ابتسامة ، لكنه يبدو مدهوشاً مرتاباً ، ولاسيما ازاء راسكولنيكوف، فهو ينظر اليه الآن متفرساً باتنباه •

ان وجود زاميوتوف قد فاجأ راسكولنيكوف وأزعجه ، فقال يحدث نفسه : « هذا عنصر آخر يجب أخذه فى الحسبان » •

وبدأ يتكلم فقال يعرّف بنفسه مصطنعاً الخجل :

ـ معذرةً ، أرجوك • اسمى راسكولنيكوف •••

قال بورفير بتروفتش يجيبه :

ـ لا داعي الى الاعتذار البتة ؛ انه لجميل جداً أنك دخلت على هذا النحو .

وأردف يقول مشيراً الى رازوميخين :

ـ هيه ! ما باله لا يريد حتى أن يجيء ؟

قال راسكولنيكوف :

ـ حقاً لست أدري ما سبب حنقه عليّ الى هذا الحد . كل مافعلته هو أنني قلت له أثناء الطريق انه أشبه بروميو ... وبرهنت له على صدق قولي . لا شيء غير هذا . أو ذلك هو ما يخيّل اليّ على الأقل !

دمدم رازوميخين يقول شاتماً دون أن يلتفت :

ـ خنزير !

فقال بورفير ضاحكاً :

ـ لا بد أن هناك أسباباً خطيرة كل الخطورة تجعله يغضب هذا الغضب كله لكلمة بسيطة صغيرة !

فقال رازوميخين يقاطعه وقد أخذ يضحك هو أيضاً على حين فجأة :

ـ هيه ! اسكت أنت يا قاضي التحقيق ! ثم فلتذهبوا جميعاً الى الشيطان !

قال ذلك واقترب من بورفير بتروفتش مشرق الوجه منبسط الأسارير كأن شيئاً لم يحدث . وتابع كلامه فقال :

ـ نحن جميعاً حمقى في الواقع . اسمع : هذا صديقي روديون رومانوفتش راسكولنيكوف . انه أولاً ، من كثرة ما سمع عنك ، أراد أن يتعرف اليك ؛ وهو ثانياً يحب أن يحدثك في قضية صغيرة . هه !

زاميوتوف ؟ ماذا تفعل هنا ؟ أأنتما متعارفان اذن ؟ منذ متى ؟

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « ما معنى هذا أيضاً ؟ » .

ظهر الاضطراب على زاميوتوف ، ولكن اضطرابه لم يكن شديداً. وقال يجيب بلهجة طلقة :

ـ اننا تعارفنا أمس فى بيتك !

ـ اذن لقد أعفتنى العناية الالهية من جهد كان ينبغى أن أبذله . تصور يا بورفير أنه يلحّ ، منذ أسبوع ، الحاحاً شديداً على أن أعرّفك به . فهأنتما قد استغنيتما عنى ، فتعارفتما دون وساطة منى ... أين تبغك ؟

كان بورفير بتروفتش يرتدى ملابس البيت : ثوب منزل ، وقميصاً نظيفاً ، وبابوجين قديمين معقوفين . هو رجل فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره ؛ مربوع القامة ؛ بدين الجسم ؛ له كرش ، حليق الوجه تماماً فلا شارب ولا لحية ؛ مقصوص الشعر على رأس ضخم مدوّر بارز القفا ؛ متورّم الوجه ، أفطس الأنف قليلاً ، أصفر اللون كأنه مريض، ولكن هيئته لا تخلو من تعبير عن الحيوية ، ولا عن المرح . حتى لقد كان يمكن أن يعبّر وجهه عن شىء من الطيبة لولا عيناه اللتان تنظر اليهما فترى فيهما اخضلالاً وبريقاً كبريق المعدن فى آن واحد ، وتكاد تحجبها أهداب يضرب لونها الى بياض ، وكأنهما من غمزهما المستمر ترسلان اشارات لا تنقطع . ان نظرة هاتين العينين تنافى سائر هيئته بعض المنافاة (وهى هيئة فيها شىء من أنوثة) وتجعل هذه الهيئة تبدو أميل الى الجد والجهامة مما قد يتوقعه المرء عند أول نظرة يلقيها عليه .

ما ان علم بورفير بتروفتش أن زائره يرغب فى أن يحدثه فى « قضية صغيرة » ، حتى رجاه أن يجلس على الديوان ، ثم جلس على

الطرف الآخر ، منتظراً عرض القضية ، مُظهراً أشدّ الاهتمام . ان مثل هذا الانتباه الصادر عن رجل لا تعرفه ، يبدو لك غير طبيعي ، بل ويُشعرك بشيء من الحرج والارتباك ، ولا سيما اذا كان ما ستقوله لا يستحق في رأيك هذا الانتباه ؟ ومع ذلك شرح راسكولنيكوف قضيته ببضع كلمات ، في دقة ووضوح ، فبلغ من رضاه عن نفسه أنه أتيح له أن ينعم النظر في بورفير بتروفتش أثناء ذلك . وكان بورفير بتروفتش ، من جهته ، لا يحوّل بصره عن راسكولنيكوف دقيقة واحدة . وكان رازوميخين قد استقر أمامهما ، فهو يتابع عرض القضية بشغف عارم وصبر نافد ، متجهاً بنظراته الى هذا تارة ، والى ذاك تارةً أخرى ، وكان في هذا شيء من غلو طبعاً .

دمدم راسكولنيكوف يقول بينه وبين نفسه : « يا للأبله ! » .

أجاب بورفير بلهجة رسمية جداً :

ـ يجب عليك أن تبعث الى الشرطة بلاغاً تقول فيه انك وقد علمت بالنبأ ، نبأ مقتل العجوز ، تريد ابلاغ قاضي التحقيق المكلف بالقضية أن هذه الأشياء هي أشياؤك وأنك تريد استردادها . أو أن ... على كل حال ، سيكتبون اليك ...

قال راسكولنيكوف وهو يحاول أن يصطنع الخجل ما وسعه ذلك :

ـ ولكنني ... ولكنني ... في الوقت الحاضر ... لا أملك مالاً ... فحتى هذه الأشياء التافهة التي لا قيمة لها لا أستطيع أن ... كل ما أريده الآن هو أن أصرّح بأن هذه الأشياء لي ، وبأنني متى أصبح معي مال سوف ...

أجاب بورفير بتروفتش مستقبلاً هذه الايضاحات المالية ببرودة :

ـ ليس لهذا من قيمة . تستطيع على كل حال أن تكتب اليّ رأساً

اذا أردت فتقول : لما كنت قد علمت كيت وكيت ولما كانت الأشياء كذا وكذا هي أشيائي ، فانني أرجوكم أن ... الخ .

فأسرع راسكولنيكوف يسأله ، مظهراً بذلك اهتمامه بالناحية المالية من جديد :

ـ أأكتب هذه العريضة على ورق عادي ؟

ـ نعم نعم ، على ورق عادي ...

أجابه بورفير بتروفتش بهذا ، ثم نظر اليه على حين فجأة نظرة فيها سخر صريح ، غامزاً بعينيه كأنه يقول له ان أسلوبه هذا لا يخفى على ذكائه . على أن من الجائز أن لا يكون ذلك الا احساساً خالج راسكولنيكوف ، لأن الغمزة لم تدم الا لحظة قصيرة كومض البرق . ومع ذلك لا بد أن الغمزة كانت تشتمل على شيء من هذا المعنى . ومهما يكن من أمر ، فان راسكولنيكوف مستعد لأن يحلف أغلظ الايمان على أن بورفير قد غمز ... فاذا بكلمتين تومضان في ذهنه بسرعة شديدة ، فيقول لنفسه : « انه يعلم ! » .

وتابع كلامه يقول وقد خارت همته قليلاً :

ـ اغفر لي ازعاجك بهذه الترّهات ... صحيح أن هذين الشيئين اللذين كانا مرهونين عند العجوز لا تساوي قيمتهما أكثر من خمسة روبلات ، ولكني أحرص عليهما حرصاً شديداً ، لأنهما تذكار من واهبيهما ؛ اعترف لك بانني ذُعرت أشد الذعر حين علمت أن ...

قال رازوميخين متعمداً وهو يبيّت نيةً واضحة :

ـ الآن فهمت ! ذلك هو السبب في أنك انتفضت أمس حين كنت أثرثر أنا مع زوسيموف فقلتُ له ان بورفير يستجوب الأشخاص الذين كانوا قد رهنوا أشياء عند العجوز .

طفح الكيل عنـدئذ . فهذا هو راسـكولنيكوف يخرج عن
فيلقى على رازوميخين نظرة سوداء تشـتعل غضـباً . ولكنه لم يلـ
سيطر على نفسه فوراً، ثم قال له بحنق أحسن اصطناعه فى حذق و

ـ يا عزيزى ، يخيـّل الىّ أنك تسخر من عقلى . انا أوافق
أننى أسرف قليلاً فى الاهتمام بأشياء هى فى نظرك تافهة لا قيمة
ولكن هذا ليس سبباً يدعو الى اعتبارى أنانياً أو بخيلاً ، لأن هذه
التافهة فى نظرك قد لا تكون تافهة فى نظرى أنا . لقد قلت لك مـ
ان تلك الساعة الفضية التى لا قيمة لها هى الشىء الوحيد الذى بقى
أبى . فاسخر منى ما شئت أن تسخر ، ولكن أمى قد وصلت (وهـ
راسكولنيكوف نحو بورفير فجأة) ، فاذا علمت (استأنف راسكو
كلامه وهو يعود الى رازوميخين مسرعاً ويحاول أن يجعل صوته
مرتجفـاً) فاذا علمت أن هذه السـاعة قد فُقدت ، فسـوف تهو
حضيض الكرب واليأس . هكذا خُلقت النساء !

هتف رازوميخين يقول بمرارة :

ـ ولكننى لم أقصد هذا قط ! أنا لم أقل ما قلته بهذا المعنى
نقيض ما أردت أن ...

تساءل راسكولنيكوف مهموماً مغموماً : « هل نجح هذا الأ
هل كان كلامى طبيعياً ؟ ألم أبالغ ؟ لماذا قلت : هكذا خلقت النساء

قال بورفير بتروفتش يسأل لسبب من الأسباب :

ـ آ ... وصلت أمك ؟

ـ نعم .

ـ متى ؟

ـ مساء أمس .

وصمت بورفير كأنه يفكر • ثم أردف يقول بهدوء ، ببرود :

ـ أشياؤك لا يمكن أن تُفقد بحال من الأحوال • ثم انني كنت أنتظرك منذ مدة طويلة •

قال بورفير ذلك ، ثم التفت نحو رازوميخين وكأنه لم يحدث شيء ، فمدَّ اليه منفضة سجائر ، لأن رازوميخين كان يهزُّ سيجارته بغير شفقة فيسقط رمادها على السجادة •

ارتعش راسكولنيكوف ، ولكن بورفير الذى كان مشغولاً بسيجارة رازوميخين ، كان يبدو عليه أنه لا يلاحظه •

صرخ رازوميخين سائلاً :

ـ كيف ؟ كنت تنتظره ؟ أكنت تعرف اذن أن له رهوناً « هناك » هو أيضاً ؟

فاتجه بورفير الى راسكولنيكوف رأساً وقال له :

ـ كان رهناك ، الخاتم والساعة ، موجودين « عندها » ، ملفوفين بورقة واحدة ، وقد كُتب اسمك على الورقة واضحاً بقلم الرصاص ، كما سُجِّل على الورقة تاريخ الرهن أيضاً •

قال راسكولنيكوف وهو يضحك ضحكاً أخرق ، ويحاول خاصةً أن ينظر الى عينى بورفير :

ـ ما أقوى ذاكرتك !

ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن أن يضيف قائلاً على حين فجأة:

ـ لئن أبديت هذه الملاحظة ، فلأن هناك اشخاصاً كثيرين جداً قد رهنوا أشياء ••• فلا بد أن يصعب تذكر أسمائهم جميعاً ••• أما أنت فانك تتذكرهم تذكراً واضحاً ، واضحاً ، و ••• و •••

ثم قال لنفسه : « ما أغباني ! ضعيف جداً ! لماذا أضفت هذا الكلام ؟ » .

أجابه بورفير بشيء من سخر طفيف لا يكاد يلاحَظ :

ـ ولكن جميع أولئك الأشخاص أصبحتُ أعرفهم ، وأنت الشخص الوحيد الذي لم يطالب بأشيائه حتى الآن .

ـ ذلك أنني كنت مريضاً .

ـ هذا أيضاً سمعت عنه . بل لقد سمعت كذلك أنك كنت قلقاً مضطرباً من شيء ما . ثم انك ما زلت تبدو شاحباً .

ـ لست شاحباً البتة . بالعكس : صحتي الآن حسنة جداً .

كذلك ردّ راسكولنيكوف بفظاظة وشراسة ، وقد تغيرت لهجته فجأة . لقد غلى الغضب في نفسه ، فأصبح لا يستطيع كبحه .

وقال يحدث نفسه من جديد : « هذا الغضب هو الذي سيفضحني! ولكن لماذا يعذبونني هذا التعذيب ! » .

عاد رازوميخين يتكلم فقال :

ـ صحتك جيدة جداً ! اسمعوا هذا الكلام ! كان حتى أمس لا يكاد يعي ، وكان يهذي ! هل تصدق يا بورفير أنه كان لا يكاد يستطيع الوقوف على ساقيه ، فما أن أدرنا ظهورنا ، أنا وزوسيموف ، حتى ارتدى ثيابه وتسلل خلسةً ليمضي يتسكع لا أدري أين ، الى منتصف الليل ، أو الى منتصف الليل تقريباً ، وهو في حالة هذيان كامل ؟ هل تستطيع أن تتخيل شيئاً كهذا يا بورفير ؟ أمر غريب !

قال بورفير بتروفتش وهو يهزّ رأسه بحركة من الحركات التي تجريها النساء :

ـ حقاً ؟ في « حالة هذيان كامل » ؟ غريب !...

وأفلت لسان راسكولنيكوف يقول غاضباً أشد الغضب :

ـ هذا سخف ! لا تصدقه !

ولكن بورفير بتروفتش بدا كأنه لم يسمع هذه الأقوال العجيبة !

قال رازوميخين وقد تحمس مزيداً من الحماسة على حين فجأة :

ـ ولكن هل كان يمكن أن تخرج لولا أنك كنت في حالة هذيان؟ ولماذا خرجت ؟ ماذا كان هدفك من الخروج ؟ ولماذا خرجت خفيةً ؟ انك لم تكن تملك عقلك ! أستطيع أن أقول لك هذا الآن وقد زال كل خطر!

قال راسكولنيكوف متجهاً بالكلام الى بورفير وهو يبتسم ابتسامةً فيها وقاحة وتحدٍ :

ـ لقد أرهقوني أمس ارهاقاً فظيعاً ، فهربت لأستأجر مسكناً آخر لا يستطيعون أن يعثروا عليَّ فيه ؛ وحين خرجت حملت كل ماكنت أملكه من مال . وقد رأى زاميوتوف ذلك المال . يا سيد زاميوتوف ، أكنت بالأمس سليمَ العقل أم لا ؟ عليك أنت أن تحسم النقاش .

لو استطاع في تلك اللحظة أن يخنق زاميوتوف لما تردّد في ذلك. كانت نظرة زاميوتوف وكان صمته يؤلمانه أشد الألم ، ويغيظانه أعظم الغيظ .

قال زاميوتوف يجيبه بجفاف :

ـ في رأيي أنك كنت تتكلم كلام انسان عاقل جداً ، بل وكلام رجل حاذق جداً ... كل ما هنالك أنك كنت سريع الاهتياج والغضب.

وقال بورفير بتروفتش مقاطعاً :

ـ واليوم ذكر لي نيكوديم فومتش أنه لقيك أمس ، في ساعة متأخرة ، بمنزل موظف داسته عربة .

فقال رازوميخين يستأنف كلامه مخاطباً راسكولنيكوف :

ـ نعم ، لننظر فيما فعلته في بيت ذلك الموظف مثلاً : ألم تتصرف تصرف رجل مجنون هناك ؟ لقد أعطيت أرملته كل ما كان معك من مال لدفع نفقات الجنازة . أفما كان في وسعك ، اذا أنت حرصت حرصاً مطلقاً على مساعدتها ، أن تعطيها خمسة عشر روبلاً أو حتى عشرين روبلاً ، أو أن تحتفظ لنفسك بثلاثة روبلات في أقل تقدير ؟ ولكنك لم تفعل هذا ، بل جدت عليها بكل ما تملك : خمسة وعشرين روبلاً !

ـ ولكن لعلني عثرت في مكان ما على كنز . مايدريك ؟ ولهذا كنت كريماً ذلك الكرم كلَّه بالأمس . ان السيد زاميوتوف يعلم أنني وجدت كنزاً ! اغفر لنا يا بورفير بتروفتش (قال ذلك لبورفير بتروفتش تختلج الشفتين) اغفر لنا ازعاجك بمثل هذه السفاسف طوال نصف ساعة ! نحن نضجرك ، أليس كذلك ؟

ـ بالعكس ، بالعكس ! ليتك تعلم كم يهمني أمرك ويشوقني حديثك ! انها لمتعة عظيمة أن يراك المرء وأن يصغي اليك ... أعترف لك أنني شديد السرور بأنك قررت أخيراً أن تقدم الىَّ طلباً .

هتف رازوميخين يقول لبورفير :

ـ هيه ! هلاَّ قدمت الينا شيئاً من الشاي على الأقل ! لقد جفَّ حلقي تماماً !

ـ هذه فكرة رائعة ، ولعل سائر الصحب يوافقونك عليها ! ولكن ألست تحب أن تصيب قبل الشاي شيئاً أدنى الى سدِّ الجوع واقامة الأود؟

ـ هيَّا ...

وخرج بورفير ليأمر بالشاي .

كانت الخواطر تعصف في رأس راسكولنيكوف كالاعصار . وكان مهتاجاً أشد الاهتياج .

قال يحدث نفسه : « أنكى ما في الأمر أنهم لا يخفون ولا يكتمون، أنهم لا يتحرجون ! كيف حدث ، وأنت لا تعرفني بعد ، أن تتحدث عني مع نيكوديم فومتش ؟ معنى ذلك أنهم لا يحاولون حتى أن يخفوا أو يكتموا ، وأنهم يطاردونني جميعاً كما يطارد الفريسةَ سربٌ من كلاب الصيد ! انهم يبصقون في وجهي صراحةً ! (كذلك قال لنفسه وهو يرتجف من شدة الغضب) . ما بالكم لا تكونون صريحين ! لماذا تلعبون معي لعبة القط والفأرة ؟ حقاً ان هذا لمن قلة الأدب يا بورفير بتروفتش ! ولعلني لن أسمح به بعد الآن !... لسوف أنهض واقفاً ، فأرميكم بالحقيقة كلها صفعاً على وجوهكم . ولسوف يرون عندئذ مدى الاحتقار الذي أحمله لهم ! » .

دارت هذه الخواطر في رأس راسكولنيكوف وهو يجد في التنفس مشقة كبيرة . تابع يحدث نفسه : « ولكن ألا يمكن أن يكون هذا كله احساساً باطلاً ، وهماً من أوهام الخيال ، سراباً لا أكثر ؟ ألا يمكن أن أكون مخطئاً في الحكم على الأمر كله من أوله الى آخره ، وأن لا يكون غضبي ناشئاً الا عن نقص الخبرة وقلة التجربة وعن عجزي عن تمثيل دوري الساقط ؟ لعلهم يقولون كل ما يقولونه بدون فكرة مبيتة أو نية سيئة !... لا ، ان كل ما يقولونه عادي ، ولكن المرء يحس وراء كل كلمة من كلماتهم ... صحيح أن من الممكن أن يتكلم جميع الناس بهذه الطريقة وهذا الأسلوب ، ولكن لا بد أن هؤلاء يضمرون أشياء يلمعون اليها الماعاً . لماذا قال كلمة « عندها » بالحاح خاص ؟ ولماذا قال زاميوتوف انني كنت أتكلم كلام رجل « حاذق » ؟ لماذا يخاطبونني بهذه اللهجة ؟ نعم ، هي اللهجة .. ورازوميخين موجود ، هو موجود ، فلماذا لا يشتبه

فى شىء ؟ لماذا لا يخطر شىء ببال هذا الأبله ؟ ها هى ذى الحمى تعترينى من جديد ! هل غمزنى بورفير بعينه منذ لحظة أم هو لم يغمزنى ؟ ترى لماذا وجَّه الىَّ تلك الغمزة ؟ أتراهم لا يريدون الا أن يثيروا أعصابى وأن يخرجونى عن طورى ؟••• اما أن ذلك كله ليس الا سراباً ، واما أنهم « يعرفون » ••• ولكن زاميوتوف وقح ! هل زاميوتوف وقح ؟ لا بد أنه فكَّر طويلاً أثناء الليل • كنت أوجس أنه سيفكر ! هو هنا كأنه فى بيته • بورفير لا يعده ضيفاً • هو يجلس مديراً ظهره لبورفير ! انهما متواطئان • و « علىَّ » تواطؤهما ! لا شك فى أنهما كانا يتكلمان عنى أنا قبل وصولنا • هل يعرفان أننى ذهبت أرى الشقة ؟ ليتنى أعلم هذا بسرعة ، بسرعة ! حين قلت اننى هربت أمس مساءً لأبحث عن شقة استأجرها ، فان بورفير لم يفطن الى أقوالى • نعم ، لقد دسست مسألة الشقة هذه بحذق • سوف يفيدنى هذا فى المستقبل !••• فى حالة هذيان ••• هأ هأ هأ !••• ولكنه يعرف كل ما فعلته أمس • كان يجهل أن أمى وصلت ! وقد سجَّلت العجوز تاريخ الرهن بقلم الرصاص ! أنت تكذب ، لن أُسلم نفسى ! ما هذه بوقائع على كل حال • سراب لا أكثر ! ومع ذلك تذكرون هذا كله على أنه وقائع ! والشقة نفسها ليست واقعة ، وانما هى هذيان ! ألا اننى أعرف ماذا سيجب علىَّ أن أقول لهم ! أهم يعرفون ما حدث فى الشقة ؟ لن أنصرف قبل أن أعرف هذا• لماذا جئت ؟ هأنا ذا أغضب الآن ! هذه واقعة ، هذه ! أوه ••• ما أشد اهتياجى وما أسرع غضبى ! ولكن لعل هذا أفضل ••• فاننى بذلك أمثل دور المريض ••• سيحاول أن يهيجنى ••• أن يشوش أفكارى • لماذا جئت ؟••• » •

ذلك كله ومض فى ذهن راسكولنيكوف سريعاً كالبرق •

وعاد بورفير بعد لحظة • انه يبدو الآن مرحاً جداً •

قال يخاطب رازوميخين ضاحكاً ، بلهجة مختلفة كل الاختلاف عن اللهجة التى كان يتكلم بها منذ قليل :

ـ هل تعرف يا صاحبى أننى بعد سهرة الأمس فى بيتك الجديد ، أخذ رأسى يدور ، واننى ما زلت الى الآن ...

ـ كانت سهرة شائقة ، أليس كذلك ؟ لا تنس أننى تركتكم فى أجمل لحظة . من الذى انتصر ؟

ـ لم ينتصر أحد طبعاً . لقد أخذوا يتناقشون فى مشكلات أبدية ، وحمى وطيس المناقشة !...

ـ تصور يا روديا انهم اندفعوا يتجادلون فى هذا الموضوع : أهناك جرائم أم ليس هناك جرائم.؟ يا للسخافات التى قالوها !... شىء فظيع..

فأجاب راسكولنيكوف بلهجة عادية يقول :

ـ هذه مسألة اجتماعية عادية جداً ، مع ذلك !

وتدخل بورفير فقال :

ـ غير أن السؤال لم تكن هذه صيغته .

فأسرع رازوميخين يعترف قائلاً وقد اشتعلت حماسته على عادته :

ـ صحيح . لم تكن هذه صيغته تماماً . اسمع يا روديا ، اسمع وقل لى رأيك . أنا حريص على معرفة رأيك . لقد اندفعت أمس معهم بانتظار وصولك . وكنت قد أعلنت لهم جميعاً أنك آت . بدأت المناقشة بوجهة نظر الاشتراكيين . معروفة وجهة نظر الاشتراكيين . الجريمة احتجاج على تنظيم اجتماعى غير سليم . ليست الجريمة شيئاً غير هذا . ليس هناك أى باعث آخر على الجريمة .

صاح بورفير بتروفتش يقول :

ـ هأنت ذا تعود الى الافتراء !

كان بورفير بتروفتش ينتعش انتعاشاً واضحاً ، ولا يكف عن الضحك وهو يلاحظ رازوميخين ، فكان ذلك يزيد هياج رازوميخين .

وتابع رازوميخين كلامه يقول محموماً :

ـ نعم ، ليس هناك أى باعث آخر ، فى نظر الاشتراكيين . أنا لا أفترى . سوف أريك كتبهم . هم يرون أن كل شىء ، أن كل شىء على الاطلاق ، انما مردُّه الى « جو البيئة السىء » ، لا أكثر من ذلك . نعم ، هذا هو تعبيرهم المفضَّل . وليس هناك الا خطوة واحدة بين هذا القول وبين الاعتقاد بأن جميع الجرائم ستزول دفعةً واحدة متى نُظم المجتمع تنظيماً سليماً . فمتى زالت أسباب الاحتجاج ، أصبح جميع الناس « صالحين » من تلقاء أنفسهم . ان الاشتراكيين لا ينظرون الى الطبيعة بعين الاعتبار ، بل يسقطونها من الحساب . هم لا يرون أن الانسانية هى التى ستصل من تلقاء ذاتها ، بتطور تاريخى « حى » ، الى أن تصبح مجتمعاً سليماً ، وانما يتصورون نظاماً اجتماعياً سوف يخرج من رأس عالم رياضى لا يدرى أحد ما هو ، فاذا هو ينظم النوع الانسانى بأسره فى طرفة عين ، ويجعله صالحاً مبرأً من كل خطيئة ؟ وذلك طبعاً فى خارج أى تطور تاريخى ، حيانى ، حى . هذا هو السبب فى أنهم بغريزتهم يكرهون التاريخ : « ليس التاريخ الا أهوالاً كريهة وحماقات حقيرة » . هذا ما يقولونه . وهم يفسِّرون كل شىء بالحماقة . وذلك هو السبب فى أنهم يكرهون تطور الحياة تطوراً حياً ، وينادون خاصةً بأن : « لا نفوس حية » ! ... ان النفس الحية تتطلب الحياة ، فالنفس الحية لا تخضع للميكانيكا ، النفس الحية ريَّابة ، النفس الحية رجعية ! لذلك تراهم يصنعون نفساً من كاوتشوك ينبعث منها نتن الموت ، ولكنها ليست حيةً على الأقل ، يصنعون نفساً طيِّعة ذليلة لا تتمرد ! كل ذلك

فى سبيل أن يصلوا الى حيث قادونا : الى تلك المجموعة من الآجر ، المقسمة ممرات وغرفاً ، التى يسمونها «تعاونية» ! * ان تعاونيتهم هذه جاهزة ، والطبيعة وحدها هى التى لم تصبح جاهزة بعد ، لأنها تقتضى الحياة ، لأنها لم تفرغ بعد من التطور الحيانى، لأنها لم تتأهب بعد للمقبرة! ألا ان المنطق وحده لا يمكن أن يجعلنا نثب فوق الطبيعة ونتخطاها . ان المنطق يتصور ثلاث حالات ، مع أن الحالات ملايين ! أفتحذف هذه الملايين كلها باسم قضية الرخاء وحدها ؟ لا شك أن حلّ المشكلة بهذه الطريقة هو أسهل الحلول ! كل شيء واضح : لم تبق حاجة الى التفكير ! ذلك مغر جذاب . فانما المهم أن لا نفكر . وفى الامكان بعد ذلك أن نحصر سر الحياة كله فى ورقتين مطبوعتين !

قال بورفير ضاحكاً :

ـ ها هو ذا يندفع . يجب تكبيله !

ثم أضاف يقول ملتفتاً نحو راسكولنيكوف :

ـ تصوّر أن هذا نفسه هو ما حدث أمس ... وذلك فى غرفة تعلو فيها خمسة أصوات أو ستة ... وكان قد سقانا فوق ذلك حتى سكرنا . هل تتصور ما حدث ؟ لا يا صاحبى ، أنت مخطىء ... ان « للبيئة » دخلاً كبيراً فى الجريمة . أستطيع أن أؤكد لك ذلك .

ـ أعرف أن للبيئة دخلاً كبيراً فى الجريمة . ولكن قل لى : هبْ رجلاً فى الأربعين قد اغتصب بنتاً فى العاشرة ، فهل البيئة هى التى دفعته الى ارتكاب هذه الجريمة ؟

قال بورفير برصانة تثير الدهشة :

ـ بالمعنى الدقيق للكلمة ، يجوز أن نقول ان البيئة هى التى دفعته

الى ذلك . نعم ، ان اغتصاب بنت صغيرة يمكن جداً أن يعلَّل بالتأثير الذى تحدثه البيئة .

كاد رازوميخين أن يستعر غضبه استعاراً رهيباً . وزأر يقول :

ـ هذا هراء . وبمثل هذا الهراء أستطيع أن « أبرهن » لك على أن السبب فى أن أهدابك بيضاء هو أن ناقوس* كنيسة القديس يوحنا بموسكو يبلغ علُوه مائتين وثلاثين قدماً ، وأن أبرهن لك على ذلك بوضوح ، وجلاء ، وأن أبرهن عليه برهاناً فيه تقدمية ، بل وفيه ليبرالية. أتريد أن أبرهن لك على ذلك ؟ هل تراهن على أننى قادر أن أفعل ؟

ـ افعل ! سوف نرى كيف تستطيع أن تفعل !

ـ هتف رازوميخين يقول وهو ينهض بوثبة واحدة ، ويحرّك يده باشارة تنم على الأسف والمضض :

ـ ما أشدّ ولعه بالتمثيل والعبث ! لا حاجة الى الكلام معك ، لا داعى الى هذا العناء ! ذلك أنه يفعل هذا عامداً ، أنت لا تعرفه بعد يا روديا ! ولقد تحيَّز أمس لهم ، ليسخر منهم ويعبث بهم ! الله يعلم ماذا قال لهم أمس ! وما كان أشد سرورهم برؤيته منحازاً الى صفهم ! انه قادر على أن يظل يمثّل خمسة عشر يوماً بغير انقطاع . فى السنة الماضية ، روى لنا ، لسبب من الأسباب ، أنه سيصبح راهباً ، وظل يخدعنا بهذه القصة شهرين كاملين . ومنذ مدة قصيرة ، أوهمنا بأنه سيتزوج ، وقال انه هيأ للاحتفال كل شىء . حتى لقد أوصى ببدلة جديدة، وصدّقناه نحن وأخذنا نهنئه . فماذا كان ؟ لم يكن هناك خطيبة ، لم يكن هناك شىء البتة : سراب لا أكثر !

ـ أنت تكذب ! لقد أوصيت بالبدلة الجديدة أولاً ، والبدلة الجديدة هى التى أوحت الىّ بفكرة تضليلكم جميعاً !

سأله راسكولنيكوف باهمال :

ـ أأنت تحب التغرير بالناس كل هذا الحب حقاً ؟

ـ أكنت تظن غير ذلك ؟ انتظر اذن ، فسوف ترى أنت أيضاً .
هأ هأ هأ ! ولكن اسمع ، سأقول لك الحقيقة كلها : ان جميع هذه المسائل التى دار عليها الحديث ، كمسألة الجريمة ، ومسألة البنات الصغيرات ، ومسألة « البيئة » ، قد ذكرتنى بمقالة لك منشورة ، مقالة شاقتنى دائماً على كل حال ، وعنوانها : « فى الجريمة » ... أو شىء من هذا القبيل ... لا أذكر الآن . لقد أتيح لى منذ شهرين أن أستمتع بقراءة تلك المقالة فى مجلة « القول » الدورية .

هتف راسكولنيكوف يقول مدهوشاً :

ـ مقالتى ؟ فى مجلة « القول » الدورية ؟ صحيح أننى ، منذ ستة أشهر ، بعد تركى الجامعة ، كتبت مقالة عن كتاب كان قد صدر منذ مدة قصيرة ، ولكننى بعثت بالمقالة الى مجلة « القول » الأسبوعية ، لا الى مجلة «القول» الدورية .

ـ لكنها نشرت فى « مجلة القول الدورية » .

ـ لعل المجلة الأسبوعية لم تنشره فى ذلك الحين لأنها توقفت عن الصدور ؟

ـ نعم . ولكنها حين توقفت عن الصدور قد انصهرت فى مجلة « القول » الدورية ؛ وذلك هو السبب فى أن مقالتك قد نشرت فى المجلة الدورية منذ شهرين ؟ أكنت تجهل ذلك ؟

كان راسكولنيكوف يجهل ذلك فعلاً .

قال له بورفير بتروفتش :

ـ غريب . انك تستطيع أن تطالب المجلة بأجرك عن المقال .

ما أعجب طبعك ! أنت تعيش اذن فى عزلة كاملة فتجهل حتى الأمور التى تتصل بك من قرب • هذا واقع •

هتف رازوميخين يقول :

ـ مرحى روديا ! أنا أيضـاً كنت أجهل هذا ! سأركض فى هذا اليوم نفسه الى قاعة مطالعة ، فأطلب المقالة • هل ظهرت منذ شهرين ؟ ولكن فى أى يوم على وجه الدقة ؟ لا بأس ، سـأجدها على كل حال • هذه حكاية حقاً • أتنشر مقالة ولا تذكر عن ذلك شيئاً ؟

ـ ولكن كيف عرفت أن المقـالة لى • أنا لم أوقّعها الا بالحـروف الأولى •

ـ عرفت ذلك عرضاً وعرفته فى الآونة الأخيرة فقط ، بفضل رئيس التحرير الذى أعرفه • وقد شاقتنى المقالة كثيراً ، وأثارت اهتمامى •

ـ أذكر أننى حلّلت فى تلك المقالة الحالة النفسية التى يكون عليها القاتل طوال مدة الجريمة •

ـ نعم ، كنت تقول ان تنفيذ الجريمة يُصحب دائماً بحالة نفسـية مرضية • وجهة نظر أصيلة ، أصيلة جـداً ••• ولكن هذا الجـزء من مقالتك ليس هو الجزء الذى أثار اهتمامى أكثر من غيره ، وانما أثارت اهتمامى فكرة دسستها فى نهاية المقالة ، ولم تتلبث عليها طويلاً ، وانما أشرت اليها اشارة سريعة من سـوء الحظ • وقد أردت أن تقـول ، اذا كنت تتذكر ذلك ، أن على الأرض أناساً يسـتطيعون ••• لا يستطيعون فحسب ••• بل لهـم كذلك حـق مطلق فى أن يرتكبـوا جميع أنواع الأفعال الشـائنة والجرائم ، وانه لا قيمـة لأى قانون بالنسبـة الى هؤلاء الناس •

ابتسم راسكولنيكوف ازاء هذا الكلام الذى يؤول فكرته تأويلاً مراوغاً .

سأل رازوميخين بنوع من الذعر :

ــ ماذا ؟ ما هو الموضوع ؟ الحق فى ارتكاب الجريمة ؟ ولكن لا بسبب « البيئة » على كل حال ، هه ؟

فأجابه بورفير :

ــ لا ، لا ، انك لم تفهم المقصود ؟ المسألة فى تلك المقالة هى أن الناس فئتان : فئة العاديين ، وفئة الخارقين . فأما « العاديون » فيجب أن يعيشوا طائعين خاضعين ، وليس لهم حق فى مخالفة القانون ، وذلك لأنهم عاديون . وأما « الخارقون » ، فيحق لهم أن يرتكبوا جميع الجرائم وأن يخالفوا جميع القوانين ، وذلك لأنهم « خارقون » . أكان هذا رأيك أم ترانى مخطئاً ؟

دمدم رازوميخين يقول :

ــ ولكن كيف ؟ ليس من الممكن ... أن يكون الأمر كذلك ...

وابتسم راسكولنيكوف ابتسامة ساخرة من جديد . لقد أدرك فوراً ما الذى يريد أن يبلغه بورفير ، ما الذى يريد أن يستدرجه اليه أو أن يستخرجه منه . وكان يتذكر مقالته . وقرر أن يرد على التحدى بمثله.

بدأ يتكلم فقال بلهجة بسيطة متواضعة :

ــ ليس هذا ما أردت أن أقوله على وجه الدقة . على أننى أعترف بأنك عرضت فكرتى عرضاً أميناً ، بل وأميناً كل الأمانة اذا شئت (كأنه كان يسره أن يوافق على أن فكرته قد عُرضت عرضاً أميناً كل الأمانة). والفرق الوحيد هو أننى لم أقطع بأن جميع الخارقين يجب عليهم أن يرتكبوا دائماً جميع أنواع الجرائم كما تقول . ولو قد فعلت ذلك لمنعت

الرقابة نشر المقالة فيما يخيَّل الىَّ • كل ما أوحيت به هو أن الانسان الخارق يملك الحق ••• لا الحق الرسمى بل الحق الشخصى فى أن يأذن لضميره بتخطى بعض الحواجز ••• وذلك فى حالة واحدة هى الحالة التى يتطلب فيها تنفيذ فكرته هذا التخطى (وهى فكرة قد يتوقف عليها سلام النوع الانسانى) • أنت تدعى أن مقالتى غير واضحة ، فأنا مستعد لأن أشرحها لك فى حدود الامكان • ولعلنى لا أخطىء اذ افترض أن هذه هى رغبتك • فليكن لك ما تشاء !•• فى رأيى أنه لو كانت اكتشافات كبلر أو نيوتن ، بسبب تضافر ظروف معينة ، ما كان لها أن تتحقق الا اذا ضُحِّى فى سبيلها بحياة فرد أو عشرة أفراد أو مائة فرد بل بحياة عدد من الأفراد أكبر يعيقون تحقيقها أو يقفون حائلاً دونها ، فانه يكون من حق نيوتن بل ومن واجبه ••• أن « يزيح » أولئك الأفراد العشرة أو المائة فى سبيل أن ينفع الانسانية باكتشافه • ولكن ليس يترتب على هذا قط أن من حق نيوتن أن يقتل اى انسان يحلو له أن يقتله ، ولا أن يسرق كل يوم من أحد الأسواق • وأذكر أننى أوضحت فى مقالتى أن جميع المؤسسين والمشرِّعين فى تاريخ الانسانية ، من أقدمهم الى أحدثهم ، مروراً بأمثال ليسورجوس وسولون ومحمد ونابليون وغيرهم ، يمكن أن يوصفوا جميعاً بأنهم مجرمون ، لأنهم حين أقاموا قانوناً انما خالفوا بذلك نفسه قانوناً قديماً كان يُعدُّ مقدساً وكان موروثاً عن الأسلاف ؛ وما كان لهم طبعاً أن يمتنعوا عن سفك الدم (مهما يكن بريئاً فى بعض الأحيان ، ومهما يكن قد بُذل بذلاً بطولياً فى سبيل القانون القديم) حين يسهِّل سفك هذا الدم مهمتهم ؛ بل ويحسن أن نلاحظ أن أكثر هؤلاء الرواد الذين أحسنوا الى الانسانية وأصلحوا المجتمع انما كانوا أناساً شاذين دمويين • وأوجز فأقول انهم جميعاً ، لا أعظمهم فحسب بل الذين يعلون أقل علوٍ فوق الحد الوسط أيضاً ، أى الذين

قادرين ولو قدرة يسيرة على التعبير عن أفكارهم الجديدة ، انما كانوا مضطرين بحكم طبيعتهم نفسها الى أن يكونوا قتلة ، قليلا أو كثيراً طبعاً ؛ ولولا ذلك لما استطاعوا أن يخرجوا عن الحد الوسط ، وهم بحكم طبيعتهم أيضاً ما كان لهم أن يقبلوا البقاء عند هذا الحد الوسط ؛ بل وفى رأيى أنه كان من واجبهم أن لا يقبلوا البقاء عند هذا الحد الوسط .
الخلاصة : ها أنت ذا ترى أنه ليس فيما قلته حتى الآن شىء جديد كل الجدة . أما عن تقسيمى الرجال الى فئتين ، فئة العاديين وفئة الخارقين ، فاننى أوافق على أن فى هذا التقسيم شيئاً من التحكم ، ولكننى لم أقدم أرقاماً أيضاً . وأنا انما أومن بفكرتى الرئيسية ، وهى أن الرجال ينقسمون ، بحكم قوانين الطبيعة ، الى فئتين ، « بوجه عام » : فئة دنيا هى فئة العاديين الذين لا وجود لهم الا من حيث أنهم مواد ان صح التعبير ، وليس لهم من وظيفة الا أن يتناسلوا ، وفئة عليا هى فئة الخارقين الذين أوتوا موهبة أن يقولوا فى بيئتهم « قولاً جديداً » . ولا شك أن هناك تقسيمات فرعية لا حصر لعددها ، ولكن السمات المميزة التى تفصل هاتين الفئتين قاطعة . فأما الفئة الأولى ، وهى فئة المواد ، فان افرادها ، على وجه العموم ، أناس « خُلقوا محافظين » ، أناس معتدلون يعيشون فى الطاعة ويحلو لهم أن يعيشوا فى الطاعة . وعندى أن عليهم أن يطيعوا ، لأن الطاعة هى ما كُتب لهم ، وليس فى طاعتهم ما يسىء اليهم أو يذل كرامتهم . وأما الفئة الثانية فهى تتألف من رجال يتميزون بأنهم جميعاً يكسرون القانون ، بأنهم جميعاً مدمّرون ، أو بأنهم جميعاً ميالون الى أن يصبحوا كذلك بحكم ملكاتهم . وجرائم هؤلاء الرجال تتفاوت خطورتها وتتنوع أشكالها طبعاً . وأكثرهم يريدون ، بأساليب متنوعة جداً ، تدمير الحاضر فى سبيل شىء أفضل . فاذا وجب على أحدهم ، من أجل تحقيق فكرته ، أن يخطو فوق جثة ، أو فوق بركة دم ، فانه

يستطيع (فى رأيى) أن يعزم أمره على أن يخطو فوق الجثة وفوق بركة الدم مرتاح الضمير ؟ وكل شيء رهن بمضمون فكرته ، وبما لها من أهمية طبعاً . بهذا المعنى وحده انما تحدثت فى مقالتى عن حق ارتكاب الجريمة (انك تتذكر أن نقطة البداية التى انطلقنا منها انما كانت مسألة حقوقية). على أنه لا داعى الى القلق كثيراً . فان الجمهور لا يكاد يعترف لهؤلاء الرجال أبداً بهذا الحق . بالعكس : ان الجمهور يضطهدهم ويشنقهم (كثيراً أو قليلاً) ، وهو فى هذا يمارس حقه ، ويقوم بوظيفته كجمهور محافظ ، رغم أن الأجيال اللاحقة من هذا الجمهور نفسه ستخلد ذكر أولئك المضطهدين المعذبين ، فتقيم لهم التماثيل ، وتقدسهم (كثيراً أو قليلاً) . فالفئة الأولى من الرجال هى سيدة الحاضر ، والفئة الثانية هى سيدة المستقبل . الأولون يحفظون العالم ويزيدونه كماً ، والآخرون يحركونه ويقودونه الى غاية . ولهؤلاء وأولئك حق واحد فى الحياة . أى ان لهم كلهم حقوقاً متساوية ، و « عاشت الحرب الأبدية ! » ، الى أن تقوم أورشليم الجديدة طبعاً !

ـ أأنت تؤمن اذن بأورشليم الجديدة ؟

أجاب راسكولنيكوف بصوت ثابت :

ـ أؤمن !

قال ذلك خافضاً رأسه مثبتاً بصره على نقطة من السجادة ، كما كان طوال مدة حديثه المستفيض .

ـ وهل تؤمن بالله أيضاً ؟ اغفر لى فضولى !

فأجاب راسكولنيكوف وهو يرفع بصره الى بورفير :

ـ أؤمن به .

ـ وهل تؤمن ببعث لعازار ؟

ـ أؤ ••• أؤمن به • ولكن لماذا تسألني عن هذا كله ؟

ـ هل تؤمن بذلك نصاً وحرفاً ؟

ـ نصاً وحرفاً !

ـ صحيح ؟ اغفر لي فضولي • لقد سألتك عن هذ كله من باب حب الاطلاع • ولكن اسمح لي • سوف أعود الآن الى ما كنت تقوله • أنا أرى أن الجمهور لا يضطهدهم ويعذبهم جميعاً • بالعكس : بعضهم •••

ـ بعضهم ينتصرون أثناء حياتهم ؟••• نعم بعضهم يحققون غاياتهم أثناء حياتهم ، وعندئذ فانهم هم الذين •••

ـ هم الذين يرسلون الآخرين الى التعذيب ...

ـ نعم ، اذا لزم الأمر ••• وأكثرهم يفعلون ذلك حقاً • ملاحظتك هذه ••• لطيفة جداً •

ـ أشكرك • ولكن قل لي : كيف نميّز هؤلاء الخارقين عن أولئك العاديين ؟ هل هم يحملون علامات خاصة منذ ولادتهم ؟ أقصد أنه لا بد من دقة أكبر ، أي لا بد من علامة مميزة واضحة • اغفر لي هذا الاهتمام ، وهو اهتمام طبيعي لدى رجل عملي يريد الخير • ألا يمكننا مثلاً أن نلبسهم رداء خاصاً ، أن نخلع عليهم زياً موحداً ، أن نميّزهم بعلامة فارقة ؟ اذ لا بد أن تسلّم معي بأنه اذا حدث اختلاط ، فتخيل رجل من رجال الفئة الأولى أنه ينتمي الى الفئة الثانية ، فأخذ « يزيح » جميع العوائق ، على حد تعبيرك الموفق ، فان •••

ـ صحيح ••• هذا يحدث كثيراً • ملاحظتك هذه ألطف من سابقتها أيضاً •

ـ أشكرك •

ـ لا داعى الى الشكر • ولكن لاحظ أن هذا الخطأ لا يمكن أن يقع الا لأفراد الفئـة الأولى ، أى فئـة العاديين (الذين لعلنى لم أوفق كثيراً حين أطلقت عليهم هذا الاسم) : ان كثيراً من هؤلاء العـاديين ، رغم ميلهم الفطرى الى الطـاعة ، يمكن أن نلاحظ فيهم نزوةً من تلك النزوات التى نلاحظها فى الطبيعة ، ونلاحظها حتى لدى الأبقار ، فاذا هم يحبون أن يحسبوا أنفسهم رجالاً من الطليعة ، رجالاً مدمِّرين ، واذا هم يقحمون أنفسـهم فى الدعوة الى « القـول الجديد » ، صادقين مخلصين من جهة أخرى • وكثيراً ما يحـدث لهم فى الوقت نفسـه أن لا يعترفوا بأولئك الذين هم مجدِّدون حقاً ، حتى لقد يعدونهم أناسـاً منحطين ، رجعيين ، جديرين بالاحتقار • ولكنى أعتقد أن هذا ليس فيه خطر كبير ، فما ينبغى لك أن تقلق ، وذلك لسبب بسـيط هو أن هؤلاء لا يقطعون شوطاً بعيداً فى يوم من الأيام ، وفى وسعك طبعاً ، من أجل أن تعاقبهم على حماستهم الطائشة ، وأن تردَّهم الى مواقعهم ، فى وسعك أن تجلدهم أحياناً • ولكن هذا كل شيء ؟ بل انه لا حاجة الى أن يتولى أحد هذه المهمة ، فانهم يجلدون أنفسهم بأنفسهم ، لأنهم أناس أخلاقيون جداً ، فبعضهم يجلدون أنفسهم بأيديهم ، وبعضـهم يطلبون الى أقرانهم البشر أن يؤدوا لهم هذه الخدمة • ثم انهم يفرضون على أنفسهم أنواعاً من الكفارات على رءوس الأشهاد فيكون هذا درساً مفيداً وعبرة جميلة • الخلاصة : ليس عليك أن تقلق • ذلك هو القانون !

ـ حسـناً ! لقد طمأنتنى من هذه الناحيـة قليلاً على كل حال • ولكننى أرى خطراً آخـر • قل لى من فضلك : هل هم كثيرون أولئك الأفراد الذين يحق لهم أن يذبحـوا غـيرهم ، هل هم كثيرون أولئـك « الخارقون » ؟ اننى مستعد طبعاً لأن أنحنى احتراماً لهم ، ولكن لا بد

أن توافقني على أن المرء لا بد أن يشعر برعدة تسرى فى ظهره اذا هم كانوا كثيرين ؟ أليس كذلك ؟

تابع راسكولنيكوف كلامه قائلاً بتلك اللهجة نفسها :

ـ لا تقلق من هذا أيضاً ٠ فعلى وجه العموم ، لا تولد الا قلة قليلة جداً من هؤلاء الأفراد الذين يملكون فكرةً جديدة حقاً ، أو يقدرون على أن يعبروا عن فكرة جديدة ٠ هنالك شيء واحد محقق ، هو أن نسبة الأفراد الذين يولدون فى هذه الفئة أو تلك لا بد أنها يحدّدها قانون طبيعي ما تحديداً دقيقاً ٠ وهذا القانون ما يزال حتى الآن مجهولاً ، ولكنني أعتقد أنه موجود ، وأنه سيمكن اكتشافه فى المستقبل ٠ ولئن وُجدت كتلة من الأفراد تبلغ هذا المبلغ من الضخامة ، فما ذلك الا لمحاولة خلق انسان مستقل بعض الاستقلال ، ولو بنسبة واحد الى ألف ، وذلك بتطور ما يزال سرياً مجهولاً ، وبواسطة أنواع شتى من تصالبات عروق وأنواع ، الخ ٠ أما الأفراد الذين يملكون استقلالاً أكبر فان نسبتهم أصغر من ذلك : هم واحد بين عشرة آلاف (أتكلم على وجه التقريب) ٠ وأما الأفراد الذين يملكون درجةً عليا من الاستقلال فان نسبتهم أصغر من ذلك أيضاً : هم واحد بين مائة ألف ٠ وأما العباقرة فلا يوجد منهم الا واحد بين مليون ٠ وأما كبار العباقرة ، الذين هم قمة النوع الانساني ، فلا بد أن تنتظر أن تمر على الأرض ألوف ملايين الأفراد حتى يظهر منهم واحد ٠ أنا لم أقم طبعاً بجولة فى البوتقة التى يتم فيها هذا كله ، ولكن القانون موجود ، ولا بد أن يكون هناك قانون من هذا النوع ٠ فلا مصادفة هنا !

صاح رازوميخين يقول أخيراً :

ـ قولا لى : أأنتما تمزحان ؟ أأنتما بسبيل أن يخدع كل منكما

الآخر ؟ ان كلاً منهما جالس أمام صاحبه يستهزىء به ويضحك عليه ! أأنت تتكلم جاداً يا روديا !

رفع راسكولنيكوف وجهه الشاحب نحو رازوميخين صامتاً ، حزيناً، ولم يجب بشيء . فلما رأى رازوميخين هذا الوجه الهادىء المتألم ، استغرب تلك اللهجة اللاذعة الفظة « المتحدية » التى استعملها بورفير .
قال رازوميخين :

ـ طيب يا صاحبى ، اذا كنت تتكلم جاداً ... فمن حقك طبعاً أن تقول ان هذا كله ليس فيه جديد ، فهو يشبه ما قرأناه وسمعناه ألف مرة . ولكن الشيء « الجديد » حقاً فى الأمر ، الشيء الذى تنفرد به ـ وهذا ما أشعر منه بهول ورعب ـ هو أنك تجد أن من الطبيعى أن يسفح انسان دماً وهو واعٍ كل الوعى ، وأنك تدافع عن هذا الرأى بمثل هذا التعصب كله ... سامحنى . معنى ذلك أن هذه هى الفكرة الأساسية التى تتضمنها مقالتك . وأنا أرى أن هذا السماح « الأخلاقى » بسفح الدم ، أفظع حتى من السماح بسفح الدم رسمياً أو شرعياً .

قال بورفير :

ـ صحيح تماماً . هو أفظع منه .

وقال رازوميخين يخاطب راسكولنيكوف :

ـ لا ، لا ، لقد سمحت لنفسك بالاندفاع فى مزالق الخطأ . هناك خطأ . سوف أقرأ المقالة . حقاً لقد أسرفت فى الغلو . لا يمكن أن يكون هذا تفكيرك . سوف أقرأ المقالة ...

قال راسكولنيكوف :

ـ ليس فى المقالة شيء من هذا كله . المقالة لا تتضمن الا اشارة .

قال بورفير وقد أصبح لا يستطيع أن يستقر فى مكانه :

ـ نعم ، نعم ، الآن أصبحت أدرك رأيك فى الجريمـة بشىء من الوضوح • اغفر لى الحاحى (أنا أعرف أننى أضايقك) • لقد طمأنتنى منذ قليل فى موضـوع الاختلاط الذى يمكن أن يحـدث بين الفئتين • ولكن ••• هناك حالات تظل تقلقنى من وجهة النظر العملية • لنفرض أن رجلاً أو شاباً يعدُّ نفسه مثل ليكورجوس أو مثل محمد • انه سوف يشرع فوراً فى « ازاحة » جميع العوائق • سوف يقول : ان على عاتقى أن أقوم بحملة بعيدة ؟ ومن أجل القيام بحملة لا بد لى مال • ولذلك سوف يبدأ بالحصول على المال للقيام بحملته • واضح ؟

هنا انفجر زاميوتوف ضاحكاً فى ركنه ضحكاً قوياً على حين فجأة• ولكن راسـكولنيكوف ظل سـاكناً ، حتى أنه لم يرفع نحـوه عينيـه • وأجاب يقول بلهجة هادئة :

ـ أعترف بأن حـالات كهـذه لا بد أن تقع فعـلاً • ان الحمقى والمغرورين يقعون فى هذا الفخ ، ولا سيما اذا كانوا شباباً •

ـ أرأيت ؟ فماذا اذن ؟

أجاب راسكولنيكوف ضاحكاً :

ـ ما شأنى أنا ؟ أنا لا دخل لى ! هكذا انما جرت الأمور دائماً • قال هو منذ قليل (هنا أومأ راسـكولنيكوف الى رازوميخين) اننى أبيح سفح الدم • ما قيمة ذلك ؟ ان المجتمع تحميـه المنافى والسجون وقضـاة التحقيق والمعتقلات ؟ فعلام القلق ؟ طاردوا السارق !

ـ واذا قبضنا عليه ؟

ـ يجب أن يتيح لكم أن تقبضوا عليه •

ـ أنت منطقى • ولكن ماذا عن ضميره الأخلاقى ؟

ـ فيم يعنيكم ضميره الأخلاقى ؟

ـ مسألة انسانية .

ـ من كان له ضمير أخلاقى فليس له الا أن يتعذب اذا هو اعترف لنفسه بخطيئته . سيكون هذا عقاباً له ، بالاضافة الى السجن .

سأل رازوميخين وهو يقطب حاجبيه :

ـ والأشخاص الذين يملكون العبقرية حقاً ، الأشخاص الذين أُعطوا حق القتل ، هل يجب عليهم أن لا يتألموا البتة ولو سفحوا دماً ؟

ـ لماذا تستعمل تعبير « يجب عليهم » ؟ ليس ههنا لا اذن ولا منع . ألا فليتألم من تأخذه بضحية شفقة ! لا بد أن يتألم من كان واسع الوجدان عميق الشعور .

ثم أضاف راسكولنيكوف يقول فجأة وقد شرد فكره واختلفت هيئة عما كانت عليه أثناء الحديث :

ـ يخيَّل الىَّ أن الرجال العظماء لا بد أن يشعروا على هذه الأرض بحزن عظيم .

ورفع راسكولنيكوف عينيه ونظر الى الجميع مفكراً ، وابتسم ، وتناول قبعته . كان هادئاً هدوءاً كبيراً بالقياس الى الحالة التى كان عليها حين دخل ؛ وكان يحس هو بذلك .

نهض الجميع .

واستأنف بورفير بتروفتش كلامه فقال :

ـ لك أن تشتمنى ولك أن تغضب ان شئت ؛ ولكننى لا أستطيع أن أغالب رغبتى فى أن ألقى عليك سؤالاً آخر صغيراً . أنا أعلم أننى أرهقتك ارهاقاً شديداً ، ولكننى أحب أن أعبِّر لك عن فكرة صغيرة راودتنى وأخشى أن أنساها ...

ـ هات فكرتك الصغيرة •

كذلك قال له راسكولنيكوف جاداً ، شـديد شحوب الوجه ، وهو واقف أمامه ينتظر •

ـ اليك فكرتى ••• ولكننى لا أعرف حقاً كيف أعبّـر عنها تعبيراً مناسباً ••• ان فكرتى الصغيرة تافهة قليلاً ••• هى فكرة سيكولوجية•• اسمع : انه لمن المستحيل عليك أثناء كتابتك تلك المقالة أن لا تكون ••• هىء هىء هىء ••• أن لا تكون قد عددت نفسك ••• انساناً خارقاً بعض الشىء ••• انساناً يحمل « القول الجديد » ، بالمعنى الذى قصدته ، أليس هذا صحيحاً ؟

قال راسكولنيكوف باحتقار :

ـ جائز جداً •

وتحرك رازوميخين •

وعاد بورفير بتروفتش يتكلم فقال :

ـ فـاذا كان الأمـر كذلك ، أفلا يمـكن أن تكون قد قررت أنت نفسك ، فى أعقاب اخفاق شخصى ما ، أو للخلاص من الفقر ، أو أيضاً لتعجيل سير الانسانية الى أمام ، لا يمكن أن تكون قد قررت أنت نفسك أن تتخطى الحاجز ••• ف ••• فتقتل مثلاً أو تسرق ؟•••

قال بورفير بتروفتش هذا وغمز بعينه اليسرى وأخذ يضحك ضحكاً خفيفاً ، كما فعل منذ قليل •

فأجابه راسكولنيكوف بلهجة متكبرة متحدية :

ـ اذا كنت قد تخطيت الحاجز فلن أقول لك اننى تخطيته •

ـ ان أمراً واحداً يهمنى ، هو أن أُحسن تأويل مقالتك ، وأن أُحسن ذلك من الناحية الأدبية وحدها •

قال راسكولنيكوف لنفسه : « هوه ! يا للشرك القذر ! » •

وقال يجيب مخاطبه بخشونة :

ـ اسمح لى أن ألفت نظرك الى أننى لا أعد نفسى لا مثل محمد ولا مثل نابوليون ••• ولا مثل أى شخص من هذا النوع !••• واذ أننى لست واحداً من هؤلاء الأشخاص ، فاننى لا أستطيع أن أقدم اليك جواباً مرضياً ، فأقول لك ما الذى يمكن أن أفعله •

قال بورفير بتروفتش فجأة بألفة مخيفة :

ـ دعك من هذا الكلام ! أىُّ واحد منا ، فى روسيا ، لا يعد نفسه اليوم مثل نابوليون ؟

وكان فى نبرة صوته نفسها ما يدل على نية واضحة جداً •

ورشق زاميوتوف من ركنه هذا السؤال :

ـ ألا يمكن أن يكون واحد ممن يعدون أنفسهم مثل نابوليون فى المستقبل هو الذى قتل آليونا ايفانوفنا فى الأسبوع الماضى ؟

صمت راسكولنيكوف وحدّق الى بورفير بنظرة ثابتة قاسية• واكفهر وجه رازوميخين • كان رازوميخين قد بدأ يشتبه منذ برهة • ونظر حواليه غاضباً • وانقضت دقيقة فى صمت قاتم • وتحرك راسكولنيكوف يريد أن ينصرف •

قال بورفير بلهجة رقيقة عذبة :

ـ أتنصرف ؟

ومدَّ اليه يده بكثير من التحبب والتودد • وتابع يقول له :

ـ سعيد جداً ، سعيد جداً بمعرفتك • أما عن مطالبتك برهنيك ، فكن مطمئناً : يكفى أن تكتب عريضةً بالمعنى الذى أشرت به عليك •

نعم • بل ربما كان الأفضل من ذلك أيضاً أن تأتى الىَّ ، فى يوم قريب ••• فى الغد مثلاً ••• سأكون بمكتبى حتماً فى نحو الساعة ••• الحادية عشرة • سنرتب الأمر كله ، وسنثرثر قليلاً ••• فاذ أنك واحد من أواخر من ذهبوا الى « هناك » ، فانك قد تستطيع أن تقول لنا شيئاً ما (هذا ما أضاف يقوله وهو يصطنع كل الطيبة وكل البساطة) •

سأله راسكولنيكوف بلهجة خشنة :

ـ أتريد أن تستجوبنى رسمياً ، وفقاً للأصول ؟

ـ فيم أستجوبك على هذا النحو ؟ لا تدفعنى الى هذا أية ضرورة حتى الآن • طبعاً ••• أنا لا أدع لأية فرصة تفلت منى ••• وقد تحدثت الى جميع الذين أودعوا رهوناً لدى العجوز • حتى لقد استطعت أن أحصل على بعض الدلائل • ولما كنت أنت آخر هؤلاء •• ولكن بالمناسبة (هتف يقول ذلك فجأة فى غمرة من الفرح) بالمناسبة ••• الآن تذكرت ••• ماذا أريد أن أقول ؟••• (هنا التفت يخاطب رازوميخين) ••• نعم يا رازوميخين ••• ان الفتى نيكولاشكا ذاك الذى صدَّعت به رأسى ••• قد ثبت لى اليوم ••• على وجه اليقين (وهنا عاد يلتفت الى راسكولنيكوف) أنه برىء ••• ولكن ما حيلتى ؟ لقد كان لا بد لى أيضاً من ازعاج ميتكا ••• والآن اليك ما كنت أريد أن أسألك عنه : حين صعدتَ السلَّم ، كانت الساعة بين السابعة والثامنة ، أليس كذلك ؟

أجاب راسكولنيكوف :

ـ نعم ، كانت الساعة قد تجاوزت السابعة •

وسرعان ما أدرك راسكولنيكوف ممتعضاً أنه كان فى وسعه أن لا يذكر هذا •

ـ ألم ترَ ، وأنت تصعد السلم ، بعد الساعة السابعة ، فى شقة كان

بابها مفتوحاً ـ هل تتذكر ؟ ـ ألم ترَ عمالاً كانوا يعملون فى تلك الشقة ، أو عاملاً منهم على الأقل ؟ هم دهانون كانوا يدهنون الشقة ، ألم تلاحظهم ؟ هذا أمر هام جداً ، هام جداً جداً بالنسبة اليهم .

أجاب راسكولنيكوف يقول ببطء ، كأنه ينبش ذاكرته ، وهو يحاول بجهد مرهق أن يكتشف الفخ الذى ينصبه له مخاطبه ليتحاشى الوقوع فيه :

ـ دهانون ؟ لا ، لم أر دهانين . لا ، لم أرهم . ثم اننى لا أذكر أننى رأيت شقة كان بابها مفتوحاً . ولكننى فى مقابل ذلك (هو يشعر الآن بأنه تجنب الفخ وهو فرح بذلك) أذكر أن موظفاً كان ينتقل فى الطابق الثالث من الشقة التى تقع أمام شقة آليونا ايفانوفنا . اننى أذكر هذا ، بل أذكره واضحاً كل الوضوح ... كان هناك جنود يحملون أريكة ، فاضطررت أن التصق بالحائط . ولكننى لم أر دهانين ، لا ، لا أذكر أننى رأيت دهانين. ويخيل الىّ أنه لم يكن أى باب من الأبواب مفتوحاً . لا ، لم يكن هناك باب مفتوح ... لم يكن هناك باب مفتوح ...

صاح رازوميخين يقول فجأة كأنه ثاب الى رشده أخيراً وفهم فى هذه اللحظة نفسها ، صاح يقول مخاطباً بورفير :

ـ ولكن ما هذا الذى تقوله ؟ أنت تعلم أن الدهانين كانوا يعملون يوم مقتل العجوز ، أما هو فقد ذهب الى العجوز قبل ذلك بيومين . فما هذا السؤال الذى تلقيه عليه ؟

فهتف بورفير قائلاً وهو يلطم جبينه :

ـ آ ... نعم ... اختلط علىّ كل شىء . تباً لى . ان هذه القضية قد أفقدتنى صوابى .

والتفت يقول لراسكولنيكوف كأنما ليعتذر :

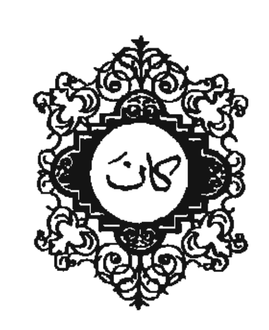
ـ اننى من فرط اهتمامى بأن أعرف هل رأى أحد أولئك الدهانين بعد الساعة السابعة فى الشقة ، قد تخيلت أنك تستطيع أن تجيب عن هذا السؤال ... نعم ، لقد اختلط علىّ كل شىء .

قال رازوميخين غاضباً :

ـ يجب عليك أن تنتبه !

وقد قيلت هذه الكلمات الأخيرة حين وصلوا الى حجرة المدخل . لقد شيّعهما بورفير بتروفتش الى الباب بتودد كبير ولطف بالغ . فلما صارا فى الشارع كان كل منهما مظلم النفس متجهم الوجه . وسارا بضع خطوات لا ينطقان بكلمة واحدة . وتنفس راسكولنيكوف تنفساً عميقاً ...

الفصل السادس



رازوميخين يردّد قائلاً في حيرة واضطراب وهو يحاول أن يدحض حجج راسكولنيكوف بكل ما أوتي من قوة :

ـ أنا لا أصدّق هذا ! لا أستطيع أن أصدّقه !

كانا قد اقتربا من عمارة باكالايف ، حيث تنتظرهما بولشيريا الكسندروفنا ودونيا منذ مدة طويلة • وفي غمرة المناقشة الحامية ، كان الفتى يتوقف في كل لحظة مضطرباً قلقاً ، على الأقل لأن هذه هي المرة الأولى التي يتحدثان فيها صراحةً عن « ذلك الأمر » •

أجاب راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة باردة جافة :

ـ لا تصدّق ! أنت على عادتك لم تلاحظ شيئاً ، أما أنا فقد كنت أزن كل كلمة •

ـ أنت شكاك ريّاب ، لذلك كنت تزن كل كلمة • هِمْ ••• أوافقك على أن لهجة بورفير كانت غريبة بعض الغرابة ••• وأن ذلك الوغد زاميوتوف خاصةً ••• انك على حق ••• لقد كان فيه شيء من ، شيء من ••• ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

ـ سيفكر أثناء الليل !

ـ ولكن لا ، بالعكس ، بالعكس ! لو كانت تدور في ذهنيهما فكرة كهذه الفكرة الغبية ، لحاولا ، على العكس ، أن يخفياها بجميع الوسائل،

لحاولا أن يكتماها ليفاجئاك بها فيما بعد ، أما ما فعلاه فقد كان ... كان وقاحة ، وقاحة ...

ـ لو كانا يملكان وقائع ، أقصد وقائع حقيقية ، أو شبهات تقوم على أى أساس من وقائع ، لحاولا أن يخفيا ما يدور فى ذهنيهما (ولقاما من جهة أخرى بتفتيش مسكنى منذ مدة طويلة) . ولكنهما لا يملكان وقائع ، لا يملكان أية واقعة . ليس هذا كله الا سراباً !... هذا كله لا رأس له ولا ذنب !.. هذا كله لا يقوم على شىء ولا يستند الى شىء ، لذلك لا يعمدان الى طريقة المباغتة . لعله هو نفسه غاضب من أنه لا يملك أية واقعة . لعل هذا هو السبب فى حنقه وغيظه . وربما كان كذلك يبيّت نية خفية خبيثة . هذا رجل ذكى ، كما يبدو لى أنا على الأقل ... لعله أراد تخويفى باظهار أنه يعرف أشياء ... يا صاحبى ، الأمر هنا أمر سيكولوجيا شخصية . على كل حال ... فان جميع هذه التفسيرات والتأويلات تثير اشمئزازى . هلاّ تركنا هذا الحديث كله !

ـ ثم ان فى كلامه اهانة ، اهانة ! أنا أفهمك . ولكن ما دمنا قد بدأنا التحدث بصراحة (وانه لحسن جداً أننا وصلنا الى ذلك ، وأنا مغتبط بهذا أشد الاغتباط) ، فأحب أن أعترف لك دون لف أو دوران أننى قد لاحظت منذ مدة طويلة أن هذه الفكرة تدور فى ذهنيهما . ولكن لا شك أنها لم تكن قد تجسدت بعد ، وأنها لم يكن لها الا وجود كامن. على أن وجودها فى ذهنيهما حتى فى هذه الصورة أمر لا يطاق . كيف يجرؤان ؟ أين ، فى أى جزء من نفسيهما استطاعت هذه الفكرة أن تجد لها عشاً ؟ ليتك تعلم كم أحنقنى هذا وكم أثار جنونى ! طالب فقير دمرته أنواع البؤس وصنوف الهواجس والمخاوف .. على وشك الاصابة بمرض مصحوب بهذيان ... بل لعل المرض كان قد ألمّ به منذ ذلك الحين

(لاحظ هـذا) ••• شـاب مفرط فى الشك والحـذر ، شـديد الكبرياء شـاعر بقيمتـه ، ظل مدفوناً فى ركنه ستة أشهر لا يرى فى أثنائها أحداً ••• قد بليت ثيـابه حتى أصبحت خـرقاً رثة لا تستر ظهـره ، وبلى حـذاءه حتى اهتـرءا فكأنه حافى القدمين ••• شـاب هذا شأنه يجد نفسه واقفاً على حين فجأة أمام رجال من الشرطة تافهين يصبو عليه وقاحاتهم ، ويطالبونه بأن يبادر الى سداد قيمة سند باطل ••• ورائحة الدهان الطرى تزكم أنفه ••• والحـرارة ثلاثون درجة فى غرفة غاصة بالناس ، فلا يكاد يستطيع أن يتنفس ••• وها هو ذا يسمع حديثاً عن مقتل امرأة كان قد رآها بالأمس ••• وهو فوق ذلك خاوى المعدة ••• أفعجيب أن يغمى على هذا الشـاب حينـذاك ؟ كيف يبنون كل تلك الافتراضات السخيفة على اغمائه ذاك ؟ شيطان يأخذهم !••• اسمع يا روديا ! أنا أدرك أن هذا أمر يثير الغيظ • ولكننى لو كنت فى مكانك لما زدت على أن أضحك منه ••• لما زدت على أن أضحك عليهم ، أمام أنوفهم ، بل وأن أبصق فى وجوههم ••• أن أرمى وجوههم بسيول من البصاق ، وأن أكيل لهم صفعات يحسون بها احساساً قوياً ••• ابصق عليهم ! أقول لك ابصق عليهم ! لا تخف !••• اجعلهم يشعرون بالخزى والعار !

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « تكلم فأحسن الكلام على كل حال ! » •

ثم قال لرازوميخين بمرارة :

ـ أبصق عليهم ؟ ولكننى سأخضع فى غد لاستجواب جديد • هل يجب على حقاً أن أصل الى حـد تقـديم شروح وتعليلات ، بينما أنا سـاخط على نفسى منـذ الآن لأننى أهنت نفسى اذ ارتضـيت أن أكلم زاميوتوف بالأمس فى الكاباريه ؟

ـ شيطان يأخذهم . سأذهب الى بورفير بنفسي . ولأتصرفن معه تصرف « قريب من أقربائه » ، صدقني . لا بد أن يفرغ جعبتـه . أما زاميوتوف ...

قال راسكولنيكوف لنفسه : « أخيراً فهم » .

وصاح رازوميخين قائلاً وهو يمسكه من كتفه :

ـ انتظر ! انتظر ! لقد قلت حماقة من الحماقات . نعم ، فكّرت في الأمر ، فأيقنتُ أنك قلت حماقة من الحماقات . ما هذا الذي تذكره عن فخ نُصب لك ؟ أين الفخ في هذا ؟ أنت تزعم أن مسألة العمال هذه فخ . ولـكن فكّر قليـلاً : لو كنت قد فعلت « ذلك الأمـر » ، أفكنت تستسلم فتذكر أن الشقة كانت تُدهن ... وأنك فوق ذلك قد رأيت العمـال ؟ بالعكس . ما كنت لتذكر أنك رأيت عمـالاً ، حتى ولو كنت قد رأيتهم . من ذا الذي يشهد على نفسه ؟

أجاب راسـكولنيكوف يقـول على مضض ، مشـمئزاً اشـمئزازاً واضحاً :

ـ لو كنت قد فعلت « ذلك الأمر » ، لذكـرت حتمـاً أنني رأيت العمال والشقة .

ـ ولكن لماذا يشهد المرء على نفسه ؟

ـ لأنه ما من أحد غير الفلاحين السـذّج أو الأغرار الذين ليس لهم خبرة ينكر كل شيء على الاطلاق حين يُستجوب . أما الانسان الذي يملك ولو أقل قدر من الذكاء والخبرة ، فانه لا يفـوته أبداً ، في حدود الامكان ، أن يعترف بالوقائع الخارجية التي لا سبيل الى انكارها ، وانما هو يحاول أن يؤولها تأويلاً آخر ، أن يرتبها على النحو الذي يريد ، أن يضفي عليها دلالةً غير متوقعة ، فاذا هي تفسَّر تفسيراً جديداً وتـرى

فى ضوء جديد • ولقد كان بورفير يأمل أن أجيب قطعاً بهذه الطريقة ، أى أن أذكر له أننى رأيت العمال ، من باب اضفاء مزيد من مظهر الصدق على أقوالى ، ثم أضيف الى ذلك تفسيراً ما •

ـ ولكن لو فعلت ذلك لأجابك فوراً بأنه لم يكن هناك عمال قبل مقتل العجوز بيومين ، فلا بد اذن أنك كنت هنالك يومَ مقتل العجوز بعد الساعة السابعة ••• ولضيَّعك هذا الأمر التفصيلى !•

ـ ذلك بعينه هو ما كان يعوّل عليه ويأمل فيه • كان يأمل أن يتسع وقتى للتفكير ، فاذا أنا أسارع الى تقديم الجواب الذى يضفى على أقوالى مظهر الصدق ، ناسياً أن العمال لم يكونوا هناك قبل وقوع الجريمة بيومين •

ـ وكيف تنسى هذا ؟

ـ لا أسهل من نسيانه ! وفى مثل هذه التفاصيل التافهة انما يرتبك أمكر الناس بأكبر سهولة • فكلما كان مكر المرء أكبر كانت الأمور الأبسط هى التى توقعه فى الفخ • ليس بورفير غبياً الى الحد الذى تتصوره •

ـ هو وغد كبير على كل حال !

لم يستطع راسكولنيكوف أن يمتنع عن التبسم • ولكنه فى الوقت نفسه قد استغرب هذا التعجل وهذا التلذذ اللذين سيطرا عليه وهو يقدم هذا الشرح ألم يكن قد أجرى ذلك الحديث كله مشمئزاً ، مكرهاً ، مستجيباً لدواعى الحساب وحده ؟ قال لنفسه : « لا شك أن بعض نقاط هذه القضية تجد هوىً فى نفسى ! » •

ولكنه فى تلك الدقيقة نفسها بدا عليه القلق فجأةً ، كأن فكرة غير

متوقعة ، فكرةٌ تبعث على الخوف قد ساورته على حين بغتة . وازداد قلقه . وكانا قد وصلا الى باب عمارة باكالايف .

قال راسكولنيكوف فجأة :

ــ ادخل وحدك ، وسأرجع حالاً .

ــ ولكن الى أين تذهب ؟ لقد وصلنا !

ــ يجب عليَّ أن ... يجب عليَّ أن ... هناك عمل ينبغي أن أقوم به . سأعود بعد نصف ساعة . قل لهما هذا .

ــ لك ما تشاء ، ولكنني آتٍ معك .

فهتف راسكولنيكوف يقول بحنق يبلغ من المرارة والكرب أن رازوميخين شعر باضطراب وحيرة وارتباك :

ــ أأنت أيضاً تريد اذن أن تعذبني ؟

وظل رازوميخين بعض الوقت واقفاً على درجات المدخل ، مظلم الهيئة ، ينظر الى راسكولنيكوف الذى كان يمضى بخطى مديدة فى اتجاه الزقاق المؤدى الى بيته . وأخيراً كزَّ أسنانه ، وشنَّج قبضته ، وحلف ليعصرنَّ بورفير فى ذلك اليوم نفسه ؛ وصعد يهدىء روع بولشيريا الكسندروفنا التى كانت قلقةً من تأخرهما الطويل منذ ذلك الحين .

وصل راسكولنيكوف أمام بيته مبلَّل الصدغين بالعرق ، لاهثاً يتنفس تنفساً شاقاً . وصعد السلَّم مسرعاً ودخل غرفته التى لم يكن قد أُغلق بابها ، وأسرع يوصد عليه من الداخل بالكلابة . ثم هرع ، وقد جُنَّ جنونه رعباً وذعراً ، أسرع نحو الركن الذى كان فيه الثقب الذى يخفيه ورق الجدار ، والذى كان قد خبأ فيه الأشياء المسروقة فى ذلك اليوم . دسَّ يده فى الثقب ، وظل ينبشه بكثير من العناية خلال عدة دقائق ، سابراً جميع الشقوق وجميع ثنيات الورق . فلما لم يعثر على

شيء نهض فتنفس تنفساً عميقـاً • لقد تخيَّل منذ قليل ، حين وصل مع رفيقه الى عمارة باكالايف ، تخيَّل فجأةً أن من الممكن أن يكون أحد الأشـياء التي أودعها في هذا الثقب ، كسلسلة صـغيرة أو زرّ كمٍ أو حتى الورقة التي لُفَّت بها هذه الأشياء وعليها كتابة بخط العجوز ، أن يكون أحد هذه الأشياء قد اندس في شـق من الشـقوق على نحو من الأنحاء ، فاذا هو يظهر بعد ذلك قرينـة قاطعة أو دليـلاً ثابتـاً لم يكن متوقعاً ولا يمكن انكاره •

لبث راسكولنيكوف واقفاً هنالك كالمشدوه ، ثم اذا بابتسامة غريبة ذليلة تلم بشفتيه وهو لا يكاد يشعر بها • وأخيراً تناول قبعته وخرج من الغرفة صامتاً • كانت أفكاره مشوشة مضطربة • ومرَّ تحت باب المدخل الكبير شارد الفكر حالماً •

صاح صوت ضخم قائلاً :

ـ هذا هو !

فرفع راسكولنيكوف رأسه •

كان البواب واقفاً على عتبـة حجرته ، يومىء الى راسـكولنيكوف لرجل قصير القامة يبدو عليه أنه بائع صغير ، يرتدي فوق صديرته معطفاً أشبه بثوب من ثياب المنزل ، اذا رآه الرائي من بعيد ظنه امرأة ؛ وعلى رأسه قبعة متسخة ، ورأسـه مائل على صـدره ؛ ويدل وجهـه الرخو المتغضن على أنه في نحو الخمسـين من عمره على أقل تقـدير ، وتعبِّر عيناه الصغيرتان الغائرتان في حجاجيهما عن قسوة وتجهم واستياء •

سأل راسكولنيكوف البواب وهو يقترب :

ـ ماذا هنالك ؟

فرشقه البـائع الصـغير بنظرة من تحت ، وحـدَّق اليه يتفحصـه

باتنباه ، ثم ابتعد عن باب المدخل وسار فى الشارع دون تعجل ، ودون أن يقول كلمة واحدة •

هتف راسكولنيكوف يقول :

ـ ولكن ماذا هنالك ؟

فأجابه البواب :

ـ هو رجل سألنى هل يسكن فى هذه العمارة طالب • وقد ذكر اسمك ، وسأل كذلك عن الشخص الذى تقيم عنـده • فلما نزلت أنت فى تلك اللحظة نفسها دللته عليـك ، فاذا هو ينصرف ••• على النحو الذى رأيت •

كان البواب مدهوشاً هو أيضاً ، لكن دهشته لم تكن قوية كثيراً • وقد فكَّر لحظة ، ثم استدار وعاد يدخل حجرته •

هرع راسكولنيكوف يجرى فى آثار البـائع الصغير ، فسرعان ما لمحه سائراً فى الجهة الأخرى من الشارع ، بخطى متسـاوية بطيئة ، مطرقاً الى الأرض ، شارد الفكر • ولم يلبث راسكولنيكوف أن لحق به ، ولكنه اكتفى فى أول الأمر بأن يسير وراءه• ثم أدركه أخيراً ، فألقى على وجهه نظرة مواربة • فلاحظه الرجل فوراً ، فألقى عليه نظرة سريعـة لكنه عاد يخفض عينيه • وسار الرجلان على هذا النحو جنباً الى جنب مدة دقيقة دون أن يقول أحد منهما شيئاً •

وأخيراً قال راسكولنيكوف بصوت أجش :

ـ سألتَ عنى ••• البواب •••

فلم يجبـه الرجل ، حتى انه لم يرفع اليه بصره • وسـاد صمت جديد •

عاد راسكولنيكوف يقول بصوت مختنق ، فلا تخرج الألفاظ من صدره الا بعناء كبير :

ـ انك قد جئت تسأل عني ... وهأنت ذا تصمت الآن ... فما معنى هذا ؟

فرفع الرجل عينيه في هذه المرة ، وحدَّق الى راسكولنيكوف بنظرة قاتمة مشئومة ، وقال له بصوت خافت لكنه واضح متميز :

ـ قاتل !

كان راسكولنيكوف يسير الى جانبه . فلما سمع منه هذه الكلمة ، ضعفت ساقاه ضعفاً رهيباً ، وسرت في ظهره رعدة باردة ، وتوقف قلبه عن الخفقان لحظة ، كأنه قد انهار انهياراً كاملاً على حين فجأة . وسارا على هذا النحو مسافة مائة خطوة ، جنباً الى جنب ، في صمت مطلق . وكان الرجل لا ينظر اليه .

تمتم راسكولنيكوف يقول أخيراً بصوت لا يكاد يُسمع :

ـ ولكن ماذا تريد أن ... من ... من هو القاتل ؟

فقال الرجل بصوت فيه مزيد من الوضوح ، وفيه مزيد من الحزم أيضاً :

ـ القاتل « أنت » !

وبنوع من ابتسامة تعبِّر عن كره وانتصار ، نظر الى راسكولنيكوف من جديد ، متفرساً في وجهه الشاحب وعينيه المنطفئتين .

وكانا قد وصلا الى مفترق ، فسار الرجل يسرةً ، وابتعد دون أن يلتفت . وظل راسكولنيكوف مسمَّراً في مكانه يتابعه بنظراته مدةً طويلة . حتى اذا قطع الرجل المجهول مسافة خمسين خطوة ، رآه

راسكولنيكوف الذى ما يزال جامداً فى مكانه ، رآه يلتفت وينظر اليه ، مبتسماً ابتسامةً فيها برودة ، وانتصار ، وكره •

فقفل راسكولنيكوف راجعاً الى بيته ، يسير بخطى مترنحة ، مصطكً الساقين ، فى جسمه قشعريرة • فلما وصل الى غرفته خلع قبعته فوضعها على المائدة ، ولبث واقفاً خلال عشر دقائق كاملة لا يستطيع حراكاً • ثم استلقى على سريره مهدود القوى ، ومدَّ ساقيه وذراعيه وهو يئن أنيناً شاكياً • وانطبقت أجفانه • وظل راقداً على هذه الحال قرابة نصف ساعة •

لم يكن يفكر فى شىء • لا شىء الا بضع خطرات ، أو قل بضع شذرات من خطرات كانت تتلاحق فى فكره فوضى بغير نظام ولا اتصال ولا اتساق : وجوه أفراد كان قد رآهم فى ماضيات الأيام ، أثناء طفولته ، وجوه صادفها مرةً واحدة ثم لم يتذكرها فى أحواله العادية بعد ذلك قط ؛ ناقوس كنيسة ف ••• ؛ بلياردو فى كاباريه وضابط يقف قرب هذا البلياردو ؛ رائحة فى محل لبيع التبغ فى قبو ؛ سلَّم خمارة من الخمارات، مظلم جداً ، مملوء بالقاذورات ، قد تناثرت على درجاته قشور بيض ، بينما يترامى الى المكان رنين النواقيس فى يوم الأحد ••• وهذه الأشياء تتلاحق سريعةً كأنما يحملها اعصار • ومنها أشياء ممتعة يتشبث بها راسكولنيكوف ويتسلق عليها ، ولكنها تغيب وتزول ؛ ويظل فى نفسه شىء ما يثقل على قلبه ، ولكنه لا يسرف فى ايلامه ••• حتى لقد يحس أحياناً بارتياح وهناءة • وثمة رعدة خفيفة لا تبارحه • وهذه أيضاً لذيذة •••

سمع راسكولنيكوف وقع أقدام متعجلة ، وسمع صوت رازوميخين، فأغمض عينيه متظاهراً بالنوم • فتح رازوميخين الباب ، ولبث على العتبة

متردداً لحظة • ثم دخل الغرفة بهدوء ورفق ، واقترب من السرير محاذراً ، وسمعت وشوشة ناستاسيا قائلة :

ـ لا تزعجه • لينم ما شاء أن ينام ! سيأكل فيما بعد •

ويجيبها رازوميخين :

ـ أنت على حق •

ويخرج رازوميخين وناستاسيا بهدوء ، ويغلقان الباب •

انقضى على هذه الحال نصف ساعة • وفتح راسكولنيكوف عينيه ، ثم تهالك على ظهره من جديد ، مصالباً يديه وراء رأسه • • « من كان ذلك الرجل ؟ ما هو ذلك الرجل الذى خرج من تحت الأرض ؟ أين كان وماذا رأى ؟ لا ريب فى أنه رأى كل شىء • ولكن أين كان يتوارى ؟ من أين كان يراقب ويرصد ؟ ولماذا لم يخرج من تحت الأرض الا الآن ؟ كيف استطاع أن يرى ؟ هل من الممكن أن •• آه »•

كذلك كان يتساءل راسكولنيكوف ، ثم تابع تساؤلاته وقد اعترته رعدة باردة سرت فى ظهره : « والعلبة التى وجدها نيقولا وراء الباب ؟ هل كان يمكن أن يتصور المرء شيئاً كهذا ؟••• قرائن قاطعة ؟ أدلة ثابتة ؟ أيكفى اغفال شىء صغير كحبة رمل حتى يظهر دليل ضخم كأهرام مصر ! ذبابة طارت ، فرأت الذبابة كل شىء ••• هل يتصور أحد هذا ؟ » •

وباشمئزاز عميق أدرك راسكولنيكوف ضعفه ، أحس وهن جسمه •

قال يحدث نفسه وهو يبتسم ابتسامة مرة : « كان ينبغى لى أن أتصور هذا ! كيف تجرأت ، وأنا أعرف نفسى ، وأنا أتنبأ بقدرتى وطاقتى ، كيف تجرأت فتناولت ساطوراً ولطخت يدى بالدم ؟ كان

يجب عليّ أن أعرف هذا سلفاً ••• ولقد كنت أعرفه سلفاً بالفعل ! » •

هكذا دمدم يقول وقد بلغ غاية الكرب واليأس •

وكانت تدور فى رأسه أفكار تشلُّه شللاً • قال يحدث نفسه : « لا ، لا ، ان أولئك الرجال هم من طينة أخرى غير طينتى ! ان «المسيطر» * الحقيقى ، الذى يجوز له كل شىء ، يقصف طولون بالمدافع، ويقوم بمذبحة فى باريس ، و « ينسى » جيشه بمصر ، و « ينفق » نصف مليون من الرجال فى حملة موسكو ، ثم يتملص من القضية فى فلنا بجملة تشتمل على تلاعب بالألفاظ ثم تقام له التماثيل بعد موته • كل شىء مباح اذن له ! لا ، ان أولئك الرجال هم من طينة أخرى ؟ ليسوا من لحم بل من برونز » •

وومضت فى فكر راسكولنيكوف فكرة مفاجئة فكاد يضحك • قال يحدث نفسه : « نابوليون ، أهرامات مصر ، واترلو ، ثم عجوز مرابية مهترئة هى أرملة موظف صغير ، تخفى تحت سريرها صندوقاً من جلد أحمر ••• كيف يمكن التقريب بين هذا وذاك ، كيف يمكن تشبيه هذا بذاك ، كيف يستطيع انسان أن يبلع هذا حتى ولو كان بورفير بتروفتش؟ كيف يمكنهم أن يهضموا هذا ؟ ألا ان الجمال الفنى نفسه يرفض ذلك : هل كان يمكن أن يندس نابوليون تحت سرير عجوز حقيرة ؟ يا للصغار ! » •

وكان راسكولنيكوف يحس فى بعض اللحظات بأنه يهذى ، وكان يندفع اندفاعات فيها حمى !•••

قال يحدث نفسه بحمياً مسعورة : « ليست العجوز شيئاً ذا بال • العجوز ليست الا خطأ • ولكن القضية ليست قضية العجوز • العجوز ليست الا مرضاً•• وقد أردت أن أقفز فوق الحاجز وأن أتخطاه بسرعة.

أنا لم أقتل كائناً انسانياً ، وانما قتلت مبدأً . ولكن لئن قتلت المبدأ ، فانني لم أستطع أن أتخطاه ، بل بقيت في الجهة التي كنت فيها . كل ما استطعت أن أفعله هو أنني قتلت . حتى انني لم أعرف كيف أقتل ... هو المبدأ ، نعم هو المبـدأ ! لماذا كان هذا الغبي رازوميخين يهاجم الاشتراكيين منذ قليل ؟ هؤلاء أناس عاملون ، جادُّون ، يهتمون « بسعادة البشر العامة الشاملة » . لا ، لا ، لقد وُهبت لي الحياة مرةً واحدة الى الأبد ، ولن أعرف حياةً أخرى . أريد أن أحيا شخصياً ، والا فالأفضل أن لا أحيا البتة . أي عيب في هذا ؟ أنا لم أزد على أن رفضت أن أمرّ بأم جائعة ، قابضاً على قروشي في جيبي ، منتظراً تحقق السعادة العامة الشاملة ! « لقد حملت حجري الى المبنى الذي يُشاد لتحقق السعادة العامة الشاملة ، ومن ذلك أستمد طمأنينة القلب وسكينة النفس ! » . هأ هأ ! لماذا نسيتموني ؟ أنا ليس لي الا حياة واحـدة ، واني لأريد أن أحياها ! آه ... ما أنا الا قملة محشوة بأفكار فنية . ذلك أنا . ولست شيئاً آخر . (كذلك أضاف يقول فجأة وهو ينفجر في ضحك كضحك المجانين) . نعم ، أنا قملة فعلاً (هكذا تابع يقول بفرح خبيث) : أولاً لأنني أفكر كما أفكر في هذه اللحظة مستدلاً على أنني قملة ؛ وثانياً لأنني لبثت شهراً بكامله أزعج العناية الالهية، وأُشهدها على أنني لم أقرر أن أفعل ما فعلت عن هوىً مني بل في سبيل غاية عظيمة وهدف كبير.. هأ هأ هأ ، وثالثاً لأنني قررت أن أسلك الى فعلتي كل العدالة الممكنة ، فراعيت في تنفيذها الوزن والقياس والحساب : ألم أختر من بين جميع قمل الكون قملةً هي أقل القمل جدوى ؟ وحين قتلتها ، ألم أكن أنوي أن لا آخـذ منها الا ما كنت في حاجـة اليه لأخطو خطواتي الأولى (ثم يذهب الباقي الى الدير تنفيذاً لوصيتها ، هأ هأ هأ ؟) . نعم ، أنا قملة قطعاً (هذا ما أضـافه الى قوله وهو يصرف بأسنانه) ، بل لعلني أحقر من

قملة ، وأبعث على الاشمئزاز من قملة مسحوقة ، لأنني كنت أعلم « سلفاً » ، كنت أتنبأ سلفاً بأنني بعد قتلها سأقول لنفسي هذا الكلام ! هل في العالم كله شيء يمكن أن يقارن بفظاعة كهذه الفظاعة ؟ يا للصغار ! يا للجبن ! ألا انني لأفهم أعمق الفهم ذلك النبي الممتطي صهوة جواده ، المشهر سيفه ، القائل : الله يريد هذا ، فأطع واخضع ايها المخلوق «المرتعش» * ! لقد كان على حق ، كان على حق تماماً ، ذلك النبي ، الذي صفّ المدافع في عرض الشارع وأمر باطلاق القذائف على الأبرياء والجناة على السواء ، ولم يرض حتى أن يشرح سلوكه وأن يسوّغه . أطع أيها المخلوق المرتجف ، وحذار أن ترغب في أي شيء ، فليس هذا شأنك أنت !.. آه... لن أغفر لهذه العجوز في يوم من الأيام ، في يوم من الأيام ، بحال من الأحوال ! » .

كان شعره مبتلاً بالعرق ، وكانت شفتاه المختلجتان مصوّحتين ، وكان بصره يحدّق الى السقف بنظرة ثابتة .

« أمي ، أختي ، لشد ما كنت أحبهما ! فلماذا صرت أكرههما الآن؟ ذلك انني أكرههما ، أكرههما جسمياً ، لا أطيق أن احتمل وجودهما الى جانبي !.. منذ قليل، اقتربت من أمي وقبّلتها .. انني أتذكر هذا .. عانقتها وتساءلت : تُرى لو كانت تعلم .. ينبغي لي اذن أن أقولها .. لو قلت لها لتخففت من عبء .. آه.. لا شك فيأنها مثلي (كذلك أضاف يقول بجهد ، كأنه يقاوم الهذيان الذييجتاحه). أوه ! لشدّ ما أكرهها الآن ، تلك العجوز ! أعتقد أنني مستعد لأن أقتلها مرةً أخرى لو بُعثت حية ! مسكينة اليزابت ! لماذا وُجدت هناك ؟... ومع ذلك لا تخطر ببالي الا قليلاً ، فكأنني لم أقتلها ! ما أغرب هذا ! اليزابت ، صونيا ! يا للبنتين المسكينتين ، المتواضعتين ، الوديعتين ... الزاخرة أعينهما رقةً وعذوبة ! يا هذه المخلوقات العزيزة ، لماذا لا تبكين ؟ لماذا لا تئنين ؟ انها

تعطى كل شيء ، وتنظر اليك نظرة تفيض رقة وهدوءاً وسكينة !... صونيا ! صونيا ! يا صونيا الوادعة المسالمة ! » .

وأغمي على راسكولنيكوف .

واستغرب كيف أمكن أن لا يتذكر كيف وجد نفسه مرةً أخرى فى الشارع . الوقت متأخر . الظلمات تتكاثف . البدر يسطع بضياء ما ينفك يقوى . ولكن الجو خانق . أناس كثيرون يسيرون فى الشوارع. فبعضهم يعودون الى بيوتهم منهمكين ، وبعضهم يتنزهون . وفى الهواء رائحة كلس وغبار ومياه مستنقعة . وراسكولنيكوف يمشى حزيناً مهموماً. وهو يتذكر أنه خرج على نية معينة محدَّدة ؛ هو يعرف أن عليه أن يتعجل القيام بأمر من الأمور ، ولكنه أصبح لا يدرى ما هو ذلك الأمر على وجه الدقة . وها هو ذا يتوقف فجأة ، فيرى فى الجهة الأخرى من الشارع ، على الرصيف ، رجلاً يومىء له بيده . أخذ يقطع الشارع ليمضى اليه ، ولكن الرجل ابتعد فجأة كأن شيئاً لم يكن ، حتى دون أن يلتفت . تساءل راسكولنيكوف وقد أخذ يلاحقه : « هل ناداني حقاً ؟ ». ولكنه حين وقف على مسافة عشر خطوات منه لم يلبث أن تعرَّفه بغتةً فاستولى عليه رعب : انه ذلك البائع الصغير نفسه ، بمعطفه الذى يشبه ثوباً من أثواب المنزل ، وبوجهه المتغضِّن . تبعه راسكولنيكوف من بعد ، خافقَ القلب . ودخل الاثنان فى شارع صغير . ما زال الرجل لا يلتفت . تساءل راسكولنيكوف : « هل يعرف أننى أمشى وراءه ؟ » . عبر البائع الصغير مدخل عمارة من العمارات . اقترب راسكولنيكوف من الباب بسرعة كبيرة ، ونظر : تُرى ألن ينظر اليه هذا الرجل ، ألن يناديه ؟ وها هو ذا الرجل يلتفت على حين فجأة فعلاً ، حين صار فى فناء المنزل ، فيومىء له بغتةً من جديد . ولج راسكولنيكوف مدخل العمارة ، ولكن ما ان مرَّ تحت العتبة حتى اختفى الرجل من الفناء .

لا يمكن الا أن يكون الرجل قد دخل السلّم الأول الذي يقع يمنةً • اندفع راسكولنيكوف يلاحقه • وكانت ما تزال تُسمع ، فعلاً ، بعد طابقين ، أصواتُ وقع أقدامٍ تسير بخطى منتظمة • شيء غريب : ان السلّم لا يبدو لراسكولنيكوف مجهولاً • هذه نافذة الطابق الأرضى • ان ضياء القمر ، الحزين السرّى ، يتسلل من خلال الزجاج • وهذا هو الطابق الأول • عجيب : انها الشقة التى كان يعمل فيها الدهّانون !••• كيف لم يتعرّف ذلك فوراً ؟ سكتت أصوات خطوات الرجل الذى كان يتقدمه : « لقد توقف اذن ، أو اختبأ فى مكانٍ ما » • وهذا هو الطابق الثانى • هل يجب على راسكولنيكوف أن يصعد الى أعلى ؟ ان الصمت رهيب جداً ! وظل راسكولنيكوف يصعد رغم ذلك • ان أصوات وقع أقدامه هو نفسه تقلقه ، ترعبه • رباه ! ما أحلك هذا الظلام ! لا شك فى أن الرجل المجهول قد اختبأ فى مكان ما ، فى ركن ما • آه ••• ان باب الشقة مفتوح على سعته كلها ! فكّر راسكولنيكوف لحظةً ، ثم دخل. الدهليز مظلم خال ، والأثاث يبدو أنه نُقل • نفذ راسكولنيكوف الى الصالون سائراً على رءوس الأصابع فى رفق وهدوء : ان ضوء القمر الساطع يغمر الغرفة • كل شىء فى الصالون ما يزال كما كان : الكراسى، المرآة ، الديوان الأصفر ، الصور فى أطرها • وهذا قمر ضخم ، أحمر بلون النحاس ، مدوَّر تماماً ، يُطل من النافذة رأساً • قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « عن القمر انما يصدر هذا الصمت ••• لا شك فى أن القمر يحاول الآن أن يفضح سراً من الأسرار ، أن يكشف لغزاً من الألغاز ! » • ظل راسكولنيكوف ساكناً جامداً ينتظر ، فكلما ازدادا القمر صمتاً ازدادا خفقان قلبه شدة وعنفاً حتى أصبح يؤلمه • وما يزال الصمت مخيّماً ! وفجأةً تنطلق قرقعة جافة كقرقعة غصن ينكسر ، ثم يصمت كل شىء من جديد• وهذه ذبابة تستيقظ وتطير فتصدم الزجاج ، وتدندن

بصوت كأنه شكاة وأنين . وفي تلك اللحظة نفسها يميِّز راسكولنيكوف، في الركن ، بين الخزانة الصغيرة والنافذة ، شيئاً يشبه معطف معطف امرأة، يتدلى على الحائط . تساءل راسكولنيكوف : « لماذا يوجد معطف هنا ؟ لم يكن في هذا المكان معطف من قبل ! » . واقترب سائراً بخطى بطيئة ، وحزر أن أحداً لا بد أنه يختبيء وراء هذا المعطف . وأزاح المعطف محاذراً ، فرأى كرسياً ، ورأى العجوز جالسةً على الكرسي ، متكومةً على نفسها ، خافضة رأسها بحيث لم يستطع أن يرى وجهها . لكنها هي العجوز ما في ذلك ريب . لبث واقفاً الى جانبها لحظة . قال لنفسه : « انها خائفة » ثم أخرج الساطور من الابزيم برفق وهدوء ، فهوى به على قمة جمجمة العجوز ، مرةً أولى ، فمرةً ثانية . ولكن الشيء الغريب أن العجوز لم تترنح تحت الضربات. لكأنها من خشب. خاف راسكولنيكوف، ومال على العجوز يتفحصها من كثب . كل ما هنالك أن رأسها قد انخفض مزيداً من الانخفاض . انحنى راسكولنيكوف عندئذ انحناءً كاملاً حتى الأرض ، ونظر اليها من أخمص القدمين الى قمة الرأس . نظر اليها متجمداً من الرعب . كانت العجوز تضحك وهي جالسة على كرسيِّها ، تضحك ضحكاً كبيراً يهزُّ جسمها كلَّه ، ولكنه ضحك لا يكاد يدرَك ، فهي تخنقه حتى لا يكاد يسمعه راسكولنيكوف . وبدا له فجأة أن باب غرفة النوم يُشق ، وأن وراء الباب أيضاً أناساً يضحكون ويتهامسون . استولى عليه الغضب . فأخذ يضرب العجوز على رأسها بكل ما يملك من قوة ، ولكن الضحك والتهامس الصادرين عن غرفة النوم يزدادان وضوحاً وقوة كلما هوى على رأس العجوز بضربة جديدة . والعجوز نفسها قد أصبح جسمها يهتز الآن كله من شدة الضحك . أراد راسكولنيكوف أن يهرب . ولكن الدهليز كان قد امتلأ بالناس . وكان الباب الذي يفضي الى السلم مفتوحاً على سعته

كلها • وكان السلّم ممتلئاً بالناس كذلك من أسفله الى أعلاه • جمهور كبير • حشـد هـائل • رءوس ثم رءوس • والجميع ينظرون اليـه ، ولكنهم فى الوقت نفسه يختبئون ، وينتظرون ، ويصمتون !••• انقبض قلبه ، ورفضت ساقاه أن تتحـركا ، فكأنهما قد أصبحت لهما جذور فى الأرض • أراد أن يصرخ • وأفاق من اغمائه •

استرد أنفاسه فى جهد وعناء • ولكن الشيء الغريب أنه تراءى له أنه ما يزال يحلم • كان باب غرفته ما يزال مفتوحاً على سـعته كلها • وكان يقف على عتبة الباب رجل لا يعرفه راسكولنيكوف اطلاقاً ، رجلٌ كان يتفرس فيه بالحاح •

ما كاد راسكولنيكوف يفتح عينيه تماماً حتى عاد يغمضهما فوراً • كان مستلقياً على ظهره لا يقوم بأية حركة • قال يسـأل نفسـه : « أهو الحلم ما يزال مستمراً أم لا ؟ » • وفتح جفنيه قليلاً ونظر : كان الرجل المجهول ما يزال واقفاً فى مكانه نفسه يحدّق اليه • ثم ها هو ذا يجتاز العتبة محاذراً ، ويغلق الباب وراءه اغلاقاً محكماً ، ويقترب من المائدة ، وينتظر دقيقة دون أن يحوّل بصره عن راسكولنيكوف ، ثم يجلس على الكرسى قرب الديوان هادئاً صامتاً •

وضع الرجل المجهول قبعته على الأرض الى جانبه ، ثم أُسند يديه الى مقبض عصاه ، وألقى بذقنه على يديه • كان واضحاً أنه يتهيأ لانتظار طويل •

اذا صحّ ما استطاع راسكولنيكوف أن يلاحظه من خلال أجفانه التى كانت أشبه بالمغمضة ، فان هذا الرجل كان قد تجاوز الشباب ، وكان قوى البنية ، عريض المنكبين ، كثيف اللحية ، زاهى الشقرة حتى لتكاد تكون شقرته بياضاً •••

انقضت عشر دقائق . لم يكن الظلام قد هبط بعد ، ولكن المساء يقترب . ان صمتاً كاملاً يسود الغرفة . حتى السلّم لا تصل منه أية ضجة. ليس يُسمع شيء الا دندنة ذبابة ضخمة كانت قد صدمت الزجاج أثناء طيرانها . نفد صبر راسكولنيكوف أخيراً ، فنهض فجأة وجلس على الديوان ، وقال يخاطب الزائر المجهول :

ــ هيه ... تكلم ... ماذا تريد ؟

فأجابه الزائر المجهول بلهجة غريبة عجيبة ، وهو يطلق ضحكة هادئة :

ــ كنت أعلم أنك لست نائماً ، وأنك تتظاهر بالنوم تظاهراً . اسمح لى أن أعرّفك بنفسى : آركادى ايفانوفتش سفدريجايلوف .

حواش

الصفحة

٧ ★ « زقاق س ... » : هو زقاق ستوليارنى بيريئـولوك ، اى « زقاق النجارين » ، القريب من « سوق العلف » ، حيث أقام دوستويفسكى من سنة ١٨٦٤ الى سنة ١٨٦٧ .

٧ ★ فى روسيا يسمى الطابق الأرضى من العمارة بالطابق الاول ، ويسمى الطابق الأول بالطابق الثانى ، وهكذا دواليك .

٩ ★ « سوق العلف » ، هو ميدان محاط بحانات وخمارات وفنادق مشبوهة . وقد جاء دوستويفسكى على ذكره فى كتـابه « فى قبوى » (المجلد السادس من هذه الطبعة العربية) .

١٠ ★ « تسيمرمان » : رجل ألمانى كان يملك محلا لأزياء القبعات .

١٤ ★ « راسكولنيكوف » : اشتق المؤلف اسم راسكولنيكوف من الكلمة الروسـية « راسكولنيك » ومعناها الانفصال ، ليشير بذلك الى انفصال بطل الرواية عن آراء المجتمع . وفى الصياغة الاولى لهـذه الرواية ، أى الصياغة التى جعـل دوستويفسكى عنوانها : « يوميات راسكولينكوف » ، أطلق المؤلف على بطله اسم «فاسيا» . ولعله لاحظ بعد ذلك أن اسم « فاسيا » ألطف وأرق من أن يطلق على هذا البطل فجعل اسمه ونسبته الى أبيه: «روديون رومانوفتش» ، وتلك تسمية غريبة توحى الى القارىء الروسى ، فيما يقال ، بمـا يتصف به طبع راسكولينكوف من قسوة وعنف .

١٦ ★ « آليونا » تشويه شعبى لاسم ايلينا (هيلانة) .

٢٢ ★ « بوديا تشسكايا » : اى شـارع القسس ، وهو أحد شوارع وسط مدينة سان بطرسبرج ، قرب «سوق العلف» .

الصفحة

٢٥ ★ وظيفة « المستشار » المقصودة هنا هي وظيفة موظف في الدرجة التاسعة ·

٣٠ ★ « بطاقتها الصفراء » : هي بطاقة تحقيق الشخصية الخاصة بالمومسات ·

٣٠ ★ « كل خبيء مآله الى ظهور » : اشارة الى النص الوارد في انجيل متى (الاصحاح العاشر ، ٢٦) : « ليس مكتوم لن يستعلن ، ولا خفي لن يعرف » ·

٣٢ ★ « انني أشبه الوحش كل الشبه » : اشارة الى الوحش الذي جاء ذكره في رؤيا يوحنا ·

٣٣ ★ «رقصة الشال» : كانت ماريا كونستانت ، زوجة دوستويفسكي الاولى ، تتباهى بأنها رقصت رقصة الشال في حفلة تخرج « بمعهد استراخان » ·

٣٣ ★ « نالت وساما ذهبيا » : في المدارس الثانوية والمعاهد بروسيا كان نجباء التلاميذ ينالون عند حصولهم على شهادة البكالوريا وساما ذهبيا ·

٣٧ ★ « ليويس » : ج· هـ· ليويس ، فيلسوف انجليزي كان أحد المعجبين بالفيلسوف الفرنسي أوجوست كونت ، وقد ألف كتابا بعنوان « فزيولوجية الحياة العامة » ظهر سنة ١٨٦٠ وراج رواجا كبيرا في روسيا ، ولا سيما في الاوساط الراديكالية ·

٣٧ ★ « صونيا » ، « صونيتشكا » : تصغير اسم صونيا ، تحببا وتدليلا ·

٣٧ ★ « مستشار الدولة » : موظف من الدرجة الخامسة ·

٣٨ ★ « جوخ السيدات » : نسيج صوفي خفيف ·

الصفحة

٤٠ ★ « كابرناؤموف » : نسبة الى مدينة كفر ناحوم التى ورد ذكرها فى الانجيل ٠

٤٤ ★ « زاخارتش » : تخفيف اسم زاخاروفتش ، والشعب يعمد الى هذا التخفيف مستغنيا عن «فتش» بـ «تش» ٠ ولسوف نقع فى النص على راسكولنيكوف تارة باسم روديون رومانوفتش وتارة باسم روديون رومانتش ، وكذلك سنقع على بروكوفتش وبروكوفيوفتش اسما لشخص واحد ، وهكذا دواليك ٠

٤٥ ★ « كلص الليل » : يستعمل مارميلادوف هنا التعبير الوارد فى رسالة القديس بولس الاولى الى أهل تسالونيكى (الاصحاح الخامس ، ٢) ٠

٤٦ ★ « جسر مصر » : جسر مزين بزخارف مصرية على قناة فونتانكا ، غير بعيد عن « سوق العلف » ٠

٦٢ ★ « روديا » مصغر اسم روديون ٠

٦٣ ★ « دونيا » ، « دونيتشكا » : تصغير اسم آدفوتيا ، من باب المحبة والتدليل ٠

٦٤ ★ « سفيدريجايلوف » : اشتق المؤلف هذا الاسم من اسم سفيدريجايلو ، وهو دوق كبير من ليتوانيا فى القرن الخامس عشر ، اشارة الى نبالة محتد هذه الشخصية من شخصيات روايته ٠

٦٦ ★ « باخوس » : اله الخمر عند قدماء الاغريق

٧٠ ★ « مستشار قضائى » : هو موظف من الدرجة السادسة ٠

٧٣ ★ كان مجلس الشيوخ يقوم بوظائف محكمة النقض

٧٧ ★ مائة كيلومتر تقريبا ٠

الصفحة

٨٢	★ « بورقتين صغيرتين » ، أي بورقتين نقديتين قيمة كل منهما روبل واحد •
٨٣	★ « وسام القديسة حنة » : أرفع الأوسمة الروسية ، وله درجات ثلاث أعلاها الصليب الذى تزدان به العروة ، وهو المشار اليه هنا •
٨٤	★ ان الحرب التى شنتها بروسيا والنمســا على الدنمارك سنة ١٨٦٤ لامتلاك دوقية شفلفسيج هولشتاين قـد أشارت سخط الرأى العام الاوروبى • وقد سـبق أن أورد المؤلف ذكرها فى قصته « فى قبوى » •
٨٤	★ كانت الصحف الروسية تتحدث كثيرا آنذاك عن سوء معاملة الزنوج فى أمريكا بسبب حرب الانفصال (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) ؛ وكان معروفا أن البارونات الألمان فى مقاطعات البلطيق يسومون الليتونيين سوء العذاب فيهرب هؤلاء من أراضيهم •
١٠٢	★ ان نهر نيفا الصـغير يضـم جزيرة فاسيلفسكى ، ويضم فى موقع أبعد من ذلك جزر كريستوفسكى وبتروفسكى وايلاجين ، وغيرها •• التى تغطيها حدائق وتملؤها فيللات •
١٠٥	★ « ميكولكا » تصغير ميكولا (نيقولا) •
١٥٨	★ « ميتكا » : تصغير دمترى ، ديمترى •
٢٠٨	★ « رادتشيف » : كاتب من القرن الثامن عشر ، نشر سنة ١٨٧٠ كتابه الشهير « رحلة من سان بطرسبرج الى موسكو » ، وهو كتاب عاطفى ثورى ، تأثر بالأب رانيال أكثر مما تأثر بجان جاك روسو • وقد صادرت الرقابة الكتاب ، ونفى المؤلف الى سيبريا حيث قضى ست سنين •

الصفحة

٢٠٩ ★ «جسر نيقولا» : هو الجسر الذى يوصل من جزيرة فاسيلفسكى الى المدينة ، قرب « قصر الشتاء » ٠

٢١٠ ★ هى كاتدرائية سان اسحاق الكبرى ، الواقعة فى وسط المدينة٠

٢١١ ★ تقع الجامعة فى أول جزيرة فاسيلفسكى ٠

٢١٨ ★ « باشنكا » و « باشا » : تصغير اسم باراسكيفا ، براسكوفيا، تحببا وتدليلا ؛ وبراسكوفيا هذه هى صاحبة البيت الذىيسكن فيه راسكولنيكوف ٠

٢٣٧ ★ كان اللورد بالمرستون قد مات منذ مدة قصيرة سنة ١٨٦٥ ، وقد سمى باسمه معطف ذو شكل خاص ، كما يوجد معطف ذو شكل آخر سمى باسم لورد راجلان ٠

٢٣٧ ★ الولايات المتحدة الامريكية تعنى هنا السراويل (البنطلون) ، وهـــذا قائم على لعب بالتجـانس اللفظى بين كلمة « شتاتى » الروســية ومعناها الدولة أو الولاية ، وبين كلمة « شتانى » ومعناها السروال ٠

٢٣٩ ★ « شارمر » خياط على الموضة ببطرسبرج « مورد صاحب الجلالة الامبراطورية » ٠

٢٤٣ ★ «قصر الكريستال» : حانة أطلق عليها دوستويفسكى اسم قصر الكريستال من باب التهكم ، تشبيها لها « بقصر الكريستال » الذى رآه فى لندن وتحدث عنه فى «ذكريات شتاء عن مشاعر صيف» (راجع المجلد السادس من هذه الطبعة العربية) ٠

٢٤٤ ★ « مدرسة القـانون الامبراطورية » : هى مدرسة ذات امتيازات انشئت سنة ١٨٣٥ وتخرج منها قانونيون متنورونمثل البارون آ٠ فرانجل ، صديق دوستويفسكى ٠ وقــد تخرج من هذه المدرسة المؤلفان الموسيقيان ف٠ سيروف و ب٠ تشايكوفسكى؛

الصفحة

كما تخرج بوشكين من مدرسة ثانوية مماثلة هي مدرسة تساركويه سيلو ٠

٢٥١ ★ « حي الرمال » (بسكى) : حي وضيع في الجزء الشرقي من مدينة سان بطرسبرج ٠

٢٥١ ★ « أهل كولومنا » : ان كولومنا مدينة صغيرة تقع في الجنوب الشرقي من موسكو غير بعيد من زارايسك ، فالفلاحون الذين جاءوا يسكنون العاصمة يتجمعون في أحياء تختلف باختلاف أقاليمهم التي وفدوا منها ٠

٢٧٢ ★ المقصود هنا هو الاصلاحات الكبرى التي تمت بين سنة ١٨٦١ وسنة ١٨٦٤ ، أي الغاء القنانة ، والاصلاح القضائي والجزائي ، وادخال نظام « الحكم الذاتي » ، الخ ٠

٢٧٤ ★ ان لوجين يعرض هنا عرضا عاميا نظرية « الانانية العاقلة » ، تلك النظرية المبسوطة في كتاب تشيرنيشفسكي : «ما العمل؟»

٢٧٨ ★ «هنا ، طالب سابق يهاجم عربة بريد٠٠» : يشير دوستويفسكي الى هذه الواقعة في رسالة بعث بها الى كاتكوف في شهر ايلول (سبتمبر) ١٨٦٥ ٠

٢٧٨ ★ « ٠٠٠ أستاذ من أساتذة التاريخ العام » : نظر القضاء في هذه القضية وفصل فيها في شهر أيار (مايو) ١٨٦٥ ٠

٢٩٢ ★ لا شك في أن هذه التأملات التي تمر بذهن رجل محكوم عليه بالاعدام انما احتفظ بها دوستويفسكي من الدقائق التي عاشها قرب المقصلة في ٢٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٩ ٠

٢٩٤ ★ كان رجل اسمه ايتسلر ، ولعله ألماني الأصل ، قد افتتح في ضواحي بطرسبرج حانة على الطراز الريفي فكان ينشر اعلانات كثيرة عنها في الجرائد ٠ أما الاعلانات التي يقرأ راسكولينكوف

عناوينهـا « ماسـيمو ـ بارتولا ـ الأزتيكيان » فهي عن رجل أمريكي اسمه موريس كان يعرض في صـيف ١٨٦٥ بمـدينة سان بطرسبرج « آخر شـخصين من آزتيـكيي المكسيك » ، أحدهما بنت اسمها بارتولا ، والثـاني صبي اسمه ماسيمو • وكان الرجل الأمريكي ينشر اعلانات في الصحف كل يوم عن هذا العرض لاجتذاب المشاهدين •

وأما « حريق في ••• وحريق في ••• وحريق آخـر في ••• » ، فهي أنباء حرائق كثيرة شبت بمدينة سان بطرسبرج في ذلك الصيف نفسه من عـام ١٨٦٥ ؛ لذلك كتبت جريدة «الصوت» في عددها ١٦٦ تقول : « جميع الصحف ملأى بوصف حرائق خطيرة كثيرا أو قليلا » •

٣٠٦ ★ « ـ أرأيت ؟ أوراق حمراء وأوراق زرقاء ! » : الاوراق المالية الحمـراء هي أوراق العشرة روبلات ، أما الزرقاء فهي أوراق الخمسة روبلات •

٣٠٦ ★ « كفى حديثا » : وردت بالفرنسـية في الأصل ، وهي الجملة التي قالها فوتران في رواية بالزاك « الأب جوريو » •

٣١١ ★ « جسر س ••• » : هو جسر « الصعود » على قناة كاترين •

٣١٦ ★ « بيتر » : اختصار شعبي لاسم مدينة بطرسبرج •

٣٣٠ ★ « بوليا » و « بولينكا » : تصغير اسم آبوليناريا •

٣٣٤ ★ « ليدا » و « ليدوتشكا » : تصغير اسم ليديا •

٣٧٨ ★ كان عازف الكمان روبنشـتاين (١٨٢٩ ـ ١٨٩٤) عندئذ في قمة مجده •

٣٩٧ ★ « ان تلك الملكة ••• » : يفكر الكاتب هنا في مارى انطوانيت وهي في الهيكل •

الصفحة

٤٢٧ ★ « مقبرة سان متروفان » : مقبرة فقيرة تقع فى جنوب العاصمة، بعد محطات القطار ٠

٤٦١ ★ الاشارة هنا الى اشتراكية شارل فورييه الخيالية ٠

٤٦٢ ★ ان ناقوس كنيسة القديس يوحنا الكبير جزء من الكرملين بموسكو ، وهو أعلى ناقوس فى روسيا ٠

٤٩١ ★ المقصود طبعا هو نابوليون بونابرت الذى قصف طولون بالمدافع فعلا سنة ١٧٩٣ ، ورمى الملكيين بالرصاص بباريز فى شهر تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٧٩٥ ، وترك جيشه بمصر سنة ١٧٩٩ ، ويقال انه بعد فقده « الجيش الكبير » قال فى فلنا سنة ١٨١٢ : « ليس بين الرائع والمضحك الا خطوة واحدة ٠ فلتفصل الاجيال القادمة فى هذا » ٠

٤٩٢ ★ تعبير للاشتراكى فكتور كونسيدران نجده فى كتابه الذى عنوانه « قدر الاشتراكية » (١٨٣٨) ٠

٤٩٣ ★ اشارة الى بيت من الشعر فيقصيدة بوشكين «محاكاة القرآن»٠

فهرس

الصفحة

الصفحة

الجزء الثالث

الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الأول

الفقراء
المثل
قلب ضعيف

المجلد الثاني

نيتوتشكا نزفانوفنا
الليالي البيضاء
بروخارتشين
الجارة
المهرج
السارق الشريف
البطل الصغير
قصة في تسع رسائل
شجرة عيد الميلاد والزواج
زوجة آخر، ورجل تحت السرير

المجلد الثالث

قرية ستيبا نتشيكوفوسكانها
حلم العم

المجلد الرابع

مذلون مهانون

المجلد الخامس

ذكريات من منزل الأموات

المجلد السادس

في قبوي
قصة اليمة
ذكريات شتاء عن مشاعر صيف
التمساح

المجلد السابع

المقامر
الزوج الابدي

المجلد الثامن

الجريمة والعقاب -١-

المجلد التاسع

الجريمة والعقاب -٢-

المجلد العاشر

الأبله -١-

المجلد الحادي عشر

الأبله -٢-

المجلد الثاني عشر

الشياطين -١-

المجلد الثالث عشر

الشياطين -٢-

المجلد الرابع عشر

المراهق -١-

المجلد الخامس عشر

المراهق -٢-
قصص

المجلد السادس عشر

الاخوة كارامازوف -١-

المجلد السابع عشر

الاخوة كارامازوف -٢-

المجلد الثامن عشر

الاخوة كارامازوف -٣-

دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعيا يدافع عن "الفقراء والمذلين المهانين" فاذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعمق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

الكسندر ف سولوفييف

دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة المجلد ٩

ترجمة الدكتور سامي الدروبي





الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد التاسع

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلداً

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الاولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٣٣

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتوورك - ايطاليا ١٩٨٥

Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

الجريمة والعقاب

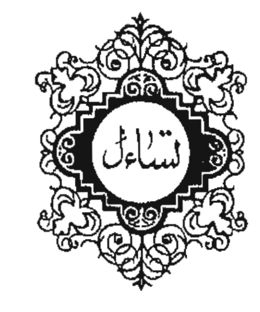
٢

« الجريمة والعقاب » (Prestouplénié) nakazanié

ظهرت فى مجلة ((الرسول الروسى)) فى اعداد سنة ١٨٦٦ ، من كانون الثانى (يناير) الى كانون الأول (ديسمبر) ، المجلدات من ٦١ الى ٦٦ .

الجزء الرابع

الفصل الأول



راسكولنيكوف مرةً أخرى : « هل يمكن أن يكون هذا استمراراً لحلمى ؟ » . وأخذ يتفرس فى الزائر الذى لم يكن يُنتظر ، أخذ يتفرس فيه محاذراً مرتاباً . ثم قال أخيراً ، بصوت عالٍ ، وقد استولى عليه اضطراب كبير وحيرة شديدة :

ـ سفدريجايلوف ! ولكن هذا مستحيل ، مستحيل .

ولم يبد أن هذه الصيحة قد أثارت استغراب الزائر .

ـ جئت اليك لسببين ، أولهما رغبتى فى أن أتعرف اليك شخصياً ، لأننى أسمع عنك مديحاً كثيراً منذ مدة طويلة . والثانى أننى أتجرأ فآمل أن لا ترفض مساعدتى فى أمر يتصل رأساً بأختك آفدوتيا رومانوفنا . فاننى اذا لم أعتمد الا على نفسى ، ولم يوص بى أحد ، لا يكون لى أمل كبير فى أن ترضى آفدوتيا رومانوفنا بأن تستقبلنى ، لأنها تسىء الظن بى . أما اذا عاونتنى أنت ...

قاطعه راسكولنيكوف قائلاً :

ـ لا تعوِّل على معاونتى ...

ـ انهما لم تصلا الا أمس ، أليس كذلك ؟ اسمح لى أن ألقى عليك هذا السؤال .

لم يجب راسكولنيكوف •

ـ وصلتما أمس • أعرف ذلك • وأنا نفسي لم أصل الا آمس الأول• اليك ما أريد أن أقوله لك في هذا الصدد يا روديون رومانوفتش• انني لا أرى داعياً الى تبرئة نفسي ، ولكن أرجو أن تأذن لي بالقاء هذا السؤال : ما هو الذنب العظيم الذي اقترفته أنا ، اذا نحن أردنا أن نحكم في الأمر حكماً سليماً مبرأً من الغرض ؟

ظل راسكولنيكوف يلزم الصمت •

ـ أليس ذنبي هو أنني لاحقت في بيتي فتاةً لا تملك عن نفسها دفاعاً ، وأنني « أسأت اليها بعروض دنيئة » ؟ هذا هو ذنبي ، أليس كذلك ؟ هأنت ذا ترى أنني أسبق غيري الى وصف ذنبي • ولكن أرجو أن تسلِّم معي بأنني أنا أيضاً انسان ، وأنه ما من انسان * ••• أقصد آنني أنا أيضاً يمكن أن أُفتن وأن أهوى (وهذا ما يحدث طبعاً بدون ارادتنا) • فمتى سلَّمت معي بهذا أمكن عندئذ تفسير كل شيء تفسيراً طبيعياً الى أبعد الحدود • ان السؤال الوحيد الذي يجب طرحه هو السؤال التالي : أأنا شيطان أم ضحية ؟ فماذا لو كنت ضحية ؟ لعلني حين عرضت على الفتاة التي ألهبت هواي أن تسافر معي الى أمريكا أو الى سويسرا كنت أشعر نحوها بأسمى عواطف الاحترام ، وأنني كنت فوق ذلك أظن أنني أحقق السعادة لنا كلينا ! ما العقل الا خادم الأهواء ! وهكذا كنت أسيء الى نفسي مثلما كنت أسيء اليها •••

قاطعه راسكولنيكوف يقول باشمئزاز :

ـ ليست هذه هي المسألة • فسواء أكنتَ مخطئاً أم كنت مصيباً ، فأنت تثير الاشمئزاز • لذلك لا أريد أن أعرف شيئاً عنك ، بل أطردك ، وما عليك الا أن تنصرف !

انفجر سفدريجايلوف يقهقه على حين فجأة •



سفدريجايلوف

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

ثم قال وهو يضحك ضحكاً صريحاً :

ـ يظهر أن مخادعتك ليست بالأمر السهل • كنت أريد أن أعمد في معاملتك الى الحيلة والمكر ؛ أما وأنك وضعت اصبعك على النقطة الحساسة ، فسوف •••

ـ دعك من هذا الكلام ! انك لتمكر وتحتال حتى في هذه اللحظة!

فقال سفدريجايلوف مردّداً وهو ما يزال يقهقه :

ـ ماذا ؟ ماذا ؟ ماذا تقول ؟ ولكن أليست هذه « حرباً مشروعة » ؟ أليس هذا مكراً « مسموحاً به » ؟••• لكنك قطعت عليّ طريق الكلام مع ذلك • مهما يكن من أمر ، فما كان لهذه المزعجات كلها أن توجد ، لولا حادث الحديقة • ان مارتا بتروفنا •••

ـ مارتا بتروفنا ! يقال انك أرسلتها الى العالم الآخر ، مارتا بتروفنا •••

كذلك قاطعه راسكولنيكوف بفظاظة • فأجاب سفدريجايلوف قائلاً :

ـ أسمعت عن هذا أيضاً ؟ كيف كان يمكن أن لا تسمع عنه على كل حال ؟ أما سؤالك فانني لا أدري حقاً بم أجيبك عنه ، رغم أن ضميري مرتاح كل الارتياح من هذه الناحية • ولا يذهبن بك الظن خاصةً الى أن هناك أي أمر أخشاه • ان كل شيء قد جرى على نظام كامل وترتيب تام ووضوح مطلق : لقد أثبت الفحص الطبي أن الوفاة كانت بسكتة قلبية ناشئة عن الاستحمام بعد وجبة ثقيلة تجرعت المتوفاة أثناءها ما يقرب من زجاجة خمر كاملة !••• ولم يمكن اكتشاف أي شيء آخر ••• لا ، ليس هذا ما يقلقني • ولكنني قد تساءلت طوال الرحلة في القطار : ألم أساهم في هذه النازلة مع ذلك بعض المساهمة ،

باحداث اضطراب نفسى أو شيء من هذا القبيل • على أننى انتهيت الى أن هذا أيضاً مستحيل •

أخذ راسكوليكوف يضحك ، وقال له :

ـ هناك ما يدعوك الى القلق حقاً •

ـ ولكن لماذا تضحك ؟ فكّر قليلاً : اننى لم أضربها بالسوط الا ضربتين اثنتين ••• ضربتين لم تخلّفا أثراً • لا تحسبنى رجلاً مستخفاً مستهتراً ، أرجوك ! أنا أعرف أن سلوكى كان دنيئاً ، الخ • ولكننى أعلم أيضاً أن دلائل « الاهتمام » هذه لم تكن تسوء مارتا بتروفنا • كانت مارتا قد وجدت نفسها منذ ثلاثة أيام مضطرة الى أن تقبع فى البيت • لم يكن قد بقى أى سبب يدعوها الى الظهور فى المدينة ، بعد أن أغرقت جميع الناس بقراءة تلك الرسالة (لا شك أنك سمعت عن قراءة تلك الرسالة أيضاً) • وها هما ضربتا السوط تنزلان عليها من السماء • فكان أول هم لها أن تقرن الخيل بالعربة ••• لست فى حاجة الى أن ألفت نظرك الى أن بعض النساء يشعرن بلذة قوية حادة حين تُلحق بهن اهانة ، مهما يكن غضبهن منها • بل ان جميع الناس يعرفون هذا النوع من العواطف: فالنوع الانسانى يحب الاهانات كثيراً ، هل لاحظت هذا ؟ ولكن النساء يحببنها حباً خاصاً ، حتى ليمكن أن يُقال انهن لا يمكن أن يعشن بغير اهانات أو اساءات •

خطر ببال راسكولنيكوف فى لحظة من اللحظات أن ينهض وأن ينصرف ليختم الحديث • ولكن نوعاً من الفضول بل ونوعاً من الحساب قد صدّاه عن ذلك ، فسأل فى ذهول :

ـ هل تحب الضرب كثيراً ؟

فأجابه سفدريجايلوف بهدوء :

ـ لا كثيراً جداً ٠ فأنا ومارتا بتروفنا ، مثلاً ، لم نكد نتضارب قط ٠ كنا نعيش دائماً فى وفاق ووئام ، وكانت راضية عنى فى جميع الأحيان ٠ ولم أعمد الى استعمال السوط ، طوال السنين السبع التى عشناها معاً ، الا مرتين اثنتين (هذا اذا استثنينا مرة ثالثة مشتبهة) : فأما المرة الأولى فبعد زواجنا بشهرين ، أى منذ وصولنا الى الريف ، وأما المرة الثانية والأخيرة فمنذ مدة قصيرة كما تعلم ٠ وأنت تظن مع ذلك أننى شيطان رجيم ، اننى رجل من دعاة الرجعية وأنصار العبودية !٠٠٠ هيء هيء !٠٠٠ بالمناسبة : هل تتذكر يا روديون رومانوفتش ذلك الفتى ـ لقد نسيتُ أنا أسمه ! ـ الذى لُطِّخ بالوحل على مرأى من الناس ، منذ بضع سنين ، فى عهد « النقد المفيد » * ، لأنه ضرب بالسوط امرأة ألمانية فى قطار ؟ هل تتذكر ؟ أظن أن ذلك حدث فى نفس السنة التى وقعت فيها الفاحشة التى تحدثت عنها مجلة « العصر » * (لا شك فى أنك تتذكر المحاضرة العامة عن « ليالى مصر » ، ألا تتذكرها ؟ آه ٠٠ العيون السوداء ! أين أنت يا أيام شبابنا الذهبية ؟) ٠ فاليك رأيى : أنا لم أؤيد طبعاً فعلة الرجل الذى ضرب المرأة الألمانية بالسوط ، لأنه لا مجال هنا للاستحسان حقاً ٠٠٠ ولكننى لا أستطيع أيضاً أن أمتنع عن التصريح بأن المرء يصادف فى بعض الأحيان « ألمانيات » يبلغن من قوة الاستفزاز أنه ما من « تقدمى » ، فيما يخيَّل الىَّ ، يستطيع أن يسيطر على نفسه ازاءهن

سيطرة كاملة وأن يكون مسئولاً عن سلوكه معهن • ان أحداً لم يعالج المسألة عندئذ من هذه الزاوية • ومع ذلك فهذا هو الأسلوب الوحيد الذى يجب أن تعالج به هذه المسألة معالجةً تتصف بالانصاف •

قال سفدريجايلوف هذه الكلمات ، وعاد يضحك فجأة • واتضح لراسكولنيكوف أن الرجل يبيّت مشروعاً ثابتاً •

قال له راسكولنيكوف :

ـ أغلب الظن أنك لم تكلم أحداً منذ عدة أيام ، هه ؟

ـ هذا صحيح تقريباً • ماذا ؟ هل يدهشك أن ترانى ليّن الطبع ؟

ـ بل يدهشنى أن أراك مسرفاً فى لين الطبع ؟

ـ ألأننى لم أستأ من فظاظة أسئلتك ؟ أهذا هو السبب ؟ ولكن علام أستاء ؟

ثم أضاف سفدريجايلوف يقول معبراً عن سذاجة تثير الاستغراب :

ـ أنت سألتنى ، وأنا أجبتك !

ثم تابع يقول وقد لاح فى وجهه التأمل :

ـ أنا لا أكاد أهتم بشىء • وفى هذه اللحظة خاصة ، لا يشغلنى أى شاغل • لك أن تظن أننى أسعى الى خطب ودّك ، لا سيما وأن لى شأناً مع أختك ، كما سبق أن أعلنت لك ذلك • ولكننى أقول لك بصراحة اننى أشعر بضجر شديد وسأم قوى ، ولا سيما منذ ثلاثة أيام ، حتى لقد أحسست من لقائك ببهجة ••• لا تزعل يا روديون رومانوفتش اذا أنا

صارحتك بأنك تبدو لى غريباً غرابة رهيبة . لك أن تزعم ما تشاء ، ولكن فيك شيئاً ما ، ولا سيما فى هذه اللحظة ، ليس فى هذه اللحظة نفسها ، بل الآن على وجه عام ... هيَّا ! سأكف عن الكلام ، سأكف عن الكلام ، لا تقطب حاجبيك هكذا .. لست دباً الى الحد الذى تظن..

ـ قد لا تكون دباً البتة ! بل انه ليبدو لى أنك تنتمى الى مجتمع راق جداً ، أو أنك على الأقل تعرف عند الضرورة كيف تسلك سلوك رجل ينتمى الى المجتمع الراقى .

أجاب سفدريجايلوف يقول بلهجة جافة ، بل بلهجة فيها شىء من التعالى :

ـ لا يهمنى رأى أحد ، لذلك لا يقلقنى أن أسلك سلوك لص . ولعل هذا هو الثوب الذى يسهل ارتداؤه أكثر مما يسهل ارتداء أى ثوب آخر فى أجوائنا ومناخنا ... ولا سيما اذا كان بالمرء ميل طبيعى الى ذلك ...

أضاف سفدريجايلوف هذه الجملة الأخيرة وقد أخذ يضحك من جديد .

ـ سمعت أنك تعرف ناساً كثيرين هنا . فلستَ بمن يمكن أن يسمى رجلاً « بغير علاقات » ، كما يقال ، فما مجيئك الىَّ اذا لم يكن لك هدف محدَّد !

استأنف سفدريجايلوف كلامه ، فقال دون أن يجيب عن السؤال الرئيسى :

ـ صدقت . اننى أعرف ناساً كثيرين . وقد التقيت حتى الآن بعدة

أشخاص أثناء هذه الأيام الثلاثة التى قضيتها هنا ، فتعرفتهم ، وتعرفونى فيما يخيّل الىّ • اننى ارتدى ثياباً حسنة ، أليس كذلك ؟ وأبدو رجلاً لا يعوزه شيء • أنت تعلم أن قوانين الاصلاح الزراعى لم تمسسنا بسوء * ولما كانت أملاكى غابات ومراعى فى الدرجة الأولى ، فالموارد مستمرة•• ولكننى لن أذهب الى أولئك الناس • لقد كنت أضجر منهم حتى فى الماضى ••• وأنا منذ أخذت أطوف هنا ، لم أعقد صلةً بأحد ••• أهذه مدينة ؟ كيف أمكن أن تنشأ مدينة كهذه المدينة ؟ هلاّ شرحت لى هذا ، من فضلك ! هى مدينة موظفين وطلاب من جميع الأنواع ! حقاً ان أشياء كثيرة قد فاتتنى حين كنت أتسكع هنا منذ ثمانى سنين• وقد أصبحت الآن لا أعوّل الا على التشريح ، شهد الله •••

ـ أى تشريح ؟

ـ أما هذه النوادى ، وهذه المطاعم التى تسمى مطاعم دوسو *، وهذه الحلقات ••• أما جميع مشاريع التقدم هذه ••• ففى وسعها أن تستغنى عنى • ثم أية لذة يمكن أن يجدها المرء فى الغش ؟

كذلك تابع سفدريجايلوف كلامه دون أن يعبأ بالسؤال الذى أُلقى عليه •

ـ هل كنت تغش أيضاً ؟

ـ كيف لا أغش ؟ كنا منذ ثمانى سنين جماعةً من أناس محترمين نحاول أن نقتل الوقت ، وكنا ـ لاحظ هذا ! ـ على جانب عظيم من رقىّ الآداب • وكان بيننا شعراء ، ورأسماليون ••• ان الناس الذين هم على جانب عظيم من رقىّ الآداب هم على وجه العموم ، عندنا ، فى مجتمعنا

الروسى ، أوغاد ... لا شـك أنك لاحظت ذلك ، هـه ؟ ومنذ أقمت فى الريف انمـا عزفت عن هـذا • غير أننى قد أوشـكت ، قبـل ذلك الأوان ، أن أودع فى السجن ، لديون علىّ ، وذلك بسبب يونانى صغير من نييجين * ، وفى ذلك الوقت انما ظهرت مارتا بتروفنـا ، فساومت ، ثم فدتنى بثلاثين ألف روبل (كان مجموع الديون التى علىّ سبعين ألف روبل) • وتزوجنا زواجاً شرعياً • وسرعان ما أخـذتنى الى عندها فى الريف ، كما يؤخذ كنز من الكنوز • كانت أكبر منى سناً بخمسة أعوام• وكانت تحبنى كثيراً • لاحظت أنها احتفظت طوال حياتها بالسند المالى الذى وقعته لاسم شخص آخـر ، من أجل أن تستخدمه ضدى عند اللزوم ، بحيث تدمّرنى متى حاولت أن أتحرك من تحت النير • أوه ! ما كانت لتتردد فى أن تفعل ذلك ! ان تناقضات كثيرة تجتمع لدى النساء ، أليس كذلك ؟

ـ ولولا ذلك السند لكنت هربت ، هه ؟

ـ لا أعرف بماذا أجيبك • كان السند لا يضايقنى كثيراً • لم أكن أشتهى أن أذهب الى أى مكان • ومارتا بتروفنا قد اقترحت علىّ السفر الى الخارج مرتين ، حين لاحظت ضجرى • ولكن علام السفر ؟ كنت قد سافرت الى الخارج قبل ذلك ، فلم أشعر هنالك بارتياح • ليس هذا هو الأمر تماماً ... ولكن كان ثمة شمس تشرق ، وكان ثمة خليج نابولى، وكان ثمة البحر ... فكنت أنظر ، فأشعر بحزن شديد • والأنكى من هذا أن المرء يكون عندئذ حزيناً حقاً • لا ، لا ، ان البقاء فى البلاد أفضل من ذلك • هنا على الأقل يستطيع المرء أن يتهم الآخرين بكل شىء ، وأن يبرىء بذلك نفسه • قد أحب أن أسافر الآن راضياً الى القطب الشمالى ،

لأن « خمرتي فسدت » * ، فأصبحت أكره أن أشرب ، بينما الشيء الوحيد الذي بقي لي أن أفعله هو أن أشرب .. لقد جرّبت هذا .. بالمناسبة : يقال ان بيرج * سيسافر يوم الأحد القادم من حديقة يوسوبوف على منطاد، وانه يقبل أن يحمل ركاباً بأجر ، هل هذا صحيح ؟

ـ ماذا ؟ تسافر في منطاد ؟

ـ أنا ؟ لا ... وانما قلت هذا هكذا ...

كذلك جمجم يقول سفدريجايلوف ، كما لو كان يفكر في السؤال الملقى فعلاً .

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « الى أين يريد أن يصل من هذا كله ؟ » .

وتابع سفيدريجايلوف كلامه فقال حالماً شارد الفكر :

ـ لا ، كان السند لا يزعجني . فأنا الذي كنت لا أحب أن أترك الريف . ثم ان مارتا بتروفنا قد ردّت اليّ السند منذ سنة تقريباً ، بمناسبة عيدي ، حتى لقد أضافت اليه مبلغاً محترماً . كانت تملك ثروة ، هه ؟ قالت لي : « هأنت ذا ترى مدى ثقتي بك يا آركادي ايفانوفتش ». أؤكد لك أن هذا ما قالته لي . لا شك في أنك لا تصدّق أن هذا ما قالته لي. اعترفْ بأنك لا تصدّق ! ولكن يجب أن تعلم أنني كنت قد أصبحت مالكاً محترماً . وكنت معروفاً جداً في المنطقة . وكنت أستحضر كتباً ايضاً . شجعتني مارتا بتروفنا على ذلك في أول الأمر ، ولكنها خشيت بعدئذ أن تجهدني القراءة .

ـ يبدو أنك كنت قد سئمت كثيراً من مارتا بتروفنا ، أليس كذلك؟

ـ أنا ؟ ربما ! هذا جائز جداً • قل لى بالمناسبة : هل تؤمن بعودة الأرواح ؟

ـ أية أرواح ؟

ـ الأرواح العائدة • ما هذا السؤال ؟

ـ وأنت ، هل تؤمن بذلك ؟

ـ نعم ولا ، اذا شئت • أقصد اننى لا أؤمن بها تماماً ؟

ـ هل رأيت أرواحاً عائدة ؟

ألقى سفيدريجايلوف على راسكولنيكوف نظرة خاصة • ثم قال له وقد انعقف فمه بابتسامة غريبة :

ـ ان مارتا بتروفنا لا يفوتها أن تزورنى •

ـ كيف ؟ تزورك ؟

ـ نعم ، زارتنى حتى الآن ثلاث مرات • فأما المرة الأولى ففى يوم دفنها نفسه ، عشية رحيلى ، بعد العودة من المقبرة بساعة • وأما المرة الثانية فأمس الأول ، أثناء السفر ، قبيل طلوع الصباح ، فى محطة مالايا فيشيرا * • وأما المرة الثالثة ، فمنذ ساعتين ، فى مسكنى ، فى الغرفة التى أقيم بها • كنت وحدى •

ـ وكنت ••• يقظاً ؟

ـ يقظاً كل اليقظة • ولقد كنت يقظاً فى المرات الثلاث جميعاً • تأتى ، فتكلمنى دقيقة ، ثم تنصرف خارجة من الباب • حتى ليخيّل الىّ أننى أسمع خطواتها •

قال راسكولنيكوف فجأة :

ـ لماذا كنت أقدّر أنه لا بد أن يكون قد حدث لك شىء من هذا القبيل ؟

ثم دُهش من أنه قال هذا الكلام .

كان راسكولنيكوف منفعلاً انفعالاً شديداً . سأله سفيدريجايلوف مذهولاً :

ـ حـ .. قاً ؟ كنت تقدّر ذلك ؟ حقاً ؟ ألم أقل لك ان بيننا شيئاً مشتركاً ؟ هه ؟

أجابه راسكولنيكوف بلهجة قاطعة :

ـ لم تقل لى شيئاً من ذلك قط !

ـ ألم أقل لك ذلك ؟

ـ لا !

ـ غريب . خيّل الىّ أننى قلتـه لك . منذ قليـل ، حين دخلت عليـك ، فرأيتك مضطجعاً مغمضـاً عينيك متظاهراً بالنوم ، قلت لنفسى فوراً : « هذا هو ! هذا هو بعينه » .

صاح راسكولنيكوف يسأله :

ـ ماذا تقصد بقولك : « هذا هو بعينه » ؟

ـ ماذا أقصد ؟ بصراحة : لا أدرى !

بهذا أجاب سفيدريجايلوف متمتماً ، مرتبكاً ارتباكاً صادقاً .

وساد الصمت دقيقة. وكان كل من الرجلين ينظر فى عينى الآخر؟

هتف راسكولنيكوف يقول غاضباً :

ـ ذلك كله سخف . وماذا تقول لك حين تزورك ؟

ـ هى ؟ تصوّر أنها تكلمنى فى أتفه السفاسف . والانسان يبلغ من غـرابة الطبع أن هذا بعينـه هو ما يغضبنى . حين زارتنى فى المرة الأولى ، كنت متعباً كما تعلم : القداس ، صلاة الجنازة ، الموكب ، المأدبة. وكنت وحيداً فى حجـرة مكتبى ، وكنت أدخن سيجاراً . ها هى ذى

تدخل ، فتقول لى : « أبسبب هذه المشاكل كلها اذن انما نسيتَ يا آركادى ايفانوفتش أن تعبىء اليوم ساعة الجدار فى المطبخ ؟ » وكنت أنا الذى أتولى تعبئة ساعة الجدار تلك فى كل أسبوع فعلاً ، منذ سبع سنين ، فاذا نسيت أن أفعل ذلك ، ذكرّتنى به. وفى الغد ، كنت فى طريقى الى هنا. ودخل القطار ، عند الفجر ، الى محطة من المحطات . كنت محطماً من التعب . وكانت عيناى محتقنتين من شدة النعاس ، لأننى لم أكن قد نمت تقريباً طوال الليل . أمرت لنفسى بفنجان شاى . وهأنا ذا أرى مارتا بتروفنا تجلس الى جانبى وفى يديها ورق لعب . قالت لى : « هل تحب، يا آركادى ايفانوفتش ، أن تعرف مايقوله ورق اللعب فى أمر سفرك ؟ ». كانت مارتا بتروفنا خبيرة جداً فى فن التنبؤ بواسطة ورق اللعب . لن أغفر لنفسى ما حييت اننى لم أقبل اقتراحها . لقد هربت مذعوراً . صحيح أن الجرس قد رنّ فى تلك اللحظة مؤذناً بسير القطار . واليوم، بينما كنت جالساً أشعر بثقل فى معدتى بعد غداء ردىء جىء الىّ به من المطعم ، وفيما أنا أدخّن سيجاراً ــ اننى ما ان أجلس حتى أدخّن ــ دخلت علىّ مارتا بتروفنا على حين بغتة ، متزينةً بأجمل زينة ، مرتدية ثوباً جديداً من حرير أخضر طويل الذيل جداً ، وقالت لى : « يومك سعيد يا آركادى ايفانوفتش ! هل ثوبى الجديد يوافق ذوقك ؟ ما كان لآنيسكا أن تستطيع صنع ثوب كهذا الثوب » . (آنيسكا * خياطة فى القرية كانت فى الماضى من الأقنان وقد تعلمت الخياطة بموسكو ، فتاة حلوة جداً) . وأخذت مارتا تتبختر أمامى . أنعمت النظر فى ثوبها ، وتفرست فيها بانتباه ، وجهاً لوجه ، ثم قلت لها : « حقاً لا داعى يا مارتا بتروفنا ، الى أن تكلفى نفسك عناء المجىء الىّ لتحدثينى فى مثل هذه الترّهات ! » فقالت لى : « آه ! ... ربـاه ! ... هل صار حراماً علىّ حتى أن أزعجك ؟ » ، فقلت لها عندئذ لأغيظها : « أريد يا مارتا بتروفنا أن أتزوج

مرة ثانية » ، فقالت لى : « هذا شأنك أنت يا آركادى ايفانوفتش • ولكن ليس من اللائق كثيراً أن تتزوج مرة ثانيــة بعد دفن زوجتــك فوراً • وهبك اخترت اختياراً موفقاً ، فان الزواج لن يسعدكما لا أنت ولا هى ، وستكونان أضحوكة الشرفاء من الناس ، هذا كل شيء ! » • قالت ذلك ثم خرجت حتى لكأننى كنت أسمع حفيف ذيل ثوبها • سخف ، أليس كذلك ؟

سأله راسكولنيكوف :

ـ قل لى : أليست هذه أكاذيب تلفقها تلفيقاً ؟

فأجابه سفيدريجايلوف شارد الفكر كأنه لم يلاحظ فظاظة السؤال:

ـ يندر أن أكذب •

ـ وقبل ذلك ، هل رأيت أرواحاً عائدة ؟

ـ مرةً واحدة فى حياتى ، منذ ست سنين • كان عندى خادم اسمه فيلكا * • فما ان تمَّ دفنه حتى صحت أقول ذاهلاً : « يا فيلكا ، هات غليــونى ! » • فاذا هو يدخــل ، فيمضى قُدُماً الى الخــزانة التى كانت تُصفُّ فيها غلايينى • كنت جالساً فقلت لنفسى : « هو يفعل ذلك لينتقم منى » • ان مشاجرة عنيفة كانت قد شبت بينى وبينه قبل موته بقليل• قلت له : « كيف تجرؤ أن تمثل أمامى بكمٍ مثقوبة عند الكوع ؟ اخرج من هنا أيها الحقير ! » • فاستدار على عقبيه ، وخرج ، ثم لم يرجع بعد ذلك قط ! لم أقل عن هذا الأمر كلمةً واحدة لمارتا بتروفنا • أردت فى لحظة من اللحظات أن أقيم قداساً على روحه ، ولكننى ترددت بعد ذلك •

ـ هلم استشر طبيباً !

ـ لست فى حاجة اليك حتى أعلم أننى مريض ، وان أكن لا أعرف ما هو مرضى حقاً • وفى رأيى أن صحتى خير من صحتك خمس مرات•

أنا لم أسألك هل تؤمن بظهور الأرواح العائدة وانما سألتك هل تؤمن أو لا تؤمن بوجود الأرواح العائدة •

صاح راسكولنيكوف يقول بنوع من الغضب :

ـ لا ، لا يمكن أن أؤمن بوجودها فى حال من الأحوال !

جمجم سفيدريجايلوف يقول كمن يخاطب نفسه ، وهو ينظر الى جانب ، مائلَ الرأس قليلاً :

ـ ماذا يقال لك عادة ؟ يقال لك : « أنت مريض ، وكل ما تراه اذن ليس الا نتيجة هذيانك » • ولكن هذا يعوزه المنطق الدقيق الصارم• أنا أسلّم بأن الرؤى لا تظهر الا للمرضى ، ولكن هذا يبرهن على أن الرؤى لا يمكن أن تظهر الا للمرضى ، دون أن يبرهن على أن الرؤى لا وجود لها فى ذاتها •

قال راسكولنيكوف ملحاً مهتاجاً :

ـ لا وجود لها حتماً !

فتابع سفيدريجايلوف كلامه قائلاً وهو يلفت عينيه نحو راسكولنيكوف ببطء :

ـ لا ؟ أنت تؤمن بأنها لا وجود لها ؟ ولكن اذا فكّرنا فى الأمر على النحو التالى (ساعدنى ، من فضلك) : الأرواح العائدة أجزاء من عوالم أخرى هى بداية هذه العوالم ان صح التعبير • والانسان السليم المعافى ليس فى حاجة بطبيعته الى أن يراها ، لأن الانسان السليم المعافى ينتمى الى هذه الحياة الدنيا كل قبل كل شىء ، وعليه اذن أن يحيا هذه الحياة الأرضية وحدها ، فى سبيل النظام والانسجام • ولكن ما ان يمرض هذا الانسان ، ما ان يختل النظام الأرضى والطبيعى فى جسمه حتى تتجلى على الفور امكانية عالم آخر ، وكلما ازداد مرضه ازدادت اتصالاته بذلك

العالم الآخر ، فاذا مات انتقل الى ذلك العالم الآخر رأساً . » . اننى أجرى هذا التفكير منذ زمان طويل . فاذا كنت تؤمن بالحياة الآخرة ، كان فى امكانك أيضاً أن تؤمن بهذا الاستدلال الذى أجريه .

قال راسكولنيكوف :

ـ أنا لا أؤمن بالحياة الآخرة .

وظل سفيدريجايلوف حالماً شارد الفكر . ثم قال فجأة :

ـ هه ! ... ماذا اذا لم يكن فى الحياة الآخرة الا عناكب أو أشياء من هذا القبيل ؟!...

فقال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « انه مجنون ! » .

وتابع سفيدريجايلوف كلامه :

ـ نحن نتصور الأبدية دائماً على أنها فكرة لا نستطيع أن نفهمها ، على أنها شىء ضخم ، ضخم ! ولكن لماذا تكون شيئاً ضخماً بالضرورة ؟ تصوّر فجأة أنه ليس هناك ، بدلاً من هذا كله ، الا حجرة صغيرة ، الا شىء يشبه حمّاماً فى قرية ، يملؤه الدخان وتنتشر العناكب فى جميع أركانه ، وتصوّر أن هذا هو الأبدية كلها . أنا مثلاً انما تبدو لى الأبدية فى هذه الصورة أحياناً .

صاح راسكولنيكوف يقول منزعجاً :

ـ هل يمكن ، هل يمكن حقاً أن لا يكون فى ذهنك تصور أبعث على العزاء وأقرب الى الصدق ؟

أجاب سفيدريجايلوف وهو يبتسم ابتسامة غير محدّدة :

ـ أقرب الى الصدق ! هل تعلم ؟ لو كان الأمر بيدى لصنعت الأمور على هذا النحو نفسه !...

حين سمع راسكولنيكوف هذا الجواب العجيب الشاذ شعر ببرد مفاجئ يسرى فى جسمه •

ورفع سفيدريجايلوف رأسه ، وحدّق اليه بنظرة ثابتة ، ثم انفجر ضاحكاً ، وهتف يقول :

ـ لا ، لا ، ان أمرنا لعجيب حقاً ! منذ نصف ساعة فقط ، لم نكن قد التقينا بعد ، وكنا نعد نفسينا عدوين • وبيننا ، عدا ذلك ، مسألة لم نخرجها الى النور بعد ، ومع هذا تركناها واسترسلنا فى هذا النوع الغريب من الأدب • هل كذبت عليك حين قلت لك اننا ثمرتا أرض واحدة ؟

قال راسكولنيكوف وقد ثارت أعصابه ثورة شديدة :

ـ من فضلك : قل ما تريد أن تقوله بغير ابطاء ، واذكر لى السبب الذى دفعك الى تشريفى بهذه الزيارة ••• ذلك أننى ••• مستعجل •• يجب أن أخرج •••

ـ طيب ، طيب ••• ان أختك آفدوتيا رومانوفنا ستتزوج السيد لوجين ، السيد بطرس بتروفتش لوجين ، أليس كذلك ؟

ـ ألا يمكن أن تتحاشى كل سؤال يتعلق بأختى ، وأن لا تذكر اسمها ؟ اننى لا أفهم كيف تجرؤ أن تذكر اسمها بحضورى ، اذا صحّ أنك أنت سفيدريجايلوف حقاً !

ـ ولكن كيف لا أذكر اسمها وقد جئت من أجل التحدث فى أمرها ؟

ـ طيب • تكلم • ولكن أسرع !

ـ أنا على يقين من أنك قد كوّنت رأياً فى السيد لوجين (الذى يمت الىّ بقربى مصاهرة) ، اذا كنت قد رأيته ولو مدة نصف ساعة ،

أو كنت قد جمعت عنه بعض المعلومات الدقيقة . هذا رجل لا يصلح زوجاً لآفدوتيا رومانوفنا . في رأيي أن آفدوتيا رومانوفنا انما تضحى في هذا الأمر تضحية كبيرة وطائشة في سبيل ... في سبيل أسرتها . لقد بدا لى ، بعد كل ما سمعته عنك ، أنك ، من جهتك ، سيسرك كثيراً أن لا يتم هذا الزواج ، شريطة أن لا يُساء الى أختك . وأنا الآن ، بعد أن عرفتك شخصياً ، مقتنع بهذا أكثر من اقتناعى به في أي وقت مضى .

قال راسكولنيكوف :

ـ هذا كله سذاجة من جانبك ... معذرة ... أردت أن أقول ان هذا كله وقاحة من جانبك .

ـ هل تقصد بذلك أننى أدافع عن مصلحتى ؟ لا تقلق يا روديون رومانوفتش ! لو كنت أتكلم في سبيل مصلحتى ، لما كنت صريحاً هذه الصراحة ، فما أنا غبى غباوة كاملة على كل حال . بالمناسبة : سأكشف لك عن أمر سيكولوجى غريب ! منذ قليل ، حين كنت أبرّر الحب الذى أحمله لآفدوتيا رومانوفنا قلت عن نفسى اننى أنا ضحية . ألا فاعلم أننى لا أشعر الآن بأى حب ، لا أشعر الآن بأى حب البتة ، حتى اننى استغرب أنا نفسى كيف شعرت في الماضى فعلاً ...

قاطعه راسكولنيكوف قائلاً :

ـ مصدر ذلك كله ما كنت فيه من فراغ ، وما فُطرت عليه من فسق وعهر ...

ـ حقاً ! أنا رجل عاطل داعر . ولكن أختك ، من جهة أخرى ، لها من المزايا والحسنات ما جعلنى لا أستطيع أنا نفسى أن أمتنع عن أن أتأثر بعض التأثر ... ولكن ذلك كله لم يكن الا لغواً وعبثاً ... أنا أدرك هذا الآن .

ـ وهل تدركه منذ مدة طويلة ؟

ـ بدأت أدركه منذ بعض الوقت ، ولكننى لم أقتنع به اقتناعاً مطلقاً الا أمس الأول ، تقريباً فى نفس الدقيقة التى وصلت فيها الى بطرسبرج. وحتى فى موسكو كنت ما أزال أتصور أننى آت من أجل أن أخطب آفدوتيا رومانوفنا وأن أفرض نفسى منافساً للسيد لوجين •

ـ اغفر لى مقاطعتك ••• ولكن أرجوك ••• رحماك ••• ألا تستطيع أن توجز وأن تنتقل رأساً الى الكلام عن الغرض من زيارتك ؟ اننى مستعجل ••• يجب أن أخرج •

ـ بكل سرور • حين وصلت الى هنا عازماً على القيام ••• برحلة، أردت أولاً أن أتخذ بعض الاجراءات • لقد أبقيت أولادى عند خالتهم• وهم أغنياء لا حاجة بهم الى • وأى أب أنا لهم على كل حال ؟ لم أحمل معى الا المال الذى أهدته الى مارتا بتروفنا منذ سنة • هذا يكفينى • معذرة ، اننى أصل الى الوقائع بسرعة شديدة • اننى قبل سفرى الذى قد يتم على كل حال ، أريد أن أفرغ من السيد لوجين • ليس يعنى هذا أننى أكرهه كرهاً يبلغ هذا المبلغ من القوة ، ولكنه هو السبب فى الشجار الذى وقع بينى وبين مارتا بتروفنا ، حين علمت أنها دبرت أمر هذا الزواج • اننى أرغب الآن أن ألقى آفدوتيا رومانوفنا بواسطتك ، وبحضورك اذا شئت ، بغية أن أشرح لها أولاً أنه ما من خير يمكن أن تتوقعه من السيد لوجين ، بل وأن هناك شروراً كبيرة يجب أن تتوقعها منه ؛ وأن أطلب منها ثانياً ، بعد التماس غفرانها عن المتاعب التى سببتها لها ، أن تأذن لى أن أقدم اليها عشرة آلاف روبل فى سبيل أن أسهل لها القطيعة مع السيد لوجين ، وهى قطيعة أحسب أنها لن تسوءها اذا هى تصورت امكانها •

صاح راسكولنيكوف يقول وقد تجاوز ذهوله حنقه :

ـ ألا انك لمجنون فعلاً ، ألا انك لمجنون فعلاً • كيف تجرؤ أن تقول هذا الكلام ؟

ـ كنت أعلم أنك ستطلق صيحات عالية وصرخات شديدة• ولكننى أحب أن أقول لك أولاً اننى على كونى لا أملك ثراءً كبيراً ، أستطيع التصرف فى هذه العشرة آلاف روبل • بتعبير آخر : ان هذا المبلغ ليس بالمبلغ الذى لا غنى لى عنـه ، فاذا لم تقبله آفدوتيا رومانوفنـا ، فسأنفقه انفاقاً أشد غباوة وحماقة • هذه أولى • وأما الثانية فهى أن ضميرى مرتاح كل الارتيـاح : اننى أقدم هـذا المال دون أى حسـاب • صدّق أو لا تصدّق ، ولكنكما ، أنت وآفدوتيا رومانوفنا ، ستدركان هذا فيما بعد• الحقيقة أننى سببت بعض المتاعب وبعض الازعاجات فعلاً لأختك الصغيرة المحترمة ، واذ كنت أشعر بندامة صادقة وأعانى من عذاب الضمير ، فاننى أرغب من كل قلبى لا أن أكفّر عن خطيئتى ، فأقدم لأختـك تعويضـاً مالياً ، بل أن أكون ، بكل بساطة ، نافعاً لها فى أمر من الأمور على نحو من الأنحاء ، لأننى على كل حال لست بالانسان الذى لا يمتاز الا باقتراف الشر • ولو كان فى عرضى هذا جـزء من مليون جـزء من حسـاب ، لما قدمته بمثل هذه الصراحة كلها • ثم اننى ما كان لى أن أقدم اليها عشرة آلاف روبل فحسب ، بينما كنت أعرض عليها أكثر من ذلك منذ خمسة أسابيع • أضف الى ذلك أن من الجائز جداً أن أتزوج احدى الفتيات فى وقت قريب كل القرب ، وهذا ينفى عنى كل شـبهة فى اضـمار أى شر لآفدوتيا رومانوفنا • وأقول فى الختام ان آفدوتيـا رومانوفنـا ، اذا هى تزوجت السيد لوجين ، ستتقاضى هذا المبلغ نفسه ولكن من جيب آخر ••• لا تزعل يا روديون رومانوفتش ••• بل احكم على الأمر بنفسـك فى هدوء وسكينة •

وكان سفيدريجايلوف ، وهو ينطق بهذه الكلمات ، هادئاً كل الهدوء ، ساكناً كل السكينة .

قال راسكولنيكوف :

ـ أرجو أن تقف عند هذا الحد من الكلام ، لأن ما قلته حتى الآن هو على كل حال زاخر بوقاحة لا تغتفر .

ـ أبداً . من يسمعك يظن أن الانسان لا يمكن أن يصنع بأخيه الانسان الا شراً فى هذا العالم الأرضى ، وأنه لا يجوز أن يفعل له أى خير ، وذلك كله باسم عادات سخيفة وآراء باطلة . ألا ان هذا لمضحك حقاً . هل اذا مت مثلاً ، فأورثت أختك الصغيرة فى وصيتى هذا المبلغ نفسه ، هل ترفض أختك قبوله حتى فى هذه الحالة ؟

ـ جائز جداً أن ترفضه .

ـ لا ! ودعنا من هذا على كل حال . المهم أن عشرة آلاف روبل مبلغ جميل ! ومهما يكن من أمر ، فاننى أرجوك أن تطلع آفدوتيا رومانوفنا على هذا الحديث .

ـ لا ، لن أطلعها عليه .

ـ فى هذه الحالة سأكون مضطراً يا روديون رومانوفتش أن أسعى بنفسى الى الحصول على موعد منها ، وقد يزعجها هذا .

ـ واذا أطلعتها على هذا الحديث ، ألن تسعى بنفسك الى الحصول على هذا الموعد ؟

ـ لا أدرى بماذا أجيبك . اننى أود كثيراً أن أراها مرة .

ـ لا تعوّل على هذا !

ـ خسارة . على أنك لا تعرفنى . أفليس من الجائز أن تتوثق العلاقات بيننا ؟

ـ أأنت تظن حقاً ان العلاقات بيننا قد تتوثق ؟

أجاب سفيدريجايلوف وهو ينهض ويتناول قبعته :

ـ لم لا ؟ ليس معنى هذا أننى أحرص هذا الحرص كله على أن أزعجك هنا ... حتى اننى لم أكن أعوّل على أن ... رغم أن هيئتك قد لفتت نظرى كثيراً فى هذا الصباح ...

سأله راسكولنيكوف فى قلق :

ـ أين رأيتنى فى هذا الصباح ؟

ـ رأيتك بمحض مصادفة ! ما يزال يخيّل الىّ أن فيك شيئاً قريباً منى كل القرب . ولكن لا تقلق أى قلق ، ما أنا بالرجل المزعج : لقد استطعت أن أتفاهم مع غشاشين ؛ ولم أضجر الأمير سفرباى الذى يمت الىّ بقربى بعيدة والذى هو سيد من كبار السادة ؛ وتسنى لى أن أكتب فى « ألبوم » مدام بريلوكوفا بضعة أسطر عن « مادونا » رافائيل *، وعشت سبع سنين متصلة غير منقطعة مع مارثا بتروفنا ؛ وقضيت قبل ذلك ليالى بكاملها فى عمارة فيازمسكى * بميدان « سوق العلف » ؛ وقد أطير بالمنطاد مع بيرج ...

ـ رائع . فاسمح لى الآن أن أسـألك أأنت تزمع القيـام برحلتك قريباً ؟

ـ أى رحلة ؟

ـ عجيب ! الرحلة التى حدثتنى عنها منذ قليل .

ـ رحلة ؟ آ ... نعم ... رحلة ... فعلاً .. لقد حدثتك عن رحلة ... ولكن هذه مسألة واسعة جـداً ... ليتك تعـرف عن أى شىء تسألنى !

كذلك أضاف فجأة وهو يضحك ضحكة رنانة قصيرة . ثم أردف:

ـ قد أتزوج بدلاً من القيام بتلك الرحلة : هناك خطيبة تُقترح عليّ ٠

ـ هنا ؟

ـ نعم ٠

ـ متى اتسع وقتك لأن ٠٠٠

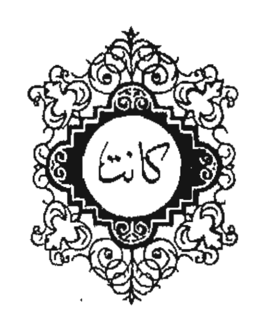
ـ أود كثيراً مع ذلك أن أرى أختك آفدوتيا رومانوفنا ٠ اننى أسألك جاداً أن تؤدى لى هذه الخدمة ٠ هيّا ٠٠٠ الى اللقاء مرة أخرى٠ آ ٠٠٠ نسيت ٠٠٠ قل لأختك اللطيفة يا روديون رومانوفتش ان مارتا بتروفنا قد أورثتها فى وصيتها ثلاثة آلاف روبل ٠ هذه هى الحقيقة دقيقةً ٠ لقد اتخذت مارتا بتروفنا هذه الاجراءات قبل موتها بأسبوع ، اتخذتها بحضورى ٠ وفى وسع آفدوتيا رومانوفنا أن تقبض هذا المبلغ فى غضون أسبوعين أو ثلاثة ٠

ـ تقول ٠٠٠ هذه هى الحقيقة ؟

ـ نعم هذه هى الحقيقة ٠ أرجوك أن تبلغها اياها ٠ هيّا ٠٠٠ الى اللقاء مرة أخرى ٠ هل تعلم أننى أسكن قريباً جداً منك ؟

قال سفيدريجايلوف ذلك واتجه نحو الباب ؟ وفيما هو يجتاز العتبة ، التقى برازوميخين !

الفصل الثاني



كانت الساعة قريبة من الثامنة : أسرع الاثنان نحو عمارة باكالايف ليصلا قبل لوجين .

وسأل رازوميخين صاحبه منذ أصبحا فى الشارع :

ـ قل لى : من ذلك الرجل ؟

ـ هو سفيدريجايلوف ، ذلك الملاّك الذى أهينت أختى فى منزله حين كانت تعمل عنده مربية . وقد اضطرت أن تنصرف بسبب ملاحقاته الغرامية : طردتها زوجته مارتا بتروفنا . ومارتا بتروفنا هذه قد اعتذرت لدونيا بعد ذلك ثم ماتت فجأة منذ مدة قصيرة ؛ وعنها انما كان يجرى الحديث منذ قليل . لا أدرى لماذا أنا خائف من هذا الرجل . لقد وصل الى بطرسبرج بعد دفن زوجته فوراً . هو رجل غريب جداً ؛ يخيّل الىّ أنه عازم أمره على تدبير مكيدة خبيثة . لكأنه يعرف شيئاً ما ... يجب أن نحمى دونيا منه ، ذلك ما كنت أريد أن أقوله لك ، هل تسمع ؟

ـ نحميها منه ؟ ولكن أى أذى يستطيع أن يلحقه هذا الرجل بأفدوتيا رومانوفنا ؟ على كل حال ، أشكر لك يا روديا أنك تقول لى هذا الكلام . لسوف نحميها . أين يسكن ؟

ـ لا أدرى .

ـ لماذا لم تسأله ؟ خسارة ! سأعرف ذلك على كل حال •

سأله راسكولنيكوف بعد فترة صمت :

ـ هل رأيته ؟

ـ طبعاً • لاحظته ، لاحظته جيداً •

وألح راسكولنيكوف سائلاً :

ـ هل رأيته رؤية واضحة ، مميَّزة ؟

ـ نعم ، وأتذكره تذكراً واضحاً مميَّزاً• لو رأيته بين ألف شخص لعرفته • اننى أملك ذاكرة الوجوه •

وصمتا من جديد •

وجمجم راسكولنيكوف يقول :

ـ هِمْ ••• ذلك أننى ••• ذلك أننى ••• هل تعلم ؟ لولا ذلك ••• لكانَ يمكن أن أظن ••• ما أزال أظن ••• أن ذلك لم يكن الا أضغاث أحلام •

ـ عمَّ تتكلم ؟ لست أفهم بوضوح •

تابع راسكولنيكوف كلامه قائلاً وهو يلوى فمه بابتسامة :

ـ اسمع : لما كنتم تقولون جميعاً اننى مجنون ، فقد تصورت منذ قليل اننى قد أكون مجنوناً بالفعل ، وأن ما رأيته لم يكن الا شبحاً •

ـ ما هذا الذى تقوله ؟

ـ من يدرى ؟ لعلنى مجنون مع ذلك ، ولعل كل ما جرى فى الآونة الأخيرة انما جرى فى خيالى وحده !

ـ روديا ! هل شوشوا عقلك من جديد ؟ ولكن ماذا قال لك هذا الرجل ؟ لماذا جاء ؟

لم يجب راسكولنيكوف . وفكّر رازوميخين لحظة . ثم بدأ يتكلم فقال :

ـ طيب ، اسمع تقريرى : لقد جئت اليك ، فوجدتك نائماً . ثم تغدينا ، ثم ذهبت الى بورفير . كان زاميوتوف عنده . أردت أن أبدأ الحديث ، ولكن ذلك لم يثمر . لم أستطع أن أتكلم كما كان ينبغى أن أتكلم . لم يفهما شيئاً ؛ كانا لا يستطيعان أن يفهما شيئاً ؛ ولكنهما لم يظهرا أى ارتباك . جذبت بورفير الى النافذة وأخذت أتكلم ، ولكن هذا لم يثمر أيضاً . كنت أنظر الى جهة ، وكان هو ينظر الى جهة أخرى. وأخيراً وضعت قبضة يدى تحت بوزه ، وقلت له اننى سأحطم له بوزه على الطريقة العائلية . فلم يزد على أن نظر الىّ . عندئذ بصقت على الأرض ، وانصرفت . هذا كل شيء . ما أغبى هذا كله ! أما زاميوتوف فلم أبادله كلمة واحدة . ومع ذلك اعتقدت أننى أفسدت الأمر كله ، الى أن تراءت لى فجأة ، وأنا أهبط السلم، فكرة وضعت بلسماً على قلبى. قلت لنفسى : لماذا نصدّع رأسينا ، أنا وأنت ؟ لو كان هناك خطر يتهددك ، لو كان هناك شيءٌ حقاً ، لما قلت كلمة واحدة . ولكنك لا شأن لك فى هذا الأمر كله . ما شأنك أنت وهذا الأمر ؟ أنت لا علاقة لك بهذا الأمر . فما عليك اذن الا أن تستخف بهم ، أن تبصق عليهم . ولسوف ترى أننا نحن الذين سنضحك عليهم ونستهزىء بهم . لو كنت فى مكانك لأخذت أضللهم وأغرّر بهم ! ما أشد ما سيشعرون به من خجل وعار فيما بعد ! ابصق على هذا الأمر كله ، لماذا لا تبصق عليه ؟ قد نستطيع فى المستقبل أن نضربهم أيضاً . ولكن فلنضحك الى أن يحين ذلك الحين !

أجاب راسكولنيكوف قائلاً :

ـ طبعاً ، طبعاً !

ولكنه قال بينه وبين نفسه : « ما عساك قائلاً في الغد ؟ » .

شيء غريب : ان راسكولنيكوف لم يكن قد تساءل مرة واحدة حتى الآن « ما عسى يفكّر فيه رازوميخين حين يعلم الحقيقـة » . فلما خطرت هذه الفكرة بباله الآن حدّق الى صديقه بنظرة ثابتـة . أما ما رواه له رازوميخين عن زيارته لبورفير فانه لم يهتم به كثيراً : ان أموراً كثيرة قد جرت بعد تلك الزيارة !...

وفيما كانا يعبران الدهليز التقيـا بلوجين . لقـد وصل لوجين في الساعة الثامنة تماماً ، ولكنـه ظل يطوف مدة طويلة قبل أن يهتـدي الى الغرفة ، وها هم أولاء الثلاثة يدخلون معاً ، ولكن دون أن ينظر أحـد منهم الى أحد ، ودون أن يحيي أحد منهم أحداً . دخل الشابان أولاً ، وتلبث بطرس بتروفتش في حجرة المدخل قليلاً من باب اللباقة ، وخلع هنالك معطفه . وتقدمت بولشيريا ألكسندروفنا الى لقائه عند عتبة الغرفة فوراً . وكانت دونيا أثناء ذلك الوقت تحيي أخاها .

دخل بطرس بتروفتش ، وسلّم على السيدتين بلطف ومودة ، رغم أنه قد اصطنع مزيداً من الوقار والكبرياء . على أنه كان يبـدو مرتبكاً بعض الارتباك ، لم يسـيطر على نفســه سـيطرة تامة بعد . وأسرعت بولشيريا ألكسـندروفنا التي كانت تبـدو مرتبكة هي أيضـاً ، أسرعت تُجلس الجمع كله حول المائدة المسـتديرة التي كان عليها سـماور يغلي مـاؤه . فكان مكانا دونيـا ولوجـين متقـابلين ، وكان مكانا رازوميخين وراسكولنيكوف أمام بولشيريا الكسندروفنا ، فأما رازوميخين فالى جانب لوجين ، وأما راسكولنيكوف فالى جانب أخته .

خيّم الصمت برهـة من الوقت . وأخـرج بطرس بتروفتش من جيبه ، بغير تعجل ، منديلاً من قماش الباتيسته تفوح منه روائح عطر ، وتمخط كما يتمخط رجل يحس أن كرامته قد أهينت ، فهو عازم لذلك

على أن يطالب بايضاحات ، ولكنه ظل محافظاً على بشاشة هيئته • كان قد خطر بباله وهو في حجرة المدخل أن لا يخلع معطفه ، وأن ينصرف فوراً ليعاقب السيدتين معاقبة قاسية ، وليفهمهما الوضع كله • ولكنه لم يعزم أمره على انفاذ هذه الفكرة التي خطرت بباله • ثم ان هذا الرجل يكره الأمور التي يعوزها اليقين الثابت ، وهناك نقطة لا بد من ايضاحها : لئن خالفت هاتان السيدتان أوامره صراحةً ، فلا بد أن هناك سبباً دعا الى ذلك ، فالأفضل أن يعرف هذا السبب بسرعة ، وفي وسعه بعدئذ أن يعاقب عقاباً قاسياً ما دام يملك أن يعاقب •

قال يخاطب بولشيريا ألكسندروفنا بلهجة رسمية :

ـ أرجو أن تكونا قد قمتما برحلة مريحة •

ـ نحمد الله يا بطرس بتروفتش !

ـ يسرني أن أعرف هذا • ألم تتعب آفدوتيا رومانوفنا أيضاً ؟

أجابت دونيا قائلة :

ـ أنا شابة وقوية فلا أتعب • أما ماما فقد تحملت مشقة كبيرة •

ـ ما العمل ؟ ان طرقنا الوطنية تمتد مسافات كبيرة • ان « أمنا روسيا » كما يقال ، واسعة كثيراً ••• أما أنا فانني ، رغم رغبتي القوية ، لم أستطع أن آتي الى المحطة لاستقبالكما • آمل مع ذلك أن يكون كل شيء قد تمّ بدون مزعجات •

فأسرعت بولشيريا ألكسندروفنا تقول بنبرة خاصة :

ـ لا يا بطرس بتروفتش ! لقد لقينا مزعجات كثيرة ، وشعرنا بضيق شديد • ولولا أن الله أرسل الينا دمتري بروكوفتش بالأمس ، اذن لضعنا •

ثم أضافت تعرّف لوجين بدمتري بروكوفتش :

ـ هذا دمترى بروكوفتش •

فدمدم لوجين يقول وهو يلقى على رازوميخين نظرة مواربة خالية من المودة :

ـ ولكن ••• سبق لى أن سُررت ••• أمس •••

ثم قطب حاجبيه وصمت •

نستطيع أن نصف بطرس بتروفتش على وجه العموم بقولنا انه ينتمى الى تلك الفئة من الناس التى تبدو فى المجتمع لطيفة ودوداً ، أو قل تبدو متطلعة الى اللطف والمودة ، ولكن ما ان يسؤها شيء حتى تفقد على الفور وسائلها ، فاذا هى تشبه أكياساً من دقيق أكثر مما تشبه فرساناً مرحين يزخرون نشاطاً ويحظون باعتبار الناس عامة •

وساد صمت شامل من جديد • فراسكولنيكوف مصرّ على السكوت اصراراً عنيداً ، وآفدوتيا رومانوفنا لا تريد أن تتكلم قبل أن تحين اللحظة المناسبة ، ورازوميخين ليس عنده ما يقوله • وهكذا شعرت بولشيريا ألكسندروفنا بنذر الخطر • فلجأت الى آخر ما تملك من موارد ، فبادرت تقول :

ـ ماتت مارتا بتروفنا ، هل تعرف هذا ؟

ـ أعرفه طبعاً • علمت به منذ أخذت تسرى الشائعة ••• وأزيدك علماً فأقول ان آركادى ايفانوفتش سفيدريجايلوف قد أسرع يجيء الى بطرسبرج بعد دفن امرأته فوراً • هذه هى على كل حال الأخبار الدقيقة التى وصلتنى •

قالت دونيا تسأل بصوت خائف قلق ، وهى تبادل أمها نظرة سريعة :

ـ الى بطرسبرج ؟ الى هنا ؟



بطرس بتروفتش لوجين

ـ نعم . ولا شك في أن له نيات يضمرها ، اذا نحن نظرنا الى استعجاله السفر ، والى الأحداث التي سبقت هذا السفر على وجه العموم.

صاحت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

ـ رباه ! هل من الممكن أن لا يدع دونيتشكا مرتاحة هنا أيضاً ؟

ـ يخيّل الىّ أنكما يجب أن لا تبالغا في القلق ، لا أنت ولا آفدوتيا رومانوفنا ، على شرط أن ترغبا طبعاً في أن تتحاشيا كل صلة به . أما أنا فسأكون يقظاً ساهراً ، وسأبادر منذ الآن الى استطلاع محل سكناه .

وتابعت بولشيريا ألكسندروفنا كلامها فقالت :

ـ آه يا بطرس بتروفتش ! انك لا تعرف مدى ما أحدثته في نفسي من خوف ورعب . انني لم أره في حياتي الا مرتين ، ولكنه بدا لي مريعاً ، مريعاً ! أنا واثقة بأنه هو سبب موت مارتا بتروفنا !

ـ يصعب القطع برأي فيما يتعلق بهذه النقطة . أنا أملك معلومات دقيقة محددة . لست أنكر أنه قد عجّل مجرى الأمور بما أحدثته الاهانة فيها من أثر نفسي ان صح التعبير . أما عن سلوك الرجل وعن أخلاقه عامةً فأنا أوافقك على رأيك كل الموافقة . لا أدري هل أصبح الآن غنياً ، ولا أدري كم أورثته مارتا بتروفنا على وجه الدقة ، ولكنني سأعرف هذا بعد مدة لن تطول . ومهما يكن من أمر ، فمما لا شك فيه أنه ، وقد أصبح يملك مالاً ، سوف يستأنف فوراً ، هنا ببطرسبرج ، طراز الحياة التي كان يعيشها في الماضي . هذا انسان هو أكثر أشباهه انحلال خلق ، وفساد طبع . وهناك أسباب قوية تدعوني الى الاعتقاد بأن مارتا بتروفنا التي شاء سوء حظها أن تُفتتن به وأن تحرره من ديونه منذ ثماني سنين ، قد خدمته في ميادين أخرى : فبفضل جهودها وحدها ، وبفضل تضحياتها انما استطاعت أن تخنق في المهد قضيةً اجرامية وحشية

فظيعة كان يمكن أن تؤدى به الى سيبريا • ذلك هو هذا الرجل اذا كنت تحرصين على معرفته !

صاحت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

ـ آه ! رباه !

وكان راسكولنيكوف يصغى بانتباه •

سألته دونيا بلهجة قاسية رصينة :

ـ هل صحيح حقاً أن لديك معلومات دقيقة عن ذلك ؟

ـ أنا انما أكرر ما سمعته بنفسى من فم المرحومة مارتا بتروفنا مختوماً بخاتم السر • يحسن أن نلاحظ أن هذه القضية تظل من وجهة النظر القانونية غامضة غموضاً شديداً • فى ذلك الوقت كانت تعيش هنا ـ ويظهر أنها ما تزال تعيش الى الآن ـ سيدة أجنبية اسمها ريسليش، وهى مرابية صغيرة لها عدا ذلك أعمال أخرى • ولقد كان السيد سفيدريجايلوف على صلات حميمة سرية بهذه المرأة منذ زمن طويل • وكانت تعيش معها فتاة تمت اليها بقرابة بعيدة ، فتاة صغيرة فى الخامسة عشرة من عمرها أو فى الرابعة عشرة ، كانت صماء خرساء ، وكانت السيدة ريسليش تمحضها كرهاً لا حدود له ، وتلومها على كل لقمة خبز تأكلها ، حتى لقد كانت تضربها ضرباً خالياً من أية شفقة انسانية • وفى ذات يوم وُجدت الفتاة مشنوقة فى الطابق الذى يقع تحت سقف المنزل• وقد انتهى التحقيق الى أن الفتاة ماتت منتحرة ، فطويت القضية بعد اتمام الاجراءات المعتادة • غير أن وشاية جاءت بعد ذلك تقول ان الطفلة قد اعتدى عليها السيد سفيدريجايلوف اعتداء مشيناً قاسياً • صحيح أن هذا كله ظل يكتنفه الغموض ، فان الوشاية قد صدرت عن ألمانية أخرى هى امرأة سيئة السمعة لاتوحى بأية ثقة• ولم تتبع ذلك أية اجراءات : فبفضل

جهود مارتا بتروفنا وبفضل مالها بقى كل شيء في حدود الشائعة • غير أن هذه الشائعة كانت بليغة الدلالة • ولا شك أنك سمعت يا آفدوتيا رومانوفنا ، حين كنت عندهم ، كلاماً عن قصة خادم اسمه فيليب مات منذ ست سنين على أثر معاملات سيئة ، فى العهد الذى كانت فيه القنانة ما تزال قائمة •

ـ بل لقد سمعت أن فيليب هذا مات منتحراً •

ـ تماماً ، ولكنه أُجبر على الانتحار ، أو قولى دفع اليه ، بتأثير نظام الازعاجات والاضطهادات التى كان يمارسها السيد سفيدريجايلوف•

قالت دونيا بخشونة :

ـ لم أكن أعرف ذلك • ولكننى سمعت قصة غريبة جداً تروى أن فيليب هذا كان فتى مصاباً بمرض الوسواس ، وأنه كان نوعاً من فيلسوف قابع فى البيت • كان الناس يقولون عنه ان قراءاته هى التى ذهبت بعقله ، وانه انتحر هرباً من سخريات السيد سفيدريجايلوف ، لا من ضرباته • ومهما يكن من أمر فان السيد سفيدريجايلوف ، كان طوال مدة اقامتى عندهم ، يعامل الخدم بحضورى معاملة حسنة ، حتى لقد كان هؤلاء يحبونه ، رغم أنهم يتهمونه فى الواقع بأنه كان السبب فى موت فيليب •

قال لوجين وهو يلوى فمه بابتسامة ملتبسة المعنى :

ـ أرى يا آفدوتيا رومانوفنا أنك أصبحت تميلين فجأة الى التسامح • هذا رجل ماكر فعلاً ، وهو الى ذلك مغو داعر • أليست مارتا بتروفنا ، التى ماتت تلك الميتة الغريبة ، دليلاً محزناً على ذلك ؟ أنا انما أردت أن أساعدكما بنصائحى ، أنت وأمك ، لأننى أتنبأ بمحاولات جديدة سيقوم بها وأنتما تجهلانها • وانى من جهتى لعلى اقتناع جازم بأن

هذا الرجل سيودع في السجن يوماً من الأيام بسبب ديون • ان مارتا بتروفنا التي كانت لا تفكر الا في أولادها لم يكن في نيتها حتماً ، في يوم من الأيام ، أن تورثه مبلغاً ضخماً من ثروتها ، واذا أورثته شيئاً مع ذلك، فان هذا الميراث لا يمكن أن يكون الا مبلغاً زهيداً « عارضاً » ، وهذا المبلغ الزهيد لن يكفي صاحبه الذي عُرف بعادات خاصة الا سنةً واحدة في أكثر تقدير •

قالت دونيا :

ـ بطرس بتروفتش، أرجوك، لا تتكلمن عن السيد سفيدريجايلوف! ان الكلام عنه يؤلمني •

وقال راسكولنيكوف فجأة ، خارجاً بذلك عن صمته أول مرة :

ـ جاء الىّ منذ قليل •

فاذا بصيحات التعجب تتعالى في جميع الجهات ، واذا بجميع الوجوه تلتفت اليه • وانفعل حتى بطرس بتروفتش •

وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال :

ـ جاء الىّ منذ ساعة ونصف ، بينما كنت ما أزال نائماً • دخل ، فأيقظني ، وعرفني بنفسه • كان منطلقاً مرحاً ، وكان يأمل جازماً أن تنعقد بيني وبينه صلات • وقد ألحّ خاصةً على أن يلقاك يا دونيا ، وطلب مني أن أكون وسيطاً له في تهيئة هذا اللقاء • هناك عرض يريد أن يبسطه لك • وقد ذكر لي ما هو هذا العرض • ومن جهة أخرى أبلغني رسمياً أن مارتا بتروفنا قد اتسع وقتها ، قبل وفاتها بثمانية أيام ، أن تورثك في وصيتها ثلاثة آلاف روبل ، وهو مبلغ تستطيعين أن تقبضيه يا دونيا في أقرب فرصة •

هتف بولشيريا الكسندروفنا تقول وهى ترسم اشارة الصليب :

ـ الحمد لله ! صلىّ لها يا دونيا صلىّ لها !

قال لوجين :

ـ هذا صحيح •

وقالت دونيا مستطلعة :

ـ هيه ، وبعد ذلك ؟

ـ بعد ذلك قال انه هو نفسه ليس غنياً ، وان الثروة كلها قد آلت الى أولاده الذين بقوا الآن عند خالتهم• ثم أضاف انه قد نزل فى مكان ما ، غير بعيد عن بيتى ، ولكننى لا أدرى أين يقع مسكنه على وجه الدقة ، ولا سألته عن ذلك على كل حال •

سألت بولشيريا ألكسندروفنا مرتاعة :

ـ ولكن ماذا يريد ، ماذا يريد أن يعرض على دونيا ؟ هل قال لك ماذا يريد أن يعرض عليها ؟

ـ نعم ، قال لى •

ـ فما الذى يريد أن يعرضه عليها ؟

ـ سأذكر فيما بعد •

قال راسكولنيكوف ذلك ، ثم صمت وعاد يشرب الشاى •

فأخرج بطرس بتروفتش ساعته ونظر فيها ، ثم قال :

ـ اننى مضطر الى أن أترككم حتماً ، فهنـاك عمـل ملح مستعجل ينادينى •

وأضاف يقول وهو يتحرك لينهض مظهراً بعض الانزعاج :

ـ وبذلك لن أضايقكم •

فقالت دونيا :

ـ ابق يا بطرس بتروفتش ! ألم تكن تنوى أن تقضى السهرة معنا ؟ ألم تكتب أيضاً أنك تريد أن تناقش ماما ؟

فقال بطرس بتروفتش بوقار شديد :

ـ هذا صحيح يا آفدوتيا رومانوفنا •

وجلس ، لكنه ظل ممسكاً قبعته بيده ، وتابع يقول :

ـ كنت أريد فعـلاً أن أناقشـك وأناقش أمك المحترمة فى أمور خطيرة جداً • ولكن كما أن أخاك لا يستطيع أن يشرح أمامى شيئا عن عروض السـيد سـفيدريجايلوف ، كذلك لا أريد أنا ولا أسـتطيع أن أشرح شيئاً أمام ••• أشخاص آخـرين ••• فى أمور هى على درجـة عظيمة جـداً من خطورة الشـأن !••• ثم ان احـداً لم يكترث اطلاقاً برجائى الملح •••

واكتسى وجه لوجين تعبيراً عن المرارة ، وصمت فى وقار ورصانة•

قالت دونيا :

ـ أنا وحدى السبب فى أن رغبتك فى أن لا يحضر أخى حديثنا لم تُحقَّق • لقد كتبت تقول ان أخى أهانك ، وأنا أرى أنه يجب ايضاح الأمور بأقصى سرعة ، وأن عليكما أن تتصالحا • اذا كان روديا قد أهانك حقاً ، فانه يكون من « واجبه » أن يعتذر لك ، و « سوف يفعل » ذلك••

فسرعان ما استرد بطرس بتروفتش ثقته ، فقال :

ـ يا آفدوتيا رومانوفنا ، هناك أمور لا يمكن أن ينساها المرء مهما يبلغ من حسن الطوية وصدق الرغبة • ان لكل شىء حدوداً لا يمكن أن يتجاوزها أحد دون أن يعاقب عليها ، ومتى تجـاوزها كانت العودة الى الوراء مستحيلة استحالة كاملة •

قاطعته دونيا تقول بشيء من نفاد الصبر :

ـ ليس هذا تماماً ما كنت أكلمك فيه • افهمْ جيداً أن مستقبلنا يتوقف الآن على نقطة واحدة : هل يمكن ايضاح هذا الأمر كله وتسويته بأقصى سرعة أم لا ؟ اننى أنبّهك بصراحة ، منذ البداية ، الى أننى لا أرى لنا أى مخرج آخر ، فاذا كنت تحرص علىّ أى حرص فيجب أن تنتهى هذه القصة فى هذا اليوم نفسه مهما يكلف الأمر • اعود فأكرر أن أخى سيعتذر لك اذا هو كان مخطئاً •

قال لوجين وقد ازداد اهتياجه شيئاً بعد شيء :

ـ يدهشنى يا آفدوتيا رومانوفنا أن تطرحى المسألة هذا الطرح • اننى على ما أكنه لك من اعتبار عظيم ، ومن حب كبير ان صح التعبير ، أستطيع جداً أن لا أحب فرداً من أفراد أسرتك • واننى على تطلعى الى أن أسعد بزواجك أستطيع جداً أن لا أقبل تحمل واجبات لا تتفق مع••

قاطعته دونيا تقول مندفعة :

ـ مهلاً مهلاً ! دعك من فرط الحساسية هذا يا بطرس بتروفتش• ولتكن ذلك الرجل الذكى النبيل الذى رأيته فيك دائماً والذى أحب أن أراه فيك • لقد وعدتك وعداً صريحاً ، وأنا خطيبتك • فلتثق بى اذن فى هذه القضية ، ولتكن على يقين من أننى أستطيع أن أقضى فى الأمر محايدةً غير متحيزة • ان وقوفى موقف الحكم يدهش أخى مثلما يدهشك • وحين دعوته اليوم ، بعد تلقى رسالتك ، الى حضور لقائنا هذا حتماً ، فاننى لم أقل له شيئاً عما أنتويه • ألا فافهم أننى سأكون مضطرة الى أن أختار أحدكما وأترك الثانى اذا أنتما لم تتصالحا • ان المسألة مطروحة على هذا النحو ، من جهتك ومن جهته على السواء • فلا أستطيع ولا ينبغى لى أن أُخدع فى أمر اختيارى • أنت ترى أن علىّ أن أقطع

صلتي بأخي ، وهو يرى أن عليَّ أن أقطع صلتي بك . فأنا أريد وأستطيع أن أعرف في هذه اللحظة أهو أخ لي حقاً ، وأستطيع أن أعرف أيضاً أأنا عزيزة عليك حقاً ، أستطيع أن أعرف هل أنت تحترمني ، هل أنت زوج لي حقاً .

قال لوجين منزعجاً :

ـ يا أفدوتيا رومانوفنا ، ان أقوالك هذه زاخرة بالمعاني في نظري، بل في وسعي أن أقول انها جارحة جداً اذا نحن نظرنا الى الوضع الذي يشرفني أن أحتله بالنسبة اليك . فبغضِّ النظر عن طريقتك الغريبة المثيرة هذه في الموازنة بيني أنا وبين ... شاب مغرور ، فانني أرى أنك تتصورين امكان تراجعك عن الوعد الذي قطعته لي . فأنت تقولين « أنت أو هو » ، مبرهنةً بذلك على ضعف شأني عندك ، وقلة قيمتي في نظرك . ألا فاعلمي أنني لا أستطيع أن أقبل هذا ، نظراً للعلاقات التي بيننا ، و ... الالتزامات التي تربطنا .

صرخت دونيا وقد احمر وجهها من الغضب احمراراً شديداً :

ـ كيف تقول هذا الكلام ؟ لقد وضعتُ مصلحتك في منزلة أثمن ما ملكت حتى الآن ، وضعتها في منزلة كل ما كان حتى الآن حياتي « كلَّها » ، وهأنت ذا تشكو فجأة من ضعف شأنك عندي وقلة قيمتك في نظري ! ...

ابتسم راسكولنيكوف ابتسامة حاقدة ، وغضب رازوميخين غضباً شديداً .

ولكن بطرس بتروفتش لم يشأ أن يدرك ذلك الاعتراض ، وأن يفهم ذلك الدليل ، حتى لقد كان يغدو أشدَّ شراسة وأميل الى المشاجرة

عند كل كلمة جديدة ، فكأنه يجد لذة فى أن الأمور قد صارت الى هذه الحال .

قال متفخماً :

ـ ان حب رفيق الحياة ، ان حب الزوج يجب أن يتغلب على حب الأخ . ومهما يكن من أمر ، فأنا لا أرضى أن أوضع فى ميزان واحد مع ... وعلى كل حال ، ورغم أننى قد أعلنت صراحةً منذ لحظة أننى لا أستطيع ولا أريد أن أعرض ، بحضور أخيك ، جميع الموضوعات التى تشغل بالى ، فاننى أحب أن أحاسب أمك المحترمة على نقطة أساسية تجرحنى كثيراً .

قال ذلك ثم التفت يخاطب بولشيريا ألكسندروفنا :

ـ ان ابنك قد أهاننى أمس بحضور السيد رازودكين*(أو السيد ... هذا اسمك ، أليس كذلك ؟ معذرةً .. لقد نسيت اسمك ـ كذلك قال لرازوميخين وهو يحييه تحية متلطفة ـ) ، أقول ان ابنك قد أهاننى أمس بحضور هذا السيد مشوهاً فكرةً سبق أن عبرت لك عنها فى حديث حميم جرى بينى وبينك أثناء احتساء فنجان من القهوة ، اذ قلت اننى أرى أن الأفضل من وجهة نظر الحياة العائلية أن يتزوج الرجل فتاة فقيرة عرفت مصاعب الحياة وعانت قسوة المعيشة بدلاً من أن يتزوج فتاةً ذاقت مباهج اليسر والرخاء والدعة ، لأن ذلك يكفل السعادة ، بل ويضمن الأخلاق أيضاً . ولكن ابنك قد تعمد أن يضخّم دلالة هذه الأقوال تضخيماً جعلها سخيفة ، فاتهمنى بأبشع التهم ، ونسب الىّ أسوأ الأهداف والخطط ، مستنداً فى ذلك الى رسالتك أنت فيما أظن . لسوف يسعدنى كثيراً يا بولشيريا ألكسندروفنا أن تقنعينى بأن الأمر لم يكن كذلك ، فيحمل الىّ هذا طمأنينة كبيرة وراحة عظيمة . اذكرى لى الكلمات التى

عمدت الى استعمالها لنقل أقوالى والتعبير عن آرائى فى الرسالة التى بعثت بها الى روديون رومانوفتش !

قالت بولشيريا ألكسندروفنا مجمجمة :

ــ لا أتذكر • لقد نقلتها على نحو ما فهمتها أنا نفسى • لا أدرى كيف أعادها لك روديا ••• لعله بالغ قليلاً •••

ــ ما كان ليستطيع أن يبالغ لولا ما أوحيت به اليه •

قالت بولشيريا ألكسندروفنا فى وقار :

ــ يا بطرس بتروفتش ، الدليلُ على أننا ، أنا ودونيا ، لم نؤول أقوالك تأويلاً سيئاً جداً ، هو وجودنا كلتينا « هنا » •

قالت دونيا مؤيدة محبذة :

ــ أحسنت يا ماما !

فقال لوجين مستاءً :

ــ اذن أنا المخطىء !

فبادرت بولشيريا ألكسندروفنا تضيف قولها متشجعة :

ــ اسمع يا بطرس بتروفتش ، انك لا تبرح تتهم روديون ، وقد كتبت أنت نفسك فى حقه أشياء غير صحيحة •

ــ لا أذكر أننى كتبت أى شىء غير صحيح •

قال راسكولنيكوف بلهجة لاذعة ، حتى دون أن يلتفت نحو لوجين :

ــ كتبتَ أننى وهبتُ بالأمس مالاً لا لأرملة الموظف الذى داسته الخيل ــ وهذه هى الحقيقة ــ بل لابنته (التى لم أكن قد رأيتها فى الواقع قبل الأمس يوماً) • كتبتَ ذلك لتوقع بينى وبين أهلى ، ولتزرع فى

قلوبنا الشقاق ؟ ومن أجل تحقيق هذا الغرض أضفت غمزات دنيئة تقدح في سلوك فتاة لا تعرفها • فهذا كله ليس فيه الا نميمة وحقارة •

أخذ لوجين يرتجف من فرط الغضب ارتجافاً شديداً وقال :

ـ معذرةً أيها السيد ، لئن أفضت في الكلام ، في رسالتي ، عن أعمالك وصفاتك ، فانما فعلت ذلك تلبيةً لطلب أمك وأختك اللتين رجتاني أن أعلمهما عن أحوالك وعن الأثر الذي تحدثه في نفسي • أما رسالتي فانني أتحداك أن تجد فيها سطراً واحداً يشتمل على غير الصدق، أي بتعبير آخر أن تبرهن لي على أنك لم تبدد مالك ، وأن تبرهن لي على أن تلك الأسرة ، مهما تكن فقيرة بائسة ، ليس بين أفرادها أحد ساقط •

ـ أما أنا فأرى أنك رغم كل وقارك لا تساوي اصبع تلك الفتاة المسكينة التي ترميها بالحجر •••

ـ معنى هذا أنك لن تتردد عن جمعها بأمك وأختك ؟

ـ فعلتُ هذا ، ان كنت تحرص على أن تعلم ذلك • أجلستها الى جانب أمي ودونيا في هذا اليوم نفسه •

صاحت بولشيريا ألكسندروفنا تنادي ابنها :

ـ روديا !

واحمرت دونيتشكا • وقطب رازوميخين حاجبيه • وابتسم لوجين ابتسامة مسمومة فيها احتقار • وقال يخاطب دونيا :

ـ احكمي بنفسك يا أفدوتيا رومانوفنا : هل من سبيل الى تفاهم ؟ آمل أن تُحل هذه القضية الآن ، وأن توضَّح مرة واحدة الى الأبد • أما أنا فانني انسحب حتى لا أعكر عليكم صفو هذا الاجتماع العائلي اللطيف ، وحتى تتناقلوا أسراركم بحرية •

قال ذلك وهو ينهض ويتناول قبعته • ثم واصل كلامه قائلاً :

ـ ولكنني أسمح لنفسي وأنا أنصرف بأن ألفت نظركم الى أنني آمل أن لا أُجبر في المستقبل على تحمل مثل هذه اللقاءات بل قولوا على تحمل مثل هذه الفضائح • واليك أنت خاصةً يا بولشيريا ألكسندروفنا المحترمة جداً انما أتقدم بهذا الطلب ، لا سيما وأن رسالتي قد بعثتُ بها اليك أنت ، لا الى أي شخص آخر غيرك •

انزعجت بولشيريا ألكسندروفنا وقالت :

ـ أنت تعد نفسك سيداً لنا يا بطرس بتروفتش ؟ لقد شرحت لك دونيا ، مع ذلك ، الأسباب التي جعلتنا لا نلبي رغبتك • لقد كانت نياتها حسنة • ثم انك حين تكتب اليّ انما تكتب بلهجة من يلقي أوامر • فهل يجب أن نعد كل رغبة من رغباتك أمراً من الأوامر واجب التنفيذ ؟ ألا ان عكس هذا هو ما ينبغي أن يكون • فأنت أنت الآن من يجب عليه أن يلتزم غاية الرقة واللطف في معاملتنا ، لأننا محضناك ثقة كاملة فتركنا كل شيء في سبيل أن نجيء الى هنا ، حتى صرنا منذ الآن خاضعتين لمشيئتك ، واقعتين تحت سلطانك •

ـ ليس هذا صحيحاً كل الصحة يا بولشيريا ألكسندروفنا ، لاسيما وأنكم ستقبضون ، كما أُبلغتم ذلك منذ قليل ، مبلغ ثلاثة آلاف روبل أورثتكم اياها مارتا بتروفنا في وصيتها • يبدو لي أن هذا المبلغ قد جاء في أوانه ، كما يدل على ذلك ما تصطنعينه من لهجة جديدة في مخاطبتي •

هذا ما أضافه لوجين بصوت حانق •

فقالت دونيا مهتاجة غاضبة :

ـ في وسع المرء حقاً ، حين يسمع قولك هذا ، أن يفترض أنك كنت تعوّل على فقرنا وعوزنا •••

ـ على كل حال ، لم يبق فى امكانى الآن أن أعوّل على هذا الفقر وهذا العوز ؟ وأنا خاصةً لا أريد أن أعرقل اطلاعكم على العروض السرية التى عرضها أركادى ايفانوفتش سفيدريجايلوف على أخيك ، والتى أرى أن لها عندك شأناً كبيراً ، حتى لقد تسرك كثيراً .

صاحت بولشيريا الكسندروفنا :

ـ آه ! يا رب !

وأصبح رازوميخين لا يطيق البقاء جالساً على كرسيه .

سأل راسكولنيكوف أخته :

ـ ألا تشعرين الآن بالخجل يا أختى ؟

فقالت دونيا :

ـ نعم ، أشعر بالخجل .

ثم صرخت وقد اصفر وجهها من الغضب اصفراراً شديداً ، صرخت تقول لبطرس بتروفتش :

ـ بطرس بتروفتش ! اذهب من هنا !

لم يكن يبدو على بطرس بتروفتش أنه كان يتوقع هذه الخاتمة . لقد أسرف فى الاعتزاز بنفسه ، وبقوته ، وأسرف فى الاعتماد على ضعف ضحيته . وهو حتى الآن لا يكاد يصدق ما سمعته أذناه .

شحب وجهه ، وتشنجت شفتاه . ثم قال :

ـ اذا اجتزت الآن هذا الباب يا آفدوتيا رومانوفنا ، مودّعاً بكلمات كهذه الكلمات ، فاعلمى أننى لن أرجع قط . يجب أن تفكّرى فى هذا . وليس من عادتى أن أنكل عن أقوالى .

صاحت دونيا تقول وهى تنهض عن مكانها بوثبة واحدة :

ـ يا للوقاحة ! ألا تعلم أننى لا أريد أن ترجع قط ؟

ـ ماذا ؟ أهكذا اذن ؟

بهذا هتف لوجين الذى لا شك فى أنه ظل حتى تلك اللحظة لا يتصور أن نهاية كهذه النهاية ممكنة ، فاذا هو الآن يفقد كل سيطرته على نفسه ، ويتابع كلامه قائلاً :

ـ هكذا اذن ؟ ولكن هل تعلمين يا آفدوتيا رومانوفنا أن فى وسعى أن أحتج ؟

فتدخلت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

ـ ما الذى يسمح لك بأن تقول لها هذا الكلام وأن تخاطبها بهذه اللهجة ؟ ثم كيف يكون فى وسعك أن تحتج ؟ أتظن أننى أرضى أن أزوّج بنتى رجلاً مثلك ؟ هيّا اذهب ! اتركنا الى الأبد ! ألا اننا نحن الذين أثمنا حين تورطنا فى قضية غير شريفة ؟ وأنا الآثمة أكثر من أى شخص آخر ...

ـ ولكنك ، يا بولشيريا ألكسندروفنا ، قد ربطتنى بالوعد الذى قطعته لى ، وتنكلين عنه الآن . ثم ... ثم ... ثم اننى قد جُررت الى تكبد نفقات ...

ان هذا الادعاء الذى يدعيه بطرس بتروفتش يبلغ من المطابقة لطبعه والاتفاق مع خلقه أن راسكولنيكوف الذى كان قد شحب لونه شحوباً شديداً بسبب غضبه وبسبب الجهود التى كان يبذلها لكبح جماح نفسه ، لم يطق عندئذ صبراً ، فانفجر يضحك ضحكة صاخبة معربدة .

وخرجت بولشيريا ألكسندروفنا عن طورها ، فأخذت تصرخ سائلة :

ـ نفقات ؟ أية نفقات ؟ أتراك تقصد نفقات شحن حقيبتنا ؟ ولكن

موظف القطار قد شحنها لك بالمجان ! ثم ما هذا الكلام الذى تقوله عن الارتباط ؟ أنحن الذين ربطناك اذن ؟ ألا فلتتذكر يا بطرس بتروفتش أنك أنت الذى ربطتنا ، بل أنت الذى كبّلتنا تكبيلاً ، كبّلت أيدينا وأرجلنا ...

قالت آفدوتيا رومانوفنا لأمها متوسلة :

ــ كفى يا أمى كفى ! أرجوك !

والتفتت الى بطرس بتروفتش فقالت له :

ــ هلاّ ذهبت ، من فضلك ، يا بطرس بتروفتش !

فقال بطرس بتروفتش وقد فقد سيطرته على نفسه :

ــ أنا ذاهب ، غير أن هناك كلمةً أخيرة أحب أن أقولها : يبدو أن أمك نسيت نسياناً تاماً أننى قررت أن أتخذك زوجة لى حين كانت سمعتك مضغةً فى جميع الأفواه . وأحسب أننى اذ خالفت رأى الناس ورددت اليك حسن السمعة كان فى وسعى أن انتظر تعويضاً فى أقل تقدير ، بل وأن أطالب بمكافأة . آه ... لقد كانت عيناى مغمضتين حتى هذه اللحظة ! اننى لأدرك الآن أننى قد تصرفت تصرفاً طائشاً حين لم أقم أىّ وزن للشائعات التى كانت تلوكها الألسن عنك ...

صرخ رازوميخين يقول وهو يثب عن كرسيه ويستعد للعراك :

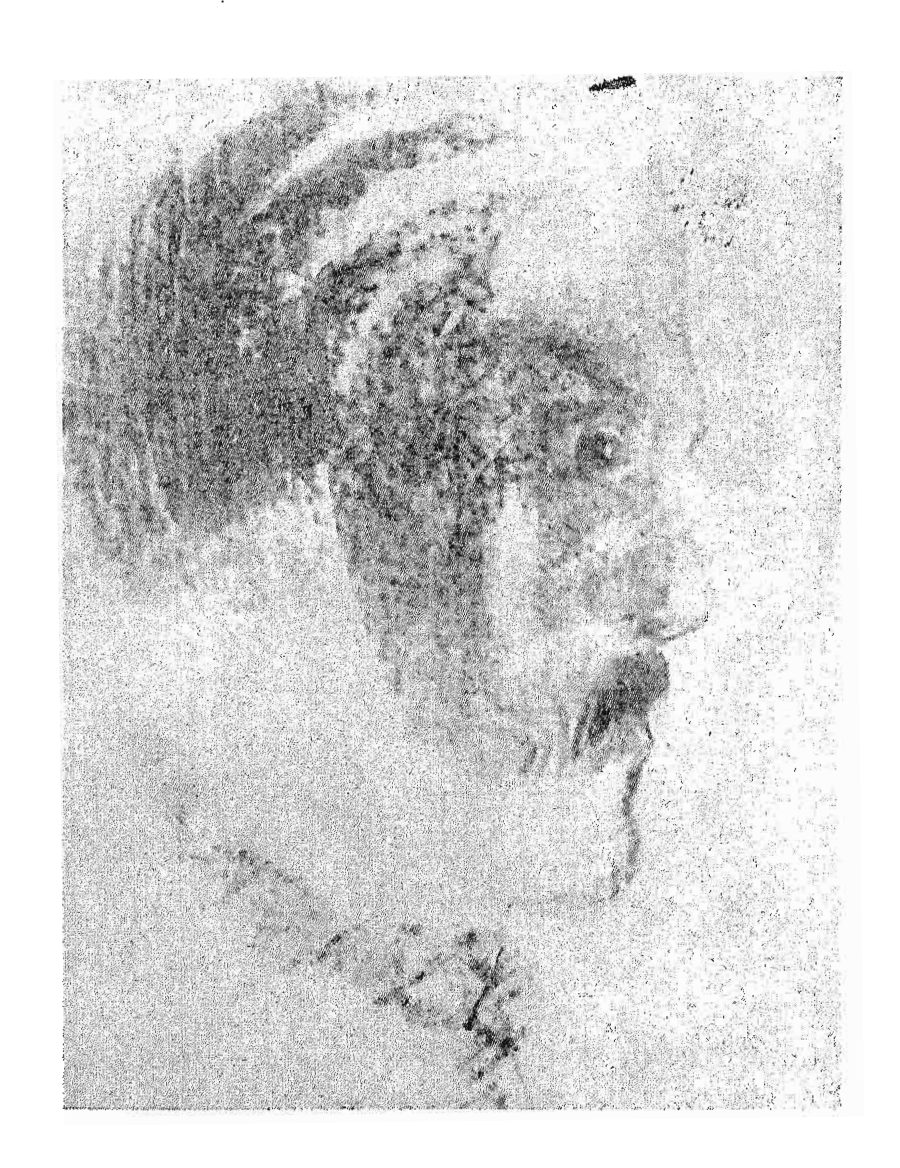
ــ انه يريد أن أهشّم له رأسه !

وقالت دونيا :

ــ أنت رجل دنىء سافل !

وهتف راسكولنيكوف يقول وهو يصد رازوميخين :

ــ لا كلمة ، ولا حركة !



رازومیخین

ثم اقترب من لوجين ، وقال له تحت أنفه بصوت أجش لكنه واضح :

ـ هيّا اخرج . اياك أن تقول كلمةً واحدة ، والا ...

فتأمله بطرس بتروفتش بضع لحظات شاحب الوجه متقبضَ القسمات من الكره ، ثم استدار وخرج .

قلَّما حمل قلب انسان من الحقد على انسان مثلما حمل قلب هذا الرجل من الحقد على راسكولنيكوف . لقد عدَّه مسئولاً عن كل شيء . ولكن يجب أن نذكر أنه منذ الآن ، أثناء هبوطه السلَّم ، كان يتخيَّل أنه لم يخسر القضية ، وأن الأمور فيما يتعلق بالسيدتين ما يزال يمكن تدبيرها .

الفصل الثالث



أن النقطة الأساسية هي أن بطرس بتروفنش كان حتى آخر دقيقة لا يصدّق أن الأمور ستنتهي هذه النهاية • لقد تفاخر وتعاظم وتبجح الى ابعد حدود التفاخر والتعاظم والتبجح، وكان لايتصور حتى امكانية أن تستطيع امرأتان بائستان الخروج على طاعته والتحرر من سلطانه • ان غروره وثقته بنفسه ورضاه عن ذاته وكبرياءه ، ان هذا كله قد ساهم كثيراً في ترسيخ ذلك الاقتناع لديه • هو رجل بدأ من الصفر ، وتعوّد أن يعجب بنفسه اعجاباً شديداً ، وأن يقدر ذكاءه وكفاءاته قدراً عظيماً ، حتى لقد كان في بعض الأحيان ، حين يخلو الى نفسه ، يتأمل وجهه في المرآة مدة طويلة ، فرحاً كل الفرح • على أن الشيء الذي كان يحبه في الدرجة الأولى ، وينزله في المقام الأول من الاحترام ، انما هو المال الذي استطاع أن يجنيه بفضل عمله وبفضل وسائل أخرى أيضاً • ألم يكن هذا المال يتيح له أن يتعامل تعامل الند والند مع أناس أعلى منه مقاماً وأرفع منزلة ؟

وحين ذكّر دونيا ، بمرارة ، أنه قد قرر أن يتزوجها رغم الشائعات المؤسفة التي كانت تجري بين الناس في حقّها ، فانما كان يتكلم صادقاً كل الصدق؛ حتى لقد كان يشعر بأعمق الاستياء من نكرانها هذا الجميل• على أنه حين خطب دونيا كان مقتنعاً كل الاقتناع بسخف جميع تلك الشائعات ، التي حرصت مارتا بتروفنا نفسها على أن تدحضها ، والتي

أصبحت لا تتناقلها الألسن فى المدينة الصغيرة منذ مدة طويلة ، بعد أن أعاد الناس الى دونيا اعتبارها ، وأصبحوا يحبونها حباً شديداً . وما كان له على حال أن ينكر أنه كان عالماً بهذه الأشياء كلها حين الخطبة . ومع ذلك كان يحس أنه قد منّ على الفتاة بفضل عظيم حين ارتضى أن يرفعها الى مستواه ، حتى لقد كان يعدُّ هذا عملاً بطولياً من جانبه . وحين زار راسكولنيكوف كان يشعر أنه انسان محسن ، وكان يتوقع أن يقطف ثمرات عمله الخيّر ، وأن يسمع من راسكولنيكوف أجمل آيات الشكر وأعظم عبارات الثناء والمديح . لذلك كان بطرس بتروفتش ، أثناء هبوطه السلّم ، يشعر بأنه انسان لم يُفهم حق فهمه ، ولم يقدر حق قدره ، وأنه أهين اهانة بالغة .

أما دونيا فقد أصبحت ضرورة لا غنى عنها لحياته . حتى لقد بات لا يستطيع أن يتصور امكان العدول عنها . لقد حلم بالزواج منذ مدة طويلة ، منذ بضع سنين ، وكان حين يحلم بهذا الزواج ينتشى سكراً ، ويعدُّ له العدة ويجمع من أجله المال . كان يتخيل ، فى قرارة قلبه ، فتاة فاضلة فقيرة (لا بد أن تكون فقيرة) ، فتاة فى ريعان الصبا وغضارة الشباب ، على جانب عظيم من الحسن والجمال ، تنتمى الى أسرة كريمة ، وتنعم بتربية حسنة ، ولكنها مروّعة خائفة بسبب نوازل كثيرة ألمّت بها ، فلا بد أن تخضع له خضوعاً كاملاً ، وأن تذعن لمشيئته اذعاناً تاماً ، وأن تظل ترى فيه ، طوال حياتها ، الرجل الذى أحسن اليها وأنعم عليها ، فتقدسه تقديساً ، وتمحضه نفسها مخلصةً ، ولا تنتمى الى أحد سواه . ما أكثر المشاهد الجميلة والصور اللذيذة التى تراءت لخياله حول هذا الموضوع المغرى الممتع ، فى اللحظات التى كانت تهدأ فيها نفسه قليلا حين يخلد الى الراحة من أعماله ! وها قد أوشك هذا الحلم الذى هدهد خياله طوال تلك السنين ، ها قد أوشك أن يتحقق : ان جمال آفدوتيا رومانوفنا

وحسن تربيتها قد اذهلاه ، وان وضعها السيء وحالتها اليائسة يحضانها عليها ويشدانه اليها كثيراً ؛ بل ان فيها شيئاً يفوق ما كان يأمله : ان الفتاة على جانب عظيم من الكبرياء والشمم ، والنشاط والقوة ، والعفة والفضيلة، وهي أوسع منه ثقافة وأغزر علماً (كان هو يشعر بهذا) ، وان انسانة كهذه الانسانة هي التي ستحتفظ له طول حياتها بشعور الامتنان وعاطفة العرفان ، وهي التي ستمحّي أمامه من فرط احترامها له وتقديسها اياه ، فليس عليه الا أن يأمر حتى تطيع !.. وقد شاءت المصادفات بما يشبه العمد والقصد ، أن يقرر صاحبنا ، قبيل لقياها بقليل ، وبعد تأجيلات كثيرة ، أن يغيّر ميدان عمله وأن يقتحم مجالاً أوسع ، وأن يشق لنفسه طريقاً في ذلك المجتمع الراقي الذي طالما شدته اليه أحلامه. كان صاحبنا قد قرر أن يجرّب حظه في بطرسبرج . وهو يعلم حق العلم أن للنساء دوراً عظيماً في هذا المجال ، وأن فيهن نفعاً كبيراً . ان الفتنة التي تشع من امرأة أخاذة فاضلة مثقفة يمكن أن تجمّل حياته ، وأن تجتذب اليه مودة الناس ، وأن تحيطه بهالة من المهابة والسحر ...

ولكن ها هو ذا كل شيء ينهار الآن دفعة واحدة ! لقد نزلت عليه هذه القطيعة المفاجئة نزول الصاعقة . هذه مهزلة فظيعة ، هذا سخف رهيب ! انه لم يزد على أن « تبجح » قليلاً ، ان وقته لم يتسع لأن يقول كل ما في نفسه ؛ لقد كان يمزح ، لقد اندفع بعض الاندفاع ... هذا كل شيء ... فكيف ينتهي الأمر هذه النهاية الخطيرة ؟!... انه يحب دونيا على كل حال ، يحبها بطريقته الخاصة ... لا ، لا ، يجب اصلاح كل شيء غداً ، غداً ... لا بد من معالجة الأمور ، لا بد من مداواة الأمور ، ولا بد خاصةً من احباط أعمال ذلك الغر الوقح الذي كان سبب البلاء كله .

وتذكّر رازوميخين وهو يشعر بالضيق والانزعاج أيضاً ، لكنه

لم يلبث أن أسرع يطمئن نفسه من هذه الناحية . قال يحدث نفسه ساخراً : « لا ينقصنى الا هذا ... لا ينقصنى الا أن أوازن بينى وبينه ، أن أضع نفسى فى مستواه ! » .

ان الشخص الذى كان لوجين يخشاه حقاً انما هو سفيدريجايلوف الخلاصة : ان هموماً كثيرة كانت تنتظره .

.. ..

.. ..

قالت دونيا وهى تعانق أمها وتقبلها :

ـ لا بل أنا المذنبة ، أنا المذنبة ! لقد استسلمت لاغراء ماله ؛ ولكننى أقسم لك يا أخى أننى لم أكن أتخيله رجلاً دنيئاً الى هذا الحد من الدناءة . ولو قد كشفت حقيقته من قبل لما استسلمت لاغراء أى شىء فى هذا العالم ! لا تتهمنى يا أخى !

فتمتمت بولشيريا ألكسندروفنا تقول دون شعور ، كأنها لما تدرك ما جرى بعد :

ـ الله خلّصنا منه ! الله خلّصنا منه !

وكانوا جميعاً مبتهجين مغتبطين ، حتى لقد انطلقوا بعد خمس دقائق يضحكون . غير أن دونيا كان يشحب لونها من حين الى حين ، وكانت تقطب حاجبيها حين تتذكر ما عانته فى هذه الآونة الأخيرة . ماكان لبولشيريا ألكسندروفنا أن تعتقد فى يوم من الأيام أنها يمكن أن تُسر لحادث كهذا الحادث . كانت فى ذلك الصباح نفسه ما تزال تتصور أن القطيعة مع لوجين شقاء كبير ومصيبة عظيمة ! أما رازوميخين فكان يشعر بسعادة قصوى . انه لا يجرؤ بعدُ أن يظهر فرحته اظهاراً كاملاً ، ولكنه

كان يرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه كمن انتابته حمى • لكان قلبه قد تخلص من عبء ضخم وحمل ثقيل • سيكون فى وسعه بعد اليوم أن يقف عليهما حياته ، وأن يضع نفسه فى خدمتهما• وما أكثر مايستطيع أن يفعله منذ الآن ! على أن رازوميخين كان يطرد من ذهنــه مشــاريع المستقبل خائفاً من خياله •

راسكولنيكوف وحده ظل جالساً فى مكانه متجهم الوجه تقريبــاً ، حتى ليكاد يكون ذاهلاً شــارد الفكر • انه وهو الذى ألح أكثر منهم جميعاً على أن يُطرد لوجين ، يبدو الآن أقلّهم اهتماماً بما جرى• وقدّرت دونيا ، رغم ارادتها ، أنه ما يزال يؤاخذها ويحقد عليها، وكانت بولشيريا ألكسندروفنا تتأمله خائفة وجلة •

سألته دونيا وهى تقترب منه :

ـ ماذا قال لك سفيدريجايلوف ؟

وصاحت بولشيريا ألكسندروفنا :

ـ آ ••• نعم ••• نعم ••• ماذا •••

فرفع راسكولنيكوف رأسه ، وقال :

ـ انه يصرّ على أن يهــدى اليك عشرة آلاف روبل ، وقد أعرب عن رغبته فى أن يراك مرةً أخرى بحضورى •

هتفت بولشيريا ألكسندروفنا :

ـ أن يراها ؟ مستحيل •• لا يمكن أن يتم هذا بحال من الأحوال• وكيف يجرؤ أن يقدم اليها مالاً ؟

عندئذ روى راسكولنيكوف (بغير قليل من الجفاف) ما جرى بينه وبين سفيدريجايلوف منحديث ، مغفلاً ذكر ماقصه عليه سفيدريجايلوف

من أن مارتا بتروفنا قد ظهرت له بعد موتها ، وذلك حتى لا يبتعد عن الموضوع ، ولاشمئزازه من قول أية كلمة زائدة •

سألته دونيا :

ـ بماذا أجبته ؟

ـ قلت له أولاً انني لن أذكر لك كلمة واحدة عن طلبه • فأعلن لى عندئذ أنه سيسعى بجميع الوسائل الى أن يحصل منك على موعد • وقد أكد لى أن العاطفة الجامحة التى كان يشعر بها نحوك لم تكن الا هوى طارئاً ، وأنه أصبح الآن لا يشعر نحوك بأية عاطفة • كل ما يريده هو أن لا تتزوجى لوجين • على أن أقواله كلها كانت غامضة مضطربة مبهمة •

ـ ما رأيك فى هذا الرجل يا روديا ؟ ما هو الانطباع الذى أحدثه فى نفسك ؟

ـ أعترف بأننى لم أفهم حق الفهم • انه يقدم عشرة آلاف روبل ، ثم هو يزعم أنه ليس غنياً • يصرح بأنه سيسافر الى مكان لا أدرى أين هو ، ثم يبدو بعد عشر دقائق كأنه نسى ما قاله • وفجأة يذكر أيضاً أنه سيتزوج ، وأنهم قد وجدوا له خطيبة ••• أغلب الظن أنه يخفى خططاً معينة قد تكون سوداء • ولكن لا محل لأن نفترض أنه يبيت لك نيات سيئة ، والا لما عمد الى أسلوب يبلغ هذا المبلغ من الحماقة • ولقد تكلمت باسمك فرفضت ما عرضه من مال عرضاً قاطعاً باتاً بطبيعة الحال • مهما يكن من أمر ، فقد بدا لى انساناً غريب الأطوار ••• حتى لقد رأيت فيه أعراض جنون • ولكن ربما أكون مخطئاً• على أن موت مارتا بتروفنا لا بد أن يكون قد خلف فى نفسه أثراً كبيراً •

ــ رحمة الله عليها ! لسوف أظل أصلى لها دائماً ، دائماً • ما الذى كان يمكن أن نصير اليه ، أنا ودونيا ، لولا هذه الثلاثة آلاف روبل ؟ رباه ! لقد هبطت علينا هذه الأموال من السماء ! آه يا روديا ! فى هذا الصباح كان كل ما بقى لنا من مال هو ثلاثة روبلات ، ولم يكن قد بقى علينا الا أن نرهن ساعة دونيا بأقصى سرعة ، حتى لا نطلب مالاً من هذا الرجل قبل أن يخطر بباله أن يعرضه علينا من تلقاء نفسه •

بدا على دونيا أن عرض سفيدريجايلوف قد أدهشها وأذهلها • فبقيت واقفة ، ساكنةً مفكّرة •

قالت فى دمدمة وهى ترتعش :

ــ ان فى ذهنه أمراً رهيباً !

ولاحظ راسكولنيكوف هذا الرعب الشديد • فقال لدونيا :

ــ أظن أنه سيتاح لى أن ألقاه أكثر من مرة •

وهتف رازوميخين قائلاً بلهجة قوية :

ــ لا تخافوا ، سوف نراقبه مراقبة دقيقة • لن يغيب عن بصرى • لقد اذن لى روديا بذلك • قال لى هو نفسه منذ قليل : « عليك أن تحمى دونيا » • هل تأذنين لى بهذا أنت أيضاً يا آفدوتيا رومانوفنا ؟

ابتسمت دونيا ، ومدّت اليه يدها ، ولكن وجهها حافظ على تعبيره عن الهم والقلق • وكانت بولشيريا ألكسندروفنا تنظر اليها وجلة مرتاعة. غير أن الأمل فى الحصول على الثلاثة آلاف روبل كان قد هدأ روعها وطمأن نفسها •

وبعد ربع ساعة كانوا قد انهمكوا فى محادثة حامية • وحتى راسكولنيكوف ، الذى لزم الصمت ، كان يصغى بانتباه • كان رازوميخين يتكلم فى اسهاب وحرارة كأنه يلقى خطاباً :

ـ لماذا ، لماذا تسافران ؟ ما عساكما تعملان فى مدينتكم الصغيرة الكريهة تلك ؟ أنتم هنا قد اجتمع شملكم ، وكل واحد منكم محتاج الى الآخر ، محتاج اليه اشد الاحتياج . ابقيا بعض الوقت على الاقل . أما أنا فاقبلونى صديقاً ، اقبلونى شريكاً . وانى لأؤكد لكم أننا سننشىء مشروعاً ممتازاً . اسمعوا : سأعرض عليكم مشروعى بأدق تفاصيله . لقد وافتنى هذه الفكرة منذ الصباح ، قبل أن يحدث شيء مما حدث الآن ... اليكم الموضوع : ان لى عماً (سأعرّفكم به ، هو شيخ لطيف جداً محترم جداً) ... وهذا العم يملك رأس مال قدره ألف روبل ، ويعيش من راتب تقاعدى يفى بحاجاته . وهو ما برح منذ سنتين يلحّ عليّ أن أقترض منه هذا المبلغ بفائدة قدرها ستة فى المائة . اننى أدرك حيلته : فكل ما يريده هو أن يساعدنى . فى العام الماضى لم أكن محتاجاً الى هذا المبلغ ، أما فى السنة الحالية فاننى لا أنتظر الا وصول عمى لأطلبه منه . فاذا أضفتم ألف روبل من عندكم الى هذه الألف روبل كان معنا ما يكفينا لبدء المشروع ، فنكون شركاء . فما هو ذلك المشروع ؟ » .

هنا طفق رازوميخين يشرح مشروعه ، فأفاض فى الكلام على أن جميع أصحاب المكتبات ودور النشر عندنا أناس يجهلون مهنتهم ، وأن الوضع العام لهذا السبب مؤسف جداً ، وأكدّ أن المنشورات الجيدة تباع بسهولة ، وأنها ربما درّت أرباحاً طائلة . كان رازوميخين يحلم أن يصبح ناشراً ، منذ أن بدأ يعمل لحساب غيره منذ سنتين بفضل معرفته لثلاث لغات أجنبية (رغم أنه أعلن لراسكولنيكوف قبل ستة أيام أنه « ضعيف » * فى الألمانية ، والحق أنه لم يزعم له ذلك الا ليشجعه على أن يقبل ترجمة نصف ما كان هو بصدد ترجمته ، وعلى أن يأخذ الثلاثة روبلات سلفةً : لقد كذب ، ولم ينطل كذبه على راسكولنيكوف) .

وتابع رازوميخين كلامه قائلاً بحرارة وحماسة :

ـ فلماذا ، نعم لماذا ندع الفرصة تفلت منا مع اننا نملك لها أحسن وسيلة للنجاح ، أعنى رأس المال ؟ صحيح أنه سيكون علينا أن نعمل كثيراً ، ولكننا سوف نعمل ، تعملين أنت يا آفدوتيا رومانوفنا ويعمل روديون وأعمل أنا • ان نشر بعض الكتب يدرُّ أرباحاً طيبة ، وان ما سيعيننا وما سيكون مصدر قوتنا ، هو أننا سنحسن اختيار الكتب التى يجب أن تُترجَم • سوف نترجم ، وننشر ، ونتابع فى الوقت نفسه دراستنا • اننى أستطيع أن أكون الآن نافعاً ، لأننى حصّلت خبرة واسعة• لقد سلخت سنتين كاملتين فى العمل مع الناشرين ، فأصبحت أعرف شئون النشر معرفة تامة• صدقونى اذا قلت لكم ان الأمر أيسر مما تظنون• فلماذا ، لماذا لا ننتهز الفرصة التى تعرض لنا ؟ اننى أعرف كتابين أو ثلاثة كتب لم أحدث عنها أحداً قط ، ويكفى أن أُعرض فكرة نشرها حتى أجنى من ذلك مائة روبل عن كل كتاب ؛ بل هنالك كتاب آخر لا أبيع فكرة ترجمته بخمسمائة روبل ! ولا يمكن أن يتردد هؤلاء الناشرون الحمقى أىّ تردد اذا أنا ذكرت لهم أسماء تلك الكتب ! أما الجانب المادى من المشروع ، أعنى الطباعة والورق والبيع وما الى ذلك ، فانكم تستطيعون أن تعتمدوا علىّ فيه كل الاعتماد • اننى أعرف هذه الأمور معرفة عميقة • وسوف نبدأ بداية متواضعة ، ولكننا سنوسّع المشروع فى المستقبل • ومهما يكن من أمر فسوف نجنى ما يسدُّ حاجاتنا ويفى بنفقاتنا •

كانت عينا دونيا تسطعان • قالت :

ـ ان ما تقوله يعجبنى كثيراً يا دمترى بروكوفتش !

وتدخلت بولشيريا ألكسندروفنا فقالت :

ـ أنا لا أفهم فى هذه الأمور شيئاً بطبيعة الحال • قد يكون هذا كله حسناً جداً ، الله أعلم ••• ولكن ••• من جهة أخرى ••• طبعاً •••

حين يشرع المرء فى شىء ما ، فانه يسير قليلاً فى المجهول !... على كل حال سيكون علينا حتماً ، اذا نحن قرنا المضىّ فى هذا المشروع ، أن نمكث هنا ولو بعض الوقت .

ونظرت الى راسكولنيكوف .

سألته دونيا :

ـ ما رأيك أنت يا أخى ؟

فأجاب راسكولنيكوف :

ـ رأيى أن فكرته ممتازة . ولكن لا ينبغى لنا ، بعدُ ، أن نفكر فى انشاء دار نشر كبيرة . يجب علينا أن نكتفى بأن ننشر فى البداية خمسة أو ستة كتب مضمونة النجاح . أنا نفسى أعرف كتاباً سيُباع حتماً . أما عن كفاءة رازوميخين ، فيجب أن تكونوا مطمئنين . لسوف يعرف كيف يكفل لمشروعه النجاح . على كل حال ، سيتسع وقتنا للكلام فى هذا الموضوع مرة أخرى ...

صاح رازوميخين يقول :

ـ مرحى ! والآن اسمعوا : توجد هنا ، فى هذا المنزل نفسه ، شقة صغيرة يؤجرها أصحابها الذين أجّروكم هذه الغرفة . انها شقة مستقلة لا تتصل بباقى الغرف . هى مفروشة . وليس أجرها باهظاً . فيها ثلاث حجرات . خذوها موقتاً. سأمضى أرهن ساعتك غداً ، فأجيئكم بالمال ، ثم يُدبَّر كل شىء . الأمر الأساسى هو أن تستطيعا أن تعيشا كلتاكما هنا ، ومعكما روديا ... ولكن الى أين أنت ذاهب يا روديا ؟

سألت بولشيريا ألكسندروفنا ابنها مرتاعةً :

ـ كيف يا روديا ؟ أأنت ذاهب ؟

وصاح رازوميخين يسأله مستنكراً :

ـ أفي مثل هذه اللحظة تذهب ؟

وكانت دونيا تنظر الى أخيها بدهشة تمازجها ريبة • كان راسكولنيكوف ممسكاً قبعته يتهيأ للخروج • وقال بلهجة غريبة :

ـ لكأنكم حقاً ستدفنونني ، أو لكأنكم تودعونني الى الأبد على الأقل •

وكان يبتسم ، لكن ابتسامته لا تشبه الابتسام في شيء • وأضاف يقول :

ـ ومن يدري على كل حال ؟ لعلنا نلتقي الآن آخر لقاء فعلاً !

كان راسكولنيكوف قد تصوّر هذه الفكرة بينه وبين نفسه ، فاذا هي تخرج من فمه من تلقاء ذاتها على غير ارادة منه •

صاحت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

ـ ماذا أصابك يا روديا ؟

وسألت دونيا أخاها بلهجة غريبة :

ـ الى أين أنت ذاهب يا روديا ؟

فأجاب متهرباً كأنه غير واثق بما يريد أن يقوله :

ـ نعم ، لا بد أن أذهب •••

غير أن قراراً وحشياً ضارياً كان يُقرأ في وجهه الشاحب • وتابع كلامه :

ـ أقصد ••• حين جئت الى هنا ••• كنت أريد أن أقول لك يا أماه ، ولك أنت أيضاً يا دونيا ، ان من الأفضل لنا أن نفترق بعض الوقت • أنا أحس بأنني مريض ، أنا لست هادىء البال ، سأرجع في

المستقبل ، حين ••• حين يصبح ذلك فى الامكان • لن أنساكم ، وساظل أحبكم ••• دعونى ، دعونى وحيداً ! ذلك ما كنت قد قررته • وقد قررته واعياً كل الوعى ، مدركاً كل الادراك !••• أريد أن أكون وحيداً مهما يحدث لى ، سواء أهلكت أم لم أهلك ! انسونى نسياناً تاماً ، ذلكم أفضل ••• لا تسألوا عنى ، لا تستطلعوا أخبارى • سوف أجىء من تلقاء نفسى متى وجب أن أجىء ••• أو سوف أدعوكم الىّ • ولعل كل شىء سيُبعث بعثاً جديداً حينذاك • أما الآن فاعدلوا عن رؤيتى وتنازلوا عن لقائى اذا كنتم تحبوننى ، والا شعرت نحوكم بكره وبغض• اننى أحس بهذا ••• وداعاً !

هتفت بولشيريا ألكسندروفنا :

ـ رباه ! يا رب !

كانت الأم والأخت مرتاعتين ارتياعاً لا سبيل الى مغالبته • وكذلك كان رازوميخين •

قالت الأم المسكينة تتوسل الى ابنها :

ـ روديا ، روديا ! فلنتصالح يا روديا ! فلنعد كما كنا !

استدار راسكولنيكوف ببطء ، واتجه نحو الباب ، فأدركته دونيا ، وهمست تقول له مشتعلةَ العينين استياءً واستنكاراً :

ـ أخى ، ماذا تفعل بأمنا !

فألقى عليها نظرة ثقيلة • وتمتم يقول بصوت خافت كأنه لا يعى ما أراد أن يقول وعياً تاماً :

ـ ما هذا بشىء ، سأرجع ، سأرجع •••

وخرج •

هتفت دونيا تقول :

ـ انسان خالٍ من الاحساس ! أنانى فظيع !

ـ بل هو مجنون ، لا خالٍ من الاحساس ! لقد فقد عقله ، كيف لا ترين هذا ؟ أنت الخالية من الاحساس ...

كذلك دمدم رازوميخين هامساً فى أذن الفتاة بعاطفة قوية وهو يضغط يدها ضغطاً عنيفاً . ثم هتف يقول لبولشيريا ألكسندروفنا التى أصبحت أقرب الى الموت منها الى الحياة .

ـ سأرجع حالاً !

وأسرع يخرج من الغرفة .

كان راسكولنيكوف ينتظره فى آخر الدهليز . وقال له :

ـ كنت أعرف أنك ستهرع الىّ لتلحق بى . عد اليهما ، وابق معهما . وكن عندهما غداً ... وكن عندهما دائماً ... قد أرجع اذا استطعت ... وداعاً !

وابتعد دون أن يمد اليه يده مصافحاً .

غمغم رازوميخين يقول مرتبكاً أشد الارتباك ، حائراً أبلغ الحيرة :

ـ ولكن الى أين تذهب ! ماذا بك ؟ ما الذى أصابك ؟

فتوقف راسكولنيكوف مرة أخرى .

ـ أقول لك مرة أخيرةً الى الأبد : لا تسألنى عن شىء ، فليس عندى ما أجيبك به ... ولا تأت الىّ ! قد أرجع أنا الى هنا .. دعنى.. أما هما فلا تتركهما ... هل تفهم ؟

كان الظلام يسود الدهليز . وكان الشابان قريبين من مصباح . لبثا قرابة دقيقة ينظر كل منهما فى صاحبه صامتاً . سوف يتذكّر راسكولنيكوف هذه الدقيقة طوال حياته . ان النظرة الحارة الثابتة التى تصدر عن عينى راسكولنيكوف كان يبدو أنها تزداد عنفاً وقوة فى كل

لحظة ، وكانت تنفذ الى أعماق نفس رازوميخين ، وتغوص فى قرارة وجدانه . ارتعش رازوميخين فجأة . كأن شيئاً غريباً قد مرّ بينهما ... هى فكرة تتسلل خفية ، تندس خلسةً ، ولكنها فظيعة ، رهيبة ، جهنمية ، سرعان ما فهمها هذا وذاك !... اصفرّ وجه رازوميخين اصفرار الموت !

قال راسكولنيكوف فجأة وقد تقلص وجهه وتقبض تقبضاً أليماً :

ـ هل فهمت الآن ؟

ثم أضاف :

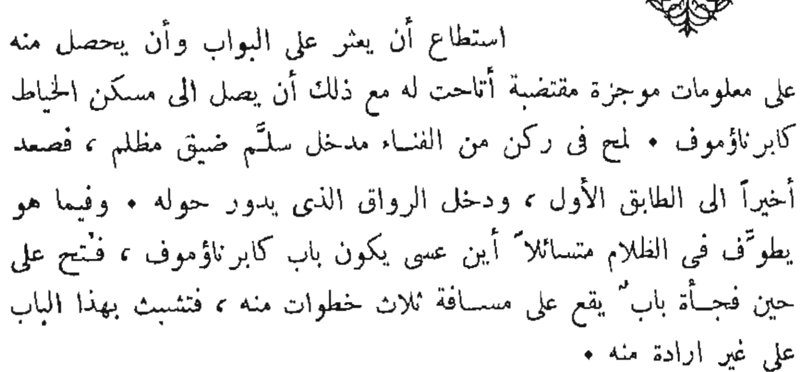
ـ ارجع الى هناك . عد اليهما .

قال ذلك ثم استدار بحركة عنيفة ، ومضى ...

لن أصف ما جرى فى ذلك المساء عند بولشيريا ألكسندروفنا . لن أصف كيف رجع رازوميخين الى المرأتين ، كيف هدّأ روعهما ، كيف أكّد لهما أن من الواجب أن يُترك روديا للراحة بعد المرض ، وكيف حلف لهما أن روديا سيرجع لا محالة ، وأنه سيأتى يزورهما ، بل وأنه سيجىء اليهما كل يوم ، وانما يجب أن لا يُزعَج الآن لأنه فى حالة عصبية شديدة ، وأنه ، هو رازوميخين ، سيمضى اليه ، ليسهر عليه ، ويعتنى به ، ويجيئه بطبيب حاذق ، بأحسن طبيب فى المدينة ، بل بعدد من الأطباء يفحصونه فى آن واحد .

الخلاصة أن رازوميخين قد أصبح للمرأتين ، منذ ذلك المساء ، ابناً وأخاً .

الفصل الرابع



راسكولنيكوف رأساً نحو المنزل الذى تسكن فيه صونيا قرب القناة • هو منزل من طابقين ، هو مبنى قديم مطلى بلون أخضر •

استطاع أن يعثر على البواب وأن يحصل منه على معلومات موجزة مقتضبة أتاحت له مع ذلك أن يصل الى مسكن الخياط كابرناؤموف • لمح فى ركن من الفناء مدخل سلّم ضيق مظلم ، فصعد أخيراً الى الطابق الأول ، ودخل الرواق الذى يدور حوله • وفيما هو يطوّف فى الظلام متسائلاً أين عسى يكون باب كابرناؤموف ، فُتح على حين فجأة بابٌ يقع على مسافة ثلاث خطوات منه ، فتشبث بهذا الباب على غير ارادة منه •

ـ مَنْ هنا ؟

كذلك سأل صوت امرأة مضطرب •

فأجاب راسكولنيكوف :

ـ هذا ••• هذا أنا ••• جئت لأراك !

واجتاز الباب الى حجرة المدخل الصغيرة • كان فى الحجرة كرسى خاسف وُضعت عليه شمعة صغيرة فى طبق متعقف من نحاس •

هتفت صونيا تقول بصوت ضعيف :

ـ أهذا أنت ؟ رباه !

ووقفت في مكانها كالمتسمرة •

ـ من أين الدخول الى غرفتك ؟ من هنا ؟

ألقى راسكولنيكوف عليها هذا السؤال ، ثم مضى ينتقل الى الغرفة محاولاً أن لا ينظر الى صونيا •

وتبعته صونيا بالشمعة بعد دقيقة ، فوضعتها في مكانها ، ووقفت أمامه بالغةً من شدة القلق والرعب لهذه الزيارة التي لم تكن متوقعة ان الاضطراب الذي اجتاح نفسها واستولى عليها كان اضطراباً لا يمكن وصفه • واحمر وجهها الشاحب فجأة ، حتى لقد صعدت الى عينيها دموع • كانت تشعر بخجل وخزي وسعادة في آن واحد •••

تحول راسكولنيكوف عنها بسرعة ، وجلس على كرسي موضوع قرب المائدة • لقد تسنى له بنظرة واحدة أن يفتش الغرفة كلها •

هي غرفة واسعة سعة كافية ، لكن سقفها واطيء جداً • انها الغرفة الوحيدة التي أجَّرها كابرناؤموف • وهي تتصل بمسكنه بباب في الجدار الأيسر • وعلى الجهة اليمنى ، يوجد في الجدار باب آخر ، يظل مقفلاً بالمفتاح دائماً ، ويفضي الى شقة أخرى • ان الغرفة تشبه أن تكون سقيفة ، لها شكل مضلَّع رباعي غير منتظم ، فمنظرها لهذا السبب يؤذي البصر • ان حائطاً ذا نوافذ ثلاث تطل على القناة ، يقطعها قطعاً موارباً ، فاحدى الزوايا ، وهي زاوية حادة جداً ، تغور في آخر الغرفة ، فلا يستطيع المرء أن يميز هنالك شيئاً في ضوء الشمعة الضئيل الضعيف • أما الزاوية الأخرى فهي منفرجة انفراجاً كبيراً • ولا يكاد يوجد في الغرفة أثاث • هناك سرير في الركن الأيمن ، وهناك الى جانب السرير كرسيٌ أقرب الى الباب • وعلى طول الحائط نفسه ، قبالةَ الباب المؤدي الى الشقة الثانية ، توجد مائدة من خشب أبيض ، يغطيها غطاء أزرق ، وبقربها كرسيان من قش • وفي حذاء الحائط المقابل ، على مقربة من

الزاوية الحادة ، تقبع منضدة صغيرة غير مدهونة ، وكأنها تائهة في الفضاء. ذلك كل ما تضمه الغرفة • أما ورق الجدران فأصفر مهترىء مدخّن مسودّ في الأركان • لا بد أن الغرفة تكون شديدة الرطوبة في الشتاء • ان الفقر يخطف البصر ، حتى ان السرير لم يكن له ستارة •

كانت صونيا تنظر صامتةً الى زائرها الذي كان يتفحص الغرفة بانتباه يبلغ من الشدة وبهدوء يبلغ من القوة أنها أخذت ترتعد رعباً آخر الأمر ، كأنها واقفة أمام قاض سيتوقف عليه مصيرها كله •

قال لها دون أن يرفع عينيه :

ـ انني أصل في ساعة متأخرة جداً ••• أليست هي الحادية عشرة ؟

فدمدمت صونيا تقول :

ـ نعم •

ثم أسرعت تضيف ، كأن ذلك خروج لها من المأزق :

ـ نعم نعم ، هي الحادية عشرة ••• منذ قليل دقت ساعة أصحاب البيت • هي الحادية عشرة فعلاً •••

قال راسكولنيكوف متجهم الوجه :

ـ أجيء اليك الآن آخر مرة • وقد لا أراك بعد اليوم قط •

قال لها ذلك مع أن هذه هي المرة الأولى التي يزورها فيها •

سألته :

ـ أأنت مسافر ؟

ـ لا أدري ••• سيتقرر كل شيء غداً •

ـ اذن لن تذهب غداً الى عند كاترين ايفانوفنا ؟

وكان صوت صونيا يختلج •

ـ لا أدرى ... كل شيء رهن بالغد ... بصباح الغد . ثم ان المسألة ليست هذه : لقد جئت لأقول لك ان ...

ورفع اليها نظرة حالمة ، فأدرك فجأة أنه جالس ، على حين أنها ما تزال واقفة أمامه .

قال لها بصوت تبدل على حين فجأة ، فأصبح فيه رقة وعذوبة ومودة :

ـ لماذا تبقين واقفة ؟

فجلست . وظل يتأملها قرابة دقيقة ، ظل يتأملها بمحبة ، بعاطفة ، بما يشبه أن يكون شفقة . ثم قال لها :

ـ ما أشد نحولك ! ما هذه اليد ؟ انها لتكاد تكون من هزالها شفافة ! أصابعك أصابع ميت ...

فأجابته قائلة :

ـ هكذا كنت دائماً .

ـ حتى حين كنت تقيمين مع أهلك ؟

ـ نعم .

ـ نعم نعم ... هذا طبيعى ...

كذلك قال بلهجة متقطعة . ان تعبير وجهه ونبرة صوته قد تبدلا من جديد فجأة . ونظر مرة أخرى حواليه .

ـ أمن أسرة كابرناؤموف استأجرت هذا ؟

ـ نعم .

ـ هل يقطنون وراء هذا الباب ؟

ـ نعم ... لهم غرفة كهذه .

ـ هل يعيشون جميعاً فى غرفة واحدة ؟

ـ نعم ، يعيشون جميعاً فى غرفة واحدة .

قال راسكولنيكوف متجهم الهيئة :

ـ لو كنت أعيش فى مثل هذه الغرفة لشعرت فى الليل بخوف .

فأجابت صونيا ، وكأنها لم تثب الى رشدها بعد ، ولا جمعت شتات أفكارها :

ـ أصحاب البيت لطاف جداً . وجميع الأثاث ، جميع الأثاث لهم هم . انهم طيبون جداً ، وكثيراً ما يأتى أولادهم الى عندى .

ـ هم تأتاءون ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ... هو يتأتىء ويعرج . وامرأته أيضاً . بل قل انها لا تتأتىء ، ولكن كأن الكلمات لا تريد أن تخرج من فمها . انها طيبة جداً . كان هو قناً . ولهما أولاد . الكبير وحده يتأتىء .. أما الآخرون فهم عليلون فحسب ... لكنهم لا يتأتئون .

ثم أضافت تسأله مدهوشة بعض الدهشة :

ـ كيف عرفت أنت هذا ؟

ـ أبوك قص علىّ كل شىء . قال لى كل شىء عنك ... وحكى لى أيضاً كيف خرجت فى الساعة السادسة من الصباح لتعودى بعد الساعة الثامنة ، وكيف ركعت كاترين ايفانوفنا أمام سريرك .

اضطربت صونيا . ثم دمدمت تقول مترددة :

ـ رأيته اليوم رؤية واضحة مميّزة .

ـ مَنْ ؟

ـ أبى . كنت سائرة فى الشارع ، غير بعيد عن هنا ، عند الناصية ،

فى نحو الساعة العاشرة ، فتراءى لى أنه يسير أمامى • لكأنه هو حقاً • حتى لقد خطر ببالى أن أسرع الى كاترين ايفانوفنا •••

ـ كنت تتجولين ؟

فقالت صونيا بصوت متقطع ، وقد اضطربت من جديد ، وخفضت عينيها :

ـ نعم •

ـ هل كانت كاترين ايفانوفنا تسىء معاملتك حتى لتكاد تضربك حين كنت تعيشين معهم ؟

صاحت صونيا تقول وهى تنظر الى راسكولنيكوف نظرة فيها مايشبه الذعر :

ـ لا ، لا ، ما هذا الذى تقوله ؟

ـ أأنت تحبينها اذن ؟

ـ هى ؟ أظن •••

كذلك قالت صونيا بلهجة شاكية ، وصوت بطىء ، ضامةً يديها بحركة تنم على الألم • وواصلت كلامها تقول :

ـ ليتك ••• ليتك تعرفها ! انها كالطفلة تماماً • عقلها مضطرب اضطراباً تاماً ••• لقد قاست فى حياتها آلاماً كثيرة ••• ومع ذلك ، ما أذكاها ! ما أكرمها ! انها طيبة جداً ! أنت لا تعرف ، أنت لا تستطيع أن تعرف ! آه !•••

قالت صونيا هذه الكلمات بحزن شديد • كان الألم يهصر قلبها ، فكانت تلوى يديها من فرط الكمد ، واحمرّ خداها من جديد ، حتى صارا بلون الأرجوان • كان العذاب يُقرأ فى عينيها • واضح أن وتراً حساساً جداً قد مُسّ الآن فى نفسها ، وأنها ترغب رغبة قوية فى أن

تعبر عن شيء ، في أن تتكلم ، في أن تدافع عن كاترين ايفانوفنا • ان نوعاً من شفقة حارقة لا ينطفىء أوارها يرتسم الآن على قسمات وجهها •

وتابعت كلامها تقول :

ـ تضربني ؟ هي تضربني ؟ ما هـذا الكلام الذي تقـوله ؟ وهبها ضربتني ! أي ضير في ذلك ؟ انك لا تعرف شيئاً ، لا تعرف شيئاً البتة ! هذه انسانة تعيسة شقية بائسة ••• وهي مريضة ••• انها تنشد العدالة ••• انها تسعى الى العدالة ••• هي طاهرة نقية • انها من شدة اقتناعها بأن العدالة لا بد أن توجد في كل شيء ، تطلب العدالة في كل شيء • قد يعذبونها تعذيباً شديداً ثم هي لا تقترف أي ظلم يجافي العدالة • انها لا تفهم أن لا يسود العدل حيـاة البشر ، وهي لذلك تغضب كما يغضب طفل ، كما يغضب طفل ! انها امرأة عادلة ، عادلة •••

ـ وما الذي ستصيرين اليه ؟

كذلك سألها راسكولنيكوف ، فألقت عليه نظرة مستفهمة• قال لها :

ـ سيبقون على ذراعيك • صحيح أنك كنت قبل الآن تحملين كل شيء على ذراعيك ، وأن أباك كان يجيء اليك أنت ليطلب مالاً « يُذهب به سكره » • ولكن ما الذي سيحدث الآن ؟

قالت صونيا بحزن :

ـ لا أدري •

ـ هل يبقون هناك ؟

ـ لا أدري • ان أجر المسكن لم يُدفع ، ويظهر أن صاحبة البيت قد أرادت اليوم أن تطردهم ؛ فأعلنت كاترين ايفانوفنـا أنهـا لن تمكث دقيقة واحدة •

ـ لماذا تتعاظم هذا التعاظم ؟ أعليك تعتمد ؟

ـ لا تتكلم هكذا ، لا ...

ثم استأنفت تقول وقد اضطربت من جديد ، أو قل اهتاجت من جديد ، كما يفعل طائر من طيور الكنارى أو غيرها من الطيور :

ـ نحن نشترك فى كل شىء ، أنا وهى ...

ثم أضافت تسأله وقد ازدادت حماسة وحرارة :

ـ ماذا تريد لها أن تكون ؟ آه ... ما أكثر ما ذرفت من دموع ، ما أكثر ما ذرفت من دموع فى هـذا اليوم ! ان عقلهـا مضطرب ، ألم تلاحظ أنت هذا اذن ؟ نعم ، عقلها مضطرب ، عقلها مختل : تارةً تقلق كطفلة صغيرة من أجل أن يكون كل شىء على ما يرام غداً ، من أجل أن يكون على المائدة مقبّلات ... ومن أجل أن تضم المأدبة كل ما ينبغى أن تضمه من أطعمـة ؟ وتارةً تلوى يديها كمـداً وحسرة ، وتبصق دماً ، وتذرف دموعاً ، وتدق رأسها بالحائط من فرط اليأس . ثم ما تلبث أن تتعزى من جـديد ، واضـعةً أملها فيـك ، قائلة أنك الآن سـندها ، وانها ستقترض مالاً من أحد الناس ، لتعود بى الى مسقط رأسنا ، فننشىء هناك مدرسةً لبنات الأسر النبيلة أكون أنا مفتشـة فيها ، ونبـدأ عندئذ حياة جديدة كل الجدة . وهى فى هذه الحالة تأخـذ تقبلنى وتضمنى الى صدرها وتواسينى وتعزينى . آه ما أقوى ايمانها باحلامها هذه ، ما أقوى ايمانها بهذه الأحـلام ! هل يمكننا أن نعارضها ؟ مستحيل !... اليوم قضت النهـار كله فى مسـح الأرض وغسـل الملابس وترقيع الثياب . ورغم ضعفها الشـديد صعدت الى غرفتها بطشت ، فما ان وصلت حتى كانت أنفاسـها قد تقطعت ، وحتى خارت قواها فلم تملك الا أن تتهاوى على سريرها مهدودة . وفى هذا الصباح ذهبنا كلتانا الى السوق من أجل أن نشترى أحذية لبوليتشكا ولينيا ، لأن أحذيتهما قد تمزقت تمزقاً تاماً ،

ولكن لم يكفنا ما كان معنا من مال ، رغم جميع حساباتنا ، لأنها اختارت أحذية جميلة لطيفة ، فهي صاحبة ذوق كما تعلم ، فما كان منها الا أن أجهشت تبكي ، هنالك ، في وسط الدكان ، أمام الباعة . لقد بكت لأن ما معنا من مال لم يكن كافياً . حقاً كان منظرها يثير أعمق الألم ...

قال راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة مرة :

ـ يفهم المرء بعد هذا أن تعيشي هذه الحياة التي تعيشينها ...

فهتفت صونيا تقول :

ـ ولكن هي ، هي ، ألا ترثي لحالها ؟ ألا تشفق عليها ؟ أنا أعلم أنك وهبت لها آخر قرش تملكه ، مع أنك لم تكن قد رأيت شيئاً بعد . فماذا لو كنت قد رأيت كل شيء ؟ آه ! يا رب ! كم من مرة ، كم من مرة أبكيتها . ألا انني لأشعر بالخزي والعار ! لقد أبكيتها حتى قبل موت أبي بأسبوع ! نعم ، كنت قاسية ، قاسية ! كم من مرة تصرفت هذا التصرف ! آه ... ما أشد ما أشعر به اليوم من خزي وعار حين أتذكر هذا !

كانت صونيا تلوي يديها حسرةً وهي تتكلم ، من فرط ما كانت تحس به من ألم .

قال لها راسكولنيكوف :

ـ أأنت القاسية اذن ؟

ـ نعم أنا القاسية ، أنا ...

وعادت تتابع كلامها وهي تبكي ، فقالت :

ـ جئت أزورهم في ذلك اليوم ، فقال لي المرحوم : « اقرئي لي يا صونيا ، فانني أحس صداعاً في رأسي ... اقرئي لي هذا الكتاب » . هو كتاب أعاره اياه آندره سيميونوفتش ليبزياتنيكوف الذي يسكن في

هذا المنزل ويقتنى كتباً عجيبة ! قلت له : « آن لى أن أذهب » ، ولم أشأ أن أقرأ له ، لأننى قد أتيت الى عندهم خاصةً من أجل أن أُرى كاترين ايفانوفنا ياقات صغيرة : كانت اليزابت السمسارة قد جاءتنى بياقات وأكمام جميلة جداً ، جديدة كل الجدة ، تزينها رسوم حلوة ، مع أنها بخسة الثمن ، وقد أُعجبت كاترين ايفانوفنا بها كثيراً ، فجربتها على نفسها فوجدتها جميلة ، جميلة جداً . فقالت لى : « صونيا ، اهديها الىّ ، أرجوك » . نعم هذا ما قالته لى : « أرجوك » ، لأنها هامت بها هياماً جنونياً . ولكن ما عساها تصنع بها ؟ ما حاجتها اليها ؟ المهم أنها أُخذت بها ، هكذا ، لأنها تذكّرها بالعهود الجميلة الماضية ! ان كاترين ايفانوفنا تنظر فى المرآة ، فتعجب بنفسها ، وليس عندها ثوب تلبسه ، ليس عندها ثوب واحد ، ليس عندها شىء البتة ، منذ سنين عدة ! وهى لا يمكن أن تطلب من أحد شيئاً فى يوم من الأيام ، لأنها شديدة الاباء والكبرياء ، وتؤثر على ذلك أن تعطى ما بقى عندها . ومع ذلك طلبت منى أن أعطيها تلك الياقات الصغيرة ، لأنها وجدتها جميلة جداً . ولم أشأ أنا أن أحرم نفسى منها ، فقلت لها : « فيم تنفعك هذه الياقات يا كاترين ايفانوفنا ؟ » . نعم ، ذلك ما قلته لها . آه ... ما كان ينبغى أن أقول هذا الكلام بحال من الأحوال ! ألقت علىّ عندئذ نظرة ينفطر لها القلب ... عبّر وجهها عندئذ عن حزن فظيع ... لأننى رفضت أن أعطيها الياقات ... وشعرت أنا بألم شديد من رؤيتها على تلك الحال ... ليست الياقات هى التى أحزنتها ، وانما أحزنها رفضى أنا ... لقد رأيت ذلك واضحاً كل الوضوح . آه ... ليتنى أستطيع أن أرجع الى وراء ، وأن أستردّ كل ما أفلت من لسانى ! آه ... اننى ... ولكن ماذا ؟ لا بد أن هذا كله لا يعنيك فى شىء !

سألها راسكولنيكوف :

ـ أأنت عرفت اليزابت السمسارة ؟

فأجابته مدهوشةً بعض الدهشة :

ـ نعم ••• هل عرفتها أنت أيضاً ؟

قال راسكولنيكوف بعد صمت ، دون أن يجيب عن سؤال دونيا :

ـ كاترين ايفانوفنا فى آخر درجات مرض السل ، وستموت قريباً •••

ـ لا ، لا ، لا تقل هذا الكلام •

قالت صونيا ذلك ، وتناولت يديه على غير شعور منها ، كأنها تتوسل اليه أن لا يحدث هذا الأمر •

قال راسكولنيكوف :

ـ ولكن الأفضل أن تموت !

فأخذت صونيا تردِّد مروَّعةً تائهة العقل زائغة النظرات :

ـ لا ، ليس هذا أفضل ، ليس هذا أفضل •••

ـ والأولاد ، ما أنت صانعة بهم عندئذ ، ما دمت لا تستطيعين أن تأخذيهم الى بيتك وأن تضميهم اليك ؟•••

ـ آه ••• لا أدرى •••

بذلك هتفت صونيا يائسة وهى تمسك رأسها بيديها • كان واضحاً أن هذه الفكرة قد وافتها غير مرة ، وأن راسكولنيكوف لم يزد على أن أيقظها •

وعاد الفتى يلح فى السؤال بغير رحمة فيقول :

ـ وماذا اذا مرضتِ أنت فنقلتِ الى المستشفى قبل موت كاترين ايفانوفنا ؟ ما الذى سيحدث عندئذ ؟

ـ آه ... ما هذا الذى تقوله ؟ ما هذا الذى تقوله ؟ ذلك مستحيل.

وتقبّض وجه صونيا على رعب فظيع وذعر رهيب .

وتابع راسكولنيكوف القاء أسئلته وهو يبتسم ابتسامة لا رحمة فيها :

ـ مستحيل ؟ كيف ؟ لا شيء يكفل لك أن لا تمرضى . فما الذى سيحدث لهم حين تمرضين ؟ سيصيرون فى الشارع ، وستمضى هى تسعل وتستجدى وتدق رأسها بالحائط كما تفعل اليوم بينما الأولاد يبكون . ثم تتهاوى ، فتُنقل الى قسم الشرطة ، ثم الى المستشفى ، فتموت . أما الأولاد ...

ـ لا ، لا ، لن يأذن الله بهذا .

ذلك ما أفلت من لسان صونيا بعد لحظة بصوت مختنق . كانت قد استمعت لكلامه صامتةً تنظر اليه مروّعة ، ضامةً يديها فى ضراعة خرساء كأن كل شيء متوقف عليه .

نهض راسكولنيكوف وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً . وانقضت دقيقة . كانت صونيا واقفة ، متهدلة الذراعين ، خافضة الرأس ، تعانى ألماً شديداً وعذاباً رهيباً .

سألها وهو يتوقف أمامها فجأة :

ـ وما من وسيلة لادخار أى مال للأيام السود ، أليس كذلك ؟

فدمدمت تجيبه :

ـ طبعاً ... لا ...

ثم أضاف ساخراً :

ـ ولكن هل حاولت ؟

ـ حاولت .

ـ ولم تفلح المحاولة ؟ طبعاً لم تفلح ! لا داعى الى السؤال •••

وعاد يسير فى الغرفة • وانقضت دقيقة أخرى • قال :

ـ وسيكون مصير بوليتشكا كمصيرك حتماً •

فهتفت صونيا تقول بصوت قوى ، طائش ، كأنها طُعنت بخنجر :

ـ لا ، لا ، هذا مستحيل • ان الله ، ان الله لن يسمح بمثل هذا السقوط !

ـ دعيك من هذا الكلام ! انه يسمح بمثله وأكثر •

فردّدت صونيا تقول خارجةً عن طورها :

ـ لا ، لا ، ان الله سيحميها !

أجاب راسكولنيكوف بفرح خبيث :

ـ ولكن قد لا يكون هناك اله !

ثم ضحك ونظر اليها •

عندئذ تشوه وجه صونيا تشوهاً فظيعاً ، وسرت فى قسماتها رعدة من تشنج • وألقت على راسكولنيكوف نظرة زاخرة بعتب قوى ولوم شديد ، وأرادت أن تقول شيئاً ، ولكن لم توافها كلمة واحدة ؛ وفجأة انفجرت تنشج نشيجاً مراً ، نشيجاً مراً جداً ، وهى تغطى وجهها بيديها •

قال راسكولنيكوف بعد صمت :

ـ تقولين ان كاترين ايفانوفنا قد فقدت عقلها ، ولكننى أرى أنك أنت نفسك قد فقدت عقلك •

وانقضت خمس دقائق • كان راسكولنيكوف يسير فى الغرفة طولاً وعرضاً ، دون أن يتكلم ، ودون أن ينظر اليها • واقترب منها أخيراً •

كانت عيناه تسطعان • أمسك كتفيها بيديه ، وأنعم النظر الى وجهها الغارق فى الدموع • كانت نظرته جافة ، ملتهبة ، حادة • وكانت شفتاه تختلجان اختلاجاً قوياً جداً • وانحنى فجأة بحركة سريعة ، فسجد أمامها ، وقبّل قدميها • تراجعت صونيا مروّعة كأنها ترى مجنوناً • والحق أن هيئته كانت هيئة مجنون •

تمتمت تقول شاحبة الوجه ، منقبضة الصدر انقباضاً أليماً :

ـ ماذا تفعل ؟ ما هذا الذى تفعله ؟ أأمامى أنا تسجد ؟

فسرعان ما نهض ، وقال لها بلهجة وحشية :

ـ أنا لا أسجد أمامك أنت •••

ثم ابتعد نحو النافذة • وأضاف يقول بعد لحظة وهو يعود الى قربها :

ـ اسمعى : لقد قلت منذ قليل لرجل كان يهينك انه لا يساوى طرف اصبعك ••• واننى قد شرّفت أختى حين أتحت لها اليوم أن تجلس الى جانبك •

هتفت صونيا تقول مرتاعة :

ـ آه ••• ما هذا الذى قلته ؟ هل قلته أمامها ؟ جلوسها الى جانبى يشرّفها ؟ ولكننى ••• ولكننى أعيش فى العار ! آه ••• ما هذا الذى قلته ؟•

ـ أنا لم أقل ذلك مفكراً فى العار والخطيئة ، وانما قلته مفكّراً فى عذابك العظيم •••

ثم أضاف يقول فى حماسة :

ـ أما أنك خاطئة فهذا صحيح • وخطيئتك الكبرى هى أنك

ضحيت بنفسك وأهلكت نفسك « سدى » • نعم ، انه لأمر فظيع ، انه لأمر فظيع أن تعيشى كما تعيشين ، فى الوحل الذى تكرهين ، عالمةً أنت نفسك أنك بهذا لا تساعدين أحداً ، ولا تستطيعين أن تنقذى أحداً (يكفى المرءَ أن يفتح عينيه) •

ثم قال خارجاً عن طوره :

ـ ولكن قولى لى أخيراً : كيف يمكن أن يجتمع فى نفسك مثل هذا العار ومثل هذه الحطة مع أنبل العواطف وأقدس المشاعر ؟ ألا انه ليكون أقرب الى العدل كثيراً ، وأقرب الى العقل كثيراً ، أن تلقى بنفسك فى الماء منكّسة الرأس ، وأن تنتهى من هذا الوضع مرةً واحدة الى الأبد !•••

سألته صونيا بصوت ضعيف ، وهى ترفع نحوه نظرتها الأليمة :

ـ وما عسى يصيرون اليه ، هم ، اذا أنا فعلت ذلك ؟

غير أن هذه الفكرة التى أوحى اليها راسكولنيكوف لم يبد أنها أدهشتها • وألقى عليها راسكولنيكوف نظرة خاصة •

لقد قرأ راسكولنيكوف فى نظرة الفتاة كل شىء •: ان تلك الفكرة كانت تراودها اذن • لعلها من يأسها قد فكرت تفكيراً جاداً ، مرات كثيرة ، فى امكان وضع حد لحياتها آخر الأمر ، وبلغت من جدّ التفكير فى هذا أن النصيحة التى أسداها اليها راسكولنيكوف لم تثر فى نفسها أية دهشة تقريباً • حتى أنها لم تلاحظ قسوة الكلمات التى قالها لها (لقد فاتها طبعاً معناها الحقيقى، ولم تدرك الزاوية الخاصة التى كان راسكولنيكوف ينظر منها الى موضع العار ، وقد لاحظ راسكولنيكوف ذلك) • ولكن راسكولنيكوف أدرك ادراكاً تاماً مدى ما كانت تقاسيه من عذاب بسبب وضعها الشائن ، وأدرك ادراكاً تاماً أنها تعانى هذا العذاب منذ مدة طويلة •

وتساءل راسكولنيكوف : « ما الذى أمكن أن يمنعها حتى الآن من انفاذ عزمها على التخلص من حياتها ؟ » • وعندئذ فقط انما أدرك حقاً قيمة هؤلاء اليتامى فى نظر صونيا ، وقيمة هذه المسكينة كاترين ايفانوفنا المصدورة ، شبه المجنونة ، التى تدق رأسها بالحيطان •

ولكن هذا لم يمنعه أن يدرك ادراكاً واضحاً كذلك أن صونيا ، بحكم طبعها وبحكم تربيتها ، لا يمكنها مع ذلك أن تستمر على أن تحيا هذه الحياة ؟ حتى انه ليحيّره ويدهشه أن يرى صونيا تبقى فى هذا الوضع طوال هذه المدة دون أن تُجنَّ هى أيضاً بعد أن لم تسعفها شجاعتها فتنتحر غرقاً فى الماء • صحيح أنه كان يفهم أن وضع صونيا ليس الا حادثة طارئة فى المجتمع ، حادثة طارئة لكنها ليست وحيدة وا أسفاه ! ليست وحيدة البتة ، ولا هى استثنائية ! غير أن كون هذه الحادثة طارئة ، بالاضافة الى ما بقى للفتاة من تربيتها الماضية ، وبالاضافة الى ماضيها كله ، كان خليقاً بأن يقتلها منذ الخطوات الأولى التى قطعتها على هذا الطريق الدنيء الذى سلكته • فما الذى كان يبقيها على هذا الطريق اذن ؟ ليس هو حب الدعارة قطعاً ، فان هذا العار كله (ذلك أمر يراه المرء واضحاً) لم يزد على أن مسَّها مساً خفيفاً بحكم طبيعة الأشياء ، أما قلبها فلم تتسلل اليه قطرة واحدة من رذيلة • ان راسكولنيكوف يرى هذا كله : لقد كانت صونيا واقفةً أمامه على حقيقتها •••

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « هناك ثلاثة طرق تنفتح أمامها : أن تلقى بنفسها فى القناة ، أن تصير الى ملجأ للمجانين ••• أن تندفع فى الدعارة التى تخبل العقل وتجمد القلب • » • ان هذه الفكرة الأخيرة هى التى ينفر منها راسكولنيكوف أكثر مما ينفر من الفكرتين الأولين ، ولكن راسكولنيكوف كان قد أصبح شكاكاً رياباً منذ الآن ، وهو الى ذلك شاب ، وهو الى ذلك ذو فكر مجرد ، والفكر المجرد

قاسٍ ، لذلك لم يستطع راسكولنيكوف أن يمتنع عن الاعتقاد بأن هذا الافتراض الثالث ، أعنى افتراض الدعارة هو أقرب الافتراضات الى الصدق •••

ولم يلبث أن هتف يتساءل بينه وبين نفسه : « ولكن هل يمكن أن يكون هذا صحيحاً ؟ هل يمكن أن تغوص نفس ما تزال طاهرة نقية ، هل يمكن أن تغوص فى هذا المستنقع واعيةً شاعرة ؟ هل بدأ هذا الغوص فى المستنقع القذر فعلاً ؟ هل من الجائز أنها لم تستطع أن تحتمل حياة كهذه الحياة حتى الآن الا لأن الرذيلة لا تبدو لها كريهة حقيرة الى هذا الحد ؟ » فلما وصل راسكولنيكوف من تساؤله الى هنا ، هتف يقول كما فعلت صونيا منذ قليل : « لا ، لا ، ان الشيء الذى صدّها عن اغراق نفسها فى القناة حتى الآن انما هو فكرة « الخطيئة » ، وكذلك « هم » ... ولئن لم تجن حتى الآن ••• ولكن من ذا الذى يزعم أنها لم تجن حتى الآن ؟ أصحيح أنها ما تزال تملك عقلها ؟ هل يمكن أن يتكلم أحد كما تتكلم هى ، وأن تفكر كما تفكر ، اذا كان ما يزال سليم العقل ؟ هل يستطيع المرء أن يبقى أمام الهوة على هذا النحو ، أن يبقى هذا البقاء أمام المستنقع القذر الذى أخذ يغوص فيه ، وأن يحرك يده فى الوقت نفسه باشارة تنم على العجز ، وأن يسدّ أذنيه كلما حُدِّث عن الخطر ؟ أليس معجزةً من المعجزات أنها تنتظر ؟ نعم ، لا شك فى ذلك • ولكن أليست هذه علامات جنون ؟ » •

وتلبث راسكولنيكوف على هذه الفكرة فى اصرار وعناد • ان حلاً كهذا يرضيه أكثر من أى حل آخر • وأخذ يتفحص الفتاة بانتباه شديد •

سألها :

ـ اذن أنت تصلين لله يا صونيا ؟

لم تجب صونيا ، وكان واقفاً أمامها ينتظر جوابها .

ودمدمت صونيا تقول مسرعةً بقوة عنيفة ، وهى تلقى عليه نظرة مختلسة ساطعة :

ـ ما الذى يمكن أن أصير اليه ان لم أؤمن بالله ؟

وتناولت يده ، وضغطتها بيدها ضغطاً قوياً .

قال يحدث نفسه : « نعم ، تلك هى الحقيقة » .

وسألها ليجبرها على الكلام :

ـ وماذا يفعل الله من أجلك ؟

فلبثت صونيا صامتةً مدة طويلة ، كأنها لا تستطيع أن تجيب . وكان الانفعال يهز صدرها الضعيف . وهتفت تقول له أخيراً وهى تنظر اليه بقسوة وغضب :

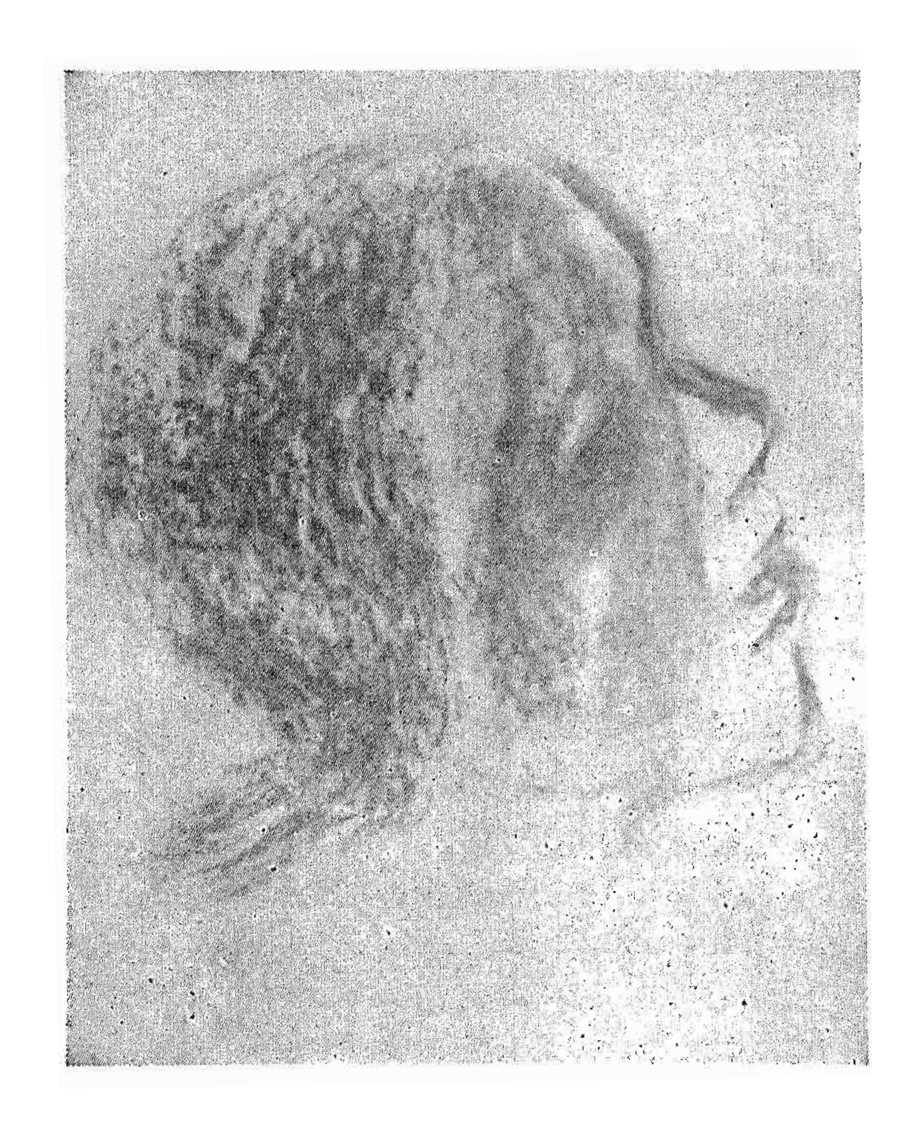
ـ اسكت ، لا تسألنى عن شىء بعد الآن . أنت لا تستحق أن ...

فقال راسكولنيكوف يحدث نفسه مردداً فى عناد واصرار : « تلك هى الحقيقة ، تلك هى الحقيقة .. » .

ودمدمت صونيا تقول بسرعة وهى تخفض عينيها من جديد :

ـ الله يفعل كل شىء !

وبعاطفة جديدة كل الجدة ، بعاطفة غريبة تشبه أن تكون مرضاً ، كان راسكولنيكوف يتفرس فى هذا الوجه الصغير ، النحيل ، الشاحب ، غير المتسق ، المتكسر الزوايا ، ويتفرس فى هاتين العينين الزرقاوين الرقيقتين العذبتين الحلوتين اللتين تستطيعان مع ذلك أن تسطعا بلهيب قوى



صـــونيا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

وأن تعبرا عن عاطفة تبلغ هذا المبلغ كله من القسوة والقوة والعنف ؟ ويتفرس في هذا الجسم الضاوى الهزيل الذى ما يزال يرتجف استياءً وغضباً ... فكان كل شيء يبدو له غريباً مزيداً من الغرابة شيئاً بعد شيء ، حتى ليكاد يكون مستحيلاً . وكان يردد قائلاً لنفسه : « هذه مخلوقة ضعيفة العقل ، هذه مخلوقة ضعيفة العقل . » .

وكان على المنضدة كتاب لاحظه راسكولنيكوف عدة مرات حين مروره أمام المنضدة . فها هو ذا يتناول الكتاب الآن وينظر فيه . انه الانجيل باللغة الروسية : كتاب مجلَّد ، عتيق مهترىء .

صاح يسأل صونيا من آخر الغرفة :

ـ من أين هذا الكتاب ؟

وكان ما يزال واقفاً في مكانه نفسه على بعد ثلاث خطوات من المائدة .

فأجابته صونيا على مضض دون أن تنظر اليه :

ـ جيء اليَّ به .

ـ من جاءك به ؟.

ـ اليزابت . كنت قد طلبته منها .

قال راسكولنيكوف بينه وبين نفسه : « اليزابت ! ما أغرب هذا ! » ان كل شيء هنا يبدو له غريباً عجيباً أكثر فأكثر ، من لحظة الى أخرى. وقرَّب الكتاب من الشمعة وأخذ يتصفحه .

وسألها فجأة :

ـ أين يجيء ذكر لعازر ؟

فظلت صونيا مطرقةً الى الأرض بعناد ولم تجبه • وكانت واقفة غير بعيد من المائدة وقفةً مواربة •

ـ أين الحديث عن قيام لعازر ؟ * أرنيه يا صونيا •

فألقت نظرة مواربة • ودمدمت تقول له بقسوة دون أن تقترب منه :

ـ لست تبحث عنه في موضعه • انه في الانجيل الرابع •

قال لها :

ـ ابحثي عنه واقرئيه لي يا صونيا •

ثم جلس ، ووضع كوعيه على المائدة ، وأسند رأسه الى يده ، لافتاً عينيه ، متجهم الهيئة ، متهيئاً للاصغاء ، قائلاً لنفسه : « بعد ثلاثة أسابيع ، سأكون الفرسخ السابع * ، فيما أظن ، اللهم الا أن يحدث لي ما هو شر من ذلك » •

دنت صونيا من المائدة مترددة ، بعد أن استمعت لطلب راسكولنيكوف في شك وريب • وتناولت الكتاب مع ذلك •

سألته وهي تنظر اليه من فوق المائدة بطرف عينها :

ـ ألم تقرأه اذن من قبل ؟

وكان صوتها يزداد قسوةً شيئاً بعد شيء • أجابها راسكولنيكوف :

ـ قرأته منذ زمن طويل ••• في أيام الدراسة •

ـ وفي الكنيسة ، ألم تسمعه ؟

ـ لا أذهب الى الكنيسة • هل تذهبين أنت الى الكنيسة أحياناً كثيرة ؟

تمتمت صونيا تقول :

ـ لـ ... لا

فابتسم راسكولنيكوف .

ـ فهمت . وأغلب الظن أنك لن تحضرى دفن أبيك فى الغد أيضاً ، أليس كذلك ؟

ـ بل سأحضر ... لقد ذهبت الى الكنيسة فى الأسبوع الماضى أيضاً . وأقمت قداساً .

ـ لمن ؟

ـ لاليزابت . لقد قُتلت بساطور .

توترت أعصاب راسكولنيكوف مزيداً من التوتر . وأخذ يشعر بدوار .

ـ هل كنت صديقة لاليزابت ؟

ـ نعم ... كانت اليزابت امرأة صالحة... وكانت تجىء الىَّ... نادراً ... لم يكن فى وسعها أن تزورنى أكثر من ذلك . وكنا نقرأ معاً ... وكنا نتحدث ... سترى الله * ...

ترجَّعت هاتان الكلمتان المستمدتان من الكتب ترجعاً غريباً فى نفس راسكولنيكوف . وقال لنفسه : « وهذه معلومات جديدة ! أحاديث سرية بين اليزابت وصونيا ... بين مخلوقتين كلتاهما ضعيفة العقل ! هنا يصبح المرء نفسه ضعيف العقل ... بالعدوى !... » .

وهتف يقول لها بالحاح وحنق :

ـ اقرئى !

ولكن صونيا ما تزال مترددة . كان قلبها يخفق خفقاناً شديداً .

لكأنها لا تجرؤ أن تقرأ له • وكان هو ينظر اليها معذباً ، قائلاً لنفسه : « يا للمجنونة المسكينة ! » •

تمتمت تقول له بصوت خافت ، كأنها مقطوعة الأنفاس :

ــ ما حاجتك الى ذلك وأنت لا تؤمن ؟

فأجابها يقول مصراً :

ــ بل اقرئى ! أريد أن تقرئى ! أما كنت تقرئين لاليزابت ؟•••

فتحت صونيا الكتاب ، ووجدت العبارات المطلوبة • كانت يداها ترتجفان ، وكان صوتها مختنقاً • حاولت مرتين أن تبدأ القراءة ، ولكنها لم تفلح فى نطق الكلمة الأولى • ثم قرأت أخيراً :

« وكان انسان مريضاً ، وهو لعازر ، من بيت عنيا ••• » * •

ولكن صوتها اختلج وتحطم منذ الكلمة الثالثة ، كما يتحطم وتر مشدود • لقد انقطع تنفسها • وكان قلبها يدق دقاً عنيفاً جداً •

أدرك راسكولنيكوف بعض الادراك لماذا لم تعزم صونيا أمرها على أن تقرأ له ، فكان كلما ازداد ادراكاً لهذا ، ازداد الحاحاً فى طلب القراءة بفظاظة وغضب• كان يرى رؤية واضحة لماذا يشق عليها ويحز فى نفسها أن تكشف عما يخصها « هى » ، وأن تبوح به • أدرك أن هذه العواطف هى « سرُّها » فعلاً ، ربما منذ مراهقتها ، منذ الوقت الذى كانت تعيش فيه مع أسرتها بين أب شقى وزوجة أب جعلها الحزن مجنونة ، قرب أطفال جياع ساغبين ، فى بيئة لا ترتفع فيها الا صرخات مسعورة وملامات متصلة لا تنقطع • ولكنه كان يعلم فى الوقت نفسه ــ هو واثق من هذا ــ أنها على تألمها الشديد وخوفها القوى تحس رغم حزنها وخشيتها برغبة جارفة مؤلمة فى أن تقرأ ، وفى أن تقرأ له « هو » ، من أجل

أن يسمع ، ومن أجل أن يسمع « الآن » خاصةً ، « مهما يحدث بعد ذلك » • كان راسكولنيكوف يقرأ هذه الرغبة فى عينى الفتاة ، وكان يدركها من اهتياج أعصابها •

تحاملت صونيا على نفسها ، وبذلت جهداً كبيراً ، فكبحت التشنج الذى ألمَّ بحلقها فقطع صوتها منذ بداية الآية الأولى ، وتابعت قراءة الاصحاح الحادى عشر من انجيل يوحنا ، ووصلت الى الآية التاسعة عشرة :

« وكان كثيرون من اليهود قد جاءوا الى مرثا ومريم ليعزّوهما عن أخيهما • فلما سمعت مرثا أن يسوع آتٍ لاقته • وأما مريم فاستمرت جالسةً فى البيت • فقالت مرثا ليسوع : يا سيد ، لو كنتَ ههنا لم يمت أخى • لكننى الآن أيضاً أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله اياه »•

هنا توقفت صونيا عن القراءة مرةً أخرى ، وهى تشعر بالخجل من أن صوتها يختلج وأنه سيتحطم من جديد ••• ثم تابعت القراءة :

« قال لها يسوع : سيقوم أخوك • قالت له مرثا : أنا أعلم أنه سيقوم فى القيامة ، فى اليوم الأخير • قال لها يسوع : أنا القيامة والحياة • من آمن بى فسيحيا ولو مات • وكل من كان حياً وآمن بى فلن يموت الى الأبد• أتؤمنين بهذا ؟ » •

استردت صونيا أنفاسها بجهد عنيف وألم شديد ، وأخذت تقرأ بصوت واضح ولهجة قوية كأنها تعترف بايمانها هى نفسها على رءوس الأشهاد :

« قالت له مرثا : نعم يا سيد • أنا قد آمنت أنك أنت المسيح ابن الله ، الآتى الى العالم • » •

وأوشكت صونيا أن تتوقف عن القراءة ، ولكنها رفعت عينيها «اليه» بحركة قوية ، فسرعان ما ثابت الى نفسها ، واستمرت تقرأ • كان راسكولنيكوف يصغى الى القراءة ساكناً جامداً ، دون أن يلتفت ، واضعاً كوعيه على المائدة ، ناظراً الى جانب • وبلغت صونيا الآية الثانية والثلاثين :

« فلما أتت مريم الى حيث كان يسوع ورآته ، خرّت عند رجليه قائلةً : يا سيد ، لو كنتَ ههنا لم يمت أخى • فلما رآها يسوع تبكى واليهود الذين جاءوا معها يبكون انزعج بالروح واضطرب • وقال : أين وضعتموه ؟ قالوا له : يا سيد ، تعال وانظر • بكى يسوع • فقال اليهود : انظروا كيف كان يحبه • وقال بعض منهم : ألم يكن يقدر هذا الذى فتح عينى الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت ؟ » •

كان راسكولنيكوف قد التفت نحوها وأخذ ينظر اليها منفعلاً مضطرباً • نعم ، صدق ظنه ! لقد كانت ترتعش ارتعاشاً قوياً وتعانى من حمى حقيقية • انه توقع ذلك • وكانت تقترب من الآيات التى تروى المعجزة العظيمة الكبرى ، فكان شعور بالانتصار يجتاح نفسها • ان صوتها يرن رنين معدن • ان الفرح والظفر يترجعان فى نفسها ويشدان ازرها • واختلطت الأسطر أمام عينيها ، واضطرب بصرها ، لكنها كانت تعرف ما تقرؤه على ظهر القلب • انها حين قرأت الآية الأخيرة : « ألم يكن يقدر هذا الذى فتح عينى الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت ؟ » ، قد خفضت صوتها ، معبّرةً بحماسة ملتهبة عن شك واستياء أولئك اليهود العمى الذين سيركعون بعد قليل كمن نزلت عليهم صاعقة ، وسيجهشون باكين ، وسيؤمنون • قالت لنفسها : وهو ، « هو » ايضاً ، الأعمى ، الذى لا يؤمن ، هو أيضاً سيسمع ، وهو أيضاً سيؤمن ،

نعم ، نعم ، سيؤمن ، سيؤمن فوراً ، حالاً . فكان هذا التوقع يجعلها ترتعش فرحاً . وتابعت قراءتها :

« فانزعج يسوع أيضاً فى نفسه وجاء الى القبر . وكان القبر مغارة وقد وضع عليه حجر . قال يسوع : ارفعوا الحجر . قالت له مرثا أخت الميت : يا سيد ، قد أنتن لأنه هنا منذ أربعة أيام . . » .

أبرزت صونيا فى قراءتها كلمة « أربعة » . وتابعت تقرأ :

« قال لها يسوع : ألم أقل لك ان آمنت ترين مجد الله . فرفعوا الحجر ، ورفع يسوع عينيه الى فوق وقال : أيها الأب ، أشكرك لأنك سمعت لى . وأنا كنت أعلم أنك تسمع لى فى كل حين . ولكن لأجل هذا الجمع الواقف حولى قلت هذا ، ليؤمنوا أنك أنت أرسلتنى . ولما قال يسوع هذا صرخ بصوت عظيم : لعازر هلمَّ خارجاً . فخرج الميت ... »

قرأت صونيا هذه الكلمات الأخيرة بصوت قوى ظافر ، وكانت ترتجف وترتعش كأنها ترى المشهد بعينيها .

« ... ويداه ورجلاه مربوطة بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل . فقال لهم يسوع : حلُّوه ودعوه يذهب » .

« فكثيرون من اليهود الذين جاءوا الى مريم ومرثا ونظروا ما فعل يسوع آمنوا به . . » .

لم تمض صونيا فى القراءة الى أبعد من هذا . لقد عجزت عن ذلك . فطوت الكتاب ونهضت بحركة قوية نشيطة ، ودمدمت تقول بصوت قاس متقطع :

ــ هذا كل ما يُروَى عن قيام لعازر .

وتجمدت فى مكانها مشيحة ً وجهها ، كأنها تستحى أن ترفع عينيها نحو راسكولنيكوف • وكانت ما تزال ترتجف من الحمى •

كان عقب الشمعة التى ذابت فى الصحن المتعقف منذ مدة ، تلقى ضياءً ضعيفاً على القاتل والمومس وقد ضمتهما قراءة « الكتاب الخالد » فى هذه الغرفة البائسة •

وانقضت خمس دقائق أو تزيد •

ونهض راسكولنيكوف ، واقترب من صونيا ، وقال لها فجأة بصوت قوى وقد اكفهر وجهه :

ـ انما جئت لأحدثك فى أمر بعينه •

فنظرت اليه صونيا صامتة • وكان وجهه يفصح عن عزيمة وحشية قال :

ـ تركت اليوم أهلى : أمى وأختى • فلن أذهب اليهما بعد الآن • لقد قطعت صلتى بهما قطيعة تامة •

فسألته صونيا مصعوقة :

ـ لماذا ؟

ان اللقاء الذى تمّ بينها وبين أم راسكولنيكوف وأخته منذ قليل قد ترك فى نفسها أثراً خارقاً ، رغم أنها لم تستطع أن تحدّده • فلما سمعت نبأ هذه القطيعة شعرت بما يوشك أن يكون رعباً وذعراً •

أضاف راسكولنيكوف يقول :

ـ لم يبق لى سواك • هلمى نسافر معاً • لقد جئت اليك • نحن ملعونان كلانا ، فلنسافر معاً !

وكانت عيناه تسطعان . قالت صونيا لنفسها هى أيضاً : « ان هيئته تدل على أنه مجنون » .

وسألته مرتاعةً :

ـ نسافر الى أين ؟

وتراجعت متقهقرة على غير ارادة منها . قال لها :

ـ أنّى لى أن أعرف ! كل ما أعرفه أن الطريق الذى سنقطعه واحد . أنا واثق بهذا ، ولا أعرف شيئاً سواه . وان هدفنا واحد أيضاً .

كانت تنظر اليه ولا تفهم . كل ما كانت تدركه هو أنه انسان شقى شقاء رهيباً ، شقى الى غير نهاية .

وأضاف راسكولنيكوف يقول :

ـ ما من أحدٍ منهم يستطيع أن يفهم ما تقولينه . أما أنا فقد فهمتك . أنا فى حاجة اليك . ولهذا السبب انما جئتك .

تمتمت صونيا قائلة :

ـ لست أفهم ...

ـ ستفهمين فى المستقبل . ألم تفعلى مثل الذى فعلت أنا ؟ أنت أيضاً خرقت القانون ، أنت أيضاً ... أنت أيضاً دمّرت حياةً ... هى حياتك طبعاً ، ولكن ما الفرق ؟ كان يمكنك أن تعيشى بروحك . ولسوف ينتهى بك المطاف فى المستقبل الى قرب « سوق العلف » .. ولكنك لن تستطيعى أن تحتملى ذلك ، فان بقيت « وحيدة » فسوف تفقدين عقلك مثلى . انك منذ الآن أشبه بمجنونة . فلماذا لا نسافر اذن معاً ، لماذا لا نتبع طريقاً واحداً ؟ فلنسافر !

تمتمت صونيا تقول وقد هزتها كلمات راسكولنيكوف هزاً غريباً قوياً :

ـ لماذا ، لماذا تقول هذا الكلام ...

ـ لماذا ؟ لأن بقائي على هذه الحال أصبح مستحيلاً . هذا هو السبب . لا بد للمرء آخر الأمر من أن يبكي ، بدلاً من أن يصرخ قائلاً كطفل صغير : « الله لن يسمح بهذا » . قولي لي : ما الذي سيحدث اذا اقتادوك غداً الى المستشفى ؟ ان الأخرى قد فقدت عقلها ، وهي مصابة بداء السل ، وستموت قريباً . والأولاد ؟ هل يمكن أن لا تضيع بوليتشكا هي أيضاً ؟ ألم ترى هنا ، في نواصي الشوارع ، أطفالاً أرسلتهم أمهاتهم في طلب الصدقات ؟ لقد عرفت أنا أين تعيش هذه الأمهات ، وفي أي ظروف تعيش . ان الأطفال لا يمكن أن يبقوا في أمثال تلك الأماكن أطفالاً . في أمثال تلك الأماكن يصبح الطفل الذي عمره سبع سنين ، يصبح داعراً أو لصاً . والأطفال مع ذلك هم صورة المسيح ، « لهم ملكوت الرب » * ؛ لقد أمر الرب باحترامهم وحبهم . هم انسانية المستقبل ...

رددت صونيا تقول وهي تلوي يديها ألماً وتجهش باكية بكاء هستريا :

ـ ما العمل اذن ؟ ما العمل اذن ؟

ـ ما العمل ؟ نحطّم مرةً واحدة كلَّ ما يجب تحطيمه ، ولا شيء غير ذلك . نتحمل العذاب . ماذا ؟ ألا تفهمين ؟ سوف تفهمين في المستقبل ! الحرية والسيطرة ، السيطرة خاصة ! السيطرة على جميع المخلوقات المرتجفة ، على كل هؤلاء النمل .. ذلك هو الهدف ! تذكرى هذا ! تلك هي وصيتي لك . لعل هذه آخر مرة أكلمك فيها . اذا لم

أجيء غداً ، فستعلمين كل شيء بنفسك ، فاذكرى حينئذ كلماتى • قد تفهمين معنـاها فى يوم من الأيام ، بعد سـنة ، ولكن اذا جئت غـداً ، فسأقول لك من الذى قتل اليزابت • وداعاً !

ارتعشت صونيا ذعراً • وسألته وهى ترمقه بنظرة متوحشة :

ـ أأنت تعرف حقاً ••• من الذى قتلها ؟

ـ أعرف ذلك ، وسأقوله لك ••• لك وحدك ! لقد وقع اختيارى عليك • لن أجيء اليك لاستغفرك ؛ وانما لأحدثك ببساطة • لقد اخترتك منذ مدة طويلة لأحدثك ، اخترتك منـذ اللحظة التى كلمنى فيها أبوك عنـك ، وكانت اليزابت ما تزال حيـة • وداعاً ! لا تنـاولينى يدك ! الى الغد ! •

وخرج • كانت صونيا تنظر اليه وكأنها تنظر الى مجنون ، ولكنها كانت هى نفسـها أشبه بمجنونة ، وكانت تشـعر بذلك • وكانت تحس بدوار •

تساءلت : « رباه ! كيف يعرف من الذى قتل اليزابت ؟ ما معنى هذه الأقوال ؟ فظيع ، فظيع !••• » • ولكن لم يخطر ببالها « أن •• »• لم يخطر ببالها هذا فى لحظة من اللحظات ، لم يخطر ببالها فى أية لحظة من اللحظات ! وقالت تحدث نفسها : « لا بد أنه شقى ، لا بد أنه شقى شقاء رهيباً ! ترك أمه وأخته • لماذا ؟ ماذا جرى ؟ ما نياته ؟ ماذا قال لى ؟ لقد لثم قدمىّ وقال لى ••• قال لى ••• نعم •• قال لى ذلك بوضوح •• قال لى انه أصبح لا يستطيع أن يحيا بدونى •• آه ••• رباه !•••

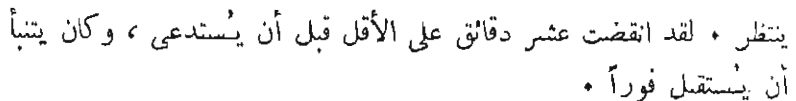
قضت صونيا الليل كله فى حمى وهذيان • فتارة تنهض بوثبـة واحدة فتأخذ تبكى وتلوى يديهـا ألماً ، وتارة تهوى الى نوم محمـوم

فترى فى الحلم بوليتشكا وكاترين ايفانوفنا واليزابت وقراءة الانجيل ..
وتراه هو ... هو ... بوجهه الشاحب ، وعينيه المتقدتين ، يلثم قدميها،
ويبكى ... آه ... يارب !...

وراء الباب ، وراء ذلك الباب نفسه الذى يفصل غرفة صونيا عن شقة جرترود كارلوفنا ريسليش ، كانت توجد غرفة وسيطة ، خالية منذ مدة طويلة ، هى جزء من شقة السيدة ريسليش، وكانت السيدة ريسليش تريد أن تؤجـرها ، كما تدل على ذلك اللافتة الموضوعة على باب مدخل العمارة ، والأوراق الصغيرة الملصقة على زجاج النـوافذ التى تطل على القناة . وقد اعتادت صونيا أن تعد هذه الغرفة خاليةً غير مسكونة . غير أن السيد سفيدريجايلوف كان قد التصق بالباب فى هذه الغرفة الخالية ، فأصغى الى كل الحديث الذى جرى بين صونيا وراسكولنيكوف ، حتى اذا خرج راسكولنيكوف لبث هو لحظةً يفكر ، ثم رجع سائراً على رءوس الأصابع الى غرفته المتصلة بهذه الغرفة الخالية ، فتناول كرسياً وجاء يضعه برفق وهدوء على الباب المؤدى الى غرفة صونيا . لقد شاقه الحديث الذى جرى بين الفتاة وبين راسكولنيكوف كثيراً ، ورأى أنه جدير بأن يُسمع وأن يحفظ ؛ وبلغ من شدة اعجابه بهذا الحديث ورضاه عنـه وابتهاجه به أنه حمل الكرسى وجاء يضعه على الباب حتى لا يضطر فى المرة القادمة التى قد يكون الغد موعدها ـ من يدرى ؟ ـ أن يزعج نفسه بالبقاء واقفاً طوال ساعة كاملة . هكذا سيتاح له أن يجلس جلسة مريحة ، فتكون متعته من جميع النواحى كاملة .

الفصل الخامس

في الغد ، فى الساعة الحادية عشرة تماماً ، حين وصل راسكولنيكوف الى قسم الشرطة ، ودخل على مكاتب مفوّض التحقيقات*، وطلب مقابلة بورفير بتروفتش ، أدهشه أنه طُلب اليه أن ينتظر • لقد انقضت عشر دقائق على الأقل قبل أن يُستدعى ، وكان يتنبأ أن يُستقبل فوراً •



ظل واقفاً فى وسط قاعة الانتظار ، بينما كان يذهب ويجىء من حوله أناس لا يبدو عليهم أنهم يكترثون به أى اكتراث • وفى الغرفة المجاورة التى يدلُ مظهرها على أنها غرفة مكتب ، كان يجلس عدد من الكتبة عاكفون على الكتابة ، وكان واضحاً أن أحداً منهم لا يعرف من راسكولنيكوف هذا وما الذى يعمله هناك •

وكان راسكولنيكوف يُجيل على ما حوله نظرةً قلقة فيها ارتياب ، متسائلاً : تُرى ألا يوجد هنا ، على مقربة منه ، شخص سرّى ما ، جاسوسٌ ما ، مكلف بمراقبته ، وبمنعه من الخروج اذا هو أراد أن يخرج ؟ ولكن لا ••• لم يكن ثمة شىء من هذا القبيل • لم يكن ثمة الا مستخدمون صغار ، غارقون فى أعمالهم الصغيرة ، وأشخاصٌ آخرون ، لكن هؤلاء الأشخاص الآخرين كانوا هم أيضاً لا يهتمون به ، ويدعون له أن يتنقل حراً على ما يشاء له هواه • وها هى ذى فكرة تنبت فى ذهنه

وتترسخ ترسخاً ما ينفك يزداد عمقاً : لو كان ذلك الشخص اللغز الذى لقيه بالأمس ، لو كان ذلك الشبح الذى ظهر له من تحت الأرض ، لو كان يعلم كل شىء ، لو كان قد رأى كل شىء ، أفكان يُترك له ، هو راسكولنيكوف ، أن ينتظر هذا الانتظار هادئاً ؟ أفكانوا يصبرون عليه حتى الساعة الحادية عشرة ، حتى الساعة التى ارتأى فيها أن يجىء من تلقاء نفسه ليدلى بافادته ؟ اذن لم يش به ذلك الرجل بعد ... او أنه هو أيضاً لا يعرف شيئاً معيناً (وكيف كان يمكن أن يرى أى شىء على كل حال ؟) . واذن لم يكن كل ما حدث له بالأمس ، هو راسكولنيكوف ، الا سراباً ، الا رؤيا ضخَّمها خياله المهتاج المريض . ان هذا الاكتشاف كان قد فرض نفسه على راسكولنيكوف منذ أمس ، فى لحظة هى من أعنف لحظات شعوره بالخطر ومن أقوى لحظات احساسه باليأس .

وفيما كان راسكولنيكوف يفكر فى هذا كله مرةً أخرى ، وفيما كان يتهيأ لكفاح جديد ، شعر فجأة بارتعاش ، فغلت نفسه غلياناً شديداً اذ تصور أنه انما يرتعش خوفاً ، لأنه سيقف أمام بورفير بتروفتش الكريه . ان أفظع شىء هو أن يلقى هذا الرجل من جديد . انه يكرهه كرهاً لا حدود له ، كرهاً ليس له نهاية . وكان يخشى أن يؤدى به هذا الكره ، على نحو من الأنحاء ، الى أن يفضح نفسه . وبلغ غضبه من القوة أنه أوقف ارتعاشه فوراً . وأعدَّ راسكولنيكوف نفسه لأن يدخل على الرجل هادئاً كل الهدوء ، وحلف ليبقينَّ صامتاً الى أبعد حدود الصمت ، يفتح عينيه وأذنيه ويسيطر فى هذه المرة على مزاجه المهتاج المريض ، مهما يحدث من أمر ...

وفى اللحظة التى اتخذ فيها راسكولنيكوف هذا القرار ، دُعى الى الدخول على بورفير بتروفتش .

كان بورفير بتروفتش عندئذ وحيداً فى غرفته . انها حجرة لا هى

بالكبيرة ولا هى بالصغيرة ، تضم مكتباً كبيراً موضوعاً أمام ديوان مغطى بقماش مشمَّع ، وتضم منضدة ، وخزانة فى ركن من الأركان ، وعدة كراسى من خشب أصفر تقشر طلاؤه ؛ وهذا كله من أثاث الادارة • وفى الجدار الذى يقع فى آخر الغرفة ، أو قل فى الحاجز الذى يقع فى آخر الغرفة ، يوجد باب مغلق : فلا بد اذن أن وراء هذا الحاجز حجرات أخرى •

فما ان أُدخل راسكولنيكوف حتى أغلق بورفير بتروفتش ذلك الباب الذى كان قد دخل منه ، وبقى الرجلان وحيدين •

استقبل مفوَّض الشرطة زائره طلق المحيَّا متودداً متحبياً فىظاهر الأمر ؛ ولم يستطع راسكولنيكوف الا بعد عدة دقائق أن يدرك منبعض العلامات أن بورفير بتروفتش مرتبك بعض الارتباك ، فكأنه أُزعج اثناء قيامه بمهمة سرية •

بدأ بورفير بتروفتش يتكلم وهو يمد الى راسكولنيكوف يديه فقال :

— آ ••• عزيزى ••• هأنت ذا اذن ••• فى نواحينا ... تفضل... اجلس يا عزيزى ! ولكن لعلك لا تحب أن أخاطبك بقولى يا عزيزى ، «فقط» ، هكذا ! ••• لا تحسبْ هذا نوعاً من رفع الكلفة وعدم التحرج، أرجوك ••• ولكن لماذا لا تجلس ؟ اجلس هنا ، على الديوان •••

جلس راسكولنيكوف دون أن يحوِّل عنه عينيه •

وقال يحدث نفسه مرتاباً : « فى نواحينا ••• اعتذارات عن رفع الكلفة وعدم التحرج ••• هذا التعبير الفرنسى « فقط » ••• صحيح أنه مدَّ الىَّ يديه ، لكنه لم يناولنى لا هذه ولا تلك منهما ، بل سحبهما فى الوقت المناسب ••• » •

كان كل من الرجلين يرقب صاحبه ويرصده ، ولكن ما ان تلتق نظراتهما حتى يحوّلاها بسرعة كومض البرق •

قال راسكولنيكوف :

ـ جئتك بالعريضة الصغيرة ••• فى موضوع الساعة ••• اليك هى • أهكذا يجب أن تُحرَّر أم علىَّ أن أعيد كتابتها ؟

ـ ماذا ؟ أى عريضة ؟ آ ••• نعم ، نعم ، اطمئن ، هذا هو المطلوب تماماً •

كذلك قال بورفير بتروفتش بسرعة كأن أمراً ما كان يستحثه ، ثم تناول الورقة وألقى عليها نظرة خاطفة • وواصل كلامه بذلك التعجل نفسه فقال مؤكداً :

ـ ذلك هو المطلوب تماماً • لا يجب أكثر من هذا •••

ووضع الورقة على مكتبه • ثم بعد دقيقة ، بينما كان يتكلم فى أمر آخر ، تناول الورقة من جديد ومضى يرتّبها فى درج المنضدة •

واستأنف راسكولنيكوف كلامه فقال :

ـ قلت لى بالأمس ، « فيما يخيَّل الىَّ » ••• انك تودُّ ••• أن تستجوبنى •• رسمياً •• عن علاقاتى ••• بالمرأة القتيل •••

وأسرع راسكولنيكوف يقول لنفسه : مؤنباً : « عجيب ••• لماذا أضفت جملة « يخيَّل الىَّ » هذه ؟ » •

ثم أسرع يقول لنفسه على الفور : « ولكن لماذا أقلق هذا القلق كله من قولى « يخيَّل الىَّ » ؟ •

وشعر فجأة بأن هذا الاتصال وحده ببورفير بتروفتش ، وهذه

الكلمات وهذه النظرات المتبادلة وحدها قد كانت كافية لأن تحدث في نفسه ارتياباً شديداً ... وأن هذا كله خطر ، خطر خطراً رهيباً ، فقال لنفسه مقرعاً : « غلط ، غلط ، سأفضح أمري من جديد » .

جمجم بورفير بتروفتش يقول :

ـ نعم ، نعم ، اطمئن ... ليس الأمر بمستعجل ... ليس الأمر بمستعجل البتة ...

وكان بورفير بتروفتش يقول هذا الكلام وهو يدور حول المكتب طولاً وعرضاً ، ولكن دون ما هدف فيما يبدو ، كأنه لا يعرف ما الذي كان يجذبه نحو النافذة ، ثم يجذبه نحو مكتبه ، ثم يجذبه نحو النافذة فالمكتب من جديد .

وكان وهو يسير يتحاشى نظرة راسكولنيكوف الريّابة ، ولكن كان في بعض الأحيان يتوقف فجأة ، فيحدّق الى محدّثه وجهاً لوجه . انه لمشهد غريب ، مشهدُ هذا الرجل القصير السمين ، المدوّر ككرة ، الذي كان كأنه يتدحرج من هنا وهناك ، ثم يعود يثب على الفور من جميع الجدران ، وجميع الأركان .

ـ أمامنا متسع من الوقت ، أمامنا متسع من الوقت ... هل تدخّن ؟ هل تملك ما ... اليك سيجارة (قال ذلك وهو يفتح علبة سجائره) .. انني استقبلك هنا ، ولكن شقتي هناك ، وراء هذا الحاجز . أنا أسكن على نفقة الدولة ، ولكني أسكن مؤقتاً في خارج الدائرة كما تعلم ... نعم ، ذلك أن هناك اصلاحات صغيرة وجب اجراؤها هنا ، وقد أوشكت الآن أن تنتهي . شيء عظيم أن يسكن المرء على نفقة الدولة ، هه ؟ شيء عظيم جداً . ما رأيك ؟ هه ؟

أجابه راسكولنيكوف وهو يلقى عليه نظرة تشبه أن تكون ساخرة:

ــ نعم ، شيء عظيم جداً !

فردّد بورفير بتروفتش هذه العبارة وكأنه أصبح يفكر فجأة في شيء آخر مختلف عن هذا كل الاختلاف :

ــ شيء عظيم جداً ، شيء عظيم جداً ...

وأضاف بما يشبه أن يكون صراخاً ، وهو يحدّق الى راسكولنيكوف متوقفاً أمامه :

ــ نعم ، شيء عظيم جداً .

ان هذه الطريقة الحمقاء السخيفة في ترداد هذه العبارة (أن السكنى على نفقة الدولة شيء عظيم جداً) تناقض بعض المناقضة ما كان قاضي التحقيق يرمي به راسكولنيكوف من نظرة جادة ، متأمّلة ، ملغزة. ولكن ذلك لم يزد على أن فاقم غضب راسكولنيكوف ، فلم يستطع أن يكبح جماح نفسه ، فاذا هو يتحدى تحدياً فيه غير قليل من الطيش ، فيسأل بورفير بتروفتش فجأة ، وهو يلقى عليه نظرة تكاد تكون وقحة ، حتى لكأنه يجد في وقاحته هذه لذة ومتعة :

ــ هل تعلم أن هناك ، فيما يقال ، قاعدةً قضائية ، أسلوباً قضائياً يمكن أن يستخدمه جميع قضاة التحقيق ، هو أن يتحدث أحدهم أولاً في أمور تافهة سخيفة أو حتى في أمور هامة لكنها غريبة عن الاستجواب كل الغرابة ، وذلك من أجل أن يطمئن الشخص الذي يستجوبه ، أو قل من أجل أن يسهّيه ، من أجل أن ينوّم انتباهه ، ثم اذا هو يهوى على رأسه فجأة بالسؤال الحاسم الخطير الرهيب ؟ أليس هذا

صحيحاً ؟ يظهر أن هذا الأسلوب قد طُبق حتى الآن تطبيقاً دقيقاً ، وروعي مراعاة تامة .

ـ اذن ، اذن ، أنت تظن أننى انما حدثتك عن المساكن التى تقدمها الدولة على نفقتها ، من أجل أن ... هه ؟

قال بورفير بتروفتش ذلك ، وغضّن جفنيه وطرف بعينه وبان فى وجهه تعبير عن مرح ومكر ، وامحت تجاعيد جبينه الدقيقة ، وتضيقت عيناه الصغيرتان ، وتمددت أخيراً قسماته، فحدّق الى عينى راسكولنيكوف وانفجر يضحك ضحكاً عصبياً طويلاً يهزُّ جسمه كله . وأراد راسكولنيكوف أن يحمل نفسه على مجاراته فى الضحك ، فهمّ أن يضحك هو أيضاً ، ولكن بورفير بتروفتش حين رأى راسكولنيكوف يوشك أن يشاركه ضحكه ، انتابته نوبة مسعورة من ضحك بلغ من القوة أن وجهه احمر احمراراً شديداً ، فتغلب اشمئزاز راسكولنيكوف عندئذ على تعقله ، فأمسك عن الضحك، وقطب حاجبيه، ونظر الى بورفير بتروفتش طويلاً ، نظرة كارهة حاقدة ، وظل لا يحوّل عنه بصره الى ان انتهى بورفير من ضحكه المصطنع المفتعل . والحق أن الرجلين كليهما لم يلتزما جانب الحكمة والتبصر والتعقل : فأما بورفير فكان كمن يسخر من زائره صراحةً ، وأما راسكولنيكوف فقد استقبل ذلك الضحك بكره شديد ، وهو كره لم يظهر على القاضى أنه ضاق به أو انزعج منه على كل حال . وذلك أمر لفت انتباه راسكولنيكوف : لقد أدرك راسكولنيكوف أن بورفير لم يكن مرتبكاً أى ارتباك منذ قليل ، وأنه هو الذى وقع

فى الفخ ، وأن هناك أمراً يجهله ولا شك ، أمراً مبيَّتاً مخبأً سينصب على رأسه بعد لحظة ...

لذلك انتقل الى الجد قُدُماً ، فنهض متناولاً قبعته ، وبدأ يتكلم فقال بلهجة جازمة غير أن فيها اهتياجاً قوياً :

ـ يا بورفير بتروفتش ، لقد أعربت أمس عن رغبتك فى أن ترانى من أجل أن تستجوبنى (أبرز راسكولنيكوف كلمة « تستجوبنى » هذه) ، وهأنا ذا قد جئت ، فان كنت فى حاجة الى أن تعرف شيئاً ما ، فاستجوبنى ، والا فاسمح لى أن أنصرف . ليس فى وقتى متسع . هناك أمور تنادينى ... يجب علىّ أن أحضر دفن ذلك الموظف الذى داسته الخيل أمس ...

وأضاف يقول :

ـ وقد سمعت أنت عن الحادثة التى وقعت له ...

ولكنه سرعان ما ندم على أنه أضاف هذه الجملة فازداد من ذلك غضبه ، وتابع كلامه فقال :

ـ لقد تعبت من هذا كله ، تعبت ، هل تفهم ؟ تعبت منذ زمن طويل ... ولعل ذلك أحد الأسباب التى جعلتنى مريضاً ...

وشعر مرةً أخرى بأن الجملة التى أضافها عن مرضه ليست فى محلها أيضاً ، فتابع يقول رافعاً صوته :

ـ الخلاصة ... استجوبنى من فضلك ... أو دعنى أنصرف فوراً . ولكن اذا استجوبتنى فيجب أن يتم الاستجواب وفقاً للأصول

المطلوبة والقواعد المتبعة ، وبغير ذلك لا أسمح لك به . لذلك أودّعك الآن فليس علينا أن نجتمع في خلوة .

صات بورفير بتروفتش يقول مغيّراً لهجته ووضعه على حين فجأة، منقطعاً عن الضحك دفعةً واحدة :

ـ عجيب ! ماذا جرى لك ؟

ثم أردف يقول :

ـ اطمئن ، أرجوك ...

وكان يذهب ويجيء مهموم البال. وفجأةً طلب الى راسكولنيكوف أن يجلس ، وقال له :

ـ لدينا متسع من الوقت ، لدينا متسع من الوقت ، وهذا كله لاقيمة له البتة . بالعكس : أنا مسرور جداً من أنك جئت الينا أخيراً ! انني استقبلك كما يُستقبل ضيف . أما عن ذلك الضحك اللعين ، فاعذرني يا عزيزي روديون رومانوفتش ... هذا هو اسمك ، أليس كذلك ؟ روديون رومانوفتش ... ان ملاحظتك المرهفة قد أثارت في نفسي مرحاً شديداً ... حقاً انه ليتفق لي أحياناً أن أتواثب ككرة من المطاط طوال نصف ساعة . انني سريع الى الضحك . حتى انني أخشى أن أصاب بنوبة قلبية . ولكن لماذا لا تجلس ؟ هلاّ جلست ! أرجوك أن تجلس يا عزيزي ، والا اعتقدت أنك زعلان !

كان راسكولنيكوف صامتاً يصغي ويلاحظ ، وما يزال مقطّب الحاجبين من الغضب . وقد جلس ، لكنه ظل ممسكاً قبعته بيده .

وتابع بورفير بتروفتش كلامه وهو ما يزال يتجول في الغرفة ، ويتحاشى نظرة ضيفه ، فقال :

ـ سأذكر لك شيئاً يا عزيزى روديون رومانوفتش ، لأعطيك فكرةً عن طبيعتى . أنا رجل ما أزال عازباً كما ترى ، فأنا اذن لا أعاشر الناس ولا أختلف الى المجتمع كثيراً ، وأنا اذن رجل غامض ، مجهول . وأنا عدا ذلك انسان مكتمل التكوين ، متعظّم الجسم ، متخدر الاحساس، و ... و ... هل لاحظت يا روديون رومانوفتش أنه عندنا ، أقصد عندنا فى روسيا ، ولا سيما فى أوساطنا البطرسبرجية ، ما ان يلتق شخصان ذكيان ـ مثلنا نحن ، أنا وأنت ، ان صح التعبير ـ حتى نرى هذين الشخصين عاجزين طوال نصف ساعة عن العثور على كلمة واحدة يقولها أحدهما للآخر ؟ ان كلاً منهما ينظر الى صاحبه ككلبين من خزف ، وان كلاً منهما يخشى صاحبه ويخاف منه . ان لجميع الناس موضوعاً يتحدثون فيه ، السيدات مثلاً ... أو أفراد المجتمع الراقى.. أفراد الطبقة العليا ... نعم ، ان لجميع الناس موضوعاً يتحدثون فيه ، « ذلك واجب لا مفرّ منه » * . ولكن أفراد الطبقة المتوسطة .. الأفراد الذين هم مثلنا ... يكونون دائماً مرتبكين صموتين ... أعنى منهم أولئك الذين يفكّرون . فما سبب هذا يا عزيزى ؟ هل الاهتمامات الاجتماعية هى التى تعوزنا ، أم نحن أناس شرفاء جداً فلا يريد أحدنا أن يخدع صاحبه ؟ لا أدرى ... فما رأيك أنت ؟ ولكن هلاّ تركت قبعتك ! لكأنك تريد أن تنصرف فوراً . هذا مؤسف . أما أنا فمسرور حقاً ...

ترك راسكولنيكوف قبعته ، ولكنه ظل صامتاً متجهم الوجه يصغى بجد ورصانة الى ثرثرات بورفير بتروفتش المفككة ، متسائلاً بينه وبين نفسه : « أيريد حقاً أن ينوّم انتباهى بهذا السيل المتدفق من اللغو التافه السخيف ؟ » .

وواصل بورفير بتروفتش كلامه يقول :

ـ لست أقدم لك قهوة ، فليس هذا بالمكان المناسب . ولكن لماذا لا تحب أن تجالس صديقاً طيباً مدة خمس دقائق ... لتسليه قليلاً .. هذا عدا واجبات الوظيفة كما تعلم ... وأرجوك خاصةً يا عزيزى أن لا تزعل اذا رأيتنى على هذه الحال أسير فى الغرفة طولاً وعرضاً ... معذرةً يا عزيزى ... اننى أخشى كثيراً أن أزعلك ... ولكن لا بد لى من شىء من الرياضة ... اننى جالس دائماً .. ويسرنى كثيراً أن يتاح لى الآن أن أمشى قليلاً خلال خمس دقائق ... هى البواسير يا عزيزى ... وأنا أريد دائماً أن أعالجها بالتمارين الرياضية .. يقال ان رجالاً من مستشارى الدولة ، رجالاً من كبار موظفى الدولة ، يقفزون على الحبل كل يوم على نظام مطرد ، ويجدون فى ذلك لذة . نعم ، ان العلم هو الذى يطالب بهذا فى أيامنا ... أما التزاماتى هنا ، أما هذه الاستجوابات وهذه الشكليات كلها التى جئتَ على ذكرها ، فعليك أن تعلم حقاً يا عزيزى روديون رومانوفتش أن هذه الاستجوابات كثيراً ما تحيِّر القاضى أكثر مما تحيِّر المتهم ... كما ألمعت أنت الى ذلك بكثير من رهافة الملاحظة ونفاذ البصيرة (لم يكن راسكولنيكوف قد ألمع الى شىء من هذا البتة) . نعم ، ان المرء ليرتبك ، ان المرء ليرتبك حقاً ، وتختلط عليه الأمور . وهذا يتكرر هو نفسه دائماً ، يتكرر هو نفسه دائماً ، على وتيرة واحدة ، كقرع الطبل .. نغمة واحدة .. على أننا موعودون الآن باصلاحات ، فستتغير اسماؤنا * على الأقل . هىء هىء هىء !... أما عن أساليبنا القضائية ـ على حدِّ تعبيرك الظريف الفكه ـ فأنا أوافقك على رأيك كل الموافقة . قل لى من فضلك : أىُّ متهم لا يعرف ، ولو كان أجهلَ فلاح ، أن المحقق انما يبدأ بمحاولة تنويمه (على حدِّ تعبيرك المناسب الموفَّق) ، بأن يلقى عليه أسئلة لا تمت الى الموضوع بصلة ، ثم يهوى على رأسه بالموضوع كأنه يهوى عليه بساطور ...

هيء هيء هيء ••• تعبيرك الموفق أيضاً ••• هيء هيء !••• اذن لقد ظننت فعلاً أنني حين حدثتك عن مسألة السكنى على نفقة الدولة انما كنت أريد ••• هيء هيء ! يا لك من فتى مليء بالسخرية ! لا ، لن أفعل شيئاً من هذا • آ ••• بالمناسبة ••• ان كلمة تستدعى كلمه أخرى ، وان فكرة تستحضر فكرة ثانية ••• لقد أشرت ، منذ قليل ، الى أصول الاستجواب وقواعده ، كما تتذكر ••• أشرت الى الشكل الذى يجب التقيد به فى الاستجواب • ولكن قل لى : ما هو الشكل ؟ ان الشكل ، فى كثير من الأحيان ، لا يكون له أى معنى • ورب حديث ودى أنفع كثيراً من استجواب يتقيد فيه المحقق بالشكل ، ويلتزم فيه القواعد والأصول • طبعاً ••• لا يمكن أن يختفى الشكل اختفاء تاماً ، فى وسعك أن تطمئن من هذه الناحية • ولكن ما الشكل فى حقيقة الأمر ؟ ليس ينبغى للشكل أن يعرقل عمل قاضى التحقيق فى كل لحظة • ان مهنة قاضى التحقيق فن حر ان صح التعبير ••• أو هى شيء يشبه أن يكون ••• هيء هيء هيء !•••

توقف بورفير بتروفتش ليسترد أنفاسه • كان يتكلم متدفقاً كالسيل ، فتارة يقذف عبارات جوفاء لا معنى لها دون كلل أو ملل ، وتارة يدس كلمة صغيرة أشبه بلغز ، ليعود بعد ذلك فوراً الى هذره التافه ولغوه السخيف • وكان كمن يركض فى الغرفة ركضاً ، هازاً ساقيه القصيرتين السمينتين مزيداً من الهز ، واضعاً يده اليمنى وراء ظهره ، محركاً يده اليسرى باشارات تتناقض مع أقواله تناقضاً غريباً. ولاحظ راسكولنيكوف فجأة أنه قد توقف أثناء جريه السريع مرتين أو ثلاثاً أمام الباب ، وبدا عليه أنه يصيخ بسمعه لحظة. تساءل راسكولنيكوف: « أهو ينتظر شيئاً ؟ » •

واستأنف بورفير بتروفتش كلامه فقال مرحاً وهو يلقى نظرة فيها طيبة أرعشت الشاب وأثارت شكوكه وريبه :

ـ الواقع أنك على حق تماماً حين تسخر من اجراءاتنا القضائية•• هيء هيء ••• ان أساليبنا ـ بعضها لا كلها طبعاً ـ توهم بأنها مستوحاة من سيكولوجيا عميقة ، مع أنها فى حقيقة الأمر مضحكة تماماً ، بل هى فى كثير من الأحيان عقيمة ، ولا سيما عند التقيد بالشكل تقيداً دقيقاً • ولكن ••• فلنعد الى مسألة الشكل هذه نفسها : لنفرض أننى مكلف بالتحقيق فى قضية ، وأننى أعرف أو قل أعتقد اننى أعرف أن الجانى هو فلان أو فلان ••• أنت تتهيأ لمهنة القضاء يا روديون رومانوفتش ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، كنت أدرس القانون •

ـ طيب ، هذا اذن مثال صغير يمكن أن يفيدك فى المستقبل ، ان صح التعبير • آ ••• لا يذهبن بك الظن الى أننى أريد أن ألقنك دروساً أنت الذى تكتب مقالات عن الاجرام • لا ، فانما أنا أضرب لك هذا المثال من حيث هو واقعة • لنفرض أننى ظننت أن فلاناً أو فلاناً من الناس هو الجانى • فعلام أُقلق فلاناً أو فلاناً قبل اللحظة المناسبة ، حتى ولو ملكت أدلةً عليه ؟ صحيح أننى قد أضطر أن أعتقل فلاناً بأقصى سرعة ، ولكن فلاناً الآخر الذى ليس له ذلك الطبع نفسه ، قد أتركه يتجول فى المدينة ، هه ؟ أحسب أنك لا تفهم عنى تماماً ، لذلك سأعرض لك الأمر بمزيد من الوضوح • لنفرض أننى قبضت عليه قبل الأوان ، أفلست أمنحه بذلك نوعاً من عون نفسى ؟ هيء هيء ! أيضحكك هذا الكلام ؟ (ان راسكولنيكوف لم يخطر بباله قطُ أن يضحك • كان جالساً ، كازاً شفتيه ، لا يحوّل عن عينى بورفير بتروفتش نظرته المتقدة الملتهبة) •

هذا هو الأمر رغم ذلك ، ولا سيما مع بعض الأفراد . نعم نعم ، الأفراد متنوعون تنوعاً كبيراً ، ولا بد من تنويع الأسلوب بتنوع هؤلاء الأفراد . قد تقول لي ان هناك اثباتات ... طيب : لنسلّم بأن هناك اثباتات ! ولكن الاثباتات يا عزيزى تكون فى أكثر الأحيان ذات حـدّين ، وانا قاضى تحقيق ، فعندى اذن نواحى ضعف ، أعترف لك بذلك . أنا أتمنى أن يكون دليلى قاطعاً صارماً كاستدلال رياضى ، كبرهان رياضى . انا فى حاجة الى برهان بديهى كقولك ان اثنين واثنين أربعة ، أو الى شيء يشبه أن يكون برهاناً رياضياً فى وضوحه وجلائه . فاذا اعتقلتُ الشخص قبل الأوان ، فاننى مهما يكن اقتناعى قوياً بأنه هو الجانى ، أحرم نفسى بذلك من الوسائل التى ستحمله على الكشف عن نفسه كشفاً أتم . لماذا؟ لأننى أكون قد ألزمته بوضع معيَّن ان صح التعبير ، أى أكون قد حددته فطمأنته من الناحية النفسية ، فيفلت منى ويدخل فى قوقعته ، لعلمه بأنه اعتقل وانتهى الأمر . يقال ان الناس الأذكياء فى سيباستوبول ، بعد معركة ألما * رأساً ، قد خافوا كثيراً فى أول الأمر من أن يهاجمهم العدو فوراً وأن يستولى على سيباستوبول فى الحال . فلما رأوا أن العدو قد آثر القيام بحصار على الأصول ، فبدأ يحفر الخندق الأول ، سُرُّوا سروراً عظيماً واطمأنوا اطمئناناً كبيراً . فبذلك يطول الأمر شهرين أو أكثر ، لأن الانتهاء من حصار على الأصول لا بد له من وقت . ما بالك تضحك أيضاً ؟ أما تزال لا تصدقنى ؟ أنت على حق ، من وجهة نظرك ، على حـ .. ق ! هذه حالات خاصة ، وأنا أوافقك كل الموافقة . ان الحالة التى أعرضها لك الآن حالة خاصة تماماً . ولكن يجب علينا يا عزيزى روديون رومانوفتش أن نعلم حق العلم أن الحالة العامة التى تلائمها جميع الأصول القضائية وجميع الأنظمة ، والتى على أساسها تُحسب هذه الأنظمة وتُسجَّل فى الكتب ، لا وجود لها ، وذلك لسبب بسيط هو

أن كل فعل (ولنفرض أنه جريمة) سرعان ما يتحول الى حالة خاصة ، بل الى حالة خاصة جداً لا تشبه في شيء أيّ فعل آخر • وفي بعض الأحيان تعرض حالات غريبة مضحكة في نوعها • ففي تلك الحالات أدع الشخص وحيداً ، لا أزعجه ، لا أعتقله ، ولكنه اذا علم أنني في كل ساعة ، بل في كل دقيقة ، أعرف كل شيء ، وأنني أراقبه ولا تغمض عيني عنه ؟ اذا أصبح فريسة ارتياب مستمر وخوف متصل ، فيميناً ليأخذنّه عندئذ دوار ، وليأتينّ من تلقاء نفسه • وقد يحدث أيضاً أن ينساق الى اقتراف شيء لا يقل وضوحاً عن كون اثنين واثنين أربعة ، شيء يمكن أن يوصف بأنه ذو طابع رياضي • وتلك هي المتعة واللذة في الأمر • يمكن أن يحدث هذا لفلاح بسيط ، ويمكن أن يحدث لرجل من أشباهنا ، لرجل ذكي عصري مثقف • ذلك أنه أمر هام جداً يا عزيزي أن نعرف الاتجاه الذي تطور فيه شخص من الأشخاص • ثم ان هناك الأعصاب ، الأعصاب ، أتراك نسيت الأعصاب ؟ الأعصاب هي الضعيفة الآن ، هي المريضة ، هي المستثارة • وما قولك في الاهتياج ؟ ان اهتياجاً كثيراً قد تجمع وتراكم في الناس ! وأؤكد لك أن هذا بعينه مصدر للمعلومات لا ينضب ! فهل يضيرني اذن أن أترك الرجل يتجول في المدينة حراً طليقاً ؟ ألا فليستمر على التجول • انني لا أعترض على هذا أي اعتراض • فأنا أعلم ، مهما يحدث ، أنه «فريستي الصغيرة»، وأنه لن يفلت مني ! الى أين عساه يهرب ؟ الى الخارج ؟ قد يهرب بولندي الى الخارج ، أما « هو » فانه لن يهرب ، لا سيما وأنه تحت بصري وسمعي ، وانني اتخذت الاحتياطات اللازمة • أتراه يفر الى آخر البلاد ؟ ولكن في آخر البلاد لا يعيش الا فلاحون ، لا يعيش الا روس حقيقيون ، أما هو الذي تثقف ثقافة حديثة ، فانه يؤثر السجن على أن يجاور أجانب كفلاحينا ••• هيء هيء ••• على أن هذا كله آمازيح

على الهامش . ما الهرب ؟ أمر شكلى صرف . ليس هذا هو الشيء الأساسى . فالرجل لن يهرب ، لا لأنه لن يعرف الى أين يذهب فحسب ، بل هو لن يُهرب لأسباب «سيكولوجية» أيضاً .. هيء هيء .. تعبير موفق جداً ، هه ؟ لا ، لا ، انه لن يهرب ، وذلك بفعل قانون طبيعى ، حتى ولو عرف الى أين يذهب ! أما رأيت فراشة تحوم حول شمعة ؟ ألا انه سيدور حولى دوران الفراشة حول الشمعة . ستأخذ تثقل عليه الحرية، وسيأخذ يفكر ، وسيرتبك ؛ سيقع فى شباك ينسجها هو نفسه ، سيخلق لنفسه خوفاً رهيباً . بل انه سيهيىء لى مهزلة رياضية يبدعها هو ، مهزلة من نوع « ٢ + ٢ = ٤ » ،شريطة أن أدع له فرصةً بطبيعة الحال . وسيظل ، بغير انقطاع ، يحوم حولى على دوائر ما تنفك تضيق ، ثم اذا هو يسقط فى فمى دفعةً واحدة ، فأبلعه ، وما ألذّ هذا ! هيء هيء ، ما رأيك ؟

لم يجب راسكولنيكوف . ظل جالساً ، شاحب الوجه ، جامداً ، ما ينفك يحدّق الى وجه بورفير بتروفتش بانتباه ثابت .

حدث نفسه يقول متجمداً من الرعب : « هذا درس رائع ... ليست الحكاية اليوم حكاية الهرة تعبث بالفأرة كما كانت بالأمس . لا ، ليست قوته هى ما يريد اليوم أن يظهره لى فى غير طائل ، أو أن يوحى الىّ به ... هو أذكى من أن يفعل ذلك . ان له الآن هدفاً آخر ، فماهو هذا الهدف ؟ دعك يا صاحبى ، غباءٌ ما تفعل ، سخافات ... أنت تحاول أن تخيفنى ... أنت تمكر وتحتال ... ليس لديك أى دليل . ورجل الأمس لا وجود له . أنت تحاول أن تربكنى وأن تشوشنى وأن تثير أعصابى سلفاً حتى تهوى علىّ بالضربة المفاجئة متى انهدت قواى ... ولكن خاب فألك ، ولسوف تطيش ضربتك فما تصيب هدفاً ، نعم ، سوف تطيش ضربتك ... ولكن ما باله يوحى الىّ بما يجب أن أعمله !

الى هذا الحد ، ليس الأمر طبيعياً !... أهو يعوّل على أعصابى المريضة ؟ لا ، لا يا صاحبى ، لقد أخطأ ظنك ، وعمى بصرك ... ومهما تكن قد أعددت من شيء ... طيب ، سنرى ماذا ما أعددت !... »

واستجمع راسكولنيكوف قواه كلها ، يستعد لمواجهة نازلة رهيبة مجهولة . ودّ فى بعض اللحظات لو ينقض على بورفير بتروفتش فيخنقه فى الحال . انه منذ دخوله قد خشى أن يشعر بمثل هذا الغضب . وهو يشعر الآن بأن فمه جاف ، وبأن قلبه يخفق خفقاناً شديداً ، وبأن الزبد يتقاطر على شفتيه. ومع ذلك قرر أن يصمت ، وأن لا يقول كلمة واحدة قبل أن يحين الحين . أدرك أن هذه هى الخطة المثلى فى ظرف كظرفه ، فهو بذلك يتجنب فضح نفسه بكلامه ، وهو بذلك أيضاً يثير أعصاب محدّثه بصمته ، فلعل محدّثه هو الذى سيفضح نفسه ويكشف عن نياته اذ يتكلم . ذلك ما كان يأمله راسكولنيكوف على الأقل .

استأنف بورفير كلامه بمزيد من المرح ، حتى لقد كان ينقنق تلذذاً ، فقال وهو ما يزال يدور فى الغرفة :

ـ لا ، أنت لا تصدقنى . أرى أنك لا تصدقنى . تظن أننى أمعارك بأمازيح صغيرة تافهة . وانك لعلى حق طبعاً . فان الله نفسه قد وهب لى مظهراً جسميا لا يمكن أن يثير لدى الآخرين الا خواطر مضحكة . أنا مهرّج ! ولكن اليك ما أريد أن أقوله لك ، بل أن أكرره على مسامعك ، يا عزيزى روديون رومانوفتش : يجب عليك أن تعذر الشيخ الذى يكلمك . أنت شاب ، أنت فى زهرة العمر ان صحّ التعبير ، وأنت لذلك تقدر الذكاء الانسانى قدراً كبيراً كسائر الشباب . ان حدة الفكر وحجج العقل المجردة تفتنك . أنت على وجه العموم تشبه « المجلس الحربى الأعلى » * الذى كان بالنمسا فى الماضى ، هذا اذا صدق حكمى فى الشئون العسكرية : ان أعضاء هذا المجلس هم الذين سحقوا نابوليون وأسروه ،

فى خططهم التى وضعوها على الورق • نعم ، انهم فى مكاتبهم ، قد هيأوا كل شيء ، ورتبوا كل شيء ، بدقة كاملة ، ونظام رائع • ذلك ما فعلوه على الورق • أما فى الواقع فان قائدهم الجنرال ماك هو الذى استسلم مع جيشه كله ••• هيء هيء هيء ••• أننى أرى ، يا عزيزى روديون رومانوفتش أنك تسخر منى ، لأننى أنا المدنى أضرب أمثلةً مستمدة من التاريخ الحربى • ولكن ما حيلتى ؟ هذه نقطة الضعف فىّ ، اننى آحب فن الحرب ، وأبلغ من حبه أننى أقرأ جميع ما يتصل بالحرب من قريب أو بعيد • لا شك أننى خطأت اختيار مهنتى فى هذه الحياة • كان علىّ أن أعمل فى الجيش • هذا حق • لو عملت فى الجيش ، فلعلنى لا أصبح قائداً عظيماً مثل نابوليون ، ولكننى أصبح « ميجر » ناجحاً ••• هيء هيء هيء ••• الخلاصة ••• ما دمت الآن بسبيل أن أقول لك الحقيقة عن هذه « الحالة الخاصة » ، فان الواقع والطبيعة ، يا سيدى العزيز ، هما من الأمور الهامة جداً • نعم ، صدّق شيخاً مثلى • اننى أتكلم جاداً لا هازلاً يا روديون رومانوفتش (حين قال بورفير بتروفتش هذا الكلام ، فانه وهو الذى لا يكاد يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، قد غدا أشبه بشيخ فعلاً ؟ حتى ان صوته تغير ، وظهره تحدب) • ثم اننى رجل صريح • ألست رجلاً صريحاً ؟ ما رأيك ؟ أظن أن هذا واضح • الخلاصة : أنا أقول لك هذا كله مجاناً ، لا أطلب جزاء ولا شكوراً • فلأكمل كلامى : أن يكون المرء ذكياً فتلك ميزة لامعة فى رأيى • ان الفكر زينة الطبيعة ان صح التعبير ، وهو عزاء الحياة • وما أكثر ما يستطيع الرجل الذكى أن يعمد اليه من حيل • فكيف تريد لقاضى تحقيق مسكين أن لا يتوه وأن لا يضل فى شعاب هذه الحيل ، ولا سيما اذا كان خياله نفسه يضلله لأنه انسان كسائر البشر ؟ ولكن الطبيعة نفسها تهب الى نجدة قاضى التحقيق المسكين،

فتخرجه من الارتباك وتنقذه من المأزق • وذلك هو البلاء ، وذلك هو ما ينساه شبابنا « الذكى » الذى « يتخطى جميع الحواجز » (على حد التعبير الذى استعملته أنت بالأمس فى كثير من الرهافة والمكر) • قد يعمد صاحبنا الى الكذب ـ أنا أتكلم طبعاً عن شخص من الأشخاص دون تعيين ، عن « حالة خاصة » ، عن رجل مجهول ـ وقد يكذب كذباً فيه غاية البراعة والمكر • وقد يظن عندئذ أنه سينتصر ، أنه سيقطف ثمرات مكره ، ولكن هاهو ذا يغمى عليه فجأة فى اللحظة الحرجة الخطرة ! لنسلّم بأن علينا أن نحسب حساب مرضه • فكثيراً ما يشعر المرء باختناق حين يوجد فى غرفة فاسدة الهـواء • ولكن صاحبنا يكون مع ذلك قد قدّم الينا قرينة من القـرائن • صحيح أنه ذرّ الرماد فى العيـون بكثير من الحذق والبراعة ، ولكنه لم يحسب حساب الطبيعة الى درجة كافية وذلك هو الفخ ! وفى مرة أخـرى ينسـاق مع ذكائه المتوقد ، فيأخـذ يعبث بالشخص الذى يشتبه فيه ؟ فيُشحب لونه عمـداً كأنما ليتسـلى ، ولكن شحوبه لا يخلو عنـدئذ من عنصر طبيعى فكأنه شحوب حقيقى ، وهذه قرينة أخرى يقدمها • وهبه استطاع أن يخدع محدثه فى تلك اللحظة ، فان محدثه لا بد أن يرجع عن خطئـه فى الليـل • نعم ، هكذا تجرى الأمور فى كل خطوة • ثم انه يبادر هو نفسه الى السبق ، فيأخذ يتدخل فى أمور لا يسـأله أحد عنها ، ويثرثر دون انقطاع فيما كان يحسن به أن يسكت عنه وأن لا يتكلم عليه ، ويسترسل فى تلميحات والماعات • نعم ••• يجىء من تلقاء نفسه ويأخذ يطرح أسئلة : « لماذا لم يُعتقل حتى الآن ؟ » الخ • هىء هىء ••• وهذا يمكن أن يقع حتى لأذكى رجل ، يمكن أن يقع لعالم نفسى ، يمكن أن يقع لأديب • ان الطبيعة مرآة ، ان الطبيعة أصفى مرآة ، فيكفى المرء أن ينظر فيها • نعم ، هذا هو الأمر •

ولكن ما بالك تصفر اصفراراً شديداً يا روديون رومانوفتش ؟ هل ينقصك هواء ؟ أأفتح النافذة ؟

هتف راسكولنيكوف يقول :

ـ لا ، لا تزعج نفسك !

ثم انفجر يضحك وهو يكرر قوله :

ـ أرجوك ، لا تزعج نفسك !

وقف بورفير أمامه ، وانتظر قليلاً ، ثم انطلق يضحك هو نفسه ضحكاً مجلجلاً . فنهض راسكولنيكوف قاطعاً ضحكه الهستري فجأة ، وقال بصوت قوي متميز ، رغم أنه كان لا يكاد يستطيع الوقوف على ساقيه المصطكتين :

ـ يا بورفير بتروفتش ، انني أرى أخيراً بوضوح أنك تشتبه فيّ وتنسب اليّ مقتل العجوز واختها اليزابث . واني لأعترف لك من جهتي بأنني قد سئمت هذا الأمر وضقت به منذ مدة طويلة . فان كنت تعتقد أن من واجبك أن تلاحقني ملاحقة قانونية فلاحقني ، وان كنت تعتقد أن من واجبك أن تعتقلني فاعتقلني ، ولكنني لا أسمح لأحد أبداً بأن يضحك عليّ وأن يعذبني هذا التعذيب .

وأخذت شفتاه ترتجفان ، وسطعت عيناه غضباً ، ودوّى صوته دوياً قوياً بعد أن كان حتى ذلك الحين مكظوماً . قال يصرخ بكل قواه ، وهو يضرب المكتب بقبضة يده :

ـ لا ، لن أسمح بهذا أبداً ، هل تسمع يا بورفير بتروفتش ؟ لن أسمح بهذا أبداً !

فصاح بورفير بتروفتش يقول مرتاع الهيئة :

ـ آه .. يا رب !.. ماذا هنالك ؟ عزيزي روديون رومانوفتش صديقي ، ماذا أصابك ؟

فصرخ راسكولنيكوف يردّد مرة اخرى قوله :

ـ لن أسمح بهذا أبداً !

فدمدم بورفير بتروفتش يقـول بارتياع ويكاد يلصق وجهه بوجه راسكولنيكوف :

ـ طيب ، طيب ، اخفض صوتك ! والا قد يسـمعون فيجيئون ، فما عسى نقول لهم اذا جاءوا ؟ هلاّ فكرت فى هذا !

فكان راسكولنيكوف يردّد بطريقة آلية وقد أخذ يهمس هو أيضاً :

ـ لن أسمح بهذا أبداً ، لن اسمح بهذا أبداً !

فاستدار بورفير وهرع الى النافذة يفتحها بسرعة شديدة ، قائلاً :

ـ ليدخل شيء من هواء • وأنت تحسن صنعاً يا عزيزى اذا شربت قليلاً من الماء ، فهذه نوبة •••

وأسرع نحو الباب يريد أن يطلب الماء ، غير أن ابريقاً ملآن كان يوجد هناك فى ركن من أركان الغرفة ، فدمدم يقول وهو يركض نحو الابريق :

ـ اشرب يا صديقى العزيز ، فعسى أن يحسن اليك شرب قليـل من الماء •

دُهش راسكولنيكوف أشد الدهشة من هذا الذعر بل ومن هذا العطف اللذين أظهرهما له بورفير بتروفتش ، فوقف فاغر الفم يلاحظ صاحبه باستطلاع شديد • ولكنه رفض الماء •

قال بورفير بتروفتش :

ـ روديون رومانوفتش ، عزيزى ! لسوف تفقد صوابك ان أنت أصررت هذا الاصرار ، أؤكد لك ••• خـذ ••• اشرب ••• اشرب ولو جرعةً واحدة •



قاضي التحقيق ، بورفير بتروفتش

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

واستطاع أن يحمله على تناول الكأس . وأوشك راسكولنيكوف أن يحمل الكأس الى شفتيه بطريقة آلية ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه فجأة ، فعاد يضع الكأس على المائدة باشمئزاز .

قال بورفير بتروفتش وهو يظهر كثيراً من الملاطفة والمراعاة ، ولكنه ما يزال محتفظاً بالقلق والاضطراب :

ــ نعم ، هذه نوبة حقاً ! ... هأنت ذا قد عدت الى مرضك القديم. رباه ! هل يمكن أن لا يداري المرء نفسه الى هذا الحد ؟ لقد جاءنى دمترى بروكوفتش أيضاً ، أمس ... أنا أوافق ... أوافق على أن لى طبعاً سيئاً ... أتكلم ... وأتكلم ... وهذه هى النتائج التى تستخرجانها من كلامى !.. رباه ! نعم ، جاءنى أمس ، مساءً ، بعدك ، وتعشينا ، وتكلم ، وتكلم ، فلم أفعل الا أن أرفع ذراعى الى السماء ! بالمناسبة ، يخطر ببالى الآن هذا السؤال : أتراك أنت أرسلته ؟ ولكن اجلس يا عزيزى ! هلاّ جلست ! اجلس ، ناشدتك الله !...

أجاب راسكولنيكوف بلهجة قاطعة :

ــ لا ، لم أرسله أنا ... ولكنى علمت أنه جاء اليك، وكنت أعرف سبب مجيئه أيضاً ...

ــ كنت تعرف سبب مجيئه ؟

ــ نعم ، كنت أعرف سبب مجيئه ، فماذا تستنتج من ذلك ؟

ــ يا عزيزى روديون رومانوفتش ، هل تظن أننى أجهل أى عمل من أعمالك ؟ اننى أعرف كل شىء ، اننى مطلع على كل شىء ! أنا أعرف مثلاً أنك ذهبت « تستأجر تلك الشقة » عند هبوط الليل ، وأنك شددت حبل الجرس ، وأنك ألقيت أسئلةً عن الدم ، وأنك حيّرت العمال

والبوابين . انني أفهم حق الفهم الحالة النفسية التي كنت عليها . ولكنني أؤكد لك أنك بهذه الطريقة ستفقد عقلك حتماً ، أحلف لك !.. سوف يستولي عليك الدوار . ان الغضب الذي أثارته فيك الاساءات ، اساءات القدر أولاً واساءات رجال الشرطة بعد ذلك ، ان هذا الغضب ، مهما يكن غضباً نبيلاً ، يغلي غلياناً شديداً في نفسك ، وأنت لذلك تمضي الى هنا وهناك ، لتجبر الناس ، ان صح التعبير ، على أن يصغوا اليك ، ولتحملهم على الانتهاء من هذه المسألة دفعةً واحدة الى الأبد . نعم ، لأنك قد ضقت بجميع هذه السخافات ، وسئمت جميع هذه الشبهات . أليس هذا صحيحاً ؟ ألم أدرك حالتك النفسية ؟... ولكنني أقول لك انك بهذه الطريقة لن تفقد عقلك أنت وحدك ، وانما ستجعل صديقنا رازوميخين يفقد عقله أيضاً . انه « أطيب » كثيراً من أن يُقحمَ في مثل هذه الأمور ، وأنت تعلم ذلك حق العلم . انك أنت مريض ، أما هو فانسان طيب ، وسيلتصق مرضك به ... سأقصُّ عليك هذا حين تهدأ يا عزيزي ... ولكن ما بالك لا تجلس ؟ اجلس يا عزيزي ناشدتك الله ! ارجوك ، استرح ، ان وجهك منقلب ... هلاّ جلست !...

جلس راسكولنيكوف . لقد انقطع ارتجافه ، ولكن جسمه كله كان يحترق من الحمى . وكان يصغي الى بورفير بتروفتش الذي يتحرك حوله بكثير من المودة والصداقة ، كان يصغي اليه بدهشة ذاهلة وانتباه شديد . ولكنه كان لا يصدّق كلمة واحدة مما كان يقوله قاضي التحقيق ، رغم أنه كان يميل ميلاً غريباً الى التصديق . ان الأقوال المفاجئة ، غير المتوقعة ، التي قالها بورفير عن الشقة قد صعقته صعقاً : « كيف ؟ أهو يعرف حتى حكاية الشقة هذه ؟ ويتحدث عنها هو نفسه ؟ » .

تابع بورفير كلامه فقال بسرعة :

ـ نعم ، فى حولياتنا القضائية حالة تشبه هذه الحالة تقريباً ، حالة سيكولوجية مرضية ، كالحالة الراهنة • اتهم رجل نفسه بارتكاب جريمة قتل • يا لها من قصة ! لقد اخترع عالماً بكامله من الأوهام ، وقدّم وقائع ، ووصف ظروفاً شابك بعضها ببعض ! لماذا ؟ لأنه ، على غير ارادة منه اطلاقاً ، كان مسئولاً بعض المسئولية عن جريمة القتل تلك ـ بعض المسئولية فقط ـ فلما عرف أنه قد أمدّ الفاعلين بسببٍ دفعهم الى ارتكاب جريمة القتل ، استولى عليه قلق شديد وخوف رهيب ، وأخذ يرتكب حماقات ، وأخذت تتراءى له أخيلة وأوهام ، واختلطت فى عقله الأمور ، واستطاع أن يقنع نفسه بأنه هو القاتل • ولكن محكمة النقض اكتشفت الأمر أخيراً ، فبُرِّىء المسكين ، وجعل تحت الوصاية • شكراً لمحكمة النقض ! آ ••• آ ••• طبعاً يا عزيزى ••• من الممكن جداً أن يصاب المرء بحمى حارة حين تكون أعصابه جانحة الى الاهتياج هذا الجنوح ، وحين يذهب فى الليل يشد أجراساً بل ويسأل عن آثار دماء ••• ان هذه السيكولوجيا قد تعلمتها من الممارسة العملية • حتى لقد يحدث لانسان فى مثل هذه الحالات أن يرغب فى القاء نفسه من النافذة أو من برج ناقوس • هذا احساس له اغراء شديد • هو المرض يا روديون رومانوفتش ، هو المرض ! أنت قد أسرفت فى اهمال معالجة مرضك ! كان عليك أن تستشير طبيباً خبيراً ، لا صاحبك السمين البسيط ذاك ! هو الهذيان يا صاحبى ! كل شىء مردّه عندك الى الهذيان !

أخذت الغرفة كلها تدور أمام عينى راسكولنيكوف ، لحظة •

« هل يمكن أن يظل يكذب حتى الآن ؟ مستحيل ، مستحيل ، ومع ذلك ••• » • ان هذه الفكرة الأخيرة قد روّعت راسكولنيكوف ، وكان يحس مدى ما تدفعه اليه من حنق مسعور ، وكان يحس أيضاً أن هذا الغضب يمكن أن يفقده عقله •

صاح يقول وهو يركّز جميع قوى عقله من أجل أن ينفذ الى لعبة بورفير :

ـ أنا لم أكن أهذى ! كنت أملك نفسى تماماً ، أملك نفسى تماماً ، أملك نفسى تماماً ، هل تسمع ؟

ـ نعم ، أسمع وأفهم . أمس أيضاً قلت انك لم تكن تهذى ، حتى لقد ألححت على هـذه النقطة . كل ما يمكن أن تقـوله ، أنا أفهمه . هئ هئ !... ولكن اصغ الىّ قليلاً يا عزيزى الشـهم ، يا عزيزى الطبيب روديون رومانوفتش . هبنا سلـّمنا بهذا ... لو كنت أنت الجانى حقاً ، لو كنت أنت الجانى فعلاً ، أو لو كان لك أى شأن فى هذه القضية المشئومة ، أكنت تلح هذا الالحاح على أنك لم تكن تهذى ، وعلى أنك فعلت ما فعلت واعيـاً كل الوعى ؟ أهـذا ممكن ؟ فى رأيى أنك كنت ستعمد عندئذ الى نقيض ذلك تماماً ! لو كنت تشعر بأنك الجانى ، أفما يكون الأفضل عندئذ أن تلحّ ، خلافاً لذلك ، على أنك انما فعلت مافعلت وأنت فى حالة هذيان ؟ أليس كذلك ؟

كان فى هذا السؤال مكر . ارتد راسكولنيكوف الى الوراء مستنداً الى ظهـر الأريكـة ؛ ومال بورفير بتروفتش نحـوه صـامتاً ، فأخـذ راسكولنيكوف يحدّق اليه مدهوشاً متحيراً .

واستأنف بورفير بتروفتش كلامه فقال :

ـ كلمة أخرى عن السيد رازوميخين ، أقصد عن مسألة كونه أتى الىّ من تلقاء نفسه أو بتحريض منك . لقد كان من الأفضل لك أن تقول انه جاء من تلقاء نفسه وأن تنكر أن يكون قد جاء بتحريض منك ، ومع ذلك أراك تلح على أن تذكر أنه جاء الىّ بتحريض منك .

لم يكن راسكولنيكوف قد ألحّ على هذا فى وقت من الأوقات .

وشعر بقشعريرة تسرى في ظهره • ثم قال بصوت ضعيف بطيء وقد تقبضت شفتاه على ابتسامة أليمة :

ـ ما تزال تكذب •

ثم أضاف يقول شاعراً هو نفسه بأنه أصبح لا يزن كلمــاته كما يجب أن يزنها :

ـ أنت تريد أن تبيّن لى من جديد أنك ترى مكرى رؤية واضحة، وأنك تعرف كل أجوبتى سـلفاً • أنت تحـاول أن تخيفنى ، أو أنت تسخر منى لا أكثر •

وفيما كان يقول له هذا الكلام ، ظل يحدّق اليه ، ثم اذا بعداوة لا حدود لها تسطع فى عينيه ، فهتف يقول :

ـ أنت لا تفعل شيئاً غير أن تكذب • انك تعلم حق العلم أن خير خطة يتبعها مجرم هو أن يذكر بعض الحقائق فى حدود الامكان ، وأن لا يخفى ما لا حاجة الى اخفائه • أنا لا أصدّقك !

قال بورفير ضاحكاً ساخراً :

ـ ما أحذقك ! ان المرء لا يعرف حقــاً من أى طرف يمسكك • هذه اذن فكرة ثابتة عندك ! أنت اذن لا تصدقنى ؟ ولكننى أؤكد لك أنك تصدقنى ، وأنك صدّقتنى حتى الآن بعض التصديق ، وسأفعل مايجعلك تصدقنى تصديقاً كاملاً ، لأننى أحس نحوك بعاطفة صادقة حقاً ، ولأننى أتمنى لك الخير مخلصاً •

أخذت شفتا راسكولنيكوف ترتجفان •

وتابع بورفير بتروفتش كلامه يقول وهو يمسك ذراع راسكولنيكوف امساكاً رفيقاً ، بمودة وصداقة ، فوق الكوع قليلاً :

ـ نعم ، أتمنى لك الخير ، ثق بهذا ... وأقول لك مرةً أخيرة ان عليك أن تعتني بصحتك . من أجلك انما جاءت أسرتك ، فكّر فى هذا ولا تنسه ! يجب عليك أن تهدىء روع أهلك ، وأن تظهر لهم عاطفة ومحبة ، ولكنك لا تزيد الآن على أن تروّعهم ...

ـ ما شأنك أنت وهذا ؟ ثم من أين علمته ؟ وفيم يهمك ويعنيك ؟ أنت اذن تراقبنى ، وأنت تحرص على أن أعرف هذا !

ـ اسمع يا عزيزى ، أنا انما حصلت على هذه المعلومات كلها منك أنت ، منك أنت ! ألست تلاحظ اذن أنك من شدة ثورة أعصابك أول من يقصُّ كل شيء ، عليَّ وعلى الآخرين ؟ ولقد عرفت أيضاً ، فى مساء أمس ، تفاصيل شائقة جداً ، من السيد رازوميخين ، دمترى بروكوفتش رازوميخين . لقد قاطعتنى الآن ، ولكننى أقول لك انك رغم رهافة فكرك قد أفقدك شكك وحذرك القدرة على ادراك الأشياء ادراكاً سليماً. انظر مثلاً فى مسألة الجرس تلك التى أتينا على ذكرها منذ قليل ، والتى هى واقعة هامة جداً ، ثمينـة جـداً (هى كذلك بلا جدال) : طيب ، لقد أطلعتك بنفسى على هذه الواقعة ، أفلا تستخرج أنت من هذا شيئاً ؟ هل كنت أفعل ذلك لو كنت أرتاب فيك أى ارتيـاب ؟ بالعكس ، فلو كنت أرتاب فيك حقاً ، لكان عليَّ أن أنوّم مخاوفك ، وأن لا أدعك ترى أننى على علم بهذه الواقعة ، وأن أوجّهك فى اتجاه آخر تماماً ثم أهوى عليك بها فجأة كأنها ضربة مطرقة (على حد تعبيرك) . لو كنت أرتاب فيك أقل ارتياب لأخذت ألقى عليـك أسئلة كهذه الأسئلة : « قل لى أيها السيد : ما الذى ذهب بك الى شقة المجنى عليها ، فى الساعة العاشرة من المساء ، بل فى الساعة الحادية عشرة تقريباً ؟ لماذا شددت حبل الجرس ؟ ولماذا ألقيت أسئلةً عن الدم ؟ لماذا حاولت بعد ذلك أن تحيّر البوابين ، وأردت أن تقاد الى قسم الشرطة ؟ » كان ينبغى لى ، وفقاً للأصول المتبعة،

أن انتزع منك افادة ، ثم أن أفتش منزلك ، وربما أن أعتقلك . ولكننى فعلت خلاف ذلك تماماً . واذن فانا لا أشتبه فيك أى اشتباه . حقاً لقد فقدت القدرة على ادراك الأشياء ادراكاً سليماً ، فأنت لا ترى شيئاً ... أكرر لك هذا !...

ارتجف راسكولنيكوف من قمة الرأس الى أخمص القدمين ، وبلغ من قوة الارتجاف أن بورفير بتروفتش قد اضطر أن يلاحظ ذلك .

وصاح راسكولنيكوف يقول بمزيد من القوة :

ـ أنت لا تفعل شيئاً غير أن تكذب . لست أفهم نياتك ، ولكنك تكذب ، تكذب . منذ قليل لم تكن تكلمنى بهذا المعنى . لا يمكن أن يخطئنى ظنى . أنت تكذب !

استأنف بورفير بتروفتش كلامه فقال متحمساً ، على احتفاظه بهيئة المرح والسخرية ، دون أن يبدو عليه أى اكتراث بما قد يكون رأى راسكولنيكوف فيه :

ـ أنا أكذب ؟ أنا أكذب ؟ عجيب كلامك ! كيف تصرفت أنا معك منذ قليل ، أنا قاضى التحقيق ؟ لقد أوحيت اليك أنا نفسى بالوسائل التى تستطيع أن تدافع بها عن نفسك ؟ لقد عرضت عليك أنا نفسى تلك السيكولوجيا كلها : « المرض ، الهذيان ، عنت الاهانات ، الكآبة ، رجال الشرطة ... » ، الخ الخ . هىء هىء هىء ! ومع ذلك أسارع فأقول لك ان جميع حجج الدفاع السيكولوجية هذه ، وجميع أساليب التملص هذه ، وجميع هذه الأعذار والتعلات ليست قوية متينة ، حتى انها ذات حدين . فاذا أنت تعللت « بالمرض والهذيان » واذا أنت قلت « انك قد راودتك هلوسات ، وانك أصبحت لا تتذكر شيئاً » ، فان كلامك هذا كله يكون جميلاً ، ولكن المرء يستطيع أن يسألك عندئذ : لماذا تراودك هذه

الأحلام وهذه الهلوسات وحدها دون غيرها ؟ ذلك أن من الممكن أن تكون أحلامك وهلوساتك غير هذه تماماً ، أليس كذلك ؟ ما رأيك ؟ هيء هيء هيء !...

رشقه راسكولنيكوف بنظرة فيها كبرياء واحتقار . ثم قال بصوت قوى وهو ينهض فيصدم بورفير قليلاً :

ـ باختصار يا بورفير بتروفتش : أريد أن أعرف أأنت تعدنى مبرأً من كل شبهة أم لا ؟ تكلم يا بورفير بتروفتش ، تكلم كلاماً واضحاً ، بسرعة ، حالاً !

هتف بورفير بتروفتش يقول بمرح وسخرية ودون أى ارتباك :

ـ حقاً انك لمتعب !... ما حاجتك الى أن تعرف هذا ، الى أن تعرف هذا كله ، مع أن أحداً لم يبدأ حتى فى أن يقلق راحتك أى اقلاق ؟ يا لك من طفل ! لسان حالك يقول : « أريد أن ألعب بالنار ! ». فلماذا ، لماذا تعذب نفسك هذا التعذيب كله ؟ هلاّ شرحت لى الأسباب التى تدفعك الى أن تلقى علينا هذه الأسئلة كلها ؟ هه ؟

صاح راسكولنيكوف حانقاً :

ـ أكرر لك أننى أصبحت لا أطيق أن أحتمل ...

ـ أن تحتمل ماذا ؟ عدم اليقين ؟

كذلك قاطعه بورفير . فصرخ راسكولنيكوف قائلاً وهو يضرب المائدة بقبضة يده من جديد :

ـ كفى سخرية ! لا أستطيع ! هل تفهم ؟

ـ اخفض صوتك ، اخفض صوتك ، والا سمعوك ! اننى أنبهك الى هذا جاداً . حذار ! لست أمزح !

كذلك قال بورفير متمتماً ، ولكن تعبير وجهه قد اختلف الآن عما كان عليه منذ قليل ، حين كان أشبه بتعبير وجه امرأة مروّعة . بالعكس : هو الآن « يلقى أوامر » . انه قاسى الهيئة ، مقطب الحاجبين ، فكأنه عدل دفعةً واحدة عن جميع الأسرار وجميع الالماعات الملتبسة . ولكن ذلك لم يدم الا لحظة .

اضطرب راسكولنيكوف ، وأوشك أن يندفع فى نوبة غضب جديدة ، ولكن الشيء الغريب أنه خضع فى هذه المرة أيضاً للأمر الذى صدر اليه ، فخفض صوته .

وهمس يقول من جديد :

ـ لن أرضى بأن أُعذب هذا التعذيب ...

لقد أدرك ، وهو يشعر بألم يمازجه كره ، أنه لا يستطيع الا أن يخضع لهذا الأمر القاطع . ولكنه ازداد من ذلك غضباً وحنقاً . وأضاف يقول :

ـ اعتقلنى ! فتش بيتى ! ولكن اتبع الأصول والقواعد بدلاً من أن تعبث بى هذا العبث !... ليس من حقك أن ...

فقاطعه بورفير قائلاً وهو يبتسم تلك الابتسامة الساخرة نفسها ، مع تظاهره بالسرور من رؤية راسكولنيكوف :

ـ ما هذا الكلام يا عزيزى ؟ انا انما دعوتك بغير كلفة ، دعوتك كما يدعو صديق صديقه .

ـ لا أريد صداقتك ، لا أريدها ، أنا أبصق عليها ، هل تسمع ؟ انظر : هأنا ذا أتناول قبعتى وأنصرف . فما عساك تقول الآن اذا كان فى نيتك أن تعتقلنى ؟

وتناول راسكولنيكوف قبعته واتجه نحو الباب .

فقال بورفير مقهقهاً وهو يمسك ذراعه من جديد ، فوق الكوع قليلاً ، ويوقفه قرب الباب :

ـ ولكن ألا تريد أن أطلع عليك بمفاجأة صغيرة ؟

كان مرح بورفير يزداد ازدياداً واضحاً ، وكان مزاحه يظهر ظهوراً أقوى ، فانتهى ذلك الى اخراج راسكولنيكوف عن طوره • فقال وهو يتجمد فى مكانه فجأة ، وينظر الى بورفير مذعوراً :

ـ أية مفاجأة صغيرة ؟ ماذا تعنى ؟

ـ المفاجأة الصغيرة قابعة هناك ، وراء هذا الباب ، هىء هىء هىء ! حتى لقد أقفلت عليها بالمفتاح ، مخافة أن تهرب •

قال بورفير ذلك وهو يومىء بيده الى الباب المغلق فى الحاجز ، الباب المفضى الى شقته •

فقال راسكولنيكوف وهو يقترب من الباب ويريد أن يفتحه :

ـ ماذا ؟ أين ؟

ولكن الباب كان مقفلاً بالمفتاح فعلاً •

قال بورفير :

ـ الباب مقفل • اليك المفتاح !

وناوله مفتاحاً أخرجه من جيبه •

زأر راسكولنيكوف يقول وقد أصبح لا يسيطر على نفسه :

ـ أنت تكذب ! أنت لا تفعل غير أن تكذب ! أنت تكذب أيها المهرّج اللعين !

قال راسكولنيكوف ذلك وهجم على بورفير ، فتراجع بورفير نحو الباب ، ولكن دون أن يظهر عليه أى رعب . وقال :

ـ ولكن ، يا عـزيزى روديون رومانوفتش ، لست تسـتطيع أن تفضح نفسك أكثر مما تفضح نفسك بهذا . لقد خرجت عن طورك . لا تصرخ ، والا استدعيت رجالى !

ـ أنت تكذب ! لن يحدث شيء ! استدع رجالك ! لقد كنت تعلم أننى مريض ، فأردت أن تهيج أعصابى وترهقنى ارهاقاً يدفعنى الى أن أفضح نفسى ! تلك كانت غـايتك . لا ... لا بد لك من وقائع ! أريد وقائع ! لقد فهمتُ الآن كل شيء . أنت لا تملك وقائع ، أنت لا تملك الا افتراضات تافهـة سخيفـة حقيرة ، هى افتراضات زاميوتوف ! كنت تعرف طبعى ، فأردتَ أن تخرجنى عن طورى لتفقدنى بعد ذلك صوابى بقســاوسـة ونواب* ... ألست تنتظرهم هم ؟ ماذا تنتظر ؟ أين هم ؟ ائت بهم !

ـ أى نواب تعنى يا عزيزى ؟ ما هذا الكلام العجيب ؟ يا لأفكارك هذه ما أغربها ! ليس فى وسـعى ، من باب « التقيد بالشـكل ومراعاة الأصول » ، على حد تعبيرك ، ليس فى وسعى أن ... انك تجهل أصول الاجراءات القانونية يا عزيزى ! ولكنك سترى ... سوف نتقيد بالشكل ونراعى الأصول .

بهذا جمجم بورفير ، وكان أثناء ذلك يصيخ بسمعه صوب الباب .

وفعلاً ، سُمعت فى تلك اللحظة ضجة فى الغرفة المجاورة .

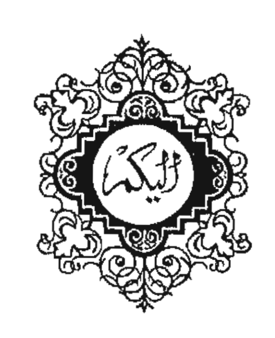
هتف راسكولنيكوف يقول :

ـ آ ... ها هم أولاء يجيئـون ! لقـد اسـتدعيتَهم ، لقد كنت

تنتظرهم ، لقد كنت تعوّل عليهم ... طيب ... ائت بهم جميعاً الى هنا ... ائت بالنواب ، وبالشهود ، وبجميع من تشـاء ... ائت بهم ! أنا مستعد ، مستعد !

غير أن حادثاً غريباً قد وقع حينـذاك ، حادثاً يبلغ من البعـد عن التوقع والتنبؤ فى سياق الأمور أنه لا راسكولنيكوف ولا بورفير بتروفتش كان يمكن أن يتصور خاتمة كهذه الخاتمة .

الفصل السادس



كيف تصور راسكولنيكوف المشهد حين تذكره فى المستقبل :

ان الضجة التى سُمعت من وراء الباب قد ازدادت بسرعة شديدة ، ثم شُقّ الباب قليلاً .

فصاح بورفير بتروفتش يسأل غاضباً :

ـ ماذا هنالك ؟ ألم أنبهكم مع ذلك ؟

فلم يحصل على جواب ، ولكن كان واضحاً أن أشخاصاً كثيرين كانوا يقفون وراء الباب يحاولون أن يصدّوا أحد الناس عن اقتحامه . فسأل بورفير بتروفتش متوجساً :

ـ ماذا هنالك ؟

فأجابه أحد الأصوات قائلاً :

ـ جيء بالمعتقل نيقولا .

فصرخ بورفير قائلاً وهو يهرع نحو الباب :

ـ لا داعى الى ذلك ! اذهبوا ! يمكن الانتظار ! من الذى جاء به الى هنا ؟ ما هذه الفوضى ؟

فبدا ذلك الصوت نفسه يتكلم فقال :

ـ ولكنه ...

غير أن الرجل لم يلبث أن انقطع عن الكلام فجأة .

ان صراعاً حقيقياً قد نشب فى ثانيتين ؛ وبدا أن أحداً من الناس كان يُصدّ بالقوة عن الدخول ، ثم اذا برجل شاحب الوجه جداً يقتحم غرفة بورفير بتروفتش .

ان مظهر هذا الرجل كان فى أول الأمر غريباً كل الغرابة . كان شاخصاً ببصره الى أمام ، ولكن لا يبدو عليه أنه يرى أحداً . وفى عينيه يسطع عزم وحشى ، ولكن شحوباً كشحوب الموتى يغشى وجهه فى الوقت نفسه ، كأنه قد اقتيد الى المقصلة . وشفتاه بيضاوان بياضاً تاماً ، وهما تختلجان قليلاً .

هو رجل ما يزال شاباً ، يرتدى ثياب عامل ، متوسط الطول ، نحيل الجسم ، قد قُصّ شعره على صورة صحن ، وقسمات وجهة دقيقة قاسية .

وكان يحتشد على الباب مستطلعون كثيرون ، وكان بعضهم يحاول أن يدخل .

ان هذا المشهد الذى وصفناه الآن لم يدم الا دقيقة واحدة .

قال بورفير بتروفتش مدمدماً من بين أسنانه ، منزعجاً أشد الانزعاج ، خارجاً عن طوره :

ـ اذهب ! لم يحن الحين بعد ! انتظر حتى أستدعيك ! لماذا أسرعتم فى المجىء به هذا الاسراع كله ؟

ولكن نيقولا جثا على ركبتيه . فهتف بورفير بتروفتش يقول مذهولاً :

ـ ماذا دهاك ؟

فقال نيقولا فجأةً ، بصوت مختنق لكنه قوى :

ـ أنا الجانى ! هذه جريمتى ! أنا القاتل !

فخيمَّ صمتٌ مطبق خلال عشر ثوان ، حتى لكأن جميع الحضور قد جمدوا . وحتى الحارس سقطت يداه ، وتراجع نحو البـاب تراجعاً آلياً ، ولبث هنالك ساكناً لا يتحرك .

وهتف بورفير بتروفتش يسأل نيقولا بعـد أن خـرج من ذهوله القصير :

ـ ماذا هنالك ؟

فكرر نيقولا بعد صمت قصير :

ـ أنا ... القاتل !

ـ كيف ؟ أنت ؟ من ذا قتلت ؟

ـ آليونا ايفـانوفنا وأختها اليزابت ايفانوفنـا . قتلتهمـا بضربات ساطور ...

وأضاف يقول فجأة :

ـ كنت قد فقدت عقلى ...

وصمت مرةً أخرى ، وكان ما يزال راكعاً .

بدت علائم التفكير على بورفير بتروفتش بضع لحظات، ولكنه استرد نشاطه وحماسته فجأة ، فأومأ للحضور بحركة من يده أن اخرجوا . فأسرعوا يطيعون أمره ؛ وأُغلق البـاب من جـديد . وبعد ذلك ، نظر بورفير بتروفتش الى راسكولنيكوف الذى كان واقفاً فى ركن من الغرفة يتـأمل نيقولا زائغ الهيئـة . وهمَّ أن يكلمه ، ولكنـه أمسـك فجأة ،



نيقولا ، الدهان

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

وتفرس فيه ، ثم أسرع ينتقل ببصره الى نيقولا ، ثم الى راسكولنيكوف ، ثم الى نيقولا مرةً أخرى .

لا يدرى المرء ما هو ذلك الغضب الذى استبد ببورفير بتروفتش على حين فجأة ، فاذا هو يهجم على نيقولا فيقول له بلهجة تشبه أن يكون فيها كره :

ــ لماذا تجيء تقول لى منذ الآن انك كنت قد فقدت عقلك ؟ أنا لمّا أسألك بعد أكنت قد فقدت عقلك أم لا ! قل : أأنت الذى قتلت ؟

قال نيقولا :

ــ نعم ، أنا الذى قتلت . أصرّح بذلك .

ــ هيه ... وبماذا قتلت ؟

ــ بساطور كنت قد حملته .

ــ ألا انك لمتعجل حقاً . وحدك ؟

لم يفهم نيقولا السؤال .

ــ هل قتلتهما وحدك ؟

ــ نعم . ميتكا برىء . لم يشارك فى الجريمة أية مشاركة .

ــ لا تتعجل هذا التعجل كله فى الكلام عن ميتكا . هيه ... ولكن كيف فعلت ، كيف فعلت لتنزل السلّم ؟ لقد رآكما البوابون كليكما .

أجاب نيقولا متعجلاً ، كأنه يريد أن يفرغ من الأمر بأقصى سرعة :

ــ انما ركضت عندئذ ... مع ميتكا ... دفعاً للشبهات .

هتف بورفير بتروفتش يقول :

ـ هذا هو الأمر ، هذا هو الأمر .

وجمجم يقول بينه وبين نفسه :

ـ انه يكرر ما لُقِّن من كلام .

ولمح راسكولنيكوف فجأةً من جديد .

أغلب الظن أنه قد بلغ من شدة اهتمامه بنيقولا أنه كان قد نسى وجود راسكولنيكوف لحظة من الزمان . وها هو ذا قد تذكره الآن فجأة ، حتى لقد اضطرب .

قال لراسكولنيكوف وهو يرتمى نحوه :

ـ روديون رومانوفتش ، عزيزى ، معذرة . ليس فى امكانك أن تبقى هنا ، أرجوك ... حقاً لم يبق لك هنا شأن ... وأنا نفسى ... يا للمفاجأة !.. أرجوك ...

قال له ذلك وهو يتناول ذراعه ، ويشير له الى الباب .

طبيعى أن راسكولنيكوف لم يكن قد أدرك بعدُ ماذا جرى ، ولكنه قد استرد ثقته . فقال يخاطب بورفير بتروفتش :

ـ لكأنك لم تكن تتوقع هذا .

فأجابه بورفير :

ـ ولا كنتَ تتوقعه أنت يا عزيزى ! انظر كيف ترتجف يدك !

ـ وأنت أيضاً ترتجف يا بورفير بتروفتش !

ـ نعم ، أنا أيضاً أرتجف ... لأننى لم أكن أتوقع هذا .

وكانا قد وصلا الى الباب. وكان بورفير ينتظر خروج راسكولنيكوف نافد الصبر .

قال راسكولنيكوف فجأة :

ـ وأين المفاجأة الصغيرة ؟ لماذا لم تطلع عليّ بها ؟

قال بورفير بتروفتش مقهقهاً :

ـ انه يتكلم ويتكلم وما تزال أسنانه تصطك ! هيه ! انك لا تخلو من سخرية . هيّا ، الى اللقاء !

ـ أحسب أن من الأفضل أن تقول : « الوداع » !

فغمغم بورفير بتروفتش يقول متقبّض الشفتين كأنه يبتسم :

ـ كل شيء مرهون بارادة الله ، كل شيء مرهون بارادة الله .

لاحظ راسكولنيكوف وهو يجتاز المكاتب أن أنظاراً كثيرة كانت تحدّق اليه . وفي حجرة المدخل أتيح له أن يرى في وسط الجمهور بوابي « تلك » العمارة اللذين اقترح عليهما في ذلك المساء أن يقتاداه الى قسم الشرطة . كانا واقفين ، وكأنهما ينتظران شيئاً ما . لكنه ما ان صار في السلم حتى سمع وراءه صوت بورفير بتروفتش من جديد . فلما التفت رآه قد أدركه وهو يلهث لهاثاً قوياً .

ـ كلمة ، كلمة لا أكثر يا روديون رومانوفتش . فيما يتعلق بكل ما حدث ستجري الأمور على مشيئة الله ، ولكن ما يزال عليّ ، من باب التقيد بالشكل ومراعاة الأصول ، أن ألقي عليك بعض الأسئلة . لهذا سنلتقي مرةً أخرى ، أليس كذلك ؟

قال بورفير بتروفتش ذلك ووقف أمامه مبتسماً . ثم أردف يقول مرةً أخرى :

ـ أليس كذلك ؟

في وسع المرء أن يفترض أنه كان يريد أن يقول شيئاً ما ، ولكن من الواضح أنه لم يستطع ذلك •

كان راسكولنيكوف قد اطمأن اطمئناناً تاماً ، وأصبح يشعر برغبة قوية في التفاخر :

ـ وأنت أيضاً ، يا بورفير بتروفتش ، لا تؤاخذني على ما بدر مني منذ قليل • لقد اندفعت بعض الاندفاع •••

فعاد بورفير بتروفتش يقول بلهجة يكاد يكون فيها فرح :

ـ لا قيمة لهذا ••• لا قيمة لهذا ••• أنا أيضاً سيء الطبع ••• أعترف بذلك ، اعترف بذلك • ولكننا سنلتقي من جديد ، ان شاء الله• سنلتقي أكثر من مرة •

قال راسكولنيكوف :

ـ وسنتعارف تعارفاً نهائياً • أليس كذلك ؟

فقال بورفير بتروفتش مؤيداً :

ـ نعم ، سنتعارف تعارفاً نهائياً •

قال ذلك وهو ينظر الى راسكولنيكوف في جد ورصانة ، رغم أنه يغمز بعينه • وأضاف يسأله :

ـ أأنت ذاهب الآن الى عشاء عيد ميلاد ؟

ـ بل الى عشاء جنازة •

ـ نعم نعم ، عشاء جنازة ! راع صحتك •• الصحة أهم شيء ، هه؟

أجابه راسكولنيكوف وقد أخذ يهبط السلم :

ـ لا أدري حقاً يا بورفير بتروفتش ما الذي يجب أن أتمناه لك•

ولكنه التفت فجأة ، فأضاف يقول وهو يقابل بورفير وجهاً لوجه :

ــ اننى أتمنى لك نجاحاً كبيراً . ولكن ما أسخف وظيفتك !

وكان بورفير يهمّ أن ينصرف ، ولكنه ما ان سمع هذا الكلام حتى سأل ناصباً أذنيه :

ــ وظيفتى سخيفة ؟ لماذا ؟

ــ دعك ... دعك !

لا شك فى أنك عذّبت هذا المسكين نيقولا عذاباً شديداً ، عذاباً سيكولوجياً ... على طريقتك ... الى أن اعترف . لا شك فى أنك ظللت تحقنه ليلاً نهاراً بقولك : « أنت القاتل ، أنت القاتل » . والآن وقد اعترف ستمضى تحقنه بنغمة أخرى قائلاً له : « أنت تكذب . لست أنت القاتل . لا يمكن أن تكون أنت القاتل . لقد دُفعت الى التظاهر بأنك أنت القاتل ، ولكن ... » . فكيف لا تكون وظيفتك سخيفة والحالة هذه ؟

ــ هىء هىء هىء !.. اذن لقد لاحظتَ منذ قليل ما قلته أنا لنيقولا من أنه « يردّد ما لُقن » ؟

ــ كيف لا ألاحظ ذلك ؟

ــ ها ... انك لحاضر الذهن حقاً ! انك تلاحظ كل شىء ! ان لك فكراً فكهاً حاداً ! لقد عرفت كيف تضرب على وتر السخرية. هيه ... يقال ان جوجول كان ، بين سائر الكتاب ، هو الذى يملك هذه الموهبة الى أقصى درجة ، أليس كذلك ؟

ــ نعم ، جوجول .

ــ صحيح . هو جوجول . الى اللقاء !

عاد راسكولنيكوف الى بيته رأساً • وكان قد بلغ من شدة الارهاق والاعياء أنه ما كاد يصل حتى ارتمى على ديوانه ، فمكث عليه ربع ساعة لا لشيء الا ليستريح ويستجمع شتات أفكاره • لم يحاول حتى أن يعلل سلوك نيقولا • كان مذهولاً مشدوهاً • كان يرى فى اعتراف نيقولا شيئاً يثير الدهشة ويبعث على الاستغراب ، شيئاً لا يستطيع على كل حال أن يدرك معناه وأن ينفذ الى كنهه • ولكن النتائج لم تلبث أن تبدت له واضحة جلية : ان كذب هذا الاعتراف لا بد أن يظهر ، ولا بد أن يعودوا اليه ويتشبثوا به من جديد • على أنه سيبقى حراً الى أن يحين ذلك الحين • فينبغى له حتماً أن يقوم بشيء ما ليضمن سلامته ، لأن الخطر متربص به فلا يمكن تفاديه !

لا يمكن تفاديه ؟ الى أى حد ؟ وأخذ الموقف يتضح • فحين تذكّر راسكولنيكوف ، « على وجه الاجمال » ، المشهد الذى جرى بينه وبين بورفير ، لم يستطع أن لا يرتجف خوفاً • صحيح أنه لا يعرف أهداف بورفير بعد ، ولا يستطيع أن يدرك جميع حساباته • ولكنه قد اكتشف جزءاً من لعبته ، وما من أحد يستطيع كما يستطيع راسكولنيكوف أن يفهم مدى الخطر المتربص به من « اللعبة » التى حاولها بورفير • لقد أوشك راسكولنيكوف أن يفضح نفسه فضحاً تاماً بأن يقدم لبورفير وقائع ثابتة • كان بورفير يعرف ما يتصف به راسكولنيكوف من اندفاع مرضى ، وقد نفذ الى حقيقة طبعه منذ أول نظرة ، فكان يسير بخطى واثقة مطمئنة ، وان يكن قد أسرف فى التعجل بعض الاسراف • صحيح أن راسكولنيكوف قد تورّط فى كلامه مع بورفير ، ولكنه لمّا يقدّم له « وقائع ثابتة » • فليس هناك حتى الآن الا ظنون وتخمينات • ولكن هل كان يرى الموقف على حقيقته ؟ ألم يكن مخطئاً البتة ؟ ما هى النتيجة المعينة المحدّدة التى كان بورفير يسعى اليها اليوم ؟ هل كان قد دبّر

شيئاً لهذا اليوم نفسه ؟ ما عسى يكون هذا الشيء على وجه الدقة ؟ أكان يتوقع شيئاً ما ؟ كيف كانا سيفترقان منذ قليل لولا أن نزلت ، بفضل نيقولا ، تلك النازلة التي لم تكن في الحسبان ؟ كان بورفير قد اكتشف كل لعبته تقريباً • صحيح أنه قد أسرف في التعجل بعض الاسراف ، ولكنه قد اكتشف لعبته على كل حال (أو ذلك ما كان يعتقد به راسكولنيكوف في أقل تقدير) • ولو كان يملك معلومات أخرى لما قصّر في اظهارها والاستناد اليها • ثم ما هي تلك المفاجأة التي ألمع اليها ؟ أكانت هذه مزاحة ؟ وهل لهذه المزاحة من معنى أم هي ليست بذات معنى ؟ هل في باطنها شيء يشبه أن يكون قرينة قاطعة أو واقعة ثابتة ؟ هل يرتبط هذا برجل الأمس ؟ وأين اختفى ذلك الرجل ؟ أين هو اليوم ؟ ذلك أنه اذا صدق أن بورفير يملك شيئاً اثباتياً ، فلا يمكن أن لا يكون هذا الشيء ذا علاقة برجل الأمس •

ظل راسكولنيكوف جالساً على سريره ، مائلاً الى أمام ، واضعاً كوعيه على ركبتيه ، دافناً وجهه في يديه • وما يزال ارتعاش عصبي يهز جسمه كله • ونهض أخيراً ، فتناول قبعته ، ولبث يحلم خلال لحظة ، ثم اتجه نحو الباب •

ان نوعاً من احساس تنبؤي كان يقول له انه في هذا اليوم على الأقل يستطيع أن يعد نفسه في أمان • وشعر فجأة بشيء من فرح : أراد أن يذهب الى كاترين ايفانوفنا بأقصى سرعة • كان قد فات أوان حضور الدفن طبعاً ، ولكنه يستطيع أن يصل الى المأدبة في حينها ، فيرى هنالك صونيا فوراً •

توقف ، وفكّر ، وظهرت على شفتيه ابتسامة مريضة • وقال يردد بينه وبين نفسه :

ـ اليوم ! اليوم ! فى هذا اليوم نفسه يجب ...

وفى اللحظة التى همَّ فيها أن يفتح الباب ، فُتح البـاب من تلقاء نفسه فجأة . ارتعش راسكولنيكوف ، وتراجع الى الوراء بوثبة . كان الباب ينفتح ببطء ورفق . وظهر شكل انسانى ، هو شكل الرجل الذى خرج بالأمس « من تحت الأرض » .

وقف الرجل على العتبـة ، ونظر الى راسـكولنيكوف صامتاً ، ثم تقدم فى الغرفة خطوة . هو اليوم كما كان بالأمس حزين الوجه جداً ، وها هو ذا يزفر زفرة كبيرة بعد لحظة قصيرة . ليس يعوزه الا أن يسند خده على راحة يده ، وأن يميل برأسه الى جانب حتى يشبه امرأة عجوزاً كل الشبه .

سأله راسكولنيكوف كالمجنون :

ـ ماذا تريد ؟

فلزم الرجل الصمت لحظةً أخـرى ، ثم انحنى أمامه فجـأة حتى كاد يلامس الأرض ، بل لقد لمس الأرض بيده اليمنى على كل حال .

صاح راسكولنيكوف يسأله :

ـ ماذا تفعل ؟

فقال الرجل بصوت خافت :

ـ أنا مذنب !

ـ ما ذنبك ؟

ـ أننى راودتنى أفكار شريرة خبيثة !

ونظر كل منهما الى الآخر . وتابع الرجل كلامه فقال :

ـ كنتُ منزعجاً . فلما جئتَ أنت فى ذلك اليوم ، ولعلك كنت

عندئذ فى حالة سكر ، فطلبت من البوابين أن يقتادوك الى قسم الشرطة، وألقيت أسئلة عن الدم ، آلمنى أن أرى أنهم لم يكترثوا بالأمر ، وعدُّوك سكران لا أكثر ، وبلغتُ من شدة الألم أننى أرقت فلم أستطع الى النوم سبيلاً . واذ حفظت عنوانك ، فقد جئت مساء أمس أسألك ...

قاطعه راسكولنيكوف قائلاً وقد بدأ يفهم ويدرك :

ـ من الذى جاء ؟

ـ أنا ، أنا الذى أسأت اليك .

ـ أأنت اذن من تلك العمارة ؟

ـ نعم ، ولقد كنت عند الباب الكبير مع الآخرين ، ألا تتذكر ؟ لى هنالك دكان صغيرة ، منذ زمن طويل . أنا أعمل فى اصلاح الفراء ، وأقوم بعملى فى بيتى . والأمر الذى آلمنى خاصةً ...

تذكر راسكولنيكوف تذكراً واضحاً ، على حين فجأة ، كل المشهد الذى جرى أمس تحت الباب الكبير . فقال لنفسه : حقاً كان هنالك ، عدا البوابين ، أشخاص عدة بينهم نساء . وتذكر أيضاً أن صوتاً من الأصوات قد اقترح اقتياده الى قسم الشرطة . انه لم ير وجه الرجل الذى تكلم حينذاك ؛ ولو قد رآه لما كان فى وسعه أن يتعرفه على كل حال. ولكن راسكولنيكوف يتذكر أنه التفت نحو الرجل وأجابه .

هذا هو اذن تفسير ليلة الأمس تلك المروّعة ! وأفظع ما فى الأمر أنه كاد يضيّع نفسه فعلاً بسبب حادثة « تافهة » الى هذا الحد من التفاهة . ان هذا الرجل لا يستطيع اذن أن يروى شيئاً آخر غير ذهابه الى الشقة وسؤاله عن الدم . معنى هذا أن بورفير أيضاً لا يملك أى دليل قاطع ، لا يملك أية واقعة ثابتة ، عدا ذلك « الهذيان » ، عدا تلك « السيكولوجيا ذات الحدين » . هو لا يتصور اذن واقعة أخرى

(ولا يجب عليه أن يتصور ، لا يجب عليه ، لا يجب عليه) •• ما الذى كان يمكن أن يصنعوه به اذن ؟ كيف كان يمكن أن يربكوه وأن يورّطوه فى الاعتراف ولو اعتقلوه ؟ وينتج عن هذا اذن أن حادثة ذهابه الى الشقة لم يعلم بها بورفير بتروفتش الا منذ قليل ، وكان قبل ذلك يجهلها •

هتف راسكولنيكوف يسأل الرجل فجأة وقد ومضت فى ذهنه فكرة مباغتة :

ـ أأنت بنفسك قلت اليوم لبورفير ••• اننى ذهبت الى هناك ؟

ـ بورفير ؟

ـ نعم ، قاضى التحقيق •

ـ صحيح • قلت له ذلك • فلأن البوابين لم يذهبوا اليه فى ذلك اليوم ، ذهبتُ اليه أنا •

ـ اليوم ؟

ـ قبلك بدقيقة واحدة • وقد سمعت كل شىء ، كل شىء ، سمعت كيف كان يعذبك ؟

ـ أين ؟ كيف ؟ متى ؟

ـ منذ قليل ، هناك ، عنده ، وراء الحاجز • بقيت هنالك طول الوقت •

ـ كيف ؟ أأنت « المفاجأة الصغيرة » اذن ؟ ولكن كيف تمّ هذا ؟ قل !

بدأ الرجل يتكلم فقال :

ـ حين رأيت البوابين لا يريدون أن يطيعونى ، ويرفضون أن

يذهبوا الى قسم الشرطة بحجة أن الوقت متأخر ، وأن قاضي التحقيق سيؤاخذهم على أنهم لم يجيئوا اليه بسرعة أكبر ، تضايقت كثيراً ، وأرقت طول الليل ، وحصلت على معلوماتي . فلما حصلت عليها ، ذهبت الى قسم الشرطة في هذا الصباح . في المرة الأولى لم يكن القاضي هناك ، فرجعت بعد ساعة ، فلم أُستقبل . وفي المرة الثالثة قبلوني . رويت للقاضي الأشياء كما وقعت ، فأخذ يركض في الغرفة وهو يلطم صدره بقبضة يده ، ويقول : « ماذا تفعلون معي يا عصابةً من قطاع الطرق ؟ لو قد عرفت هذا لأرسلت جنوداً يجيئونني به ! » . وبعد ذلك خرج راكضاً ، ونادى أحداً ، فأخذ يكلمه في ركن . ثم عاد نحوي ، وأخذ يلقي عليَّ أسئلة ويشتمني . لا مني كثيراً . وقصصت أنا عليه كل شيء ، وذكرت له أيضاً أنك بالأمس لم تجرؤ أن تجيبني ، وقلت له انك لم تتعرفني . عندئذ عاد يجري في الغرفة ويلطم صدره . كان يركض ركضاً ، وكان غاضباً ... ومنذ ذُكر له أنك أتيت ، قال لي : « أسرع ، اختبىء وراء الحاجز ، وابق هنالك بدون حراك ، مهما تسمع » . وحمل اليَّ بنفسه كرسياً ، وأغلق عليَّ الباب قائلاً : « قد استدعيك » . ولكن حين جيء بنيقولا ، صرفني بعد أن صرفك فوراً . وقال لي : « سأستدعيك مرةً أخرى لأستجوبك » .

ــ وهل استجوب نيقولا أمامك ؟

ــ صرفني بعد أن صرفك فوراً ، وأخذ يستجوب نيقولا .

توقف الرجل عن الكلام ، وانحنى مرةً أخرى ، ولامست احدى أصابعه الأرض مرةً أخرى ، وقال :

ــ اغفر لي وشايتي والاساءة التي ألحقتها بك .

فأجابه راسكولنيكوف :

ـ الله يغفر لك !

وبعد أن نطق الرجل بذلك الكلام انحنى مرة ثالثة ، ولكنه لم ينحن فى هذه المرة حتى الأرض ، بل حتى الحزام فقط ، ثم استدار على عقبيه ببطء وخرج من الغرفة .

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « كل شىء ذو حدين ، كل شىء هو الآن ذو حدين » . ثم غادر الغرفة هو أيضاً ، وقد أصبح واثقاً بنفسه أكثر من أى وقت مضى .

قال وهو يهبط السلم ويبتسم ابتسامة ساخرة : « الآن سنتابع الصراع » . وكانت الابتسامة الساخرة موجهة ضد نفسه فى هذه المرة : كان يتذكر عندئذ « جبنه » ، بكره واحتقار .

الجزء الخامس

الفصل الأول

غداة

اليوم المشئوم الذى جرت فيه المناقشة الحادة بين بطرس بتروفتش وبين دونيا وبولشيريا ألكسندروفنا ، استيقظ بطرس بتروفتش من نومه وثاب الى صوابه ، فأدرك ممتعضاً أكبر الامتعاض ، أنه مضطر الى أن يقبل ، قبولَه لواقع راهن حاسم ، الأمر الذى كان يبدو له بالأمس حادثة تشبه أن تكون خيالية مستحيلة رغم حدوثها فعلاً . ان الأفعى السوداء ، أفعى الأنانية الجريحة المهانة ، قد ظلت تعض قلبه طوال الليل . فما ان نهض عن فراشه حتى أسرع ينظر الى وجهه فى المرآة . لقد كان يخشى أن يكون قد أصيب أثناء نومه بازدياد فى افراز الصفراء . غير أن كل خطر من هذه الناحية كان ، حتى الآن على الأقل ، قد تمّ تفاديه . فلما تأمل فى المرآة وجهه النبيل الأبيض المتعجّن قليلاً منذ بعض الوقت ، عزّاه وواساه أن يتصور أنه لا بد واجد فى مكانٍ ما خطيبةً قد تشوقه أكثر مما شاقته دونيا . ولكنه لم يلبث أن رجع عن وهمه ، فبصق بصقة قوية من شدة غضبه ، فأثار ذلك ابتسامة خرساء لكنها ساخرة فى شفتى صديقه الشاب آندره سيميونوفتش ليبزياتنيكوف الذى يسكن معه . ولم تغب هذه الابتسامة عن نظر بطرس بتروفتش الذى أسرع يحقد عليه بسببها مزيداً من الحقد بعد أن وقعت بينه وبينه فى الآونة الأخيرة أمور كثيرة أخذها عليه وسجّلها له . وتضاعف غضبه وحنقه حين قدّر فجأة أنه ما كان ينبغى

له أن يطلع آندره سيميونوفتش على نتائج المقابلة • هذه خطيئة ثانية يرتكبها منذ الأمس بشدة الاندفاع ، وفورة الغضب ، وتسرع البوح•••

وشاءت المصادفات طوال ذلك الصباح ، كأنما عن قصد وعمد ، أن تنصب عليه المزعجات تلو المزعجات ، وأن تلاحقه المنغّصات بعد المنغّصات • فحتى في مجلس الشيوخ كان ينتظره اخفاق في القضية التي كان يعالجها • وقد أحنقه خاصةً مالكُ الشقة التي استأجرها بطرس بتروفتش استعداداً لزواجه المرتقب ، وأصلحها على نفقته هو • فان مالك الشقة هذا ، وهو رجل من رجال الحرف أصاب بعض الغنى ، وأصله ألماني ، قد رفض رفضاً قاطعاً أن يفسخ بنداً واحداً من بنود عقد الايجار ، وأصرّ على أن يدفع له بطرس بتروفتش كامل الغرامة المنصوص عليها في العقد عند فسخ العقد ، رغم أن بطرس بتروفتش كان سيسلمه الشقة بعد أن جُدّدت تجديداً شبه تام • وهذا نفسه حدث في متجر الأثاث ، فان صاحب المتجر لم يشأ أن يرد اليه روبلاً واحداً من المبلغ الذي دفعه له عربوناً على شراء الأثاث ، رغم أن قطعةً واحدةً من قطع الأثاث لم تكن قد وصلت الشقة بعد • قال بطرس بتروفتش لنفسه صارفاً بأسنانه : « لن أتزوج مع ذلك خصيصاً من أجل أثاث ! » • وفي الوقت نفسه ومضت في ذهنه فكرة يائسة من جديد ، فتساءل : « أمن الممكن حقاً أن يكون كل شيء قد ضاع ، أن يكون كل شيء قد ضاع ضياعاً حاسماً ؟ ألا أستطيع مع ذلك أن أقوم بمحاولة جديدة ؟ » • وتراءت له صورة دونيتشكا الفاتنة الأخاذة ، فتمزق قلبه حسرةً ولوعةً من جديد ، وعانى عذاباً أليماً خلال دقيقة ، فلو كانت الرغبة وحدها في قتل راسكولنيكوف كافيةً لقتله ، لرغب تلك الرغبة على الفور •

وقال لنفسه وهو يعود الى غرفة ليبزياتنيكوف كاسف البال مكتئب النفس حزيناً : « من أخطائي أيضاً أنني لم أعطهم مالاً ! شيطان يأخذني !

ما بالى تصرفت تصرف يهودى ؟ ولم يكن هذا مع ذلك عن بخل وشح ، وانما أنا أردت أن أبقيهم فى حالة الحاجة والعوز ، حتى أجعلهم يعدوننى منقذا ومخلِّصاً ... آه ... لو أننى أعطيتهم خلال هذه المدة ... ألفاً وخمسمائة روبل مثلاً ، لاعداد جهاز العرس ... لو أننى قدمت هدايا صغيرة ، لو أننى قدمت أنواعاً من تلك العلب الصغيرة واللوازم الضرورية والمجوهرات والأقمشة وسائر تلك الأشياء التافهة التى يجدها المرء فى متجر كنوب أو فى المتجر الانجليزى * بأثمان بخسة ، لو أننى فعلت ذلك لجرت الأمور مجرى أوضح ، ولقامت المسألة على أسس أقوى وأوطد . ما كان لدونيا عندئذ أن تفسخ الخطوبة بمثل ذلك الاستخفاف. ذلك شأن هذا النوع من الناس : يعتقدون أنهم مضطرون حتماً عند فسخ الخطوبة الى ردّ الهدايا والمال جميعاً . فلو كنت قد قدمت اليهم هدايا ومالاً لعزّ عليهم ولشق عليهم أن يردّوا ... ثم ان ضميرها كان سيعذبها اذا هى فكرت فى فسخ الخطوبة : كانت ستقول لنفسها : كيف؟ أأطرد على حين فجأة رجلاً كان كريماً لطيفاً فى جميع الأوقات ؟ هِم ... لقد ارتكبت خطأً فاحشاً . » . ثم أسرع بطرس بتروفتش ينعت نفسه بأنه غبى وهو يصرف بأسنانه من جديد ــ بينه وبين نفسه طبعاً .

فلما وصل الى هذه النتيجة عاد الى بيته وقد ازداد الشر والحنق فى نفسه أضعاف ما كانا عليه عند خروجه منه . وقد لفتت انتباهه الاستعدادات التى كانت قائمة فى غرفة كاترين ايفانوفنا لمأدبة الجنازة . كان قد سمع عن هذه المأدبة منذ الأمس كلاماً غامضاً ، حتى لقد كان يخيَّل اليه أنه يتذكر أنه دُعى الى هذه المأدبة ، ولكنه لاستغراقه فى همومه الخاصة لم ينتبه الى اى شيء عداها . وأسرع يستطلع مدام ليبفكسل التى كانت أثناء غياب كاترين ايفانوفنا فى المقبرة منهمكةً حول المائدة ، وكانت تهمّ أن تنهض ، فعرف أن المأدبة ستكون فخمة وأن جميع

المستأجرين مدعوون اليها ، حتى الذين لم يعرفوا منهم المتوفى ، بل وحتى آندره سيميونوفتش ليبزياتنيكوف ، رغم اشتجاره حديثاً مع كاترين ايفانوفنا ، وأنه هو نفسه ، بطرس بتروفتش ، ليس مدعواً فحسب ، بل هو الى ذلك يُنتظر حضوره بفارغ صبر ، لأنه بين سائر المستأجرين أعلاهم شأناً وأعظمهم قدراً • وقد دُعيت أيضاً آماليا ايفانوفنا بكثير من الاحترام والاحتفال ، رغم ما وقع بينها وبين كاترين ايفانوفنا فى الماضى من حوادث طارئة مؤسفة ، وهى الآن لهذا السبب سيدة المنزل وربة البيت ، ولا يخلو ذلك من أن يُحدث لها لذة ومسرة • وهى فوق هذا كله ، رغم ارتدائها ثياب الحداد ، تتبختر بثوب من حرير ، جديد أنيق رشيق ، مزدان بزخارف كثيرة ، تبدو فخورة به متباهية معتزة •

هذه الوقائع كلها وهذه المعلومات كلها أوحت الى بطرس بتروفتش بفكرة ما ، فلما دخل غرفته أو قل غرفة آندره سيميونوفتش ليبزياتنيكوف كان مشغول البال بتلك الفكرة ، ذاهلاً بها عمَّا عداها • ذلك أنه قد عرف أن راسكولنيكوف أحد المدعوين •

لسبب من الأسباب قضى آندره سيميونوفتش ذلك الصباح كله فى غرفته • وكانت قد قامت بين هذا السيد وبين بطرس بتروفتش علاقات غريبة لكنها طبيعية على كل حال : كان بطرس بتروفتش يحتقر ليبزياتنيكوف ويكرهه أشد الكره ، تقريباً منذ اليوم الذى أقام فيه عنده ؛ ومع ذلك كان يبدو عليه فى الوقت نفسه أنه يخشاه بعض الخشية • لقد نزل عند آندره سيميونوفتش منذ وصوله الى بطرسبرج ، لا بسبب البخل الشديد فحسب — رغم أن هذا هو الدافع الرئيسى فى حقيقة الأمر — بل لسبب آخر أيضاً • انه ، وهو فى الريف ، قد سمع عن ربيبه اليتيم آندره سيميونوفتش ، أنه شاب تقدمى متطور ، بل وأنه يلعب دوراً هاماً لدى بعض الفئات الغريبة التى أصبحت أشبه بالأساطير• فتأثر بطرس بتروفتش

بهذه الصورة التى قامت فى ذهنه عن صاحبه . ان هذه الفئات القوية ، العالمة بكل شيء ، التى تحتقر جميع الناس ، وتفضح جميع الناس ، كانت توحى اليه منذ مدة طويلة برهبة خاصة هى رهبة غامضة على كل حال. لا شك أنه لاقامته بالأقاليم لم يستطع أن يكوّن لنفسه فكرة دقيقة (حتى ولا تقريبية) عن شيء « من هذا النوع » . كل ما هنالك أنه سمع ، كسائر الناس ، أنه يوجد ، فى بطرسبرج خاصةً ، أناس يسمون تقدميين أو عدميين أو مصلحين * ، الخ ، ولكنه كان ، ككثير من الناس ، يضخّم دلالة هذه الألفاظ ومعناها ، حتى ليشوّهها تشويهاً عجيباً . وهو منذ بضع سنين انما يخشى « التشهيرات » العامة أكثر مما يخشى أى شيء آخر . نعم ، ذلك هو الأساس الرئيسى الذى تقوم عليه مخاوفه المتصلة المتزايدة ، ولا سيما حين يحلم بنقل مركز نشاطه وأعماله الى بطرسبرج . بهذا المعنى نستطيع أن نقول انه كان « مروَّعاً » حقاً كما يُروَّع الأطفال الصغار فى بعض الأحيان . انه قبل هذه الآونة ببضع سنين ، قد شهد فى الريف ، وكان ما يزال فى بداية مزاولته مهنته ، حالة رجلين من أصحاب التأثير والنفوذ أصابتهما تلك التشهيرات العامة فنالت منهما بقسوة شديدة . وقد دافع هو عن ذينك الرجلين فكانا يحميانه ويرعبانه بعد ذلك . فأما احدى القضيتين فقد انتهت بالرجل الذى ناله التشهير الى الفضيحة والجرسة ، وأما القضية الثانية فكانت لصاحبها مصدر كثير من المتاعب والنكد . ذلكم هو السبب الذى جعل بطرس بتروفتش يحرص منذ وصوله الى بطرسبرج على أن يوضح لنفسه الأشياء ، وأن يفهم الأحوال ، وأن لا تفوته المبادرة اذا اقتضى الأمر ذلك ، فى سبيل أن ينال الحظوة لدى « أجيالنا الشابة » . وكان يعوّل فى هذا على آندره سيميونوفتش . وعلى هذا النحو انما استطاع ، مثلاً ، حين التقى براسكولنيكوف ، أن يقول بضع عبارات منمقة جاهزة مستمدة من غيره.

وهو لم يلبث ، بطبيعة الحال ، أن اكتشف فى آندره سيميونوفتش شخصاً عادياً تافهاً غراً الى أبعد الحدود • ولكن ذلك لم يغيّر رأيه ، ولبث قلقاً غير مطمئن • انه على وجه الاجمال لا شأن له بهذه الأفكار كلها (التى كان آندره سيميونوفتش يقرع بها أذنيه ، ويصدّع بها رأسه)، وانما كانت له غاية معينة وهدف محدّد : كان يريد أن يعرف ، بأقصى سرعة ، « ماذا » حدث هنا و « كيف » حدث ؟ هل هؤلاء الناس أقوياء لهم حول وطول ، وسلطان ونفوذ ؟ هل عليه هو أن يخشى شيئاً ما ؟ أتراه يوشى به اذا هو شرع فى هذا الأمر أو ذاك ؟ واذا وُشى به ، فما هى النقاط التى ستكون محل الوشاية وموضع التنديد والتشهير ؟ بل أكثر من ذلك : ألا يستطيع المرء ، اذا هم كانوا أقوياء ذوى سلطان ، أى يتسلل اليهم بطريقة أو بأخرى وأن يغشهم ويضللهم ؟ أهذا ضرورى حقاً أم لا ؟ أليس فى وسع المرء ، بواسطتهم ، أن يهيىء لنفسه نجاحاً فى عمله وتقدماً فى مهنته مثلاً ؟ بايجاز : كانت مئات من الأسئلة تلقى نفسها عليه •

وكان آندره سيميونوفتش هذا ، وهو مستخدمٌ فى مكان ما بمثابة موظف ، كان رجلاً هزيلاً بائساً عليلاً ؟ وهو قصير القامة ، أشقر شقرةً غريبة ، له على جانبى خديه لحيتان يبدو مزهواً بهما زهواً شديداً • وهو فوق ذلك يشكو من أوجاع فى عينيه دائماً على وجه التقريب • واذا كان طبعه رخواً فان أحاديثه تدل على غرور يبلغ فى بعض الأحيان حد الغطرسة الوقحة ، وذلك يتنافى مع شكله وقامته تنافياً مضحكاً •

على أنه كان عند آماليا ايفانوفنا يُعدُّ من أحسن المستأجرين ، لأنه كان لا يشرب ، ولأنه كان يدفع أجر غرفته فى موعده على نظام مطرد لا يتخلف • غير أن آندره سيميونوفتش كان رغم جميع هذه المزايا



ليبزيا تنيكوف

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

رجلاً غبياً فى حقيقة الأمر • ان العاطفة الهوجاء هى التى ربطته بالآراء التقدمية و « أجيالنا الصاعدة » • انه واحد من تلك الفئة الكبيرة من الأغبياء والفاشلين الذين لا يفوتهم أبداً أن يتعلقوا على الفور بالأفكار التى يعرفون أنها رائجة رواج « الموضة » ، والذين يفسدون ويشوّهون كل ما يستعملونه ، ولو كان تعلقهم به صادقاً مخلصاً •

ثم ان ليبزياتنيكوف ، رغم أنه مسالم الى أبعد حدود المسالمة ، قد أخذ من جهته يضيق ذرعاً بصاحبه بطرس بتروفتش الذى كان فى الماضى ولىّ أمره والوصىّ عليه ، حتى أصبح لا يطيق احتمال مساكنته فى غرفته. ونشأ بين الرجلين كليهما نفورٌ متبادل من تلقاء نفسه • لقد أخذ آندره سيميونوفتش يلاحظ ، رغم غبائه ، أن بطرس بتروفتش يسخر منه ويضحك عليه ويحتقره ، وأنه ليس فى حقيقته ما يحب أن يبدو • وكان آندره سيميونوفتش قد حاول أن يشرح له نظريات فورييه وداروين ، ولكن بطرس بتروفتش أصبح يحلو له ، ولا سيما فى الأيام الأخيرة ، أن يصغى الى كلامه ساخراً مستهزئاً ، حتى لقد أصبح يمضى فى ذلك الى حد اهانته • وانما نشأ ذلك عن أن بطرس بتروفتش قد اكتشف بغريزته أن ليبزياتنيكوف ليس رجلاً غبياً فحسب ، بل أنه أيضاً رجل متبجح ليس له أية علاقات هامة فى بيئته ، وأنه لم يسمع ببعض الأفكار الا على نحو غير مباشر ، وأنه فوق ذلك كله ليس على شىء من المقدرة فى مجال « الدعاية » ، لأنه يضطرب فى الكلام ويرتبك فى الحديث ، فلا يستطيع كثيراً أن يشهّر بأحد أو بشىء • وفى هذه المناسبة يجب أن نشير عابرين الى أن بطرس بتروفتش كان خلال تلك الأيام العشرة (ولا سيما فى البداية) قد استقبل ، برضى وارتياح ، الأماديح التى كان يكيلها له آندره سيميونوفتش ، حتى ولو كانت غريبة جداً ، أو قل على الأقل انه لم يكن يرفضها أو يعترض عليها • كان يصمت مثلاً حين

ينسب اليه آندره سيميونوفتش أنه ينتوى أن يعاون قريباً ، بل قريباً جداً ، فى انشاء « كومون » جديدة فى مكانٍ ما بشارع ميشتياسكايا (شارع البورجوازيين) أو حين ينسب اليه أنه ينوى أن لا يمنع دونيا من أن تتخذ لها عشيقاً ولو شاء لها هواها أن تفعل ذلك منذ الشهر الأول بعد الزواج ؛ أو حين ينسب اليه أنه لن يعمِّد الأولاد الذين سيولدون له ، الخ. كان بطرس بتروفتش ، على عادته ، لا يُنكر المزايا التى تُنسب اليه ، حتى لقد كان يسمح بأن تكال له أماديح من ذلك النوع ، فالى هذا الحد كان يحب أن يُمدح .

ان بطرس بتروفتش الذى بدّل هذا الصباح عدداً من السندات لبعض الأسباب ، جالسٌ الآن الى المنضدة يراجع عدَّ حزم الأوراق المالية . وهذا آندره سيميونوفتش الذى لم يكد يملك مالاً فى يوم من الأيام يتجول فى الغرفة ويتظاهر بأنه ينظر الى حُزم الأوراق المالية بغير اكتراث ، بل وباحتقار . ولكن بطرس بتروفتش لم يكن يستطيع أن يصدِّق أن آندره سيميونوفتش ينظر الى هذه الحزم بغير اكتراث حقاً . وكان آندره سيميونوفتش من جهته يتصور بكثير من المرارة أن بطرس بتروفتش ربما كانت تدور فى رأسه تلك الفكرة ، وربما كان يجد فيها لذة ، وربما كان يريد أيضاً ، بعرض هذه الأوراق المالية ، أن يسخر من صديقه الشاب ، وأن يذكِّره على هذا النحو بكل تفاهته ، وبكل الفرق بينهما وبكل المسافة التى تفصلهما .

وقد وجده فى ذلك اليوم أكثر حدةً ، وأقل انتباهاً منه فى أى وقت مضى ، رغم أنه هو آندره سيميونوفتش قد اندفع يشرح نظريته المفضّلة فى ضرورة اقامة « كومون » جديدة من نوع خاص . ان الملاحظات القصيرة التى كان يرسلها بطرس بتروفتش مع انشغاله بتنقيل الكرات على أسلاكها فى جهاز العدِّ ، كانت تتسم بسخرية واضحة

وتتصف بقلة الكياسة • ولكن آندره سيميونوفتش ، هذا الداعية من دعاة « الأفكار الانسانية » ، كان ينسب اعتكار مزاج بطرس بتروفتش الى الأثر الذى أحدثه فى نفسه فسخ الخطبة ؛ وكان يحترق شوقاً الى التعرض لهذا الموضوع بأقصى سرعة ، لأنه يريد أن يدلى فى هذا الصدد ببعض الآراء التقدمية التى قد تواسى صديقه المحترم ، والتى « لا بد » أن تكون نافعة فى تطوره المقبل •

قاطع بطرس بتروفتش صاحبه فى أهمّ موضع من حديثه سائلا على حين فجأة :

ـ ما مأدبة الجنازة هذه التى تُهيّأ عند تلك ••• الأرملة ؟

فأجابه آندره سيميونوفتش باستغراب قائلاً :

ـ كأنك لا تعلم ! لقد حدثتك عن أمر هذه المأدبة أمس ، حتى لقد شرحت لك آرائى فى هذا النوع من الاحتفالات • ثم اننى قد سمعت أنها دعتك أنت أيضاً • وقد كلمتها أنت نفسك بالأمس •

ـ ما كنت أتوقع أن تبدد هذه الغبية التى صارت شحاذة ، ما كنت أتوقع أن تبدد فى سبيل حفلة عشاء كل المال الذى أخذته من ذلك الغبى الآخر ••• أقصد راسكولنيكوف ! لقد دُهشت منذ قليل حين مررت بمسكنها • استعدادات عظيمة ! حتى الخمر لا ينقص هذه المأدبة !

وتابع بطرس بتروفتش كلامه يريد أن يجرّ الحديث الى غاية لا يعرف المرء ما هى :

ـ دُعى أشخاص كثيرون ••• الشيطان وحده يعلم •••

ثم أضاف يسأل فجأةً وهو يرفع رأسه :

ـ ماذا ؟ تقول اننى مدعو أيضاً ؟ متى دعيت ؟ لا أذكر أننى دُعيت!

على أننى لن أحضر • ما عسانى فاعلاً هناك ؟ كل ما فى الأمر أننى قلت لها بالأمس ، عابراً ، ان فى وسعها أن تحصل ، لأنها أرملة موظف معوزة ، على معونة يساوى مقدارها مرتبات سنة • أتراها دعتنى لهذا السبب وحده ؟ هئ هئ !•••

قال ليبزياتنيكوف :

ـ أنا أيضاً لا أنوى أن أحضر •

ـ آمل ذلك • فقد ضربتها ضرباً مبرحاً بيديك ، فمن الطبيعى جداً أن يعذبك ضميرك اذا أنت فكرت فى الذهاب الى عندها •

سأله ليبزياتنيكوف بقوة وحرارة وقد احمر وجهه :

ـ من ذا ضربت ضرباً مبرحاً ؟ عمن تتكلم ؟

ـ عن كاترين ايفانوفنا طبعاً • لقد ضربتَ كاترين ايفانوفنا منذ شهر ؟ أو هذا ما سمعته أمس على الأقل • انظروا الى رجال المبادىء والعقائد هؤلاء ! هذه طريقتهم فى حل قضية المرأة ! هئ هئ هئ !

وكأنما خففت هذه الكلمات عن بطرس بتروفتش ، فعاد ينهمك فى حساباته •

وصاح ليزياتنيكوف يقول بلهجة حانقة مغتاظة ، وكان لا يطيق أن يذكّره أحد بتلك القصة :

ـ ما هذه الا حماقات ونمائم • ما هكذا جرت الأمور ، وانما جرت الأمور على نحو آخر تماماً ! لم يطلعوك على الواقع كما حدث • هذه أقاويل ، هذه أقاويل لا أكثر ! أنا انما دافعت عن نفسى فحسب ! فهى التى هجمت علىّ مكشّرة عن أنيابها منشبةً مخالبها ، فما زالت بى حتى

تنفث لي لحيةً بكاملها ! أحسب أن من حق كل انســـان أن يدافع عن نفسه • ثم انني لا أسمح لأي مخلوق أن يعمد في معاملتي الى العنف ، وذلك ايماناً مني بمبدأ لا أحيد عنه ، لأن العنف استبداد • فماذا كان يجب عليَّ أن أفعل ؟ أأبقى أمامها مبســوط الذراعين ؟ كل ما فعلته هو انني دفعتها عني •

كان لوجين ما يزال يقهقه بوحشية :

ــ هيء هيء هيء !•••

ــ أنت تسعى الى مشاجرتي ، لأنك معتكر المزاج • وهذه حماقات لا شأن لها بقضية المرأة اطلاقاً ، اطلاقاً • لقد فهمت الأمر مقلوباً • انني لأعتقد أنه متى اعترف المرء بأن النساء مســاوية للرجال في كل شيء ، حتى في باب القــوة (كما يؤكَّد هذا منذ الآن) ، فقــد وجب الابقــاء على المساواة في هذه الحالة أيضاً • طبعاً ••• أنا قلت لنفسي بعد ذلك ان أمثال هذه المسائل ينبغي أن لا تُطرح أصلاً ، لأن المنازعات ما ينبغي أن توجد ، حتى انها ستكون في مجتمع المستقبل أموراً لا يمكن تصورها ، وانه لشيء غريب ، تبعاً لذلك ، أن ننشد المساواة في مشاجرة • أنا لست غبياً الى الحد الذي ••• رغم أن المشاجرات ما تزال قائمةً طبعاً بانتظار ذلك ••• أعني أن المشاجرات ستزول في المستقبل ، لكنها ما تزال الى اليوم موجودة ••• هوه ! ان المرء ليرتبك حين يكلمك ، وتختلط عليه الأمور ••• مهما يكن من أمر فليس هذا هو السبب في انني لن احضر العشاء • وانما أنا أمتنع عن حضوره تقيداً بالمبدأ ، حتى لا أشارك في هذه العادة السخيفة من العادات الاجتماعية ، أعني مأدبة الجنازة • نعم ، ذلك هو السبب • على انني قد أحضر المأدبة ، ولو لأضحك منها ، واستهزيء بها ••• من المؤسف أنه لن يكون هنالك قس ، والا لما فوّت على نفسي فرصة الحضور •

ـ أى أنك كنت ستجلس الى مائدة النـاس لتبصق بعـد ذلك فى الأطباق ، ولتبصق أيضاً على أولئك الذين دعوك ؟ أليس كذلك ؟

ـ ليس الأمر أمر بصاق بل أمر احتجاج • أنا ان فعلت ذلك فانما أفعله لتحقيق أهداف مفيدة • ففى وسعى بهذا أن أنفع التقدم وأن أنفع الدعاية نفعاً غير مباشر • ان على كل انسان أن يساهم فى تنمية الدعاية ، وكلما فعل ذلك على نحو قاطع كان هذا أجدى • ان فى امكانى أن ابذر الفكرة ، أن ألقى البذرة • ومن هذه البذرة ستخرج حقيقة • فيم اسىء اليهم اذا أنا فعلت ذلك ؟ قد يشعرون فى أول الأمر طبعـاً بأن اسـاءة لحقتهم ، ولكنهم سيرون بعد ذلك هم أنفسهم أننى كنت نافعاً لهم • انظر الى قضية المرأة تيربييفا عندنا (المرأة التى تنتمى الآن الى الكومون) ••• لقد تركت أهلها واستسلمت لرجل ، فأخذوا عليها أنها كتبت الى أبويها قائلة انها أصبحت لا تريد أن تعيش فى الأوهام الاجتماعية ، وانها تؤثر الزواج الحر • لقد قال الناس عندئذ ان تصرفها ازاء أبويها كان فيه كثير من الغلظة ، وانها كانت تستطيع أن تراعيهما وتداريهما ، وكانت تستطيع على الأقل أن تستعمل فى رسالتها أسـلوباً أرق • أما أنا فأرى أن هذا الكلام كله سخف ، وان على المرء أن لا يستعمل أسلوب الرقة أبداً • بالعكس : لا بد من الاحتجـاج ••• وانظر الى المـرأة فارنتس : لقـد عاشت مع زوجها سبع سنين ، ثم تركته وتركت ولديها ؛ وفى الرسالة التى بعثت بها اليه لم تتحرج من شرح رأيها بوضوح تام ، فقالت : « أدركت أننى لن أستطيع أن أكون سـعيدة معك فى يوم من الأيام • ولن أغفر لك ، ما حييت ، أنك أخفيت عنى أن هنـاك تنظيماً آخـر للمجتمع على أساس الكومون • لقد عرفت ذلك حديثاً من رجـل عظيم استسلمت له وسأنشىء معه كوموناً • أقول لك هذا بصراحة ، لأننى أعتقد أنه ليس من الأمانة ولا من الشرف فى شىء أن أكذب عليك وأن أخدعك • دبـّر

أمورك على النحو الذى يرضيك ، ولا تأمل أن ترانى عائدة اليك ••• انك متخلف مسرف فى التخلف • أتمنى لك أن تكون ســعيداً • » •
هكذا انما ينبغى أن تُكتب أمثال هذه الرسائل •

ـ أليست تيربيفا هذه هى تلك التى قلت لى انها الآن فى زواجها الحر الثالث ؟

ـ لا بل هى فى زواجها الحـر الثـانى اذا نحن أحسـنا النظر فى الأمور • وهبها فى زواجها الحر الرابع أو الخامس ، فأى ضير فى هذا ؟ لئن أسفت يوماً على موت أبوىّ فانما أسـفت على ذلك فى هذا اليوم • حتى لقد اتفق لى مراراً أن قلت لنفسى : لو كان أبواى حيين لعرفت كيف أحتج عليهمـا ! نعم ، لو كانا حيين لفعلت ذلك عامداً ، فأظهرتهمـا على آرائى ، وأدهشتهما أيما ادهاش ! حقاً اننى أتمنى لو أراهما حيين ••• حقاً انه ليؤسفنى أنهما ماتا !

قاطعه بطرس بتروفتش قائلاً :

ـ لتستطيع أن تدهشهما ؟ هيء هيء ! ••• طيب ••• افعل مايحلو لك ••• ولكن قل لى : أنت تعرف بنت المتوفى طبعاً ، تلك الفتاة الصغيرة النحيلة ، فهل صحيح ما يقال عنها ؟

ـ ما قيمة هذا ؟ فى رأيى ، أعنى فى قناعتى الشخصية أن وضعها هو الوضع الطبيعى للمرأة • لم لا ؟ أقصد ••• « يجب أن نميّز » •• لا شك أن وضعها هذا ليس فى المجتمع الحالى وضعاً طبيعياً ، لأنه ناشىء عن اضطرار واكراه ، أما فى المجتمع المقبل ، فسيكون وضعاً طبيعياً تماماً ، لأنه سينشأ عن اختيار حر • ثم ان هذه الفتاة من حقها ، الآن أيضاً ، أن تعيش كما تعيش • انها تتألم ، وألمها هو رأس مالها ان صحّ التعبير ، ففى وسعها أن تتصرف فيه على النحو الذى تشاء • صحيح أن رءوس

الأموال هذه لن يبقى لها فى مجتمع المستقبل علة وجود ، ولكن دور البغي سيتخذ دلالة أخرى ، وسيتم تنظيمه تنظيماً عقلياً • ولنرجع الآن الى شخص صوفيا سيميونوفنا : اننى أرى أن سلوكها هو فى هذه الأزمنة احتجاج قوى مجسَّد على نظام المجتمع ؛ وأنا لهذا السبب احترمها احتراماً عميقاً ، بل أكثر من ذلك اننى أغتبط لرؤيتها على هذه الحال•

ـ لكننى سمعتُ أنك قد طردتها من هذا البيت •

اعترت ليبزياتنيكوف حالة غضب شديد عنيف ، وزأر يقول :

ـ هذه أيضاً نمائم ! ان الأمور لم تجر على هذا النحو ، لم تجر على هذا النحو قط ! حقاً انها لم تجر على هذا النحو ! ان كاترين ايفانوفنا هى التى اخترعت كل شىء ، لأنها لم تفهم شيئاً • أنا لم أحاول فى يوم من الأيام أن أحظى بصوفيا سيميونوفنا : كنت أكتفى بتثقيفها بعيداً عن كل مصلحة بريئاً من كل غاية ؛ كنت أحاول أن أنمى فيها روح الاحتجاج • لم أكن فى حاجة الا الى احتجاجها وحده • ثم ان صوفيا سيميونوفنا نفسها قد أدركت حق الادراك أنها أصبحت لا تستطيع أن تقيم هنا فى مسكن مفروش •

ـ هل كنت تدعوها الى الاشتراك فى الكومون ؟

ـ أنت لا تجيد الا السخرية ، ولكنك تخطىء هنا خطأً فادحاً •• اسمح لى أن أقول لك ذلك !••• انك لا تفهم من أمر الكومون شيئاً• فى الكومون ، لا وجود لهذا الدور • وانما نُظمَّت الكومون من أجل أن لا يكون لهذا الدور وجود • فى الكومون سيتغير هذا الدور تغيراً تاماً ، فما هو غبى هنا سيصبح ذكياً هنالك ، وما يبدو هنا فى الظروف الحالية مخالفاً للطبيعة سيصبح هنالك طبيعياً • كل شىء مرهون بالبيئة

التى يعيش فيها الانسان • كل شيء تحدده البيئة ، والانسان في ذاته لا شأن له • أما صوفيا سيميونوفنا فان علاقاتى بها ما تزال طيبة ، وهذا دليل على أنها لم تعددنى في يوم من الأيام عدواً أو مسيئاً • نعم ، اننى أحاول الآن أن أجتذبها الى الكومون ، ولكن لأسباب أخرى تماماً • لماذا تضحك ؟ اننا نريد أن ننشىء كوموناً خاصة بنا ، ولكننا نريد أن ننشىء هذه الكومون على أسس أوسع من الأسس السابقة • لقد مضينا فى اعتقاداتنا الى مدى أبعد ، وأنكرنا أشياء أكثر ، فلو خرج دوبروليوبوف من قبره لتشاجرت معه حتماً ، ثق بذلك ! أما بيلنسكى فلو خرج من قبره لأبدته ابادة ! * وأنا الآن مستمر فى تنشئة صوفيا سيميونوفنا • ان لها طبيعة طيبة حسنة ، حسنة جداً !

ــ هيًّا ! انك تستفيد من هذه الطبيعة الطيبة الحسنة ! هيء هيء !..

ــ أنا ؟ لا ، لا ! بالعكس •••

ــ بالعكس ؟ أأنت تقول هذا الكلام ؟

ــ فى وسعك مع ذلك أن تصدقنى • ما هى الأسباب التى يمكن أن تدفعنى الى اخفاء الحقيقة عنك ؟ هلاَّ أجبتنى من فضلك ؟ نعم ، هناك ظاهرة غريبة : لكأنها معى متحرجة ، وجلة ، بل وخجلة !

ــ وأنت أثناء ذلك مستمر فى تنشئتها ! هيء !••• تبرهن لها على أن أنواع الحياء هذه كلها ما هى الا غباوات وبلاهات !•••

ــ لا ، لا !••• آه ••• ما أغلظ وما أغبى تأويلك هذا لكلمة « التنشئة » ، اعذرنى ! ألا انك اذن لا تفهم شيئاً على الاطلاق ! آه ••• يا رب !••• ما أشد تخلفك حتى الآن !••• نحن ننشد حرية المرأة ، وانت ليس فى رأسك الا ••• اذا تركنا جانباً مسألة العفة بوجه عام ، وهى شيء لا جدوى منه فى ذاته ، بل هى شيء سخيف أيضاً ، فاننى

أقبل تحفظها معى كل القبول : فما دامت هذه ارادتها فمن حقها أن ..
طبعاً ، اذا قالت لى فى ذات يوم : « أنا أريدك » ، فسأعد ذلك حظاً سعيداً ، لأن هذه الفتاة تعجبنى كثيراً . أما الآن ، الآن على الأقل ، فربما كان لا يوجد أحد يعاملها بمثل ما أعاملها أنا به من لطف ومداراة ومراعاة . اننى انتظر وآمل ، هذا كل شيء .

ـ الأفضل أن تقدم اليها هدية صغيرة . أراهن أن هذه الفكرة لم تخطر ببالك ، أليس كذلك ؟

ـ أنت لا تفهم شيئاً ، سبق أن قلت لك ذلك ! صحيح أنها مومس، ولكن المسألة ليست هنا ، ليست هنا البتة ! أنت تحتقرها ، لا أكثر ولا أقل . انك بالاستناد الى واقعة مخلة بالشرف فى رايك ، تابى على كائن انسانى أن ينظر اليها نظرة فيها روح انسانية . الا انك تجهل حتى طبيعتها ! ان هناك شيئاً واحداً آسف له ، هى أنها منذ زمن قد انقطعت عن القراءة انقطاعاً تاماً ، وأصبحت لا تستعير منى أى كتاب . كانت قبل ذلك تستعير منى كتباً . ومما يبعث على الأسف أيضاً أنها رغم كل ما تملكه من طاقة كبيرة ، ورغم كل ما تتصف به من عزم على الاحتجاج ـ لقد سبق أن برهنت على ذلك مرة ـ لا يبدو فيها قدر كاف من الاستقلال ، قدر كاف من ... من السلبية ، قدر كاف من التأهب للتحرر نهائياً من أوهامها الاجتماعية ... وسخافاتها . ومع ذلك فهى تفهم بعض المسائل فهماً رائعاً . لقد أدركت أكمل الادراك مسألة تقبيل اليد ، مثلاً . لقد أدركت أحسن الادراك أن الرجل حين يقبل يد المرأة انما يعدها أدنى منه منزلة وأقل قدراً . لقد ناقشنا هذه المسألة عندنا ، فسرعان ما ناقشتها معها . وقد أصغت الىّ بانتباه شديد أيضاً حين كلمتها عن النقابات العمالية فى فرنسا . وأنا الآن بسبيل أن أشرح

لها مســـألة حرية دخول الغرف على نحــو ما ستُطرح هذه المســألة فى المستقبل •

ـ ما هذه المسألة أيضاً ؟

ـ لقد أثيرت فى الآونة الأخيرة هذه المسألة : هل من حق عضــو فى الكومون ، رجلاً كان أو امرأة ، أن يدخل غرفة عضو آخر ، رجلاً كان أو امرأة ، فى أية ساعة من الســاعات ••• وقد تقرر أن له هذا الحق •

ـ غريب ! ماذا لو كان العضو ، الرجل أو المرأة ، مشغولاً فى تلك الساعة بتلبية حاجة طبيعية ؟ هئ هئ !•••

غضب آندره سيميونوفتش ، وصاح يقول مبغضاً :

ـ آه ••• هأنت ذا تعود الى هذه المسألة ! ان الأمر الهام فى نظرك انما هو هذه « الحاجات » اللعينة ! ألا اننى لأحقد على نفسى لأننى تكلمت أمامك عن هذه الحاجات اللعينة ! شيطان يأخذك ! هذه عثرتك وعثرة جميع أشــباهك • وأنكى ما فى الأمر أنهم يلقــون بهذا على رأسك قبل أن يعرفوا ما هى المسألة • كأن ذلك من حقهم ! وكأن فى ذلك ما يدعو الى الفخر والاعتزاز ! آ ••• لقد ســبق أن قلت غير مرة ان هذه المســألة ما ينبغى أن تُعرض أمام أغرار مبتدئين الا بعد أن يتم اكتسابهم وضمهم الى المذهب • بتعبير آخر : ما ينبغى أن يعالج هذه المسألة الا انسان تطور تطوراً كافياً وتحققت له تنشــئة مناســبة • ثم قل لى : ما الذى تراه فى المراحيض من شئ مخجل الى هذا الحد محتقر الى هذه الدرجة ؟ اننى مستعد لأن أنظف ما تشاء من مراحيض • وصدّقنى اذا قلت لك ان هذا لا ينطوى على أى تضحية من جهتى • ذلك عمل كغيره من الاعمال ، بل انه لأكبر كثيراً من عمل رجلٍ مثل رافائيل أو بوشكين ، لسبب بسيط هو أنه أكثر نفعاً * •

ـ وأكثر نبلاً ، أكثر نبلاً ، هيء هيء !...

ـ ما معنى كلمة « النبل » هذه ؟ انني لا أفهم أمثال هذه التعبيرات حين يكون الأمر أمر وصف نشاط انساني . « أكثر نبلاً ! » . هذه ترهة ، هذه سخافة ، هذا وهم اجتماعي بالٍ أرفضه وأحتقره . الشيء النبيل هو الشيء « النافع » للانسانية . ذلك هو الشيء النبيل حقاً . أنا لا أفهم الا كلمة واحدة ، وهذه الكلمة هي : « النافع » . اضحك ما شاء لك هواك أن تضحك ، فذلك هو اعتقادي !

كان بطرس بتروفتش يتمطى . لقد انتهى من حساباته وأخذ يرتّب ماله . ولكنه أبقى جزءاً من هذا المال على المائدة ، لا يدري أحد لماذا .

ان مسألة المراحيض هذه كانت ، رغم تفاهتها ، سبباً لمشاجرات عدة بين بطرس بتروفتش وصديقه الشاب . والغباء في الأمر أن آندره سيميونوفتش كان يغضب فعلاً ، أما لوجين فما كان يرى في هذا الا فرصة للتسلية والاسترخاء . وكان في تلك اللحظة خاصة يشتهي أن يُغيظ ليبزياتنيكوف .

ـ بسبب اخفاقك مساءَ أمس انما أنت معتكر المزاج الى هذا الحد اليوم .

بهذا الكلام أفلت أخيراً لسان ليبزياتنيكوف الذي كان رغم كل « استقلاله » ورغم كل روح « الاحتجاج » لديه ، لا يجرؤ في العادة ان يعارض بطرس بتروفتش معارضة صريحة ، وكان على وجه العموم يلتزم في معاملته ما ألف أن يلتزمه في معاملته منذ شبابه من كياسة وأدب واحترام .

وقد قاطعه بطرس بتروفتش قائلاً بتعالٍ وامتعاض :

ـ قل لى : هل تستطيع أو هل أنت على قدر كاف من حسن الصلة وعمق المودة مع الفتاة المذكورة بحيث يمكنك أن ترجوها أن تأتى الى هنا حالاً ؟ أظن أنهم لا بد أن يكونوا قد عادوا الآن جميعاً من المقبرة. لقد سمعت وقع أقدام ، و ... أودُّ لو أرى هذه الفتاة .

سأله ليبزياتنكوف مدهوشاً :

ـ ولكن لماذا ؟

فأجابه :

ـ هكذا ... يجب أن أكلمها . اننى مسافر بين يوم ويوم ، وأحب أن أنقل اليها ... فى وسعك أن تحضر حديثنا على كل حال ، بل ذلك أفضل ، والا فقد تتخيل ما لا يعلمه الا الله !...

ـ لن أتخيل شيئاً البتة . وانما أنا ألقيت سؤالى هكذا ... فاذا كنت فى حاجة الى أن تراها فلا أسهل من احضارها . أنا ذاهب لأجيئك بها . وثق اننى لن أزعجك .

وعاد ليبزياتنيكوف مع صونيا فعلاً بعد خمس دقائق . دخلت صونيا مدهوشة أشدَّ الدهشة ، خجلة وجلةً الى أقصى حد ، على عادتها . انها خجلة وجلة دائماً فى مثل هذه الأحوال . كانت منذ طفولتها تخشى التعرف الى أناس جدد ، وتخاف من الوجوه الجديدة ، وقد تفاقم هذا الميل عندها مزيداً من التفاقم الآن .

استقبلها بطرس بتروفتش استقبالاً « لطيفاً مهذَّباً » ، ولكنه أضاف الى هذا الاستقبال ، والحق يقال ، نوعاً من المرح والألفة يليقان ، فى رأيه ، برجل يبلغ ما يبلغه هو من جد ووقار واحترام ، حين يعامل مخلوقة شابة الى هذا الحد ، « شائقة » الى هذه الدرجة ، بمعنى من المعانى .

وأسرع بطرس بتروفتش «يطمئن» صونيا سيميونوفنا ، ويجلسها أمام المائدة قبالته. جلست صونيا وألقت نظرة حولها ـ على ليبزياتنيكوف، وعلى المال الموضوع على المائدة ، ثم على بطرس بتروفتش فجأة من جديد • ومنذ تلك اللحظة لم تحول بصرها عنه ، كأن شيئاً ما كان يشدها اليه •

اتجه ليبزياتنيكوف نحو الباب ، فنهض بطرس بتروفتش ، وأمسك ليبزياتنيكوف وهو يدعو صونيا باشارة من يده الى أن تبقى جالسة • وقال يسأل صاحبه همساً :

ـ هل راسكولنيكوف ذاك هناك ؟ هل جاء ؟

فأجابه ليبزياتنيكوف :

ـ راسكولنيكوف ؟ نعم ، هو هناك • فماذا ؟ نعم ، هو هناك • وصل منذ قليل ، رأيته • فماذا ؟

ـ أطلب منك ملحاً أن تبقى معنا ، أن لا تتركنى فى خلوة مع هذه ••• الفتاة • هذه قضية لا قيمة لها ، ولا يعلم الا الله ما عسى يستنتج منها اذا ••• لا أريد أن يمضى راسكولنيكوف يتقول « هناك » ••• هل تفهم الى ماذا أشير ؟

أجاب ليبزياتنيكوف وقد أدرك الأمر :

ـ أفهم ، أفهم • نعم ، أنت على حق • فى قناعتى الشخصية أنك تضخم الأخطار تضخيماً كبيراً ••• ولكنك مع ذلك على حق • طيب• سأبقى • سأمكث هنا ، قرب النافذة ، حتى لا أضايقك ••• فى رأيى أنك على حق ••

عاد بطرس بتروفتش نحو الأريكة ، وجلس قبالة صونيا ، ونظر

اليها بانتباه ، ثم لم يلبث أن اصطنع هيئة فيها كثير من الوقار والجد حتى لتكاد تكون نظرة قاسية ، وهو يقول لها بينه وبين نفسه « لا تخطرن ببالك الخواطر يا جميلة ! »

اضطربت صونيا وفقدت كل سيطرة لها على نفسها . وبدأ بطرس كلامه فقال بلهجة فيها كثير من الجد ، ولكنها لهجة متوددة فى الوقت نفسه :

ــ أرجوك أولاً أن تتكرمى يا صونيا سيميونوفنا ، فتعتذرى عنى لأمك المحترمة ... أليست كاترين ايفانوفنا بمثابة الأم لك ؟ أليس هذا صحيحاً ؟

كان يبدو على بطرس بتروفتش أنه يضمر أحسن نيات الصداقة . فأسرعت صونيا تجيبه مروّعة مذعورة :

ــ نعم ، حقاً ، هى لى بمثابة الأم .

ــ فاعتذرى لها عن أننى لا أستطيع ، بسبب ظروف مستقلة عن ارادتى ، أن أجىء الى عندكم فآكل المعجّنات ... أقصد أن أشارك فى مأدبة الجنازة ، رغم الدعوة اللطيفة التى وجهتها الىّ .

ــ سأقول لها هذا ، فوراً ...

قالت صونيا ذلك ونهضت مسرعة .

فقال بطرس بتروفتش وهو يمنعها من القيام ، ويبتسم لسذاجة الفتاة ولجهلها بالمواضعات الاجتماعية :

ــ ليس هذا كل شىء « بعد » . انك لتجهليننى اذن ، يا صونيا سيميونوفنا اللطيفة جداً ، اذا كنت تتصورين اننى لسبب يبلغ هذا المبلغ

من التفاهة ولا يتعلق الا بى أنا ، يمكن أن أسمح لنفسى بأن أزعج شخصاً مثلك . ان لى هدفاً آخر تماماً .

عادت صونيا تجلس بسرعة شديدة، وأخذت الأوراق المالية وأنواع العملة الباقية على المائدة تتراقص أمام عينيها من جديد ، فسرعان ما اشاحت وجهها عنها بقوة ، ونظرت الى بطرس بتروفتش . لقد لاح لها فجأةً أنه عار رهيب عليها أن تنظر الى مالٍ ليس مالها ، لا سيما « وهى ما هى » . تلبث بصرها فى أول الأمر على النظارة ذات الاطار الذهبى ، التى كان بطرس بتروفتش يمسكها بيده اليسرى ، وتلبَّث فى الوقت نفسه على الخاتم الجميل جداً ، الضخم جداً ، المزدان بحجر أصفر ، الساطع فى الأصبع الوسطى من تلك اليد نفسها . ولكنها حوّلت بصرها فجأة ، واذ لم تعرف الى أين توجه عينيها ، حدّقت بهما الى عينى بطرس بتروفتش لا تحركهما يمنة ولا يسرة .

وبعد فترة من صمت تابع بطرس بتروفتش كلامه بلهجة فيها مزيد من الجد أيضاً :

ـ أتيحت لى أمس فرصة تبادل بضع كلمات مع المسكينة كاترين ايفانوفنا ؛ فأدركت من تلك الكلمات القليلة وحدها أن كاترين ايفانوفنا تعيش فى حالة منافية للطبيعة ، ان صح التعبير .

فقالت صونيا مؤيدة :

ـ نعم ... فى حالة منافية للطبيعة .

ـ أو فى حالة مرضية اذا أردنا الكلام بلغة أبسط وأوضح .

ـ ، نعم ، اذا أردنا الكلام بلغة أبسط وأوضح ... نعم ... هى مريضة .

ـ هذه هى المسألة ••• وقد هزتنى مشاعر انسانية ومشاعر عطف ان صح التعبير ، فوددت لو أنفعها فى شىء ما ، لأننى أتنبأ بالمصير الشقى البائس الذى ستئول اليه لا محالة • يُخيَّل الىّ أن الأسرة التعيسة كلها قد أصبحت تعتمد عليك وحدك •

سألته صونيا فجأة :

ـ اسمح لى أن أسألك ••• هل صحيح أنك كلمتها أمس عن امكان الحصول على معاش تقاعد ؟ •••• لقد قالت لى أمس انك مستعد لأن تتولى القيام بالمساعى اللازمة من أجل أن تحصل لها على هذا المعاش• فهل هذا صحيح ؟

ـ غير صحيح البتة ، بل هو أيضاً سخف • كل ما فعلته هو اننى أشرت الى جواز الحصول على نجدة موقتة يمكن أن تُدفع لأرملة موظف مات أثناء الخدمة ـ وهذا لا يتحقق طبعاً الا اذا كان هنالك أناس يرعون هذه الأرملة ويحمونها ـ ولكننى أعتقد أن أباك لم يستوف عدد السنين المطلوبة فى الوظيفة ، حتى انه فى الآونة الأخيرة فقد صفة الموظف • ومعنى ذلك ، باختصار ، أن الأمل الصغير الذى كان يمكن أن يراودنا يضعف فى هذه الأحوال مزيداً من الضعف ، لأن حق أبيك فىالتعويض لا وجود له ••• بالعكس ••• فما أغرب أن تفكر أمك منذ الآن فى معاش !••• هىء هىء هىء ! يا للسيدة المتعجلة !••

ـ نعم ••• هى •• معاش •• لأنها سريعة التصديق •• وطيبة•• وهى لأنها طيبة ، تظن أن ••• وتصدِّق ••• ثم ان فكرها قد خلق هكذا • نعم •• معذرة ••

كذلك قالت صونيا مشوشة وهى تنهض من جديد لتنصرف •

قال بطرس بتروفتش :

ـ اسمحي لي ! ... انك لم تسمعي بعدُ كل شيء .

فجمجمت صونيا تقول :

ـ نعم ، لم أسمع بعدُ كل شيء .

وعادت صونيا تجلس مرة ثالثة وقد بلغت ذروة الارتباك والاضطراب .

وتابع بطرس بتروفتش كلامه فقال :

ـ انني ، وقد رأيت الحالة التي هي فيها مع ولدين باءسين ، رغبت، كما سبق أن قلت لك ذلك ، في أن أكون نافعاً لها بمقدار ما تتيحه لي وسائلي ، نعم بمقدار ما تتيحه لي وسائلي لا أكثر من ذلك . فمن الممكن مثلاً أن ننظم اكتتاب تبرعات ، أو حتى أن ننظّم سحب يانصيب ، أو أي شيء آخر من هذا القبيل ... كما يحدث هذا في حالة كهذه الحالة بين الأقارب أو حتى بين أجانب يريدون أن يهبوا الى مساعدة أناس نزلت بهم مصائب الدهر . فعن هذا المشروع انما أردت أن أحدثك . انه مشروع ممكن التحقيق .

تأتأت صونيا تقول محدقةً الى بطرس بتروفتش في عناد واصرار:

ـ نعم ، ذلك شيء حسن جداً ... جزاك الله خيراً ...

ـ الأمر ممكن ، ولكن ... سنتكلم عن هذا فيما بعد ... بل يمكننا أن نبدأ منذ اليوم . على كل حال سنلتقي في هذا المساء ، وسنتفق. سنرسي الأسس ، كما يقال . تعالي اليّ هنا في نحو الساعة السابعة ... وسيحضر آندره حديثنا فيما آمل ... غير أن هناك أمراً يجب أن نبرزه ابرازاً خاصاً منذ الآن. ومن أجل هذا الأمر ياصونيا سيميونوفنا انما أبحت لنفسي أن أزعجك باستدعائك الى هنا . في رأيي أن المال الذي سنجمعه يجب أن لا نضعه بين يدي كاترين ايفانوفنا نفسها ، حتى ان في ذلك

خطراً • ومأدبة هذا المساء دليل واضح على ذلك : ان كاترين ايفانوفنا وهى لا تملك لقمة تضعها تحت ضرسها غداً ، ولا تملك حذاءين تنتعلهما فتقى نفسها السير حافية ، لا تحجم اليوم عن شراء خمرة الروم الجامايكى بل والنبيذ الماديرى والقهوة ، اذا لم يخطىء ظنى • لقد رأيت هذا كله عابراً • وغداً يقع كل شىء على عاتقك أنت ، ويكون عليك أن تقدمى لهم حتى خبزهم اليومى ، وذلك أمر لا يُعقل ! لهذا أرى أن ينظم اكتتاب التبرعات بحيث لا تتمكن الأرملة المسكينة من أن ترى حتى لون المال ان صح التعبير ، وبحيث لا يطلع على الأمر أحد غيرك أنت • ألست على حق ؟

ــ لا أدرى ! ••• فى هذا اليوم وحده انما هى •• ذلك لا يحدث الا مرةً واحدة فى الحياة ••• انها شديدة الرغبة فى أن تكرم ذكرى الراحل ••• وهى ذكية جداً • على كل حال ، افعلْ ما تراه مناسباً •• وسأكون ••• وسيكونون جميعاً ••• وسيجزيك الله عن ذلك خير الجزاء ••• واليتامى ••

لم تكمل صونيا جملتها ، وأُجهشت باكية •

قال بطرس بتروفتش :

ــ فكّرى جيداً فيما قلته لك • والآن أرجو بانتظار ذلك أن تقبلى عن أمك هذا المبلغ مشاركةً منى فى اكتتاب التبرعات • وانى لآمل خاصةً أن لا يُذكر اسمى فى هذه المناسبة • يؤسفنى أن أعبائى الكثيرة لا تسمح لى بالتبرع بأكثر من هذا المبلغ •••

قال بطرس بتروفتش ذلك ومدّ الى صونيا ورقة مالية بعشرة روبلات عُنى بطيّها طياً دقيقاً • فتناولت صونيا الورقة المالية محمرّة الوجه خجلاً ، ثم نهضت بوثبة واحدة ، ودمدمت ببضع كلمات ،

واستأذنت بالانصراف مسرعةً اسراعاً شديداً• فشيَّعها بطرس بتروفتش حتى الباب بأبهة وجلال • وخرجت آخر الأمر من الغرفة متعجلةً عصبيةً مرهقة ، وعادت الى كاترين ايفانوفنا وهى على حال من الاضطراب الشديد •

طوال المدة التى استغرقها هذا المشهد كان آندره سيميونوفتش ، الذى لم يشأ أن يقطع عليهما الحديث ، كان يبقى ساكناً قرب النافذة تارة ، أو يسير فى الغرفة تارةً أخرى • فلما خرجت صونيا اقترب من بطرس بتروفتش فجأة ، ومدَّ اليه يده يصافحه برصانة ووقار ، قائلاً له :

ـ لقد سمعت كل شىء و « رأيت » كل شىء (ألحَّ آندره سيميونوفتش على كلمة « رأيت » هذه الحاحاً خاصاً) • هذا عمل نبيل ، أقصد هذا عمل انسانى ! لقد أردت أن تتحاشى كل تعبير عن الشكر والامتنان ، لاحظتُ أنا ذلك • صحيح أننى من ناحية المبدأ أعارض كل احسان أو بر ، لأن الاحسان أو البر لا يستأصل الشر بل يبقيه ويغذيه ، ولكننى لا أملك مع ذلك الا أن اعترف بأننى تأملت عملك بشىء من الرضى والمسرَّة واللذة • نعم نعم ، أعجبنى عملك •

جمجم بطرس بتروفتش يقول متأثراً بعض التأثر ، متأملاً ليبزياتنيكوف فى شىء من الحذر والريب :

ـ هذه كلها أمور تافهة !

ـ لا ، ليست أموراً تافهة ! ان رجلاً جُرِح جرحاً حاداً كما جُرِحت أنت باساءة الأمس ، ثم هو قادر فى الوقت نفسه على أن يفكر فى شقاء الآخرين وبؤسهم ، ان رجلاً كهذا الرجل ـ رغم أنه بتصرفه على هذا النحو يرتكب خطأ من الناحية الاجتماعية ـ جدير بالتقدير

خليق بالاحترام • الحق أننى لم أكن أتوقع هذا منك يا بطرس بتروفتش ، لا سيما وأن آراءك ••• آه ••• ما أشد الحرج الذى ماتزال تسببه لك هذه الآراء ! ما أشد تأثرك مثلاً بقضية الأمس تلك ! (بهذا هتف آندره سيمونوفتش الطيب ، وقد شعر نحو بطرس بتروفتش بمودة ومحبة على حين فجأة) ولكن لماذا ، لماذا حرصت هذا الحرص كله على ذلك الزواج « الشرعى » ، يا بطرس بتروفتش ، النبيل جداً ، اللطيف جداً ، ما حاجتك الى هذه « الشرعية » فى الزواج ؟ اضربنى ان شئت ، ولكننى أشعر بسعادة حين أتذكر أن هذا الزواج لم يتم ، وأنك حر ، وأنك لم تمت بعدُ موتاً تاماً بالنسبة الى الانسانية • نعم ، أشعر بسعادة حين أتذكر ذلك • هأنت ذا ترى أننى أصارحك بما فى قلبى •

أجاب لوجين من أجل أن يقول شيئاً ما :

ـ اذا كنت أحرص على الزواج ، فلأننى لا أريد أن ينبت لى قرنان ، وأن أربى أولاد الآخرين ، كما يحدث فى الزواج الحر الذى تدعون اليه •

ضرب آندره سيميونوفتش الأرض بقدمه كحصان المعركة سمع صوت البوق ، وسأل صاحبه متحمساً :

ـ الأولاد ؟ قلتَ الأولاد ؟ اننى أسلّم بأن الأولاد يثيرون مشكلة اجتماعية هامة جداً ، ولكن مسألة الأولاد ستُحل بطريقة أخرى تماماً• ان بعضهم يمضى الى حد انكار الأولاد انكاراً تاماً ، كما ينكر كل اشارة الى الأسرة على كل حال • وسنتحدث عن مشكلة الأولاد فيما بعد • أما الآن فلنقف على مسألة القرنين هذه ، لأننى أحبها حباً خاصاً • ألا فاعلم ان هذا التعبير السىء المستمد من لغة الفرسان ، المستعار من كلام رجال مثل بوشكين ، سوف يُنبذ من معاجم المستقبل نبذاً تاماً • ما هذه القرون

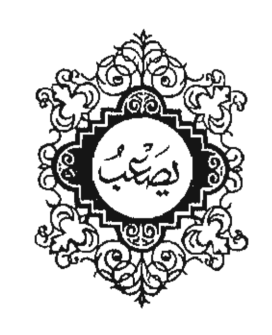
التي تتحدثون عنها ؟ هه ! لماذا تتحدثون عن قرون ؟ نعم ، هناك قرون . ولكن الزواج الحر هو الذي لن يكون فيه قرون ! ليست القرون الا نتيجة طبيعية للزواج الشرعي . انها الاقتصاص منه ان صح التعبير . انها الاحتجاج عليه . وبهذا المعنى يمكن أن نصفها بأنها ليس فيها حتى شيء من مذلة . فلو اضطررت يوماً أن أتزوج زواجاً شرعياً ــ وهذا افتراض مستحيل ــ لكان يسرني ويسعدني أن ينبت لي قرنان من تلك القرون التي تتحدثون عنها . سوف أقول عندئذ لزوجتي : « ياصديقتي ، أنا حتى هذه اللحظة لم أزد على أن أحببتك ، أما الآن فانني أضيف الى الحب احتراماً ، لأنك عرفت كيف ترفعين احتجاجاً » . أتضحك ؟ أنت تضحك لأنك لا تملك من القوة ما يمكنك من التحرر من الأوهام الاجتماعية . أنا أفهم أن يمتعض الزوج من خيانة زوجته في الزواج الشرعي ، ولكن هذا بعينه انما هو النتيجة البائسة لواقعة هي أيضاً بائسة ، بالنسبة الى الطرفين كليهما . أما حين يحمل الرجل قرنين صراحة ، كما هي الحال في الزواج الحر ، فان القرنين ينعدم عندئذ وجودهما ان صح التعبير ، ويصبح من غير الممكن تصورهما ، ويفقدان حتى اسم القرنين ؛ بل ان في وسعي أن أقول ان امرأتك تبرهن لك بذلك على مدى احترامها لك ، لأنها حكمت عليك بأنك لا تستطيع أن تحول بينها وبين سعادتها ، وبأنك متطور متقدم الى الحد الذي يمنعك من الانتقام منها بسبب أنها اتخذت لها خليلاً جديداً . يميناً انه ليخطر ببالي أحياناً انني اذا تزوجت ــ زواجاً حراً أو زواجاً شرعياً ، سيان ــ فلربما أجيء لامرأتي بعشيق متى تأخرت عن اتخاذ عشيق من تلقاء نفسها . ولأقولن لها عندئذ : « يا صديقتي ، أنا أحبك ، ولكنني أريد بالاضافة الى ذلك أن تحترميني . انني أحرص على هذا . اليك عشيقاً ! » . ألست على حق ؟ ألست على حق ؟

كان بطرس بتروفتش يصغى اليه ضاحكاً ، ولكن دون أن يبدى كثيراً من الاهتمام ، حتى انه لم ينتبه الى الكلام الا قليلاً ، لأنه كان يفكر فى شيء آخر تماماً ، وقد لاحظ ليبزياتنيكوف ذلك آخر الأمر .

لقد كان بطرس بتروفتش يعانى اضطراباً شديداً ، فكان يفرك يديه ويمعن فى التفكير .

ذلك كله تذكره آندره سيميونوفتش فيما بعد ، وفهمه .

الفصل الثاني



علينا أن نحدد ، على وجه الدقة ، الأسباب التي أنبتت في دماغ كاترين ايفانوفنا المختل فكرة مأدبة الجنازة هذه . لا بد أنها أنفقت على هذه المأدبة قرابة عشرة روبلات من العشرين روبلاً التي أخذتها من راسكولنيكوف لانفاقها على احتفالات الدفن . لعل كاترين ايفانوفنا كانت تعتبر نفسها مضطرة الى تكريم ذكرى الراحل تكريماً «لائقاً» ، حتى يعلم جميع المستأجرين ، ولا سيما آماليا ايفانوفنا ، أن « الراحل لم يكن أدنى قيمةً منهم ، بل ربما كان أعلى كثيراً » ، وأنه ما من أحد منهم يحق له بعد اليوم أن « يُدلّ بنفسه » حين يفكّر فيه . ولعلها كانت تنقاد خاصةً « لزهو الفقراء » ذاك الذي يدفع كثيراً من البؤساء بمناسبة بعض الاحتفالات التي لا يستطيعون التملص منها بسبب عاداتنا المتأصلة ، الى أن يبذلوا آخر ما يملكون من قوى وآخر ما يملكون من مال ، حتى لا يكونوا « دون الآخرين » وحتى لا « يحكم عليهم » الآخرون . ومن الجائز جداً كذلك أن تكون كاترين ايفانوفنا في ذلك الظرف بعينه ، أي في اللحظة التي بدا فيها أن الجميع هجروها ، قد أرادت أن تبرهن لجميع أولئك « المعوزين » الذين هم المستأجرون ، أنها امرأة تعرف كيف تعيش وكيف تستقبل ، وأنها نشأت لتحيا طرازاً من الحياة مختلفاً عن هذا الطراز كل الاختلاف ، وأنها تربّت في « منزل نبيل ، منزل ارستقراطي ، منزل كولونيل » ، وانها اذن لم تُخلق لتتولى

بنفسها كنس الأرض وغسل أسمال الأولاد فى الليل • ان اندفاعات الزهو والصلف والغرور هذه تستبد أحياناً بأشد الناس فقراً ، وتستبد بأناس مهجورين ليس لهم أحد ، ولا يندر أن نرى هذه الاندفاعات تستحيل فى بعض اللحظات الى حاجات حقيقية ، حاجات ماسة قوية • ثم ان كاترين ايفانوفنا ليست من تلك النساء اللواتى يُجندلن بسهولة : فمهما تكن الظروف رهيبة ، فلا شيء يمكن أن « يجهز » على عزيمتها وأن يهدّم ارادتها • ثم ان صونيا كانت على حق حين قالت ان دماغ أمها قد أخذ يختل قليلاً قليلاً • الواقع أن الأمر لم يتضح بعد ، ولكن لا شك أن كاترين ايفانوفنا قد تحمّلت من المحن منذ بعض الوقت ، ولا سيما فى السنة الأخيرة ، ما لا بد أن يكون له أثر فى عقلها • ثم ان مرض السل يهيىء المصاب به لاضطراب الملكات العقلية متى بلغ مرحلة معينة •

لم تكن « الخمور » كثيرة جداً ولا متنوعة جداً ، ولم يكن هناك خمرة ماديرية ، فتلك مبالغة • ومع ذلك كان ثمة خمرة : نبيذ وفودكا وروم وبورتو • وكان هذا كله من أنواع رديئة طبعاً ، ولكن مقاديره كانت كافية • وقد هيأوا ، بالاضافة الى حلوى الأرز التقليدية ، صنفين أو ثلاثة أصناف من الطعام (منها فطائر) أُعدّت فى مطبخ آماليا ايفانوفنا • وحُضّر سماوران لمن يريدون أن يشربوا الشاى أو يحتسوا « البنش » بعد الوجبة • ان كاترين ايفانوفنا هى التى تولّت بنفسها شراء الأشياء ، يساعدها فى ذلك أحد المستأجرين وهو بولندى رث مسكين لا يعلم الا الله لماذا يسكن عند السيدة ليفكسل• ان هذا البولندى لا يكف عن السعى هنا وهناك ماداً لسانه (كأنه كان يحاول أن يلفت الانتباه خاصةً الى هذا الأمر) ؛ وهو فى كل لحظة ، بأى مناسبة وبغير مناسبة ، يخف الى كاترين ايفانوفنا ، ويلاحقها الى السوق ، ويغدق

عليها لقب « السيدة الليوتنانة* » بغير حساب ، الى أن ضاقت به ونفد صبرها عليه ، مع أنها كانت قد أعلنت فى أول الأمر أنها لولا هذا الرجل لضاعت . لقد كان من طبع كاترين ايفانوفنا أن تضفى أجمل الألوان على على أول شخص تلقاه ، وأن تغرقه بالمدح الى أن يشعر بحرج وخجل ، وأن تنسب اليه مزايا لا وجود لها فى الواقع ــ ولكنها تعتقد هى بوجودها صادقة غير مرائية ــ ثم اذا « بأوهامها تتبدد » ، واذا هى تخاشنه وتغلظ له القول ، واذا هى آخر الأمر تطرد ذلك الشخص نفسه الذى كانت تقدسه تقديساً منذ ساعات قليلة . ان لها طبعاً مرحاً ميالاً الى التسامح ، ولكنها بسبب أنواع المصائب وصنوف الاخفاق التى تلاحقت عليها أخذت « تطالب » فى كثير من الحدة والمرارة أن يعيش جميع الناس حياة هدوء وفرح ، وأن لا يجرؤ أحد أن يعيش على غير هذا النحو ؟ فاذا حدث أيسر نشاز أو أقل فشل خرجت عن طورها . فهى بعد أن تكون قد هدهدت نفسها بأقوى الآمال وأجمل الأمانى وأسطع الأخيلة وأبهى الأوهام تأخذ ، فى لحظة واحدة ، تلعن الأقدار وتشتم الدهر ، وترغى وتزبد ، وتعصف وترعد ، وتخرب كل ما يقع تحت يدها ، وتضرب برأسها الجدران .

وقد اكتسبت آماليا ايفانوفنا ، هى أيضاً ، على حين فجأة ، قيمة عظيمة وشأناً كبيراً فى نظر كاترين ايفانوفنا ، لا يدرى أحد لماذا ... فأصبحت كاترين تقدر آماليا قدراً عظيماً وتحترمها احتراماً هائلاً ... ولكن لعل مردّ ذلك الى المأدبة التى تريد كاترين أن تقيمها ، والى أن آماليا قد عرضت من تلقاء نفسها أن تشارك فى اعداد هذه المأدبة : لقد تعهدت آماليا بنصب المائدة ، وتقديم المفرش ، وتأمين الصحون ، الخ ، وتعهدت باعداد الطعام فى مطبخها . حتى ان كاترين ايفانوفنا نفسها ،

حين ذهبت الى المقبرة ، قد خولتهـا كل السـلطات ، وفوّضتها فى كل أمر ؛ والحق أن كل شيء قد أُعدّ على أحسن وجه ، وهيئت المائدة تهيئة لا مأخذ عليها • صحيح أن الصحون والشوكات والسـكاكين والكئوس الكبيرة والصغيرة ، والفناجين ، كانت مختلفة غير متجانسة ، من مصـادر شتى وأنواع متباينة ، لأنها استعيرت من مستأجرين مختلفين ، ولكن كل شيء كان فى الساعة المحددة قد وُضع فى مكانه ، حتى ان آماليا ايفانوفنا التى كانت تشعر بأنها قامت بواجبها ونهضت بمهمتها على خير وجه ، والتى كانت تتحلى بثوبها الأسود وتضع على رأسها قبعة تزينها أشرطة صغيرة جديدة ، قد أخذت تستقبل المدعوين ، عند عـودتهم من المقبرة ، بشيء من الافتخار والاعتزاز • وهـذا الاعتزاز ، رغم أنه مشروع ، قد سـاء كاترين ايفانوفنا، لايدرى المرء لماذا ! فكانت كاترين تقول لنفسها : «لكأننا لم نكن لنستطيع أن نعد المائدة بدون آماليا ايفانوفنا ! » • وكذلك ساءتها القبعة ذات الأشرطة الجديدة• فكانت تقول لنفسها: « تـُرى ألن تتباهى هذه الألمانية بأنها مالكة البيت ، وبأنها تفضلت وتنازلت فساعدت سكان بيتها المساكين من باب البر والاحسـان ؟ ان المـائدة ، فى منزل والد كاترين ايفـانوفنا الذى كان كولونيلاً وكان شـبه حاكم ، كانت تـُعدُّ أحيـاناً لأربعين ضيفاً ، وما كان لامرأة مثـل آماليـا ايفـانوفنا أو قولوا آماليـا لودفيجوفنا أن تـُقبل هنالك فى المطبخ ! » • واشتد أزر كاترين ايفانوفنا بهذه الخاطرة ، فاكتفت مؤقتاً بأن تظهر لآماليا ايفانوفنا شـيئاً من الفتـور والبرود • وهناك ظرف مزعج آخر ساهم بعض المسـاهمة فى احنـاق كاترين ايفانوفنا : وهو أن المستأجرين الذين دُعوا الى الجنازة لم يكد يشترك أحد منهم فى الموكب ، عدا البولندى الذى شيّع جثمان المتوفى الى المقبرة • أما المأدبة أو قل وجبة الطعام الخفيفة فان الفقراء والتافهين

وحـدهم هم الذين حضروها ، حتى ان بعضهم قد جـاء اليها بثياب هى خرق رثة وأسمال بالية : أى أن الاحتفال لم يكن فيه على وجه الاجمال شيء من أبهة. لكأن المتقدمين فى السن وأهل الجد والوقار من المستأجرين قد تعاهدوا فيما بينهم على أن يمتنعوا عن الحضـور • من ذلك مثلاً أن بطرس بتروفتش لوجين ، وهو الذى يمكن أن يقـال انه أعلاهم قدراً وأرفعهم شـأناً ، لم يحضر المأدبة ، مع أن كاترين ايفـانوفنا قد أعلنت جهـاراً منذ العشـية للجميع (لآماليا ايفـانوفنـا وبوليتشـكا وصـونيا والبولنـدى) أن بطرس بتروفتش رجل من أنبل النـاس وأكرمهم ، وأنه ذو صلات عالية ، وأنه غنى جداً ، وأنه كان صديقاً لزوجها الأول، وانه قد سبق أن استُقبل فى منزل أبيها ، وأنه لذلك قد وعد ببذل جميع المساعى من أجل أن تحصل على معاش تقاعدى كبير •

يجب أن نذكر هنا أن كاترين ايفانوفنـا اذا اتفق لهـا أن أطرت شيئاً من الأشياء ، كعلاقات عالية أو ثروة طائلة ، فانها تفعل ذلك دائماً مبرأةً من المصلحة منزهة عن المنفعة ، لا يدفعها اليه أى حساب شخصى، وانما هى تفعله بنوع من كرم فياض وحماسة دافقة ، لا ترجو الا لذة مدح أحد الناس واضفاء قيمة كبيرة عليه •

وكما امتنع لوجين عن حضور المأدبة ، امتنع كذلك عن حضورها ــ ربما من باب « الاقتداء به » ــ ذلك الوغـد المشـئوم ليبزياتنيكوف • « ماذا يظن نفسه ؟ نحن ما دعوناه الا شفقة عليه وبراً به ، نحن مادعوناه الا لأنه يسكن فى نفس الغرفة التى يسكن فيها بطرس بتروفتش الذى هو من معارفنا وأصحابنا ، فكان من المحرج لنـا أن لا ندعوه ••• » • وهناك سيدة وابنتها (والابنة متقدمة قليلاً فى السن) لم تلبيـا الدعوة أيضاً • ان هاتين المرأتين ، رغم أنهما لا تسكنان عند آماليا ايفانوفنا الا منذ أسبوعين ، قد شـكتا عـدة مرات من الضجة والصرخات الآتية من

غـرفة أسرة مارميلادوف ، ولا سيما حين كان المتوفى يعـود الى البيت سكران ، وهذا أمر قد وصل الى مسامع كاترين ايفانوفنا طبعاً عن طريق آماليا ايفانوفنا ، وذلك حين هددتها هذه ، أثنـاء تشـاجرها معها ، بأنها ستطردها من البيت هي وأسرتها ، صارخةً بأعلى صوتها أنهم « يزعجون جيراناً نبـلاء لا يرقون هم الى مسـتوى نعالهم » • ولقد قررت كاترين ايفانوفنـا ، عامـدةً ، أن تدعو هـاتين المرأتين اللتين « لا ترقى هي الى مستوى نعليهما ! » ، وكانت تحـرص على دعوتهما حرصاً خاصـاً لأنها كانت اذا اتفق أن التقت باحـدى هاتين المرأتين تراها تشيح عنها وجهها باحتقار • قالت كاترين ايفانوفنا لنفسها : « بهذا تعرفان أننا نمضي بالنبل الى حدّ نسيان الاساءات والاهانات ، وسيكون في وسعهما بهذه المناسبة نفسها أن تدركا أن كاترين ايفانوفنا لم تألف أبداً أن تعيش فى ظروف كهذه الظروف • » • وكانت تنـوى أن تشرح لهما هذه الحقيقـة على المـائدة ، وأن تحـدثهما كذلك عن منصب « الحاكم » الذى كان يحتله المرحوم أبوها ، وربما استطاعت كذلك أن تُسمعهما بطريقة غير مباشرة أنه لا داعى لأن تشيحا بوجهيهما حين تلقيانها ، وأن هذه الحركة حركة غبية •

وقد غاب عن المأدبة أيضاً رجلٌ ضخم الجسم يقـولون انه ليوتنان كولونيل (وهو فى حقيقته كابتن محال على التقاعد) ؛ ولكن عُلم أنه « طريح الفراش » من فرط السكر منذ الليلة البارحة •

الخلاصـة أنه لم يحضر المأدبة الا هؤلاء : البولنـدى ؛ وموظف هزيل قميء يرتدى فراكاً وسخاً وينشر رائحة كريهة ؛ ورجل آخـر عجوز قصير أصم يكاد يكون أعمى ، كان فى الماضى يشغل وظيفة فىادارة البريد لا يدرى أحد ما هى ، وهناك مجهول يدفع عنه أجرة غرفته عند آماليا ايفانوفنا منذ مدة طويلة لا يدرى أحـد لماذا ؛ وقد جاء الى المأدبة

ليوتنان متقاعد سكران لم يكن في حقيقة أمره الا موظفاً في ادارة التموين ، وهو ينفجر ضاحكاً ضحكاً سفيهاً في كل لحظة ، ولا يرتدي صديرة فتصوروا قلة الحياء وفرط الوقاحة ، يا للعار ! وقد جاء رجل آخر فجلس الى المائدة رأساً حتى دون أن يحيي كاترين ايفانوفنا ؛ وجاءت في النهاية « شخصية » أخرى تلبس ثوب المنزل لأنها لا تملك غيره رداءً • ولكن ذلك قد بلغ من الخروج عن حدود اللياقة أنه أمكن اخراج الرجل بجهود متضافرة قامت بها آماليا ايفانوفنا والبولندي • ثم ان البولندي قد اصطحب رجلين بولنديين آخرين لا يذكر أحد أنهما سكنا عند آماليا ايفانوفنا في يوم من الأيام ، ولا لقيهما أحد في هذا المنزل يوماً على الأقل •

ذلك كله أزعج كاترين ايفانوفنا ازعاجاً شديداً فتساءلت تقول : « أمن أجل « هؤلاء » اذن قمنا بهذه الاستعدادات كلها ؟ » •

ومن أجل أن يتسع المكان كانوا قد اضطروا الى العدول عن اجلاس الأولاد الى المائدة ، فلقد كان الأولاد يكادون يشغلون وحدهم كل الغرفة• لذلك أقيمت لهم مائدة خاصة في ركن بآخر الغرفة على صندوق، وأُجلس الولدان الأصغران على دكة ، وعُهد الى بوليتشكا ، بصفتها الكبرى ، أن تراقبهما وأن تطعمهما وأن تمخطهما ، « كما يُفعل بأولاد أسر راقية » •

الخلاصة أن كاترين ايفانوفنا قد اضطرت ، راضيةً أو كارهة ، أن تستقبل جميع هؤلاء الناس ، فاستقبلتهم بمزيد من الوقار والرصانة ، بل وبشيء من التعالي والعجرفة ، حتى لقد ألقت على بعضهم نظرة فيها قسوة خاصة ، ثم دعتهم أن ينتقلوا الى المائدة وقد ظهرت في هيئتها معاني الاحتقار والازدراء • وقد اعتقدت ، لسبب أو لآخر ، أن آماليا ايفانوفنا

هى المسئولة عن غياب المدعوين المرموقين ، فكانت تخاطبها بلهجة بلغت من الوقاحة أن آماليا ايفانوفنا سرعان ما لاحظت ذلك ، فاستاءت أشد الاستياء ، وأضمرت أكبر الضغن. ان بداية كهذه البداية لا تبشر بخير.

وجلس الجميع أخيراً الى المائدة .

كان راسكولنيكوف قد وصل فى لحظة العودة من المقبرة تقريباً . فسعدت كاترين ايفانوفنا أقصى السعادة ، أولاً لأنه بين سائر المدعوين « الرجل المثقف الوحيد » الذى سيحتل بعد سنتين ، كما يعرف الجميع، كرسىّ استاذ جامعتنا ؛ وثانياً لأنه ما ان وصل حتى بادر يعتذر لها بكثير من الاحترام عن أنه لم يستطع أن يشارك فى الجنازة رغم رغبته الشديدة وحرصه الكبير .

ومنذ تلك اللحظة لم تتركه كاترين ايفانوفنا ؛ فقد أجلسته الى يسارها (وكانت آماليا ايفانوفنا قد جلست الى اليمين) ، ورغم مشاغلها المتصلة من حيث هى ربة البيت ، ورغم السعال الرهيب الذى كان يقطع كلامها ويخنقها فى كل لحظة ، والذى كان يبدو أنه تفاقم مزيداً من التفاقم منذ يومين ، فانها لم تنقطع عن التحدث الى راسكولنيكوف ، وعن أن تفضى اليه همساً بكل ما كان يعتلج فى قلبها ، ولا سيما باستيائها الشديد من اخفاق المأدبة . على أن ضحكاً مجلجلاً كان يعقب ذلك الاستياء فى كثير من الأحيان ، ضحكاً لا تستطيع أن تكظمه ، وهو ضحك على المدعوين وعلى صاحبة البيت خاصة .

ـ ذلك كله انما سببه هذه المرأة الشريرة ! (كانت كاترين ايفانوفنا تقول ذلك وتومىء لراسكولنيكوف بحركة من رأسها الى صاحبة البيت آماليا ايفانوفنا) . انظر اليها ! انها تحملق بعينيها ؛ هى تعلم أننا نتكلم عنها ، ولكنها لا تستطيع أن تفهم ، ان عينيها تخرجان من رأسها !

هؤ ... هؤ !... بومة حقاً ! هأ هأ هأ ! هيء هيء هيء ! وما الذى تريد أن تبرهن لنا عليه بقبعتها هذه ؟ هيء هيء هيء ! هل لاحظت أنها تريد أن تظهرنى أمام الملأ جميعاً بمظهر محميتها ، وأن تبيّن أنها انما تشرّفنى اذ تحضر هذا العشاء ؟ لقد طلبت منها ، لاعتقادى بأنها انسانة لائقة ، أن تدعو أناساً محترمين ، وأن تدعو خاصةً أولئك الذين عرفوا زوجى الراحل . فانظر بمن جاءتنى : لقد جاءتنى بمهرّجين وصعاليك قذرين ! انظر الى ذاك الرجل الذى لم يغسل وجهه ! حقاً انهم لقطيع حيوانات تمشى على قدمين ! وما قولك بهؤلاء البولنديين الصغار ؟ هأ هأ هأ ! هيء هيء هيء ! ما من أحد سبق أن رآهم هنا ، لا ولا رأيتهم أنا هنا ، فى يوم من الأيام ! فلماذا اذن جاءوا ؟ هل تستطيع أن تقول لى لماذا جاءوا ؟ ما أعظم هدوءهم فى جلوسهم واحداً الى جانب واحد ! ما أظرفهم ! هيه ، يا « سيد » ! (كذلك نادت أحدهم فجأة ناطقة كلمة « سيد » باللغة البولندية) هل أخذت فطائر ؟ خذ مزيداً ، واشرب بيرة، اشرب بيرة ! واشرب فودكا ! ألا تريد أن تشرب فودكا ؟ ـ انظر اليه ، لقد نهض بوثبة واحدة ، وها هو ذا يحيى منحنياً انحناءً شديداً ... انظر ... انظر ! مساكين ... لا بد أنهم جائعون جداً ! لا بأس ! فليأكلوا ! هم لا يحدثون ضجة على الأقل .. ولكن .. ولكن ... لا أكتمك أننى أخشى أن يأخذوا ملاعق الفضة وهى لصاحبة البيت . يا آماليا ايفانوفنا (كذلك نادت صاحبة البيت فجأةً بصوت عالٍ تقريباً) ... اننى أنبهك منذ الآن الى أننى غير مسئولة اذا هم سرقوا ملاعقك !

وسُرت كاترين ايفانوفنا من قولتها هذه ، فأخذت تضحك ضحكاً جنونياً ، ثم عادت تومىء برأسها الى صاحبة البيت قائلة لراسكولنيكوف :

ـ انها لم تفهم ! فى هذه المرة أيضاً لم تفهم ! ما تزال فاغرة الفم، محملقة العينين ، جوّالة الطرف ! انظر اليها ، انظر ! هى بومة حقاً ،

بومة ... قلت لك انها بومة ... ولكن بأشرطة جديدة ! هأ هأ هأ !..

وهنا استحال ضحكها الى سُعال لا يطاق ، استمر خمس دقائق . تلطخ منديلها بالدم ، وظهر العرق على جبينها كحبات اللؤلؤ ؟ أرت راسكولنيكوف بقعة الدم فى صمت ، وما ان استردت أنفاسها حتى دمدمت تقول له وقد تخضبت وجنتاها بحمرة قانية وبلغت أقصى الاضطراب :

ـ انظر مثلاً : لقد عهدت اليها بمهمة دقيقة جداً هى أن تدعو تلك السيدة وابنتها . هل تعرف من أعنى ؟ فكان عليها فى مثل هذه الحالة أن تتصرف بكثير من الكياسة والفن والحذق ، ولكنها لم تحسن التصرف ، فاذا بتلك الحمقاء الأخرى ، اذا بتلك المخلوقة القروية ... ذلك أنها ليست فى الواقع الا أرملة ميجر جاءت الى هنا تسعى الى الحصول على معاش تقاعدى ، فهى تنتظر فى حجرات الدخول متنقلة متسكعة هنا وهناك ، متبرجة مثقلة الوجه بالمساحيق والأصباغ رغم أنها فى الخمسين من عمرها (هذا معروف) ... اذا بتلك المخلوقة لا تتنازل أن تجىء ، بل ولا ترسل كلمة اعتذار ، كما يليق بالمرء أن يفعل فى مثل هذه الأحوال اذا كان على شىء من الأدب والتهذيب ! وبطرس بتروفتش ، اننى لا أستطيع أن أفهم لماذا لم يجىء هو أيضاً ! ولكن أين صونيا ؟ أين ذهبت ؟ آ ... ها هى ذى أخيراً ! أين كنت يا صونيا ؟ غريب منك أن تكونى قليلة التقيد بالمواعيد حتى فى يوم جنازة أبيك . افسح لها مكاناً الى جانبك يا روديون رومانوفتش . هذا مكانك يا صونيتشكا ! اغرفى لك طعاماً ! خذى سمكاً بالبالوظة ، فهذا أحسن الطعام . سنجيئك بفطائر فوراً . والأولاد ، هل غُرف لهم طعام ؟ هل أصبتم من كل شىء يا بوليتشكا ؟ هىء هىء هىء ! طيب ، عظيم ! كونى هادئة عاقلة يا لينيا !

وأنت يا كوليا لا تهزز ساقيك هكذا ! ابق جالساً كما يجب أن يجلس ولد من أسرة محترمة • ماذا تقولين يا صونيتشكا ؟

أسرعت صونيا تنقل اعتذارات بطرس بتروفتش ، محاولةً أن تتكلم بصوت قوي حتى يسمع جميع الضيوف كلامها ، ومستعملةً أرقى التعابير ، حتى تلك التي كان يصطنع استعمالها بطرس بتروفتش ، بعد أن تُجمّلها مزيداً من التجميل أيضاً • وأضافت الى ذلك قولها ان بطرس بتروفتش قد رجاها أن تبلغ أمها أنه سيجيء متى أتيحت له الفرصة ليتحدث في الأعمال على انفراد ، وليتفق على الاجراءات الواجب اتخاذها في المستقبل ، الخ ، الخ •••

كانت صونيا تعلم أن هذا قد يهدّىء كاترين ايفانوفنا ، ويدغدغ غرورها ، ويرضي كبرياءها خاصة •

وجلست الى جانب راسكولنيكوف بعد أن حيّته بسرعة ، ونظرت اليه نظرة مستطلعة • على أنها طوال ما بقي من وقت كان يلوح عليها انها تتحاشى أن تنظر اليه وأن تكلمه • كانت تبدو ذاهلة ، رغم أنها لم تحوّل عينيها عن كاترين ايفانوفنا وأنها كانت تحاول أن تتنبأ برغباتها • ولم تكن صونيا ولا كاترين ايفانوفنا تلبسان ثياب الحداد ، لأنهما لا تملكان ثياب حداد : كانت صونيا ترتدي ثوباً كستناوياً قاتماً ، وكانت كاترين ايفانوفنا ترتدي ثوباً من قماش هندي ذي خطوط داكنة ، وهو الثوب الوحيد الذي تملكه •

وقد أحدثت اعتذارات بطرس بتروفتش أحسن الأثر • فبعد أن أصغت كاترين ايفانوفنا الى كلام صونيا برصانة ووقار ، سألت عن صحة بطرس بتروفتش بلهجة فيها تلك الرصانة نفسها وذلك الوقار نفسه • ثم لم تبطىء ، فأسرعت « توشوش » راسكولنيكوف قائلة بصوت قوي ان

رجلاً يبلغ من جلال القدر ما يبلغه بطرس بتروفتش لا يليق أن يقع بين أفراد قطيع كهذا « القطيع العجيب من الناس » ، مهما يكن اخلاصه للأسرة ، ومهما تكن روابط الصداقة التى كانت تربطه بالمرحوم أبيها .

ثم أضافت تقول بصوت يكاد يكون عالياً :

ـ من أجل ذلك ترانى ، يا روديون رومانوفتش ، أشكر لك شكراً خاصاً أنك لم تحتقر دعوتى ولم ترفض حضور مأدبتى رغم هذه البيئة وهذا الجو . وانى لأعتقد على كل حال أن صداقتك القوية للمرحوم زوجى هى التى حملتك وحدها على أن تفى بالوعد .

وهنا شملت المدعوين مرةً أخرى بنظرة فيها كبرياء ووقار ، ثم رفعت صوتها فجأة تسأل الشيخ الأصم الجالس الى الطرف الآخر من المائدة « هل يريد مزيداً من الشواء وهل سكبوا له شيئاً من خمرة البورتو » . فلم يجب الشيخ ولبث مدة من الزمن لا يفهم ما كان يُسأل عنه رغم أن جيرانه حاولوا أن يشرحوه له ضاحكين . كان فاغر الفم ينظر حواليه فى كل جهة ، فكان ذلك يثير مزيداً من الضحك والمرح .

ـ يا للغبى الأبله ! انظر ! ولماذا جىء به الى هنا ؟

وتابعت كاترين ايفانوفنا كلامها تخاطب راسكولنيكوف :

ـ أما بطرس بتروفتش فقد كنت دائماً أمحضه ثقة كاملة .

والتفتت فجأة نحو آماليا ايفانوفنا فألقت عليها نظرة قاسية مروّعة ، وأردفت تقول صارخة :

ـ هو لا يشبه طبعاً هاتيك النساء السافلات اللواتى ما كنَّ ليُقبلن عند أبى حتى خادماتٍ فى المطبخ ، واللواتى اذا ارتضى زوجى الراحل أن يشرّفهن باستقبالهن فانه ما كان ليفعل ذلك الا من فرط طيبة قلبه .

صاح موظف التموين قائلاً وهو يفـرغ فى جوفه كأس الفودكا الثانى عشر :

ـ نعم ، كان يحب أن يشرب ••• هـذا صحيح ••• كان يحب مجالسة الزجاجة حباً كثيراً !•••

أجابت كاترين ايفانوفنا باندفاع شديد :

ـ نعم ، كان لزوجى هذا الضعف ، ولكنه كان رجلاً طيباً نبيلاً ، يحب أسرته ويحترمها • ان عيبه الوحيد هو أن هذه الطيبة نفسها كانت تدفعه الى أن يثق بأناس فاسدين وأن يركن اليهم ••• الله يعلم مع من كان يعاقر الخمرة ••• مع رجال لا يسـاوون نعلى حـذاءيه ! تصـور يا روديون رومانوفتش أننا وجدنا فى جيبه ديكاً صغيراً من حلوى ! كان لا ينسى أولاده حتى حين يأخذ منه السكر كلّ مأخذ !

صرخ موظف التموين السابق يسأل :

ـ ديكاً صغيراً ؟ هل قلتِ ديكاً صغيراً ؟

أبت كاترين ايفانوفنا أن تتنازل فتجيبه ، وها هى ذى تغـرق فى نوع من أحلام اليقظة، وتتنهد• ثم استأنفت كلامها مخاطبة راسكولنيكوف:

ـ لعلك تظن ، كما يظن جميع الناس ، أننى أسرفت فى القسـوة عليه • ولكن هذا غير صحيح • لقد كان يعتبرنى ، كان يعتبرنى كثيراً ، كثيراً • ما كان أنبل روحه وأطيب نفسه ! ولكم كنت أشفق عليه ، فى بعض الأحيان ! كان يتفق له أن يجلس فى ركن من الأركان ، ويأخذ ينظر الىّ من ركنـه ذاك ، فأبلغ من الشـفقة عليـه عنـدئذ أننى أود لو ألاعبه ، ولكنى كنت أقول لنفسى : « لو دلّلته فسـوف يسـكر من

جديد ، • لم يكن يمكن صدُّه عن الشراب وردعه عنه الا باظهار شيء من القسوة •

زأر موظف التموين السابق يقول وهو يصب لنفسه كأساً جديداً من الفودكا :

نعم ، كان يُشدُّ له شعره ! حدث هذا مراراً !

أجابت كاترين ايفانوفنا تقول بلهجة قاطعة ، وهي تتجه الى موظف التموين :

ـ ان أمثال هؤلاء البلهاء لا يستحقون أن يُشدَّ لهم شعرهم فحسب ، بل يستحقون أيضاً أن يُستقبلوا بضربات مقشة ! ولست أتكلم الآن عن الراحل •••

والتهبت البقع الحمر في وجنتيها مزيداً من الالتهاب ، وارتفع صدرها ، ولم يبق الا دقيقة واحدة حتى يمكن أن تثير كاترين ايفانوفنا شجاراً فاضحاً • وكان كثيرون يضحكون مقهقهين ، كان كثيرون يجدون في ذلك لذة ومتعة • أخذوا يستثيرون الموظف ويحرضونه ، هامسين له بأشياء في أذنه • كان واضحاً أنهم يريدون أن يصبوا على النار زيتاً •

بدأ الموظف كلامه فسألها :

ـ اسمحي لي أن أسألك عمَّن كنت تتكلمين اذن ••• على كل حال ، لا بأس ••• فما هذه كلها الا ترهات ! أرملة ، أرملة مسكينة ! أنا أغفر وأعفو وأصفح ! دعونا •••

قال ذلك وجرع كأساً أخرى من الفودكا •

ظل راسكولنيكوف جالساً يصغي بصمت واشمئزاز • لم يكد

يلمس الطعام الذى كانت كاترين ايفانوفنا لا تنقطع عن ملء صحنه به ، بل انه لم يتظاهر بأنه يأكل الا من أجل أن لا يزعجها • وكان يحدّق الى صونيا ولا يحوّل عنها بصره • ولكن صونيا كانت تزداد قلقاً وهماً، انها توجس ، هى أيضـاً ، أن المأدبة لن تنتهى بسـلام ، فكانت ترقب الاهتياج المتزايد عند كاترين ايفانوفنا ، خائفةً وجلة • وكانت تعلم ، فيما تعلم ، أنها ، هى صـونيا ، السببُ الرئيسى للاحتقـار الذى حمل المرأتين الجديدتين على أن ترفضا دعوة كاترين ايفانوفنا • لقد علمت من آماليا ايفانوفنا نفسها أن أم الفتاة مضت الى حد الاستياء من توجيه الدعوة اليهمـا ، وتسـاءلت : « كيف يمكننى أن أُجلس ابنتى الى جانب تلك «الآنسة» ؟ وكانت صونيا تقدّر أن كاترين ايفانوفنا قد وصل الى مسامعها شيء من هذا الكلام ؛ وان اهانة يلحقها أحد بصونيا لهى أشد وقعاً فى نفس كاترين ايفانوفنا من اهانة تُلحَق بها هى أو بأولادها أو بأبيها ، فهذه اهانة قاتلة ، وصونيا تعلم أن كاترين ايفانوفنا لن يهـدأ لها بال قبل أن « تبرهن لهاتين المرأتين التافهتين على أنهما كلتيهما » ، الخ الخ ! وشاءت المصادفات ، بما يشبه العمد ، أن ينقل أحدهم الى صـونيا صحناً فيـه قلبان من لبّ خبز أسـود يخترقهما سهم • فاحمـرت كاترين ايفانوفنا غضباً ، وأسرعت تقول بصوت عال ان المسئول عن ارسال هذا الصحن ليس الا « حماراً سكران » ، لا أكثر ولا أقل •

وكانت آماليـا ايفـانوفنا ، من جهتها ، توجس أن نازلةً ستقع ، وتشعر عدا ذلك بأن موقف كاترين ايفانوفنا يهينها الى أعماق قلبها ، فمن أجل أن تغيّر الجوّ السيء الذى يسود الحفـل ، ومن أجل أن ترفع قدر نفسها فى نظر الناس فى الوقت ذاته ، أخذت على حين فجـأة تروى أن شخصاً من معارفها اسمه « كارل ، وهو مساعد صيدلانى » ، قد استاجر عربة فى الليل ، فأراد الحوذى أن « يقتله ، فأخذ كارل يتوسل اليه أن

لا يفعل ، وضمّ يديه باكياً ، وبلغ من الرعب أن قلبه كاد يثب من مكانه » . وكان فى نطق آماليا لكنة ألمانية واضحة ، فقالت لها كاترين ايفانوفنا ، وهى تبتسم ، ان عليها أن لا تروى نوادر روسية . فازداد استياء آماليا ايفانوفنا ، فردّت عليها تقول بلغة تخالطها ألفاظ ألمانية ، وتسودها لكنة ألمانية ، ان أباها البرلينى كان « رجلاً خطير الشأن جداً ، وانه كان يتجول واضعاً يديه فى جيبيه دائماً » . ولم تطق كاترين ايفانوفنا الساخرة صبراً ، فانطلقت تضحك ضحكاً صاخباً مجنوناً ، فكان على آماليا التى نفد صبرها أن تبذل جهوداً كبيرة من أجل أن لا تنفجر .

وعادت كاترين ايفانوفنا توشوش راسكولنيكوف بما يشبه المرح قائلة :

ـ يا للعجوز الأنيقة ! أرادت أن تقول ان أباها كان يتجول واضعاً يديه فى جيبه ، فاذا سمع المرء كلامها أمكن أن يظن أنها تريد أن تقول ان أباها كان ينبش جيوبه دائماً ! هىء هىء هىء ! هل لاحظت يا روديون رومانوفتش أن جميع هؤلاء الأجانب فى بطرسبرج ، ولا سيما الألمان ، الذين يتقاطرون علينا من كل حدب وصوب ، هم جميعاً أغبى منا . انظر بنفسك : هل يمكن أن يروى أحد أن « كارل ، مساعد الصيدلانى ، كاد يثب قلبه من مكانه » ، وأن هذا الأبله قد « ضمّ يديه باكياً » ، بدلاً من أن يوثق الحوذى ؟ آه ! يا للغبية الحمقاء ! هى تتخيل أن قصتها مؤثرة جداً . انها لا تدرك مدى ما فى هذه القصة من سخافة وبلاهة ! فى رأيى أن هذا الموظف السكّير أذكى منها كثيراً ! ان المرء يرى على الأقل أنه ترك كل عقله فى قاع كأسه ، أما الآخرون فهم جادّون جداً ؟ يبلغ غاية الاضحاك !... انظر كيف تُجيل عينيها وتديرهما ! انها غاضبة ، انها غاضبة ! هأ هأ هأ ! هىء هىء هىء !

واذ انشرحت كاترين ايفانوفنا هذا الانشراح ، أسرعت تندفع

في سرد طائفة من التفاصيل ، فأعلنت أنها بفضل معاش التقاعد الذى ستحصل عليه ، سوف تفتح مدرسة داخلية للبنات النبيلات فى مدينة «ت ... » التى وُلدت فيها . ولم تكن كاترين ايفانوفنا قد أطلعت راسكولنيكوف على مشروعها هذا . لذلك أخذت تشرح هذا النبأ شرحاً مستفيضاً ، وأخذت تصف الحياة الرائعة التى ستعيشها وصفاً مسهباً . ولا يدرى أحد كيف وُجدت بين يديها ، على حين فجأة ، «شهادة المديح» تلك التى سبق أن تحدث عنها المرحوم مارميلادوف الى راسكولنيكوف حين ذكر له فى أول لقاء بالخمارة أن زوجته كاترين ايفانوفنا قد رقصت ، فى يوم تخرجها من المدرسة الداخلية ، رقصة الشال ، « أمام الحاكم وشخصيات أخرى » . كان واضحاً أن الغرض من ابراز هذه الشهادة هو أن تثبت ان كاترين ايفانوفنا من حقها أن تفتح مدرسة داخلية ؟ ولكن كان الغرض من ابرازها أيضاً وخاصة هو أن تُخرس تينك المرأتين الفاسدتين اذا هما قبلتا الدعوة وأن تبرهن لهما برهاناً قاطعاً على أن كاترين ايفانوفنا تنتمى الى أسرة نبيلة ، بل يمكن القول انها تنتمي الى أسرة ارستقراطية ، فهى ابنة كولونيل ، وهى أفضل كثيراً من « أولئك النسوة المغامرات اللواتى ازداد عددهن ازدياداً كبيراً فى الآونة الأخيرة » . وسرعان ما دارت الشهادة بين أيدى المدعوين السكارى ، وذلك أمر حاذرت كاترين ايفانوفنا أن تعترض عليه أى اعتراض ، لأن الشهادة كانت « تنص نصاً صريحاً » على أن كاترين ايفانوفنا هى فعلاً بنت مستشار قضائى ، أى بنت كولونيل تقريباً . وقد تحمست كاترين ايفانوفنا فأفاضت فى الكلام على جميع تفاصيل الحياة الجميلة الهادئة التى تنتظرها فى مدينة «ت...» ، وتكلمت عن الأساتذة الذين ستدعوهم الى التدريس فى مدرستها ، وتكلمت عن شيخ محترم هو السيد مانجو الذى علّمها اللغة الفرنسية حين كانت تلميذة فى المدرسة الداخلية ، والذى ينهى الآن أيامه فى مدينة

« ت ... » ، ولا شك أنه سيقبل أن يدرّس فى مدرستها بأجور معقولة. وجاءت أخيراً على ذكر صونيا ، فقالت ان « صونيا ستذهب هى أيضاً الى مدينة ت ... ، وانها ستنفعها هنالك فى أمور كثيرة » . ولكن حين قالت كاترين ايفانوفنا هذا الكلام ، خنق أحدهم ضحكةً عند الطرف الآخر من المائدة . فتظاهرت كاترين بأنها لم تسمع الضحكة ، ورفعت صوتها لتعدد المزايا الأكيدة التى تتحلى بها صوفيا سيميونوفنا ، وأضافت أن صونيا سيميونوفنا « جديرة بأن تساعدها ، لما تمتاز به من رقة وعذوبة ، وصبر ودأب ، وتضحية وبذل ، ونبل نفس وحسن تربية » . ثم ربتت على خدىّ صونيا ، ونهضت تقبلها بحرارة مرةً أولى فمرةً ثانية .

واحمر وجه صونيا احمراراً شديداً . ثم ما لبثت كاترين ايفانوفنا أن أجهشت باكية على حين فجأة وهى تقول « انها ليست مخلوقة بلهاء بائسة محطمة الأعصاب ، وانها قد نفد صبرها وبارحتها قواها ... وان المأدبة قد انتهت فليسكب الشاى ! » .

وكانت آماليا ايفانوفنا قد أضناها وأهلكها أنها لم تستطع أن تشارك فى الحديث ، حتى ان احداً لم يستمع لها ولم يصغ الى كلامها ، فقامت فى تلك اللحظة بمحاولة أخيرة. استجمعت شجاعتها ووجّهت الى كاترين ايفانوفنا ، رغم ما توجسه فى قرارة نفسها من قلق وخشية ، ملاحظةً هى من أعمق الملاحظات وأشدها جرأة ، اذ قالت لها انه سيكون عليها فى المدرسة الداخلية أن تعنى عناية خاصةً بغسيل البنات (قالت كلمة الغسيل بالألمانية) ، و « أن تستخدم لهذا الغرض سيدة محترمة » ، وان عليها كذلك أن لا « تدع لأية فتاة أن تقرأ روايات فى الليل سراً » . وكانت كاترين ايفانوفنا ثائرة الأعصاب مهدودة القوى ، ناهيك عن ازعاجات المأدبة ، فسرعان ما انفجرت تتهجم على آماليا ايفانوفنا قائلةً لها انها تقول « سخافات وحماقات » وانها لا تفهم شيئاً من شىء : فالاهتمام

بالغسيل هو فى مدرسة من المدارس الداخلية النبيلة لا يقع على عاتق المديرة بل هو من اختصاص المحاسبة • أما قراءة الروايات فان الاشارة اليها هى فى حد ذاتها أمر غير لائق ، لذلك يحسن بآماليا ايفانوفنا أن تصمت فلا تقول شيئاً •

اصطبغ وجه آماليا ايفانوفنا بحمرة شديدة من فرط الاستياء ، فقالت غاضبة ان « نياتها حسنة » وانها لا تريد لها الا « خيراً كثيراً » رغم أنها منذ مدة طويلة لم تقبض منها أى مال (قالتها بالألمانية) من اجرة المسكن • فسرعان ما ردتها كاترين ايفانوفنا الى مكانها ، اذ قالت لها انها تكذب فى ادعائها أنها « تريد لها الخير » ، لأنها فى الليلة البارحة نفسها ، بينما كان المتوفى ما يزال راقداً على المائدة ، جاءت تعذبها بمسألة أجرة المسكن هذه • وحالف التوفيق آماليا ايفانوفنا فى الرد فقالت لها أنها « دعت السيدات ، ولكن تلك السيدات لم يجئن ، لأن تلك السيدات سيدات محترمات لا يمكن أن يلبين دعوة سيدة غير محترمة » • فأسرعت كاترين ايفانوفنا تلح فوراً على أن آماليا ايفانوفنا ليست مؤهلة لأن تفصل فيما هو محترم وفيما هو ليس بمحترم ، لأنها هى نفسها غير محترمة • ولم تحتمل آماليا ايفانوفنا هذه الشتيمة ، فسرعان ما أعلنت أن « أباها البرلينى » (قالتها بالألمانية) كان رجلاً خطير الشأن جداً ، جداً ، وانه كان يمشى واضعاً يديه فى جيبه ، وانه كان دائماً يزفر هكذا : بوف ••• بوف !••• ومن أجل أن تعطى عن أبيها صورة محسوسة أكثر من ذلك ، نهضت عن مكانها ودست يديها فى جيبها ونفخت خديها وأخذت تخرج من فمها أصواتاً مبهمة لكنها تشبه « بوف ، بوف » ، فكان جميع المستأجرين يضجون بضحك صاخب ، وكان يحلو لهم ، وقد أحسوا بأن معركة ستقع بين المرأتين ، أن يحرضوا آماليا ايفانوفنا باستحسانهم مزيداً من التحريض •

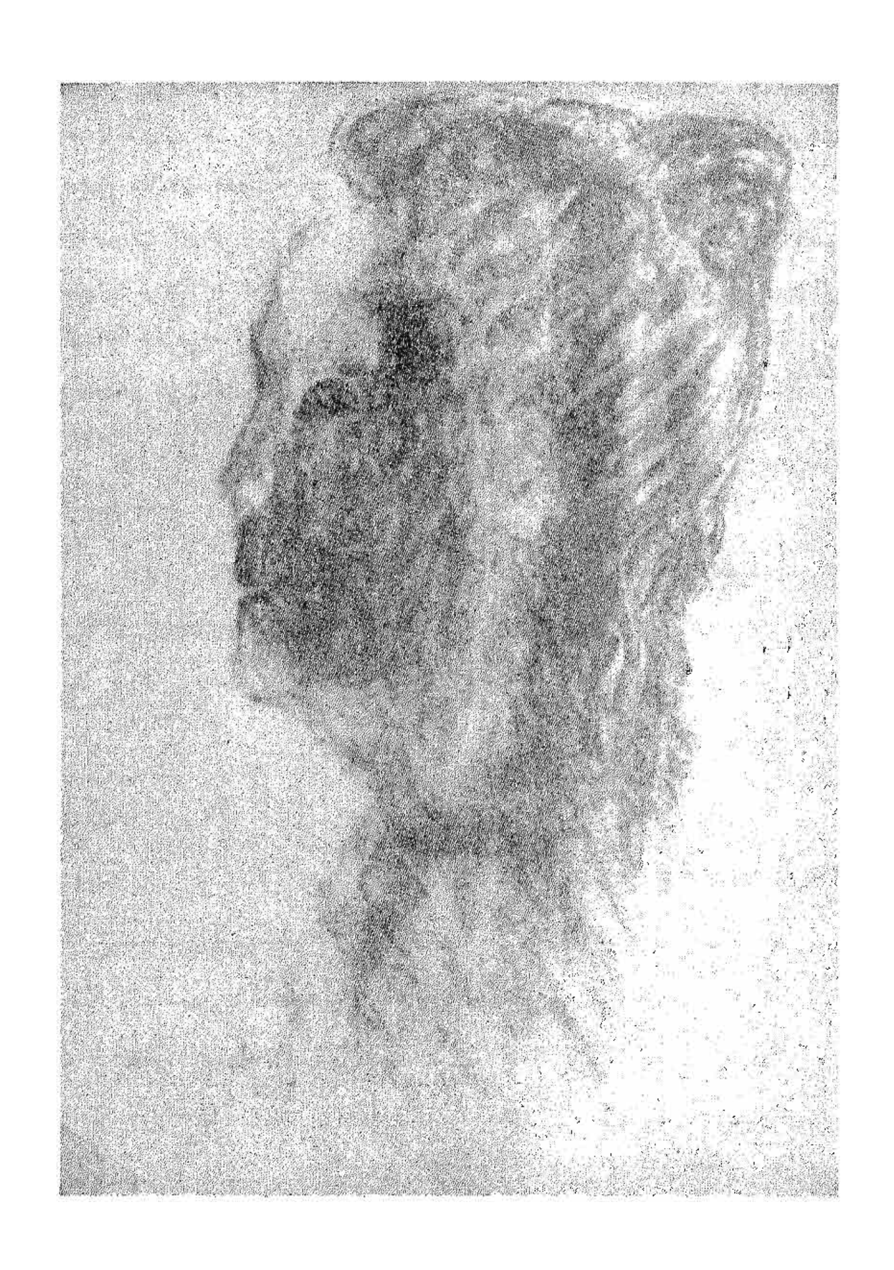
طفح الكيل بالنسبة الى كاترين ايفانوفنا ، فسرعان ما أعلنت بصوت قوى يسمعه الجميع « أن آماليا ايفانوفنا قد لا يكون لها « أب » أصلاً ، وأنها ليست الا سكيرة فنلندية من بطرسبرج ، وأنها لا بد أن تكون قد عملت طباخة أو ما هو أسوأ من ذلك أيضاً •

احمرت آماليا ايفانوفنا احمراراً شديداً وصاحت تقول : « ان كاترين ايفانوفنا هى التى قد لا يكون لها أب ، أما أبوها هى فقد كان يعيش ببرلين ، وكان يرتدى ردنجوتاً طويلاً ، وكان ينفخ دائماً : « بوف ، بوف » •

قالت كاترين ايفانوفنا باحتقار « ان أصلها هى يعرفه الجميع وأن الشهادة التى قرأها الحضور منذ لحظة تذكر هى نفسها بكلام مطبوع ان أباها كان كولونيلاً • أما أبو آماليا ايفانوفنا (اذا صح أن لها أباً) فلا بد أنه فنلندى من بطرسبرج كان بائع حليب ، ولكن أغلب الظن أنها لم يكن لها أب أصلاً ، والدليل على ذلك أننا لا ندرى حتى الآن هل الاسم الذى ينسبها الى أبيها هو ايفانوفنا أو لودفيجوفنا » •

هنا بلغ حنق آماليا ايفانوفنا ذروته ، فضربت المائدة بقبضة يدها وأعولت تقول : « ان اسمها هو آماليا ايفانوفنا وليس آماليا لودفيجوفنا ، وان أباها كان اسمه يوحنا ، وانه كان عمدة مدينة ، وذلك منصب لم يشغله أبو كاترين ايفانوفنا فى يوم من الأيام » •

اصفر وجه كاترين ايفانوفنا اصفراراً شديداً ، واهتز صدرها اهتزازاً عميقاً ، ونهضت عن مكانها وقالت بصوت قاسٍ ظاهره الهدوء : اذا تجرأت آماليا ايفانوفنا ولو مرةً واحدة أخرى « فقارنت بين أبيها التافه الذى لا قيمة له ، وبين أبيها هى ، فلتنزعنَّ عنها قبعتها ولتدوسنَّها بقدميها » • فلما سمعت آماليا ايفانوفنا هذه الكلمات أخذت تركض فى



آماليا ايفانوفنا

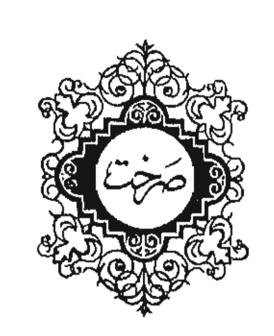
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

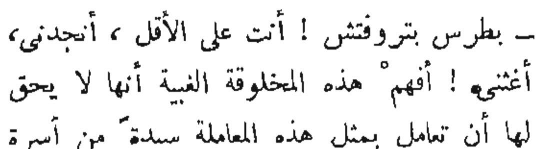
الغرفة طولاً وعرضاً ، وهى تصرخ بكل ما أوتيت من قوة أنها صاحبة البيت ، وأن على كاترين ايفانوفنا أن « تخلى المسكن فوراً » • ثم أسرعت تجمع ملاعقها الفضية من على المائدة • وأعقبت ذلك جلبة لا توصف ، فالأصوات تنفجر من هنا ومن هناك ، والأولاد أخذوا يبكون ؛ واندفعت صونيا تريد أن تصد كاترين ايفانوفنا ولكن آماليا ايفانوفنا أشارت الى البطاقة الصفراء ، فما كان من كاترين ايفانوفنا الا أن دفعت عنها صونيا وهجمت على آماليا ايفانوفنا لانفاذ التهديد الذى أعلنته بصدد القبعة •

وفى تلك اللحظة فُتح الباب ، وظهر فى العتبة بطرس بتروفتش لوجين فجأةً •

توقف لوجين لحظة ، وألقى على الحضور جميعهم نظرة قاسية فاحصة ، فهرعت كاترين ايفانوفنا نحوه •

الفصل الثالث





كاترين ايفانوفنا تقول :

ـ بطرس بتروفتش ! أنت على الأقل ، أنجدنى، أغثنى ! أفهمْ هذه المخلوقة الغبية أنها لا يحق لها أن تعامل بمثل هذه المعاملة سيدةً من أسرة كريمة أخنى عليها الدهر ، وأن هنـاك محاكم لهذا الأمر ... سـوف أشتكى الى الحاكم العام بشخصه ... يجب أن تُسأل هذه المخلوقة عما فعلت !.. تكريمـاً لذكرى الاسـتقبال الذى استقبلك به أبى ... كن حامياً لليتامى ...

قال بطرس بتروفتش مردداً مكرراً وهو يبعـد كاترين ايفانوفنـا بحركة من يده :

ـ اسمحى لى يا سـيدتى ، اسمحى لى ، اسمحى لى يا سيدتى . أنا لم أشرف بمعرفة أبيك فى يوم من الأيام ، وأنت تعلمين هذا حق العلم ... اسمحى لى يا سيدتى ! (أخذ أحدهم يضحك ضحكاً صاخباً) . ولست أنوى أن أشارك فى مشاجراتك المتصلة مع آماليا ايفانوفنا ... انا انما جئت لأمر ... شخصى ، أنا انما جئت أطلب على الفور ايضاحاً من ابنة زوجك صوفيا ايفانوفنا .. هذا هو اسمها ، أليس كذلك ؟ فاسمحى لى أن أمر ...

قال بطرس بتروفتش ذلك وترك كاترين ايفانوفنا واتجه الى الركن المقابل من الغرفة ، حيث كانت صونيا •

تجمدت كاترين ايفانوفنا كأنما نزلت عليها صاعقة • لم تستطع أن تفهم كيف أمكن أن ينكر بطرس بتروفتش أن أباها قد أكرم ضيافته • انها وقد تخيلت تلك الضيافة أصبحت تصدّقها وتؤمن بها هي نفسها • وهذه اللهجة التي تكلم بها بطرس بتروفتش ، هذه اللهجة الخشنة ، الرسمية ، التي فيها احتقار وتهديد ، قد أدهشتها أيضاً • على أن الجميع قد صمتوا منذ دخل بطرس بتروفتش • ان « رجل الأعمال الجادّ » هذا يفوق سائر الحضور شأناً ، ولقد كان واضحاً عدا ذلك أنه انما جاء لأمر خطير ، فلا بد أن يكون هناك سبب خارق دفعه الى أن يغشى هذه البيئة ، ولا بد اذن أن يقع حادث ما بعد قليل • وكان راسكولنيكوف الى جانب صونيا فتنحى حتى يدع له أن يمر • وبدا على بطرس بتروفتش أنه لم يلاحظه • وبعد دقيقة ظهر ليبزياتنيكوف فى عتبة الباب هو أيضاً• لم يدخل الغرفة ، غير أنه وقف مستطلعاً كذلك ، حتى ليكاد يكون مدهوشاً • وقد أصاخ بسمعه مصغياً ، لكنه ظل مدةً طويلة يبدو عليه أنه لا يفهم الأمر الذى يدور عليه الكلام •

قال بطرس بتروفتش يخاطب الجمع :

ـ اغفروا لى ازعاجكم ، غير أن القضية هامة خطيرة ؛ بل اننى يهمنى أن تنجلى الأمور على رءوس الأشهاد • يا آماليا ايفانوفنا ، أرجوك وألح فى الرجاء أن تستمعى الى الحديث الذى سأجريه مع صوفيا ايفانوفنا ، بصفتك صاحبة البيت •

وتابع كلامه يقول مخاطباً صونيا التى كانت مذهولة وكانت مروّعة مذعورة سلفاً :

ـ يا صوفيا ايفانوفنا ، بعد زيارتك فوراً افتقدت ورقة نقدية قيمتها مائة روبل كانت موجودة على المائدة عند صديقي آندره سيميونوفتش ليبزياتنيكوف • فاذا كنت تعرفين بطريقة أو بأخرى أين توجد هذه الورقة المالية الآن ، فقلت لنا أين توجد ، فان لك عليّ عهد الشرف ـ وهؤلاء جميعاً شهود على ما أقول ـ أن تقف القضية عند هذا الحد ؟ والا كنت مضطراً أن ألجأ الى اجراءات أخطر ••• وليس لك عندئذ أن تلومي الا نفسك !•••

خيّم على الغرفة صمت مطلق • حتى الأطفال الذين كانوا يبكون سكتوا • وكانت صونيا واقفة ، شاحبة كأنها ميتة ، تنظر الى لوجين ولا تجد كلاماً تجيبه به • كان يبدو عليها أنها لا تفهم • وانقضت بضع ثوان •

سألها لوجين وهو يحدق اليها :

ـ هيه ؟ ما قولك ؟

فقالت صونيا أخيراً بصوت واهن :

ـ لا أعلم •••

ـ حقاً ؟ لا تعلمين ؟ لا تعلمين شيئاً ؟

كذلك سألها لوجين مكرراً ، ولزم الصمت بضع ثوانٍ أخرى ، ثم استانف كلامه فقال بجفاء وخشونة :

ـ فكري يا آنسة ، فكّري في الأمر • أحب أن أمهلك بعض الوقت لتفكري • اسمعي : لولا انني واثق بما أقول ، موقن منه ، فانني بحكم تجربتي ما كنت لأجازف فأوجه اليه اتهاماً مباشراً الى هذا الحد ، لأنني سأُحاسب أنا نفسي عن توجيه مثل هذا الاتهام المباشر على رءوس

الأشهاد اذا ظهر أنه خطأ فحسب • ذلك أمر أعرفه • انني في هذا الصباح قد بعت ، لقضاء حاجات شخصية ، بضعة سندات ذات ريع ، قيمتها الاسمية ثلاثة آلاف روبل • ذلك هو الرقم المسجل في دفتري • فلما عدت الى مسكني — وان آندره سيميونوفتش شاهد على ذلك — أخذت أعدُّ المال من باب التثبت والتحقق ، حتى اذا عددت ألفين وثلاثمائة روبل ، رتبتها في محفظتي ووضعت المحفظة في الجيب الداخلي من ريدنجوتي • وبقي على المائدة نحو خمسمائة روبل أوراقاً نقدية ، منها ثلاثُ قيمةُ الواحدة مائة روبل • وفي تلك اللحظة دخلت أنت (تلبيةً لدعوتي) ، وطوال المدة التي قضيتها عندي ، كان يبدو عليك اضطراب شديد ، حتى انك قد نهضت أثناء الحديث ثلاث مرات • كنت تريدين أن تخرجي — لا أدري لماذا ! — رغم أن محادثتي معك لم تكن قد انتهت • ان آندره سيميونوفتش يستطيع أن يؤكد هذا كله • وأغلب الظن أنك لن ترفضي أنت نفسك ، يا آنسة ، أن تعترفي بأنني أرسلت آندره سيميونوفتش في طلبك لهدفٍ واحد هو أن أتكلم معك في الوضع المحزن الذي آلت اليه قريبتك كاترين ايفانوفنا (التي لم أستطع أن أشارك في مأدبتها) ، وفي وسائل مساعدتها بتنظيم اكتتاب تبرعات أو اقامة يانصيب أو شيء من هذا القبيل • وقد شكرتني ، حتى ان الدموع ترقرقت من عينيك (انني أروي الأشياء كما وقعت ، أولاً لأذكّرك بها ، وثانياً لأبيّن لك أنه ما من تفصيل من التفاصيل قد امحّى من ذاكرتي) • ثم تناولت من على المائدة ورقة بعشرة روبلات وأعطيتك اياها ، دليلاً على اهتمامي بقريبتك ، ومشاركةً أولى مني في مساعدتها • وهذا أيضاً قد رآه سيميونوفتش • وخلوت بعد ذلك الى آندره سيميونوفتش • وتحدث معه قرابة عشر دقائق • حتى اذا خرج عدت الى المائدة أنوي أن أرتب ،

على حدة ، المال الذى كان موضوعاً عليها ، وذلك بعد أن أعدته مرة أخرى (كنت قد قررت ذلك من قبل) . فما كان أشد دهشتي حين وجدت أن ورقة مالية بمائة روبل قد فُقدت . افصلي في الأمر بنفسك : لا يمكنني بأية حال من الأحوال أن أشك في آندره سيميونوفتش، حتى ان هذه الفكرة وحدها تُشعرني بالخجل والعار . لا ولا يمكن أن أكون قد أخطأت في حساباتي ، لأنني قبل وصولك بدقيقة واحدة كنت قد تثبت من صحة المجموع . لذلك ، ونظراً لاضطرابك الشديد أثناء المقابلة، ونظراً لاستعجالك الخروج ، ونظراً لكونك قد ظللت واضعةً يديك على المائدة بضع لحظات ، ونظراً لوضعك الاجتماعي وما يخلقه من عادات ، فقد « أُكرهت » ان صح التعبير ، أُكرهت مرتاعاً مشمئزاً على أن أتوقف عند شبهة لا شك أنها قاسية لكنها في محلّها ولها ما يسوّغها . اضيف وأكرر أنني رغم يقيني « البديهي » الكامل أدرك أن القاء هذه التهمة لا يخلو من مخاطر أتعرض لها . ولكنني لم أتردد دقيقة واحدة ، كما ترين ، بل ثارت ثائرتي واستعرَ حنقي ، وسأقول لك الآن لماذا ثارت ثائرتي واستعر حنقي : ان سبب ذلك هو عقوقك الأسود يا آنسة ؟ كيف ؟ أأدعوك الى مسكني ، وأهتم بقريبتك المسكينة ، وأعطيك عشرة روبلات مساهمةً مني في مساعدتها ، فتكافئيني هذه المكافأة في تلك الدقيقة نفسها ؟ لا ، حقاً ليس هذا حسناً ! ولا بد من أن تُلقّني درساً ! فكّري في الأمر ! ثم انني أطلب منك ذلك كصديق مخلص (وليس يمكن أن يكون لك في هذه اللحظة صديق خير مني) : تذكري هذا ، والا أصبحتُ بغير رحمة أو شفقة . هل تعترفين بأنك ...

دمدمت صونيا تقول مذعورة :

ـ أنا لم أسلبك شيئاً . أنت أعطيتني عشرة روبلات . ها هي ذي. انني أردها اليك .

واستلت صونيا من جيبها منديلاً ، واهتدت الى العقدة التى عقدتها فيه ففضتها وسحبت منها ورقة العشرة روبلات ومدتها الى لوجين •

قال لوجين ملحاً ، بلهجة اللوم والتقريع ، دون أن يتناول الورقة المالية :

ـ ألا تعترفين اذن بالمائة روبل ؟

أجالت صونيا بصرها فيما حولها • كان الجميع ينظرون اليها بعيون قاسية ، ساخرة ، مبغضة !••• وألقت نظرة على راسكولنيكوف •

كان راسكولنيكوف واقفاً ، مسنداً ظهره الى الجدار ، عاقداً ذراعيه على صدره ، يحدّق اليها بعينين ملتمعتين •

وأفلتت من صونيا هذه الاستغاثة :

ـ يا رب !

قال لوجين فى رفق ، بل بصوت عذب :

ـ يا آماليا ايفانوفنا ، سيكون علينا أن نبلغ الشرطة ، فأرجوك بانتظار ذلك أن ترسلى أحداً ينادى البواب •••

قالت آماليا ايفانوفنا وهى تضرب كفاً بكف :

ـ يا اله الرحمة * ! كنت أعرف أنها لصة !

قال لوجين :

ـ ها ••• كنت تعرفين ذلك ؟ لا بد أن يكون هنالك اذن سبب دعاك الى استخلاص هذه النتيجة ، واستخراج هذا الرأى فى الماضى ! فأرجوك يا آماليا ايفانوفنا ، المحترمة جداً ، أن تتذكرى هذه الكلمات التى قلتها الآن ، وقد قلتها أمام شهود على كل حال •

أخذ الحضور يتكلمون بأصوات قوية فى كل جهة من الجهات ، وشمل الحفلَ كلَّه اضطرابٌ كبير .

صاحت كاترين ايفانوفنا تقول فجأةً وقد ثابت الى رشدها :

ـ كيف ؟

واندفعت مسرعةً نحو لوجين مرددة :

ـ كيف ؟ أتتهمها بالسرقة ؟ أتتهمها هى ؟ هى ، صونيا ؟ آه ... يا للمحقيرين ! يا للحقيرين !

وارتمت على صونيا ، فاحتضنتها بذراعيها المعروقتين الهزيلتين ككُلاَّبة . وتابعت كلامها تقول :

ـ صونيا ! كيف تجرأت أن تقبلى عشرة روبلات من هذا الرجل؟ يا لك من حمقاء ! يا لك من حمقاء ! ردِّيها اليه حالاً ، رديها اليه حالاً ، روبلاته العشرة ! خذ ...

انتزعت كاترين ايفانوفنا الورقة النقدية من يد صونيا ، فدعكتها بيديها ، ورمتها فى وجه لوجين ، فأصابت كرتها عينه ثم تدحرجت على أرض الغرفة . فأسرعت آماليا ايفانوفنا تشيلها ، وغضب بطرس بتروفتش ، وصرخ قائلاً :

ـ أُمسكوا هذه المجنونة !

وفى تلك الدقيقة ظهر عدة أشخاص آخرين يمكن أن نرى بينهم، عدا ليبزياتنيكوف ، السيدتين القادمتين من الأقاليم ، اللتين تسكنان هنا منذ مدة قصيرة .

صاتت كاترين ايفانوفنا تقول :

ـ كيف ؟ المجنونة ؟ أأنا المجنونة ؟ يا للأبله ! يا للوغد الشقى ! يا للرجل الدنىء ! صونيا ، صونيا ، تسرق منه مالاً ؟ صونيا ، سارقة ؟ ولكنها قادرة على أن تعطيك مالاً يا أبله !

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك وانفجرت تضحك ضحكة هسترية ، وهتفت تقول وهى تركض الى اليمين والى اليسار مشيرة لجميع الناس الى لوجين :

ـ أرأيتم الى هذا الأبله ؟

ولمحت صاحبة البيت فجأة فقالت :

ـ كيف ؟ أفأنت أيضاً تدّعين أنها سارقة ؟ يا للدجاجة الألمانية ! انظروا أيها الناس ، انظروا !

وعادت تخاطب بطرس بتروفتش فقالت :

ـ آه ... أنت ... أنت ... أجهلت أنها لم تترك هذه الغرفة لحظة واحدة أيها النذل ، فما ان خرجت من عندك حتى جاءت تجلس الى جانبى ؟ لقد رآها الجميع . جلست هنا ، الى جانب روديون رومانوفتش ! فتشها اذن ! فما دامت لم تذهب الى أى مكان ، فلا بد أن يكون المال معها . ابحث اذن ! ابحث اذن ! ابحث ! ابحث ! ولكن اذا لم تجد شيئاً يا عزيزى فلتحاسبنّ على افترائك ! الى الامبراطور سأشكوك ، الى الامبراطور ، الى القيصر الرحيم ! لأرتمينّ على قدميه حالا ، فى هذا اليوم نفسه ! أنا يتيمة ! سيسمحون لى بالدخول ! ماذا ؟ أتظن أنهم لن يسمحوا لى بالدخول ؟ أنت اذن مخطىء ! لسوف أصل اليه ، لسوف أصل اليه ! آ ... كنت تعوّل على خجلها وحيائها ، على

رقتها وخفرها ، أليس كذلك ؟ على هذا انما كنت تبنى أملك ! ولكننى ، أنا ، لا أستحى يا عزيزى ! أنا عيناى ماء ! هيّاً فتش ! فتش !

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك خارجةً عن طورها وقد أخذت تهز لوجين بكل قواها وتجره نحو صونيا •

قال لوجين :

ـ أنا مستعد •• أنا مستعد لأن أحاسَب ••• ولكن هدئى روعك يا سيدتى ، هدئى روعك ! انى لألاحظ حقاً أنك لا تستحين ••• (هنا أصبح كلام لوجين دمدمة) ••• أمام الشرطة انما يحسن فى الواقع ان ••• رغم أن ههنا شهوداً يكفى عددهم ويزيد ••• أنا مستعد •• ولكن هذه مهمة محرجة بالنسبة الى رجل ••• وذلك بسبب •• بسبب الجنس طبعاً •• ليتنى أستطيع أن أطلب الى آماليا ايفانوفنا أن تساعدنى ••• رغم أن الطريقة الواجبة ليست هذه الطريقة ••• ليست هذه الطريقة•• ما العمل ؟

صرخت كاترين ايفانوفنا تقول :

ـ اختر من تشاء ! فليفتشها من يريد أن يفتشها ! صونيا ! اقلبى جيوبك أمامهم ! انظر ، انظر أيها الشيطان ! هأنت ذا ترى أن جيبها خال • أرأيت ؟ واقلبى الجيب الآخر الآن ! انظر ! انظر ! أرأيت ؟ أرأيت ؟

ولم تكتف كاترين ايفانوفنا بقلب جيبى صونيا ، بل شدتهما شداً عنيفاً لتظهرهما اظهاراً أوضح • فاذا بورقة صغيرة تثب عندئذ من الجيب الثانى ، وهو الجيب الأيمن ، فترسم فى الهواء قوس دائرة ثم تسقط عند قدمى لوجين •

جميع الحضور رأوا الورقة ، وكثيرون منهم أطلقوا صرخات . ومال بطرس بتروفتش على الأرض ، فتناول الورقة باصبعين ، وفضّها على مرأى من الشهود كافة . انها ورقة مائة روبل قد طُويت ثماني طيّات . أجال بطرس بتروفتش يده في جميع الاتجاهات حتى يتمكن الحضور جميعاً من رؤية الورقة رؤية واضحة .

أعولت آماليا ايفانوفنا تقول :

ـ سارقة ! لصة ! اخرجي من هنا ! نادوا الشرطة ، نادوا الشرطة ! يجب ارسالهم الى سيبيريا ! اخرجوا من هنا !

وارتفعت صيحات من كل صوب . وكان راسكولنيكوف صامتاً لا يحوّل بصره عن صونيا ، مع القائه نظرةً سريعة على لوجين من حين الى حين . وما تزال صونيا واقفةً في مكانها كأنها أصيبت بخبال ، حتى انها لا تبدو عليها دهشة . وفجأة احمر خداها احمراراً شديداً ، وأطلقت صرخة خفيفة ، وأخفت وجهها في يديها . ثم صرخت بصوت ممزّق يقطعه نشيج البكاء ، وهي تهرع نحو كاترين ايفانوفنا ، صرخت تقول :

ـ لا ، لست أنا !... أنا لم آخذها !. لا أعلم !

فاحتضنتها كاترين ايفانوفنا بذراعيها ، وضمتها اليها بقوة كأنها تريد أن تجعل من صدرها متراساً يحميها .

وصرخت كاترين ايفانوفنا تقول على خلاف الدليل القاطع ، وهي تهدهدها في ذراعيها كما يُهدهَد طفل صغير ، وتقبّلها طائشة العقل ، وتمسك يديها فتغرقهما لثماً :

ـ صونيا ! صونيا ! لست أصدق ! هأنت ذي ترين أنني لا أصدق! أأنت تسرقين ؟ أهم أغبياء حتى يصدقوا أنك تسرقين ؟ يا رب !...

ثم صرخت تخاطبهم جميعاً :

ـ أنتم بلهاء ! أنتم بلهاء ! أنتم اذن لا تعرفون حتى الآن مدى ما تتمتع به من طيب القلب ونبل النفس ! أنتم اذن لا تعرفون أية فتاة هي ! أهي تسرق ؟ هي ؟ ألا انها لمستعدة أن تهب للناس آخر قميص تملكه ، ألا أنها لمستعدة أن تسير حافية القدمين لتبيع آخر قميص تملكه ، ألا انها لمستعدة أن تهب لكم أنتم آخر قميص تملكه اذا كنتم فى حاجة اليه ! نعم ، هذه هى طبيعتها ! ولئن تطوعت فأصبحت ذات بطاقة ، فلأن أولادى كانوا يتضورون جوعاً ! لقد باعت نفسها فى سبيلنا ! اه ... يا زوجى الراحل ... يا زوجى المسكين الراحل ، هل ترى هذا ؟ هل ترى ؟ انظر الى مأدبة الجنازة هذه التى تقام لك ! رباه ! ولكن ما بالكم لا تدافعون عنها أنتم ؟ ما بالكم تبقون جامدين كالمومياوات ؟ لماذا لا تدافع عنها أنت يا روديون رومانوفتش ؟ أتصدق أنت أيضاً أنها حقاً ...؟ انكم جميعاً لا تساوون خنصرها ، جميعاً ، جميعاً ، جميعاً ! هلاَّ دافعتم عنها أخيراً ؟ رباه !...

كان لشهقات كاترين ايفانوفنا المسكينة ، المصدورة ، التى هجرها جميع الناس أثر قوى فى الحضور . ان هذا الوجه الحزين المخرَّب الضاوى من وجوه المصابين بداء السل ؛ وان هاتين الشفتين اليابستين المدماتين ؛ وأن هذا الصوت الأجش الصافر ؛ وان هذا النشيج المتشنج الذى يشبه نشيج الأطفال ؛ وان هذه الضراعة التى فيها ثقة كثقة الأطفال رغم ما فيها من يأس ؛ ان ذلك كله كان يبلغ من اثارة الشفقة وايلام النفس أن الجميع أصبحوا كمن يرثى لحال المرأة الشقية من أعماق نفسه . وسرعان ما « رثى لحالها » بطرس بتروفتش على كل حال . قال يهتف بصوت يعبِّر عن الحماية والرعاية :

ـ سيدتى ، سيدتى ! ان هذا الحادث لا يتناولك فى شىء البتة ؛ مامن

أحد يخطر بباله أن يتهمك بسوء النية أو المشاركة والتواطؤ ، لا سيما وأنك توليت بنفسك قلبَ جيوبها ، فهذا دليل على أنك لم تراودك أيه شبهة . انني مستعد أتم الاستعداد ، نعم ، أتمّ الاستعداد ، لأن أتسامح اذا كان البؤس هو الذى دفع صونيا سيميونوفنا ان صح التعبير . ولكن لماذا لم تشائى أن تعترفى يا آنسة ؟ لعلك كنت تخشين العار ؟ لعل تلك الخطوة كانت خطوتك الأولى فى هـذا الطريق ؟ لعلك كنت قد فقـدت صوابك ؟ ذلك أمر يُفهم تماماً . ولكن لماذا ، لماذا وضعت نفسـك فى موقف كهذا الموقف ؟

وأردف بطرس بتروفتش يُشهد الحضور قائلاً :

ـ أيها السيدات والسادة ، اننى ، من باب الشفقة أو قولوا من باب الرأفة والرحمة ، ما أزال مسـتعداً لأن أغفـر وأصفح ، رغم الشـتائم الشخصية التى وُجِّهت الىّ !

والتفت الى صونيا ، فقال لها :

ـ نعم يا آنسة ، ليكن الخزى الذى أصابك الآن درسـاً يفيدك فى المستقبل . لن أتابع هذه القضية . أريد أن تقف الأمور عند هذا الحد. يكفى هذا .

وبطرف العين أراد بطرس بتروفتش أن يلاحظ راسكولنيكوف ، فالتقت نظرتاهما . كانت نظرة راسكولنيكوف المشـتعلة الملتهبة تهمّ أن تسحق لوجين سحقاً .

ولم يبد على كاترين ايفانوفنا أنها سمعت شيئاً . كانت تعانق صونيا وتقبّلها كمجنونة . وكان الأطفال أيضاً يضمون صونيا بأذرعهم الصغيرة؛ وقد أجهشت بوليتشكا باكية ، (رغم أنها لم تفهم الأمر الذى يدور عليه

المشهد فهماً واضحاً) ، وألقت وجهها الجميل المتنفخ على كتف صونيا ، مهتزة الجسم من النشيج .

ـ ما أنذل هذا !

كذلك قال صوتٌ رصين على حين فجأة قرب الباب .

التفت بطرس بتروفتش . فكرر ليبزياتنيكوف قوله محدقاً اليه متفرساً فيه :

ـ يا للنذالة !

أصاب بطرس بتروفتش شيء يشبه أن يكون رعشة . لقد لاحظ الجميع هذه الرعشة (وتذكروها فيما بعد) . تقدم ليبزياتنيكوف بضع خطوات . وقال مخاطباً بطرس بتروفتش وهو يقترب منه :

ـ وتجرؤ أن تُشهدني أيضاً ؟

ـ ما معنى هذا ... يا آندره سيميونوفتش ؟ عمَّ ... تتكلم ؟

كذلك دمدم لوجين متعثر اللسان .

أجابه ليبزياتنيكوف بعنف ، وهو ما يزال يحدّق اليه تحديقاً قاسياً بعينين تشبهان أن تكونا عمياوين :

ـ معناه أنك كاذب مفتر ... نعم ... هذا ما يعنيه كلامي !

كان ليبزياتنيكوف فى حالة غضب رهيب. ونظر اليه راسكولنيكوف هو أيضاً ، كأنما ليتلقف كلماته ويزنها وهي طائرة . وساد صمت جديد . كان بطرس بتروفتش قد فقد سيطرته على نفسه تقريباً ، ولا سيما في الوهلة الأولى .

وبدأ يتكلم فقال متلعثماً :

ـ اذا كنت تخاطبني أنا ... ولكن ماذا دهاك ؟ أأنت في تمام عقلك ؟

ـ نعم .. أنا في تمام عقلي ... ولكنك أنت ... نذل ! آه ... ما أنذل هذا ! لقد سمعت كل شيء ، وتعمدت أن أنتظر لأفهم كل شيء ، ذلك أنني حتى هذه الساعة ... كانت تبدو لي الأمور منطقية جداً ، اعترف بذلك !... نعم ، لماذا فعلتَ هذا ؟... انني لا أفهم !

ـ ولكن ما الذي فعلتُه ؟ هلا كففت عن الكلام بألغاز غبية ؟ لعلك سكران ؟ لعلك شربت ؟

ـ بل لعلك أنت الذي شربت ، لا أنا ، أيها الرجل الدنيء ! ثم انني لا أشرب فودكا أيضاً ، لأن هذا يخالف مبادئي . هل تتصورون أنه هو نفسه ، هو الذي أعطى صوفيا سيميونوفنا ، بيديه ، ورقة المائة روبل هذه ؟ لقد رأيته بعيني رأسي ، أنا شاهد ، وفي وسعي أن أحلف على ذلك بأغلظ الأيمان !

وردّد ليبزياتنيكوف يقول متجهاً الى الجميع والى كل واحد :

ـ هو ! هو ! هو !

أعول لوجين يقول :

ـ أأنت مجنون أيها الغر ؟ لقد أقرت هي نفسها ، هي الواقفة هناك ، بقربك ، أقرت أمام جميع الناس أنها لم تأخذ مني الا عشرة روبلات . وكيف كان يمكنني أن أعطيها تلك الورقة بعد ذلك ؟

ردّد ليبزياتنيكوف يقول صارخاً :

ـ رأيتُ ما فعلتَه ! رأيت ما فعلته ! وأنا مستعد ، رغم أن ذلك يخالف مبادئي ، مستعد لأن أحلف اليمين أمام المحاكم ... لأنني

رأيتك تدس لها هذه الورقة خلسةً • ولكنني ، لغبائي ، اعتقدت أنك تفعل ذلك من باب البر والاحسان • قرب الباب ، لحظةَ كانت تودعك ، حين التفتْ ومددتَ لها يدك اليمنى ، دسست ورقة المائة روبل باليد اليسرى فى جيبها خلسةً • رأيت ذلك ! رأيت ذلك !

شحب لون اوجين • وصرخ يقول بوقاحة :

ـ ما هذه السخافات التى تقـولها ؟ كيف كنت تستطيع ، وأنت واقف قرب النافذة ، أن تتعرف هذه الورقة ؟ ما هذا الا وهم !•• ما هذا الا وهم خلقته عيناك الضيقتان الحسيرتان ! أنت تهذى !

ـ لا ، ليس هذا وهماً ! ورغم أننى وقفت بعيداً ، والحق يقال ، فقد رأيت كل شىء ، رأيت كل شىء ! صحيح أن من الصعب على المرء أن يميِّز ورقة من بعيـد وهو واقف قرب النـافذة • ولكننى بفضـل ظرف خاص جداً كنت أعلم أن تلك الورقة انما كانت ورقة مالية بمائة روبل ، اذ فى اللحظة التى أعطيتَ فيها صوفيا سيميونوفنا عشرة روبلات ، رأيتك تتناول من على المائدة ورقة مائة روبل (وقد رأيت هذا لأننى كنت عندئذ بالقـرب منك) ؟ ولأن فكرةً ما قد ومضت فى ذهنى حينـذاك ، فاننى لم أنس أن هذه الورقة كانت بيـدك • لقد طويتها واحتفظت بها فى يدك طول الوقت • ثم لم أفكر أنا بعد ذلك فى هذا الأمر التفصيلى ، ولكنك حين نهضت نقلت الورقة من يدك اليمنى الى يدك اليسرى ؟ وحين فعلتَ ذلك كدتَ تُسقطها على الأرض • فتذكرت ذلك الأمر التفصيلى من جديد ، لأن تلك الفكرة نفسها قد ومضت فى ذهنى مرة أخرى : وهى أنك تريد أن تمن على صوفيا سيميونوفنا دون أن أعلم أنا ذلك • لهذا أخذت أراقبك وأرصد حركاتك ، فرأيت أنك أفلحت فى أن تدس تلك الورقة فى جيبهـا ! رأيت ذلك ! رأيت ذلك ! وانى مسـتعد لأن أحلف يميناً !

كان ليبزياتنيكوف كمن يختنق • وأخذت الصيحات تنهمر من كل صوب ، وكان أكثرها يدل على الدهشة والاستغراب • غير أن بينها صيحات كان فيها شيء من تهديد أيضاً • واقترب الجميع من بطرس بتروفتش ، واندفعت كاترين ايفانوفنا نحو ليبزياتنيكوف •

ـ آندره سيميونوفتش ! لقد أخطأت الظن فيك ! دافع عنها ! أنت الوحيد الذي يدافع عنها ! هذه يتيمة ! ان الله هو الذي أرسلك لتساعدنا ! آندره سيميونوفتش ، يا عزيزي الطيب الشهم آندره سيميونوفتش !

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك ، وارتمت تركع أمامه ، وهي لا تكاد تدرك ماذا تصنع !

زأر لوجين يقول وقد بلغ ذروة الغضب :

ـ سخافات ! هذا كل ما تستطيع أن تمضغه من كلام : « نسيت ، تذكرت ، تذكرت ، نسيت ! » • ما معنى هذا ؟ في زعمك اذن انني دسست لها الورقة عمداً ••• ولكن لماذا ؟ ما عسى يكون هدفي من ذلك ؟ أي شيء يجمع بيني وبين هذه ال •••

ـ لماذا ؟ ذلك بعينه هو ما لا أفهمه أنا نفسي ، ولكن هذا لا ينفي أنني أقول الحقيقة ! انني لم أخطيء في شيء أيها الحقير النذل ؟ انني أتذكر أن فكرة قد راودتني في تلك المناسبة ، حين كنت أشكرك مصافحاً • لقد قلت لنفسي عندئذ : « لماذا دس لها هذه الورقة خلسة ؟ أيمكن أن لا يكون غرضه من ذلك الا أن يخفي عني عمله ، لعلمه بأن مبادئي تتعارض مع فكرة الاحسان الفردي ، الاحسان الذي لن يخفف عن أحد تخفيفاً جذريا في يوم من الأيام ؟ » • ثم خطر ببالي أنك ربما كنت تشعر بحرج من اهداء مثل هذا المبلغ الكبير بحضوري ؟ ثم اعتقدت

أنك انما أردت أن تحدث لها دهشةً حين ستعثر فى جيبها على ورقة مالية بمائة روبل (أنا أعلم أن بعض المحسنين يحبون أن يتصرفوا على هذا النحو) . ولكنى قلت لنفسى بعد ذلك أيضاً انك تريد أن تختبرها وأن تمتحنها ، أى أن تعلم هل تجىء اليك شاكرة بعد أن تجد الورقة . وبعد ذلك أيضاً تخيلت أنك انما أردت أن تتجنب كل تعبير عن الشكر والامتنان ، عملاً بالمبدأ القائل ان اليد اليمنى يجب أن تجهل .. الخ.. آه ... ما أكثر الأفكار التى راودت ذهنى حينذاك !... وقد قررت أن أفكر فى هذه المسألة على مهل ، ورأيت أن من غير اللائق أن أظهر لك منذ ذلك الحين اننى عارف بسرّك . وقد راودتنى عندئذ فكرة أخرى. تساءلت : « ماذا لو أضاعت صوفيا سيميونوفنا هذا المال قبل أن تلاحظ وجوده ؟ » وذلك هو السبب الذى دفعنى أن أجىء الى هنا فأذكّرها أو أعلمها أنك وضعت مائة روبل فى جيبها . ولكننى ، أثناء الطريق ، دخلت على السيدتين كوبلياتنيكوف ، لأعطيهما كتاب « العرض العام للمنهج الوضعى » * ، ولأوصيهما خاصةً بقراءة مقالة بيدريت (ومقالة فاجنر أيضاً) ؛ ثم جئت الى هنا ، فانظرْ فى وسط أية قصة وقعت ! هل كان يمكن أن تخطر ببالى تلك الأفكار كلها ، وهل كان يمكن أن أجرى تلك الاستدلالات جميعها ، لولا أننى رأيتك تدس المائة روبل فى جيب صوفيا سيميونوفنا فعلاً ؟

حين أنهى آندره سيميونوفتش أقواله المفحمة وختمها بهذه النتيجة المنطقية شعر بتعب رهيب ، فكان العرق يقطر من جبينه . انه لا يجيد التعبير باللغة الروسية وا أسفاه (وان كان لا يعرف أية لغة أخرى) ، لذلك بدا عليه بعد مغامرته الخطابية ارهاق شديد ، حتى لكأنه أصيب بنحول وهزال . لكن حديثه أثّر تأثيراً خارقاً . لقد تكلم بدون تصنع

أو افتعال ، وكان كلامه مقنعاً مفحماً ، فصدقه الجميع • وشعر بطرس بتروفتش أن الأمور لا تجرى على ما يحب • فهتف يقول :

ــ أنا لا تهمنى المسائل السخيفة التى خطرت ببالك فى قليل ولا كثير ! ليس هذا ببرهان • من الجائز جداً أن تكون قد رايت ذلك كله فى حلم • وأنا أقول لك انك تكذب يا سيد ! أنت تكذب ، وانت تفترى علىّ ، يدفعك الى ذلك حقدٌ شخصى ، فأنت تضمر لى الضغينة لأننى لا أشاركك آراءك الاشتراكية الملحدة • ذلك كل شىء !

ولكن هذه الحركة الدائرة لم تعد على بطرس بتروفتش بأى نفع• بالعكس : ارتفعت الدمدمات من كل جهة •

وصاح ليزياتنيكوف يقول :

ــ ا •• هذا ما تريد أن تصل اليه ! أنت تكذب ! استدع الشرطة، وسأحلف اليمين • ليس هناك الا شىء واحد لا أستطيع أن أفهمه : ما الذى دفعه الى أن يتصرف هذا التصرف الدنىء ؟ يا للحقير ! يا للنذل !

قال راسكولنيكوف بصوت قاس وهو يتقدم الى أمها :

ــ أنا أستطيع أن أشرح السبب الذى دفعه الى التورط فى مثل هذا الفعل • وانى لمستعد أن أحلف اليمين أنا أيضاً اذا لزم ذلك •

كان راسكولنيكوف يبدو حازماً • وأدرك الجميع من نظرة واحدة ألقوها عليه أنه يعرف القضية كلها فعلاً ، وأن الخاتمة قد اقتربت •

وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال متجهاً بالكلام الى ليزياتنيكوف رأساً :

ــ الآن فهمت كل شىء ! لقد أحسست منذ بداية هذه الحكايه ان فى الأمر مكيدة قذرة ما ، أحسست ذلك بسبب ظروف خاصة لا يعرفها

أحد غيري وسأكشف عنها لكم الآن ، لأنها أصل كل شيء . وأنت الذي أضأت لي الحقيقة نهائياً بشهادتك الثمينة يا آندره سيميونوفتش . أرجوكم جميعاً ، جميعاً ، أن تصغوا الي . ان هذا السيد (قال راسكولنيكوف ذلك مشيراً الى لوجين) قد خطب في الآونة الأخيرة فتاة .. فتاة ... هي أختي آفدوتيا رومانوفنا راسكولنيكوفا . لكنه منذ وصوله الى بطرسبرج أمس الأول قد حدث بيني وبينه شجار أثناء أول لقاء بيننا فطردته من مسكني ، وذلك بحضور شاهدين اثنين . ان هذا الرجل شرير جداً ... لم أكن أعرف أمس الأول أنه يسكن في غرفة مفروشة عندك يا آندره سيميونوفتش ، ولم أكن أعرف اذن أنه في يوم تشاجرنا نفسه ، أي أمس الأول بعينه ، قد رأى أنني بصفتي صديقاً للمرحوم السيد مارميلادوف قد أعطيت زوجته كاترين ايفانوفنا مالاً تنفقه على الاحتفال بالجنازة . ولكنه قد رأى ذلك فسرعان ما كتب الى أمي رسالة يبلغها فيها أنني قد وهبت كل ما أملك من مال ، لا لكاترين ايفانوفنا بل لصوفيا سيميونوفنا ، واصفاً هذه الفتاة بأحط النعوت ... أقصد ... واصفاً طبيعة علاقاتي بها بأحط النعوت . وهو يهدف من ذلك طبعاً الى أن يحدث شقاقاً بيني وبين أمي وأختي ، عن طريق اقناعهما بأنني أتلف في وجوه غير شريفة آخر مال يحرمان نفسيهما منه في سبيل سد حاجاتي . وفي مساء أمس ، أثناء مقابلة تمت بيني وبين أمي وأختي ، وقد حضر هذه المقابلة ، أظهرت الحقيقة مبرهناً على أنني انما أعطيت المال لكاترين ايفانوفنا ، لانفاقه على الاحتفال بالجنازة ، ولم أعطه لصوفيا سيميونوفنا ، التي كنت منذ ثلاثة أيام لا أعرفها على كل حال .. ولكنني أضفت الى ذلك أنه ، هو بطرس بتروفتش ، بكل مزاياه ، لا يساوي خنصر صوفيا سيميونوفنا التي يقول في حقها ذلك الكلام الدنيء ! ثم سألني هل أنا مستعد لأن أجلس صوفيا سيميونوفنا الى جانب أختي ،

فأجبته بأننى قد فعلت هذا فى ذلك اليوم نفسه • وأغضبه أشدّ الغضب أن يلاحظ أن أمى وأختى لا تريدان أن تتشاجرا معى تصديقاً لنمائمه وافتراءاته ، فسرعان ما أخذ يتفوه بوقاحات لا تُغتفر • ونشأت عن ذلك قطيعة حاسمة بينه وبين اختى ، وطُرد شرّ طردة • ذلك كله حدث أمس • والآن انتبهوا : لو قد أفلح فى أن يبرهن اليوم على أن صوفيا سيميونوفنا سارقة ، لاستطاع أن يظهر لأمى وأختى أولاً أنه كان على حق حين اشتبه فى أمرها ، وثانياً أنه كان على حق حين غضب اذ علم أننى ساويت بينها وبين أختى ، خطيبته • جملة القول أنه بفضل ذلك كان يستطيع أن يظل يأمل فى أن يحدث شقاقاً بينى وبين أسرتى وفى أن يسترد حظوته لديها • ناهيكم عن أنه بذلك ينتقم منى شخصياً ، لأن من حقه أن يفترض أن شرف وسعادة صوفيا سيميونوفنا يهماننى كثيراً • ذلكم هو حسابه كله ! هكذا أفهم أنا القضية ! هذا هو دافعه ولا دافع سواه !

بهذه الكلمات ، أو بهذه الكلمات تقريباً ، ختم راسكولنيكوف كلامه الذى كثيراً ما كانت تقطعه صيحات التعجب من المستمعين ، الذين تابعوا كلامه بكثير من الانتباه • ولكن راسكولنيكوف ، رغم المقاطعات ، تكلم بلهجة حازمة هادئة ثابتة ، وبوضوح كامل ودقة لا يشوشها شىء • وكان لصوته المختلج ونبرته المقنعة وهيئته القاسية أثر شديد فى جميع الناس •

قال ليبزياتنيكوف مؤيداً بحماسة :

ـ هذا هو الأمر ! هذا هو الأمر ! هذا هو الأمر يقيناً ، لأنه سألنى ، منذ دخلت صوفيا سيميونوفنا الغرفة ، هل « أنت موجود ، وهل رأيتُك فى عداد الذين دعتهم كاترين ايفانوفنا » • لقد جذبنى الى شق

النافذة ليلقى علىّ هذا السؤال همساً . معنى ذلك أنه كان يحـرص حرصاً مطلقاً على أن تكون موجوداً ! هذا هو الأمر تماماً !

كان لوجين صامتاً يبتسم باحتقار . لكنه كان شـديد الشحوب . كأنه يفكر فى الوسلة التى يخرج بها من المأزق. لعله كان يتمنى لو يدع كل شيء ويخـــرج ، لـكن ذلك لم يكن بالأمر الممـكن كثيراً فى تلك اللحظة : فلو خـرج لكان معنى خـروجه صراحةً أنه يعترف بصحة الاتهامات الموجّهة اليه ، وأنه قد افترى على صوفيا سيميونوفنا فعلاً . ثم ان الحضور ، وقد سكروا ، أخذوا يتحمسون . وهذا موظف التموين يصرخ صراخاً أعلى من صراخ سائر الناس ، رغم أنه لم يفهم كل شيء ، مقترحاً اتخاذ اجراءات تسيء الى لوجين كثيراً. هذا الى أن هناك أشخاصاً لم يكونوا سكارى : لقد هرع أناس من جميع الغـرف . البولنديون الثلاثة الصـغار اهتاجوا اهتياجاً رهيباً فهم لا ينفكون يصرخون قائلين بالبولندية : « سيد حقير » ، ويجمجمون مرددين تهديدات بلغتهم أيضاً.

كانت صونيا تصغى فى جهد ، ولكن كان لا يبدو عليها أنها تفهم شيئاً هى الأخرى . لكأنها خارجة من غيبوبة . كانت لا تحوّل عينيها عن راسكولنيكوف ، شاعرةً أنه سندها الوحيد . وكانت كاترين ايفانوفنا تتنفس فى مشقة ، وكانت حنجرتها تصدر أصواتاً جشاء ، وكانت تبدو مرهقة الى أبعد حدود الارهاق . الا أن وضع آماليا ايفانوفنا كان أغبى الأوضاع ، فهى فاغرة الفهم يبدو عليهـا أنها لا تفهم شيئاً البتـة . كل ما هنالك أنهـا كانت تحس أن بطـرس بتروفتش فى مـأزق . وأراد راسكولنيكوف مرةً أخرى أن يتكلم ، ولكنهم لم يدعوا له أن يفعل ، فالحضـور جميعاً يصرخون فى آن واحـد ويحتشـدون حـول لوجين بالشـتائم والتهديدات . ومع ذلك لم يفتّ هذا فى عضد لوجين . واذ

رأى أن حملته على صوفيا سيميونوفنا خاسرة ، لجأ الى الوقاحة عامداً •
قال وهو يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور :

ــ اسمحوا لى أيها السادة ، اسمحوا لى ! أرجوكم أن لا تهددونى!
أؤكد لكم أن هذا لا يجدى ، وأنكم لن تبلغوا بهذه الطريقة شيئاً !
لست بالصبى الغر ••• بالعكس : أنتم الذين ستحاسبون أمام العدالة عن
أنكم استعملتم العنف لتغطية جرم • لقد انفضحت السارقة ، وسأشكوها
الى القضاء • والقضاة ليسوا عمياً ، ولا هم سكارى !••• القضاة لن يثقوا
بأقوال ملحدين زنديقين يعاديان النظام ولا يؤمنان بالدين ، ويتهمانى
حقداً وانتقاماً ، وذلك ما اعترفا به بلسانهما لغبائهما ! نعم ، اسمحوا لى !

قال آندره سيميونوفتش :

ــ ألا فليختف كل أثر لوجودك عندى على الفور ! هيَّا غادر غرفتى
حالاً ، ولينته كل شيء بيننا ••• آه ••• حين أتذكر كم أرهقت نفسى
طوال خمسة عشر يوماً فى أن أشرح له •••

ــ ولكننى قلت لك أنا نفسى منذ قليل ، بينما كنت تلحُّ أنت على
بقائى عندك ، اننى مبارح غرفتك حتماً • هناك شيء واحد أضيفه الآن :
هو أنك غبى أبله ! أتمنى لك أن يشفى عقلك وأن يتحسن بصرك
الحسير • اسمحوا لى يا سادة !

واستطاع أن يشق لنفسه ممراً • لكن موظف التموين لم يكن
يسمعه بهذه الأذن ، ولم يشأ أن يخلى سبيله بهذه السهولة ، فتناول كأساً
عن المائدة فلوَّح بها ثم قذفها الى جهة بطرس بتروفتش بكل ما أوتى من
قوة • غير أن الكأس طارت نحو آماليا ايفانوفنا رأساً ، فأطلقت هذه
صرخات حادة ، بينما أخذ موظف التموين يتدحرج تحت المائدة بعد أن
أفقدته هذه الحركة توازنه •

انسحب بطرس بتروفتش الى غرفته ، وما انقضى على ذلك نصف ساعة حتى كان قد غادر المنزل •

كانت صونيا ، الوجلة بطبيعتها ، لا تجهل أن من السهل على اى انسان أن يسبِّب ضياعها وهلاكها • وكانت تعرف كذلك أن أى انسان يستطيع أن يهينها وأن يؤذيها دون أن تصيبه من ذلك أية اساءة تقريباً• ولكنها كانت ما تزال تعتقد حتى ذلك الحين أن فى وسعها ، بطريقة أو بأخرى ، أن تتجنب نمائم كبيرة وافتراءات ضخمة اذا هى عاملت جميع الناس وكلَّ انسان بالتأنى والحذر ، والتواضع والمذلة ، والرقة واللطف• فخاب الآن ظنها ، وكانت خيبة الظن هذه قاسية الوقع فى نفسها • صحيح أنها كانت تستطيع ، مذعنةً مستسلمة ، ودون دمدمة تقريباً ، أن تحتمل كل شىء ، وأن تحتمل حتى هذا • غير أن « هذا » قد بلغ من شدة الوطأة على نفسها ، فى الوهلة الأولى ، درجةً لا تطاق • فهى ، رغم انتصارها وتبرئتها ، ما ان زال رعبها الأول وما ان أفاقت من ذهولها وأصبحت قادرة على أن تدرك الأمور ادراكاً صحيحاً ، حتى كان شعورها بأنها مهجورة واحساسها بالاهانة التى أُلحقت بها يقبضان صدرها قبضاً أليماً ، فاذا هى تصاب بنوبة عصبية • ثم اذا هى تفقد صبرها فتولَّى هاربةً من الغرفة راكضةً الى مسكنها • حدث ذلك فور انصراف لوجين تقريباً•

وآماليا ايفانوفنا التى أصابتها الكأس لم تحتمل كذلك ضحكات الحضور ، فاستعر غضبها ، وأخذت تطلق صرخات مجنونة ، ثم اتجهت نحو كاترين ايفانوفنا تحمِّلها تبعة كل شىء ، وتقول لها :

ـ ارحلى من بيتى ! اخرجى حالاً ! الى الأمام ، سر !

كانت آماليا ايفانوفنا تقول ذلك وهي تقبض على كل ما يقع بين يديها من أمتعة كاترين ايفانوفنا فتلقيه على الأرض .

وكانت كاترين ايفانوفنا قد تهالكت على السرير مهدودة القوى مهدَّمة ، محطَّمة ، ، فلما رأت صاحبةَ البيت تفعل ذلك بأمتعتها وثبت عن السرير وهجمت عليها . ولكن الصراع لم يكن فيه أي تكافؤ ، فكانت الألمانية تهزُّ كاترين وترجّحها كأنها ريشة طائر .

ــ ماذا ؟ ألم يكف هذه المخلوقة أنها افترت على صونيا افتراءات شيطانية ، فهى تهجم عليَّ أنا أيضاً ؟ كيف ؟ هل أُرمى الى الشارع فى يوم وفاة زوجى ؟ أبعد أن تُقبل ضيافتى أُلقىَ الى الشارع مع اليتامى ؟ فالى أين يمكننى أن أذهب ؟

بهذا كانت تعول كاترين ايفانوفنا مختنقةً من خلال النشيج . وصرخت تقول على حين فجأة وقد اشتعلت عيناها :

ــ هل يمكن أن لا يكون هناك عدالة يا اله السماء ؟ عمَّن عساك تدافع ومن عساك تحمى اذا لم تدافع عنا نحن اليتامى ، واذا لم تحمنا نحن اليتامى ؟ طيب ... لسوف نرى ! ان على الأرض قضاءً ومحاكم ! نعم ، هناك قضاء ومحاكم ! سأتجه الى المحاكم ، سأجد المحاكم ! حالاً ! فوراً ! انتظرى قليلاً أيتها المخلوقة الدنيئة ! يا بوليتشكا ، ابقى مع الأولاد ! سأعود ! انتظرى فى الشارع اذا لزم الأمر ! سوف نرى هل فى هذا العالم حقيقة !

وألقيت كاترين ايفانوفنا على رأسها ذلك الشال المصنوع من جوخ السيدات ، الذى تحدث عنه المرحوم مارميلادوف ، وشقت لنفسها طريقاً بين جمهرة السكان السكارى المبعثرين فوضى ، الذين كانوا لا يزالون

محتشدين فى الغرفة • واندفعت فى الشارع باكية ناشجة ، وهى تنوى على نحو غامض أن تمضى باحثة عن العدالة فوراً مهما كلف الأمر •

واستولى الرعب على بوليا ، فلطت فى ركن من الأركان قرب الصندوق ، مع الصغار المرتجفين المرتعدين ، وقد أحاطتهم بذراعيها منتظرة عودة أمها •

وكانت آماليا ايفانوفنا تضطرب فى الغرفة ، وتطلق الصراخ بعد الصراخ ، وترعد ، وتلقى على الأرض كل ما تجده ثم تدوسه • وكان المستأجرون يصرخون كل من جهته • فبعضهم يعلقون على الأحداث بطريقتهم ، وبعضهم يتشاجرون ويتشاتمون ، وبعضهم يغنون •

وقال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « والآن حان حينى أنا أيضاً • سوف نرى يا صوفيا سيميونوفنا ما قد تقولينه الآن ! »

واتجه نحو مسكن صونيا •

الفصل الرابع

دافع راسكولنيكوف عن صونيا دفاعاً متحمساً قوياً ضدّ لوجين رغم أن نفسه كانت تفيض هولاً شديداً وعذاباً أليماً • ولكنه شعر بعد تباريح الصباح برضى صادق وارتياح حقيقى لتغير مشاعره التى كان قد أصبح لا يطيق احتمالها ، بصرف النظر عن العاطفة التى دفعته الى التدخل مدافعاً عن صونيا • ثم انه لم ينس أنه على موعد وشيك مع الفتاة ، وهو موعد كانت فكرته تحدث له فى بعض الأحيان أشد أنواع القلق • كان «عليه» أن يبلغها أنه قتل اليزابت ، وكان يحس منذ الآن أنه سيشعر بعذاب شديد وألم ممض • وبحركة من يده ، أبعد هذه الفكرة عن ذهنه • لذلك فانه حين هتف يقول لحظةَ خروجه من عند كاترين ايفانوفنا : « سوف نرى يا صوفيا سيميونوفنا ما قد تقولينه الآن » كان ما يزال خاضعاً للأثر الذى أحدثه فيه انتصاره منذ هنيهة على لوجين • غير أن شيئاً غريباً قد حدث حينذاك : فانه حين وصل الى مسكن كابرناؤموف شعر بقواه تبارحه على حين فجأة ، وشعر بخوف يستولى عليه ، فاحتار واضطرب ، ووقف أمام الباب وألقى على نفسه هذا السؤال العجيب : « هل يجب أن يقول لها من الذى قتل اليزابت ؟ » • وانما كان هذا السؤال عجيباً لأن راسكولنيكوف كان يشعر فى الوقت نفسه أنه

عاجز عن كتمان هذا الأمر بل يشعر أيضاً أنه يستحيل عليه أن يؤخر اعترافه هذا أى تأخير • كان لا يعرف ، بعد ، لماذا يستحيل عليه ذلك• وانما هو « يحس » تلك الاستحالة احساساً فحسب ، وكان هذا الاحساس الموجع الأليم بعجزه يثقل على نفسه ويرهقه من أمره حتى ليسحقه سحقاً • ومن أجل أن يضع حداً لخواطره وتأملاته ، وهمه وقلقه ، فتح الباب بغتةً ولاحظ صونيا من مكانه فى العتبة •

كانت صونيا جالسةً ، واضعةً كوعيها على مائدتها الصغيرة ، دافنةً وجهها فى يديها • فلما رأت راسكولنيكوف نهضت بسرعة شديدة وهبّت الى لقائه كأنها كانت تنتظره •

اقترب راسكولنيكوف من المائدة وجلس على الكرسى الذى تركته صونيا • كانت صونيا واقفةً على بعد خطوتين منه ، كالبارحة تماماً •

قال راسكولنيكوف وهو يشعر فجأة بأن صوته يرتجف :

ـ هيه صونيا ! أرأيت ؟ ان أساس الأمر كله انما « وضعك الاجتماعى والعادات التى يخلقها » • هل فهمت ؟

ارتسم الألم على وجه صونيا • وقاطعته تقول :

ـ لا تكلمنى خاصةً كما كلمتنى أمس • أرجوك ، لا تفعل مافعلته أمس • كفى تعذيباً !

وأسرعت تبتسم ، مخافة أن يسوءه هذا اللوم •

وأردفت تقول :

ـ كانت حماقةً منى أن انصرفت • فما الذى يجرى الآن هناك ؟ لقد أردت أن أعود ، لكننى كنت أقدّر طوال الوقت أنك •• قد تجىء••

روى لها راسكولنيكوف أن آماليا ايفانوفنا قد طردتهم من البيت وأن كاترين ايفانوفنا مضت « تبحث عن الحقيقة » فى مكان ما •

هتفت صونيا تقول :

ـ آه ! رباه ! هيَّا بنا حالاً ، فوراً !

وتناولت خمارها •

صاح راسكولنيكوف يقول بلهجة حانقة :

ـ ما زلت كما كنت ! لا تفكرين الا فيهم ! هلاَّ بقيت معى قليلاً !

ـ لكن ••• وكاترين ايفانوفنا ؟

ـ كاترين ايفانوفنا ستعرف كيف تهتدى اليك •

قال راسكولنيكوف ذلك ، ثم أضاف يقول بحزن :

ـ ستجيئك بنفسها ما دامت قد خرجت • فان لم تجدك هنا كنت أنت المذنبة •

جلست صونيا وهى فريسة تردد أليم • وصمت راسكولنيكوف مطرقاً الى الأرض يجتر فكرة ثابتة •

ثم بدأ يتكلم فقال دون أن ينظر الى صونيا :

ـ لنسلِّم بأن لوجين لم يشأ أن يتابع الأمر ••• ولكن لو شاء ذلك ، لو كان ذلك داخلاً فى حساباته ، لاستطاع أن يرسلك الىالسجن لولا وجودى ووجود ليبزياتنيكوف ، أليس كذلك ؟

أجابت صونيا تقول بصوت ضعيف :

ـ نعم !

ثم كررت تقول قلقة ً وكأنها غائبة عن نفسها :

ـ نعم !

قال راسكولنيكوف :

ـ ولكن كان من الجائز جداً أن لا أكون أنا موجوداً هناك ٠ أما ليبزياتنيكوف فانه لم يكن قد رجع الا مصادفة ً ٠

صمت صونيا ولم تجب بشيء ٠

واستأنف راسكولنيكوف كلامه فقال :

ـ فماذا لو أودعت فى السجن ؟ ما عسى يحدث حينذاك ؟ هل تتذكرين ما قلته لك أمس ؟

ظلت صونيا صامتة ٠ وانتظر راسكولنيكوف لحظة ثم قال وهو يحمل نفسه على الابتسام :

ـ كنت أتصور أنك سوف تصرخين قائلة ً مرة أخرى : « آه ٠٠٠ لا تقل هذا الكلام ! اسكت ! » ٠

ولم تجب صونيا أيضاً ، فسألها راسكولنيكوف بعد دقيقة :

ـ هيه ! أتعودين الى الصمت ؟ ولكن لا بد أن نتحدث عن شيء ما على كل حال ! اننى ليهمنى كثيراً أن أعرف كيف يمكن أن تحلى « مسألة » من المسائل ٠٠٠ على حد تعبير ليبزياتنيكوف (لكان راسكولنيكوف كان يوشك أن يرتبك ، وتابع كلامه ٠٠٠) ٠ لا ، لا ، انا لا أتكلم جاداً ٠ تخيَّلى يا صونيا أنك كنت تعلمين سلفاً جميع نيات لوجين ، وأنك كنت تعرفين معرفة اليقين الكامل أن كاترين ايفانوفنا سوف تضيع بسبب هذه النيات ضياعاً تاماً ، هى والأولاد أيضاً ، وانك

ستتعرضين أنت نفسك للانحدار (رغم أن هذا الأمر لا يهمك) ، وكذلك بوليا ... من جهة أخرى ... لأن هذا الطريق هو الطريق الذى ينفتح أمامها فعلاً . تخيّلى هذا كله ثم تخيّلى أنه يتوقف عليك أنت أن يبقى على قيد الحياة اما هذا واما أولئك ، أى اما لوجين مع كل الدناءات التى يرتكبها واما كاترين ايفانوفنا ، فماذا تقررين ؟ أتختارين موته أم تختارين موتها ؟ اننى ألقى عليك هذا السؤال .

نظرت اليه صونيا فى قلق . انها تحزر وراء هذه الكلمات الملتبسة فكرة مخبأة تذكرّها بشىء ما .

قالت وهى تثبت عليه نظرة فاحصة :

ـ كنت أوجس أنك ستلقى علىّ سؤالاً من هذا النوع .

قال راسكولنيكوف :

ـ ليكن ذلك . فماذا تختارين ؟

سألته صونيا بنفور :

ـ لماذا تسألنى عن شىء لا يمكن أن يحدث ؟

ـ الأفضل اذن أن يبقى رجل مثل لوجين حياً وأن يستمر فى ارتكاب حقاراته . هذا مع ذلك رأى لا تجسرين أيضاً أن ترتئيه .

ـ ليس يخصنى أنا أن أنفذ الى أغراض « العناية الالهية » ... ولماذا تسأل عمّا لا نملك حق السؤال عنه ؟ ما جدوى هذه الأسئلة الباطلة ؟ كيف يمكن أن يتوقف أمر كهذا الأمر على قرارى أنا ؟ من الذى نصبنى قاضياً فأعلم من ذا يجب أن يحيا ومن ذا يجب أن لا يحيا؟

جمجم راسكولنيكوف يقول بلهجة كئيبة :

ـ متى تدخلت « العناية الالهية » فى الأمر ، لم يبق ما نقوله !

فهتفت صونيا تقول فى ألم :

ـ الأولى أن تقول لى ما تريد أن تقوله ، بغير لف ولا دوران ! انك ما تزال تجتر شيئاً ما . هل من الممكن أن لا تكون قد جئت الا لتعذبنى ؟

ولم تطق صونيا صبراً ، فأخذت تبكى بكاءً مراً . فكان ينظر اليها مكفهر الوجه حزيناً . وانقضت على ذلك خمس دقائق .

وتكلم أخيراً فقال بصوت رقيق عذب :

ـ نعم ، أنت على حق .

لقد تبدّل راسكولنيكوف فجأة . ان لهجته التى كان فيها وقاحه مقصودة وتحد متعمّد قد اختفت . حتى لقد ضعف صوته . وتابع كلامه فقال :

ـ لقد قلت لك أمس اننى لن أجيئك اليوم مستغفراً ، ومع ذلك فاننى بدأت كلامى بالاستغفار تقريباً . فحين تكلمت عن لوجين وعن العناية الالهية كنت لا أتكلم الا عن نفسى ، وكنت استغفر يا صونيا .

وأراد راسكولنيكوف أن يبتسم ، لكن تعبيراً عن العجز والتعب تجلى فى تلك الابتسامة الصفراء . وخفض رأسه وغطى وجهه بيديه .

وفجأةً ، اجتاح قلبَه احساسٌ غريب غير متوقع ، احساس بكره عنيف نحو صونيا . فاستغرب راسكولنيكوف هذا الاكتشاف بل روّعه هذا الاكتشاف ، فرفع رأسه بغتةً ونظر اليها محدّقاً . ولكن نظرته لم تلتق الا بنظرة الفتاة التى كانت نظرة قلقة زاخرة بضراعة أليمة . لقد

كان فى تلك النظرة حب • وتبدد من نفس راسكولنيكوف كل احساس بالكره ، كما يتبدد حلم • لا ، لم يكن الأمر كما تصور ، لقد أخطأ فى فهم طبيعة العاطفة التى شعر بها • ذلك يعنى أن اللحظة الحاسمة قد وافت •

ومرةً أخرى دفن وجهه فى يديه ، وخفض رأسه • واصفر وجهه على حين بغتة ، ونهض عن كرسيه ونظر الى صونيا ؛ ثم مضى يجلس على السرير بخطى آلية ، دون أن يقول كلمة واحدة •

كانت هذه الدقيقة تشبه كثيراً ، من ناحية الاحساس الذى شعر به ، تشبه كثيراً تلك الدقيقة التى كان فيها واقفاً وراء العجوز ، بعد أن أخرج الساطور من الابزيم ، وأحس أنه « لم يبق ثمة لحظة يضيعها »•

سألته صونيا مروَّعةً :

ـ ماذا بك ؟

فلم يستطع أن يقول كلمة واحدة • انه لم يكن يقدِّر أنه على هذا النحو « سينبئها » بالأمر • ولم يتمكن راسكولنيكوف من أن يفهم مايحدث فى نفسه فى تلك اللحظة •

اقتربت صونيا منه برفق ، وجلست على السرير بقربه ، وانتظرت دون أن تحوِّل عينيها عنه • وكان قلب صونيا يخفق خفقاناً قوياً حتى ليكاد ينفجر •

أصبح الموقف لا يُحتمل • أدار راسكولنيكوف نحوها وجهه المصطبغ بصفرة كصفرة الموت • وتقبضت شفتاه فلم يستطع أن ينطق أية كلمة • استولى الرعب على صونيا • فقالت مردِّدة وهى تبتعد عنه قليلاً :

ـ ماذا بك ؟

فدمدم يقول كانسان استولى عليه الهذيان وأصبح لا يدرى ماذا يقول :

ـ لا شيء يا صونيا . لا تخافى . حقاً ، متى فكّر المرء فى هذه الأمور أدرك أنها سفاسف وترهات وحماقات !

وأضاف يقول فجأة وهو ينظر اليها :

ـ لماذا جئت أعذبك أنت ؟ حقاً ، لماذا ؟ اننى لا أنفك ألقى على نفسى هذا السؤال يا صونيا .

لعله كان قد ألقى على نفسه هذا السؤال منذ ربع ساعة ، ولكنه يعبّر عنه الآن وهو فى حالة ضعف كامل ، فما يكاد يشعر بنفسه ، وما برح جسمه يرتجف بارتعاش متصل .

قالت صونيا متألمة وهى تتفحصه بنظرها :

ـ آه ... لشد ما تعذب نفسك !

ـ ما هذه كلها الا سخافات ! اسمعى يا صونيا : (ان فكرة من الأفكار قد جعلت شفتيه تلم بهما ابتسامة صفراء) هل تتذكرين ما كنت أريد أن أقوله لك أمس ؟

انتظرت صونيا قلقة .

ـ لقد قلت لك عند انصرافى اننى ربما كنت أودّعك الى الأبد ، ولكننى ان جئت ... فسأقول لك من الذى قتل اليزابت .

أخذت صونيا ترتعش من الرأس الى القدمين .

ـ فهأنذا أجيء لأقول لك من الذى قتل اليزابت .

تمتمت تقول فى جهد ومشقة :

ـ كنت تتكلم جاداً اذن حين قلت لى أمس •••

لكنها أسرعت تسأله كأنها ثابت الى رشدها فجأة :

ـ فكيف عرفت من الذى قتلها ؟

كانت صونيا تتنفس تنفساً شاقاً • وكان وجهها يزداد شحوباً • قال راسكولنيكوف :

ـ أنا أعرف من هو القاتل •

فلزمت صونيا الصمت مدة دقيقة • ثم سألته خائفة :

ـ وهل وجدوه ؟

ـ لا ، لم يجدوه •

ـ اذن كيف عرفت من هو ؟

قالت ذلك بصوت مختنق ، بعد صمت جديد •

التفت راسكولنيكوف اليها ، وأمعن فى النظر اليها • ثم قال لها وهو يرسم على شفتيه تلك الابتسامة المصنوعة نفسها :

ـ احزرى !

وكأن تشنجات عنيفة كانت تهز جسم صونيا كله •

قالت صونيا وهى تبتسم كطفلة :

ـ ولكنك •• ولكنك تخيفنى ••• تخيفنى بهذا الكلام !

تابع راسكولنيكوف كلامه وهو ما يزال ينظر اليها ويتفرس فيها كأن عينيه مشدودتان اليها شداً لا فكاك منه ، وكأنه لا يستطيع أن يحوّل بصره عنها :

ـ هذا يبرهن على أن بيني وبينه « هو » صداقة حميمة • ولقد كان لا يريد قتل اليزابت تلك ، وانما هو قتلها ••• مصادفةً ••• لقد كان يريد قتل العجوز حين كانت وحيدة في البيت ••• وجاء ••• وعندئذ ••• قتلها هي أيضاً •

وانقضت دقيقة أخرى مروّعة • كان كل منهما ينظر في الآخر•

سألها بغتةً وهو يحس أنه يهوى من برج ناقوس :

ـ ألم تحزري اذن ؟

همست صونيا تقول بصوت لا يكاد يُدرك :

ـ لـ ••• لا •••

ـ فكّري !

فما كاد راسكولنيكوف يقول ذلك حتى غزاه احساس مالوف جمّد قلبه • نظر اليها فكأنما هو يرى في وجهها ملامح وجه اليزابت • وتذكر تذكراً واضحاً متميزاً تعبير وجه اليزابت في اللحظة التي اقترب فيها منها مشهراً ساطوره ، فتراجعت نحو الحائط واضعةً يديها امامها ، كالأطفال الصغار حين يخافون فيثبتون على ما يخيفهم نظرة جامدة قلقة ويتراجعون ويمدون أيديهم الصغيرة ويوشكون أن يبكوا • كذلك كان شأن صونيا في تلك اللحظة • لقد تأملته بعض الوقت بتلك الحيرة نفسها ، وبذلك الاضطراب نفسه ، وبذلك الارتياع ذاته ، ثم رفعت يدها اليسرى فجأة فلمست صدره بأطراف أصابعها في رفق ، ونهضت عن السرير ببطء ، وابتعدت عنه رويداً رويداً ، وهي تحدّق اليه مزيداً من التحديق • وارتسم هذا الرعب نفسه على وجه راسكولنيكوف ، ارتسم هو نفسه تماماً • ونهض راسكولنيكوف مثلما

نهضت ، وأخذ ينظر اليها وهو يبتسم ابتسامة « الاطفال » تلك نفسها تقريباً .

وهمس يسألها أخيراً :

ـ هل حزرت ؟

قال صونيا مرتاعةً وهي تشهق شهقة رهيبة :

ـ يا رب !

وخارت قواها ، فسقطت على السرير دافنةً وجهها في الوسادة . ولكنها عادت تنهض بعد لحظة ، واقتربت منه ، وتناولت يديه ، وضغطتهما بأصابعها النحيلة ضغطَ كُلاَّبة . ثم استأنفت التحديق اليه . كانت تريد بهذه النظرة المكروبة أن تلتقط شيئاً من أمل . ولكن توقعها كان باطلاً . لم يبق أي شك . نعم ، ذلك هو الأمر ! وحتى في المستقبل ، حين ستستحضر صونيا بخيالها تلك اللحظة ، سيبدو لها غريباً عجيباً أنها رأت على هذا النحو ، دفعةً واحدة ، أنه لم يبق مجال لأي شك . ما كان لها أن تجرؤ على الادعاء أنها كانت قد أوجست شيئاً من هذا النوع من قبل، ومع ذلك فانها ما ان قال لها هذا حتى بدا لها أنها كانت قد أوجست « هذا الأمر نفسه » حقاً .

قال لها راسكولنيكوف متوسلاً في ألم :

ـ كفى يا صونيا ، كفى !

لم يكن قد قدَّر أنه على هذا النحو سوف يعترف لها ، ولكن « على هذا النحو » انما تمَّ الاعتراف .

خرجت صونيا عن طورها ، ووثبت ، ولوت يديها ، ومضت الى وسط الغرفة . ولكنها سرعان ما عادت الى قربه ، فجلست بجانبه حتى

ليكاد كتفها يلتصق بكتفه • وكأن فكرة مباغتة قد ومضت فى ذهنها ، فاذا هى ترتعش فجأة ، وتطلق صرخة ، وترتمى راكعة أمام راسكولنيكوف، لا تدرى هى نفسها لماذا !

قالت :

ــ ماذا فعلت ؟ ماذا فعلت بنفسك ؟

وارتمت على عنقه وضمته اليها ضماً قوياً •

بدرت من راسكولنيكوف حـركة تقهقر ، ونظر اليها وهو يبتسم ابتسامة حزينة •

ــ ما أغربك يا صونيا ! أتعانقيننى بعد أن قلت لك « ذلك » الأمر ؟ أنت لا تعرفين ماذا تفعلين !

صاحت صونيا تقول حتى دون أن تسمع ملاحظته :

ــ لا ، لا ، ليس فى العالم كله الآن رجل أشقى منك •

وأجهشت تبكى فجأة ، كأنما ألمت بها نوبة عصبيّة •

ان عاطفة تجهلها صونيا منذ مدة طويلة تغرقها الآن كموجة غامرة ، وتملأ قلبها رقة وحناناً• لم تحاول صونيا أن تقاوم هذه العاطفة • وانبجست من عينيها دمعتان ظلتا معلقتين بأهدابها •

سألها وهو ينظر اليها فى أمل تقريباً :

ــ ألن تتركينى اذن يا صونيا ؟

فصاحت صونيا تجيبه :

ــ لا ، لن ، لن أتركك أينما تذهب ! سأتبعك ، سـأتبعك الى أى

مكان ! آه ••• يا رب ! ••• آه ••• ما أشـقانى !••• لماذا ، لماذا لم أعرفك من قبل ؟ لماذا لم تأت قبل هذا الأوان ؟ آه ••• يا رب !•••

ــ لكننى أتيت مع ذلك •

ــ الآن أتيت ! ولكن ما العمل الآن ؟

ثم ردت تقول طائشة العقل وهى تعانقه من جديد :

ــ معاً ، معاً ! سوف أذهب معك الى المعتقل !

أصابت هذه الكلمات قلبه ، وعادت تظهر على شفتيه تلك الابتسامة نفسها التى تشتمل على كره وتكاد تشتمل على تعالٍ وكبرياء •

ــ ربما كنت يا صونيا لا أحب أن أذهب الى المعتقل •

ألقت عليه صونيا نظرة سريعـة • وبعد العاطفـة الأولى التى غزت نفسها وهى عاطفة شفقة حارة أليمة نحو الانسان الشقى المعذب ، عادت تستولى عليها فكرة القاتل الرهيبة المروّعة • ان لهجة كلماته الأخيرة ، وهى لهجة تبدلت على حين فجأة ، قد أرتها فيه صورة القاتل السفاح • ونظرت اليه مشدوهة • كانت لا تعرف ، بعدُ ، شيئاً • كانت لا تعرف لماذا حدث هذا أو كيف حدث • والآن تنبجس هذه الأسئلة جميعها فى شعورها دفعةً واحدة • ومرةً أخرى عادت تشك : « أيكون هو قاتلاً ؟ مستحيل ••• مستحيل ! » • ثم قالت وقد بلغت ذروة الدهشة والذهول :

ــ ولكن ما هذا ؟ أين أنا ؟ كيف ، كيف أمكنك و « أنت ما أنت » أن تعزم أمرك على تلك الفعلة ؟ لماذا ؟

أجاب بلهجة مرهقة ، وكأنها ملتاعة :

ــ لأسرق • كفى يا صونيا !

لبثت صونيا متجمدة خلال لحظة ، ولكنها هتفت تقول فجأة :

ـ كنت جائعاً ! فعلت ذلك لتساعد أمك ، أليس كذلك ؟

تمتم يقول وهو يشيح وجهه ويخفض رأسه :

ـ لا يا صونيا ، لا ... لم أكن جائعاً الى ذلك الحد . الواقع أننى كنت أريد أن أساعد أمى ... ولكن هذا أيضاً ليس صحيحاً كل الصحة ... لا تعذبينى يا صونيا .

ضمت صونيا يديها احداهما الى الأخرى . وقالت :

ـ ولكن هل يمكن ، هل يمكن أن يكون هذا كله صحيحاً ؟ رباه ! أهذه هى الحقيقــة ؟ من ذا الذى يمكن أن يصــدّقها ؟ وكيف ، كيف يُعقل أن تقتل لتسرق ، أنت الذى تعطى آخر ما تملك ؟

ثم صاحت تقول فجأة :

ـ وذلك المال الذى قدمته الى كاترين ايفانوفنا .. وذلك المال .. يا رب ! هل يمكن أن يكون ذلك المال أيضاً ...

قاطعها راسكولنيكوف يقول مسرعاً :

ـ لا يا صونيا ... ذلك المال ليس مصدره هذا .. اطمئنى ! ذلك المال انما أرسلته الىّ أمى بواسطة تاجر ، وقد تلقيته أثناء مرضى ، فى ذلك اليوم نفسه الذى أعطيتُه أمّك ... رازوميخين يعرف هذا ... هو الذى قبضه نيابةً عنى ... كان ذلك المال مالى أنا ، مالى أنا حقاً .

كانت صونيا تصغى اليه جامدةً ، جاهدةً بكل قواها أن تفهم . وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال بصوت خافت وهيئة حالمة :

ـ أما المال الآخر ... فاننى لا أعلم هل له وجود . لقد انتزعت

من عنقها ... محفظة نقود من جلد ... محفظة نقود ملأى ، محشوة ، لكننى لم أفتحها ... لعل وقتى لم يتسع لفتحها ... أما الأشياء الأخرى ... أزرار الأكمام وسلاسل الذهب فقد أخذتها مع محفظة النقود فى آن واحد ، ومضيت أدفن ذلك كله فى فناء منزل بشارع ف .. ومايزال كل شيء هناك ...

كانت صونيا تصغى بانتباه .

ــ ولكن كيف تقول انك قتلت « لتسرق » ، فى حين أنك لم تستول على شيء ؟

كذلك سألته صونيا بسرعة شديدة ، محاولةً أن تتشبث بهذه القشة .

قال راسكولنيكوف شارد الذهن :

ــ لا أدرى ... اننى لم أقرر بعدُ أأستولى على ذلك المال أم لا ..

ثم أضاف فجأة وقد عاد الى وعيه :

ــ يا له من سخف ، هذا الكلام الذى قلته الآن ، هه ؟

وومضت فى ذهن صونيا فكرة : « ألا يمكن أن يكون مجنوناً » ، ولكنها أسرعت تنبذ تلك الفكرة . لا ، ان فى الأمر شيئاً آخر ، ولكنها لا تفهمه ، لا تفهمه البتة .

قال راسكولنيكوف فجأة بما يشبه الالهام :

ــ هل تعلمين يا صونيا ماذا سأقول لك الآن ؟

وأردف يقول مشدِّداً على كل كلمة من كلماته ، ملقياً نظرات ملغزة رغم أنها صادقة :

ـلو أننى لم أقتلها الا بدافع الجوع ، فلربما كنت الآن «سعيداً» ! اعلمى هذا !

وهتف يقول بعد لحظة :

ـ ولكن فيم يعنيك أن أعترف بأننى أخطأت؟ فيم يفيدك أن تنتصرى علىّ هذا الانتصار الأبله ؟ آه يا صونيا ••• أمن أجل هذا سعيت اليك ؟

أرادت صونيا مرةً أخرى أن تقول شيئاً ، ولكنها لزمت الصمت • قال راسكولنيكوف :

ـ اذا كنت قد ناديتك أمس ، فلأننى كنت لا أستطيع أن أنادى أحداً غيرك •

سألته صونيا :

ـ ناديتنى الى أين ؟

ـ ما ناديتك لتقتلى أو لتسرقى • اطمئنى • ما ناديتك من أجل هذا (كذلك ردّد وهو يبتسم ابتسامة مرة) ، فنحن مختلفان أحدنا عن الآخر اختلافاً كبيراً • هل تعلمين يا صونيا أننى لم أدرك الا الآن الى أين ناديتك أمس • حين ناديتك أمس ، لم أكن أعرف الى أين أناديك• والحقيقة أننى ناديتك لتحقيق هدف واحد ، الحقيقة أننى سعيت اليك لغرض واحد : هو أن لا تتركينى • قولى : أترضين أن لا تتركينى يا صونيا ؟

شدت صونيا على يديه •

وهتف راسكولنيكوف يقول بعد دقيقة وقد بلغ غاية الكمد والحزن:

ـ لماذا ، لماذا ذكرت لها الأمر ؟ لماذا كشفت لها عن الحقيقة ؟

قال ذلك ونظر الهيا شاعراً بعذاب لا نهاية له • وتابع كلامه فقال:

ـ هأنت ذى تنتظرين منى شروحاً وتفسيرات يا صونيا • أنت هنا تنتظرين هذه الشروح والتفسيرات • اننى أرى ذلك • ولكن ما عسانى قائلاً لك ؟ انك لن تفهمى من الأمر شيئاً • ولن تزيدى على أن تتالمى بسببى ! وأنت الآن تبكين ، وتقبّلينني من جديد • لماذا تقبلينني ؟ ألأننى لم أستطع أن أحتمل العبء ، فجئت أتخفف منه بالقائه على غيرى ؟ « تألمى ، تألمى أنت أيضاً ، فذلك يخفف عنى أنا » • ذلك هو لسان حالى • أفتستطيعين أن تحبى جباناً كهذا الجبان ؟

هتفت صونيا تسأله :

ـ ولكن ألست تتألم أنت أيضاً ؟

ومرةً أخرى غمرته تلك العاطفة نفسها فرقّ قلبه لحظة • قال :

ـ صونيا ، ان لى قلباً شريراً ، انتبهى الى هذا ، فيضىء لك أموراً كثيرة • ولأننى شرير انما جئت أيضاً • هناك أشخاص كان يمكن أن لا يجيئوا • أما أنا فجبان ••• جبان !••• ولكن ••• لا ضير !•• ليس هذا هو الأمر الهام • وانما علىّ الآن أن أتكلم ، ولست أدرى بم أبدأ •

قال راسكولنيكوف ذلك وصمت مفكراً • ثم هتف يقول من جديد :

ـ هيه ! نحن مختلفان أحدنا عن الآخر اختلافاً كبيراً ! مستحيل أن نتفاهم ! لماذا ، لماذا جئت ؟ لن أغفر هذا لنفسى فى يوم من الأيام !

صاحت صونيا تقول :

ـ بل انك قد أحسنت اذ جئت ! الأفضل أن أعرف ! ذلك أفضل كثيراً •

نظر اليها راسكولنيكوف بألم • ثم قال كمن يتابع فكرة :

ـ نعم ، هكذا جرت الأمور ، هكذا جرت حقاً • اسمعى كيف جرت : لقد أردت أن أصبح نابوليون ، ومن أجل ذلك انما قتلت • فهل فهمت الآن ؟•••

دمدمت صونيا تقول بصوت خجول وسذاجة واضحة :

ـ لـ ••• لا ••• ولكن تكلم ، تكلم ، فسوف أفهم ، سوف أفهم كل شيء « فى أعماق نفسى » •••

بذلك طالبته صونيا ضارعةً متوسِّلة •

قال راسكولنيكوف :

ـ سوف تفهمين ؟ طيب ••• سنرى •

وصمت ، وفكَّر ملياً • ثم قال :

ـ اليك الأمر ! لقد ألقيت على نفسى فى ذات يوم هذا السؤال : ما عسى كان يحدث لو أن نابوليون مثلاً قد وُجد فى مكانى ، ولم يكن أمامه فى بداية حياة المجد الذى حققه لا تولون ولا مصر ولا ممر مونبلان ، وانما كان أمامه ، بدلاً من جميع هذه الأشياء العظيمة الفخمة الضخمة عجوزٌ حقيرة شريرة تافهة مرابية يجب أن يقتلها ليستولى على المال الذى تخبئه فى صندوقها (فى سبيل تحقيق رسالته طبعاً ، هل تفهمين ؟) ؟ نعم ، أكان يعزم أمره على أن يفعل ذلك اذا لم يعرض له أى مخرج آخر ؟ أما كان سيشعر بشىء من الحياء والخجل لأن فعلاً كهذا الفعل خالٍ حقاً من الفخامة والضخامة ••• ناهيك عن الخطيئة ؟

أؤكد لك أن هـذا « السؤال » قد أقضّ مضجعي مدة طويلة ، الى أن أدركت أخيراً على حين فجأة (وقد أشعرني هذا الادراك بالخزي) أن نابوليون ما كان له أن يحس بأيسر خجلٍ من هذا الفعل ، بل وما كان ليخطر بباله في أية لحظة من اللحظات أنّ هذا الفعل قد تعوزه العظمة والرفعة ، بل وما كان له أن يرى ما نوع العار الذي يمكن أن يشتمل عليه هذا الفعل ... ولا شك في أنه ، اذا لم يعرض له أي حلٍ آخر ، كان سيقتل العجوز دون تردد ودون تفكير. هكذا خرجتُ أنا من التردد بين الاقدام والاحجام ، فقتلت ... مقتدياً بذلك الرجل الذي هو «حجة» . نعم ، على ذلك النحو انما جرت الأمور . أيبدو لك هذا سخيفاً مضحكاً ؟ نعم يا صونيا ، لعل أسخف ما في القضية أن الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً !

ولكن صونيا لم تر في هذا كله شيئاً سخيفاً مضحكاً . وها هي ذي تسأله بصوت فيه مزيد من الخجل والوجل ، بصوت لا يكاد يُسمع :

ـ بل حدثني ... رأساً ... مباشرة ... دون أن تضرب أمثلة !

فالتفت راسكولنيكوف نحوها ، ونظر اليها بحزن ، وتناول يديها ، ثم قال لها :

ـ أنت على حق يا صونيا . ما ذلك كله الا غباء ! ما ذلك كله الا ثرثرة ! فاسمعي : أنت تعرفين أن أمي كانت قد أصبحت بلا مورد تقريباً. وأختي التي نالت قسطاً حسناً من التعليم بالمصادفة اضطرت أن تعيش حياة خاملة كمربية . وكنت أنا أتمم دراستي ، لكنني وقد أصبحت لا أستطيع سدّ حاجاتي اضطررت ان أترك الجامعة . وهبيني كنت سأستطيع متابعتها بعد عشر سنين أو بعد اثنتي عشرة سنة (في أحسن الظنون) فكل ما كان يجوز لي أن آمله هو أن أصبح أستاذاً أو موظفاً من الموظفين

يتقاضى راتباً سنوياً قدره ألف روبل (كان راسكولنيكوف كمن يلقى درساً محفوظاً) • وفى أثناء ذلك تكون أمى قد أذابتها الهموم والأحزان، ولا أكون قد ظفرت حتى بتأمين الطمأنينة لها• أما أختى فيكون قد جرى لها ما هو أسوأ من ذلك أيضاً • ولماذا أخفق فى حياتى هذا الاخفاق ، وأمرُ بكل شيء مروراً عابراً ، وأنسى أمى ، واحتمل الاهانات التى تنزل بأختى ؟ لماذا ؟ فى سبيل ماذا ؟ فى سبيل أن أبنى أسرة جديدةً بعد أن أدفن أمى وأختى ، فتكون لى زوجـة ويكون لى أولاد ، ثم أتركهم هم أيضاً بلا مال ، بلا لقمة خبز ؟ لذلك قررت أن أقف المال الذى ساستولى عليه من العجوز ، قررت أن أقفه على دراستى ، وعلى خطواتى الأولى فى الحياة عند التخرج من الجامعة (دون أن أعذّب أمى) • وكنت أريد أن أفعل كل شيء بمقياس ضخم ، أن أفعل كل شيء بطريقة جذرية ، فأدخل حياة جديدة ، وأضمن لنفسى وضعاً مستقلاً كل الاستقلال ••• هذا كل شيء !••• ولقد أسـأت صنعاً اذ قتلت العجـوز طبعـاً • ولكن هيّا ، كفى هذا !

أتمّ راسكولنيكوف شروحه هذه بمشقة كبيرة وعناء شديد • كان يبدو مرهقاً ، وكان خافضاً رأسه •

صاحت صونيا تقول حزينة :

ــ لا ، ليس هذا هو الأمر ، ليس هذا هو الأمر ، لا ، ليس هذا ، ليس هذا •••

ــ أرأيت ؟ تقولين بنفسك ان الأمر ليس هو هذا • ومع ذلك فقد قلت لك كل شيء ، وحدثتك صادقاً مخلصاً • تلك هى الحقيقة !

ــ ولكن أية حقيقة هنا ؟

ـ انني لم أقتل الا قملة يا صونيا ، قملة قذرة ، لا فائدة منها ، ضارّة ، مسيئة !

ـ أتقول قملة وهى مخلوقة انسانية ؟

أجاب راسكولنيكوف وهو يلقى على صونيا نظرة غريبة :

ـ ولكنني أعرف أنها ليست قملة !

ثم أضاف :

ـ ثم انني أكذب يا صونيا ، انني أكذب منذ زمن طويل • أيضاً ليس هذا هو الأمر ! أنت على حق ! لقد كان لفعلى بواعث غير هذه البواعث ، غيرها تماماً • انني لم أكلم أحداً منذ عهد بعيد يا صونيا ••• أنا أشعر الآن بصداع شديد فى رأسى •

كانت عينا راسكولنيكوف تحترقان بحرارة محمومة • كان كمن يهذى • وكانت تطوف بشفتيه ابتسامة قلقة • ومن خلال اهتياجه ، كان يلوح اعياء رهيب • أدركت صونيا مدى ما كان يقاسى من عذاب • وأخذ الدوار يستولى عليها هى أيضاً • ثم انه كان يتكلم بطريقة غريبة جداً • صحيح أن المرء يستطيع أن يستخرج من كلامه بعض الأشياء ، ولكن : « كيف ؟ كيف ؟ يا رب ! » ولوت صونيا يديها حزناً ويأساً » •

واستأنف راسكولنيكوف كلامه وهو يرفع رأسه فجأة كأن أفكاره قد جرت فى مجرى آخر على حين بغتة فصدمته وأيقظت نشاطه • فقال :

ـ لا يا صونيا ، ليس هذا هو الأمر • ليس هو هذا •• وانما عليك أن تفترضى (نعم افترضى هذا ، فهو أصح) أننى انسان شديد التأذى ، حسود ، منحط ، شرير ، حقود ، يحب الانتقام ، مهيأ •• للجنون (أقول

كل شيء دفعة واحدة ما دمت قد بدأت ؟ وفيما يتعلق بالجنون فقد سبق أن لاحظت ...) لقد ذكرت لك منذ هنيهة أن مواردي كانت لا تتيح لي البقاء بالجامعة . ولكن هل تعلمين أنني ربما كان يمكنني مع ذلك أن أتابع دراستي ؟ كان يمكن أن ترسل الي أمي ما أنا في حاجة اليه ، وكان يمكنني أيضاً أن أجني بالعمل ما يكفيني طعاماً وكساءً وحذاءً . لا شك في أنني كنت أستطيع ذلك . كان يمكنني أن أعطي دروساً ، فأتقاضى خمسين كوبكاً أجراً عن كل درس . وهذا رازوميخين ! لقد كان يجني من العمل رزقاً طيباً ! ولكنني شعرت بسخط ورفضت أن اعمل. نعم شعرت بسخط (هذه هي الكلمة الصحيحة) . فلبدت في ركني كما يلبد عنكبوت . لقد جئت الى مسكني الحقير فرأيته . ولكن هل تعلمين يا صونيا أن السقوف الواطئة والغرف المتلاصقة تخنق النفس والفكر ؟ آه ... لشد ما كنت أكره ذلك المسكن الحقير ! ومع ذلك كنت لا أريد أن أتركه . عن عمد انما كنت لا أريد أن أتركه . كنت أقضي فيه أياماً بكاملها ، لا أريد أن أعمل ، بل ولا أريد أن آكل . كنت أظل راقداً طوال الوقت . فان جاءتني ناستاسيا بطعام أكلته ، وان لم تجئني بشيء بقيت صائماً لا أطالب بطعام ، غضباً وحنقاً ! حتى اذا هبط الليل بقيت في ظلام دامس لأنني لا أملك ما استضيء به . كنت أوثر أن أبقى في ذلك الظلام الحالك على أن أعمل في سبيل أن أتمكن من شراء شموع . وبعت كتبي بدلاً من أن أدرس . ودفاتري على المائدة غطتها طبقة من الغبار سُمْكها اصبع . وما يزال هذا الغبار موجوداً الى الآن . كنت أوثر أن أبقى راقداً أفكر وأتأمل . كنت لا أزيد على أن أفكر وأن استرسل في الأحلام . لا داعي الى القول ان تلك الأحلام كانت غريبة عجيبة ، وكانت متغيرة متقلبة متحولة ! ولكن بدأ يبدو لي عندئذ أن ... لا ، لا ، ليس هذا هو الأمر ! انني لا أحكي الأشياء كما

حدثت . الواقع أننى كنت لا أنفك أتساءل حينذاك ، لعلمى بأن الناس أغبياء ، لماذا انا غبى مثلهم لا أحاول أن أكون أذكى منهم ؟ وادركت بعد ذلك ، يا صونيا ، أنه اذا وجب انتظار اللحظة التى يصبح فيها الناس أذكياء ، فلا بد من اضاعة وقت طويل . ثم رأيت أن هذا لن يكون أبداً ، فالناس لن يتغيروا فى يوم من الأيام ، وما من أحد يملك أن يغيرّهم ، فلا داعى الى اضاعة الوقت فى محاولة ذلك . نعم ، تلك هى حالهم ، وذلك هو قانونهم ... نعم ... القانون يا صونيا ، القانون ... وانى لأعلم الآن يا صونيا أن من كان قوى النفس والعقل ، فذلك هو سيّدهم ، ذلك هو مولاهم ! من كان يملك جرأة كبيرة ، فذلك هو الذى له الغلبة عليهم ! من كان يبصق على الأشياء أكثر من غيره ، فذلك هو عندهم المشرّع ! من كان يتمتع بأكبر جسارة ، فذلك هو الذى يهبون له جميع الحقوق ! هذا ما كان من قديم الزمان ، وهذا ما سيبقى الى آخر الدهر ! الأعمى وحده لا يبصر هذه الحقيقة !

لم يهتم راسكولنيكوف بأن يعرف أكانت صونيا تفهمه أم لا ، رغم أنه كان لا ينفك ينظر اليها أثناء كلامه . لقد استولت عليه الحمى . وكان يجتاحه نوع من اهتياج مظلم قاتم (حقاً ، انه لم يتحدث الى اى انسان منذ مدة طويلة) . وأدركت صونيا أن هذه التعاليم الكالحة كانت ايمانه وكانت قانونه .

وتابع راسكولنيكوف يقول بحماسة :

ـ لقد أحسست يا صونيا أن السلطة لا توهب الا لمن يجرؤ أن يطاطيء ليتناولها . تكفى الجرأة : الجرأة كل شيء ! ووافتنى عندئذ ، لأول مرة فى حياتى ، فكرة لا شك أنها لم تخطر ببال أحد حتى الآن فى يوم من الأيام ! لقد بدا لى واضحاً وضوح النهار ، على حين فجأة ، أنه ما من أحد قد تجرأ ، حين رأى بطلان العالم ، أن يمسك الشيطان

من ذيله ببساطة ، فيرسله الى جهنم ! أما أنا ، أما أنا ••• فقد أردت ان أجرؤ ، فقتلت ! انني حين قتلت لم أرد يا صونيا الا أن أجرؤ ! ذلك هو السبب الذي جعلني أقتل !

صاحت صونيا تقول له متوسلة وهي تضم يديها احداهما الى الأخرى :

ـ اسكت ، اسكت ! لقد ابتعدت عن الله ، فضربك الله ، وأسلمك لابليس •••

ـ قولي لي يا صونيا : حين كنت أبقى راقداً في ظلام غرفتي اجتر أنواع الخواطر والأفكار ، فهل كان ابليس هو الذي يغويني حينذاك ! قولي !

ـ اسكت ! لا تضحك أيها المجدّف ! انك لا تفهم شيئاً ، لا تفهم شيئاً ! رباه ! انه لا يفهم شيئاً !

ـ اسكتي يا صونيا ، أنا لا أضحك البتة • أنا نفسي اعلم ان ابليس هو الذي كان يجُرني •••

كذلك قال راسكولنيكوف ثم عاد يردّد بالحاح حزين :

ـ اسكتي يا صونيا ، اسكتي ! أنا أعلم كل شيء ! لقد همست لنفسي بهذا كله أثناء اضطجاعي في الظلام ••• لقد ناقشت هذا كله في قرارة نفسي قبل الآن بأدق التفاصيل ! أنا أعلم كل شيء ، كل شيء ! وهذه الثرثرة قد بلغت من اترياع نفسي بالسأم والضجر أنني أردت أن أنسى ، وأن استأنف حياة جديدة يا صونيا ، وأن أكف عن الثرثرة • هل تظنين حقاً أنني قد اندفعت الى ذلك الأمر منكّس الرأس كانسان أبله ؟ ان العقل هو الذي كان يقودني ، وذلك بعينه هو ما ضيّعني ! هل يمكن حقاً أن تظني أنني كنت أجهل مثلاً أن مجرد القائي هذا

السؤال : « هل لي حق في السلطة أم لا ؟ » كان يبرهن على أنني لا أملك ذلك الحق ؟ أو هل تظنين أنني كنت أجهل أن القائي هذا السؤال : « هل الانسان قملة ؟ » انما يعني في الواقع أن الانسان ليس قملة في نظري ، وأنه ليس قملة الا في نظر من لم يخطر بباله يوماً أن يلقي على نفسه ذلك السؤال ، وانما هو يمضي الى هدفه قُدُماً لا يلوي على شيء؟ لئن ظللت أعذّب نفسي طوال تلك الأيام كلها بالتساؤل عن نابوليون أكان يقتل العجوز أم لا ، فان معنى ذلك انني كنت أشعر شعوراً واضحاً بأنني لست نابوليون • ذلك هو العذاب الذي عانيته يا صونيا ، والذي أردت أن أتخلص منه دفعةً واحدة • لقد أردت يا صونيا أن أقتل بدون مناقشة منطقية سفسطائية ، أردت أن أقتل لنفسي ، لنفسي أنا وحدي ! انني حين فعلت ما فعلت لم أشأ حتى أن أكذب على نفسي : انني لم أقتل في سبيل أن أساعد أمي ! لا ! لا ولا في سبيل أن أصبح محسناً الى الانسانية بعد أن أملك وسائل الاحسان اليها • لا ، وانما أنا قتلت لنفسي ، لنفسي وحدي ! وفي تلك اللحظة لم يكن يعنيني كثيراً أن أعرف هل سأصبح واحداً من المحسنين الى الانسانية ، أم انني سوف أقضي حياتي كالعنكبوت أصطاد غيري في نسيج خيوطي وامتص قواه الحية ! لا ولا كان المال هو ما أحتاج اليه ذلك الاحتياج كله ••• وانما كان احتياجي الى شيء آخر ••• أنا أعرف هذا الآن ! افهمي عني يا صونيا : لو كان عليّ أن أعيد السير في هذا الطريق نفسه ، فقد لا أقتل . غير أن هناك شيئاً كان يغريني بمعرفته . كان هناك شيء يرفع ذراعي • كان عليّ أن أعرف عندئذ ، بأقصى سرعة ممكنة ، أأنا قملة كسائر الناس ، أم أنا رجل ؟ أأنا أستطيع أتخطى الحاجز ، أم أنا لن أستطيع ذلك ؟ أأنا أجرؤ أن أطاطيء فأتناول هذه القدرة ، أم أنا لن أجرؤ ؟ أأنا مخلوق مرتعش أم أنا أملك « الحق » •••

ـ الحق فى القتل ؟ تملك الحق فى القتل ؟

كذلك قالت صونيا وهى تضم يديها احداهما الى الأخرى •

صاح راسكولنيكوف مهتاجاً يريد أن يجيب :

ـ هيه ! صونيا •••

ولكنه عدل عن ذلك ، ولزم صمتاً فيه احتقار • ثم أردف يقول :

ـ لا تقاطعيني يا صـونيـا ! لقـد أردت أن أبرهن لك على شيء واحد : هو أن ابليس قد جرّنى فى أول الأمر ، ثم لم يُفهمنى الا بعد ذلك أننى لم يكن من حقى أن اقترف الفعل الذى اقترفته ، لأننى أنا نفسى قملة كسائر الناس • لقد سخر منى واستهزأ بى ، ولهذا السبب انما جئت اليك الآن ، فأحسنى وفادة ضيفك يا صونيا ! أكنت أجيء اليك لولا أننى قملة ؟ اسمعى : اننى حين ذهبت الى العجوز لم أكن أريد الا أن « أحاول تجربة » ••• فاعلمى هذا !

ـ وقتلت !

ـ لكن كيف قتلت ؟ أهكذا يتدبر المرء الأمور من أجل أن يقتل؟ سأروى لك فى ذات يوم كيف ذهبت الى هناك • هل العجوزَ قتلت ؟ لا بل أنا قتلت نفسى ! لقد أجهزت على نفسى ، دفعةً واحـدة ، والى الأبد ! أما العجوز فان ابليس هو الذى قتلها لا أنا !

كذلك قال راسكولنيكوف ثم صاح فجأةً وقد أصبح فريسـة قلق لا يغالب :

ـ كفى كفى يا صونيا ، دعينى ! دعينى !

ووضع كوعيه على ركبتيه ، وشدّ رأسه بين يديه ككماشة •

بلغت صونيا ذروة الاضطراب والألم ، فأفلت من لسانها قولها :

ـ ما أشدّ ألمك وعذابك !

فسألها فجأة وهو يرفع رأسه منقلب الهيئة من شدة الكرب واليأس:

ـ وما العمل الآن ؟ قولى ...

صاحت وهى تندفع من مكانها وقد سطعت عيناها فجأةً بعد أن كانتا حتى ذلك الحين ممتلئتين بالدموع :

ـ ما العمل ؟

ثم أضافت وهى تمسكة من كتفه ، فينهض هو من مكانه وينظر اليها بما يشبه الذهول دهشةً :

ـ اذهب فوراً ، فى هذه اللحظة نفسها ، اذهب الى مفرق طرق ، فاسجد على الأرض من جديد ، واتجه الى جهات العالم الأربع جهةً بعد جهة ، ثم ارفع صوتك عالياً قوياً أمام جميع الناس بقولك : « لقد قتلت ! » . عندئذ سيردُّ اليك الاله الحياة . أتذهب ؟ أتذهب ؟

كذلك سألته مرتعشةً من رأسها الى قدميها ، كأن نوبةً عصبية قد ألمّت بها . وأمسكت يديه ، فضغطتهما بيديها ضغطاً قوياً ، وتأملته بنظرة حارة .

ذُهل راسكولنيكوف ذهولاً شديداً حتى كاد يصعق من هذه الحماسة المفاجئة . وسألها مكفهر الوجه :

ـ أتريدين اذن أن أذهب الى المعتقل يا صونيا ؟ يجب أن أشى بنفسى ، أليس كذلك ؟

ـ الشيء الذى يجب أن تفعله هو أن تقبل الألم فتكفر عن خطيئتك وتفدى نفسك . ذلك هو ما يجب !

ـ لا ، لن اذهب اليهم يا صونيا !

صاحت صونيا تسأله :

ـ فكيف يكون في وسعك أن تحيا اذن ؟ كيف يكون فى وسعك أن تحيا ؟ أما يزال هذا ممكناً ؟ عجيب ! كيف يكون فى امكانك أن تظل تكلم أمك ؟ آه ... ما عسى تصيران اليه ؟ ما عسى تصيران اليه كلتاهما ؟ ولكن ماذا أقول ؟ لقد تركت أمك وأختك وانتهى الأمر ! لقد تركتَهما ، تركتَهما ! آه ... يا رب ! اذن أنت تدرك هذا كله بنفسك ! كيف ، نعم ، كيف يمكن أن تعيش بعيداً عن البشر ؟ ما عسى تصير اليه الآن ؟

قال راسكولنيكوف بهدوء ورفق :

ـ لا تكونى طفلةً يا صونيا ! ما ذنبى فى حقهم ؟ لماذا أمشى بنفسى اليهم ؟ ما عسانى قائلاً لهم ؟ ليس هذا كله الا سراباً ... هم أنفسهم يقتلون ملايين البشر ، ثم يستمدون من ذلك مجداً ! هم أوغاد وجبناء يا صونيا ! لا ، لن أذهب ! ثم ماذا أقول لهم ؟ أأقول لهم اننى قتلت لكننى لم أجرؤ أن آخذ المال وانما خبأته تحت صخرة ؟ (كذلك أضاف يقول وهو يبتسم ابتسامة ساخرة) . ولكنهم سيضحكون عندئذ علىّ ، وسيعدوننى رجلاً أبله ، لأننى لم أجنِ من فعلتى نفعاً ... سيعدوننى أبله وجباناً ! لن يفهموا شيئاً يا صونيا ، لن يفهموا شيئاً ، انهم غير جديرين بأن يفهموا شيئاً ... فلماذا أذهب اليهم فأسلمهم نفسى ؟ لا ، لن أذهب ! لا تكونى طفلة يا صونيا !

قالت صونيا مردِّدةً متوسلةً مادةً نحوه يديها :

ـ لن تكون حياتك بعد الآن الا عذاباً متصلاً طويلاً ، عذاباً متصلاً طويلاً !

قال راسكولنيكوف قاتم الوجه شارد الذهن :

ـ لعلنى اتهمت نفسى بما ليس فيها . لعلنى ما زلت رجلاً لا قملة. لعلنى تسرعت فى اتهام نفسى .. سوف أكافح « مزيداً » من الكفاح...

وظهرت على شفتيه ابتسامة فيها تعالٍ وكبرياء .

قالت صونيا :

ـ أتحمل ثقلاً كهذا الثقل ؟ طوال حياتك ، طوال حياتك ؟

فأجابها راسكولنيكوف كالح الهيئة شارد اللب :

ـ سوف أعتاد ذلك !

ثم أضاف يقول بعد دقيقة :

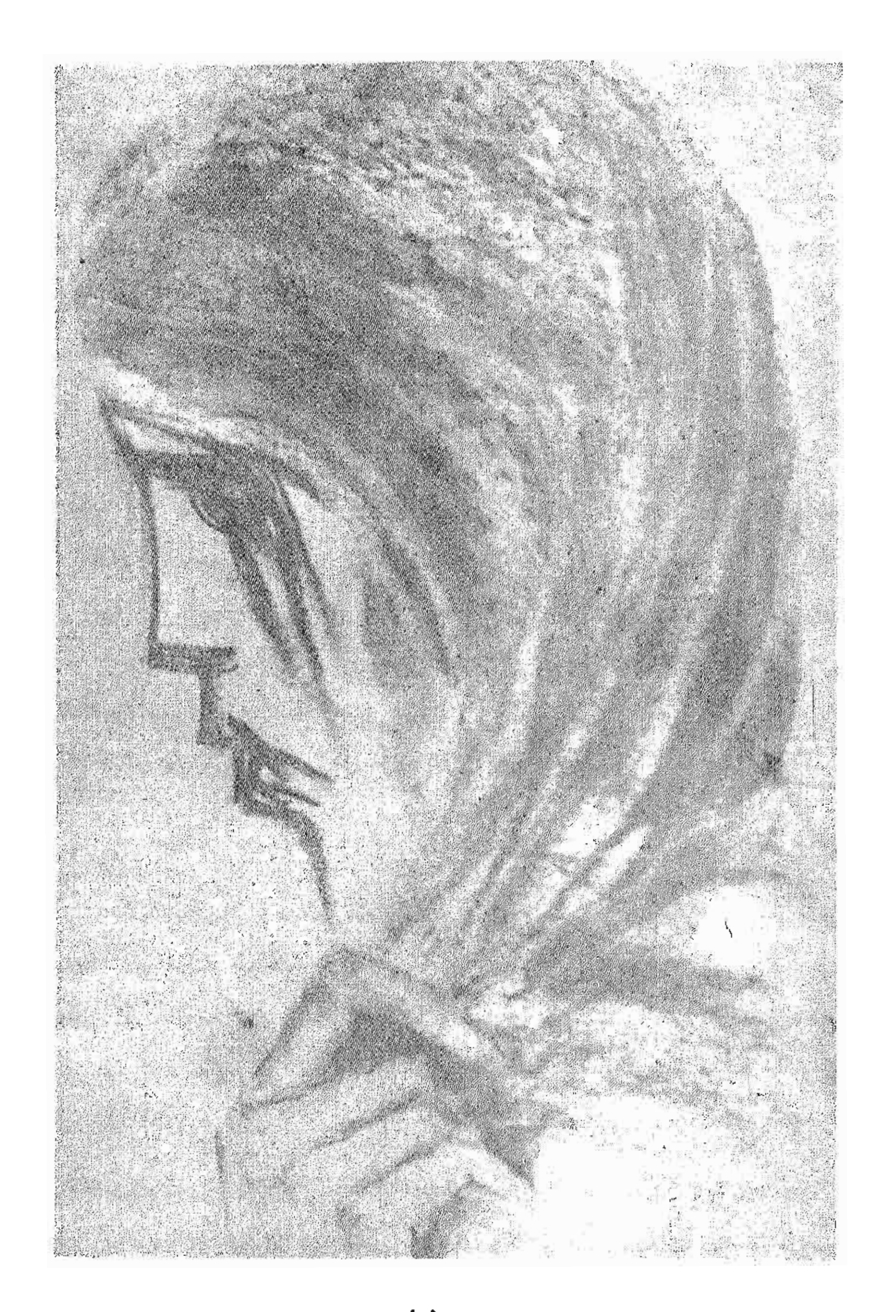
ـ اسمعى ! كفى بكاءً ! آن لى أن أصل من هذا كله الى أن أذكر لك الواقع . لقد جئت أقول لك الواقع . لقد جئت لأقول لك اننى ملاحق ، اننى مطارَد !

صرخت صونيا مروَّعة :

ـ آه ...

فقال لها راسكولنيكوف :

ـ لماذا تصرخين ؟ ألم تريدى أنت نفسك أن أذهب الى المعتقل ؟ فما بالك تخافين الآن ؟ على أننى لن استسلم لهم ، لن أدع لهم أن يقبضوا علىّ ! سأظل أقارعهم ، ولن يستطيعوا أن يفعلوا بى شيئاً ! انهم



صونيا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

لا يملكون قرائن واقعية • لقد تعرضت أمس لخطر كبير ، فحسبت أننى هلكت • ولكن يبدو أن الأمور قد سُوِّيت اليوم • ان كل دليل من أدلتهم ذو حدّين • أعنى أن فى وسعى أن أقلب كل دليل من تلك الأدلة فاجعله لى لا علىّ ، هل تفهمين ؟ وسأفعل ذلك ••• لأننى أصبحت الآن خبيراً بمهنتهم ! لكنهم سيسجنوننى حتماً ! ولولا أن حادثاً قد وقع بمصادفة فلربما كانوا أودعونى فى السجن منذ اليوم ؛ وما يزال من الجائز جداً أن أُسجن بسرعة • ولكن لا ضير يا صونيا ! سأقضى فى السجن بعض الوقت ثم يُطلق سراحى ••• لأنهم لا يملكون ولن يملكوا دليلاً حقيقياً واحداً ، أؤكد لك ذلك ! ان الأدلة التى يملكونها لا تكفى لأن « تلطخ » انساناً ! ولكن كفى كلاماً الآن ! انا انما قلت لك هذا كله لا لشىء الا أن تعلمى ••• أما أمى وأختى فسأحاول بطريقة أو بأخرى أن أهدىء روعيهما وأن أطمئنهما • ان اختى تبدو الآن فى منجى من الفاقة والعوز ، وكذلك أمى اذن ••• هذا كل ما كنت أريد أن أقوله لك • ثم عليك بالحذر ! هل تزورينني حين أودع فى السجن ؟

ـ سوف أزورك ، سوف أزورك !

كانا جالسين احدهما الى جانب الآخر، حزينين مهدّمين ، كغريقين وجد كل منهما صاحبه على شاطىء مقفر بعد عاصفة• كان راسكولنيكوف ينظر الى صونيا وهو يشعر شعوراً واضحاً بالحب الذى تغمره به • ومن الغريب أنه شقّ على نفسه بل آلم نفسه فجأةً أن يحس بأنه محبوب الى هذا الحد •

حين ذهب الى صونيا كان قد شعر بأنها أمله الوحيد ، وبانها ملاذه الوحيد • وكان يأمل أن يتخفف عندها من جزء من حمله على الأقل • ولكن ها هو ذا الآن يحس أنه أشقى مما كان من قبل • قال :

ـ صونيا ، الأفضل أن لا تجيئى الىّ فى السجن •

لم تجب صونيا ، وكانت تبكى • وانقضت بضع دقائق • فاذا هى تسأله على غير توقع ، كأنها تذكرت شيئاً ما على حين بغتة :

ـ هل معك صليب ؟

فلم يفهم السؤال فى أول الأمر •

قالت :

ـ لا ، ليس معك صليب ، أليس كذلك ؟ خذ ، اليك هذا الصليب، انه من خشب السرو • معى صليب آخر ، صليب من نحاس ، بقى لى من اليزابت • لقد قمنـا بمبادلة ، أنا واليزابت : أعطتنى صليبها ، وأعطيتها أنا مداليتى الصغيرة • سأحمل الآن صليب اليزابت ، وستحمل أنت هذا الصليب • خذه •• انه صليبى أنا ! صليبى أنا ! سنتألم معاً ، فلنحمل اذن صليبنا معاً !

قال راسكولنيكوف :

ـ هاتى !

ولكنه لم يلبث أن سحب يده •

ثم أضاف يقول ليهدئها :

ـ لا الآن يا صونيا ! فيما بعد ! ذلك أفضل !

فقالت صونيا تردد بحماسة :

ـ نعم ، نعم ، ذلك أفضل ، ذلك أفضل ! سـوف تحمل الصليب حين تسافر للتكفير • تجىء الىّ ، فأضع الصليب فى عنقك ، ونصلى معاً ، ونسافر معاً •••

فى تلك اللحظة نقر الباب ثلاث نقرات ، ونادى صوت مهذَّب مألوف يسأل :

ـ هل أستطيع أن أدخل يا صوفيا سيميونوفنا ؟

فاندفعت صونيا نحو الباب مذعورة ، وظهر فى فرجة الباب وجه ليبزياتنيكوف المضحك .

الفصل الخامس

كان ليبزياتنيكوف مضطرب الهيئة منقلب السحنة .

قال يكلم صونيا :

ـ جئت لأراك يا صوفيا سيميونوفنا .

ثم قال يخاطب راسكولنيكوف فجأة :

ـ معذرةً . كنتُ أتوقع أن أجدك هنا . أقصد لم يخطر ببالى شىء ... مما قد تظن ، وانما أنا قدَّرت أن ...

وعاد يكلم صونيا فقال دفعة واحدة :

ـ جُنَّت كاترين ايفانوفنا !

اطلقت صونيا صرخة . وتابع ليبزياتنيكوف كلامه :

ـ أو على الأقل ذلك ما يبدو . أصبحنا هناك لا ندرى ماذا يجب أن نعمل . أغلب الظن أنهم طردوها من المكان الذى ذهبت اليه ، ولعلهم ضربوها أيضاً ... أو على الأقل ذلك ما يبدو ... لقد ركضت تسعى الى رئيس سيميون زاخارتش * ، فلم تجـده فى بيته : كان يتغدى عند جنرال آخر ما . فذهبت الى هناك ، الى حيث كان يتغدى .. تصوروا.. ذهبت الى بيت ذلك الجنرال الآخر ... هل تصدقون هذا ؟ واستطاعت أن تستدعى رئيس سـيميون زاخارتش . نعم ، اضطرته أن ينهض عن

المائدة ، أو على الأقل ذلك ما يبدو • وفى وسعكم أن تتخيلوا التتمة ! لقد طُردت طبعاً ، لكنها تروى أنها شتمته وأنها رشقته بشيء على رأسه • ذلك جائز جداً • حتى اننى استغرب أنهم لم يقتلوها • وهى الآن تروى هذه القصة لكل من يريدون أن يسمعوها ، ومنهم آماليا ايفانوفنا • غير أن من الصعب أن يفهم المرء عنها ، من فرط صراخها وتخبطها !•• آه •• نعم •• هى تقول •• هى تصيح قائلة" انها ما دامت قد هجرها جميع الناس ، فستأخذ أولادها ، وستمضى فى الشارع تعزف على أرغن باربارِيا ، وان أولادها سيغنون ويرقصون ، وانها ستغنى وترقص هى أيضاً ، وانهم سيستعطون الصدقات من المارّة ، وانها ستقود الأولاد كل يوم الى منزل الجنرال فتقف بهم تحت نوافذ غرفته ، وهكذا « سيعرف الجنرال ، على حد تعبيرها ، كيف أن أولاداً نبلاء أبوهم موظف محترم يستجدون أكف الناس فى الشوارع » • وهى تضرب جميع أولادها ، والأولاد يبكون • انها تعلم لينيا أغنية « القرية الصغيرة » ، وتعلم الصبى الصغير الرقص ، وكذلك تعلم الرقص باولين ميخائيلوفنا *• ولقد مزقت جميع ملابسهم ، وأخذت تخيط لهم طاقيات من طاقيات المهرّجين • انها تريد أن تحمل طشتاً تنقر عليه كما تنقر على آلة موسيقية • وهى ترفض أن تسمع شيئاً ••• تصوروا ! هل يمكن أن نتركها تفعل هذا !

كان يمكن أن يستمر ليبزياتنيكوف فى الكلام ، ولكن صونيا التى أصغت اليه وهى تتنفس بمشقة كبيرة قد تناولت خمارها وقبعتها فجأة ، واندفعت الى خارج الغرفة تنهى ارتداء ثيابها فى الطريق • وخرج راسكولنيكوف وراءها ، وخرج ليبزياتنيكوف وراء راسكولنيكوف •

قال ليبزياتنيكوف لراسكولنيكوف منذ أصبحا فى الشارع :

ـ لا شك فى أنهـا فقـدت عقلها • لم أشـأ أن أروّع صـوفيـا سيميونوفنا ، لذلك قلت : « ذلك ما يبدو » ، ولكن الواقع أنه لا يمكن أن يساورنا أى شك فى أنها فقدت عقلها • يقال ان هناك درنات تنشـأ فى أدمغة المصابين بمرض السل ، فتورثهم هذا الجنون ! خسـارة أننى لا أعرف الطب • على أننى حاولت اقناعهـا ، لكنها لا تريد أن تسـمع شيئاً !

ـ كلمتها عن الدرنات ؟

ـ لا عن الدرنات تماماً ، خصوصاً وأنها ما كان لها أن تفهم شيئاً عن الدرنات لو كلمتها فيها • لكننى أقول اننا اذا استطعنا بواسطة المنطق أن نقنع شخصاً بأنه لا داعى الى البكاء ، فان هذا الشخص سيكف عن البكاء فوراً • هذا واضح• ماذا ؟ أليس من رأيك أنه سيكف عن البكاء ؟

أجاب راسكولنيكوف قائلاً :

ـ ما أسهل الحياة اذا صدق قولك !

ـ اسمح لى ، اسمح لى ! صحيح أن كاترين ايفانوفنا يصعب عليها أن تفهم هذا • ولكن هل تعلم أن هناك تجـارب جديدة قد أجريت فى باريس عن امكان شفاء المجانين بواسـطة الاقنـاع المنطقى وحـده ؟ ان أستاذاً من الأساتذة هناك ، وقد مات منذ مدة قصيرة ، وهو عالم من اكبر العلماء * ، قد رأى ان فى الامكان شفاء المجانين بهذه الطريقة • والفكرة الأساسية التى جاء بها هى أن المجانين ليس فيهم أية آفة عضوية ، فانما الجنون ضلال منطقى ان صح التعبير ، أى خطأ فى الحكم أو فساد فى الرأى • لذلك أخـذ العالم يدحض أقوال المريض بالتدريج ، فاذا هو ينجح فى شفائه شيئاً بعد شيء • ولكن لا بد لنا أن نعترف بأن نتائج المعالجة

يمكن أن تكون موضع أخذ ورد ، ما دام الطبيب قد استعمل فى الوقت نفسه حمامات « دوش » ، أو ذلك ما يبدو على الأقل ...

كان راسكولنيكوف قد انقطع عن الاصغاء منذ مدة . فلما وصل أمام المنزل الذى فيه بيته ، حيَّا ليبزياتنيكوف باشارة من رأسه ، وانعطف يدخل بوابة المنزل . فتحيَّر ليبزياتنيكوف ، ونظر حواليه ، ثم تابع طريقه .

دخل راسكولنيكوف مسكنه الحقير ، وهناك وقف يتساءل : « لماذا جئت ؟ ».. وألقى نظرة على الورق الأصفر الباهت الذى يغطى الجدران ، وعلى الغبار الذى يغشى كل مكان ، وعلى سريره . وكان يصل من فناء المنزل صوت جاف متصل ، كأن أحداً كان يغرس مسامير .

مضى راسكولنيكوف الى النافذة ، وارتفع على رءوس أصابع قدميه ، وظل يفتش فناء المنزل بانتباه شديد مدة طويلة . ولكن الفناء كان خالياً مقفراً ، وليس يرى المرء أحداً يغرس مسامير . وعلى اليسار ، فى جناح آخر ، كان ثمة نوافذ مفتوحة ، تُرى على أفاريزها أصص أزهار ، ويُرى من خلالها غسيل منشور فى الداخل على حبال ... لقد كان راسكولنيكوف يعرف هذا كله حفظاً على ظهر القلب . فأشاح عنه ، وعاد يجلس على سريره .

انه لم يشعر فى يوم من الأيام ، فى يوم من الأيام ، بأنه وحيد الى هذا الحد من الوحدة . نعم ، لقد أحس من جديد أنه قد يعود يكره صونيا ، لا لشيء الا لأنه قد أشقاها الآن مزيداً من الشقاء . تساءل : « لماذا ذهبت أستجديها صدقةً من دموعها ؟ ما كانت حاجتى الى تسميم حياتها ؟ يا للجبن ! يا للحقارة ! » .

وقال فجأة بلهجة جازمة : « سأبقى وحيداً . ولن تأتى لترانى فى السجن ! » .

وبعد خمس دقائق عاد يرفع رأسه ، وابتسم ابتسامة غريبة • لقد وافته فكرة لم تكن فى الحسبان • قال يسأل نفسه : « أليس من الجائز أن تكون حالى فى المعتقل أفضل حقاً ؟ » •

لم يستطع راسكولنيكوف فى يوم من الأيام أن يعرف المدة التى قضاها فى مسكنه يدير فى رأسه هذا الطوفان من الأفكار المبهمة والخواطر الغامضة • ولكنه يعرف أن الباب فُتح فجأة ، فدخلت آفدوتيا رومانوفنا •

توقفت آفدوتيا رومانوفنا فى أول الأمر وتأملته واقفة فى العتبة ، كما تأمل هو صونيا منذ قليل • ثم تقدمت وجلست على كرسى أمامه فى مكان الأمس نفسه ؛ وأخذ يتأملها صامتاً بنظرة شرهة تلتهمها التهاماً • قالت دونيا :

ـ لا تزعل يا أخى ، أنا ما جئت الا لدقيقة !

كان فى وجهها وقار ورصانة ، ولكن بغير تجهم أو قسوة • وكانت نظرتها رائقة صافية ، وادعة هادئة • فأدرك راسكولنيكوف أنها قد جاءت اليه هى أيضاً بحب •

وتابعت الأخت كلامها فقالت :

ـ روديا ، أنا أعلم الآن كل شىء ، كل شىء ، كل شىء ! لقد روى لى دمترى بروكوفتش كل شىء ، وشرح لى كل شىء ! انهم يضطهدونك ويعذبونك بسبب شبهة غبية كريهة • لقد قال لى دمترى بروكوفتش انك غير معرّض لأى خطر ، وقال انك تخطىء اذ تضخم الأمور وتأخذها مأخذ الفاجعة • ولست أشاطره رأيه ، فأنا أفهم حق الفهم أن يثير هذا تمردك ، وأن يخلّف هذا التمرد آثاراً فى حياتك

كلها • وذلك ما أخشاه حقاً • ولست أحكم على أنك تركتنا ، ولا أجرؤ أن أحكم ، فأرجوك أن تغفر لى ما وجهته اليك من لوم • أنا أشعر بأننى لو أصابنى حزن كحزنك لابتعدت عن جميع الناس كما تبتعد عنهم أنت • لن أقصّ « هذا الأمر » على أمنا ، لكننى لن أنفك أحدثها عنك، وسأقول لها على لسانك انك لن تتأخر عن العودة الينا • لا تقلق عليها ، سوف أتولى أنا تهدئتها وطمأنتها • ولكن عليك من جهتك أن لا تعذبها : زرها ولو مرةً واحدة ، تذكر أنها أمك • ولقد جئت الآن لأقول لك (هنا نهضت دونيا) : اذا احتجت الىّ فى أى أمر من الأمور ، فتصرّف فى حياتى ••• نادنى فأجيء ! استودعك الله !

قالت دونيا ذلك ، ثم استدارت واتجهت نحو الباب •

قال راسكولنيكوف وقد نهض واتجه نحوها :

ـ دونيا ! ان رازوميخين هذا ، ان دمترى بروكوفتش رازوميخين شاب ممتاز !

احمر وجه دونيا قليلاً • وسألته بعد دقيقة :

ـ وبعد ؟

ـ وبعد ، هو فتى نشيط مجتهد شريف ، قادر على أن يحب حباً قوياً ، حباً صادقاً ••• استودعك الله يا دونيا !

احمر وجه دونيا احمراراً شديداً ، ثم قالت وقد تنبهت الى الخطر فجأة :

ـ ولكن لماذا توصى به هذه التوصيات كلها ؟ أترانا نفترق الى الابد ؟

ـ لا قيمة لهذا ••• استودعك الله !•••

قال ذلك ، وابتعـد عنها ، ومضى الى النـافذة . فانتظرت لحظة ، ونظرت اليه قلقةً ، ثم خرجت وقد استولى عليها همٌ وخوف .

لا ، انه لم يشعر نحوها ببرودة فى العاطفة ، حتى انه فى لحظة من اللحظات (هى اللحظة الأخيرة) قد استبدت به رغبة قوية فى أن يحتضنها بذراعيه وأن يقول لها « كل شىء » ، مودعاً اياها ، لكنه لم يسـتطع أن يعزم أمره على أن يمدَّ اليها يده ، وأضاف يحـدث نفسـه قائلاً : « فى المسـتقبل ، قد ترتعش حين تتذكر اننى احتضنتها بذراعى ، وقد تقـول لنفسها اننى سرقت منها قبلتها » وأضاف يتساءل بعد بضع لحظات : « ثم هل يمكنها أن تحتمـل اعتـرافاً كهـذا الاعتراف ؟ لا ، لن تستطيع أن تحتمله . هى من أولئـك اللواتى لا يمكنهن أن يحتملن مثـل هـذه الأشياء » .

وفكَّر فى صونيا .

وكان هواء طرى يهب من النافذة . وفى الخارج كان الضـياء قد خبا سطوعه . فتناول راسكولنيكوف قبعته فجأة وخرج .

كان لا يستطيع أن يعبأ بحالته الصحية ، لا ولا يريد أن يعبأ بها . ولكن جميع تلك الانذارات المتصلة وجميع تلك الأهوال النفسية ، كان لا بد أن يكون لها آثار . ولئن لم تصرعه الحمى حتى الآن ، فلعل مردَّ ذلك أن القلق المستمر كان يجعله فى حالة تنبه وتيقظ ، ولو على نحو مصطنع مؤقت جداً .

لبث يضرب فى الأرض على غير هدى . أخذت الشمس تغرب . انه يحس منذ بعض الوقت بحزن خاص جداً . لم يكن فى ذلك الحزن شىء من حدة ، وانما كان فيه نوع من ثبات وبقاء أبدى ، نوع من تنبؤ بجميع السنين التى سـوف يقضيها فى غمٍ بارد كالصقيع ، غمٍ قاتل هو

شيء كالأبدية على مساحة من الأرض ليست اكبر من « موطىء قدم » •
كان راسكولنيكوف يشعر بهذا الاحساس أقوى ما يكون عند هبوط الليل خاصة •

دمدم يقول متذمراً : « هيَّا امتنع عن ارتكاب حماقة من الحماقات ان استطعت وأنت تعانى من هذه الاضطرابات الجسمية السخيفة لدى غروب شمس ! ان فى الامكان أن تقودك هذه الحالة لا الى الاعتراف لصونيا فقط ، بل الاعتراف لدونيا أيضاً ! » •

وسمع أحداً ينـاديه ، فالتفت ، فاذا ليبزياتنيكوف يهرع اليه •
قال ليبزياتنيكوف :

ـ اننى آتٍ من عندك ! لقد كنت أبحث عنك ! تخيَّل أنها وضعت مشروعها موضع التنفيذ مقتادةً أولادها ! وقد لقينا أنا وصوفيا سيميونوفنا كثيراً من العنـاء والمشـقة حتى وجدناهم ! انها تنقر على مقلاة ، وتجبر الأولاد أن يغنوا ويرقصوا • والأولاد يبكون • انهم يتوقفون عند مفارق الطرق وأمام الدكاكين ، ووراءهم يجرى جمهور كبير غبى • تعال !

سأله راسكولنيكوف قلقاً وهو يجرى وراءه :

ـ وصونيا ؟

ـ فقدت عقلها • لا أقصـد أن صـوفيا سيميونوفنا هى التى فقدت عقلها بل كاترين ايفانوفنا • وصوفيا سـيميونوفنا أيضـاً على كل حال • ولكن كاترين ايفـانوفنا فقدت عقلها تمـاماً • نعم ، لقد جُنَّت جنوناً كاملاً نهـائيـاً • سـتُقاد مع الأولاد الى الشرطة • هأنت ذا ترى الأثر الذى سـوف يحـدثه هـذا • هم الآن على رصيف النهر ، قرب جسر س ••• ، غيرَ بعيد عن مسـكن صوفيا سيميونوفنا ، على مسـافة خطوتين من هنا •

على الرصيف ، غير بعيد عن الجسر ، قبل منزل صونيا بعمارتين ، كانت تحتشد جمهرة من الناس فعلاً ، يرى المرء بينها على وجه الخصوص صبياناً وبنات يقفزون ويثبون •

ان صوت كاترين ايفانوفنا الأبح يُسمع حتى من الجسر • مشهد غريب فعلاً ، لا بد أن يشوق المستطلعين المتسكعين الذين يحبون أن يروا كل شيء وأن يسمعوا كل شيء !

كانت كاترين ايفانوفنا ترتدى ثوبها العتيق وشالها المصنوع من الجوخ ، وتضع على رأسها قبعة من قش تسطحت وتشوهت • وكانت فى حالة جنون مطلق حقاً ، وكانت تلهث منهوكة مهدودة القوى • وكان وجهها ، الشاحب الهزيل من مرض السل ، يعبّر عن ألم أقوى من الألم الذى يعبّر عنه هذا الوجه عادةً (ان المصدورين يبدون فى ضوء الشارع أشد مرضاً مما يبدون مرضى فى منازلهم) • وكان اهتياجها لا يهدأ ، بل يقوى ويستعر مزيداً من الاستعار لحظة بعد لحظة • فهى تندفع نحو أولادها ، فتصفعهم وتقرّعهم وتعلّمهم على مرأى من جميع الناس كيف ينبغى لهم أن يرقصوا وأن يغنوا وتشرح لهم ضرورة ذلك ، حتى اذا لاحظت أنهم لا يفهمون أخذت تضربهم ؛ ثم هى تهرع الى الجمهور لتكلمه قبل أن تفرغ مما تكون قد شرعت فيه • فاذا لمحت بين أفراد الجمهور شخصاً يرتدى ثياباً لائقة بعض الشيء ، أسرعت تشرح له الحالة التى آل اليها « أولاد أسرة نبيلة ، بل أسرة ارستقراطية » • واذا سمعت انطلاق ضحكة أو مجرد كلمة ساخرة هجمت على الوقحين فوراً وأخذت تشاجرهم • وكان بعض الناس يضحكون وكان بعضهم الآخر يهزون رءوسهم ، ولكنهم كانوا جميعاً ينظرون بكثير من الاستطلاع والفضول الى المرأة المجنونة وأولادها المروّعين • والمقلاة التى تكلم عنها ليبزياتنيكوف لم تكن موجودة ، أو ان راسكولنيكوف لم يرها على الأقل ،

لكن كاترين ايفانوفنا كانت ترافق الغناء والرقص بضبط الوزن صفقاً بيديها اليابستين ، مجبرةً كوليا ولينيا على الرقص بينما تغنى باولين • وكانت تحاول فى الوقت نفسه أن تغنى هى أيضاً ، ولكن نوبة رهيبة من السعال ما تلبث أن تقطع غناءها ، فتحزن عندئذ حزناً شديداً ، وتأخذ تشتم المرض وتلعنه ، حتى لتبكى حسرة ولوعة • والشيء الذى كان يثيرحنقها خاصةً انما هو بكاء كوليا ولينيا وذعرهما • وكانت كاترين ايفانوفنا قد حاولت حقاً أن تلبس أولادها على طريقة مغنى الشوارع • فأما الصبى الصغير فقد وضعت على رأسه لفة بيضاء مخيطةً مع قطعة من قماش أحمر فكأنها طربوش وعمامة مما يضعه على رءوسهم الأتراك • وأما لينيا فان كاترين ايفانوفنا لأنها لم تجد قماشاً تصنع لها به ثوباً حقيقياً من ثياب مغنّى الشوارع ، قد اقتصرت على أن ألبست رأسها قلنسوةً منسوجة بالابرة من صوف أحمر (بل قل طاقية المرحوم سيميون زاخارتش نفسها) ، وغرست فى القلنسوة بقية ريشة من ريش النعام الأبيض كانت تملكها فى الماضى جدة كاترين ايفانوفنا ، وكانت كاترين ايفانوفنا قد حفظتها حتى ذلك الحين فى صندوق أثراً من تراث الأسرة • وأما بوليا فهى ترتدى ثوبها الذى كانت ترتديه كل يوم ، وتدرك أن أمها قد جنّت فتنظر اليها نظرة فيها خجل وخوف وحزن ، ولا تبتعد عنها شبراً واحداً ، مخفيةً دموعها ، ملقيةً على ما حولها نظرات قلقة • كان الشارع والجمهور يبثان فى نفسها رعباً هائلاً •

كانت صونيا تسير وراء كاترين ايفانوفنا باكية ، وما تنفك تضرع اليها فى كل دقيقة أن ترجع الى البيت • ولكن كاترين ايفانوفنا لا تنثنى عن عزمها ، ولا تلين قناتها ، فهى تقول لصونيا صارخةً بصوت متعجل وهى تسعل وتلهث :

ــ اتركينى يا صونيا ، اتركينى ! أنت نفسك لا تدرين ماذا تطلبين

منى ! أنت طفلة ، أنت طفلة ! قلت لك اننى لن أرجع الى تلك الألمانيـة السكّيرة ! ألا فليعلم جميع الناس ببطرسـبرج كيف صار الى استجداء الأكف أولادُ أبٍ نبيل ظل طوال حياته يخدم الدولة باستقامة وشرف ، حتى ليمكن أن يقـال انه مات أثنـاء أداء واجب وظيفتـه (لقد أفلحت كاترين ايفانوفنـا فى أن تخلق لنفسـها هذا الوهم وأن تؤمن به ايماناً أعمى) ! ألا فلَيرَ ذلك الجنرال التافه كلّ هذا ، ألا فليرَه ! أنت حمقاء يا صونيا ! ما عسـانا نفعـل الآن من أجـل أن نأكل ؟ لقد اسـتغللناك واسـتثمرناك بما فيه الكفـاية ! لا أريد هـذا بعد الآن !... روديون رومانوفتش ؟ أهـذا أنت ؟ (كذلك هتفت وقد لمحت راسـكولنيكوف ، فهرعت اليه) أرجوك أن تُفهم هذه الحمقاء الصغيرة أننا لم يبق لنا أن نفعل شـيئاً غير هذا ! ان العازفين على أرغن بارباريا يتوصلون الى جنى رزقهم ، ونحن سوف يتعرفنا جميع الناس ، وسوف يرى جميع الناس أننا أسرة نبيلة مهجورة بائسة ، وسوف يفقد ذلك الجنرال التافه منصبه ، لترينّ هـذا ! سـنذهب كل يوم الى تحت نوافـذه ، حتى اذا مـر الامبراطور جثوت عند قدميـه ، ودفعت هؤلاء الى أمام ليراهم ، وهتفت أقول له : « احمهم يا أبانا ! » . انه أبو اليتامى ، انه رحيم ... سوف يحميهم ، لترينّ أنه سوف يحميهم ! أما ذلك الجنرال التافه فسوف ... « لينيا ، انصبى قامتك » * ! وأنت يا كوليا ! ارقص من جديد ! ما لك تبكى ! انه ما يزال يبكى ! عجيب ! ممّ أنت خائف أيها الأحمق الصغير ؟ ماذا يجب أن أصنع بهم يا روديون رومانوفتش ؟ ليتك تعلم مدى غباوتهم وبلاهتهم ! ما عسانى صانعةٌ بأولاد كهؤلاء الأولاد ؟

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك لراسـكولنيكوف وأوشـكت أن تبكى هى نفسها (دون أن يوقف هذا سـيلَ كلامها المتدفق الذى لا ينضب) وهى تريه الأولاد الذين كانوا يبكون .

حاول راسكولنيكوف أن يقنعها بأن عليها أن ترجع الى البيت ، وقدّر أنه يستطيع بكلامه أن يوقظ حبّها لذاتها وشعورها بكرامتها فقال لها انها لا يليق بها أن تتجول في الشوارع تجول العازفين على أرغن باربارىا على حين أنها تتوق الى انشاء مدرسة داخلية للفتيات النبيلات !

فصاحت كاترين ايفانوفنا تقول ضاحكة مقهقهة :

ـ مدرسة داخلية ! هأ هأ هأ !.. اسمعوا هذا الكلام !..

وأعقبت ضحكتها نوبةُ سعال . ثم تابعت كلامها فقالت :

ـ لا يا روديون رومانوفتش ! هذا الحلم قد تبدد ! لقد هجرنا جميع الناس ! وهذا الجنرال التافه ... هل تعلم يا روديون رومانوفتش أنني رميته بمحبرة على وجهه ، هي المحبرة التي كانت توجد في حجرة المدخل على المنضدة قرب الورقة التي يسجّل فيها الزوار أسماءهم ؟ لقد سجلت اسمي انا أيضاً ، ثم رميته بالمحبرة ووليت هاربة ! آه ! يا للجبناء! يا للحقراء ! ولكنني أصبحت الآن لا أهتم ... فسوف أجني لهم رزقهم بنفسي ، سوف أجني للأولاد رزقهم بنفسي . لن أطاطىء رأسي لأحد ! لقد عذبناها بما فيه الكفاية (كانت كاترين ايفانوفنا تقصد صونيا) . يا بوليتشكا ، كم جمعنا الى الآن ؟ أريني ! كيف ؟ ألم نجمع الا كوبكين فقط ؟ آه ... يا للأوغاد ! انهم لا يعطوننا شيئاً ! انهم لا يزيدون على أن يركضوا وراءنا مادّين لنا ألسنتهم استهزاءً ! انظر الى هذا المعتوه مثلاً :ممّ تراه يضحك ؟ (وأومأت الى واحد في الجمهور) ذلك كله سببه كوليا ! فلأن كوليا غبي هذا الغباء كله انما يسخر منا الناس جميعاً ! مالك يا بوليتشكا ؟ كلميني بالفرنسية ! « كلميني بالفرنسية ! » ! عجيب ! ألم أعلّمك الفرنسية ؟... انك تعرفين بضع جمل ... أنّى لهم أن يعرفوا أنكم تنتمون الى أسرة نبيلة وأنكم قد نُشّئتم تنشئة طيبة فلا شأن

لكم بغيركم من العازفين على أرغن بارباريا ، أنى لهم أن يعرفوا ذلك اذا لم تكلميني باللغة الفرنسية يا بوليتشكا ؟ نحن لا ننشد في الشوارع أغاني مبتذلة ، وانما نحن نغني أغنيات راقية ! ها ••• نعم ••• ما الذي سوف نغنيه الآن ؟ أنت لا تزيد على أن تقاطعنا ، ونحن ••• اسمع يا روديون رومانوفتش ، لقد توقفنا هنا قليلاً لنقرر ما الذي سنغنيه : يجب أن نغني شيئاً يكون في وسع كوليا أن يرافقه برقصة ، ذلك أننا ، كما تستطيع أن تقدّر ، قد أُخذنا على غير تهيؤ أو استعداد • ولا بد لنا من توزيع أعمالنا والتوفيق بين أعبائنا حتى نرتب الأمور • وبعد ذلك سوف نذهب الى شارع نفسكى ، حيث يكثر الناس الذين ينتمون الى المجتمع الراقي فسرعان ما يلاحظوننا• ان لينيا لا تعرف الا أغنية « القرية الصغيرة » ، لا تعرف الا أغنية « القرية الصغيرة » وحدها ! وجميع الناس يغنون هذه الأغنية حتى أصبحت كالمنشار ! يجب علينا أن نختار شيئاً أرقى • فماذا يا بوليا ؟ هل عندك فكرة ؟ ليتك تستطيعين ، أنت على الأقل ، أن تساعدي أمك ! آه من الذاكرة ! ان الذاكرة هي التي تعوزني ، ولولا ذلك لجرت الأمور من تلقاء ذاتها ، لولا ذلك لتذكرت ! لن نغني مع ذلك أغنية « الفارس المتكيء على سيفه » ! * الأَوْلى أن نغني بالفرنسية أغنية « خمسة قروش » • لقد علمتكم اياها ، تلك الأغنية ! ثم ان الناس سرعان ما يدركون ، لأننا سوف نغني بالفرنسية ، أنكم أولاد أسرة كريمة الأصل ، فيؤثر ذلك في نفوسهم تأثيراً أكبر ! حتى ان في وسعنا أن نغني أغنية « مالبرو مسافر الى الحرب » ، لا سيما وأنها أغنية صغيرة للأطفال وحدهم ، نعم للأطفال وحدهم ، تُستعمل في جميع البيوت الارستقراطية لنوم الأطفال •

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك وأخذت تغني :

مالبرو مسافر للحرب
لا يدرى متى يعود ...

ثم استدركت تقول : بل الأفضل أن نغنى « خمسة قروش » . يا كوليا ، ضع يديك على خصريك ! أسرع ! وأنت يا لينيا ، استديرى فى اتجاه معاكس ! وسوف أرافقكما أنا وبوليا يصفق الأيدى :

خمسة قروش ، خمسة قروش
لانشاء أسرتنا ...

واجتاحتها نوبة سعال أخذت تهزها هزاً : كح كح كح !..
وقالت تخاطب بوليا من خلال السعال :

ـ اعدلى ثوبك يا بوليتشكا ! انه ينزلق عن كتفيك ! علينا الآن أن نحافظ على أحسن مظهر ، حتى يرى جميع الناس أنكم أولاد أسرة نبيلة ! آه ... ما أكثر ما قلت ان صدر هذا الفستان ينبغى أن يكون أطول ... ولكن نصائحك أنت يا صونيا هى التى أفسدت كل شىء : « قصّروا ! قصّروا ! » فانظرى الآن ماذا كانت النتيجة : لقد تشوهت هذه الطفلة ! ماذا ؟ هأنتم أولاء تستأنفون البكاء ؟ ما بالكم تعودون الى البكاء أيها الأغبياء ؟ هيّا يا كوليا ! غنّ ! بسرعة أكبر ! أكبر ! أكبر ! أوه ! يا لك من ولد لا يطاق !

خمسة قروش ، خمسة قروش

ـ ماذا ؟ أجندىٌّ أيضاً ؟ ماذا تريد أيها الجندى ؟

كان شرطى من شرطة المدينة يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور بالفعل ! ولكن سيداً يرتدى بزة رسمية ومعطف ضابط ، سيداً هو موظف كبير فى نحو الخمسين من عمره ، وقور المظهر مهيب الطلعة ، يحمل

عدا ذلك وساماً فى عنقه (وهذا الامر التفصيلى الأخير قد أبهج كاترين ايفانوفنا كثيرا واحدث فى شرطى المدينة تاثيرا كبيرا) ، قد ظهر فى تلك اللحظة نفسها فاقترب من كاترين ايفانوفنا مادا اليها ورقة نقدية قيمتها ثلاثة روبلات . وكان وجهه يعبّر عن شفقة صادقة . فتناولت كاترين ايفانوفنا الورقة ، وانحنت أمام الرجل بشيء من الأدب ، بل وبشيء من الاحتفال . وبدأت تتكلم فقالت متعالية :

ـ أشكرك يا سيدى . ان الأسباب التى أهابت بنا الى ... خذى المال يا بوليتشكا . هأنت ذى ترين أن هناك أناساً كراماً عظاماً مستعدين لمساعدة سيدة نبيلة بائسة أناخ عليها الدهر ... ان أمامك يا سيدى يتامى نبلاء ، بل يتامى يمكن أن تقول ان لهم قربى بأعلى الأسر الارستقراطية. ولكن ذلك الجنرال التافه الذى كان بسبيل التهام دراريج ... آه ... لقد ضرب الأرض بقدمه لأننى أزعجته ! قلت له : « يا صاحب السعادة ، كن حامياً لأيتام المرحوم سيميون زاخارتش ، أنت يا من عرفته حق معرفته ، فان انساناً حقيراً بين الحقراء قد افترى على بنته فى يوم موته نفسه . » . أما يزال هذا الجندى هنا ؟ كن حامياً لنا يا سيدى (كذلك صاحت كاترين ايفانوفنا مخاطبة الموظف الذى اعطاها الروبلات الثلاثة) . لماذا يلاحقنى هذا الجندى ؟ ما باله يطاردنى دائماً ؟ لقد سبق أن هربنا من جندى غيره فى شارع مشتيانسكايا ... ماذا تريد أيها الغبى ؟

ـ لا يجوز لكم أن تفعلوا هذا فى الشوارع ! يجب عليكم أن تلتزموا حدود اللياقة !

ـ أنت الذى لا تلتزم حدود اللياقة ! أنا أفعل ما يفعله العازفون على أرغن بارباريا ! فما شأنك أنت ؟

ـ من أجل العزف على الأرغن ، لا بد من ترخيص ... أما أنت

فقد قررت أن تفعلى ما تفعلينه دون الحصول على ترخيص ... فأنت تزعجين الناس وتعكرين صفوهم ! أين تسكنين ؟

أعولت كاترين ايفانوفنا تقول :

ـ ماذا ؟ ترخيص ؟ لقد دفنت زوجى فى هذا اليوم نفسه ! أى ترخيص تريد ؟

تدخل الموظف فقال :

ـ سيدتى ، سيدتى ، هدئى نفسك . تعالى . سأوصلك الى بيتك ! ليس هذا لائقاً هنا ، أمام الناس ! أنت مريضة !

فصاحت كاترين ايفانوفنا تقول :

ـ يا سيد ، يا سيد ، أنت لا تعرف شيئاً ! سوف نذهب الى شارع نفسكى ! يا صونيا ، يا صونيا ! ولكن أين ذهبت صونيا ؟ انها تبكى هى أيضاً ! ولكن ماذا دهاكم جميعاً ؟

وصرخت فجأة تسأل :

ـ كوليا ، لينيا ، الى أين تذهبان ؟ الى أين أنتما ذاهبان ؟

كان كوليا ولينيا ، وقد رأيا الجندى الذى يريد أن يقبض عليهما وأن يقتادهما الى مكان ما ، وروعتهما هذه الجمهرة المحتشدة من الناس وهذه الحالات الجنونية فى أمهما ، كانا قد تماسكت يداها وأخذا يركضان كأنما على سابق اتفاق وتواطؤ . فلما رأتهما المسكينة كاترين ايفانوفنا على هذه الحال أخذت تئن وتنشج ، واندفعت تطاردهما . انه منظر عجيب محزن أن يراها المرء تركض هذا الركض غارقة بدموعها منقطعةً أنفاسها . وأسرعت صونيا وبوليا تركضان وراءهما .

ـ أرجعيهما يا صونيا ، أرجعيهما ! آه !... يا للأولاد الأغبياء !

يا للأولاد العاقّين !••• يا بوليا ! أدركيهما ! اقبضى عليهما ! من اجلك انما أنا •••

وترنحت كاترين ايفانوفنا فى ركضها وسقطت •

صاحت صونيا قائلةً وهى تميل عليها :

ـ انها مغطاة بالدم ! رباه !•••

هُرع الجميع ، وتحلقوا حول كاترين ايفانوفنا • وكان راسكولنيكوف وليبزياتنيكوف أول المسرعين • وقد أسرع الموظف أيضاً • ووراءه وصل شرطى المدينة قائلاً فى تذمر : « أقصة جديدة ؟ »، ثم حرّك يده باشارة انزعاج ، شاعراً أن هذه القضية ستحدث كثيراً من المتاعب •

قال الشرطى وهو يصرف المستطلعين الذين تجمعوا ينظرون :

ـ انصرفوا ! انصرفوا !

قال أحدهم :

ـ انها تموت •

وقال آخر :

ـ لقد فقدت عقلها •

وقالت امرأة وهى ترسم على نفسها اشارة الصليب :

ـ رأف الله بها • هل أُعيد الأولاد على الأقل ؟ ها هم أولاء يرجعون ! ان الكبرى هى التى أدركتهم • يا للعفاريت !•••

ولكن حين أُنعم النظر فى كاترين ايفانوفنا عُرف أنها لم تُجرح لاصطدامها بحجر كما قدّرت صونيا ، فان الدم الذى صبغ بالحمرة أرض الشارع انما تدفق من حلقها •

دمدم الموظف يقول لراسكولنيكوف وليبزياتنيكوف :

ـ أنا أعرف ، أنا أعرف ، هذا مرض السل ! هكذا ينبجس الدم من فم المريض ثم يخنقه . شهدت هذه الحادثة نفسها منذ مدة غير طويلة : احدى قريباتي سكبت من صدرها على هذا النحو كأساً من دم على حين فجأة . ما العمل ؟ سوف تموت ...

تضرعت صونيا قائلة :

ـ هنا ! هنا ! الى بيتي ! أنا أسكن هنا ، هنا ، في هذا المنزل ، العمارة الثانية ... فلتُنقل الى بيتي ، بسرعة ، بسرعة !... استقدموا طبيباً ... آه ... يا رب !..

كذلك كانت تقول صونيا متجهة بكلامها الى الحضور واحداً بعد واحد .

ودُبّرت الأمور بفضل جهود الموظف . حتى لقد ساعد الشرطي نفسه في نقل كاترين ايفانوفنا . صعدوا بها الى مسكن صونيا وهي شبه ميتة ، واضجعوها على السرير . كان الدم ما يزال ينزف ، ولكن كان يبدو على المريضة أنها تثوب الى شعورها شيئاً بعد شيء . ولقد دخل الى الغرفة ، عدا راسكولنيكوف وليبزياتنيكوف ، دخل الموظف والشرطي . وكان الشرطي قد صرف الجمهور فلم يفلت منه الا بضعة فضوليين صاحبوا كاترين ايفانوفنا وموكبها ودخلوا الغرفة هم أيضاً . ووصلت بوليا ممسكةً كوليا ولينيا اللذين كانا يرتجفان ويبكيان . وهُرع من بيت كابرناؤموف أيضاً عدة أشخاص : كابرناؤموف نفسه ، وهو رجل أعرج أعور يضفي عليه شعر رأسه ولحيته المجعّد تجعّد شعر الخنزير مظهراً غريباً جداً ؛ وامرأته التي يعبّر وجهها عن ذعر مستمر متصل ؛ وعددٌ من أولادهما فغرت أفواههم وجمدّتهم الدهشة ؛ وظهر

بين المشاهدين أخيراً سفدريجايلوف • فنظر اليه راسكولنيكوف في أول الأمر مذهولاً لا يفهم من أين عساه طلع ، فهو لا يتذكر أنه رآه بين الجمهور المحتشد في الشارع •

وتكلم الحضور عن استقدام طبيب وكاهن • وهذا هو الموظف يصدر أمره باستقدام طبيب ، رغم أنه كان قد همس يقول لراسكولنيكوف ان مساعدات الطبيب أصبحت غير مجدية • وتعهّد كابرناؤموف أن يسعى الى الطبيب لاحضاره •

وتحسنت حالة كاترين ايفانوفنا قليلاً أثناء ذلك ، فالنزيف قد انقطع موقتاً • وألقت كاترين ايفانوفنا نظرة موجعة ، وان تكن ثابتة نافذة ، على صونيا التي كانت تجفف قطرات العرق عن جبينها شاحبة الوجه مرتعشة اليدين • وطلبت كاترين أخيراً انهاضها ، فأُجلست على السرير مسنودةً من الجهتين •

دمدمت تقول بصوت ضعيف :

ـ أين الأولاد ؟ هل أرجعتهم يا صونيا ؟ آه ••• يا لهم من بلهاء ! لماذا هربتم ؟ آه •••

وغطى الدم شفتيها المصوّحتين من جديد • فأجالت عينيها على ما حولها • وقالت :

ـ آ ••• أهكذا تعشين اذن يا صونيا ! لم يتح لي أن آتي اليك قبل الآن مرةً واحدة !

ونظرت اليها بألم •

ـ ماذا ؟ كاهن ؟ لا أريد !••• هل معكم روبل تضيعونه ؟ أنا لا ذنوب لي ! لا بد أن يغفر الله لي • ان الله يعلم كم تألمت ! فاذا لم يغفر لي ، فلا يغفرْ !

واستولى على كاترين ايفانوفنا هذيان ما فتىء يزداد اضطراباً • كانت فى بعض اللحظات ترتعش ، وتنظر حواليها ، فتتعرف جميع الأشخاص الذين يحيطون بها ، تتعرّفهم خلال دقيقة واحدة ، ثم ما تلبث أن تفقد صحوها وترتد الى هذيانها من جديد • وكان تنفسها أبحّ أجشّ ، وكان شاقاً أليماً ، وكان يُسمع نوع من القرقرة يخرج من حلقها •

وهتفت تقول وهى تختنق لدى كل كلمة تنطق بها :

ـ قلت له : « يا صاحب السعادة ••• » آه ••• سحقاً لآماليا لودفيجوفنا هذه !••• لينيا ، كوليا ، ضعا يديكما على الخصرين ، واجعلا رقصكما أسرع ، أسرع ••• انزلقا ••• انزلقا !••• عليكما بخطوة « البسك » ••• اقرع كعبيك ! كن ولداً رشيقاً !

لك ماس ولآلى • *

ـ ماذا بعد ؟ ها ••• نعم ••• يجب الغناء كما يلى :

لك أجمل عينين

فماذا تريدين أكثر من ذلك يا فتاة !

ـ نعم ، ماذا تريدين أكثر من ذلك ؟ يا للغبى ما أسخف قوله ! ها ••• نعم ••• وهذا شعر آخر :

تحت أشعة الشمس الحارة ، بوادى داغستان *

ـ آه ••• لشد ما أحببت هذه الأغنية ! أحببتها حتى العبادة ، هذه الأغنية ! هل تعلمين يا بوليتشكا ؟ كان أبوك يغنيها أيام كنا خطيبين !•• ذلك ما يجب أن نغنيه اذا أردنا الغناء ! ولكن ماذا حدث ؟ ماذا حدث ؟ لقد نسيت ! هلاّ ذكّرتمونى ! ذكّرونى !



كاترين ايفانوفنا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

كانت كاترين ايفانوفنا فى حالة اضطراب شديد ، وكانت تحاول أن تنهض . وأخذت أخيراً تغنى بصوت رهيب أبحّ مكسّر ، صارخةً مختنقةً عند كل كلمة تنطق بها . وكان وجهها يعبّر عن رعب ما ينفك يزداد :

تحت اشعة الشمس الحارة ، بوادى داغستان ...

وفى صدرى رصاصة

وأعولت تقول فجأة بصياح ممزّق وهى تجهش باكية :

ـ يا صاحب السعادة ، كن حامياً لليتامى ... تكريماً لذكرى الاستقبال الذى استقبلك به سيميون زاخارتش ... والذى يمكن أن يوصف بانه ارستقراطى ...

وانتفضت كاترين ايفانوفنا فجأة وقد ثاب اليها شعورها وأخذت تتفرس فى الحضور مذعورة . لكنها لم تلبث أن تعرفت صونيا ، فنطقت تقول فى رقة وحنان وكأنها تستغرب أن تراها أمامها :

ـ صونيا ! صونيا ! أنت أيضاً هنا ؟

أُنهضت كاترين ايفانوفنا من جديد .

صرخت تقول فى يأس وكره :

ـ كفى ! آن الأوان ! وداعاً ! لقد أجهزوا على الحصان القديم ! انه يفطس !

وتركت رأسها يتهاوى على الوسادة .

وعاد اليها شعورها مرةً ثانية ، لكن ذلك لم يدم الا مدة قصيرة . انقلب وجهها المصفرُّ الى وراء ، وانفتح فمها ، وامتدت ساقاها فى تشنج ، وزفرت زفرة عميقة وماتت .

أسرعت صونيا الى جثمانها ، فطوقتها بذراعيها متألمة ، وشدَّت رأسها الى صدرها الناحل . وجثت بوليا عند قدمي أمها فقبَّلتهما باكية ناشجة . ولم يدرك كوليا ولينيا ادراكاً واضحاً ما الذي حدث ، لكنهما أوجسا أن ثمة شيئاً رهيباً قد وقع ، فارتمى كل منهما بين ذراعي الآخر، وفغر فماهما وأخذا يصرخان . كانا ما يزالان يرتديان ثياب المهرِّجين ، فأحدهما على رأسه عمامة ، والأخرى على رأسها طاقية تزينها ريشة نعامة .

لا ندري كيف وُجد « الدبلوم » موضوعاً على الوسادة قرب كاترين ايفانوفنا ، غير أن راسكولنيكوف قد رآه على كل حال .

ابتعد راسكولنيكوف نحو النافذة ، وأسرع ليبزياتنيكوف يلحق به. قال :

ــ ماتت !

قال سفدريجايلوف وهو يتقدم نحو راسكولنيكوف :

ــ روديون رومانوفتش ، عندي كلمة أريد أن أقولها لك . أمر مستعجل !

فسرعان ما تنحى له ليبزياتنيكوف عن مكانه وامحَّى مستخفياً ، غيرَ أن سفدريجايلوف ابتعد براسكولنيكوف مزيداً من الابتعاد يريد أن يخلو اليه وأن يكلمه على انفراد . كان راسكولنيكوف متحيراً . قال سفدريجايلوف :

ــ سوف أتولى جميع هذه الأمور ، أقصد نفقات الدفن وكل ما عداه . هذا يقتضي مالاً مهماً ... هذان العصفوران الصغيران وهذه البنت بوليتشكا سوف أدخلهم مأوى للأيتام ، فتكون العناية بهم أحسن

ما تكون العناية ، وسأودع باسم كل منهم مبلغ ألف وخمسمائة روبل ، الى أن يبلغوا سن الرشد ، وذلك حتى يطمئن بال صوفيا سيميونوفنا كل الاطمئنان • وسوف أخرجها هي أيضاً من الحمأة التي تعيش فيها ، لأنها فتاة طيبة ، أليس كذلك ؟ فتستطيع أن تقول لآدفوتيا رومانوفنا فى أى وجه من الوجوه استعملتُ العشرة آلاف روبل •

سأله راسكولنيكوف :

ـ لأى هدف من الأهداف تظهر هذا الكرم كله ؟

فأجابه سفدريجايلوف يقول ضاحكاً ضحكة صغيرة :

ـ هيه ! هيه ! يا لك من رجل قليل الثقة سيء الظن ! لقد قلت لك انني فى غير حاجة الى هذا المال ! لماذا ترفض أن تصدّق أنني لا أتصرف الا بدافع الأنانية ؟ وكيف دار الأمر فان هذه (قال ذلك وهو يشير باصبعه الى الركن الذى ترقد فيه المتوفاة) لم تكن قملة ، لم تكن عجوزاً مرابيةً ما ••• هيّا قل لى : « هل الأفضل أن يبقى رجل مثل لوجين حياً يرتكب دناءاته وحقاراته ، أم الأفضل أن تموت هى ؟ » ••• وبدون مساعدتى ، فان بوليتشكا مثلاً « ستكون مضطرة أن تسير فى هذه الطريق نفسها » ••

قال تلك الكلمات بلهجة فيها شيء من « المكر » ، دون أن يحوّل بصره عن راسكولنيكوف •

اصفرّ راسكولنيكوف وتجمّد رعباً حين سمع تلك العبارات نفسها التى قالها هو نفسه فى حديثه مع صونيا • وتقهقر فجأة وألقى على سفدريجايلوف نظرة ضارية •

ودمدم يسأل بصوت مختنق :

ـ كيف ... عرفت ... هذا ؟

ـ أنا أقطن هنا ، فى الجهة الأخرى من هذا الحاجز ، عند السيدة ريسليش . هنا شقة كابرناؤموف ، وهناك شقة السيدة ريسليش ، وهى صديقة لى منذ عهد طويل ، صديقة من أخلص الصديقات . أنا جار من الجيران . هذا هو الأمر !.

ـ أنت ؟

فضحك سفدريجايلوف وتابع كلامه فقال :

ـ أنا ، وأستطيع أن أؤكد لك صادقاً يا روديون رومانوفتش العزيز أن أمرك قد شاقنى كثيراً . ألم أقل لك اننا سنكون متفاهمين ! لقد تنبأت لك بذلك ! نعم ، لقد تفاهمنا ! لسوف ترى أننى رجل موادع مجارٍ مريح ! لسوف ترى أننى أمرؤ ما تزال الحياة معى ممكنة .

الجزء السادس

الفصل الأول



عندئذ عهدٌ جديد غريب فى حياة راسكولنيكوف. لكأن ضباباً قد سقط أمامه فجأةً ، فحبسه فى عزلة ثقيلة كثيفة . حين تذكر راسكولنيكوف هذه الفترة ، بعد زمن ، بعد زمن طويل ، قدّر أن أن صحو ذهنه كان يغور فى الظلام أحياناً ، وأنه استمر على هذه الحال الى أن نزلت النازلة النهائية ، الا فى لحظات قليلة . وقد اقتنع اقتناعاً تاماً بأنه قد ضلّ حينذاك فى أمور كثيرة ، ولا سيما فى مواقيت بعض الأحداث وفى مدتها، على أنه حين استحضر هذه الذكريات وحاول أن يجمع شتاتها وأن يوضحها ، استعان بشهادة أشخاص آخرين ، فعلم بذلك أموراً كثيرة عن نفسه . علم مثلاً أنه كان يخلط بين حادث وآخر ، أو كان يظن هذا الحادث نتيجةً لحادث ثالث لا وجود له فى الواقع ، وانما أنشأه له خياله . وكان ينتابه فى بعض الأحيان قلق أو خوف سرعان ما يستحيل الى رعب هائل . ولكن راسكولنيكوف تذكر أيضاً أنه كانت تمر به دقائق بل ساعات وربما أيام يعيش خلالها حالات نفسية تناقض مخاوفه السابقة، فهو غارق فى خدر يشبه عدم الاكتراث الذى يعانيه بعض المحتضرين. ويمكن أن نقول على وجه العموم انه يكون فى مثل تلك الأيام كمن يتحاشى هو نفسه أن يشعر بوضعه وأن يدرك موقفه وأن يعى حالته . وهناك وقائع أساسية معينة كانت تثقل على نفسه خاصة مع أنها تتطلب

توضيحاً مباشراً • ولكن ما كان أعظم سعادته بأن ينسى بعض الظروف ، رغم أن هذا النسيان قد استطاع أن يؤدى فى حالته الى نازلة رهيبة لم يمكن تحاشيها •

وكان يقلقه سفدريجايلوف خاصةً ، حتى ليمكن القول ان انتباهه كله قد تركز على سفدريجايلوف • فمنذ اليوم الذى نطق فيه سفدريجايلوف بتلك الكلمات الصريحة الرهيبة التى لا بد أن ترعب راسكولنيكوف ، وذلك فى غرفة صونيا ، لحظةَ وفاة كاترين ايفانوفنا ، منذ ذلك اليوم انقطع الجريان الطبيعى لأفكار راسكولنيكوف • ولكن راسكولنيكوف لم يسارع الى توضيح الأمور لنفسه ، رغم القلق الشديد الذى أخذ يعانيه • كان يتفق له فى بعض الأحيان ، اذ يجد نفسه فجأة فى حى ناءٍ مقفرٍ من أحياء المدينة ، جالساً وحده الى مائدة منعزلة فى أعماق حانةٍ حقيرة ، غارقاً فى أفكاره ، لا يكاد يتذكر ما الذى قاد خطاه الى هذا المكان ، كان يتفق له على حين بغتة أن يخطر بباله سفدريجايلوف ، فاذا هو تتجلى له حقيقةٌ واضحة صارخة ، هى أن عليه أن يجرى حديثاً مع هذا الرجل بأقصى سرعة ممكنة ، وأن يفرغ من هذا الأمر مرةً واحدة • حتى لقد خيِّل اليه ذات يوم ، فى مكان وراء الأسوار ، أنه ينتظر سفدريجايلوف ، وأنه قد ضرب له موعداً للقاء فى هذا المكان • وفى يوم آخر ، استيقظ عند الفجر فرأى نفسه راقداً على الأرض لا يدرى أين ، فلم يفهم ما الذى جاء به الى هنا ، ولا عرف كيف وصل الى هذا الموضع • ثم انه خلال اليومين أو الأيام الثلاثة التى أعقبت وفاة كاترين ايفانوفنا قد أتيح له أن يلقى سفدريجايلوف مرتين ، وذلك فى غرفة صونيا التى ذهب اليها لا لهدف الا أن يراها لحظة • وقد تبادل الرجلان بضع كلمات مقتضبة جداً ، ولكن تجنبا أن يمسَّا النقطة الأساسية ، فكأن بينهما اتفاقاً مضمراً على أن يلزما الصمت

في هذا الموضوع الى حين • كان تابوت كاترين ايفانوفنا عندئذ ما يزال في غرفة صونيا • وكان سفدريجايلوف ينشط في سبيل اتمام الدفن • وفي اللقـــاء الأخـير الذى تمّ بين الرجلين شرح ســـفدريجايلوف لراسكولنيكوف أن المساعى التي شرع فى القيام بها من أجـل أولاد المتوفاة قد أثمرت ، فبفضل بعض العلاقات التى له ، استطاع أن يـدخل الأيتام الثلاثة فى مؤسسات مناسبة ، وكان للمال الذى أودعه لهم فضل كبير فى ذلك ، لأن الأولاد الذين يملكون مالاً يسـهل قبولهم فى هذه المؤسسات أكثر مما يسهل قبول الأولاد الذين لا يملكون شيئاً • وتكلم سفدريجايلوف قليلاً عن صونيا كذلك ، ووعد بأن يزور راسكولنيكوف فى بيته قريباً ، وأسـمعه أنه يتمنى لو يطلب منه النصح « فهو فى حاجة ملحة الى أن يكلمه فى بعض الأمور ••• » ؛ وقد جرى هذا الحديث بين الرجلين فى حجـرة المـدخل ، فكان ســـفدريجايلوف يحـدّق الى راسكولنيكوف بنظرة ثابتة ثم خفض صوته بعد فترة من صمت يسأله :

ـ ولكن مالك يا روديون رومانوفتش ؟ يبدو لى أنك لست فى حالة طبيعية • صحيح أنك تصغى وتنظر ، ولكن لا يلوح عليك أنك تفهم ! هيّا ، ينبغى أن نتحادث معاً بعض الشيء ! يؤسفنى أننى مشغول بشـئون غيرى وشئونى أنا الى هذا الحد !

ثم أضاف يقول فجأة :

ـ هيه ! جميع البشر محتاجون الى هواء ، الى هواء ، الى هواء قبل كل شيء !

وتنحّى بغتةً حتى يفسح مجال المرور للكاهن والقندلفت اللذين كانا يصعدان السلّم • انهما آتيـان لاقامة صـلاة الميت • لقـد اتخـذ سفدريجايلوف الاسـتعدادات اللازمة لاقامة صـلاة الميت هذه مرتين فى اليوم بغير انقطاع •

تردد راسكولنيكوف لحظة ثم تبع الكاهن الى عند صونيا . وكان سفدريجايلوف قد غاب .

وقف راسكولنيكوف على العتبة . وابتدأ القداس هادئاً مهيباً حزيناً . كان الفتى يشعر بالموت منذ نعومة أظفاره . وكان احساسه بحضور الموت يصطبغ عنده دائماً بنوع من رعب صوفى . وهو منذ مدة طويلة لم يشهد قداس جنازة . والى هذا كله يُضاف الآن احساس بالاضطراب والرعب أشد ايلاماً .

نظر الى الأولاد . كانوا جميعاً راكعين قرب التابوت . وكانت بوليتشكا تبكى . ووراءهم كانت صونيا تصلى وتبكى برفق . قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « انها لم تنظر الىّ مرة واحدة فى هذه الأيام الأخيرة . انها لم تخاطبنى بكلمة واحدة » . كانت الشمس تغمر الغرفة بضياء قوى ، ودخان البخور يتصاعد الى السقف ، والكاهن يرتّل أدعيته . بقى راسكولنيكوف الى آخر الاحتفال فلما بارك الكاهن وودّع منصرفاً ، ألقى على ما حوله نظرة غريبة . واقترب راسكولنيكوف من صونيا بعد انتهاء القداس . فاذا هى تتناول يديه فجأة وتميل برأسها على كتفه . دُهش راسكولنيكوف من بادرة الصداقة والمودة هذه . بدت له هذه البادرة غريبة . تساءل : كيف لا تنفر منه صونيا أقل نفور ، كيف لا تشمئز منه أى اشمئزاز ؟ وكانت يدها لا ترتعش فى يده ! يا للتضحية ! هكذا فهم راسكولنيكوف الأمر على الأقل . لم تقل صونيا كلمة واحدة . صافحها راسكولنيكوف وخرج . كان يشعر بارهاق فظيع يجتاحه . فلو كان يستطيع فى تلك اللحظة أن يذهب الى مكان ما ، الى أى مكان يشعر فيه بوحدة مطلقة ، بعزلة مطلقة ، ولو دامت مدى الحياة ، اذن لعدّ نفسه سعيداً . ولكن راسكولنيكوف كان فى هذه الآونة الأخيرة ، رغم بقائه وحيداً فى جميع الأحيان تقريباً ، لا يفلح فى الوصول الى

الشعور بالوحدة . كان يتفق له أن يخرج من المدينة ، وأن يسير فى الطريق الكبير . حتى لقد توغّل ذات مرة فى غابة . ولكن كلما كانت الأماكن أشد عزلة وأكثر خلواً شعر راسكولنيكوف بحضور عميق مستتر مقلق يرعبه ، ويضايقه خاصةً . فكان يسرع عندئذ عائداً الى المدينة ، فيختلط بالجمهور ، ويذهب الى « سوق العلف » ، فيشعر هنالك بشىء من الارتياح .

وكان ذات مساء فى مطعم حقير فيه غناء ، فبقى يصغى الى الغناء ساعةً كاملة ، وقال لنفسه انه مبتهج به ، ولكن قلقه عاد يجتاحه اخر الأمر ، فان شيئاً يشبه عذاب الضمير قد أخذ ينهش قلبه ، وقال لنفسه فجأة : « هأنا ذا جالس أستمع لغناء ، فهل هذا هو ما يليق بى أن أفعله ؟ » . على أنه لم يلبث أن أدرك أن مدار قلقه ليس على هذا ، وأن هناك مسألة يجب حلُّها بغير ابطاء ، لكنه لا يستطيع أن يعبِّر عن هذه المسألة بكلام ، أو أن يترجمها بأقوال . كان كل شىء تتشابك خيوطه كبةَ غزل : « لا .. الصراع أولى ! بورفير ... أو سفدريجايلوف ... لأن أقوم بتحدٍ آخر وهجوم جديد فذلك خير من هذا ... نعم، نعم ! ».. قال راسكولنيكوف ذلك لنفسه ثم خرج من المطعم وهو يكاد يركض ركضاً . وخطرت بباله دونيا وأمه ، فاذا هو يشعر برعب هائل ، لا تدرى لماذا ! وفى تلك الليلة استيقظ قبل الفجر فى غابة بجزيرة كرستوفسكى* مرتعداً من الحمّى . فعاد الى بيته قبل طلوع الشمس . وزايلته الحمى بعد نوم بضع ساعات ، ولكنه استيقظ متأخراً . كانت الساعة حين استيقظ هى الثانية والنصف بعد الظهر .

فتذكر عندئذ أن دفن كاترين ايفانوفنا كان موعده ذلك اليوم ، فسرّه أنه لم يشهد الدفن . وجاءته ناستاسيا بغدائه ، فأكل وشرب بشهوة كبيرة توشك أن تكون شراهة . وكان ذهنه أنضر ، وكان يحس

أنه أهدأ مما كان فى الأيام السابقة ، وأدهشه أنه عانى ما عانى من رعب شديد مستمر .

وفُتح الباب فى تلك اللحظة ، ودخل رازوميخين .

قال رازوميخين وهو يتناول كرسياً ويجلس عليه قبالة راسكولنيكوف :

ــ هه ! انه يأكل . ما هو اذن بالمريض !

كان رازوميخين فى حالة اهتياج شديد لا يحاول أن يخفيه . كان يتكلم بلهجة فيها غيظ واضح ، ولكنه لا يتعجل ولا يرفع صوته . لكأنه يبيِّت نيةً لها صفة استثنائية جداً . وبدأ يتكلم بلهجة جازمة فقال :

ــ اسمع ! لقد أسأمتمونى فاذهبوا جميعاً الى جهنم ! ذلك اننى أرى الآن رؤية واضحة وضوح النهار أننى لا أفهم من الأمر شيئاً البتة! ولا يذهبنْ بك الخيال الى أننى سأحاصرك بالأسئلة . فلقد أصبحت لا أعبأ بهذه الأمور كلها !... ولست أريد قطُ أن ... قد تكشف لى بنفسك عن جميع أسرارك ، فاذا أنا لا أصغى اليها . نعم ، لسوف أبصق استخفافاً ثم أمضى لشأنى ! وانما جئت الآن لهدف واحد هو أن اعرف أولاً بنفسى ، معرفةً حاسمة ، أأنت مجنون أم لا . ذلك أن هناك أناساً ــ ليس أمراً هاماً أن نسميهم ــ مقتنعون بأنك مجنون أو على الأقل بأنك مؤهب لأن تصبح مجنوناً . وانى لأعترف لك بأننى كنت أنا نفسى مستعداً أتم الاستعداد لأن أرى هذا الرأى ، أولاً بسبب أفعالك السخيفة بل الخسيسة (لا سيما وأنها لا تعليل لها) ، وثانياً بسبب سلوكك الأخير مع أمك وأختك ، فهو سلوك لا يمكن أن يسلكه الا انسان شاذ أو دنىء أو مجنون . فأنت اذن مجنون .

ــ هل رأيتهما منذ مدة طويلة ؟

ـ منذ لحظة . وأنت ؟ أنت لم ترهما مرةً أخرى منذ ذلك اليوم ، أليس كذلك ؟ فأين كنت تتسكع طوال هذا الوقت ؟ هلاَّ قلت لى ، أرجوك ! لقد جئت الى بيتك ثلاث مرات . وأمك مريضة منذ الأمس مرضاً شديداً . قررت أن تجيء اليك ، فحاولت آفدوتيا رومانوفنا أن تمنعها من ذلك ، لكنها لم تفلح . قالت : « اذا كان مريضاً ، اذا كان قد أصاب عقله اختلال ، فمن ذا ينجده اذا لم تنجده أمه ؟ » . عندئذ جئنا معاً ، لأننا لم نشأ أن نتركها وحدها . وفى الطريق ، فعلنا كل شىء فى سبيل أن نهدئها . ولكننا دخلنا فلم نجدك ! جلستْ هناك ، ولبثت جالسةً عشر دقائق ، وكنا نحن أثناء ذلك الوقت نقف الى جانبها لا ننطق بكلمة واحدة . بعدئذ نهضت وقالت : « ما دام يخرج فمعنى ذلك أن صحته حسنة ، وأنه نسى أمه . يترتب على هذا أنه لا يليق بأمه بل عارٌ عليها أن تقف فى عتبة بابه تستجدى ملاطفاته استجداء الصدقات » . وعادت الى بيتها ، ثم لم تلبث أن اضطرت الى ملازمة الفراش . وهى الآن تعانى من الحمى ، وتقول : « فهمت ! ان وقته لا يتسع لغير حبيبته ... » . انها تعتقد أن صوفيا سيميونوفنا حبيبتك أو خطيبتك أو خليلتك ، لا أدرى ! فسرعان ما ذهبت الى بيت صوفيا سيميونوفنا ، لأننى كنت أريد أن أقف على حقيقة الحال يا صديقى . دخلت على صوفيا سيميونوفنا ، فماذا رأيت ؟ تابوتاً وأولاداً يبكون ، وصوفيا تجرِّب على الأولاد ملابس الحداد . أما روديا فلا وجود له ! عندئذ نظرت ، واعتذرت ، وخرجت ، ومضيت الى آفدوتيا رومانوفنا أروى لها ما شاهدت ! القصة اذن باطلة : لا حبيبة هنالك ولا شىء من ذلك ، ولعل كل ما فى الأمر أنك مجنون ! ولكن هأنا ذا أراك تلتهم لحم بقر مسلوقاً فكأنك لم تذق طعاماً منذ يومين ! صحيح أن المجانين يأكلون هم أيضاً ... ولكن لا ... ما أنت بمجنون ... رغم أنك لم تقل لى

كلمة واحدة ! ما أنت بمجنون قط ! اذن ... شيطان يأخذكم جميعاً..
فلا بد أن فى الأمر سراً ، لا بد أن فى الأمر سراً ... وأنا لا أريد أن
اصدّع رأسى بأسراركم ! اننى لم أجىء الا لأزعجك تخفيفاً عن نفسى.
وأنا أعلم ماذا بقى علىّ أن أفعل !

بهذا ختم رازوميخين كلامه وهو ينهض .

سأله راسكولنيكوف :

ـ ماذا تنوى أن تفعل ؟

ـ أأصبح يهمك الآن أن تعرف ما الذى سأفعله ؟

ـ حذار ! انك تريد أن تقبل على شرب الخمر !

ـ كيف ... كيف حزرت هذا ؟

ـ لا يحتاج الأمر الى كبير ذكاء !

بقى رازوميخين صامتاً بعض الوقت ، ثم قال فجأة بحماسة :

ـ لقد كنتَ فتى ذكياً حصيف العقل على الدوام . لم تكن مجنوناً
فى يوم من الأيام ! نعم ، كلامك صحيح . سأقبل على شرب الخمر !
استودعك الله !

قال رازوميخين ذلك واتجه نحو الباب . فقال له راسكولنيكوف :

ـ كلمت اختى عنك يا رازوميخين ، أمس الأول ، فيما أذكر .

فتوقف رازوميخين فجأة ، حتى لقد اصفر وجهه قليلاً وهو
يسأله :

ـ عنى أنا ؟... ولكن أين عساك رأيتها ، أمس الأول ؟

يستطيع المرء أن يدرك أن قلبه قد أخذ يخفق خفقاناً قوياً .

قال راسكولنيكوف :

ـ جاءت الى هنا ! وجلستْ فى هذا المكان ! وتكلمنا !

ـ هى ؟

ـ نعم ، هى !

ـ ماذا قلت لها ؟ أقصد ماذا قلت لها عنى ؟

ـ قلت لها انك شاب ممتاز ، شريف ، مجتهد . لم أذكر لها انك تحبها ، فذلك أمر تعرفه هى .

ـ تعرفه ... هى ؟

ـ طبعاً ... وعليك أن تكون لهما سنداً وحامياً ونصيراً ، أينما حطّت رحالى وكيفما كان حالى ! أقول لك هذا لأننى أعرف مدى ما تحمله لها من حب ، ولأننى مقتنع بطهارة عواطفك ونقاء مشاعرك . وانى لأعلم أيضاً أنها ، من جهتها ، يمكن أن تحبك ، هذا اذا لم تكن قد أحبتك وانتهى الأمر ! والآن قرّر : هل عليك أن تقبل على شرب الخمر !

ـ روديا ... اسمع ... طيب ... آه ... وأنت ، الى أين تريد أن تذهب ؟ اذا كان ذلك سراً ، فاكتمه ان شئت . ولكننى سأطلع على السر آخر الأمر ! آ ... انى لعلى يقين من أن المسألة لا تعدو أن تكون سخافةً من السخافات لا تُصدّق ! وأنك قد اخترعت هذا كله ! مهما يكن من أمر ، فأنت فتى رائع ، أنت أروع الفتيان !

قال راسكولنيكوف :

ـ ولقد أردت أن أقول لك أيضاً ـ لولا أنك قاطعتنى ـ انك كنت على حق تماماً حين ذهبت الى أنه لا داعى الى محاولة اكتشاف تلك الأسرار . دع هذا الأمر الآن . بالأمس قال لى أحدهم : ان المرء فى

حاجة الى هـواء ، الى هـواء ! وأريد الآن أن أذهب الى ذلك الرجـل لأعرف ما الذى كان يعنيه بذلك الكلام !

كان رازوميخين واقفاً يفكّر ، وقد عاد يستولى عليه القلق . ثم قال يحـدث نفسه فجأة : « هو متآمر سـياسى . لا شـك فى ذلك وهو يوشك أن يقوم بعمل حاسم . نعم ، هذا هو الأمر . لا يمكن أن يكون الأمر غير هذا . ودونيا تعلم ذلك . » .

وقال وهو يقطّع كلماته :

ـ اذن تجىء اليك آفدوتيا رومانوفنا ، وأنت تريد أن ترى ذلك الرجل الذى قال لك ان المرء فى حاجة الى هواء ، الى مزيد من الهواء دائماً ... معنى ذلك أن لتلك الرسالة علاقة بهذا الأمر ...

بهذه الجملة الأخيرة ختم رازوميخين كلامه على حدة .

سأله راسكولنيكوف :

ـ أية رسالة ؟

ـ لقد تلقت اليوم رسالةً أقلقتها كثيراً ، كثيراً جداً . أخذت أتكلم عنك ، فرجتنى أن أسكت . ثم ... ثم قالت ان من الجائز أن نفترق قريباً جداً ... ثم شكرتنى بكثير من الحـرارة على أننى ... لا أدرى ماذا ، وأخيراً مضت الى غرفتها فحبست نفسها فيها .

سأله راسكولنيكوف شارد الذهن :

ـ تلقت رسالة ؟

ـ نعم ، رسالة . ألم تكن تعرف ذلك ؟

وصمت الشابان كلاهما .

ـ أستـودعك الله يا روديون . أنا يا صاحبى ... فى وقت من

الأوقات ... ثم ... استودعك الله ! نعم ، فى وقت من الأوقات ... دعنا من هذا ... استودعك الله ! آن لى أنا أيضاً أن ... لن أشرب. ما الداعى الآن ؟

كان متعجلاً ، لكنه ما كاد يترك الغرفة ويغلق وراءه الباب حتى فتحه فجأة من جديد ، وقال وهو يلقى نظرة متهرّبة الى جانب :

ـ بالمناسبة ... فيما يتعلق بتلك الجريمة ... أنت تعلم حكاية بورفير ... ومقتل المرأة العجوز ... ألا تتذكر ؟... لقد اكتشفوا القاتل ... اعترف القاتل وقدّم جميع الأدلة . تصور أنه واحد من أولئك الدهانين الذين انبريت أنا من تلقاء نفسى أدافع عنهم ... هل تتذكر ؟ وهناك شىء تفصيلى آخر : ان مشهد المشاجرة مع الرفيق ، والقهقهات على السلّم بينما كان الآخرون يصعدون ، ان ذلك كله انما ابتكره القاتل ابتكاراً ليدفع عنه الشبهة ! يا للمكر ! يا للبديهة الحاضرة والحيلة البارعة ! لا يكاد المرء يصدّق ، ولكن الرجل أوضح هو نفسه كل شىء ! لقد خدعنى فى أول الأمر عن نفسى ! انه يملك عبقرية المكر والحيلة . على كل حال ، هذه أشياء موجودة ، فلا داعى الى الاسراف فى الدهشة ! هل مستحيل أن يوجد أفراد من هذا النوع ؟ وأما أنه لم يطق صبراً فاعترف أخيراً ، فذلك أمر أصدقه مزيداً من التصديق . لقد خدعنى على كل حال ! تصور كم تحمست لهم ودافعت عنهم !

سأله راسكولنيكوف وقد ظهر عليه اضطراب واضح :

ـ كيف علمت بذلك ؟ ولماذا يهمك هذا الأمر الى هذا الحد ؟

ـ لماذا يهمنى هذا الأمر ؟ يا له من سؤال !... ان بورفير هو الذى أمدنى بهذه المعلومات ! ثم انه هو الذى أطلعنى على كل شىء تقريباً .

ـ بورفير ؟

ـ نعم ، بورفير .

سأله راسكولنيكوف مرتاعاً :

ـ ماذا ... ماذا قال لك ؟

ـ شرح لى الأمر شرحاً رائعاً ، شرحاً « سيكولوجياً » ، على نهجه فى الشرح .

ـ هو نفسه ... شرح لك ؟

ـ نعم ... هو نفسه . استودعك الله ! سأقصُّ عليك شيئاً فيما بعد ، أما الآن فثمة عمل يجب أن أقوم به ، هناك . جاء وقت تصورت فيه أن ... ولكن ما الداعى الى هذا الكلام ؟ سأقول لك فيما بعد !... ما حاجتى الى السكر الآن ؟ لقد أسكرتنى أنت بغير خمر ! نعم ، أنا سكران يا روديا ، سكران من غير أن أشرب خمراً . هيَّا ، استودعك الله . سأعود اليك بعد مدة قصيرة .

قال رازوميخين ذلك وخرج . وفيما كان يهبط السلَّم بخطى بطيئة كان يحدث نفسه بقوله : « هو متآمر سياسى ، حتماً ، حتماً . ولقد أقحم أخته فى الأمر . ذلك جائز ، بل جائز جداً ، اذا نحن نظرنا بعين الاعتبار الى طبع آفدوتيا رومانوفنا . هما الآن يلتقيان فى مواعيد يضربانها ! ألم تُفهمنى هى نفسها شيئاً من ذلك تلميحاً بكثير من الكلمات الصغيرة والاشارات والملاحظات . نعم هذا كله يدل على أن تقديرى صحيح . والا فكيف نعلّل هذا التعقيد كله ؟ هه ... وأنا ظننت أن ... آه ... يا رب ! ما أكثر ما تخيلت أيضاً ! نعم ، كان ذلك ضلالاً ، ولقد أثمت فى حقه ! غير أن ذلك خطؤه هو أيضاً . لماذا شوّش فكرى ، ذلك المساء ، فى الدهليز ، تحت المصباح ؟ ها ... يا لها من فكرة دنيئة ،

خسيسة ، تلك الفكرة التى راودتنى ! وما أعظم شهامة ذلك الفتى نيقولا حين اعترف بكل شيء ! هكذا يتضح الماضى كله دفعةً واحدة : مرض روديا ، وأطواره الغريبة ، وحتى ما سبق هذه الفترة ، حين كان روديا ما يزال فى الجامعة فكان مظلم النفس ، مكتئب المزاج . ولكن ماذا تعنى الآن هذه الرسالة ؟ لا بد أن وراءها شيئاً ! من هو مرسلها ؟ أظن أنها ... هِمْ ... سأُخرج هذا كله الى النور ! » .

ثم تذكر كل ما يتعلق بدونيا ، فأصبح قلبه كالجليد حين تذكّر ذلك . وتخلص من جموده ، وأخذ يمشى مشياً سريعاً يوشك أن يكون ركضاً .

ما ان خرج رازوميخين حتى نهض راسكولنيكوف ، فاقترب من النافذة ، ومشى فى الغرفة متنقلاً من ركن الى ركن ، كأنما هو قد نسى أبعادها ... ثم عاد يجلس على السرير . لكأنه قد تبدل تبدلاً تاماً : عاد الصراع ... ما يزال هناك اذن مخرج . « نعم ، هذا مخرج يظهر أخيراً ! » . حقاً لقد كان راسكولنيكوف حتى ذلك الحين محصوراً ، مخنوقاً ، كأن قدراً قد جثم عليه منذ المشهد الأخير مع نيقولا عند بورفير ، حتى ان مشهداً آخر قد وقع غداة ذلك المشهد الأول نفسه ، وقع عند صونيا ولم ينته ، لم ينتـه البتـة ، كما لعله تخيَّل . ولقد ظهر ضعف راسكولنيكوف فانهار انهياراً تاماً ، دفعةً واحدة . ألم يعترف عندئذ ، مع صونيا ، من أعماق قلبه ، أنه أصبح لا يستطيع أن يحيا حاملاً وحده عبئاً كهذا العبء ؟... وسفدريجايلوف ؟ ان سفدريجايلوف لغز . ان سفدريجايلوف يقلقه أيضاً ، رغم أنه يقلقه من وجهة نظر أخرى تماماً . لعل هناك صراعاً لا بد من خوضه مع سفدريجايلوف يمكن أن يكون مخرجاً كذلك ؟ ولكن بورفير ؟ ذلك شيء آخر !...

« ها ... هكذا اذن ... بورفير نفسه هو الذى شرح لرازوميخين

اذن كل شيء ! شرح له كل شيء شرحاً « سيكولوجيا » • انه لا يتخلى عن هذه السيكولوجيا اللعينة التي يتسلح بها !•• ولكن كيف أمكنه ، هو بورفير ، أن يصدّق ، ولو دقيقةً واحدة ، أن نيقولا هو الجاني ، بعد المشهد الذي قام بيننا قبل وصول نيقولا هذا نفسه ، وهو مشهد لا يمكن أن يكون له الا تفسير واحد ؟ » •

كانت ذكرى هذا المشهد الذي وقع بينه وبين بورفير قد عاودته مراراً كثيرة في هذه الأيام الأخيرة ، ولكنها كانت تعاوده نتفاً صغيرة ، فلو رآها كاملةً في جملتها لما استطاع أن يحتملها •

« ان ما قام بينا من أحاديث ، وما جرى من حركات واشارات ، وما تبادلناه من نظرات ، وما قلناه من أشياء بلهجة معينة ، ان ذلك كله قد تمّ على نحو لا يمكن معه أن يكون نيقولا (الذي كشف بورفير عن حقيقته منذ تصريحاته الأولى على كل حال) هو الذي استطاع أن يردّه عن اقتناعه • أضف الى ذلك أن رازوميخين قد أخذت تراوده الشكوك والشبهات ••• معنى ذلك أن مشهد الدهليز تحت المصباح لم يفته تماماً ! وها هو ذا يهرع عندئذ الى منزل بورفير ! ولكن لماذا ضلّله بورفير على ذلك النحو ؟ ماذا كانت غايته من ذلك ؟ ماذا كان هدفه ؟ لا شك في أنه كان له هدف ، ولكن ماذا كان ذلك الهدف ؟ أية مصلحة له في أن يحوّل شبهات رازوميخين نحو نيقولا ؟ لا شك في أنه كانت له مصلحة ، ولكن ماذا كانت تلك المصلحة ؟ ان زماناً طويلاً قد انقضى بعد ذلك الصباح ، زماناً طويلاً مسرفاً في الطول ، لم نعرف خلاله أيّ أنباء عن بورفير • ان ذلك لا ينبيء بخير ••• » •

تناول راسكولنيكوف قبعته ، وخرج من غرفته غارقاً في أفكاره • هذه أول مرة يشعر فيها بأنه في حالة طبيعية ، طوال ذلك الزمان •

وقال يحدث نفســه : « يجب الانتهاء من ســفدريجايلوف ، مهما كلف الأمر ، وبأقصى سرعة ممكنة • أظن أنه ، هو أيضاً ، يتوقع أن أذهب اليه بنفسى » • وفى تلك اللحظة ، انبجس فى قلبه المعذب كره بلغ من القوة أن راسكولنيكوف كان يمكن فى تلك اللحظة أن يقتـل أحد اثنين : سفدريجايلوف أو بورفير • ولقد شعرَ على كل حال بأنه قادر على أن يفعل ذلك ، ان لم يكن فوراً فبعد حين • فكان يردد قائلاً لنفسه : « سوف نرى ، سوف نرى » •

ولكن ما ان اجتاز الباب المفضى الى فسحة السلم حتى اصطدم ببورفير نفسه • كان بورفير يهمُّ أن يدخل عليه • دُهش دهشة شديدة ، ولكن دهشته لم تدم الا لحظة قصـيرة • أمر غريب : انه سرعـان ما رأى أن مجىء بورفير اليه أمر طبيعى لا غرابة فيه ، فلم تثر فيه رؤيته أى خوف تقريباً • ارتعش فى البداية رعشة خفيفة ، لكنه لم يلبث أن عاد يسيطر على نفسه • « لعل هذه هى الخاتمة ؟ ولكن لماذا كان يسير بخطى محاذرة كهـرة ، ولماذا لم أسـمع وقع أقدامه ؟ هل يمكن أن يكون قد تنصَّت على الباب ؟

صاح بورفير يقول له ضاحكاً :

ــ لم تكن تتوقع زيارتى يا روديون رومانوفتش ! لقد كنت انوى أن أجىء اليك منذ مدة طويلة • فلما مررت الآن عرضاً قلت لنفسى : « لماذا لا أصـعد اليه ، فأزوره زيارة قصيرة ، مدة خمس دقائق ؟ هل كنتَ خارجاً ، لا أريد أن أؤخرك عن الخروج • هل لك بسيجارة ؟

قال راسكولنيكوف وهو يقدم لزائره كرسياً ويظهر له من المودة والبشاشة والارتياح ما لو رآه هو نفسه لاستغربه حقاً :

ـ اجلس يا بورفير بتروفتش !

امَّحت مشاعره السابقة دون أن تخلّف وراءها أى ظل • انه ليحدث أن يظل أحد الناس فريسة ذعر رهيب ورعب قاتل أمام مجرم من المجرمين قطاع الطرق ، خلال نصف ساعة ، حتى اذا وضع المجرم سكينه على عنقه تبدد خوفه كله دفعةً واحدة •

جلس راسكولنيكوف قبالة بورفير تماماً ، ونظر اليه محدقاً • فطرفت عين بورفير ، وأشعل سيجارة •

ودَّ راسكولنيكوف من أعماق قلبه لو يصرخ قائلاً : « هيَّا ، تكلم ، تكلم ! ما بالك لا تتكلم ؟ » •

الفصل الثاني

أخير

بدأ بورفير كلامه بعد أن أشعل سيجارة ونفخ من دخانها نَفَساً ، فقال :

ـ تباً للسجائر ، انها سم ، سم حقيقى ، ولكننى لا أستطيع تركها • اننى أسعل ، وأشعر بحكاك فى حلقى ، وألهث ، واختنق • واذ أننى جبان فقد ذهبت منذ أيام وستشير الدكتور ب ••* الذى يظل يفحص المريض مدة نصف ساعة على الأقل • فماذا قال الطبيب ؟ سخر منى فى أول الأمر ثم اخذ يمعن فىّ جساً وتسمعاً وتنصتاً ، ثم قال : « أنت يؤذيك التدخين • رئتان متوسعتان » • كلام جميل ! ولكن كيف يمكننى أن أستغنى عن التدخين؟ وبماذا استعيض عنه ؟ اننى لا أشرب خمراً ، وذلك مصدر البلاء كله • ان مصدر البلاء كله هو أننى لا أشرب خمراً • كل شيء نسبى كما ترى يا روديون رومانوفتش •

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه مشمئزاً : « أتراه يريد أن يستأنف شطارته ؟ » • وعادت الى خياله ذكرى لقائهما الأخير فجاة ، فازدحمت فى قلبه العواطف التى كان قد شعر بها أثناء ذلك اللقاء •

وتابع بورفير بتروفتش حديثه وهو ما يزال يفتش بنظراته الغرفة:

ـ ثم اننى قد سبق أن جئت اليك مساء أمس الأول • كيف ؟ أكنت لا تعرف ذلك ؟ نعم ، جئت الى غرفتك ، الى هنا • فكما حدث لى اليوم ،

كنت ماراً أمام المنزل ، فقلت لنفسي : « ماذا لو زرته زيارة قصيرة ؟ » ثم صعدت ، فرأيت الباب مفتوحاً على سعته كلها . ونظرت ، وانتظرت برهة ، ثم انصرفت دون أن أترك للخادمة اسمي . ألست تغلق بابك بالمفتاح أبداً ؟

اكفهر وجه راسكولنيكوف مزيداً من الاكفهرار . وبدا على بورفير أنه حزر ما يجول في فكره . وتابع كلامه فقال :

ـ أنا انما جئت لأبرر لك سلوكي يا عزيزي روديون رومانوفتش، لأبرر لك سلوكي ! نعم ، ينبغي لى أن أبرر لك سلوكي وأن أعتذر عنه!

وتابع يقول وهو يبتسم ابتسامة خفيفة :

ـ ذلك واجب يقع على عاتقي ، ولا بد لى من الوفاء به .

قال ذلك وهو يضرب ركبة راسكولنيكوف بيده ضربة تعبّر عن الألفة والمودة . ولكنه اتخذ هيئة الجد والهم فى تلك اللحظة نفسها تقريباً ، وخالط نظرته شيء من الحزن ، وذلك أمر استغربه راسكولنيكوف كثيراً ، فانه لم يسبق له في يوم من الأيام أن لاحظ أو تصور أن يكون لبورفير بتروفتش وجه كهذا الوجه .

وتابع بورفير كلامه :

ـ لقد وقع بيننا فى المرة الأخيرة مشهد غريب يا روديون رومانوفتش ! صحيح أن مشهداً غريباً قد وقع بيننا فى المرة الأولى أيضاً ، ولكن فى ذلك الوقت ... على كل حال ، لا ضير !. المهم أنك تعدني فى أغلب الظن آثماً جانياً فى حقك . هل تتذكر كيف افترقنا ؟ كانت أعصابك ثائرة جداً وكانت ساقاك تصطكان ... وأنا أيضاً كانت أعصابي ثائرة جداً وكانت ساقاى تصطكان . الخلاصة أن الأمور جرت بيننا على نحو يكاد يوصف بقلة الأدب ، وكانت تعوزه اللباقة والكياسة على الأقل.

ونحن مع ذلك من الناس المهذَّبين (الجنتلمان) ، حتى ليمكن أن أقول اننا من هؤلاء النـاس قبل كل شيء ، وذلك أمر ما ينبغي أن ننسـاه ! تذكر المدى الذى بلغته الأمور ... لقد كان ذلك أمراً غير لائق البتة.. يجب أن نعترف بهذه الحقيقة .

تساءل راسكولنيكوف مدهوشاً وهو يرفع رأسه وينظر الى بورفير محملقاً : « ماذا يريد منى ؟ ماذا يظننى ؟ » .

وتابع بورفير كلامه فقال وهو يحوّل رأسـه ويغض بصره ، كأنه لا يريد أن يدخل الاضطراب الى نفس ضحيته القديمة ، وكأنه يكره أن يستعمل أساليبه العتيقة وشباكه المألوفة :

ـ أرى أن الأصلح لنا بعد الآن أن نعمد الى الصراحة . نعم ، ان امثال تلك الشبهات وتلك المشاهد لن يمكن أن تتكرر . لقد جاء نيقولا منذ أيام فوفّق بيننا ، ولولا ذلك لمضت الأمور الى حدود لا أدرى مداها ! وما قولك فى ذلك البائع الصغير اللعين الذى قبع وراء الحاجز يتنصت ؟ هل تتصور ذلك ؟ لا شك أنك تعرف هذا الأمر التفصيلى ، فأنا أعلم أن الرجل قد جاء بعدئذ اليك أيضاً . غير أن الشبهات والشكوك التى قامت فى نفسك كانت خطأ فى الواقع . فأنا لم استدع أحداً ، ولا اتخذت أى اجراء . تسألنى لماذا لم أتخذ أى اجراء؟ فماذا أقول لك ؟ ان الأمر كله كان قد قلب عقلى رأساً على عقب . كل مافعلته هو أننى استدعيت البوابين (لا شك أنك رأيتهم عابراً) . انفكرة سريعة كالبرق كانت قد ومضت فى ذهنى . ذلك أن اقتناعى يا روديون رومانوفتش كان قد تمّ . وكنت أقول لنفسى : « اذا فاتنى أمر فمن الممكن فى مقابل ذلك أن أقبض على أمر آخر قبضاً كاملاً » . أنت يا روديون رومانوفتش شديد الاهتياج ، بل أنت مفرط فى شدة الاهتياج . تلك سمة من سمات خلقك وقلبك أعتز بأننى أعرفها بعض المعرفة على الأقل . ولقد كنت أدرك طبعـاً أن

المرء لا يرى فى كل يوم شخصاً يأتى فيفضى اليه بما نفسه دفعة واحدة • صحيح أن هذا يحدث ، ولا سيما حين يكون ذلك الشخص مرهقاً مهدود القوى ، ولكن هذه الحالة نادرة • لا ، لم تفتنى هـذه الحقيقـة • لكننى كنت أقول لنفسى : « لسوف يكفينى مع ذلك أن أعرف واقعة صغيرة ، صغيرة الى أبعد حدود الصغر ، صغيرة كل الصغر ، على شرط أن تكون واقعة محسوسة ملموسـة تختلف عن تلك الاستنتاجات السـيكولوجية ! ذلك أنه اذا كان هذا الرجل جانيـاً فلا شك أن فى امكاننا أن ننتظر منه شيئاً محسوساً ملموساً • فمن حقنا اذن أن نأمل فى الحصول على نتائج هى أبعـد ما تكون عن التنبؤ ! » • كنت أعـوّل على طبعك يا روديون رومانوفتش ، على طبعك خاصةً • وكنت أعقد عليك آمالاً كباراً !

تمتم راسـكولنيكوف أخيراً يسـأله حتى دون أن يدرك أنه يلقى سؤالاً :

ــ فلماذا تقول لى هذا الكلام كله الآن ؟

ثم تساءل تائهاً فى ظنون وتخمينات : « عمّ يتكلم ؟ هل يمكن أن يقع فى اعتقاده حقاً أننى برىء ؟ » •

قال بورفير يجيبه عن سؤاله :

ــ لماذا أقول لك هذا الكلام ؟ انا انما جئت لأبرر لك سـلوكى ، لأقوم بواجب مقدس • سوف أبسط لك جميع تفاصيل ما حدث ، أى كل قصة الخـلاف بيننا جمـلةً • انك قد قاسيت بسببى أشـياء كثيرة يا روديون رومانوفتش • ولكنى لست شيطاناً رجيماً ، وانى لأدرك حق الادراك مدى الألم الذى لا بد أن يكون قد أحـدثه هذا كله فى نفس انسان مثلك ، انسان ترهقه الحياة ولكنه شديد الكبرياء ، محب للسيطرة، نافد الصبر ••• نعم ••• لا سيما نافد الصبر ! مهما يكن من أمر ، فأنا

أعدك أعظم انسان ، رغم أننى لا أشاطرك جميع ارائك ، وهذا ما أحرص على أن أقوله لك بصراحة تامة ، دون لف أو دوران ، لأننى يهمنى كثيراً أن لا أخدعك وأن لا أغشّك • اننى ما ان عرفتك حتى شُغفت بك • لعلك ستضحك مما أقوله لك ، ومن حقك أن تضحك • أنا أعلم أنك كرهتنى منذ أول نظرة ألقيتها علىّ ، بدون حق فى الواقع • مهما يكن من أمر ، فاننى أريد الآن بجميع الوسائل أن أمحو الأثر الأول الذى تركته فى نفسك ، وأن أبرهن لك على أننى ، أنا أيضاً ، انسان يفيض وجداناً وعاطفة • أقول لك هذا بصراحة تامة •

توقف بورفير عن الكلام برهةً فى وقار • وشعر راسكولنيكوف بموجة جديدة من الخوف تجتاح نفسه • فهو حين يتصور أن بورفير يظنه الآن بريئاً ، يحس فجأة برعب •

وتابع بورفير كلامه فقال :

ـ ربما لم يكن ثمة داعٍ الى أن أحكى لك كلّ ما جرى ، بالترتيب ؟ حتى اننى أعتقد أن هذا غير مفيد ، وأنا أعتقد على الأقل أننى لن أفلح فى ذلك • فكيف أشرح لك الأمور شرحاً يبرز ظروف المسألة ؟ فى الأصل سرت شائعات • من أين جاءت تلك الشائعات ؟ ماذا كانت تلك الشائعات ؟ من أى ناحية كانت تعنيك ؟ اننى أعتقد أنه لا داعى أيضاً الى أن أذكر لك ذلك • أما أنا شخصياً فان صدفة هى التى نبّهتنى ، صدفة طارئة عارضة كان يمكن أن لا تحدث • ما هى تلك الصدفة ؟ أظن أن الأفضل ، هنا أيضاً ، أن ألزم الصمت • ان ذلك كله (أعنى تلك الشائعات ، وتلك المصادفات) قد ساهمت فى تكوين فكرة فى رأسى • أعترف لك صراحةً ـ وعلى الانسان أن يكون صريحاً كل الصراحة متى كان يعترف ، أليس كذلك ؟ ـ أعترف لك صراحةً بأننى كنت أنا أول

من وضعك موضع الاتهام، ان كتابات العجوز على الأشياء المرهونة وسائر تلك الأمور التى من هذا النوع ، لا قيمة لها البتة وليست تدل على شيء !

وقد أتيح لى أيضاً أن أسمع تفاصيل المشهد الذى وقع فى قسم الشرطة ، وكان هذا أيضاً بفضل مصادفة من المصادفات • والشخص الذى روى لى ذلك المشهد لم يكن أىَّ شخص ، وانما كان شاهداً رئيسياً فهم المشهد كله فهماً ممتازاً ، من جهة أخرى • وكان ذلك كله يشبه بعضه بعضاً ويؤيد بعضه بعضاً يا عزيزى روديون رومانوفتش • فكيف لا تقوم فى ذهنى فكرة ما ، وكيف لا أسير فى اتجاه ما ؟ يقول مثل انجليزى : مائة أرنب لا تصنع حصاناً ، ومائة شبهة لا تصنع برهاناً • هذه هى الحكمة بعينها طبعاً ! ولكن أنى للمرء أن يقاوم الأهواء ! ذلك أن قاضى التحقيق ليس الا انساناً !••• وقد تذكرت أيضاً مقالتك الصغيرة تلك التى كنتَ قد نشرتها فى مجلة ، والتى حدثتنى عنها تفصيلاً حين زرتنى أول مرة • لقد سخرت منك عندئذ ، لكننى فعلت ذلك لأحثك على الادلاء بمزيد من الاعترافات • أعود فأقول انك قليل الصبر شديد الاهتياج يا روديون رومانوفتش • وأنت عدا ذلك كبير الجرأة جامح الاندفاع كثير الجد • لقد شعرتَ أنت بأشياء كثيرة ، نعم شعرت بأشياء كثيرة ••• وكنت أنا أقدّر ذلك منذ مدة طويلة • اننى أعرف جيداً أمثال هذه الاحساسات ، فحين قرأت مقالتك خيِّل الىَّ أننى سبق لى أن قرأتها • لا شك عندى فى أنك فى ليالى أرقٍ وحمى ، فى ليالٍ كان قلبك فيها يخفق خفقاناً قوياً عنيفاً ويزخز بحماسة كان ينبغى لك مع ذلك أن تلجمها ، انما تصورت تلك المقالة ، أليس كذلك ؟ ولكن من الصعب على المرء أن يلجم حماسة الشباب فى نفسه ••• ولئن سخرت من مقالتك عندئذ ، فاننى أستطيع أن أقول لك الآن اننى أحببت كثيراً ، (حبّ هواية والحق يقال) تلك المقالة الأولى النضرة المتأججة التى جرى بها قلمك •

صحيح انها كانت ملأى بدخان ، بضباب ، غير ان وترا كان يهتز فى ذلك الضباب وفى ذلك الدخان . وصحيح أنها كانت ملأى بنزوات خيال وتناقضات منطق ، ولكن المرء يحس فيها نبرة الصدق ! صحيح ان فيها نوعا من صلف لا مسوّغ له ، ومن تهور يائس مستميت ، وصحيح انها قاتمة ، قاتمة جداً ، ولكن ذلك كله حسن ... كنت قد قرات اذن مقالتك ، ثم وضعتها جانباً ؛ لكننى حين وضعتها جانباً قلت لنفسى : « ان رجلاً كهذا الرجل لن يكتفى بهذا » . فقل لى من فضلك : كيف كان يمكننى بعد تلك المقدمات أن لا أندفع الى تلك النتائج ؟ أترانى فى هذه اللحظة أقول شيئاً يمكن أن ... ؟ ... أترانى أؤكد شيئاً ؟... اننى لم أزد حينذاك على أن سجّلت ملاحظات . ما الذى كان يضمه ذلك كله ؟ لا شىء ، لا شىء البتة ، ربما لا شىء قطعاً ! معنى هذا أننى لا أستطيع أن أتباهى باندفاعاتى وحماساتى تلك ! وهذا نيقولا على ذراعىَّ ، وهذه وقائع ملموسة تتناوله ... انها وقائع رغم كل شىء ، هى وقائع شئت أم أبيت ! وعندئذ كان لا بد لى من العودة الى السيكولوجيا . ذلك اننى لا بد لى من الاهتمام به . ان القضية بالنسبة اليه قضية حياة أو موت ، أليس كذلك ؟ ربما سألتنى لماذا أشرح لك هذا كله ؟ فاعلم اذن اننى انما أشرحه لك من أجل أن تعرف حقيقة الأمر ، ومن أجل أن تبرئنى فى قرارة نفسك وضميرك فما تحكم علىّ أو تديننى اذ تتذكر ما بدر منى فى ذلك اليوم من خبث وشر . هذا عدا أن ما بدر منى لم يكن خبثاً أو شراً ، أؤكد لك ذلك . هىء هىء هىء !... وأنت تقول لنفسك . « لماذا لم يجىء الى مسكنى يفتشه حينذاك ؟ » ، فاعلم أننى جئت ! هىء هىء !... جئت بينما كنت أنت مريضاً راقداً . ولم أجىء بصفة رسمية ، ولكنى جئت . وفُتّش بيتك تفتيشاً دقيقاً لم تنج منه أخفى زواياه وأركانه . حدث هذا منذ أولى الشبهات ... ولكن « دون

جدوى » * عندئذ قلت لنفسي : « الآن ، سيجيء هذا الرجل ، سيجيء من تلقاء نفسه ، وسيجيء في وقت قريب جداً . اذا كان هو الجاني فلا يمكن أن يجيء . لو كان الجاني شخصاً آخر غيره ، فان ذلك الشخص الآخر قد لا يجيء ، أما هو فلا بد أن يجيء اذا كان جانياً» . هل تتذكر كيف أخذ السيد رازوميخين يطلعك على الأمر ؟ نحن الذين دبَّرنا هذا لنبث في نفسك الاضطراب ، ونحن الذين رتبنا الأمور ترتيباً يجعل رازوميخين عاجزاً عن كظم غضبه وكبت استيائه . ذلك أن السيد رازوميخين واحد من أولئك الناس الذين لايستطيعون أن يكتموا غيظهم. أما زاميوتوف فان الشيء الذي فجأة خاصة انما هو غضبك وتهورك . عجيب أمرك : كيف يستطيع انسان أن يعول قائلاً في حانة على حين فجاة : « لقد قتلت ! » ؟ حقاً ان في ذلك لاسرافاً . هذا تهور غريب !... وعندئذ قلت لنفسي : « اذا كان مثل هذا الرجل جانياً فلا بد أن يكون خصماً صعب المراس على كل حال » . نعم ، ذلك ما قلته لنفسي حينذاك. وانتظرت . انتظرتك بكل ما أملك من قوى ، بينما أنت قد جندلت ذلك المسكين زاميوتوف ... والمصيبة كلها انما هي السيكولوجيا اللعينة ذات الحدين . كنت اذن أنتظرك ، فأرسلك الله الي في ذات يوم ! لقد جئت! لشد ما خفق قلبي في ذلك اليوم ؟ ما كانت حاجتك الى المجيء ؟ وذلك الضحك المجلجل الذي كنت تطلقه حين دخلت ، هل تتذكره ؟

ذلك كله كان في نظري واضحاً وضوح الماء النابع من الصخر . لقد حزرتُ كل شيء ! ولكن لولا أنني انتظرتك وأنا في حالة نفسية خاصة ، لما كان لضحكك في نظري عندئذ أي دلالة . فانظر الى قيمة أن يتوقع المرء شيئاً ! والسيد رازوميخين ، في ذلك اليوم ... آ ... والصخرة التي خُبِّئت تحتها الأشياء ! يخيَّل الي أنني أرى تلك الصخرة ، أراها في مكان ما ، في بستان من البساتين ... أليس عن

بستان انما تحدثت الى زاميوتوف أولاً ، وعندى بعد ذلك ؟ وحين اخذنا نحلل مقالتك ، حين قمت انت بعرض ما تضمنه تلك المقالة من اراء ، فان كل قول من أقوالك كان له معنى مزدوج : فوراء كل قول من تلك الأقوال كان يختبىء فى نظرى معنى مضمر • نعم ، يارودیون رومانوفتش ، بهذه الطريقة انما وصلت الى تلك النقطة القصوى ، ولكننى حين وصلت الى تلك النقطة القصوى فاصطدم بها رأسى ، كان لا بد أن أثوب الى رشدى • قلت لنفسى : « الى أين أنا ذاهب ؟ » • ذلك أننا نستطيع ، اذا نحن شئنا ، أن نفسّر جميع تلك الأشياء تفسيراً مخالفاً لهذا التفسير كل المخالفة ، بل مناقضاً له تمام المناقضة ، ولعل التفسير الجديد أن يكون أقرب الى الاحتمال • نعم ، قد يكون أقرب الى الاحتمال ، اننى أعترف بذلك • لشد ما تعذبت ! قلت لنفسى : « لا ، لا ، ان أية واقعة تفصيلية صغيرة تنفعنى أكثر مما تنفعنى هذه الاستنتاجات كلها ! » • لذلك حين سمعت عن تلك القصة ، قصة جرس الباب ، رأيتُنى أوشك أن أسقط ، وسرت فى جسمى رعشة • آ ••• هأناذا أقع أخيراً على الواقعة التفصيلية المنشودة ! لم يبق الآن شك فى أنه هو الجانى • ولم أحاول عندئذ أن أُعمل عقلى وأن أفكّر • كنت لا أرغب فى ذلك أية رغبة • وكنت مستعداً لأن أُدفع فى تلك اللحظة ألف روبل فى سبيل أن أُراك «بعينىّ» تسير مائة خطوة ، جنباً الى جنب ، مع ذلك البائع الصغير الذى قذف وجهك بذلك اللقب ، لقب القاتل ، فلم تجرؤ طوال تلك الخطوات المائة أن تسأله عن أى شيء ! وتلك الرعدات التى كانت تسرى فى ظهرك ، وذلك الجرس الذى كنت تتكلم عنه أثناء هذيانك ؟ فلماذا تستغرب منى بعد هذا ، يا روديون رومانوفتش ، أننى لجأت الى تلك الطريقة التى تعرفها ؟ ثم لماذا جئتَ الىّ فى ذلك الأوان نفسه ؟ يميناً ان هناك شيئاً كان يدفعك المجىء الىّ دفعاً ••• ولولا أن نيقولا قد قطع حديثنا •••

هل تتذكر وصول نيقولا ؟ آه ••• كان ذلك أشبه برعد مفاجىء ! نعم ، كأن الصاعقة قد نزلت عنـد قدمى • ولكن كيف استقبلت أنا ذلك ؟ لم يهزنى الرعد ••• لم تهزنى الصاعقة ••• لا بد أنك لاحظت ذلك • وبعد انصرافك ، حين أخذ يجيب عن أسئلتى حـول عـدد من النقاط اجابات محكمة متوافقة تبلغ من الاحكام والتوافق أنها أدهشتنى حقـاً ، لم أشأ أن أصدّق أقواله حينذاك • انظر الى مدى تأثير الفكرة التى تقوم فى الذهن وتستقر فيه راسخة ! قلت لنفسى : « لا ، لا ، الى صباح غد ! * ان نيقولا لا شأن له فى هذا الأمر كله ! » •

قال راسكولنيكوف :

ـ قال لى رازوميخين منذ قليل ان اتهامك ينصب الآن على نيقولا ، وانك اقنعت رازوميخين بأن •••

ولكن راسـكولنيكوف لم يستطع أن يتم كلامه ، فان انفاسـه قد اختنقت • كان يشعر بانفعال شديد واضطراب لا يغالَب ، أثناء اصغائه الى حديث هذا الرجل الذى ينفذ الى سريرته • وكان يخاف أن يصدّق ما كان يقوله له هـذا الرجل ، بل كان يرفض أن يصـدقه ، ويحـاول بشراهة قوية ونهم شديد أن يدرك فى كلماته معانى محدّدة دقيقة •

وكأنما أفرح بورفير بتروفتش أن يرى راسـكولنيكوف يلقى عليه سؤالاً بعد أن ظل صامتاً طوال ذلك الوقت ، فصاح يقول :

ـ السيد رازوميخين ! هيء هيء !•• ذلك أن المسـألة كانت هى التخلص من رازوميخين : حيثما يتسع المكان لاثنين ، يكن الثالث زائداً ! رازوميخين شيء آخـر ، هو غريب عن هذا كله ! ثم انه قد جـاء الىّ شاحب الوجه شحوباً ••• ولكن دع السيد رازوميخين جانباً الآن ، كان الله معه ! أما عن نيقولا فهل يهمك أن تعرف أى نوع من الناس هو ،

أو كيف أتصوره أنا على الأقل ؟ هو قبل كل شيء طفـل ٠ انه لمَّا يبلغ سن الرشد ٠ ولست آدعي أنه خوّاف جبان على وجه الدقة ، ولكن فى وسعي أن أشبهه ٠٠٠ بفنان ! هو ساذج ٠ أي شيء يؤثر فيه ٠ له قلب رقيق ، وله خيال أيضاً ٠ ولقد تعلم في المدرسـة ٠ وهو يحسن الغنـاء والرقص ٠ ويظهر أنه يجيد رواية قصص يسعى النـاس اليه من بعيد ليسمعوها ٠ وهو يضحك في كل مناسـبة ، ويظل يشرب حتى يسـقط كالميت من فرط السكر ٠ ولكنه لا يشرب لأنه ميال الى السكر ، وانما هو يشرب ليفعل كما يفعل الآخرون الذين يغررون به كما يغررون بطفل، فهم لا يبرحون يصبون له خمراً ! لقد سرق منذ مدة ، ولكنه لم يدرك أنه سرق ٠ قال في تفسير فعله : « تنـاولت ما كان ملقى على الأرض ، فأنا اذن لم أسرق »٠ هل تعرف معنى « راسكولنيك » ؟ ان نيقولا فتى من هذا القبيل ٠ على كل حال ، كان عدد من أفراد أسرته قد انتسوا الى ملة « الجوّالين » ؛ وهو نفسه كان منذ زمن قصير خاضعاً لسلطان شيخ من المشايخ النسّاك في الأقاليم مدة سـنتين ٠ ذلك كله قد عرفته من نيقولا نفسه ومن أهل بلدته زارايسك ٠ أكثر من ذلك أنه كان يريد أن يفرّ الى الصحراء مصراً اصراراً شديداً ٠ لقد كان متحمساً للتقى حماسـةً لا تصدّق ، فكان يقضي لياليه مصليـاً متهجداً ، ويقرأ الكتب المقدسـة ويعيد قراءتها ٠٠٠ الكتب القديمة ٠٠٠ الكتب الحقيقية ! ٠٠٠ ثم أحدثت فيه بطرسبرج تأثيراً رهيباً ٠ أصبح يحب الجنس الضعيف ، بل وأصبح يحب الخمرة بعض الحب أيضاً ٠ واذ أنه شديد التأثر بالبيئة التي تحيط به ، فسرعان ما نسي شيخه ٠ وأنا أعلم أن فنـاناً رسّاماً قد أخـذ يهتم به ، ويعطيه دروساً ٠ ولكن في تلك الآونة ، وقع ذلك الحادث المؤسف٠ استولى الخوف على الفتى في أول الأمر ، فأراد أن يشنق نفسـه أو أن يهرب ٠ ما حيلتنا اذا كان الشعب قد كوّن لنفسه مثل هذه الأفكار عن

قضائنا ؟ ان كلمه « المحكمة » وحدها ترهب وتلقى الذعر فى النفوس .
ذنب من هذا ؟ آمل أن تستطيع المحاكم الجديدة ردّ الامور الى نصابها .
نعم ، أسأل الله أن ... على كل حال ، فقد و ضع نيقولا فى السجن .
ولا شك أن ذكرى شيخه المحترم المقدس قد عادت الى خيـاله هنـاك ،
ولا شك أن التوراة رجعت تفعل فعلها فى نفسه ! هل تعرف يا روديون
رومانوفتش مدى ما لفكرة « الألم » من تأثير فى بعض الناس ؟ ان هناك
أناساً يحبون أن يتألموا لا فى سبيل شخص من الأشخاص فحسب ، وانما
هم يحبـون أن يتألموا وكفى ، لأن على المرء أن يتـألم ، وأن يقبل الألم
ويرتضيه ، لا سيما حين تفرض هذا الألمَ سلطات . لقد عرفتُ فى الماضى
سجيناً موادعاً مسالماً الى أبعد الحدود ، لبث فى السجن سنةً بكاملها يتربع
فوق المدفأة ليقرأ التوراة فى كل ليلة من الليالى ، حتى بلغ من ذلك أنه
فى ذات يوم من الأيام خلع آجرة على حين فجأة بغير سبب فرمى بها مدير
السجن دون أن يكون مدير السجن قد استفزّه أيّ استفزاز . ولكن
كيف رمى السجين آجرته ؟ لقد رماها بحيث تسـقط بعيـدة عن هدفها
مسافة متر على الأقل ، فلا تستطيع أن تجرح الشخص الذى كان يجب
أن تتجه اليه . وأنت تتخيل ما يحدث لسجين يستعمل العنف مع مدير
السجن ! لقد ارتضى الرجل أن « يتحمل الألم » ! لذلك أرانى أميل الى
الاعتقاد بأن نيقولا يستهدف شيئاً من هذا النوع ! بل اننى من ذلك لعلى
يقين . يكفى أن ندقق فى الوقائع ! ولكن نيقولا لا يعرف أننى أعرف.
ماذا ؟ أتراك لا تصدق أن من الممكن أن يخرج من شعب كشعبنا أفراد
خارقون الى هذه الدرجة ؟ أؤكد لك مع ذلك أن أمثـال هؤلاء الأفراد
كثيرون . ان تأثير الشيخ فى نيقـولا قد عاد يظهر الآن من جـديد ،
لا سيما فى اللحظات التى يتذكر فيها أنه أراد أن يشنق نفسه . على كل
حال ، سيجيء فيقص علىّ كل شيء هو نفسه ! هل تظن أنه سيصر على

أقـواله ؟ لترينّ أنه متـراجع عنهـا ! نعم ، انني انتظر ، من لحظة الى أخـرى ، أن يتراجع عن اعترافاته الأولى • لقـد أخـذتني بنيقولا هذا عاطفة ، فعكفت على التعمق في دراسته • لقد اسـتطاع في بعض النقاط أن يضفي على أقواله مظهر المعقولية • واضح أنه كان قد فكر فيالأمر• ولكنه في نقاط أخرى كان يتناقض • انه لا يعرف شيئاً البتة ، بل ولا يدرك أنه لا يعرف !••• لا يا روديون رومانوفتش ، ليس نيقولا هو الجاني ! نحن ازاء قضية غامضة عجيبة كالخيال • ان هذه الجريمة تحمل طابع الزمان الذى نعيش فيه ، انها تحمل طابع عصرٍ اضطرب فيه القلب الانسانى ، عصرٍ يقول فيه بعضهم ، مستشهداً بأقوال كتاب ومؤلفين ، ان الدم « يطهِّر » ، عصرٍ لا شأن فيه ولا وزن فيه لغير البحث عن الدعة والسعي الى الرخاء • نحن ازاء حلم يطوف برأس شاب أسكرته الأوهام والأخيلة ، وسمَّمته الآراء والنظريات ! ان الجـانى قد استجمع للقيـام بتجربته قدراً كبيراً من الجسارة ، ولكن جسارته هذه ذات طابع خاص، حتى لكأنه جاء يرتكب الجريمة لا سائراً على ساقيه • لقد نسي أن يغلق الباب وراءه ، ولكنه قتل ، قتل شخصين ، انقياداً لنظريته • وقد قتل ، لكنه لم يعرف كيف يستولى على المال ؟ وما استطاع أن يحمله معه ، انما مضى بعد ذلك يدفنـه تحت صخرة • ولم يكتف بأنواع القلق والخوف التي كان قد عاناها في حجـرة المدخل بينما كان يسـمع قرعاً قوياً على الباب ، وبينما كان الجرس يرن بل تذكر ذلك الجرس بعد ذلك وهو في حالة تشبه الهذيان ، فرجع الى البيت الخالى ليشـعر مرة أخـرى بتلك الرعدة الباردة نفسها التي سرت بين كتفيه أول مرة ••• لنسلِّم بان ذلك نتيجة من نتائج المرض ، غير أن هناك شيئاً آخر : لقد قتل ، ولكنه يعتقد أنه انسان شريف ، وهو يحتقر الناس ، ويصطنع دور ملاك من الملائكة!

لا يا روديون رومانوفتش ، ليس نيقولا هو الجانى ، لا يا عزيزى ، ليس هو نيقولا أبداً !

تمتم راسكولنيكوف يسأل بصوت مختنق وقد نفدت قدرته على الاحتمال :

ـ من ... الذى ... قتل ... اذن ؟..

فارتد بطرس بتروفتش الى وراء مستنداً على ظهر كرسيه كأن هذا السؤال قد أذهله ، وقال متظاهراً بأنه لا يصدق أذنيه :

ـ من قتل ؟ سؤال عجيب ... الذى قتل هو « أنت » يا روديون رومانوفتش ...

ثم كرر يقول بما يشبه الهمس ، ولكن لهجته لهجة المقتنع كل الاقتناع :

ـ أنت الذى قتلت !

نهض راسكولنيكوف عن الديوان واثباً ، ولبث واقفاً بضع ثوان ، ثم عاد يجلس دون أن يقول كلمة واحدة . وطافت بوجهه حركات تشنجية .

دمدم بورفير بتروفتش يقول بنوع من العطف :

ـ ها هى ذى شفتك ترتجف كما ارتجفت فى المرة السابقة .

ثم أضاف بعد صمت قصير :

ـ أحسب أنك لم تفهمنى جيداً يا روديون رومانوفتش ، وذلك هو السبب فى أنك مدهوش الى هذه الدرجة من الدهشة . أنا انما جئت اليك لأقول لك كل شىء ، ولأوضح الأمور توضيحاً كاملاً .

ثالثاً راسكولنيكوف يقول كطفل ضُبط متلبساً بالجرم :

ـ ما أنا الذى قتل !

فأجابه بورفير بلهجة رصينة فيها اقتناع :

ـ بل أنت الذى قتلت !

وسكت الاثنان • وأعقب ذلك صمت ، صمت غريب طويل ، دام عشر دقائق على الأقل • كان راسكولنيكوف قد وضع كوعيه على المائدة ، وأخذ يعثر شعره بأصابعه • وقد ظل بورفير بتروفتش جالساً ، هادئاً ، ينتظر • وفجأة نظر اليه راسكولنيكوف باحتقار •

قال راسكولنيكوف :

ـ تستأنف أساليبك يا بورفير بتروفتش ؟ أتظل تستعمل أساليبك الأبدية هذه ؟ ألا تشعر بملل وسأم من هذا آخر الأمر ؟

أجابه بورفير :

ـ أوه ! لست الآن فى حاجة كبيرة الى أساليب ! لو كان ههنا شهود ، لاختلف الأمر طبعاً ، ولكننا نتحادث على انفراد فى خلوة ! أنت نفسك ترى أننى لم أجىء اليك لأنصب لك شباكاً واصطادك كأرنب ! انه ليستوى عندى الآن أن تعترف وأن لا تعترف ! فاقتناعى قائم على كل حال !

سأله راسكولنيكوف غاضباً :

ـ فلماذا جئت اذا كان الأمر كذلك ؟ اننى أطرح عليك هذا السؤال من جديد : اذا كنت ترى أننى أنا الجانى ، فلماذا لا تسجننى ؟

ـ هذا سؤال معقول فعلاً ، وسوف أجيبك عنه نقطة نقطة ، فأقول أولاً : انه ليس من مصلحتي أن أعتقلك منذ الآن ...

ـ كيف لا يكون هذا في مصلحتك ؟ اذا كنت مقتنعاً فيجب عليك أن ...

ـ ما قيمة اقتناعي ؟ انه لا يقوم حتى الآن الا على افتراضاتي . ثم فيم أضعك هنالك « فترتاح » ؟ لو سجنتك لأرحتك . انك تعرف الجواب ما دمت قد ألقيت السؤال . ولنفرض مثلاً أنني واجهتك بالبائع الصغير فقلت له : « أتراك ما تزال سكران ؟ من ذا الذي رآني معك ؟ أنا لم أزد على أن عددتك سكيراً لأنك كنت سكران ! » ، فبماذا يمكنني عندئذ أن أعترض ؟ لا سيما وأن روايتك ستكون أقرب الى العقل من روايته هو ، لأن أقواله لن تكون قائمة الا على السيكولوجيا وستكون أنت قد ضربت على وتر حساس لأن هذا الأبله سكير مدمن حقاً ، فما من أحد يجهل ذلك . ومن جهة أخرى ، ألم أعترف لك أنا نفسي ، مراراً ، بأن هذه السيكولوجيا ذات حدين ، وبأن الحد الثاني أهم من الحد الأول شأناً وأبلغ خطراً . هذا عدا أنني لا أملك حتى الآن أي دليل وضعي عليك . طبعاً ، سآمر باعتقالك ؛ ورغم انني ، على خلاف السنن والأصول ، أعلن لك ذلك ، فانني على خلاف السنن والأصول أيضاً ، أصرح لك بأن اعتقالك ليس في مصلحتي . ذلك أولاً ، وأما ثانياً ، فانني قد جئت من أجل أن ...

ـ من أجل ماذا ، ثانياً ؟

كان راسكولنيكوف يلهث . فأجابه بورفير :

ـ سبق أن قلت لك ! لقد جئت اليك من أجل أن أبرر سلوكي وأعتذر عنه ! ذلك حق لك علي . لا أريد أن تعدني شيطاناً رجيماً ،

لا سيما وأننى أضمر لك عاطفة طيبة صادقة ، صدّقتَ أم لم تصدق ! ينتج عن ذلك ـ وهذه هى النقطة الثالثة ـ اننى جئت اليك لأقترح عليك اقتراحاً صريحاً بدون أية فكرة مبيتة : اننى أشجعك على أن تفقأ هذه الدمّل ، فتمضى تعترف بأنك أنت الجانى . ذلك أنفع لك ، واجدى عليك ، وهو أنفع لى أنا أيضاً ، لأنه يخلصنى من هذا العبء ! ما قولك ؟ أليس هذا الاقتراح صراحةً منى ؟

فكّر راسكولنيكوف دقيقة ، ثم قال :

ـ اسمع يا بورفير بتروفتش . لقد قلت أنت نفسك ان كل ما تملكه من قرائن ضدّى لا يعدو أن يكون استنتاجاً سيكولوجياً ، وأنت مع ذلك تتوق الى دليل رياضى . فما الذى يضمن لك أنك لست على خطأ ؟

ـ لا يا روديون رومانوفتش ، لست على خطأ . أنا أملك الآن دليلاً ، دليلاً اهتديت اليه منذ مدة . ان الله هو الذى أرسل الىّ هذا الدليل .

ـ أى دليل ؟

ـ لن أقوله لك يا روديون رومانوفتش . ثم اننى أصبحت لا أملك حق التأجيل ، فسوف أعتقلك ، ولكن احكم على الأمر بنفسك : أنا الآن لا يهمنى القرار الذى قد تتخذه ، ومعنى هذا اننى انما أكلمك فى سبيل مصلحتك وحدها . شهد الله يا روديون رومانوفتش أن ذهابك الى السلطات للاعتراف بفعلتك خير لك .

ضحك راسكولنيكوف ساخراً ، ثم قال :

ـ كلامك ليس مضحكاً فحسب ، بل هو أحمق أيضاً . هبنى أنا

الجانى (وذلك ما لا أعلنه قط) ففيم أمضى أشى بنفسى لكم وقد قلت لى أنت نفسك ان الاقامة هناك فى السجن هى « الراحة » ؟

ـ يا روديون رومانوفتش ، لا تسرف فى فهم ما أقـوله لك فهماً حرفياً . من الجائز جداً أن لا تكون هى « الراحة » تماماً ! وما هذا الا نظرية خاصة بى ، وهل أنا فى نظرك حجة ؟... ولعلنى أنا نفسى أخفى عنك فى هذه اللحظة شيئاً ما . انك لا تستطيع أن تطمع فى أن تتلقى منى جميع مسارّاتى وأن تستعملها على هواك ! أما النقطة الثـانية ، أعنى الفوائد التى ستجنيها من الاعتراف ، فهى واضحة وضوحاً تاماً فيما أظن. فكِّر فى تخفيف العقوبة التى يمكن أن تناله ، فكِّر فى هذا التخفيف وحده ! « مع أن شخصاً آخر قد نسب الى نفسه جريمة القتل ، وبلبل القضـية كلها ... » . على كل حال ، فان لك علىّ عهداً أمام الله أننى سوف أعرف كيف ألف وأدور وأحتال على الأمر بحيث تخرج منه على خير وجه ، حتى دون أن يخطر ببالك ذلك . سوف نخرِّب كل ذلك الصرح السـيكولوجى ، سوف أبدِّد جميع الشـبهات التى قامت ضدّك بحيث تبدو جريمتك نوعاً من الانقياد والغواية ، وهى فى الحق كذلك . أنا رجل شريف يا روديون رومانوفتش ،.وسأحقق وعدى وأفى بعهدى.

خفض راسكولنيكوف رأسـه . وبعد صمت طويل ، ابتسـم من جديد ، ولكن ابتسامته كانت فى هذه المرة رقيقة أسيانة .

قال كمن أصبح لا يحاول أن يخفى شيئاً أمام بورفير :

ـ لست فى حاجة الى تسامحكم !

فهتف بورفير يقول مندفعاً كأنما على غير علمٍ منه :

ـ ذلك بعينه هو ما كنت أخشـاه ! نعم ، أنا انمـا كنت أخشى أن لا تكون فى حاجة الى تسامحنا !

فألقى عليه راسكولنيكوف نظرة حزينة نافذة مؤثرة ؛ وتابع بورفير كلامه فقال :

ـ لا تحتقر الحياة هذا الاحتقار ! ان الحياة ما تزال طويلة أمامك. كيف لا تحتاج الى التسامح ؟ كيف لا تحتاج الى التسامح ؟ الا انك لصعب المراس حقاً !

ـ ما عسى يكون أمامى بعد الآن ؟

ـ أمامك الحياة ! أأنت نبى ؟ ما أدراك ؟ ابحث تجد ! لعل الله ينتظرك هناك . ولن يكون السجن أبدياً !

قال راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

ـ سوف يخففون عقوبتى !

ـ لعل خجلاً بورجوازياً هو الذى يمنعك ، على غير علم منك ، من أن تعترف بأنك أنت الفاعل ؛ ولكن عليك أن ترتفع فوق هذا .

دمدم الفتى يقول بلهجة احتقار :

ـ لست أبالى بهذا كله !

ثم بدا عليه أنه يهمُّ أن ينهض ، ولكنه عاد يجلس ، وهو ينوء تحت عبء ألمٍ كبير لا يستطيع اخفاءه ! قال بورفير :

ـ لست تبالى ؟ انك انسان كثير الشك والارتياب ، فأنت تظن أننى أحاول أن أتملقك تملقاً فظاً ؟ ولكن هل أنت خبرت الحياة هذه الخبرة الواسعة العميقة كلها ؟ أأنت تفهم هذا القدر كله من شئون الحياة ؟ لقد تخيّل نظرية وهو يستحى أن يراها تخفق وتسقط ، أو أن يلاحظ على الأقل أن ما خرج منها وترتب عليها ليس فيه كثير من جدة وأصالة ؟

ألا ان ما خرج من نظريتك لهو أقرب الى السوء فعلاً ! ولكنك لست امرءاً سافلاً ضاع الى الأبد ! انت لست ذلك السافل ، لا ! ولكنك تطرفت فمضيت الى الحد الاقصى على كل حال ! هل تعرف ماذا اعدّك ؟ أنا أعدُّك واحداً من أولئك الناس الذين يؤثرون أن تثخنهم الجراح على أن يتحملوا الهوان ، والذين يمكن أن ينظروا الى جلاّديهم مبتسمين اذا كانوا قد اهتدوا الى ايمان أو اله ! فاهتد الى ايمان واله فتحيا ! انت أولاً في حاجة الى تبديل الهواء منذ زمن طويل . ان الألم شيء حسن هو أيضاً . فعليك بالألم ! تألم ! من يدرينا أن نيقولا ليس على حق اذ هو ينشد الألم ويبحث عنه ويسعى اليه ؟ انك ريبي — أنا أعرف ذلك — ولكن لا تحاول أن تسرف في التحليل ، بل استسلم لتيار الحياة دون تفكير ، ودع عنك القلق ، فاذا بتيار الحياة يضعك على الشاطىء ، فتقف على قدميك . لا أدري ما هو الشاطىء الذي سيوصلك اليه التيار ، ولكنني مقتنع بأن أمامك حياة طويلة ستحياها . أنا أعرف أنك تعد أقوالي هذه خطبة محفوظة على ظهر القلب ، ولكن لعل هذه الأقوال ستنفعك حين ستتذكرها في المستقبل ، وذلك أيضاً سبب من الأسباب التي تحضني على مخاطبتك . من حسن الحظ على كل حال أنك لم تقتل الا عجوزاً شمطاء شريرة . فلو أنك وضعت نظرية أخرى لكان يمكن أن ترتكب عملاً أسوأ من هذا مائة مليون مرة . لذلك ربما كان عليك أن تحمد الله وأن تشكره ! وربما كان الله ، على كل حال ، يدّخرك لشيء ما ، من يدريك ! فارتفع بقلبك ، وارتق بعواطفك ، ولا تكن صغيراً جباناً ! هل العمل العظيم الذي يجب القيام به هو الذي يخيفك حقاً ! لا ، لا ! عارٌ أن تخاف من هذا ! لقد خطوت ، فحذار أن تتراجع ! لا تعدو المسألة هنا أن تكون مسألة عدل . فافعل ما يوجبه العدل . أنا أعلم أنك لا تصدّقني ، ولكن شهد الله أن الحياة هي التي

ستنتصر ، وأنك سوف تعود تحب الحياة أنت نفسك بعد ذلك . اما الآن فأنت لست في حاجة الا الى هواء ، الا الى هواء !...

سرت في جسم راسكولنيكوف رعدة . وهتف يقول :

ـ ولكن من أنت ، من أنت حتى تتخذ هذه الأوضاع التي هي أوضاع نبي ! من علياء أية ذرى هادئة تلقي الىّ بهذه المواعظ والحكم والعبر المزعومة ؟

ـ من أنا ؟ أنا انسان محدود ، لا أكثر من ذلك . انسان لعله حساس ولعله قادر على أن يتعاطف مع الآخرين ، ولعله يعرف بعض الأشياء ، ولكن ذلك كله لا يمنع أنه محدود . أما أنت فشأنك شأن آخر : ان الله قد هيأك لحياة حقة (ولكن من يدري ؟ لعل ذلك أن لا يكون الا ناراً كنار الهشيم ما تلبث أن تنطفيء !) فما خوفك من التغير الذي سيطرأ على حياتك ؟ هل يأسف على حياة الدعة والرخاء انسان له قلب كقلبك ؟ ماذا ؟ هل يضجرك كثيراً أن تظل مدة طويلة لا يراك أحد ؟ ان الأمر ليس مرهوناً بالزمان ، بل هو مرهون بك . كن شمساً فيراك جميع الناس . ليس على الشمس الا أن توجد ، الا أن تكون عين ذاتها ! ما الذي يجعلك تبتسم ؟ هل الذي يحملك على الابتسام أنك تجدني شاعراً ؟ يميناً انك لتظن أنني أمكر وأراوغ وأنني أريد استدراج ثقتك ! وربما كنتَ على حق ، هيء هيء ! أنا لا أسألك أن تصدق كلامي يا روديون رومانوفتش ! ولعلك تحسن صنعاً اذا أنت لم تصدق كلامي تصديقاً كاملاً في يوم من الأيام . ان من عادتي أن لا أكون صادقاً صدقاً تاماً ، أعترفُ بهذا ! ومع ذلك ، اليك ما أُريد أن أُضيفه : سوف تُريك الأحداث أأنا انسان شرير أم أنا انسان مستقيم شريف .

ـ في نيتك أن تعتقلني متى ؟

ـ أستطيع أن أدعك طليقاً مدة يوم آخـر أو يومين آخرين • ففكِّر يا صديقى ، وادع الله • هذا من مصلحتك • أقسم لك على انه من مصلحتك •••

سأله راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامةً غريبة :

ـ فماذا لو هربت ؟

ـ ، لن تهرب ! قد يهرب فلاح ، وقد يهرب واحـد من اشـياع النظريات الرائجـة فى هذا الزمان ، لأنه امرؤ يمكن آن يغرسـوا فيه عقيـدتهم الى الأبد ؛ أما أنت فلا ، لأنك أصبحت لا تؤمن بنظريتك • فعلام عساك تهرب ؟ ما هى الفـائدة التى يمـكن أن تجنيها من الهرب ؟ ما أفظع وما آلم الحياة التى يحياها هارب ! فالمرء اذا أراد أن يحيا ، لا بد له من وضع مستقر ، ومركز محـدَّد ، ولا بد له من هواء يسـتطيع أن يستنشقه ! لتعودنَّ ثانية اذا أنت هربت ! « انك لا تستطيع أن تستغنى عنا » • اذا أودعتك فى السجن مدة شهر أو شـهرين مثلاً ، فلسـوف تجىء فى ذات يوم فجأة فتعترف • لسوف تندفع الى هذا على غير علم منك تقريباً • تذكر هذا الكلام الذى أقوله لك • بل اننى لعلى يقين من أنك سوف تعزم أمرك على التكفير • أنت لا تصدقنى الآن • ولكنك سـوف تجىء ، لأن الألم شىء عظيم يا روديون رومانوفتش • لا يُدهشـنْك أن تسمعنى أتكلم هذه اللغة أنا الرجل الذى أسمنته دعة العيش • اننى أقول الحق فلا تسخر ! هذه فكرة عميقة أقولها الآن ! ان نيقولا على حق • لا ، لن تهرب يا روديون رومانوفتش !

نهض راسكولنيكوف وتناول قبعته • ففعل بورفير بتروفتش مثل ذلك •

ـ هل تريد أن تقوم بجولة ؟ ان المساء يبشر بليلة جميلة ، اذا لم

تهب عاصفة ... على كل حال ربما كان ذلك أفضل ، فان الهواء سيزداد بهذا طراوة ...

قال راسكولنيكوف بلهجة جافة متعجلة :

ـ لا يذهبن بك الظن الى أنني أدليت لك اليوم باعترافات . انت انسان غريب ، وأنا لم أصغ اليك الا من باب الفضول ، لكنني لم اعترف لك بشيء . تذكّر هذا !

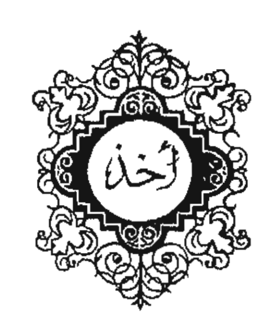
ـ طيب طيب ... دعك من هذا الكلام ... هذه أمور معروفة .. لا ، لن أنسى ! انظروا كم يرتعش ! لا تقلق يا عـزيزي . سـنلتزم رغبتك . تنزه قليلاً ، ولكن دون أن تتخطى بعض الحدود .

قال بورفير ذلك ثم أضاف خافضاً صوته :

ـ بالمناسبة : هناك رجاء أخير أود أن أتوجّه به اليك . هو رجاء حرج بعض الشيء ، ولكن لا بأس : اذا اتفق (وهذا احتمال ضعيف ، لأنني لا أصدّق أنك قد تعمد الى ذلك المخـرج) ، أقول اذا اتفق في غضون الساعات الثماني والأربعين أو الخمسين أن تختم الأمر على نحو آخر ، أقصد على نحو خارق ، أقصد أن تحاول الانتحار (لا تؤاخذني على هذا الافتراض السخيف) فأرجوك أن تترك لنا كلمة موجزة ، لكنها واضحة : سطرين ، لا أكثر من سطرين ، لا أكثر من سطرين ، تقول لنا فيهما أين توجد الصخرة . ذلك أنبل ... هيّا ... الى اللقاء ... أسأل الله أن يلهمك الصواب !

قال بورفير ذلك وانسحب حانيـاً رأسـه ، متحاشـياً أن ينظر الى الفتى . فاقترب راسكولنيكوف من النافذة وانتظر ، بصبر نافد ، اللحظة التي يقدّر أن قاضي التحقيق يكون قد ابتعد فيها عن المنزل ابتعاداً كافياً ، ثم غادر الغرفة مسرعاً .

الفصل الثالث



يبحث عن سـفدريجايلوف متعجلاً . انه يجهل هو نفسه ماذا كان ينتظر من هذا الرجل . غير أن هذا الرجل كان له عليـه نوع من سلطان . ومنذ أدرك راسـكولنيكوف ذلك أصبح لا يجد الى الهدوء سبيلا ، وقد آن له أن يخرج كل شيء الى الضوء !

وفيما كان يسير ، كان يعـذّبه خاصـة هذا السـؤال : هل ذهب سفدريجايلوف الى بورفير ؟

ولكن راسكولنيكوف كان يجيب عن هذا السؤال بقوله : اذا صدق ظنى ، فان سفدريجايلوف لم يذهب الى بورفير بل اننى لمستعد أن أقطع يدى اذا كان سفدريجايلوف قد ذهب الى بورفير . وفكّر راسكولنيكوف مزيداً من التفكير ، واستعرض بخيال زيارة بورفير من جديد ، فانتهى الى هذه النتيجة : لا ، لم يذهب اليه ، لم يذهب اليه قطعاً !

ولـكن اذا كان سـفدريجايلوف لم يذهب الى بورفير حتى الآن ، فهل سيذهب اليه ، أم هو لن يذهب ؟

وبدا لراسكولنيكوف أن سفدريجايلوف لن يقوم بهذه الزيارة ، فى هذه الفترة على الأقل . لماذا ؟ ما كان لراسـكولنيكوف أن يستطيع معرفة الأسباب التى تحمله على هذا الظن ، وهبه استطاع معرفتها ، هبه

قادراً على تفسير كل شيء ، فما كان له أن يصدّع رأسه منقباً عنها . صحيح أن ذلك كان يعذبه ، ولكن ذلك كان في الوقت نفسه ايسر همومه . شيء غريب ، لا يكاد يصدّق : ان مصيره الراهن ، المباشر ، كان لا يهمه الا قليلاً ، وكان هو لا يفكر فيه الا ذاهلاً . أمّا ما كان يعذّبه حقاً فهو شيء آخر ، شيء أخطر شأناً ، شيء خارق ، يخصه هو ولا يخص أحداً سواه . وكان الى ذلك يحس بتعب روحي لا نهاية له ، رغم أن دماغه كان في ذلك الصباح يعمل خيراً مما كان يعمل في الأيام السابقة .

ثم هل يستحق الأمر ، بعد كل ما حدث ، عناء السعي الى التغلب على المصاعب السخيفة وتذليل العقبات الكثيرة التي لن تلبث أن تظهر في طريقه من جديد ؟ هل من اللازم مثلاً أن يحتال في سبيل أن لا يذهب سفدريجايلوف الى بورفير ؟ هل من الضروري أخيراً أن يضيع وقته في دراسة رجل اسمه سفدريجايلوف والمداورة والمخاتلة معه ؟

آه ... ما كان أشد سأمه وضجره وملله من هذا كله !...

ومع ذلك كان يحث الخطى سعياً الى سفدريجايلوف . أليس معنى هذا أنه كان ينتظر منه شيئاً جديداً ، أنه كان ينتظر منه توجيهات ، أنه كان ينتظر منه مخرجاً ؟ ان الغريق يتشبث أحياناً بقشة ! ألم يكن القدر هو الذي يجمع بينهما ؟ أم أن غريزةً خفية هي التي تقرّب أحدهما من الآخر ؟ أم أن الأمر كله لا يعدو أن يكون اعياءً وسأماً ويأساً ؟ أم لعله كان في حاجة لا الى سفدريجايلوف ، بل الى شخص آخر ؟ الى صونيا ؟ ولكن لماذا عساه يذهب في هذه اللحظة الى صونيا ؟ ليستدر دموعها ؟ ثم ان صونيا ترعبه : ان صونيا تمثل الحكم المبرم الذي لا رادّ له ، والقرار الحاسم الذي لا رجعة عنه . لقد كان على راسكولنيكوف أن يختار : فاما

أن يتبع طريقه هو واما أن يتبع الطريق الذى دلته عليه صونيا • لا ، لا ، لا ، انه فى هذه اللحظة خاصةً لا يحس انه قادر على أن يرى صونيا • أفليس الأفضل أن يجرِّب حظه مع سفدريجايلوف ؟ ولم لا ؟ ثم انه لا يستطيع أن يمتنع عن الاعتراف ، فى قرارة نفسه ، أن سفدريجايلوف قد أصبح ، منذ مدة طويلة ، ضرورةً له ، بمعنى من المعانى •

ولكن الأمر غريب حقاً : ماذا يجمع بين الرجلين ؟ ماذا فيهما من شبه ؟ حتى دناءتهما ليست من طبيعة واحدة • ثم ان فى ذلك الرجل شيئاً كريهاً منفراً الى أبعد الحدود : لا شك أبداً فى أنه فاجر عاهر فاسق ، ولا شك أبداً فى أنه مراوغ مخاتل ماكر ، بل وبما كان كذلك شريراً الى أبعد حدود الشر !••• صحيح أنه يعتنى الآن اعتناء نشيطاً بأولاد كاترين ايفانوفنا ، ولكن من ذا الذى يعرف الأغراض التى يهدف اليها من وراء ذلك ؟ ان لهذا الرجل دائماً نيات خفيةً !

هناك فكرة أخرى كانت ما تنفك تعذب راسكولنيكوف وتحاصره منذ بضعة أيام ، رغم أنه حاول أن يطردها من شدة ما كانت تؤلمه • كان يقول لنفسه : « ان سفدريجايلوف لا يبرح يدور حولى ، وهو يدور حولى حتى فى هذه اللحظة • لقد اكتشف سفدريجايلوف سرى • وانه يبيِّت نيات لدونيا • ألا يزال يبيِّت لها هذه النيات ؟ إن المرء ليكاد يجيب عن هذا السؤال بكلمة « نعم » على وجه اليقين • فماذا لو أراد سفدريجايلوف ، بعد أن عرف سرِّى وأصبح له سلطان علىَّ ، ماذا لو أراد أن يستعمل هذا سلاحاً ضد دونيا ؟

كانت هذه الفكرة تعذبه حتى فى نومه ، ولكنها لم تعرض له بهذا الوضوح الصارخ فى يوم من الأيام مثلما تعرض له الآن أثناء ذهابه الى

سفدريجايلوف ، فتثير فيه غضباً شديداً قاتماً . هى أولاً تغيّر وضعه : ان عليه الآن أن يكشف عن سرّه لدونيا ؛ وربما كان عليه أن يبادر الى تسليم نفسه ليمنع دونيا من القيام بأى خطوة ليس فيها تعقل ! الرسالة ! ان دونيا قد تلقت رسالةً فى هذا الصباح نفسه . فمن ذا الذى يمكن ان يكتب اليها من بطرسبرج ؟ (أهو لوجين حقاً ؟) . صحيح أن رازوميخين يحرسها ، ولكن رازوميخين لا يعرف من الأمر شيئاً . فهل يجب عليه أن يفضى بالحقيقة الى رازوميخين أيضاً ؟ ربما كان يجب عليه أن يفعل ! وشعر راسكولنيكوف باشمئزاز حين خطرت بباله هذه الفكرة . وقال يحدث نفسه جازماً : « على كل حال ، يجب أن أرى سفدريجايلوف بأقصى سرعة ممكنة . الحمد لله على أن التفاصيل هنا أقل شأناً وأهون خطراً من جوهر القضية . ولكن ماذا لو كان فى وسع سفدريجايلوف أن يفعل شيئاً ، أن يتآمر على دونيا ؟ فى هذه الحالة ... » .

كان راسكولنيكوف قد بلغ من التعب فى أعقاب ذلك الشهر الطويل من المعارك والانفعالات أنه أصبح لا يشعر بالقدرة على حل مثل هذه المشكلات ، والاجابة عن مثل هذه الاسئلة ، اللهم الا بكلمات باردة يائسة كهذه : « فى هذه الحالة ، سأقتله ! » .

ان شعوراً ثقيلاً كان يجثم على صدره ويرهقه من أمره . وقف فى وسط الشارع ، وأجال بصره فيما حوله . أىّ طريق سلك ؟ أين هو الآن ؟ كان فى شارع س ... على مسافة ثلاثين أو أربعين خطوة من « سوق العلف » التى تجاوزها منذ قليل . ان الطابق الأول من مبنى يقع على يساره ، هو حانة كله . جميع النوافذ مفتوحة على مصاريعها . ومن كثرة الوجوه التى تُرى عند النوافذ ، يقدّر المرء أن الحانة ملأى بالناس . وهذه أصوات أغانٍ تصل من القاعة ، وأصوات زمارة وكمان وطبل ، وصرخاتٌ حادة تنطلق من حناجر نساء .

همّ راسكولنيكوف أن يعود أدراجه وهو يتساءل ما الذي جاء به الى هذا المكان ، ما الذي اوصله الى شارع س ... ! ولكنه ما ان همّ أن يقفل راجعا حتى لمح سفدريجايلوف عند احدى نوافذ الحانة ، جالساً الى مائدة صغيرة وغليونه بين اسنانه . ان الدهشة التي احسها راسكولنيكوف عندئذ لا تخلو من نوع من الرعب . كان سفدريجايلوف يراقبه ويتفحصه صامتاً ، وكان يبدو عليه انه يريد أن ينهض ، كأنه يحاول أن يتوارى قبل أن يرى ، وذلك أمر فجأ راسكولنيكوف ايضاً. وسرعان ما تظاهر راسكولنيكوف بأنه لا يراه ، وأخذ ينظر الى الجهة الأخرى واجماً مفكراً ، مع استمراره في النظر اليه ، بطرف عينه طبعاً. كان قلبه يخفق قلقاً واضطراباً . الأمر كذلك حقاً : واضح أن سفدريجايلوف لا يريد أن يُرى . لقد نزع غليونه من فمه ، وحاول أن يختبيء ، ولكنه حين أبعد كرسيه لينهض قد أدرك ولا شك أن راسكولنيكوف رآه ، وانه يرقبه ويرصده . عندئذ جرى بين الرجلين مشهد يشبه كثيراً المشهد الذي جرى بينهما عند أول لقاء لهما في بيت راسكولنيكوف ، حين تظاهر راسكولنيكوف بأنه نائم. هذه ابتسامة ماكرة تظهر على شفتي سفدريجايلوف وما تنفك تتضح . ان كلاً منهما يعرف أن الآخر يتجسس عليه . وانطلق سفدريجايلوف يضحك ضحكة صاخبة آخر الأمر ، ثم يقول له من على نافذته :

ـ هيّا ادخل ، ادخل اذا شئت ! أنا هنا !

صعد راسكولنيكوف الى الحانة . فوجد سفدريجايلوف في حجرة ضيقة جداً ، عند احدى النوافذ ، قرب قاعة كبرى يتحلق فيها حول مايقرب من عشرين مائدة ، باعة ، وموظفون وأناس من كل نوع يحتسون الشاي وسط صخب رهيب يحدثه المغنون الزاعقون بصوت واحد . وعلى مائدة سفدريجايلوف كانت توجد زجاجة شمبانيا وكأس نصف

ملأى • وكان فى هذه الحجرة الصغيرة صبى يحمل آلة موسيقية هى أرغن باربارياً ، وفتاة سمينة فى نحو الثانية عشرة من عمرها حمراء الخدين ربلة الوجنتين ترتدى تنورة مخططة مشمورة ، وتضع على راسها قبعة " تيرولية (نسبة " الى جبال التيرول) مزدانة " بأشرطة ، ويصدح صوتها الأبح بأغنية عامية مبتذلة ، رغم صخب غناء الجوقة فى القاعة المجاورة • وكان الصبى يرافق غناءها بالعزف على أرغن باربارياً ••••

قال سفدريجايلوف يقاطع العزف والغناء منذ دخل راسكولنيكوف:

ـ هيا ••• كفى !•••

فتوقفت الفتاة عن الغناء فوراً ، واتخذت وضع الاحترام ؛ وكان وجهها ، منذ قليل ، حين كانت تغنى سخافاتها المسجوعة ، يعبر عن هذا الاحترام نفسه على كل حال •

نادى سفدريجايلوف :

ـ هيه ! فيليب ! هات كأساً !

فقال راسكولنيكوف :

ـ لن أشرب خمراً •

ـ كما تشاء • ولست أنادى فيليب من أجلك أنت • اشربى يا كاتيا • لم أعد فى حاجة اليك اليوم • تستطيعين أن تنصرفى •

قال لها ذلك وقد صب" لها كأساً من خمر ووضع على المائدة ورقة نقدية بروبل • فأفرغت كاتيا الكأس بعشرين جرعة صغيرة متتالية دون أن تفصل شفتيها عن الكأس ، كما تشرب النساء • ثم تناولت الورقة النقدية ، وقبّلت يد سفدريجايلوف الذى سمح لها أن تقبّل يده

وهو يُظهر أكبر الجد ، وخرجت يتبعها الصبى جاراً أرغنه. كان الصبى والفتاة قد جيء بهما كليهما من الشـارع • ان سفدريجايلوف ما كاد يقضى فى بطرسبرج هذه الأيام الثمانية حتى كان قد أحاط نفسه بهذا الجو من الصحبة والألفة والسيطرة • ان فيلب خادم القاعة هو أيضاً « صديق » حميم ، يُظهر لصاحبه أكبر الطاعة وأعظم المذلة • وباب الحجرة يُقفل بالمفتاح ، فاذا كان سفدريجايلوف فيها فكأنه فى بيته • ولعله كان يقضى فى هذه الحجرة أياماً بكاملها • أما الحانة القذرة الرثة فلا يمكن أن توصف حتى بأنها حانة من الدرجة الثانية •

بدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال :

ـ كنت ذاهباً اليك ، كنت أبحث عنك • ولكننى لا أدرى ما الذى جعلنى أدور فجأة الى شارع س ••• قادماً من « سوق العلف » • اننى لا أمر أبداً من هنا • وانما أنا انعطف دائماً الى يمين « السوق » • فما ان درت الى هذه الجهة حتى لمحتك ! شيء غريب !

ـ لماذا لا تقول انها معجزة ؟

ـ لأن من الجائز أن لا تكون الا مصادفة !

قال سفدريجايلوف وهو ينفجر ضاحكاً:

ـ غريب تفكير هؤلاء الناس ! مهما يكونوا مقتنعين بوجود المعجزات فانهم لا يعترفون بذلك ! أنت نفسك تقول ان « من الجائز » أن لا تكون الا مصادفة ! آه ••• ما أجبنهم جميعاً ازاء اعتقاداتهم نفسها ! لا تستطيع أن تتخيل يا روديون رومانوفتش ••• لست أقصدك أنت ••• فأنت لك آراؤك الشخصية ، وأنت لا تهاب أن يكون لك آراء شخصية • حتى انك بهذا نفسه انما أثرت اهتمامى وأيقظت فضولى •

ـ بهذا وحده ؟

ـ هو كافٍ جداً !

كان واضحاً ان سفدريجايلوف مهتاج بعض الاهتياج ، ولكن اهتياجه لم يكن شديداً جداً : انه لم يشرب الا نصف كأس من خمر.

قال راسكولنيكوف :

ـ يخيَّل اليَّ أنك جئت تزورني حتى قبل أن تعرف هل يمكن أن يكون لي ما تسميه رأياً شخصياً .

ـ آ ... نعم ... حينذاك كان الأمر غيرَ هذا تماماً ! لكل امرىء طريقته في التصرف . أما عن المعجزة فأقول لك : لا بد أنك كنت نائماً في هذين اليومين أو في هذه الأيام الثلاثة ! لقد حدَّدت لك أنا نفسي هذه الحانة ، فاذا جئتَ اليها الآن رأساً فليس في الأمر اذن أية معجزة . لقد وصفت لك الطريق الذي يجب أن تسلكه ، وذكرت لك الساعات التي تستطيع أن تجدني فيها . ألا تتذكر ؟

أجاب راسكولنيكوف مدهوشاً :

ـ نسيت !

ـ أصدِّقك . ولكنني ذكرت لك ذلك مرتين . فلا بد أن العنوان قد انطبع في ذاكرتك على نحو آلي ، فاذا أنت تدور سالكاً هذا الطريق على نحو آلي أيضاً ، دون علمٍ منك . مهما يكن من أمر ، فانني حين كنت أكلمك في ذلك اليوم ، لم أعتقد أبداً أنك كنت تفهم عني . انك لا تراقب نفسك مراقبةً كافية يا روديون رومانوفتش . على انني أعرف أن كثيراً من الناس يكلمون أنفسهم بصوت عالٍ أثناء سيرهم . هذه مدينةٌ سكانها أنصاف مجانين . لو كان عندنا معارف علمية لاستطاع

الأطباء ورجال القضاء والفلاسفة أن يجمعوا عن بطرسبرج ملاحظات ثمينة ، كل فى ميدان اختصاصه • يصعب أن يجد المرء مدينة أخرى تضاهيها فيما نلاحظ فيها من تأثر النفس الانسانية بمؤثرات غامضة مظلمة حادة غريبة الى هذا الحد • أيكون مرد هذا الى مناخها ؟ ولكن لما كانت هى المركز الادارى فلا بد أن ينعكس طابعها على مجموع البلاد • على أن هذا ليس ما يهمنى الآن • وانما أردت أن أقول لك اننى قد سبق أن راقبتك أكثر من مرة • فأنت حين تخرج من بيتك تخرج عالى الرأس فما ان تسر عشرين خطوة حتى تخفض رأسك وتعقد ذراعيك وراء ظهرك ؟ وأنت حينئذ تنظر ، لكنك لا ترى ما أمامك ولا ما حولك ، ثم تأخذ تحرك شفتيك وتكلم نفسك ؟ بل يتفق لك أحياناً أن تحرك يديك باشارات شتى أثناء حديثك مع نفسك ؟ ثم اذا أنت تقف فجأة فى وسط الشارع ، وتلبث هنالك مدة طويلة • هذا غير مستحسن أبداً • فربما كان هنالك أناس غيرى يلاحظونك ويراقبونك ، وأنت بهذا تسىء الى نفسك وتتعرض للخطر • أقول لك ذلك بصراحة • صحيح أن الأمر لا يهمنى ، واننى لست من سيشفيك ، ولكن لعلك تفهم عنى ••

سأله راسكولنيكوف وهو ينظر اليه مستطلعاً :

ــ أتعرف أنهم يلاحقوننى ؟

قال راسكولنيكوف مدهوشاً :

ــ لا ، لم أكن أعرف ذلك !

دمدم راسكولنيكوف مقطباً حاجبيه :

ــ فلا نتحدثن بعد الآن عنى !

ــ طيب ! لا نتحدثن بعد الآن عنك !

ـ قل لى : اذا كنت تجيء الى هنا لتشرب ، واذا كنتَ قد حددت لى هذا المكان مرتين لأوافيك فيه ، فلماذا اختبأت عنى منذ قليل حين نظرتُ اليك من الشارع حتى لقد أردتَ أن تنصرف ؟ لقد لاحظت أنا ذلك واضحاً كل الوضوح •

ـ هيء هي ! بل قل لى أنت : لماذا ، فى ذلك اليوم ، بينما كنت أنا واقفاً على عتبة الباب ، ظللت أنت راقداً على سريرك ، مغمضاً عينيك ، متظاهراً بالنوم ، مع أنك لم تكن نائماً البتة ؟ لقد لاحظت أنا ذلك واضحاً كل الوضوح !

ـ لعل هناك أسباباً ••• تدعونى الى ذلك ، وأنت نفسك تعرف هذا •

ـ ولعل هناك أسباباً تدعونى أنا أيضاً ، رغم أنك لا تعرف ما هى تلك الأسباب •

وضع راسكولنيكوف كوعه الأيمن على المائدة ، وأسند ذقنه الى يده اليمنى ، وحدّق الى سفدريجايلوف ، وظل دقيقةً طويلة يتأمل هذا الوجه الذى ما انفك يحيّره • انه وجه غريب يشبه أن يكون قناعاً : هو وجه أبيض ، أحمر ، له شفتان قرمزيتان ولحية حمراء وشعر أشقر غزير ؛ والعينان زرقاوان جداً ، والنظرة ثقيلة مسرفة فى الثقل ، ثابتة مسرفة فى الثبات • ان فى هذا الوجه الوسيم الذى ظل شاباً نضراً رغم السنين ، شيئاً منفّراً الى أبعد الحدود • وكان سفدريجايلوف يرتدى بدلة صيفية أنيقة من نسيج خفيف ، ويتميز خاصةً بقميصه الناصع البياض• وكانت احدى اصابعه يتلألأ فيها خاتم كبير مرصّع بحجر ثمين •

قال راسكولنيكوف فجأة يمضى الى هدفه رأساً وقد نفد صبره :

ـ هل علىّ حقاً أن أتحملك أنت أيضاً ؟ لعلك أنت أخطر البشر

حين تقــرر أن تلحق بأحــد ضرراً أو أذى ، ولكننى مع ذلك لا أريد أن أحاول الاحتماء منك • سوف أظهر لك على الفور أننى لا أقيم وزناً لشخصى الى الحد الذى تتصوره • اعلم أولاً اننى انما جئت لأقول لك بوضوح كامل وصراحة قاطعة انك اذا كنت ما تزال تضمر لأختى تلك النيات نفسها ، وكنت تعوّل على استخدام السر الذى اكتشفته مؤخرا ، فسوف أقتلك قبل أن يتسع وقتك لأن تودعنى فى السجن • انى اذا قلت فعلت • هذا واذا كان هنالك شيء تريد أن تفضى به الىّ ــ اننى لأحس منذ مدة أنك تريد أن تقول لى شيئاً ما ــ فأسْرع اذ قد يفوت الأوان بعد قليل !

سأله سفدريجايلوف وهو يتفرس فيه مستطلعاً مستغرباً :

ــ ولكن ما الذى يحملك على هذا الاسراع كله ؟

فأجاب راسكولنيكوف نافد الصبر مظلم الوجه :

ــ كل امرىء يعمل بطريقته الخاصة •

قال سفدريجايلوف مبتسماً :

ــ أنت نفسك تدعونى الى الصراحة ، ثم اذا بك ترفض أن تجيبنى منذ أول سؤال ألقيه عليك • انك ما تزال تتصور أننى أبيّت مشاريع ، وأضمر نيات ، وهذا هو السبب فى أنك تنظر الىّ نظرة ريبة واشتباه • على أن هذا أمر يفهمه المرء فهماً تاماً فيمن كانت حالته كحالتك • ولكن مهما تكن رغبتى فى أن أحيا على تفاهم ووفاق معك ، فاننى لن أكلف نفسى عناء ازالة الغشاوة عن بصرك وتبديد أوهامك • ذلك أن هذه اللعبة لا تستحق هذا العناء وأيم الحق • ثم اننى لا أنتوى البتة أن أتحدث معك فى أمور خاصة جداً •

ـ فلماذا تحتاج الىَّ هذا الاحتياج كله اذا كان الأمر كما تقول ؟ ذلك أنك ما تنفك تحوم حولى ...

ـ لا لشيء الا لأنك امرؤ تشوق ملاحظته ، وتحلو مراقبته . لقد فتنتنى بوضعك الغريب وحالتك الشاذة وأمرك العجيب . هذا كل شيء ! ثم انك أخو إنسانة شاقتنى كثيراً ؛ وطالما حدثتنى عنك تلك الانسانة ، فاستنتجت من ذلك أن لك عليها نفوذاً كبيراً وسلطاناً عظيماً ، فهل هذا قليل ؟ هيء هيء هيء ! على أننى أعترف لك بأن سؤالك يبدو لى معقداً تعقيداً شديداً ، فيصعب علىَّ أن أجيب عنه . اليك هذا المثال : ألم تأت أنت الى هنا من أجل أن تعلم شيئاً جديداً لا من أجل أن تتكلم فى أعمالى؟ أليس هذا صحيحاً ؟ أليس هذا صحيحاً ؟

كذلك ألحَّ سفدريجايلوف وهو يبتسم ابتسامة ماكرة خبيثة . ثم تابع كلامه :

ـ ألا فاعلم اذن أننى ، أنا أيضاً ، منذ كنت فى القطار الذى أقلنى الى بطرسبرج ، كنت أعوِّل عليك أنت نفسك ، وآمل أن تقول لى شيئاً « جديداً » ... الخلاصة : كنت آمل أن أقترض منك شيئاً . نعم ! أنظر الى أى حد نحن أثرياء !

ـ أن تقترض منى ماذا ؟

ـ ماذا أقول لك ؟ أأنا أعلم ؟ انك لترى فى أية حانة حقيرة موبوءة أقضى وقتى . اننى أجد فى هذا لذة . لذة ؟ لا ... هذه مبالغة . ولكن لا بد للمرء من أن يقضى وقته فى مكان ما ... حتى تلك المسكينة كاتيا ... هل رأيتها ؟ ويا ليتنى كنت على الأقل رجلاً شديد النهم والشراهة أو رجلاً محباً لأطايب الطعام ! ولكن انظر قليلاً ... هذا كل ما أستطيع أن ألتهمه ...

قال ذلك وهو يشير باصبعه الى ركن المائدة التي تستلقي عليها ، في طبق من معدن ، بقايا شريحة كريهة من لحم البقر مع البطاطس • وتابع كلامه يسأل :

ـ بالمناسبة ، هل تغديت ؟ أما أنا فانني ما كدت آكل قطعة حتى اكتفيت • وأنا لا أشرب الخمر أيضاً • لست أشرب الا شمبانيا ، ولست أشرب من الشمبانيا الا كأساً واحداً تكفيني السهرة كلها ، عدا أن هذه الكأس الواحدة تصدّع رأسي • ولئن طلبت اليوم شمبانيا ، فلكي أنتعش قليلاً ، لأن عليّ أن أذهب الى مكان ما بعد برهة ؛ وهذا هو السبب في أنك تجدني على حالة نفسية خاصة جداً • منذ لحظة ، اختبأت كتلميذ صغير ، لأنني تخيلت أنك سوف تزعجني ، ولكن أعتقد أن في وسعي (هنا أخرج ساعته) أن أبقى معك قرابة ساعة • الساعة الآن هي الرابعة والنصف • هل يمكنك أن تصدّق ؟ يا ليتني كنت شيئاً ما على الأقل •• ليتني كنت مالك أرض مثلاً أو ربّ أسرة أو حتى جندياً ، أو مصوراً ، أو صحفياً ، ولكن لا ••• لست شيئاً ••• لست شيئاً البتة ••• ليس لي أي اختصاص ! حتى انني أضجر بعض الأحيان • حقاً لقد كنت أتصور أنك ستقول لي شيئاً جديداً •

ـ ولكن من أنت ، ولماذا جئت ؟

ـ من أنا ؟ انك تعلم من أنا : أنا رجل من وجوه القوم ، قضيت سنتين في سلاح الفرسان ، ثم تسكعت هنا ببطرسبرج ، ثم تزوجت مارتا بتروفنا وعشت في الريف • تلك سيرة حياتي !

ـ أنت ، فيما أظن ، مقامر • أليس كذلك ؟

ـ مقامر ؟ لا ••• أنا غشاش لا مقامر •

ـ كيف ؟ هل غششت ؟

ـ نعم ، فعلت هذا أيضاً .

ـ فلا بد أنهم ضربوك عندئذ ضرباً مبرحاً ، أليس كذلك ؟

ـ حدث هذا . وبعد ؟

ـ كان في امكانك على الأقل أن تقتتل في مبارزة ... ذلك أمر يفور له الدم .

ـ لن أعارضك ، لا سيما وأن الفلسفة ليست ما أتميز به وأجلّي فيه . أعترف لك بأنني انما جئت الى هنا من أجل النساء خاصة .

ـ أبعد دفن مارتا بتروفنا فوراً ؟

ـ نعم . ثم ماذا ؟ أي ضير تراه في أن أتكلم عن النساء هكذا ؟

بذلك أجاب سفدريجايلوف وهو يبتسم ابتسامةَ صراحةٍ مفحمة . فقال راسكولنيكوف :

ـ تسألني أي ضير أراه في أن يعيش المرء حياة دعارة ؟

ـ حياة دعارة ! آ ... ذلك هو ما يحنقك . ولكن فلنمض في مناقشة الأمر على منهج سليم : سأجيبك أولاً عن موضوع النساء عامة . انني امرؤ أحب الثرثرة كما ترى . قل لي : لماذا يجب عليّ أن ألجم اندفاعاتي وأكبت رغباتي ؟ لماذا أعدل عن النساء وأنا أهواهن ؟ انهن شاغل على الأقل ...

ـ فليست آمالك كلها اذن الا آمالاً قائمة على الدعارة أو الفسق ؟

ـ لنسلّم بأنها الدعارة أو الفسق ، ما دمت حريصاً على ذلك . انني أحب الأسئلة المباشرة على كل حال . ان للفسق شيئاً ثابتاً يقوم على الطبيعة الانسانية ولا يخضع لنزوات الخيال ، شيئاً باقياً مستمراً في الدم ، كجذوة متوهجة ، مستعدة في كل لحظة لأن تلتهب ، لا تنطفيء في وقت مبكّر ، بل لا تقضي عليها السنون . ثم ان عليك أن تعترف أن الفسق شاغل من الشواغل ...

ــ ليس فى هذا ما يستحق أن تغبط نفسك عليه أو أن تهنىء نفسك به . هذا مرض ، بل هو مرض خطر .

ــ آ ... هذا ما تريد أن تنتهى اليه ! اننى أوافقك على أنه مرض، كسائر الأشياء التى تتجاوز حدود الاعتدال . وحدود الاعتدال يتجاوزها الناس ، فبعضهم يتجاوزها بطريقة ، وبعضهم يتجاوزها بطريقة أخرى. وينبغى للمرء طبعاً أن يعتدل ، رغم أن هذا حساب دنىء. ولكن ما العمل؟ ما الحيلة ؟ ذلك أن الانسان اذا لم يتهيأ له هذا الشاغل فقد يكون عليه أن ينتحر . اننى أعرف أن الرجل الشريف لا بد أن يشعر بالسأم والضجر حتماً ، هذا عدا أن ...

ــ هل أنت قادر على أن تنتحر ؟

أجاب سفدريجايلوف متأففاً :

ــ يا له من سؤال !

ثم أضاف يقول متعجلاً ، دون أن يصطنع مظهر التفاخر والادعاء ذلك الذى كان قد اصطنعه الى ذلك الحين ، حتى أن وجهه قد تغير :

ــ أرجوك لا تكلمنى فى هذا الموضوع ! ... اننى أعترف بأن هذا ضعف لا يغتفر ، ولكن ما حيلتى ؟ اننى أخاف من الموت ، ولا أحب أن يتكلم عن الموت أحد . هل تعلم اننى أؤمن قليلاً بالغيبيات ؟

ــ آه ... هو شبح مارتا بتروفنا ! أما يزال يظهر لك اذن ؟

قال سفدريجايلوف :

ــ لندع هذا الأمر ! فى بطرسبرج ، لم يحدث هذا حتى الآن !

ثم هتف يقول حانقاً :

ــ على كل حال ، شيطان يأخذه ... لا ، لا ، فلندع هذا الأمر ،

ولنتكلم فى ... هِمْ ... نعم ... لم يبق لى الا قليل من الوقت ... لا أستطيع أن أمكث معك مدة أطول من ذلك كثيراً . خسارة ! ذلك أن هناك أموراً كثيرة كان يمكنني أن أنقلها اليك .

ـ أهى أمور تتعلق بامرأة أيضاً ؟

ـ نعم ، بامرأة !... حالة لا يتوقعها المرء أبداً ... حالة ليست ما تظن ...

ـ أأنت لا تشعر اذن بثقل هذا الجو الذى تعيش فيه ؟ أليس يؤثر فيك ؟ هل فقدت القوة على ... على أن تتوقف ؟

ـ ماذا ؟ أأنت تكلمنى عن القوة ؟ هه ... انك تذهلنى دهشةً يا روديون رومانتش ، رغم اننى كنت أعرف سلفاً أن الأمر سيكون هكذا ! أأنت من يكلمنى عن الفسق وعن جمال الفضيلة ؟ أأنت انسان من نوع شيللر ، انسان مثالى ؟ صحيح أن هذا كله طبيعى ، حتى أن نقيضه هو ما يمكن أن يثير الدهشة ... ولكنه مع ذلك يبعث على الاستغراب .. آه .. خسارة أننى لا أملك الا وقتاً قصيراً ! ذلك أنك من أكثر الناس ايقاظاً للاهتمام ، واثارة لحب الاطلاع . بالمناسبة : أنت تحب شيللر ، أليس كذلك ؟ أما أنا فأحبه حباً عظيماً .

قال راسكولنيكوف بشىء من الاشمئزاز :

ـ يا لك من مدعٍ متفاخر !

فأجاب سفدريجايلوف وهو يضحك مقهقهاً :

ـ لا ، أقسم لك ! ... على أننى لا أنفى أقوالك . صحيح ... أنا مدع متفاخر !... لماذا لا أدعى وأتفاخر ما دام هذا لا يؤذى أحداً ؟ لقد قضيت سبع سنين فى الريف ، عند مارتا بتروفنا . لذلك فاننى ما ان

التق برجل ذكى مثلك حتى أرتمى عليه • نعم •• برجل ذكى ، بل برجل يثير الاهتمام كثيراً كذلك • نعم ، اننى أسعد أكبر السعادة بالتحدث معك قليلاً ، ناهيك عن أن نصف الكأس الذى شربته من الخمرة قد صعد الى رأسى ، غير أن هناك أمراً كان له كثير من ••• ولكننى أوثر أن أسكت عن ذلك الأمر فلا أتحدث عنه • الى أين أنت ذاهب ؟

كذلك قال سفدريجايلوف يسأل راسكولنيكوف على حين فجأة مرتاعاً •

كان راسكولنيكوف قد نهض • لقد أزعجه أنه جاء الى هذا المكان ، وأحس باختناق فى صدره • انه مقتنع الآن أتم الاقتناع بأنه أمام أحقر وأدنأ وغد حملته الأرض على ظهرها فى يوم من الأيام •

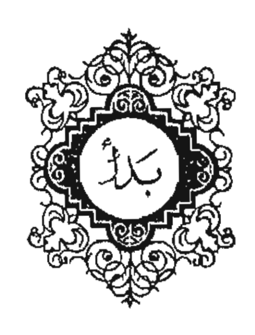
قال سفدريجايلوف ملحاً :

ـ ابق قليلاً ! لا تنصرف هكذا ! انتظر ! اطلب لنفسك ولو فنجان شاى ! هيّا اجلس ! أعدك بأن لا أكلمك فى ترهات ، أقصد فى ترهات عنى أنا ! اسمع ، هل تريد أن أروى لك كيف انقذتنى امرأة ، كما تقولون أنتم بلغتكم ؟ وسوف يكون هذا جواباً عن سؤالك الأول ، ذلك لأن تلك المرأة هى أختك • هل أستطيع أن أروى لك ••• ثم ان هذا سيتيح لنا أن نزجى الوقت •••

ـ قل ما تشاء ، ولكن آمل أن •••

ـ لا تقلق ••• اطمئن ••• ثم أن آفدوتيا رومانوفنا لا يمكن أن توحى الا بأعمق الاحترام حتى لرجل يبلغ ما أبلغه أنا من الحطة والدناءة والتفاهة !

الفصل الرابع



سفدريجايلوف كلامه فقال :

ـ لعلك تعلم (ولقد ذكرتُ لك ذلك أنا نفسي على كل حال) انني قد أودعت في السجن لديون كانت عليّ • وكان المبلغ ضخماً لم يكن في وسعي أن أحاول سداده اطلاقاً • لا داعي الى الافاضة الآن في الكلام على الطريقة التي اشترت بها مارتا بتروفنا حريتي• هل تعرف مدى السحر الذي يمكن أن تستسلم له امرأة تحب ؟ ••• لقد كانت مارتا بتروفنا امرأة شريفة مستقيمة ، ولم تكن بالغبية الحمقاء ، رغم أنها محرومة من أية ثقافة • فتصور أن هذه المرأة ، الشريفة الغيور ، قد ارتضت أخيراً ، بعد مشاجرات وملامات كثيرة كريهة ، أن تعقد معي نوعاً من ميثاق ظلت متقيدة به طوال مدة حياتنا المشتركة • يحسن أن أذكر أنها كانت أكبر سناً مني بكثير • وقد بلغت أنا من قلة الذوق ومن الصدق في الوقت نفسه انني أعلنت لها بوضوح قاطع أنه سيستحيل عليّ أن أظل وفياً لها وفاءً مطلقاً • فأغضبها هذا الاعتراف وأخرجها عن طورها ، رغم أن صراحتي قد أعجبتها بمعنى من المعاني فيما أعتقد • لقد قالت لنفسها : « معنى هذا أنه لا ينوي أن يخونني ما دام ينذرني سلفاً » ، وذلك هو الأمر الأساسي في نظر امرأة غيور • وبعد دموع كثيرة قام بيننا ما يشبه التعاقد الشفهي : أولاً على أنني لن أترك مارتا بتروفنا قط ، بل أظل زوجها ؛ وثانياً على انني لن أتغيب أبداً الا باذنها ؛ وثالثاً على انني لن أتخذ خليلة ثابتة لها

صفه الخليلة ؛ ورابعاً على أن تسمح مارتا بتروفنا ، مكافأة لى على ذلك ، بأن أغازل الخادمات ، ولكن بشرط الحصول على موافقتها المضمرة ، وخامساً أن اتحاشى ، بمعونة الله ، أن أتعلق بحب امرأة من مستوانا ؛ وسادساً أن أكاشف مارتا بتروفنا بالحقيقة اذا حدث ، لا سمح الله ، أن استولى على حب قوى • على أن مارتا بتروفنا سرعان ما اطمأنت فيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة • انها امرأة ذكية ، فلم تستطع أن ترى فى الا رجلا فاسقاً ماجناً ، عاجزاً عن أى حب صادق وهوى قوى • لكن الذكاء والغيرة شيئان اثنان لا يتعارضان ، ومن هنا يأتى البلاء • ثم انك من أجل أن تحكم على أحد الناس حكماً حيادياً ، يحسن بك أن تتخلص من بعض الآراء السابقة والعادات اليومية ازاء البشر والأشياء التى تحيط بك • اننى أعتمد على حسك السليم أكثر مما اعتمد على أية ملكة أخرى• لعلك سمعت عن مارتا بتروفنا سخافات كثيرة • والحق أنها كانت تتصف بكثير من العيوب الصغيرة المضحكة جداً • ومع ذلك لا أهاب أن أعترف لك باننى اسف أسفاً صادقاً على الأحزان الكثيرة التى سببتها لها • ولكن يكفى هذا ، فيما أعتقد ، « تأبيناً » للزوجة الرقيقة جداً من زوج هو أرق الأزواج طراً • لقد كنت أثناء مشاجراتنا أصمت فى أغلب الأحيان وأكظم كل غضب ، وكان هذا الوضع المهذب يبلغ هدفه ويحقق الغاية منه فى جميع الأحيان تقريباً • كان هذا الوضع يفرض مهابته على مارتا بتروفنا ، بل لقد كان يحظى برضاها واعجابها ، حتى أنها شعرت أحياناً باعتزاز بى • لكنها لم تستطع مع ذلك أن تحتمل تلك القصة التى جرت لى مع أختك • كيف رضيت أن تجازف فتُدخل الى منزلها فتاة جميلة هذا الجمال الرائع لتكون معلمة ؟ اننى لا أفسر هذا لنفسى الا بأن مارتا بتروفنا امرأة سريعة التأثر والانفعال ، وأنها افتتنت بأختك • نعم ، لقد افتتنت بها حقاً • ولقد أدركت أنا منذ النظرة الأولى أن الأمور ستجرى مجرى سيئاً بالنسبة

الىّ ، حتى اننى قررت ــ هل تصدّق ذلك ؟ ــ أن لا أرفع عينى نحو أختك • ولكن أختك ، آفدوتيا رومانوفنا ، قامت هى نفسها بالخطوة الأولى ، هل تصدّق هذا ؟ وهل تصدقنى أيضاً اذا قلت لك ان مارتا بتروفنا قد مضت الى حدّ الغضب حين لاحظت أننى لا أكلمها عن أختك أبداً ، وأننى استقبل بغير اكتراث أو اهتمام الأحاديث المشبوبة التى كانت تسوقها لى عنها بغير انقطاع • لم أستطع أن أفهم حتى الآن ما الذى كانت تريد أن تصل اليه • وقد قصّت على أختك ، طبعاً ، كل ما أمكنها أن تعرفه عنى • لقد كانت لها هذه العادة السيئة ، وهى أن تروى أسرارنا العائلية لجميع الناس وأن تشكونى للملأ كافة ، فكيف يمكن أن لا تفعل ذلك مع صديقة جديدة فتانة كأختك ؟ أغلب ظنى أنهما كانتا لا تتحدثان الا عنى ؛ ولا شك فى أن آفدوتيا رومانوفنا قد اطلعت على جميع الحكايات القذرة السرية التى كان الناس يتناقلونها عنى ••• بل اننى لأراهن على أن شيئاً من هذا قد بلغ مسامعك أنت !

ــ فعلاً ! حتى ان لوجين اتهمك بأنك كنت السبب فى موت طفل• هل هذا صحيح ؟

أسرع سفدريجايلوف يجيب ممتعضاً :

ــ لا تحرّك هذا الوحل كله ، أرجوك !••• اذا كنت حريصاً حرصاً شديداً على أن تعرف كل هذه الحقارات ، فسأقص عليك خبرها يوماً فى الوقت المناسب ، أما الآن •••

ــ وقد حدثونى أيضاً عن خادم لا أدرى ما هو ، كان عندك فى الريف ، وقالوا انك كنت أنت السبب أيضاً •••

قاطعه سفدريجايلوف وقد فقد صبره فقداناً واضحاً :

ــ أرجوك !

وتابع راسكولنيكوف كلامه يقول بحنق متزايد :

ـ أتراه هو بعينه ذلك الخادم الذى كان بعد موته يعود يملأ غليونك ؟ لقد قصصت علىّ أنت نفسك ...

نظر اليه سفدريجايلوف بانتباه ، وخيّل الى راسكولنيكوف أنه يرى ابتسامة خبيثة تلم بتلك النظرة سريعة كالبرق . ولكن سفدريجايلوف سيطر على نفسه وأجاب بلهجة فيها أكبر التهذيب :

ـ نعم ، هو بعينه . أرى أنت أيضاً تهتم أشد الاهتمام بهذا كله ؟ فلك علىّ ، عند أول فرصة ، أن أرضى فضولك وأشبع حب الاطلاع لديك فى جميع النقاط . شيطان يأخذنى ! أرى أننى سأنتهى الى أن يعدنى جميع الناس شخصاً رومانسياً خيالياً . فاحكم ، بعد هذا ، مدى ما أدين به لمارتا بتروفنا من شكر وامتنان لأنها قصّت على أختك جميع هذه الأشياء السرية الشائقة ! لا أستطيع أن أتنبأ قطعاً بالأثر الذى شعرت به آفدوتيا رومانوفنا نحوى ، وكل ما أعلمه هو أننى سأستفيد .. فرغم الكره الذى أحسّت آفدوتيا رومانوفنا ازائى ، وهو كره طبيعى جداً على كل حال ، ورغم هيئتى المظلمة المتجهمة الكالحة عامةً ، فقد أشفقت علىّ أخيراً كما تشفق المرأة على انسان ضائع ! وحين يمتلىء قلب فتاة « بالشفقة » ، انما تتعرض لأكبر خطر . فهى تريد حتماً أن « تنقذ » ، أن ترد الى الصواب ، أن تحيى ، أن تبعث ... أن تفعل كل ما يمكن تخيله على هذا النمط من المعانى . وسرعان ما أدركت أنا أن الطائر الصغير قد يطير الى الشبكة من تلقاء نفسه ، وسرعان ما بادرت من جهتى الى اتخاذ احتياطاتى . يخيّل اليك أنك تقطب حاجبيك يا روديون رومانتش . أنت مخطىء : ان القصة كما تعلم ، قد اقتصرت على سفاسف (أوه ! اننى أسرف فى شرب الخمرة !) هل تعلم ؟ لقد أسفت دائماً على أن الأقدار لم تجعل ميلاد أختك فى القرن الثانى أو القرن الثالث ، بمكان من الأمكنة يمكن أن

تكون فيه بنت أمير أو حاكم أو والٍ فى آسيا الصغرى فلو قد حدث ذلك، اذن لكانت واحدة من أولئك النساء شهيدات التعذيب اللواتى كن يبتسمن حين كانت قضبان الحديد المحمى بالنـار تمزق أثداءهن ، ولكانت مضت تواجه التعذيب مواجهة من تلقاء نفسها • ولو قد وُلدت فى القرن الرابع أو فى القرن الخامس لاعتزلت النـاس ومضت الى صحارى مصر ثلاثين عاماً لا تغتذى الا بجذور النبات والرؤى ونشوة الوجد • انها لا تنتظر الا اللحظة التى ستتمكن فيها أخيراً من التضحية بنفسها فى سـبيل شخص ما ؛ بل انها لقادرة على أن تلقى بنفسـها من النـافذة اذا منعت من تلك التضحية بنفسها • لقد سمعت عن شخص اسمه السيد رازوميخين • انه فيما يبدو ، وكما يدل على ذلك اسمه * ، فتى ذكى عاقل لعله ابن أسرة من رجال الدين • فليسهر على أختك ، ليحطها برعايته ! الخلاصـة : أحسب أننى فهمت آفدوتيا رومانوفنا ، وانى بذلك لفخور • ولكن المرء ، عند تعـرفه الى شخص من الأشخاص ، يكون طائشـاً بعض الطيش ، غبياً بعض الغباوة ، كما تعلم ••• فهو يرى الأشياء فى ضوء •• شخصى ، ولا يراها كما هى • ولكن لماذا هى جميلة ذلك الجمال كله ؟ ليس الذنب فى هذا ذنبى ! الخلاصة ••• اننى سرعان ما افتتنت بها افتتاناً شهوانياً لم يكن لى حيلة فى دفعه • ان آفدوتيا رومانوفنـا ذات خفر رهيب ، خفر لا عهد للمرء بمثله ، خفر لا يكاد يصدّق العقل وجوده (لئن كنت أقول لك هذا عن أختك فلأنه « واقع » • نعم ، انها رغم ذكائها ، ورغم فكرها المنفتح جداً ، فتاة ذات خفر شديد ••• وهذا أمر قد يسىء اليها ويلحق بها أذى) • كان عندنا حينذاك خادمة فتاة اسمها باراشا * ، هى باراشـا السمراء ذات العينين السوداوين الجميلتين التى جىء بها من قرية أخرى منذ برهة قصيرة ، والتى لم يسبق لى أن رأيتها فى يوم من الأيام قبـل ذلك • كانت حلوة جـذابة حقـاً ، ولكنها كانت على جـانب من الغبـاء

لا يصدّق • فما أقبلتُ عليها حتى أجهشت باكيـة وملأت فنـاء المنزل بصرخات حادة فسرعان ما كان ذلك فضيحة وجرسة • وفى ذات مساء ، بعد العشاء ، دبّرت أفدوتيا رومانوفنا الأمور بحيث تلقانى وحيدةً فى ممر بين الأشجار بالحديقة فاذا هى « تطالبنى جازمةً » بأن أدع الفتاة المسكينة مرتاحة وأن لا أضايقها • ولعل ذلك كان أول حديث يجرى بينى وبينها فى خلوة • وقد أسرعت أقطع على نفسى عهـد الشرف بأن ألبى رغبتهـا وأنفـذ ارادتها ، وحاولت أن أظهر بمظهر المضطرب المستحى الخجل ، أى عرفت كيف أمثّل الدور فأحسن التمثيل • ومنذ تلك اللحظة تمت بيننا لقـاءات كثيرة فى السر ، وحدثت مشـاهد متكررة كانت فى أثنائها تمطرنى بالمواعظ والنصائح والملامات ، وتضرع الىّ أن أغيّر حياتى ، باكيةً ، نعم باكيـة ••• تصور ! هل تصـدق هذا ؟ انظر الى أى مدىً يمكن أن يمضى حب الوعظ والنصح ! وطبيعى أننى حمّلت القدر تبعة جميع أخطائى ، وصوّرت نفسى فى صورة رجل ظامىء الى الضياء ، ثم لجأت أخيراً الى الوسيلة القصـوى التى لا تخطىء هـدفها من قلب المرأة قط ، ولا تخيب الظن فيها أبداً ، بل تحقق غايتها وتؤثر فى جميع النساء ، أعنى التملق بالمديح • لئن لم يكن فى العالم شىء أصعب من الصـدق ، فلا شىء فى العالم أسهل من التملق • فالصدق اذا اندس فيه عشر معشار من كذب ، سرعان ما يخالطه نشاز فتقع فضيحة • أما التملق فانه اذا كان كذباً من أوله الى آخره ، يظل سـاراً وممتعـاً ، فالشخص يصغى اليـه شاعراً بلذة ان لم تكن لذة سـامية فهى لذة على كل حال • ومهما يكن التملق مفضوحاً فان نصف المديح على الأقل ينطلى على الممدوح • يصدق هذا على جميع طبقات الناس فى المجتمع • ان فى وسعك أن تغوى بالمديح أطهر فتاة فما بالك بغيرها ! لا أستطيع أن أتذكر ـ الا ويغلبنى الضحك ـ كيف أغويت فى ذات يوم من الأيام امـرأة مخلصـة كل الاخلاص

لزوجها وأولادها وفضائلها ... لكم كان ذلك مسلياً ، ولكم كان سهلاً ! ومع ذلك كانت المرأة من أكثر النساء تمسكاً بالفضيلة على طريقتها . وكان كل الأسلوب الذى اتبعته معها هو أننى أظهرت لها دائماً انبهارى بفضائلها وعبادتى لعفتها ! كنت أتملقها بالمديح دون تحفظ ، وكنت اذا اتفق لى أن أحصل منها على مصافحة باليد أو نظرة من العين ، ألوم نفسى أمامها على اننى انتزعت ذلك منها انتزاعاً بالقوة ، حتى لأتظاهر بأننى أعتقد أنها عارضت فى ذلك ، واننى ما كنت لأحصل منها على شىء اطلاقاً لولا أننى فاسد الأخلاق ، ولولا أنها فى براءتها وعفتها لم تستطع أن تكتشف فساد خلقى فانقادت ببساطة وسذاجة دون أن تشتبه أو ترتاب ، الخ الخ . الخلاصة اننى وصلت الى تحقيق غاياتى وتنفيذ مآربى، وظلت السيدة مقتنعة بأنها عفة طاهرة ، وأنها تقوم بجميع واجباتها والتزاماتها وأنها لم تخطىء الا عرضاً : لذلك غضبت غضباً شديداً حين أعلنت لها بعد ذلك ـ وكنت على اقتناع تام بما أقول ـ أنها كانت تنشد اللذة مثلما كنت أنشدها أنا سواء بسواء . ولقد كانت المسكينة مارتا بتروفنا شديدة التأثر بالمديح ، عاجزة عن مقاومة سلطانه عليها ، ولو قد شئت لجعلتها تورثنى جميع أموالها وأملاكها ، حتى أثناء حياتها (اننى أشرب كما تشرب بالوعة وأتيه فى ثرثرات) . آمل أن لا تؤاخذنى أو أن تحقد علىّ اذا قلت لك الآن ان تلك الآثار نفسها قد بدأت تظهر على آفدوتيا رومانوفنا . ولكننى أفسدت الأمر كله بحماقتى وقلة صبرى . لقد اتفق عدة مرات ، أثناء أحاديثى مع آفدوتيا رومانوفنا (واتفق هذا فى احدى المرات خاصة) أن نفرت نفوراً رهيباً من تعبير عينىّ، واشمأزت اشمئزازاً شديداً . الخلاصة أن لهيب الشهوة الذى كان يتوقد فى عينىّ بمزيد من القوة يوماً بعد يوم ، مع مزيد من الوقاحة فى الوقت ذاته ، قد أصبح كريهاً فى نفسها آخر الأمر . لا داعى الى أن أقصّ عليك

الأمر تفصيلاً • فالمهم أننا كففنا عن اللقاء • وارتكبت عندئذ غلطة جديدة • فقد طفقت أسخر أغلظ السخر من جميع تصرفاتها ومواعظها ، وعادت باراشا تنال الحظوة ، ولم تكن باراشا في هذه المرة وحيدة • الخلاصة أن المنزل أصبح أشبه بمدينة سدوم • آ ••• لو أنك رايت ، مرة واحدة ، يا روديون رومانتش ، كيف كانت تسطع عينا آختك حينذاك لعرفت مدى قدرتهما على الاشتعال والالتهاب ! صحيح أنني الآن سكران ، وأنني قد أفرغت منذ لحظة كأساً أخرى من الخمر ، ولكن ما أقوله لك انما هو الحقيقة • أؤكد لك أن تلك النظرات كانت تلاحقني في نومي • وأخيراً أصبحت لا أطيق حتى سماع حفيف ثوبها ، وصرت أتوقع حقاً أن توافيني نوبة صرع من لحظة الى أخرى • ما كان لي أن أصدق في يوم من الأيام ، نعم ما كان لي أن أصدق في يوم من الأيام قط أن من الممكن أن أصير الى مثل تلك الحالة من الخروج عن طوري• وأصبحت المصالحة أمراً لا بد منه • فهل تتصور ماذا فعلت حينذاك ؟ هل تتخيل مدى السخف الذي يمكن أن يقود اليه الحنق ! اياك أن تتسرع في عمل شيء حين تكون حانقاً يا روديون رومانوفتش ! انني وقد لاحظت أن آفدوتيا رومانوفنا فتاة فقيرة معدمة (لا تؤاخذني اذا أنا استعملت هذا التعبير •••) ، وأنها تعيش من عرق جبينها وكدّ يمينها ، وأنها تقوم باعالة أمها واعالتك أنت (ما بالك تقطب حاجبيك من جديد ؟) ، قررت أن أقدم اليها كل ما أملك من مال ، وكان في وسعي عندئذ أن أجمع ثلاثين ألف روبل ، على شرط أن تقبل الهروب معي ، ولو الى هنا ، الى بطرسبرج • فلو قد رضيت أن تهرب لعاهدتها على أن أحبها ما حييت ، متى وصلنا ، ولوعدتها بالسعادة والهناء وهلم جرا أبد الدهر ، فلقد بلغت من التحمس ــ صدّقني ان شئت ! ــ انني لو أمرتْني أن أذبح أو أن أسمم مارتا بتروفنا من أجل أن أصبح زوجها هي ، لفعلت ذلك على الفور •

ولكن الأمر كله قد انتهى بالكارثة التى تعرف . ففى وسعك أن تفهم الغضب الشديد الذى شعرتُ به حين علمت أن مارتا بتروفنا قد جاءت بذلك الدعىّ الحقير لوجين تريد أن تزوجه أختك ، وذلك مشروع لا يختلف كثيراً عن مشروعى أنا فى الواقع . أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ أنت توافقنى على هذا الرأى ؟ أليس كذلك ؟ اننى ألاحظ على كل حال أنك أصغيت الىّ باتنباه شديد ... أيها الشاب الشائق ...

قال سفدريجايلوف هذا ثم ضرب المائدة بقبضة يده وقد نفد صبره. فأدرك راسكولنيكوف أن كأس الشمبانيا (أو الكأس ونصف الكأس) التى شربها جرعات صغيرة قد أحدثت فيه أثراً سيئاً ، لذلك قرر أن ينتهز هذه الفرصة وأن يستفيد من هذا الظرف . لقد كان شديد الريب فى سفدريجايلوف كثير الحذر منه .

قال فجأة ليحنقة مزيداً من الاحناق :

ـ فأستطيع أن استنتج مما أفضيت به الىّ أنك بمجيئك الى بطرسبرج انما كنت تطمع فى أختى وتبيّت لها شيئاً .

أجابه سفدريجايلوف قائلاً :

ـ دعنا من هذا ، أرجوك ... قلت لك ... ثم ان أختك لا تستطيع أن تطيقنى ، فهى تكرهنى كرهاً شديداً .

ـ أما أنها تكرهك فأنا واثق بهذا . ولكن من الممكن أن لا تكون هذه هى المسألة .

ـ أنت واثق بهذا ؟

قال سفدريجايلوف ذلك وهو يغمز بعينه ويبتسم ابتسامة سخرية ثم تابع كلامه :

ـ انك على حق . انها لا تحبنى ، ولكنك لا تستطيع أن تضمن ما يجرى بين رجل وامرأته ، أو بين خليل وخليلته . هناك دائماً ركن صغير يغيب عن جميع الناس ولا يعرفه أحد غير الشخصين المعنيين . هل فى وسعك أن تحلف أن آفدوتيا رومانوفنا كانت تنظر الىّ باشمئزاز ؟

ـ استنتج من بعض كلمات حديثك وتلميحاته أنك ما زلت تضمر، ازاء دونيا ، أهدافاً لست أصفها الا بأنها دنيئة !

ـ كيف ؟ أأنا أفلتت منى كلمات وتلميحات من هذا النوع ؟

كذلك سأله سفدريجايلوف وقد ارتاع ارتياعاً ساذجاً جداً ، ولكن دون أن يهتم أقل اهتمام بالنعت الذى نعت به راسكولنيكوف أهدافه .

قال راسكولنيكوف :

ـ بل انها ماتزال تفلت منك ! فلماذا ارتعت هذا الارتياع كله مثلاً ؟ نعم ، ما الذى يخيفك الى هذا الحد ؟

ـ أنا مرتاع ؟ أنا خائف ؟ خائف منك أنت ؟ ألا ان الأَوْلى أن تخاف أنت منى « أيها الصديق العزيز » ؟ ما هذا الكلام الصبيانى ؟ على اننى سكران ... أنا أدرك ذلك . اننى أسرف فى الكلام ، أسرف فى الكلام كثيراً ... لعن الله الخمرة ! هيه ! أنت ! اعطنى ماء !

قال سفدريجايلوف هذا ، وتناول الزجاجة فرماها من النافذة بغير تحرج . وجاءه فيليب بابريق ماء .

واستأنف سفدريجايلوف كلامه فقال وهو يبل منشفة ويضعها على رأسه :

ـ وهذه سخافات على كل حال .. اننى أستطيع أن أسقط شكوكك كلها بكلمة واحدة . هل تعلم مثلاً أننى سأتزوج ؟

ـ سبق أن قلت لي هذا ؟

ـ سبق أن قلت لك هذا ؟ حقاً ؟ لست أتذكر . على كل حال ، لا شك أنني لم أقله جازماً ، لأنني لم أكن قد رأيت خطيبتي . وما كان الأمر حتى ذلك الحين الا فكرة أو مشروعاً . أما الآن فان لي خطيبة وقد أصبح الأمر واقعاً . ولولا شئون مستعجلة لدعوتك أن تصحبني اليها ، لأنني أريد أن أطلب منك بعض النصائح . آ ... لم يبق لي الا عشر دقائق ! خذ ... انظر في ساعتي . ولكن يجب أن أحكي لك .. ذلك أن زواجي حادثة شائقة فريدة في نوعها . الى أين تمضي ؟ أما تزال تريد الانصراف ؟

ـ لا ... الآن لن أنصرف .

ـ لن تنصرف ؟ سوف نرى ! نعم ، سأصطحبك الى هناك لأعرّفك بخطيبتي ، ولكن لا الآن ، فالآن لا بد أن نفترق ، تمضي أنت يمنةً وأمضي أنا يسرة . ان تلك المرأة التي تسمى ريسليش والتي أقيم عندها في هذه الفترة ، لا شك أنك سمعت عنها ، أليس كذلك ؟ عجيب ... ألم تسمع عنها ؟ تلك المرأة التي يقال انها هي السبب في أن فتاة صغيرة انتحرت غرقاً في وسط الشتاء . آ ... ان تلك المرأة هي التي دبّرت الأمر كله . قالت لي : « لا شك أنك تضجر وتسأم وأنت وحيد على هذه الحال ، فيجب أن تسرّي عن نفسك قليلاً » . والحق أنني امرؤ قاتم المزاج مكتئب الطبع حزين النفس . هل تظنني مرحاً ؟ أبداً ... أنا سوداوي . لست أؤذي أحداً ، وأظل قابعاً في ركني ، ولكن يتفق لي أن أبقى ثلاثة أشهر صامتاً لا أفتح فمي بكلمة . ولقد كانت تلك القوادة ريسليش تخفي خطة وتبيت فكرة : كانت تقول لنفسها ان امرأتي القادمة سوف تضجرني آخر الأمر ، وانني سوف أهجرها ، فتقع عندئذ بين يديها هي ريسليش ، فتجول بها هنا وهناك في بيئتنا أو في بيئة أرفع . قالت لي

ان للفتاة أباً عجوزاً خرفاً هو موظف محال على التقاعد أصبح لا يبارح مقعده منذ ثلاث سنين لأنه لا يستطيع أن يحرّك ساقيه . وأضافت الى ذلك أن أمها امرأة راجحة العقل متسامحة ، وأن أخاها يشغل وظيفة من الوظائف في الاقاليم ولكنه لا يساعد ذويه ؛ وأن لها أختاً متزوجة لا توافيهم بشيء من أخبارها ، وكأن الأسرة ليس عندها عدد كاف من الأفواه تطعمه ، فكفلت طفلين صغيرين من أقربائها ؛ وعلى أثر ذلك أُخرجت الفتاة من الكوليج قبل أن تتمّ دراستها . وستبلغ السادسة عشرة من عمرها بعد شهر ، فيمكن عندئذ تزويجها ، أي يمكن أن أتزوجها أنا . وقد ذهبنا أنا وريسليش الى أهل الفتاة . مشهد مضحك. عرفتهم بنفسي : ملاّك ، أرمل ، أسرة نبيلة ، علاقات عالية ، ثروة طائلة. فما قيمة أن يكون عمري خمسين عاماً ، وأن يكون عمر الفتاة ست عشرة سنة ؟ من ذا الذي يمكن أن يتوقف عند أمر تفصيلي هو هذا الفرق في السن ؟ ألست زوجاً مناسباً ؟ بل ألست زوجاً ممتازاً ؟ هأ هأ هأ !... ليتك رأيتني وأنا أتحدث مع أبيها وأمها ! ان المرء ليدفع مالاً كثيراً ثمن رؤيته لهذا المشهد ! وظهرت الطفلة فجأة ، فانحنت تحيي الضيوف كما يفعل الأطفال ... تصور أنها ما تزال ترتدي الثوب القصير ! انها برعم ورد حقاً ، يصطبغ خداها بحمرة قانية كلون الشفق عند الفجر (كانت قد أُطلعت على الأمر طبعاً) . لا أدري ما رأيك في الفتيات الصغيرات. أما أنا فرأيي أن هذه السنين الست عشرة ، وتلك العيون الصغيرة التي ما تزال عيون أطفال ، وذلك الخجل ، وهذه الدموع التي تنسكب حياء وخفراً ، أن هذا كله أجمل جمالاً من كل جمال . ناهيك عن أن الفتاة كانت جميلة كجمال صورة . شعر أشقر خفيف متموج ، شفتان مكتنزتان قرمزيتان ، قدمان صغيرتان . عجيبة من العجائب !... ولقد تعارفنا . ثم أعلنتُ أنني في عجلة من أمري ، لأسباب عائلية . لذلك تمت الخطبة

في غداة ذلك اليوم ، اى امس الاول • ومنذئذ أصبحت أجلسها على ركبتي متى وصلت اليهم ، ثم لا اتركها ••• فيحمر خداها من جديد حتى لتصبح بلون الشفق عند الفجر ، واخذ ألتهمها بالقبل التهاما ! وأمها تقنعها طبعا بان الامور يجب أن تجرى على هذا النحو ، لانني ساصبح زوجها • الخلاصة : لذة ما بعدها لذة ! ربما كانت حالة الخطيب هذه احلى وأمتع من الحالة التي ستتلوها ، أعني حالة الزوج • فها هنا نجد « الطبيعة والحقيقة » * كما يقال ! هأ هأ !••• لقد تحدثت معها مرة أو مرتين • ان الصبية ليست بالغبية البتة ، وانها في بعض الأحيان لتنظر الي نظرة تشعل حريقاً في كياني كله • هل تعلم ؟ ان لها وجهاً من نوع وجه « المادونا » التي صورها رافائيل • ان « مادونا سكستين » لها وجه عجيب تماماً ، وجه يعبر عن حزن يلمّ به جنون غيبي ، ألم يخطف هذا بصرك ؟ فاعلم اذن أن وجه خطيبتي فيه شيء من هذا النوع • وما ان تمت خطبتنا حتى حملت اليها هدايا بألف وخمسمائة روبل : حلية من الماس ، وحلية أخرى من لؤلؤ ، ومجموعة فضية من أدوات الزينة ، كبيرة بهذا الحجم ، مع جميع لوازمها ••• فاذا بوجه « المادونا » الصغير يشرق ويزدهر • ثم أجلستها على ركبتي ، ولعلني بلغت في ذلك من قلة التحرج أنها احمرت احمراراً شديداً وطفرت الدموع من عينيها • ولكنها لم تشأ أن تفضح نفسها رغم أن نفسها كانت مشتعلة كل الاشتعال • وخرج الجميع لحظة ، فاصبحنا وحيدين ، أنا وهي ، فاذا هي تبادر فجأة فتحيط عنقي بذراعيها الصغيرتين وتقبلني (من تلقاء نفسها هذه المرة) ، وتحلف لتكونن لي زوجة مطيعة طيبة وفية ، ولتسعدنني ، ولتقفن على هذا حياتها كلها ، كل لحظة من حياتها ؛ ولن تطالبني في مقابل ذلك الا بشيء واحد : « هو أن أحترمها ، أن احترمها فقط ، فهي لا تريد الا هذا ، ولا تريد هدايا ! » • لا شك في أنك توافقني على أن سماع اعتراف كهذا

الاعتراف ، فى خلوة ، من ملاك صغيرة فى السادسة عشرة من عمرها ، ترتدى ثوباً رقيقاً من قماش شفاف ، لها شعر مضفور متدل على جبينها ، وقد احمرت وجنتاها من حياء العذارى وخفرهن ، وأخذت دموع الحماسة تتلألأ فى عينيها ، أقول لا شك فى أنك توافقنى على أن ذلك كله جذاب مغر ! جذاب مغـر ، هذا هو الوصف الصحيح ، أليس كذلك ؟ شىء يستحق أن يدفع المرء ثمنه ، هه ؟ ... اسمع ... سنذهب الى خطيبتى ، ولكن لا الآن !

ـ الخلاصة أن هذا الفرق الرهيب فى السن وفى الثقافة يثير رغبتك الشهوانية مزيداً من الاثارة ! هل من الممكن أن تفكر فعلاً فى الاقدام على زواج كهذا الزواج ؟

ـ لم لا ؟ طبعاً أفكر فى ذلك ! لكل امرىء أن يفكر لنفسه ، وأقدر الناس على خداع نفسه أنجحهم فى قضاء أيام سعيدة ! هأ هأ ! ولكن ما بالك قد أصبحت رجلاً فاضلاً على حين فجـأة ؟ رأفة بى يا عزيزى ، لأننى امرؤ خاطىء مذنب ! هىء هىء هىء !...

ـ ولكنك عنيت بأولاد كاترين ايفانوفنا على كل حال ... كانت هناك بواعث تدفعك الى ذلك ... الآن فهمت كل شىء !.

قال سفدريجايلوف وهو ينفجر ضاحكاً :

ـ أنا أحب الأطفال كثيراً ويمكننى بالمناسـبة أن أروى لك حادثة غريبة ما تزال تجرى حتى هذه السـاعة . لقـد طفت بمختلف الملاهى الموبوءة فى العاصمة منذ وصولى أول يوم ... أسرعت أطوف بها بعـد فراق سبع سنين ! لعلك لاحظت قلة حرصى على اعادة الصلة بينى وبين أصحـابى وأصـدقائى القـدماء . حتى ليمكننى أن أقول اننى أفر منهم

فرارى من الطاعون • يجب أن أقول لك اننى حين كنت أعيش فى الريف عند مارتا بتروفنا كان ينتابنى ضيق شديد كلما تذكرت هذه الأماكن السرية التى يستطيع الانسان الخبير أن يجد فيها أشياء كثيرة ! تباً لى ! الشعب ههنا يسترسل فى السكر ، والشبيبة المثقفة تذوب وتضيع فى احلام خيالية ونظريات عجيبة ، واليهود يهرعون من كل مكان ينهبون كل ما تصل اليه أيديهم من مال ، وسائر الناس يستسلمون فى أثناء ذلك للفسق والمجون • اذن لقد أرسلت الىّ هذه المدينة منذ الساعات الأولى رائحة مألوفة جداً • وسرعان ما وقعت فيما يسمى سهرة راقصة : هو ملهى موبوء فظيع ، ولكننى أحب هذه الأماكن حين تكون باعثة على الاشمئزاز • كان الراقصون مندفعين فى رقص « الكانكان » اندفاعاً محموماً مسعوراً قلما يرى المرء مثله فى هذه الأيام ، ولم نكن نرى مثله فى أيامنا أبداً • لقد تحقق تقدم فى هذا المجال أيضاً • وفجأة لمحت صبية لعلها فى الثالثة عشرة من عمرها ، ترتدى ثياباً لطيفة وتراقص سيداً جميلاً ، وأمامهما شاب آخر • وكانت أمها جالسةً قرب الحائط تنظر اليها • هل تتخيل كيف كان الرقص ؟ لقد كانت الفتاة تشعر بخجل شديد • وهاهى ذى تحمر ، ثم يزداد حرجها وانزعاجها أخيراً فتأخذ تبكى • فيمسكها الراقص الجميل ، ويأخذ يدور بها ، ويقوم بألف حركة وحركة بذيئة ، والناس من حوله تضج بضحك صاخب • اننى فى مثل هذه اللحظات انما أحب جمهورنا خاصة ، حتى جمهور هذا النوع من ملاهى الليل • كان الحضور يضحكون ويصيحون قائلين : « مرحى ! مرحى ! لم يكن عليها الا أن ترفض المجىء الى هنا ! ليس هذا مكاناً للأطفال ! » • أما أنا فلم اكترث طبعاً • وسرعان ما حددت المكان الذى يناسبنى ، ومضيت أجلس قرب الأم • وبدأت أكلمها فقلت لها اننى انا أيضاً مارٌ ببطرسبورج مروراً • وأضفت الى ذلك أن هؤلاء الناس جفاة غلاظ ليس لهم

فراسة تعرّفهم بمن يستحقون الرعاية والمداراة • وبعد أن أسمعتها أننى أملك مالاً كثيراً عرضت عليها أن أوصلهما هى وابنتها بعربة ، فقبلت وأوصلتهما ، فرأيت مسكنهما (انه غرفة مؤثثة حقيرة كانتا قد نزلتاها منذ وقت قصير حين وفدتا من الأقاليم) • وقالتا لى انهما تعدان زيارتى لهما شرفاً عظيماً • وعلمت بعد ذلك انهما لا تملكان قرشاً ، وانهما جاءتا الى بطرسبرج للقيام بمساع لدى ادارة من الادارات • فعرضت عليهما خدماتى ، وقدمت اليهما مالاً • وعلمت عدا ذلك انهما بالمصادفة انما وقعتا فى ذلك الملهى تلك الليلة ، فقد ظنتا أنه مكان لتعليم الرقص • وعرضت أن أساهم فى اتمام ثقافة الفتاة بتعليمها اللغة الفرنسية ، وبتعليمها الرقص خاصة • فسرعان ما قُبل هذا العرض بفرح شديد ، وسرعان ما قيل لى ان هذا شرف كبير ••• وما تزال علاقتنا قائمة ، وما تزال زياراتى متتالية ••• سنذهب اليها معاً لتراها ان شئت ••• ولكن لا الآن !

ـ كفاك ! كفاك حكايات حقيرة دنيئة تبعث على الاشمئزاز ، ايها الانسان الفاسق ، المنحل ، المنحط !

ـ يا لك من شاعر ! يا لك من شيللر ! انظروا أين تختبىء الفضيلة ! هل تعلم أن صرخاتك هذه تغرينى بأن أقصّ عليك المزيد من أمثال هذه الحكايات لأسمعك تطلق المزيد من هذه الصرخات ؟ هذه لذة حقيقية !

دمدم راسكولنيكوف يقول مبغضاً حاقداً :

ـ نعم ، لا شك أننى أبدو سخيفاً مضحكاً ، فأنا كذلك فى نظر نفسى !

ضحك سفدريجايلوف ملء حلقه ، ثم نادى فيليب ، فدفع الحساب، ونهض لينصرف وهو يقول :

ـ نعم ... أنا سكران ... كفى حديثاً !... انها لذة حقيقية !..

صاح راسكولنيكوف يقول وهو ينهض أيضاً :

ـ كيف لا تشعر بلذة ... كيف لا تكون لذةً لرجل فاسق داعر من طينتك أن يقصَّ مغامرات كهذه المغامرات وهو يحلم بمشاريع شيطانية أخرى من هذا النوع ، وأن يقصَّ ذلك على انسان مثلى ؟... هذا يؤجج رغبتك ، ويهيج نفسك ، أليس كذلك ؟

قال سفدريجايلوف بشيء من الدهشة وهو يتفرس فى راسكولنيكوف:

ـ اذا كنت ترى هذا الرأى ، فانك اذن لمستهتر عظيم ... أو ان فيك لاستعداداً لهذا . انك تستطيع أن تدرك كثيراً من الأشياء ... وأن تصنع بها كذلك كثيراً من ... ولكن كفى ! يؤسفنى حقاً أن حديثنا كان قصيراً هذا القصر كله ، ولكنك لن تفلت منى هكذا ... اصبر قليلاً ...

خرج سفدريجايلوف من الحانة ، وتبعه راسكولنيكوف .

الحق أن سفدريجايلوف لم ينل منه السكر كثيراً . ان الشراب لم لم يصعد الى رأسه الا لحظة قصيرة ، وكان ثمله يتبدد مزيداً من التبدد شيئاً بعد شيء . كان هناك أمر هام جداً يشغل باله ، يشغل باله كثيراً ، فكان يقطب حاجبيه ، وكان انتظار هذا الشيء يقلقه اقلاقاً واضحاً ، ويثير أعصابه . ولم يفت راسكولنيكوف أن يلاحظ أن سفدريجايلوف قد غيَّر

لهجته فى مخاطبته منذ لحظات ، وأنه أصبح يكلمه بمزيد من الفظاظة والسخرية •

واشتبه راسكولنيكوف فى أمر سفدريجايلوف ، فقرر أن يتبعه •

وصلا الى الرصيف •

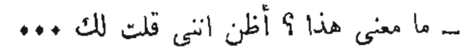
ـ أنت تذهب يمنة وأنا أذهب يسرة ، اللهم الا أن يكون العكس ! المهم أن نفترق • الى اللقاء ، الى اللقاء ، سيسرنى أن أراك مرة أخرى•

قال سفدريجايلوف ذلك وسار يمنة فى اتجاه « سوق العلف »•

الفصل الخامس



راسكولنيكوف وراءه ، فصاح سفدريجايلوف يقول ملتفتاً اليه :



ــ ما معنى هذا ؟ أظن انني قلت لك ...

ــ معنى هذا انني لن أتركك قيد أنملة ...

ــ ماذا ؟ ماذا ؟

وتوقف الاثنان ، وأخذ كل منهما يروز صاحبه بنظرة خلال دقيقة .

وقال راسكولنيكوف بلهجة قاطعة :

ــ بعد جميع الحكايات التي رويتها لي وأنت في شبه سكر ، يحق لي أن أتصور أنك لم تهجر مشاريعك الدنيئة فيما يتعلق بأختي ، بل وأن هذه المشاريع تشغلك الآن أكثر مما كانت تشغلك في أي وقت مضى . أنا أعلم أن أختي تلقت في هذا الصباح رسالة . ولقد كنت أنت قلقاً لا تستقر على حال . ومن الجائز جداً أن تكون قد عثرت على خطيبة جديدة ، ولكن هذا لا يبرهن على شيء ، فأنا أريد أن أتحقق من الأمر بنفسي .

لو سئل راسكولنيكوف أن يقول ما هو الأمر الذي يريد أن يتحقق منه بنفسه لارتبك أشد الارتباك .

قال سفدريجايلوف :

ـ ها ... هكذا ؟ أتريد أن أنادى الشرطة ؟

ـ نادها !

وتوقفا من جديد ، ومن جديد أخذ كل منهما يتفرس فى الآخر. وأخيراً تغيّر تعبير وجه سفدريجايلوف ، فانه حين رأى أن راسكولنيكوف لم يخفف تهديده ، أسرع يصطنع هيئة تنم عن مرح ومودة وصداقة ، وقال :

ـ ما أغرب أمرك ! لقد تعمدت أن لا أكلمك فى قضيتك ، رغم أن الفضول ينهش قلبى نهشاً ... انها لقضية هائلة ! لقد آثرت أن أرجىء الكلام فيها الى مرة أخرى ... ولكنك قادر على أن تجعل الميت نفسه يفقد صبره وتثور أعصابه . تعال معى ان شئت ، ولكننى أنبّهك : ان علىّ أن أرجع الى البيت لحظةً لآخذ شيئاً من المال ، ثم أغلق الباب بالمفتاح ، ثم أقفز راكباً عربة من العربات لأمضى الى قضاء السهرة فى «الجزر» . فكيف تستطيع أن تتبعنى والحالة هذه ؟

ـ ان علىّ أن أذهب الى عمارتك أنا أيضاً ، لا الى بيتك أنت ، بل الى بيت صوفيا سيميونوفنا ، لأعتذر لها عن تخلفى عن حضور الجنازة .

ـ لك ما تشاء . ولكن صوفيا سيميونوفنا ليست فى بيتها . فقد ذهبت بالأولاد الى بيت سيدة هى صديقة قديمة لى تدير ملجأً للأيتام . لقد فتنت تلك السيدة بأن دفعت لها مبلغاً من المال لصغار كاترين ايفانوفنا الثلاثة ، كما وهبت مبلغاً آخر للملجأ الذى تديره . وقد قصصت عليها كذلك قصة صوفيا سيميونوفنا بنصها الكامل دون أن أخفى شيئاً . فكان الأثر الذى أحدثته فى نفسها هذه القصة أثراً عميقاً لا يوصف . وذلك هو السبب فى أن صوفيا سيميونوفنا قد دُعيت الى أن تذهب فى هذا اليوم

نفسه الى البيت الذى نزلته تلك السيدة مؤقتاً حين عادت من اجازتها منذ برهة .

ـ سأذهب مع ذلك الى صوفيا سيميونوفنا .

ـ افعل ما تشاء ، لكننى لن أصحبك . ما ذهابى الى هناك ؟ ثم ها نحن قد أوشكنا أن نصل . قل لى : يخيَّل الىّ أنك انما تنظر الىّ نظرة الريبة هذه لأننى كنت مؤدباً مهذباً فلم أزعجك بأسئلة كان يمكن أن ... أنت تفهم عنى ! لقد بدا لك ذلك أمراً خارقاً ، أليس كذلك ؟ فهلا أظهرت أنت أيضاً شيئاً من الأدب والتهذيب !

ـ وهل كان أدباً وتهذيباً أن تتنصت على الأبواب ؟

قال سفدريجايلوف وهو يضحك :

ـ ها ... اذن ما زلت تتذكر هذا وتفكر فيه ! على كل حال ، كان سيدهشنى أن لا تثير هذا الموضوع ! هأ هأ هأ ! ولكن الواقع أننى لم أسمع الا بضع شذرات من جميع تلك المهازل التى كنت تقصها على صوفيا سيميونوفنا ... وقد فاتتنى خاتمة ذلك كله . قد أكون شخصاً متخلف الذكاء محدود العقل عاجزاً عن فهم أى شىء . ولهذا نفسه انما أناشدك الله يا صديقى أن تشرح لى .... أرجوك أن تنير عقلى على هدى مبادىء العصر ...

ـ أنت تكذب ! لا يمكن أن تكون قد سمعت شيئاً !

ـ عجيب ! أنا لا أتكلم عن هذا (رغم أننى سمعت بعض الأشياء). لا ، ان كل ما أريد أن أقوله هو أنك لا تنفك تئن وتتوجع . ان شيللر الذى يثوى فى نفسك يسبب لك اضطرابا فى كل لحظة . ثم أنت تريد الآن أن لا يتنصت أحد على الأبواب ! فاذا كنت قاسياً الى هذا الحد ، فهلمّ اعترف للسلطات وقل لها : « لقد ألمّت بى مصيبة ، لقد وقع خطأ

صغير فى نظرياتى الفلسفية » • أما اذا كنت مقتنعاً بأنه لا يجوز للمرء أن أن يتنصت على الأبواب، وأنه يجوز له أن يهشم رءوس العجائز الصغيرات اللواتى تقع عليهن يده ، فما عليك فى هذه الحالة الا أن تبادر فتهاجر الى مكان ما ، الى أمريكا مثلاً ••• لا أدرى ••• وانما يجب أن تفعل ذلك بأكبر سرعة • اهرب أيها الفتى ! لعله لم يفت الأوان بعد • اننى أكلمك صادقاً وأخلص لك النصح • ماذا ؟ هل يعوزك المال اللازم للسفر ؟ سأعطيك ما أنت فى حاجة اليه •

قاطعه راسكولنيكوف قائلا باشمئزاز :

ـ لا يخطر هذا ببالى على الاطلاق •

ـ أفهم ذلك • ولا تكلف نفسك عناء الكلام ، فان لك أن لا تقول شيئاً البتة • اننى أفهم المسائل التى تدور فى رأسك ••• هى مسائل •• من نوع أخلاقى ، أليس كذلك ؟ أنت تتساءل هل تصرفت التصرف الذى يليق بانسان ، بمواطن ؟ ولكن دع هذه المسائل ، انبذها ! فيم يمكن أن تفيدك الآن ؟ هىء هىء هىء ! والا ، ما كان عليك أن تزج نفسك فى هذا الأمر وأن تشرع فى عمل لست قادراً على المضى فيه الى النهاية • هيّا هشّم دماغك ! لا تحب ذلك ؟

ـ لكأنك تحاول احناقى عامداً لأنصرف •

ـ غريب أمرك ! لقد وصلنا ، فما عليك الا أن تكلف نفسك عناء صعود السلم ! ها هو ذا باب صوفيا سيميونوفنا • انظر • ليس فى بيتها أحد • ألا تصدقنى ؟ اسأل اذن آل كابرناؤموف • انها تترك لهم المفتاح دائماً • وهذه هى « السيدة » كابرناؤموف بنفسها على كل حال • ماذا ؟ (انها صماء قليلاً) • هل خرجت صوفيا سيميونوفنا ؟ فالى أين ذهبت ؟ ها قد سمعتَ أنها ليست فى بيتها وأنها لن ترجع الا فى ساعة متأخرة من

الليل • تعال اذن معى ، الى بيتى • كنتَ تريد أن تجيء الىَّ فعلاً ، أليس كذلك ؟ فها نحن فى بيتى ! ليست السيدة ريسليش هنا • انها لا تنقطع عن الحركة ، لكنها امرأة طيبة ، أؤكد لك ؟ وفى وسعها أن تفيدك كثيراً اذا أنت أظهرت شيئاً من التعقل • انظر : هأنا ذا آخذ من مكتبى سنداً مالياً (وأنت ترى أننى أملك سندات كثيرة أخرى) ، غير أن السند سيبدَّل منذ هذا المساء نقوداً رنانة • هل رأيت ؟ لم يبق لدى وقت أضيعه • هأنا ذا أغلق مكتبى ، وأغلق باب الشقة ، وها نحن نهبط السلَّم • هل تريد أن نركب عربة ؟ اننى ذاهب الى « الجزر » كما تعلم• هل يسرك أن تقوم بجولة صغيرة بالعربة • انظر : هأناذا آخذ هذه العربة ، وأطلب من الحوذى أن يقودنى الى جزيرة ايلاجين • ماذا ؟ أترفض ؟ أنت منهوك القوى ؟ هيَّا ••• لنقم بجولة صغيرة معاً ! أحسب أن المطر سيهطل ، ولكن لا ضير ، سنرفع غطاء العربة •

كان سفدريجايلوف قد استقر فى العربة • واعتقد راسكولنيكوف، فى تلك اللحظة على الأقل ، أن شبهاته ليس لها ما يسوِّغها • فاستدار دون أن يجيب بشىء ، وسار فى اتجاه « سوق العلف » • ولو قد التفت الى وراء لرأى سفدريجايلوف ينقد الحوذى أجره بعد مائة خطوة ، ويعود يمشى على الرصيف • ولكن راسكولنيكوف لم يكن قادراً على أن يرى شيئاً ، وكان قد انعطف يقطع ناصية الشارع • ان اشمئزازاً كان يدفعه بعيداً عن سفدريجايلوف • هتف يتساءل رغم ارادته : « كيف أمكننى ، ولو خلال لحظة قصيرة ، أن انتظر شيئاً من هذا الانسان الدنىء الحقير ! من هذا الوغد السافل المنحط ! » • ولكن الحقيقة هى أن حكم راسكولنيكوف على سفدريجايلوف كان فيه شىء من تسرع وتعجل• ومهما يكن من أمر فان الجو الذى خلقه سفدريجايلوف كان يضفى على سفدريجايلوف شيئاً من شذوذ ، بل ويحيطه بشىء من السر • وظل

راسكولنيوف مقتنعاً بأن سفدريجايلوف لن يدع أخته فى سلام • ولكن التفكير واعادة التفكير فى هذا الأمر كانا قد أصبحا يشقان كثيراً على نفس راسكولنيكوف •

فلما أصبح وحيداً لم يلبث بعد عشرين خطوة أن استرسل فىأحلام عميقة على عادته • حتى اذا وصل الى الجسر توقف قرب الافريز وأخذ يتأمل الماء ، بينما كانت آفدوتيا رومانوفنا تتأمله هو • كان قد قاطعها عند أول الجسر تماماً ، ولكن دون أن يلاحظها • وهذه أول مرة تلتقى فيها دونيا بأخيها فى الشارع على هذا النحو ، وقد انقبض صدرها رعباً وذعراً حين رأته ، وتوقفت لا تدرى أتناديه أم لا • ثم لم تلبث أن لمحت سفدريجايلوف على حين فجأة ، متجهاً نحو « سوق العلف » بخطى سريعة، وكأنه يسير محاذراً متخفياً ؟ ولم يدخل الجسر ، بل توقف على الرصيف، متنحياً بعض التنحى ، حتى لا يراه راسكولنيكوف • كان قد لاحظ دونيا منذ برهة طويلة ، وهو يحرك لها يديه باشارات فهمت دونيا منها أنه يحضها على أن لا تنادى أخاها ، وأن تتركه وشأنه ، وأن تلحق به هو •

وذلك ما فعلته دونيا : فها هى ذا تتجاوز أخاها ، دون أن تقول كلمة ، وها هى ذى تقترب من سفدريجايلوف •

دمدم سفدريجايلوف قائلاً لها :

ــ تعالى بسرعة ! لا أريد أن يعلم روديون رومانتش بموعدنا • اعلمى اننى خارج من حانة قريبة وافانى فيها ثم لم أعرف كيف أتخلص منه الا بكثير من المشقة والعناء ! لا أدرى كيف سمع بأمر الرسالة التى بعثت بها اليك ، وهو الآن يشتبه فى أن هناك شيئاً ما • أرجو أن لا تكونى أنت التى بحت له ببعض الأسرار • ولكن اذا لم تكونى أنت ، فمن عسى يكون ؟•••

قاطعته دونيا تقول :

ـ لقد انعطفنا وقطعنا ناصية الشارع ، فأصبح أخى لا يستطيع أن يرانا . لن أتبعك الى أبعد من هذا المكان . فقل لى كل شيء هنا . اننا نستطيع أن نتكلم فى الشارع .

ـ أولاً : لا يمكن أن يقال هذا فى عرض الشارع . ثانياً : ينبغى أن تسمعى أيضاً صوفيا سيميونوفنا . ثالثاً : هناك وثائق يجب أن أظهرك عليها . أخيراً : اذا كنت ترفضين أن تجيئى الى بيتى فسوف أمتنع عن كل شرح ، وسوف أنصرف فوراً . هذا وأرجوك أن لا تنسى أن سراً شائقاً جداً ، متعلقاً بأخيك الحبيب ، يوجد بين يدى .

توقفت دونيا مترددة ، ورشقت سفدريجايلوف بنظرة نافذة ، فسألها سفدريجايلوف هادئاً :

ـ ممّ تخافين ؟ ليست المدينة كالريف . ثم انك فى الريف قد أسأت الىّ أكثر مما أسأت اليك . لذلك ...

ـ هل أطلعت صوفيا سيميونوفنا ؟

ـ لا ، لم أقل لها كلمة واحدة ، حتى اننى لست واثقاً كل الثقة بأنها الآن فى بيتها . ولكن أغلب الظن أنها هناك . لقد دفنت اليوم قريبتها ، فما هذا يوم زيارات تقوم بها . على كل حال ، لن أحدث أحداً فى هذا الأمر الآن ، حتى ليؤسفنى أننى أطلعتك عليه ، فان أقل طيش يساوى هنا وشاية . انظرى : هذا هو المنزل الذى أقطن فيه ، أمامنا . والبواب يعرفنى جيداً . هذا هو يحيينى كما ترين . انه يلاحظ أن معى سيدة . وطبيعى أن صورة وجهك قد نقشت الآن فى ذاكرته . وينبغى لهذا أن يطمئنك اذا كنت تخافين منى وتشكين فىّ . اغفرى لك هذه

الفظاظة في مخاطبتك . أنا هنا مستأجر عند مستأجرين ، وليس يفصلني عن صوفيا سيميونوفنا الا حائط ، فهي أيضاً مستأجرة عند مستأجرين . الطابق كله مسكون ، فممَّ خوفك ؟ ألا أن هذا الخوف لخوف طفلة صغيرة ! أأنا مخيف الى هذه الدرجة ؟

قال سفدريجايلوف ذلك وهو يصطنع ابتسامة أراد لها أن تعبِّر عن الطيبة والسماحة ، ولكنه كان قد بلغ من الاضطراب حداً لا يستطيع معه أن يحسن التمثيل . كان قلبه يخفق خفقاناً قوياً ، وكانت أنفاسه مختنقة. وكان يتعمد أن يتكلم بصوت قوى ليخفى اضطرابه المتزايد ، ولكن دونيا لم تلاحظ هذا الاضطراب . لقد ساءها كثيراً ما قاله عن خوفها الذى يشبه خوف الأطفال وعن هيئته المخيفة فى نظرها .

قالت بلهجة ظاهرها هادىء ، وكان وجهها شاحباً شحوباً شديداً :

ـ رغم انني أعدك رجلاً لا شرف له ... فانني لا أخاف منك البتة . تقدمني !

توقف سفدريجايلوف أمام باب صونيا .

ـ اسمحي لى أن أسأل هل هى فى بيتها . لا ، ليست فى بيتها . يا لسوء الحظ ! لكنني أعلم أنها قد تعود بين لحظة ولحظة . لئن تغيبت ، فما ذلك الا لأنها ذهبت تزور سيدة لتبحث معها أمر الأيتام . فاذا لم ترجع خلال عشر دقائق فسوف أرسلها اليك فى هذا اليوم ان رغبت فى ذلك . هذا مسكني ، وهاتان هما الحجرتان اللتان أحتلهما . وراء هذا الحاجز تسكن صاحبة البيت السيدة ريسليش . والآن أنظرى هنا ، سوف أظهرك على وثائقي الأساسية . من غرفة نومي يفضى هذا الباب الذى ترين الى غرفتين خاليتين كل الخلو ، معدَّتين للتأجير . انظرى .. يجب أن تنتبهى اليهما أكبر الانتباه .

كان سفدريجايلوف يشغل غرفتين مؤثثتين واسعتين • أجالت دونيا بصرها فيما حولها مرتابة ، لكنها لم تلاحظ شيئاً خاصاً يلفت النظر ، لا فى أثاث الغرفتين ولا فى ترتيبهما ، رغم أنها كان يمكن أن تنتبه الى أن شقة سفدريجايلوف تقع بين بيتين غير مسكونين تقريباً ، يصل المرء اليهما لا من الممر رأساً ، بل باجتياز غرفتين خاليتين لصاحبة البيت • وفتح سفدريجايلوف باباً مقفلاً بالمفتاح ، يقع فى آخر غرفة نومه ، فأرى دونيا المسكن الخالى المعدّ للتأجير •

وقفت دونيا عند العتبة لا تدرى لماذا يدعوها سفدريجايلوف الى أن تنظر ، ولكن سفدريجايلوف أسرع يمدها بالشروح فقال لها :

ــ انظرى هنا ، الى هذه الغرفة الثانية • لاحظى هذا الباب • انه مغلق بالمفتاح • وقرب هذا الباب يوجد كرسى • انه الكرسى الوحيد الذى يمكن العثور عليه فى هاتين الغرفتين • أنا الذى جئت به الى هنا لأحسن التنصت بغير عناء ولا تعب • ووراء هذا الباب مباشرة ، توجد مائدة صوفيا سيميونوفنا • لقد كانت جالسةً الى هذه المائدة تتحدث مع روديون رومانتش • فمن موضع جلوسى على هذا الكرسى ، فى هذا المكان نفسه ، ظللت أنا أتنصت الى حديثهما مساءين متتاليين ، خلال ساعتين فى كل مرة • فعرفت بعض الأمور طبعاً • ما رأيك ؟

ــ تنصت على الباب ؟

ــ نعم ، تنصت على الباب• والآن فلنذهب الى غرفتى• هنا لا نستطيع أن نجلس •

قال سفدريجايلوف هذا وقاد آفدوتيا رومانوفنا الى الغرفة الأولى التى يتخذها صالوناً ، ودعاها الى الجلوس • وجلس هو الى الطرف الآخر من المائدة ، ولكن عينيه كانتا تسطعان بذلك اللهيب نفسه الذى كان قد

روّع دونيا ترويعاً شديداً فى ذات يوم . ارتعشت دونيا ؛ ومرةً أخرى نظرت فيما حولها مرتابة . كانت لا تريد أن تظهر ارتيابها ، غير أن حالة العزلة فى شقة سفدريجايلوف أثارت دهشتها وقلقها أخيراً ، فأرادت أن تسأله هل صاحبة الدار موجودة فى الدار على الأقل ، ولكن كبرياءها صدّتها عن هذا السؤال . وكان قلبها على كل حال يعانى ألماً أشد كثيراً من كل ألم يمكن أن تعانيه فى سبيل نفسها . وكان هذا الألم يعذبها عذاباً شديداً .

بدأت تتكلم فقالت وهى تضع رسالته على المائدة :

ــ هذه رسالتك . هل ما أوردته فيها ممكن ؟ انك تلمع الى جريمة ارتكبها أخى . لا تحاول أن تتهرب وأن تتملص الآن . ان الماعك أوضح من أن تنكره . واعلمْ أننى حتى قبل أن أتلقى رسالتك كنت سمعت عن هذه الحكاية الدنيئة التى لا أصدق منها حرفاً واحداً . ان افتراضاً كهذا الافتراض منحط وسخيف فى آن واحد . اننى أعلم كيف لُفّقت هذه الخرافة . لا تستطيع أن تقدم أى برهان على ... لقد وعدتنى بأن تبرهن : فتكلم اذن ! ولكن عليك أن تعلم سلفاً اننى لن أصدّقك . لا ، لن أصدقك ! لا ، لن أصدّقك !

قالت دونيا هذه الكلمات متدفقة ، واحمر وجهها احمراراً شديداً من فرط الانفعال فى لحظة .

قال سفدريجايلوف :

ــ ولكن اذا كنت لا تصدقيننى فلماذا جئت الى بيتى وحيدة ؟ نعم ، لماذا جئت الى بيتى ؟ هل بدافع الفضول وحده ؟

ــ لا تعذبنى ! تكلم ! تكلم !

ـ لا شك فى أنك فتاة شجاعة . لقد ظننت أنك ستطلبين من السيد رازوميخين أن يصحبك الى هنا . لكنه لم يظهر لا معك ، ولا حولك . لقد نظرت ملياً فلم أره . هذه شجاعة منك . أنت تريدين اذن أن تنقذى أخاك روديون رومانتش ! على كل حال ، فان كل ما فيك عظيم ، رائع ! ... أما أخوك ، فماذا أقول لك عنه ؟ لقد رأيته بنفسك ، فما رأيك فى حالته ؟

ـ أرجو أن لا تكون حالتـه هذه هى الأســاس الذى بنيت عليك اتهامك اياه !

ـ لا ، لا ، لم أبن اتهامى على حالته فحسب ، بل على أقواله أيضاً. على كل حال ، لقد جاء الى صوفيا سيميونوفنا مساءين متتاليين ، فجلسا فى المكان الذى أريتك اياه . وهناك اعترف لها بكل شىء ، اعترافاً تاماً . انه قاتل . قتل العجوز المرابية التى كان قد رهن عندها أشياء ، وقتل اختها المتـاجرة التى تسـمى اليزابت والتى دخلت مصـادفةً بينما كان يقتـل العجوز . قتلهما كلتيهما بساطور جاء به لانفاذ جريمته . قتلهما ليسرق ، وقد سرق . أخذ مالاً ، وأخذ أشـياء صـغيرة !... أنا انما أروى لك ما رواه هو نفسه ، كلمةً كلمةً ، لصوفيا سيمونوفنا التى تعرف وحدها السر والتى لم تشـارك فى جريمـة القتـل أية مشـــاركة ، لا بالقـول ولا بالفعـل ، حتى لقـد روعتهـا هذه القصـة كما تروّعك أنت الآن . لا تخافى ! لن تشى به !

تمتمت دونيا تقول وقد ابيضت شفتاها ، واختنق صدرها :

ـ هذا مستحيل ! مستحيل ! ليس هناك أى سبب يدفعه الى ذلك ! ليس هناك أى باعث يحضه على ذلك ! ... هذا كذب ! كذب فظيع !..

ـ لقد سرق . هذا هو الدافع الوحيد . أخذ مالاً ومجوهرات .

صحيح أنه ، كما قال ، لم ينتفع بذلك المال ولا بتلك المجوهرات ، بل مضى يخبىء كل شيء تحت صخرة ما تزال تدفن تحتها المال والمجوهرات جميعاً . ولكن السبب فى ذلك هو أنه لم يجرؤ ...

صاحت دونيا تقول وهى تنهض عن مكانها واثبة :

ـ ولكن هل يُعقل أن يكون قد سرق ؟ هل يمكن أن يكون قد راودته هذه الفكرة حقاً ؟ انك تعرفه ، انك رأيته ، فهل يمكن أن يكون لصاً سارقاً ؟

لكأنها كانت تتضرع الى سفدريجايلوف . كان يبدو أنها نسيت خوفها وذعرها .

ـ هناك يا آفدوتيا رومانوفنا ألوف وملايين من أصناف السارقين : رب رجل يسرق وهو يدرك فى قرارة نفسه أنه يرتكب عملاً سيئاً . وقد سمعت مرةً عن رجل نبيل المحتد كريم النفس أنه سلب عربة بريد ، فمن يدرى ؟ لعله حين فعل ذلك كان يظن أنه يقوم بعمل محمود؟ لو كنت فى مكانك لدُهشت دهشتك هذه نفسها ، ولو روى لى هذه القصة شخص آخر لما صدّقته . ولكنى لا أستطيع أن أكذّب أذنىّ . ان أخاك قد بسط لصوفيا سيميونوفنا كافة الدوافع الذى حضته على ارتكاب فعلته، فأبت هى نفسها أول الأمر أن تصدّق ، ولكنها لم تملك أخيراً الا أن تصدّق ، حين رأت هيئته ... فهناك الآذان ، وهناك الأعين أيضاً .

ـ وما هى تلك الدوافع ؟

ـ تلك حكاية طويلة جداً يا آفدوتيا رومانوفنا . كيف أشرح لك؟ لقد اعتمد على نظريته تلك المعروفة التى تجيز الجريمة على شرط أنتكون تلك الجريمة ذات هدف عادل نبيل ... فعلة شر واحدة فى مقابل مائة

فعل من أفعال الخير ! ثم ... أليس يشق على نفس فتى موهوب جداً ، زاخر بكبرياء لا حدود لها ، أن يحس أنه لو ملك ثلاثة آلاف روبل فقط لتغير مستقبله كله ، وأن لا يستطيع الحصول على ذلك المبلغ ؟ أضيفى الى ذلك حالة الخنق المرضى الناشيء عن جوعه المزمن ، وعن سكناه فى حجرة ضيقة مسرفة فى الضيق ، وعن ارتدائه اسمالاً بالية وخرقاً ممزقة ، وعن شعوره بكل ما فى وضعه الاجتماعى من بؤس وشقاء ، بالاضافة الى وضع أمه وأخته. وهناك ، فوق ذلك كله ، الطموح ، والأنفة، والغرور، وربما عواطف طيبة أيضاً ... الله أعلم ! صدقى أننى لا أتهمه . ثم ان اتهامه ليس شأنى أنا. وهناك أيضاً نظريته الصغيرة تلك ـ هى نظرية كأية نظرية أخرى ـ تلك التى تذهب الى أن الانسانيةُ تنقسم الى فئتين ، فئة الأفراد المواد وفئة الأفراد الأفذاذ الخارقين أى الأفراد الذين يجيز لهم مستواهم العقلى أن لا يصدّهم أى قانون من القوانين ، فهم الذين يفرضون القوانين على غيرهم ، أى على أولئك الذين تتألف منهم فئة الأفراد المواد ، الذين يتألف منهم القطيع ، الذين هم الغبار ! نظرية لطيفة كأية نظرية أخرى ، أليس كذلك ؟ لقد فتنه نابوليون كثيراً ، أو قولى انه انقاد لاغراء ذلك الرأى الذى يرى أن العباقرة لا يكترثون لحالات الظلم الفردية ، بل يتخطونها فلا يرتبكون بأمور هينة يسيرة . ولقد تخيل ، فيما يبدو ، أنه هو نفسه عبقرى ؛ أو قولى على الأقل انه كان مقتنعاً بهذا خلال مدة من الزمن . وقد تعذب كثيراً كذلك ، وما يزال يتعذب ، فهو يدرك الآن أنه ان استطاع أن يضع نظرية ، فلقد عجز عن المضى قُدُماً بلا تردد ؛ أى لقد أدرك أنه ليس عبقرياً . وهذا الادراك أمر يشعر منه الفتى ، اذا كانت نفسه زاخرة بالكبرياء ، يشعر منه بمذلة كبيرة واهانة عظيمة ، ولا سيما فى عصرنا هذا ...

ـ وعذاب الضمير ؟ أأنت تنكر عليه اذن أى حسٍ أخلاقى ؟ أهو ••• حقاً ••• كما تصف ؟

ـ آه يا آفدوتيا رومانوفنا ! ان كل شىء قد اضطرب الآن واختل•• ناهيك عن أن النظام الكامل لم يوجد فى هذا العالم يوماً • ثم ان الروس على وجه العموم أصحاب نفوس واسعة رحيبة كأراضيهم ، وهم ميّالون كثيراً الى الخيال والنزوة والفوضى • ولكن النفس الواسعة الرحيبة تكون خطرة اذا لم يوهب لها شىء من عبقرية • تذكرى مناقشاتنا القديمة فى هذا الموضوع هناك ، فى الشرفة المطلة على الحديقة ••• لقد كنت تعيبين علىّ سعة النظر هذه منذ ذلك الأوان • من يدرى مع هذا ؟ لعله ، حينما كنا نحن نتكلم ، كان هو مستلقياً على فراشه يجتر مشروعه • ان مجتمعنا المثقف لا يلمع بتقاليده يا آفدوتيا رومانوفنا • بعض الناس يصنعون لأنفسهم تقليداً من التقاليد كيفما اتفق ، من كتب قرأوها ، وبعضهم يستمدون أصباغ تقليد من بعض حكايات الماضى • ولكن هذا انما يصدق على العلماء ، وأكثرهم يبلغ من الحماقة أن رجلاً من رجال المجتمع الراقى يخجل من اقتفاء أثرهم واتخاذهم قدوةً له • على أنك تعرفين آرائى : أنا لا ألوم أحداً • كل ما هنالك اننى أتحاشى أن أقحم نفسى فى شىء • لقد سبق أن تحدثنا فى هذا مراراً • حتى ان آرائى قد شرّفها أن حظيت باهتمامك ••• انك شاحبة جداً يا آفدوتيا رومانوفنا •

ـ أنا أعرف نظرية أخى هذه • قرأت فى مجلة من المجلات مقالته عن الرجال الذين يباح لهم كل شىء • ان رازوميخين هو الذى جاءنى بتلك المجلة •

ـ السيد رازوميخين ؟ مقالة أخيك ؟ ولكننى كنت أجهل وجود مقالة كهذه المقالة • لا بد انها شائقة جداً !••• الى أين أنت ذاهبة يا آفدوتيا رومانوفنا ؟

ـ أريد أن أرى صوفيا سيميونوفنا • من أين يجب المرور للذهاب اليها ؟ لعلها عادت ! أريد أن أراها على الفور حتماً • يجب أن •••

لم تستطع آفدوتيا رومانوفنا أن تتم كلامها ، فقد انقطع تنفسها فعلاً •

ـ لن تعود صوفيا سيميونوفنا قبل هبوط الليل • هذا ما افترضه على الأقل • كان يجب أن تعود اما في وقت مبكّر جداً واما في وقت متأخر جداً •••

ـ آ ••• الآن أرى أنك تكذب ! الآن أرى أنك تكذب ! أنت لم تزد على أن كذبت ! انني لا أصدّق كلمة واحدة مما ذكرت ••• لا أصدّق منه كلمة واحدة !

بهذا صاحت دونيا وقد خرجت عن طورها وفقدت صوابها •

ثم تهالكت على كرسى أسرع يقدمه اليها سفدريجايلوف وقد أوشكت أن تسقط مغشياً عليها •

ـ ماذا بك يا آفدوتيا رومانوفنا ؟ عودى الى نفسك ! اليك ماءً ! اشربى جرعة ماء !

قال سفدريجايلوف لها ذلك ، ورشّ وجهها بالماء ، فارتعشت وأفاقت •

فدمدم يقول بينه وبين نفسه مقطّب الوجه :

ـ ما أبلغ تأثير هذا الأمر فى نفسها •

ثم قال لها :

ـ هدئي روعك يا آفدوتيا رومانوفنا ! أنت تعرفين أن له أصدقاء . سوف ننقذه ، سوف نخرجه من المأزق ! هل تريدين أن أساعده على أن يجتاز الحدود ؟ انني أملك مالاً . وبعد ثلاثة أيام سأكون قد استخرجت له جواز سفر . لقد قتل ، نعم ، ولكن هدئي نفسك . ما يزال في وقته متسع لأن يقوم بأعمال خيّرة كثيرة . ما يزال يستطيع أن يصبح رجلاً عظيماً . ما بك ؟ ألا تشعرين الآن بتحسن ؟

ـ رجل شرير ... ما يزال يستطيع أن يسخر ويستهزىء ! دعني ...

ـ الى أين أنت ذاهبة ؟ الى أين ؟

ـ اليه ! أين هو ؟ هل تعلم أين هو ؟ لماذا هذا الباب مغلق ؟ من هذا الباب دخلنا ، فمالي أراه الآن مقفلاً بالمفتاح ؟ متى أتيح لك أن تقفله ؟

ـ لم يكن في الامكان أن نُسمع جميع الغرف ما قلناه ! وأنا لا أسخر ولا استهزىء البتة ، حتى انني سئمت من الحديث في هذا الأمر كله . غريب ! الى أين تريدين أن تذهبي ؟ أتراك تريدين أن تزجيه في السجن ؟ لو ذهبت اليه لاشتعل غضباً وحنقاً ، ولمضى يشي بنفسه ! اعلمي أنه مراقب منذ الآن ، وأنهم يتتبعونه . لسوف تكشفين أمره مزيداً من الكشف ! انتظري ... لقد رأيته منذ قليل وكلمته . ما يزال في الامكان انقاذه . انتظري . اجلسي . سنفكر معاً . من أجل هذا انما دعوتك ، من أجل أن نتحدث في خلوة وأن نتعمق درس المشكلة . ولكن هلا جلست !

ـ بأية طريقة تستطيع أن تنقذه ؟ وهل يمكن انقاذه ؟

قالت دونيا ذلك وجلست ، فجلس سفدريجايلوف الى جانبها ، وبدأ

يتكلم فقال وقد اشتعلت عيناه ، قال بما يشبه الدمدمة وهو لا يكاد يستطيع أن ينطق بالكلمات :

ـ كل شيء متوقف عليك ...

فتراجعت دونيا بضع خطوات ، مذعورةً مرتجفة . وكان سفدريجايلوف يرتجف هو أيضاً من قمة الرأس الى أخمص القدمين .

ـ أنت ... كلمة منك أنت ويُنْقَذ ! أنا ... أنا سوف أنقذه ! عندي مال ، ولي أصدقاء ! سأرحِّله فوراً ، وسأحصل أنا نفسي على جواز سفر .. سأحصل على جوازي سفر ، واحد له وواحد لي . لي أصدقاء ... رجال قانون ... هل تريدين ؟ وسأحصل أيضاً على جواز سفر لك أنت ، ولأمك ... ما حاجتك الى رازوميخين ؟ انني أحبك مثلما يحبك . أحبك حباً لا نهاية له . دعيني أقبل حافة ثوبك ! دعيني أفعل هذا ، دعيني أفعل هذا ! أصبحت لا أطيق سماع حفيف ثوبك ! مريني بما يجب أن أفعل فأفعل . سأفعل كل شيء ، سأفعل المستحيل ! أصدِّق كل ما تصدقينه وأومن بكل ما تؤمنين به ! أفعل كل شيء ، كل شيء ! لا تنظري اليَّ هكذا ، لا تنظري اليَّ هكذا ! هل تعلمين أنك تقتلينني..

أخذ سفدريجايلوف يهذي . ان شيئاً ما قد مسَّه فجأة ، كأنه تلقى ضربة على رأسه . ونهضت دونيا بوثبة . واندفعت نحو الباب ، وصاحت تقول وهي تهز الباب بكلتا يديها :

ـ افتحوا ! افتحوا ! ألا فتحتم الباب ؟ هل يمكن أن لا يكون ثمة أحد ؟

كان سفدريجايلوف قد جلس ، وها هو ذا ينهض الآن وقد ألمت ابتسامةٌ خبيثة ساخرة بشفتيه اللتين كانتا ما تزالان ترتعشان .

قال بصوت خافت متقطع :

ـ ليس ثمة أحد • صاحبة الدار خرجت • تضيِّعين وقتك سُدى بهذا الصراخ • تثيرين أعصابك فى غير طائل •

ـ أين المفتاح ؟ افتح الباب ! افتح الباب فوراً ! فوراً ! يا لك من جبان حقير !

ـ أضعت المفتاح ، ولا أعثر عليه !

صاحت دونيا تقول وقد اصفر وجهها حتى لكأنها ميتة :

ـ آ ••• هذا اغتصاب اذن !

وهرعت الى ركن من الغرفة ، وأسرعت تتحصن فيه وراء منضدة صغيرة كانت فى متناولها •

أصبحت الآن لا تصيح ، لكنها كانت مثبتة بصرها فى عدوها ترصد بنظرة يقظة أيسر حركة من حركاته • وقد أصبح سفدريجايلوف لا يتحرك هو أيضاً ، ولبث واقفاً أمامها فى الطرف الآخر من الغرفة • كان قد استطاع أن يسيطر على نفسه ، فى الظاهر على الأقل • لكن وجهه ظل أصفر كما كان قبل ذلك ، وما تزال ابتسامته الساخرة مرتسمة على شفتيه • وقال أخيراً :

ـ لقد نطقت أنت بكلمة « الاغتصاب » يا آفدوتيا رومانوفنا • ولكن اذا كان فى نيتى أن أغتصبك، فلا بد أننى اتخذت احتياطاتى كما تقدرين• ان صوفيا سيميونوفنا ليست فى بيتها • ولكى تصلى الى أسرة كابرناؤموف، يجب أن تجتازى خمس غرف هى الآن جميعاً مقفلة بالمفتاح • ثم اننى أقوى منك مرتين على الأقل ، هذا عدا اننى لست أخشى على شىء البتة ، فلن يكون فى وسعك أن تذهبى لتشتكينى • لن تريدى أن تفضحى

أخاك ، أليس هذا صحيحاً ؟ ثم ان أحداً لن يصدقك على كل حال ، فلماذا تذهب فتاة منفردة الى بيت رجل وحيد ؟ فحتى لو ارتضيت ان تضحى بأخيك ، فلن تستطيعى أن تبرهنى على شيء . نعم ، انه لمن الصعب جداً أن تثبتى أن « اغتصاباً » قد حدث يا آفدوتيا رومانوفنا .

دمدمت دونيا تقول حانقة :

ـ جبان !

ـ قولى ما تشائين ، ولكن لاحظى اننى لم أقدم الا افتراضات . وأنا شخصياً أوافقك فى رأيك كل الموافقة : ان الاغتصاب دناءة وحطة. لكننى أردت أن أُفهمك أن ضميرك لن يعذبك أي تعذيب اذا ... اذا أنت ارتضيت ، بمحض ارادتك ، أن تنقذى أخاك ، كما اقترح عليك . فانما أنت تخضعين عندئذ للظروف ، أو تخضعين للقوة اذا لم يكن بد من استعمال هذه الكلمة . فكرى : ان مصير أخيك ومصير أمك بين يديك. أما أنا فسأظل عبدك المطيع ... ما حييت ... وسأظل أنتظرك هنا ...

جلس سفدريجايلوف على الأريكة ، على مسافة ثمانى خطوات من دونيا . لكن دونيا أصبحت لا يساورها أى شك فى أن ما عقد العزم عليه ثابت لا يتزعزع . لقد كانت تعرفه حق المعرفة .

فها هى ذى تسل من جيبها مسدساً على حين فجأة ، فتحشوه بالرصاص بسرعة ، وتضع يدها على المنضدة دون أن ترخى المسدس ، فينتفض سفدريجايلوف وينهض عن مجلسه ، ويصيح مدهوشاً ، وهو يضحك مع ذلك ضحكاً ساخراً شريراً :

ـ آ ... هكذا اذن ! لا ، لا ، ان هذا يغير الموقف تغييراً تاماً ، ويقلبه رأساً على عقب . أنت بهذا تيسِّرين علىَّ الأمور كثيراً يا آفدوتيا

رومانوفنا ! ولكن أين وجدت هذا المسدس ؟ هل السيد رازوميخين هو الذي ... ولكن ... عجيب ... هذا مسدسى أنا ! لطالما بحثت عنه ! ان دروس الرماية التى تشرفت باعطائك اياها فى الريف لم تذهب اذن سدى !

ـ ليس هذا مسدسك أنت أيها الوغد ، بل مسدس مارتا بتروفنا التى قتلتها ! لا شىء فى ذلك المنزل كان ملكك أنت ! لقد أخذتُ المسدس حين أخذت أشتبه فى نياتك وأدرك سفالتك . يميناً لو تجرأت فتقدمت خطوةً واحدة لقتلتك فوراً !

كانت دونيا خارجة عن طورها فاقدةً صوابها ، وهى ممسكة بالمسدس متأهبة لاطلاق الرصاص .

قال سفدريجايلوف وهو ما يزال واقفاً فى مكانه نفسه :

ـ وأخوك ؟ على اننى انما ألقى عليك هذا السؤال من باب الفضول لا أكثر !

ـ أخى ؟ أَبلغ عنه السلطات ان شئت ! لا تتحرك ، والا أطلقت الرصاص . لقد دسست لزوجتك السمّ فى الطعام ، أنا أعرف ذلك ، أنت نفسك قاتل !

ـ هل أنت على يقين من أننى دسست السم لمارتا بتروفنا ؟

ـ نعم ، أنت ! حتى لقد ألمعت الى هذا السمّ أمامى . وانى لأعلم أنك انما سافرت لتجىء به ... هيأت كل شىء ... أنت القاتل ! ... لا يمكن أن يكون القاتل أحداً غيرك أيها الشقى !

ـ حتى اذا صح هذا ، فانك تكونين أنت السبب .

ـ كاذب ! أنا أبغضتك دائماً ، دائماً !

ـ مهلاً مهلاً يا افدوتيا رومانوفنا ••• أرى أنك نسيت كيف كنت ، أثناء تمثيلك دور الواعظ ، تميلين عليَّ متلهفة النظرات • لقد قرأت الحب في عينيك ••• ألا تتذكرين ذلك العندليب الذي كان يغني في ضوء القمر ذات مساء ؟

ـ كاذب ! كاذب ! مفترٍ نمَّام !

كان الحنق يشتعل في عيني دونيا •

قال سفدريجايلوف :

ـ كاذب ••• لنسلِّم بانني كاذب ! على كل حال ، ما ينبغي للمرء أن يذكِّر النساء بمثل هذه التفاصيل الصغيرة •••

وابتسم ، ثم أردف قائلاً :

ـ أنا أعلم أنك ستطلقين النار أيتها المتوحشة الصغيرة ••• فماذا تنتظرين ؟ أطلقي !

شهرت دونيا مسدسها على سفدريجايلوف وقد اصفر لون وجهها حتى لكأنه وجه ميت ، وابيضت شفتاها وأخذتا تختلجان اختلاجاً قوياً • كانت تنظر اليه بعينيها اللتين ترشقان شرراً ، وقد عزمت أمرها فهي ترصد أيسر حركات الرجل •

لم يرها جميلةً هذا الجمال كله في يوم من الأيام • ان اللهب الذي كان ينبجس من عيني الفتاة حين شهرت عليه المسدس قد أحرقه احراقاً• وتشنج قلبه ألماً •

وتقدم سفدريجايلوف خطوة ، فانطلقت الرصاصة ، فلامست شعره ومضت تضرب الحائط وراءه • فتوقف ، وأخذ يضحك في رفق وهدوء••

ـ وخزتنى النحلة ! انها تسدد الى الرأس ••• ما هذا ؟ دم ؟

وأخرج منديله ليمسح خيطاً دقيقاً من دم كان يسيل على صدغه الأيسر : لعل الرصاصة قد خدشت الجلد المغطى بالشعر •

خفضت دونيا المسدس ونظرت الى سفدريجايلوف • ان نظرتها لا تعبر عن الذعر بقدر ما تعبر عن الانشداه • لكأنها لم تدرك ماذا فعلت ولا ماذا ما حدث !

قال سفدريجايلوف بصوت خافت ، مع ابتسامة حزينة :

ـ طاشت الضربة • هلاّ أطلقت مرةً أخرى ! انى أنتظر ! والا كان فى وقتى متسع لأن أقبض عليك قبل أن تشدّى الزناد مرة أخرى •

ارتعشت دونيا ، وأسرعت تحشو المسدس برصاصة ثانية ، وشهرته على سفدريجايلوف من جديد • وقالت يائسة :

ـ دعنى ! يميناً لأطلقن مرة أخرى اذا لم تتركنى ! يميناً ••• لأقتلنك •••

ـ وبعد ذلك ؟ صحيح أنه يستحيل أن تطيش الضربة من على بعد ثلاث خطوات ••• ولكن ماذا لو أخطأتنى مرة ثانية ، ما عساك فاعلة حينذاك ؟•••

قال ذلك وسطعت عيناه ، وتقدم خطوتين أخريين ، فضغطت دونيا على الزناد ، ولكن الطلقة لم تخرج •

ـ لم تحسنى حشو المسدس ! لا بأس ! ما يزال عندك رصاصة • أحكمى وضعها ! سوف أنتظر •

كان واقفاً أمامها على بعد خطوتين منها ينتظر ، وينظر اليها بعينين

يتوهج فيهما لهيب ثقيل شهوانى ، وتعبران عن عزيمة وحشية وتصميم جنونى .

أدركت دونيا أنه يؤثر أن يموت على أن يدعها تنصرف . « طيب ، طيب ، فى هذه المرة ، وهو منها على بعد خطوتين فقط ، ستقتله فعلاً » . بهذا حدثت دونيا نفسها ، ولكن ها هى ذى ترمى المسدس فجأة .

قال سفدريجايلوف مدهوشاً وقد استرد أنفاسه :

ــ رميته ؟

وأحس كأن قلبه قد تخلص فجأة من حمل كبير ثقيل ، حمل ليس مردُّه الى ما عاناه من قلق الشعور بخطر الموت فحسب ، فضلاً عن أن ذلك الشعور كان قد زايله منذ برهة ، وانما هو أحس أنه تخلص من شىء آخر ، من شعور أشد ايلاماً وأحلك ظلاماً ، شعور لا يستطيع هو نفسه أن يحدِّده .

واقترب من دونيا ، وضمَّ اليه قامتها فى رفق وهدوء ، فلم تقاوم ، ولكنها نظرت اليه بعينين ضارعتين وهى ترتعش كورقة فى مهب الريح . ودَّ لو يقول شيئاً ولكن شفتيه تقلصتا ، فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة .

قالت له متوسلة بصيغة المخاطب المفرد :

ــ اتركنى !

فاختلج سفدريجايلوف . ان استعمالها لصيغة المخاطب المفرد تختلف لهجتها الآن عن لهجة استعمالها لهذه الصيغة منذ قليل .

سألها بصوت خافت :

ـ أأنت لا تحبينني اذن ؟

فحرّكت دونيا رأسها باشارة النفي • فهمس يسألها يائساً :

ـ ولن ••• تستطيعي ••• أن تحبيني في يوم من الأيام ؟

فأجابته هامسة :

ـ لا ، لن أستطيع ذلك في يوم من الأيام !

نشبت في نفس سفدريجايلوف ، خلال لحظة من الزمن ، معركة خرساء رهيبة • كان يتأمل دونيا بنظرة لا سبيل الى وصفها • وفجأة سحب يده ، واستدار ، وأسرع يبتعد نحو النافذة ، ولبث هنالك جامداً لا يتحرك •

انقضت برهة أخرى •

وها هو ذا يخرج مفتاح الباب من جيب معطفه ، فيضعه على المنضدة وراءه دون أن يلتفت نحو دونيا ، بل ودون أن يلقي عليها نظرة واحدة، قائلاً لها :

ـ اليك المفتاح ! خذيه وانصرفي بسرعة !

كان ينظر الى النافذة في عناد ، لا يحول بصره عنها يمنةً ولا يسرة•

اقتربت دونيا من المنضدة لتأخذ المفتاح • فقال سفدريجايلوف مكرراً ، دون أن يتحرك أو أن يلتفت :

ـ بسرعة ، بسرعة •

ولكن كلمة « بسرعة » هذه كان لها جرس رهيب !

لاحظت دونيا ذلك • وتناولت المفتاح ، واندفعت نحو الباب ففتحته،

وهرعت تخرج من الغرفة . فما هي الا دقيقة واحدة حتى كانت تجرى كالمجنونة على طول القناة فى اتجاه جسر س ...

لبث سفدريجايلوف أمام النافذة ثلاث دقائق . ثم التفت ببطء ، ونظر حواليه ، ومرّ بيده على جبينه فى رفق . ان ابتسامة غريبة تعقف الآن شفتيه ، ابتسامة أسيانة حزينة ضعيفة ، ابتسامة هى ابتسامة ألم كبير ويأس شديد . وكان الدم قد جف على يده ، فنظر اليه نظرة تفيض بغضاً ، ثم بلل خرقةً بالماء فمسح بها صدغه . ووقع بصره على المسدس الذى كانت قد رمته دونيا فتدحرج على الأرض . انه مسدس صغير للجيب ، من طراز قديم ذى ثلاث طلقات . ان فيه الآن طلقتين وكبسولة. ما يزال يمكن استعماله مرة . فكّر سفدريجايلوف لحظة ، ودسّ المسدس فى جيبه ، ثم تناول قبعته وخرج .

الفصل السادس



السهرة حتى الساعة العاشرة فى الحانات والمحلات المشبوهة متنقلاً بينها • وعثر فى مكان ما على كاتيا • كانت كاتيا ما تزال تغنى أغنيتها المألوفة التى تتحدث عن « الطاغية الحقير »

الذى أخذ يقبل كاتيا

فسقاها سفدريجايلوف وسقى صاحبها الصغير ، العازف على أرغن باربارِيا ، وسقى الخدم والمغنين ، واثنين من صغار الموظفين جذبه اليهما أن أنفيهما معوّجين ، فأحد الرجلين كان أنفه منحرفاً الى اليمين ، وثانيهما كان أنفه منحرفاً الى الشمال ، فلفت هذا الأمر انتباه سفدريجايلوف وخطف بصره • وقاده الموظفان أخيراً الى حديقة ملاهٍ ، فدفع عنهما رسم الدخول وثمن الشراب •

كان فى الحديقة شجرة نحيلة من أشجار الصنوبر لم يبق لها الا ثلاثة أفرع ، وكان فى الحديقة كذلك مبنى أُطلق عليه اسم «فوكسهول»★ من باب التفخيم وما هو فى حقيقته الا خمارة صغيرة يُشرب فيها الشاى أيضاً • ان فى الخمارة عدة موائد صغيرة ، وكراسى خضراء ؛ وفيها جوقة هزيلة من المغنين ، وألمانى بلغ السكر منه كل مبلغ (هو نوع من ممثل مهرّج أحمر الأنف ، لكن وجهه يظل كالحاً الى أقصى حد ،

لا يدرى المرء كثيراً لماذا) ، وكانت مهمة الجوقة والألمانى تسلية الزبائن •

تشاجر الموظفان الصغيران مع موظفين آخرين كانوا هناك ، حتى أوشك التشاجر أن يصير الى تماسك بالأيدى • واحتكم المتشاجرون الى سفدريجايلوف ، فلبث يحكم بينهم مدة ربع ساعة محاولاً أن يفهم موضوع التشاجر ، ولكنه لم يفلح فى ذلك من شدة صراخ هؤلاء وأولئك • أغلب الظن فيما أشارت اليه الدلائل أن واحداً منهم كان قد سرق شيئاً من الأشياء واستطاع أن يجد يهودياً اشتراه منه فوراً ، ولكن السارق بعد أن باع الشيء المسروق رفض أن يقاسم رفيقه ثمنه • واتضح أخيراً أن الشيء المسروق كان ملعقة شاى من محل «فوكسهول»، وقد تمّ تعرفها ، وبدأت القضية تتخذ أبعاداً مقلقة • فما كان من سفدريجايلوف الا أن دفع ثمن الملعقة ، ونهض ، وغادر حديقة الملاهى •

كانت الساعة تقترب من العاشرة • لم يشرب سفدريجايلوف خمرة طوال تلك السهرة ، وانما كان يكتفى بطلب كأس من الشاى ؛ وحتى هذا انما كان يفعله من باب التقيد بالشكل • وكان الحر أثناء ذلك ثقيلاً وكانت السماء مكفهرة • وفى نحو الساعة العاشرة تقدمت غيوم كبيرة من جميع أطراف الأفق ، وأرعدت السماء وأخذ المطر يهطل غزيراً كأنه السيول • كان الماء لا يتساقط قطرات ، وانما هو شلالات تضرب الأرض • وكان ومض البرق يتعاقب سريعاً ، فلا يكاد يستطيع المرء أن يعد أكثر من خمسة بين كل ومضة وومضة • وابتل سفدريجايلوف بالماء حتى العظام ، ووصل أخيراً الى بيته ، فأغلق على نفسه الباب ، ثم فتح درج مكتبه فأخرج منه أمواله وسنداته ، ومزّق بعض الأوراق ، حتى اذا فرغ من دسّ أمواله كلها فى جيبه ، بدا له

أن يبدل ملابسه ، لكنه بعد أن ألقى نظرة الى النافذة وأصاخ بسمعه الى هزيم الرعد وتساقط المطر ، حرك يده باشارة تنم على عدم الاكتراث ، وتناول قبعته ، وخرج دون أن يغلق الباب وراءه ، ومضى الى صونيا رأساً ، فوجدها في غرفتها .

لم تكن صونيا وحدها ، وانما كان يحيط بها أولاد كابرناؤموف الأربعة . كانت صوفيا سيمونوفنا تسقيهم شاياً . واستقبلت سفدريجايلوف بصمت واحترام ، ونظرت مدهوشة الى ثيابه المبتلة ، لكنها لم تقل كلمة واحدة . أما الأولاد فسرعان ما هربوا وقد استولى عليهم ذعر لا يغالَب .

جلس سفدريجايلوف الى المائدة ، ورجا صونيا أن تجلس قربه ففعلت ، وتهيأت لأن تصغى اليه خجلة وجلة .

قال سفدريجايلوف :

ـ صوفيا سيمونوفنا ، ربما سافرتُ الى أمريكا ، وربما كان هذا آخر لقاء بيننا ، لذلك جئت أتخذ بعض الاجراءات . لقد رأيت اليوم تلك السيدة ، أليس كذلك ؟ أنا أعرف ما قالته لك ، فلا حاجة الى أن ترويه لي (هنا حرّكت صونيا يدها باشارة واحمر وجهها) . ان لهؤلاء الناس تفكيراً خاصاً معروفاً . على كل حال ، فيما يتعلق بأختيك الصغيرتين وأخيك الصغير ، فان مستقبلهما مؤمن ؟ لقد توليت بنفسي دفع المال الذي يجب أن يئول اليهم ، وأخذت به ايصالات . خذي ، اليك الايصالات . بهذا تُسوّى المسألة . واليك ثلاثة سندات قيمتها ثلاثة آلاف روبل . هذه لك أنت . أرجو أن يبقى هذا الأمر سراً بيننا لايعلم به أحد ، مهما تسمعي من كلام . سوف تحتاجين الى هذا المال ياصوفيا

سيميونوفنا ، فان الحياة التى عشتها حتى الآن سيئة ، فلن تضطرى اليها بعد اليوم .

تمتمت صونيا تقول :

ـ غمرتنى بنعم وآلاء كثيرة ... أنا ... والأيتام ... والمرحومة أيضاً ... وحتى الآن لم أشكر لك جميلك . لا يذهبنّ بك الظن خاصةً الى أن ...

ـ رحماك ! رحماك !

وتابعت صونيا كلامها فقالت :

ـ أما هذا المال يا أركادى ايفانوفتش ، فاننى أشكره لك آجزل الشكر ... لكننى لست فى حاجة اليه . اننى وقد أصبحت وحدى أستطيع أن أجنى رزقى . لا تحسبن هذا عقوقاً . وما دمت انساناً محسناً الى هذا الحد ، فان هذا المال يمكن دائماً أن ...

ـ بل هذا المال لك أنت يا صوفيا سيميونوفنا ، وكفى كلاماً ، أرجوك ! ليس فى وقتى متسع . لك أنت ، سيكون هذا المال مفيداً . لا يملك روديون رومانتش الا أن يختار أحد أمرين : فاما رصاصة فى رأسه ، واما طريق فلاديمير * .

نظرت اليه صونيا مروّعة وأخذت ترتجف . وتابع هو كلامه يقول :

ـ لا تقلقى ! لئن كنت أعرف كل شىء ، فلأنه هو الذى روى لى كل شىء !... واذ كنت امرءاً قليل الثرثرة ، فلن أذكر لأحد شيئاً . أنت أسديت له فى ذلك اليوم نصيحة طيبة جداً ، هى أن يشى بنفسه ويعترف بجريمته . وذلك هو خير ما يمكن أن يفعله . ومتى حانت ساعة الرحيل الى سيبيريا ، فسيرحل اليها ، وستتبعينه أنت ، أليس

كذلك ؟ فأنت اذن فى حاجة الى مال • سوف تحتاجين الى هذا المال من أجله هو ، هل تفهمين ؟ وأنا حين أعطيك هذا المال فكأننى أعطيه هو اياه • ثم انك قد تعهدت لآماليا ايفانوفنا بأن تدفعى الديون التى لها على أسرتك • هذا سمعته بنفسى • ولكن لماذا يا صوفيا سيميونوفنا تقطعين على نفسك مثل هذه العهود بمثل هذا التسرع والطيش دون تأنٍ أو تروٍ ؟ ان كاترين ايفانوفنا هى المدينة للألمانية ، لا أنت • فكان ينبغى لك أن لا تحفلى بهذه الألمانية وأن لا تكترثى لها • ما هذا أسلوب سليم فى الحياة ! على كل حال ، اذا استجوبوك فى يوم من الأيام ـ غداً أو بعد غد مثلاً ـ اذا استجوبوك عنى، أقصد عن أمرى (وسيستجوبونك عن أمرى حتماً) ، فاياك أن تذكرى شيئاً عن زيارتى هذه خاصة ، واياك أن تبيحى لأحد أن يفترض أننى أعطيتك مالاً • والآن ، الى اللقاء !

قال سفدريجايلوف ذلك ونهض وهو يتابع كلامه قائلاً :

ـ تحياتى لروديون رومانتش ••• بالمناسبة : اخزنى المال عند السيد رازوميخين الى حين الحاجة اليه • تعرفين السيد رازوميخين ، أليس كذلك ؟ تعرفينه حتماً ! انه فتى طيب شهم ! فاحملى اليه المال غداً ، أو ••• حين يأزف الوقت ! والى أن يأزف الوقت ، خبئيه عن الأنظار •

كانت صونيا قد نهضت هى أيضاً وشخصت ببصرها اليه مذعورة• ودّت لو تقول شيئاً ما ، ودّت لو تطرح سؤالاً ، لكنها لم تجرؤ فى البداية ، وكانت عدا ذلك لا تعرف كيف تدبر أمر القاء السؤال • وقالت أخيراً :

ـ لكن .. لكن ... هكذا .. هكذا .. تخرج ... تحت هذا المطر ؟

ـ هه ! هل يخشى المرء المطر اذا كان يتهيأ للسفر الى أمريكا ؟ استودعك الله يا صوفيا سيميونوفنا العزيزة . أتمنى لك أن تعيشي طويلاً ، فلسوف تكونين مفيدة نافعة للآخرين . بالمناسبة : أبلغي السيد رازوميخين تقديري . قولي له بالنص : ان أركادي ايفانوفتش سفدريجايلوف يبلغك تقديره . لا تنسي .

قال ذلك وخرج تاركاً صونيا في جمود وذعر ، وقد استولى عليها شعور غامض ثقيل بأن شيئاً سيحدث .

وقد عُرف فيما بعد أن سفدريجايلوف ، في ذلك المساء نفسه ، بعد الساعة الحادية عشرة ، قد قام بزيارة أخرى ، زيارة بعيدة جداً ، غير متوقعة أبداً . كان المطر ما يزال يهطل غزيراً . وها هو ذا ، في في الساعة الحادية عشرة والدقيقة العشرين ، يدخل البيت الصغير الذي يقطنه أهل خطيبته بالزقاق الثالث من فاسيلفسكي اوستروف عند ناصية شارع نفسكي . كان مبتلاً بالماء ابتلالاً شديداً . لقد طرق الباب مدة طويلة ، ففتحوا له آخر الأمر ، فأحدث ظهوره في البداية اضطراباً كبيراً ؛ لكن أركادي ايفانوفتش قد أوتي موهبة حسن الحيلة ولباقة السلوك وجمال التصرف متى شاء ، لذلك فان الظن الأول الذي قام في وهم أهل خطيبته (وهو ظن لطيف ، فقد اعتقدوا أنه سكر في مكان ما فأصبح لا يدري ماذا يفعل) ، لم يلبث أن سقط من تلقاء نفسه . وبادرت أم الخطيبة ، المرأة الحنون الشفوق العاقلة ، فجرّت مقعد الأب الهرم الخرف العاجز حتى صار قرب أركادي ايفانوفتش ، وسرعان ما أخذت تتحدث على عادتها بالقاء أسئلة ملتوية غير مباشرة (ان هذه المرأة لا تلقى في يوم من الأيام

أسئلة مباشرة : انها تبدأ بأن تبتسم وتأخذ تفرك يديها ، فاذا رغبت مثلاً في أن تعرف ما ينتويه أركادى ايفانوفتش فيما يتعلق بالتاريخ الذى ينوى تحديده للاحتفال بزواجه ، طفقت تسأل الرجل بكثير من الشوق والشراهة عن باريس ، وعن حياة المجتمع الراقى هناك ، ثم لا تصل الى فاسيلفسكى أوستروف والى ما يجب أن يحدث فيها الا رويداً رويداً). ولقد كان يمكن ، فى ظروف غير هذه الظروف ، أن يصغى سفدريجايلوف الى كلامها باحترام شديد واهتمام عظيم ، لكنه بدا فى هذه المرة نافد الصبر جداً ، وأسرع يقاطعها بأن طلب رؤية خطيبته فوراً (رغم أنه كان قد أُعلم ، منذ أولى الكلمات التى جرى بها الحديث ، أنها قد نامت) . فقال لها أركادى ايفانوفتش بدون لف أو دوران ان عليه ، بسبب ظروف طارئة استثنائية ، أن يغادر بطرسبرج الى حين، وانه اذ يغادر بطرسبرج قد جاءها بخمسة عشر ألف روبل ، أوراقاً مالية وسندات ، راجياً أن تقبلها هدية منه اليها ، وانه على كل حال كان ينوى منذ مدة طويلة أن يقدم اليها هذه الهدية التافهة قبل الزواج .

صحيح أن هذه الشروح لم تظهر الصلة المنطقية بين الهدية والسفر المباشر ، لا ولا أوضحت ضرورة المجىء فى منتصف الليل تحت وابل المطر . ومع ذلك لم يعترض أحد أىّ اعتراض. وحتى الأسئلة وصيحات التعجب المعهودة كانت فى هذه المرة معتدلة جداً ، على خلاف العادة. وتدفق الشكر فى مقابل ذلك حاراً عنيفاً ، حتى أن الأم العاقلة ذرفت فى سبيل الشكر دموعاً . ونهض أركادى ايفانوفتش ، وابتسم وقبّل خطيبته ، وربت على خدها فى رفق ولين ، وأكدّ مرة أخرى أن غيابه لن يطول : واذ لاحظ فى عينى الخطيبة الصغيرة استطلاعاً طفلياً جدياً فى آن واحد ، وتساؤلاً أبكم ، فكّر لحظة ، وقبّلها مرة أخرى ، وشعر فى الوقت نفسه بحسرة حقيقية لأنه قدّر أن الأم العاقلة ستخبىء الهدية مقفلة عليها

بالمفتاح • وخرج آخر الامر ، تاركاً جميع من بالبيت فى حالة اهتياج شديد خارق • وسرعان ما أخذت الأم العاقلة الواسعة الأفق تقرر بوشوشات صغيرة وكلمات قليلة سريعة عدداً من الحقائق الخطيرة جداً ، مؤكدة على وجه التخصيص أن سفدريجايلوف رجل ذو سلطان ، رجل له أعمال وصلات ، وأنه على جانب عظيم من الثراء الطائل ، والله يعلم ما الذى خطر بباله لكنه قد عنّ له أن يسافر فسافر ، ثم عنّ له أن يهب مالاً فوهب ، فلا داعى الى التعجب والدهشة والحالة هذه • صحيح أن وصوله مبتلاً على هذه الحال أمر غريب ، ولكن أغلب الظن أن هذه خصلة من خصال الانجليز وعادة من عاداتهم • انها الشذوذ والتفرد ، أليس كذلك ؟ ثم ان أبناء المجتمع الراقى لا يحفلون كثيراً بما قد يقال عنهم ، فهم لذلك لا يتحرجون • حتى ان من الممكن أن يكون أركادى ايفانوفتش قد تعمد المجىء تحت وابل المطر ليظهر أنه لا يخاف من أحد ولا يهاب أحداً • ولكن ينبغى خاصةً أن لا تقال كلمة واحدة لأى انسان عن هذه « المغامرة » ، فالله وحده يعلم ما هو المجرى الذى قد تنقلب اليه هذه الأمور كلها • ويجب اخفاء المال والاقفال عليه بالمفتاح بأقصى سرعة ، والحمد لله على أن فيدوسيا قد بقيت فى المطبخ • نعم ، يجب خاصةً أن لا يقال لأحد شىء ••• هست ••• هست !•• ما من كلمة اذن ، لا لتلك الذبابة الصغيرة ريسليش ، ولا للآخرين ، وهلمّ جراً ، وهلمّ جراً ••

وظلوا يثرثرون ويتهامسون على هذا النحو حتى الساعة الثانية من الصباح • لكن الخطيبة مضت تنام قبل ذلك بكثير ، وهى تشعر بشىء من الدهشة وكثير من الحزن •

وفى أثناء ذلك ، عندما دقت الساعة منتصف الليل ، كان سفدريجايلوف يجتاز جسر « ••• كوف » فى اتجاه « حى بطرسبرج »• كان المطر قد انقطع عن الهطول ، لكن الريح ما تزال تزمجر • أخذ

سفدريجايلوف يرتعد من البرد ، ونظر خلال دقيقة من الزمن ، بنوع من الاستطلاع الخاص ، بنوع من الاستطلاع السائل المستفهم ، نظر الى المياه السوداء ، مياه نهر « نيفا الصغير » . لكنه سرعان ما وجد أن البرد أشد من أن يستطيع المكث فوق الماء على هذا النحو . فاستدار ، واتجه نحو شارع « س ... » .

ظل سفدريجايلوف يسير مدة طويلة لعلها بلغت نصف ساعة ، فى ذلك الشارع الذى لا نهاية له ، وتعثرت قدماه بالرصيف الخشبى مراراً فى الظلام ، ولكنه ظل مصراً على أن يبحث عن شيء ما كان يجب أن يوجد فى الجهة اليمنى من الشارع . انه حين مرّ هنا منذ مدة بالعربة قد لمح فى مكان ما ، على اليمين ، فندقاً لا بد أن اسمه « فندق آندرينوبل » اذا صدقت ذاكرته . ان هذا الفندق هو فى هذا الحى التائه علامة بارزة يستحيل أن يخطئها المرء حتى فى الظلام الدامس . هو مبنى طويل من خشب ، اسودّ من كثرة السنين التى تعاقبت عليه ، كانت تسطع فيه أضواء رغم تقدم الليل ، وكانت تلاحَظ فيه حركة وجلبة .

دخل سفدريجايلوف الفندق ، فالتقى فى الدهليز بخادم بائس المظهر خلق الثياب ، فطلب منه غرفة . فبعد أن ألقى عليه الخادم نظرة ، هزّ جسمه ، وقاده فوراً الى حجرة صغيرة لا هواء فيها تقع فى ركن تحت السلَّم عند آخر الممر . لم يكن بالفندق غرفة أخرى خالية ، فجميع الغرف مشغولة .

نظر الخادم الى سفدريجايلوف بهيئة مستطلعة مستفهمة . فسأله سفدريجايلوف :

ـ هل عندكم شاى ؟

ـ يمكن أن نهيىء لك شاياً .

ـ ماذا عندكم أيضاً ؟

ـ لحم عجل ، فودكا ، مقبّلات .

ـ جئني بلحم عجل وشاي .

سأل الخادم متردداً بعض التردد :

ـ ولست فى حاجة الى أى شىء آخر ؟

ـ لست فى حاجة الى أى شىء آخر ؟

فانصرف الخادم وقد خاب فأله .

حدّث سفدريجايلوف نفسه قائلاً : « لا بد أنه محل مريب. كيف لم يخطر هذا ببالى ؟ آ ... لا شك أن هيئتى أنا أيضاً هيئة رجل عاد من قصف وحدثت له مغامرة فى الطريق . ليتنى أعرف نوع الناس الذين يتلبثون هنا لقضاء الليل ! » .

وأشعل سفدريجايلوف شمعة وفتش الغرفة تفتيشاً دقيقاً. هى حجرة صغيرة تضيئها نافذة واحدة ، وتبلغ من الضيق أن رجـلاً له قامة كقامة سفدريجايلوف لا يكاد يستطيع أن يقف فيها ، وقد امتلأت مساحتها كلها بسرير قذر ومنضدة مدهونة وكرسى عتيق . أما الجدران فكأنها من ألواح خشبية انفكت المسامير التى تربط بعضها ببعض ؛ وهى مغطاة بورق ملطخ مهترىء ممزق يملؤه الغبـار فلا يكاد يسـتطيع البصر أن يميّز فيه أى رسم ، ولا يكاد يرى منه الا لون أرضيته (الصفراء) . وكان جزء من الجدار يؤلف مع السقف زاوية مقطوعة ، شأنَ جميع الحجرات التى تقع تحت الأسطح ، غير أن السلّم يمرُّ هنا فوق الزاوية المقطوعة .

وضع ســفدريجايلوف الشـمعة على السرير ، وغرق فى أفكاره وخواطره . غير أن دمدمة غريبة متصلة كانت تعلو فى الغرفة المجـاورة

وتصل الى حد الصراخ أحياناً ، فما لبثت أن استرعت انتباهه • ان هذه الأصوات لم تنقطع فى الواقع منذ دخل • أصاخ سفدريجايلوف بسمعه : كان هناك شخص يقرِّع شخصاً آخر ويصب عليه أنواع اللوم ، ولكنه يفعل ذلك وهو يكاد يبكى • ليس يميِّز المرء الا صوتاً واحداً •

نهض سفدريجايلوف ، ووضع يده حاجزاً أمام لهب الشمعة ، فسرعان ما أضاء شق صغير فى الجدار ، فاقترب سفدريجايلوف من الشق ونظر • الغرفة أوسع قليلاً من غرفته ، وفيها رجلان أحدهما أجعد الشعر محمر الوجه قد وقف متخذاً وضع الخطيب ، مباعداً ساقيه للمحافظة على توازنه ، وأخذ يلطم صدره لائماً صاحبه بلهجة عاطفية مؤثرة على أنه رجل شقى تافه ليس له أى رتبة ، وليس له أى كرامة اجتماعية ، مذكِّراً اياه بأنه هو الذى أخرجه من الماء ، ففى وسعه أن يعود فيغطسه فى الماء متى شاء ، وان عين الله وحدها ترى حقيقة الأمر كله • وكان الرجل الثانى الذى ينصب عليه هذا التقريع وهذا التأنيب جالساً على كرسى ، وهيئته هيئة رجل يودُّ لو يعطس لكنه لا يفلح فى ذلك على أى نحو من الأنحاء ، وهو يلقى على الخطيب من حين الى حين نظرة مضطربة بلهاء • كان واضحاً أنه لا يفهم من الأمر كله شيئاً على الاطلاق •

وعلى المائدة ، حيث كانت توجد شمعة ذائبة توشك أن تنطفىء ، كان يوجد أيضاً ابريق فودكا يكاد يكون فارغاً ، وأقداح كبيرة وأقداح صغيرة ، وخبز ، وخيار مخلل ؛ ورغم أن الشاى قد شُرب منذ مدة طويلة حتماً ، فان الفناجين والأطباق والملاعق ما تزال ملقاة كذلك على المائدة •

تأمل سفدريجايلوف هذه اللوحة بانتباه ، ثم ابتعد عن الجدار بدون اكتراث ، وعاد يجلس على السرير •

وحين عاد الخادم يحمل لحم العجل والشاى ، لم يستطع أن يمتنع

عن سؤال سفدريجايلوف مرة أخرى أليس في حاجة الى شيء آخر ، فلما سمع جواب النفي من جديد انصرف أخيراً الى غير رجعة . وأقبل سفدريجايلوف على الشاي التماساً للدفء ، فاحتسى منه كأساً ، لكنه لم يستطيع أن يذوق اللحم ، فقد كان لا يشتهي أن يتناول أي طعام .

واضح أن الحمى كانت قد ألمت به . وخلع معطفه وسترته ، واضطجع على السرير ، ومدّ على نفسه الغطاء . كان مستاءً ممتعضاً . « ان من الأفضل على كل حال أن أكون سليم العافية لهذا الظرف » ، كذلك قال يحدث نفسه ، وضحك ساخراً .

كان جو الغرفة خانقاً ، وكانت الشمعة ترسل ضياء مضطرباً ، وكانت الريح في الخارج تزمجر ، وكانت فأرة تخدش شيئاً من الأشياء في مكان بأحد أركان الغرفة ، وكانت الغرفة كلها تشيع فيها رائحة فئران وجلد على كل حال .

لبث مضطجعاً غارقاً في أحلامه . كانت الخواطر تتعاقب في خياله ، يطرد بعضها بعضاً . كان كمن يريد أن يتشبث بشيء ما في الخيال بكل ما أوتي من قوة . قال يحدث نفسه : « لا شك أن تحت النافذة حديقة تهز الريح أشجارها فتهمهم ! آه ... لشد ما أكره همهمة الأشجار أثناء العاصفة في الظلام ! يا له من احساس كريه ! » . وفي هذه المناسبة تذكر مروره بحديقة بتروفسكي ، مشمئزاً . وتذكر عندئذ مروره بجسر « ... كوف » على نهر « نيفا الصغير » أيضاً ، فأحس بتلك البرودة نفسها التي أحسها منذ قليل حين توقف فوق النهر . « أنا لم أحب الماء يوماً ، ولا في مناظر الطبيعة » ، بهذا حدث نفسه ، ثم اذا بفكرة غريبة توافيه فتجعله يضحك ضحك سخرية . قال يخاطب نفسه : « يخيّل اليّ مع ذلك أن قضايا الجمال والارتياح هذه كان ينبغي أن لا تثير اهتمامي اليوم وأن تدعني غير مكترث بها أي اكتراث ، فما بالي

أعنى بها أشد العناية ؟ ألا اننى لأشبه الحيوانَ الذى يهمه اشد الاهتمام أن يختار لنفسه مكاناً مناسباً .. فى حالة كهذه الحالة ! لقد كان الأفضل أن أستمر في السير حتى أصل الى جزيرة بتروفسكي ! لكننى وجدت الليل حالك الظلمة والجو شديد البرودة ! هىء هىء هىء ! انى لأكاد أنشد الاحاسيس اللذيذة والمشاعر الممتعة ! بالمناسبة : لماذا لا أطفىء الشمعة ؟ »

قال لنفسه ذلك ونفخ على الشمعة فأطفأها ، واذ لم ير ضوءاً فى شق الجدار تابع حديثه لنفسه فقال : « نام جيرانى ! هلمّى يا مارتا بتروفنا ! الآن ، الآن انما ينبغى لك أن تجيئى شاكية ، فالظلام دامس ، والمكان مناسب ، واللحظة فريدة . ومع ذلك لا تجيئين اليوم ! » .

وتذكّر فجأة ، دون سبب ظاهر ، أنه قبل وضع خططه المتعلقة بدونيا موضع التنفيذ ، تذكر أنه قبل ذلك بساعة قد نصح لراسكولنيكوف أن يجعل دونيا فى حماية رازوميخين . قال يحدث نفسه : « حقاً ... لا بد أننى قلت ذلك من باب التبجح ، كما أدرك راسكولنيكوف ذلك فعلاً ! انه لماكر ، هذا الفتى راسكولنيكوف ! لكنه لعب لعبة كبيرة فوق طاقته . ولكى يصبح المرء ماكراً كبيراً لا بد له من وقت ، لا بد له من أن ينتظر انقضاء عهد السخافات . وهو الآن « مسرف » فى حب الحياة . من هذه الناحية يتصف جميع هؤلاء الناس بأنهم جبناء . ولكن ما بالى أهتم بهم ! ليذهبوا الى الشيطان ! ألا فليفعلوا ما يشاءون ، فذلك لا يعنينى ! » .

وظل سفدريجايلوف عاجزاً عن النوم . وشيئاً فشيئاً انبجست أمامه صورة دونيا كما رآها منذ قليل ، فسرت فى جسمه كله رعدة قوية على حين فجأة . قال يخاطب نفسه وقد ثاب الى صوابه : « لا ، يجب علىّ الآن أن أتخلص من هذا كله . يجب أن أفكر فى شىء آخر . مضحك أمرى .. مضحك : اننى لم أكره أحداً فى يوم من الأيام ، بل اننى لم تراودنى

رغبة قوية في الانتقام قط . هذه علامة سيئة ! لا ولا أحببت يوماً أن أتشاجر ، وأن أندفع وأتحمس ! هذه أيضاً علامة سيئة ... ولكن ماأكثر الوعود التي بذلتها لها منذ قليل ! مع ذلك ، كان يمكنها أن تصنع مني رجلاً آخر » .

وصمت سفدريجايلوف وكزّ أسنانه . وعرضت له صورة دونيا من جديد ، تماماً كما رآها حين أطلقت طلقة أولى فاستولى عليها رعب رهيب فأرخت المسدس وهي تنظر اليه بعينها الواسعتين ... حتى لكان يمكنه أن يمسكها مرتين لا مرةً واحدة دون أن تستطيع اظهار أية مقاومة . لقد عني هو نفسه بأن يردّها الى ادراك الواقع ! وتذكر أيضاً أنه شعر في تلك اللحظة بنوع من الشفقة عليها والرأفة بها ، وأن قلبه قد انقبض انقباضاً شديداً . « سحقاً لهذه الخواطر !... يجب التخلص من هذا كله ! يجب التخلص من هذا كله !... » .

وأخذ النعاس يدب الى جفنيه ، وأخذت رعدة الحمى تهدأ . وتراءى له فجأة أن تحت الغطاء شيئاً يركض على طول ذراعه وساقه . فارتعش ، وقال : « آ ... لكأنها فأرة ! طبعاً ... لأنني تركت اللحم على المائدة ! » كره كرهاً فظيعاً أن يكون عليه أن يكشف الغطاء عن جسمه ، وأن ينهض ، وأن يتعرض للبرد . لكن شيئاً لامس قدمه مرةً أخرى ملامسة كريهة مزعجة ، فرمى عنه الغطاء وأشعل شمعة . ثم مال يتفحص السرير وهو يرتجف من الحمى ، فلم يجد شيئاً . حتى اذا نفض الغطاء قفزت الى السرير فأرة على حين بغتة ، فأسرع يريد القبض عليها ، ولكن الفأرة أخذت ، دون أن تغادر السرير ، ترسم خطوطاً متعرجة في كل اتجاه ، وتتملص من بين أصابعه ، وتركض على ذراعه ، ثم اندست تحت المخدة. فرمى المخدة على الأرض ، ولكنه شعر في تلك اللحظة نفسها بشيء يثب

عليـه ، ويتنطط على طول قامتـه ، ويصبح فوق ظهره ، تحت قميصه • فارتعش سفدريجايلوف ارتعاشةً عصبية واستيقظ من نومه •

كان لا يزال راقداً على السرير ، متـكوماً تحت الغـطاء • وكانت الريح ما تزال تهمهم تحت النافذة •

قال لنفسه غاضباً : « يا له من حلم وسخ ! » •

ونهض فجلس على حافة السرير مديراً ظهره الى النافذة « الأفضل أن لا أنام البتة » • على هذا حزم أمره • وكان يهب من النافذة هواء رطب بارد ، فشد سفدريجايلوف الغطاء وتدثر به دون أن يبارح مكانه • ولم يشعل الشمعة • كان لا يفكر في شيء ، ولا يريد أن يفكر في شيء على كل حال • لكن الصور كانت تلاحق الصور في خياله ، وكانت شذرات أفكار تتتابع في ذهنه فوضى لا تحكمها رابطة ولا ينظمها تسلسل• لقد أصبح فيما يشبه النوم • هل يرجع هذا الى البرد والظلمات والرطوبة والريح التي تزمجر تحت النافذة وتهز الأشجار ؟ المهم أن أحلامه أخـذت تتخذ أشكالاً غريبة ، وأخذت توقظ في نفسه رغبة ، وكانت أزهارٌ تتراءى له بغير انقطاع • هذا منظر رائع يتفتح أمام بصره • نهار مضيء ، دافيء ، يكاد يكون حـاراً • هو يوم عيـد العنصرة • منزل ريفي أنيق ثري ، على الطراز الانجليزي ، ينتصب في وسـط مروج مزهـرة ، وتحيط به أحواض موقوفة على زراعة الأزهار • نباتات متسلقة تتلفففوق درجات مدخل المنزل غارقةً تحت الورود • وعلى طول سلم كبير ، مضيء نضير ، مغطى بسجادة فخمة ، تترتب أواني خزف صيني تضم أزهاراً نادرة • ولاحظ سفدريجايلوف بوجـه خاص ، على حـواف النوافذ ، في أوان ملأى بالماء ، باقات نرجسات بيض تميل على سـيقانها الخضر وتنشر عبقاً نافذاً • كان سفدريجايلوف يود أن لا يبتعـد عن هذه الأزهـار ، ولكنه صعد السلّم ودخل قاعةً كبيرة عالية السقف • هناك أيضاً كانت الأزهار

منتشرة فى كل مكان : على النوافذ ، قرب الباب الكبير الذى يطل على الشرفة ، وفى الشرفة نفسها • أرض القاعة مفروشة بعشب فوّاح أخضر نضر • مصاريع النوافذ مفتوحة تدخل منها الى القاعة أنسام لطيفة • العصافير تغرّد تحت النوافذ • ولكن فى وسط الغرفة ، فوق منضدة فرشت بغطاء من قماش الساتان الأبيض الذى يُستعمل للموتى ، كان هناك تابوت • ان التابوت منجّد بنسيج من ساتان نابولى السميك ، ومحفوف بابزيم سميك ، أبيض اللون أيضاً • ان حبالاً من أزهار تطوّق التابوت من جميع الجهات • وبين الأزهار يرقد جثمان صبية ترتدى ثوباً من نسيج التول الأبيض، قد عقدت ذراعيها على صدرها وشدت احداهما الى الأخرى حتى لكأنهما منحوتتان فى المرمر • غير أن شعرها المبعثر ، الأشقر ، رطب مخضل • وعلى جبينها اكليل من الزهر يطوّقه • ان وجهها الذى يظهر من جانب ، ويعبّر عن قسوة ، ويبدو متجمداً منذ الآن يشبه أن يكون مقدوداً فى مرمر أيضاً ، ولكن ابتسامة شفتيها الشاحبتين مصطبغة بحزن لا نهاية له ، حزن ليس من الطفولة ، حزن كبير • ان سفدريجايلوف يعرف هذه البنية • لم يكن الى جانب التابوت لا صورة من صور العذراء ، ولاشموع مشتعلة ، وليست تُتلى عليها صلوات• ان هذه البنية قد انتحرت غرقاً • عمرها لا يتجاوز أربعة عشر عاماً ، لكن قلبها قد تحطم وهى فى تلك السن : لقد سعت الى الموت ، لأنها وقعت ضحية اهانة روّعت ضميرها الى الأبد ، وملأت نفسها بعار لا يستحقه وجدان الطفلة ، وانتزعت منها صرخة يأس هائلة اختنقت فى الظلمات والبرد والجليد الذائب وزمجرات الريح •••

استيقظ سفدريجايلوف من نومه ، فترك سريره واتجه نحو النافذة، واهتدى الى المزلاج ففتحها ، فاندفعت الى الحجرة الصغيرة هبةُ ريح صفعت خدّه وصدره الذى لا يغطيه الا القميص ، صفقهما بما يشبه رذاذ ثلج•

وكان تحت النافذة شيء يشبه أن يكون حديقة لعل روّاد الفندق يقضون فيها أوقات بهجة ومسرة أحياناً ، فتُغنىَ فيها الأغانى ويُقدَّم فيها الشاى على موائد صغيرة نهاراً . أما الآن فان قطرات ماء تسيل على النافذة آتيةً من الشجيرات المحيطة ، وان الظلام يبلغ من الحلكة أن المرء لا يميِّز الا بقعاً سوداء غامضة تدل على الأشياء دلالة مبهمة .

لبث سفدريجايلوف خمس دقائق ، مائلاً الى أمام ، متكئاً بكوعيه على حافة النافذة ، محدقاً الى الظلام لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره . وفجأة ، فى وسط الظلمات ، دوّت طلقة مدفع أولى فثانية .

قال سفدريجايلوف يحدث نفسه : « هذا هو الانذار ! المياه تعلو ، فما ان يطلع الصبح حتى تتدفق فى الشوارع فيضانات تغرق الأقبية . الفئران ستطفو على سطح الماء ميتة . وتحت المطر والريح سيأخذ الناس ينقلون متاعهم الى الطوابق العليا ، وقد تبللت أجسامهم وانهدت قواهم وأخذوا يشتمون ويلعنون ... لكن كم الساعة الآن ؟ » .

وفيما كان سفدريجايلوف يفكّر فى هذا ، اذا بساعة جدارٍ فى مكان بعيد تدق الثالثة بصوت عميق .

قال سفدريجايلوف لنفسه : « آ .. بعد ساعة يطلع الصبح. فلماذا انتظر مزيداً من الانتظار ؟ سأنصرف حالاً . سأمضى قُدُماً الى جزيرة بتروفسكى ، فأختار دغلاً يبلغ من التبلل بالماء أنه يكفيك أن تلمسه بكتفك حتى تهطل عليك ملايين القطرات ... » وابتعد عن النافذة قليلاً ، فأغلقها ، ثم أشعل شمعة ، فارتدى صدرته ومعطفه ووضع على رأسه قبعته ، ومضى الى الممر حاملاً شمعته ، محاولاً أن يبحث عن الخادم الذى لا بد أنه نائم فى ركن من الأركان التى تودع فيها الأشياء البالية . كان سفدريجايلوف يريد أن يدفع الحساب وأن يغادر الفندق . وقال يحدث نفسه : « هذه خير لحظة . لا يمكن اختيار لحظة أفضل » .

لبث يطوف فى الدهليز الضيق الطويل مدة طويلة دون أن يلتقى بأحد • فلما همَّ أن ينادى اكتشف على حين فجـأة ، فى ركن مظلم ، بين خزانة قديمة وباب ، شيئاً غريباً ، شيئاً بدا له حياً • فمال على الشىء والشمعة بيده ، فرأى طفلة عمرها خمس سنين فى أكثر تقدير ، ترتدى ثوباً خلقاً مبتلاً بالماء كابتلال خرقة من الخرق التى تغسل بها الصحون ، وهى ترتجف من البـرد وتبـكى • لم يظهـر عليهـا ذعـر حين رأت سفدريجايلوف ، ولكنها حدَّقت اليه بعينيها السوداوين الكبيرتين مبهوتة • وكانت تشهق من حين الى حين ، كما يشهق طفل لبث يبكى مدة طويلة ثم انقطع عن البكاء ، لكنه ما يزال يشهق بين الفينة والفينة • كانت الطفلة شاحبة الوجه مشعثة الهيئة ، وكان واضحاً أن البرد قد بلغ منها العظام • ولكن كيف أمكن أن تقع فى هذا المكان ؟ أغلب الظن أنها قد اختبأت فى ركن ولم تنم طوال الليل !

أخذ سفدريجايلوف يستجوبها • فانتعشت الطفلة فجأة ، وأسرعت تتدفق فى الكلام فتروى بلغتها الطفـولية قصـةً فحـواها أن أمها كانت ستضربها لأنها كسرت فنجاناً •

كانت الطفلة تتكلم بغير توقف ؛ وفى وسع المرء أن يحزر مما روته وقصَّته أنها ليست محبوبة ، وأن أمها (وهى طباخة تظل دائماً سكرى ، ولعلها طباخة هذا المحـل) تروِّعهـا وتضربها ، وأن البنت حين كسرت الفنجان قد بلغ خوفها من الشدة أنها هربت منذ الليلة البـارحة ؛ وأنها اضطرت أن تختبىء مدة طويلة فى مكان ما من الحوش ، تحت المطر ، ثم استطاعت أن تتسلل الى هذا المكان خلسةً ، فاختبأت وراء الخزانة ، وقضت الليلة هنالك مرتعدةً من البرد مرتجفة باكية •

تناول سفدريجايلوف الطفلة بذراعيه ، وعاد الى غرفته فوضعها على سريره وأخذ يخلع لها ملابسـها • كان حـذاءاها مقطَّعين ، مبتلين بالماء

ابتلالاً شديداً لكأنهما قد نُقعا فى غدير ليلةً كاملة • ولم يكن لها جوربان •

فلما فرغ سفدريجايلوف من خلع ملابسها عنها ، أرقدها ودثّرها بالغطاء حتى العنق ، فما لبثت أن نامت فوراً • وما ان انتهى من هذا حتى عاد يغرق فى أحلامه المظلمة وخواطره القاتمة •

قال يحدث نفسه : « هذا ما كنت في حاجة اليه أيضاً ! أن أقحم نفسى فى مثل هذه القصة ! يا للحماقة ! » • وتناول الشمعة مغتاظاً ليمضى باحثاً عن الخادم من أجل أن ينصرف بأقصى سرعة • فلما همّ أن يفتح الباب أفلتت من لسانه شتيمة للطفلة الصغيرة ، ومع ذلك عاد يلقى عليها نظرة ليرى هل نامت وكيف كان نومها • رفع الغطاء محاذراً • كانت البنية تنام نوماً عميقاً هادئاً سعيداً • لقد دفّأها الغطاء ، حتى ان خديها قد استردّا لونهما منذ الآن • ولكن الشيء الغريب أن هذا اللون كان أسطع اتقاداً مما يلاحَظ في الأطفال الآخرين • فقال سفدريجايلوف لنفسه : « ان بها حمّى » • لكأنها قد شربت ، لكأنها قد سُقيت كأساً من الخمر كبيرة مترعة • ان شفتيها الحمراوين تبدوان كالمحترقتين • « ماذا ؟ ما هذا ؟ » • لقد رأى سفدريجايلوف فجأة أن أهداب الصبية ، الطويلة السوداء ، تختلج وترتعش كأنها تنفتح ، ورأى من تحت الأهداب نظرةً ماكرة حادة ليست نظرة أطفال ، تتسلل اليه ، فكأن الطفلة غير نائمة لكنها تتظاهر بالنوم • نعم ، ذلك ما كان ••• وانفرجت شفتا الصبية عن ابتسامة ، وكانت أطراف الشفتين تختلج كأنها تحاولان كظم ضحكة • ولكن محاولة الكظم تنتهى ، فتنطلق الضحكة • انها ضحكة صريحة ، وقحة ، فيها تحدٍ واستفزاز ، تنفجر فى وجه لم يبق فيه الآن شيء من طفولة • هو الآن وجه العهر والانحلال ، وجه وقح زايله الحياء ، وجه امرأة مثل « كاميليا » * مثل « غادة الكاميليا » ، وجه مومس تتعاطى البغاء

فى سبيل المال ، مومس فرنسية • وها هى ذى البنت ، بعد أن لم يبق لها ما تخفيه ، ها هى ذى تفتح عينيها ، وتلفه بنظرة عنيفة محــرقة ، فى غير تحفظ أو احتشام • ان عينيها تناديانه ، وتضحكان ••• وان هناك شــيئاً دنساً مســيئاً مهيناً فى هذه الضحكة ، وفى هــاتين العينين ، وفى كل هذا الوجه الذى أصبح لا يعبر الا عن الرجس والعار • « وكيف ؟ أفى هذه السن ؟ أفى الخامسة من العمر ؟ » ، بهذا تمتم سفدريجايلوف مذعوراً • ولكن ها هى ذى تدير نحوه وجهها المتقــد ، وتمد اليه ذراعيها ، فيقول مروّعاً : « آه ••• يا للمعــونة ! » ، ويشــهر عليها ذراعه ••• ولكنــه استيقظ من نومه فى تلك اللحظة •

كان لا يزال راقداً على سريره متدثراً بالغطاء • ولم تكن الشــمعة مشتعلة ، غير أن بياض الفجر كان يلوح من وراء النوافذ •

« كوابيس طوال الليل ! » • كذلك قال سفدريجايلوف ، ثم نهض منتصباً على سريره فى غيظ وحنق • كان يحس بأنه محطّم • انه يشعر بوجع فى جميع عظامه • وفى الخــارج كان ينتشر ضباب كثيف يحجب الرؤية • لا بد أن الساعة قريبة من الخامسة • لقد نام مدة طويلة جداً •

وقام سفدريجايلوف ، فارتدى ســترته ومعطفــه اللذين ما يزالان مبتلين ؛ وبعد أن تلـّمس مسدسه فى جيبه ، أخرجه فتثبت من الكبسولة، ثم جلس ، وتناول دفتراً صغيراً فكتب على الورقة الأولى منه بضعة أسطر بأحرف كبيرة • حتى اذا أعاد قراءة الأسطر التى كتبها ، رجع يسترسل فى أحلامه من جــديد ، متكئــاً بكوعيــه على المائدة • المســدس والدفتر ما يزالان على المائدة قرب كوعــه • وقد استيقظ الذباب فهو يتهافت على قطعة لحم العجل التى لم يمسسها • ظل سفدريجايلوف ينظر الى الذباب برهة طويلة ، وحاول أخيراً أن يلتقط ذبابة من الذبابات بيده اليمنى التى كانت طليقة • ولكنع لم يفلح فى ذلك رغم الجهود الكثيرة التى بذلها •

وفاجأ نفسه آخر الأمر مستغرقاً فى هذا العمل ، فثاب اليه صوابه ، وارتجف ، ونهض فخرج من الغرفة بخطى حازمة ثابتة • فما هى الا لحظة حتى كان فى الشارع •

ان ضباباً بلون اللبن كان يغمر المدينة • وسار سفدريجايلوف على أرض الشارع الخشبية الموحلة الزلقة ، فى اتجاه نهر « نيفا الصغير » • كان لا يكف عن تخيل مياه النهر التى ارتفعت أثناء الليل ، وعن تخيل جزيرة بتروفسكى ، والطرق المنقوعة والعشب الغارق والأشجار والأدغال التى يتقاطر منها الماء ، ثم الدغل المقصود !••• واغتاظ من ذلك فأخذ يتفحص المنازل من حوله ليصرف تفكيره الى شىء آخر • لم يكن فى الشارع أحد من المارة ، ولم يكن فيه أية عربة • والمنازل الخشبية الصغيرة ، الصفراء الفاقع لونها، كانت بنوافذها المغلقة ومصاريعها الموصدة، قذرة المظهر كالحة الهيئة •

أخذ سفدريجايلوف يرتجف من البرد والرطوبة اللذين نفذا فيه• فاذا وقع بصره على لافتة دكانٍ من الدكاكين بين الحين والحين ، أخذ يقرأ الكلمات مدققاً متفحصاً •

ها قد انتهى الشارع المبَلّطة أرضه بالخشب • لقد وصل سفدريجايلوف الى مبنى كبير من حجر • وهذا كلب صغير بشع يمر أمامه قاطعاً الشارع ، واضعاً ذيله بين قائمتيه • وهذا رجل سكران حتى لكأنه ميت من فرط السكر ، قد رقد على الرصيف عَرْضاً ، لابساً معطفاً سميكاً ، واضعاً وجهه على الأرض •

نظر سفدريجايلوف اليه ثم تابع طريقه • وظهر له برج كبير على شماله فجأة • فهتف يقول لنفسه : « آ ••• وجدت المكان المناسب • علام الذهاب الى جزيرة بتروفسكى ؟ فى هذا المكان يمكن على الأقل أن يوجد

شاهد رسمى » • وكاد يبتسم حين خطرت بباله هذه الفكرة ، ثم انعطف يدخل شارع « س ••• » • هناك كان ينتصب المبنى الذى يعلوه برج*• وعلى باب الفناء من هذا المبنى كان يستند بظهره رجلٌ قصير القامة متدثر بمعطف رمادى اللون من معاطف الجنود ، وعلى رأسه خوذة من نحاس كخوذة آخيل • رشق الرجل سفدريجايلوف بنظرة باردة تعبر عن النعاس • ان فى وجهه تلك الكآبة الحاقدة الساخطة التى عمرها مئات السنين ، تلك الكآبة التى تطبع فى كثير من المرارة قسمات وجوه جميع الناس الذين ينتمون الى ملة اليهود • وتفحص كل من سفدريجايلوف وآخيل صاحبه مدة من الوقت فى صمت • ورأى آخيل أخيراً أن من غير الطبيعى أن يقف رجل ليس بالسكران حتماً ، أن يقف على بعد ثلاث خطوات منه ، ويأخذ يحدق اليه ويتفرس فيه دون أن ينطق بكلمة • فقال يسأله ، وهو ما يزال جامداً لا يتحرك :

ـ هيه ! عمّ تبحث ؟

فأجابه سفدريجايلوف :

ـ لا أبحث عن شيء أيها الأخ • صباح الخير •

ـ امض فى طريقك !

ـ هل تعرف أيها الأخ ؟ أنا مسافر الى الخارج ؟

ـ الى الخارج ؟

ـ الى أمريكا •

ـ الى أمريكا ؟

تناول سفدريجايلوف مسدسه وحشاه • فرفع آخيل حاجبه • وصاح يقول :

ـ ما هذا المزاح ؟ ليس هذا هو المكان ...

ـ ولماذا لا يكون هو المكان ...

ـ لأنه ليس هو المكان ...

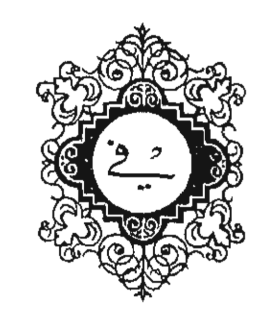
ـ دعك يا صاحبي ، لا ضير ... هذا المكان مناسب مع ذلك . فاذا سئلت فقل انى سافرت الى أمريكا .

قال سفدريجايلوف ذلك ووضع المسدس على صدغه الأيمن . فانبرى أخيل يقول له مندفعاً محملقاً مزيداً من الحملقة :

ـ ممنوع هنا . ليس هذا هو المكان .

وضغط سفدريجايلوف على الزناد .

الفصل السابع



في ذلك اليوم نفسه ، عند المساء ، بين الساعة السادسة والساعة السابعة ، ذهب راسكولنيكوف الى مسكن أمه وأخته ، ذلك المسكن الذى أسكنهما فيه رازوميخين فى عمارة باكالايف. ان مدخل السلم يطل على الشارع . كان راسكولنيكوف يتقدم مترددا ، متباطىء الخطو . ولكن ماكان له أن يقفل راجعا بحال من الأحوال ، فقد اتخذ قراره وعزم أمره . كان يقول لنفسه : « انهما ، على كل حال ، لا تعرفان شيئاً حتى الآن ، وقد ألفتا أن تعدانى شاذاً ... » . كانت ثيابه فى حالة رهيبة ، فانه بعد ليلة كاملة من المطر قد تبللت ملابسه وتلطخت بالوحل . وكان منقلب الوجه من التعب والقلق والاجهاد الجسمى والصراع الروحى الذى ظل ناشبا فى نفسه منذ ما يقرب من أربع وعشرين ساعة . كان قد قضى الليل وحيداً ، لا يعلم الا الله أين ، ولكنه كان قد عقد العزم على انفاذ الأمر .

طرق الباب ، ففتحت له أمه . كانت دونيا قد خرجت . وكانت الخادمة نفسها غائبة فى هذه الساعة . خرست بولشيريا الكسندروفنا من الدهشة والفرح فى أول الأمر ، ثم أمسكت يده وقادته الى الغرفة. وبدأت تتكلم متلعثمة من فرط السعادة فقالت :

ـ آ ... هأنت ذا أخيراً ! لا تزعل يا روديا اذا أنا استقبلتك هذا الاستقبال الأبله باكية . اننى أضحك . اننى لا أبكى . أتظن أننى

أبكى ؟ لا ، أنا سعيدة . ولكن هذه عادة سخيفة من عاداتى . دموعى تنسكب لغير سبب ... منذ مات أبوك أصبحت أبكى لأتفه أمر من الأمور . اجلس يا حبيبى ، لا بد أنك متعب ، أنا أرى هذا واضحاً ! آه ... ثيابك متسخة جداً !...

بدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال :

ـ كنت أمس خارج البيت تحت المطر يا أماه !

فاندفعت بولشيريا ألكسندروفنا تقاطعه بقوة قائلة :

ـ لا ، لا ، لا يذهبن بك الظن الى أننى استجوبك ، على عادتى القديمة المتعبة . اهدأ بالاً ، فاننى أفهم الآن كل شىء . لقد تعلمت عادات الناس هنا ، وأدركت أنها خير من عاداتنا نحن هناك . وأيقنت أنه ليس من حقى أن أحاول معرفة أفكارك ، وأن أحاسبك. الله يعلم ما هى الخطط والشئون التى تملأ رأسك ، وما هى الخواطر التى ترهقك ، فهل يجوز لى أن أشدك من ذراعك وأسألك : « هيّا ، هيّا قل لى ، قل لى فيم تفكر ؟ » ما حاجتى الى هذه الثرثرة أخبط فيها خبط عشواء ! هل تعلم يا روديا ؟ أنا الآن أقرأ ، للمرة الثالثة ، المقالة التى نشرتها فى ... فى تلك المجلة . لقد جاءنى بها دمترى بروكوفتش . فما ان رأيتها هى صحت أقول : آه ... من فرط دهشتى ! قلت لنفسى : « ما كان أغبانى وأشد حماقتى . هذا هو اذن ما يشغل باله . هذا يفسر كل شىء . كذلك هو شأن جميع العلماء . انه يدير فى رأسه أفكاراً يتأملها وينضجها ، وأجىء أنا فأزعجه وأعذبه ... » . اننى أقرأ مقالتك يا بنى ؟ فيها أشياء لا أفهمها طبعاً . ولكن لا غرابة فى ذلك ، فما أنا الا امرأة بسيطة .

ـ أرينى تلك المقالة يا أمى .

تناول راسكولنيكوف المجلة ، وألقى على مقالته نظرة عجلى .

فشعر ، رغم أن هذه الصفحات متعارضة أشد التعارض مع وضعه القائم وحالته النفسية الراهنة ، شعر بتلك العاطفة الغريبة ، بتلك العذوبة الحادة ، بتلك الحلاوة الكاوية التى يشعر بها الكتاب حين يرون انتاجهم مطبوعاً لأول مرة (ولا سيما حين لا يكون عمرهم قد تجاوز الثالثة والعشرين) • ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة • فبعد أن قرأ الأسطر الأولى ، تقطب حاجباه ، وانقبض صدره ، واختنق قلبه بحزن رهيب• ان جميع أنواع الصراع والكفاح التى خاضها فى هذه الأشهر الأخيرة قد عادت الآن الى ذاكرته دفعةً واحدة • فها هو ذا يرمى المجلة على المائدة بحركة اشمئزاز ولوعة •

ـ مهما أكن غبية يا روديا فاننى أستطيع أن أدرك أنك ستصبح فى المستقبل القريب واحداً من أعظم رجال عالمنا المثقف ، ان لم تصبح أعظمهم جميعاً بغير استثناء !••• هه !••• ومع ذلك تجاسروا فزعموا أنك مجنون ! هأ هأ هأ !••• لعلك لا تعرف هذا ، ولكنهم زعموه ، ودار فى خلدهم ! ما أحقرهم دوداً من دود الأرض ! مساكين ! أنّى لهم أن يفهموا ما هو الذكاء ! ولكن ما بال دونيا ، نعم ما بال دونيا قد أوشكت أن تصدّق ذلك هى أيضاً ؟••• أهذا ممكن ؟ ان المرحوم أباك قد أرسل•• انتاجه مرتين الى احدى المجلات ، مرةً شعراً (ما زلت أحتفظ بالدفتر ، وسأريك اياه يوماً) ومرة قصةً (وقد رجوته أن يسمح لى بنسخها) ، وما أكثر ما دعونا الله أن ينشروا له انتاجه ذاك • ولكنهم لم ينشروه ! هل تعلم يا روديا ؟ اننى منذ خمسة أيام أو ستة قد حزنت حين رأيتُ كيف تعيش وماذا تأكل وماذا تلبس وأين تسكن ؟ ولكننى أدرك الآن أننى كنت غبية فى هذه المرة أيضاً ، فلو قد شئتَ لنلت كل شىء دفعةً واحدة بفضل ذكائك وموهبتك • ولكنك فى أغلب الظن لا تشاء ذلك الآن ، لأنك مشغول عنه بأمور أهمّ شأناً •

ـ أليست دونيا في البيت يا أمي ؟

ـ لا يا روديا ، انها تخرج فى أكثر الأحيان وتدعنى وحدى • لقد تلطف دمترى بروكوفتش فجاء يزورنى ويقضى بعض الوقت فى صحبتى• انه يكلمنى دائماً عنك • انه يحبك ، ويقدرك حق قدرك يا بنى • لا أزعم بهذا أن أختك لا تحفل بأمرى وأنها مقصرة في حقى ، فلست ألومها ، ولكن لها طبعها ولى طبعى • وهى تخفى أسراراً صغيرة لا حصر لها ، تخفيها عنى ولا تطلعنى عليها • أما أنا فلست أخفى عنكما أى سر • أنا أعرف طبعاً أن دونيا ذكية جداً ، وأنها كذلك تضمر لى ، وتضمر لك أنت أيضاً ، كثيراً من العاطفة والحنان • ولكنى لا أدرى كيف ستكون خاتمة هذه الأمور كلها • لقد أسعدتنى بمجيئك كثيراً يا روديا ، ولكن ها هى ذى قد خرجت فى الوقت الذى جئت أنت فيه ! سأقول لها حين تعود : « جاء أخوك فى غيابك ، فأين كنت خلال ذلك الوقت ؟ » • ولكن لا تدللنى كثيراً يا روديا : تعال الىّ ان استطعت ، فان لم تستطع أن تجىء فلا ضير ، وسأنتظرك على كل حال ، وسأعرف دائماً أنك تحبنى ، وهذا يكفينى • سوف أقرأ مؤلفاتك ، وسوف أسمع الناس جميعاً يتحدثون عنك ، وسوف تجىء أنت الىّ من حين الى حين • ما عساى أتمنى أكثر من ذلك ؟ هأنت ذا قد جئت اليوم لتواسى أمك ، اننى أرى هذا واضحاً ، فهل يمكن أن أطلب المزيد ؟

هنا أخذت بولشيريا الكسندروفنا تبكى فجأة •

ـ آه ••• هأنا ذا أعود الى البكاء ! لا تنظر الىّ يا بنى ! ما أنا الا حمقاء !

ثم هتفت تقول وهى تنهض واثبة :

ـ آ ••• ما بالى أظل جالسة هذا الجلوس ! عندنا قهوة ولا أقدم لك منها ••• هذه أنانية المسنين ! حالاً ! حالاً !•••

ـ أماه ! دعي هذا ! أنا ذاهب بعد لحظة ! ما من أجل ذلك جئت . أرجوك ، أصغي الي ّ !

اقتربت منه بولشيريا الكسندروفنا وجلة . فقال يسألها طافح القلب، دون أن يفكر ودون أن يزن كلامه :

ـ أتظلين تحبينني ، يا أماه ، كما تحبينني الآن ، مهما تسمعي عني، ومهما تعلمي من أمري ؟

فأجابت الأم :

ـ روديا ، روديا ، ماذا بك ؟ كيف يمكنك أن تلقي سؤالاً كهذا السؤال ؟ من ذا الذي يجرؤ أن يقول فيك سوءاً ؟ وهبْ أحداً قال فيك سوءاً ، فانني لن أصدقه ؟ لن أصدّق أحداً يجرؤ أن ... سوف أطرد من يجرؤ ... سوف أطرده ...

تابع راسكولنيكوف كلامه يقول :

ـ جئتُ لأؤكد لك أنني أحببتك دائماً ؟ وانه ليسرني أن نكون الآن وحيدين ، وأن لا تكون دونيا هنا . لقد جئت لأقول لك بصراحة ان عليك ، مهما يصبك من شقاء ، أن تعلمي أن ابنك يحبك أكثر مما يحب نفسه ، وان كل ما يمكن أن يخطر ببالك من ظنون عن قسوتي وقلة عاطفتي انما هو باطل . وانني لن أكفّ عن حبك يوماً ... كفى هذا الآن ، وانما أنا قدّرت أن عليّ أن أبدأ به ...

ضمّت بولشيريا ألكسندروفنا ابنها صامتة ، وشدته الى صدرها ، وبكت في رفق . وقالت أخيراً :

ـ لا أدري ماذا بك يا روديا . كنت أقدّر حتى هذه اللحظة أن كل ما في الأمر هو أنك قد ضقت بنا . ولكنني أدرك الآن أدراكاً واضحاً أن

آلاماً كبيرة تنتظرك ، وأن هذا هو السبب فى حزنك . لقد أحسست بشىء من هذا احساساً غامضاً منذ مدة يا روديا . سامحنى اذا أنا حدثتك فى ذلك ، ولكننى دائمة التفكير فيه ، حتى أنه يؤرقنى ويحرمنى من النوم. كانت أختك فى هذه الليلة تهذى ، وتكلمت أثناء هذيانها عنك . ميَّزتُ بعض الكلمات ، لكننى لم أفهم شيئاً . وظللت طوال الصباح كمن ينتظر تنفيذ حكم الاعدام فيه ؟ نعم ، أصبحت أتوقع شيئاً ما سيحدث ، وها هو ذا الشىء الذى توقعته يحدث فعلاً ! روديا ! روديا ! الى أين أنت ذاهب؟ ستسافر ، ستسافر ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، سأسافر .

ـ ذلك ما كنت أقدّره ! ولكن فى وسعى أن أسافر معك ، اذا كان ذلك ينفعك . ودونيا أيضاً تحبك ، تحبك كثيراً ؟ ولتأت معنا صوفيا سيميونوفنا أيضاً اذا وجب ذلك ! اننى مستعدة لأن أقبلها بنتاً لى . وسيساعدنا دمترى بروكوفتش فى الاستعداد للسفر . ولكن الى أين تريد أن تسافر ؟

ـ استودعك الله يا أماه !

هتفت الأم تقول وكأنها تفقد ابنها الى الأبد :

ـ كيف ؟ أفى هذا اليوم نفسه ؟

ـ لا أستطيع التأخر ... آن الأوان ... يجب حتماً أن ...

ـ وأنا ؟ ألا أستطيع أن ... أذهب معك ؟

ـ لا . ولكن اركعى وصلى لى ، فلعل الله يستجيب لصلاتك !

ـ دعنى أرسم عليك اشارة الصليب ، دعنى أباركك . نعم ، هكذا ، هكذا ! رباه ... ماذا نفعل ؟

نعم ، لقد كان راسكولنيكوف سعيداً بأن البيت خالٍ ليس فيه أحد، كان سعيداً بأن يخلو الى أمه ، حتى لكأنه بعد جميع العذابات الرهيبة التى عاناها قد ذاب قلبه حناناً على حين فجأة دفعةً واحدة ؛ فها هو يرتمى على قدمى أمه فيقبّلهما ، وها هما يبكيــان كلاهما ويتعانقان • والأم فى هذه المرة لا تشعر بدهشة ولا تلقى سؤالاً • لقد أدركت أن ابنها يعانى أموراً فظيعة ، وأن لحظة رهيبة سوف تأزف بعد قليل ، فتحدد مصيره تحديداً حاسماً •

قالت ناشجةً :

ــ روديا ، يا بنى الحبيب ، يا أول ولد لى ، هأنا ذى أراك الآن كما كنت فى صغرك تماماً • كنت تجىء الىَّ على هذا النحو نفسه ، فتطوقنى، وتقبّلنى ، بهذه الطريقة نفسها • وحين كان أبوك ما يزال معنا ، وحين كانت حياتنا قاسية قسوة شديدة ، كنت أنت تعزينا كلينا بوجودك • وبعد أن دفنت أباك ، كم من مرة بكينا على قبره ، أنا وأنت ، متعانقين كتعانقنا الآن ! لئن كنت أبكى منذ مدة ، فلأن قلبى ــ قلبَ الأم ــ قد أوجس أن شراً سيقع ، أن مصيبة ستنزل • حين رأيتك أول مرة مساءَ يوم وصولنا الى هنا حزرت كل شىء من رؤية نظرتك وحدها ، فسرعان ما ارتعش قلبى ؛ واليــوم ، حين فتحت لك الباب ، نظرت اليك فلم ألبث أن قلت لنفسى : لا شك أن الساعة المشئومة قد حانت • روديا ، روديا ، أأنت مسافر فوراً ؟

ــ لا •

ــ هل ستعود ؟

ــ نعم ••• سأعود •

ـ روديا ، لا تزعل ، أنا لا أجرؤ أن أسألك ، أنا أعرف أنني لن أجرؤ ، ولكن قل لى كلمة واحدة فقط : هل المكان الذى ستسافر اليه بعيد ؟

ـ بعيد جداً •

ـ ما الذى يدعوك الى هناك ؟ وظيفة ، عمل ؟

ـ ما يرسله الىّ الله ••• ولكن صلّى من أجلى !

واتجه راسكولنيكوف نحو الباب ، غير أن أمه تشبثت به ، ونظرت اليه محدقةً فى عينيه وقد عبّر وجهها عن يأس شديد ، وانقلبت سحنتها خوفاً وذعراً •

قال راسكولنيكوف نادماً أعمق الندم على أنه جاء :

ـ كفى يا أماه !

ـ لست تسافر الى الأبد ، ليس كذلك ؟ لست تسافر الى الأبد بعدُ ، أليس كذلك ؟ وسترجع غداً ، ألن ترجع غداً ؟

ـ سأرجع ، سأرجع ، أستودعك الله !

وانتزع نفسه منها أخيراً •

كان المساء ناعماً طرياً صافياً • لقد صحا الجو منذ الصباح • وعاد راسكولنيكوف الى بيتـه • كان مسرعاً • كان يريد أن يفرغ من الأمر قبل غياب الشمس • وكان حتى هذه اللحظة يتمنى أن لا يصادف أحداً• فلما كان صاعداً الى غرفته لاحظ أن ناستاسيا تركت سماورها وأخذت تتابعه بنظراتها • قال يسأل نفسـه : « أيكون أحـد عندى ؟ » • وتذكر بورفير مشمئزاً ممتعضاً • لكنه حين وصل الى غرفته وفتح الباب ، رأى دونيا • كانت جالسةً على الديوان ، غارقة فى تأمل عميق• وكان واضحاً

أنها قد انتظرته مدة طويلة • وقف على العتبة • ان نظرتها المحدِّقة اليه الثابتة عليه تعبِّر عن ذعر هائل وحزن لا نهاية له • أدرك من هذه النظرة وحدها أنها تعرف كل شيء •

سألها حائراً :

ـ أأدخل أم أنصرف ؟

فقالت :

ـ قضيت النهار كله عند صوفيا سيميونوفنا • كنا ننتظرك كلتانا • وكنا نظن أنك لا بد أن تأتى •

دخل راسكولنيكوف ، وتهاوى على كرسي ، مهدود القوى ، وقال :

ـ أشعر بضعف ووهنٍ يا دونيا ، انني متعب جداً ، وأنا في هذه اللحظة خاصةً انما احتاج الى قواي كلها •

ونظر اليها نظرة ارتياب •

ـ أين كنت طوال الليل ؟

ـ لا أتذكر جيداً • لقد أردت يا أختى أن اتخذ قراراً حاسماً ، ومضيت عدة مرات الى قرب نهر نيفا • هذا أتذكره • أردت أن أنهى الأمر هنالك •••

وأضاف راسكولنيكوف يقول متمتماً وهو يلقى على دونيا تلك النظرة المرتابة نفسها :

ـ ولكنني ••• لم أعزم أمري •••

ـ الحمد لله !.. ليتك تعلم كم كنا خائفتين ، أنا وصوفيا سيميونوفنا ، من أن تفعل ذلك ! اذن ما زلت تؤمن بالحياة ! الحمد لله ! الحمد لله !

ابتسم راسكولنيكوف ابتسامة مرة . وقال :

ـ كنت لا أؤمن بها ، ولكنني آمنت منذ قليل ، حين تعانقنا أنا وامى، وبكينا . أنا لست مؤمناً ، ومع ذلك طلبت من أمى أن تصلى من اجلى وأن تدعو الله لى . الله يعلم كيف يحدث هذا يا دونيتشكا ! على كل حال، لست أفهم من الأمر شيئاً !...

هتفت دونيا تقول مذعورة :

ـ كنت عند أمنا ؟ وقلت لها ؟.. هل جرؤت حقاً أن تقول لها ..

ـ لا ، لم أقل شيئاً ... لكنها فهمت أشياء . لقد سمعتك تهذين فى الليل . وانى لواثق أنها تعرف الحقيقة منذ الآن . لا أدرى لماذا ذهبت اليها . أنا انسان سىء يا دونيا !

ـ أأنت انسان سيىء ، أنت الذى ترضى أن تقبل الألم ؟ ذلك أنك تقبل الألم ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، الآن أقبله . اننى من أجل أن اتحاشى هذا العار ، اردت أن أغرق نفسى يا دونيا . ولكنى حين ملت فوق مياه النهر ، قلت : ما دمت أعد نفسى رجلاً قوياً فما ينبغى أن أتراجع أمام العار . هذه كبرياء يا دونيا ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، هى كبرياء يا روديا !

لكأن شعلة قد عادت تتقد فى عينى راسكولنيكوف المنطفئتين : كان ما يزال يسره أن يكون ذا كبرياء !

وسأل أخته وهو يبتسم ابتسامة رهيبة ويحدّق الى عينيها بنظرة ثابتة :

ـ قولى يا أختى ، هل تعتقدين أن الخوف من الماء وحده هو الذى صدّنى عن الانتحار غرقاً ؟

فهتفت دونيا تقول بمرارة :

ـ كفى يا روديا !

وساد الصمت دقيقتين •

كان راسكولنيكوف جالساً خافض العينين • وكانت دونيا واقفة عند الركن الآخر من المائدة تتأمله وقد عبّر وجهها عن ألم شديد • ونهض راسكولنيكوف فجأة • وقال :

ـ تأخرت • حانت الساعة • سأمضى أشى بنفسى • ولكنى لا ادرى لماذا أشى بنفسى !

فانحدرت على خدى الفتاة دموع كبيرة •

قال راسكولنيكوف :

ـ تبكين يا أختى ؟ ولكن هل تقبلين أن تمدى الىّ يدك ؟

قالت :

ـ هل يساورك شك فى هذا ؟

ثم ضمته بين ذراعيها ضماً قوياً • وهتفت تقول وهى ما تزال تعانقه وتقبّله :

ـ ألست تمحو نصف جريمتك حين تقبل الألم ؟

فصاح يسألها فى سورة من غضب شديد :

ـ جريمة ؟ أية جريمة ؟ أيكون جريمةً قتلُ قملة قذرة ضارة ، قتلُ مرابية عجوز لا يحتاج اليها أحد ، مرابية تمتص دماء الفقراء ؟ الا ان قتلها ليمحو أربعين خطيئة ! لا أظن أن هذا الفعل جريمة ، ولا اريد أن أتطهر منه وأكفر عنه • ما بالكم جميعاً تكررون على مسامعي : « جريمة ، جريمة » ؟ نعم ، انني وقد قررت أن أتحمل هذا العار الذي لا طائل تحته ، أدرك الآن مدى ما يشتمل عليه جبني من سخف • ان الصغار والعجز وحدهما هما اللذان يدفعاني الى أن ••• وربما أضيفت اليهما المنفعة ••• كما ••• كما كان يقترح عليّ ذلك ••• بورفير !

صاحت دونيا تقول وقد استولى عليها كرب شديد :

ـ أخي ، أخي ، ما هذا الذي تقوله ؟

فاستأنف راسكولنيكوف كلامه يقول خارجاً عن طوره :

ـ دم يسفحه جميع الناس ، يجري وسيظل يجري على الأرض أنهاراً ••• نعم ••• يسكبه جميع الناس كالشمبانيا ، ومن أجله يتوّج بعضهم في « الكابيتول » ، ويسمى بطلاً من الأبطال الذي أحسنوا الى الانسانية ! أنعمي النظر قليلاً واحكمي في الأمر ! أنا قد أردت أن اصنع للبشر خيراً ، وكنت مستعداً لأن أقوم بمئات الحسنات بل بألوف الحسنات تعويضاً عن تلك الحماقة البسيطة ••• بل قولي عن تلك الخرافة البسيطة، لأن الفكرة في ذاتها لم تكن حمقاء الى الحد الذي يبدو الآن ، بعد ان أخفقت (نعم ان كل من يخفق يبدو غبياً أحمق) • الخلاصة انني رجوت بهذه الحماقة ـ ولنسلّم بأنها حماقة ـ أن أخلق لنفسي وضعاً مستقلاً ، أن أخطو خطوة أولى ، أن أحصل على موارد ، فاذا جميع الأمور تتدبر بعد ذلك على نحو مفيد ، عادل ، مرض ••• كل ما هنالك انني منذ الخطوة الأولى قد ترنحت لأنني جبان • تلك هي الحقيقة ! وذلك هو السبب في

أننى شقى : فلو قد نجحت لوضعوا على رأسى أكاليل الغار ، أما الآن فانهم يلقوننى الى الكلاب ...

ـ ليس هذا صحيحاً ، ليس هذا صحيحاً ! ما هذا الذى تقوله يا أخى ؟

ـ صحيح أننى لم أراع الأشكال ، لم أراع الأشكال البديعة التى توجبها قواعد الجمال . ولكن هل تعتقدين حقاً أن قذف القنابل على سكان آمنين ، أثناء حصار ، أكثر مراعاة للأشكال البديعة وأكثر تقيداً بقواعد الجمال ؟ ثم ان الاهتمام بقواعد الجمال أول علائم العجز ... اننى لم أحس هذه الحقيقة فى يوم من الأيام كما أحسها الآن ، ولا عجزت فى يوم من الأيام عن أن أفهم ما هى جريمتى كما أعجز عن هذا الآن ! لم أكن فى يوم من الأيام أشد اقتناعاً وأرسخ يقيناً منى فى هذه اللحظة !...

قال راسكولنيكوف هذا واحمر وجهه المخرّب الشاحب احمراراً قانياً على حين فجأة . لكنه حين نطق بهذه الصيحة الأخيرة التقت عيناه مصادفةً بنظرة دونيا ، فقرأ فى هذه النظرة ألماً يبلغ من الشدة أن راسكولنيكوف لم يلبث أن ثاب الى رشده فجأة وسيطر على اندفاعه رغم ارادته تقريباً . لقد شعر أنه على كل حال قد أشقى امرأتين مسكينتين . انه هو السبب مهما يكن من أمر !... قال :

ـ دونيا العزيزة ! اذا كنت مذنباً فاغفرى لى (رغم أن الغفران مستحيل اذا كنت مذنباً) . أستودعك الله ! كفى مناقشة ! لقد آن الأوان حتى لقد تأخرت ! لا تتبعينى ، أرجوك ! هناك زيارة أخرى يجب ان أقوم بها ... وانصرفى حالاً وابقى الى جانب أمنا ، أرجوك ، اضرع اليك ! هذا آخر وأكبر رجاء أتوجه به اليك . لا تتركيها لحظة واحدة. لقد ودّعتها وهى على حال من القلق لا تستطيع أن تطيقها ... فاما أن

تمـوت واما أن تُجنّ . فابقى اذن بقـربها ! وسـيكون رازوميخين الى جانبكما ، لقد كلمته فى الأمر ... لا تبكى علىّ ... سأحاول أن اكون طوال حياتى شريفاً وشجاعاً ، رغم أننى قاتل . وقد تسمعين باسمى فى يوم من الأيام . لن ألطخ شرفكم بالعار . سوف ترين . سوف أبرهن..

وأسرع راسكولنيكوف يقـول وقد لاحظ حين نطق هذه الكلمات الأخيرة وبذل تلك الوعود أن عينى دونيا قد التمع فيهما تعبير غريب :

ـ والآن ، الى اللقاء . لماذا تبكين هكذا ؟ لا تبكى ! لا تبكى ! اننا لا نفترق الى الأبد ! ها ... نعم ... انتظرى ... نسيت !...

واقترب من المائدة ، فتناول منها كتاباً ضخماً غشّاه الغبار ، ففتحه ، فسحب منه صورة صغيرة لوجهٍ مرسوم بالألوان المائية على عاج ، كانت موجودة بين أوراق الكتاب . انها صورة بنت صاحبة البيت ، الفتاة التى ماتت من الحمى وكانت فى الماضى خطيبته وكانت تريد أن تدخل الدير . تأمل راسكولنيكوف هذا الوجه الصـغير المعبّر المتألم ، ثم قبّل الصـورة ومدّها الى دونيا وهو يدمدم شارد الذهن :

ـ كثيراً ما كلمتها هى أيضاً عن « ذلك الأمر » . لقد بحت لقلبها بكثير مما تحقق بعد ذلك تحققاً جهنمياً !

وأردف يقول لدونيا :

ـ لا تقلقى يا دونيـا ! كانت لا تؤيد آرائى أو تحبّذها أكثر ممـا تؤيدينها أو تحبذينها أنت ! وانى لأحمد الله على أنها بارحت هذا العالم !

ثم هتف يقول فجأة وقد عاد اليه عذابه :

ـ المهم ، المهم أن كل شىء سيتغير ، وأن الانفصال عن الماضى سيكون تاماً . نعم ، كل شىء ، كل شىء سيتغير ! ولكن هل أعددت نفسى لهذا ؟

وهل أنا أريده حقاً ؟ يقال ان هذه المحنة لازمة لى ، ولكن فيم هذه المحن السخيفة كلها ؟ ما فائدتها ؟ ما جدواها ؟ هل سأكون أقدر على الفهم ، حين أصبح ، بعد عشرين سنةً من الاعتقال ، شيخاً مرهقاً هدّه الألم ودمّره العذاب وصار أبله معتوهاً ؟ وما فائدة أن أبقى على قيد الحياة بعد ذلك ؟ لماذا قبلت حياة كهذه الحياة ؟ آه ... لقد أدركت حقاً أننى جبان رعديد حين ملت على مياه نهر نيفا فى هذا الصباح عند الفجر !

وخرج الاثنان أخيراً . كانت دونيا تتألم كثيراً ، ولكنها كانت تحب أخاها . وابتعدت . غير انها ما ان سارت خمسين خطوة حتى التفت الى وراء لتنظر اليه . كان راسكولنيكوف ما يزال يُرى . وحين وصل الى ناصية الشارع التفت هو أيضاً ، فالتقت نظرتاهما آخر مرة . لكنه حين لمح أن أخته تنظر اليه حرّك يده باشارة تململ بل باشارة غضب ، ليومىء لها بأن عليها أن تتابع السير فى طريقها . وأسرع يغيب هو أيضاً عند منعطف الشارع .

وحدث نفسه يقول آسفاً على حركة التململ أو الغضب التى بدرت منه : « أنا شرير ! واضح أننى شرير !... ولكن لماذا تحبنى أختى كل هذا الحب ما دمت لا أستحقه ؟ آه ... لو كنت وحيداً ، لو لم يكن هناك أحد يحبنى ، « اذن لما حدث شيء من ذلك كله » ! والآن أود لو اعرف هل سأصبح بعد خمس عشرة سنة أو عشرين سنة من الاعتقال فى السجن ، هل سأصبح ذليلاً مذعناً صاغراً الى الحد الكافى الذى يجعلنى أمضى الى جميع الناس أذرف أمامهم الدموع ، وأعلن لهم أننى وغد ؟ طبعاً ، هذا هو السبب الذى يحضهم على ارسالى الى السجن ؟ ذلك هو ما يريدون .. آه ... اننى أراهم جميعاً يذهبون ويجيئون فى الشوارع . انهم جميعا جبناء حقيرون أوغاد ، والأنكى من ذلك أنهم جميعاً بلهاء معتوهون ! ومع

ذلك يكفى أن أحاول تحاشى السجن حتى تثور مشاعرهم النبيلة فاذا هم مستاءون ساخطون ! آه ... اننى أكرههم ! أمقتهم !...

وغرق راسكولنيكوف فى خواطره وتأملاته ، فكان يتساءل : « كيف سأنتهى شيئاً فشيئاً الى الشعور بالمذلة أمامهم جميعاً على اقتناع منى بذلك؟ ولكن لم لا ؟ لا شك أن الأمر سيجرى هذا المجرى . ألا تستطيع عشرون سنة من العبودية المتصلة الى بلوغ هذا الهدف ؟ الماء يأكل الصخر . ولكن اذا صحّ هذا ، فعلام أحيا ، علام أحيا ؟ نعم ، علام أذهب الى هناك مع اننى أعلم منذ الآن أن كل شىء سيجرى على نحو ما أتنبأ ، لا على أى نحو آخر ؟ » .

لعله حين ألقى هذا السؤال على نفسه الآن قد ألقاه للمرة المائة منذ البارحة . لكن ذلك لم يمنعه من الاستمرار فى السير .

الفصل الثامن



دخل راسكولنيكوف على صونيا كان الغسق قد أخذ يهبط . لقد انتظرته صونيا طوال النهار وهى فى حالة قلق رهيب . انتظرته مع دونيا . ان دونيا قد جاءت الى صونيا فى الصباح اذ تذكرت أن سفدريجايلوف قال لها ان صونيا « تعرف » . لن نروى تفاصيل الحديث الذى جرى بين دونيا وصونيا ، ولن نتحدث عن الدموع التى ذرفتاها ، وعن التفاهم الذى نشأ بينهما . وحسبنا أن نقول ان دونيا قد خرجت من هذا اللقاء بعزاء كبير : ان أخاها لن يكون وحيداً . فلها ، لصونيا ، انما أفضى بسره وباح بجريمته قبل أى شخص آخر ؟ وفيها ، فى صونيا ، انما التمس انساناً يركن اليه حين أحسّ أنه فى حاجة الى انسان يركن اليه . فهى التى ستتبعه اذن أينما ترسله الأقدار . لم تلق دونيا أى سؤال عن هذا الأمر ، ولكنها كانت تعلم أن ذلك هو ما سيحدث. حتى لقد كانت تنظر الى صونيا بنوع من التقديس اضطربت له صونيا فى أول الأمر ، وخجلت منه ، وكاد يبكيها ، من فرط قوة اعتقادها بأنها أهون شأناً وأحقر قيمة من أن ترفع عينيها الى دونيا . ان صورة دونيا الرائعة الفاتنة ، حين حيتها بكثير من الاهتمام والاحترام يوم لقائهما فى بيت راسكولنيكوف ، قد انحفرت فى نفسها الى الأبد صورةً من أجمل وأروع ما رأت فى حياتها من صور جميلة رائعة .

ونفد صبر دونيا أخيراً فتركت صونيا لتنتظر أخاها فى بيته . لقد بدا لها أنه سيذهب الى هناك أولاً . فلما خلت صونيا الى نفسها عاودها

الخوف الرهيب من أن يكون راسكولنيكوف قد ينتحر • وكانت دونيا ، هي أيضاً ، تخشى ذلك • ولكن كلاً منهما كانت قد ظلت تقنع الأخرى بأن هذا التصور ليس له مايسوّغه وأن الأمر يستحيل أن يقع ، مستندتين في ذلك الى جميع الأدلة والحجج التي يمكن تخيلها • لهذا كانتا هادئتين بعض الهدوء طوال مدة اجتماعهما • ولكن ما ان افترقتا حتى أصبحتا كلتاهما لا تفكران الا في هذا • تذكّرت صونيا أن سفدريجايلوف قال لها أمس ان أمام راسكولنيكوف مخرجين لا ثالث لهما : فاما سيبيريا واما ••• وكانت تعرف من جهة أخرى كبرياء الشاب واعتزازه بنفسه وقلة عاطفته الدينية ، فكانت تتساءل قلقةً أشد القلق : « هل يمكن أن يكون الخوف من الموت كافياً وحده لصدّه عن الانتحار وجعله يتشبث بالحياة ؟ »

وكانت الشمس تميل الى الغروب في أثناء ذلك • وكانت صونيا واقفة قرب النافذة تحدّق الى الخارج حزينةً ملتاعة • ولكن جداراً مسوداً من جدران منزل مجاور كان هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن تراه العين من هناك • وأخيراً ، حين أصبحت على مثل اليقين بأن المسكين قد مات ، دخل عليها راسكولنيكوف •

فانطلقت من صدر صونيا صرخة فرح ، ولكنها حين تفرست في وجهه ملياً اصفر وجهها فجأة •

قال راسكولنيكوف وهو يضحك ضحكة ساخرة :

ـ هيه صونيا ! لقد جئت آخذ صلبانك ! ألم تأمريني أنت نفسك بأن أمضي أعترف على رءوس الأشهاد ؟ فما بالك تخافين الآن وقد قررت أن أضع ذلك موضع التنفيذ ؟

كانت صونيا تنظر اليه مذهولة مبهوتة • لقد بدت لها هذه اللهجة غريبة • وسرت في جسمها رعدة باردة ، لكنها أدركت بعد دقيقة واحدة

أن كل شيء ــ اللهجة والكلمات ــ لم يكن الا تظاهراً وتصنعاً • لقد كان يكلمها متهرباً من نظراتها • وأردف يقول :

ــ اسمعي يا صونيا ، لقد وجدت أن من مصلحتي أن أتصرف هذا التصرف ، فان هناك ظرفاً خاصاً يجعلني ••• ولكن الامر يطول شرحه ••• ثم لا قيمة لهذا ••• ولكن هل تعلمين ما الذي يغيظني ويحنقني ؟ انني أُجنُّ غضباً حين أتصور جميع أولئك الجفاة الاغبياء الوحوش يزدحمون حولي ويحيطون بي ويحملقون فيَّ ، وحين أتصور جميع الأسئلة البلهاء التي سيلقونها عليَّ والتي سيكون من واجبي أن اجيب عنها ؛ حين أتصور جميع هؤلاء الناس الذين سيشيرون اليَّ بأصابعهم ••• هه !••• هل تعلمين ؟ لن أذهب الى بورفير • لقد أزعجني كثيراً • وانما سأذهب الى صديقي « بارود » • وبذلك أدهشه أشد دهشة • لا شك انني سأثير في نفسه دهشة كبيرة ! ولكن ينبغي أن أكون أكثر هدوءاً ، وقد أصبحت في الآونة الأخيرة ثائر الأعصاب ! هل تصدقين ؟ لقد أوشكت منذ قليل أن ألوح لأختي بيدي مهدِّداً متوعداً ، لا لشيء الا لأنها التفتت تلقي عليَّ نظرة أخيرة ! آه ••• انه لعار أن أكون في مثل هذه الحالة العصبية ! اتراني هبطت الى مثل هذا الدرك الأسفل ؟ والآن ، اين الصلبان ؟

كان راسكولنيكوف لا يبدو في حالة سوية • كان لا يستطيع ان يستقر في مكانه دقيقة واحدة ، ولا أن يركز انتباهه على أي شيء • كانت أفكاره تختلط في أحاديثه وتتشابك وتضطرب • وكانت يداه ترتجفان قليلاً •

سلَّت صونيا صليبيها من علبة صغيرة دون أن تقول شيئاً : الصليب الخشبي المصنوع من خشب السرو ، والصليب النحاسي • ورسمت على

نفسها اشارة الصليب ثم رسمت اشارة الصليب على راسكولنيكوف ، ثم علقت صليب خشب السرو فى عنقه .

ـ يرمز هذا اجمالاً الى اننى أحمل صليبى ... هأ هأ ها !... كأننى ما تالمت ألماً كافياً حتى الان ! ان الصليب الخشبى هو صليب ابناء الشعب ! أما الصليب النحاسى ، أى صليب اليزابت ، فانت تحتفظين به لنفسك . أرينيه ! اذن كانت اليزابت تحمله فى ذلك الأوان ! ... انا أيضاً أعرف صليبين من هذا النوع ، بل صليباً من فضة ووساماً . رميتهما فى ذلك اليوم على صدر العجوز . فانظرى ماذا يجب علىّ أن أضع فى عنقى اليوم ! على كل حال ... أنا أقول سخافات ، وأنسى الأمر الأساسى ... اننى ذاهل ... اسمعى يا صونيا : لقد جئت لأبلغك ... نعم ، يجب أن تعلمى ... أنا لم أجىء الا لهذا (ولقد كنت مع ذلك أقدّر ان أقول أكثر مما سأقول) ... اسمعى : أنت التى حضضتنى على أن افعل ما سأفعل .. سوف أنفذ ارادتك فأدخل السجن . ولكن ما بالك تبكين أنت أيضاً ؟ كفى كفى ! كفى بكاءً ! آه ... لشد ما يؤلمنى هذا كله !

تأثر راسكولنيكوف تأثراً شديداً ، وانقبض صدره حين رأى صونيا تبكى . وتساءل : « وهذه ، لماذا تتألم هذه ؟ ماذا أنا عندها ؟ ما بالها تبكى؟ ما الذى يجعلها تهتم بى كأنها أمى أو أختى ؟ ما الذى يحملها على ان تصاحبنى الى نهاية الشوط ؟ آه ... سوف تكون لى بمثابة المربية للطفل » .

تضرعت اليه صونيا قائلة بصوت خائف مرتعش :

ـ ارسم اشارة الصليب ! صلّ مرة واحدة على الأقل !

ـ اذا كان ذلك يرضيك فسأفعله ما شئت من مرات ! سأفعله راضياً كل الرضى يا صونيا !

والحق أن راسكولنيكوف كان يتمنى لو يقول شيئاً آخر تماماً .

وها هو ذا يرسم اشارة الصليب عدة مرات . وتناولت صونيا شالها فغطت به رأس راسكولنيكوف . هو خمار أخضر من جوخ السيدات ، لعله « شال الأسرة » الذى تكلم عنه مارميلادوف . ومضت هذه الفكرة فى ذهن راسكولنيكوف خلسةً ، ولكنه لم يلق أى سؤال . لقد بدا يلاحظ أنه أصبح ذاهلاً ذهولاً فظيعاً ، وأنه أصبح قلقاً قلقاً رهيباً . خاف . وسرعان ما أدهشه أشد الدهشة على حين فجأة أن يرى صونيا تتهيأ لمصاحبته .

صاح يقول لها غاضباً :

ـ ماذا تفعلين ؟ الى أين أنت ذاهبة ؟ ابقى ! ابقى ! سأذهب وحدى.

واتجه نحو الباب شبه زعلان ، وتمتم يقول وهو يخرج :

ـ أأنا فى حاجة الى خفير ؟

بقيت صونيا فى وسط الغرفة . لقد أهمل حتى توديعها . نسيها منذ الآن . هنالك فكرة واحدة تثيره وترهقه . تساءل وهو يهبط السلم : « هل هذا ما يجب أن أفعله حقاً ؟ أليس من الممكن أن أتوقف ، أن أنكص على عقبى ، أن أدبر الأمور ... أن لا أذهب الى هناك ؟ » .

ومع ذلك واصل سيره . لقد شعر شعوراً حاسماً بأنه لا جدوى من التساؤل وأن ساعة التردد قد مضت . حتى اذا صار فى الشارع تذكر انه لم يودّع صونيا ، وأنها بقيت فى وسط الغرفة مع شالها الأخضر لا تجرؤ أن تتحرك مخافة أن تغضبه . فتوقف لحظة . ولكن فكرة مباغتة وافته فى تلك اللحظة نفسها ، كأنها انتظرت هذه اللحظة نفسها لتوافيه . تساءل قائلاً : « لماذا ذهبت اليها ؟ لقد قلت لها اننى انما جئت لها تنفيذاً

لمهمة يجب على أن أقوم بها ؟ ما هى تلك المهمة ؟ ليس هناك أية مهمة تدفعنى الى زيارتها ! ألأبلغها أننى «ذاهب الى هناك» ؟ أكان هذا ضروريا ؟ أترانى أحبها ؟ لا ، لا ، غير معقول !... ألم أدفعها عنى منذ لحظة كما يُدفع كلب ؟ هل صليبها اذن هو ما كنت فى حاجة اليه ؟ آه ... لقد هبطت الى الدرك الأسفل ! لا ، لا ، وانما أنا كنت فى حاجة الى دموعها. كنت فى حاجة الى أن أرى رعبها وذعرها ، كنت فى حاجة الى أن أرى قلبها يتلوى ويتمزق . كنت فى حاجة الى أن أتشبث بشىء ما ، الى أن أكسب وقتاً ، الى ان أتأمل انساناً ! هذا ما كنت فى حاجة اليه ، ومع ذلك تجرأت فى يوم من الأيام فتخيلت أن مصيراً عظيماً ينادينى اليه ، واعتمدت على نفسى فأقدمت على أمور كتلك الأمور ، أنا الذى لست الا انساناً حقيراً تافهاً جباناً ، جباناً ! » .

كان يسير على طول رصيف القناة . لم يبق بينه وبين الوصول الا مسافة قصيرة . لكنه حين وصل الى الجسر توقف لحظةً ، ثم لم يلبث ان مضى يعبر الجسر ، فنأى بذلك عن طريقه ، واتجه نحو « سوق العلف ».

كان ينظر يمنةً ويسرة بشراهة ، ويحاول أن يتفحص كل شىء من الأشياء متمعناً ، لكن انتباهه لم يستطع أن يتركز على أى شىء من هذه الأشياء . فكل شىء يتهرب منه ويغيب عنه . وخطرت بباله خاطرة : حدث نفسه قائلاً : « بعد شهر ، بعد أسبوع ، سيعبرون بى هذا الجسر ماضين بى الى مكان ما على عربة سجناء ، فأية نظرة سألقى على هذه القناة نفسها يومذاك ؟ هل سأتذكر أننى رأيتها على نحو ما أراها الآن ؟ وهذه اللافتة ؟ كيف سأقرأ عندئذ أحرفها ؟ هذه كلمة « شركة » . فهل سأتذكر هذه « الشين » ، هل سأتذكر حرف « الشين » هذا ؟ واذا تلبثت عيناى بعد شهر على هذا الحرف نفسه فهل سأنظر اليه كما أنظر اليه

الآن ؟ نعم ، ما عسى تكون احساساتى وأفكارى حينذاك ؟ أوه ... ما اتفه وما أسخف هذه ... المشاغل !... لا شك أن هذا أمر غريب ... (هأ هأ هأ ... ماذا أيضاً ؟) اننى أرتد الى الطفولة ، فاصطنع أوضاعاً أنظر اليها وأعتز بها . ولكن لا ، لماذا أخجل من نفسى ؟ أوه ... ماأكثر التزاحم والتصادم فى هذا المكان ! هذا هو ، الرجل السمين ذاك ... لا شك أنه ألمانى ... هو الذى صدمنى ودفعنى . فهل يعلم أنه صدمنى ؟ وهذه المرأة العجوز التى تجر طفلاً وتستجدينى صدقة ، هل تظن اننى أسعد منها ؟ طيب ... على كل حال ... علىّ أن أنفحها صدقة ، هكذا ، من باب اللعب ، على سبيل العبث ... حسن ، بقى لى خمسة كوبكات ! ترى من أين هما آتيان ؟ »

وقال راسكولنيكوف يخاطب المتسوّلة :

ــ خذى ، خذى ، أيتها الأم الطيبة !

فقالت المتسوّلة بصوت فيه بكاء :

ــ الله يحميك !

ودخل راسكولنيكوف « سوق العلف » . كان يشعر من ملامسة كوعيه لذلك العدد الكبير من الناس ، كان يشعر باحساس مزعج كريه أليم ، ولكن هذا لم يمنعه من الاتجاه الى حيث يحتشد الناس اكثف احتشاد . كان مستعداً لأن يضحى بكل شىء فى سبيل أن يخلو الى نفسه، ولكنه كان يحس احساساً واضحاً بأنه لن يستطيع احتمال العزلة ولو دقيقة واحدة . هذا رجل سكران يصخب ويعربد : انه يحاول أن يرقص، ولكنه كلما أجرى حركة سقط منبطحاً على بطنه . واجتمعت حوله جمهرة من الناس . شقّ راسكولنيكوف لنفسه طريقاً بين الحشد ، ونظر الى السكران بضع لحظات ، فاذا هو ينطلق ضاحكاً ضحكة قصيرة متقطعة .

ثم ما ان مضت دقيقة حتى كان قد نسى الرجل ، وحتى أصبح لا يراه ، رغم أن عينيه كانتا ما تزالان مثبتتين عليه • وانصرف أخيراً عن المكان الذى كان فيه ، حتى دون أن يشعر بأنه ينصرف • ولكنه حين وصل الى وسط الميدان حدث فى فكره شىء ، وسرت فى جسمه رعدة •

لقد عاودته أقوال صونيا فجأة : « اذهب الى ميـدان من الميادين ، فسلـّم على الشعب ، وقبـّل الأرض لأنك أثمت فى حقهـا أيضـاً ، وقل بصوت عال حتى يسمعك جميع الناس : اننى قاتل » •

فما ان دارت فى ذهنه هذه العبارات حتى أخذ يرتجف من الراس الى القدمين • ان الآلام الرهيبة والتباريح الفظيعـة التى عاناها فى الايام السابقة ، ولا سيما فى الساعات الأخيرة ، قد بلغت من ارهاقه أنه استسلم استسـلاماً كاملا لهذا الاحساس الجـديد الشـامل • اعتراه نوع من نوبة عصبية • ان شرارة قد انبعثت فى نفسه فأشعلتها دفعة واحدة • ثم استولى عليه حنان واسع فسالت دموعه على خديه • وتهالك على الأرض حيث كان •••

ركع فى وسط الميدان ، ثم سجد ، فقبـّل الأرض الموحلة منتشـيا ثملاً سعيداً • ونهض ثم سجد مرة أخرى •

قال فتى على مقربة منه :

ـ هيه ! على أى شىء يقبض هذا ؟

وضجّ الناس من حوله بضحك صاخب • وأضاف بائع صغير ثمل بعض الثمل :

ـ لا شك أنه مسافر الى القدس يا أصحابى ، فهو يودع أولاده ، ووطنه ، ويسلـّم على الناس جميعاً ، ويهب قبلة أخيرة للعاصمة الكبرى سان بطرسبرج ، ولأرضها •

وقال ثالث :

ـ ما يزال فى ريعان الشباب !

وعقب رابع بصوت جازم :

ـ وهو من أسرة الكريمة .

وأضاف خامس :

ـ أصبح المرء لا يميِّز بين أبناء الأسر الكريمة وبين من ليسوا ابناء أسر كريمة !

هذه التعليقات المتفكهة كلها أوقفت على شفتى راسكولنيكوف كلمتى: « أنا قاتل » اللتين لعلهما كانتا توشكان أن تخرجا من فمه . ومع ذلك تحمل هذا الصخب كله بكثير من الهدوء ، ومضى يسير فى شارع صغير يؤدى الى قسم الشرطة ، دون أن يلتفت الى وراء . وفيما كان يمشى عرضت لعينيه صورة ، ولكنه لم يُدهَش ، فانه كان قد تنبأ بأن هذا هو ما سيحدث . انه حين سجد فى « سوق العلف » سجدة ثانية ، قد التفت يسرةً فلمح صونيا على مسافة خمسين خطوة . كانت لحرصها على ان لا يراها قد اختبأت وراء كوخ خشبى كان قائماً فى الميدان ، ولكنها كانت قد تبعته فى صعوده على « الرابية التى يعلوها صليبه » .

فى تلك اللحظة أحس راسكولنيكوف وأدرك أن صونيا سوف تكون معه الى الأبد ، وأنها ستتبعه ولو الى آخر العالم ، ستتبعه الى أى مكان يقوده اليه قدره . فاضطرب من ذلك قلبه ... ولكن ها هو ذا يصل الى المكان المحتوم .

دخل فناء المبنى بخطى جازمة ثابتة . كان عليه أن يصعد الى الطابق الثانى . قال لنفسه : « من هنا الى أن أصير فوق ... » . وبدا له أن هناك

زمناً طويلاً سينقضى قبل أن يصل الى فوق ، وأن أفكاراً كثيرة ما يزال يمكن أن توافيه ، وأن اللحظة الحاسمة ما تزال بعيدة .

السلم مملوء بالأقذار نفسها والقشور ذاتها ؛ والأبواب مفتوحة على مصاريعها كما كانت فى المرة الماضية ؛ وما تزال المطابخ تفوح منها رائحة العفونة والنتن . ان راسكولنيكوف لم يرجع الى هذا المكان بعد زيارته الأولى له .

كانت ساقاه متخدرتين وكانتا تترنحان ، ولكنه ظل يتقدم . وتوقف لحظة ليسترد أنفاسه ، وليسترجع رباطة جأشه ، من أجل أن يظهر بالمظهر الذى يجب أن يظهر به « رجل » . ولكنه لم يلبث أن أدرك ما يقوم به من جهد فتساءل : « ولكن لماذا ؟ ما فائدة هذا ؟ ما دام يجب علىّ ان أشرب الكأس حتى آخر قطرة منها فما قيمة أن أشربها بهذه الطريقة او بتلك ؟ بالعكس ... فكلما كنت منفّراً باعثاً على الاشمئزاز كان ذلك أفضل ! » . وفى تلك اللحظة تراءت لعينيه صورة ايليا بتروفتش ، الليوتنان « بارود » . فتساءل : هل يجب حقاً أن أذهب اليه هو ؟ الا يمكن أن أتجه الى شخص آخر ؟ ولماذا لا أتجه الى نيكوديم فومتش ؟ وماذا لو عدت أدراجى فذهبت الى مفوض الشرطة ألقاه فى بيته ؟ ميزة هذه الطريقة ، على الأقل ، أن الأمور تجرى عندئذ فى جو كأنه جو أسرة !... لا ، لا ، بل اتجه الى « بارود » الى الليوتنان « بارود » ! ما دام يجب علىّ أن أشرب الكأس فلأشربها دفعةً واحدة !

فتح باب المكتب متجمداً لا يكاد يعى ما يفعل . فى هذه المرة لم يكن هناك الا قليل جداً من الناس . لا أحد الا بواب ورجل من الشعب ينتظران . شرطى الحرس وراء شباكه لم يحرك ساكناً بل لم يرفع عينيه. مرّ راسكولنيكوف الى الغرفة المجاورة . وحدث نفسه قائلاً : « لعلنى

ما زلت أستطيع أن لا أقول شيئاً . » . هذا كاتب من القسم يرتدى ردنجوتاً قد مال على مكتبة يكتب شيئاً ما . وهذا كاتب آخر مستقر فى ركن . ليس زاميوتوف هناك ، ولا نيكوديم فومتش طبعاً .

قال راسكولنيكوف يسأل الشخص الماثل على مكتبه :

ـ ألا يوجد أحد ؟

ـ من تريد ؟

هنا انفجر صوت معروف يقول صائحاً :

ـ آ ... آ ... آ ... لا حاجة الى أذنين ، ولا حاجة الى عينين ... غريزتى أنبأتنى بوجود رجل « روسى » ... كما تقول الحكاية . تحياتى واحترامى .

أخذ راسكولنيكوف يرتجف . ان الليوتنان « بارود » الذى انبجس من غرفة ثالثة يقف الآن أمامه . حدث راسكولنيكوف نفسه قائلاً : « هذه هى الأقدار . لماذا هو هنا ؟ » .

وعاد ايليا بتروفتش يصيح ، وكان واضحاً أنه مشرق المزاج بل ومهتاج الأعصاب قليلاً :

ـ أأنت عندنا ؟ اذا كنت آتياً لعمل ، فالوقت مبكر جداً . أنا نفسى انما ... بمصادفة محضة !... على كل حال ، اذا كنت أستطيع ... أعترف لك ... نعم ... كيف .. كيف أنت .. معذرةً ...

ـ أنا راسكولنيكوف .

ـ طبعاً ، طبعاً راسكولنيكوف ! هل تخيّلت ، ولو لحظة واحدة ، أننى نسيت .. أرجوك ، لا تصدقنى اذا .. يا روديون رو .. رو ... روديونتش ، أليس كذلك ؟

ـ روديون رومانتش •

ـ نعم نعم نعم ، روديون رومانتش ! روديون رومانتش ! ذلك هو الاسم الذى كنت أحاول تذكره ! لقد سألت عن أخبارك مراراً ! اننى آسف حقاً ـ اعترف لك بذلك ـ للطريقة التى تصرفنا بها معك فى ذلك اليوم • وقد ذكروا لى فيما بعد ••• لقد علمت فيما بعد أنك شاب اديب، بل وعالم ••• وأنك تخطو خطواتك الأولى ان صحّ التعبير • أى اديب وأى عالم لا يقوم بأمور فيها شىء من الشذوذ والتفرد فى بداية حياته الأدبية أو العلمية ؟ اننا ، أنا وزوجتى ، نعشق الأدب ، حتى أن امرأتى تبلغ فى ذلك حد الوله والتدله !••• الأدب والفن ! قد يكون المرء نبيل المحتد كريم المنبت ، ولكن الشىء الهام هو ما يناله بالموهبة ، بالعلم ، بالعقل ، بالعبقرية ! ما قيمة قبعة مثلاً ؟ القبعة قرص أستطيع أن اشتريه من محل تسيمرمان، أما ما هو تحت القبعة ، أما ما تغطيه القبعة ، فذلك لا أستطيع أن أشتريه !••• أعترف لك بأننى قد تمنيت أن أذهب اليك ، لأعتذر لك ، ولكنى قدّرت أنك قد ••• بالمناسبة : أنا لم أسألك ما هو الغرض من زيارتك الآن ! وصلت أسرتك ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، أمى وأختى •

ـ لقد شرفت وسعدت بلقاء أختك • انها فتاة مثقفة رائعة • اعترف لك بأننى آسف لاندفاعنا أنا وأنت ••• كانت قصة مؤسفة ! ولكن لئن نظرت اليك نظرة اشتباه عند اغمائك ، فان أسباب هذا الاغماء قد ظهرت بعد ذلك ظهوراً واضحاً ! لقد كان ذلك منى نزقاً وتعصباً لا أكثر ! اننى أفهم استياءك ! لعلك ستغير مسكنك بمناسبة وصول أهلك ، أليس كذلك؟

ـ ل ••• لا ••• وانما جئت ••• لأسألك ••• لقد كنت اتصور أننى سأجد زاميوتوف •

ـ ها •• نعم ••• أصبحتما صديقين ••• سمعتُ عن هذا ! ولكن زاميوتوف تركنا ، فلن تجده بعد اليوم هنا ! نعم ، لقد فقدنا آلكسندر جريجوريفتش ••• منذ أمس ! قدّم استقالته ، حتى انه عند انصرافه قد بادلنا جميعاً كلمات خشنة • نعم ••• مضى فى قلة التهذيب الى ذلك الحد ••• انه صبى ، انه صبى ، انه طائش ! صحيح أن آمالاً كانت تعقد عليه ، ولكن كيف السبيل الى الاتكال على شبابنا اللامع هذا ؟ انه يريد ، فيما يبدو ، أن يتقدم الى امتحان مسابقة ، ولكنه لا يحاول أن يزيد على الثرثرة والمفاخرة ! ذلك هو امتحان المسابقة الذى يريد أن يدخله ! ليس هو مثلك ، أو مثل صديقك رازوميخين ••• فانك أنت قد اعتنقت رسالة العلم ، وما من اخفاق يمكن أن يحرفك عنها • جميع مباهج الحياة هى فى نظرك أنت باطل ••• « عدم » * ، أليس كذلك ؟ أنت ، أنت رجل زاهد متقشف ، أنت راهب ، أنت ناسك • المهم فى نظرك أنت انما هو القلم وراء الأذن ، وانما هو البحث العلمى • نعم ، ذلك هو فى نظرك الشىء ال •• وأنا أيضاً ، الى حدٍ ما •• هل قرأت « مذكرات » ليفنجستون ؟ *

ـ لا !

ـ أما أنا فقد قرأتها • ثم ان عدد الذين يعتنقون المذهب العدمى قد ازداد فى هذه الايام ازدياداً كبيراً ، وذلك أمر يفهمه المرء حقاً • فى اى عصر نعيش نحن ؟ اننى ألقى عليك ذلك السؤال ! ولكن ما بالى أحدثك أنت ••• أنت لست من معتنقى المذهب العدمى ، أليس كذلك ؟ أجبنى بصراحة ، بصراحة •

ـ ل ••• لا •

ـ لا ؟ ولكن فى وسعك أن تعلن رأيك صريحاً كل الصراحة • نعم ، لا تتحرج ، كلمنى كما لو كنت تكلم نفسك • العمل شىء وال •••

شىء آخر . كنت تظن أننى سأقول : « الصداقة » ، أليس كذلك ؟ اذن لقد أخطأ ظنك . ليست الصداقة هى ما أردت أن أشير اليه ، وانما اردت أن أشير الى عاطفة الانسان والمواطن ، الى العاطفة الانسانية ، وكذلك الى الحب الذى يحمـله المرء للعلى القـدير . صحيح أننى موظف حكومة ، صحيح أننى شخص رسمى ، ولكن هذا لا يمنعنى من أن أشـعر دائماً بأننى مواطن ، بأننى انسان ، وأن أحسب حساب ذلك . اليك هذا المثال : لقد تكلمت أنت عن زاميوتوف . ولكن زاميوتوف شخص يحدث صخباً وجلبة وضوضاء على الطريقة الفرنسية فى أسوأ المحال سمعةً لا لشىء الا لأنه شرب كأس شمبانيا أو حتى كأساً من نبيذ الدون ... نعم ، ذلك هو صاحبك زاميوتوف ! أما أنا فاننى احترق نشاطاً وحماسةً ان صح التعبير . العواطف الكبيرة تلهبنى ، ثم اننى أملك رتبة وأشغل منصباً . وأنا متزوج ، ولى أولاد ! اننى أقوم بالواجب الذى يقع على عاتق انسان ومواطن ، أما هو فهلاَّ قلت لى ما الذى يعمله ؟ اننى أحدثك حديثى الى رجل صقلته الثقافة وسمت به . اليك هذا المثال أيضاً : لقد تكاثرت القابلات فى أيامنا هذه تكاثراً تجاوز الحدود ...

نظر اليه راسكولنيكوف مبهوتاً . ان جميع الكلمات التى قالها ايليا بتروفتش ـ واضح أنه كان قد نهض عن المائدة منذ قليل ـ قد رنَّت فى أذنيه رنين كلمـات لا معنى لهـا . ومع ذلك فهم جزءاً منها على نحـو ما استطاع . وألقى على ايليا بتروفتش نظرة مستفهمة وهو لا يدرى كيف سينتهى هذا كله .

تابع ايليا بتروفتش الذى لا ينضب لكلامه معين ، تابع كلامه فقال :

ـ اننى أطلق هذا اللقب على هاته الفتيات ذوات الشـعر المقصوص لأنه يبدو لى موفقاً جداً .. هىء هىء !... انهن يدخلن مدرسة الطب*،

ويتعلمن التشريح ، ولكن قل لى : أترانى اذا مرضت أدعو احدى هذه الآنسات لمعالجتى ؟ هىء هىء !...

انفجر ايليا بتروفتش ضاحكاً ، وقد رضى عن أقواله الحسنة وكلماته الجميلة كل الرضى !

ثم تابع كلامه فقال :

ـ لنسلّم بأن الدافع الى ذلك ظمأ الى التعلم والتثقف لا يرتوى ، ولكن يخيّل الىّ أن على الانسان ، متى تعلم ، أن يتوقف ، أن يكف .. فلماذا الاسراف والافراط ؟ لماذا تُهان شخصيات نبيلة ، كما يفعل ذلك الرجل التافه زاميوتوف ؟ أشخصٌ مثل زاميوتوف يهيننى أنا ؟ .. ثم تلك الانتحارات التى تتكاثر ؟... يأكل أحدهم آخر قرش ثم ينتحر ! بنات ، شباب ، شيوخ !... اليك هذا المثال : فى هذا الصباح نفسه ، أُبلغنا أن أن سيداً كان قد وصل الى هذه المدينـة منذ مدة قصيرة ... هيه !... نيل بافلتش ... يا نيل بافلتش ... ما اسم ذلك السيد الذى أطلق على راسه رصاصة عند ضفة النهر ... أقصد عند الضفة الأخرى من نهر نيفا ؟

أجاب صوت أبح غير مكترث ، صوت رجل فى الغرفة الأخرى ، أجاب يقول :

ـ اسمه سفدريجايلوف .

فارتجف راسكولنيكوف ، وصاح يسأل :

ـ سفدريجايلوف ؟ سفدريجايلوف أطلق على رأسه رصاصة ؟

ـ هل تعرف أنت سفدريجايلوف ؟

ـ نعم ... أ ... أعرفه ... لقـد وصـــل فى الآونة الأخـيرة فعلاً !...

ـ نعم ، فى الآونة الأخيرة ••• كانت زوجته قد ماتت منذ حين •• ثم ان هذا الرجل الذى كان ماجناً فاسقاً قد أطلق على رأسه رصاصة من مسدس فجأة ••• وقد فعل ذلك فى ظروف فاضحة يستحى المرء حتى أن ••• لقد ترك بضع كلمات فى دفتره قائلاً انه يموت مالكاً كل عقله فما ينبغى اتهام أحد بقتله • يقال انه كان يملك ثروة طائلة • ولكن كيف عرفته ؟

ـ تعرفت ••• تعرفت عليه ••• لأن أختى كانت تعمل معلمة فى منزلهم •••

ـ هه ••• هه ••• اذن تستطيع امدادنا بمعلومات عنه • السث تشتبه فى أحد ؟

ـ رأيته أمس ••• وكان ••• يشرب خمراً ••• ولم أطلع على شىء •••

كان راسكولنيكوف يحس أن حملاً ثقيلاً قد جثم على صدره يسحقه سحقاً •

ـ لكأنك تصفرُ من جديد • لا شك أن الجو هنا خانق •••

تمتم راسكولنيكوف يقول :

ـ آن لى أن أنصرف • اغفر لى ازعاجك •••

ـ ولكنك لم تزعجنى البتة ! أنا فى خدمتك ! ثم انك قد سررتنى ؛ ويسعدنى جداً أن أقول لك •••

ومدَّ ايليا بتروفتش اليه يده •

جمجم راسكولنيكوف يقول :

ـ كنت أريد ... فقط ... أن ... أن أرى زاميوتوف ...

ـ فهمت ، فهمت ، ولكنك مع ذلك قد سررتني بلقائك ...

قال راسكولنيكوف محاولاً أن يبتسم :

ـ أنا سعدت بلقائك ... استودعك الله ...

وخرج مترنحاً . كان يشعر بدوار فلا يكاد يدرى اهو ما يزال منتصباً على ساقيه . وأخذ يهبط السلّم ، متكئاً بيده اليمنى على الحائط . تراءى له أن بواباً في يده سجل قد صدمه ليدخل الى قسم الشرطة ، وان كلباً كان ينبح في مكان ما ، وأن امرأة كانت ترمى للكلب فطيرة لتسكته. فلما بلغ أسفل السلم دخل الفناء .

كانت صونيا واقفةً في الخارج ، غير بعيد عن الباب ، صفراء كصفرة الموتى ، تنظر اليه مروّعة منقلبة السحنة . وقف أمامها ، فتشنجت قسمات وجهها على ألم شديد وعذاب فظيع ؛ وباعدت بين ذراعيها بحركة تعبر عن يأس وارتسمت على شفتيها ابتسامة تيه وشرود .

توقف راسكولنيكوف لحظة ، فابتسم ، ثم قفل راجعاً الى المكتب الذى بارحه منذ قليل .

كان ايليا بتروفتش جالساً ينقّب بين أوراقه ، وقد وقف أمامه ذلك الشخص نفسه الذى صدم راسكولنيكوف منذ برهة أثناء صعوده السلم.

فما ان رآه ايليا بتروفتش حتى صاح يسأله :

ـ أهذا أنت أيضاً ؟ هل نسيت شيئاً ما ؟ ولكن ماذا بك ؟ ماذا أصابك ؟

مضى راسكولنيكوف نحوه بطيئاً ، أبيض الشفتين جامد النظرة ،

واقترب من المائدة فأسند اليها احدى يديه ، وأراد أن يقول شيئاً ما ، ولكنه لم يستطع ذلك . لم تُسمع منه الا جمجمات لا تبين عن شيء . هتف ايليا بتروفتش :

ـ بماذا تحس ؟ هل تشعر بمرض ؟ هاتوا كرسياً ، بسرعة ! خذ ، اجلس ، اجلس هنا ، هاتوا ماءً !

تهالك راسكولنيكوف على الكرسي الذى قُدِّم اليه ، ولكنه لم يحوِّل بصره عن وجه ايليا بتروفتش الذى دُهش من ذلك أشدَّ الدهشة. وظل الاثنان خلال دقيقة ينظر كل منهما الى الآخر وينتظر . وجيء بماء.

بدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال :

ـ أنا الذى ...

ـ اشرب جرعة ماء !

أبعد راسكولنيكوف الكأس عنه باحدى يديه ، وقال بصوت خافت لكنه واضح متميز ، مع وقفات بين الكلمات :

ـ أنا الذى قتلت ، بضربات ساطور ، العجوز التى تقرض على رهن، واختها اليزابت ، وأنا الذى سرقتهما .

لبث ايليا بتروفتش فاغر الفم ، وهُرع ناس من كل جهة . واعاد راسكولنيكوف الادلاء بافادته .

خـاتمـة

الفصــل الأول



على الشـاطئين المقفرين من نهـر عريض ، تقوم مدينة هى أحـد المراكز الحكومية بروسيا • ان فى المدينة قلعة ، وان فى القلعة سجناً • وفى هذا السجن حُبس ، منذ تســعة أشــهر ، السجين المحكوم عليه بالأشغال الشاقة من الفئة الثـانية ، روديون رومانوفتش ، الذى انقضت سنة ونصف سنة على ارتكابه جريمته •

لقد سارت اجراءات المحاكمة بدون مصاعب • كرر المجرم افادته بثبات ووضوح ودقة ، لم تتداخـل الظروف فى أقواله ، ولا حـاول ان يخفف من شأن جرمه ، ولا هو شوّه الوقائع ، أو أسـقط منها شيئاً • حكى بأدق التفاصيل نشأة وتطور جرمه ، وأوضح سر «الرهن» ــ اللوح الصغير والصفيحة المعـدنية ــ ؛ وروى بدقة تامة كيف أخذ من العجوز مفاتيحها ، ووصف هذه المفاتيح، ووصف الصندوق ؛ وعدّد بعض الأشياء التى كان يضمها الصندوق ؛ وأوضح أيضاً سرّ مقتل اليزابت ؛ وروى كيف جاء كوخ فقرع الباب ، وكيف جاء بعده الطالب ؛ وذكر الأقوال التى تبادلاها كلاهما ؛ وقصّ كيف أنه ، هو القاتل ، قد هرب راكضاً على السلم فسمع هنالك صرخات نيقولا ودمترى ، فاختبأ فى الشقة الخالية ، ثم عاد الى بيته • وختم ذلك كله بأن عيّن صخرة موجودة فى فناء أحد المنازل بشارع « ف ••• » ، قرب باب الفناء ، حيث عُثر على الأشياء والمحفظة المسروقة • الخلاصة أن جميع الأمور قد اتضحت فلم يبق منها فى الظل

شيء • وقد دُهش المحققون والقضاة دهشةً خاصة اذ علموا أن الجانى قد أخفى الأشياء والمحفظة تحت صخرة دون أن يحاول الاستفادة منها ، وأنه لا يتذكر جميع الأشياء التى سرقها تذكراً صحيحاً ، حتى لقد اخطا فى عددها • أما قوله انه لم يفتح المحفظة مرةً واحدة بل وانه يجهل المبلغ الذى تحتويه فقد لم بدا لهم أمراً غير معقول (وقد تبيَّن أن المحفظة كانت تضم ثلاثمائة وسبعة عشر روبلاً وثلاث قطع من فئة العشرين كوبكاً ؛ كما أن الأوراق المالية التى كانت فوق ، وهى أكبرها ، قد ساءت حالها من طول اقامتها تحت الصخرة •) • وقد أنفق المحققون والقضاة وقتاً طويلاً من أجل أن يعرفوا لماذا كان المتهم يكذب فى هذه النقطة ، مع أنه فيما يتعلق بسائر النقاط قد اعترف بالحقائق من تلقاء نفسه • ولكن بعضهم (ولا سيما علماء النفس) سلَّموا بأن من الممكن أن لا يكون قد نظر فى المحفظة فعلاً ، وأن يكون قد أخفاها تحت الصخرة دون ان يعرف ما تحتويه • غير أن هؤلاء أسرعوا يستنتجون من ذلك أن الجريمة لا يمكن أن تكون قد أُرتكبت الا فى نوبة جنون طارئة ، أى فى لحظة « مونومانيا » القتل والسرقة ، دون أهداف بعيدة ودون حسابات منفعة ؛ واستشهدوا على ذلك بالنظرية الرائجة عن الجنون الموقت ، وهى النظرية التى يحاول بعضهم فى كثير من الأحيان أن يطبقها على بعض الجرائم فى هذه الأيام • ثم أن حالة الوسواس (الهيبوكوندريا) المزمن التى كان عليها راسكولنيكوف منذ مدة طويلة قد شهد بها عدة شهود ، جازمين قاطعين ؛ فمن هؤلاء : الدكتور زوسيموف صديقه القديم ، ورفاقه القدامى ، وصاحبة البيت الذى كان يقطنه ، والخدم • ذلك كله ساهم كثيراً فى تعزيز الفكرة القائلة بأن راسكولنيكوف ليس بينه وبين مجرم عادي ، قاتل أو سارق ، أى شبه على الاطلاق ، وأن شأنه شأن اخر ، يختلف عن شأن المجرمين العاديين كل الاختلاف • ولكن الجانى نفسه

لم يحاول أن يدافع عن نفسه ، وذلك ما أسف له القائلون بتلك النظرية اشد الأسف • حتى اذا أُلقي عليه السؤال عن السبب الذى دفعه الى القتل والسرقة ، أعلن بوضوح تام ودقة كاملة أن فقره ، وعجزه عن الخروج منه ، ورغبته في تأمين خطواته الأولى في الحياة ، بمعونة ثلاثة آلاف روبل كان يأمل أن يجدها عند العجوز ، أن ذلك كان في الأصل سبب كل شيء • ولما سئل عن الدافع الذى حدا به الى الوشاية بنفسه والاعتراف بجريمته من تلقاء نفسه أجاب قاطعاً بأن ذلك ندم صادق وتوبة مخلصة •

وكان كلامه لا يشتمل على كثير من الرهافة ، بل كان فيه غلظة وفظاظة !•••

ومع هذا جاء الحكم أرحم مما كان يمكن توقعه في جريمة كهذه الجريمة ، وربما كان مرد ذلك الى أن الجانى لم يحاول أن يسوّغ نفسه، حتى لقد أظهر رغبةً في اتهام نفسه مزيداً من الاتهام • ولقد نُظر بعين الاعتبار الى جميع الظروف العجيبة الخاصة التى لابست القضية • من ذلك أن حالة المرض والعوز التى كان عليها المتهم قبل انفاذه جريمته لم توضع موضع الشك • كما أن عدم استفادة الجانى من المسروقات قد نُسب الى الندامة وعذاب الضمير تارة ، ونسب تارة أخرى الى حالة قواه العقلية التى لم تكن سليمة البتة عند ارتكاب الجريمة • وكان مقتل اليزابت ، دون عمد ، مثالاً على هذا الافتراض ودليلاً يدعمه ويؤيده : نحن ههنا ازاء رجل يرتكب جريمتى قتل ، ثم ينسى أن الباب قد ظل مفتوحاً ! ذلك كله بالاضافة الى أن الجانى قد جاء يعترف بجريمته من تلقاء نفسه في اللحظة التى اختلطت فيها الأمور اختلاطاً شديداً بسبب الافادة الكاذبة التى أدلى بها شخص مهووس مختل العقل (نيقولا) ، بل وفي اللحظة التى لم يكن فيها أى دليل واضح يدين القاتل الحقيقى ، بل ولم تبق فيها

أية شبهة تحــوم حوله • (لقــد حافظ بورفير بتروفتش على وعده وبر بعهده تماماً) • ذلك كله قد أسهم فى حمل المحكمة على أن تسلّم للجانى بظروف مخفّـفة •

يضاف الى ذلك أن وقائع فى مصلحة راسكولنيكوف قد انبجست فجأة على نحو لم يكن فى الحسبان البتة • فان الطالب السابق رازوميخين قد استطاع أن يعثر ـ لا يدرى أحد من أين ـ على شهادات ثبت صدقها ، بأن القاتل راسكولنيكوف قد أنفق آخر ما كان يملك من موارد ، اثنــاء دراسته بالجامعة ، على رفيق فقير مصاب بداء السل ، فقام بأوده وســدّ حاجاته وخفّـف عنه خلال ستة أشهر كاملة • حتى اذا مات رفيقه ذاك ، اهتم راسكولنيكوف بأبيه ، وهو شيخ عاجز بقى وحيداً فى هذه الحيــاة (بعد أن كان ابنه منذ السنة الثالثة عشرة من عمره سنده الوحيد) ، ثم أدخله مأوى للشيوخ ، حتى اذا مات الشيخ هو أيضاً بعد مدة ، تكفل راسكولنيكوف بنفقات دفنه •

هذه المعلومات كلها كان لها أثر فى مصير راســكولنيكوف • وقد شهدت صاحبة البيت الذى كان يقطنه راسكولنيكوف (وهى أم خطيبة المتوفاة) ، شهدت من جهتها أن راســكولنيكوف ، حين كانوا ما يزالون يسكنون فى شارع « الأركان الأربعة » ، قد أنقذ ، أثناء حريق ، فى ذات ليلة ، طفلين صغيرين من مسكن شبّت فيه ألسنة النيران واشتعل ، حتى أنّ راسكولنيكوف قد أصيب أثناء ذلك بعدة حروق • وقد جرى تحقيق دقيق فى هذه الواقعة ، فشهد بصدقها شهود كثيرون • الخلاصة ان كل شىء قد ساهم فى حمل المحكمة على أن تصدر حكمها بحبس المتهم ثمانى سنين مع الأشغال الشاقة (من الفئة الثانية) فقط ، لأنه اعترف بجريمته من تلقاء نفسه ولأن هناك ظروفاً مخففة •

وقد مرضت أم راسكولنيكوف منذ بدء النظر فى الدعوى• واستطاع

رازوميخين ودونيا مع ذلك أن ينقلاها الى خارج بطرسبرج طوال مدة المحاكمة. لقد اختار رازوميخين مدينة قرب بطرسبرج يصل اليها القطار، فكان يستطيع بهذه الطريقة أن يشهد جميع مراحل الدعوى وأن يرى أفدوتيا رومانوفنا مع ذلك أحياناً كثيرة .

وكان مرض بولشيريا الكسندروفنا اصابة عصبية غريبة بعض الغرابة، يرافقها نوع من الاضطراب الدماغي ان لم يكن كاملاً فهو يدعو رغم ذلك الى القلق . ان دونيا ، حين عادت الى البيت بعد لقاء أخيها آخر مرة ، قد وجدت أمها في حالة حمى بالغة وهذيان شديد . فاتفقت مع رازوميخين في ذلك المساء نفسه على الأجوبة التي ينبغي أن يجيبا بها بولشيريا الكسندروفنا متى سألتهما عن ابنها ، حتى لقد اخترعا لهذا الغرض قصة سفر ، سفر بعيد ، سفر الى مكان على حدود روسيا ، فقد كلف راسكولنيكوف بالقيام بمهمة خاصة ، وسوف تجلب له هذه الرحلة مالاً وشهرة . فما كان اشد دهشتهما حين لم تطرح عليهما بولشيريا ألكسندروفنا أي سؤال ، لا في ذلك الحين ولا بعده ؟ حتى انها ، على خلاف ذلك ، قد تخيلت هي نفسها قصة طويلة لتعلل سفر ابنها هذا على حين بغتة ؟ وقد قصت عليهما ، وهي تبكي زيارة ابنها لها مودعاً ، وألمعت في هذه المناسبة ، ببعض الاشارات والتلميحات ، الى أنها وحدها على علم بظروف كثيرة خطيرة سرية ، قائلة : ان لابنها روديا خصوماً اشداء عتاة ، فهو لذلك قد اضطر أن يغيب عن الأنظار . أما عن مستقبل ابنها ، فانها لا تشك في أنه سيكون مستقبلاً لامعاً متى أمكن التغلب على بعض الظروف المعادية ؟ حتى لقد أكدت لرازوميخين أن روديا سيصبح في المستقبل « رجل دولة » ؟ فان مقالته وموهبته الأدبية دليل كاف وبرهان قوى على ذلك . وكانت الأم تقرأ المقالة وتعيد قراءتها بغير انقطاع ، حتى لقد كانت تقرؤها في بعض الأحيان بصوت عال ، وتوشك أن تنام معها

فى الليل • ومع ذلك لم تحاول قط أن تعرف أين يوجد روديا فى ذلك الأوان ، لا ولم تتساءل لماذا يبدو أن من حولها يتحاشون أى حديث عنه (وكان حرياً بهذا أن يثير شبهاتها طبعا) • وأصبح رازوميخين ودونيا يخشيان هذا الصمت الغريب من جانب بولشيريا ألكسندروفنا آخر الامر• حتى لقد كانت لا تشكو من أنها لا تتلقى أية رسالة من ابنها ، مع انها كانت قبل ذلك ، فى مدينتها الصغيرة ، لا تحيا الا على الأمل فى تلقى انباء ابنها الحبيب روديون • ولقد قلقت دونيا قلقاً خاصاً من هذا الأمر التفصيلى الأخير ، وكان لها بمثابة انذار ، فقد تراءى لها أن أمها كانت توجس منذ الآن البلاء الرهيب الذى حلّ بابنها ، وأنها لا تريد أن تسألهما ، لخشيتها من أن تعرف شيئاً أفظع • ومهما يكن من أمر ، فقد كانت دونيا ترى رؤية واضحة أن بولشيريا ألكسندروفنا لا تملك قواها العقلية كاملة •

وقد حدث للأم مع ذلك مرتين أن وجّهت الحديث توجيها ما كان للشابين أن يجيبا معه عن أسئلتها اجابة تامة دون أن يشيرا لها الى المكان الذى يوجد فيها روديا • حتى اذا جاءت الاجابات متحفظة مشتبهة وقعت الأم فى حالة حزن رهيب • وأدركت دونيا عندئذ أن من الصعب أن يستمر الكذب والتلفيق ، وانتهت الى هذه النتيجة ، وهى أن التزام الصمت التام فى النقاط الحسّاسة أفضل وأسلم • ولكن أخذ يتضح مزيداً من الاتضاح شيئاً بعد شىء أن الأم المسكينة تشتبه فى شىء ما ، فى شىء مروّع فظيع• تذكرت دونيا ، فيما تذكرت ، بعض أقوال أخيها • ألم يقل لها ان بولشيريا ألكسندروفنا سمعتها تهذى ، فى الليلة التى سبقت اللحظة الحاسمة من لقائهما الأخير ، بُعيد المشهد الذى حدث مع سفدريجايلوف؟ لم تسمع بولشيريا ألكسندروفنا عندئذ بعض الأشياء ، ففهمت شبه فهم ؟ كثيراً ما أصبح يحدث ، بعد بضعة أيام بل وبضعة أشهر من صمت حزين دموع خرساء ، أن ينتاب المريضة انتعاش مرضى ونشاط هسترى ، فتاخذ

تتكلم عن ابنها ، وعن آمالها ، وعن المستقبل ، متدفقة تدفقاً سريعاً ، بغير توقف تقريباً !... وكانت أخيلتها في بعض الأحيان عجيبة حقاً ! فكان الشابان يتظاهران بمشاركتها آراءها مواساةً لها ، وتسريةً عنها ، (ولعل موافقتهما هذه على آرائها لم تكن تنطلي عليها) ولكن ذلك كان لا يمنعها من متابعة كلامها المنطلق ومواصلة حديثها الثرّ الذي لا ينضب له معين..

وقد صدر الحكم بعد خمسة أشهر من اعتراف القاتل بجريمته . وأخذ رازوميخين يزور راسكولنيكوف في السجن كلما تمكن من ذلك. وكذلك كانت تفعل صونيا . وأزفت أخيراً ساعة الفراق . فحلفت دونيا لأخيها على أن الفراق لن يكون ابدياً . وحلف رازوميخين أيضاً على ذلك . وقد ترسخت في دماغ رازوميخين ، في دماغه الفتى الفائر المتحمس المندفع ، ترسّخت ترسخاً قوياً ، فكرة المشروع الذي قام في ذهنه ، وهو أن يرسي قواعد مصيره المقبل ، خلال السنين الثلاث أو الأربع التالية ، فيدّخر مبلغاً كافياً من المال ليمضي يقيم في سيبيريا ، حيث الأرض غنية ، وحيث الأيدي العاملة ورءوس الأموال قليلة . فهناك سيستقرون ، بالمدينة نفسها التي سيكون فيها روديا ، وهناك .. سيبدأون جميعاً حياة جديدة !

وبكى الجميع في ساعة الفراق . كان راسكولنيكوف ، خلال الايام الأخيرة مغموماً جداً ، فكان يلقي أسئلة كثيرة عن أمه ، ويظهر قلقاً شديداً عليها . وكان يتعذب عذاباً قوياً يخيف دونيا وينذرها بأسوأ العواقب . ومنذ عرف راسكولنيكوف حالة بولشيريا ألكسندروفنا معرفة دقيقة ، أصبح قاتم النفس مظلم المزاج . ولقد كان قليل الكلام مع صونيا خاصة ، فهو لا يبوح لها بما في نفسه . وكانت صونيا ، بفضل المال الذي تركه لها سفدريجايلوف ، قد تهيأت منذ مدة طويلة لأن تتبع قافلة السجناء التي ستضم راسكولنيكوف . انهما لم يبحثا هذا الأمر معاً في يوم من

الأيام ، ولكنهما يعرفان كلاهما أن الأمر سيكون كذلك . وفى اللحظة الأخيرة ، ابتسم راسكولنيكوف ابتسامة غريبة حين سمع التاكيدات الحارة من أخته ومن رازوميخين عن المستقبل الجميل الذى ينتظرهم جميعا عند خروجه من السجن . لقد كان يوجس أن أمه ستموت قريباً .

وسلك أخيراً طريق المنفى تصحبه صونيا .

بعد شهرين تزوجت دونيتشكا رازوميخين. وكان الاحتفال بالعرس متحفظاً ، وكان يرين عليه جو الحزن . وكان بين المدعوين بورفير بتروفتش وزوسيموف . وقد اكتسى رازوميخين فى الآونة الأخيرة مظهر رجل قوى العزيمة ثابت الرأى . وكانت دونيا تؤمن ايماناً أعمى بانه سيحقق جميع مشاريعه . وكان لا يمكنها ، على كل حال ، الا أن تؤمن بذلك : فان ارادة حديدية كانت تتجلى فى هذا الرجل . ولقد استانف ، خاصة ، متابعة دروس الجامعة لينهى دراسته . وكانا كلاهما لا ينفكان يبنيان خططاً للمستقبل ، وكانا كلاهما ينتويان حقاً أن يرحلا الى سيبيريا بعد خمس سنين . والى أن يحين ذلك الحين ، كانا يتكلان على صونيا .

وقد باركت بولشيريا ألكسندروفنا زواج ابنتها ورازوميخين وفرحت به ، لكنها سرعان ما سقطت فى حزن أشد وأسى أعمق وأكبر . ومن اجل أن يهيىء لها رازوميخين بضع لحظات من فرح قص عليها قصة الطالب وأبيه العاجز ، وحكى لها حكاية الحريق الذى برز فيه روديا بطلاً ينتزع الطفلين الصغيرين من بين ألسنة اللهب . فكانت القصص تلقى بولشيريا ألكسندروفنا التى كان عقلها قد اهتز وأصابه اختلال ، كانت هذه القصص تلقيها فى نشوة تشبه أن تكون وجداً ، حتى أصبحت لا تتكلم الا عن هذا، وحتى مضت فى ذلك الى حد استيقاف الناس فى الشارع لتقص عليهم هى أيضاً ... (هذا رغم أن دونيا ترافقها حيثما تذهب) . أصبحت بولشيريا ألكسندروفنا تتجه الى أول انسان تلقاه ، فى الشارع ، فى الدكاكين ،

فى أى مكان ، فتأخذ تكلمه عن ابنها ، وعن مقالتـه ، وتأخـذ تشرح له مسهبةً مفيضةً كيف أن ابنها بذل لأحد الطلاب أكبر العون وكيف انه اقتحم ألسنة اللهب أثناء حريق ، وهلمَّ جرا • وكانت دونيا لا تعرف ماذا يجب عليها أن تعمل لتهدئها • كانت تخشى خطر مثل هذه الحماسة وهذا الاندفاع على صحة أمها المريضة ، وكانت تخشى أيضاً حين يسمع احد أسم راسكولنيكوف أن يتذكر الدعوى وأن يتحدث عنها •

وقد اكتشفت بولشيريا ألكسندروفنا عنوان أم الطفلين اللذين انقذهما روديا ، وأرادت أن تزورها مهما كلف الأمر • وبلغ قلقها ابعاداً خطيرة فى النهاية • فهى تارة تنفجر باكيـة ناشجة ، وهى تارة آخـــرى تتكلم هارفة هاذية • وفى ذات صباح أعلنت فجأة أن روديا ـ وفقاً لحساباتها ـ عائد فى القريب ، فقد وعـدها ـ وهى تتذكر وعده ـ أنه سـيرجع بعد تسعة أشهر •

وسرعان ما شرعت ترتب الشقة استعداداً لعودته ؛ فهيأت له غرفتها هى ، ودلكت الأثاث ، وغسلت ، ومسحت ، وعلقت ستائر جديدة ، الخ• ولم تقل دونيا شيئاً ، رغم جزعها ، بل سـاعدتها فى هذه الاستعدادات • وبعد أن قضت بولشيريا ألكسندروفنا ذلك النهـار كله فى تخيل اشـياء تبلغ غاية الجنون ، وفى البكاء والانقياد للأحلام ، مرضت فى تلك الليلة نفسها ، فما طلع الصباح حتى كانت فى حالة هذيان ، فقد اعترتها حمى حارة ، ثم ماتت بعد أسبوعين •

وقد أفلتت من لسانها أثناء الهذيان أقوال يفهم المرء منها أنها كانت تعلم من أمر المصـــير الرهيب الذى آل اليها ابنهـا أكثر كثيراً مما كان يفترض صهرها ، وتفترض ابنتها •

ظل راسكولنيكوف مدة طويلة يجهل أن أمه ماتت رغم أنه استطاع بفضل صونيا أن يتلقى أنباء من بطرسبرج منذ وصوله الى سيبيريا• كانت

صونيا تكتب الى رازوميخين كلّ شهر دون تخلف ، وكلّ شهر ايضاً كانت تتلقى رسالة من بطرسبرج • وفي أول الأمر رأت دونيا وراى رازوميخين أن رسائل صونيا جافة وأنها لا تبعث على كثير من الرضى • ولكنهما اعترفا كلاهما أخيراً أن صونيا لا تستطيع أن تفعل خيراً من ذلك ؛ وأن من السهل عليهما أن يكوّنا من خلال هذه الرسائل فكرة دقيقة واضحة عن الظروف التي يعيش فيها أخوهما البائس • كانت رسائل صونيا زاخرة بتفاصيل يومية ، وكانت تشتمل على أوصاف واضحة بسيطة عن نوع الحياة التي يحياها راسكولنيكوف في المعتقل • كانت لا تقول شيئاً عن آماله ، وعن أحلامه المتصلة بالمستقبل ، لا ولا عن عواطفه الشخصية• كانت صونيا في هذه الرسائل ، بدلاً من أن تحاول تصوير حالة راسكولنيكوف النفسية ، تذكر وقائع جرت له ، وتنقل أقوالاً قالها ، وتقدم تفاصيل عن صحته ، ولا تغفل مع ذلك عن ذكر الرغبات التي عبّر عنها أثناء هذا اللقاء أو ذاك ، وما كلّفها بأن تنقله اليهما ، الخ • وكانت هذه الأخبار كلها مفصّلة ، فاستطاعت دونيا أن ترسم صورة واضحة عن أخيها ، ولم يكن من الممكن أن يحدث أي خطأ ، لأن جميع الوقائع كانت صادقة •

غير أن جميع هذه الأنباء ، ولا سيما في البداية ، لم تحمل الى دونيا وزوجها كثيراً من العزاء أو الطمأنينة • كانت صونيا تبلغهما ان راسكولنيكوف لا يبرح قاتم المزاج مظلم النفس صموتاً قليل الكلام ؛ وانه لا يكاد يهتم بالأخبار التي تنقلها اليه كلما تلقت رسالةً منهما ؛ وأنه يسأل أحياناً عن أمه فلما رأت أنه أوجس الحقيقة فأبلغته النبأ الرهيب ، أدهشها أنه لم يبد عليه أن ذلك أثّر في نفسه تأثيراً كبيراً ، فيما تدل عليه المظاهر الخارجية على الأقل •

وكانت صونيا تقول لهما يضاً انه رغم انطوائه على نفسه دائماً ، يبدو

راضياً بحياته الجديدة بصدق واستقامة وبساطة ، وانه يدرك الوضع الذى هو فيه ، ولا يتوقع أن يتحسن مصيره فى مستقبل قريب ، وانه لا يراوده أى أمل فى غير محله (كما يحدث عادة للسجناء) ، وانه لا يدهش من شيء ، رغم ما هناك من تعارض وتناقض بين حياته الراهنة وحياته السابقة .

وكانت تقول لهم ان صحته حسنة ، وانه يمضى الى الشغل دون تهرب أو تملص ، ودون نشاط كاذب أو حماسة زائفة . وانه لا يكاد يهتم بأمر الطعام ، ولكن هذا الطعام ، فى غير أيام الأحاد وأيام الأعياد ، يبلغ من السوء أن راسكولنيكوف أصبح أخيراً يقبل بعض المال منها هى صونيا ، ليستطيع أن يحصل لنفسه على شيء من الشاى (أما فيما عدا ذلك ، فقد رجاها أن لا تقلق عليه وأن لا تهتم به ، وقال لها ان عنايتها به تثقل على نفسه وتضايقه) .

وكتبت لهما صونيا كذلك أنه فى السجن يسكن مع السجناء الآخرين فى مهجع مشترك ، وأنها لم تدخل المبانى ، ولكن ظاهر المبانى يدل على أن المكان ضيق قذر غير صحى ؛ وأن راسكولنيكوف يرقد على لوح من الخشب مغطى بلباد ، فهو لا يريد أن يصنع لنفسه سريراً آخر ؛ وانه على كل حال ، اذا كان يعيش حياة خشنة قاسية فقيرة الى هذا الحد ، لا يفعل ذلك التزاما بفكرة سابقة أو تقيداً بمبدأ معيّن ، بل لأنه لا يكترث للظروف المادية ولا يحفل بها .

وكتبت صونيا بصراحة أنه ، فى أول الأمر خاصةً ، لم يكن يعبأ بزياراتها ، حتى لقد كان يظهر لها شيئاً من الاستياء ، ولا يفتح فمه بكلمة، ويعاملها معاملة أميل الى الفظاظة . غير أن لقاءاتها أصبحت عادةً له بعد ذلك ، وأوشكت أن تصير حاجة ، حتى ان الزمن بدا له طويلاً أثناء الأيام القليلة التى لم تستطع أن تزوره خلالها بسبب مرض ألمّ بها . انها فى أيام الأعياد تراه من وراء القضبان الحديدية ، أو تراه فى غرفة هيئة

الحرس التى يؤتى به اليها بضع دقائق . وأما فى الأيام الأخرى فانها تراه أثناء الشغل ، فى ورشات العمل ، أو فى مصانع الآجر ، أو فى المستودعات القائمة على ضفاف نهر ايريتش * . أما عنها هى فلم تزد على أن أشارت الى أنها استطاعت أن تخلق لنفسها فى المدينة علاقات تسندها وتشد أزرها ؛ وأنها تعمل فى الخياطة ، وأنها لقلة الخياطات فى المدينة أصبحت بيوت كثيرة لا تستغنى عنها . ولكن صونيا أسقطت أن تذكر أن راسكولنيكوف قد أمكنه ، بفضلها هى ، أن يحظى بشىء من العطف عليه ، فكانت سلطات السجن تراعيه بعض المراعاة ، وكانت الأشغال التى يُعهد بها اليه غير شاقة كثيراً ، الخ ...

ثم وصل النبأ الذى يقول (وقد استطاعت دونيا أن تستشعر شيئًا من القلق ومن العصبية فى الرسائل الأخيرة التى بعثت بها صونيا) وصل النبأ الذى يقول ان راسكولنيكوف يتحاشى جميع السجناء الآخرين ، وان هؤلاء لا يحبونه كثيراً ، وانه يظل صامتاً ساعات بكاملها ، وان شحوبه يزداد شيئاً بعد شىء .

وكتبت صونيا أخيراً فى ذات يوم أن راسكولنيكوف مريض جداً ، وانه يعالج الآن فى مستشفى المعتقل ...

الفصل الثاني

لقد كان مريضاً منذ مدة طويلة ، ولكن لا الاهوال التى تشتمل عليها حياة السجين ، ولا الاشغال الاجبارية الشاقة ، ولا الطعام الردىء ، ولا حلق شعر الرأس ، ولا الأسمال البالية ، لا شيء من هذا كله هو الذى حطَّمه ! لا ، لا ، ان جميع هذه الأنواع من البؤس والعذاب لا تعنيه فى شيء ! بالعكس : لقد كان يرضيه أن يكون عليه ان يعمل عملاً مضنياً . انه حين يرهقه العمل الجسمى يستطيع على الأقل أن يتمتع ببضع ساعات من نوم هادىء مريح . أما الطعام الردىء ، أما حساء الكرنب ذاك المليء بالصراصير ، فانه لا يهمه البتة . ألم يتفق له ، حين كان طالباً ، فى أول عهده بالحياة ، أن لا ينعم حتى بمثل هذا الطعام ؟ واما ملابسه فقد كانت تكفل له الدفء ، وهى تلائم طراز الحياة الجديدة التى يحياها ، فماذا يريد أكثر من ذلك ؟ وأما الأغلال الحديدية ، فقد كان لا يكاد يحسُّها ... وهل يخجل من أن يكون شعر رأسه محلوقاً ؟ يخجل ؟ يخجل أمام من ؟ أمام صونيا ؟ ان صونيا تخاف منه وتخشاه ، فكيف يمكن أن يشعر أمامها بخجل ؟

ومع ذلك كان يشعر بخجل حتى أمام صونيا (صونيا التى ينتقم منها فيعاملها باحتقار وفظاظة) . ولكن هذا الخجل أو هذا الشعور بالخزى والعار لا يرجع لا الى أن شعر رأسه محلوق ، ولا الى أنه مكبَّل بالسلاسل ! ان ما كان يشعره بالخزى والعار ، وما كان يؤلمه ايلاماً شديداً

حتى جعله مريضا ، انما هو الجراح التى اصيبت بها كبرياؤه ! اه ...
لقد كان يمكن أن يسعد أشد السعادة لو كان فى وسعه أن يتهم نفسه وان يدين نفسه ! لو استطاع ذلك اذن لكان يمكن أن يحتمل الخزى وان يحتمل العار ! ولكنه مهما تشتد قسوته فى الحكم على نفسه ، فان ضميره المتصلب كان لا يجد فى ماضيه أية خطيئة فظيعة ، اللهم الا أن تكون هذه الخطيئة هى أن « ضربته قد أخفقت » . صحيح أن هذا يمكن ان يقع لجميع الناس ، ولكنه كان يشعر بالخزى من أنه ضاع بمثل هذه العماوة ، بمثل هذه الحماقة ، بمثل هذا الانهيار ، ومن أنه خاصة مضطر ، هو راسكولنيكوف ، أن ينصاع لحكم هذا القدر الأعمى ، وأن يخضع امام « سخافة » هذا الحكم ، اذا هو أراد أن يسترد الهدوء والسكينة .

ان قلقاً لا موضوع له ولا غاية له فى الحاضر ، وان تضحية متصلة غير منقطعة فى المستقبل ، ذلك هو كل ما ينتظره هنا على هذه الأرض ! فأية فائدة اذن فى أن يقول لنفسه انه بعد ثمانى سنين لن يكون عمره قد تجاوز اثنتين وثلاثين سنة ، وانه ما يزال يستطيع أن يستأنف حياته ؟ علام يحيا ؟ ما هى الغاية التى ما يزال يستطيع أن يلاحقها ؟ ما هو الهدف الذى ما يزال يمكنه أن يسعى اليه ؟ ماذا يفيده وماذا يجديه أن يستمر فى الصراع والكفاح ؟ أيحيا من أجل أن يوجد ؟ ألا انه كان طوال حياته مستعداً لأن يضحى بوجوده ألف مرة فى سبيل فكرة ، فى سبيل امل ، بل وفى سبيل تحقيق نزوة ! ان الوجود فى حد ذاته لم يكن كافياً له فى يوم من الأيام ، وانما هو كان يطمع دائماً فى أكثر من ذلك ! ولعل عنف رغباته كان وحده السبب فى أنه ظن نفسه انساناً يجوز له ما لا يجوز لغيره .

ولو أن القدر قد اختار له الندامة ـ الندامة المحرقة التى تحطم القلب وتطرد النوم ـ الندامة التى تجعل صاحبها يفكر فى الانتحار شنقاً

أو غرقاً ، اذن لكان سعيداً كل السعادة ! ان ألم الدموع حياة ! ولكن راسكولنيكوف لم يكن نادماً على اقترافه جريمته .

لو كان نادماً لاستطاع أن يغضب من حماقته ، كما غضب فى الماضى من أفعاله الشاذة الغبية التى قادته الى المعتقل . أما وقد أصبح الآن فى المعتقل ، وأصبح يستطيع أن يفكر فى تلك الأفعال « بحرية تامة » ، فانه لا يراها شاذة ولا سخيفة الى الحد الذى تراءى له قبل ذلك فى اللحظة المحتومة المشئومة .

انه الآن يقول لنفسه : « هل فكرتى أغبى من تلك الأفكار والنظريات التى تجرى فى هذا العالم وتتصادم منذ أن وُجد العالم ؟ يكفى أن نواجه الأمور بنظرة موضوعية واسعة متحررة من الأحكام السابقة اليومية حتى ندرك أن فكرتى ليست غريبة الى ذلك الحد من الغرابة الذى قد يتوهمه بعضهم ... ايه ايها الجاحدون ، أيها الفلاسفة التافهون ، لماذا تتوقفون فى منتصف الطريق ؟ غريب ! لماذا تبدو لهم فعلتى شاذة الى هذا الحد ؟ ألأنها جريمة ؟ ماذا تعنى كلمة : جريمة ؟ ماذا تعنى كلمة : جريمة ؟ ان ضميرى مرتاح . صحيح أن جريمة قد وقعت . صحيح ان نص القانون قد اختُرق وأن دماً قد سُفك . فاذا كان الأمر أمر تقيد بنص القانون ، فاقطعوا رأسى ، ولنسكت ! ولكن يجب أن نذكر فى هذه الحالة أن كثيراً من العظماء الذين أحسنوا الى الانسانية ولم يكونوا قد ورثوا السلطة وراثة وانما استولوا عليها استيلاءً ، كان ينبغى أن تقطع رءوسهم منذ خطوا خطواتهم الأولى . ان الفرق الوحيد بين هؤلاء وبينى هو أنهم قد احتملوا ثقل أفعالهم ، فكان ذلك « مبرراً » لهم ، أما أنا فلم أقدر على الصمود . اذن كان لا يحق لى أن أجيز لنفسى القيام بتلك المحاولة » .

تلك هي الخطيئة الوحيدة التي كان راسكولنيكوف يؤاخذ نفسه عليها : وهي أنه لم يستطع أن يصمد ، بل مضى يشي بنفسه ويعترف بجريمته .

وكان يتألم أيضاً حين يخطر بباله هذا السؤال : لماذا لم ينتحر حينذاك ؟ لماذا ، حين مال على ماء النهر ، آثر أن يشي بنفسه ؟ هل يمكن أن يكون حب البقاء قوياً هذه القوة ، يصعب التغلب عليه الى هذه الدرجة من الصعوبة ؟ ان سفدريجايلوف الذي كان يخشى الموت مع ذلك ، قد استطاع أن ينتصر على حب الحياة هذا !

كان راسكولنيكوف يعاني من القاء هذه الأسئلة عذاباً شديدا ، ولا يستطيع أن يدرك أنه حين مال على ماء النهر فلعله آوجس في نفسه وفي اقتناعاته كذباً . انه لم يدرك أن هذا التوجس يمكن ان يكون علامة انعطاف مقبل في حياته ، وبشارة انبعاث جديد ، واستباقاً لتصوره الحياة في المستقبل تصوراً آخر . وانما كان يتوهم أن هذا من ثقل الغريزة ، وعطالة الحركة ، وأنه من عجزه وجبنه لم يستطع التغلب على تلك العطالة . وكان اذ يلاحظ رفاقه في الأسر يدهشه ما يراه من أنهم جميعاً يحبون الحياة حباً قوياً ، ويظلون متعلقين بها تعلقاً شديداً . حتى لقد كان يبدو له أنهم يحبونها ويظلون متعلقين بها أكثر مما يمكن أن يحبوها وأن يتعلقوا بها لو كانوا أحراراً طلقاء . ومع ذلك ما أقسى انواع العذاب ، وما أشد ضروب الآلام التي كان يعانيها بعضهم ! المتشردون مثلاً .. هل يمكن حقاً أن يكون هذا الشأن الكبير كله وأن تكون تلك القيمة العظيمة كلها ، في نظرهم ، لشعاع من شمس ، لغابة متوحشة ، لنبع ماء بارد في قرارة الأحراج (نبع رآه أحدهم منذ ثلاث سنين ، فاصبحت صورته تلازمه حتى لكأنها صورة لقاء حب) ، لنبتة عشب خضراء طالعة حول ذلك النبع ، لطير يغرّد في الأدغال ؟

وأمعن راسكولنيكوف فى الملاحظة مزيداً من الامعان ، فكانت تفجأ بصره ، وتثير دهشته أمثلة أعسر فهماً من مثال المتشردين أيضاً . ان فى المعتقل أموزاً كثيرة كانت تفوته ، وكان هو لا يريد أن يراها على كل حال . لقد كان يعيش غاضاً بصره خافضاً عينيه ان صح التعبير . كان النظر الى ما حوله يثير اشمئزازه . غير أن أشياء كثيرة أخذت تفاجئه ، فاذا هو ، على غير علم منه تقريباً ، قد بدأ يرى ما لم يكن يدور فى خلده أو يخطر بباله قبل ذلك . ولعل ما أدهشه أكثر من أى شىء آخر هو الهوّة الرهيبة ، هذه الهوّة التى لا يمكن اجتيازها ، أعنى الهوّة التى تفصله عن هؤلاء الناس . لكأنهم ينتمون الى أجناس مختلفة . انهم ينظرون بعضهم الى بعض نظرة شك وعداوة . وكان راسكولنيكوف يعرف ويفهم الأسباب العامة لهذا التنافر ، ولكنه لم يتصور فى يوم من الأيام أن هذه الأسباب يمكن أن تبلغ هذا المبلغ من العمق والقوة .

وكان فى السجن أيضاً سجناء بولنديون نُفوا الى سيبيريا لجرائم سياسية . فكان هؤلاء ينظرون الى الآخرين نظرتهم الى رعاع ، ويعاملونهم معاملة احتقار * ، غير أن راسكولنيكوف كان لا يستطيع أن يشارك فى هذا الرأى . ذلك أنه كان يدرك بوضوح أن هؤلاء الرعاع كانوا من نواحٍ كثيرة أذكى من أولئك البولنديين أنفسهم . وكان بين الروس أيضاً اناس يزدرون رفاقهم ، ولا سيما ضابط سابق ، ورجلان مثقفان . وقد ادرك راسكولنيكوف خطأ هؤلاء أيضاً .

ومع ذلك لم يكن يحبه أحد ، وكان الجميع يتحاشونه ويتجنبون صحبته . حتى لقد انتهى بهم الأمر الى كرهه . لماذا ؟ ليس يدرى ! كان بعضهم ، وهم أشد اجراماً منه ، يحتقرونه ويستهزئون به ، ويجعلون جريمته محل سخرية وتفكه وضحك ! كان هؤلاء يقولون له :

ـ أنت سيد ! فهل شأنك أنت أن تقتل بضربات ساطور ؟ ليس هذا شأن سيد من السادة !

وفى الأسبوع الثانى من « الصوم الكبير » ، جاء دوره للاعتراف والتناول مع سائر أفراد قسمه . فعل كما فعل الآخرون ، فذهب الى الكنيسة وصلّى . ولكن مشاجرة شبّت فى ذات يوم دون أن يعرف لماذا. لقد هجم عليه الجميع باندفاع شديد ، وأخذوا يصيحون قائلين له :

ـ أنت ملحد ! أنت لا تؤمن بالله ! يجب قتلك !

انه لم يكلمهم فى يوم من الأيام عن الله ، ولا عن الدين ؛ ولكنهم يريدون قتله بحجة انه ملحد لا يؤمن بالله . لم يعترض بشىء ، وصمت. ووثب أحد السجناء نحوه مهتاجاً مسعوراً . فانتظره راسكولنيكوف هادئاً صامتاً . لم يحرك ساكناً ، لم يتزحزح من مكانه ، ولا اختلجت قسمة من قسمات وجهه . واستطاع أحد الحراس أن يبادر فيحول بين المهاجم وبين راسكولنيكوف فى اللحظة التى همّ فيها الرجل أن يفتك بالضحية ، فلو تأخر الحارس لحظة واحدة لسال الدم .

هناك مسألة أخرى لم يستطع راسكولنيكوف أن يجد لها حلا : لماذا عطفوا جميعاً على صونيا وأحبوها ؟ كانت صونيا لا تحاول أن تحظى بمودتهم . وكانوا لا يلقونها الا فى مناسبات نادرة ، أثناء العمل ، حين تجىء لتراه دقيقة واحدة . ومع ذلك عرفوها جميعاً ، وعرفوا جميعاً انها تبعته « هو » ، وعرفوا جميعاً كيف تعيش وأين تسكن . وهى لا تهب لهم مالاً ، ولا تقدم اليهم خدمات خاصة . مرةً واحدة ، فى عيد الميلاد، حملت هديةً الى السجن كله : فطائر صغيرة وخبزاً أبيض. غير أن علاقات قوية قد انعقدت بينهم وبين صونيا شيئاً بعد شىء : أصبحت تتولى . عنهم كتابة رسائل الى أسرهم ، وتضع الرسائل فى البريد. والى صونيا انما كان أقرباء السجناء من الرجال والنساء الآتين من المدينة ، يعهدون بالأشياء أو

حتى بالأموال التي يريدون ارسالها اليهم ، باشارة من السجناء أنفسهم • كانت نساء السجناء وخليلاتهم يعرفن صونيا ويسعين اليها في بيتها، وكان السجناء ، اذا هي ظهرت في ورشات العمل لترى راسكولنيكوف ، أو صادفت فريقا منهم ذاهباً الى العمل، يرفعون لها طاقياتهم احتراماً ويحيونها جميعا • كان هؤلاء الجفاة الغلاظ الذين دُمغوا بالدناءة يقولون للفتاة الهزيلة النحيلة الضعيفة : « ماتوتشكا » ، صوفيا سيميونوفنا ، أنت أمنا الحنون الشفوق » • وكانت صونيا ترد على تحيتهم ، وتبتسم لهم ، وكانوا جميعا يحبون أن يروها تبتسم • كانوا يحبون حتى طريقتها في المشي ، فاذا مرت التفتوا يتابعونها بنظراتهم • كانوا لا يقولون فيها الا مدحاً ، كانوا يمدحون حتى ضآلتها • أصبحوا لا يعرفون كيف يمدحونها مزيداً من المدح • واذا مرضوا ذهبوا يلتمسون عندها علاجاً •

قضى راسكولنيكوف في مستشفى السجن نهاية الصوم الكبير كلها، وأسبوعاً آخر • فلما أصبح في دور النقاهة تذكر الأحلام التي راها حين كان راقداً يعاني سكرات الحمى والهذيان • لقد حلم ، طوال مدة مرضه، بأن العالم كله قد كتب عليه أن تلم به مصيبة رهيبة لا عهد بمثلها من قبل ، مصيبة وفدت من آخر آسيا ونزلت بأوروبا ؛ وأن جميع الناس سيهلكون الا قلة قليلة مختارة • ان طفيليات من نوع جديد قد ظهرت ، واختارت أجسام البشر مسكناً لها • غير أن هذه المخلوقات المكروسكوبية كائنات مزودة بعقل وارادة ؛ والبشر الذين تدخل أجسامهم يصبحون على الفور مجانين مسعورين ، ولكنهم يعدون أنفسهم على ذكاء عظيم لم يزعمه البشر لأنفسهم في يوم من الأيام قط ؛ فهم يعتقدون بأنهم معصومون من الزلل مبرأون من الخطأ ، في أحكامهم ، في نتائجهم العلمية ، في مبادئهم الأخلاقية والدينية • ان قرى ومدناً وأمماً بكاملها قد سرت اليها هذه العدوى ، وفقدت العقل • أصبح أفرادها يعيشون في حالة جنون ، لايفهم

بعضهم عن بعض شيئاً ، لا يفهم أحد منهم عن أحد شيئاً ؛ كل واحد يؤمن بأنه الانسان الوحيد الذى يمتلك الحقيقة ، فاذا نظر الى الآخرين تألم وبكى ولطم صدره وعقف يديه لوعةً وحسرة • اصبح الناس لا يستطيعون أن يتفاهموا على ما ينبغى أن يعد شراً وما ينبغى ان يعد خيراً • أصبحوا لا يستطيعون لا أن يدينوا ولا أن يبرّئوا • أصبح البشر يقتل بعضهم بعضاً تحت سيطرة بغض لا معنى له وكره لا يُفهم • هم يجتمعون ليؤلفوا جيوشاً كبيرة ، فما ان يدخلوا معركة حتى يندلع الشقاق فى جميع الصفوف فتنحل الجيوش ، ويأخذ الجنود يهجم بعضهم على بعض ، فيعض بعضهم بعضاً ، ويذبح بعضهم بعضاً ، ويلتهم بعضهم بعضاً• فى المدن يدق ناقوس الخطر طوال النهار ، ويُستنفر الشعب • ولكن من الذى يستنفره ؟ ولماذا يستنفره ؟ ذلك أمر لا يعرف أحد عنه شيئاً • الرعب يستبد بجميع الخلق • المهن العادية هجرها أصحابها ، لأن كل واحد يعرض آراءه واصلاحاته ، وما من أحد يستطيع أن يتفق مع أحد• الزراعة أُهملت اهمالاً تاماً • هنا وهناك يجتمع أناس فيشكلون جماعات ويتفاهمون على القيام بعمل مشترك ، متعاهدين بأغلظ الأيمان على ان لا يفترقوا قط ، ولكنهم ما يلبثون أن يشرعوا فى شىء لا يمت بأية صلة الى ما عقدوا النية على القيام به ، ثم ما يلبثون أن يأخذوا فى التراشق بالتهم ، ثم ما يلبثون أن يقتتلوا فيذبح بعضهم بعضاً • وتشتعل الحرائق ، وتظهر المجاعة • كل شىء يصيبه الدمار ، وجميع الناس تقريباً يهلكون • البلاء ماينفك يشتد قوة ويتسع مدى• ولا ينجو من البلاء الا عدد قليل من الناس : هم الأنقياء الأطهار ، المصطفون الأخيار ، الذين كتب عليهم ان ينشئوا جنساً جديداً وأن يقيموا حياة جديدة ، أن يجددوا الأرض ويطهّروها • غير أن أحداً لم ير أولئك الأفراد فى مكان ، ولا سمع أقوالهم ولا سمع أصواتهم •

ان الشيء الذى كان يعذب راسكولنيكوف هو أن ذلك الهذيان السخيف يترجَّع فى ذاكرته ترجعاً أليماً ، وأن الانطباع الذى خلفته تلك الأحلام لا يمَّحى الا ببطء •

وجاء الأسبوع الثالث بعد عيد الفصح • أصبحت الأيام دافئة مضيئة، هى أيام ربيع حقاً • فُتحت نوافذ المستشفى لأول مرة (هى نوافذ ذات قضبان حديدية يحرسها خفير) •

طوال مدة مرض راسكولنيكوف لم يُسمح لصونيا أن تزوره الا مرتين ، وقد اضطرت فى المرتين كلتيهما أن تطلب اذناً بذلك ، فكان يقتضيها هذا أن تقوم بمساعٍ معقدة جداً • لكنها كثيراً ما كانت تأتى الى فناء المستشفى ، ولا سيما عند هبوط الليل لتنظر الى النوافذ من بعيد ، ولتمكث فى الفناء بضع دقائق أحياناً •

ففى مساء من الأماسى ، وكان راسكولنيكوف قد أبلَّ من مرضه تقريباً وكان نائماً ، صحا من نومه واقترب من النافذة مصادفة ، فاذا هو يلمح صونيا تحت ، قرب الباب • كانت واقفة وكأنها تنتظر شيئاً • فشعر راسكولنيكوف بما يشبه أن يكون طعنةً نفذت فى قلبه • فارتعش واسرع يبتعد عن النافذة •

ولم تجىء صونيا فى غد ، ولا جاءت بعد غد • فأدرك راسكولنيكوف عندئذ أنه ينتظرها فارغ الصبر • وأُخرج أخيراً من المستشفى ، فلما عاد الى السجن علم من السجناء أن صوفيا سيميونوفنا مريضة ، وأنها ملازمة غرفتها لا تبرحها •

قلق راسكولنيكوف قلقاً شديداً ، وأرسل يسأل عنها • فلم يلبث أن عرف أن مرضها ليس خطيراً • وحين علمت صونيا من جهتها أنه يتألم من غيابها عنه وأنه قلق عليها بعثت اليه برسالة كتبتها بالقلم الرصاص، وفيها تنبئه بأن صحتها تحسنت كثيراً ، وأن مرضها لم يكن الا برداً بسيطاً ،

وأنها ستمضى تراه أثناء العمل فى أقرب فرصة. فكان قلب راسكولنيكوف يخفق خفقاناً موجعاً أثناء قراءته هذه الرسالة .

كان النهار فى هذه المرة كذلك مضيئاً دافئاً . ومضى راسكولنيكوف الى العمل على ضفاف النهر فى ساعة مبكرة من الصباح هى الساعة السادسة ، وذلك تحت سقيفة أعدّ عندها فرن لطبخ الرخام . لم يرسل الى هذا المكان الا ثلاثة عمال من السجناء . فأما الاول فقد عاد مع المراقب الى السجن ليجىء بالأدوات ، وأما الثانى فكان يهيىء الحطب للفرن . وخرج راسكولنيكوف من تحت السقيفة واقترب من الشاطىء وجلس على احدى عوارض الخشب المصطفة قرب المبنى وأخذ يتأمل النهر العريض المقفر . ان المرء يرى ، من على هذه الضفة العالية ، مساحةً واسعة . ووصل من الضفة الأخرى غناء لا تكاد تسمعه الأذن . ان هناك فى المرج الذى تغمره الشمس ، والذى يمتد على مدى البصر ، خيام ، بدو رحّل تبدو للناظر اليها نقاطاً صغيرة سوداء . هناك الحرية . هناك يعيش بشر آخرون ، يختلفون كل الاختلاف عن البشر الذين يعيشون هنا . هناك يبدو الزمان متوقفاً كأن عصر ابراهيم وقطعانه لمّا ينصرم بعد . كان راسكولنيكوف ينظر الى ذلك المشهد جالساً فى مكانه جامداً على وضعه ، لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره . لقد انزلق فكره نحو الاسترسال فى الأحلام .والاستغراق فى التأمل دون أن يحس. أصبح لا يفكر فى شىء ، واجتاح نفسه حزنٌ كبير .

وفجأة وقفت صونيا أمامه . كانت قد دنت منه دون ضجة ، وهاهى ذى تجلس الى جانبه . ان برودة الصباح لم تكن قد خفّت بعد . وكانت صونيا ترتدى معطفاً فقيراً ، وتضع الشال الأخضر . وكان وجهها الناحل المصفر ما يزال يحمل آثار مرضها الأخير . ابتسمت له فى رقة ولطف ، مرحة الهيئة ، ولكنها على عادتها لم تمدد اليه يدها الا خجلة وجلة .

كانت دائماً تمد اليه يدها على خجل ووجل ، وكانت فى بعض الأحيان لا تمدها اليه البتة ، كأنما هي تخشى أن يدفعها عنه • كان يبدو عليه دائماً أنه يتناول يدها بنفور وامتعاض ، وكان يبدو عليه دائما انه يستقبل الفتاة باستياء ومضض • وفى بعض الأحيان كان يصرّ على الصمت فى عناد طوال مدة الزيارة • وكانت صونيا فى بعض الأيام ترتعش امامه، ثم تنصرف وفى نفسها حزن عظيم ولوعة شديدة • أما فى هذه المرة فان يديهما لم تحاولا أن تنفصلا • ألقى راسكولنيكوف عليها نظرة سريعة خاطفة ، ولم يقل شيئاً ، وخفض عينيه • كانا وحيدين • لم يكن يراهما أحد • كان الحارس قد ابتعد لحظة •

لا يدرى راسكولنيكوف نفسه كيف حدث ما حدث ، ولكنه يعرف أنه شعر فجأة بشيء يستبد به ويلقيه على قدمي صونيا • لقد ارتمى راسكولنيكوف على قدمي صونيا ، وبكى ، وضمّ ركبتيها الى صدره • ذُعرت فى أول الأمر ذعراً شديداً ، وغشيت وجهها صفرة كصفرة الموتى • ثم نهضت فجأة ، ونظرت اليه مرتجفة مرتعشة • ولكنها سرعان ما أدركت كل شيء بنظرة واحدة • أخذت عيناها تشعان بسعادة لا حدود لها • لقد فهمت ـ وليس يخالجها الآن فى ذلك أي شك ـ فهمت انه يحبها ، وأنه يحبها حباً ليس له نهاية ، وأن تلك الدقيقة قد آن اوانها أخيراً •••

أرادا أن يتكلما ، ولكنهما لم يستطيعا • امتلأت عيناهما دموعاً • كانا كلاهما أصفرى الوجه هزيلى الجسم ؛ ولكن هاهو ذا فجر مستقبلٍ جديد يسطع فى وجهيهما منذ الآن شوقاً كاملاً الى حياة جديدة • لقد بعثهما الحب بعثاً جديداً ، ان قلب كل منهما يفجّر فى قلب الآخر ينابيع حياة لا تنضب •

قررا أن ينتظرا وأن يذعنا • ما يزال عليهما أن يقضيا سبع سنين

أخرى فى سيبيريا • صحيح أنهما سيتحملان أثناء هذه المدة آلاماً لا تطاق، ولكنهما سيسعدان أيضاً سعادة ليس لها حدود ! لقد انبعث راسكولنيكوف بعثاً جديداً • هو يعرف ذلك • هو يحس ذلك بكيانه كله• وهى، أليست تحيا بحياته ، أليست حياتها من حياته ؟

فى ذلك المساء ، فى القاعة المقفلة ، فكّر راسكولنيكوف فى صونيا وهو راقد على مضجعه • وبدا له ، فى ذلك المساء أيضاً ، أن جميع السجناء ، جميع أعدائه القدامى ، نظروا اليه نظرة جديدة ، ورأوه باعين أخرى • لقد خاطبهم ، فأجابوه برقة ونعومة • هو يتذكر ذلك الآن ، ولكن أليس هذا هو ما يجب أن يكون : أليس يجب أن يتغير كل شىء بعد اليوم ؟

فكّر فى صونيا • فتذكر أنه قد عذّبها دائماً ، وأنه كان يمزق قلبها تمزيقاً • تذكر وجهها الصغير الشاحب الذى نحل نحولاً شديداً ، ولكن هذه الذكريات أصبحت لا تكاد تعذبه • فهو يعرف أنه سيكفر الآن عن جميع تلك الآلام بحب لا نهاية له •

ثم ، ما قيمة تلك الآلام الماضية « كلها » الآن ؟ ان كل شىء ، حتى الجريمة التى ارتكبها ، وحتى الحكم الذى صدر عليه ، وحتى النفى الذى يقاسى منه ، ان كل هذا هو الآن أثناء هذه الاندفاعة الأولى ، يبدو له نسيجاً من وقائع خارجية غريبة عنه لا تتعلق بشخصه ولا تتناوله هو • ثم ان راسكولنيكوف كان فى ذلك المساء عاجزاً عن أن يفكر تفكيراً طويلاً متصلاً ، وعن أن يركّز فكره على نقطة بعينها ، وعن أن يحل مشكلة من المشكلات على هدى وبصيرة : فانما هو يشعر باحساسات ، ولا شىء غير الاحساسات • لقد حلت الحياة محل الجدل ؟ وفى أعماق نفسه اصبح ينضج شىء آخر تماماً •

وكان تحت وسادته انجيل ، فتناوله بحركة آلية • كان هذا الكتاب

لصونيا ، وهو بعينه الكتاب الذى قرأت له فيه فى الماضى قصة انبعاث لعازر. كان راسكولنيكوف يقدّر فى أول عهده بالسجن أن صونيا ستصدّع رأسه بالكلام على الدين ، وأنها ستحدثه عن الانجيل بغير انقطاع، وأنها ستحاول أن تفرض عليه كتباً دينية . فما كان أشد دهشته حين لم تطرق هذا الموضوع فى يوم من الأيام ، لا ولا عرضت عليه أن تجيئه بالانجيل قط. انه هو الذى طلب منها ذلك بعد مرضه ، فحملت اليه الكتاب دون ان تقول كلمة واحدة .

وهو لم يفتحه فى تلك المرة ، لكن فكرة قد اجتازت رأسه الآن بسرعة كوميض البرق : « هل يمكن أن لا يكون ايمانها الآن هو ايمانى ؟ أو هل يمكن على الأقل أن لا تكون عواطفها وأشواقها هى عواطفى وأشواقى ؟ ... » .

وقد اضطربت صونيا اضطراباً شديداً طوال ذلك اليوم هى أيضاً ، وألمّ بها المرض مرة أخرى فى تلك الليلة . ولكن سعادتها كانت تبلغ من القوة ، وكانت تبلغ من المباغتة ، أنها تكاد ترعبها ! سبع سنين ، سبع سنين « فقط » !

ومرّت بهما فى البداية ساعات نشوة كانا فيها كمن يعد السنين السبع أياماً سبعة . كان راسكولنيكوف ما يزال يجهل أن هذه الحياة الجديدة لن توهب له بغير تضحية ، وأن عليه أن يدفع ثمنها غالياً ، وأن يحصل عليها بجهود شاقة قاسية مضنية ...

ولكن هنا تبدأ قصة أخرى ، قصة تجدد انسان شيئاً بعد شيء ، قصة انبعاثه رويداً رويداً ، قصة انتقاله من عالم الى عالم آخر متدرجاً ، قصة معرفته بواقع جديد كان يجهله حتى ذلك الحين كل الجهل .

هذا يصلح أن يكون موضوع قصة جديدة ، أما قصتنا التى نرويها الآن فهى تنتهى هنا .

حواش

الصفحة

٨ ★ « وأنه ما من انســـان ••• » : وردت فى النص بالــلاتينية Nihil humanum ، وهى اشارة الى جملة تيرانس المشهورة: «انا انسان ، فلا شىء مما هو انسانى بغريب عنى» •

١٢ ★ عهد « النقد المفيد » : الاشارة هنا الى مطلع الستينات من القرن التاسع عشر بروسيا ، حين أخذت الجرائد تهـــاجم العادات الاجتماعية وتندد ببعض عيوب النظام السياسى ، فى جو يسوده شىء من الحرية • ففى شهر كانون الثانى (يناير) من سنة ١٩٦١ ، نددت عدة صحف ، ومنها جريدة «الزمان» التى كان يصدرها دوستويفسكى ، نددت بسيد اســـمه كوزليانينوف ضرب بالسوط امرأة ألمانية فى القطار •

١٢ ★ « الفاحشة التى تحدثت عنهـا مجلة العصر » : فى عام ١٨٦١ نددت المجلة الأسبوعية «العصر» ، (فى رســـالة من مراسلها بمدينة برم) ، بالتمثيلية الايمائية الخليعة التى قدمتها سيدة قرأت قصة بوشكين « ليالى مصر » التى يصف فيهـا غراميات كليوباتره • وقد انبرت مجلة أخرى ترد على مجلة « العصر » وتسفه تدخلهـــا هذا • وقـد شارك دوستويفسكى فى تلك المساجلات (فى مجلته «الزمان») ، متهكما على الصحفيين الذين يأخذون مأخذ الجد أمرا تافها لا قيمة له •

١٥ ★ « أنت تعلم أن قوانين الاصلاح الزراعى لم تمسسنا بسوء » : ان قانون الاصلاح الزراعى الذى صدر فى ١٩ نيسان (أبريل) سنة ١٨١٦ ، لم يهب للأقنان الذين أعتقهم الا الاراضى الصالحة للزراعة التى كانوا يزرعونها هم ، أما الغـابات والمراعى فقد ظلت ملكا للسادة •

١٥ ★ « مطاعم دوسو » : هو فندق ومطعم فرنسى كان له صيت ذائع حينذاك ، وقد أقام فيه دوستويفسكى زمنا • والحـديث عن

« الحلقات » اشارة الى مكان بجزيرة ايلاجين اسمه «الحلقة» ، وهو محل ملاه ومباهج وملذات شعبية ٠

١٦ ★ « يونانى صغير من نييجين » : فى عام ١٧٧٩ نزح عدد كبير من يونان القرم فى عهد كاترين الثانية ، الى مدينة نييجين ، وهى مدينة صغيرة من مدن أكرانيا لا تبعد كثيرا عن مدينة كييف ٠ وقد أصبح كثير من هؤلاء اليونان تجارا اغنياء ٠

١٧ ★ « لأن خمرتى فسدت » : بالفرنسية فى الأصل ، والمقصود بالعبارة أن الرجل أصبح لا يميل الى الشراب ٠

١٧ ★ « بيرج » : ألمانى كان يعلم رقص الباليه ويتعاطى الطيران بالمنطاد ، وقد نظم فى بطرسبرج نزهات طيران بالمنطاد ٠

١٨ ★ « محطة مالايا ــ فيشيرا » : محطة تقع على خط موسكو ــ سان بطرسبرج ، وتبعد عن العاصمة مسافة ١٥٠ كيلومترا ٠

٢٠ ★ « آنيسكا » : تصغير تحقيرى لاسم آنيسيا ٠

٢١ ★ « فيلكا » : تصغير تحقيرى لاسم فيليب ٠

٢٩ ★ من المعروف أن دوستويفسكى كان معجبا أشد الاعجاب بلوحة رافائيل « مادونا سيكستين » التى تأملها كثيرا بمدينة درسدن، وكان يحتفظ فى حجرة مكتبه بصورة منسوخة منها ٠

٢٩ ★ « عمارة فيازمسكى » : عمارة كبيرة بمدينة سان بطرسبرج كانت فيما مضى ملكا لأسرة الأمراء فيازمسكى ٠ وهى فى العهد الذى تجرى فيه أحداث الرواية يسكنها أناس فقراء جدا ، وتضم بيوتا مشبوهة ومأوى ليليا ٠

٤٦ ★ ان اسم رازوميخين مشتق من كلمة رازوم الروسية ومعناها «العقل» ٠ وهنا يتظاهر لوجين بنسيان الاسم ، ويحل محله اسم رازودكين ، المشتق من كلمة رازودوك الروسية ومعناها « الذكاء » ٠

٦٢ ★ « ضعيف » : وردت الكلمة بالالمانية فى الأصل Schwach ويجب أن يشار هنا الى ان مشروع رازوميخين الذى يدور عليه

الكلام في هذه المحادثة يعبر عن المتاعب التي لقيها دوستويفسكى نفسه من الناشرين ، وعن الحلم الذى كان يحلمه دائما وهو أن يتولى نشر مؤلفاته بنفسه ٠

٨٩ ★ « أين الحديث عن قيام لعازر ؟ » : يجب أن نتذكر أن قاضى التحقيق كان قد سأل راسكولينكوف هل هو يؤمن بقيام لعازر (الجزء الثالث ، الفصل الخامس) ٠

٨٩ ★ « الفرسخ السابع » : كان يوجد ، في أوديدلنايا ، على مسافة سبعة فراسخ من سان بطرسبرج ، مستشفى للمجانين ؛ فكان يطلق اسم «الفرسخ السابع» على ذلك المستشفى ، كما يطلق اسم «العباسية» فى القاهرة على مستشفى الامراض العقلية الموجود فى حى العباسية بها ٠

٩٠ ★ « سترى الله » : اشارة الى الآية الواردة فى انجيل متى «طوبى للأطهار ، لأنهم سيرون الله» (الاصحاح الخامس ، ٨) ٠

٩١ ★ انجيل يوحنا ، الاصحاح الحادى عشر ٠

٩٧ ★ انجيل مرقص (الاصحاح العاشر ، ١٤)

١٠٠ ★ كان مفوضو التحقيق جزءا من الشرطة ، فلما صدرت قوانين الاصلاح القضائى فى ٢٠ تشرين الثانى (نوفمبر ١٨٦٤) ، حل محلهم قضاة التحقيق التابعون لوزارة العدل ٠

١٠٩ ★ « ذلك واجب لا مفر منه » : بالفرنسية فى الأصل ٠

١١٠ ★ « فستتغير أسماؤنا على الأقل » : اشارة الى قوانين الاصلاح القضائى المرتقب (راجع حاشية الصفحة ١٠٠) ، وهذا يحدد لأحداث الرواية تاريخا هو تموز (يوليو) ١٨٦٤ ٠

١١٣ ★ « بعد معركة ألما راسا » : هى معركة ٢٠ ايلول (سبتمبر) ١٨٥٤ التى خسرها الجيش الروسى فانكفأ الى سيباستوبول أثناء حملة القرم ٠

١١٦ ★ اشارة الى بداية حملة ١٨٠٥ حين أفسد نابوليون خطط «المجلس الحربى الأعلى (هوفكريسجرات) بالنمسا ، وأسر فى أولما الجنرال النمسوى ماك هو وجيشه ٠ ان تلك الاحداث قد وصفها

تولستوى فى روايته الكبرى «الحرب والسلم» (الجزء الاول) الذى بدأ نشره فى مجـلة « الرسول الروسى » (كانون الثانى وشباط ــ يناير وفبراير) عند بدء نشر الاجزاء الاولى من رواية الجريمة والعقاب هذه ·

١٣٢ ★ « بقســـاوسة ونواب » : من الأنظمة المتبعة فى بداية تحقيق قضـــائى أن يؤتى بقسيس يحلف المتهم أمامه اليمين ؛ ويؤتى أيضا بنائب من نواب طبقته الاجتماعية ليعرف بهويته ·

١٥٥ ★ « متجر كنوب أو المتجر الانجليزى » : متجران شهيران فى قلب سان بطرسبرج تباع فيهما أدوات الترف الراقية ·

١٥٧ ★ « يسمون تقدميين أو عدميين أو مصلحين » : كانت هذه الأسماء الثلاثة تطلق على التيار الراديكالى السائد بين الشبيبة فى ذلك الأوان · ومن المعروف أن اسم «العدمى» انما أوجده تورجنيف وكان قد استعمله فى روايته « الآباء والابناء » ·

١٦٨ ★ «لقد مضينا فى اعتقاداتنا الى مدى أبعد ··» : ان ليبنرياتنيكوف يعرض هنا آراء بيزاريف (١٨٤٠ ــ ١٨٦٨) المتطرفة الموغلة فى الراديكالية ؛ وهو لهذا يهاجم الناقد دوبروليوبوف (١٨٣٦ ــ ١٨٦١) الذى كان كذلك راديكاليا جدا ؛ ويهاجم الناقد الكبير بيلنسكى (١٨١١ ــ ١٨٤٨) ·

١٧٠ ★ « بل انه لأكبر كثيرا من عمل رجل مثل رافائيل أو بوشكين» : ان ليبزياتنيكوف يبـــالغ فى آراء بيزاريف وتلميذه زايتسيف اللذين كانا يدافعان عن مذهب المنفعة ، ويناديان بأن حذاء من الحذائين أنفع للمجتمع من شكسبير أو بوشكين ·

١٨٥ ★ « السيدة الليوتنانة » : باللغة البولندية فى الأصل ·

٢١٠ ★ بالألمانية فى الأصل ·

٢٢١ ★ « العرض العام للمنهج الوضعى » : كتاب ظهر ببطرسبرج سنة ١٨٦٦ يضم ترجمات مقالات علمية مادية الاتجاه لعدد من **المؤلفين:** فيرشوف ، كلود برنار ، موليشوت ، تيودور بيدريت («الدماغ والفكر ») ، آدولف فاجنر (« ما يدل عليه الاحصاء من أن الافعال التي تبدو حرة فى الظاهر انما هى حتمية فى الواقع ») ·

٢٦٣ ★ « سيميون زاخارتش » : هو مارميلادوف ·

٢٦٤ ★ « باولين ميخائيلوفنا » : هى بوليتشكا ·

٢٦٥ ★ لعل الاستاذ العالم المقصود هنا هو الطبيب الفرنسى فرانسوا لوريه (١٧٩٥ ـ ١٨٥١) مؤلف كتاب «المعالجة النفسية للجنون» (١٨٣٨)

٢٧٣ ★ « لينيا ، انصبى قامتك » : بالفرنسية فى الأصل ·

٢٧٥ ★ « الفارس المتـــكىء على سيفه » : هذه هى الكلمات الاولى من قصيدة « فراق » للشاعر الرومانسى باتيوشكوف ؛ وقد لحنت القصيدة سنة ١٨١٤ ، وراجت رواجا كبيرا ·

٢٨٢ ★ « لك ماس ولآلى » : مطلع اغنية عاطفية من شعر هاينى ·

٢٨٢ ★ « تحت أشعة الشمس الحـــارة ، بوادى داغستان » : مطلع قصيدة للشاعر ليرمونتوف عنـوانها «الحلم» (١٨٤١) ، وفيها يرى الشاعر نفسه فى واد بالقوقاز ، يحتضر وحيدا ·

٢٩٥ ★ « جزيرة كرستوفسكى » : جزيرة من أنأى جزر نهر نيفا ·

٣٠٧ ★ «الدكتور ب ···» · اغلب الظن أنه الدكتور سرجى بتروفتش بوتكين (١٨٣٢ ـ ١٨٨٩) ، وهو طبيب شهير فى ذلك الأوان·

٣١٣ ★ « دون جدوى » : بالألمانية فى الأصل ·

٣١٦ ★ « الى صباح غد » : بالألمانية فى الأصل ، (Morgen früh) وهو تعبير ألمانى يستعمل بمعنى قولنا : « دعك من هذا الكلام! لا أصدقك ! » ·

٣٥١ ★ « كما يدل على ذلك اسمه ···» : كانت تطلق أسماء جديدة على أبناء رجال الدين حين دخولهم مدارس اللاهوت ، وكانت هذه الأسماء تستمد احيانا من مزايا روحية ، فاسم دوبروليوبوف

يعنى « محب الخير » ، واسم زدرافوزميسلوف يعنى « السديد الرأى»، واسم رازوميخين مشتق من كلمة رازوم ومعناها العقل ·

٣٥١ ★ « باراشا » : تصغير اسم براسكوفيا ·

٣٥٩ ★ «الطبيعة والحقيقة» : بالفرنسية فى الأصل · ان سفدريجايلوف يحب استعمال عبارات فرنسية ويكثر منها فى حديثه ·

٣٩٠ ★ « فوكسهول » : كانت هذه الكلمة الانجليزية فى أول الأمر اسما لضاحية من ضواحى لندن أصبحت حديقة ملاه شعبية فى القرن الثامن عشر · وقد أنشئت حدائق مشابهة لها فى القارة الاوربية أطلق عليها هذا الاسم نفسه ؛ ومنها حديقة فى روسيا قريبة جدا من محطة بافلوفسك ؛ وقد أصبحت الكلمة فى نطقها الروسى الآن (فوكسال) تعنى كل محطة من محطات السكة الحديدية ·

٣٩٣ ★ « فلاديمير » : العاصمة القديمة لروسيا فى القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر ، وهى تقع شمال شرق موسكو · وقد أصبحت الطريق الذى تسلكه قوافل السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، للوصول الى سيبيريا ؛ وهكذا فان « طريق فلاديمير» تعنى «المعتقل» ·

٤٠٨ ★ ان رواية الكسندر دوما « غادة الكاميليا » (١٨٤٨) والمسرحية التى تحمل هذا الاسم نفسه قد راجتا رواجا كبيرا جدا فى روسيا وأصبح اسم «كاميليا» يعنى البغى الراقية ·

٤١١ ★ « المبنى الذى يعلوه برج » : هو ثكنة لرجال الاطفاء ؛ وخوذة آخيل هى الخوذة التى يحمون بها رءوسهم ·

٤٤١ ★ « عدم » : باللاتينية فى الأصل nihil est ، اشارة الى المذهب العدمى ·

٤٤١ ★ « مذكرات ليفنجستون » : ان كتاب ليفنجستون «استكشافات فى داخل أفريقيا الوسطى » قد ظهر بلندن سنة ١٨٦٥ · وقد ترجمه الى الروسية وأصدره سنة ١٨٦٧ ، نيقولا ستراخوف صديق دوستويفسكى ·

٤٤٢ ★ لم تكن مدرسة الطب بمدينة بطرسبرج احدى كليات الجامعة ، كما فى المدن الاخرى ، وانما كانت «أكاديمية للطب والجراحة» مستقلة ٠

٤٥٨ ★ « على ضفاف نهر ايريتش » : ان هذا النهر الذى تقع على شاطئه مدينة أومسك ، قد سبق أن ذكره دوستويفسكى فى كتابه « ذكريات من منزل الأموات » ٠

٤٦٣ ★ الاشارة هنا الى السجناء البولنديين السياسيين الذين سبق أن تحدث عنهم دوستويفسكى فى كتابه « ذكريات من منزل الاموات» ٠ ألم يقل أحدهم ، وهو ميريكى ، ألم يقل عن المجرمين العاديين : «اننى أكره قطاع الطرق هؤلاء !» ٠

فهـــرس

الصفحة

الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الأول

الفقراء
المثل
قلب ضعيف

المجلد الثاني

نيتوتشكا نزفانوفنا
الليالي البيضاء
بروخارتشين
الجارة
المهرج
السارق الشريف
البطل الصغير
قصة في تسع رسائل
شجرة عيد الميلاد والزواج
زوجة آخر، ورجل تحت السرير

المجلد الثالث

قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها
حلم العم

المجلد الرابع

مذلون مهانون

المجلد الخامس

ذكريات من منزل الأموات

المجلد السادس

في قبوي
قصة اليمة
ذكريات شتاء عن مشاعر صيف
التمساح

المجلد السابع

المقامر
الزوج الابدي

المجلد الثامن

الجريمة والعقاب -١-

المجلد التاسع

الجريمة والعقاب -٢-

المجلد العاشر

الأبله -١-

المجلد الحادي عشر

الأبله -٢-

المجلد الثاني عشر

الشياطين -١-

المجلد الثالث عشر

الشياطين -٢-

المجلد الرابع عشر

المراهق -١-

المجلد الخامس عشر

المراهق -٢-
قصص

المجلد السادس عشر

الاخوة كارامازوف -١-

المجلد السابع عشر

الاخوة كارامازوف -٢-

المجلد الثامن عشر

الاخوة كارامازوف -٢-

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتبًا اجتماعيا يدافع عن "الفقراء" "والمذلين المهانين" فإذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقًا أخذ بعضهم يشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التى يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكى إنما تسبر أعمق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكى كان رائدًا سبق نظرية التحليل النفسى التى أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، فى كل نفس.."

الكسندر ف سولوفييف